تفسير القرآن العظيم

للإمام الحافظ

عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي

طبعة مجودة قوبلت على أوثق النسخ الخطية والمطبوعة، محققة الأحاديث والآثار، مخرجة القراءات، ذات فوائد منتخبة وفهارس علمية.

تحقيق الأحاديث والآثار

للشيخ عادل بن يوسف العزازي

قام على الخدمة العلمية للكتاب ومقابلة النسخ

أبو الفداء أحمد بن بدر الدين — أبو مجدي جمال بن السيد الأبيض

أبو محمد محمد بن إبراهيم بن شحاتة — أبو طلحة شاهر بن سيد زكي

إشراف ومتابعة

أبي الفداء أحمد بن بدر الدين بن عبد العزيز

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٧٣١٢

الطبعة: الأولى

التاريخ: ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع

المكتبة الإسلامية

الإدارة والفرع الرئيس
القاهرة ٣٢ ش صعب صالح عين شمس الشرقية
ت: ٢٤٩٩١٢٥٤ - ٢٤٩٠٠٦٠٦ فاكس ٢٤٩٠٠٨٠٨
فرع الأزهر: ١ ش البيطار خلف جامع الأزهر درب الأتراك ت/٢٥١٠٨٠٠٤ محمول: ٠١١١٢٧٢٨٧٢٥
E-mail: islamya2005@hotmail.com
facebook Alslamya.2005

تفسير

القرآن العظيم

المجلد الأول

المقدمة - البقرة ٢٠٢

فريق العمل في الكتاب

شارك في إعداد هذه الطبعة بعون الله وتوفيقه

الإشراف العام

أبو الفداء أحمد بن بدر الدين بن عبد العزيز.

تحقيق الأحاديث والآثار

أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي.

فريق البحث العلمي

(نسخ المخطوطة، وجمع الفوائد، والمراجعة اللغوية، وشرح الغريب، والفهرسة العلمية)

أبو مجدي جمال بن السيد علي الأبيض. — أم مجدي بنت حمزة الشقري.

أبو الفداء أحمد بن بدر الدين. — أبو طلحة شاهر بن السيد زكي.

أبو محمد محمد بن إبراهيم بن شحاتة. — أبو يوسف طه بن محمد بن عبد الكريم.

زياد أبو السفود بن عبد الحميد. — أم باسم بنت محمد صابر.

أبو عمار ياسر بن عبد التواب رحمه الله. — أبو هريرة أحمد الشامي.

أبو محمد أحمد الأحمدي. — أبو حمزة أحمد بن محمد بن عبد الفتاح.

أبو عبد الله محمد بن سعد. — أبو سعد معاذ بن إبراهيم.

آدم البودعيس. — عبد الرحمن نصر. — عبد العظيم صقر.

أحمد عبد الله. — مصطفى الدرعي.

الصف والإخراج الفني

أبو معاذ ومصطفى إبراهيم عادل. — محمد أحمد عبد الفتاح.

محمد السيد عبد الغني. — عماد أحمد عرابي.

شعبان عقيل محمد. — إمام صبحي محمد.

مقدمة قسم التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجهم، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

ثم أما بعد:

فإنَّ كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأُ ما قبلنا، وخبرُ ما بعدنا، وحُكْم ما بيننا، من ابتغى الهُدى في غيره أضله الله، ومن ابتغى العز في غيره أذله الله، فهو حَبْلُ الله المتين، وهو الذِّكْرُ الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وصدقت الجن إذ قالت لما سمعته: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢]، من قال به صَدَقَ، ومن عَمِلَ به أُجر، ومن حَكَمَ به عَدَل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم، وهو الذي تكفَّل الله ﷻ لمن قرأه وعَمِل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يَشقى في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه].

ولما كان الأمر يتعلَّق بالفلاح في الدنيا والفوز في الآخرة فإنَّ فَهْمَ القرآنِ والعلمَ بمعانيه وتدَبُّر آياته - أعلى ما صُرفتْ إليه هِمَمُ الراشدين، وأُنفقتْ فيه أوقاتُ المستبصرين، «ولذلك فإنَّ علمَ التفسير من أَجَلِّ العلوم وأفضلِها وأشرفِها باعتبار أساسه وتاريخه وموضوعه وغايته، فأساسه: القرآن الكريم والحديث الشريف، وتاريخه: أول العلوم الإسلامية، وموضوعه: كلام الله تعالى. وغايته: معرفة معانيه وإدراك مراميه»[1].

ويسرُّنا في قسم التحقيق بـ«المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع بالقاهرة» أن نقدِّم لقرائنا الكرام في العالم الإسلامي من أهل العلم وطلبته والخواصِّ والعوامِّ: هذه الجوهرة الثمينة، والتحفة العلمية النفيسة، والطبعة الفريدة من:

---

(١) «الصحيح المسبُور من التفسير بالمأثور» أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين (١/ ٥).

تفسير القرآن العظيم
للإمام الحافظ
عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي
المتوفى ٧٧٤هـ

❁ **وهي طبعة تتميز - بعون الله عز وجل - عما سبقها بأمور، منها:**

(١) **مقدمة علمية دقيقة موسعة احتوت علىٰ بيان منهجي لتحقيق المخطوطات، وما اعتراه من خلل في العصور المتأخرة.**

(٢) **دقة ضبط النص بالاعتماد علىٰ أوثق النسخ الخطية**، والطبعات العلمية المعتمدة لتفسير ابن كثير، مع تحديد أوجه الصواب والخطأ، والنص عليها في كل موطن، وذلك بالرجوع للمصادر الأصلية من دواوين السنة وكتب الرِّجال والجرح والتعديل، لتدارك ما وقع في المخطوطات من أخطاء علىٰ وَفْق الأسس العلمية المتعارف عليها في هذا الشأن من قواعد الترجيح بين أوجه الاختلاف، وقد توفر علىٰ هذا الجهد فريق من الباحثين المتمرسين.

(٣) **دراسة حديثية إسنادية دقيقة للأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة والمقطوعة** الواردة في «تفسير ابن كثير» مع الحكم عليها بما يناسبها من أحكام القبول والرد، وقد أنجز هذا العمل فضيلةُ الشيخ/ **أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي** حفظه الله، وقد سبق نشر ما يتعلق بالأحاديث المرفوعة وحدها في كتاب مستقل بعنوان «هداية المستنير بتخريج أحاديث تفسير ابن كثير»[(١)].

(٤) **تخريج القراءات** التي أوردها الحافظ ابن كثير رحمه الله، مع الاقتصار في هذا الباب علىٰ بيان الشاذِّ منها والمتواتر، وبيان من قرأ بكل قراءة، وهو عمل الشيخ **أبي محمد محمد بن إبراهيم بن شحاتة** حفظه الله[(٢)].

(٥) **حاشية علمية نفيسة** تتضمن دررًا وفوائد ومُلَحًا مكملة لما حواه تفسير ابن كثير، جمعناها من زُبَد كلام كبار أئمة التفسير من السلف والخلف والعلماء المعاصرين.

(٦) **شرحٌ لغريب المفردات** الواردة في كلٍّ من النصوص الحديثية أو الآثار الموقوفة أو عبارات المفسرين أو في كلام الحافظ ابن كثير نفسه، فهي باختصار شرح لكل المفردات الغريبة الواردة في هذا التفسير العظيم، وقد اعتمدنا في معظم هذا الباب علىٰ «طبعة الشعب» مع الرجوع إلىٰ المعاجم وكتب الغريب متىٰ تَطَلَّب الأمر ذلك.

---

(١) وللتعرُّف علىٰ الجهد المبذول في هذا الصَّدد انظر «مقدمة تحقيق الأحاديث» بقلم فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي حفظه الله (ص: ٥، ٦).

(٢) وانظر للتعرُّف تفصيلًا علىٰ ما قام به «مقدمة القراءات» التي كتبها بقلمه (ص١٢٠).

(٧) فهارس علمية وافية مُبَوَّبة تُعْتَبَرُ دراسة شاملة لتفسير ابن كثير بأكمله، قمنا فيها باستخراج ما ورد في هذا التفسير العظيم من فوائد ومسائل علمية في فروع: (العقيدة، واللغة، وأصول الفقه، والفقه، والأحكام الحديثية، والجرح والتعديل ونقد الرجال، والإجماعات، والترجيحات التفسيرية، والقواعد الكلية، ...).

(٨) التعليق علىٰ أوهام الحافظ ابن كثير.

وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل في البند (٩) في الكلام عن عملنا في هذا الكتاب.

وغرضنا من هذا العمل أن نقوم بخدمة هذا الكتاب العظيم خدمة علمية فريدة من نوعها نستضيء فيها بجهود السابقين، ونتحاشىٰ ما نراه أخطاءً علمية منهجية في طبعاتهم، ونضيف خطواتٍ ولَبِنَاتٍ نافعة مما فتح الله به وأعان عليه.

❁ وقد اقتصرنا في المطبوع علىٰ ست نسخ رأينا أنها الأفضل في الباب، وهي:

(١) طبعة **«الشعب»**، وتقع في [٨] مجلدات من القطع الكبير، تحقيق: عبد العزيز غنيم، محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا.

(٢) طبعة **«دار طيبة»** وتقع في [٨] مجلدات من القطع الكبير تحقيق: سامي محمد السلامة، وقد اطلعنا علىٰ طبعتها الأولىٰ والثانية بعد التعديلات.

(٣) طبعة **«أولاد الشيخ»**، وتقع في [١٥] مجلدًا، تحقيق: مجموعة من الباحثين.

(٤) طبعة **الشيخ المحدِّث أبي إسحاق الحويني** حَفِظَهُ اللهُ، وهي غير كاملة.

(٥) طبعة **«دار ابن الجوزي - السعودية»**، وهي أحدث الطبعات العلمية للكتاب، وتقع في [٧] مجلدات قطع كبير، تحقيق: أ.د. حكمت بن بشير ياسين، وقد ضمنها عمل الشيخ أبي إسحاق في بدايتها، وعلىٰ الرغم من كونها آخر الطبعات صدورًا وبرغم ما بُذِلَ فيها من جهد - إلا أن كَمَّ الأخطاء بها يفوق ويتعدَّىٰ الطبعات السابقة لها!!

(٦) **مختصر تفسير ابن كثير**، للشيخ العلامة أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ، المسمىٰ بـ«عمدة التفسير» ويقع في [٣] مجلدات، طبعة «دار الوفاء».

❁ ونؤكد -هنا- أن هذه الطبعات لها السبق والفضل، ولولا ما بذل فيها من جهود علمية ما كان لطبعتنا أن تخرج بهذا الشكل، وأي نقد نوجهه إلىٰ أيِّ طبعة منها غرضه بيان الناحية العلمية دون تنقص لأصحابها -نعوذ بالله من هذا السبيل- وغرضه كذلك بيان سبب إقدامنا علىٰ إخراج الكتاب بعدهم، وليس معنىٰ النقد أننا لم نستفد منهم، بل استفدنا من أوجه الصواب عندهم، وتجاوزنا ما ظهر لنا أنه من أوجه القصور العلمي، فنحن مع استفادتنا منها لم نَقُم بالنَّقل كحاطب ليلٍ لا يدرك

حقيقة ما ينقل من صواب أو خطإ، وأما الاستفادة من السابقين فهو نهج المحققين، بل يُؤخذ علىٰ اللَّاحق عدمُ استفادته من السابق له في أوجه الصواب، ولكن كما قيل: «كم ترك الأول للآخر».

❁ وحتىٰ يتسنَّىٰ لنا التمهيد للكتاب تمهيدًا علميًّا رصينًا: نُعرِّف فيه بالمصنِّف، وبالكتاب، وقيمته العلمية، وبمنهج المصنِّف فيه، ونعلِّق فيه علىٰ الجهود السابقة في تحقيق الكتاب، وذكر ما تميزت به ومآخذنا عليها، وبمنهجنا الذي اتبعناه في تحقيقه، والخدمة العلمية التي قدمناها في طبعتنا هذه وتميزنا بها: فإننا نتناول في هذا التمهيد النقاط الرئيسية التالية:

(١) ترجمة الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) التعريف بـ«تفسير القرآن العظيم» ومنهج الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فيه.

(٣) المكانة العلمية للكتاب عند أهل العلم وعنايتهم به.

(٤) موقف الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ من الإسرائيليات.

(٥) صفاء عقيدته السلفية، وكون تفسيره من أمهات تفاسير أهل السنة والجماعة.

(٦) مذهبه الفقهي واتباعه للدليل.

(٧) شمولية تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وتضمنه لفوائد ومباحث عظيمة في فروع علمية شتىٰ.

(٨) التعليق علىٰ جهود السابقين ومناهجهم في تحقيق الكتاب: (مزايا ومآخذ منهجية).

(٩) منهجنا وعملنا في تحقيق الكتاب وخدمته.

(١٠) مبحثٌ في التعريف بأهم مصطلحات علوم القرآن الواردة بكثرة في هذا الكتاب العظيم.

(١١) تراجم موجزة لأعلام المفسرين من الصحابة والتابعين والأئمة.

(١٢) وصف نسخ الكتاب المخطوطة.

وبعد: فدونك أيها القارئ الكريم، والعالم الجليل، والطالب النبيل: جُهْد المُقِلِّ، لم ندخر طاقة في ضبط نصه وتنقيحه وخدمته، استفدنا فيه من كل من سبقنا، وتجنبنا -بحسب طاقتنا وبحسب ما بدا لنا- ما وقعوا فيه من أخطاءٍ علمية، وحاولنا نفع اللاحقين، ولا ندعي في ذلك السلامة من الخطأ، ولكننا نقطع ببذل قصارىٰ الجهد والسعي في تحصيل صحة المقصد، فإن وجدت خيرًا فسل الله لنا القبول، ولا تبخل بدعوة صالحة لإخوانك، وإن وجدت خللًا -وهي سيما البشر- فالتمس لنا عُذرًا، ورجاؤنا أن نكون قد أضفنا لبنة جديدة في سبيل تحقيق هذا الكتاب النفيس وخدمته.

فاللهم حَسِّن نياتنا، وارزقنا الإخلاص، وانفعنا بهذا العمل في يوم اللقاء، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وصلِّ اللهم علىٰ إمام المتقين وخاتم المرسلين وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

(١)

ترجمة الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ والتعريف به

١- نسبه ومولده:

هو الإمام الحافظ، المحدِّث، المؤرِّخ، فقيه المفسرين، ومفسر المحدِّثين، وخطيب الشاميين، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن درع القرشي الدمشقي الشافعي.

ولد الحافظ ابن كثير في مطلع القرن الثامن الهجري سنة سبعمائة وواحد من الهجرة (٧٠١ هـ)، وقيل: قبلها بسنة، وقيل: بعدها بسنة، وذلك بقرية «مِجْدَل» من أعمال بصرىٰ من منطقة سهل حوران -درعا حاليًا- في جنوب دمشق.

٢- نشاته وبيته:

نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علمٍ ودينٍ، إذ اتسم آل بيت الحافظ ابن كثير بقيادة المنابر ورفع لواء العلم، فأبوه: عمر بن حفص أخذ عن النواوي والفزاري، وقد تسلَّم أحد المنابر آنذاك، وكان خطيب قريته، وتوفي أبوه سنة (٧٠٣هـ) وعمره ثلاث أو أربع سنوات، ولم تطل إقامته بعد وفاة والده بقرية «مِجْدَل»، وانتقلت الأسرة إلىٰ دمشق في سنة (٧٠٧هـ)، وخلف والده أخوه الأكبر عبد الوهاب، وكانت دمشق يومئذ إحدىٰ حواضر العلم ومراجع المعرفة، وكان العلماء يَفِدُون إليها من كل فجٍّ ليتزودوا من معارف علمائها، وينهلون عن مواردهم، وكان هذا هو أحد الحوافز التي أغرت الحافظ بالبحث، ودفعته إلىٰ القراءة والدرس، وثمَّ سبب آخر، وهو: ما كان لأبيه وإخوته وسائر آل بيته من قَدَمٍ راسخة في العلم، ودعامة ثابتة في عالم الثقافة، فقد كان أبوه فقيهًا أديبًا شاعرًا مُبَرِّزًا في كثير من ثقافات عصره، وكان أخوه عبد الوهاب من الأساتذة الأكفاء الذين قرأ عليهم وتلقىٰ عنهم، وكان قد بذل جهدًا كبيرًا في رعاية هذه الأسرة بعد فقدها لوالدها، وعنه يقول الحافظ ابن كثير: (قد كان لنا شقيقًا، وبنا رفيقًا شفوقًا، وقد تأخرت وفاته إلىٰ سنة (٧٥٠هـ) فاشتغلتُ علىٰ يديه في العلم فيسر الله منه ما تيسر وسهل منه ما تعسر). انظر: «البداية والنهاية».

ومن آل بيته: زوجته الصالحة زينب بنت الإمام الحافظ شيخ المحدِّثين جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي (ت٧٤٢)، وكانت حافظة لكتاب الله، قرأت علىٰ أمها عائشة بنت إبراهيم ابن صديق، وأمها قرأت علىٰ الشيخة الصالحة العابدة الناسكة فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية.

٣- طلبه للعلم:

بدأ الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ طلبه للعلم بحفظ القرآن الكريم، وأتمَّ حفظه قبل أن يتجاوز العاشرة من عمره، إذ ختم القرآن الكريم في سنة (٧١١هـ) علىٰ الشيخ المقرئ المحدِّث أبي عبد الله محمد بن حسين بن غيلان الحنبلي (ت٧٣٠هـ).

ثم أخذ عن الشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش بن اللباد (ت٧٢٤هـ) فقرأ عليه شيئًا من القراءات، وأخذ علم الحديث الشريف مبكرًا جدًّا علىٰ شيخه برهان الدين الدمياطي قيل: وهو في الرابعة أو الخامسة من عمره، ويكون بذلك قد بدأ بتعلم كلام الله تعالىٰ وسنة النبي ﷺ، فبدأ بتعلم هذين الوحيين ليمتلأ قلبه بالنور والهداية، وهذا بتوفيق الله له وتدبير أمره ورعايته بعد فقد والده، ثم أخذ ينهل مبكرًا من كبار دمشق في شتىٰ العلوم، ومنها أنه تدرب علىٰ الكتابة بالأخذ عن الشيخ نجم الدين موسىٰ بن علي الجيلي ثم الدمشقي (ت٧١٦هـ)، وأخذ صحيح البخاري عن الشيخ عيسىٰ بن المطعم (ت٧١٦هـ)، كما سمع صحيح مسلم من الوزير العالم محمد بن محمد الغرناطي الأندلسي في تسعة مجالس علىٰ الشيخ العلامة نجم الدين العسقلاني سنة (٧٢٤هـ)، وغير ذلك.

وقد صاحب هذه القراءة والحفظ للقرآن والسنة سلوكًا عمليًّا تحرك في شخصيته منذ صغره؛ حيث أدرك شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) ولازمه وحظي بالتفقه عليه، وتأثر بشخصيته وعلمه وعمله، ومن هنا تتجلىٰ شخصية الحافظ ابن كثير منذ ريعان شبابه بسبب تأثره بذلك الإمام المجدد، قال الحافظ ابن حجر: «وأخذ عن ابن تيمية ففُتِنَ بحبه وامتحن لسببه» انظر: «الدرر الكامنة» (١/ ٣٧٤).

٤- شيوخه: ومن أبرزهم:

١- شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- الحافظ الإمام أبو الحجاج يوسف المزي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣- الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤- الشيخ أبو العباس أحمد الحجار الشهير بـ «ابن الشحنة» رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥- الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الفزاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- الإمام كمال الدين أبو المعالي محمد بن الزملكاني رَحِمَهُ اللَّهُ.

٧- الشيخ بهاء الدين القاسم بن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ.

٨- محمد بن جعفر اللباد، شيخ القراءات رَحِمَهُ اللَّهُ.

وغيرهم من الأعلام الكثير والكثير.

٥- تلاميذه: ومن أبرزهم:

١ - الحافظ علاء الدين بن حجي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢ - محمد بن محمد خضر القرشي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣ - شرف الدين مسعود الأنطاكي النحوي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤ - ابنه محمد بن إسماعيل بن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥ - الإمام ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦ - محمد بن أبي محمد بن الجزري، شيخ علم القراءات رَحِمَهُ اللَّهُ.

وغيرهم أيضًا من الأعلام الكثير والكثير.

٦- مؤلفاته:

تعددت مؤلفات الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في علوم القرآن، وفي السنة وعلومها، وفي الفقه وأصوله، وفي التاريخ والمناقب، وقد كُتب له قبول عجيب في تصانيفه حتىٰ إنه لا يكاد يخلو بيت مسلم من بعضها خاصة كتاب التفسير وكتاب البداية والنهاية.

❑ **فأما علوم القرآن:**

١ - «تفسير القرآن العظيم»، وهو هذا السفر الذي بين أيدينا. ٢- «فضائل القرآن».

❑ **وأما السنة وعلومها:**

١ - «أحاديث الأصول». ٢- «مسند أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

٣- «مسند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ». ٤- «جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن».

٥- «شرح صحيح البخاري». ٦- «اختصار علوم الحديث».

٧- «التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل».

٨- «الأحكام الصغرىٰ في الحديث». ٩- «تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فقه الشافعية» وغيرها.

❑ **وأما الفقه وأصوله:**

١- «الأحكام الكبرىٰ». ٢- «كتاب الصيام».

٣- «أحكام التنبيه». ٤- «جزء في الصلاة الوسطىٰ».

٥- «جزء في فضل يوم عرفة». ٦- «المقدمات في أصول الفقه». وغيرها.

❑ **وأما في التاريخ والمناقب:**

١- «البداية والنهاية». ٢- «السيرة النبوية»، وهي مطبوعة باسم: «الفصول في سيرة الرسول».

٣- «طبقات الشافعية». ٤- «الواضح النفيس في مناقب محمد بن إدريس».

٥- «مناقب ابن تيمية». ٦- «مقدمة في الأنساب».

٧- عقيدته:

إذا نظرت في مؤلفات الحافظ ابن كثير وطالعت مصنفاته رأيته سَلَفِيَّ الهوىٰ، سُنِّي النزعة؛ وهذا لكونه من آل بيت شُغِفُوا بالحديث، وبرزوا فيه، وعكفوا عليه رواية ودراية، وانظر إلىٰ أساتذته ومشايخه الذين أخذ عنهم وتتلمذ عليهم، فقد كان أكثرهم من الحفاظ وأئمة الأثر.

وهذا أستاذه العظيم علم الأعلام وحجة الإسلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فقد لازمه، وانقطع إليه ووعىٰ عنه، واقتفىٰ سَنَنَه، واضطهد من أجله، وأوذي في سبيل نصرة منهجه: منهج أهل السنة، فقد كان إمام المدرسة السلفية في عصره، وأرفع أهل زمانه صوتًا بالعودة إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ، وأكثرهم عداءً للصوفية وغيرهم من المتكلمين وأصحاب النِّحَل.

وسيأتي بيان منهجه السلفي في تفسيره والرد علىٰ شبهات المغرضين من هذه المقدمة بإذن الله تعالىٰ[1].

٨- ثناء العلماء عليه:

كان ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ من أجلِّ علماء عصره، وأثنىٰ عليه معاصروه ومَنْ بعدَهُم الثناء الجم وهو أكثر من أن يحصىٰ، ولكن نذكر طرفًا مما ورد ونقل إلينا:

* **فقد قال الحافظ الذهبي** في (طبقات شيوخه): «وسمعت مع الفقيه المفتي المحدث، ذي الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي ... سمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة، له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرَّج وناظر وصنف وفسر وتقدم». انظر: «طبقات الحفاظ» للذهبي (٤/ ٢٩).

* **وقال عنه أيضًا**: «الإمام المفتي المحدِّث البارع، فقيه متفنن، محدِّث متقن، مفسِّر نقَّال». انظر: «المعجم المختص» للذهبي.

* **وقال العلامة ابن ناصر الدين**: «الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، عَلَم المفسرين». انظر: «الرد الوافر» (١/ ٩٢).

* **وقال ابن تغري بردي**: «لَازَمَ الاشتغال، ودَأَب وحصَّل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والحديث والعربية وغير ذلك، وأفتىٰ ودرَّس إلىٰ أن توفي». انظر: «النجوم الزاهرة».

* **وقال ابن حجر العسقلاني**: «كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد

---

(١) أفردنا الكلام عن عقيدة الحافظ ابن كثير في هذه المقدمة، انظر (ص٢٧).

في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته». انظر: «الدرر الكامنة» (١/ ٣٧٣).

* وقال الداودي: «أقبل علىٰ حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والتعليل والرجال والتاريخ حتىٰ برع في ذلك وهو شاب». انظر: «طبقات المفسرين» (١/ ١١٢).

* وقال ابن حبيب: «إمام روي التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنَّف، وأطرب الأسماع بالفتوىٰ وشنَّف، وحدَّث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلىٰ البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير». انظر: «شذرات الذهب» (٨/ ٣٩٨) لابن العماد.

* وقال العيني: «كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع وجمع وصنَّف ودرَّس وحدَّث، وألَّف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، قليل النسيان، وانتهىٰ إليه رياسة علم التاريخ والحديث والتفسير، وله مصنفات عديدة مفيدة». انظر: «النجوم الزاهرة» (١١/ ٩٨).

* وقال تلميذه ابن حجي: «أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئًا كثيرًا من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيهًا جيد الفهم، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، ونظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به علىٰ كثرة ترددي إليه إلا وأفدت منه». انظر: «شذرات الذهب» (٨/ ٣٩٩).

* وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني: «صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر، وأفتىٰ، ودرس، وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل». انظر: «ذيل تذكرة الحفاظ» للحسيني.

٩- وفاته ورثاؤه:

توفي الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة، في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة بدمشق.

وقد ذكر ابنُ ناصر الدِّين أنه: «كانت له جنازة حافلة مشهورة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية».

وقد قيل في رثائه رَحِمَهُ اللَّهُ:

لِفَقْدِكَ طُلَّابُ الْعُلُومِ تَأَسَّفُوا ... وَجَادُوا بِدَمْعٍ لا يَبِيدُ غَزِيرِ
وَلَوْ مَزَجُوا مَاءَ الْمَدَامِعِ بِالدِّمَا ... لَكَانَ قَلِيلًا فِيكَ يَا ابْنَ كَثِيرِ

(٢)

التعريف بـ«تفسير القرآن العظيم» ومنهج الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فيه

لنا (بحمد الله ومِنَّته) مدة تجاوزت الخمس سنوات في خدمة هذا الكتاب العظيم، تَوفَّر عليه تحقيقًا وضبطًا وفهرسةً واستخراجًا لفوائده فريقٌ علميٌّ متكاملٌ متنوعُ المشاربِ والتخصصاتِ، وذلك لإخراجه في هذه الصورة التي بين أيدينا الآن، وهي مدة نحسبها كافية للتعرُّف علىٰ منهج الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره، والوقوف علىٰ ميزات الكتاب، حتىٰ نَصِفَ لك الكتاب ونعرفك به ونذكر لك ميزاته ... ولكننا وقبل أن نسرد ذلك قمنا بقراءة وتصفُّح ما كُتب عن هذا الكتاب من العلماء السابقين في هذا المجال ممن كانت لهم عناية بكتب التفسير عمومًا، وتفسير ابن كثير علىٰ وجه الخصوص، فوجدنا كلماتهم عن الكتاب ووصفه جاءت شافية ماتعة -لا سيما بعد أن خبرنا الكتاب ودرسناه- إلا من بعض الأمور التي تحتاج إلىٰ مزيد من الإضاءة، وهو ما سنذكره عقب إيراد كلام العلماء عن وصف «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

- **يقول الدكتور محمد حسين الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الماتع «التفسير والمفسرون»**: (...«تفسير ابن كثير» من أشهر ما دُوِّن في التفسير المأثور، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد «كتاب ابن جرير». اعتنىٰ فيه مؤلفه بالرواية عن مفسري السلف، ففَسَّر فيه كلام الله تعالىٰ بالأحاديث والآثار مسندةً إلىٰ أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحًا وتعديلًا، وقد طُبع هذا التفسير مع «معالم التفسير» للبغوي، ثم طُبع مستقلًّا في أربعة أجزاء كبار.

- وقد قدَّم له مؤلفه بمقدمة طويلة هامة، تعرَّض فيها لكثير من الأمور التي لها تعلُّق واتصال بالقرآن وتفسيره، ولكن أغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذي ذكره في مقدمته في أصول التفسير[1].

- ولقد قرأت في هذا التفسير فوجدته يمتاز في طريقته بأنه يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، وإن أمكن توضيح الآية بآية أخرىٰ ذكرها وقارن بين الآيتين حتىٰ يتبيَّن المعنىٰ ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، وهذا الكتاب أكثر ما عُرف من كتب التفسير سردًا للآيات المتناسبة في المعنىٰ الواحد[2].

---

(١) بل إن شئت فقل: هو نص كلام شيخ الإسلام، وانظر: «شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية» شرح/ د. مساعد بن سليمان الطيار (٢٦٧- ٢٩٩).

(٢) وهو ما يجعله مندرجًا تحت ما يُسمَّىٰ بـ«التفسير الموضوعي» أيضًا.

- ثم بعد أن يفرغ من هذا كله، يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي تتعلَّق بالآية، ويُبيِّن ما يحتج به وما لا يحتج به منها، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومن يليهم من علماء السلف.

- ونجد ابن كثير يرجح بعض الأقوال علىٰ بعض، ويضعف بعض الروايات ويصحح بعضًا آخر منها، ويُعَدِّل بعض الرواة ويجرح بعضًا آخر، وهذا يرجع إلىٰ ما كان عليه من المعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال.

- وكثيرًا ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم، وتفسير ابن عطية، وغيرهم ممن تقدمه.

- **ومما يمتاز به ابن كثير**: أنه يُنَبِّه إلىٰ ما في التفسير من منكرات الإسرائيليات، ويُحذِّر منها علىٰ وجه الإجمال تارة، وعلىٰ وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرىٰ ...

- **كما نلاحظ علىٰ ابن كثير أنه يدخل في المناقشات الفقهية**، ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام، وإن شئت أن ترىٰ مثالًا لذلك فارجع إليه عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (١٨٥) من سورة البقرة: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ الآية، فإنه ذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية، وارجع إليه عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٢٣٠) من سورة البقرة أيضًا: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ الآية، فإنه قد تعرض لما يشترط في نكاح الزوج المحلل، وذكر أقوال العلماء وأدلتهم.

- وهكذا يدخل ابن كثير في خلافات الفقهاء، ويخوض في مذاهبهم وأدلتهم كلما تكلم عن آية لها تعلُّق بالأحكام، ولكنه مع هذا مُقتصدٌ مُقِلٌّ لا يُسْرِفُ كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين.

وبالجملة ... فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد شهد له بعض العلماء، فقال السيوطي في ذيل «تذكرة الحفاظ»، والزرقاني في «شرح المواهب»: (إنه لم يؤلَّف علىٰ نمطه مثله)[1].

- **ويقول العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله واصفًا هذا التفسير العظيم**: (... فإن تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا، وأجودها وأدقها بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري، ولسنا نوازن بينهما وبين تفسير آخر مما بأيدينا، فما رأينا مثلهما ولا ما يقاربهما.

- وقد حرص الحافظ ابن كثير علىٰ أن يفسر القرآن بالقرآن أولًا ما وجد إلىٰ ذلك سبيلًا، ثم بالسنة الصحيحة التي هي بيان لكتاب الله، ثم يذكر كثيرًا من أقوال السلف في تفسير الآي، وإنه ليذكر الأحاديث -في أكثر المواضع- بأسانيدها، ولكنه يحرص أشد الحرص علىٰ أن يذكر الأحاديث الصحاح، وإن ذكر معها الضعاف، فكتابه -بجانب أنه تفسير للقرآن- معلم ومرشد لطالب الحديث، يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون، وكيف يميِّز الصحيح من غيره، فهو كتاب

(١) «التفسير والمفسرون» (١/ ١٧٤-١٧٦).

-في هذا المعنىٰ- تعليمي عظيم، ونفعه جليل كثير) (١). اهـ.

- ويقول الشيخ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة رحمه الله تحت عنوان: «منهجه في تفسيره وخصائصه»: (وتفسيره من أجلِّ التفاسير، إن لم يكن أجلها وأعظمها، جمع فيه بين التفسير والتأويل، والرواية والدراية، مع العناية التامة بذكر الأسانيد وبيان صحيحها من ضعيفها من موضوعها، ونقد الرجال، والجرح والتعديل، واستيفاء الآيات في الموضع الأول، وتفسير القرآن بالقرآن، مع حسن البيان، وعدم التعقيد، وعدم التشعيب في المسائل، والاستطراد الكثير.

ومن خصائص هذا التفسير العظيم: أنه يعتبر نسيج وحده في التنبيه علىٰ الإسرائيليات والموضوعات في التفسير، تارة يذكرها ويعقِّب عليها بأنها دخيلة علىٰ الرواية الإسلامية، ويبيِّن أنها من الإسرائيليات الباطلة المكذوبة، وتارة لا يذكرها بل يشير إليها ويبين رأيه فيها، وقد تأثر في هذا بشيخه الإمام ابن تيمية، وزاد علىٰ ما ذكره كثيرًا، وكل من جاء بعد ابن كثير من المفسرين، ممن تنبَّه إلىٰ الإسرائيليات والموضوعات وحذَّر منها، هم عالة عليه في هذا، ومدينون له فيها بهذا الفضل: كالإمام الآلوسي، والأستاذ محمد عبده، والسيد محمد رشيد رضا -رحمهم الله تعالىٰ-، ولهذا الكتاب فضل كبير عليَّ في تنبيهي إلىٰ الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، وهو معتمدي ومرجعي الأول في هذا الباب، وللإمام ابن كثير حاسة دقيقة، وملكة راسخة في نقد المرويات والتنبيه إلىٰ منشئها ومصدرها، وكيف اندست إلىٰ الرواية الإسلامية.

- وقد تَعَقَّبَ ابنَ جرير -علىٰ جلالته وتقدمه- في بعض الإسرائيليات والموضوعات التي ذكرها بحفظ الحديث والعلم به: رواية ودراية، وأصالة النقد، والجمع بين المعقول والمنقول، وهي مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه: ابن القيم، والذهبي، وابن كثير، وأمثالهم، فجزاه الله علىٰ صنيعه هذا خير الجزاء ...) (٢). اهـ.

❑ وهل يلجأ الحافظ ابن كثير رحمه الله إلىٰ الاجتهاد برأيه في باب التفسير؟

هذا ما أشار إليه الدكتور/ يوسف حسن نوفل في معرض كلامه عن منهج ابن كثير: (وأما منهجه في التفسير فيقوم علىٰ تفسير المأثور، وهو يعتبر من أصح التفاسير بالمأثور، إن لم يكن أصحها، وقد فسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فقد بسط في مكان آخر، فإن لم يجد قصد إلىٰ السنة النبوية الشارحة للقرآن الموضحة له، فإن لم يجد فيها عمد إلىٰ أقوال الصحابة رضي الله عنهم والخلفاء الراشدين علىٰ وجه الخصوص، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، فإن لم يجد في هذا

---

(١) «عمدة التفاسير» (١/ ٩، ١٠).

(٢) «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ١٢٦).

كله رجع إلىٰ أقوال التابعين كسعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وإلا رجع لرأيه واجتهاده) [١].اهـ

- قلت: وتجد هذا واضحًا في مواطن قليلة منها عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس].

- وهذه النقولات الثلاثة تعد شافية في التعريف بمنهج الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره، ولكننا ومن خلال دراستنا للكتاب نودُّ أن نسلط الضوء علىٰ سبع نقاط أساسية في التعريف أكثر بتفسير ابن كثير إضافة إلىٰ ما ذُكِرَ، وهذه النقاط هي:

(١) تفسير بالمأثور مع نقد الأسانيد ونبذ الخرافات:

- وهذا قد أشير إليه في الكلام السالف للسادة العلماء، ولكننا نؤكد عليه هنا ونسلط عليه الضوء، فتفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن كان من نوع «التفسير بالمأثور» إلا أنه ليس قاصرًا علىٰ مجرد الجمع والسرد دون نقدٍ وقبولٍ وردٍّ للروايات، ونراه في هذا الجانب يفوق تفسير ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وليس أدل علىٰ هذا من نقده للطبري في سرد جملة من الإسرائيليات، والأقوال التي هي أشبه بالخرافات المتعارضة مع صحيح النقل والعقل، وكذلك فهو ناقدٌ ومُبَيِّنٌ للموضوعات وما ورد فيها من ترهات.

(٢) تفسير موضوعي بامتياز:

- فالحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقوم بتجميع الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد والمتشابهة ويوردها في موطن واحد، وخاصة عند أول موضع يرد فيه ذكر الموضوع، وبهذا تضاف إليه مَزِيَّة أخرىٰ بالإضافة إلىٰ كونه تفسيرًا بالمأثور وهي أنه تفسير موضوعي بامتياز، ونرىٰ أن هذا الموضوع له ارتباط وثيق بما انتهجه الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من عنايته أولًا بتفسير القرآن بالقرآن، فإيراد الآيات التي تتناول موضوعًا واحدًا يساعد علىٰ فهم الآيات وتفسير بعضها لبعض، فما أُجمل هنا يُفَصَّل هناك، وما أُطلق هنا يُقيَّد هناك، وهكذا يُزال ما قد يقع من لبس أو يَحْدث من إشكال في فهم الآيات.

(٣) تفسير عقدي علىٰ منهج أهل السنة والجماعة:

- اعتنىٰ الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإظهار وإبراز الجانب العقدي عند الآيات التي تمس هذا الجانب دون تعسُّف أو تكلُّف، وأوضح ببيان شَافٍ ما عليه أهل السنة والجماعة من مُعتقد في أبواب عديدة، وخاصة أبواب: الأسماء والصفات، والقدر، وقضايا الإيمان والكفر، وخَلْقِ القرآن، ورؤية الله ﷻ في الآخرة، وبيان المعتقد الصحيح في أصحاب النبي ﷺ، وهكذا، مع ردٍّ لأقوال المنحرفين من أهل الابتداع والضلال، فهو تفسير عقدي علىٰ المنهج السليم والنبع الصافي منهج

---

(١) «من المكتبة القرآنية» د. يوسف حسن نوفل (ص: ٨٨).

أهل السنة وجماعة المسلمين، وأما ما قد يقع من لَبْس في كلامه في بعض المواطن فقد علقنا عليها بما يناسبها، وبالله تعالىٰ التوفيق.

(٤) تناول للمسائل الفقهية في آيات الأحكام دون إطالة تخرجه عن حدِّ التفسير:

- أما بالنسبة للجانب الفقهي، فقد تناوله الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لآيات الأحكام، وذلك في المسائل والأمور الظاهرة التي يحتاج إليها من يطالع كتب التفاسير، ولم يحوِّل كتابه إلىٰ كتاب فقه في المقام الأول، وهو ما أُخِذَ علىٰ بعض المفسرين، ومنهم ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حتىٰ قيل: إن الفقه في كتابه غلب علىٰ التفسير، وبهذا تميَّز كتاب الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه كتاب تفسير في المقام الأول يعرض للمسائل الفقهية التي يحتاج إليها مطالعي كتب التفاسير.

- ومن تتمة الفائدة والتعريف بالكتاب أن نذكر هنا أن الحافظ ابن كثير يذكر عند سرده الأقوال الفقهية كلمة: (الأصحاب)، ومراده من ذلك الشافعية، فهو كما هو مشهور ومعروف شافعي المذهب.

(٥) تفسير لغوي أصولي ماتع، وذلك عند الحاجة فحسب:

- فتفسير الحافظ ابن كثير وإن عدَّه العلماء تفسيرًا بالمأثور فهذا باعتبار ما غلب عليه، وهذا مما لا خلاف فيه، ولكننا نخشىٰ أن يَظُنَّ البعضُ خلوَّه من الجوانب اللغوية والأصولية خاصة عند الحاجة إليها، فهو وإن كان لم يُغْرق في هذه الجوانب إلا أنه لم يهملها، وذلك عند الحاجة إليها فحسب، كي لا تغلب علىٰ المراد من التفسير، يقول الشيخ محمد نسيب الرفاعي في اختصاره لتفسير ابن كثير: (وتفسير ابن كثير هذا... غنيٌّ عن التعريف؛ إذ يكاد أن يكون التفسير الوحيد الذي حرص صاحبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ أن يكون تفسيرًا غير مختلط بأي علم آخر .. فهو تفسير للتفسير فقط، وإذا لجأ أحيانًا لذكر بعض القواعد اللغوية، أو الإعرابات النحوية أو النكات البلاغية، فما ذلك إلا نادرٌ، وليعين القارئ علىٰ فهم الآية)[١].

ويقول مطر أحمد مسفر الزهراني في أطروحته: «الإمام ابن كثير المفسر»: (جاء تفسير ابن كثير أقل تعرضًا للجوانب اللغوية والصرفية من غيره من المفسرين، فلا يتعرض لبحث هذه المسائل إلا بشكل موجز وبالقدر الذي يفهم المعنىٰ، لأنه يرىٰ أن التفسير ليس مواضع بسطها)[٢].

وليس أدلَّ علىٰ ورود هذه الجوانب فيه مما وفقنا الله إليه في خدمة هذا الكتاب باستخراج واستلال ما ورد فيه من فوائد لغوية وفوائد أصولية، وذلك فيما ألحقنا به من فهارس علمية تفصيلية تميزت بها هذه الطبعة، ولله الحمد والمِنَّة.

---

(١) «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» (١/ ٧).

(٢) «الإمام ابن كثير المفسر» (ص: ٣٠٩).

(٦) القراءات في تفسير ابن كثير:

كان للحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عناية خاصة بإيراد أوجه القراءات التي لها تعلُّق ببيان أوجه التفسير والمعنىٰ، وكعادته لا يذكر في هذا الجانب إلا ما له أهمية وفائدة ظاهرة، وقد نبه الحافظ نفسه علىٰ ذلك عند الآية (٩٨) من سورة البقرة بقوله: (وفي جبريل وميكائيل لغاتٌ وقراءاتٌ، تُذكر في كتب اللغة والقَراءات، ولم نطوِّل كتابنا هذا بسَرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنىٰ عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة، وهو المستعان)؛ وذلك لكي لا يتحوَّل الكتاب إلىٰ كتاب قراءات بالمقام الأول.

وأما فيما يتعلق بالقراءة التي اعتمدها الحافظ ابن كثير نفسه في التفسير، فسأذكر هنا ما أوردته اللجنة القائمة باختصار تفسير ابن كثير في عملهم المسمَّىٰ «اليسير في اختصار تفسير ابن كثير» حول القراءات في تفسير ابن كثير حيث قالوا: الظاهر أن الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعتمد قراءة غير قراءة حفص، ويغلب علىٰ الظن أنها قراءة أبي عمرو، فإنه كثيرًا ما يفسر عليها ثم يذكر القراءة الأخرىٰ، وهذا الأمر لم ينتبه له بعض من اختصر الكتاب فاختصر القراءة الثانية، وأثبت الأولىٰ ...[1]

وقد قمنا -بحمد الله- بتخريج كل القراءات التي أوردها الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره، وذلك علىٰ وجه علميٍّ دقيق مختصر، وسيأتي بيانه في كلامنا عن جهدنا وعملنا في الكتاب، وفي مقدمة خاصة بهذا الجهد.

(٧) كتاب رقائق وآداب ووعظ:

- وهذا ليس ببعيد عن موضوع تفسير كلام الله عَزَّ وَجَلَّ الذي ذكر سبحانه أنه موعظة وهدىٰ وبشرىٰ للمسلمين، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ولكننا نتكلم عن هذه الجزئية في تفسير ابن كثير علىٰ أنها سمة ظاهرة في الكتاب من لغة الوعظ والإرشاد والتذكير، ولا نبالغ إن قلنا: إن بعض المواطن فيه تليق أن تلقىٰ في خطبٍ جامعة أو مجالس وعظ وتذكير كما هي دونما تدخل بحذف أو إضافة.

*هذا مجمل ما رأينا ضرورة الإشارة إليه هنا، تذييلًا علىٰ كلام علمائنا السابقين ممن كانت لهم عناية بهذا التفسير القيم، وذلك بعد دراستنا له دراسة نحسب أنها متقنة قاربت الوفاء بحقِّ هذا التفسير العظيم.

---

(١) «اليسير في اختصار تفسير ابن كثير» (١/ ٦).

(٣)

المكانة العلمية للكتاب

عند أهل العلم وعنايتهم به

مما لا نزاع فيه بين أهل العلم وطلبته أن تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ يعدُّ من أجلِّ التفاسير، وقد نال إعجاب العلماء، وثناء الفضلاء، وذلك لما فيه من حسن العبارة، وصحيح المعتقد، مع مراعاة الأحاديث الصحيحة، والتكلُّم علىٰ كثير من الأسانيد الضعيفة وبيان عللها، وبالإضافة إلىٰ ذلك التنبيه علىٰ الإسرائيليات وكشف عوارها، وغير ذلك من الفوائد التي قلما تجتمع في تفسير واحد، ولذلك:

❑ يقول الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ عن تفسير ابن كثير: «لم يُؤلَّف علىٰ نَمطِهِ مثلُهُ».

❑ ويقول الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ أحسن كُتب التفسير إن لم يكن أَحْسَنَها».

❑ ويقول العلامة أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأيناها وأجودها وأدقها، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري، ولسنا نوازن بينهما وبين أي تفسير آخر مما بأيدينا، فما رأينا مثلهما، ولا ما يقاربهما».

❑ ويقول الشيخ العلامة المحقق تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «... تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير الموجودة في هذا الزمان، لما فيه من المزايا التي لا تكاد توجد في غيره».

- وبالرجوع إلىٰ كل من ترجموا للحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ نجد أنهم ينصون علىٰ أنه من أئمة المفسرين، بل هو «محدِّث المفسرين» و«زعيم أرباب التأويل» وأنه أجاد في هذا الباب، وما ذاك إلا من أجل هذا الكتاب الجليل «تفسير القرآن العظيم».

وليس أدل علىٰ مكانة هذا الكتاب لدىٰ أهل العلم وطلبته من العناية الفائقة لأهل العلم به من: مُعَلِّقٍ عليه، ومختصر له، ومحققٍ لنَصِّه .. أضف إلىٰ هذا كثرة طبعاته ونسخه وانتشارها، حتىٰ إنه بوسعنا أن نقول: إنه لا تخلو منه مكتبة علمية لأي طالب للعلم فضلًا عن كبار العلماء، وإن شئت فقل: لا يخلو منه بيت مسلم، وتأتي الوصية به من العلماء عند سؤالهم عن أفضل كتب التفسير.

وأشير هنا -أيضًا- إلىٰ أن كل من اختصروا الكتاب إنما فعلوا ذلك؛ لأن القارئ المتوسط البسيط يجد لون مشقةٍ في الوصول إلىٰ مبتغاه بفهم الآيات، وذلك لما في الكتاب من سرد الأسانيد ونقد الرجال ودقائق العلم، وقد حرصنا أن نراعي ذلك في الإخراج الفني والعلمي للكتاب، فوضعنا الآية بلون أحمر عند أول موطن فقط ورد فيه الجزء المفسر من الآية.

- ومن المتعارف عليه لدىٰ أهل العلم وطلبته أن الكتاب كلما كثر عدد المشتغلين به من أهل العلم دلَّ ذلك علىٰ قيمة هذا الكتاب ومكانته لديهم، وهذا الأمر قد حظي تفسير ابن كثير فيه علىٰ الحظ الأوفر، وأذكر هنا أهم المختصرات وأجودها له، وهي:

(١) «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير - مختصر تفسير القرآن العظيم» للشيخ العلامة المحقق المحدِّث أحمد بن محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «اليسير في اختصار تفسير ابن كثير» اختصار وتحقيق: صلاح بن محمد عرفات، ومحمد بن عبد الله الشنقيطي، وخالد بن فوزي عبد الحميد.

تحت إشراف فضيلة الشيخ: صالح بن عبد الله بن حميد، إمام وخطيب المسجد الحرام، وعضو هيئة كبار العلماء.

(٣) «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» اختصره وعلَّق عليه، واختار أصح رواياته فضيلة الشيخ المحقق: محمد نسيب الرفاعي.

- وقد أثنىٰ علىٰ عمله عدد من العلماء منهم:

فضيلة الشيخ العلامة: عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، وفضيلة الشيخ: عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وفضيلة الشيخ العلامة: تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللَّهُ، وعلامة الشام فضيلة الشيخ: محمد بهجة البيطار رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» لمحمد علي الصابوني، علىٰ ما فيه من مؤاخذات.

(٥) «المصباح المنير مختصر تفسير ابن كثير» للمباركفوري.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» للشيخ مصطفىٰ العدوي حَفِظَهُ اللَّهُ.

- وغير ذلك الكثير، وإنما أردنا الإشارة إلىٰ عناوين بعضها فحسب دون وصف لها لأنه ليس من أغراضنا هنا، بل غرضنا أن نشير إلىٰ عناية أهل العلم بهذا الكتاب العظيم، وأن ذلك دليل علىٰ مكانة الكتاب عندهم.

(٤)

موقف الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ من الإسرائيليات

ستتناول هنا -بعون الله ﷻ- الكلام عن ثلاثة أمور بإيجاز، وهي: بيان المراد بالإسرائيليات، ونذكر أقسامها، ثم نُبين موقف الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ منها.

أ- بيان المراد بالإسرائيليات:

- **يقول الدكتور محمد حسين الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ:** (لفظ الإسرائيليات وإن كان يدلُّ بظاهره علىٰ اللون اليهودي للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنَّا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودي واللون النصراني للتفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية.

وإنما أطلقنا علىٰ جميع ذلك لفظ «الإسرائيليات»، من باب التغليب للجانب اليهودي علىٰ الجانب النصراني، فإن الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلىٰ أن بسط رواقه علىٰ كثير من بلاد العالم ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

[و] نستطيع أن نقول: إن دخول الإسرائيليات في التفسير أمر يرجع إلىٰ عهد الصحابة ﷺ، وذلك نظرًا لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في ذكر بعض المسائل ... مع فارق واحد، هو الإيجاز في القرآن، والبسط والإطناب في التوراة والإنجيل ... غير أن الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء، ولم يقبلوا منهم كل شيء، بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحًا للقصة وبيانًا لما أجمله القرآن منها، مع توقفهم فيما يُلقىٰ إليهم، فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب ما دام يحتمل كلا الأمرين، امتثالًا لقول الرسول ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة:١٣٦]»...)[(١)].

ب- أقسام الإسرائيليات:

- يقول الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة في كتابه الماتع «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»:

(أخبار بني إسرائيل، وأقاويلهم علىٰ ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول:** ما علمنا صحته مما بأيدينا من القرآن والسنة، وهذا القسم صحيح، وفيما عندنا غنية عنه، ولكن يجوز ذكره وروايته للاستشهاد به، ولإقامة الحجة عليهم من كتبهم.

- **القسم الثاني:** ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه، فهذا لا يجوز روايته وذكره إلا مقترنًا ببيان

---

(١) «التفسير والمفسرون» (١/ ١٢١- ١٢٤) بتصرف.

كذبه، وأنه مما حرَّفوه وبدلوه، قال تعالىٰ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦].

- **القسم الثالث:** ما هو مسكوت عنه، لا من هذا، ولا من ذاك، فلا نؤمن به، ولا نكذبه، لاحتمال أن يكون حقًّا فنكذبه، أو باطلًا فنصدقه، ويجوز حكايته لما تقدم من الإذن في الرواية عنهم ... ومع هذا: فالأولىٰ عدم ذكره، وألا نضيع الوقت في الاشتغال به...) اهـ[1].

جـ- وأما موقف الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ وجه التحديد منها:

فنقتصر هنا علىٰ نقل أمرين: أحدهما: نقل نص كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ عنها، والآخر كلام العلماء والباحثين عن مسلكه رَحِمَهُ اللَّهُ تجاهها.

❑ **أولًا:** للحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ آراء علمية دقيقة وترجيحات مهمة في شأن الإسرائيليات وروايتها، وقد رسم في بعضها خطته نحوها، فقال في مقدمة تفسيره (ص: ١٢٧) بعد أن ذكر حديث: «**بلِّغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»: (ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتقاد، فإنها علىٰ ثلاثة أقسام:

- **أحدها:** ما عَلِمْنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

- **والثاني:** ما عَلِمْنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

- **والثالث:** ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلىٰ أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل: أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم، وعصا موسىٰ من أي شجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسىٰ... إلىٰ غير ذلك مما أبهمه الله تعالىٰ في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود علىٰ المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالىٰ: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف:٢٢]).

✿ **وقال رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره للآية (٥٠) من سورة الكهف:**

(... وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنْقَل لِيُنْظَر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يُقْطع بكذبه، لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضِع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين -الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين- كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء، والبررة النجباء، من الجهابذة النقَّاد، والحفاظ الجياد، الذين دوَّنوا الحديث

---

(١) «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ١٠٣، ١٠٤) بتصرف.

وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل) اهـ.

✿وقال عند تفسير الآيات (٥١-٥٦) من سورة الأنبياء:

(وما قصَّه كثير من المفسرين وغيرهم، فعامتها أحاديث بني إسرائيل، فما وافق منها الحق عما بأيدينا من المعصوم قبلناه؛ لموافقته الصحيح، وما خالف منها شيئًا من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة، لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفًا، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة) اهـ.

✿وقال رحمه الله عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة البقرة:

(وقد رُوي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسُّدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصَّها خلقٌ من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال). اهـ.

✿وقال في أول سورة «ق»:

(وقد رُوي عن بعض السلف أنهم قالوا: «ق» جبل محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف! وكأن هذا -والله أعلم- من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يُلَبِّسون به على الناس أمرَ دينِهم كما افْتُرِيَ في هذه الأمة -مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها- أحاديث عن النبي ﷺ، وما بالعَهْدِ من قِدم، فكيف بأمة بني إسرائيل، مع طول المدى، وقله الحفاظ النُّقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه- فليس من هذا القبيل) اهـ.

❁ **وقال عند تفسير الآيات (٤١-٤٤) من سورة النمل:**

(والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب سامحهما الله فيما نقلاه إلىٰ هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حُرِّف وبُدِّل ونُسِخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة) اهـ.

- **وقال عند تفسير الآية (٤٦) من سورة العنكبوت، بعد أن روىٰ الحديث: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»**: (ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدته لو كان صحيحًا) اهـ.

❑ **ثانيًا: كلام الباحثين عن موقف ابن كثير من الإسرائيليات:**

- وأما فيما يتعلق برأي العلماء في سير الحافظ ابن كثير علىٰ هذا النهج في تفسيره وتطبيقه له، ومدىٰ التزامه به: فأكتفي فيه بنقل كلام العلامة أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والدكتور محمد بن محمد أبو شهبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الصدد:

- **يقول العلامة أحمد محمد شاكر في مقدمة اختصاره لتفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: (... نفيتُ عن كتابي هذا كلَّ الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها، فإن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد جدبها[1] في مواضع كثيرة من تفسيره، وأبان عن خطلها وضررها، وأنحىٰ باللائمة علىٰ روايتها ورواتها، ورسم لنفسه خطة في شأنها، ومع ذلك فإنه - فيما يبدو لي - لم يستطع أن يسير علىٰ ما رسم، وغلبه ما وجد من الروايات في كثير من المواطن، فأثْبَتَ طائفة منها غير قليلة، فحذفتُها كلَّها، والحمد لله) اهـ.

- قلت: والحافظ ابن كثير - فيما يبدو لنا- لم يُغْلَب علىٰ هذا، بل ذَكَرَه للقَدْح فيه ونَقْدِه، وبيان عَوَارِه، وهذا لا مَفَرَّ منه في بعض المواطن لما ذُكر في كتب التفاسير وضرورة بيان خلله وردِّه.

- **وأما الشيخ العلامة الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة، فقد أطلق علىٰ الحافظ ابن كثير لقب «فارس الحلبة»** عند ذكره للإسرائيليات الواردة في نسبة الشرك إلىٰ آدم وحواء عليهما السلام، فقال: (... ولكن فارس هذه الحلبة هو: الإمام ابن كثير فقد نقد المرويات نقدًا عمليًّا أصيلًا علىٰ مناهج المحدثين وطريقتهم في نقد الرواة وبيَّن أصل هذه الروايات، وأن مرجعها إلىٰ الإسرائيليات، وإني لأعجب كيف أن الإمام الآلوسي، وهو المتأخر الباقعة[2] ، لم يُشرْ إلىٰ كلامه!! لعله لم يطلع عليه)[3] اهـ.

---

(١) أي: ذمها وعابها.

(٢) أي: الذكي العارف الذي لا يفوته شيء.

(٣) «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ٢٠٥).

(٥)

صفاء عقيدته وعنايته ببيانها في التفسير[١] والرد على من رماه بالتأويل

- الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كبار أهل العلم الذين اعتنوا ببيان وتأصيل منهج أهل السنة والجماعة في باب المعتقد، ومسلكه في ذلك مسلك سلفيٌّ سنيٌّ يتبع الدليل من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وصحيح السُّنة بفهم أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم من علماء التابعين والقرون الفاضلة الأولىٰ، وذلك خلافًا لما زعمه البعض من أشعريته أو تعطيله أو نحو ذلك، وإنما شغبوا بذلك لبعض العبارات التي قد يفهم منها هذا، وهو ما علقنا عليه في مواضعه بما يناسبه.

- وإفرادنا لهذه الجزئية بالكلام وتسليط الضوء عليها نابعٌ من عِظَم عناية الحافظ ابن كثير بها، فهو وإن كان مقصوده الأول التفسير - كما سبقت الإشارة إلىٰ ذلك- إلا أنه اعتنىٰ عناية بالغة بإيضاح مذهب وعقيدة أهل السنة في كل موطن تقريبًا تطلَّب ذلك في التفسير، وإلىٰ جانب ذلك فقد أوضح ببيان شافٍ موقفه من أصحاب الفرق والملل والأهواء والنحل...

- **وسنشير هنا إلىٰ جملة من أقواله وتقريراته لمذهب أهل السنة والجماعة في العقيدة من خلال «تفسير القرآن العظيم»، ومن ذلك:**

❑ **قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾** [الأعراف: ٥٤]: (فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًّا ليس هذا موضع بسطها، وإنما يُسْلَك في هذا المقام مسلك السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلىٰ أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]) اهـ.

❑ **تعرضه للكلام عن رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ**، وذلك في مواطن عديدة، منها ما ذكره عند تفسير قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف: **أحدها**: لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق، عن عائشة أنها قالت: «من زعم أن محمدًا أبصر ربَّه فقد كذب، فإن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾» ... وقد خالفها ابن عباس، فعنه إطلاق الرؤية، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين....

---

(١) وراجع في ذلك مبحثًا نفيسًا بعنوان: «عقيدة الحافظ ابن كثير بين التفويض والتأويل» تأليف: عبد الآخر الغنيمي.

ـ وقال آخرون: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ أي: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الآخرة.

ـ وقال آخرون من المعتزلة بمقتضىٰ ما فهموا من هذه الآية: إنه لا يُرىٰ في الدنيا ولا في الآخرة، فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسوله:

أما الكتاب: فقوله تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾، وقوله تعالىٰ عن الكافرين: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين]، قال الإمام الشافعي: فدل علىٰ أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالىٰ.

وأما السنة: فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير ، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات...

ـ وقيل: المراد بـ ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ أي: العقول، رواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين عن الفلاس عن ابن مهدي عن أبي الحصين يحيىٰ بن الحصين قارئ أهل مكة، أنه قال ذلك، وهذا غريب جدًّا، وخلاف ظاهر الآية، وكأنه اعتقد أن الإدراك في معنىٰ الرؤية.

ـ وقيل: المراد لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن نفي الإدراك أخص من الرؤية ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم.

ـ وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة، قالوا: لا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عَدَمِ إحاطة العلم عدمُ العِلْمِ، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾ .

ـ وقال ابن جرير بسنده إلىٰ عطية العوفي في قوله تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة] قال: هم ينظرون إلىٰ الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره محيط بهم، فذلك قوله: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾.

ـ ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾، فالذي نفته: الإدراك الذي هو بمعنىٰ رؤية العظمة والجلال علىٰ ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لشيء، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ أي: يحيط بها ويعلمها علىٰ ما هي عليه، لأنه خالقها، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]) اهـ.

ـ وردَّ استدلالَ المعتزلة لنفي الرؤية بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ ...﴾ [الأعراف: ١٣٤]، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (.. وقد أشكل حرف (لن) هاهنا علىٰ كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدل به المعتزلة علىٰ نفي

الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله تعالىٰ إخبارًا عن الكفار: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

- وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعًا بين هذه الآية وبين الدليل القاطع علىٰ صحة الرؤية في الدار الآخرة.

- وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ وقد تقدم ذلك في الأنعام).اهـ.

❑ ومن مباحث العقيدة المهمة التي تعرض لها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: مسألة «إثبات صفة الكلام لله ﷻ»، والرد علىٰ الجهمية والمعتزلة وغيرهم فيها، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء] فقال: (وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ وهذا تشريف لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الصفة، ولهذا يقال له: الكليم، وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي، حدثنا مسيح بن حاتم، حدثنا عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجلٌ إلىٰ أبي بكر بن عياش، فقال: سمعت رجلًا يقرأ: (وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا)، فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأت علىٰ الأعمش، وقرأ الأعمش علىٰ يحيىٰ بن وثاب، وقرأ يحيىٰ بن وثاب علىٰ أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي علىٰ عليِّ بن أبي طالب، وقرأ عليُّ بن أبي طالب علىٰ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾.

- وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ من قرأ كذلك؛ لأنه حرَّف لفظ القرآن ومعناه، وكأن هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو يكلم أحدًا من خلقه، كما روينا عن بعض المعتزلة أنه قرأ علىٰ بعض المشايخ (وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) فقال له: يا ابن اللخناء! فكيف تصنع بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف:١٤٣] يعني: أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل). اهـ

- وقد تعرَّض في تفسيره أيضًا للرد علىٰ بعض الكفرة الملحدين كالدهرية الذين ينكرون المعاد، وذلك عند قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ...﴾ [الجاثية: ٢٤]، فقال: (يخبر تعالىٰ عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، وقولهم: ما ثَمَّ إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَمَّ معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ست وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلىٰ ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهي، فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا:

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتوهمون ويتخيلون) اهـ.

- وتناول الحافظ ابن كثير الرد علىٰ الفرق والملل كالشيعة الروافض والخوارج وغيرهم، وفند مزاعمهم، وبيَّن أن جميع الفرق علىٰ ضلال إلا واحدة، وهم أهل السُّنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند الآية (٣٢) من سورة الروم: (إن أهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم علىٰ آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم علىٰ شيء، وهذه الأمة - أيضًا- اختلفوا فيما بينهم علىٰ نِحَلٍ كلها ضالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في «مستدركه» أنه سئل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الفرقة الناجية منهم فقال: «ما أنا عليه وأصحابي».

- وهنا نطرح سؤالًا مهمًا وهو: هل يصح بعد هذه النقولات وغيرها أن يُتهم الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ زورًا بالتفويض والتأويل المخالف لمنهج أهل السنة والجماعة؟!

- وأكتفي بالإجابة عن هذه السؤال بالإشارة إلىٰ مبحث: «عقيدة الحافظ ابن كثير بين التفويض والتأويل» لعبد الآخر الغنيمي، فقد فنَّد هذا القول من أساسه بنقولات من كلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأشار إلىٰ تلمذته علىٰ يد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتأثره بالعلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حتىٰ وصل هذا التأثر بأنه امتحن بسببه كما ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك قائلًا: «أخذ عنه - أي: عن ابن تيمية - وفتن بحبه وامتحن لسببه»(١).

-وأُضيفُ هنا أن أهل التعطيل والتأويل إنما يُصَنِّفُون هذا التصنيف حال التزامهم التعطيل والتأويل في كل كلامهم أو جله، أما أن يقتصر الأمر علىٰ نقل بعض النقولات غير المُحَرَّرَة عن السلف مِنْ قِبَلِ من لديه قلة علم أو قصر في الفهم ثم يُتهم هذا الإمام الجبل بهذا الاتهام - فهذه فرية عظيمة، فأهل التعطيل مثلًا ينفون صفة اليد لله عَزَّ وَجَلَّ ويعطلونها علىٰ الدوام، وأما ما ينقل عن بعض أهل السنة من قولهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات] فيقولون: أي: بقوة، فيأتي من لا يعي حقيقة الأمر ويصنف ذلك تحريفًا، فهذا قصر في الفهم، لأن أهل السنة يثبتون لله اليد في مواطن أخرىٰ عديدة، فنبغي أن يتمهل المرء في مثل هذه المواطن، ويجمع كلام الإمام حتىٰ يعي ما يتكلم فيه(٢).

❀❀❀

(١) «الدرر الكامنة» (١/ ٣٧٤).

(٢)وراجع ما نقلناه في تعليقات العلماء من كلام الإمام القاسمي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من سورة آل عمران، فهو مبحثٌ نفيسٌ جدًا.

(٦)

مذهبه الفقهي واتباعه للدليل

- الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ شافعي المذهب، وإيراده للمسائل الفقهية في تفسيره يأتي بالتبع وليس مقصودًا لذاته، فهو يورد ويبسط المسائل أحيانًا لغرض إيضاح المراد من آيات الأحكام، ويختصر في سردها في أحيان أخرىٰ، فكتابه كتاب تفسير يشتمل علىٰ بعض المسائل الفقهية، وليس كتاب فقه في المقام الأول كما وقع في ذلك جَمْعٌ من المفسرين فيما أطلق عليه «التفسير الفقهي».

- وابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ يسلك في ذلك مسلكًا وسطًا، فلم يسرف في ذكر المسائل وسرد أقوال العلماء فيها، وكذلك لم يخل منها الكتاب، فهو أحيانًا يسرد أقوال الفقهاء واستدلال كل فريق بإيجاز، ومن ذلك ما ذكره عند قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾: (وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء علىٰ أقوال: فمنهم من رخص في ذلك محتجًا بحديث: «**قوموا إلىٰ سيدكم**»، ومنهم من منع ذلك محتجًّا بحديث: «**من أحب أن يتمثَّل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**»، ومنهم من فَصَّل، فقال: يجوز عند القدوم من سفر، والحاكم في مَحَلِّ ولايته، كما دلت عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكمًا في بني قريظة فرآه مقبلًا قال للمسلمين: «**قوموا إلىٰ سيدكم**»، وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه).

- وهذا النموذج أوردناه باعتباره مثالًا لاستيعاب الأقوال مع ذكر أهم الأدلة في إيجاز بديع، وذلك لحاجة فهم الآية إليه.

- وراجع في ذلك أيضًا - ما أورده عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ ﴾ [النور:٣١].

- وكثيرًا ما يورد الحافظ ابن كثير رأس المسألة أو عنوانها فحسب، ثم يحيل إلىٰ كتابه «الأحكام الكبرىٰ»، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند الآية (١٠) من سورة البقرة، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (... وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر: هل يستتاب أم لا؟ أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا؟ أو يتكرر منه ارتداده أم لا؟ أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظُهِرَ عليه؟ علىٰ أقوال متعددة موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب «الأحكام») اهـ.

- وسار علىٰ هذا الصنيع في عدد من المسائل الأخرىٰ، منها ما أورده عند الآية (٢٣٢) من سورة البقرة، وعند تفسير الآية (٦) من سورة المائدة، وعند الآية (٤٩) من سورة الأحزاب، وفي مواطن أخرىٰ كثيرة.

- (ولم يسر علىٰ طريقة الاختصار في كل تفسيره، فهو أحيانًا يتوسط فيذكر بعض أحكام الآية،

ومن أمثلة ذلك:

- ما ذكره عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩]، حيث قال: (هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها: إطلاق النكاح علىٰ العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ علىٰ ثلاثة أقوال...)(١).

- (وقد يُسهب في عرضه لأقوال الفقهاء ومذاهبهم ويذكر عدة مسائل الواحدة تلو الأخرىٰ، مناقشًا آراء العلماء فيها مختارًا ما يراه صوابًا، ومنبهًا علىٰ ما يراه خطأ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ...﴾ [البقرة:١٨٥])(٢).

- وأما عند ترجيحه لأحد الأقوال وردِّ بعض الأقوال فإن المحور الذي يدور حوله في المقام الأول هو الدليل والنظر الصحيح فحسب، وقد أرجع الكثير من العلماء ذلك الاستقلال الفقهي في شخصية ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ ملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية، يقول الشيخ المحدث أبو إسحاق الحويني حَفِظَهُ اللَّهُ: (وصحبته وملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية أفادته أعظم الفوائد، في عِلْمه ودينه وتقوية خلقه، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة، فهو مستقل الرأي، يدور مع الدليل حيث دار، لا يتعصب لمذهبه ولا لغيره، وكتبه العظيمة -وخاصة هذا التفسير الجليل- فيها الدلائل الوافرة، ونجده -مع أنه شافعي المذهب- يفتي في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد بما رجحته الدلائل الثابتة الصحاح: أنه يقع طلقة واحدة، ثم يمتحن ويلقىٰ الأذىٰ، فيثبت علىٰ قوله، ويصبر علىٰ ما يلقىٰ في سبيل الله)(٣).

- وأما الترجيح بين الأقوال الفقهية فهو لا يُعنَىٰ به في هذا الكتاب في المقام الأول، وخذ مثالًا علىٰ ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

---

(١) «الإمام ابن كثير المفسر» (ص: ٣٠٢، ٣٠٣)

(٢) السابق: (ص: ٣٠٣) وما بعدها.

(٣) «فضائل القرآن» (ص:١١).

(٧)

شمولية تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وتضمنه لفوائد ومباحث عظيمة في فروع علمية شتى

- سبقت الإشارة إلىٰ أن الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ يُعنىٰ في المقام الأول ببيان معنىٰ الآية والمراد منها مع سرده لأقوال أئمة التفسير فيها وهو مقصوده الأول، ثم يسرد الأحاديث والآثار والأقوال المرتبطة بذلك، وهذا الكلام لا يَعْني بحال من الأحوال خلو الكتاب من غير ذلك، بل إن كتاب «تفسير القرآن العظيم» احتوىٰ علىٰ فوائد ومباحث عظيمة في شتىٰ فروع العلم، منها: الفقهي، والعقدي، واللغوي، والحديثي، والأصولي... وبالإضافة إلىٰ هذا نقل الإجماع، وتحرير الحق والصواب في مباحث خلافية تتعلق بالتفسير وغيره متىٰ اقتضىٰ الأمر ذلك...

- وهذه الأمور سالفة الذكر وغيرها دفعتنا إلىٰ جمع هذه الفوائد الغزيرة، وتقسيمها وترتيبها في فهارس مستقلة تساعد الباحث في رجوعه إليها متىٰ شاء بسهولة ويُسر، وهو من الأمور التي تميزت بها طبعتنا علىٰ الأقل بهذا الاستقصاء ولله الحمد والمنة.

- ونحن في هذه المقدمة نشير إشارة مختصرة وسريعة إلىٰ بعض المواطن التي احتوت علىٰ هذه الفروع من العلوم المتنوعة للدلالة علىٰ ذلك:

❑ ففي جانب الأبحاث والفوائد الفقهية:

(١) مسألة: هل تجب القراءة علىٰ المأموم في الصلاة الجهرية، وذلك عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف].

(٢) مسألة: إلحاق فريق من العلماء الذئبَ، والسبعَ، والنمرَ، والفهدَ بالكلب العقور في جواز قتله في الحرم، وذلك عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥].

(٣) مسألة: اختلاف المانعين للصلاة علىٰ غير الأنبياء، في كونه من باب التحريم أو الكراهة التنزيهية، وذلك عند الآية (٧٦) من سورة الأحزاب.

- وهكذا في تفسير كل آية يَذْكُر من المسائل الفقهية ما تكون سببًا معينًا علىٰ فهم الآية، وترجيح قول في تفسيرها، والإمام رَحِمَهُ اللَّهُ ينشط في مواطن ويقل نشاطه في أخرىٰ حسب الحاجة والمصلحة.

❑ وأما في جانب العقيدة فسبقت الإشارة إلىٰ بعض المباحث، ونزيدها بهذه الأمثلة:

(١) قوله: (أما الأنبياء -عليهم السلام- فكلهم معصومون مُؤيَّدون من الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف)، وذلك عند الآية (٨٢) من سورة الأنبياء.

(٢) كلامه عن البعث والمعاد، وأنه واجب الوقوع، وذلك عند الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء.

(٣) نزول المائدة علىٰ الحواريين، وذلك عند الآية (١١٢ - ١١٥) من سورة المائدة.

(٤) بيان ضلال الجهمية في قولهم: إن الله في كل مكان، -تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-، وذلك عند الآية (٣) من سورة الأنعام.

❑ **وأما نقله للإجماع:**

فهو رَحِمَهُ اللَّهُ يعتني بذلك عناية بالغة، وقد أكثر من نقله وأفاد في هذا الباب، ومن ذلك:

(١) الإجماع علىٰ أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان، وإن أمَّ البيت الحرام أو بيت المقدس، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [المائدة:٢].

(٢) الإجماع علىٰ تحريم الذبيحة التي ذُكِرَ عليها اسم غير الله، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣].

(٣) الإجماع علىٰ مشروعية السجود عند تلاوة سجدة الأعراف والاستماع إليها، الآية (٢٠٦) وكذلك عند سجدة الفرقان الآية (٦٠).

(٤) حكاية الإجماع (عدم الخلاف) أن أولاد المؤمنين من أهل الجنة، وذلك عند الآية (١٥) من سورة الإسراء.

(٥) نقل إجماع السلف علىٰ مشروعية مخاطبة الأحياء للموتىٰ بالسلام عليهم، وأن الأخبار تواترت عن السلف بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر بها، وذلك عند الآية (٨٠) من سورة النمل.

❑ **وأما فيما يتعلق بالفوائد والمباحث والقواعد الأصولية، فمن أمثلتها:**

(١) قوله: (... لكن المُتَعَمِّد مَأْثُوم، والمُخْطِئ غير مَلوم) عند تفسير الآية (٩٥) من سورة المائدة.

(٢) قوله: (.. فلا يصار إلىٰ الضرر العاجل لتوهم الآجل) عند تفسر الآية (٣) من سورة النور.

(٣) قوله: (... ونص من بينهم علىٰ هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص علىٰ العام...)، وذلك عند تفسيره للآية (٧) من سورة الأحزاب.

(٤) قوله: (... وهذا أمر بعد الحظر، والصحيح الذي يثبت علىٰ السَّبْر: أنه يَرُدُّ الحكم إلىٰ ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجبًا رده واجبًا، وإن كان مستحبًا فمستحب، أو مباحًا فمباح)، وذلك عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة:٢].

❑ وأما جانب الفوائد الحديثية:

فهو مما يتميز به تفسير ابن كثير حتىٰ إنه لُقب بـ «مفسر المحدثين»:

(١) قوله علىٰ حديث : «**أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين ...**»: (هذا حديث منكر جدًّا)، وذلك عند الآية (٢٥) من سورة مريم.

(٢) تضعيفه لما ورد أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم] نزل في هجرة عبد الرحمن بن عوف.

(٣) حكمه علىٰ حديث: «**القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يُزهر...**» بأن إسناده جيد ولم يخرجوه، وذلك عند الآية (٣٥) من سورة النور.

(٤) حكمه علىٰ حديث: «**أما إن مَلَكًا بينكما يَذُبُّ عنك كلما شتمك هذا....**» بأن إسناده حسن، وذلك عند الآية (٦٣) من سورة الفرقان.

- وهذا بالإضافة إلىٰ حكمه علىٰ الإسرائيليات، وكذلك حكمه علىٰ كثير من رجال الأحاديث.

❑ وفي جانب الفوائد اللغوية:

(١) ما ذكره عند قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ [عبس] من قوله: (أي: جعله ذا قبر، والعرب تقول: «قبرتُ الرجل» إذا وَلِيَ ذلك منه، وأقبره الله).

(٢) قوله عند الآية (٣٩) من سورة الإسراء: (وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك... ومتىٰ بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير).

(٣) قوله عند الآية (٨٩) من سورة مريم: (إدًّا بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدها أيضًا، ثلاث لغات، أشهرها الأول).

(٤) قوله عند الآية (٨) من سورة القصص: (قال محمد بن إسحاق وغيره: «اللام» هنا لام العاقبة لا لام التعليل، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلىٰ معنىٰ السياق فإنه تبقىٰ اللام للتعليل...).

(٥) اختياره أن «ما» في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨] نافية وليست موصولة.

❑ وكذلك اعتنىٰ الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتحرير الحق والصواب، وتحقيق المسائل المشكلة، ورد الأقوال الضعيفة والشاذة في التفسير، ومن ذلك:

(١) رده لقول من قال: إن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، أنه أمرٌ للسامع للقرآن أن يذكر الله حال استماعه علىٰ هذه الصفة، فقال ابن كثير:

(وهذا بعيدٌ منافٍ للإنصات المأمور به ... فهذا الذي قالاه [يقصد الطبري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم] لم يتابعا عليه) اهـ.

(٢) ترجيحه لاختيار الطبري - وهو قول الحسن وقتادة - أن المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠]. هو القوة التي تؤيد الحق من قهر لمن عاداه وناوأه، وليس مجرد الحجة والبينة.

(٣) مبحث لطيف في اختلاف العلماء في مصير أولاد المشركين، وذلك عند تفسير الآية (١٥) من سورة الإسراء.

(٤) مبحث لطيف في ترجيح أن إبليس من الجن ولم يكن قط من الملائكة، وذلك عند الآية (٥٠) من سورة الكهف.

(٥) ذهابه إلىٰ أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرونه، وذلك عند الآية (٧٢) من سورة الفرقان.

(٦) مبحث في حكم الصلاة علىٰ غير الأنبياء، وذلك عند الآية (٥٦) من سورة الأحزاب.

(٧) تناول مباحث مما ورد في الأخلاق الحميدة من (الخمول والتواضع، وما جاء في الشهرة وذمها، وحسن الخُلق، وذم الاختيال...)، وذلك عند تفسيره للآيات (١٦ - ١٩) من سورة لقمان.

(٨) عقد مبحثًا نفيسًا تناول فيه الكلام عن حقيقة السحر، ومذاهب الناس في وجوده من عدمه، وحكم تعلمه.... إلىٰ غير ذلك، وذلك عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ...﴾ [البقرة:١٠٣].

(٩) أورد بحثًا مختصرًا في تعريف النسخ وجواز وقوعه ردًّا علىٰ اليهود ومن سلك سبيلهم، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة].

(١٠) ذكر مبحثًا ماتعًا حول طَرَفٍ من أحكام الصيام وفوائده، وتكلم في هذا الباب فيما يتعلق بصيام النوافل، وحكم الصيام في السفر، وأحكام قضاء الصوم، وهل يجب متتابعًا أم لا؟ إلىٰ غير ذلك من أحكام الصيام، وذلك عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ...﴾ [البقرة:١٨٥].

❑ هذا، ولم يفته رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أسباب النزول في مواطنها، وكذلك التطرق للناسخ والمنسوخ عند الآيات التي تعرضت لبعض تلك الأحكام، وقد مَنَّ الله ﷻ علينا بجمع كل هذه الفوائد وترتيبها وفهرستها باستقصاء تميزت به هذه الطبعة، ولكننا أردنا هنا الإشارة ببعض الأمثلة في سياق تناوُلِنا لشمولية تفسير ابن كثير واحتوائه علىٰ فوائد ومباحث علمية نفيسة.

(٨)

التعليق على جهود السابقين ومناهجهم في تحقيق الكتاب

(مزايا ومآخذ منهجية)

- لقد حظي كتاب «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعناية كبيرة من العلماء، ما بين مُحَقِّق لنصِّه، ومُختصر له، ولا شك أن هذه الجهود المباركة امتلأت بجوانب عديدة من الإجادة والنفع، بيد أن أكثرها كان يعتريه بعض أوجه القصور والخلل، وهذا ما دفعنا إلىٰ محاولة إخراج الكتاب في صورة تفوق -فيما نرىٰ- جهود السابقين في الإجادة، مع تضمنها لمميزات طبعاتهم لعدم إهدار جهودهم، وقد حرصنا كل الحرص علىٰ تجنب العيوب المنهجية والسقطات العلمية التي وقعوا فيها، والله المستعان.

- وليس غرضنا الحط من تلك الجهود الرائدة في خدمة هذا الكتاب العظيم ولا تتبع سقطاتهم، تلك الجهود التي لولاها ما كان لعملنا أن يخرج في هذه الصورة، ولكنهم - جزاهم الله خيرًا- وإن كان لهم شرف البداية، إلا أن «البداية مَزَلَّة» كما يقولون، ولذلك كان لا بد من خطوات علمية تَتَبَّع وتلي خطواتهم، ونحن إذ نذكر بعض ما وقعوا فيه من أخطاءٍ نراها «منهجية!!» **فإن غرضنا من ذلك يتلخص في أمرين:**

أولهما: بيان سبب إقدامنا علىٰ تحقيق الكتاب وخدمته بعد جهودهم المباركة.

ثانيهما: الإشارة إلىٰ الجهد المبذول في هذه الطبعة لإخراجها بهذه الصورة، نعم! قد استفدنا منهم، لكن لم نكن عالة عليهم، نظرنا في جهودهم وأقوالهم وتعليقاتهم فتخيرنا الصواب منها، ونبذنا ما ظهر لنا خلله وخطؤه...

- هذا، ولا يخفىٰ علىٰ القارئ الكريم أن عدد طبعات «تفسير القرآن العظيم» كثيرة جدًّا، لدرجة يصعب معها بل يكاد يستحيل تناولها بالتحليل والنقد وذكر المؤاخذات - وليس هذا من مرادنا أصلًا، ولكننا هنا نذكر ونعلق علىٰ الطبعات ذات الطابع العلمي المعتمد فحسب، بعيدًا عن الطبعات التجارية، **ومن أهم الطبعات العلمية:**

(١) طبعة «الشعب».

(٢) طبعة «دار طيبة»، تحقيق: سامي بن محمد السلامة.

(٣) طبعة «أولاد الشيخ»، تحقيق مجموعة من الباحثين.

(٤) طبعة دار «ابن الجوزي»، تحقيق/ أ.د حكمت بشير ياسين.

أولًا: طبعة طيبة . تحقيق: سامي بن محمد السلامة:

وهي طبعة جيدة في مجملها، بذل محققها فيها جهدًا كبيرًا ملحوظًا، واعتنىٰ فيها بضبط النص وتخريج الأحاديث، وقال في معرض كلامه عما بذله من جهد لإخراجها بصورتها التي هي عليها: (... فقد مرت عليَّ أثناء العمل في هذا الكتاب سُنونَ شديدةٌ، الله وحده بها عليم، قاسيتُ فيها شدائد، وواجهت فيها عقبات، إلا أن همتي أَبَتْ إلا إتمامَهُ، ونفسي تاقت إلىٰ التشرف بخدمته.

وقد كابدت في هذا الكتاب جَهْدِي، وبذلت فيه مالي، واستنفقت له وقتي، فكم من ليالٍ أنفقتها في تصويب تحريف، أو تقويم تصحيف، أقول ذلك ملتمسًا العُذر من عالم سقط علىٰ زلل، أو قارئ وقع علىٰ خطأ، فمثل هذا العمل الكبير لابد أن تظهر فيه بعض الأخطاء المطبعية، والأوهام اليسيرة...)[1] اهـ.

تنبيه: صدرت للكتاب طبعة ثانية تكلَّم معظم الباحثين عن أنها استدركت ما في الطبعة الأولىٰ من أخطاء، وكتب علىٰ غلافها: (تم فيها استدراك السقط الحاصل بالمجلد الأول من طبعة الشعب)، وهذا الأمر وإن كان حدث فهو ميزة للطبعة الثانية عن الأولىٰ، لكنه لا يجعل الطبعة الثانية خالية من الأخطاء التي في الأولىٰ كلها، ونحن بمراجعتنا للطبعة الثانية كاملة -وذلك في معرض النظر في الطبعات العلمية السابقة لتجويد طبعتنا- وجدنا بها نفس الأخطاء - باستثناء الاستدراك المذكور تقريبًا!!

- قلت: ومع اعترافنا للمحقق بالفضل، وعدم إنكارنا لما بذله من جهد، إلا أن مآخذنا عليه لا تتعلق بالأخطاء المطبعية -مع وجودها-؛ لأنها قد لا تُعَدُّ من الأخطاء العلمية المنهجية، وإن كانت -أيضًا- لا تخرج من مسئوليات المحقق، فهو ملزمٌ قدر طاقته بمراجعة مراحل الكتاب وتصويب تلك الأخطاء قبل إذنه بطباعته...

- وعليه، فإننا سنقف فيما يلي مع بعض الأخطاء التي تمس أصل عملية التحقيق، والمنهج الذي سلكه المحقق في تحقيقه للكتاب بنسخه الخطية، ولكن قبل هذا نود أن نشير إلىٰ أمر في غاية الأهمية، وهو نص كلام المحقق الذي لم يلتزمه، وهو عين ما نأخذه عليه، يقول الشيخ سامي محمد السلامة عن منهجه في التحقيق:

(١- إخراج نص التفسير علىٰ ما يغلب علىٰ الظن أنه نص المؤلف، وذلك بمقابلة النسخ المخطوطة، وإثبات الصحيح من الفروق عند الاختلاف.

٢- بذلت جهدي في تقويم النص بالرجوع إلىٰ مصادر الحديث وكتب الرجال المطبوعة والمخطوطة....) اهـ.

---

(١) مقدمة التحقيق لطبعة طيبة (١/ ٩).

- ونكاد نجزم أن هذين الأمرين لم يلتزم بهما المحقق في كل الكتاب أو معظمه، ثم إن كل العاملين تقريبًا في هذا المجال -أعني: تحقيق النسخ المخطوطة- ينصون علىٰ أنهم يسعون ويبذلون الجهد لإخراج الكتاب أقرب ما يكون إلىٰ نص المؤلف، وهذه عبارة تحتاج إلىٰ مراجعة كما سنفردها بالنقاش والتعليق، ولكني أقول هنا: إنهم يخرجون الكتاب أقرب ما يكون إلىٰ ما كتبه الناسخ لا إلىٰ نص المؤلف، وكأن غاية التحقيق تحويل ما نسخه الناسخ إلىٰ كلام مكتوب عن طريق «الحاسوب»!!.

- وأعجب ما في هذا الأمر أن يكون الصواب في نحو خمس أو ست مخطوطات مثلًا، ثم يُصر الباحث علىٰ إثبات الخطأ في أصل الكتاب؛ لأنه هو الذي ورد في النسخة التي اعتمدها هو أصلًا، فما ذنب المصنف في هذا؟! وما علاقته بهذه المناهج الوافدة إلينا من المستشرقين الذين لا دراية لديهم ولا علاقة بالعلوم الشرعية ولا باللغة العربية، وهذه سقطة منهجية في غاية الخطورة.

ويكفي في سقوط هذا المسلك أنه يضلل أكثر القراء؛ إذ الأغلب من القراء باستثناء الباحثين يقرأ الأصل ولا يلتفت إلىٰ فروق النسخ في الهوامش، ولو قرأها لا يَقْدر علىٰ الترجيح في الأغلب، ومن ناحية أخرىٰ فحتىٰ الباحثين وطلبة العلم لا ينشطون طيلة الوقت إلىٰ قراءة الهوامش، ويضاف إلىٰ ذلك أن إثبات اللفظة الخطأ في الأصل، وجعل الصواب في الهامش هو ما يشتت القارئ ويضعف متابعته للنص فضلًا عن أنه قلب للأوضاع بجعل الأصل فرعًا والفرع أصلًا، فلماذا لا يثبت الباحث ثمرة تحقيقه وترجيحه في النص الأصلي المتصل، ويجعل الهامش لبيان الألفاظ المرجوحة من باب الأمانة، وليدع مساحة للترجيح عند من شاء أن ينظر بنفسه.

* **ونقول هنا:** أيها السادة الكرام، هذا خطأ من الناسخ ليس إلا، ولديك مخطوطات أخرىٰ بها الصواب، فهل من الإنصاف أن نُحَمِّل الحفاظ الكبار والعلماء الأعلام أخطاء الناسخين مع أن هناك من السُّبل ما هو أقرب إلىٰ الوصول إلىٰ نص المؤلف كما سنبينه؟!!

❑ **وسأكتفي هنا بذكر بعض المؤاخذات المنهجية علىٰ هذه الطبعة، وهذا علىٰ وجه الإجمال، التي من أهمها:**

(١) الإكثار من ذكر الفروق بين النسخ التي لا فائدة علمية فيها، وذلك اتباعًا لمنهج المستشرقين في إثبات كل الفروق بين النسخ.

(٢) عدم ذكر الصواب عند الفروق ذات القيمة، وذلك فيما يتعلق بمتون الأحاديث أو أسماء الرواة، وذلك رغم ذكر المحقق أنه سيرجع إلىٰ المراجع والدواوين الأصلية، فلم يُعيِّن الصواب ويحدده سواء في الأصل أو الحاشية.

(٣) عدم تعديل الخطإ البيِّن حتىٰ في بعض الآيات القرآنية، وبعض أسماء الرواة ومتون

الأحاديث، وحتىٰ الأخطاء اللغوية الظاهرة، ومثل هذه الأمور إصلاحها واجب، وإن لم توجد علىٰ الصواب في نسخة خطية، فكيف والأغلب أن يوجد الصواب في بعض النسخ، فهل يُتْرَك الخطأ ويُحَمَّل لإمام جليل في العلم والفقه والتفسير واللغة والحديث، ولا يُحَمَّل لناسخ النسخة التي اعتمدها المحقق أصلًا!!! وهل هذا هو ما أراده الحافظ ابن كثير؟! أم أن هذا هو خطأ الناسخ؟!! وحتىٰ لو كثرت النسخ التي اعتمدت الخطأ فكثيرًا ما يكون مخرجها واحدًا.

ولا مانع لمن أراد أن يتحرىٰ الدقة أن يعلق في الهامش بأنها في الأصل كذا وهو خطأ لغة أو رواية أو غير ذلك ويقول: «وقد أثبتنا الصواب».

ثانيًا: طبعة أولاد الشيخ. تحقيق مجموعة من الباحثين:

- وهي طبعة جيدة في مجملها، أثنىٰ عليها عددٌ من أهل العلم المعاصرين، وتقع في خمسة عشر مجلدًا، وهي مقابَلة علىٰ النسخة الأزهرية -التي هي الأصل في طبعة الشعب- ونسخة خطية كاملة بدار الكتب المصرية، كذا ذُكِرَ علىٰ غلافها، وتخريجها للأحاديث موسع وجيد ودقيق، وقد استفدنا منها -ولا شك-، وفق منهجنا المتبع في الاستفادة من جهود السابقين دون أن نكون عالة عليهم أو مقلدين لهم بلا بحث وتنقيب عن أوجه الصواب، فأخذنا -بحمد الله ﷻ- ما ظهر لنا أنه الصواب الذي عندهم، وتجنبنا الأخطاء التي وقعوا فيها، وذلك فيما يتعلق بالأخطاء العلمية المنهجية القادحة أو اختيار للمرجوح دون الراجح.

❑ **ويمكننا أن نجمل أهم ما أخذناه علىٰ طبعة «أولاد الشيخ» من الناحية العلمية المنهجية في النقاط التالية:**

(١) عدم وصف المخطوطات التي اعتمدوا عليها وصفًا علميًّا دقيقًا في المقدمة، وعدم بيانهم النسخ التي اعتمدوها أصلًا، وكذلك لم يذكروا مرادهم بالرموز التي اعتمدوها في الحواشي للفروق بين النسخ الخطية مع كثرتها، واقتصر الأمر علىٰ عدة صور للمخطوطتين في نهاية الدراسة وقبل الشروع في الكتاب، وذلك يُعَدُّ قصورًا علميًّا شديدًا كما لا يخفىٰ.

(٢) ويضاف إلىٰ ما ذُكِرَ من عدم وصف المخطوطتين وصفًا علميًّا ترتاح إليه نفوس طلاب العلم المحققين: ما ذكره د. حكمت بشير في مقدمة تحقيقه عن النسخة الخطية التي ذكر محققو طبعة أولاد الشيخ اعتمادهم عليها، وهو ما جاء في قوله: (...خصوصًا أني لم أفلح بنسخة «دار الكتب المصرية» التي أعْتبِرُها من أقوىٰ النسخ حسب النسخ المذكورة، وكنت أتوقع أن أحصل علىٰ نسخ أخرىٰ كنسخة «دار الكتب المصرية»، ولكني بلغني من طريق الأستاذ سعد الصميل أنه حاول أن يُصَوِّرها ولكن فوجئ أن النسخة الخطية لا توجد في دار الكتب ومكانها فارغ!!). اهـ.

(٣) عدم عنايتهم ببيان أوجه الصواب من الخطأ للاختلافات الواقعة بين النسخ الخطية، وذلك فيما

يتعلق بمتون الأحاديث أو أسماء الرجال ، فلم يعينوا الصواب ويحددوه سواء في الأصل أو الحاشية، وفي كثير من الأحيان يثبتون الخطأ في الأصل، وذلك مع وجود الصواب في الحاشية لوجوده في نسخة خطية أو أكثر، وقد سبق أن نبهنا في تعليقنا علىٰ نسخة طيبة علىٰ مخالفة هذا المسلك للنهج الصحيح.

(٤) عدم اعتمادهم إلا علىٰ نسخة خطية واحدة «ملفقة»، وهذا الأمر يحدث قصورًا في ضبط النص والاعتماد عليه، ويعلم ذلك كل من له دراية بتحقيق المخطوط والعمل في هذا المجال، وقد سئل فضيلة الشيخ محمد الفالح عن طبعتهم فقال: «هي سيئة من حيث التحقيق، فلم يعتمدوا إلا علىٰ نسخة ملفقة غير كاملة!!»، والشيخ معروف بعنايته بكتب التفسير عمومًا، وتفسير ابن كثير علىٰ وجه الخصوص، وإن كنا نرىٰ من خلال دراستنا لسائر الطبعات المعتمدة من تفسير ابن كثير أن وصفها بالسيئة فيه لون من ألوان المبالغة الشديدة!! فهي لا تقل عن طبعتي طيبة وابن الجوزي وربما فاقتهم في بعض المزايا.

(٥) تباين دقة التحقيق بين مجلداتها من الناحية العلمية، وذلك يشمل ضبط النص وتخريج الأحاديث، وقد أرجع البعض ذلك إلىٰ اشتراك أربعة محققين في إخراجها، فأنت عند مطالعتك لها تجد أن المجلدات الأولىٰ (خاصة الأول والثاني) أفضل من بقية الكتاب.

ثالثًا: طبعة «الشعب». تحقيق:

د/ محمد إبراهيم البنا - محمد أحمد عاشور. - عبد العزيز غنيم.

- وهي أفضل الطبعات -في حينها- وأقدمها، وذلك فيما يتعلّق بالنص المثبت فيها، وأما النقص الموجود بها فلا يعد نقصًا بمعنىٰ سقط في النسخ، ولكنه يرجع إلىٰ اعتماد محققيها علىٰ النسخة الأزهرية فقط، **وهي تمثل العرضة الأولىٰ لتفسير ابن كثير، حيث من الواضح أنه رَحِمَهُ اللَّهُ قام بمراجعته وعرضه أكثر من مرة، فزاد في المرات التالية ما لم يثبته في الأولىٰ - وهذا الأمر يكاد يكون محل اتفاق بين المشتغلين بهذا الكتاب العظيم، وبهذا يتضح وجه الزيادة والنقص في مخطوطات ابن كثير، فالأمر يرجع إلىٰ زيادات زادها الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكن ذكرها في أول الأمر.**

- ولِمَا سلف ذكره فقد خلت طبعة الشعب من نقولات كثيرة وردت في الطبعات الأخرىٰ عن بعض الأئمة مثل: [الرازي، والزمخشري، والقرطبي]، فالنقل عن هؤلاء الأئمة غير موجود بطبعة الشعب، وإنما زاده الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذلك.

- وعلىٰ ما سلف ذكره فإن المقتني لطبعة الشعب، وإن حاز الإجادة للمتن الوارد فيها، إلا أنه ينقصه تلك الزيادات الموجودة في طبعات أخرىٰ، وهي ما ورد في نسخ خطية بخلاف الأزهرية التي اعتمدت عليها طبعة الشعب، مما يجعل طبعتها ناقصة عن بقية الطبعات التي اعتمدت نُسَخًا خطية أخرىٰ.

- وأما فيما يتعلق بتخريج الأحاديث وتحقيقها والحكم عليها في هذه الطبعة فهي مختصرة،

والكثير من الأحاديث لم تَلْقَ عناية حديثية من محققي الكتاب، ولك أن تقول: إنها تقريبًا غير مخرجة أو محققة الأحاديث إلا من عزو الحديث للمصدر المنصوص عليه في كلام ابن كثير، وهذا ما يُعَدُّ تحصيل حاصل، فابن كثير يقول مثلًا: (رواه ابن ماجة) فتجد في الحاشية مثلًا: (سنن ابن ماجة في باب الثناء الحسن: ١٤١١).

- ولا يخفىٰ علىٰ أحد من المشتغلين بمجال تحقيق المخطوطات أن الاعتماد علىٰ مخطوطة واحدة للعمل، دون نظر في عدد من المخطوطات أو النسخ المطبوعة- يحدث خللًا في التحقيق ولابد، وهذا مما يؤخذ علىٰ طبعة الشعب، فهي لم تعتمد إلا علىٰ المخطوطة الأزهرية فحسب.

وإن كان لأصحابها العذر في أنها صدرت في زمن متقدم نسبيًّا قبل أن يتاح ما أتيح لأهل زماننا من تيسر وسائل تحصيل المخطوطات، وهي بهذا الاعتبار تعد من حيث قراءة المخطوط وبقطع النظر عن مسألة التخريج أفضل نسخة من هذه الجهة.

- هذا، وقد تميزت طبعتهم كذلك بشرح ماتع للغريب، تعدُّ فيه هذه الطبعة هي الطبعة الرائدة، وهو ما استفدنا منه في طبعتنا بقدر كبير مع زيادات زدناها من كتب اللغة وشروح دواوين السُّنة.

❑ **تنبيه حول الزيادات الواردة في طبعة الشعب:**

علىٰ الرغم من عدم اعتماد طبعة الشعب إلا علىٰ المخطوطة الأزهرية إلا أننا نجد زيادات كثيرة بها ليست في المخطوطة، وذلك بعد مطابقتنا لهذه الزيادات علىٰ المخطوطة الأزهرية، وهي راجعة إلىٰ اعتمادهم علىٰ المصادر التي نقل منها ابن كثير، وهذا جانب محمود، **إلا أن هذه الزيادات التي زادوها علىٰ المخطوط تنقسم إلىٰ ثلاثة أنواع:**

(١) **الأولىٰ**: زيادات وضعوها دون أن يحددوها أو ينبهوا عليها، ولم يبينوا مصدرها، فهذا خطأ علميٌّ واضح.

(٢) **الثانية**: زيادات وضعوها بين معكوفتين ولم يعلقوا عليها، ولم يبينوا مصدرها، وهذا خطأ علمي كذلك وإن كان أخف قليلًا.

(٣) **الثالثة**: زيادات وضعوها بين معكوفتين وعلقوا عليها ونسبوها إلىٰ مصادرها، ومعظمها من التفاسير المطبوعة (الطبري، وابن أبي حاتم) وغيرهما[1].

- وفي المجمل يُسْتَدْرك علىٰ محققي طبعة الشعب أنهم حين يذكرون في الحاشية ما ورد في

---

(١) هذا وقد اعتمد محقق طبعة طيبة على متن طبعة الشعب، واعتبرها كلها أصلًا بالزيادات الثلاثة التي سبق الكلام عنها، هكذا دون تنبيه، فهو يتعامل معها على أنها الأزهرية تمامًا، وهذا خطأ منهجي فادح خاصة مع تيسُّر وسائل التمييز والتحقق.

مصادر السنة لا ينصون علىٰ الصواب من الخطأ، وخذ مثالًا علىٰ ذلك الحاشية (٢) من (٨/ ٢٩٦)، فإنهم أثبتوا في الأصل (عطاء بن زيد بن مسعود) وذكروا في الحاشية: (كذا في مخطوطة الأزهر، وفي أسد الغابة «يزيد») ولم يبينوا الصواب، وهو (يزيد).

- وعلىٰ ما سبق فإن أكثر ما يؤخذ علىٰ طبعة الشعب اعتمادها علىٰ مخطوطة واحدة فقط، وكثرة اجتهادهم فيها، وهذا الاجتهاد يعتريه الصواب والخطأ، وهذا عين ما ذكره الشيخ سامي بن محمد السلامة وقد اعتمد علىٰ طبعتهم اعتمادًا كبيرًا وجعلها أصلًا، فقال: (... وبالتتبع فإنها نسخة جيدة -يقصد المخطوطة الأزهرية- لكنها لا توصف بأنها أصح النسخ، بل غيرها أفضل منها لو كمل، **وقد اعتمدت علىٰ طبعة دار الشعب المأخوذة من هذه النسخة لأمرين:**

الأول: أني حاولت الحصول علىٰ مصورة لهذه النسخة فلم أستطع، فأرسلت إلىٰ المكتبة طلبًا للتصوير، ثم أرسلت الطلب بصورة رسمية عن طريق جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم علمت بعد ذلك أن هذا دأب هذه المكتبة، وأُخْبِرْتُ عن طرق لاستخراج المخطوطة من هذه المكتبة لكن هذه الطرق ليست موافقة لعملي.

الثاني: أن عمل الإخوة في طبعة الشعب عمل جيد في إخراج النص حسب ما ورد في المخطوطة، ولهم اجتهادات أصابوا في بعضها وأخطؤوا في بعضها، فأقررتهم علىٰ ما أصابوا فيه، ولم أوافقهم علىٰ ما أخطؤوا فيه....)[1] اهـ.

- أضف إلىٰ هذا ما أشرنا إليه آنفًا من عدم تميزهم بين الصواب والخطأ فيما أثبتوه من فروق بين المخطوطة الأزهرية ومصادر السنة والتخريج.

رابعًا: طبعة دار «ابن الجوزي»:

تحقيق أ.د حكمت بن بشير بن ياسين تقع في سبع مجلدات «قطع كبير»:

- وهي طبعة فاخرة جدًّا من ناحية الطباعة والتجليد، استكمل فيها الدكتور حكمت حَفِظَهُ اللَّهُ ما قام به الشيخ أبو إسحاق الحويني حَفِظَهُ اللَّهُ من تحقيق الكتاب، فالجزء الأول منها يشتمل علىٰ كتاب «فضائل القرآن»، و «مقدمة ابن كثير»، و «الفاتحة»، وحتىٰ الآية (١٤١) من سورة البقرة، وكل هذا من تحقيق الشيخ المحدث أبي إسحاق الحويني حَفِظَهُ اللَّهُ، وقد قام الدكتور حكمت باختصار التعليقات فيه.

- **وبالإجمال:** فإن طبعة الدكتور حكمت بن بشير جيدة في الجوانب التي تتعلق بشرح الغريب، والتعليق علىٰ القراءات، والتمسك بالمخطوطة «الأزهرية» فحسب، علىٰ الرغم من توفر مخطوطات أخرىٰ كثيرة لدىٰ الدكتور حكمت، فهو يثبت ما في «الأزهرية» علىٰ أي وضع كان، وذلك دون تصويبه إلا في النزر اليسير، وأكاد أجزم بعدم رجوعه إلىٰ مصادر السُّنة وكتب الرجال

---

(١) مقدمة تفسير ابن كثير ط: طيبة (١/ ٣٤).

رغم ما ذكر في منهج تحقيقه من رجوعه إلىٰ مصادر المؤلف لتحرير النص[١].

وهذا قد يرجع إلىٰ إسناد هذه الأعمال العلمية إلىٰ مجموعة من الباحثين، وهذا الاحتمال راجع إلىٰ أننا نُجلُّه عن الوقوع في مثل هذه الأخطاء، وأعجب ما في هذا أن طبعته تالية لطبعات مثل : «الشعب»، و«أولاد الشيخ»، و«طيبة»، وكلهم تقريبًا أجود منها من الناحية العلمية.

- أيضًا بالطبعة مواضع سقط عديدة، وذلك لما ذكرناه مرارًا من أن المخطوطة الأزهرية تُعَدُّ أول ما كتبه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، لذا فطبعة الدكتور حكمت بها سقط كثير.

- وما سبق ذكره لا يعني أنها خلت من الفوائد أو أننا لم نستفد منها، بل نحن نأخذ عليه أنه لم يستفد من جهود السابقين فكيف لا نستفيد نحن منه ومن غيره؟!

❑ **جملة من الأخطاء الشديدة الواقعة في طبعات سابقة لنا:**

- أيها القارئ الكريم قد ذكرنا مرارًا في الصفحات السابقة أننا استفدنا كثيرًا من جهود السابقين لنا، بل اعتبرنا -والأمر كذلك- أن عدمَ قِيام المحقق بالاستفادة من الجهود العلمية السابقة لعمله نقيصةٌ أخذناها علىٰ بعض الطبعات، ولكن قد يتبادر إلىٰ الذهن أننا عالة علىٰ السابقين، وأن هذا العمل الذي بين يديك لم يضف جديدًا في جانب التصويب والإتقان، ونحن -ويعلم الله- من هذا الباب فحسب نشير هنا ونذكر جملة من الأخطاء الواقعة في طبعات سابقة لنا ترتفع عن كونها أخطاءً مطبعية، بل وتقع تحت بند الأخطاء المنهجية العلمية، حتىٰ يتبين للقارئ الكريم أننا استفدنا ولم نقلد، وإنما شققنا طريقًا لم يكن سهلًا، اقتبسنا الصحيح الجيد مع نسبته، وتجنبنا الخطأ دون أن نُشَهِّر بأحد، فنظرُنا -بحمد الله- نظر مدقق متبصر، وليس حاطب ليل، أو جامع دون دراية.

- هذا، وقد آثرنا ذكر الخطإ مع بيان اسم السورة ورقم الآية التي ورد تحتها، وأَتْبَعْنَا ذلك بذكر الصواب، وأَعْرضنا -عمدًا- عن تسمية الطبعة التي ورد فيها الخطأ، وذلك ديانةً، وحتىٰ نغلق بابًا قد فتحه البعض من التشهير بمن سبقوه دون اعترافٍ لهم بالفضل، وهذا مما قد تختلط فيه الأغراض، نسأل الله ﷻ أن يدفع عنا شرور أنفسنا، وشرور المغرضين، وأن يهدينا سبل السلام.

- وينبغي أن تعلم - أيها الأخ الكريم- أن ما سنذكره هنا هو طرف من هذه الأخطاء لا كلها، وهي -بحمد الله- تفي بالغرض من ذكرها، وتُظهر لك ضرورة قيامنا بهذا العمل والخدمة لهذا الكتاب العظيم مع عدم إنكارنا لفضلِ السابقين وجهودهم التي لولاها ما كان لعملنا أن يخرج في هذه الصورة التي بين يديك الآن،**وهذه النماذج جاءت علىٰ النحو الآتي:**

(١) جاء في إحدىٰ الطبعات: (وقد استدل القرطبي لابن حجر بصحة قول القائل)، وصوابه:

---

(١) مقدمة طبعته (١/ ١٧) البند السابع.

(وقد استدل القرطبي لابن جرير بصحة قول القائل)، وذلك في تفسير سورة الفاتحة الآية (٢).

(٢) وجاء في إحداها: (وإليه ذهب الأعمش معمر بن راشد)، وصوابه: (وإليه ذهب الأعمش ومعمر بن راشد)، وذلك في تفسير سورة البقرة الآية (١٨٧).

(٣) وجاء: (ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن مهران عن الأعمش به)، وصوابه: (ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن مهران الأعمش به)، وذلك عند تفسير الآية (٢٦١) من سورة البقرة، وسليمان بن مهران الأعمش مشهور معروف!!

(٤) وجاء في إحداها: (أظل الله عينًا في ظله)، والصواب: (أظل الله عبدًا في ظله)، والتصويب موافق لما في «المسند»، وذلك في تفسير سورة البقرة الآية (٢٨١).

(٥) وجاء في إحداها: (مجاهد وابن جبير)، وصوابه: (مجاهد بن جبر)، وذلك عند تفسير الآية (٣١) من سورة المائدة.

(٦) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (حدثنا محمد بن يعمر)، وصوابه: (محمد بن معمر)، وهو علىٰ الصواب في ثلاث نسخ خطية، وعند البزار، وفي كتب الرجال، وقد ورد هذا في تفسير سورة الإسراء (٧١، ٧٢).

(٧) وجاء كذلك: (عن الضحاك بن أبي جبيرة)، وصوابه: (عن أبي جبيرة بن الضحاك)، فالاسم انقلب، وصوابه ما ذكرنا، وهو الأنصاري المدني، وذلك عند تفسير الآية (١٩٥) من سورة البقرة.

(٨) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (ورواه محمد بن يحيىٰ العبدي في مسنده)، وهو خطأ وصوابه: (ورواه محمد بن يحيىٰ العدني في مسنده)، وهو الحافظ ابن أبي عمر العدني (ت: ٢٤٣ هـ)، وذلك عند تفسير الآية (٧-٩) من سورة آل عمران.

(٩) وجاء: (حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن نميلة)، وصوابه: (حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن نملة)، وهو الكوفي، وذلك عند تفسير الآيات (١٨-٢٢) من سورة المؤمنون.

(١٠) وجاء كذلك في إحدىٰ الطبعات: (سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه يخطب يقول -وأومأ بأصبعيه إلىٰ أذنيه-، يقول: مثل القائم)، وصوابه: (سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه يخطب يقول - وأومأ بأصبعيه إلىٰ أذنيه سمعت رسول الله ﷺ يقول: مثل القائم). والرواية علىٰ الصواب في «مسند أحمد» (٤/ ٢٦٩)، وهو حديث مرفوع بخلاف المثبت في هذه الطبعة علىٰ الخطإ فإنه جعل الحديث موقوفًا، وذلك عند تفسير الآية (٢٥) من سورة الأنفال.

(١١) وجاء: (قال أبو الطيب [الحسن بن هانئ] المتنبي)، وهو خطأ فادح، والصواب حذف ما بين المعقوفتين وعدم زيادتها، فأبو الطيب المتنبي هو أحمد بن الحسين بن الحسن. وذلك عند تفسير الآية (١٩٩، ٢٠٠) من سورة الأعراف.

(١٢) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن زيد بن ماجة القزويني)،

وصوابه: (وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني)، وهو الإمام ابن ماجة المعروف، وذلك عند تفسير الآية (٦٨، ٦٩) من سورة النحل.

(١٣) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (عن معمر بن سليمان)، وهو خطأ بيِّن، وصوابه: (عن معتمر بن سليمان)، وهو الراوي المشهور، وذلك عند تفسير الآيات (٢٠-٢٦) من سورة المائدة.

(١٤) وجاء كذلك: (عن بندار غندر)، وصوابه: (عن بندار عن غندر)، وهو خطأ واضح خاصة لطلاب الحديث، وذلك عند تفسير الآية (٩٠-٩٣) من سورة المائدة.

(١٥) وجاء كذلك: (عن صُدَيِّ بن عجلان عن أبي أمامة)، وهو خطأ بيِّن واضح، وصوابه: (عن صدي بن عجلان أبي أمامة) وهو الصحابي المعروف، وذلك عند تفسير الآية (١٣٢-١٣٥) من سورة الأعراف.

(١٦) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (لأن المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير)، وهو خطأ فادح، وصوابه: (لأن المؤرِّج أحد علماء اللغة والتفسير)، وهي بكسر الرَّاء المشددة السدوسي، أحد أصحاب الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو من طبقة سيبويه والنضر بن شميل (ت ١٩٥ هـ)، وذلك عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

(١٧) وجاء في إحدىٰ الطبعات القديمة المتداولة: (وهذا إسناد لا يقدح به)، وهذا خطأ شديد، وصوابه: (وهذا إسناد لا يفرح به)، وهذا بخلاف الجملة الأولىٰ تمامًا التي لا تستقيم بحال مع قول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في السند: (من طريق محمد بن السائب الكلبي -وهو متروك- عن أبي صالح)، وذلك عند تفسير الآية (٥٤-٥٦) من سورة المائدة.

(١٨) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد)، وهو خطأ شديد، وصوابه: (أرسلني خالي عبد الله بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد)، وهو في النسخة الأزهرية علىٰ الصواب، و«عثمان بن مظعون» متوفىٰ سنة ٢ هـ، أي: قبل الأحزاب، وأما عبد الله فمتوفىٰ سنة ٣٠ هـ، وذلك عند تفسير الآيتين (٩، ١٠) من سورة الأحزاب.

(١٩) وجاء في أكثر من طبعة: (ورواه الترمذي عن قلابة)، وصوابه: (ورواه الترمذي عن ثلاثة)، لأن الترمذي رواه عن ثلاثة، وهم: علي بن خشرم، ونصر بن علي، ومحمد بن يحيىٰ بن أبي عمر، وليس فيهم قلابة، وذلك عند تفسير الآية (٣) من سورة التوبة.

(٢٠) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (حديث آخر: [قال الإمام أحمد]، قال عبد بن حميد في مسنده)، وهذا خطأ شديد، وصوابه حذف ما بين المعقوفتين، والأدهىٰ من هذا قولهم في الحاشية: (أخرجه أحمد). وهو لم يخرجه من حديث بلال، وعزوه لمسند أحمد من حديث بلال خطأ، وذلك عند تفسير الآية (٢٤) من سورة الأنفال.

(٢١) وورد في إحدىٰ الطبعات: (وكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن مجاهد)، وهو خطأ،

وصوابه: (مجالد)، والعجيب أن محقق هذه الطبعة أشار للصواب في الحاشية وذكر وجوده في نسختين خطيتين، وذلك عند تفسير الآيات (٣٢ - ٣٤) من سورة المائدة.

(٢٢) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (قال علي بن أبي طالب والعوفي)، وهو خطأ شديد صوابه: (قال علي بن أبي طلحة والعوفي)، وذلك عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢٣) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (حدثنا إسماعيل عن عبد الله بن مسعود)، وهو خطأ فادح، وصوابه: (حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود)، وهو: إسماعيل بن عبد الله بن مسعود العبدي الأصبهاني الحافظ المعروف بـ(سَمُّويه) (ت ٢٦٧ هـ)، وذلك عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأعراف.

(٢٤) وجاء في إحدىٰ الطبعات في الحديث المرفوع: «إن علمتم فيهم حرفة ولا ترسلوهم كلابًا علىٰ الناس»، وهو خطأ فادح، وصوابه: (إن علمتم فيهم حرفة ولا ترسلوهم كَلًّا علىٰ الناس»، وهذه خطأ يحيل المعنىٰ، وذلك علىٰ الرغم من وجوده بنسخة خطية، وفي كتاب «المراسيل» لأبي داود، وذلك عند تفسير الآية (٣٢-٣٤) من سورة النور.

(٢٥) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (سنيد بن شكل)، وصوابه: (شتير بن شكل)، وذلك عند الآيات (٥٣-٥٩) من سورة الزمر.

(٢٦) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (السَّفر بن بشير)، وصوابه: (السَّفير بن نسير)، وذلك عند تفسير الآيات (٢٧-٤٠) من سورة الواقعة.

(٢٧) وجاء في إحدىٰ الطبعات: (عن أبي وائل سفيان بن سلمة)، وهو خطأ، وصوابه: (عن أبي وائل شقيق بن سلمة)، وذلك عند تفسير الآيتين (٢٥، ٢٦) من سورة الفتح.

(٢٨) وجاء في إحدىٰ الطبعات في أماكن عديدة منها: (عمرو بن عنبسة)، وصوابه: (عمرو بن عبسة)، وهو الصحابي المشهور، وإنما وقع المحقق في هذا الخطإ، لأن الوارد في النسخة المعتمدة أصلًا لديه (عمرو بن عنبسة)، وهو خطأ مكرر، وذلك عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢٩) وجاء كذلك: (عمر بن شيبة)، وصوابه: (عمر بن شبَّة)، وذلك عند تفسير الآيات (١-٣) من سورة غافر.

(٣٠) وجاء كذلك: (بشر بن حجاج)، وصوابه: (بُسْر بن جِحَاش)، وذلك عند تفسير الآيات (٢٦-٤٠) من سورة القيامة.

- ونكتفي هنا بسرد هذه النماذج، والتي نرىٰ أن فيها الكفاية لإيصال المقصود، وليس هذا هو كل ما وقفنا عليه، ولكننا أردنا الإشارة فحسب، ولنبين أن اقتباسنا من هذه الطبعات كان بدراية ودقة، وليس مجرد نقل فحسب.

(٩)

منهجنا وعملنا في تحقيق الكتاب وخدمته

نودُّ قبل أن نذكر منهجنا في تحقيق الكتاب نتناول بعض الأمور التمهيدية لبيان التأصيل العلمي للمنهج الذي تخيرناه في تحقيقنا لنص الكتاب وخدمته:

- **يقول الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان في كتابه الماتع «تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل»:**

(الذي يُجيل النظر في واقع التحقيق اليوم يقف علىٰ ما يبعث الأسىٰ والحسرة من العبث الذي يُمنىٰ به تراثنا، وتجأر نفائسه بمر الشكوىٰ علىٰ أيدي بعض من أقحموا أنفسهم في ساحة التحقيق دون بصر ودراية تؤهلهم للقيام بهذه المهمة الشريفة بما تحمله في طياتها من أهداف نبيلة في بعث تراثنا وإحيائه، وقد استسهل بعضهم هذه المهمة وتصور أنها لا تعدو أن تكون عملًا آليًّا، فأقدم علىٰ خوض غمارها دون أن يعد العدة لذلك، وما درىٰ أن التعامل مع المخطوطات وتحقيقها ليس بالأمر السهل أو الهين كما يتبادر إلىٰ أذهان بعض شُدَاة التحقيق ممن أقدم في أيامنا هذه علىٰ ميدانه دون دراية تامة بأصوله، ووَعْيٍ بحقيقته، مع شيء من الجهل، وضيق ذات اليد من العلم، ومع ذلك راحوا يتسابقون بلا رَوِيَّةٍ واكتراث علىٰ تحقيق المخطوطات، والعمل علىٰ نشرها وإخراجها بأي شكل، إذ كان بعضهم يحث الخطىٰ، ويلهث لكي يخرج عمله بأسرع وقت قبل أن يسبقه أحد إلىٰ إخراجه، إما لغرض شخصي، أو تجاري، ولا شك أن ذلك كثيرًا ما يكون علىٰ حساب إتقان العمل، والبعد عن النهج القويم لأصول التحقيق التي لا ينهض بها إلا من هو مؤهل لها علمًا وفهمًا وإدراكًا ودراية)[1]اهـ.

- قلت: ولو كان الأمر لدىٰ كبار المحققين من أمثال: الشيخ العلامة محمود شاكر، والشيخ العلامة المحدث أحمد محمد شاكر، والمحقق النحرير عبد السلام هارون، والشيخ المحقق محمد فؤاد عبد الباقي - يقتصر علىٰ كونه عملًا آليًّا لوجدنا لكل محقق منهم إصدارات في شتىٰ العلوم، وكذلك الأمر عند سلف الأمة، وإن المُراجِع لخدمة علماء الأمة لتراثها ليقطع أن الأمر يعتمد علىٰ التخصُّص في المقام الأول، وليس مجرد حرفة أو مهارة، وإلا لوجدنا لكل عالم ومحقق جملة من الكتب في علوم وفنون متنوعة وهذا ما لا وجود له، وبعبارة أوضح: لو كان الأمر يقتصر عندهم علىٰ مجرد مهارة قراءة خط الناسخ لوجدناهم يتناولون بالتحقيق مخطوطات في أي فرع من الفروع العلمية، ومعلوم لدىٰ الكافة أن الأمر ليس كذلك.

---

(١) «تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل» (ص:٤٢).

❑ «إخراج الكتاب كما أراده مصنفه»: كلمة حق يراد بها باطل:

- هذه العبارة عندما أطلقها كبار المحققين إنما أرادوا بها التحذير من تدخُّل المحقق في عبارة المُصَنِّف، وأنه لا يُسمح له بإدخال مذهبه أو معتقده فيما أراده المصنف، ولكن أكثر المعاصرين - هداهم الله- إنما أرادوا -بعمد أو غيره- من رفع هذا الشعار تحويل العمل العلمي التحقيقي الضخم الشاق إلىٰ مجرد مهارة في قراءة المخطوط، ونسوا أو تناسوا عن عمدٍ أن ما بين أيدينا معظمه عبارة عن نُسخ خطية كتبها بعض النساخ ممن امتهنوا نسخ الكتب وكانت لهم وسيلة للتكسُّب، وأن الخطأ واردٌ عليهم، فحالهم أشبه بحال مكاتب الصف والمراجعة التي تقوم علىٰ إخراج الكتب وإعدادها للطباعة مع بعض الفروق النوعية، ولكن القدر المشترك بينهما هو أنهما واسطة بيننا وبين المؤلف فلا يمكن أن يعد النص هنا أو هنا هو كلام المصنف من كل وجه، وإن كان النساخ يتفاوتون كما أن أهل الصف يتفاوتون في زماننا من حيث التحري والإتقان والضبط والدراية بالعلم واللغة ونحو ذلك، فلماذا نُحَمِّل عمل الناسخ للمُصَنِّف ونزعم أنه أراده؟ وأنها إرادته؟!!

لا سيما وبين أيدينا نسخ خطية أخرىٰ للكتاب ورد فيها الوجه الصواب، وهو ما ينفي زعمهم أن الخطأ ورد بالأصل. والسؤال هنا مَن جعله أصلًا وألزم به المصنف؟!!

- إن الغاية التي يصبو إليها هؤلاء -فيما يبدو لنا- تختلف وتتباين عن مراد الأولين تمامًا، إنهم يريدون أن يختزلوا عملية التحقيق في مجرد قراءة المخطوط وإثبات فروق النسخ فحسب، هكذا دون رجوع إلىٰ مصادر التحقيق من مُصنفات أخرىٰ للمُصَنِّف، أو كتب أخرىٰ أُلِّفت في عصره، أو علىٰ مذهبه، أو في موضوع الكتاب، أو مصادر لغوية وتراثية أخرىٰ، وقد أشار غير واحد من العلماء منهم الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره إلىٰ أهمية الرجوع إلىٰ مصادر المؤلف أو المصادر ذات الصلة بالكتاب في مجال التصحيح والتقويم[1]، ولا نرىٰ غرضًا من وراء هذا إلا تصويب أخطاء الناسخين.

❑ والسؤال الذي نطرحه علىٰ المشتغلين بهذا المجال في أيامنا هذه -ويعلم الله أن غرضنا تصويب المسار- هو: هل تحوَّل تحقيق التراث إلىٰ مجرد تحويل ما نسخه الناسخ إلىٰ كلمات تكتب بالحاسوب؟!!

- وإذا كان المحققون قد اتفقت كلمتهم -تقريبًا- علىٰ تصويب الخطأ الوارد في الآيات القرآنية، فلماذا لا يصوب الخطأ الوارد في غيرها شريطة أن يَقْطَع بهذا الخطإ محققٌ مدقق متخصص، لا سيما مع وجود الصواب في نسخة خطية أخرىٰ، أهذا أولىٰ وأحرىٰ أم تحميل خطأ الناسخ للمصنف العالم والإمام الجليل؟!

(١) راجع «تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل» (ص: ١٧٦-١٧٩).

- وإن لم يكن لهذه الخطوة العلمية اعتمادٌ لدي كبار المحققين، فلماذا ينصون جميعًا علىٰ ضرورة الرجوع إلىٰ المصادر الأخرىٰ والبحث والتحري لتصويب النص وتحريره وتقويمه؟!

- **أقول هنا، وبالله التوفيق:** وأعجب من هذا ما نجده في بعض النسخ المحققة المطبوعة من فراغ (بياض)، ويعلق عليه المحقق بقوله في الهامش: (بياض بالأصل)، علىٰ الرغم من كونه جزءًا من حديث مثلًا، فالمحقق أو الباحث لم يكلف نفسه الرجوع إلىٰ المصادر الأصلية ودواوين السنة ليكمل هذا البياض حتىٰ ولو في هامش الكتاب أو في الأصل بين أقواس، وهل أراد المصنف هذا البياض؟! وهل إخراج الكتاب هكذا هو ما أرداه المصنف؟! وهل في ذلك أي غاية علمية أو منهجية؟!

- وأما فيما يتعلق بكتابنا هذا علىٰ وجه التحديد «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، **فقد نَصَّ العلامة الشيخ المحدث أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ ضرورة سلوك هذا المنهج في تحقيقه ليخرج بصورة علمية صحيحة، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:** (... تداولت المطابع في مصر طَبْعَهُ طبعات تجارية، ليس فيها تصحيح ولا تحقيق ولا مراجعة، إنما اعتمدوا طبعة المنار، فأخذوها بما فيها من أغلاط، ثم زادوها ما استطاعوا من غلط أو تحريف، فكان انتفاع الناس بهذا التفسير العظيم انتفاعًا قاصرًا، لما امتلأت به طبعاته من غلط وتحريف، يجب معها أن يعاد طبعه طبعة علمية محققة، يُرْجَع فيها إلىٰ النسخ المخطوطة منه ما أمكن، **ثم الرجوع إلىٰ مصادر السُّنة التي ينقل عنها المؤلف الإمام الحافظ، وإلىٰ مراجع رجال الحديث والتراجم، لتصحيح أسماء الرجال في الأسانيد - وهم شيء كثير وعدد ضخم...)**[1] اهـ.

- فها هو ذا المحقق العلامة النحرير أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ ينص علىٰ ضرورة الاعتماد علىٰ النسخ المخطوطة في المقام الأول وهذا ما لا يمكن لأحدٍ أن يهدره في مجال التحقيق، ثم الرجوع إلىٰ مصادر السنة ومراجع رجال الحديث والتراجم، وما الفائدة من ذلك إن كان المراد- من التحقيق إثبات ما في المخطوط أيًّا كان، ثم إرهاق القارئ بإثبات الفروق بين النسخ علىٰ خطىٰ المستشرقين؟!

بل إننا قد نذهب إلىٰ أبعد من هذا، وهو أن المؤلف القديم كان يَرِد عليه السهو والخطأ وسبق القلم، فحتىٰ لو كتب النسخة بيده ثم بدر منه خطأ نتيقن أنه لا يقصده وهو عين ما يقع لأهل العلم في زماننا حيث يجدون لأنفسهم أخطاء سبق بها قلمهم حين يراجعون ما كتبته أيديهم، فلماذا لا نُبيِّن ذلك في الأصل إذا كان مما لا خلاف فيه ويُوَضَّح في الهامش، وبهذا نجمع بين أمانة النقل وحق القارئ الذي كثيرًا ما يقرأ دون نظر في الهامش فيظن الخطأ صوابًا.

❑ **هل التحقيق هو إرهاق القارئ بكثرة الحواشي لإثبات الفروق بين النسخ؟**

- إنني لفي غاية العجب من تحويل التحقيق إلىٰ مجرد إيراد كم هائل من الحواشي لإثبات الفروق بين النسخ بزعم الدقة والإتقان والأمانة العلمية!!! وهذه الأمور -أعني الدقة والإتقان

---

(١) مقدمة عمدة التفسير (١/ ٩).

والأمانة- نفتقدها تمامًا عند بحث مهم من نحو تصويب لفظة في متن حديث أو اسم راوٍ من رواته، أو حتىٰ أحيانًا نص آية من آيات كتاب الله ﷻ.

- وفي هذا الصدد تجد أمورًا عجيبة من نحو وضع هامش علىٰ قول المصنف: (قال الإمام أحمد)، فتترك القراءة وتهبط بنظرك أسفل الصفحة، لتجد الباحث المحقق! يقول: في (أ)، و(ب)، و(ت): (وقال الإمام أحمد)، يعني بزيادة الواو وهذا الباحث بعينه في مواطن أخرىٰ من الكتاب يأتي بطامة علمية ما كان لها أن تقع لو كلَّف نفسه مراجعة مصدر من مصادر كتب الرجال أو متون الأحاديث مثلًا.

- والأعجب من هذا أنه كلما كثرت الهوامش والحواشي دل هذا عند البعض علىٰ جودة الطبعة ودقة التحقيق، وما هذا في الحقيقة إلا إساءة للتحقيق والبحث العلمي، وفي هذا الصدد يقول العلامة محمود محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فهذا «المنهج العلمي» أو «علم التحقيق» الذي يختال المختال في طيلسانه - ليس إلا دروسًا أنشأها جماعة من أغتام[1] الأعاجم في زماننا، فتلقنوها عنهم حفظًا عن ظهر قلب، فإذا جاء أحدَهم كتابٌ أو وقع في يده نظر، فإذا كانت القواعد المحفوظة مطبقة في هوامش الكتاب فذاك الكتاب، ذاك الكتاب «المحقق»، فإذا لم ير أثرًا ظاهرًا في هوامش الكتاب يطابق المحفوظ من القواعد فهو كتاب «غير محقق» «كتاب رديء جدًّا» يقوله قائلهم، رافعًا هامته، ناصبًا قامته، مصعرًا خدَّه، زامًّا بشفتيه وأنفه كهيئة المتقزز المتقذر، بهؤلاء وأشباههم تفشىٰ وباء تحقيق الكتب علىٰ هذه القواعد المحفوظة، وشوّه وجهَ الكتاب العربي هذا السيلُ الجارف بما يحمل من غثاء وخفاء وقذر. هذا عجبٌ!)[2].

❑ كلمة ذهبية للشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ في إثبات الصواب في أصل الكتاب وعدم الإكثار من الهوامش:

- يشير العلامة المحدث أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن السبب الرئيس في كثرة الهوامش والإبقاء علىٰ الخطأ في أصل الكتاب راجع إلىٰ الانبهار من قبل بعض المشتغلين في مجال التحقيق بمنهج المستشرقين، وذلك في قوله: (دأب المستشرقون، بما جهلوا من لغة العرب، وبما ضعُفت خبرتهم بالكتب علىٰ جمع أكثر ما يستطيعون جمعه من المخطوطات من الكتاب الذي يريدون إخراجه، ثم يخرج أحدُهم الكتاب كيفما واتَتْهُ خبرتُه، وأسعفه علمُه، فيثبت النص علىٰ الوجه الذي يفهمه، ويستقصي

---

(١) الأغتم: هو من لا يُفْصِح شيئًا، لعجمة في منطقه، وانظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٤٥)، و«المعجم الوسيط» (ص: ٦٦٧).

وقصده هنا بأغتام الأعاجم: المستشرقون الذين غلبت طريقتهم القاصرة علىٰ منهج تحقيق المخطوطات عند المسلمين الذين اتبعوهم حذو النعل بالنعل، ولا ريب أن فيها أمورًا منهجية مستحسنة وأخرىٰ رديئة، ولكن لما غلب الضعف العلمي علىٰ المسلمين وقلَّ فيهم النظر الفاحص والعين الناقدة وفشا فيهم التقليد والتسليم بكل ما يرد إليهم من جهة الغرب كان الأمر كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) برنامج طبقات فحول الشعراء (ص:١٢)، نقلًا عن «تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل» (ص:٤٨).

في الهوامش اختلاف النسخ التي بين يديه، خطأً كان نصُّها أم صوابًا، **بل لقد رأيت منهم مَنْ جَانَبَهُ التوفيق في كثير من الإنصاف: فيثبت الخطأ في صلب الكتاب، والصواب في إحدىٰ النسخ بالهامش.** ومن الإنصاف: أن أذكر أن بعضهم -وهم قِلَّةٌ منهم- يُحسنُ إخراجَ الكتب علىٰ ما ينبغي لها من الإتقان.

- وقد قلَّدهم في الاستكثار من جمع المخطوطات في الكتاب المراد إخراجه - كثيرٌ ممن سبقونا إلىٰ هذا المجال، وقلدناهم في قليل مما أخرجنا من الكتب.

- ثم خَارَ اللهُ لنا وَوَفَّقَنا إلىٰ طريق الصواب، بفضله ومنّه ﷻ، فسلكنا الطريق القويم، طريق أئمتنا، أئمة الحديث: اختيار أصح النسخ وأوثقها، ثم النص علىٰ ما يخالفها في المواضع المهمة التي يُخْشَىٰ فيها اللبس علىٰ القارئ، والإعراض عن الخطأ البيِّن الذي لا شك فيه، وعن الخلاف بين النسخ فيما لا طائل تحته. والحمد لله علىٰ التوفيق)[1] اهـ.

- فهذا الكلام الماتع من العلامة أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ نخلص منه إلىٰ أمور مهمة في مجال تحقيق المخطوطات، أبرزها:

(١) الخلل العلمي لدىٰ من يثبتون الخطأ في صلب الكتاب والصواب في الهامش، وخاصة عند وجود الصواب في نسخة خطية أخرىٰ، وأن ذِكْر الخطأ في صلب الكتاب تحت دعوىٰ تحقيق النص الموجود هو جناية علىٰ المؤلف، وتقديس لعمل الناسخ الذي يَرِدُ عليه الخطأ، وهو أولىٰ به من المؤلف، لاسيما مع وجود الصواب في نسخة أخرىٰ أو في مصادر التخريج أو في المصادر العلمية الأخرىٰ.

(٢) وصية هذا المحقق الجليل بعدم الإكثار من الهوامش إلا عند الحاجة، وهذا ما لم يلتزمه أكثر المحققين؟!!

(٣) أن من مهام المُحَقِّق: الاجتهاد لاختيار أصح النسخ وأوثقها، ثم بعد ذلك تعديل الخطأ البيِّن، وخاصة مع وجوده في إحدىٰ النسخ، وهذا في نطاق ضيق.

(٤) أن العبرة ليست بمجرد الاستكثار من المخطوطات، فإن ذلك لا حدَّ له، فلا يصلح ضابطًا، وبالأخص إذا ما علمتَ أن معظم المخطوطات ينسخ بعضها من بعض[2]، فالعبرة بجودة المخطوط أو المخطوطات ودقتها وثبوتها ووفائها بمادة الكتاب.

(٥) يضاف هنا ما سبق أن ذكرناه من أن المخطوط نفسه يَرِد عليه الخطأ، وأن بعض النسخ يصوِّب بعضًا، وأن المصادر التي ينقل عنها المخطوط مرجع أصيل في تصويب الأخطاء وجبر

---

(١) من مقدمة تحقيقه لكتاب «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» (ص:١٥).

(٢) خاصة أن كثيرًا من تلك النسخ كان مجرد تكرار محض، إذ المقصود الأصلي من عمل الناسخ هو بيعها لمن يقتنيها من أهل العلم، فهي تناظر النسخ التي تطبعها الآلات اليوم، ولم يكن المقصود الأصلي هو التأصيل لكلام المؤلف، ولهذا فلا يجوز أن تعتبر كل نسخة أصلًا للكتاب حتى يتبين أنها كذلك بعد التحري.

النقص والسقط، وكذلك دلالات السياق، وموافقة قواعد اللغة، وحتىٰ المعلومات التاريخية والحقائق المتفق عليها بين علماء الفن الذي تنسب إليه المخطوطة، كل ذلك وغيره يصلح مرجحًا بشرط أن يبين في الهامش أن هنا موضع تعديل وأنه في الأصل كذا وصار كذا.

*ويضاف لما سلف أن العبرة عند الاختلاف في النسخ يرجع إلىٰ ما هو أقرب لزمان المؤلف، وأوثق ثبوتًا في نسبتها إليه، أما النسخ التي كتبت في زمان المؤلف فالأمر فيها بالعكس، إذ العبرة بما هو متأخر منها إذا ثبت عرضها علىٰ المؤلف، وخاصة إذا وقع فيها حذف أو إضافة.

هذا، وقد سرنا بحمد الله وتوفيقه علىٰ هذا المنهج سالف الذكر، وراعينا قواعده وضوابطه العلمية، مع استفادتنا من سائر طبعات الكتاب العلمية المعتمدة السابقة لعملنا، فنحسب أننا -بتوفيق الله- حصَّلنا الخير الذي تضمنته، وتجنبنا ما اعتراها من أوجه القصور والخلل.

❑ وهنا تنبيه مهم:

- كلامُنا السابق لا يعني بحال من الأحوال من الأحوال امتناع الخطإ والسهو علىٰ أئمتنا الأعلام، ولكن مرادنا بيان أن المُحقق من مهامه التمييز بدقة علمية بين السهو والخطإ من الإمام وبين سَبق القلم أو خطإ الناسخ، فمثلًا: الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ قال عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة: (بدليل ما ثبت في الصحيحين)، وصوابه: (صحيح مسلم)، فالحديث من أفراد مسلم ولم يخرجه البخاري.

فهذا وهمٌ بلا شك، لسهولة وروده من الإمام لا سيما مع وجوده هكذا في كل النسخ الخطية، وهنا يأتي دور المحقق في الإشارة إليه والتنبيه عليه، وهو ما قمنا به علىٰ مدار التفسير كله، أعني الإشارة إلىٰ أوهام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

- ومن ذلك ما ورد في بعض الطبعات لتفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عند الآية (١٨٧) من سورة (البقرة): (وإليه ذهب الأعمش معمر بن راشد)، فمنذ متىٰ كان الأعمش هو معمر بن راشد!!! وصوابه: (الأعمش ومعمر بن راشد).

- أو مما رد في بعض الطبعات عند الآيات (٥٤-٥٦) من سورة المائدة علىٰ إسناد قَدَح فيه الحافظ ابن كثير نفسُه من قولهم: (وهذا إسناد لا يقدح به)، وصوابه: (وهذا إسناد لا يفرح به)، فكيف يستقيم من الحافظ ابن كثير الطعن في الإسناد ببيان حال الكلبي ثم قوله: (لا يقدح به)!!!

❑ **وقد جاء عملنا في تحقيق الكتاب وخدمته في ثمان نواحٍ، وهي علىٰ النحو التالي:**

- أولًا: ضبط متن الكتاب ونصه: وقد جاء علىٰ النحو التالي:

(١) جعلنا المخطوطة الأزهرية التي سيأتي وصفها أصلًا، ورمزنا لها بالرمز (ز)، فقمنا بنسخها وخدمتها خدمة علمية لغوية دقيقة، وذلك فيما يتعلق بضبط بعض الكلمات التي هي بحاجة إلىٰ ذلك، مع وضع علامات الترقيم وتقسيم الفقرات، ونحو ذلك.

(٢) قابلنا المخطوطة الأزهرية علىٰ نسخ خطية أخرىٰ كنسخة «الحرم المكي» وغيرها مما سيأتي وصفه مع إثبات الفروق ذات القيمة في هامش الكتاب.

(٣) راجعنا المخطوطة الأزهرية علىٰ طبعة «الشعب» حيث اعتبرها محققوها أصلًا عندهم، وذلك من باب الأمانة والدقة العلمية، ولئلا نعتمد علىٰ عمل السابقين لنا دونما ضبط أو تحرير، وأثبتنا الفوارق بينهما، وتبين لنا أنواع من الزيادات زادها المحققون لطبعة الشعب غير موجودة بالأزهرية، منها ما أشاروا إلىٰ مصادرها، ومنها ما أهملوا ذكر ذلك فيه، وقد سبق التنبيه علىٰ ذلك.

(٤) راجعنا كل فروق النسخ والهوامش التي أثبتها محققو الطبعات العلمية السابقة لنا، ومن أهمها:

(أ) طبعة دار طيبة تحقيق. سامي سلامة.

(ب) طبعة أولاد الشيخ تحقيق مجموعة من الباحثين.

(جـ) طبعة دار ابن الجوزي تحقيق أ د. حكمت بشير ياسين.

(د) طبعة الشيخ أبي إسحاق الحويني حَفِظَهُ اللهُ.

والغرض من هذا هو الوقوف علىٰ جهودهم في الفروق بين النسخ، وما تميزنا به في ذلك هو تحرير أوجه الصواب والخطإ في هذه الفروق، فذكرنا الصواب في أصل الكتاب مع التنبيه علىٰ ذلك، وذكرنا هل هو موجود في الأصل أم في نسخة خطية أخرىٰ أم من مصادر السنة؟ وأحيانًا نذكر الخطأ في الحاشية، ونبين من أين أتينا بالتصويب والذي يكون في الأغلب من مصادر التخريج حتىٰ يكون القارئ الكريم علىٰ بينة من أمره.

(٥) التزمنا بالرجوع إلىٰ المصادر الأصلية لتفسير ابن كثير لتوثيق بعض النصوص، وتصويب بعض الأخطاء، ومن أهم ما رجعنا إليه في هذا الصدد:

- كتب السنة المسندة: كالكتب الستة، وغيرها، وكتب المسانيد، ومعاجم الطبراني، وغير ذلك.

- تفسير الطبري. - تفسير ابن أبي حاتم.

- كتب الرجال: كتهذيب الكمال، وتهذيب التهذيب، والكامل في الضعفاء، وميزان الاعتدال، ولسان الميزان، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم، والتاريخ الكبير للبخاري، وأسد الغابة، والإصابة وغيرها، وذلك لضبط أسماء الرواة وتصويب الأخطاء الواقعة فيها.

- ثانيًا: تحقيق الأحاديث والآثار وتخريجها تخريجًا علميًّا دقيقًا:

وهذا الجانب من تحقيق الكتاب هو عمل فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي حَفِظَهُ اللهُ، ونكتفي هنا بالإحالة علىٰ المقدمة الخاصة به، ولكننا نشير فقط إلىٰ سابق خدمته لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، وذلك في كتابه الماتع «هداية المستنير في تخريج أحاديث ابن كثير»، وتتميز خدمته الحالية إضافة إلىٰ تخريج الأحاديث النبوية (المرفوعة) أنه حَفِظَهُ اللهُ توسع في تحقيقها، وقام بتخريج الآثار الموقوفة والمقطوعة كذلك، بالإضافة إلىٰ تحلية التعليقات بذكر أحكام العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ علىٰ أكثر الأحاديث المرفوعة في الكتاب.

- ثالثًا: تعليقات وفوائد أئمة التفسير:

- وهذه التعليقات ضَمَّنَّاها نفائس كتب التفسير، وقد جَمَعَتْ زُبَدَ كلام كبار المفسرين من القدماء والمحدثين والمعاصرين، بدقة وعناية علمية بالغة، وَفْق منهج علميٍّ رصين، يراعي جانب الفائدة العلمية، وأن تتحلىٰ الاختيارات بما يميزها: كأن تكون مُلَحًا ولطائف، أو أن تكون جوامع كلية، أو ترجيحًا لخلاف دقيق، أو حلًّا لمشكلة أو معضلة، أو تقييدًا لفائدة شاردة، أو ردًّا لشبهات المستشرقين، أو غير ذلك مما يتمم مقاصد التفسير، وابتعدنا عما يفعله البعض من مجرد «القص واللصق» لأقوال العلماء، وذلك لمجرد ذكر أن طبعاتهم اشتملت علىٰ فوائد لهؤلاء العلماء، هكذا دونما أدنىٰ مراعاة لأسس الاختيار أو القواعد العلمية المتبعة في هذا الصدد، فالله يعلم مقدار ما فتشنا فيه من كتب وبذلنا من وقت وجهد لتتبع تلك الفوائد.

❑ **هذا، وقد جاء عملنا في هذه الخدمة تحديدًا علىٰ النحو الآتي:**

(١) قمنا بقراءة الكثير من كتب التفسير قراءةً فاحصة، وذلك بُغْيَةَ انتقاء الفوائد التفسيرية بعناية ومنهجية.

(٢) وكان من أهم المصادر التي جُمعت وتكوَّنت منها هذه التعليقات ما يلي:

- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية للدكتور الجليند، والمجلدات: الرابع عشر إلىٰ السابع عشر من مجموع الفتاوىٰ.
- التفسير القيم من كلام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن).
- تفسير الشنقيطي (أضواء البيان).
- تفسير الشوكاني (فتح القدير).
- تفسير القاسمي (محاسن التأويل).
- تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن).

- تعليقات للشيخ العلامة أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ من كتابه «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير- مختصر تفسير القرآن العظيم».

- تعليقات للشيخ العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ من كتبه المتنوعة.

- تعليقات الشيخ العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ من كتابه «تفسير القرآن الكريم».

- تفسير الشيخ أبي بكر جابر الجزائري (أيسر التفاسير).

(٣) راعينا في اختيار الفوائد من هذه التفاسير أن تكون حاشية علمية حقيقية، وليست تسويدًا للصفحات وتضخيمًا للكتاب، أو لكتابة أسماء العلماء علىٰ غلاف الكتاب دون ضوابط علمية، فعَضَّ عليها يدًا، فهي إضافة قيمة جديرة بهذا التفسير القيم.

(٤) راعينا في الفوائد التي أوردناها أن تكون من جنس الفوائد الجامعة، والنكات العلمية النافعة، واللفتات القرآنية والملح الماتعة.

(٥) حرصنا كذلك علىٰ تدوين ما يزيل الإشكال عند مواطن الاختلاف بين المفسرين التي ذكرها الحافظ ابن كثير، وذلك لإزالة اللبس، وسلامة المعتقد وصحة الفهم عن الله عَزَّوَجَلَّ.

- رابعًا: شرح معاني المفردات المُشْكِلة وغريب الحديث:

- «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تميز بالوضوح وسهولة عبارته وعدم غموضها، ولكنه كبقية كُتِبَ التراث كتب بلغة عربية تتناسب مع عصره الذي دُوِّن فيه، ولذلك فإن القارئ والمطالع له يجد بعض الكلمات والمفردات التي تحتاج إلىٰ عناية من قِبل الباحثين للوصول إلىٰ شرحها وبيان معناها، وهذا ما قمنا به في هذه الخدمة لهذا الكتاب العظيم.

- يضاف إلىٰ ما سلف ذكره: شرح غريب الألفاظ الواردة في ثنايا الأحاديث والآثار، فتفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ من الكتب التي تندرج تحت كتب «التفسير بالمأثور»، وقد ترتب علىٰ ذلك ذكر عدد هائل من نصوص الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة، وهي لا شك تتضمن كلمات تحتاج إلىٰ شرح وبيان، وذلك بالرجوع إلىٰ المعاجم، وكتب غريب الحديث، وكتب الشروح، **ويتلخص عملنا في هذا الجانب في النقاط التالية:**

(١) عُنِينا بقراءة نص الكتاب قراءة كاملة، وذلك بعد ضبط النسخة لتحديد المفردات التي تحتاج إلىٰ تفسير وشرح.

(٢) رجعنا في بيان معاني المفردات إلىٰ المعاجم نحو: «لسان العرب»، «القاموس المحيط»، و«المعجم الوسيط» ... وغيرها، واعتمدنا في الكثير منها علىٰ طبعة «الشعب»، فهي - كما سبق ذكره - تعد طبعة رائدة في هذا الباب، أعني: شرح الغريب.

(٣) راجعنا شروح الأحاديث لتفسير الغريب، ومن أهمها:

- «فتح الباري شرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر العسقلاني.
- «شرح صحيح مسلم» للإمام النووي.
- «عون المعبود شرح سنن أبي داود» للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي مع شرح العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.
- «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير.
- «فيض القدير شرح الجامع الصغير» للعلامة المناوي.

(٤) راعينا الاختصار في تناول تلك المفردات بالشرح والبيان حتىٰ لا يتضخم حجم الكتاب، فالغرض منها إزالة الغموض فحسب.

- **خامسًا: تخريج القراءات التي أوردها الحافظ ابن كثير في تفسيره:**

- وقد قام بهذا الجهد علىٰ وجه الخصوص الشيخ أبو محمد محمد بن إبراهيم بن شحاته حَفِظَهُ اللَّهُ، ونحيل هنا إلىٰ المقدمة التي كتبها حول منهجه في هذا الصدد.

- **سادسًا: التعريف بالمفسرين والأعلام:**

- نقل الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عن عدد كبير من أئمة التفسير من أصحاب النبي ﷺ والتابعين وعلماء الإسلام، فقمنا بإعداد مبحث للتعريف بهم، وأوردناه في مقدمة التفسير حتىٰ يتسنىٰ للباحث الرجوع إليه متىٰ شاء، وأبرزنا في هذا المبحث القيمة العلمية للمُتَرْجَم له، وخلاصة منهجه في التفسير، إذ هو المقصود الأول من التعريف به، وأتبعنا ذلك بترجمة أهم أعلام التفسير بعد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، وخاصة من نقلنا عنهم الفوائد التي سبقت الإشارة إليها في حاشية الكتاب، وذلك من باب تمام الفائدة.

- **وقسمناهم إلىٰ أربع مجموعات:**

الأولىٰ: ذكرنا فيها المفسرين من الصحابة رضي الله عنهم.

والثانية: من التابعين وأتباعهم.

والثالثة: من الحفاظ وأئمة التفسير الذين نقل عنهم الحافظ ابن كثير في الكتاب.

والرابعة: من علماء التفسير بعد الحافظ ابن كثير، وبالأخص من نقلنا عنهم في تعليقاتنا علىٰ الكتاب.

- **سابعًا: فهرسة الفوائد العلمية واللطائف التفسيرية:**

وقد استوعب هذا الفهرس جميعَ الفوائد (اللغوية، والأصولية، والفقهية، والعقدية، والحديثية..) وغيرها من تفسير ابن كثير مُرَتَّبَةً ومُبَوَّبةً ليسهل الوصول إليها دون عناء أو مشقة.

- وهذه الخدمة -بحمد الله تعالىٰ- تكاد تكون من أهم مميزات طبعتنا هذه، ومن الأمور التي

تفردت بها هذه الطبعة عن غيرها من الطبعات حتىٰ العلمية منها، وذلك فيما يتعلق بطبعها مع التفسير، وإن كان الكتاب قد خُدِمَ ببعض هذه الجوانب وطُبِعَت هذه الجهود مستقلة عن التفسير.

ـ ويتلخص عملنا في هذا الجانب علىٰ النحو الآتي:

١ ـ قرأنا التفسير كله قراءة متأنية، وذلك بعد ضبط نصه، لاستخراج الفوائد العلمية في أبواب:

أ- اللغة. ب- العقيدة. جـ- الفقه.

د- أصول الفقه. هـ- الفوائد والترجيحات التفسيرية.

و- الفوائد الحديثية: وتتضمن الحكم علىٰ الأحاديث والرجال.

ز- الإجماعات: وقد سردنا كل موطن عَدَّهُ الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أو غيره إجماعًا.

٢ ـ قَسَّمْنا هذه الفوائد ورتبناها علىٰ حسب الموضوعات داخل كل نوع منها، فالفوائد الفقهية مثلًا قُسِّمَتْ علىٰ أبواب الفقه: الطهارة ، والصلاة ، والجنائز، والزكاة، والنكاح والطلاق والأطعمة والأشربة... وهكذا، والفوائد العقدية قُسِّمَتْ علىٰ: الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، وكذلك أبواب الإيمان، والقدر، والأسماء والصفات... وهكذا.

٣ـ رتبنا هذه الفوائد ترتيبًا علميًّا دقيقًا، وربطنا كل فائدة بالآية التي وردت في تفسيرها مع ذكر الجزء والصفحة كذلك.

٤ ـ راعينا في الترتيب تكرار إيراد الفائدة في كل باب تتعلق به، فالفائدة مثلًا التي حكىٰ فيها الإجماع علىٰ حكم فقهي، أوردناها في أبواب الإجماع، وفي أبواب الفقه، والفائدة التي بها ترجيح تفسيري وتتعلق بجانب عقدي، أوردناها في أبواب الفوائد التفسيرية، وفي أبواب العقيدة... وهكذا.

ثامنًا: التعليق علىٰ أوهام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ نفسه:

وذلك فيما ظهرت لنا في ثنايا عملنا في تحقيق نص الكتاب، وتخريج الأحاديث، ونبهنا علىٰ كل موطن يتعلق بذلك، وقد استفدنا كذلك - من باب الأمانة العلمية التي نسأل الله أن يرزقنا إياها والثبات عليها- من كتاب «التحبير للأوهام والتنبيهات في تفسير ابن كثير» لـ(أبي عبيدة هاني الحاج) حَفِظَهُ اللَّهُ، وقد نقل فيه الكثير من تعليقات العلماء علىٰ أوهام ابن كثير في تفسيره، وخاصة العلَّامة المحدث: محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، وكذلك فضيلة الشيخ علَّامة اليمن مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ، فأضفناها في مواطنها تتميمًا للفائدة، واقتصرنا علىٰ تحققنا من باب الوهم، بخلاف ما قد يدخل في باب: «خلاف الأولىٰ» أو «اختيار القول المرجوح».

تاسعًا: راعينا عند تلوين بعض الآيات باللون الأحمر أن يكون ذلك الأمر متعلقًا بفائدة علمية:

فاقتصرنا عند ذلك علىٰ تلوين الآية (أو جزء الآية) عند أول ورود له فحسب، حتىٰ يسهل علىٰ القارئ الكريم الوصول إلىٰ مبتغاه من التفسير بسهولة ويُسر.

(١٠)

مبحثٌ في التعريف بأهم مصطلحات علوم القرآن الواردة بكثرة في «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير

- غرضنا من إعداد هذا المبحث اللطيف المختصر هو تعريف القارئ الكريم بأهم المصطلحات التي ترد كثيرًا في كلام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره، وذلك حتىٰ يتجلَّىٰ له المراد منها، وآثرنا أن نجعلها في مبحث بمقدمة الكتاب حتىٰ يتسنىٰ للقارئ الكريم الرجوع إليها متىٰ شاء، وذلك أولىٰ من التحشية بها في كل موطن ترد فيه بالكتاب.

- ولا يخفىٰ علىٰ القراء الكرام -خاصة المتخصصين منهم- أن هذا الباب صُنِّفَتْ فيه العديد من الكتب[1]، وعملنا هنا قاصرٌ علىٰ بيان المعنىٰ الاصطلاحي بين أهل العلم للمصطلح المراد بيان معناه، وأعرضنا عمدًا عن بيان المعنىٰ اللغوي أو الاختلافات حول المصطلح، واكتفينا بالمعنىٰ الاصطلاحي الذي ترجح لدينا، وبإمكان القارئ الكريم العودة إلىٰ المصادر التي ذكرناها أو غيرها للاستزادة حول بيان معنىٰ المصطلح الذي يريد ذلك فيه، وبالله تعالىٰ التوفيق.

(١) الفرق بين «علوم القرآن» و«أصول التفسير»:

- يخلط كثير من الباحثين بين المصطلحين، وهذا خطأ يحتاج إلىٰ بيان بالأخص أنك إذا فتحت كتابًا من الكتب المتعلقة بـ«أصول التفسير» وجدت كثيرًا من مباحث «علوم القرآن»، ويقول في ذلك الدكتور مساعد بن سليمان الطيار: «... إذا تأملت الأمر وجدت أن التفسير جزءٌ من علوم القرآن، بل هو أكبر علومه.

فالتفسير -الذي هو بيان القرآن وشرحه وإيضاحه- من علوم القرآن، وفي علوم القرآن غير التفسير من العلوم...، فكل ما هو من علوم التفسير فهو من علوم القرآن قطعًا... فعلم (عد الآي) من علوم القرآن وليس من علوم التفسير؛ لأن علم التفسير يقوم بدونه...

---

(١) ومن أهم هذه الكتب:

(أ) «الإتقان في علوم القرآن» لجلال الدين السيوطي. ط: المكتبة العصرية.

(ب) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي. ط: دار المعرفة.

(ج) «المحرر في علوم القرآن» للدكتور/ مساعد بن سليمان الطيار. ط: معهد الإمام الشاطبي.

(د) «مباحث في علوم القرآن» للقطان. ط: مكتبة وهبة.

(هـ) «موسوعة علوم القرآن» للدكتور/ عبد القادر منصور. ط: دار القلم العربي.

- ويمكن اختصار القول هنا بما يأتي:

١- إن كانت المعلومة -من علوم القرآن- لا أثر لها في فهم المعنىٰ، فهي من علوم القرآن وليست من علوم التفسير، كمعرفة فضائل سورة الإخلاص، فإنها من علوم القرآن لأن معرفتها أو جهلها لا يؤثر في فهم المعنىٰ.

٢- وإن كانت من المعلومات التي تؤثر في فهم المعنىٰ؛ كمعرفة غريب الألفاظ، فهي من علوم التفسير، ومن علوم القرآن من باب أولىٰ)[1]. اهـ.

(٢) الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي:

- يقول الشيخ مناع القطان: (... الحديث -أي: النبوي- في الاصطلاح: ما أضيف إلىٰ النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة...

والحديث القدسي في الاصطلاح: هو ما يضيفه النبي ﷺ إلىٰ الله تعالىٰ، أي أن النبي ﷺ يرويه علىٰ أنه من كلام الله، فالرسول راوٍ لكلام الله بلفظ من عنده، وإذا رواه أحدٌ رواه عن رسول الله مُسندًا إلىٰ الله ﷻ... ومثاله: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالىٰ: أن عند ظن عبدي بي...**»[2].

- والفرق بين القرآن والحديث القدسي:

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي أهمها:

١- أن القرآن الكريم كلام الله أُوحِيَ به إلىٰ رسول الله بلفظه، وتحدَّىٰ به العرب، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعَشر سور مثله، أو بسورة من مثله، ولا يزال التحدي به قائمًا، فهو معجزة خالدة إلىٰ يوم الدين.

- والحديث القدسي لم يقع به التحدي والإعجاز.

٢- والقرآن الكريم لا ينسب إلا إلىٰ الله تعالىٰ، فيقال: قال الله تعالىٰ. والحديث القدسي -كما سبق- قد يُروىٰ مضافًا إلىٰ الله...، وقد يروىٰ مضافًا إلىٰ رسول الله ﷺ.

٣- والقرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر، فهو قطعي الثبوت، والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد، فهي ظنية الثبوت، قد يكون الحديث القدسي صحيحًا، وقد يكون حسنًا، وقد يكون ضعيفًا.

٤- والقرآن الكريم من عند الله لفظًا ومعنىٰ، فهو وحي باللفظ والمعنىٰ، والحديث القدسي معناه من عند الله، ولفظه من عند الرسول ﷺ علىٰ الصحيح؛ فهو وحي بالمعنىٰ دون اللفظ، ولذا تجوز روايته بالمعنىٰ عند جمهور المحدثين.

٥- والقرآن متعبد بتلاوته، فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة...، وقراءته عبادة يثيب الله عليها...، والحديث القدسي لا يجزئ في الصلاة...)[(١)]. اهـ.

(٣) المكي والمدني:

- المكي والمدني مصطلحان مرتبطان بالمكان والزمان، ومن العلماء من اعتبر المكان فحسب، فما نزل بمكة فهو مكي، وما نزل بالمدينة فهو مدني، ومنهم من اعتبر الزمان فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، ومن العلماء من اعتبر تحديد المكان مع ذكر الزمان فيكون بذلك قد جمع بين الأمرين.

- قال الشيخ مناع القطان: (... أقرب ما قيل في تعداد السور المكية والمدنية إلىٰ الصحة، أن المدني عشرون سورة:

١- البقرة	٢- آل عمران	٣- النساء	٤- المائدة	٥- الأنفال
٦- التوبة	٧- النور	٨- الأحزاب	٩- محمد	١٠- الفتح
١١- الحجرات	١٢- الحديد	١٣- المجادلة	١٤- الحشر	١٥- الممتحنة
١٦- الجمعة	١٧- المنافقون	١٨- الطلاق	١٩ التحريم	٢٠- النصر.

وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة:

١- الفاتحة	٢- الرعد	٣- الرحمن	٤- الصف	٥- التغابن
٦- التطفيف	٧- القدر	٨- البينة	٩- الزلزلة	١٠- الإخلاص
١١- الفلق.	١٢- الناس.			

وأن ما سوىٰ ذلك مكي، وهو اثنتان وثمانون سورة، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة.

- الآيات المكية في السور المدنية: لا يقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك، فقد يكون في المكية بعض آيات مدنية، وفي المدنية بعض آيات مكية، ولكنه وصف أغلبي حسب أكثر آياتها)[(٢)]. اهـ.

(٤) أسباب النزول:

- **يقول الدكتور مساعد بن سليمان الطيار**: (نزول القرآن لا يخرج عن قسمين:

الأول: أن لا يكون له سبب مباشر، بل ينزل حسب الحاجة والمصلحة.

---

(١) «مباحث في علوم القرآن» للقطان (ص/ ١٨-٢١) بتصرف.

(٢)انظر: «مباحث في علوم القرآن» (ص/ ٤٦-٦٠)، وكذلك: «المحرر في علوم القرآن» (ص/ ١٠٠-١١٩).

الثاني: أن يقع حدث فينزل قرآن بشأنه، وهذا هو المراد بأسباب النزول...

ويمكن صياغة أسباب النزول كالآتي: كل قول أو فعل أو سؤالٍ ممن عاصروا التنزيل نزل بشأنه قرآن...

فائدة: مما يحسن ملاحظته أن ترتيب السور والآيات لم يكن علىٰ ترتيب نزولها، بل تنزل الآيات علىٰ الأسباب خاصة، وتوضع كل واحدة منها مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن وحسن السياق، وهاهنا قاعدة لطيفة ذكرها الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) قال: «... الزمان إنما يشترط في سبب النزول، ولا يشترط في المناسبة؛ لأن المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها»)[1]. اهـ.

ولمعرفة أسباب النزول فوائد عديدة أهمها فهم المراد من الآية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (معرفة سبب النزول يُعين علىٰ فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب)، ولا ينبغي أن ينتج من ذلك تضييق عموم لفظ الآية، فإن كلمة العلماء تكاد تتفق علىٰ أن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، ولكن كما ذكر شيخ الإسلام وغيره أن سبب النزول يفيد في تعيين المعنىٰ المراد من الآية، ومن ثم تعميمه.

(٥) فضائل السور:

- **يقول الدكتور مساعد بن سليمان الطيار**: (إن التفضيل بين السور والآيات يحتاج إلىٰ النقل المحض، فلا يصلح في هذا الباب الاجتهاد... والملاحظ أن السور التي ورد فيها فضائل أقلُّ من السور التي لم يرد فيها فضائل، وبما أن الأصل في التفضيل النقل عن النبي ﷺ، فإنه يحرم الكذب فيها كما حصل من بعض الزهاد الذي أرادوا الترغيب بالقرآن فاعتمدوا الكذب في هذا الباب، والعياذ بالله. وممن اشتهر بالكذب في هذا الباب نوح بن أبي مريم المعروف بنوح الجامع (ت ١٧٣ هـ)، وميسرة بن عبد ربه)[2]. اهـ.

(٦) الناسخ والمنسوخ:

- يقول مناع القطان: (تنزل التشريعات السماوية من الله تعالىٰ علىٰ رسله لإصلاح الناس في العقيدة والعبادة والمعاملة، وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها علىٰ توحيد الألوهية والربوبية فقد اتفقت دعوة الرسل جميعًا إليها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء].

أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق في الأسس العامة التي تهدف إلىٰ تهذيب النفس والمحافظة علىٰ سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب

(١) «المحرر» (ص/ ١٢٤-١٢٦) بتصرف.

(٢) «المحرر في علوم القرآن» (ص/ ١٨٩).

أختها، وما يلائم قومًا في عصر قد لا يلائمهم في آخر، ومسلك الدعوة في طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء، فحكمة التشريع في هذه غيرها في تلك، ولا شك أن المشرِّع ﷻ يسع كل شيء رحمة وعلمًا، ولله الأمر والنهي ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء]، فلا غرابة في أن يُرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر)[1].اهـ

* **والنسخ في الاصطلاح**: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي.

* **والمنسوخ**: هو الحكم المرتفع، فآية المواريث مثلًا ناسخة لحكم الوصية للوالدين والأقربين.

* **ويشترط للقول بالنسخ شروطًا، وهي:**

(١) أن يكون الحكم المنسوخ شرعيًّا، فلا يعتبر إنكار العادات نسخًا.

(٢) أن يكون الدليل علىٰ ارتفاع الحكم خطابًا شرعيًّا متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه.

(٣) ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدًا بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يعد هذا نسخًا.

* **طرق معرفة الناسخ والمنسوخ:**

- **قال مناع القطان**: (ولمعرفة الناسخ والمنسوخ طرق:

١- النقل الصريح عن النبي ﷺ أوعن صحابي كحديث: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها**». وقول أنس في قصة أصحاب بئر معونة: «**ونزل فيهم قرآن قرأناه حتىٰ رُفع**».

٢- إجماع الأمة علىٰ أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.

٣- معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ.

- ولا يعتمد في النسخ علىٰ الاجتهاد، أو قول المفسرين، أو التعارض بين الأدلة ظاهرًا، أو تأخر إسلام أحد الراويين)[2]. اهـ.

---

(١) «مباحث في علوم القرآن» (ص/ ٢٢٣).

(٢) «مباحث في علوم القرآن» (ص/ ٢٢٦).

(١١)

تراجم موجزة لأعلام المفسرين من الصحابة والتابعين والأئمة

- نقل الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوال المفسرين من الصحابة ﷺ أمثال: (أبي بكر، وعمر، وابن عباس، وابن مسعود...)، والتابعين من أمثال: (قتادة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والحسن...)، وكذلك نقل أقوال أئمة المفسرين أمثال: (الطبري، والبغوي، والقرطبي، وابن الجوزي، والفخر الرازي،...)، وتفسيره ممتلئ بأقوالهم، وهذا أمر طبيعي لكتاب عظيم يوصف أول ما يوصف بأنه من التفسير بالمأثور...

- وقد رأينا من باب الفائدة أن نُعرِّف بهؤلاء الأئمة الأعلام في هذه المقدمة حتىٰ يتسنىٰ للقارئ الكريم مطالعة هذه التراجم متىٰ قابله اسم إمام من أئمة التفسير، وجعلنا ذلك في المقدمة دون حواشي الكتاب تجنبًا للتكرار، وراعينا في التعريف بهم إبراز وإظهار التميز في جانب التفسير علىٰ وجه الخصوص؛ لأنه المقصود الأول هنا، وهو بيان قيمة المترجم له في باب التفسير، وأما من أراد التوسع في التعريف بهم فليراجع كتب التراجم الموسعة مثل: «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و«البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيرها من كتب التراجم الموسعة.

- هذا، وقد اقتصرنا هنا علىٰ الأئمة والأعلام الذين نقل عنهم الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره[1]، وكذلك أبرز مَن جاء بعده، وخاصة من نقلنا عنهم في هامش التعليقات.

---

(١) ونشير هنا إلى بعض المؤلفات التي صُنفت في هذا الباب على وجه الخصوص لمن أراد الاستزادة، ومن أهمها:

(أ) «طبقات المفسرين» للسيوطي. الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة.

(ب) «طبقات المفسرين» للداوودي. ط: دار الكتب العلمية.

(ج) «طبقات المفسرين» لـ أحمد بن محمد الأدنروي. ط: العلوم والحكم.

المفسرون في الصحابة[١]

-قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإتقان»: «اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسىٰ الأشعري وعبد الله بن الزبير...»[٢].

(١) أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

هو عبد الله بن عثمان التيمي، أبو بكر بن أبي قحافة، الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ، ومكانته في العلم وأقواله في تفسير القرآن معلومة مشهورة، وإنما كانت عزيزة نادرة لتقدم وفاته، وكان رضي الله عنه شديد التحري في أن يقول في القرآن برأيه، قال ابن أبي مليكة: سُئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني! وأين أذهب، وكيف أصنع! إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالىٰ.

- ولذا ولغيره عدَّه البعض رائد مدرسة التفسير بالمأثور والمنقول، وكان رضي الله عنه أبعد ما يكون عن القول بالرأي.

(٢) عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل القرشي العدوي، الفاروق أمير المؤمنين، وأقواله في التفسير واستيعابه لمقاصد القرآن وأسباب النزول مشهورة معلومة، وفضائله في هذا الباب مشهورة، ومن أهمها نزول القرآن موافقًا لرأيه رضي الله عنه في بعض المواقف، وذلك فيما عُرف واشتهر بـ«موافقات عمر رضي الله عنه للقرآن الكريم»، ومنه ما ورد في سور [التحريم: ٥]، و[التوبة: ٨٠]، و[النور: ٥٨]، و[النساء: ٤٣]، ومن معرفته بأسباب النزول ما ورد في تفسير [المائدة: ٣].

- واشتهر رضي الله عنه كذلك بالتوقف فيما لا يعلم تفسيره وتأويله من القرآن الكريم.

(٣) عثمان بن عفان رضي الله عنه:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص الأموي، ذو النورين أمير المؤمنين، وفضائله في جمع الناس علىٰ المصحف الإمام مشهورة معلومة، وما كان في ذلك من تدارك للأمة، وكذلك مكانته في حفظ القرآن وكثرة تلاوته والعمل به مدونة مشهورة.

(٤) علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره علىٰ ابنته

---

(١) ذكرنا هنا ثمان عشر ترجمة لأهم من نُقل عنهم التفسير من طبقة الصحابة رضي الله عنهم، وقدمنا الخلفاء الأربعة ثم أكثر من روي عنه التفسير من الصحابة.

(٢) «الإتقان في علوم القرآن» (٤/ ٢٣٣).

فاطمة، وذريته ﷺ منهما، وهو رابع الخلفاء الراشدين، وأكثرهم قولًا في باب التفسير، وجمع رضي الله عنه إلىٰ جانب مهارته في القضاء والفتوىٰ علمَه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفي معانيه، فهو أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب».

(٥) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (حبر الأمة وترجمان القرآن):

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، حبر الأمة وترجمان القرآن، وكان علىٰ درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعاني كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة في الفتوىٰ والتفسير، وكان عمر رضي الله عنه يجلسه في مجلسه مع كبار الصحابة ويُدنيه منه، وكان يقول له: إنك لأصبح فتياننا وجهًا، وأحسنهم خلقًا، وأفقههم في كتاب الله. وهو الحائز علىٰ والفائز بدعاء رسول الله ﷺ: «**اللهم علمه الكتاب والحكمة**»، وفي رواية: «**اللهم فقِّهه في الدين وعلمه التأويل**».

قال الذهبي: «روي أنه لم يكن علىٰ وجه الأرض في زمانه أحد أعلم منه».

- وأما شبهة أخذه عن أهل الكتاب: فهي مردودة بكون ذلك فيما لا يتعلق بالعقائد، وأنه مقصور علىٰ القصص والأخبار السالفة، مع رد ما يخالف شريعتنا وعدم قبول كل ما يأتي منهم.

(٦) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، وأمه أم عبد بنت عبد ود من هذيل، وكان ينسب إليها أحيانًا، فيقال: ابن أم عبد، وكان رضي الله عنه خفيف اللحم قصيرًا شديد الأدمة، حسن الهيئة، طيب الرائحة موصوفًا بالذكاء والفطنة، وكان مقتدًىٰ به في معاني القرآن، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشًا بعد رسول الله ﷺ، وكان شديد الالتصاق برسول الله وصاحب طهوره وسواكه ونعله، ويمشي أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، حتىٰ لقد ظنه أبو موسىٰ الأشعري رضي الله عنه من أهل بيت رسول الله ﷺ، وكان من أحفظ الصحابة لكتاب الله، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن، وكان ﷺ يقول: «**من سَرَّه أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل فليقرأه علىٰ قراءة ابن أم عبد**».

وكان رضي الله عنه يقول: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تتناوله المطايا لأتيته».

وكان يقول رضي الله عنه: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتىٰ يعرف معانيهن والعمل بهن».

- وروىٰ أبو نعيم في «الحلية» عن أبي البحتري قال: قالوا لعلي: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: «علم القرآن والسنة».

- وابن مسعود هو أكثر من روي عنه في التفسير من الصحابة بعد ابن عباس رضي الله عنهما، وقد حمل علم ابن مسعود في التفسير أهل الكوفة نظرًا لوجوده بينهم.

- ولقبه البعض بـ(مؤسس مدرسة الرأي)، وفي هذا نظر إلا باعتبار إقامته رضي الله عنه بالكوفة، وأن مدرسة الرأي نشأت وانتشرت هناك، وأما كونه يعد من بين القائلين في القرآن برأيهم فهذا مردود، وكيف يستقيم هذا مع شديد علمه بالسُّنة ونصوصها، وهذا بشهادة جمع من الصحابة رضي الله عنهم وعلىٰ رأسهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قَدِمَ الكوفة فأتاه نفرٌ من أصحاب ابن مسعود، فسألهم عنه حتىٰ رأوا أنه يمتحنهم، فقال: وأنا أقول فيه مثل الذي قالوا وأفضل، قرأ القرآن، وأحلَّ حلاله، وحرَّم حرامه، فقيه في الدِّين، عالم بالسنة.

- ويضاف إلىٰ ما سبق النصوص التي يعترف له فيها الصحابة بالفضل والحفظ والعلم، كقول أبي موسىٰ: لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر فيكم (يعني: ابن مسعود).

- وتوفي رضي الله عنه سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع.

(٧) أُبي بن كعب رضي الله عنه:

هو أبو المنذر وأبو الطفيل، أبي بن كعب بن قيس من بني النجار الأنصاري الخزرجي، كان من السابقين إلىٰ الإسلام، وهو أحد المشهورين بحفظ القرآن من الصحابة، وبإقرائه، وقد قال فيه عمر رضي الله عنه: (أبيٌّ أقرؤنا) وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**وأقرؤهم أبيُّ بن كعب**».

- ومن فضائله أن النبي ﷺ قرأ عليه القرآن، وإنما قرأ عليه النبي ﷺ ليزداد علمًا بالقراءة من النبي ﷺ، ويزداد تثبيتًا فيها.

- وكان رضي الله عنه سيد القراء، وأحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعاني كتاب الله هو أنه كان حبرًا من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها، وكونه من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وهذا بالضرورة يجعله علىٰ علم بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

(٨) زيد بن ثابت رضي الله عنه:

هو أبو سعيد وأبو خارجة، زيد بن ثابت بن الضحاك النجاري الأنصاري، وهو أحد كتبة الوحي، وكان يكتب رسائل رسول الله ﷺ، وقال مسروق عنه: «كان من الراسخين في العلم»، وقال الشعبي: «غلب زيد بن ثابت الناس علىٰ اثنين: الفرائض والقرآن، وقال مسروق -أيضًا-: انتهىٰ علم أصحاب محمد ﷺ إلىٰ ستة، فذكره منهم.

- وقال سعيد بن المسيب: شهدت جنازة زيد بن ثابت، فلما دُلِّي في قبره قال ابن عباس: من سَرَّهُ أن يعلم كيف ذهاب العلم فهكذا ذهاب العلم، والله لقد دُفن اليوم علم كثير.

(٩) أبو موسىٰ الأشعري رضي الله عنه:

هو عبد الله بن قيس بن سُلَيم بن حضَّار الأشعري، كان أحسن أصحاب النبي ﷺ صوتًا، وكان من علماء الصحابة، استخلفه عمر رضي الله عنه علىٰ البصرة، فقام بتعليمهم العلم والفقه، وولي الكوفة أيضًا في زمن عثمان.

- قال الشعبي: كتب عمر ﷺ في وصيته: أن لا يُقَرَّ لي عامل أكثر من سنة، وأقرُّوا الأشعريَّ أربع سنين.

(١٠) **الزبير بن العوَّام** ﷺ:

هو الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي أبو عبد الله المدني، ابن عمة رسول الله ﷺ صفية بنت عبد المطلب ﷺ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو أول من سل سيفًا في سبيل الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبيٍّ حواري، وحواريِّي الزبير**»، وآخىٰ النبي ﷺ بينه وبين ابن مسعود ﷺ، وكان الزبير ﷺ من أعلم الصحابة بتفسير كتاب الله ﷻ.

(١١) **عبد الله بن عمر بن الخطاب** ﷺ:

- هو عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي أبو عبد الرحمن المكي ثم المدني، أسلم قديمًا مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحُلم، وهاجر معه، واستصغر يوم أحد، وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ.

- قال رسول الله ﷺ: «**إن عبد الله رجل صالح**». متفق عليه.

- وقال ابن مُحَيْرِيز يوم موت ابن عمر: والله إن كنت لأعُدُّ بقاء ابن عمر أمانًا لأهل الأرض.

- وقال الزهري: لا نَعْدل برأي ابن عُمر، فإنه أقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة، فلم يَخْفَ عليه شيء من أمره، ولا من أمرِ أصحابه.

(١٢) **عبد الله بن عمرو بن العاص** ﷺ:

- هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن، وهو من المكثرين عن رسول الله ﷺ، وروي عن أبي هريرة أنه قال: ما كان أحدٌ أكثر حديثًا عن رسول الله ﷺ مني إلا عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب، وكنت لا أكتب.

- وقال شُفَيُّ بن ماتع، عن عبد الله بن عمرو: حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مثل.

(١٣) **عبد الله بن الزبير بن العوام** ﷺ:

- هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي أبو بكر، وقيل: أبو خبيب المدني، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق.

- كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة، هاجرت به أمه حملًا، بايع رسول الله ﷺ، وتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثماني سنين وأربعة أشهر.

- كان ﷺ فصيحًا، ذا لسانٍ، وذا شجاعة وقوة، وكان أطلس لا لحية له، ولا شعر في وجهه، وكان علىٰ علم عظيم بكتاب الله ﷻ.

- بويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية سنة أربع، وقيل: سنة خمس وستين، وغلب علىٰ الحجاز، والعراقين، واليمن، ومصر، وأكثر الشام، وكانت ولايته تسع سنين، وقتله الحجاج بن

يوسف في أيام عبد الملك بن مروان، وذلك سنة (٧٢هـ).

(١٤) أبو الدرداء:

ـ عويمر بن مالك، وقيل: ابن عامر، وقيل: عويمر بن زيد بن قيس بن أمية الأنصاري، أبو الدرداء الخزرجي، صاحب رسول الله ﷺ.

ـ قال محمد بن إسحاق: كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: أتبعنا للعلم والعمل أبو الدرداء، وأعلمنا بالحلال والحرام معاذ بن جبل.

ـ قال عنه الإمام الذهبي في «السير» (٢/ ٣٣٥): (الإمام القدوة، قاضي دمشق، وصاحب رسول الله ﷺ... حكيم هذه الأمة، وسيد القراء بدمشق).

ـ وكان أبو الدرداء رضي الله عنه قد تصدَّر للإقراء بدمشق في خلافة عثمان رضي الله عنه.

ـ وعند البخاري في «صحيحه» عن أنس رضي الله عنه قال: «مات النبي ﷺ، ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد».

ـ ولما حضرت مُعاذًا الوفاةُ، قالوا له: أوصنا. فقال: (العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما -قالها ثلاثًا- فالتمسوا العلم عند أربعة: عند عويمر أبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وعبد الله بن سلام، الذي كان يهوديًا فأسلم).

وقال مسروق: وجدت علم الصحابة انتهىٰ إلىٰ ستة: عمر، وعلي، وأُبي، وزيد، وأبي الدرداء، وابن مسعود، ثم انتهىٰ علمهم إلىٰ عليٍّ، وعبد الله.

(١٥) سلمان الفارسي:

هو سلمان الخير الفارسي، أبو عبد الله بن الإسلام، أصله من أصبهان، وقيل: من رامَهُرْمُز، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، فهو سابق أهل فارس إلىٰ الإسلام، وأول مشاهده الخندق.

ـ قال ابن سعد: أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وكان قبل ذلك يقرأ الكتب ويطلب الدين، وكان عبدًا لقوم من بني قريظة وكاتبهم فأدَّىٰ رسول الله ﷺ كتابته وعُتق فهو مولىٰ بني هاشم.

ـ وقيل لعليٍّ رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين حدثنا عن سلمان الفارسي. فقال: (ذاك رجل منا أهل البيت، أدرك علم الأولين والآخرين، من لكم بلقمان الحكيم؟!).

ـ وقال الذهبي: كان لبيبًا حازمًا، من عقلاء الرجال وعُبادهم ونبلائهم.

ـ وقال قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: سلمان وعبد الله بن سلام.

(١٦) أبو هريرة رضي الله عنه:

ـ قال الإمام الذهبي رحمه الله في «السير» (٢/ ٥٧٨): (الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ، أبو هريرة الدوسي اليماني. سيد الحفاظ الأثبات.

- اختلف في اسمه على أقوال جمة؛ أرجحها: عبد الرحمن بن صخر...)[1].

- لازم رسول الله ﷺ ثلاث أو أربع سنين، وكان يُصرع بين القبر والمنبر من شدة الجوع، والصبر على تحصيل الحديث من رسول الله ﷺ، وكان حفظه الخارق من معجزات النبوة.

قال الإمام الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره.

- وقال كعب: ما رأيت أحدًا لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة.

- وقال الذهبي: وأبو هريرة إليه المنتهى في حفظ ما سمعه من الرسول عليه السلام وأدائه بحروفه... وقد ولاه عمر رضي الله عنه البحرين في خلافته.

وقال أيضًا: هو رأس في القرآن، والسنة، والفقه.

(١٧) أنس رضي الله عنه:

- هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم الإمام المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام أبو حمزة الأنصاري الخزرجي النجاري المدني خادم رسول الله ﷺ، وتلميذه، وتبعه، وآخر أصحابه موتًا.

- قال حميد عن أنس: يقولون: لا يجتمع حبُّ عليٍّ وعثمانَ في قلبٍ، وقد جمع الله حُبَّهما في قلوبنا.

- قال أبو اليقظان: مات لأنس في طاعون الحارف ثمانون ابنًا، وقيل: سبعون.

(١٨) جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي السلمي المدني.

- قال الذهبي: (الإمام الكبير، والمجتهد الحافظ ... الفقيه).

- من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتًا.

- وكان رضي الله عنه مفتي المدينة في زمانه، عاش بعد ابن عمر أعوامًا وتفرَّد.

- وكان جابر رضي الله عنه قد أطاع أباه يوم أحد وقعد لأجل أخواته، ثم شهد الخندق وبيعة الشجرة، وشاخ وذهب بصره، وقارب التسعين.

- وعن أبي نضرة قال: كان جابر بن عبد الله عريفًا، عرَّفه عُمر.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٥٧٩).

المفسرون في طبقة التابعين وأتباعهم(١)

(١) إبراهيم النَّخَعي (من الخامسة) (ت ٩٦هـ):

- هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النَّخَعيُّ اليماني ثم الكوفي.

- قال عنه الذهبي في «السير» (٤/ ٥٢٠): (الإمام، الحافظ، فقيه العراق ... أحد الأعلام)، وقال أيضًا: (وكان بصيرًا بعلم ابن مسعود، واسع الرواية، فقيه النفس، كبير الشأن، كثير المحاسن...).

- وكان النخعي مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانهما.

- وقال الإمام أحمد: كان إبراهيم ذكيًّا، حافظًا، صاحب سُنة.

- وقال العِجْلي: كان مفتي أهل الكوفة هو والشعبيُّ في زمانهما، وكان رجلًا صالحًا فقيهًا مُتوقيًا قليل التكلُّف، ومات وهو مختفٍ من الحجاج.

- وقال الأعمش: كان إبراهيم صيرفيَّ الحديث.

(٢) إسماعيل بن أبي خالد (من الرابعة) (ت ١٤٦هـ):

- هو إسماعيل بن أبي خالد البجلي الأحْمَسي الحافظ الإمام الكبير أبو عبد الله مولاهم الكُوفي.

كان محدِّث الكوفة في زمانه مع الأعمش، وقال الذهبي: (بل هو أسند من الأعمش)، وهو من صغار التابعين.

- روىٰ ابن المبارك عن سفيان: حفاظ الناس ثلاثة: إسماعيل بن أبي خالد، وعبد الملك بن أبي سليمان، ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري، وإسماعيل أعلمُ الناس بالشعبي، وأثبتهم فيه.

- وقال الشعبي: إسماعيل يَحْسُوا العِلم حسْوًا.

- وقال الإمام أحمد: أصح الناس حديثًا عن الشعبي: ابن أبي خالد، ابنُ أبي خالدٍ يشرب العلم شُربًا.

- وقال أبو حاتم الرَّازي: لا أقدم عليه أحدًا من أصحاب الشعبي.

- وقال الذهبي: (وكان رجلًا صالحًا، سمع من خمسة من أصحاب النبي ﷺ وكان طحَّانًا... أجمعوا علىٰ إتقانه والاحتجاج به، ولم يُنْبَزْ بتشيعٍ، ولا بِدْعة، ولله الحمد).

(٣) الأسود بن يزيد (من الثانية) (ت ٧٤ هـ):

هو أبو عبد الرحمن، الأسود بن يَزيد بن قيس النخعي، كان من كبار التابعين، ومن رواة ابن مسعود، وكان رَحِمَهُ اللهُ ثقة، صالحًا، علىٰ جانب عظيم من الفهم لكتاب الله تعالىٰ.

---

(١) ذكرنا هنا خمسين ترجمة لأهم من نُقل عنهم التفسير من طبقة التابعين وأتباع التابعين، ورتبناهم هنا على حروف الهجاء بحسب اللقب أو الاسم الذي يورده ابن كثير مع إهمال (الألف واللام، وابن، وأبو) حتى يسهل البحث عن الترجمة المرادة بسهولة ويسر.

(٤) أبو جعفر الباقر (من الرابعة) (ت ١١٤ هـ):

- هو محمد بن علي بن الحسين بن علي أبو جعفر العلوي الفاطمي المدني، وَلَدُ زين العابدين.

- قال الذهبي في «السير» (٤/ ٤٠٢): (... وكان أحد من جمع بين العلم والعمل والسؤدد، والشرف، والثقة، والرزانة، وكان أهلًا للخلافة، وهو أحد الأئمة الإثنىٰ عشر الذين تبجلهم الشيعة الإمامية، وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجميع الدين، فلا عِصْمة إلا للملائكة والنبيين، وكلُّ أحدٍ يُصيب ويخطئ، ويؤخذ من قوله ويُترك سوىٰ النبيِّ ﷺ فإنه معصوم، مُؤيَّد بالوحي.

- وشُهِرَ أبو جعفر بالباقر، من: بَقَرَ العلم، أي: شقَّه فعرف أصلَه وخفيّه.

ولقد كان أبو جعفر إمامًا، مجتهدًا، تاليًا لكتاب الله، كبير الشأن، ولكن لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير[1] ونحوه، ولا في الفقه درجة أبي الزناد، وربيعة، ولا في الحفظ ومعرفة السنن درجة قتادة وابن شهاب، فلا نُحابيه، ولا نحيفُ عليه، ونحبُّهُ في الله لما تجمَّع فيه من صفات الكمال).

- وقد عدَّه النسائي وغيره في فقهاء التابعين بالمدينة، واتفق الحفاظ علىٰ الاحتجاج بأبي جعفر.

(٥) الحسن البصري (من الثالثة) (ت ١١٠هـ):

هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري مولىٰ الأنصار، وأمه خيرة مولاة أم سلمة. قال ابن سعد: ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ونشأ بوادي القرىٰ، وكان فصيحًا ورعًا زاهدًا، لا يُسبق في وعظه، ولا يُدانىٰ في مبلغ تأثيره علىٰ قلوب سامعيه، روىٰ عن خلق كثير من الصحابة والتابعين، وكان علىٰ غزارة في العلم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، قال أنس: سلوا الحسن، فإنه حفظ ونسينا.

- وقال بكر المزني: من سرَّه أن ينظر إلىٰ أعلم عالم أدركناه في زمانه، فلينظر إلىٰ الحسن، فما أدركنا الذي هو أعلم منه.

- وقال حماد بن سلمة عن حميد: قرأت القرآن علىٰ الحسن ففسَّره علىٰ الإثبات -يعني إثبات القَدَر- وكان يقول: من كذَّب بالقدر فقد كفر.

(٦) الحكم (من الخامسة) (ت ١١٥ هـ):

هو الحكم بن عتيبة أبو محمد الكِنْدي مولاهم الكوفي.

- قال الذهبي في «السير» (٥/ ٢٠٨): (الإمام الكبير عالم أهل الكوفة).

- وقال الأوزاعي: حججت فلقيت عبدة بن أبي لُبابة، فقال لي: هل لقيتَ الحكمَ، قلت: لا، قال: فالقه، فما بين لابَتَيْها أفقهُ منه.

---

(١) مراد الحافظ الذهبي هنا: الإمام (ابن كثير المكي الداري) إمام القراءات، مولده (٤٥هـ) وتوفي (١٢٠هـ).

- وقال مجاهد بن رومي: رأيت الحكم في مسجد الخيف، وعلماء الناس عيالٌ عليه.
- وفي رواية أخرىٰ عنه: ما كنتُ أعرفُ فضل الحكم إلا إذا اجتمع علماءُ الناس في مسجد مِنًىٰ، فنظرت إليهم، فإذا هم عيالٌ عليه.
- وقال ابن عيينة: ما كان بالكوفة بعد إبراهيم والشعبي مثل الحكم وحماد.

(٧) الربيع بن أنس (من الخامسة) (ت ١٤٠هـ):

- هو الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني المروزي البصري.
- قال الذهبي في «السير» (٦/ ١٧٠): (كان عالم مرو في زمانه ... وقال ابن أبي داود: سجن بمرو ثلاثين سنة.

قلت -أي: الذهبي- سجنه أبو مسلم تسعة أعوام، وتحيَّل ابنُ المبارك حتىٰ دخل إليه فسمع منه...).

(٨) ربيعة الرأي (من الخامسة) (ت١٣٦هـ):

هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن، اسمه فَرُّوخ، القرشي التيمي أبو عثمان، ويقال: أبو عبد الرحمن المدني المعروف بـ«ربيعة الرأي»، مولىٰ آل المنكدر.

- قال الذهبي في «السير» (٦/ ٨٩): (مفتي المدينة، وعالم الوقت ... وكان من أئمة الاجتهاد).
- وقال مطرف: سمعت مالكًا يقول: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة.
- وقال ربيعة نفسه: رأيت الرأي أهون عليَّ من تبعة الحديث.
- وقال مالك: كان ربيعة يقول لابن شهاب: إن حالي ليست تشبه حالك. قال: وكيف؟ قال: أنا أقولُ برأيٍ، مَنْ شاء أخذه، ومن شاء تركه، وأنت تحدِّث عن النبي ﷺ فيُحفظ.
- وروىٰ الليث عن عبيد الله بن عمر قال: هو صاحبُ معضلاتنا، وعالمنا، وأفضلنا.
- وقال يعقوب بن شيبة: ثقة ثبت أحد مفتي المدينة.
- وقال أبو بكر الخطيب: كان ربيعة فقيهًا، عالمًا، حافظًا للفقه والحديث.
- وقال عبد العزيز بن الماجشون: والله ما رأيتُ أحوطَ لسُنَّة من ربيعة.
- وقال مالك: كان ربيعة أعجل شيء جوابًا.
- توفي سنة ست وثلاثين ومئة.

(٩) زيد بن أسلم (من الثالثة) (ت١٣٦هـ):

هو أبو أسامة أو أبو عبد الله زيد بن أسلم العدوي المدني الفقيه المفسر، مولىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه. كان من كبار التابعين الذين عرفوا بالقول في التفسير والثقة فيما يروونه وكان يكثر من التفسير بالرأي، ويرىٰ جواز ذلك، ولا يتحرج منه.

(١٠) الزهري (من رءوس الطبقة الرابعة) (ت ١٢٥هـ):

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، أبو بكر المدني، سكن الشام.

- قال أبو بكر بن مَنْجَويه: رأىٰ عشرة من أصحاب النبي ﷺ، وكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقًا لمتون الأخبار، وكان فقيهًا فاضلًا، وقال ابن سعد: وكان الزهري ثقة، كثير الحديث والعلم والرواية فقيهًا جامعًا، وقال مكحول: ما بقي علىٰ ظهرها -أي: الأرض- أحدًا أعلم بسنة ماضية من الزهري.

- وقال الليث بن سعد: ما رأيت عالمًا قط أجمع من ابن شهاب، ولا أكثر علمًا منه، لو سمعتَ ابن شهاب يحدِّث في الترغيب لقلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن القرآن والسنة كان حديثه نوعًا جامعًا.

(١١) السُّدِّي الكبير (من الرابعة) (ت١٢٧ هـ):

هو أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة القرشي الكوفي الأعور، أصله حجازي، وسكن الكوفة، وكان يقعد في سُدَّة باب الجامع بالكوفة، فسمِّي السدي، وهو السُّدي الكبير.

- يلقب بـ«صاحب التفسير»، وكره كثير من العلماء تفسيره، فعن صالح بن مسلم، قال: مررت مع الشعبي علىٰ السُّدِّي، وحوله شباب يفسر لهم القرآن، فقام عليه الشعبي، فقال: ويحك، لو كنت نشوان يُطرَبُ علىٰ استك بالطبل، كان خيرًا لك مما أنت فيه.

- وقيل للشعبي -أيضًا- إن إسماعيل السُّدي قد أعطي حظًّا من علم القرآن، قال: إن إسماعيل قد أعطي حظًّا من جهل القرآن.

- ولعل الإشكالية الكبرىٰ في تفسيره أنه من الرواة عن محمد بن السائب الكلبي، والكلبي متهم بالكذب.

(١٢) سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ (من الثالثة) (ت٩٥هـ):

هو أبو محمد أو أبو عبد الله سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم، وهو من أكبر الرواة عن ابن عباس وابن مسعود، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من كبار التابعين في التفسير والحديث والفقه، أخذ القراءة علىٰ ابن عباس عرضًا، وسمع منه التفسير، وجمع القراءات الثابتة عن الصحابة وكان يقرأ بها، وكان محط ثقة ابن عباس رضي الله عنهما وإليه يحيل أهل الكوفة في الفتوىٰ.

(١٣) سعيد بن المسيِّب (من كبار الثانية) (ت ٩٣هـ):

هو سعيد بن المسيِّب بن حَزْن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن يقظة، أبو محمد القرشي المخزومي، الإمام العلم عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه.

- قال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أحدًا أوسع علمًا من ابن المسيِّب، هو عندي أجلُّ التابعين.

- وعن قدامة بن موسىٰ قال: كان ابن المسيب يُفتي والصحابة أحياء.

- وعن مكحول قال: سعيدُ بن المسيِّب عالمُ العلماء.

- وكان رَحِمَهُ اللَّهُ عزيز النفس صادعًا بالحق.

- قال عمران بن عبد الله: كان لسعيد بن المسيب في بيت المال بضعةٌ وثلاثون ألفًا عطاؤه، وكان يُدعىٰ إليها فيأبي ويقول: لا حاجة لي فيها حتىٰ يحكم الله بيني وبين بني مروان.

- وقال حماد بن سلمة: أنبأنا عليُّ بن زيد أنه قيل لسعيد بن المسيِّب: ما شأن الحجاج لا يبعث إليك، ولا يحرِّكُكَ، ولا يؤذيك؟

قال: والله ما أدري، إلا أنه دخل ذات يوم مع أبيه المسجد، فصلَّىٰ صلاة لا يتم ركوعها ولا سجودها، فأخذتُ كفًّا من حصًىٰ فحصبتُه بها، زعم أن الحجاج قال: ما زلت بعد أُحسن الصلاة.

- توفي سنة ثلاثة وتسعين، وقيل: سنة خمس وتسعين.

(١٤) سفيان الثوري (من رءوس الطبقة السابعة) (ت ١٦١هـ):

هو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الثوري، الإمام شيخ الإسلام الفقيه الحافظ الحجة العابد، صاحب «التفسير» المشهور.

- قال شعبة ويحيىٰ بن معين وجماعة: سفيان أمير المؤمنين في الحديث.

- وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ، ما فيهم أفضل من سفيان، وكان شعبة يقول: سفيان أحفظ مني.

- وقال ورقاء: لم ير سفيان مثل نفسه.

- وقال وكيع: كان سفيان بحرًا.

- وقال القطان: سفيان فوق مالك في كل شيء.

- كان مولده في سنة سبع وتسعين، وطلب العلم وهو حَدَثٌ، ومات بالبصرة في الاختفاء من المهدي، فإنه كان قوالًا بالحق شديد الإنكار، مات في شعبان سنة إحدىٰ وستين ومائة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

(١٥) سفيان بن عيينة (من رءوس الطبقة الثامنة) (ت ١٩٨هـ):

هو سفيان بن عيينة أبو محمد الكوفي، وكان أعور، سكن مكة ومات فيها.

- قال ابن وهب: لا أعلم أحدًا أعلم بتفسير القرآن من ابن عيينة.

- وقال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز.

- وقال أيضًا: ما رأيت أحدًا من الناس فيه من آلة العِلم ما في سفيان بن عيينة، وما رأيت أحدًا أكفأ عن الفتيا منه.

- وقال عمر بن السكن: كنت عند سفيان بن عيينة، فقام إليه رجل من أهل بغداد، فقال: يا أبا

محمد، أخبرني عن قول مُطَرِّف: لأن أعافىٰ فأشكر أحبُّ إليَّ من أن أُبتلىٰ فأصبر؛ أهو أحب إليك أم قول أخيه أبي العلاء: اللهم رضيت لنفسي ما رضِيتَ لي؟ قال: فسكتَ عنه سكتة، ثم قال: قول مطرف أحبُّ إليَّ. فقال الرجل: كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له؟ فقال سُفيان: إني قرأت القرآن فوجدتُ صفة سليمان عليه السلام مع العافية التي كان فيها: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ووجدت صفة أيوب عليه السلام مع البلاء الذي كان فيه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، فاستوت الصفتان وهذا معافًىٰ وهذا مبتلًىٰ، فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر، فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر أحبَّ إليَّ من البلاء مع الصبر.

(١٦) ابن سيرين (من الثالثة) (ت ١١٠هـ):

هو محمد بن سيرين أبو بكر الأنصاري البصري، مولىٰ أنس بن مالك، كان أبوه من سَبْي جرجرايا، وتملَّكَهُ أنس، ثم كاتبه علىٰ ألوف من المال، فوفَّاه، وعجَّل له مال الكتابة قبل حلوله، فتمنَّع أنس من أخذه لمَّا رأىٰ سيرين قد كثر ماله من التجارة، وأمل أن يرثه، فحاكمه إلىٰ عُمر رضي الله عنه، فألزمه تعجيل المؤجَّل.

- قال هشام بن حسان: أدرك محمد ثلاثين صحابيًّا.
- وقال ابن عون: كان محمد يأتي بالحديث علىٰ حروفه، وكان الحسن صاحب معنىٰ.
- وعن خُليف بن عقبة قال: كان ابن سيرين نَسِيج وحْدِه.
- وقال مورِّق العجلي: ما رأيت أحدًا أفقه في ورعه، ولا أوْرَع في فقهه من محمد بن سيرين.
- وقال ابن جرير الطبري: كان ابن سيرين فقيهًا، عالمًا، ورعًا، أديبًا، كثير الحديث، صدوقًا، شهد له أهل العلم والفضل بذلك، وهو حُجَّة.
- وكان رحمه الله لا يرىٰ الرواية بالمعنىٰ.
- وقال يونس: كان ابن سيرين صاحب ضحكٍ ومُزاح.
- وقال هشيم، عن منصور: كان محمد يضحك حتىٰ تدمع عيناه، وكان الحسن يحدثنا ويبكي.
- وشأنه في تأويل الرؤىٰ معروف، وقد قال الذهبي في «السير» (٤/ ٦١٨): (قد جاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب يطول الكتاب بذكرها، وكان له تأييد إلهيٌّ).
- وكان رحمه الله مشهورًا بالوسواس، وكان يلبس الثياب الثمينة والطيالس والعمائم.

(١٧) شعبة (من السابعة) (ت ١٦٠ هـ):

هو شعبة بن الحجاج بن الوَرْد العتكي الأزدي أبو بسطام الواسطي، انتقل إلىٰ البصرة فسكنها، ورأىٰ الحسن وابن سيرين، وكان يلقَّب بـ«أمير المؤمنين في الحديث».

- عن سلمة السعدي قال: سمعت ابن إدريس يقول: رأيت في المنام كأني أفجِّر بحرًا، فقدمت إلىٰ هذه المدينة -يعني بغداد- فلقيت شعبة بن الحجاج.

- وقال يزيد بن زريع: كان شعبة من أصدق الناس في الحديث.

- وقال شعبة: والله لأن أتقطع أحبُّ إليَّ من أن أقول لما لم أسمع: سمعتُ.

- وقال عمرو بن علي: سمعت أبا بحر البَكْراوي يقول: ما رأيت أعبد لله من شعبة، لقد عبدَ الله حتىٰ جفَّ جِلْدُه علىٰ ظهره ليس بينهما لحم.

- وقال النضر بن شميل: ما رأيت أرحم بمسكين من شعبة، وكان إذا رأىٰ المسكين لا يزال ينظر إليه حتىٰ يغيب عن وجهه.

- وهو عمدة في التفسير بالمأثور، والتمسك بالنص، والدقة في النقل والرواية.

(١٨) الشعبي (من الثالثة) (ت ١٠٤هـ):

هو أبو عمرو عامر بن شَرَاحيل الشعبي الحميري الكوفي التابعي الجليل، قاضي الكوفة، أدرك خمسمائة من الصحابة، وقال العجلي: سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة، وقال مكحول: ما رأيت أفقه منه.

- وعن أبي بكر الهذلي قال: قال لي ابن سيرين: الزم الشعبي، فلقد رأيته يُستفتىٰ والصحابة متوافرون، وقال ابن سيرين: قدمت الكوفة وللشعبي حلقة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير.

- قال ابن عطية: كان جُلَّة من السلف، كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعًا واحتياطًا لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم.

- وعن الشعبي قال: «والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله».

- وعنه -أيضًا- أنه قال: «ثلاث لا أقول فيهن حتىٰ أموت: القرآن، والروح، والرأي»، ومع ذلك كان علىٰ علم عظيم في التفسير، وكان يعترض علىٰ تفسير السدي وأبي صالح، وينتقد غيرها من تفاسير الرأي، وكان يتمسك بالنص والتفسير بالمأثور.

(١٩) الضحاك (من الخامسة) (ت ١٠٢هـ):

هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، مولاهم الخراساني، روىٰ عن بعض الصحابة، وأخذ عنهم العلم، ووثَّقه أئمة الجرح والتعديل، وكان له شهرة بالتفسير علىٰ وجه الخصوص.

- قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (كان من أوعية العلم، وليس بالمجود لحديثه، وهو صدوق في نفسه... وبعضهم يقول: لم يلق ابن عباس – فالله أعلم – .... وله باعٌ كبير في التفسير والقصص).

- وعن عبد الملك بن ميسرة قال: لم يلق الضحاك ابن عباس، إنما لقي سعيد بن جبير بالرَّيِّ، فأخذ عنه التفسير.

(٢٠) طاووس بن كيسان (من الثالثة) (ت ١٠٦هـ):

هو أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان اليماني، روىٰ عن العبادلة الأربعة وغيرهم، وروي عنه

أنه قال: جالست خمسين من الصحابة، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ عالمًا متقنًا، خبيرًا بمعاني كتاب الله تعالىٰ، وكان يجلس إلىٰ ابن عباس أكثر من جلوسه لغيره من الصحابة، ويأخذ عنه في التفسير أكثر من غيره.

(٢١) ابن أبي طلحة (من السادسة) (ت١٤٣ هـ):

هو أبو الحسن، ويقال: أبو محمد علي بن أبي طلحة الهاشمي، مولىٰ العباس بن عبد المطلب، أصله من الجزيرة وانتقل إلىٰ حمص.

- قال أبو حاتم عن دُحيم: لم يَسْمَع من ابن عباس التفسير.

- وقال يعقوب بن إسحاق بن محمود: وسُئل -يعني صالح بن محمد- عن علي بن أبي طلحة ممن سمع التفسير؟ قال: من لا أحد.

- قلت: وهو في الحديث ليس بذاك، وروايته عن ابن عباس مرسلة، وقيل: بينهما مجاهد، وإنما ذكرناه هنا لكثرة رواياته عن ابن عباس في «تفسير ابن كثير» جدًّا، ولا يعني ذلك رد رواياته عنه، ولكن يبحث وينظر عند تفرده، ومخالفته لمن هم أوثق منه في ابن عباس خاصة.

(٢٢) أبو العالية (من الثانية) (ت ٩٠هـ):

هو أبو العالية رُفَيع بن مهران الرِّياحي، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير، وكان يحفظ القرآن ويتقنه، وروىٰ قتادة عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين.

- وقال فيه ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية.

(٢٣) عَبيدة السلماني (من الثانية وهو من المخضرمين) (ت قبل ٧٠هـ):

هو عَبيدة بن عمرو السَّلماني المُرادي، أبو عمرو الكوفي، أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين وصلَّىٰ، ولكنه لم يلق النبي ﷺ.

- قال سفيان بن عيينة: كان عبيدة يوازي شريحًا في العلم والقضاء، وقال ابن نمير: كان شريح إذا أشكل عليه الأمر كتب إلىٰ عبيدة وانتهىٰ إلىٰ قوله.

- وكان أحد أصحاب عبد الله بن مسعود الذين يُقرئون ويفتون.

(٢٤) أبو عبيد القاسم بن سلام (من العاشرة) (ت٢٢٤هـ):

هو القاسم بن سلام البغدادي أبو عبيد القاضي الأديب المشهور صاحب التصانيف المشهورة.

- قال ابن سعد: كان مؤدبًا صاحبَ نحوٍ وعربية.

- وقال إبراهيم بن أبي طالب النيسابوري: سألتُ أبا قدامة عن الشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق، وأبي عبيد، فقال: أما أفهمهم فالشافعي إلا أنه قليل الحديث، وأما أورعهم فأحمد بن حنبل، وأما أحفظهم فإسحاق، وأما أعلمهم بلُغات العرب فأبو عُبيد.

- وقال إسحاق بن راهويه: أبو عبيد أوسعنا علمًا، وأكثرنا أدبًا، وأجمعنا جمعًا، إنا نحتاج إلىٰ أبي عبيد، وأبو عبيد لا يحتاج إلينا.

- وكان يفتي في أصناف علوم الإسلام، من القرآن، والفقه، والأخبار، والعربية، حَسَنَ الرواية، صحيح النقل.

(٢٥) عطاء بن دينار (من السادسة) (ت ١٢٦هـ):

هو عطاء بن دينار الهُذَلي أبو الريان، وقيل: أبو طلحة المصري، وهو كثير الرواية عن سعيد بن جبير في التفسير، وهي صحيفة.

- قال أحمد بن صالح: عطاء بن دينار من ثقات أهل مصر، وتفسيره فيما يروي عن سعيد بن جبير صحيفة، وليست له دلالة علىٰ أنه سمع من سعيد بن جبير.

- وقال أبو حاتم: صالح الحديث إلا أن التفسير أخذه من الديوان، فإن عبد الملك بن مروان كتب يسأل سعيد بن جبير أن يكتب إليه تفسير القرآن، فكتب سعيد بن جبير بهذا التفسير إليه فوجده عطاء بن دينار في الديوان، فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير.

- قلت: وعلىٰ كلام أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ، فهذا معناه أن روايته عنه من باب «الوجادة»، والخلاف في اعتمادها مشهور، وهي معتبرة لدىٰ الشافعي وغيره متىٰ حصلت الثقة بها، وإنما الاعتراض في مجازفة البعض وذكرها بلفظ: «حدثنا».

(٢٦) عطاء بن أبي رباح (من الثالثة) (ت ١١٤هـ):

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح المكي القرشي مولاهم، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمي بعد ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ فسبحان من يرفع عباده بالعلم والعمل. أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة فقيهًا عالمًا كثير الحديث، وله بين أصحاب ابن عباس مكانة رفيعة في العلم عمومًا، وإنما يسبقه في التفسير مجاهد وابن جبير، وإذا أُطْلق عطاء في كتب التفسير فهو هذا.

(٢٧) عطاء بن أبي مسلم الخراساني (من الخامسة) (ت ١٣٥هـ):

- هو أبو أيوب عطاء بن أبي مسلم الخراساني البلخي، روايته عن الصحابة مرسلة، وهو المحدث الواعظ نزيل دمشق والقدس، قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر: كنا نغزو مع عطاء الخراساني فكان يحيي الليل من أوله إلىٰ آخره إلا نومة السحر.

- قال الإمام أحمد: ثقة، وذكره البخاري في «الضعفاء»، والعقيلي، وابن حبان.

- قال الدارقطني: هو في نفسه ثقة، لكن لم يلق ابن عباس.

- وقال يعقوب بن شيبة: ثقة معروف بالفتوىٰ والجهاد.

- وقال ابن حبان: أصله من بلخ، وعِداده في البصريين، وإنما قيل له: الخراساني؛ لأنه دخل إلىٰ

خراسان، وأقام، ثم رجع إلىٰ العراق، وكان من خيار عباد الله، غير أنه كان رديء الحفظ، كثير الوهم، فلما كثر ذلك في روايته بطل الاحتجاج به.

-وقال الذهبي: هذا القول فيه نظر.

-قال سعيد بن عبد العزيز: توفي بأريحا ودفن ببيت المقدس، وقال ابنه عثمان: مات أبي سنة خمس وثلاثين ومئة، وقيل: مولده سنة خمسين.

(٢٨) عطاء بن يسار (من صغار الثانية) (ت ٩٤هـ):

هو عطاء بن يسار الهلالي، أبو محمد المدني القاص، مولىٰ ميمونة زوج النبي ﷺ، وهو أخو سليمان بن يسار، وعبد الله بن يسار، وعبد الملك بن يسار.

-قال الإمام مالك: كان ثقة، كثير الحديث.

-وكان رَحِمَهُ اللَّهُ: قاصًا واعظًا جليل القدر.

-وقال أبو حازم: ما رأيت رجلًا قط كان ألزم لمسجد رسول الله ﷺ من عطاء بن يسار.

-وقال ابن عيينة: كان عطاء بن يسار من أصحاب أبي هريرة المعروفين.

-وقال ابن سعد: ثقة كثير الحديث، وقال العجلي: تابعي ثقة.

- طارده الحجاج فهرب إلىٰ مكة مع تابعين آخرين، فألقىٰ القبض عليه وقتله الحجاج سنة (١٠٣هـ) وهو ابن ٨٤ سنة، وقيل: مات قبل المائة.

(٢٩) عطية بن سعد العوفي (من الثالثة) (ت ١١١هـ):

هو أبو الحسن الكوفي بن سعد العوفي الجدلي القيسي، من مشاهير التابعين، وفيه ضعف، وكان شيعيًّا، وكان يأتي محمد بن السائب الكلبي ويسأله عن التفسير، والكلبي متهم.

(٣٠) عطية بن قيس (من الثالثة) (ت ١٢١هـ):

هو عطية بن قيس الكِلابيُّ، ويقال: الكَلَاعِيُّ، أبو يحيىٰ الحمصي، ويقال: الدمشقي.

قال عنه الذهبي في «السير»: (الإمام القانت، مقرئ الشام مع ابن عامر).

-قال الهيثم بن عِمران، عن عبد الواحد بن قيس السُّلمي: كان الناس يصلحون مصاحفهم علىٰ قراءة عطية بن قيس وهم جُلُوس علىٰ درج الكنيسة من مسجد دمشق قبل أن يُهدم.

-وقال المفضل بن غسان الغلابي: قال غير أبي زكريا -يعني: يحيىٰ بن معين- من علمائنا: إن عطية بن قيس، وعبد الله بن عامر اليحصبي كانا عالمي جُند دمشق، يقرئان الناس القرآن.

-وكان يدخل مع مشيخة الجند علىٰ معاوية، وكان قارئ الجند.

-وعن سعيد بن عبد العزيز: لم يكن أحد من الناس يطمع أن يفتح في مجلس عطية بن قيس شيئًا من ذكر الدنيا.

وتوفي سنة عشر ومئة.

(٣١) عكرمة (من الثالثة) (ت ١٠٤هـ):

هو أبو عبد الله عكرمة البربري المدني مولىٰ ابن عباس، وقد أخذه ابن عباس بالتربية والتثقيف في صغره، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كل شيء أحدثكم في القرآن فهو عن ابن عباس.

- وقد اختلف العلماء فيه ما بين معدل له، ومجرح، ومنهم من اتهمه بالكذب علىٰ ابن عباس، وادعاء علم كل شيء في القرآن، والأكثرون علىٰ توثيقه وتعديله، وبحسبه توثيقًا رواية إمام الأئمة البخاري عنه في صحيحه.

- وقال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة.

(٣٢) علقمة بن قيس (من الثانية) (ت بعد ٦٠هـ):

هو علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي الكوفي، ولد في حياة رسول الله ﷺ، وهو من أشهر رواة عبد الله بن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه، حتىٰ قال أبو المثنىٰ: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترىٰ عبد الله، أشبه الناس به سَمْتًا وهَدْيًا.

وقال عبد الله بن مسعود نفسه: ما أقرأ شيئًا ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه.

(٣٣) العلاء بن زياد (من الرابعة) (ت ٩٤هـ):

هو العلاء بن زياد بن مطر بن شريح، القدوة العابد، أبو نصر العدوي البصري.

- قال الذهبي في «السير» (٤/ ٢٢٢): (كان ربانيًّا تقيًّا قانتًا لله، بكَّاءً من خشية الله).

- قال قتادة: كان العلاء بن زياد قد بكىٰ حتىٰ غشي بصره، وكان إذا أراد أن يقرأ أو يتكلم جهشه البكاء، وكان أبوه قد بكىٰ حتىٰ عَمِي.

- وقال هشام بن حسان: كان قوت العلاء بن زياد رغيفًا كل يوم، وقال أوفىٰ بن دلْهم: كان للعلاء بن زياد مالٌ ورقيق، فأعتق بعضهم، وباع بعضهم، وتعبَّد وبالغ، فكُلِّم في ذلك فقال: إنما أتذلل لله لعله يرحمني.

- توفي العلاء في ولاية الحجاج سنة أربع وتسعين.

(٣٤) قتادة (من الرابعة) (ت ١١٧هـ):

هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي الأكمه، عربي الأصل، كان يسكن البصرة، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوي الحافظة، واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيرًا بأيام العرب، عليمًا بأنسابهم، متضلعًا في اللغة العربية، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير.

- قال ابن حبان: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حفَّاظ أهل زمانه.

- وكان كثير من العلماء يقدمه في «التفسير» علىٰ أقرانه وأهل زمانه.

(٣٥) الكلبي (من السادسة) (ت ١٤٦هـ):

هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكَلْبيُّ، أبو النضر الكوفي من بني وُدٍّ.

- وهو متروك متهم بالكذب، وإنما ذكرناه هنا للشرط المذكور في أول التراجم.

- روىٰ معتمر بن سليمان عن أبيه قال: كان بالكوفة كذَّابان أحدهما الكلبي.

- وقال يحيىٰ بن معين: ليس بشيء. وفي رواية أخرىٰ عنه: ضعيف.

- وقال البخاري: تركه يحيىٰ بن سعيد وابن مهدي.

- قال أبو حاتم: الناس مجمعون علىٰ ترك حديثه.

- ونسبه البعض إلىٰ السبأية وهم فرقة من الرافضة أصحاب عبد الله بن سبأ.

- وعلىٰ كلٍّ فترجمته مظلمة، وإنما أوردناه هنا لما سلف، ورغم ما سبق ذكره فقد قال الذهبي عنه في «السير» (٦/ ٢٤٨): (العلامة الأَخْباري، أبو النضر محمد بنَ السائب بن بشر الكلبي المفسر. وكان أيضًا رأسًا في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث).

- توفي سنة ست وأربعين ومئة.

(٣٦) الليث بن سعد (من السابعة) (ت ١٧٥هـ):

هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، أبو الحارث المصري، مولىٰ عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، وأهل بيته يقولون: نحن من الفرس من أهل أصبهان، وقال أبو سعيد بن يونس: وليس لما قالوه من ذلك عندنا صحة.

- قال عنه الذهبي في «السير» (٨/ ١٣٦): (الإمام الحافظ شيخ الإسلام، وعالم الديار المصرية).

- قال ابن وهب: لولا مالكٌ والليث، لضلَّ الناس.

- وقال عثمان بن صالح: كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتىٰ نشأ فيهم الليث، فحدَّثهم بفضائله، فكفوا، وكان أهل حمص ينتقصون عليًّا حتىٰ نشأ فيهم إسماعيل بن عياش، فحدَّثهم بفضائل علي، فكفوا عن ذلك.

- قال الإمام أحمد: الليث كثير العلم، صحيح الحديث.

- وقال الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالكٍ إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

- وقال أبو زرعة: سمعت ابن بكير يقول: الليث أفقه من مالك، ولكن كانت الحظوة لمالك.

- ومات الليث للنصف من شعبان سنة (١٧٥هـ).

(٣٧) ابن المبارك (من الثامنة) (ت١٨١هـ):

هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، مولاهم أبو عبد الرحمن، أحد الأئمة

الأعلام وحفاظ الإسلام، كانت أمه خوارزمية وأبوه تركيًّا.

- قال الإمام أحمد: لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه، وقال ابن مهدي: ما رأيت مثل ابن المبارك.

- ونُعي ابن المبارك إلىٰ سفيان بن عيينة، فقال: رحمه الله، لقد كان فقيهًا عالمًا عابدًا زاهدًا سخيًّا شجاعًا شاعرًا.

- ولما قُبض قيل: أما إنه ما خلَّف بعده مثله.

- وقال العباس بن مصعب: جمع عبد الله بن المبارك الحديث، والفقه، والعربية، وأيام الناس، والشجاعة، والتجارة، والسخاء، والمحبة عند الفرق.

(٣٨) مجاهد بن جبر (من الثالثة) (ت ١٠٢هـ) وقيل غير ذلك:

هو أبو الحجاج المخزومي مجاهد بن جبر المكي، المقرئ، المفسر، كان أحد الأعلام الأثبات، وهو أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم، لهذا اعتمد علىٰ تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما، وفي نقل البخاري عنه خير دليل علىٰ ثقته وأمانته وعدالته.

- وروىٰ الفضل بن ميمون أنه سمع مجاهدًا يقول: عرضت القرآن علىٰ ابن عباس ثلاثين مرة، وعنه أيضًا أنه قال: عرضت القرآن علىٰ ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت.

- وكان بعض العلماء يتقي تفسير مجاهد لأنه كان يسأل أهل الكتاب.

(٣٩) أبو مِجْلز لاحق بن حميد (من كبار الثالثة) (ت ١٠٦هـ):

- هو لاحق بن حميد بن سعيد، ويقال: شُعبة بن خالد بن كثير بن حبيش بن عبد الله السدوسي، أبو مِجلز البصري الأعور، قدم خراسان مع قتيبة بن مسلم.

وكان من ثقات التابعين لكنه كان يدلس.

- وعند ابن حبان في «الثقات»: (كان يؤم الحي في رمضان، وكان يختم في كل سبع).

- قال معتمر بن سليمان عن أبيه: كُنَّا في مجلس نتذاكر فيه الفقه والسُّنن ومعنا أبو مِجلز، فقال رجل: لو قرأتم سورة. فقال أبو مجلز: ما نرىٰ أن قراءة سورة أفضل مما نحن فيه.

- مات سنة تسع ومئة.

(٤٠) محمد بن كعب القرظي (من الثالثة) (ت ١٢٠):

هو أبو حمزة أو أبو عبد الله محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني، من حلفاء الأوس، واشتهر بالثقة والعدالة، والورع، وكثرة الحديث، وتأويل القرآن.

- قال العجلي: مدني، تابعي، ثقة، رجل صالح، عالم بالقرآن.

- وقال ابن عون: ما رأيت أحدًا أعلم بتأويل القرآن من القرظي.

(٤١) مُرَّة الهمداني (من الثانية) (ت ٧٦ هـ):

هو أبو إسماعيل مرة بن شَرَاحيل الهمداني الكوفي، العابد المعروف بـ«مُرَّة الطيب»، و«مُرَّة الخير»، لقب بذلك لعبادته وشدة ورعه وصلاحه، وكان من أصحاب ابن مسعود، ومن أصحاب التفسير بمدرسة العراق.

(٤٢) مسروق (من الثانية) (ت ٦٢هـ):

هو أبو عائشة مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي العابد، سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا عن اسمه، فقال له: اسمي مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن.

- كان أعلم أصحاب ابن مسعود، وكان شريح القاضي يستشيره في معضلات المسائل، وكان الشعبي يقول: ما رأيت أطلب للعلم منه.

- وقال مسروق: كان عبد الله -يعني ابن مسعود- يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار.

- وهذا ما جعله يشتهر بتفسير القرآن، فكان إمامًا فيه، وعالمًا خبيرًا بمعاني كتاب الله.

(٤٣) مسلم بن يسار (من الرابعة) (ت ١٠٠ هـ):

هو مسلم بن يسار أبو عبد الله البصري مولىٰ بني أمية.

- قال عنه الذهبي: (القدوة، الفقيه، الزاهد).

- وقال ابن عون: كان لا يفضل عليه أحد في زمانه.

- وقال ابن سعد: كان ثقة، فاضلًا، عابدًا، ورعًا.

- وقال قتادة: مسلم بن يسار خامس خمسة من فقهاء البصرة.

- وإنما أخذ عليه البعض خروجه مع ابن الأشعث، حتىٰ قال ابن عون: لما وقعت الفتنة زمن ابن الأشعث، خفَّ مسلمٌ فيها، وأبطأ الحسنُ، فارتفع الحسنُ، واتضع مسلم.

- وعلَّق علىٰ هذا الإمام الذهبي بقوله: (قلت: إنما يُعتبر ذلك في الآخرة، فقد يرتفعان معًا).

- وقال سفيان بن عيينة: إن الحسن البصري لما مات مسلم بن يسار قال: وامُعَلِّماه.

- توفي مسلم بن يسار سنة (١٠٠هـ)، وقيل: (١٠١هـ).

(٤٤) معمر بن راشد (من كبار السابعة) (ت ١٥٤هـ):

هو أبو عروة معمر بن راشد الأزدي الحُدَّاني شيخ الإسلام البصري، سكن اليمن، وشهد جنازة الحسن البصري، وهو في عداد أتباع التابعين.

- قال الإمام أحمد: لا تضم أحدًا إلىٰ معمرٍ إلا وجدته يتقدمه في الطلب، كان من أطلب أهل زمانه للعلم، وكان ابن جريج يقول: عليكم بهذا الرجل -يعني معمرًا- فإنه لم يبق أحدٌ من أهل زمانه أعلم منه، وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: كان فقيهًا متقنًا حافظًا ورعًا.

(٤٥) معمر بن المثنىٰ (من السابعة) (ت ٢٠٨هـ):

- هو أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ التيمي مولاهم البصري، صاحب التصانيف.

- قال عنه الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (الإمام، العلامة، البحر، أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ التيمي مولاهم، البصري، النَّحْوي، صاحب التصانيف).

- وقد رُمي برأي الخوارج، وقال الجاحظ: (لم يكن في الأرض جماعِيٌّ ولا خارجيٌّ أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة).

- وقال يعقوب بن شيبة عنه: (كان لا يحكي عن العرب إلا الشيء الصحيح).

- وقال المُبرِّد: (كان هو والأصمعي متقاربين في النحو، وكان أبو عبيدة أكمل القوم).

- وختم الذهبي ترجمته في «السير» (٩/ ٤٤٨) بقوله: (قد كان هذا المرء من بحور العلم، ومع ذلك فلم يكن بالماهر بكتاب الله، ولا العارف بسنة رسول الله ﷺ، ولا البصير بالفقه واختلاف أئمة الاجتهاد).اهـ

(٤٦) مقاتل بن سليمان (من السابعة) (ت ١٥٠هـ):

هو مقاتل بن سليمان بن كثير الأزدي الخراساني أبو الحسن البلخي المفسر.

- ترجمنا له للشرط المذكور في صدر هذه التراجم، وهو كثرة وجوده في «تفسير ابن كثير»، وإلا فقد قال الداوودي في «طبقات المفسرين»: (كذَّبوه، وهجروه، ورُمِيَ بالتجسيم)، قلت: بل هو رأس في التجسيم.

- وحكي عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: (الناس كلهم عيال علىٰ ثلاثة: مقاتل بن سليمان في التفسير، وعلىٰ زهير بن أبي سلمىٰ في الشعر، وعلىٰ أبي حنيفة في الكلام).

- وذكره الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: (... متروك الحديث، وقد لُطِّخ بالتجسيم مع أنه كان من أوعية العلم بحرًا في التفسير).

- وفي «الفهرست» أن له كتبًا منها: «نظائر القرآن»، و«التفسير الكبير» و«الناسخ والمنسوخ»،

و«نوادر التفسير»، و«القراءات» و«متشابه القرآن»، و«التقديم والتأخير».

- مات سنة (١٥٠هـ).

(٤٧) مكحول (من الخامسة) (ت بضع عشرة ومائة):

هو مكحول الدمشقي الفقيه، يكنىٰ أبا عبد الله، وقيل: أبو أيوب، وقيل: أبو مسلم.

- قال الذهبي في «السير» (٥/ ١٥٥): (عالم أهل الشام).

- وكان رَحِمَهُ اللَّهُ نوبيًّا، وكان مولىٰ لامرأة هذلية فأعتقته، وقيل: كان من سبي كابُل، وعداده في أوساط التابعين، من أقران الزهري.

- وعن ابن إسحاق قال: سمعتُ مكحولًا يقول: طُفْتُ الأرض كلَّها في طلب العلم.

- وقال الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام.

- وقال سعيد بن عبد العزيز: كان سليمان بن موسىٰ يقول: إذا جاءنا العلم من الحجاز عن الزهري قبلناه، وإذا جاءنا من الشام عن مكحول قبلناه، وإذا جاءنا من الجزيرة عن ميمون بن مهران قبلناه، وإذا جاءنا من العراق عن الحسن قبلناه، هؤلاء الأربعة علماء الناس في خلافة هشام.

- وقال أبو حاتم: ما بالشام أحد أفقه من مكحول.

- وفاته مختلف فيها، قيل: سنة (١١٢هـ)، وقيل: (١١٣هـ).

(٤٨) ابن أبي نَجِيح (من السادسة) (ت ١٣١هـ):

هو عبد الله بن أبي نَجِيح يسار المكي، أبو يسار الثقفي.

- قال وكيع: كان سفيان يُصَحِّح تفسير ابن أبي نجيح.

- قلت: وهو ثقة صالح الحديث، ولا كلام فيه إلا أنه كان له كلام في القدر.

(٤٩) وكيع (من كبار التاسعة) (ت ١٩٧هـ):

هو وكيع بن الجراح بن مليح الرُّؤاسي أبو سفيان الكوفي، قال أبو داود: كان أعور، وقال الإمام أحمد: كان وكيع مطبوع الحفظ، كان وكيع حافظًا حافظًا، وكان وكيع أحفظ من عبد الرحمن بن مهدي كثيرًا كثيرًا.

- وقال -أيضًا-: ما رأيت أحدًا أوعىٰ للعلم ولا أشبه بأهل النسك من وكيع.

- وكان رَحِمَهُ اللَّهُ ممن اشتغلوا بجمع الأحاديث والآثار في «تفسير القرآن»، قال الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (... فأُلفت تفاسير تجمع أقوال النبي ﷺ في التفسير، وأقوال الصحابة والتابعين، مع ذكر الأسانيد، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وغيرهما ممن تقدم

ذكرهم)[١].

(٥٠) ابن وهب (من التاسعة) (ت ١٩٧هـ):

- هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفِهْرِيُّ مولاهم المصري الإمام الحافظ.

- قال الذهبي في «السير»: (كان من أوعية العلم، ومن كنوز العمل).

- وقال محمد بن سلمة: سمعت ابن القاسم يقول: لو مات ابن عيينة، لضُربت إلىٰ ابن وهب أكباد الإبل، ما دوَّن العلم أحدٌ تدوينه.

- وقال الذهبي -أيضًا-: كيف لا يكون من بحور العلم وقد ضم إلىٰ علمه: علم مالك، والليث، ويحيىٰ بن أيوب، وعمرو بن الحارث، وغيرهم؟!

- وقال: وبلغنا أن مالكًا الإمام كان يكتب إليه: (إلىٰ عبد الله بن وهب، مفتي أهل مصر)، ولم يفعل هذا مع غيره.

- قال أبو زيد بن أبي الغَمْر: كنا نُسمِّي ابن وهب: ديوان العلم.

- وقال ابن حبان: ابن وهب هو الذي عُني بجمع ما روىٰ أهل الحجاز، وأهل مصر، وحفظ عليهم حديثهم، وجمع وصنف وكان من العُبَّاد.

- ولد سنة (١٢٥هـ)، وتوفي في (١٩٧هـ).

---

(١) «التفسير والمفسرون» (١/ ١٨٧).

من اشتهر بالأخذ عن أهل الكتاب[١]

وأفردناهم بالكلام عنهم نظرًا لخصوصية النقل عن أهل الكتاب، وما أثير حوله من القبول والرد، وانظر في ذلك كلامنا عن الإسرائيليات وحكمها:

(١) عبد الله بن سَلَام رضي الله عنه (ت٤٣هـ):

هو أبو يوسف عبد الله بن سَلَام (بالتخفيف) بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري حليف بني عوف من الخزرج، وهو من ولد يوسف بن يعقوب -عليهما السلام-، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وكان من علماء اليهود -قبل إسلامه- بل أعلمَهم وابنَ أعلمِهم، وكذلك اشتهر بين الصحابة رضي الله عنهم بالعلم، حتىٰ إن معاذ بن جبل رضي الله عنه -وهو من علماء الصحابة- يقول: إن العلم والإيمان عند أربعة رهط: عند عويمر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله بن سلام، الذي كان يهوديًّا فأسلم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه عاشر عشرة في الجنة**»[٢].

وقد اكتسب رضي الله عنه هذه المكانة العالية في العلم باجتماع علم التوراة والقرآن في صدره.

يقول الشيخ الدكتور/ محمد حسين الذهبي رحمه الله: «... وإنا لا نستطيع أن نتهم الرجل في علمه، ولا في ثقته وعدالته، بعد ما علمت أنه من خيار الصحابة وأعلمهم، وبعد ما جاء فيه من آيات القرآن، وبعد أن اعتمده البخاري وغيره من أهل الحديث، كما أننا لم نجد من أصحاب الكتب التي بين أيدينا من طَعَنَ عليه في عِلْمِه، أو نَسَبَ إليه من التُّهم مثل ما نسب إلىٰ كعب الأحبار ووهب بن منبه»[٣].

(٢) كعب الأحبار (من الثانية مخضرم) (ت في آخر خلافة عثمان):

هو أبو إسحاق كعب بن ماتع الحميري المعروف بكعب الأحبار، أصله من يهود اليمن، ويقال: إنه أدرك الجاهلية وأسلم في خلافة أبي بكر، وقيل: في حياة النبي ﷺ، وقيل: في خلافة عمر رضي الله عنه وهو الأشهر، وبعد إسلامه انتقل إلىٰ المدينة، وقاتل الروم في عهد عمر.

---

(١) اقتصر كلامنا هنا على من اشتهر بالأخذ عن أهل الكتاب بصورة تغلب على تفسيره، وإلا فهناك من أخذ عن أهل الكتاب بخلاف من ذكرنا كابن عباس وأبي الدرداء وسلمان رضي الله عنهم، ولكن ليست بصورة تشمل أغلب أقوالهم في التفسير، وكذلك بانتقاء واختيار يجعل كلامهم في التفسير لم يصبغ بصبغة النقل عن أهل الكتاب.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٠٤)، وانظر «صحيح الجامع» (٣٩٧٥).

(٣) «التفسير والمفسرون» (١/ ١٣٥).

- وكان علىٰ علمٍ غزيرٍ، ولذلك يقال: «كعب الحبر» أو «كعب الأحبار»، ونقل عنه في التفسير نقولات كثيرة تدل علىٰ سعة علمه واطلاعه بالتوراة والقرآن.

- يقول الشيخ الدكتور/ محمد حسين الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما ثقته وعدالته فهذا أمر نقول به، ولا نستطيع أن نطعن عليه كما طعن بعض الناس، فابن عباسٍ علىٰ جلالة قدره، وأبو هريرة علىٰ مبلغ علمه، وغيرهما من الصحابة كانوا يأخذون عنه ويروون له، ونرىٰ الإمام مسلمًا يُخرِّج له في صحيحه ... كما نرىٰ أبا داود والترمذي والنسائي يخرِّجون له، وهذا دليل علىٰ أن كعبًا كان ثقة عند هؤلاء جميعًا، وتلك شهادة كافية لرد كل تهمة تلصق بهذا الحبر الجليل»[1].

- قلت: ولا تنافي بين القول بتوثيقه وأمانته، وبين نقد الأقوال التي ينقلها عن أهل الكتاب، وذلك علىٰ وَفْق المعايير التي ذكرناها في حكم الأخذ من الإسرائيليات.

(٣) وهب بن مُنبِّه (من الثالثة) (ت في سنة بضع عشرة ومائة):

هو أبو عبد الله وهب بن مُنبِّه بن سيج بن ذي كناز اليماني الصنعاني، صاحب القصص، من خيار علماء التابعين، أصله من فارس، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ واسع العلم، كثير الاطلاع علىٰ الكتب القديمة، محيطًا بأخبار كثيرة وقصص تتعلق بأخبار الأُوَل ومبدأ العالم، ومما يُؤْثَر عنه أنه ألَّف كتابًا في المغازي.

- وهو ثقة ثبت، وإن كان أكثر من الإسرائيليات، والنقل عن أهل الكتاب، لكن المرجع في ذلك إلىٰ جواز الرواية عنهم دون تصديقٍ أو تكذيبٍ إلا علىٰ التقسيم المعتمد في ذلك، والذي أشرنا إليه في معرض كلامنا عن «حكم الاحتجاج بالإسرائيليات».

(٤) ابن جريج (من السادسة) (ت ١٥٠ هـ):

هو أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي، وأصله رومي نصراني، وكان من علماء مكة ومحدِّثيهم، وهو من أول من صنَّف الكتب بالحجاز، وهو قطب الإسرائيليات في عهد التابعين.

- قال ابن خلدون في «العبر»: إنه لم يطلب العلم إلا في الكهولة، ولو سمع في عنفوان شبابه لحمل عن غير واحد من الصحابة.

- وقد رُويت عن ابن جريج أجزاء كثيرة من تفسير ابن عباس، منها الصحيح، ومنها ما ليس بصحيح، وذلك لأنه لم يقصد الصحة فيما جمع، بل روىٰ ما ذُكِرَ في كل آية من الصحيح والسقيم.

- وهو موثق لدىٰ فريق كبير من العلماء إذا حدَّث من كتابه، مع ما يُتَّقَىٰ من تدليسه؛ لأنه لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح، وعليه فعنعنته من شر أنواع التدليس.

---

(١) «التفسير والمفسرون» (١/ ١٣٦).

المفسرون من الأئمة
الذين أكثر من النقل عنهم ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)

(١) البغوي (المتوفى ٥١٦هـ) [صاحب: «معالم التنزيل»]:

- هو الإمام الحافظ محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي، الملقب بـ«ركن الدين»، و«البغوي» نسبة إلىٰ بلدة بخراسان يقال لها: «بغ» و«بَغْشُور».

- وهو من أئمة السلف الصالح الذين تقيدوا بالكتاب والسنة في مفهوم الاعتقاد وبخاصة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته.

- قال الذهبي: كان البغوي يلقب بـ«محي السنة»، وبـ«ركن الدين»، وكان سيدًا، إمامًا، عالمًا علّامة، زاهدًا، قانعًا باليسير.

- وقال السيوطي: كان إمامًا في التفسير، إمامًا في الحديث، إمامًا في الفقه.

- وقال ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: الفقيه الشافعي المحدِّث المفسِّر كان بحرًا في العلوم.

(٢) ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ):

- هو الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن الإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن تيمية الحراني، ولد بحران سنة (٦١١هـ)، وتوفي في سنة (٧٢٨هـ).

ويقول الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحًا قدر شيخ الإسلام في التفسير: (... قد شرع في تفسير القرآن فكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراستين أو أكثر، وبقي يفسر سورة نوح عدة سنين أيام الجُمع بالمسجد).

- وقال -أيضًا-: (وأما التفسير فمُسلَّم إليه، وله من استحضار الآيات من القرآن -وقت إقامة الدليل بها علىٰ المسألة- قوة عجيبة، وإذا رآه المقرئ تحير فيه، ولفرط إمامته في التفسير وعظم إطلاعه، يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالًا عديدة، وينصر قولًا واحدًا موافقًا لما دل عليه القرآن والحديث، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير نحوًا من أربعة كراريس أو أزيد).

- قال أبو الفتح اليعمري: (... إن تكلَّم في التفسير فهو حامل رايته...).

---

(١) ذكرنا هنا من نقل عنهم ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بغض النظر عن منهجه أو مذهبه أو عقيدته، وذلك لغرض التعريف به فحسب، وأشرنا في ترجمته ما تميز به أو أخذ عليه، ورتبناهم على حروف الهجاء باعتبار ما اشتهروا به أو ما يذكره به ابن كثير حتى يسهل البحث في تراجمهم.

- وأكتفي هنا بنقل كلمة للدكتور الجليند جاء فيها: (ومن المفيد أن أنبِّه هنا إلىٰ أن عنوان هذا التفسير «دقائق التفسير» ليس من وضع ابن تيمية وليس من بين مؤلفاته علىٰ كثرتها كتاب يحمل هذا العنوان، وإنما كان ذلك اختيارًا مني وليس وضعًا من ابن تيمية، فبعد أن اكتمل لدي تفسيرًا كاملًا للشيخ جمعًا وترتيبًا وتحقيقًا رأيت أن اختيار «دقائق التفسير» أكثر مناسبة من غيره لمطابقته للحال، ذلك أن ابن تيمية لم يقف أمام كل آية ليفسرها؛ لأنه كان يرىٰ أن في القرآن ما هو بيِّن بنفسه، ولو أراد أحد أن يفسره لأعماه علىٰ السامع، وفي القرآن ما هو دقيق علىٰ بعض الأفهام والعقول، وحاجة الناس في كل عصر إلىٰ بيان هذا النوع الدقيق أشد وأكثر، من هنا كان تفسير ابن تيمية عبارة عن بيان لدقائق المعاني القرآنية التي عزَّ مطلبها علىٰ الكثيرين، ولذلك نجده في كثير من الآيات يصرح بهذه العبارة: هذه آيات أشكل معناها حتىٰ لا تجد عند الناس إلا ما هو خطأ في فهمهما، وهذه العبارة تتردد كثيرًا في تفسيره، ولذلك فقد آثرت إطلاق هذ الاسم «دقائق التفسير» علىٰ كثير مما كان يتردد في ذهني آنذاك)[1]. اهـ

- وتأثُّر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم أمر مشهور، مضىٰ عليه كثير من أهل العلم، وخذ مثالًا لذلك مقدمة تفسير القرآن للحافظ ابن كثير التي تعد بنصها من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

- وأقتصر هنا علىٰ ما ذكرناه إذ ليس من مقصود هذه المقدمة الموجزة التعريف بفضائل شيخ الإسلام ابن تيمية الكثيرة، ولكن بيان مكانته في التفسير فحسب.

(٣) الثعلبي (المتوفىٰ ٤٢٧هـ): [صاحب: «الكشف والبيان عن تفسير القرآن»]:

- هو أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المقرئ المفسر، كان حافظًا واعظًا، رأسًا في التفسير والعربية، نقل ابن كثير عنه في تفسيره كثيرًا، وقال في أحد المواطن: (وقال الأستاذ المفسر الثعلبي في تفسيره...)، وذلك في تفسير سورة الناس.

- قال ابن خلكان: (كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير).

- وعنه أخذ أبو الحسن الواحدي التفسير وأثنىٰ عليه، وهو كثير الحديث كثير الشيوخ.

- وذكر هو أنه وضع كتابه مستفيدًا من مؤلفات من سبقوه، متحاشيًا أوجه الخلل والقصور في أعمالهم، وهو كتاب مسند في التفسير، احتوىٰ علىٰ فوائد في اللغة وأسباب النزول والإعراب

---

(١) «دقائق التفسير» (١/ ٦) للدكتور: محمد السيد الجليند.

والأحكام الفقهية، ويتوسع علىٰ وجه الخصوص في بيان المذهب الشافعي، وكتابه وإن كان مسندًا إلا أنه يكاد يخرج عن التفسير بالمأثور.

-وأُخذ عليه كثرة سرده للإسرائيليات والموضوعات وهو ما قلل من القيمة العلمية للكتاب، يقول الشيخ الدكتور الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذا .. وإن الثعلبي قد جر علىٰ نفسه وعلىٰ تفسيره بسبب هذه الكثرة من الإسرائيليات، وعدم الدقة في اختيار الأحاديث، اللوم المرير والنقد اللاذع من بعض العلماء الذين لاحظوا هذا العيب علىٰ تفسيره، فقال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: (والثعلبي هو نفسه كان فيه خير ودين وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع).

(٤) الجبائي (المتوفىٰ ٣٠٣هـ)

- هو رأس المعتزلة أبو علي محمد بن عبد الوهاب البصري، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، عاش ثمانيًا وستين سنة.

- قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان أبو علي – علىٰ بدعته – متوسعًا في العلم، سيَّال الذهن، وهو الذي ذلل الكلام، وسهله، ويسَّر ما صعب منه، وكان يقف في أبي بكرٍ وعليٍّ: أيهما أفضل؟ وله كتاب «الأصول»، وكتاب «النهي عن المنكر»، وكتاب «التعديل والتجويز»، وكتاب «الاجتهاد»، وكتاب «الأسماء والصفات»، وكتاب «التفسير الكبير»....).اهـ (١٤/ ١٨٤) «السير»

- وقال الذهبي أيضًا: (وأخذ عنه فن الكلام أيضًا أبو الحسن الأشعري، ثم خالفه ونابذه وتسنن) اهـ.

(٥) ابن الجوزي (٥٠٨ – ٥٩٧هـ) [صاحب: «زاد المسير في علم التفسير»]:

-هو أبو الفرج ابن أبي الحسن بن علي بن محمد القرشي البكري الجوزي البغدادي، الفقيه الحنبلي، الواعظ الحافظ المفسر، الأديب الملقب بـ: جمال الدين.

- وهو إمام حافظ علامة مشهور معروف، فقيه عصره، وإمام وقته في الفقه واللغة والتفسير، والحديث...

-يقول الذهبي في ترجمته: (كان مبرزًا في التفسير والوعظ والتاريخ، ومتوسطًا في المذهب، وله في الحديث اطلاع تام علىٰ متونه، وأما الكلام علىٰ صحيحه وسقيمه فما له فيه ذوق المحدثين ولا نقد الحفاظ المبرزين).

- وكان يكثر من مدح نفسه، والكلام عليها، وهذا مما أخذ عليه، يقول ابن رجب الحنبلي: (مما عيب عليه ما يوجد في كلامه من الثناء علىٰ نفسه، والترفع والتعاظم، وكثرة الدعاوىٰ، ولا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف، سامحه الله).

- وأخذ عليه كذلك جمعٌ من العلماء بعض كلامه في المعتقد، بل اتهمه بعضهم بالتعطيل، ولعل من أسباب ذلك شدة تأثره بابن عقيل، نسأل الله أن يعفو عنا وعنهم.

(٦) ابن أبي حاتم (المتوفي سنة ٣٢٧هـ): [صاحب: «تفسير القرآن العظيم مسندًا...»]:

- هو الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، ابن أبي حاتم، أصلهم من أصبهان، ثم انتقلوا إلىٰ الرَّي وهي بلدة كبيرة من بلاد الديلم.

- نشأ رَحِمَهُ اللَّهُ في رعاية والده، الذي غرس فيه روح العلم والتُّقىٰ، فحفظ القرآن الكريم في صغره، وقال ابن أبي حاتم: (لم يدعني أبي أشتغل في الحديث حتىٰ قرأت القرآن علىٰ الفضل بن شاذان ثم كُتب الحديث).

- قال الخليلي: كان بحرًا في العلوم ومعرفة الرجال حتىٰ في الفقه، وفي اختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار.

- قال الذهبي: كان بحرًا لا تكدره الدلاء.

- ويتميز تفسيره بأنه جمع بين دفتيه تفسير القرآن بالسنة وآثار الصحابة والتابعين، مع اختيار أصح الأسانيد، وبه روايات كثيرة لا توجد في غيره.

(٧) الزجاج (المتوفى ٣١١هـ): [صاحب: «معاني القرآن»]:

- هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل، غلب عليه اسم الزجَّاج لأنه كان أول حياته يحترف خراطة الزجاج، وكان فقيرًا رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان يجاهد في طلب العلم حتىٰ أغناه الله عَزَّ وَجَلَّ.

- وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من أهل الدين والفضل وحسن الاعتقاد، وكان من أتباع أحمد بن حنبل مؤثرًا لمذهبه، حتىٰ قال علىٰ فراش موته: (اللهم احشرني علىٰ مذهب أحمد بن حنبل).

- وكتابه عمدة في معرفة إعراب القرآن، ومعانيه، وإن كان الإعراب هو مقصده الأساسي والمعنىٰ ينبني عليه، وقد استغرق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ ستة عشر عامًا في تصنيفه.

(٨) الزمخشري المعتزلي (٤٦٧ - ٥٣٨هـ) [صاحب «الكشاف»]:

هو جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الخوارزمي، ولُقِّب «جار الله» لمجاورته بمكة زمانًا طويلًا، ورحل إلىٰ بُخارىٰ في طلب العلم، حيث كانت بخارىٰ آنذاك كعبة العلماء، وانتقل إلىٰ خراسان محصلًا للعلم، فحصَّل أصول الفقه، والحديث، والتفسير، والكلام، وعلوم العربية، وكان مع ذلك في غاية التواضع والورع...

- قال الإمام أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي: كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم اكتسابًا واطلاعًا علىٰ كتبها، وبه ختم فضلاؤهم.

- وقال القفطي: ... وكان ممن يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة، وصنف التصانيف في التفسير وغريب الحديث والنحو وغير ذلك...، وما دخل بلدًا إلا اجتمعوا عليه وتتلمذوا له واستفادوا منه، وكان علَّامة الأدب ونسَّابة العرب، أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه رحال الرجال، وتُحدَىٰ باسمه مطايا الآمال.

- وبالجملة فأشد ما يؤخذ عليه مذهبه المعتزلي، قال ابن حجر عنه: «إنه صالح لكنه داعية إلىٰ الاعتزال»، فيحذر أشد الحذر في جانب المعتقد وخاصة الأسماء والصفات والقدر ومسائل الإيمان.

(٩) سنيد بن داود (ت٢٦٦هـ) [صاحب «التفسير الكبير»]:

- هو الإمام الحافظ، محدث الثغر، أبو علي حُسين بن داود، ولقبه: سُنيد، صاحب «التفسير الكبير».

- اختلفوا فيه، وقال الإمام الذهبي: (مشَّاه الناس، وحملُوا عنه، وما هو بذاك المتقن).

- وقال الإمام الذهبي عنه أيضًا كما في «الميزان»: (حافظ له تفسير، وله ما ينكر) (٢/ ٢٣٦).

- وقال عنه الحافظ ابن حجر في «التقريب»: (ضعيف مع إمامته ومعرفته، لكونه كان يلقن حجاج بن محمد شيخه).

(١٠) الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ): [صاحب: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»]:

- هو إمام المفسِّرين المحدِّث الفقيه المقرئ المؤرِّخ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، من أهل آمل طبرستان، وإليها نسبته.

- وقد اتفقت كلمة العلماء سلفًا وخلفًا أن كتابه هو أجلُّ كتب التفسير وأجمعها قاطبة، ليس لأوليته في الزمان فحسب، ولكن لأنه فريد في بابه، وهو في باب «التفسير بالمأثور» يأتي العمدة والقِبْلة، وكتاب «تفسير ابن كثير» علىٰ جلالته عدَّه الكثيرون مختصرًا له، هذا بخلاف آراء ابن كثير ونقده وترجيحاته.

- قال الإمام الخطيب البغدادي: (كان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله، ويرجع إلىٰ رأيه؛ لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظًا للكتاب، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب

المشهور في تاريخ الأمم والملوك، **وكتاب في التفسير لم يصنف أحدٌ مثله**، وكتاب سماه «تهذيب الآثار» لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه).

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها «تفسير محمد بن جرير الطبري»؛ فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، **وليس فيه بدعة**، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير، والكلبي).

- وقال السيوطي: (وكتابه أجلُّ التفاسير وأعظمها...).

(١١) عبد بن حميد (المتوفى ٢٤٩): [صاحب: «التفسير»]:

- هو أبو محمد عبد بن حميد بن نصر الكِشِّي، ويقال له: الكَشِّي، وبالسين المهملة بلد قريب من (سمرقند)، وصوب ابن السمعاني النسبة الثانية.

- قال ابن حبان: (وكان ممن جمع وصنَّف)، وقال ابن السمعاني: (إمام جليل القدر ممن جمع وصنف، ... وكانت إليه الرحلة في أقطار الأرض)، وقال الذهبي: (الإمام الحافظ الحجة الجوَّال).

(١٢) عبد الرزاق الصنعاني (١٢٦ - ٢١١هـ):

- هو الإمام عبد الرزاق بن هَمَّام بن نافع الصنعاني، المحدِّث المُسنِد الإمام، وكان وجهة المحدِّثين والعلماء، ومن تلاميذه: الإمام أحمد، ويحيىٰ بن معين، وإسحاق بن راهويه.

- وتفسيره مسندٌ، من قسم «التفسير بالمأثور»، وهو يقتصر فيه علىٰ سرد الروايات في التفسير بأسانيدها، ولا يزيد علىٰ ذلك، فهو مصدر في تتبع أقوال السلف في معاني الآيات، وأسباب النزول.

- وقد أورد فيه تفسير بعض الإسرائيليات، وذلك مع تجنبه للأخبار التي تحتوي علىٰ مخالفات صريحة للعقيدة، أو تشتمل علىٰ أخبار شنيعة مكذوبة.

- وتفسيره مرتَّب علىٰ ترتيب السور، وإن كان لم يشمل كل الآيات بالسورة.

(١٣) ابن العربي المالكي (٤٦٨ - ٥٤٣هـ) [صاحب: «أحكام القرآن»]:

- هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي.

- كان يأخذ من علماء كل بلد يَرْحل إليه حتىٰ أتقن الفقه، والأصول، وقيَّد الحديث، واتَّسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والكلام، وتبحَّر في التفسير، وبرع في الأدب والشعر.

- وكتابه من أهم المصنفات التي دونت في التفسير الفقهي في المذهب المالكي علىٰ وجه

الخصوص، ويتعرض لسور القرآن كلها، لكن ذلك فيما يتعلق بآيات الأحكام فقط، ولا يخلو كتابه من ظهور روح التعصب المذهبي.

(١٤) ابن عطية (٤٨٠ - ٥٤١هـ): [صاحب: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»]:

- هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي الحافظ القاضي العلامة.

- وقد لخص مؤلفه من كتب التفاسير بالمأثور، وتحرىٰ ما هو أقرب للصحة منها، ويفسر الآية بعبارة سهلة، وينقل عن ابن جرير كثيرًا، وهو مؤول أشعري يدافع عن التأويل الأشعري ويحتج له.

- **قال شيخ الإسلام ابن تيمية:** (وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم علىٰ وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيرًا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري.

وهو من أجلِّ التفاسير المأثورة وأعظمها قدرًا، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال أو يذكر ما يزعم أنه قول المحققين!! وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلىٰ السنة من المعتزلة). [مقدمة في أصول التفسير (ص:٩٠)].

(١٥) الفخر الرازي (٥٤٤ - ٦٠٤هـ) [صاحب: «التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب»]:

- هو أبو عبد الله -أو أبو المعالي- فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري، الطبري الأصل، الرازي المولد، الفقيه الشافعي، الأشعري المتكلم الفيلسوف، تتلمذ علىٰ يد والده، وهو أحد تلاميذ الإمام البغوي، وله قدم في علم أصول الفقه علىٰ طريقة المتكلمين، ويعد كتاب «المحصول» جامع لجهود السابقين في هذا الفن، ولكن شهرته في علم الكلام والفلسفة فاقت شهرته في أصول الفقه، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوي النظر في صناعة الطب.

- وقد أجمع كل من ترجم له علىٰ عدِّه من المفسِّرين، وإن اختلفوا في تقدُّمِه وتأخُّرِه فيه بالمقارنة ببقية العلوم.

- قال اليافعي: (... صنَّف التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها «تفسير القرآن الكريم» جمع فيه من الغرائب والعجائب ما يطرب كل طالب، وهو كبير جدًّا لكنه لم يكمله).

(١٦) الفراء (المتوفىٰ ٢٠٧هـ): [صاحب كتاب: «معاني القرآن»]:

- هو أبو زكريا يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، وهذه النسبة إلىٰ الدَّيْلم، وهو إقليم في البلاد الفارسية، و«الفراء» هو من يخيط الفراء، ولم يكن هو ولا أحد من أهله يشتغل

بذلك، وإنما لقب بـ«الفراء» لأنه كان يفري الكلام، أي: يحسن تقطيعه وتفصيله...

- وكان قوي الحفظ جدًّا، لا يكتب ما يتلقاه عن الشيوخ استغناء بحفظه، وله شأن عظيم في حفظ اللغة، حتىٰ قال ثعلب: «لولا الفراء لما كانت عربية؛ لأنه خلصها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية؛ لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد، ويتكلم الناس فيها علىٰ مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب».

(١٧) القرطبي (المتوفىٰ ٦٧١هـ) [صاحب «الجامع لأحكام القرآن]:

- هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي الأندلسي المالكي.

- وكتابه في التفسير من أجلِّ كتب التفسير التي اعتنت بـ: الأحكام الفقهية، وأوجه القراءات، والإعراب، والشواهد الشعرية، ومباحث اللغة، والنكت النحوية والصرفية، والرد علىٰ أهل البدع والأهواء.

- وكتابه غاية في إتقان الترتيب، وترقيم المسائل تحت كل آية، والكلام عنها وسرد أقوال العلماء بغاية الترتيب، وإنما أخذ عليه الإطالة مما يخرج جدًّا عن موضوع التفسير.

- قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل علىٰ كثرة اطلاعه ووفور فضله، وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، وهو كامل في معناه، وله أشياء تدل علىٰ إمامته وذكائه، وكثرة اطلاعه).

- وكان القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشعري العقيدة في باب الأسماء والصفات، وعمدته في ذلك كبار الأشاعرة كالجويني وابن الباقلاني والرازي وغيرهم، وانظر: «موسوعة مواقف السلف» للمغراوي (٧/ ٣٩٧).

(١٨) الكسائي (المتوفىٰ سنة ١٨٩هـ): [صاحب: «معاني القرآن»]:

- هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الكسائي، فارسي الأصل، وقيل في سبب تسميته الكسائي: أنه أحرم في كساء، وقيل: كان يحضر مجلس معاذ الهراء والناس عليهم الحلل، وعليه كساء ورداء.

- وحفظ القرآن مشافهة من قراء الكوفة، وأشهرهم حمزة بن حبيب الزيات، ووقع في لحن فأراد تعلم النحو فذهب إلىٰ معاذ الهراء، ورحل إلىٰ البصرة فلقي الخليل وجلس إليه، وذكر عنه أنه يقول: من تبحر في النحو اهتدىٰ إلىٰ جميع العلوم، وقال: لا أسأل عن مسألة في الفقه إلا أجبت عنها من قواعد النحو.

- وكان مؤدِّبًا للرشيد ثم الأمين والمأمون، وكان إلىٰ جانب ذلك يقرئ الناس في بغداد القرآن، ويعلمهم النحو واللغة فصار إمام الناس في القراءة في عصره، ورأس المدرسة الكوفية في النحو.

(١٩) الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠هـ): [صاحب: «النكت والعيون في التفسير»]:

- هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي، والماوردي نسبة إلىٰ بيع الماورد وعمله؛ لأن بعض أجداده كان يعمله ويبيعه.

- ونشأ في أسرة محبة للعلم والتحصيل منذ نعومة أظفاره، فحصل في علوم الحديث والفقه والأصول ... وتدرَّج حتىٰ تصدَّر في الحديث والتدريس والقضاء، فكان من أنظر أهل زمانه، وكان يلقَّب بـ(أقضىٰ القضاة).

- وكان له مكانة عظمىٰ في العلم بين معاصريه، يقول ابن خيرون: (كان رجلًا عظيم القدر متقدمًا عند السلطان، أحد الأئمة، له التصانيف الحسان في كل فن من العلم)، وقال الخطيب البغدادي: (كان ثقة، من وجوه الفقهاء الشافعيين)، وقال السبكي: (كان إمامًا جليلًا رفيع الشأن، له اليد الباسطة في المذهب، والتفنن التام في سائر العلوم).

(٢٠) ابن مَرْدوَيْه (٣٢٣ - ٤١٠هـ) [صاحب: «تفسير القرآن العظيم»]:

- هو العلَّامة الحافظ الكبير، والمحدِّث العظيم أبو بكر أحمد بن موسىٰ بن مَرْدوَيْه بن فُورَك بن موسىٰ بن جعفر الأصبهاني.

- لقي كبار المفسِّرين والمحدِّثين في زمانه، وجمع وألَّف وصنَّف أنواعًا من الكتب تدل علىٰ تمكُّنه من العلم والمعرفة.

- قال أبو بكر بن أبي علي: (وهو أكبر من أن ندل عليه وعلىٰ فضله وعلمه وسيره، وأشهر بالكثرة والثقة من أن يوصف حديثه، أبقاه الله، ومتعه بمحاسنه).

- وقال الإمام الإسماعيلي: (لو كان ابن مردويه خراسانيًّا كان صيته أكثر من صيت الحاكم).

- وقال الذهبي: (كان من فرسان الحديث: فهمًا، يقظًا، متقنًا، كثير الحديث جدًّا، ومن نظر في تواليفه عرف محله من الحفظ).

- وقد استفاد السيوطي من تفسيره جدًّا في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور».

(٢١) ابن المنذر (المتوفىٰ ٣١٨هـ): [صاحب: «تفسير القرآن»]:

- هو الإمام أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه نزيل مكة.

- كان إمامًا في التفسير، ومحدثًا ثقة، إلىٰ جانب كونه فقيهًا مجتهدًا بلغ درجة الاجتهاد المطلق، وهو وإن كان معدودًا من فقهاء الشافعية إلا أنه كان لا يتعصَّب لقول أحدٍ، بل يسير ويدور مع الدليل حيث كان.

- قال الإمام النووي: (الإمام المشهور أحد أئمة الإسلام ... المجمع علىٰ إمامته وجلالته ووفور علمه، وجمعه بين التمكن في علمي الحديث والفقه، وله المصنفات المهمة النافعة في علمي الحديث والفقه، وله المصنفات المهمة النافعة في الإجماع والخلاف وبيان مذاهب العلماء...).

- وقال الذهبي: (ولابن المنذر تفسير كبير في بضعة عشر مجلدًا يقضي له بالإمامة في علم التأويل أيضًا).

(٢٢) الواحدي (٣٩٨ - ٤٦٨هـ): [صاحب: «الوسيط في تفسير القرآن المجيد»]:

- هو الإمام العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه الواحدي النيسابوري الشافعي، وكان من أسرة ثرية تعمل بالتجارة، ومع ذلك كان له اشتغال كبير بالعلم والتحصيل.

- وهو في التفسير من تلاميذ أبي إسحاق الثعلبي، وكان الواحدي ممن أدركوا في مستهل طلبهم للعلم أن إتقان تفسير القرآن يتطلب جمع الكثير من العلوم، فقام بتحصيلها، خاصة علوم اللغة.

- قال الذهبي: كان رأسًا في اللغة.

- وقال اليافعي: (الإمام المفسر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أستاذ عصره في النحو والتفسير).

- وقد فسر القرآن ثلاث مرات في نواح مختلفة تتسم بالأصالة.

المفسرون بعد عصر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[١]

(١) أحمد محمد شاكر (١٣٠٩-١٣٧٧ هـ):

- هو أبو الأشبال أحمد بن محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد القادر، من آل أبي علياء، ينتهي نسبه إلىٰ الحسين بن علي بن أبي طالب.

- أبوه هو العلامة الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر سابقًا، وجده لأمه هو العالم الجليل: الأديب الشيخ عبد السلام هارون، وأبوه وأمه جميعًا من مديرية جرجا بصعيد مصر.

- ولد بالقاهرة، ورحل مع والده إلىٰ السودان حيث أسند إلىٰ والده منصب قاضي قضاة السودان عام (١٣١٧ هـ)، وعاد مع والده إلىٰ مصر بعد ذلك والتحق بالمعهد الديني بالأسكندرية وتدرج في التعليم الأزهري حتىٰ حصل علىٰ الإجازة العالية فأتم العالمية في العلوم الشرعية والعربية.

---

(١) اقتصرنا هنا علىٰ أبرز علماء التفسير بعد عصر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، وخاصة من نقلنا عنهم الفوائد والتعليقات في حاشية الكتاب.

- عُين الشيخ أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ قاضيًا شرعيًّا حتىٰ أحيل للتقاعد عام ١٩٥١م.

- وله باع عظيم في علم الحديث، وهو بابه لا سيما في نقد الأسانيد والحكم علىٰ الرجال، ومصنفاته عامرة بجهوده الحديثية العظيمة.

ومعظم التعليقات التي أوردناها له رَحِمَهُ اللَّهُ كانت من تعليقه النفيس علىٰ اختصاره لتفسير ابن كثير.

(٢) الألوسي[1] الكبير: (١٢١٧-١٢٧٠ هـ): [صاحب «روح المعاني»]:

- هو أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي شهاب الدِّين: مُفَسِّر، ومُحَدِّث، وأديب، وعدَّه من المجددين فريق من العلماء.

- ولد ببغداد، وتوفي فيها، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ شيخ العلماء في العراق.

- تقلَّد الإفتاء ببلده سنة (١٢٤٨ هـ)، ثم عزل فانقطع للعلم، ثم سافر (سنة ١٢٦٢ هـ) إلىٰ الموصل، وعاد بعد ذلك إلىٰ بغداد، وحرص علىٰ إكمال ما بدأه من المصنفات، واستمر بها إلىٰ أن توفي بها.

- وكتابه «روح المعاني» من أجل وأنفع كتب التفسير، ومن أجمع كتب التفسير لآراء السلف رواية ودراية مع سرد لآراء الخلف، فهو جامع لكل ما سبقه.

- قال عنه الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (كان رحمه الله شيخ العلماء في العراق، وآية من آيات الله العظام، ونادرة من نوادر الأيام، جمع كثيرًا من العلوم حتىٰ أصبح علَّامة في المنقول والمعقول...، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ عالمًا باختلاف المذاهب، مطلعًا علىٰ الملل والنحل، سلفي الاعتقاد، شافعي المذهب) [«التفسير والمفسرون» (١/ ٢٥٠)].

(٣) ابن باز (١٣٣٠-١٤٢٠ هـ):

- هو فضيلة العلامة مفتي الأمة عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن باز.

- ولد بمدينة الرياض.

- حفظ القرآن الكريم قبل سن البلوغ، ثم جد في طلب العلم الشرعي وتحصيله في الرياض، ولما برز في العلوم الشرعية واللغة عين في القضاء عام (١٣٥٧ هـ)، ولم يقطعه ذلك عن طلب العلم، حيث لازم البحث والتدريس ليل نهار، وعنىٰ عناية شديدة بعلم الحديث وظهر أثر ذلك في كتاباته.

---

(١) كذا ذكرها السمعاني في «الأنساب» (١/ ٣٤٣) بالهمرة دون مد، وذكر المعلمي اليماني أنها اشتهرت هذه النسبة أخيرًا بالمد «الآلوسي».

- تولىٰ القضاء في مدنية الخرج عام (١٣٥٧ هـ)، وعُين في كلية الشريعة بعد إنشائها ثم رئيسًا لها من عام (١٣٩٠ هـ) إلىٰ (١٣٩٥ هـ)، وكان للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك الحين حلقة للتدريس في المسجد النبوي الشريف.

(٤) البيضاوي (... - ٦٩١ هـ) وقيل (ت: ٦٨٥ هـ): [صاحب: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» المعروف بـ«تفسير البيضاوي»]:

- هو العلامة المفسر قاضي القضاة ناصر الدِّين أبو الخير عبد الله بن عمر بن علي البيضاوي الشيرازي الشافعي، ينسب إلىٰ بيضاء وهي بلدة من بلاد فارس، ولم تذكر مصادر الترجمة سنة ميلاده.

- واشتهر رَحِمَهُ اللَّهُ بإمامته في الأصول والتفسير علىٰ وجه الخصوص، ويعد تفسيره اختصارًا لتفسير الزمخشري إلىٰ حدٍّ كبير، وإن قصد البيضاوي أن يؤلف تفسيره علىٰ نمط تفسير الزمخشري مع الرد علىٰ اعتزالاته إلا أنه لم يسلم من اتباعه في ذلك في بعض المواضع.

- قال السيوطي: (كان إمامًا علامة، عارفًا بالفقه والأصلين والعربية والمنطق، نظارًا صالحًا، متعبدًا، شافعيًّا).

- وقال السبكي: (كان إمامًا بارزًا نظارًا خيرًا صالحًا متعبدًا).

- وقال ابن حبيب: (وتكلم كل من الأئمة بالثناء علىٰ مصنفاته، ولو لم يكن له غير «المنهاج» الوجيز لفظه المحرر لكفاه).

(٥) أبو بكر الجزائري (١٣٤٢-١٤٣٧ هـ): [صاحب: «أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير»]:

- هو جابر بن موسىٰ بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري.

- ولد رَحِمَهُ اللَّهُ في قرية تسمىٰ لواء (ولاية بسكرة) قريبة من طولقة جنوب الجزائر.

- نشأ في بلدته وتلقىٰ علومه الأولية، وبدأ بحفظ القرآن وبعض المتون العلمية في اللغة والفقه المالكي، وحصل من العلوم ما أهله إلىٰ التدريس في إحدىٰ المدارس الأهلية، ثم رحل مع أسرته إلىٰ المدينة المنورة، وفي المسجد النبوي الشريف استنأنف طريقه العلمي بالجلوس إلىٰ حلقات العلماء حيث حصل بعدها علىٰ إجازة من رئاسة القضاء بمكة المكرمة للتدريس في المسجد النبوي. فأصبحت له حلقة يدرس فيها تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف. وغير ذلك.

- عمل مدرسًا في بعض مدارس وزارة المعارف، وفي دار الحديث، وعندما فتحت الجامعة الإسلامية أبوابها عام ١٣٨٠ هـ كان رَحِمَهُ اللَّهُ من أوائل أساتذتها والمدرسين فيها، وبقي فيها حتىٰ أحيل إلىٰ التقاعد عام ١٤٠٦ هـ.

- والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ له جهود دعوية في كثير من البلاد التي زارها، وله مصنفات عديدة كتب الله عَزَّوَجَلَّ لها القبول، وخاصة:

- «أيسر التفاسير مع حاشية نهر الخير» في تفسير القرآن الكريم.

- «منهاج المسلم - كتاب عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات».

- «عقيدة المؤمن».

- «هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب» في السيرة النبوية.

(٦) السعدي (١٣٠٧-١٣٧٦): [صاحب: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»]:

- هو الإمام العلامة القدوة النحرير عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

- ولد في مدينة عنيزة بالقصيم، وحفظ القرآن في سن صغيرة، ثم قرأ على المشايخ، ومنهم صالح بن عثمان قاضي عنيزة.

- جلس رَحِمَهُ اللَّهُ للتدريس، وأخذ عنه العلم عدد كثير، منهم الشيخ العلامة محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، وله مؤلفات كثيرة، ومن أنفعها وأكثرها انتشارًا كتابه في التفسير.

- ومكانته العلمية معلومة مشهورة، وذلك مع صفاء في عقيدته، وسهولة ويسر في عبارته، وقل أن تجد طالبًا للعلم إلا وقد انتفع من تراثه العلمي خاصة في التفسير وجانب القواعد والتأصيل.

(٧) الشنقيطي (١٣٢٥-١٣٩٣ هـ) [صاحب: «أضواء البيان»]:

- هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار من أولاد أولاد الطالب أوبك، وهذا من أولاد أولاد كرير بن الموافي بن يعقوب بن جاكن الأبر جد القبيلة الكبيرة المشهورة المعروفة بـ(الجكنيين)، ويعرفون بـ(تجكانت).

- واسمه مركب من اسمين محمد، والأمين.

- ولد بشنقيط، وهي دولة موريتانيا الإسلامية حاليًا، وتقع شنقيط في الشمال الغربي منها.

- و«يعتبر الشيخ الأمين رَحِمَهُ اللَّهُ من العلماء الأفذاذ الذين برزوا في فنون العلم المختلفة، ونفع الله بهم خلقًا كثيرًا، وإن طالب العلم ليقف مندهشًا من سيرة هذا العَلَم الذي يعد نموذجًا رائعًا لعلماء الأمة المتقدمين في عصور الإسلام الزاهرة.

عالم إذا تكلم في فن قلت لا يحسن غيره، إذا أردته في الأصول وجدته أصوليًا لا يجارى، وإن طلبته

في الفقه وجدته فقيهًا لا يبارىٰ، وإن بحثت عنه في العقيدة واللغة والمنطق والبلاغة وجدته يعز عن النظير.

- أما الفن الذي أفرغ له جل وقته وأعطاه سائر جهده وهو تفسير كتاب الله الذي سبر أغواره وغاص في أعماقه، فإن قرأت له منه شيئًا عظم في عينيك كثيرًا، أما إن سمعته منه ارتجالًا فإن العجب يذهب بك كل مذهب». اهـ «اتحاف العلماء بسير العلماء» (١/ ١١٧).

(٨) الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠ هـ): [صاحب فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير»]:

- هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني.

- ينسب إلىٰ شوكان وهي قرية من قرىٰ السحامية، وهي قريبة من صنعاء.

- حفظ القرآن وجوَّده، وحفظ عددًا كبيرًا من المتون قبل أن يبدأ عهدُ الطلب، ولم تتعد سنه العاشرة من عمره، ثم اتصل بالمشايخ الكبار، وكان كثير الاشتغال بمطالعة التاريخ ومجامع الأدب، وتصدر للإفتاء وهو في العشرين من عمره.

- وله العديد من المؤلفات المشهورة التي كتب الله ﷻ لها القبول، وهي تدل علىٰ سعة اطلاعه وتنوع العلوم التي أجادها رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٩) ابن عاشور (١٢٩٢-١٣٩٤ هـ): [صاحب: «التحرير والتنوير»، واسمه الأصلي: «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد وتفسير الكتاب المجيد»]:

- هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور.

- تعود أصول أسرته إلىٰ محمد بن عاشور الذي ولد بمدينة سلا بالمغرب الأقصىٰ بعد خروج والده من الأندلس فارًّا بدينه من القهر والتنصير.

- وولد ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمرسىٰ، وهي ضاحية جميلة من الضواحي الشمالية للعاصمة التونسية تبعد حوالي ٢٠ كم عن مدنية تونس.

- حفظ القرآن في سن صغيرة، وكذا جملة من المتون العلمية، وتلقىٰ الشيخ المبادئ الأولىٰ في قواعد العربية علىٰ الشيخ أحمد بن بدر الكافي اعتمادًا علىٰ شرح خالد الأزهري.

- ولما بلغ أربعة عشر عامًا التحق بجامع الزيتونة سنة (١٣١٠ هـ)، ودرس علوم: النحو، والبلاغة، واللغة، والمنطق، وعلم الكلام، والفقه، والفرائض، وأصول الفقه، والحديث والسيرة، والتاريخ.

- هذا التنوع في تحصيل العلوم وفروع الشريعة مكنّه من إتقان العديد من المباحث التي كتب

فيها وأودعها مؤلفاته، وخاصة كتابه «التحرير والتنوير» الذي يقف القارئ له علىٰ تحريرات علمية بديعة خاصة عند مواطن الخلاف بين المفسرين.

(١٠) ابن عثيمين (١٣٤٧-١٤٢١ هـ): [صاحب: «تفسير القرآن الكريم»]:

- هو الشيخ العلامة محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبي التميمي، ويكنىٰ بأبي عبد الله.

- ولد بمدينة عنيزة بالقصيم، وحفظ القرآن وهو طفل صغير، فقرأه علىٰ جده لأمه الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ، ولازم الشيخ العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرابة إحدىٰ عشرة سنة، وأخذ منه العلوم الكثيرة، وفي أثناء دراسته النظامية بالرياض قرأ علىٰ شيخه الثاني سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولما توفي الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تولي الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامة الجامع الكبير بعنيزة.

- درَّس فضيلته -كذلك- بكليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، وعُيِّن عضوًا بهيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية.

- وغزارة علمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا تخفىٰ علىٰ أحد، إلىٰ جانب ما حباه الله عَزَّ وَجَلَّ به من مهارة الاستنباط للأحكام الشرعية من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا محل اتفاق بين كل من طالع كتب الشيخ ومصنفاته.

(١١) القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢ هـ): [صاحب: «محاسن التأويل»]:

- هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، وإلىٰ جده هذا انتسبت أسرة القاسمي.

- ولد بدمشق ونشأ بها في رعاية والده الفقيه الأديب، وتتلمذ علىٰ يديه، وأخذ علىٰ جملة من مشايخ دمشق ونزلائها عددًا من العلوم.

- تصدر لتدريس العلوم الإسلامية والعربية في حياة والده، وصرف عمره في الدرس والتعليم والتأليف والعبادة، وكان يدعو إلىٰ نبذ التقليد الأعمىٰ ويحث علىٰ الاجتهاد المتقيد بشروطه العلمية.

- وكان للقاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مكانة علمية بارزة تظهر من خلال ثناء أهل عصره عليه، قال الإمام محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان من أكمل ما رأيت في أخلاقه وآدابه وشمائله.. وكان تقيًّا ناسكًا واسع العلم، سليم القلب، نزيه النفس واللسان والقلم، برًّا بالأهل وفيًّا للإخوان، يأخذ ما صفا ويدع ما كدر، عائلًا عفيفًا قانعًا.. ومن عظيم همته أنه شد الرحال إلىٰ البلاد الحجازية في غير موسم الحج للاطلاع علىٰ كتاب «المحلىٰ» لابن حزم لعدم وجوده في دمشق). اهـ.

(١٢) ابن القيم[1]: (٦٩١-٧٥١ هـ):

- هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدِّين الزرعي الدمشقي الحنبلي -أبو عبد الله شمس الدين الشهير بابن قيم الجوزية، والزُّرعي نسبة إلىٰ زُرع قرية من قرىٰ حوران.

- ومكانة الإمام ابن القيم في العلم عمومًا وفي تفسير القرآن الكريم واستنباط الفوائد والعظات من آياته معلومة لدىٰ الكافة، وكذلك ارتباطه وتأثره بشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التسمك بالكتاب والسنة وفهمهما علىٰ منهج السلف الصالح.

- قال عنه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان حسن القراءة والخلق، كثير التودد، لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد علىٰ أحد، وكنتُ من أصحب الناس له وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زمننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدًّا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ). اهـ «البداية والنهاية» (٧/ ٦٥٧).

* وختامًا: أيها القارئ الكريم، فدونك هذا الجهد من إخوانك القائمين علىٰ إخراج هذا العمل، فإن وجدتَ خيرًا وإتقانًا فهو محض فَضْلٍ من ربِّ العالمين، ولا تحرمنا من صالح الدعوات، ونسأل الله قبول الأعمال وأن يلهمنا التوبة والإنابة قبل حلول الآجال، وإن وجدت خللًا أو تقصيرًا فلا نُعدم منك نصحًا وإرشادًا، والتمس لنا عذرًا فما تعمدنا خللًا أو نقصًا أو تقصيرًا، وإنما أردنا أن نكون حلقةً تتجاوز أخطاء السابقين ويستفيد منها اللاحقون، فإن نَكُ فلله الحمد والمنَّة، وإن كانت الأخرىٰ فنسأل الله أن يتجاوز عنَّا بمنِّه وكرمه... والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وصلِّ اللهم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه.

وكتبه

أبو الفداء أحمد بن بدر الدين بن عبد العزيز

عفا الله عنه

---

(١) لم يُصَنِّف الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا مستقلًا في التفسير، ولم يقصد ذلك إلا في تفسير المعوذتين، ولكن جهوده في التفسير جُمعت في عدة مؤلفات من أهمها:
- «التفسير القيم»، جمع/ محمد أويس الندوي.
- «بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام بن قيم الجوزية»، جمع/ يسري السيد محمد وصالح أحمد الشامي.
- «الضوء المنير على التفسير»، جمع/ علي الحمد المحمد الصالحي.

مقدمة تحقيق الأحاديث والآثار

بقلم/ أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالىٰ من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

وبعد:

فمن أعظم كتب التراث في علم التفسير هو كتاب الحافظ أبي الفداء عماد الدين: إسماعيل ابن عمر بن كثير المتوفىٰ سنة ٧٧٤هـ، وأهم ما يمتاز به كتابه ما يلي:

أولًا: اتخاذ المنهج الأقوم في التفسير وهو التفسير بالمأثور، فهو يفسر الآية بالآيات الأخرىٰ وقد يستقصي في سرد الآيات.

ثم بعد ذلك يسرد الأحاديث المأثورة في الآية، ثم أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل العلم، ثم اعتماده علىٰ اللغة وعلومها إذا تطلب الأمر ذلك.

ثانيًا: عند سرده للأحاديث والآثار يُبيِّن في مواضع كثيرة ما هو صحيح منها، وما هو غير صحيح، وكذلك عند سرده للأقوال يرجح ما يراه الأرجح بالأدلة الثابتة لهذا الترجيح.

ثالثًا: خلو كتابه من الأساطير والخرافات، ولا يذكر الروايات الإسرائيليات إلا لبيان غرابتها ونكارتها، وهو يصرح بذلك كثيرًا عند سردها، وأما الإسرائيليات التي سكت عنها فهي من قبيل الخبر الذي لا يصدق ولا يكذب أو يكون مما يوافق الشرع فيصدق لموافقته.

رابعًا: لم يغفل ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسائل الاعتقادية فنجده سلفي المذهب يصرح بمسائل

الاعتقاد سواء في مسمىٰ الإيمان، وفي القدر، والأسماء والصفات، والوعد والوعيد وغير ذلك من مسائل الاعتقاد.

خامسًا: أما المسائل الفقهية فإنه يذكر أقوال العلماء وأدلتهم والترجيح أحيانًا لكنه لا يسرف في المسائل وكثيرًا ما يحيل علىٰ كتاية الأحكام.

ولما كان كتابه رَحِمَهُ اللَّهُ اعتمد علىٰ الأدلة من الأحاديث والآثار، أشار عليَّ الأخ الفاضل الشيخ/ عبد السلام صاحب (**المكتبة الإسلامية**) بتخريج الأحاديث النبوية وبيان درجتها. فأجبته إلىٰ طلبه لما رأيت فيه من خدمة لهذا الكتاب حتىٰ يزاد الانتفاع لطلبة العلم، وقد صدر تخريج الأحاديث في مصنف مستقل بعنوان: هداية المستنير لتخريج أحاديث ابن كثير، وقد كان له قبول بين الطلاب، وإن كان وقع فيه أخطاء قليلة تحتاج إلىٰ تصويب.

ثم كانت المشورة بعد تخريج الأحاديث بأن أخرج الآثار الواردة في الكتاب لتكمل الفائدة ويعم الخير، فكان هذا الجهد المتواضع في هذا الكتاب مضمومًا إلىٰ الأحاديث، وكان البحث في الآثار المتعلقة بسبب النزول، أو المتعلقة بمسائل اعتقادية أو أخبار سابقة أولا حقة، وقد بذلت وسعي وجهدي، ولا أدعي أنني بلغت الذروة، فما كان فيه من صواب فمن فضل الله ورحمته، وما كان فيه من خطإ فمن عجزي وتقصير وبسبب ذنوبي والشيطان، والله يغفر لي. وعلىٰ من ينظر فيه أن يراعي قدر الجهد، فلا يفخر بالعيوب والقبيح، ويستر الحسن.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

وصلِّ اللهم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن ولاه.

عملنا في القراءات

بقلم/ أبي محمد محمد بن إبراهيم بن شحاتة المصري

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا الأمين، محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد ...

فقد كان هدفنا في التعليق علىٰ القراءات في «تفسير القرآن العظيم» للإمام ابن كثير: بيان القراءات بأوجهها المختلفة معزوةً إلىٰ من قرأ بها من القراء؛ فإذا أشار الإمام إلىٰ وجه أو أكثر من أوجه القراءة في كلمة ما، أو كتبت الكلمة علىٰ غير الوجه المشهور «رواية حفص» قمنا بذكر كل أوجه القراءة في تلك الكلمة بداية بالقراءات العشر المتواترة حتىٰ القراءات الأربعة الشواذ، مع ذكر من قرأ به من القراء الأربعة عشر باختصار شديد.

علىٰ أننا ننبه هنا إلىٰ عدة نقاط:

- أننا اعتمدنا في بيان القراءة علىٰ مجرد تشكيل موضع الخلاف دون وصف ذلك بالكلمات اختصارًا.

- أننا ذكرنا من قرأ بهذه القراءة من القراء قارئًا قارئًا حتىٰ تسهل الاستفادة بها.

- أننا قدمنا التعليق علىٰ القراءة بواحدة من ثلاث صيغ، وهي كالتالي:

• **متواترة:** وذلك إذا كان للقراءة في القراءات العشر المتواترة وجه، مع ذكر ما كان في القراءات الأربعة الشواذ مما يوافق ذلك أو يخالفه.

• **شاذة:** وذلك إذا لم يكن للقراءة في القراءات العشر المتواترة وجه، وكان لها في القراءات الأربعة الشاذة وجه، ثم نذكر الوجه المجمع عليه في القراءات العشر قائلين: «وليس في المتواتر إلا (...)» إذا كانت متفقًا عليها بين القراء، أو «وفيها من المتواتر (...)» إذا كان فيها أكثر من وجه مع ذكر تلك الأوجه معزوةً لمن قرأ بها.

• **قراءة:** إذا لم يكن للقراءة في القراءات العشر المتواترة ولا في القراءات الأربعة الشاذة وجه قدمنا له بهذه الكلمة -هكذا- مطلقة، سواء نسبت إلىٰ صحابي أو من دونه، ثم نذكر الوجه المجمع عليه في القراءات العشر قائلين: «وليس في المتواتر إلا (...)» إذا كانت متفقًا عليها بين القراء، أو «وفيها من المتواتر (...)» إذا كان فيها أكثر من وجه مع ذكر تلك الأوجه معزوةً لمن قرأ بها.

وصف نسخ الكتاب المخطوطة

١ - أولًا النسخة الأزهرية (ز):

وأحيانًا نطلق عليها (الأصل).

وهي نسخة محفوظة بمكتبة الأزهر برقم (١٦٨) تفسير «الرقم الخاص»، والرقم العام (٢٩٤٠). وقد حصلنا علىٰ صورة كاملة لها من مكتبة الأزهر، وهي تحتوي علىٰ الكتاب كاملًا في سبعة مجلدات.

الناسخ: محمد بن علي الصوفي.

تاريخ النسخ: فرغ الكاتب من نسخها في العاشر من جمادىٰ الأولىٰ سنة (٨٢٥هـ).

عدد الأوراق: (٢١٨٥) مقاس ١٨×٢٧سم.

عدد الأسطر (المسطرة) ٢٣ سطرًا.

الخط: نسخ معتاد ممتاز.

وقد اعتمدنا عليها في إخراج نسختنا من التفسير وذلك لأسباب:

أولًا: أنها نسخة كاملة تحتوي علىٰ التفسير من الفاتحة للناس.

ثانيًا: ثناء العلماء عليها، فمثلًا وصفها الشيخ أحمد شاكر بأنها: نسخة يغلب عليها الصحة والخطأ فيها قليل.

ووصفها محققوا الشعب بأنها: أصح وأدقّ ما رأيناه من النسخ.

ثالثًا: أنها من أقدم النسخ بل هي أقدم نسخة كاملة، نعم هناك نسخ أقدم منها لكنها غير كاملة.

رابعًا: أنها تمثل النسخة الأولىٰ للمؤلف -فقد نسخت من النسخة الأولىٰ للمؤلف- وأما ما عداها فيمثل مرحلة متأخرة، أضاف فيها ابن كثير زيادات أغلبها عن الزمخشري والقرطبي والفخر الرازي.

وهذه الزيادات لا تكاد تتجاوز منتصف سورة البقرة، وحرصًا علىٰ استكمال نسختنا فسوف نزيدها من النسخ الأخرىٰ مع التنبيه عليها.

٢- ثانيًا: نسخة الحرم المكي (ح):

وهي نسخة محفوظة بمكتبة الحرم المكي بمكة المكرمة برقم (٩١) تفسير، وتحتوي علىٰ

الجزء الأول، ويبدأ بأول التفسير وينتهي عند آية (٣١) من سورة النساء.

الناسخ: غير معروف.

تاريخ النسخ: تم الفراغ من هذا الجزء ٢٨ جمادىٰ الأخرىٰ سنة (١٢٢٦). كما ذكر الناسخ ذلك بعد تفسير آية الكرسي.

عدد الأوراق: (٤١٢) ورقة.

المقاس: (٢٩×٢٠).

عدد الأسطر: (٢٠) سطرًا.

نوع الخط: نسخ معتاد جيد.

وقد جعلنا هذه المخطوطة لنا أصلًا في كتاب فضائل القرآن وذلك للأسباب الأتية:

أولًا: أن الأزهرية لا يوجد بها كتاب الفضائل.

ثانيًا: أن هذه النسخة قد احتوت علىٰ كتاب الفضائل كاملًا، فهي أتم من غيرها من المخطوطات.

ثالثًا: أنها نسخة جيدة قليلة الأخطاء.

كما اعتمدنا عليها في استدراك كثير من الزيادات علىٰ الأزهرية فقد اشتملت علىٰ أكثرها.

٣- ثالثًا: نسخة جامعة الرياض (ض):

وهي نسخة محفوظة بجامعة الملك سعود بالرياض برقم (٤٠٥٢)، وتبدأ من تفسير الآية: (٣١) من سورة النساء، وتنتهي بتفسير الآية: (٣٦) من سور التوبة.

الناسخ: غير معروف.

تاريخ النسخ: كتبت في حدود سنة (١١٥٥هـ).

عدد الأوراق: ٢١٨.

عدد الأسطر: ٢٣ سطرًا.

وهي نسخة حديثه وخطها مقروء، إلا أن فيها حذفًا واختصارًا.

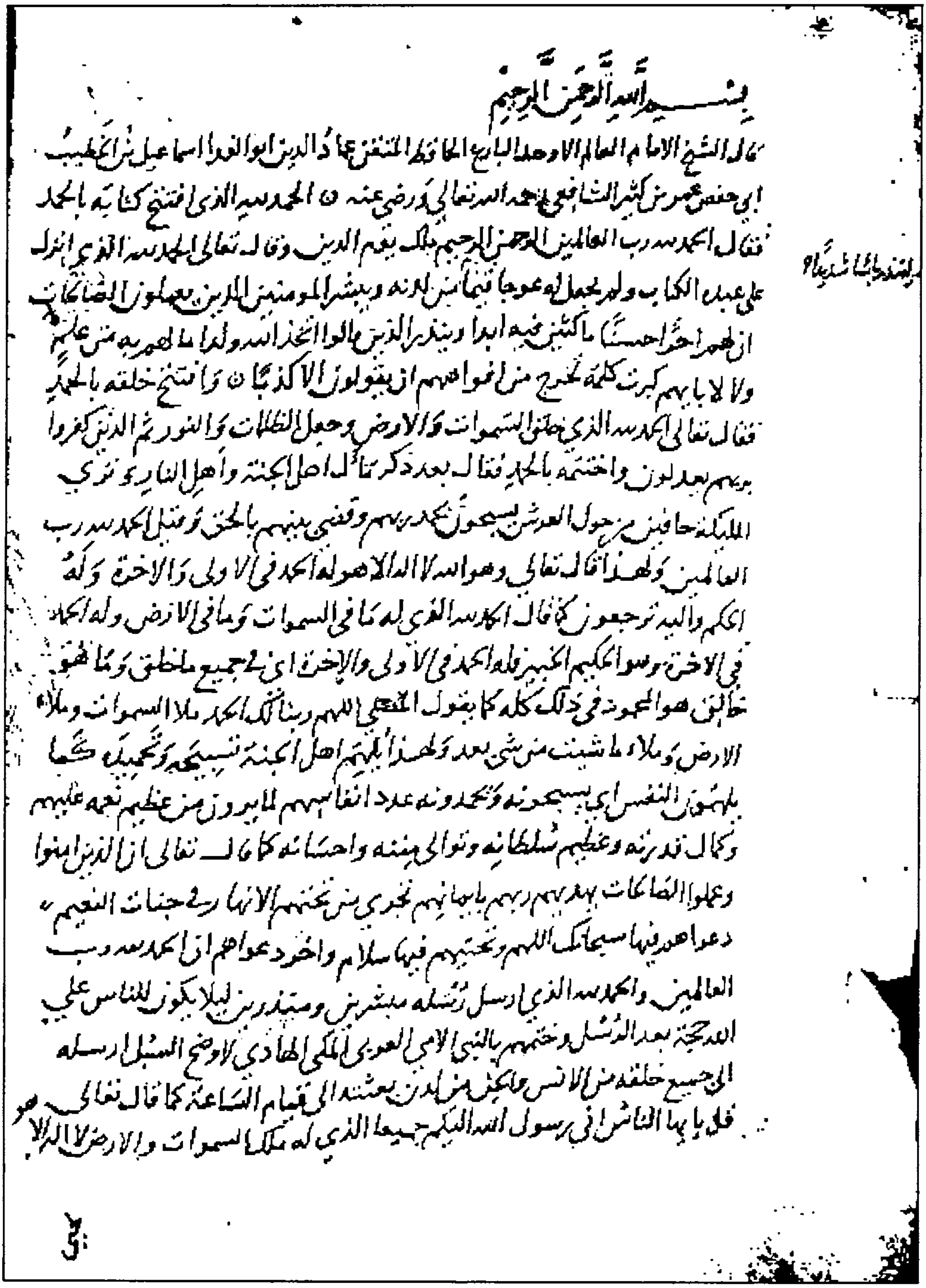

بسم الله الرحمن الرحيم
قال الشيخ الإمام العالم الأوحد البارع الحافظ المتقن عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب
أبي حفص عمر بن كثير الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه: الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد
فقال الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وقال تعالى الحمد لله الذي أنزل
على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات
أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم
ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا وافتتح خلقه بالحمد
فقال تعالى الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا
بربهم يعدلون واختتمه بالحمد فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار وترى
الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب
العالمين ولهذا قال تعالى وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله
الحكم وإليه ترجعون كما قال الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد
في الآخرة وهو الحكيم الخبير فله الحمد في الأولى والآخرة أي في جميع ما خلق وما هو
خالق هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء
الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ولهذا يلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما
يلهمون النفس أي يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم لما يرون من عظيم نعمه عليهم
وكمال قدرته وعظيم سلطانه وتوالي مننه وإحسانه كما قال تعالى إن الذين آمنوا
وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم
دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب
العالمين والحمد لله الذي أرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على
الله حجة بعد الرسل وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل أرسله
إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى
قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو

النسخة الأزهرية (١ - أ)

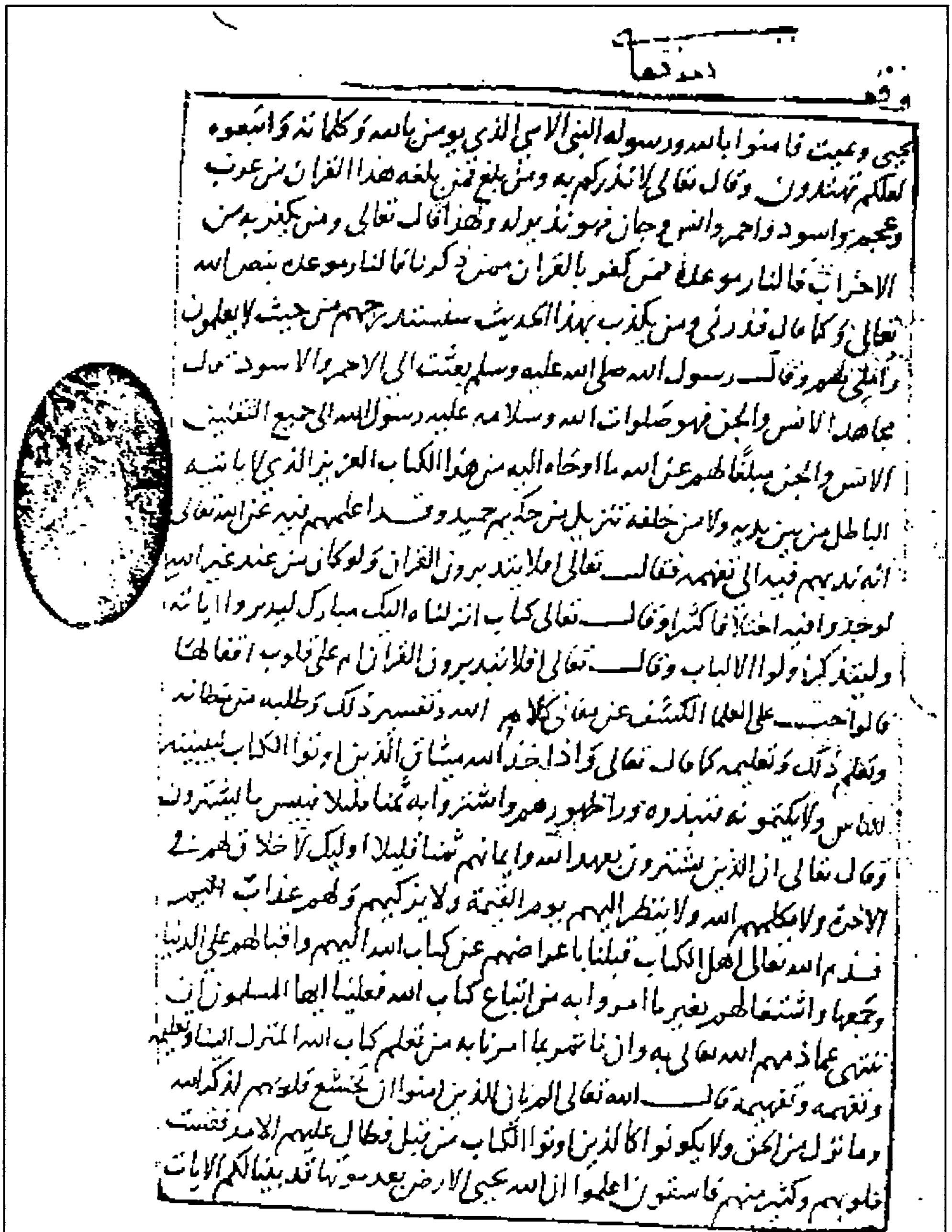

يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه
لعلكم تهتدون، وقال تعالى لأنذركم به ومن بلغ فمن بلغه هذا القرآن من عرب
وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان فهو نذير له، ولهذا قال تعالى ومن يكفر به من
الأحزاب فالنار موعده فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله
تعالى وكما قال فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون
وأملي لهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت إلى الأحمر والأسود قال
مجاهد الإنس والجن فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين
الإنس والجن مبلغاً لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى
أنه ندبهم إلى تفهمه فقال تعالى أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وقال تعالى كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته
وليتذكر أولوا الألباب، وقال تعالى أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها
قال واجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه
وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه
للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون
وقال تعالى إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في
الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم
فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم وإقبالهم على الدنيا
وجمعها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله فعلينا أيها المسلمون أن
ننتهي عما ذمهم الله تعالى به وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه
وتفهمه وتفهيمه قال الله تعالى ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله
وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست
قلوبهم وكثير منهم فاسقون اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات

النسخة الأزهرية (١ – ب)

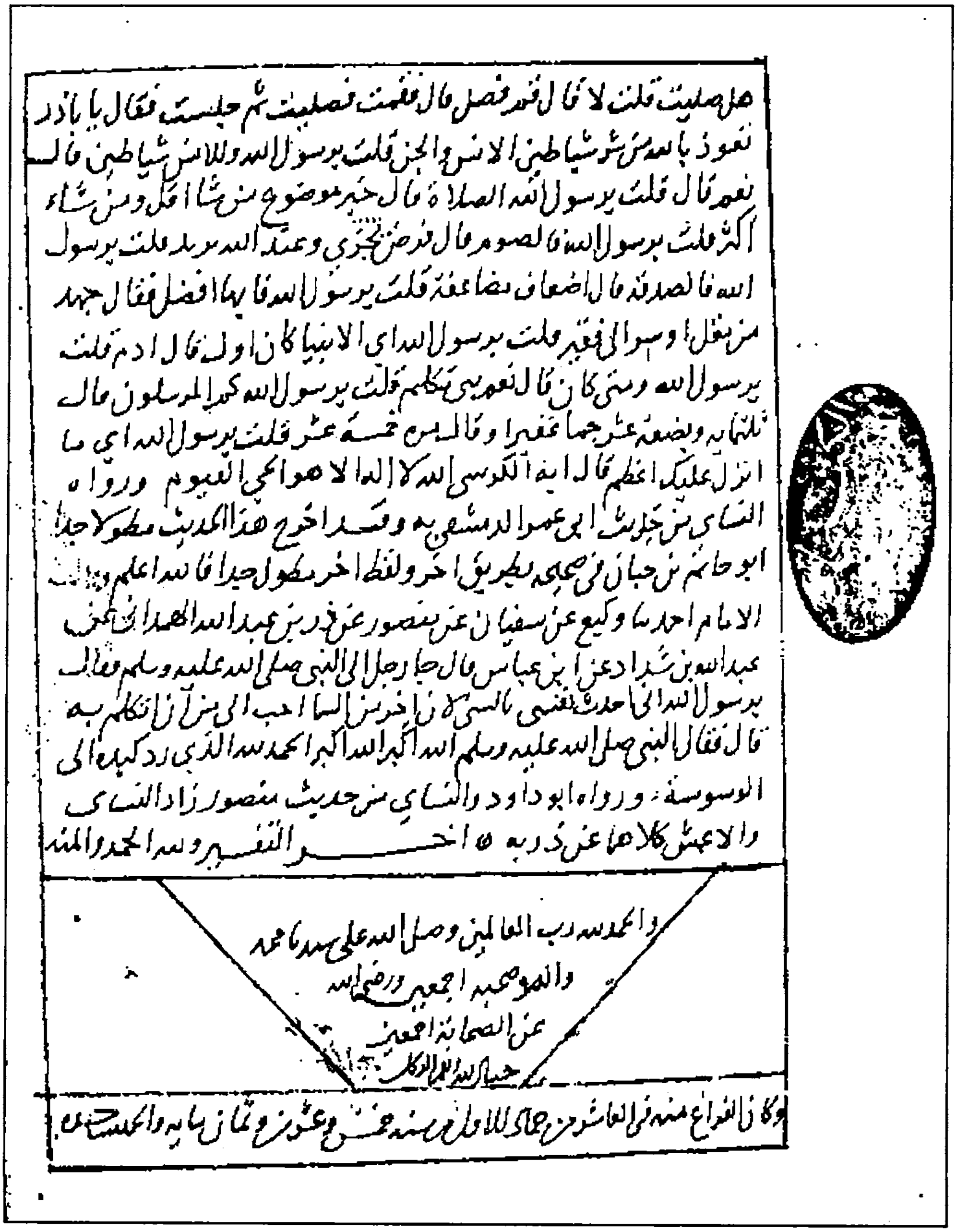

هل صليت قلت لا قال قم فصل قال فقمت فصليت ثم جلست فقال يا أبا ذر
تعوذ بالله من شر شياطين الانس والجن قلت يا رسول الله وللانس شياطين قال
نعم قال قلت يا رسول الله الصلاة قال خير موضوع من شاء اقل ومن شاء
اكثر قلت يا رسول الله فالصوم قال فرض مجزي وعند الله مزيد قلت يا رسول
الله فالصدقة قال اضعاف مضاعفة قلت يا رسول الله فايها افضل قال جهد
من مقل او سر الى فقير قلت يا رسول الله اي الانبيا كان اول قال ادم قلت
يا رسول الله ونبي كان قال نعم نبي مكلم قلت يا رسول الله كم المرسلون قال
ثلثمايه وبضعة عشر جما غفيرا وقال مرة خمسة عشر قلت يا رسول الله اي ما
انزل عليك اعظم قال اية الكرسي الله لا اله الا هو الحي القيوم ورواه
النسائي من حديث ابي عمر الدمشقي به وقد اخرج هذا الحديث مطولا جدا
ابو حاتم بن حبان في صحيحه بطريق اخر ولفظ اخر مطول جدا فالله اعلم وقال
الامام احمد ثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ذر بن عبد الله الهمداني عن
عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال جا رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال
يا رسول الله اني احدث نفسي بالشي لان اخر من السما احب الي من ان اتكلم به
قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم الله اكبر الله اكبر الحمد لله الذي رد كيده الى
الوسوسة ورواه ابو داود والنسائي من حديث منصور زاد النسائي
والاعمش كلاهما عن ذر به ❊ اخر التفسير ولله الحمد والمنة

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد
واله وصحبه اجمعين ورضي الله
عن الصحابة اجمعين
حسبنا الله ونعم الوكيل

وكان الفراغ منه في العاشر من جمادى الاول من سنة خمس وعشرين وثمانمائة والحمد لله

النسخة الأزهرية (٢)

٩٧ ب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع السما بغير عماد، وبسط الارض وثبتها بالاطواد، ومنح معرفته ومحبته من يشا من العباد، واقام لدينه اوليا يبصرونه ويقومون به وجعل منهم النجبا والاقطاب والاوتاد، واعلا منار الدين بالعلما العاملين واوضح بهم طرق الرشاد، وقمع بهم اهل الزيغ والاهوا والبدع والفساد، وثبت لهم دينهم بالنقل عن نبيهم بصحيح الاسناد، ونفى عنهم التدليس والشذوذ والانفراد. واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له المتعالي عن الشركا والنظرا والانداد، المنزه عن الحلول والاتحاد والالحاد، واشهد ان محمدا عبده ورسوله وحبيبه وخليله سيد العباد، صلى الله عليه وعلى اله النجبا الانجاد، وصحابته السادة الابرار الامجاد، صلاة تدوم وتقوم ما دامت السموات والارض من قابل البياض السواد

وبعد فقد امرني السيد الجليل من وصل الله له جناح الصنع الجميل، وواصل عليه السول واوصل اليه المامول، وعمر بحبه ربوع انسي، وانطر بفيضه ربيع نفسي، مولانا وسيدنا العبد الفقير الى الله سبحانه الامل الراجي عفو الكريم واحسانه: قاضي القضاة حاكم الحكام نجم الدين حجة الاسلام المسلمين سيد العلما في العالمين بها الملة لسان الشريعة عز السنة حصن الامة خطيب الخطبا امام البلغا عين الزمان ناصر الايمان شيخ الشيوخ العارفين ابو حفص عمر ابن سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العلامة والحبر الفهامة قدوة العلما العاملين ابي محمد يحيى السعدي الشافعي اسبغ الله ظله واعلا الله امره، واسنى قدره، ممن لا تتقلب الا في طاعته، ولا تتصرف الا في مرضاته، ان يكتب برسم خزانته تفسير الشيخ الامام العالم الكبير العلامة عماد الدين ابن كثير رحمه الله وارضاه، وجعل بحبوحة الجنة مقره ومثواه، فامتثلت امره بالسمع والطاعة، وعددت هذا الامر من انفس البضاعة، مع اني في الكتابة قليل البضاعة، فكتبت بقدر ما قدرت عليه، ووصلت اليه،

النسخة الأزهرية (٣)

فإن صادفت قبولا وبلغت مأمولا، فيكون سعدي سعيدا، ويقع سهمي سديدا

فإن وقفت بي قدرتي دون همتي فمبلغ علمي والعاذر يتقبل

وقد جمعت هذه الخزانة الشريفة أشتات العلوم على الإطلاق من رام مثلها فهو مقصر عن روم أسباب اللحاق خصوصا إذ كان بها هذا التفسير الذي مادته سنن المصطفى المنبه على جوامع ما يزداد اللبيب بها بصيرة في علمه النافع إذ كان صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلام وعلم فصل الخطاب فلم يسمع الناس كلاما أعم نفعا ولا أقصر لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ولا أبين في فحواه صلى الله عليه وسلم فلله در مولانا ذي جمع أفراد الفضائل ونظم أشتات الفضائل وحاز من العلم الذرى والغوارب فلا يخفى على ذي لب أنه أعرق في الفهم فصولا وأعرق في العلم أصولا فأقول مختصرا وعن ما يليق بمدحه معتذرا محتميا بمدحه من تقصير كيف وثنائي عليه فيا بعد من الرقي في حبه والقرب من قلبه وتلك أمنيتي حتى ألقى منيتي لا أتعداها ولا أتمنى سواها ولله در القائل

إذا ابن حجي جادت لنا يده لم يحمد الأجودان البحر والمطر

وإن أضاءت لنا أنوار غرته تضاءل الأنوران الشمس والقمر

وإن مضى رأيه أو حد عزمته تأخر الماضيان السيف والقدر

من لم يبت حذرا من خوف سطوته لم يدر ما المزعجان الخوف والحذر

كأنه الدهر في نعمى وفي نقم إذا تعاقب منه النفع والضرر

كأنه وزمام الدهر في يده يرى عواقب ما يأتي وما يذر

فالحمد لله الذي جعل جمال مظهرك موازيا لكمال مخبرك، وشامخ قدرك منافسا لراسخ عنصرك. والله حسبي فيك من كل ما يعوذ العبد به المولى

واسلم وعش لا زلت في نعمة أنت بها من غيرك الأولى

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. كتبه الفقير محمد بن علي الصوفي البواب بالخانقاه السميساطية بدمشق المحروسة حامدا ومصليا ومحسبلا ومحوقلا والحمد لله

النسخة الأزهرية (٤)

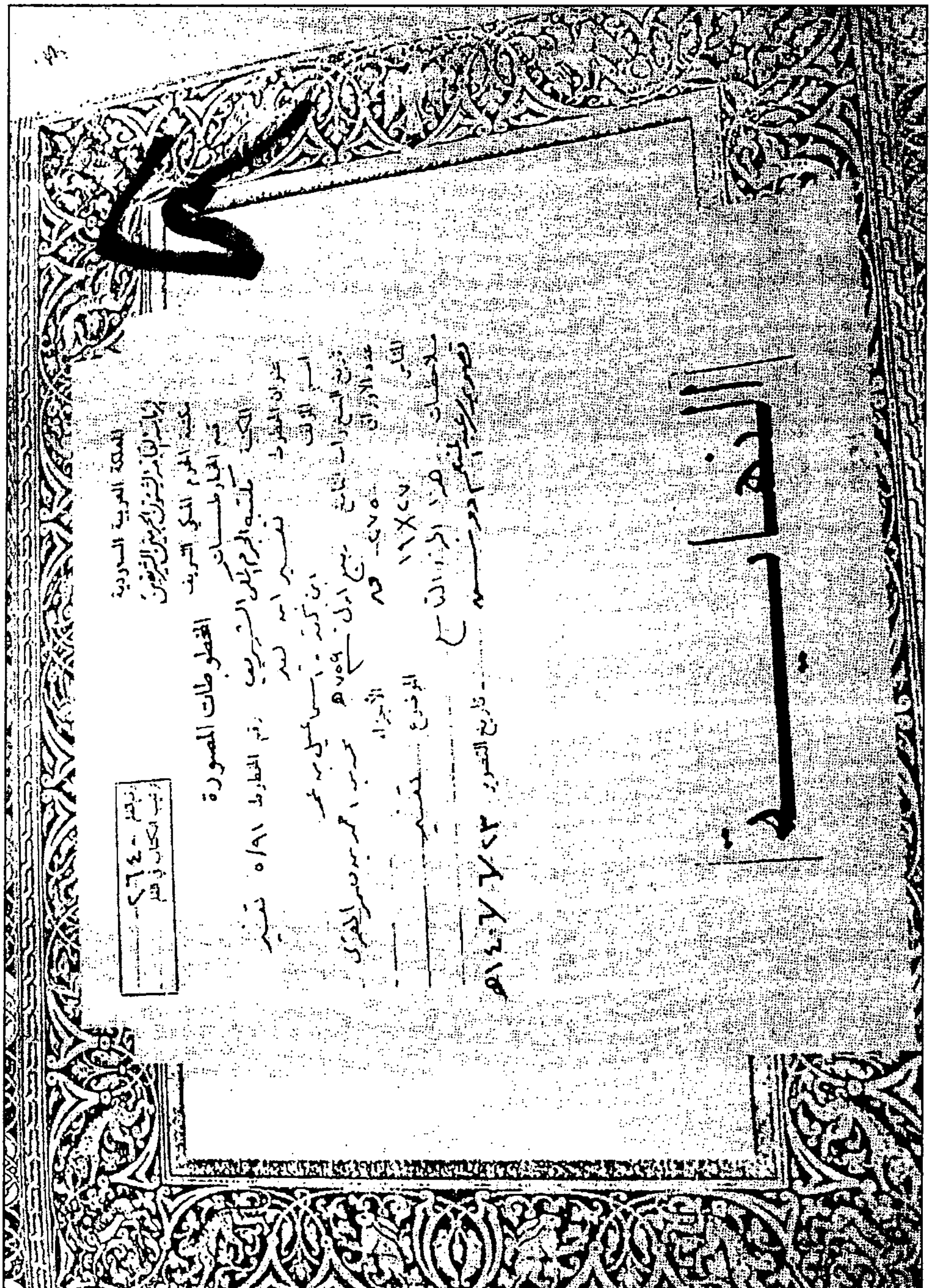

نسخة الحرم المكي (١)

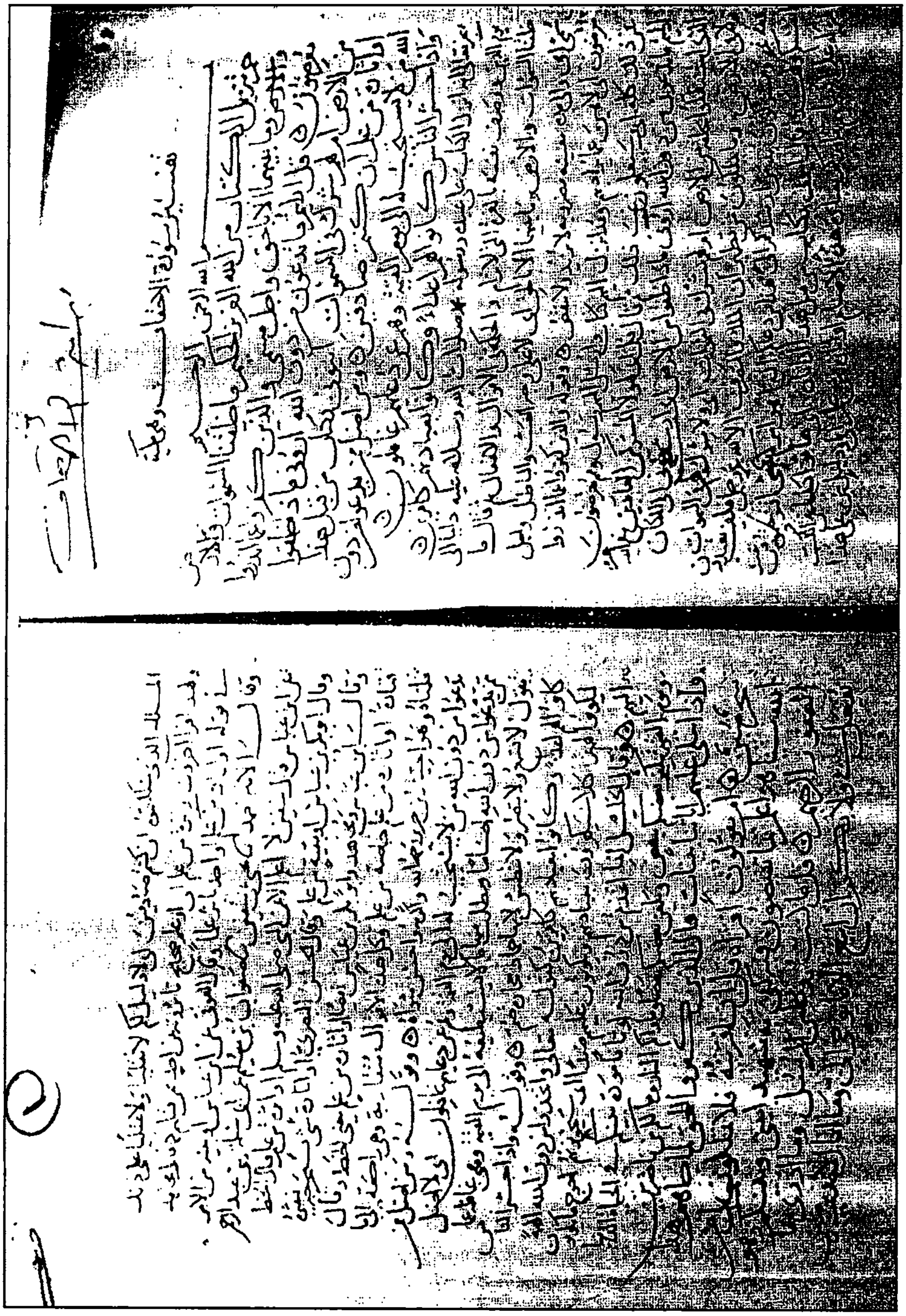

نسخة الحرم المكي (٢)

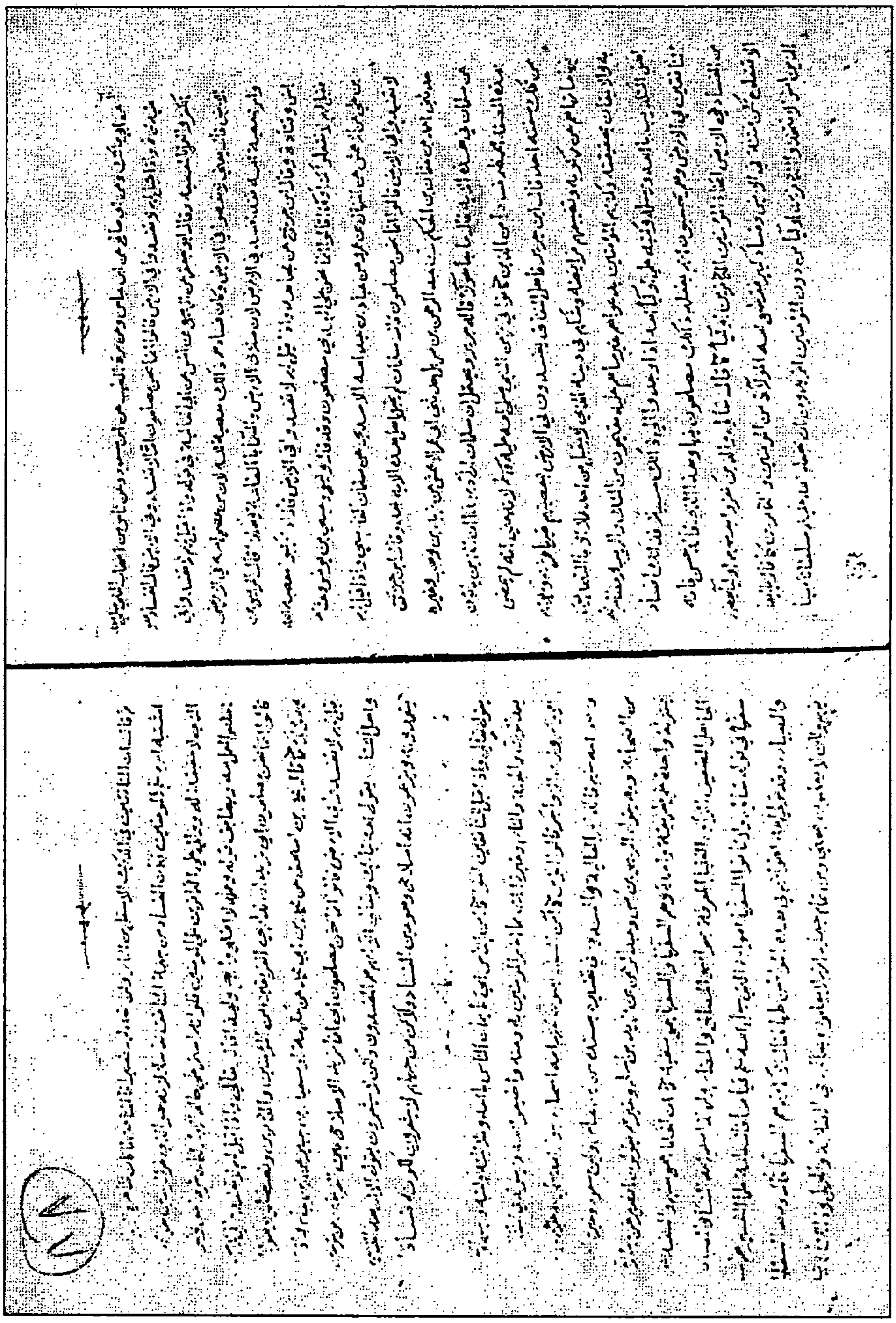

نسخة الحرم المكي (٣)

ثنا ابن سلمة نا يحيى بن ايوب عن يزيد عن عمران عن عبد الرحمن عن ابي قيس مولى عمرو
عمرو فذكر نحوه وهذا والله اعلم اشبه بالصواب وقال ابن مردويه نا عبد الرحمن بن محمد
البلخي ثم ذكر الاسناد الى ابن عباس ان عمرو صلى بالناس وهو جنب فلما قدموا على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له فدعاه فسأله فقال خفت ان يقتلني البرد وقد قال الله تعالى ولا تقتلوا
انفسكم الاية فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اورد ابن مردويه عند هذه الاية حديث
ابي هريرة من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيمة في نار جهنم
خالدا مخلدا فيها ابدا الحديث وهو في الصحيحين ولهذا قال تعالى ومن يفعل ذلك
عدوانا وظلما اي ومن يتعاطى ما نهى عنه متعديا فيه ظالما في تعاطيه اي عالما بتحريمه متجاسرا
على انتهاكه فسوف نصليه نارا الاية وهذا تهديد شديد ووعيد اكيد فليحذر منه كل
عاقل لبيب ممن القى السمع وهو شهيد وقوله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر
عنكم سيئاتكم الاية اي اذا اجتنبتم كبائر الاثام التي نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب
وادخلناكم الجنة ولهذا قال وندخلكم مدخلا كريما قال البزار نا مؤمل بن هشام نا
اسمعيل بن ابراهيم نا الجلد بن ايوب عن معاوية بن قرة عن انس رفعه قال لم نر
الذي بلغنا عن ربنا عز وجل ثم لم نخرج عن كل اهل ومال ان تجاوز لنا عما دون الكبائر
يقول الله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم الاية وقد وردت احاديث
متعلقة بالاية فلنذكر منها ما تيسر قال احمد نا هشيم عن مغيرة عن ابي معشر عن
ابراهيم عن علقمة عن القرثع الضبي عن سلمان مرفوعا اتدري ما يوم الجمعة قلت هو اليوم
الذي جمع الله فيه اباكم قال لكني ادري ما يوم الجمعة لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره
ثم ياتي الجمعة فينصت حتى يقضي الامام صلاته الا كانت كفارة له ما بينه وبين الجمعة
ما اجتنبت المقتلة وروى البخاري من وجه اخر عن سلمان نحوه قال ابن جرير حدثني
المثنى نا ابو صالح نا الليث حدثني خالد عن سعيد بن ابي هلال عن نعيم المجمر اخبرني
صهيب مولى   الله سمع ابا هريرة وابا سعيد يقولان خطبنا رسول الله صلى
عليه وسلم يوما فقال والذي نفسي بيده ثلاث مرات ثم اكب فاكب كل رجل منا يبكي

نسخة من ط. الرياض

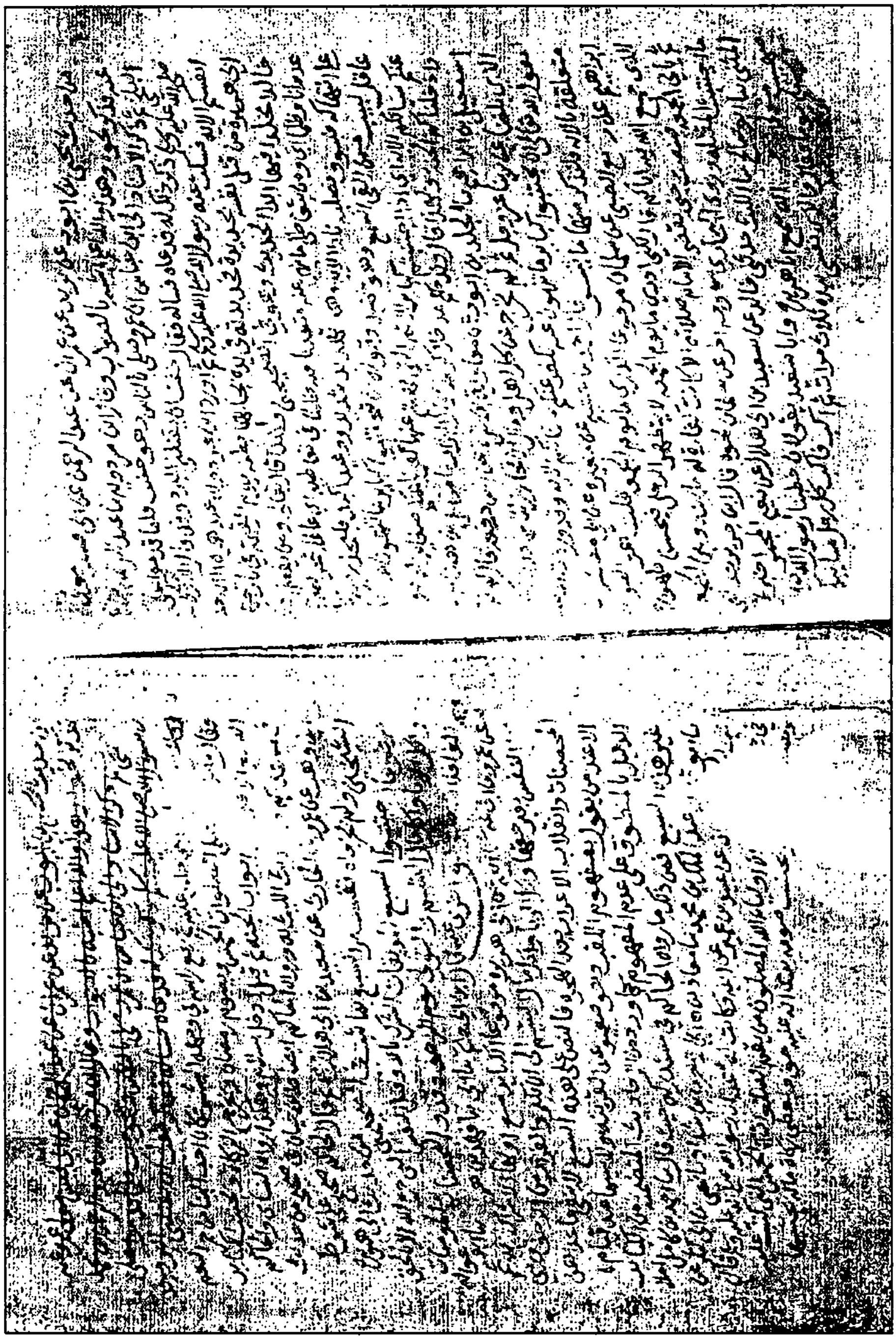

نسخة من ط. الرياض

الثالث من تفسير القرآن
للشيخ الإمام العالم العلامة
البحر الفهامة ابن كثير
نفعنا الله تعالى ببركاته في الدنيا
والآخرة آمين آمين
وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله
وصحبه وسلم

الشاكرية

النسخة الشاكرية (١)

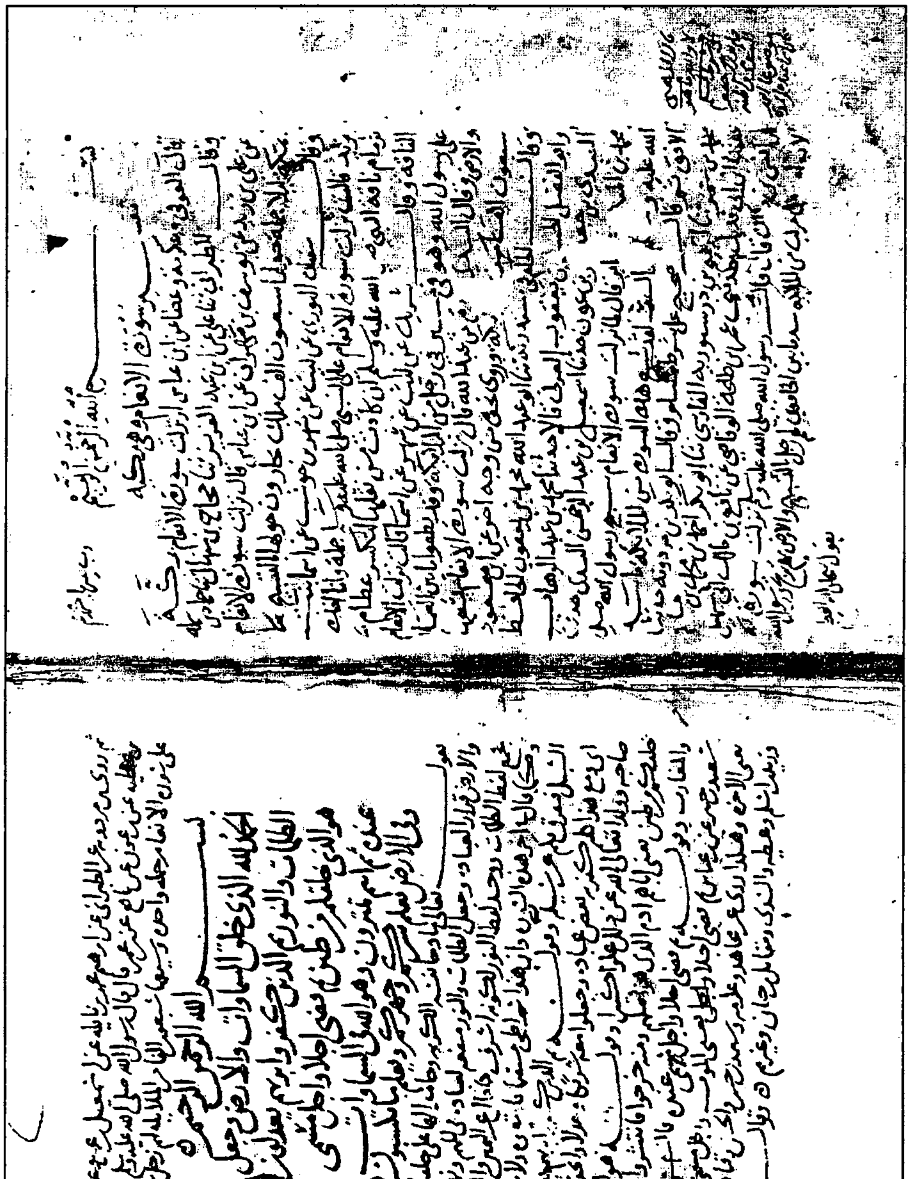

النسخة الشاكرية (٢)

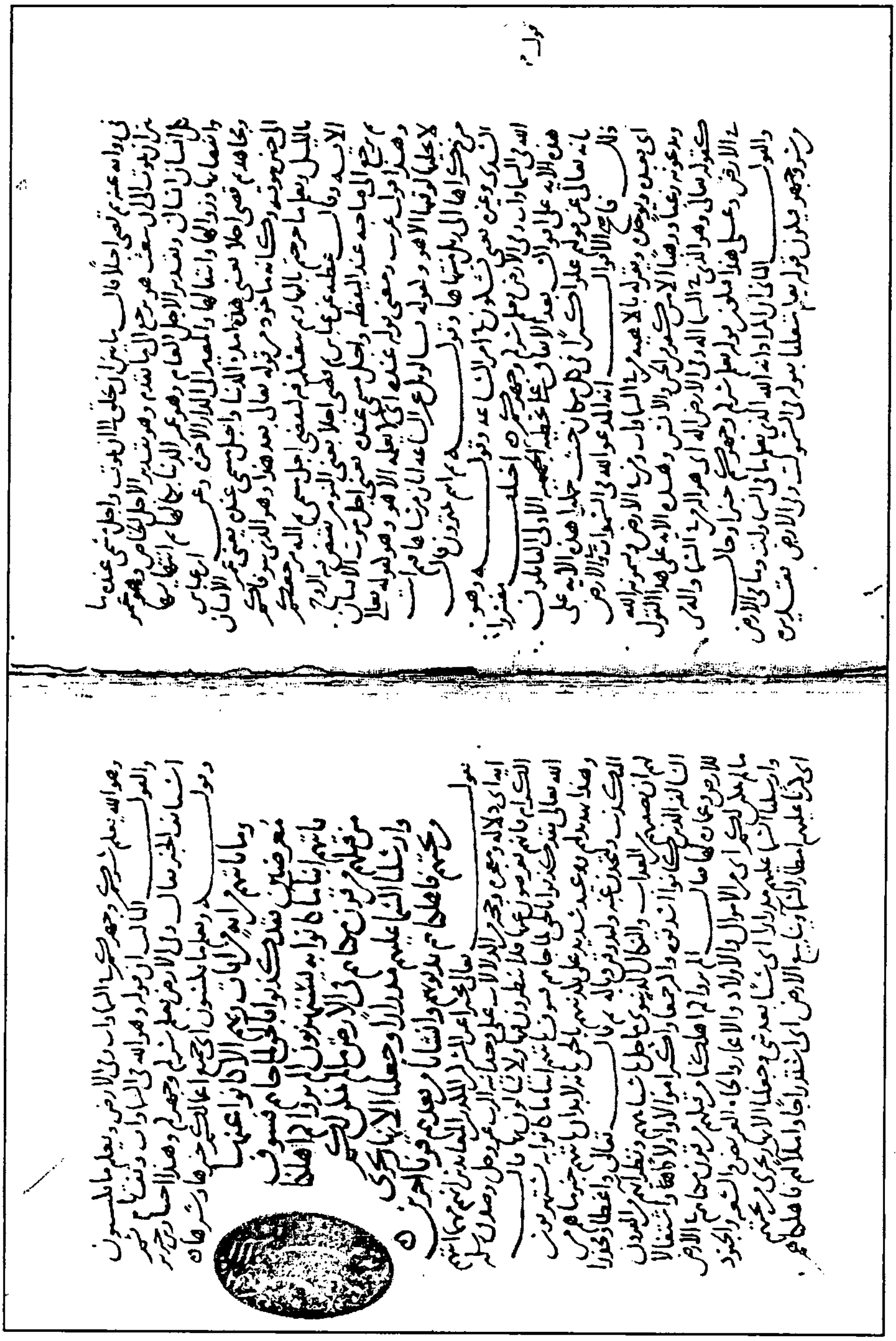

النسخة الشاكرية (٣)

مقدمة ابن كثير

قال الشيخ الإمام العالم الأوحد، البارع الحافظ المُتْقِنُ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عُمَر بن كَثير [البصروي][1] الشَّافعي، رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه:

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:١-٥].

وافتتح خَلْقَهُ بالحمد، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

واختتمه بالحمد، فقال -بعد ذكر مآل أَهْلِ الجنَّة وأهل النَّار-: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

فله الحمد في الأُولىٰ والآخِرة؛ أي: في جميع ما خلق وما هو خَالِقٌ، وهو المحمود في ذلك كله، كما يقول المصلِّي: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**»[2].

ولهذا يُلْهَم أهل الجنَّة تسبيحه وتحميده كما يُلْهَمون النَّفَس[3]؛ أي: يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم؛ لما يرون من عظيم نِعَمِهِ عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالي مِنَنه [ودوام][4] إحسانه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) ليست في (ز).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٧٦)، وأبو داود (٨٤٦)، وابن ماجه (٨٧٨) من حديث ابن أبي أوفى، ورواه مسلم (٤٧٧)، وأبو داود (٨٤٧)، والنسائي (٢/ ١٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري، ورواه مسلم (٤٧٨)، والنسائي (٢/ ١٩٨) من حديث ابن عبَّاس، ورواه مسلم (٧٥١)، وأبو داود (٧٦٠) والترمذي (٣٤٢٢) من حديث علي بن أبي طالب.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٥).

(٤) ليست في (ز).

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

والحمد لله الَّذي أرسل رسله ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنَّبيِّ الأُمِّي العربيِّ المَكِّيِّ الهادي لأوضح السُّبُل، أرسله إلىٰ جميع خلقه من الإنس والجنِّ، مِن لدُنْ بعثته إلىٰ قيام السَّاعة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ(١) يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمَن بَلَغَهُ هذا القرآن مِن عرَبٍ وعجَم، وأسودَ وأحمرَ، وإنسٍ وجانٍّ، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. فمن كفر بالقُرْآن ممَّن ذكرنا فالنَّار موعده، بنَصِّ الله تعالىٰ، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَىٰ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ»(٢).

قال مجاهد: يعني: الإنس والجنَّ. فهو -صلوات الله وسلامه عليه- رسول الله إلىٰ جميع الثَّقَلَيْنِ: الإنس والجنِّ، مُبَلِّغًا لهم عَن الله ما أوحاه إليه مِن هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالىٰ أنَّه ندبهُم فيه إلىٰ تفهُّمه، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمَّد: ٢٤].

فالواجب علىٰ العلماء الكَشْف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانِّه، وتَعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ(٣) فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فذَمَّ الله تعالىٰ أهل الكِتَابِ قبلنا بإعْرَاضِهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم علىٰ الدُّنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أُمِرُوا به مِن اتِّبَاع كتاب الله.

فعلينا -أيها المسلمون- أن ننتهي عما ذمَّهم الله تعالىٰ به، وأن نأْتَمِرَ بما أمرنا به، من تَعَلُّم كتاب الله المُنَزَّل إلينا وتعليمه، وتَفَهُّمِهِ وتَفْهِيمِهِ، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ

---

(١) لوحة (٢/أ/١).

(٢) صحيح: مسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٣) في (ز): «لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ».

ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ[1] لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]. فَفِي ذكره تعالىٰ لهذه الآية بعد الَّتِي قبلها تنبيهٌ علىٰ أنَّه تعالىٰ كما يُحْيِي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتِهَا من الذُّنوب والمعاصي، والله المؤمل المسئول أن يفعل بنا ذلك، إنَّه جواد كريم.

❑ فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إنَّ أصحَّ الطُّرق في ذلك أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجمِل في مكان فإنَّه قد فُسِّر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسُّنَّة فإنَّها شارحة للقرآن وموضحةٌ له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو ممَّا فَهِمَهُ مِن القرآن. قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ[2] لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[3]؛ يعني: السُّنَّة. والسُّنَّة أيضًا تُنَزَّل عليه بالوحي، كما يُنَزَّل القرآن؛ إلا أنَّها لا تتلىٰ كما يتلىٰ القرآن، وقد استدل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من الأئمَّة علىٰ ذلك بأدلَّة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنَّك تطلب تفسيرَ القرآن منه، فإن لم تجدْهُ فمن السُّنَّة، كما قال رسولُ الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلىٰ اليمن: «بِمَ تَحْكُمُ؟». قال: بكتاب الله. قال: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟». قال: بسُنَّة رسول الله. قال: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟». قال: أجتهد برأيي. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ»[4]، وهذا الحديث في المسانيد والسُّنَن بإسناد جيِّد، كما هو مقرر في موضعه.

وحينئذٍ: إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنَّة، رجعنا في ذلك إلىٰ أقوال الصَّحابة، فإنَّهم أدرىٰ بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصُّوا بها، ولما لَهُم من الفَهْم التَّامِّ، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمَّة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) لوحة (٢ ب/ ١). (٢) في (ز): «الكتاب»، وهو خطأ.

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٦٣- بتحقيقي)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٨٣).

(٤) ضعيف: رواه أبو داود (٣٥٩٢)، والترمذي (١٣٢٧- ١٣٢٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٤١٣) (٥١١- ٥١٥ بتحقيقي) من طريق الحارث بن عمرو، عن أصحاب معاذ، عن معاذ.
- وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل.
- وقال البخاري في «التاريخ الكبير»: الحارث بن عمرو عن أصحاب معاذ، وعنه أبو عوان لا يصح ولا يعرف إلا بهذا.
- وقال ابن حزم: لا يصح.
- وقال الجوزقاني: حديث باطل.
- لكن معنىٰ الحديث ثابت من آثار بعض الصحابة منهم عمر بن الخطاب وابن مسعود، رواهما الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٤٤٤، ٥٣٤، ٥٣٦) وإسنادهما صحيح.

قال[١] **الإمام أبو جعفر محمَّد بن جرير الطبري**: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا جابر بن نوح، حدَّثنا الأعمش، عن أبي الضُّحَىٰ، عن مسروق، قال: قال عبد الله -يعني ابن مسعود-: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية مِن كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلَت؟ وأين نزلَت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته[٢].

وقال الأعمش أيضًا، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: كان الرجل منَّا إذا تعلَّم عشر آيات لم يُجَاوِزْهُنَّ حتىٰ يعرف معانيهن، والعمل بهن[٣].

وقال أبو عبد الرَّحمن السلمي: حدَّثنا الذين كانوا يُقْرِئُونَنَا أنَّهم كانوا يستقرئون من النَّبيِّ ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عشر آيات لم يُخَلِّفُوها حتىٰ يعملوا بما فيها من العمل، فتَعَلَّمْنا القرآن والعمل جميعًا[٤].

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عبَّاس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن وببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[٥].

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا سفيان، عن الأعمش، عن مُسْلم قال: قال عبد الله -يعني ابن مسعود-: نِعْم ترجمان القرآن ابنُ عبَّاس[٦].

ثم رواه عن يحيىٰ بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيانَ، عن الأعمش، عن مسلم بن صُبَيْح أبي الضحىٰ، عن مسروق، عن ابن مسعود أنَّه قال: نِعْمَ الترجمانُ للقرآنِ ابنُ عبَّاس.

ثمَّ رواه عن بُنْدَار، عن جعفر بن عَوْن، عن الأعمش به كذلك.

فهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن مسعود أنه قال عن ابن عبَّاس هذه العبارة.

وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة اثنتين وثلاثين علىٰ الصَّحيح، وعُمِّر بعده ابن عبَّاس ستًّا وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العُلُوم بعد ابن مسعود رضي الله عنهما؟.

وقال الأعمش، عن أبي وائل: استخلف عليٌّ عبد الله بن عبَّاس علىٰ الموسم، فخطب النَّاس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النُّور، ففَسَّرَها تفسيرًا لو سَمِعَتْهُ الرُّوم والتُّرك والدَّيْلَم لأَسْلَمُوا[٧].

---

(١) لوحة (٣ أ/ ١).

(٢) رواه البخاري (٥٠٠٢) نحوه، والطبراني (٨٣٤٥)، وفي إسناد الطبري جابر بن نوح: ضعيف كما في «التقريب»، لكنه توبع في رواية البخاري.

(٣) **صحيح**: رواه الطبري (١/ ٣٥).

(٤) رواه الطبري (١/ ٣٦) وفي إسناده عطاء بن السائب: اختلط، والراوي عنه جرير بن عبد الله روىٰ عنه بعد الاختلاط، لكن يشهد لحديثه حديث ابن مسعود السابق.

(٥) **صحيح**: رواه بهذا اللفظ ابن حبان (٧٠٥٥)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٩٣)، والطبراني (١٠٥٨٧)، وأحمد (١/ ٣٢٨، ٣٣٥). - والفقرة الأولىٰ منه: رواها البخاري (١٣٥)، وعند مسلم (٢٤٧٧): «اللهم فقهه».

(٦) **صحيح**: رواه ابن جرير (١/ ٤٠)، وابن أبي شيبة (١٢٢٦٩)، والحاكم (٣/ ٥٣٧) بإسناد صحيح، وثبت أيضًا عن عمر بن الخطاب. رواه عنه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٩٩٣).

(٧) **صحيح**: رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦).

ولهذا غالب ما يَرْوِيه إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير في «تفسيره»، عن هذين الرجلين: عبد الله ابن مسعود وابن عبَّاس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه مِن أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً[1]، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2] رواه البخاري عن عبد الله؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يُحدِّث منهما بما فَهِمَهُ من هذا الحَدِيثِ مِن الإِذْنِ في ذلك.

- **ولكن هذه الأحاديث الإسرائيليَّة تذكر للاستشهاد، لا للاعْتِضَاد، فإنَّها علىٰ ثلاثة أقسام:**

أحدها: ما عَلِمْنَا صِحَّتَه ممَّا بأيدينا ممَّا يشهد له بالصِّدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما عَلِمْنَا كَذِبَه بما عندنا ممَّا يخالفه.

والثالث: ما هو مَسْكُوتٌ عنه لا من هذا القَبِيل ولا مِن هذا القبيل، فلا نُؤْمِنُ به ولا نُكَذِّبُه، وتَجُوزُ حكايته لما تقدَّم، وغالب ذلك ممَّا لا فائدة فيه تعود إلىٰ أمرٍ دينيٍّ؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا، ويأتي عن المُفَسِّرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولَوْنَ كلبهم، وعِدَّتَهُمْ، وعصا موسىٰ من أيِّ الشجر كانت؟ وأسماء الطُّيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتَعْيِين البعض الذي ضرب به القَتِيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسىٰ، إلىٰ غير ذلك ممَّا أبهمه الله تعالىٰ في القرآن، ممَّا لا فائدة في تَعْيِينِه تعود علىٰ المُكَلَّفِين في دينهم ولا دنياهم. ولكنَّ نَقْلَ الخِلَاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة علىٰ الأدب في هذا المقام وتعليم ما يَنْبَغِي في مثل هذا، فإنَّه تعالىٰ أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعَّف القولين الأولين وسكت عن الثَّالث، فدَلَّ علىٰ صِحَّتِهِ إذ لو كان باطلًا لرَدَّه كما رَدَّهُما، ثم أرشد علىٰ أن الاطلاع علىٰ عِدَّتِهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإنَّه ما يعلم بذلك إلا قليل من النَّاس، ممَّن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تُجْهِد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنَّهم لا يعلمون مِن ذلك إلا رَجْمَ الغيب.

فهذا[3] أحسن ما يكون في حكاية الخِلَاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تُنَبِّه علىٰ الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النِّزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم [فالأهم][4]. فأما مَن حكىٰ خلافًا في مسألة ولم يستوعب أقوال النَّاس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصَّواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويُطْلِقه ولا يُنَبِّه علىٰ الصَّحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضًا. فإن صَحَّح غير الصحيح عامدًا فقد تَعَمَّد الكَذِب، أو جاهلًا فقد أخطأ،

---

(١) لوحة (٣ب/ ١).
(٢) رواه البخاري (٣٤٦١)، والترمذي (٢٦٦٩)، وأحمد (٢/ ٢٠٢، ٢١٤).
(٣) لوحة (٤أ/ ١).
(٤) سقط من (ز).

وكذلك مَن نَصَبَ الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكىٰ أقوالًا متعددةً لفظًا ويرجع حاصلها إلىٰ قولٍ أو قولين معنًىٰ، فقد ضَيَّع الزَّمان، وتَكَثَّر بما ليس بصحيح، فهو كلابِسِ ثَوْبَيْ زورٍ، والله الموفق للصواب.

[قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد: كان ابن عبَّاس إذا سئل عن الآية في القرآن قال به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فإن لم يكن اجتهد برأيه](١).

فصل

إذا لم تَجِدِ التَّفسير في القرآن ولا في السُّنَّة ولا وجدته عن الصَّحَابَةِ، فقد رجع كثير من الأئمَّة في ذلك إلىٰ أقوال التَّابعين، كمُجَاهد بن جَبْر فإنَّه كان آيةً في التفسير، كما قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثنا أبان ابن صالح، عن مجاهد، قال: عَرَضْتُ المُصْحَفَ علىٰ ابن عبَّاس ثلاث عرضات، من فَاتِحَتِهِ إلىٰ خاتمته، أُوقِفُهُ عند كل آية منه، وأسأله عنها(٢).

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا طَلْق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مُلَيْكَة قال: رأيت مجاهدًا سأل [ابن عبَّاس](٣) عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عبَّاس: اكتب، حتىٰ سأَلَهُ عن التَّفسير كله(٤). ولهذا كان سفيان الثَّوري يقول: إذا جاءك التَّفسير عن مجاهد فحَسْبُكَ بِهِ(٥).

وكسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة مولىٰ ابن عبَّاس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضَّحَّاك بن مُزاحم، وغيرهم من التَّابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافًا فيحكيها أقوالًا وليس كذلك، فإنَّ منهم من يعبِّر عن الشيء بلازمِهِ أو بنظيره، ومنهم مَن يَنُصُّ علىٰ الشيءِ بعينِهِ، والكل بمعنىٰ واحد في كثير من الأَمَاكِنِ، فليتفطن اللَّبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التَّابعين في الفروع ليست حُجَّةً، فكيف تكون حُجَّةً في(٦) التَّفسير؟ يعني: أنَّها لا تكون حُجَّة علىٰ غيرهم مِمَّن خالفهم، وهذا صحيح، أمَّا إذا أجمعوا علىٰ الشَّيْءِ فلا يُرْتَاب في كونه حُجَّة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حُجَّة علىٰ بعضٍ، ولا علىٰ مَن بعدهم، ويرجع في ذلك إلىٰ لغة القرآن أو السُّنَّة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصَّحَابَة في ذلك.

فأمَّا تفسير القرآن بمجرَّد الرأي فحرام، لما رواه محمَّد بن جرير رحمه الله حيث قال: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا [يحيىٰ](٧) بن سعيد، حدَّثنا سفيان، حدَّثني عبد الأعلىٰ -هو ابن عامر الثعلبي- عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ، أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**(٨).

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) صحيح: رواه الطبراني (١/ ٤٠).
(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».
(٤) انظر التعليق السابق، رواه الطبري (١/ ٤٠).
(٥) حسن: رواه الطبري (١/ ٤٠).
(٦) لوحة (٤ ب/ ١).
(٧) سقط من (ز).
(٨) ضعيف: ابن جرير (١/ ٣٤)، والترمذي (٢٩٥٠)، والخطيب في «الفقيه» (١٩٩) وقال الترمذي: حسن صحيح، وأما رواية أبي داود فلم أقف عليها في «السنن» ولعلها في بعض النسخ.

وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي، من طرق، عن سفيان الثوري به.

ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي عَوَانة، عن عبد الأعلىٰ، به [مرفوعًا][(١)]. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وهكذا رواه ابن جرير -أيضًا- عن يحيىٰ بن طلحة اليربوعي، عن شريك، عن عبد الأعلىٰ به مرفوعًا.

ولكن رواه محمَّد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس المُلائِي، عن عبد الأعلىٰ، عن سعيد، عن ابن عبَّاس فَوَقَفَهُ. وعن محمَّد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس من قوله. فالله أعلم[(٢)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا العبَّاس بن عبد العظيم العَنْبَري، حدَّثنا حَبَّان بن هلال، حدَّثنا سهيل أخو حزم، حدَّثنا أبو عمران الجَوْني، عن جُنْدب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ أَخْطَأَ**».

وقد روىٰ هذا الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القُطعي[(٣)].

وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل.

وفي لفظ لهم: «**مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللهِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ**». أي: لأنَّه قد تكلَّف ما لا علم له به، وسلك غير ما أُمِرَ به، فلو أنَّه أصاب المعنىٰ في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنَّه لم يَأْتِ الأمر مِن بابه، كمَن حكم بين النَّاس علىٰ جهل فهو في النَّار، وإن وافق حكمُهُ الصَّوابَ في نفس الأمر، لكن يكون أخفَّ جرمًا ممن أخطأ، والله أعلم، وهكذا سمَّىٰ الله تعالىٰ القَذَفة: كَاذِبِين، فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف مَن زنىٰ في نفس الأمر؛ لأنَّه أخبر بما لا يَحِلُّ له[(٤)] الإخبار به، ولو كان أخبر بما يَعْلَم؛ لأنَّه تكلَّف ما لا علم له به، والله أعلم.

ولهذا تَحَرَّج جماعة من السَّلف عن تفسير ما لا عِلْمَ لهم به، كما روىٰ شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي مَعْمَر، قال: قال أبو بكر الصديق ﷺ: أيُّ أرضٍ تُقِلُّني وأيُّ سماء تُظِلُّني، إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم[(٥)].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدَّثنا محمَّد[(٦)] بن يزيد، عن العَوَّام بن حَوْشَب، عن إبراهيم التَّيْمِي؛ أنَّ أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أيُّ سماء تُظِلُّني، وأيُّ

---

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه ابن جرير (١/ ٣٤) من طريقين: الأول فيه عبد الأعلىٰ، وهو ضعيف كما تقدم في التعليق السابق، والثاني: فيه ليث بن أبي سليم أدخل في حديثه ما ليس منه فلم يتميز فترك، وفي كلا الإسنادين محمَّد بن حميد: قال عنه الحافظ في «التقريب»: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه.

(٣) ضعيف: رواه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢)، وابن جرير (١/ ٣٥)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٠٠- بتحقيقي)، ومداره علىٰ سهيل بن أبي حزم، قال الحافظ: ضعيف، وانظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٢٤٤).

(٤) لوحة (٥ أ/ ١).

(٥) رواه الطبري (١/ ٣٥) وفيه أبو معمر عبد الله بن سخبرة: يرسل عن أبي بكر الصديق ﷺ. - الطريق الثاني: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص:٢٢٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠/ ٥١٣) وفيه انقطاع، فكلا الطريقين ضعيف.

(٦) في (ز): «محمود بن يزيد»، وهو خطأ، ومحمَّد بن يزيد الكلاعي، هو أبو سعيد الواسطي، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢٧/ ٣٠).

أرضٍ تُقِلُّني، إذا[١] أنا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم. منقطع.

وقال أبو عبيد أيضًا: حدَّثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ علىٰ المنبر: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبُّ؟ ثم رجع إلىٰ نفسه فقال: إنَّ هذا لهو التَّكلُّف يا عُمَرُ[٢].

وقال عَبْد بن حُمَيْد: حدَّثنا سليمان بن حرب، حدَّثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنَّا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي ظَهْرِ قَميصِهِ أربع رِقَاعٍ، فقرأ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: ما الأَبُّ؟ ثم قال: إنَّ هذا لهو التَّكلُّف فما عَلَيْكَ ألَّا تَدْرِيه. وهذا كله محمولٌ علىٰ أنَّهما رضي الله عنهما إنَّما أرادا استكشاف علم كيفيَّة الأَبِّ، وإلا فكونه نبتًا من الأَرْضِ ظاهر لا يُجْهَل؛ لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا﴾ الآية [عبس: ٢٧،٢٨].

وقال ابن جرير: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن ابن أبي مُلَيْكَة: أنَّ ابن عبَّاس سُئِلَ عن آية لو سُئِلَ عنها بعضُكُم لقال فيها، فأبىٰ أن يقول فيها: إسناده صحيح[٣].

وقال أبو عبيد: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سأل رجلٌ ابنَ عبَّاس عن ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [السجدة: ٥]، فقال له ابن عبَّاس: فما ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنَّما سألتك لتحدِّثَني. فقال ابن عبَّاس: هما يومان ذكرهما الله تعالىٰ في كتابه، الله أعلم بهما[٤]. فكَرِهَ أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

وقال أيضًا ابن جرير: حدَّثني يعقوب -يعني ابن إبراهيم- حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن مَهْدي بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طَلْق بن حبيب إلىٰ جُنْدُب بن عبد الله، فسأله عن آيةٍ مِن القرآن؟ فقال: أُحَرِّج عليك إن كنتَ مسلمًا إلَّا ما قمتَ عَنِّي، أو قال: أَن تُجَالِسَني[٥].

وقال مالك، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: أنَّه كان إذا سُئِلَ عن تفسيرِ آيةٍ من القرآن، قال: إنَّا لا نقول في القرآنِ شيئًا[٦].

وقال اللَّيث، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: أنَّه كان لا يتكلَّم إلَّا في المعلوم من القُرْآن[٧].

وقال[٨] شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، قال: سأل رجل سَعِيد بن المُسَيِّب عن آية من القُرْآنِ فقال: لا تسألني عن القرآن، وسَلْ مَن يزعم أنَّه لا يخفىٰ عليه منه شيءٌ؛ يعني: عكرمة[٩].

وقال ابن شَوْذَب: حدَّثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنَّا نسأل سعيد بن المسيب عن الحَلَالِ والحَرَامِ،

---

(١) في (ز): «إنْ أنا».

(٢) صحيح: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص:٢٢٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥١٢)، والحاكم (٢/ ٥١٤)، ورواه البخاري مختصرًا (٧٢٩٣).

(٣) صحيح: رواه الطبري (١/ ٣٨).

(٤) صحيح: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص:٢٢٨).

(٥) صحيح: رواه الطبري (١/ ٣٨).

(٦) صحيح: رواه الطبري (١/ ٣٧).

(٧) صحيح: رواه الطبري (١/ ٣٨)

(٨) لوحة (٥ ب/ ١).

(٩) صحيح: رواه الطبري (١/ ٣٨).

وكان أعلم النَّاس، فإذا سَأَلْنَاهُ عَن تفسير آية من القرآن سَكَتَ، كأن لم يَسْمَع[١].

وقال ابن جرير: حدَّثني أحمد بن عبدة الضَّبِّيُّ، حدَّثنا حماد بن زيد، حدَّثنا عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنَّهم لَيُعَظِّمُونَ القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمَّد، وسعيد بن المسيب، ونافع[٢].

وقال أبو عبيد: حدَّثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن هشام بن[٣] عُرْوَة، قال: ما سَمِعْتُ أبي تأوَّل آيةً من كتاب الله قط[٤].

وقال أيوب، وابن عَوْن، وهشام الدَّسْتوائِي، عن محمَّد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني، عن آيةٍ مِن القرآن فقال: ذهب الَّذين كانوا يَعْلَمُون فيم أُنزِلَ القُرْآن؟ فاتَّقِ الله، وعليك بالسَّداد[٥].

وقال أبو عبيد: حدَّثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبد الله[٦] بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حَدَّثْت عن الله فقِفْ، حتىٰ تنظر ما قبله وما بعده[٧].

حدَّثنا هُشَيْم، عن مُغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يَتَّقُون التَّفسير ويَهَابُونَه[٨].

وقال شعبة، عن عبد الله بن[٩] أبي السَّفَر، قال: قال الشعبي: والله ما مِن آية إلا وقد سَأَلْتُ عنها، ولكنها الرواية عن الله ﷻ[١٠].

وقال أبو عبيد: حدَّثنا هشيم، حدَّثنا عمرو بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن مسروق، قال: اتَّقُوا التَّفسير، فإنَّما هو الرِّوايةُ عن الله[١١].

فهذه الآثار الصَّحِيحة وما شاكلها عن أئمَّة السَّلف محمولة علىٰ تحرجهم عن الكلام في التَّفْسِير بما لا عِلْمَ لهم به؛ فأمَّا من تكلَّم بما يعلم من ذلك لغةً وشرعًا، فلا حرَج عليه؛ ولهذا رُوِي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التَّفسير، ولا منافاة؛ لأنَّهم تكلَّمُوا فيما عَلِمُوه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب علىٰ كلِّ أحد؛ فإنَّه كما يجب السُّكوت عما لا علم له به، فكذلك يَجِب القول فيما سُئِلَ عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[١٢].

---

(١) حسن: رواه الطبري (١/ ٣٨)، وعبد الله بن شوذب: صدوق. (٢) صحيح: رواه الطبري (١/ ٣٧).

(٣) في (ز): «هشام عن عروة»، وهو خطأ.

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص:٢٢٩) وفيه عبد الله بن صالح. كاتب الليث: صدوق كثير الغلط.

(٥) صحيح: رواه الطبري (١/ ٣٨). (٦) في (ز): «عبيد بن مسلم»، والمثبت هو الصواب.

(٧) صحيح: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص:٢٢٩). (٨) صحيح: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص:٢٢٩).

(٩) في (ز): «عن أبي السفر»، وهو خطأ. (١٠) صحيح: رواه الطبري (١/ ٣٨).

(١١) حسن: رواه أبو عبيد (ص:٢٢٩). وعمر بن أبي زائدة: صدوق كما في «التقريب».

(١٢) صحيح: رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦) من حديث أبي هريرة، بإسناد صحيح.
- ورواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١٤٥)، وفي «التاريخ» (٩/ ٩٢) من حديث جابر بن عبد الله، بإسناد صحيح.
- وله شواهد أخرىٰ عن عبد الله بن عمرو وابن مسعود وابن عبَّاس وابن عمر وأنس وعمرو.

فأمَّا الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا عبَّاس بن عبد العظيم، حدَّثنا محمَّد بن خالد بن عَثْمَةَ، حدَّثنا جعفر بن محمَّد بن الزبيري، حدَّثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: ما كان النَّبيُّ ﷺ يُفسِّر شيئًا من القرآن إلا آيًا بعددٍ، عَلَّمهن إيَّاه جبريل عليه السلام(١).

ثم رواه(٢) عن أبي بكر محمَّد بن يزيد الطرسوسي(٣) عن مَعْن بن عيسىٰ، عن جعفر بن خالد، عن هشام به.

فإنَّه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمَّد بن خالد بن الزُّبير بن العَوَّام القرشي الزُّبَيْرِي، قال البخاري: لا يُتَابَعُ في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث.وتكلَّم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصلُهُ أنَّ هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتَّوقيف عن الله تعالىٰ، مما وقفه عليها جبريل(٤).

وهذا تأويل صحيح لو صَحَّ الحديث؛ فإنَّ مِن القرآن ما استأثر الله تعالىٰ بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تَعْلَمُهُ العرب مِن لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهلِهِ، كما صرَّح بذلك ابن عبَّاس فيما قال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا مُؤَمَّل، حدَّثنا سفيان، عن أبي الزناد(٥) قال: قال ابن عبَّاس: التَّفْسِير علىٰ أربعة أوجهٍ: وجه تَعْرِفُهُ العرب مِن كلامها، وتفسير لا يُعْذَر أحد بجهَالَتِهِ، وتفسير يعلمُهُ العلماء، وتفسير لا يعلَمُهُ إلا الله.

قال ابن جرير: وقد رُوِي نحوه في حديث في إسناده نظر؛ حدَّثني يونس بن عبد الأعلىٰ الصدفي، أنبأنا ابن وهب، قال: سمعت عمرو بن الحارث، يُحَدِّث عن الكلبي، عن أبي صالح -مولىٰ(٦) أم هانئ- عن عبد الله بن عبَّاس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ(٧) أَحْرُفٍ: حَلَالٍ وَحَرَامٍ لا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِالْجَهَالَةِ بِهِ، وَتَفْسِيرٍ تُفَسِّرُهُ [الْعَرَبُ، وَتَفْسِيرٍ تُفَسِّرُهُ](٨) الْعُلَمَاءُ، وَمُتَشَابِهٌ لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنِ ادَّعَىٰ عِلْمَهُ سِوَىٰ اللهِ فَهُوَ كَاذِبٌ**»(٩).

والنَّظر الَّذِي أشار إليه في إسناده هو مِن جِهَةِ محمَّد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما وَهِمَ في رفعه. ولعلَّه مِن كلام ابن عبَّاس، كما تقدَّم، والله أعلم بالصواب.

---

(١) ضعيف: ابن جرير (١/ ٣٧)، وفيه جعفر بن محمَّد الزبيري: ضعيف؛ كما ذكر المصنف.

(٢) لوحة (٦ أ/ ١). (٣) في (ز): «الطرشوشي».

(٤) رواه الطبري (١/ ٣٤)، وفي إسناده مؤمل بن إسماعيل، قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ، وبقيَّة رجاله ثقات.

(٥) زادت بعض الطبعات هنا: «عن أبي الزناد عن الأعرج»، وهو خطأ، والمثبت موافق للمخطوطة، وكذلك فهو موافق لما في «الطبري»، وإضافة: «الأعرج» في السند تَدَخُّل لا وجه له، وفاعله مدفوع بما يحفظه من سلسلة: «أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة».

(٦) في (ز): «أبي صالح عن أم هانئ». (٧) في (ز): «سبعة»، والمثبت من (ح)، وهو موافق لما في «الطبري».

(٨) سقط من (ز)، والمثبت من (ح)، وهو موافق لما في «الطبري».

(٩) منكر: رواه ابن جرير (١/ ٣٤)، وقال ابن جرير: في إسناده نظر، قلت: فيه محمَّد بن السائب الكلبي، قال الحافظ: متهم بالكذب.

كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ[1]

[الحديث الأول]

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: كيف نزول الوحي وأوَّل ما نزل: قال ابن عبَّاس: المُهَيْمِنُ: الأمين، القرآن أَمِينٌ علىٰ كلِّ كتاب قبله.

حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ عن شيبان[2]، عن يحيىٰ عن أبي سلمة قال: أخبرتني عائشة وابن عبَّاس قالا: لَبِثَ النَّبيُّ ﷺ بمكَّة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشرًا[3].

ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كتاب «**فضائل القرآن**[4]» بعد كتاب «التَّفسير»؛ لأنَّ التَّفسير أَهَمُّ، ولهذا بدأ به، ونحن قدمنا «الفضائل» قبل «التفسير» وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها؛ ليكون ذلك باعثًا علىٰ حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه، والله المستعان.

وقول ابن عبَّاس في تفسير: «المُهَيْمِن»: إنَّما يُرِيدُ به البخاري قولَه تعالىٰ في المائدة بعد ذكر التَّوراة والإِنْجِيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا المثنىٰ، حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثني معاوية، عن علي -يعني ابن أبي طلحة- عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: المُهَيْمِن: الأمين. قال: القرآنُ أمينٌ علىٰ كلِّ كتابٍ قبله، وفي رواية: شهيدًا عليه[5].

وقال سفيان الثَّوري: وغير واحد من الأئمَّة: عن أبي إسحاق السبيعي، عن التميمي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: مُؤْتَمَنًا.

وبنحو ذلك قال مجاهد والسُّدِّي وقتادة وابن جريج والحسن البصري وغير واحدٍ من أئمَّة السَّلف. وأصل الهَيمَنَةِ: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رَقَب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هَيمَن فلان عليه، فهو يُهَيْمِن[6] هيمنةً، وهو عليه مُهَيْمِن، وفي أسماء الله تعالىٰ: المُهَيْمِن، وهو الشَّهيد علىٰ كل

---

(١) لقد قمنا بمقابلة «كتاب فضائل القرآن» علىٰ المخطوطة (ح) وذلك لعدم وجوده بالأزهرية، كما قابلناه علىٰ نسخة الشيخ الحويني (حوين)، كما استفدنا من نسخة «طيبة».

(٢) في (ح): «سفين»، والمثبت موافق لما في البخاري وهو الصواب.

(٣) البخاري (٤٩٧٨، ٤٩٧٩). (٤) لوحة (٦ب/ح).

(٥) رواه البخاري تعليقًا: كتاب «فضائل القرآن» (٣/ ٩)، ووصله الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٧٩).

(٦) في (ح): «مهيمن».

شيء، الرقيب الحفيظ بكل شيء.

وأمَّا الحديث الذي أسنده البخاري: أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ أقام بمكَّة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمَدِينَةِ عشرًا، فهو ممَّا انفرد به البخاري دون مسلم، وإنَّما رواه النسائي من حديث شيبان وهو ابن عبد الرحمن، عن يحيىٰ وهو ابن أبي كثير، عن أبي سلمة عنها(١).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدَّثنا يزيد، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: أُنزِلَ القرآن جملة واحدة إلىٰ سماء الدُّنيا في ليلةِ القَدْرِ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، ثم قرأ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. هذا إسناد صحيح(٢).

أمَّا إقامته بالمدينة عشرًا فهذا ممَّا لا خلاف فيه، وأمَّا إقامته بمكَّة بعد النُّبوَّة فالمشهور ثلاث عشرة سنة؛ لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُوحِيَ إليه وهو ابن أربعين سنة، وتُوُفِّيَ وهو ابن ثلاث وستين سنةً علىٰ الصَّحيح، ويحتمل أنَّه حذف ما زاد علىٰ العشرة اختصارًا في الكلام؛ لأنَّ العرب كثيرًا ما يحذفون الكسور في كلامهم، أو أنَّهما إنما اعتبرا قرن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ به عَلَيْهِ السَّلَامُ. فإنَّه قد روىٰ الإمام أحمد أنَّه قرن به عَلَيْهِ السَّلَامُ ميكائيل في ابتداء الأمر، يلقىٰ إليه(٣) الكلمة(٤) والشيء، ثم قرن به جبريل.

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن: أنَّه ابتدئ بنزوله في مكانٍ شريفٍ، وهو البلد الحرام، كما أنَّه كان في زمنٍ شريفٍ وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزَّمان والمكان؛ ولهذا يُسْتَحَبُّ إكثار تلاوة القرآن في شهر رمضان؛ لأنَّه ابتدئ نزوله فيه؛ ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله ﷺ في كل سنةٍ في شهر رمضان، فلمَّا كان في السَّنَةِ التي تُوُفِّيَ فيها عارضه به مرَّتين تأكيدًا وتثبيتًا(٥).

وأيضًا ففي هذا الحديث بيان أنَّه من القرآن مَكِّي ومنه مدني، فالمَكِّيُّ: ما نزل قبل الهجرة، والمَدَنِيُّ: ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أي البلاد كان، حتَّىٰ ولو كان بمكَّة أو عرفة.

وقد أجمعوا علىٰ سور أنها من المكي وأُخَر أنَّها من المدني، واختلفوا في أُخَر، وأراد بعضهم ضبط ذلك بضوابط في تقييدها عُسْرٌ ونظرٌ، ولكن قال بعضهم: كلُّ سورة في أوَّلها شيء مِن الحروف المقطَّعة فهي مكيَّة إلا البقرة وآل عمران، كما أنَّ كل سورة فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهي مدنية وما فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فيحتمل أن يكون مِن هذا ومن هذا، والغالب أنَّه مَكِّيٌّ.

---

(١) وهو الحديث السابق عند البخاري (٤٩٧٨، ٤٩٧٩)، ورواه النسائي في «الكبرىٰ»(٧٩٧٧)، وإسناده صحيح.

(٢) إسناده صحيح: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (٣٦٧)، والنسائي في «الفضائل» (١٤/ ١٥)، وفي «الكبرىٰ» (١١٣٧٢)، والطبري (١٥/ ١١٩) (٣٠/ ١٦٦)، والحاكم (٢/ ٢٢٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) لوحة (٧أ/ ح).

(٤) في (ح): «الحكمة»، والمثبت من (حوين).

(٥) سيأتي تخريجه قريبًا.

وقد يكون مدنيًّا كما في البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال أبو عبيد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا مَن سَمِعَ الأعمش، يُحَدِّث عن إبراهيم بن علقمة: كلُّ شيءٍ في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنَّه أنزل بالمدينة، وما كان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فإنَّه أُنزِلَ بمكَّة[1]. ثم قال: حدَّثنا علي بن معبد، عن أبي المَلِيح، عن ميمون بن مِهْران، قال: ما كان في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فإنَّه مَكِّيٌّ، وما كان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنَّه مدني[2].

ومنهم مَن يقول: إنَّ بعض السُّوَر نزل مرَّتَيْن، مرَّة بالمدينة ومَرَّة بمكَّة، والله أعلم. ومنهم مَن يستثني من المَكِّيِّ آيات يدعي أنَّها من المدني، كما في سورة الحج وغيرها.

والحقُّ [في ذلك][3] ما دلَّ عليه الدَّليل الصَّحيح، فالله أعلم. وقال أبو عبيد: حدَّثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة، قال: نزلت بالمَدِينَةِ سورة البقرة، وآل عمران، والنِّساء، والمائدة، والأنفال، والتَّوبة، والحج، والنُّور، والأحزاب، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[4]، والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والحواريون، والتغابن، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ والفجر، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ و﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ و﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ و﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾ و﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وسائر ذلك بمكة[5].

وهذا إسناد صحيح عن ابن أبي طلحة مشهور، وهو أحد أصحاب ابن عبَّاس الذين رَوَوْا عنه التَّفسير، وقد ذكر في المدني سورًا في كونها مدنية نظر، وَفَاتَهُ الحجرات والمعوذات.

الحديث الثاني

وقال البخاري: حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا معتمر قال: سمعت أبي، عن أبي عثمان قال: أُنبِئْتُ أنَّ جبريل عليه السلام أتىٰ النَّبيَّ ﷺ وعنده أم سلمة، [فجعل يتحدَّث][6]، فقال النَّبيُّ ﷺ لأمِّ سلمة: «مَنْ هَذَا؟» أو كما قال، قالت: هذا دِحْيَة، فلمَّا قام قالت: والله ما حسبته إلا إيَّاه، حتىٰ سَمِعْتُ خطبة النَّبيِّ ﷺ بخَبر جبريل. أو كما قال.

---

(١) أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٦٧)، وفيه رجل لم يسم، لكنَّه ثبت عن ابن مسعود نحوه بإسناد صحيح: رواه البزار (١٥٣١) والحاكم (٣/ ١٨).

(٢) انظر «فضائل القرآن» (ص:٣٦٧). (٣) ليست في (ح). (٤) لوحة (٧ب/ح).

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص:٣٦٥)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص:٣٣، ٣٤) ورجاله ثقات؛ لذا صححه المصنف.

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري».

قال أُبي: فقلت لأبي عثمان: ممَّن سمعت هذا؟ فقال: من أسامة بن زيد.

وهكذا رواه أيضًا في علامات النُّبوَّة عن عبَّاس بن الوليد النَّرسِي، ومسلم في فضائل أم سلمة عن عبد الأعلىٰ بن حماد ومحمَّد بن عبد الأعلىٰ: كلهم عن معتمر بن سليمان به(١).

والغرض مِن إيراد هذا الحديث هاهنا أنَّ السفير بين الله وبين محمَّد ﷺ جبريل عليه السلام وهو مَلَكٌ كَريمٌ ذو وجاهةٍ وجلالةٍ ومكانةٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ الآيات [التكوير: ١٩-٢٢].

فمدح الرَّبُّ تبارك وتعالىٰ عَبْدَيْهِ ورَسُولَيْهِ جبريل ومحمَّدًا صلوات الله وسلامه عليهما.

وسنستقصي الكلام علىٰ تفسير هذا المكان في موضعه إذا وصلنا إليه [إن شاء الله تعالىٰ](٢) وبه الثِّقة.

وفي الحَديث فضيلة عظيمة لأم سلمة رضي الله عنها -كما بيَّنه مسلم رحمه الله- لرؤيتها لهذا الملك العظيم، وفضيلة أيضًا لدحية بن خليفة الكلبي، وذلك أنَّ جبريل عليه السلام كثيرًا ما كان يجيء إلىٰ رسول الله ﷺ علىٰ صورتِهِ، وكان جميل الصورة رضي الله عنه، وكان مِن قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، كلُّهم يُنْسَبُون إلىٰ كلب بن وبرة، وهم قبيلة مِن قضاعة، وقضاعة قيل: إنهم من عدنان، وقيل: من قحطان، وقيل: بَطْنٌ مستقل بنفسه، والله أعلم(٣).

الحديث الثالث

حدَّثنا عبد الله بن يوسف، حدَّثنا الليث، حدَّثنا سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: **«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»**(٤).

ورواه أيضًا في كتاب «الاعتصام» عن عبد العزيز بن عبد الله، ومسلم والنسائي عن قتيبة جميعًا، عن الليث بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه -واسمه كيسان المقبري- به(٥).

وفي هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد علىٰ كلِّ معجزة أُعْطِيَها نبيٌّ مِن الأنبياء، وعلىٰ كل كتاب أنزله، وذلك أنَّ معنىٰ الحديث: ما مِن نبيٍّ إلا أُعطِيَ؛ أي: من المُعْجِزَات ما آمن عليه البَشر؛ أي: ما كان دليلًا علىٰ تصديقه فيما جاءهم به واتَّبعه من اتَّبعه من البشر، ثم لمَّا مات الأنبياء لم يَبْقَ لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عمَّا شاهدوه في زمانه، وأمَّا الرسول الخاتم للرسالة محمَّد ﷺ فإنما

---

(١) البخاري (٤٩٨٠، ٤٩٨١، ٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١).

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٨أ/ ح). (٤) البخاري (٤٩٨١) وانظر ما بعده.

(٥) البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٢٩).

كان معظم ما آتاه الله وحيًا منه إليه منقولًا إلىٰ النَّاس بالتَّواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا»، وكذلك وقع، فإنَّ أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء؛ لعموم رسالته ودوامها إلىٰ قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثم تقاصر معهم إلىٰ عشر سور منه، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تحداهم إلىٰ أن يأتوا بسُورةٍ مِن مثله فعجزوا، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، وقصر التَّحدِّي علىٰ هذا المقام في السُّور المكيَّة كما ذكرنا، وفي المدنية أيضا كما في سورة البقرة، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] فأخبر بأنَّهم عاجزون عن معارضته[١] بمثله، وأنَّهم لا يفعلون ذلك في المستقبل أيضًا.

هذا وَهُم أَفْصَحُ الخلق وأعلمهم بالبَلَاغَةِ والشِّعر وقريض الكلام وضروبه، لكن جاءهم مِن الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ من البشر به مِن الكلام الفصيح البليغ، الوَجيز، المُحتوي علىٰ العلوم الكثيرة الصَّحيحة النَّافعة، والأخبار الصَّادقة عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق قال: ذكر محمَّد بن كعب القرظي، عن الحارث بن عبد الله الأعور قال: قلتُ: لآتِيَنَّ أمير المؤمنين، فلأسألنَّه عمَّا سَمِعْتُ العشيَّة قال: فجِئْتُهُ بعد العشاء، فدخلت عليه، فذكر الحديث. قال: ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أُمَّتُكَ مُخْتَلِفَةٌ بَعْدَكَ». قال: «فَقُلْتُ لَهُ: فَأَيْنَ المَخْرَجُ يَا جِبْرِيلُ؟» قال: فقال: «كِتَابُ اللهِ بِهِ يَقْصِمُ اللهُ كُلَّ جَبَّارٍ، مَنِ اعْتَصَمَ بِهِ نَجَا، وَمَنْ تَرَكَهُ هَلَكَ -مَرَّتَيْنِ- قَوْلٌ فَصْلٌ وَلَيْسَ بِالهَزْلِ، لا تَخْلُقُهُ الأَلْسُنُ، وَلا تَفْنَىٰ عَجَائِبُهُ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَفَصْلُ مَا بَيْنَكُمْ، وَخَبَرُ مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكُمْ» هكذا رواه الإمام أحمد[٢].

وقال أبو عيسىٰ الترمذي: حدَّثنا عبد بن حميد، حدَّثنا حسين بن علي الجعفي، حدَّثنا حمزة الزَّيَّات، عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، قال: مررت في المسجد فإذا

---

(١) لوحة (٨ب/ح).

(٢) ضعيف جدًّا: رواه أحمد (١/ ٩١)، وهو ضعيف أورده الذهبي في «ميزان الاعتدال» (١/ ٤٣٥)، وكذبه الشعبي وابن المديني، وضعفه ابن معين والنسائي والدارقطني، وفي هذا الإسناد أيضًا محمَّد بن إسحاق: مُدَلِّس وقد عنعن.

النَّاس يخوضون في الأحاديث فدخلت علىٰ عليٍّ فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترىٰ الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟! قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ» فقلت: ما المَخْرج منها يا رسول الله؟ قال: «كِتَابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». خذها[1] إليك يا أعورُ.

ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزَّيَّات، وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال[2].

قلتُ: لَم يَنْفَرِدْ بروايته حمزة بن حبيب الزَّيَّات، بل قد رواه محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن كعب القُرَظي، عن الحارث الأَعْوَر، فبَرِئَ حمزة من عهدته، علىٰ أنه وإن كان ضَعِيف الحديث إلا أنَّه إمام في القراءة. والحديث مشهور مِن رواية الحارث الأعور وقد تكلَّموا فيه، بل قد كَذَّبه بعضهم مِن جهةِ رأيه واعتقادِه، أما أنَّه تعمَّد الكَذِبَ في الحديث فلا[3]، والله أعلم.

وقصارىٰ هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقد وَهِم بَعْضُهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح علىٰ أنَّه قد رُوِيَ له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النَّبيِّ ﷺ[4].

قال الإمام العَلَم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه «فضائل القرآن»: حدَّثنا أبو اليقظان عمار ابن محمَّد الثوري أو غيره، عن أبي إسحاق الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ هَذَا القُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ تَعَالَىٰ فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا القُرْآنَ حَبْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ النُّورُ المُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، فَاتْلُوهُ، فَإِنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَىٰ تِلاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ

---

(١) لوحة (٩أ/ح).

(٢) ضعيف جدًّا: رواه الترمذي (٢٩٠٦)، ومداره علىٰ الحارث الأعور، وهو متروك كما تقدم، وفيه أيضًا أبو المختار الطائي، وابن أخي الحارث: مجهولان.

(٣) العلة ليست في حمزة الزَّيَّات، بل فيمن قبله، والمتابعة التي أشار إليها ابن كثير هي رواية أحمد السابقة، ومدارها أيضًا علىٰ الحارث الأعور.

(٤) أما قوله: «أن يكون من كلام أمير المؤمنين» فالإسناد إليه -أيضًا- ضعيفٌ جدًّا، فإنَّه من رواية الحارث الأعور موقوفًا ومرفوعًا، وأمَّا قوله: وهو كلام حسن صحيح؛ يعني: من حيث المعني في وصف القرآن، وليس من صحة الإسناد، وأمَّا رواية ابن مسعود المشار إليها فضعيفة وهي الرواية الآتية.

عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ لَكُمْ ﴿الٓمٓ﴾ [حَرْفٌ][١]، وَلَكِنْ أَلِفٌ عَشْرٌ، وَلامٌ عَشْرٌ، وَمِيمٌ عَشْرٌ»[٢].

وهذا غريب مِن هذا الوجه، وقد رواه محمَّد بن فضيل عن أبي إسحاق الهجري، واسمه إبراهيم بن مسلم، وهو أحد التابعين، ولكن تكلَّموا فيه كثيرًا.

وقال أبو حاتم الرازي: لين ليس بالقوي. وقال أبو الفتح الأزدي: رفَّاعٌ، كثير الوهم. قلت: فيحتمل -والله أعلم- أن يكون وَهِمَ في رَفْع هذا الحديث، وإنَّما هو مِن كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد مِن وَجْهٍ آخر، والله أعلم.

وقال أبو عبيد أيضًا: حدَّثنا حجاج، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: لا يسأل عبدٌ عَن نفسه إلا القرآن، فإن كان يُحِبُّ القرآن فإنَّه يُحِبُّ الله ورسوله[٣].

الحديث الرابع

قال البخاري: حدَّثنا عمرو بن محمَّد، حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب[٤]، قال: أخبرني أنس بن مالك؛ أنَّ الله تابع الوحي علىٰ رسوله ﷺ قبل وفاته حتىٰ توفَّاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفي رسول الله ﷺ بعد[٥].

وهكذا رواه مسلم عن عمرو بن محمَّد هذا -وهو الناقد- وحسن الحلواني وعبد بن حميد والنسائي عن إسحاق بن منصورٍ الكَوْسَجِ، أربعتُهُم عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري به[٦].

ومعناه: أن الله تعالىٰ تابع نزول الوحي علىٰ رسول الله ﷺ شيئًا بعد شيءٍ كل وقت بما يحتاج إليه، ولم تَقَعْ فترة بعد الفترة الأُولىٰ التي كانت بعد نزول الملك أوَّل مرَّة بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فإنَّه استلبث الوحي بعدها حينًا، يقال: قريبًا من سَنَتَيْنِ أو أكثر، ثم حَمِيَ الوحيُ وتتابع، وكان أوَّل شيءٍ نزل بعد تلك الفترة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١، ٢].

---

(١) ليست في (ز)، وزادها الشيخ الحويني من هامش إحدىٰ النسخ، وهي غير مثبتة في «فضائل القرآن» لأبي عبيد.

(٢) ضعيف (والصحيح: أنَّه موقوف): رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص:٥٠)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٥٨)، والحاكم (١/ ٥٥٥) وصححه، ورَدَّه الذهبي فقال: لكن إبراهيم بن مسلم ضعيف، وهو كما قال الذهبي: انظر ما أورده ابن كثير عن إبراهيم بن مسلم وهو أبو إسحاق الهجري.

(٣) إسناد صحيح: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٥١- ٥٢)، وفيه أبو إسحاق: يرسل وقد عنعن، لكن لا يضر؛ فإنَّ الراوي عنه هو إسرائيل حفيده، وهو من أتقن الناس في الرِّواية عنه، ورواه عنه أيضًا شعبة؛ رواه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٨٦٥٧).

(٤) لوحة (٩ب/ح).

(٥) البخاري (٤٩٨٢)، ومسلم (٣٠١٦).

(٦) مسلم (٣٠١٦)، والنسائي في «فضائل القرآن» (٨)، وأحمد (٣/ ٢٣٦).

الحديث الخامس

حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا سفيان، عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندبًا يقول: اشتكى النَّبيُّ ﷺ فلم يَقُم ليلةً أو ليلتين، فأتَتْهُ امرأة فقالت: يا محمَّد، ما أرى شيطانك إلا تَرَكَكَ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣].

وقد رواه البخاري في غير موضع أيضًا، ومسلم والتِّرمذي والنسائي من طرق أُخَر عن سفيان -وهو الثوري- وشعبة بن الحجاج، كلاهما عن الأسود بن قيس العبدي، عن جندب بن عبد الله البجلي به(١).

وسيأتي الكلام على هذا الحديث في تفسير سورة الضحى إن شاء الله تعالى.

والمناسبة في ذكر هذا الحديث والذي قبله في فضائل القرآن: أن الله تعالى له برسوله عنايةٌ عظيمةٌ ومحبةٌ شديدةٌ، حيث جعل الوحي متتابعًا عليه ولم يقطعه عنه؛ ولهذا إنَّما أنزل عليه القرآن مُفَرَّقًا ليكون ذلك أبلغ في العناية والإكرام.

قال البخاري رحمه الله: [نزل](٢) القرآن بلسان قريش والعرب، وقول الله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء] حدَّثنا أبو اليمان، حدَّثنا شعيب(٣)، عن الزهري: أخبرني أنس بن مالك قال: فأمر عثمانُ بن عفان زيدَ بن ثابت وسعيدَ بن العاص وعبدَ الله بن الزبير وعبدَ الرحمن(٤) بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربيَّة من عربيَّة القرآن، فاكتبوها بلسانِ قريش، فإن القرآن(٥) نزل بلسانهم، ففعلوا(٦).

هذا الحديث قطعةٌ من حديث سيأتي قريبًا الكلام عليه، ومقصود البخاري منه ظاهر، وهو أنَّ القرآن نزل بلغة قريش، وقريش خلاصة العرب.

ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن خلاد، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا شيبان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا يُمْلِينَّ أحدٌ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش أو غلمانُ ثقيف. وهذا إسناد صحيح(٧).

وقال أيضًا(٨): حدَّثنا إسماعيل بن أسد، حدَّثنا هوذة، حدَّثنا عوف، عن عبد الله بن فضالة، قال: لما

---

(١) البخاري (٤٩٨٣)، ومسلم (١٧٩٧)، والترمذي (٣٣٤٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٨١).

(٢) في (ح): «نزول»، والمثبت كما في البخاري، وكذا زيادة: «وقول الله تعالى».

(٣) في (ح): «سفيان» والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في البخاري.

(٤) كذا في (ح)، وعند (حوين): «عبد الله»، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في البخاري.

(٥) لوحة (١٠ أ/ح). (٦) صحيح البخاري (٤٩٨٤).

(٧) رواه في كتاب «المصاحف» (ص١١)، رجاله ثقات؛ غير أن عبد الملك بن عمير: ثقة لكنه تغير حفظه وربما دلس، ويشهد لصحته الرواية الآتية.

(٨) إسناد صحيح: رواه ابن أبي داود في كتاب «المصاحف» (صـ١١).

أراد عمر أن يكتب الإمام(١) أقعد له نفرًا من أصحابه وقال: إذا اختلفتم في اللُّغة فاكتبوها بلغة مُضَر، فإنَّ القرآن نزل بلغةِ رجل مِن مضر ﷺ وقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ الآية [فصلت: ٤٤]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدَّالَّة علىٰ ذلك.

ثمَّ ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ حديث يعلىٰ بن أميَّة أنَّه كان يقول: لَيْتَنِي أرىٰ رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي. فذكر الحديث [في](٢) الَّذي سأل عمَّن أحرم(٣) بعمرة وهو متضمِّخ بطيبٍ وعليه جُبَّة، قال: فنظر رسول الله ﷺ ساعة ثمَّ فَجِأَهُ الوحي، فأشار عمر إلىٰ يعلىٰ؛ أي: تعال، فجاء يعلىٰ، فأدخل رأسه فإذا هو مُحْمَرُّ الوجه يَغُط كذلك ساعة، ثم سُرِّي عنه، فقال: «أَيْنَ الَّذِي سَأَلَنِي عَنِ الْعُمْرَةِ آنِفًا؟» فذكر أنَّه أمره بنزع الجُبَّة وغَسْلِ الطيب(٤).

وهذا الحديث رواه جماعة من طرق عديدة، والكلام عليه في كتاب الحج، ولا تظهر مناسبة ما بينه وبين هذه الترجمة، ولا يكاد، ولو ذُكِرَ في التَّرجمة التي قبلها لكان أظهر وأَبْيَن، والله أعلم.

- قال المؤلف(٥) رَحِمَهُ اللَّهُ: فائدة جليلة حسنة: ثبت في «الصحيحين» عن أنس قال(٦): جَمَعَ القرآن علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ أربعة، كلُّهم من الأنصار؛ أُبَي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. فقيل له: مَن أبو زيد؟ قال: أحد عُمُومَتِي. وفي لفظ للبخاري عن أنس قال: مات النَّبيُّ ﷺ ولم يَجْمَع القرآن غير أربعة؛ أبو الدَّرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثْناه(٧).

قلت: أبو زيد هذا ليس بمشهور؛ لأنَّه مات قديمًا، وقد ذكروه في أهل بدر، وسمَّاه بعضهم: سعيد ابن عبيد. ومعنىٰ قول أنس: «ولم يَجْمَع القرآن». يعني من الأنصار سوىٰ هؤلاء، وإلَّا فمِنَ المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن كالصِّدِّيق، وابن مسعود، وسالم مولىٰ أبي حذيفة وغيرهم.

قال الشَّيخ أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ: قد عُلِمَ بالاضطرار أنَّ رسول الله ﷺ قدَّم أبا بكر في مرضِ الموت ليُصَلِّي بالنَّاس، وقد ثبت في الخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ قال: «لِيَؤُمَّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ»(٨) فلو لم يكُن الصِّدِّيق أقرأ القَوْمِ لَمَا قَدَّمَه عليهم. نقله أبو بكر بن زنجويه في كتاب «فضائل الصِّدِّيق عن الأشعريِّ».

---

(١) في (ح): «المصاحف» والمثبت موافق لما في «المصاحف».
(٢) ليست في (ز). (٣) في (ح): «أخيره»، والمثبت عن (حوين).
(٤) رواه البخاري (١٧٨٩، ٤٩٨٥، ١٨٤٧)، ومسلم (١١٨٠)، وأبو داود (١٨١٩، ١٨٢٠)، والنسائي (٥/ ١٣٠).
(٥) ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ. (٦) لوحة (١٠ ب/ح).
(٧) رواه البخاري (٣٨٠١، ٥٠٠٣)، ومسلم (٢٤٦٥).
(٨) رواه مسلم (٦٧٣)، وأبو داود (٥٨٢)، والترمذي (٢٣٥)، والنسائي (٢/ ٧٦)، وابن ماجة (٩٨٠).

وحكىٰ القُرْطُبِيُّ في أوائِل تفسيره عن القاضي أبي بكر الباقلاني أنَّه قال -بعد ذكره حديث أنس بن مالك هذا-: فقد ثبت بالطُّرُق المتواترةِ أنَّه جمع القرآن عثمان، وعلي، وتميم الدَّاري، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص. فقول أنس: «لَم يَجْمَعه غير أربعة» يحتمل أنَّه لم يأخذه تلقيًا من فِيِّ رسول الله ﷺ غير هؤلاء الأربعة، وأنَّ بعضهم تلقىٰ بعضه عن بعض. قال: وقد تظاهرت الرِّوايات بأنَّ الأئمَّة الأربعة جمعوا القرآن علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ لأجل سبقهم إلىٰ الإسلام، وإعظام الرسول لهم.

قال القرطبي: لم يذكر القاضي ابن مسعود وسالمًا مولىٰ أبي حذيفة، وهما ممن جمع القرآن.

[جَمْعُ القُرآن][1]

[قال البخاري][2] حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا إبراهيم بن سعد، حدَّثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق أنَّ زيد بن ثابت قال: أرسل إليَّ أبو بكر -مقتل أهل اليمامة- فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر[3]: إنَّ عمر بن الخطاب أتاني، فقال: إنَّ القتل قد استَحَرَّ بقُرَّاء القرآن، وإني أخشىٰ أن يَسْتَحِرَّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإنِّي أرىٰ أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خيرٌ، فلم يزل عمر يراجعني حتىٰ شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الَّذِي رأىٰ عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنَّك رجل شابٌّ عاقل لا نَتَّهِمُك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كَلَّفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان أثقل عليَّ ممَّا أَمَرَنِي به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلَمْ يَزَلْ أبو بكر يراجعني حتىٰ شرح الله صدري للذي شرح له صدرَ أبي بكر وعمر ﵄. فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخَاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التَّوبة مع أبي خزيمة الأنصاري[4] لم أجدها مع غيره[5]: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتىٰ خاتمة براءة، فكانت الصُّحف عند أبي بكر حتَّىٰ توفَّاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر ﵄[6].

وقد روىٰ البخاري هذا الحديث في غير موضع من كتابه، ورواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري به[7].

---

(١) زدنا هذا العنوان هنا تبعًا للشيخ أبي إسحاق الحويني مع أنَّ مكانه في المخطوطة قبل قوله: «فائدة جليلة» مراعاة لمراد المصنف إذ هذه الفائدة المدرجة قد فصلت بين العنوان ومادته.

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (١١ أ/ح).

(٤) كذا في (ز) وهو الصواب كما سيبينه المؤلف فيما بعد.

(٥) يعني: مكتوبة؛ كما صرَّح به جماعة منهم الحافظ في «الفتح»، وهذا مستفاد من «حوين».

(٦) رواه البخاري (٤٩٨٦) وانظر ما بعده.

(٧) رواه البخاري (٤٦٧٩، ٤٩٨٩)، والترمذي (٣١٠٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٩٩٥)، وأحمد (١/ ١٠).

وهذا من أحسن وأَجَلِّ وأعظم ما فعله الصِّدِّيق رضي الله عنه فإنَّه أقامه الله بعد النَّبيِّ ﷺ مقامًا لا يَنْبَغِي لأحدٍ بعده، قاتل الأعداء مِن مانعي الزكاة، والمُرْتَدِّين، والفُرْس والرُّوم، ونفذ الجيوش، وبعث البعوث والسَّرايا، ورد الأَمْر إلىٰ نصابه بعد الخوف مِن تَفَرُّقه وذهَابِهِ، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المُتَفَرِّقة حتىٰ تمكَّن القارئ مِن حفظِهِ كلِّه، وكان هذا مِن سِرِّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فجمع الصِّدِّيق الخيرَ وكَفَّ الشَّرَّ رضي الله عنه وأرضاه. ولهذا روىٰ غير واحد من الأئمَّة منهم وَكِيع وابن مهدي وقبيصة عن سفيان الثوري، عن إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير، عن عبد خير، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه قال: أعظم النَّاس أجرًا في المصاحف أبو بكر، إنَّ أبا بكر كان أوَّل مَن جمع القرآن بين اللوحين. هذا إسناد صحيح[(١)].

وقال أبو بكر بن أبي داود في كتاب «المصاحف»[(٢)]: حدَّثنا هارون بن إسحاق، حدَّثنا عبدة[(٣)]، عن هشام، عن أبيه، أنَّ أبا بكر هو الَّذِي جمع القرآن بعد النَّبيِّ ﷺ يقول: ختمه. صحيح أيضًا[(٤)].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي تَنَبَّه لذلك لما استحَرَّ القتل بالقرَّاء؛ أي: اشتَدَّ القتل وكَثُر في قُرَّاء القرآن يوم اليمامة؛ يعني: يوم قتال مسيلمة الكذَّاب وأصحابه مِن بني حنيفة بأرض اليَمَامَةِ في حديقة الموت، وذلك أنَّ مسيلمة الْتَفَّ معه مِن المرتدين قريب مِن مائة ألف، فجهَّز الصِّدِّيق لِقِتَاله خالدَ بن الوليد رضي الله عنه في قريب مِن ثلاثة عشر ألفًا، فالْتَقُوا معهم، فانكشف الجيش الإسلامي لكَثْرَةِ مَن فيه من الأعراب، فنادىٰ القرَّاء من كبار الصَّحابة: يا خالد، أخلصنا، يقولون: ميزنا من هؤلاء الأعراب فتميزوا منهم، وانفردوا، فكانوا قريبًا من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة، وقاتلوا قتالًا شديدًا، وجعلوا يتنَادَوْن: يا أصحاب سورة البقرة، فلم يَزَل ذلك دأبهم حتىٰ فتح الله عليهم وولَّىٰ جيش الكفر فارًّا، وأتبعتهم السُّيوف المسلمة في أَقْفِيَتِهِم قتلًا وأسرًا، وقتل الله مسيلمة، وفرَّق شمل أصحابه، ثم رجعوا إلىٰ الإسلام.

ولكن قُتِل من القُرَّاء يومئذٍ قريب من خمسمائة رضي الله عنهم؛ فلهذا أشار عمر علىٰ الصِّدِّيق بأن يجمع القرآن؛ لئلَّا يذهب منه شيءٍ بسبب موتِ مَن يكون يحفظه من الصَّحَابة بعد ذلك في مواطن القتال، فإذا كُتِبَ وحُفِظَ صار ذلك محفوظًا، فلا فرق بين حياة من بلغه أو موته، فراجعه الصديق قليلًا ليَتَثَبَّت في الأمر، ثم وافقه، وكذلك راجعهما زيد بن ثابت في ذلك ثم صارا إلىٰ ما رأياه رضي الله عنهم أجمعين، وهذا المَقَام مِن أعظم فضائل زيد بن ثابت الأنصاري.

---

(١) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص ٥)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٤٤)، والآجري في «الشريعة» (١١٤١)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٥١٣).

(٢) لوحة (١١ ب/ح).

(٣) في (ح): «عبيدة»، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «المصاحف»، وهو عبدة بن سليمان.

(٤) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص٥)، وقوله: صحيح؛ يعني: إلىٰ عروة لكن عروة لم يدرك أبا بكر.

ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن خَلاد، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن؛ أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله، فقيل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، فقال: إنَّا لله، فأمر بالقُرآن فجُمِع، فكان أول مَن جمعه في المصحف[١]، هذا منقطع، فإنَّ الحسن لم يُدْرِك عمر.

ومعناه: أنَّه أشار بجمعه فجمع؛ ولهذا كان مهيمنًا علىٰ حفظه وجمعه، كما رواه ابن أبي داود حيث قال: حدَّثنا أبو الطاهر، حدَّثنا ابن وهب، حدَّثنا عمرو بن طلحة الليثي، عن محمَّد بن عمرو بن علقمة، عن يحيىٰ ابن عبد الرحمن بن حاطب، أن عمر لما جمع[٢] القرآن كان لا يقبل من أحد شيئًا حتىٰ يَشْهَد شاهدان[٣].

وذلك عن أَمْرِ الصِّدِّيق له في ذلك، كما قال أبو بكر بن أبي داود: حدَّثنا أبو الطاهر، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد[٤]، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: لما اسْتَحَرَّ القتل بالقُرَّاء يومئذٍ فَرِقَ[٥] أبو بكر ﷺ أن يَضِيع، فقال لعمر بن الخطَّاب ولزيد بن ثابت: فمن جاءكما بشاهِدَيْن علىٰ شيءٍ مِن كتاب الله فاكتباه. منقطع حسن[٦].

ولهذا قال زيد بن ثابت: وجدت آخر سورة التَّوبة؛ يعني: قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلىٰ آخر الآيتين [التوبة: ١٢٨، ١٢٩]، مع أبي خزيمة الأنصاري، وفي رواية: مع خزيمة بن ثابت الَّذِي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين لم أَجِدْها مع غيره فكتبوها عنه؛ لأنَّه جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين في قِصَّة الفَرَس التي ابتاعها رسول الله ﷺ من الأعرابي، فأنكر الأعرابي البيع، فشَهِدَ خزيمة هذا بتصديق رسول الله ﷺ، فأمضىٰ شهادته وقبض الفرس من الأعرابي. والحديث رواه أهل السنن وهو مشهور[٧].

وروىٰ أبو جعفر الرازي عن الربيع، عن أبي العالية أن أُبيَّ بن كعب أملاها عليهم مع خزيمة بن ثابت[٨].

وقد روىٰ ابن وهب عن عمرو بن طلحة اللَّيْثِي، عن محمَّد بن عمرو بن علقمة، عن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب؛ أن عثمان شهد بذلك أيضًا.

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص١٠)، وفيه مبارك بن فضالة: ضعيف مدلس، وفيه انقطاع؛ لأن الحسن لم يدرك عمر.

(٢) لوحة (١٢ أ/ ح).

(٣) «المصاحف» (ص:٦).

(٤) في (ح): «الزياد»، وهو خطأ.

(٥) أي: خاف وخشي.

(٦) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (صـ ١٢).

(٧) صحيح: رواه أبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٧/ ٣٠٢)، وأحمد (٥/ ٢١٥).

(٨) رواه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٤)، وفيه أبو جعفر الرازي، قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ.

وأما قول زيد [بن ثابت](١): «فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال» وفي رواية: «من العُسُب والرِّقَاع والأضلاع»، وفي رواية: «من الأكتاف والأقتاب وصدور الرجال».

أما العُسُب: فجمع عسيب. قال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: وهو من السَّعَف فويق الكَرَب لم ينبت عليه الخُوص، وما نبت عليه الخوص فهو السَّعف. واللِّخاف: جمع لَخْفَة، وهي: القطعة من الحِجَارة مستَدَقَّة، كانوا يكتبون عليها وعلىٰ العُسُب وغير ذلك، ممَّا يمكنهم الكتَابة عليه مما يناسب ما يسمعونه من القرآن من رسول الله ﷺ.

ومنهم مَن لم يكن يُحْسِن الكتابة أو يَثِق بحفظه، فكان يحفظه، فتلقاه زيد بن ثابت مِن هذا مِن عَسِيبِهِ، ومِن هذا مِن لخافه، ومِن صدر هذا؛ أي: من حفظه، وكانوا أحرص شيءٍ علىٰ أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة؛ لأنَّ رسول الله(٢) ﷺ أودعهم ذلك لِيُبَلِّغوه إلىٰ مَن بعده كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ففعل صلوات الله وسلامه عليه ما أمر به؛ ولهذا سألهم في حَجَّة الوداع يوم عرفة علىٰ رءوس الأشهاد، والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: «**إِنَّكُمْ مَسْئولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**». فقالوا: نشهد أنَّك قد بَلَّغتَ وأدَّيتَ ونَصَحْتَ، فجعل يشير بأصبعه إلىٰ السَّماء، وينكتها عليهم ويقول: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**». رواه مسلم عن جابر(٣).

وقد أمر أُمَّته أَن يُبَلِّغَ الشَّاهدُ الغائبَ، وقال: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(٤)؛ يعني: ولو لم يكن مع أحدكم سوىٰ آية واحدة فليُؤَدِّها إلىٰ مَن وراءه، فبلَّغوا عنه ما أَمَرَهُم به، فأَدُّوا القرآن قرآنًا، والسُّنَّةَ سُنَّةً، لم يَلْبِسُوا هذا بهذا؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ كَتَبَ عَنِّي سِوَىٰ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ**»(٥) أي: لئلَّا يختلط بالقرآن، وليس معناه: ألا يَحْفَظُوا السُّنَّةَ ويرووها، والله أعلم.

فلهذا نعلم بالضَّرُورَةِ أنَّه لم يَبْقَ من القرآن ممَّا أدَّاه الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلَّغوه إلينا، ولله الحمد والمِنَّة.

فكان الَّذي فعله الشَّيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما مِن أكبر المصالح الدِّينيَّة وأعظمها، مِن حفظهما كتاب الله في الصُّحف؛ لئلَّا يذهب منه شيء بمَوْتِ مَن تلقَّاه عن رسول الله ﷺ، ثم كانت تلك الصُّحف عند الصِّدِّيق أيَّام حياته، ثم أخذها عُمَرُ بعده فكانت عنده محروسةً معظَّمةً مكرَّمةً، فلمَّا مات كانت عند حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ لأنَّها كانت وصيته مِن ولده علىٰ أوقافه وتَرِكَتِهِ، وكانت عند أُمِّ المؤمنين حتىٰ أخذها منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما سَنَذْكُرُه إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) ليست في (ح).

(٢) لوحة (١٢ ب/ح).

(٣) مسلم (١٢١٨).

(٤) البخاري (٣٤٦١)، والترمذي (٢٦٦٩).

(٥) مسلم (٣٠٠٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٠٨).

[كتابة[1] عثمان رضي الله عنه للمصاحف]

قال البخاري رحمه الله: حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا إبراهيم، حدَّثنا ابن شهاب، أنَّ أنس بن مالك، حدَّثَه أنَّ حذيفة بن اليَمَان قَدِمَ علىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنهما وكان يُغَازي أهل الشَّام في فتح أَرْمِينِيَّة وأَذْرِبيجَان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أَدْرِكْ هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنَّصارىٰ. فأرسل عثمان إلىٰ حفصة أن أَرْسِلِي إلينا بالصُّحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حَفْصة إلىٰ عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزُّبير وسعيد بن العاص[2] وعبد الرَّحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرَّهط القُرَشِيِّين الثَّلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنَّما أُنزِلَ بلسانهم. ففعلوا، حتىٰ إذا نسخوا الصُّحف في المصاحف رَدَّ عثمان الصحف إلىٰ حفصة وأرسل إلىٰ كل أفق بمُصْحَف ممَّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صَحِيفَة أو مصحف أن يُحْرَقَ، قال ابن شهاب الزهري: فأخبرني خارجة بن زيد، عن زيد بن ثابت قال: فَقَدْتُ آيَةً من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أَسْمَعُ رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالْتَمَسْنَاها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها في سورتها في المصحف[3].

وهذا -أيضًا- مِن أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنَّ الشَّيخين سبقَاهُ إلىٰ حفظ القرآن أن يذهب منه شيء، وهو جمع النَّاس علىٰ قراءة واحدة؛ لئلَّا يختلفوا في [القرآن، ووافقه علىٰ ذلك جميع الصَّحابة، وإنَّما رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود شيء من التَّغَضُّب بسببٍ][4] أنَّه لَم يكن ممَّن كتب المصاحف، وأَمَرَ أصحابه بِغَلِّ مصاحفهم لما أمر عثمان بحَرْقِهِ ما عدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلىٰ الوفاق حتىٰ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو لم يَفْعَل ذلك عثمان لفعلته أنا[5].

فاتَّفق الأئمَّة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم علىٰ أنَّ ذَلِكَ مِن مصالح الدِّين، وهم الخُلَفاء الذين قال رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي**»[6].

---

(١) ليست في (ح)، وهي مثبتة في طبعة الشيخ الحويني.

(٢) لوحة (١٣أ/ ح). (٣) رواه البخاري (٤٩٨٧، ٤٩٨٨).

(٤) ما بين المعقوفتين ليست في (ح)، وهو مثبت من طبعة الشيخ الحويني.

(٥) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٥٧)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص ١٢)، وفي إسناده رجل لم يسم، وله طريق أخرىٰ عند ابن أبي داود في المصاحف (ص٢٣)، وفيه محمَّد بن أبان: ليس بالقوي، لكن يكتب حديثه كما قال أبو حاتم، وبالجملة فالإسناد حسن إن شاء الله.

(٦) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٨)، وابن ماجة (٤٣، ٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٨٥١).

وكان السَّبب في هذا حذيفة بن اليمان ﵁ فإنَّه لما كان غازيًا في فتح أرمينية وأذربيجان، وكان قد اجتمع هناك أهل الشَّام والعراق، وجعل حذيفة يسمع منهم قراءات علىٰ حروفٍ شتَّىٰ، ورأىٰ منهم اختلافًا كثيرًا وافتراقًا، فلمَّا رجع إلىٰ عثمان أَعْلَمَهُ، وقال لعثمان: أَدْرِكْ هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنَّصارىٰ.

وذلك أنَّ اليهود والنَّصارىٰ مختلفون فيما بأيديهم مِن الكُتُب، فاليهود بأيديهم نسخة مِن التَّوراة، والسَّامرة يخالفونهم في ألفاظٍ كثيرةٍ ومعانٍ أيضًا، وليس في توراة السَّامرة حرف الهمزة ولا حرف الهاء ولا حرف الياء، والنَّصارىٰ -أيضًا- بأيديهم توراة يسمونها العَتِيقَة وهي مخالفة لنُسْخَتَي اليهود والسَّامرة.

وأمَّا الأناجيل التي بأيدي النَّصارىٰ فأربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل متَّىٰ، وإنجيل يوحنا[١]، وهي مختلفة -أيضًا- اختلافًا كثيرًا، وهذه الأناجيل الأربعة كل منها لَطِيف الحجم. منها ما هو قريب مِن أربع عشرة ورقة بخطٍّ متوسط، ومنها ما هو أكثر من ذلك إما بالنِّصف أو بالضِّعف، ومضمونُها سيرةُ عيسىٰ وأيَّامه وأحكامه وكلامه وفيه شيء قليلٌ ممَّا يَدَّعون أنَّه كلام الله، وهي مع هذا مختلفة، كما قلنا، وكذلك التوراة مع ما فيها من التَّبديل والتَّحريف، ثم هما منسوخان بعد ذلك بهذه الشَّريعة المحمَّدية المطهَّرة.

فلمَّا قال حذيفة لعثمان ذلك أفزعه وأرسل إلىٰ حفصة أم المؤمنين أن تُرْسِل إليه بالصُّحف التي عندها مما جمعه الشَّيخان لِيَكْتُبَ ذلك في مصحفٍ واحدٍ، ويُنْفِذَه إلىٰ الآفاق، ويجمع النَّاس علىٰ القراءة به وترك ما سواه، ففعلت حفصة، وأمر عثمان هؤلاء الأربعة وهم زيد بن ثابت الأنصاري، أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وعبد الله بن الزُّبير بن العوام القرشي الأسدي، أحد فقهاء الصَّحابة ونجبائهم علمًا وعملًا وأصلًا وفضلًا، وسعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي، وكان كريمًا جوادًا ممدحًا، وكان أشبه النَّاس لهجةً برسول الله ﷺ، وعبد الرَّحمن بن الحَارث بن هشام بن المُغِيرة بن عبدِ الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي.

فجلس هؤلاء النَّفر [الأربعة][٢] يكتبون بالقُرْآن نسخًا، وإذا اختلفوا في وَضْع الكتابة علىٰ أيِّ لغة رجعوا إلىٰ عثمان، كما اختلفوا في «التَّابوت» أَيَكْتُبُونَهُ بالتاء أو الهاء، فقال زيد بن ثابت: إنما هو «التَّابوه» وقال الثَّلاثة القرشيُّون: إنَّما هو «التَّابوت» فترافعوا إلىٰ عثمان، فقال: اكتبوه بلُغَةِ قريش، فإنَّ القرآن نزل بلغتهم[٣]، وكان عثمان -والله أعلم- رتَّب السُّوَر في المصحف، وقدَّم السَّبع الطِّوال وثَنَّىٰ بالمِئِينَ.

---

(١) لوحة (١٣ ب/ ح)، وفي (ح): «يحيىٰ» بدل «يوحنا».
(٢) ليست في (ح).
(٣) مرسل: رواه الترمذي (٣١٠٤)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص٣١- ٣٢) من قولي الزهري.

ولهذا روىٰ ابن جرير وأبو داود والترمذي [والنَّسائي][(١)] من حديث غير واحد من الأئمَّة الكبار، عن عوف الأعرابي، عن يزيد الفارسي، عن ابن عبَّاس قال: قلتُ لعثمان بن عفان: ما حمَلَكُم [علىٰ][(٢)] أن عمدتم إلىٰ (الأنفال) وهي مِن المثاني، وإلىٰ (براءة) وهي مِن المِئِين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ووضعتموها في السَّبع الطِّوال؟ ما حملكم علىٰ ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ممَّا يأتي عليه الزَّمان وهو ينزل عليه السُّور ذوات العَدَدِ، فكان إذا نزل عليه الشَّيء دعا بعض من كان يكتب فيقول[(٣)]: ضَعُوا هذه الآيات في السُّورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآية فيقول: ضَعُوا هذه الآية في السُّورة التي يذكر فيها كذا وكذا.

وكانت (الأنفال) مِن أوَّل ما نزل بالمدينة، وكانت (براءة) مِن آخر القرآن، وكانت قِصَّتُها شبيهة بِقِصَّتِها، وحسبت أنَّها منها، وقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يُبَيِّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فوضعتها في السَّبع الطوال[(٤)].

فَفُهِمَ مِن هذا الحديث أنَّ ترتيب الآيات في السُّور أمرٌ توقيفيٌّ متلقىٰ عن الرَّسُول ﷺ، وأمَّا ترتيب السُّور فمِن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﵁؛ ولهذا ليس لأحدٍ أن يقرأ القرآن إلا مرتبًا آياته؛ فإن نكسه أخطأ خطأً كبيرًا. وأما ترتيب السُّور فمستحب اقتداءً بعثمان ﵁، والأولىٰ إذا قرأ أن يقرأ متواليًا كما قرأ عليه الصلاة والسلام في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمُنَافِقِين[(٥)] وتارة بـ﴿سَبِّحِ﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾[(٦)]، فإن فَرَّقَ جاز، كما صَحَّ أن رسول الله ﷺ قرأ في العيد بـ ﴿قٓ﴾ و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[(٧)]، رواه مسلم عن أبي واقد[(٨)].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﵁؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ﴾ السجدة، و ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾[(٩)].

وإن قدَّم بعض السُّور علىٰ بعض جاز أيضًا، فقد روىٰ حذيفة أنَّ رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النِّساء ثم آل عمران. أخرجه مسلم[(١٠)].

---

(١) ليست في (ح). (٢) ليست في (ح)، وهي مثبتة لدىٰ «الطبري»، وغيره. (٣) لوحة (١٤ أ/ح).

(٤) ضعيف: رواه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٠٧)، والطبري (١/ ١٠٢). وضعَّفه الشيخ أحمد شاكر، وعِلَّته يزيد الفارسي: مجهول، وضعَّفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٤٠).

(٥) رواه مسلم (٨٧٩)، وأبو داود (١٠٧٤)، والترمذي (٥٢٠) وصححه النسائي (٢/ ١٥٩) (٣/ ١١١)، وابن ماجة (٨٢١).

(٦) رواه مسلم (٨٧٨)، وأبو داود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، والنسائي (٣/ ١١١)، وابن ماجة (١٢٨١).

(٧) رواه مسلم (٨٩١)، وأبو داود (١١٥٤)، والترمذي (٥٣٤)، والنسائي (٣/ ١٨٣)، وابن ماجة (١٢٨٢).

(٨) في (ح): «منارة»، والمثبت هو الصواب.

(٩) البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠)، والنسائي (٢/ ١٥٩)، وابن ماجة (٨٢٣).

(١٠) رواه مسلم (٧٧٢)، وأبو داود (٨٧١)، والترمذي (٢٦٢)، والنسائي (٢/ ٢٢٤)، وابن ماجة (٨٩٧، ١٣٥١).

وقرأ عمر في الفجر بسورة النَّحل ثم بيوسف[١].

ثم إنَّ عثمان رَدَّ الصحف إلىٰ حفصة، فلم تزَل عندها حتىٰ أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها فلم تعطه حتىٰ ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها؛ لئلَّا يكون فيها شيء يخالف المصاحف التي نفذها عثمان إلىٰ الآفاق، مصحفًا إلىٰ مَكَّة، ومصحفًا إلىٰ البصرة، وآخر إلىٰ الكوفة، وآخر إلىٰ الشَّام، وآخر إلىٰ اليمن، وآخر إلىٰ البحرين، وترك عند أهل المدينة مصحفًا. رواه أبو بكر بن أبي داود عن أبي حاتم السجستاني، سمعه يقوله[٢].

وصَحَّح القرطبي أنَّه إنَّما نفذ إلىٰ الآفاق أربعة مصاحف. وهذا غريب، وأمر بما عدا ذلك مِن مصاحف النَّاس أن يحرق؛ لئلا تختلف قراءات النَّاس في الآفاق، وقد وافقه الصَّحابة في عصره علىٰ ذلك[٣] ولم ينكره أحد منهم، وإنَّما نَقِمَ عليه ذلك أولئك الرَّهط الذين تَمَالَئوا عليه وقتلوه، قاتلهم الله، وفي ذلك جملة ما أنكروه ممَّا لا أصل له، وأما سادات المسلمين من الصَّحابة، ومَن نشأ في عصرهم ذلك مِن التَّابعين، فكُلُّهم وافقوه.

قال أبو داود الطيالسي وابن مهدي وغُنْدَر، عن شعبة، عن عَلْقَمة بن مَرْثَد، عن رجل، [عن][٤] سُوَيد بن غفلة، قال عليٌّ حين حرَّق عثمان المصاحف: لو لم يَصْنَعْهُ هو لَصَنَعْتُهُ[٥].

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدَّثنا أحمد بن سِنَان، حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد بن أبي وقَّاص، قال: أدركت النَّاس متوافِرين حين حرق عثمان المَصَاحِفَ فأعجبهم ذلك، أو قال: لم يُنْكِر ذلك منهم أحد. وهذا إسناد صحيح[٦].

وقال أيضًا: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف، حدَّثنا يحيىٰ بن كثير، حدَّثنا ثابت بن عمارة الحنفي، قال: سمعت غنيم بن قيس المازني قال: قرأت القرآن علىٰ الحرفين جميعًا، والله ما يَسُرُّنِي أَنَّ عثمان لم يكتب المصحف، وأنه ولد لكلِّ مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ماله. قال: قلنا له: يا أبا العنبر، ولِمَ؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطَفِقَ الناس يقرءون الشعر[٧].

حدَّثنا يعقوب بن سفيان، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله، حدَّثني عمران بن حدير، عن أبي مِجْلَز قال: لولا أن عثمان كتب القرآن لألفيت الناس يقرءون الشعر[٨].

---

(١) البخاري (٣٧٠٠).
(٢) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص٣٤) هكذا مرسلًا.
(٣) لوحة (١٤ ب/ح).
(٤) ليست في (ح).
(٥) تقدَّم وهو حسنٌ لطرقه.
(٦) «المصاحف» (ص ١٢).
(٧) إسناده لا بأس به: رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص١٣)، وفيه ثابت بن عمارة: صدوق فيه لين كما قال الحافظ، لكن قال عنه أحمد والنسائي: لا بأس به.
(٨) صحيح: المصدر السابق (صـ ١٣٠).

حدَّثنا أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدي يقول: خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر: صَبْرُهُ نفسه حتىٰ قتل مظلومًا، وجمعه النَّاس علىٰ المصحف.

وأمَّا عبد الله بن مسعود: فقد قال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن خمير بن مالك قال: لما أمر عثمان بالمصاحف -يعني بتحريقها- ساء ذلك عبد الله بن مسعود، وقال: مَن استطاع منكم أن يغلَّ مصحفًا فليغلل، فإنَّه مَن غلَّ شيئًا جاء بما غَلَّ يوم القيامة، ثم قال عبد الله: لقد قرأت القرآن من فِيِّ رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد صبي، أفأترك ما أخذت من فِيِّ رسول الله ﷺ(١).

وقال أبو بكر: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن النعمان(٢)، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا أبو شهاب، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: خَطَبَنَا ابن مسعود علىٰ المنبر فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، غُلُّوا مصاحفكم، وكيف تأمروني أن أقرأ علىٰ قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت [القرآن](٣) من فِيِّ رسول الله(٤) ﷺ بضعًا وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغِلْمَان له ذَؤُابَتَان، والله ما نزل من القرآن شيءٌ إلا وأنا أعلم في أيِّ شيءٍ نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله مِنِّي، وما أنا بخيركم، ولو أعلم أحدًا تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأَتَيْتُه. قال أبو وائل: فلمَّا نزل عن المنبر جلست في الحلق، فما أحد ينكر ما قال(٥).

أصلُ هذا مخرَّجٌ في «الصحيحين» وعندهما: ولقد عَلِمَ أصحاب محمَّد أنِّي مِن أعلمهم بكتاب الله.

وقول أبي وائل: فما أحد ينكر ما قال؛ يعني: من فضله وعلمه وحفظه، والله أعلم، وأما أمره بغَلِّ المصاحف وكتمانها، فقد أنكره عليه غير واحد.

قال الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قدمت الشام فلقيت أبا الدرداء، فقال: كنا نعد عبد الله جبانًا فما باله يواثب الأمراء(٦).

وقال أبو بكر بن أبي داود: باب رضا عبد الله بن مسعود بجمع عثمان المصاحف بعد ذلك: حدَّثنا عبد الله بن سعيد ومحمَّد بن عثمان العجلي قالا: حدَّثنا أبو أسامة، حدَّثني زهير، حدَّثني الوليد بن قيس، عن عثمان بن حسان العامري، عن فُلفُلة الجعفي قال: فزعت فيمن فزع إلىٰ عبد الله في

---

(١) صحيح من غير هذا الطريق: رواه أحمد (١/ ٣٨٩/ ٤٠٥/ ٤١٤)، وابن أبي داود في «المصاحف» (صـ١٥)، والحاكم (٢/ ٢٢٨) وصحَّحه، قلت: هذا إسناد ضعيف فيه خمير بن مالك: لم يوثقه غير ابن حبان، وبقية رجاله ثقات، وله طريق أخرىٰ رواه البخاري(٥٠٠٠)، ومسلم (٢٤٦٢) وهي الرواية الآتية.

(٢) كذا في (ح)، وفي (حوين): «النضر»، و المثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «كتاب المصاحف»، وقد تم تصحيح هذا الموضع من طبعة «ابن الجوزي» (١/ ٤٠).

(٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (١٥ أ/ح).

(٥) رواه ابن أبي داود (ص ١٦)، وأصله عند البخاري (٥٠٠٠)، ومسلم (٢٤٦٢)، والنسائي (٨/ ١٣٤).

(٦) رواه ابن أبي داود «المصاحف» (ص ١٨)، وإسناده صحيح.

المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنَّا لم نأْتِكَ زائرين، ولكنَّا جئنا حين رَاعَنَا هذا الخبر، فقال: إنَّ القرآن أُنزِلَ علىٰ نَبِيِّكم من سبعة أبواب، علىٰ سبعة أحرف -أو حروف- وإن الكتاب قبلكم كان ينزل -أو نزل- من باب واحد علىٰ حرف واحد(١).

وهذا الذي استدلَّ به أبو بكر رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ رجوع ابن مسعود فيه نظر من جهة أنَّه لا يظهر مِن هذا اللَّفظ رجوعٌ عمَّا كان يذهب إليه، والله أعلم.

وقال أبو بكر أيضًا: حدَّثنا عمي، حدَّثنا أبو رجاء، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخَطَبَ النَّاس فقال: يا أيُّها النَّاس عهدكم بِنَبِيِّكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تَمْتَرُون في القرآن، وتقولون: قراءة أُبَيٍّ وقراءة عبد الله، يقول الرَّجل: والله ما تُقِيمُ قراءَتَكَ، وأعزم علىٰ كلِّ رجلٍ منكم ما كان معه مِن كتاب الله لمَّا جاء به، فكان الرَّجل يجيءُ بالوَرَقَةِ والأديم فيه القرآن حتىٰ جَمَع مِن ذلك كثرة(٢)، ثم دخل عثمان فدَعَاهُم رجلًا رجلًا فناشدهم: لسمعتَ رسول الله ﷺ وهو أملاه(٣) عليك فيقول: نعم، فلمَّا فرغ مِن ذلك عثمان قال: مَن أكتَبُ النَّاس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال: فأَيُّ النَّاس أَعْرَبُ؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فَلْيُمْلِ سعيد، ولْيَكْتُب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرَّقها في النَّاس، فسَمِعْتُ بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: قد أحسن(٤). إسناده صحيح.

وقال أيضًا: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدَّثنا أبو بكر، حدَّثنا هشام بن حسان، عن محمَّد بن سيرين، عن كثير بن أفلح قال: لمَّا أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلًا من قريش والأنصار، فيهم أُبيُّ بن كعب وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلىٰ الربعة التي في بيت عمر فجِيءَ بها، قال: وكان عثمان يتَعَاهَدُهُم، وكانوا إذا تَدَارَءُوا(٥) في شيءٍ أَخَّروه. قال محمَّد: فقلت لكثير [-وكان فيهم فيمن يكتب-: هل تَدْرُون لِمَ كانوا يُؤَخِّرُونه؟ قال: لا. قال محمَّد: فظَنَنْت ظنًّا إنَّما كانوا](٦) يُؤَخِّرُونها لِيَنْظُرُوا أحدثهم عهدًا بالعرضة الأخيرة فيكتبونها علىٰ قوله(٧). صحيح أيضًا.

---

(١) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص ١٨)، وأحمد (١/ ٤٤٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ١٨٢)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٢/ ١٣٥): وهذا سند جَيِّد موصول، رجاله كلهم ثقات معروفون غير فلفلة ...اهـ. يعني: فلفلة الجعفي، وقد وقع اختلاف في اسمه فقيل: عثمان بن حسان أو القاسم بن حسان، وسواء هذا أو ذاك فهو مجهول الحال (انظر تعليق أبي إسحاق الحويني علىٰ «فضائل القرآن» صـ ٨٢).

(٢) في (حوين): «حتىٰ تجمع من ذلك شيء كثير»، والمثبت موافق لما في (ح)، و«المصاحف».

(٣) لوحة (١٥ ب/ح).

(٤) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص ٢٣)، وإسرائيل من أتقن الناس في جَدِّه أبي إسحاق.

(٥) في (ح): «بدوا».

(٦) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «المصاحف».

(٧) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص ٢٥).

قلت: الرَّبْعة هي: الكتب المجتمعة، وكانت عند حفصة رضي الله عنها فلمَّا جمعها عثمان رضي الله عنه في المصحف، رَدَّها إليها، ولم يحرقها في جملة ما حَرَّقه ممَّا سواها، إلَّا أنَّها هي بِعَيْنِهَا الذي[١] كتبه، وإنَّما رَتَّبه، ثم إنَّه كان قد عَاهَدَهَا علىٰ أن يَرُدَّها إليها، فما زالت عندها حتَّىٰ ماتت، ثم أخذها مروان بن الحكم فحَرَقَها وتأوَّل في ذلك ما تأوَّل عثمان.

كما رواه أبو بكر بن أبي داود: حدَّثنا محمَّد بن عوف، حدَّثنا أبو اليمان، حدَّثنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سالم بن عبد الله: أنَّ مروان كان يرسل إلىٰ حفصة يسألها الصُّحف التي كتب منها القرآن، فتأبَىٰ حفصة أن تعطيه إيَّاها. قال سالم: فلمَّا تُوُفِّيت حفصة ورجعنا مِن دفنها أرسل مروان بالعَزِيمَة إلىٰ عبد الله ابن عمر لَيُرْسِلَنَّ إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشققت، وقال مروان: إنَّما فعلتُ هذا؛ لأنَّ ما فيها قد كُتِبَ وحُفِظَ بالمصحف، فخشيت إن طال بالنَّاس زمان أَن يَرتاب في شأن هذه الصُّحف مرتابٌ أو يقول: إنَّه كان شيء منها لم يكتب[٢]. إسناد صحيح.

وأمَّا ما رواه الزهري عن خارجة عن أبيه في شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إيَّاها في سورتها[٣]، فَذِكره لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر، وإنَّما هذا كان حال جمع الصِّدِّيق الصحف كما جاء مصرَّحًا به[٤] في غير هذه الرِّواية عن الزُّهري، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت، والدليل علىٰ ذلك أنه قال: «فألحقناها في سورتها من المُصْحَف» وليست هذه الآية ملحقة في الحاشية في المصاحف العُثْمَانِيَّة.

فهذه الأفعال[٥] مِن أكبر القُرُبَات التي بادر إليها الأئمَّة الرَّاشدون أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حَفِظًا علىٰ النَّاس القرآن وجَمَعَاه؛ لئلَّا يذهب منه شيء، وعثمان رضي الله عنه جمع قراءات النَّاس علىٰ مصحفٍ واحدٍ ووضعه علىٰ العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره عليه الصلاة والسلام فإنَّه عارَضَه به عامئذٍ مرَّتين؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته لما مرض: «**وَمَا أَرَىٰ ذَلِكَ إِلَّا لِاقْتِرَابِ أَجَلِي**». أخرجاه في «الصحيحين»[٦].

وقد رُوِيَ أنَّ عليًّا رضي الله عنه أراد أن يجمع القُرْآن بعد رسول الله ﷺ مرتبًا بحسب نزوله أولًا فأولًا؛ كما رواه ابن أبي داود حيث قال: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل الأحمسي، حدَّثنا ابن فضيل، عن أشعث، عن محمَّد بن سيرين قال: لما توفي النَّبيُّ ﷺ أقسم عليٌّ ألَّا يرتدي برداءٍ إلا لجمعة حتىٰ يجمع القرآن في مصحفٍ ففعل، فأرسل إليه أبو بكر رضي الله عنه بعد أيَّام: أَكَرِهْتَ إمارتي يا أبا الحسن؟ فقال: لا والله، إلا أني أَقْسَمْتُ ألَّا أرتدي برداءٍ إلا لجمعة. فبايعه ثمَّ رجع[٧].

---

(١) في (ح): «التي».

(٢) إسناد صحيح: رواه ابن أبي داود (ص٢٤، ٢٥).

(٣) روه ابن أبي داود (ص ٢٩).

(٤) لوحة (١٦ أ/ح).

(٥) في (ح): «الآيات»، والمثبت عن (حوين).

(٦) البخاري (٦٢٨٥، ٦٢٨٦)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٧) إسناده ضعيف: رواه ابن أبي داود (ص ١٠)، وإسناده مرسل.

هكذا رواهُ وفيه انقطاع[(١)]، ثم قال: لم يذكر المصحف أحد إلا أشعث[(٢)] -وهو [لين الحديث][(٣)]- وإنَّما رَوَوْا[(٤)]: حتىٰ أَجْمَعَ القرآن؛ يعني: أُتِمَّ حِفْظَه، فإنَّه يُقال للَّذِي يحفظ القرآن: قد جمع القرآن.

قلت: وهذا الَّذي قاله أبو بكر أظهر، والله أعلم، فإنَّ عليًّا لم ينقل عنه مصحف علىٰ ما قيل ولا غير ذلك، ولكن قد تُوجَد مصاحف علىٰ الوَضْع العثماني، يقال: إنَّها بخط علي رضي الله عنه وفي ذلك نظر، فإنَّه في بعضها: «كتبه علي بن أبو طالب»، وهذا لَحْنٌ مِن الكلام؛ وعلي رضي الله عنه مِن أبعد النَّاس عَن ذلك، فإنَّه كما هو المشهور عنه هو أوَّل مَن وضع عِلْمَ النَّحو، فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، وأنَّه قَسَّم الكلام إلىٰ: اسم وفعل وحرف، وذكر أشياء أُخَر تَمَّمَها أبو الأسود بعده، ثم أخذه[(٥)] النَّاس عن أبي الأسود فوَسَّعُوه ووَضَّحُوه، وصار علمًا مستقلًّا.

وأمَّا المصاحف العثمانية الأئمَّة فأشهرها اليوم الذي في الشَّام بجامع دمشق عند الرُّكن، شرقي المَقْصُورَة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديمًا بمدينة طَبَرِيَّة ثم نقل منها إلىٰ دمشق في حدود ثمان عشرة وخمسمائة، وقد رأيته كتابًا عزيزًا جليلًا عظيمًا ضخمًا بخطٍّ حسنٍ مبينٍ قويٍّ بحبرٍ محكم في رَقٍّ أظنُّه مِن جلود الإبل، والله أعلم، زاده الله تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا.

فأما عثمان رضي الله عنه فما يعرف أنَّه كتب بخَطِّه هذه المصاحف، وإنَّما كتبها زيد بن ثابت في أيَّامه، رُبَّما وغيره، فنُسِبَت إلىٰ عثمان؛ لأنَّها بأمره وإشارته، ثم قرئت علىٰ الصَّحابة بَيْنَ يَدَيْ عثمان، ثم نفذت إلىٰ الآفاق رضي الله عنهم، وقد قال أبو بكر بن أبي داود: حدَّثنا علي بن حرب الطائي، حدَّثنا قريش[(٦)] بن أنس، حدَّثنا سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مولىٰ بني[(٧)] أسيد، قال: لمَّا دخل المصريون علىٰ عثمان ضربوه بالسَّيف علىٰ يَدِهِ فوقعت علىٰ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فمَدَّ يده وقال: والله إنَّها لأوَّل يدٍ خَطَّت المُفَصَّل[(٨)].

---

(١) بالمعنىٰ الأعم للانقطاع.

(٢) يقصد ابن أبي داود بذلك أن لفظ: «في مصحف» انفرد بها أشعث، وأما بقيَّة الرواة فرووه: «حتىٰ أجمع القرآن»؛ يعني: يتم حفظه، وأمَّا ذكر «المصحف» فشاذ، قلت: أيًّا كان فيكفي في ذلك أنَّ الخبر منقطع كما تقدم.

(٣) في (ح): «ابن الحرث»، والمثبت عن (حوين).

(٤) في (ح): «رواه غيره».

(٥) لوحة (١٦ ب/ح).

(٦) في (ح): «يونس بن أنس»، وهو خطأ.

(٧) في (ح): «مولىٰ أبي أسد»، والمثبت موافق لما في «المصاحف».

(٨) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (١/ ٢٢)، ورواه الطبري (٤/ ٣٨٣)، والطبراني في «الكبير» (١/ ١١٩)، وهو عند ابن حبان مطولًا (٦٩١٩)، ورجاله ثقات عدا أبا سعيد مولىٰ بني أسيد لم يُوَثِّقه غير ابن حبان، ولم يروِ عنه غير أبي نضرة فهو مجهول، والحديث حسَّنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٩٤) ولعله اكتفىٰ بتوثيق ابن حبان.

وقال أيضا: حدَّثنا أبو طاهر، حدَّثنا ابن وهب قال: سألت مالكًا عن مصحف عثمان، فقال لي: ذَهَب[١].

يحتمل أنَّه سأله عن المصحف الذي كتبه بيده، ويحتمل أن يكون سأله عن المصحف الَّذي تركه في المدينة، والله أعلم.

قلت: وقد كانت الكتابة في العرب قليلة جدًّا، وإنَّما أوَّل ما تعَلَّمُوا ذلك كما ذكره هشام بن محمَّد بن السَّائب الكلبي وغيره: أنَّ بِشْرَ بن عبد الملك أخا أُكَيْدِر دومة تعلَّم الخَطَّ مِن الأنبار، ثم قدم مكة فتَزَوَّج الصهباء بنت حرب [بن أمية][٢] أخت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية فعلمه حربَ بن أمية وابنَه سفيان، وتعلمه عمر بن الخطاب مِن حرب بن أمية، وتعلَّمَه معاوية مِن عَمِّه سفيان بن حرب، وقيل: إنَّ أوَّل مَن تعلَّمَه مِن الأنبار قوم من طيء مِن قرية هناك يقال لها: بقة، ثم هَذَّبُوه ونشروه في جزيرة العرب فتَعَلَّمه النَّاس.

ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد الزهري، حدَّثنا سفيان، عن مجاهد، عن الشعبي قال: سألنا المهاجرين مِن أين تعلَّمْتُمُ الكتابة؟ قالوا: مِن أهل الحيرة. وسألنا أهل الحيرة: مِن أين تعلَّمْتُمُ الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار[٣].

قلتُ: والَّذي كان يغلب علىٰ زمان السَّلف الكتابة المنكوفة، ثمَّ هَذَّبَهَا أبو علي بن مقلة الوزير، وصار له في ذلك منهج وأسلوب في الكِتَابة، ثم قربها علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب، وسلك الناس وراءه. وطريقته في ذلك واضحة جَيِّدة.

والغرض أنَّ الكتابة لما كانت في ذلك الزَّمان لم تُحْكَم جيدًا، وقع في كتابة المَصَاحِف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنىٰ، وصَنَّف النَّاس في ذلك، واعتنىٰ بذلك الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه «**فضائل القرآن**»، والحافظ أبو بكر بن أبي داود رَحِمَهُ اللَّهُ، فبوبا علىٰ ذلك، وذكرا قطعةً صالحةً هي مِن صناعة القرآن، ليست مقصدنا هاهنا؛ ولهذا نص الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، علىٰ أنه لا توضع المصاحف إلا علىٰ وضع كتابة الإمام، ورَخَّص في ذلك غيره، واختلفوا في الشَّكل والنقط فمن مرخص ومن مانع.

فأمَّا كتابة السُّور وآياتها والتَّعشير والأجزاء والأحزاب فكثر في مصاحف زماننا، والأولىٰ اتِّباع السلف الصالح.

- ثم قال البخاري:

ذكر كُتَّاب النَّبيِّ ﷺ

وأورد فيه من حديث الزهري، عن ابن السباق، عن زيد بن ثابت، أن أبا بكر الصديق قال له: وكنتَ تكتب الوحي لرسولِ الله ﷺ وذكر نحو ما تَقَدَّم في جمعه للقرآن[٤]، وقد تَقَدَّم.

---

(١) «المصاحف». (٢) ليست في (ح). (٣) «المصاحف» (ص ٤). (٤) البخاري (٤٩٨٩).

وأورد حديث زيد بن ثابت في نزول: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾(١) [النساء: ٩٥] وسيأتي الكلام عليه في سورة النِّساء إن شاء الله تعالىٰ، ولم يذكر البخاري أحدًا من الكتَّاب في هذا الباب سوىٰ زيد بن ثابت، وهذا عجب، وكأنَّه لَم يَقعْ له حديث يُورِدُه سوىٰ هذا، والله أعلم.

وموضع هذا في كتاب السيرة عند ذكر كتَّابه ﷺ.

- ثم قال البخاري رحمه الله:

أُنْزِل القرآن على سبعةِ أَحْرُف

حدَّثنا سعيد بن عفير، حدَّثنا الليث، حدَّثني عقيل، عن ابن شهاب قال: حدَّثني عبيدالله بن عبد الله؛ أنَّ عبد الله بن عبَّاس حَدَّثَه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»(٢).

وقد رواه -أيضًا- في بدء الخلق، ومسلم(٣) من حديث يونس، ومسلم -أيضًا- عن معمر، كلاهما عن الزهري بنحوه، ورواه ابن جرير من حديث الزهري به، ثمَّ قال الزُّهري: بلغني أنَّ تلك السَّبعة الأحرف إنَّما هي في الأمر الَّذي يكون واحدًا لا تختلف في حلالٍ ولا في حرام(٤).

وهذا مبسوط في الحديث الذي رواه الإمام أبو [عبيد](٥) القاسم بن سلام حيث قال: حدَّثنا يزيد ويحيىٰ بن سعيد كلاهما، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن أُبيِّ بن كعب قال: ما حاك في صدري شيء منذ أسلمت، إلا أنني قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتي فقلت: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فأتينا رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقرأتني آية كذا وكذا؟ قال: «**نَعَمْ**»، وقال الآخر: أليس تقرئني آية كذا وكذا؟ قال: «**نَعَمْ**». فقال: «**إِنَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ أَتَيَانِي فَقَعَدَ جِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِي وَمِيكَائِيلُ عَنْ يَسَارِي، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اقْرَإِ الْقُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَقَالَ مِيكَائِيلُ: اسْتَزِدْهُ، حَتَّىٰ بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ، وَكُلُّ حَرْفٍ كَافٍ شَافٍ**»(٦).

وقد رواه النَّسائي من حديث يزيد -وهو ابن هارون- ويحيىٰ بن سعيد القطان كلاهما، عن حميد الطويل، عن أنس، عن أُبيِّ بن كعب بنحوه(٧).

وكذا رواه ابن أبي عدي ومحمَّد بن ميمون الزعفراني ويحيىٰ بن أيوب، كلهم عن حميد به(٨).

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن مرزوق، حدَّثنا أبو الوليد، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن

---

(١) البخاري (٤٩٩٠). (٢) البخاري (٤٩٩١). (٣) لوحة (١٧ ب/ هـ).
(٤) البخاري (٣٢١٩)، ومسلم (٨١٩)، والطبري (١/ ٢٩). (٥) سقط من (ح).
(٦) «فضائل القرآن» (ص ٣٣٦)، وسنده صحيح، وانظر ما بعده.
(٧) النسائي في «الكبرىٰ» (٧٩٨٦)، وإسناده صحيح.
(٨) رواه الطبري (١/ ٣٣)، وعبد الله بن أحمد (٥/ ١٢٢).

أنس، عن عبادة بن الصامت، عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أُنزِلَ القُرْآنُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ» فأدخل بينهما عبادة بن الصامت[1].

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، حدَّثني عبد الله ابن عيسىٰ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أبيّ بن كعب، قال: كنت في المسجد فدخل رجل فقرأ قراءةً أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءةً سوىٰ قراءة صاحبه، فقمنا جميعًا، فدخلنا علىٰ رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنَّ هذا قرأ قراءةً أنكرتها عليه، ثم دخل الآخر هذا فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه، فقال لهما النبيُّ ﷺ: «اقْرَآ»، فقرآ، فقال: «أَصَبْتُمَا». فلما قال لهما النَّبيُّ ﷺ الَّذي قال[2] كَبُر عليَّ ولا إذ كنت في الجاهليَّة، فلما رأىٰ الذي غَشِيَنِي ضرب في صَدْرِي ففضت عرقًا، وكأنَّما أنظر إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ فرقًا[3] فقال: «يَا أُبَيُّ، إِنَّ رَبِّي أَرْسَلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَإِ القُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَىٰ أُمَّتِي، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأْهُ عَلَىٰ حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَىٰ أُمَّتِي، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأْهُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، وَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ[4] مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا». قال: «قُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ فِيهِ الخَلْقُ حَتَّىٰ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام». وهكذا رواه مسلم من حديث إسماعيل بن أبي خالد به[5].

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا محمَّد بن فضيل، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن عيسىٰ بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أبيه، عن جده، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ القُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَقُلْتُ: خَفِّفْ عَنْ[6] أُمَّتِي، قَالَ: اقْرَأْهُ عَلَىٰ حَرْفَيْنِ، فَقُلْتُ: [اللَّهُمَّ رَبِّ][7] خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي، فَأَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَهُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ مِنْ سَبْعَةِ أَبْوَابِ الجَنَّةِ كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ»[8].

وقال ابن جرير: حدَّثنا يونس، عن ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن عبيد الله بن عمر، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أبيّ بن كعب أنه قال: سمعت رجلًا يقرأ في سورة النَّحل قراءة تخالف قراءتي، ثم سمعت آخر يقرؤها بخلاف ذلك، فانطلقت بهما إلىٰ رسول الله ﷺ فقلت: إنِّي سَمِعْت هذين يقرآن في سورة النحل فسألتهما: مَن أقرأهما؟ فقالا: رسول الله ﷺ، فقلت: لأذْهَبَنَّ بكما إلىٰ رسول الله ﷺ إذ خالفتما ما أقرأني رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأحدهما: «اقْرَأْ». فقرأ، فقال: «أَحْسَنْتَ» ثم قال للآخر: «اقْرَأْ». فقرأ، فقال: «أَحْسَنْتَ». قال أبيٌّ: فوجدت في نفسي وسوسة الشَّيطان حتىٰ احْمَرَّ

---

(١) الطبري (١/ ٣٤)، وأحمد (٥/ ١١٤).
(٢) لوحة (١٨ أ/ ح).
(٣) في (ح): «وكأنَّما أنظر إلىٰ رسول الله فرقًا»، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٤) في (ح): «زدت».
(٥) رواه أحمد (٥/ ١٢٧)، ومسلم (٨٢٠)، وأبو داود (١٤٧٨)، والنسائي (٢/ ١٥٢).
(٦) في (ح): «علىٰ أمتي»، وفي «الطبري»: «اللَّهُمَّ رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي».
(٧) زيادة من «الطبري».
(٨) الطبري (١/ ٣٧)، وانظر ما قبله.

وجهي، فعرف ذلك رسول الله ﷺ في وجهي، فضرب يَدَهُ في صدري ثم قال: «اللَّهُمَّ أَخْسِئِ[١] الشَّيْطَانَ عَنْهُ، يَا أُبَيُّ، أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ القُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَقُلْتُ: رَبِّ، خَفِّفْ عَنِّي[٢]، ثُمَّ أَتَانِي الثَّانِيَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ القُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ وَاحِدٍ[٣] فَقُلْتُ: رَبِّ، خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي[٤]، ثُمَّ أَتَانِي الثَّالِثَةَ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَانِي الرَّابِعَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ القُرْآنَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، وَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ مَسْأَلَةٌ، فَقُلْتُ: يَارَبِّ، اغْفِرْ لِأُمَّتِي، يَارَبِّ، اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَاخْتَبَأْتُ[٥] الثَّالِثَةَ شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ». إسناده صحيح[٦].

قلتُ: وهذا الشَّكُّ الَّذي حصل لأبيٍّ في تلك السَّاعة هو -والله أعلم- السبب الذي لِأَجْلِهِ قرأ عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وإعلام ودواءٍ لما كان حصل له سورة ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلىٰ آخرها لاشتمالها علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣]، وهذا نظير تلاوته[٧] سورة الفتح حين أنزلت مَرْجِعَهُ ﷺ من الحديبية علىٰ عمر بن الخطاب، وذلِكَ لما كان تقدَّم له من الأسئلة لرسول الله ﷺ ثمَّ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفيها قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن أبي ليلىٰ، عن أبيِّ بن كعب أن رسول الله ﷺ كان عند إضاة[٨] بني غفار، فأتاه جبريل فقال: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ القُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ»، قال: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، فَإِنَّ أُمَّتِي لا تُطِيقُ ذَلِكَ». ثم أتاه الثانية فقال: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ القُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفَيْنِ»، قال: «أَسْأَلُ اللهَ مَعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، فَإِنَّ أُمَّتِي لا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثم جاءه الثالثة قال: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ [أُمَّتَكَ][٩] القُرْآنَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ»، قال: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، [وَإِنَّ أُمَّتِي لا تُطِيقُ ذَلِكَ][١٠]». ثم جاءه الرابعة فقال: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ [أُمَّتَكَ][١١] القُرْآنَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا»[١٢].

وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من رواية شعبة به[١٣].

---

(١) في (ح): «أذهب»، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٢) في (حوين): «خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي»، والمثبت من (ح)، وهو موافق لما في «الطبري».
(٣) كذا في (ح)، وهو موافق لما في «الطبري»، وعند الحويني «حرفين».
(٤) لوحة (١٨ ب/ ح).
(٥) في (ح): «وأخرت»، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٦) الطبري (١/ ٣٧)، وإسناده صحيح.
(٧) في (ح): «تلاوة».
(٨) كذا في (ح)، وهو موافق لما في «الطبري».
(٩) سقط من (ح)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(١٠) سقط من (ح)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(١١) سقط من (ح)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(١٢) رواه الطبري (١/ ٤٠)، ومسلم (٨٢١) وانظر ما بعده.
(١٣) مسلم (٨٢٠)، وأبو داود (١٤٧٧) (١٤٧٨)، والنسائي (٢/ ١٥٢).

وفي لفظٍ لأبي داود عن أبيّ بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا أُبَيُّ، إِنِّي أُقْرِئْتُ الْقُرْآنَ فَقِيلَ لِي: عَلَىٰ حَرْفٍ أَوْ حَرْفَيْنِ؟ فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِي مَعِيَ: قُلْ عَلَىٰ حَرْفَيْنِ. [قُلْتُ: عَلَىٰ حَرْفَيْنِ.][1] فَقِيلَ لِي: عَلَىٰ حَرْفَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ؟ فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِي مَعِيَ: قُلْ عَلَىٰ ثَلَاثَةٍ. [قُلْتُ: عَلَىٰ ثَلَاثَةٍ.][2] حَتَّىٰ بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ ثُمَّ قَالَ: لَيْسَ مِنْهَا حَرْفٌ إِلَّا شَافٍ كَافٍ [إِنْ][3] قُلْتَ: سَمِيعًا عَلِيمًا، عَزِيزًا حَكِيمًا، مَا لَمْ تَخْلِطْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ»[4][5].

وقد روىٰ ثابت بن قاسم نحوًا من هذا عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ[6]، ومَن كلام ابن مسعود رضي الله عنه نحو ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسين بن علي الجعفي، عن زائدة، عن عاصم، عن زر، عن أُبيٍّ قال: لَقِيَ رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «إِنِّي بُعِثْتُ إِلَىٰ أُمَّةٍ أُمِّيِّينَ فِيهِمُ[7] الشَّيْخُ الْعَاصِي[8]، وَالْعَجُوزُ الْكَبِيرَةُ، وَالْغُلَامُ، فَقَالَ: مُرْهُمْ فَلْيَقْرَءُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[9]. وأخرجه التِّرمذي من حديث عاصم بن أبي النَّجُود، عن زرٍّ، عن [أبيِّ بن كعب][10] به، وقال: حسن صحيح[11].

وقد رواه أبو عبيد عن أبي النضر، عن شيبان، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر، عن حذيفة؛ أنَّ رسول الله ﷺ لَقِيَ جبريل عند أحجار المراء، فذكر الحديث[12]، والله أعلم.

وهكذا رواه الإمام أحمد عن [عفان، عن حماد،][13] عن عاصم، عن زر، عن حذيفة رضي الله عنه؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَقِيتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ أَحْجَارِ الْمِرَاءِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُرْسِلْتُ إِلَىٰ أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ؛ الرَّجُلِ، وَالْمَرْأَةِ، وَالْغُلَامِ، وَالْجَارِيَةِ، وَالشَّيْخِ الْفَانِي[14]، الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا قَطُّ فَقَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[15].

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا وَكِيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن رِبْعي بن حِراش: حدَّثني من لم يكذبني -يعني حذيفة- قال: لقي النَّبيُّ ﷺ جبريلَ عند أحجار المراء[16] فقال:

---

(١) سقط من (ح)، وهي مثبتة عند أبي داود. (٢) سقط من (ح)، وهي مثبتة عند أبي داود.
(٣) سقط من (ح)، وهي مثبتة عند أبي داود. (٤) لوحة (١٩ أ/ ح). (٥) سيأتي تخريجه.
(٦) إسناده حسن: رواه أحمد (٢/ ٢٣٢) (٢/ ٤٤٠)، وابن حبان (٧٤٣)، وقد انقلب اسم الراوي علىٰ ابن كثير فقال: ثابت بن قاسم، وإنما هو قاسم بن ثابت.
(٧) في (ح): «منهم». (٨) في (ح): «الفاني»، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٩) إسناده حسن: رواه أحمد (٥/ ١٣٢) . عاصم هو ابن أبي النجود: صدوق له أوهام.
(١٠) في (ح): «ابن مسعود»، والمثبت هو الصواب. (١١) رواه الترمذي (٢٩٤٤).
(١٢) «فضائل القرآن» (ص ٣٣٨). (١٣) في (ح): «حماد عن عفان»، وهو خطأ.
(١٤) في (ح): «الفاني» والمثبت موافق لما في «المسند».
(١٥) رواه أحمد (٥/ ٣٩١، ٤٠٠، ٤٠٥)، وإسناده حسن كسابقه.
(١٦) في (حوين): «المرا»، والمثبت موافق لما في «المسند».

«إِنَّ أُمَّتَكَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَمَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ عَلَىٰ حَرْفٍ فَلْيَقْرَأْ كَمَا عَلِمَ، وَلَا يَرْجِعْ عَنْهُ».
وقال عبد الرحمن: «إِنَّ فِي أُمَّتِكَ الضَّعِيفُ، فَمَنْ قَرَأَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَلَا يَتَحَوَّلْ مِنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ رَغْبَةً عَنْهُ».
وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه(١).

حديث آخر في معناه عن سليمان بن صرد.

قال ابن جرير: حدَّثنا إسماعيل بن موسىٰ السُّدِّي، حدَّثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد -يرفعه- قال: «أَتَانِي مَلَكَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: اقْرَأْ. قَالَ: عَلَىٰ كَمْ؟ قَالَ: عَلَىٰ حَرْفٍ. قَالَ: زِدْهُ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ». ورواه النسائي في «اليوم والليلة» عن عبد الرحمن بن محمَّد بن سلام، عن إسحاق الأزرق، عن العَوَّام بن حَوْشَب، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد قال: أتىٰ أُبيٌّ بن كعب رسول الله ﷺ برجلين اختلفا في القراءة، فذكر الحديث(٢)(٣).

وهكذا رواه أحمد بن مَنِيع، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب به.

ورواه أبو عبيد عن يزيد بن هارون، عن العوام، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد، عن أُبيٍّ أنَّه أتىٰ النَّبيَّ ﷺ برجلين، فذكره(٤).

وقال ابن جرير: [حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا يحيىٰ بن آدم، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن فلان العبدي -قال ابن جرير:](٥) ذهب عني اسمه- عن سليمان بن صرد، عن أُبيِّ بن كعب قال: رُحْت إلىٰ المسجد، فسمعت رجلًا يقرأ فقلتُ: مَن أَقْرَأَكَ؟ قال: رسول الله ﷺ، فانطلقت به إلىٰ رسول الله ﷺ، فقلت: استقرئ هذا. قال: فقرأ، فقال: «أَحْسَنْتَ». قال: قلت: إنك أقرأتني كذا وكذا! فقال: «وَأَنْتَ قَدْ أَحْسَنْتَ». فقلت: قد أحسنتَ! قد أحسنتَ! قال: فضرب بيده علىٰ صدري ثم قال: «اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْ أُبَيٍّ الشَّكَّ». قال: ففضت عرقًا، وامتلأ جوفي فَرَقًا. قال: ثم قال: «إِنَّ الْمَلَكَيْنِ أَتَيَانِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: اقْرَإِ الْقُرْآنَ [عَلَىٰ حَرْفٍ](٦)، وَقَالَ الْآخَرُ: زِدْهُ. قَالَ: قُلْتُ: زِدْنِي. فَقَالَ: اقْرَأْهُ عَلَىٰ حَرْفَيْنِ، حَتَّىٰ بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ فَقَالَ: اقْرَأْهُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»(٧).

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٨٥، ٤٠١)، وفيه إبراهيم بن المهاجر: ضعيف، لكن توبع كما في الرواية السابقة فالحديث حسن.
(٢) لوحة (١٩ ب/ح).
(٣) رواه الطبري (١/ ٣٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ١٨٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٥٠٦)، وفي الإسناد الأول شريك القاضي، وهو سَيِّئ الحفظ؛ لكنَّه توبع في الإسناد الثاني، تابعه العوام بن حوشب.
(٤) روه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٣٦) وجعله من مسند أبي بن كعب؛ أي: إن يزيد بن هارون خالف إسحاق الأزرق، فالأوَّل جعله من مسند أُبي، والثاني جعله من مسند عبادة، ومحتمل أن يكون الحديث ثابت عنهما. والله أعلم.
(٥) سقط من (ح).
(٦) سقط من (ح)، وهو مثبت من «الطبري».
(٧) الطبري (١/ ٣٢)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١٢٤)، والعبدي هو سقير كما سيأتي في الرواية الآتية: لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الحسيني: مجهول ولكن يشهد للحديث ما تقدم من الروايات.

وقد رواه أبو عبيد عن حجاج، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سقير (١) العبدي، عن سليمان بن صرد، عن أبيٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ بنحو ذلك (٢).

ورواه أبو داود عن أبي الوليد الطَّيَالِسي، عن همام، عن قتادة، عن يحيىٰ بن يَعْمَر، عن سليمان بن صرد، عن أبيّ بن كعب بنحوه (٣).

فهذا الحديث محفوظ من حيث الجملة عن أبي بن كعب، والظاهر أن سليمان بن صرد الخزاعي شاهد علىٰ ذلك، والله أعلم.

حديثٌ آخر عن أبي بكرة: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد (٤)، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ** - عليهما السلام- **فَقَالَ جِبْرِيلُ: اقْرَإِ الْقُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ مِيكَائِيلُ: اسْتَزِدْهُ، فَقَالَ: اقْرَأْ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ، مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ أَوْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ**».

وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كُرَيب (٥)، عن زيد بن الحباب، عن حماد بن سلمة به، وزاد في آخره كقولك: «**هَلُمَّ وَتَعَالَ**» (٦).

حديث آخر عن سمرة: قال الإمام أحمد: حدَّثنا بَهْز وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة، حدَّثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن رسول الله (٧) ﷺ قال: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**». إسناد صحيح، ولم يخرجوه (٨).

حديث آخر عن أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أنس بن عياض، حدَّثني أبو حازم، عن أبي سلمة - لا أعلمه إلا عن أبي هريرة- أن رسول الله ﷺ قال: «**نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، مِرَاءٌ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ** - ثلاث مرات- **فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ**». ورواه النسائي عن قتيبة عن أبي ضمرة أنس بن عياض به (٩).

حديث آخر عن أم أيوب: قال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان، عن عبيد الله -وهو ابن أبي يزيد - عن أبيه، عن أم أيوب -يعني: امرأة أبي أيوب الأنصارية- أن رسول الله ﷺ قال: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ سَبْعَةِ**

---

(١) كذا في (ح)، وهو الصواب، ووقع في نسخة الحويني: «سفير». (٢) أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٣٣٦).
(٣) رواه أبو داود (١٤٧٧). (٤) في (ح): «زيد بن علي»، وهو خطأ.
(٥) في (ح): «عن أبي بن كريب»، والمثبت هو الصواب.
(٦) رواه أحمد (٥/ ٤١)، والطبري (١/ ٤٣)، وفيه علي بن زيد الألهاني: وهو ضعيف.
(٧) لوحة (٢٠ أ/ح).
(٨) صحيح لغيره: رواه بهز في «مسنده» (٢٠٢٢٧)، والطبري في «الكبير» (٧/ ٢٤٩/ ٦٨٥٣) فيه انقطاع بين الحسن وسمرة فلم يثبت سماعه من سمرة إلا حديث العقيقة، والحديث صحيح لشواهده السابقة.
(٩) إسناده صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٠٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٩٣).

أَحْرُفٍ، أَيَّهَا قَرَأْتَ جَزَاكَ». وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة[(١)].

حديث آخر عن أبي جهيم: قال أبو عبيد: حدَّثنا إسماعيل بن جعفر، عن يزيد بن خصيفة، عن مسلم بن سعيد مولىٰ الحضرمي، وقال غيره: عن بسر[(٢)] بن سعيد، عن أبي جهيم الأنصاري؛ أنَّ رجلين اختلفا في آيةٍ من القرآن، كلاهما يزعم أنَّه تلقاها من رسول الله ﷺ، فمشيا جميعًا حتىٰ أتيا رسول الله ﷺ، فذكر أبو جهيم أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ هَذَا القُرْآنَ نَزَلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَا تُمَارُوا، فَإِنَّ مِرَاءً فِيهِ كُفْرٌ**»[(٣)].

هكذا رواه أبو عبيد علىٰ الشَّكِّ، وقد رواه الإمام أحمد علىٰ الصواب، فقال: حدَّثنا أبو سلمة الخزاعي، حدَّثنا سليمان بن بلال، حدَّثني يزيد بن خصيفة، أخبرني بسر بن سعيد، حدَّثني أبو جهيم؛ أن رجلين اختلفا في آية من القرآن فقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ، وقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا النَّبيَّ ﷺ فقال: «**القُرْآنُ يُقْرَأُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَا تُمَارُوا فِي القُرْآنِ، فَإِنَّ مِرَاءً فِي القُرْآنِ كُفْرٌ**». وهذا إسناد صحيح -أيضًا- ولم يخرجوه[(٤)].

ثم قال أبو عبيد: حدَّثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يزيد بن الهاد، عن محمَّد بن إبراهيم، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس -مولىٰ عمرو بن العاص- أن رجلًا قرأ آيةً من القرآن، فقال له عمرو -يعني ابن العاص[(٥)] -: إنَّما هي كذا وكذا، بغير ما قرأ الرجل، فقال الرجل: هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ فخرجا إلىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ أتياه، فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هَذَا القُرْآنَ نَزَلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَأَيُّ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ أَصَبْتُمْ، فَلَا تُمَارُوا فِي القُرْآنِ، فَإِنَّ مِرَاءً فِيهِ كُفْرٌ**»[(٦)].

ورواه الإمام أحمد عن أبي سلمة الخزاعي، عن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس مولىٰ عمرو بن العاص به نحوه، وفيه: «**فَإِنَّ المِرَاءَ فِيهِ كُفْرٌ أَوْ إِنَّهُ الكُفْرُ بِهِ**». وهذا -أيضًا- حديث جيد[(٧)].

حديث آخر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني حيوة بن شريح، عن عقيل بن خالد، عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود،

---

(١) إسناده صحيح: رواه أحمد (٦/ ٤٣٣، ٤٦٢).

(٢) في (ح): «بشر بن سعيد»، والمثبت هو الصواب.

(٣) صححه الألباني: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٣٣٧) وانظر ما بعده.

(٤) إسناده صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٦٩ - ١٧٠)، ولا تعارض بين هذا الإسناد والذي قبله فإن يزيد بن خصيفة يرويه عن بسر بن سعيد مرَّة بواسطة مسلم بن سعيد كما في رواية أبي عبيد السابقة، ويرويه مرَّة عنه بلا واسطة كما في هذه الرواية.

(٥) لوحة (٢٠ ب/ ح).

(٦) صححه الألباني: «فضائل القرآن» (ص ٣٣٧)، ورواه أحمد (٤/ ٢٠٤).

(٧) انظر التعليق السابق.

عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «كَانَ الكِتَابُ الأَوَّلُ نَزَلَ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَعَلَىٰ حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَنَزَلَ القُرْآنُ مِنْ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ وَعَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ: زَاجِرٍ، وَآمِرٍ، وَحَلَالٍ، وَحَرَامٍ، وَمُحْكَمٍ، وَمُتَشَابِهٍ، وَأَمْثَالٍ؛ فَأَحِلُّوا حَلَالَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَافْعَلُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، وَانْتَهُوا عَمَّا نُهِيتُمْ عَنْهُ، وَاعْتَبِرُوا بِأَمْثَالِهِ، وَاعْمَلُوا بِمُحْكَمِهِ، وَآمِنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»(١).

ثم رواه عن أبي كُرَيْب، عن المحاربي، عن ضمرة بن حبيب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن ابن مسعود من كلامه، وهو أشبه(٢). والله أعلم.

فصل

قال أبو عبيد: قد تواترت(٣) هذه الأحاديث كلها على الأحرف السبعة، إلا ما حدَّثني عفان، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «نَزَلَ القُرْآنُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ»(٤).

قال أبو عبيد: ولا نرىٰ المحفوظ إلا السبعة؛ لأنَّها المشهورة، وليس معنىٰ تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ علىٰ سبعة أوجهٍ، وهذا شيء غير موجود، ولكنَّه عندنا أنَّه نزل سبع لغاتٍ متفرِّقة في جميع القرآن مِن لغات العرب، فيكون الحرف [الواحد](٥) منها بلغة قبيلةٍ والثاني بلغةٍ أخرىٰ سوىٰ الأولىٰ، والثالث بلغةٍ أخرىٰ سواهما، كذلك إلىٰ السبعة(٦)، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظًّا فيها من بعضٍ، وذلك بيِّنٌ في أحاديث تترىٰ.

قال: وقد روىٰ الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس قال: نزل القرآنُ علىٰ سبع لغاتٍ، منها خمس بلغة العُجَّز من هوازن(٧).

قال أبو عبيد: والعُجَّز هم: بنو سعد بن بكر، وجشم(٨) بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف، وهم علياء هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء: أفصحُ العرب علياء هوازن وسفلىٰ تميم؛ يعني: بني دارم. ولهذا قال عمر: لا يُمْلِي في مصاحفنا إلَّا غلمان قريش أو ثقيف.

قال ابن جرير: واللُّغتان الأخريان: قريش وخزاعة، رواه قتادة عن ابن عبَّاس، ولكن لم يلقه.

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٦٨)، وإسناده منقطع بين أبي سلمة وابن مسعود.
(٢) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٦٩)، وإسناده منقطع أيضًا بين القاسم وابن مسعود.
(٣) في (ح): «تواردت».
(٤) «فضائل القرآن» (ص ٣٣٩)، وأحمد (٥/ ١٦، ٢٢)، وفي سماع الحسن من سمرة خلاف بين العلماء.
(٥) زيادة من نسخة «الحويني»، وهي ليست في (ح)، ولا في «فضائل القرآن».
(٦) لوحة (٢١أ/ ح).
(٧) موضوع: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٣٤٠)، والكلبي: محمَّد بن السائب: تالفٌ. قال عنه النسائي: متروك الحديث (الضعفاء ت ٥١٤) وقال الكلبي عن نفسه: كل شيء أحدث عن أبي صالح فهو كذب. انظر: «الكامل» (١٦٢٦).
(٨) كذا في (ح)، وفي «الفضائل»، وفي (حوين): «خيثم».

قال أبو عبيد: وحدَّثنا هُشَيْم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عبَّاس؛ أنَّه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر. قال أبو عبيد: يعني: أنَّه كان يستشهد به علىٰ التفسير(١).

حدَّثنا هُشَيْم، عن أبي بشر، عن سعيد أو مجاهد، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]، قال: ما جمع، وأنشد:

قَـدِ اتَّسَـقْنَ(٢) لَـوْ يَـجِدْنَ سَائِـقًا(٣)

حدَّثنا هُشَيْم، أنبأنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، قال: الأرض، قال: وقال ابن عبَّاس: قال أمية بن أبي الصلت:

عِنْدَهُـمْ لَحْـمُ بَـحْرٍ وَلَـحْـمُ سَـاهِـرَةٍ(٤)

حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، قال: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١]، حتىٰ أتاني أعرابيان يَخْتَصِمَان في بئرٍ، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُهَا. يقول: أنا ابتدأتها. إسناد جيد أيضًا(٥).

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله بعد ما أورد طرفًا ممَّا تقدَّم: وصَحَّ وثَبَتَ أنَّ الَّذِي نزل به القرآن مِن ألسن العرب البعض منها دون الجميع إذ كان معلومًا أنَّ ألسنتها ولغاتها أكثر من سبع بما يعجز عن إحصائه.

ثم قال: وما برهانك علىٰ ما قلته دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك، من أنَّه نزل بأمرٍ وزجرٍ، وترغيبٍ وترهيبٍ، وقصصٍ ومثلٍ، ونحو ذلك من الأقوال، فقد علمت قائل ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمَّة؟ قيل له: إنَّ الذين قالوا ذلك لم يدَّعوا أنَّ تأويل الأخبار التي تقدَّم ذكرها هو ما زعمت أنَّهم قالوه في الأحرف السَّبعة، التي نزل بها القرآن دون غيره فيكون ذلك لقولنا مخالفًا، وإنَّما أخبروا أنَّ القرآن نزل علىٰ سبعة أحرف، يعنون بذلك أنه(٦) نزل علىٰ سبعة أوجه، والذي قالوا مِن ذلك كما قالوا، وقد روينا بمثل الذي قالوا من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة، من أنَّه نزل من سبعة أبواب الجنَّة، كما تقدم. يعني كما تقدم في رواية عن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: أنَّ القرآن نزل من سبعة أبواب الجنَّة.

---

(١) حسن صحيح: «فضائل القرآن» (ص ٣٤٣) وإسناده حسن، ويشهد له الروايات الآتية.
(٢) في (ح): «قد استقن لو يجدن واسقا».
(٣) إسناده صحيح: «فضائل القرآن» (ص ٣٤٣) ، والطبري (٣٠/ ٧٦).
(٤) إسناده صحيح: «فضائل القرآن» (ص ٣٤٤).
(٥) «فضائل القرآن» (ص ٣٤٥)، وإبراهيم بن مهاجر: فيه ضعف كما تقدم، وبقية رجاله ثقات.
(٦) لوحة (٢١ ب/ ح).

قال ابن جرير: والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها من الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والقصص والمثل، التي إذا عمل بها العامل وانتهىٰ إلىٰ حدودها المنتهي، استوجب بها الجنَّة.

ثم بسط القول في هذا بما حاصله: أنَّ الشَّارع رَخَّص للأُمَّة التِّلاوة علىٰ سبعة أحرف، ثمَّ لمَّا رأىٰ الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه اختلاف النَّاس في القراءة، وخاف مِن تَفَرُّق كلمتهم جَمَعَهُم علىٰ حرفٍ واحد، وهو هذا المصحف الإمام، قال: واستوثقت له الأمة علىٰ ذلك بالطَّاعة، ورأت أنَّ فيما فعله مِن ذلك الرشد والهداية، وتركت القراءة بالأحرف السِّتَّة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له، ونظر منها لأنفسها ولِمَن بعدها مِن سائر أهل مِلَّتِها، حتىٰ درست مِن الأُمَّة معرفتها، وتَعَفَّت آثارها، فلا سبيل اليوم لأحد إلىٰ القراءة بها لدثورها وعفو آثارها. إلىٰ أن قال:

فإن قال مَن ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة اقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها؟

قيل: إنَّ أمره إيَّاهم بذلك لم يكن أمر إيجابٍ وفرضٍ، وإنَّما كان أمر إباحةٍ ورخصةٍ؛ لأنَّ القراءة بها لو كانت فرضًا عليهم لوجب أن يكون العِلْمُ بكلِّ حرفٍ من تلك الأحرفِ السَّبعة عندَ مَن تقوم بنقله الحُجَّة، ويقطع خبرُه العذرَ، ويزيل الشَّكَّ مِن قراءة الأُمَّة، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدَّليل علىٰ أنَّهم كانوا في القراءة بها مخيَّرين. إلىٰ أن قال: فأما ما كان مِن اختلاف القراءة في رفع حرف ونصبه وجَرِّه وتسكينِ حرف وتحريكه، ونقل حرف إلىٰ آخر مع اتفاق الصورة فمن معنىٰ قول النَّبيِّ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ» بمعزل؛ لأنَّ المراء في مثل هذا ليس بكفر، في قول أحد مِن علماء الأُمَّة، وقد أوجب ﷺ بالمِرَاء في الأحرف السبعة الكفر، كما تقدم.

الحديث الثاني: قال البخاري رحمه الله: حدَّثنا سعيد بن عفير، حدَّثنا الليث، حدَّثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني[1] عروة بن الزبير: أنَّ المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القارئ حدثاه، أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ علىٰ حروف كثيرة لم يقرئنيها رسولُ الله ﷺ، فكِدْتُ أُسَاوِرُه في الصلاة، فتَصَبَّرت حتىٰ سَلَّم فَلَبَبْتُهُ بردائه فقلت: من أقرأك هذه السُّورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها علىٰ غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلىٰ رسول الله ﷺ فقلت: إنِّي سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان علىٰ حروف لم تقرئنيها! فقال رسول الله ﷺ: «أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ»، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ»، ثم قال: «اقْرَأْ يَا عُمَرُ»، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ. إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»[2].

---

(١) لوحة (٢٢ أ/ح). (٢) البخاري (٤٩٩٢)، وانظر ما بعده.

وقد رواه الإمام أحمد والبخاري -أيضًا- ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من طرق عن الزهري، ورواه الإمام أحمد -أيضًا- عن ابن مهدي، عن مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عبد الرحمن بن عبدٍ[١]، عن عمر فذكر الحديث بنحوه[٢].

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا حرب بن ثابت، حدَّثنا إسحاق[٣] بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه، عن جده قال: قرأ رجل عند عمر فغيَّر عليه فقال: قرأتُ علىٰ رسول الله ﷺ فلم يغير عليَّ قال: فاجتمعا عند النَّبيِّ ﷺ، فقرأ الرجل علىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال له: «[قَدْ][٤] أَحْسَنْتَ». قال: فكأَنَّ عمر وجد من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يَا عُمَرُ، إِنَّ القُرْآنَ كُلَّهُ صَوَابٌ، مَا لَمْ يُجْعَلْ عَذَابٌ مَغْفِرَةً أَوْ مَغْفِرَةٌ عَذَابًا»[٥].

وهذا إسناد حسن. وحرب بن ثابت هذا يكنىٰ بأبي ثابت، لا نعرف أحدًا جرحه.

وقد اختلف [العلماء][٦] في معنىٰ هذه السبعة الأحرف وما أُريدَ منها علىٰ أقوال: قال أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي المالكي في «مقدمات تفسيره»: وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة علىٰ خمسة وثلاثين[٧] قولًا ذكرها[٨] أبو حاتم محمَّد بن حبان البستي، ونحن نذكر منها خمسة أقوال.

قلت: ثمَّ سردها القرطبي، وحاصلها ما أنا مورده ملخصًا:

فالأول -وهو قول[٩] أكثر أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وأبو جعفر بن جرير، والطحاوي-: أنَّ المراد سبعة أوجه مِن المعاني المتقاربة بألفاظٍ مختلفةٍ نحو: أَقْبِل وتعَالَ وهَلُمَّ. وقال الطحاوي: وأَبْيَنُ ما ذُكر في ذلك حديثُ أبي بكرة قال: جاء جبريل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: اقرأ علىٰ حرف، فقال ميكائيل: استزده فقال: اقرأ علىٰ حرفين، فقال ميكائيل: استزده، حتىٰ بلغ سبعةَ أحرف، فقال: اقرأ فكلٌّ شافٍ كافٍ، إلا أن تَخلِطَ آيةَ رحمةٍ بآيةِ عذابٍ، أو آيةَ عذابٍ بآيةِ رحمةٍ[١٠]، علىٰ نحو: هَلُمَّ وتَعَال، وأَقْبِل [واذهب][١١]، وأَسْرِع وعَجِّل.

ورُوِيَ عن ورقاء عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، عن أُبيِّ بن كعب: أنَّه كان يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]: «لِلَّذِينَ آمَنُوا أَمْهِلُونَا» «لِلَّذِينَ

---

(١) في (ح): «عبيد»، والمثبت هو الصواب.
(٢) أحمد (١/ ٢٤)، والبخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨)، وأبو داود (١٤٧٥)، والترمذي (٢٩٤٣)، والنسائي (٢/ ١٥٠).
(٣) في (ح): «ابن إسحاق»، وهو خطأ.
(٤) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «المسند».
(٥) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٣٠)، وفيه حرب بن ثابت: لم يوثقه غير ابن حبان.
(٦) ليست في (ح).
(٧) في (ح): «أو ثلاثة»، والمثبت من (حوين).
(٨) في (ح): «ذكره».
(٩) لوحة (٢٢ ب/ح).
(١٠) تقدم تخريجه.
(١١) ليست في (ح).

آمَنُوا أَخِّرُونَا» «لِلَّذِينَ آمَنُوا ارْقُبُونَا»، وكان يقرأ: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]: «مَرُّوا فِيهِ» «سَعَوْا فِيهِ». قال الطحاوي. وغيره: وإنَّما كان ذلك رخصةً أن يقرأ النَّاس [القرآن][1] علىٰ سبع لغات، وذلك لما كان يَتَعَسَّر علىٰ كثير من النَّاس التلاوة علىٰ لغة قريش، وقراءة رسول الله ﷺ لعدم علمهم بالكتابة والضَّبط وإتقان الحِفْظِ.

وقد ادَّعىٰ الطحاوي والقاضي الباقلاني والشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ذلك كان رخصة في أوَّل الأمر، ثم نسخ بزوال العُذْر وتيسير الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة.

قلت: وقال بعضهم: إنَّما كان الذي جمعهم علىٰ قراءة واحدة أميرُ المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أحد الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين المأمور باتِّباعهم، وإنَّما جمعهم عليها لمَّا رأىٰ مِن اختلافهم في القراءة المفضِيَة إلىٰ تفرُّق الأُمَّة وتكفير بعضهم بعضًا، فرَتَّب لهم المصاحف الأئمَّة علىٰ العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريلُ رسولَ الله ﷺ في آخِرِ رمضان من عمره عليه الصلاة والسلام، وعزم عليهم ألا يقرءوا بغيرها، وألَّا يتعاطوا الرُّخصة التي كانت لهم فيها سعة، ولكنَّها أفضت إلىٰ الفرقة والاختلاف، كما ألزم عمر بن الخطاب النَّاس بالطَّلاق الثَّلاثة المجموعة حين تَتَابَعُوا فيها وأكثروا منها، قال: فلو أنَّا أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم. وكان كذلك يُنْهَىٰ عن المتعة في أشهر الحَجِّ؛ لئلَّا ينقطع زيارة البيت في غير أشهر الحج. وقد كان أبو موسىٰ يُفْتِي بالتَّمتُّع، فترك فتياه اتباعًا لأمير المؤمنين وسمعًا وطاعةً للأئمَّة المهديِّين.

القول الثاني: أنَّ القرآن نزل علىٰ سبعة أحرفٍ، وليس المراد أن[2] جميعه يقرأ علىٰ سبعة أحرف، ولكن بعضه علىٰ حرف وبعضه علىٰ حرفٍ آخر. قال الخطابي: وقد يقرأ بعضه بالسَّبع لغات كما في قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، و﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢].

قال القرطبي: ذهب إلىٰ هذا القول أبو عبيد، واختاره ابن عطيَّة. قال أبو عبيد: وبعض اللُّغات أسعدُ به من بعض.

وقال القاضي الباقلاني: ومعنىٰ قول عثمان: إنَّه نزل بلسانِ قريشٍ؛ أي: معظمه، ولم يقم دليل علىٰ أنَّ جميعه بلغة قريش كله، قال الله تعالىٰ: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، ولم يقل: قرشيًّا. قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولًا واحدًا؛ يعني: حجازها ويمنها. وكذلك قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر، قال: لأنَّ [غير][3] لغة قريش موجودة في صحيح القراءات كتحقيق[4] الهمزات، فإنَّ قريشًا لا تهمز.

وقال ابن عطية: قال ابن عبَّاس: ما كنت أدري ما معنىٰ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، حتىٰ سمعت أعرابيًّا يقول لبئرٍ ابتدأ حفرَها: أنا فطرتها.

---

(١) ليست في (ح).
(٢) لوحة (٢٣ أ/ ح).
(٣) ليست في (ح)، وفي (حوين): لغة غير قريش.
(٤) في (ح): «بتحقيق».

القول الثالث: أنَّ لغات القرآن السبع منحصرة في مضر علىٰ اختلاف قبائلها خاصة؛ لقول عثمان: إنَّ القرآن نزل بلغة قريش، وقريش هم بنو النضر بن الحارث علىٰ الصَّحيح من أقوال أهل النَّسب، كما نطق به الحديث في سنن ابن ماجه وغيره.

القول الرابع: -وحكاه الباقلاني عن بعض العلماء- أنَّ وجوه القراءات ترجع إلىٰ سبعة أشياء، منها ما تتغيَّر حركته ولا تتغير صورته ولا معناه مثل: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣] و«يَضِيقَ»، ومنها ما لا تتغيَّر صورته ويختلف معناه مثل: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] و «بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»، وقد يكون الاختلاف في الصورة والمعنىٰ بالحرف مثل: ﴿نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، و«نَنْشُرُهَا»، أو بالكلمة مع بقاء المعنىٰ مثل: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، أو «كَالصُّوفِ المَنْفُوشِ»، أو باختلاف الكلمة واختلاف المعنىٰ مثل: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ و«طَلْعٍ مَنْضُودٍ»، أو بالتَّقدم والتَّأخر مثل: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] أو «سَكْرَةُ الحَقِّ بِالمَوْتِ»، أو بالزِّيادة مثل: «تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً -أُنْثَىٰ-»، «وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ -كَافِرًا وَكَانَ- أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ»، «فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ -لَهُنَّ- غَفُورٌ»[1].

القول الخامس: أنَّ المراد بالأحرف السَّبعة معاني القرآن وهي: أمر، ونهي، ووعد، ووعيد، وقصص، ومجادلة، وأمثالٌ. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأنَّ هذه لا تُسَمَّىٰ حروفًا، وأيضًا فالإجماع أن التَّوسعة لم تقع في تحليل حرام، ولا في تغيير شيءٍ من المعاني، وقد أورد القاضي الباقلَّاني في هذا حديثًا، ثم قال: وليست هذه هي التي[2] أجاز لهم القراءة بها.

فَصْلٌ

قال القرطبي: قال كثير من علمائنا كالدَّاوُدِي وابن أبي صفرة وغيرهما: هذه القِرَاءَات السَّبع التي تنسب لهؤلاء [القرَّاء][3] السبعة ليست هي الأحرف السَّبعة التي اتَّسعت الصَّحابة في القراءة بها، وإنَّما هي راجعة إلىٰ حرفٍ واحدٍ من السَّبعة وهو الَّذي جمع عليه عثمان المصحف. ذكره ابن النَّحاس وغيره.

قال القرطبي: وقد سَوَّغ كلُّ واحد من القرَّاء السبعة قراءةَ الآخر وأجازها، وإنَّما اختار القراءة المنسوبة إليه؛ لأنَّه رآها أحسن وأولىٰ عِنْدَه. قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأمصار علىٰ الاعتماد علىٰ ما صَحَّ عن هؤلاء الأئمَّة فيما رَوَوْه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنَّفات واستمر الإجماع علىٰ الصواب، وحصل ما وعد الله به مِن حفظ الكتاب.

(١) نصر هذا القول ابن الجزري في «الطيبة» وعدل فيه.
(٢) لوحة (٢٣ ب/ح).
(٣) ليست في (ح).

- قال البخاري رحمه الله:

تأليف القرآن

حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ، حدَّثنا هشام بن يوسف: أنَّ ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرني يوسف بن ماهك قال: إنِّي لعند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقيٌّ فقال: أيُّ الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أُمَّ المؤمنين، أَرِيني مصحفك، قالت: لِمَ؟ قال: لَعَلِّي أُؤَلِّف القرآن عليه، فإنَّه يُقرَأ غير مؤلَّف، قالت: وما يضرُّك أيَّهُ قرأتَ قبل؟ إنَّما نزل أول ما نزل منه سورة من المُفَصَّل فيها ذكر الجنَّة والنَّار، حتىٰ إذا ثاب النَّاس إلىٰ الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أوَّل شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تَزْنُوا، لقالوا: لا ندع الزِّنا أبدًا، لقد نزل بمكَّة علىٰ محمَّدٍ ﷺ وإنِّي لجاريةٌ ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنِّساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المُصْحَف فأملت عليه آي السُّور(١).

وهكذا رواه النَّسائي من حديث ابن جريج به.

والمراد من التأليف هاهنا: ترتيب سوره، وهذا العِرَاقي سأل أوَّلًا عن أيِّ الكفن خير؛ أي: أفضل، فأخبرته عائشة رضي الله عنها أنَّ هذا لا ينبغي أن يعتنىٰ(٢) بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الاستعداد، فإنَّ في هذا تكلُّفًا لا طائِلَ تحته، وكانوا في ذلك الزَّمان يَصِفُون أهل العراق بالتَّعنُّت في الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دَمِ البعوض يصيب الثَّوب، فقال عبد الله بن عمر: انظروا أهل العراق، يسألون عن دَمِ البعوضة، وقد قتلوا ابنَ بنتِ رسولِ الله ﷺ!(٣).

ولهذا لم تبالغ معه عائشة رضي الله عنها في الكلام؛ لئلَّا يظن أنَّ ذلك أمر مهم، وإلا فقد روىٰ أحمد وأهل السنن(٤) من حديث سمرة وابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ قال: «**الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ البَيَاضَ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ**» وصححه التِّرمذي من الوجهين(٥).

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: كُفِّن رسولُ الله ﷺ في ثلاثة أثوابٍ بيض سَحُوليَّةٍ، ليس فيها قميص ولا عِمَامة(٦). وهذا مُحَرَّر في باب الكفن من كتاب الجنائز.

ثم سألها عن ترتيب القرآن فانتقل إلىٰ سؤالٍ كبير، وأخبرها أنَّه يقرأ غير مؤلَّف؛ أي: غير مرتب السُّور. وكأنَّ هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلىٰ الآفاق بالمصاحف الأئمَّة المؤلَّفة علىٰ

---

(١) البخاري (٤٩٩٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٩٨٧).
(٢) في (ح): «يفتىٰ».
(٣) رواه البخاري (٣٧٥٣).
(٤) لوحة (٢٤أ/ح).
(٥) حديث سمرة: رواه الترمذي (٢٨١٠)، والنسائي (٨/ ٢٠٥)، وابن ماجة (٣٥٦٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وروواه أحمد (٥/ ١٠).
- وحديث ابن عبَّاس: رواه أبو داود (٣٨٧٨)، والترمذي (٩٩٤)، وابن ماجة (١٤٧٢)، وأحمد (١/ ٢٣١).
(٦) رواه البخاري (١٢٦٤)، ومسلم (٩٤١).

هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم.

ولهذا أخبرته: أنَّك لا يضرك بأي سورةٍ بدأت، وأنَّ أول سورة نزلت فيها ذكر الجنَّة والنَّار، وهذه إن لم تكن «اقْرَأْ» فقد يحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل التي فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد النَّاس إلىٰ التَّصديق أُمِرُوا ونُهُوا بالتَّدْرِيج أوَّلًا فأوَّلًا، وهذا من حكمة الله ورحمته.

ومعنىٰ هذا الكلام: أنَّ هذه السورة أو السور التي فيها ذكر الجنَّة والنَّار ليس البداءة بها في أوائل المصاحف، مع أنَّها من أوَّل ما نزل، وهذه البقرة والنِّساء من أوائل ما في المصحف، وقد نزلت عليه في المدينة وأنا عنده.

فأمَّا ترتيب الآيات في السور فليس في ذلك رخصة، بل هو أمرٌ توقيفيٌّ عن رسول الله ﷺ، كما تقدَّم تقرير ذلك؛ ولهذا لم ترخص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأَمْلَتْ عليه آي السور، والله أعلم.

وقول عائشة: لا يَضُرُّك بأيِّ سورةٍ بدأتَ، يدلُّ علىٰ أنَّه لو قَدَّم بعض السُّور أو أَخَّر، كما دلَّ عليه حديثُ حذيفةَ وابن مسعود، وهو في الصَّحيح أنَّه ﷺ قرأ في قيام اللَّيل بالبقرة ثمَّ النِّساء ثم آل عمران[(١)].

وقد حكىٰ القرطبي عن أبي بكر بن الأنباري في كتاب الرَّدِّ أنَّه قال: فمن أَخَّر سورة مُقَدَّمَةً أو قدَّم أخرىٰ مُؤَخَّرَةً كمن أفسد نظم الآيات وغيَّر الحروف والآيات، وكان مستنده اتِّباع مصحف عثمان رضي الله عنه؛ فإنَّه مرتَّب علىٰ هذا النَّحو المشهور، والظَّاهر أنَّ ترتيب السُّور فيه منه ما هو راجع إلىٰ رأي عثمان، وذلك ظاهر في سؤال ابن عبَّاس له عن ترك البسملة في أوَّل براءة، وذكره الأنفال من الطول، والحديث في الترمذي وغيره بإسناد[(٢)] جيد وقوي[(٣)]. وقد ذكرنا عن عليٍّ أنَّه كان قد عزم علىٰ ترتيب القرآن بحسب نزوله.

ولقد حكىٰ القاضي الباقلاني: أن أول مصحفه كان: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْأَكْرَم» وأوَّل مصحف ابن مسعود: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثم البقرة، ثم النساء علىٰ ترتيبٍ مختلفٍ، وأول مصحف أُبيٍّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم النِّساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم المائدة، ثم كذا علىٰ اختلاف شديد، ثم قال القاضي: ويحتمل أنَّ ترتيب السُّور في المصحف علىٰ ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم، وكذا ذكره مكي في تفسير [سورة][(٤)] «براءة» قال: فأمَّا ترتيب الآيات والبسملة في الأوائل فهو من النَّبيِّ ﷺ.

وقال ابن وهب في «جامعه»: سمعت سليمان بن بلال يقول: سئل ربيعة: لم قدمتَ البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قُدِّمَتَا وأُلِّف القرآن علىٰ علمٍ ممَّن أَلَّفه، وقد أجمعوا[(٥)] علىٰ العلم بذلك، [فهذا مما ينتهىٰ إليه ولا يُسْأَل عنه].[(٦)] قال ابن وهب: وسَمِعْتُ مالكًا

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢). (٢) لوحة (٢٤ ب/ح).

(٣) ضعيف: رواه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٠٧)، والطبري (١/ ١٠٢)، وضعَّفه الشيخ أحمد شاكر، وعلَّته يزيد الفارسي: مجهول، وضعَّفه أيضًا الشيخ الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٤٠).

(٤) ليست في (ح). (٥) في (ح): «اجتمعوا». (٦) في (ح): «فابدأ بما انتهىٰ إليك ولا تسأل عنه».

يقول: إنَّما أُلِّف القرآن علىٰ ما كانوا يسمعونه من النَّبيِّ ﷺ.

قال أبو الحسن بن بطال: إنَّما يجب تأليف سوره في الرَّسم والخطِّ خاصَّة، ولا يعلم أن أحدًا منهم قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصَّلاة وفي قراءة القرآن ودَرْسِهِ، وأنَّه لا يَحِلُّ لأحدٍ أن يقرأ الكهف قبل البقرة، ولا الحَجَّ قبل[1] الكهف، ألا ترىٰ إلىٰ قول عائشة: ولا يضرك أيَّهُ قرأتَ قبل. وقد كان النَّبيُّ ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في الركعة الأخرىٰ بِغَيْرِ السُّورة التي تليها.

قال: وأما مَا رُوِيَ عن ابن مسعود وابن عمر أنَّهما كَرِهَا أن يُقْرَأَ القرآن منكوسًا[2]. وقالا: إنما ذلك منكوس القلب[3]، فإنَّما عَنَيَا بذلك من يقرأ السُّورة منكوسةً فيبتدئ بآخرها إلىٰ أولها، فإنَّ ذلك حرام محظورٌ.

ثم قال البخاري: حدَّثنا آدم، عن شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود يقول في «بني إسرائيل» و«الكهف» و«مريم» و«طه» و«الأنبياء»: إنَّهن من العِتَاقِ الأُوَلِ، وهن من تِلَادِي. انفرد بإخراجه البخاري[4].

والمراد منه ذكر ترتيب هذه السور في مصحف ابن مسعود كالمصاحف العثمانية، وقوله: «مِن العِتَاقِ الأُوَلِ» أي: من قديم ما نزل، وقوله: «وهُنَّ من تِلَادِي» أي: من قديم ما قنيت وحفظت. والتَّالد في لغتهم: قديم المال والمتاع، والطارف: حديثه وجديده[5]، والله أعلم.

وحدَّثنا أبو الوليد، حدَّثنا شعبة، حدَّثنا أبو إسحاق: سَمِعَ البراء بن عازب يقول: تعلمت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قبل أن يقدم النَّبيُّ ﷺ. وهذا مُتَّفَقٌ عليه[6]، وهو قطعة مِن حديث الهجرة، والمراد منه: أن ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ مكيَّة نزلت قبل الهجرة، والله أعلم.

ثم قال: حدَّثنا عبْدَان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد الله: لقد علمت النَّظائر التي كان النَّبيُّ ﷺ يقرأهن اثنين اثنين[7] في [كلِّ][8] ركعة، فقام عبد الله ودخل معه [علقمة][9]، وخرج علقمة فسألناه، فقال: عشرون سورةً مِن أوَّل المفصَّل[10] علىٰ تأليف ابن مسعود، وآخِرُهُنَّ من الحواميم ﴿حمٓ﴾ الدُّخان، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[11].

---

(١) في (ح): «بعد»، وكذلك في (حوين). (٢) في (ح): «مقلوبًا»، والمثبت عن (حوين).

(٣) إسناده صحيح: رواه عبد الرزاق (٧٩٤٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٩٤)، وأبو عبيد (ص ٥٦)، وإسناده صحيح من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٤٩٩٤). (٥) لوحة (٢٥ أ/ ح). (٦) رواه البخاري (٤٩٩٥).

(٧) في (ح): «آيتين آيتين». (٨) ليست في (ح). (٩) ليست في (ح).

(١٠) في (ح): «سورة أولها من المفصل».

(١١) رواه البخاري (٤٩٩٦).

وهذا التَّأليف الذي عن ابن مسعود غريب مخالف لتأليف عثمان ﵁؛ فإن المفصل في مصحف عثمان ﵁ مِن سورة الحجرات إلىٰ آخره، وسورة الدخان لا تدخل فيه بوجه.

والدليل علىٰ ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدَّثنا عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، عن عثمان بن عبد الله بن أوس الثقفي، عن جده أوس بن حذيفة قال: كنت في الوفد الَّذين أتوا النَّبيَّ ﷺ فذكر حديثًا فيه: أنَّ رسول الله ﷺ كان يَسْمُر معهم بعد العِشَاء فمكث عنَّا ليلةً لم يَأْتِنَا، حتَّىٰ طال ذلك علينا بعد العِشَاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنَّا يا رسول الله؟ قال: «**طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبٌ مِنَ القُرْآنِ، فَأَرَدْتُ أَلَّا أَخْرُجَ حَتَّىٰ أَقْضِيَهُ**»[1]. قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تُحَزِّبون القرآن؟

قالوا: نُحَزِّبُه ثلاث سورٍ، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدىٰ عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصَّل مِن ﴿قٓ﴾ حتىٰ يختم.

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلىٰ الطائفي به، وهذا إسناد حسن به[2].

فصل

فأمَّا نَقْطُ المصحف وشَكْلُه، فيقال: إنَّ أوَّل مَن أَمَرَ بِهِ عبد الملك بن مروان، فتَصَدَّىٰ لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصري ويحيىٰ بن يعمر ففعلا ذلك.

ويقال: إنَّ أوَّل مَن نَقَطَ [المصحف][3] أبو الأسود الدُّؤلي، وذكروا أنَّه كان لمحمَّد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيىٰ بن يعمر، والله أعلم.

وأمَّا كتابة الأعشار علىٰ الحواشي فينسب إلىٰ الحَجَّاج أيضًا، وقيل: بل أول مَن فعله المأمون، وحكىٰ أبو عمرو الدَّاني عن ابن مسعود أنَّه كَرِهَ التَّعشير في المُصْحَف، وكان يَحُكُّه، وكره مجاهد ذلك أيضًا.

وقال[4] مالك: لا بأس به بالحِبْرِ، فأمَّا بالألوان المصبغة فلا. وأكره تعداد آي السُّور في أوَّلها في المصاحف الأُمَّهات، فأمَّا ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرىٰ به بأسًا.

وقال قتادة: بدءوا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا.

---

(١) في (ح): «أفضكيه»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٢) إسناده ضعيف: رواه أحمد (٤، ٩، ٣٤٣)، وأبو داود (١٣٩٣)، وابن ماجة (١٣٤٥)، وفيه عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي: صدوق يخطئ ويهم، والحديث ضعفه الألباني، انظر: «ضعيف أبي داود» (٢٩٧)، وقد حسَّنه المصنف، وحسَّنه العراقي أيضًا في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٧٦).

(٣) ليست في (ح).

(٤) لوحة (٢٥ ب/ح).

وقال يحيىٰ بن أبي كثير: أول ما أحدثوا النَّقط [علىٰ الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به][١] [هو نور له، ثم أحدثوا نقطًا][٢] عند آخر الآي، أحدثوا الفواتح والخواتم.

ورأىٰ إبراهيم النخعي فاتحة سورة كذا، فأمر بمَحْوِهَا، وقال: قال ابن مسعود: لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس فيه.

قال أبو عمرو الداني: ثم قد أطبق المسلمون في سائر الآفاق علىٰ جواز ذلك في الأُمَّهات وغيرها.

- ثم قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

باب: كان جبريل يَعْرِض القرآن على النَّبيِّ ﷺ

قال مسروق عن عائشة، عن فاطمة رضي الله عنها أَسَرَّ إليَّ رسولُ الله ﷺ: أنَّ جبريل كان يعارِضُنِي بالقرآن كل سنةٍ، وأنَّه عارضَنِي العام مرَّتَيْن ولا أراه إلا حضر أجلي. هكذا ذكره معلقًا وقد أسنده في موضع آخر[٣].

ثم قال: حدَّثنا يحيىٰ بن قزعة، حدَّثنا إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاس قال: **«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالخَيْرِ، وَأَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّىٰ يَنْسَلِخَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ القُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»**[٤]، وهذا الحديث متَّفق عليه، وقد تقدَّم الكلام عليه في أوَّل الصحيح وما فيه من الحِكَم والفوائد، والله أعلم.

ثم قال: حدَّثنا خالد بن يزيد، حدَّثنا أبو بكر، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: **«كَانَ يُعْرَضُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ القُرْآنُ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعُرِضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي العَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، وَكَانَ يَعْتَكِفُ كُلَّ عَامٍ عَشْرًا فَاعْتَكَفَ عِشْرِينَ فِي العَامِ الَّذِي قُبِضَ»**[٥].

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من غير وجه عن أبي بكر -وهو ابن عياش- عن أبي حصين، واسمه عثمان بن عاصم[٦] به.

والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته علىٰ ما أوحاه إليه عن الله تعالىٰ، لِيَبْقَىٰ ما بَقِيَ، ويذهب ما نسخ توكيدًا، أو استثباتًا وحفظًا؛ ولهذا عرضه في السَّنَةِ الأخيرة من عمره عليه السلام علىٰ جبريل مرَّتين، وعارضه به جبريل كذلك؛ ولهذا فهم عليه السلام اقتراب أجله، وعثمان رضي الله عنه جمع المصحف الإمام

---

(١) ليست في (ح). (٢) زيادة من (حوين).

(٣) البخاري تعليقًا عقب الحديث (٤٩٩٦) في كتاب «فضائل القرآن»، ثم أسنده في كتاب الاستئذان (١١/ ٧٩- فتح).

(٤) البخاري (٤٩٩٧)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٥) البخاري (٤٩٩٨) (٢٠٤٠)، وأبو داود (٢٤٦٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٩٩٢)، وابن ماجة (١٧٦٩).

(٦) انظر التعليق السابق.

علىٰ العَرْضَةِ الأخيرة، وخصَّ بذلك رمضان مِن بين الشُّهور؛ لأنَّ ابتداء الإيحاء كان فيه؛ ولهذا يستحب دراسة القرآن وتكراره فيه، ومن ثم كَثُر اجتهاد الأئمَّة[(١)] فيه -في تلاوة القرآن- كما تقدم ذكرنا لذلك.

القُرَّاءُ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ

حدَّثنا حفص بن عمر، حدَّثنا شعبة، عن عمرو، عن إبراهيم، عن مسروق: ذكر عبدُ الله بن عمرو عبدَ الله بن مسعود، فقال: لا أزال أحبه[(٢)]، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ اللهِ، وَسَالِمٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ** ﭫ»[(٣)].

وقد أخرجه البخاري في «المناقب» في غير موضع، ومسلم والنسائي من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة به.

وأخرجاه والترمذي والنسائي[(٤)] -أيضًا- من حديث الأعمش عن أبي وائلٍ، عن مسروق به.

فهؤلاء الأربعة اثنان من المهاجرين الأوَّلين؛ عبد الله بن مسعود وسالم مولىٰ أبي حذيفة، وقد كان سالم هذا من سادات المسلمين وكان يَؤُمُّ النَّاس قبل مقدم النَّبيِّ ﷺ في المدينة، واثنان من الأنصار معاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، وهما سيدان كبيران رضي الله عنهم أجمعين.

ثم قال: حدَّثنا عمر بن حفص، حدَّثنا أبي، حدَّثنا الأعمش، حدَّثنا شقيق بن سلمة، قال: خَطَبَنَا عبد الله فقال: والله لقد أخذت من فِيِّ رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، والله لقد عَلِمَ أصحاب محمَّد ﷺ أنِّي من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بِخَيْرِهِم. قال شقيق: فجلست في الحِلَقِ أسمع ما يقولون، فما سمعت رادًّا يقول غير ذلك[(٥)].

حدَّثنا محمَّد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنَّا بحِمْص، فقرأ ابن مسعود سورة يوسف، فقال رجل: ما هكذا أنزلت، فقال: قرأت علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**أَحْسَنْتَ**» ووجد منه ريح الخمر، فقال: أتجترئ أن تكذب بكتاب الله وتشرب الخمر؟! فجلده الحد[(٦)].

حدَّثنا عمر بن حفص، حدَّثنا أبي، [حدَّثنا الأعمش][(٧)]، حدَّثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مِنِّي بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه[(٨)].

---

(١) لوحة (٢٦أ/ح).
(٢) في (ح): «بن عمرو وعبد .... أحبهما»، والمثبت هو الصواب كما في «صحيح البخاري».
(٣) رواه البخاري (٤٩٩٩) وانظر ما بعده.
(٤) البخاري (٤٩٩٩) (٣٨٠٦) (٣٨٠٨) (٣٧٥٨)، ومسلم (٢٤٦٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٩٩٦).
(٥) صحيح البخاري (٥٠٠٠).
(٦) رواه البخاري (٥٠٠١).
(٧) ليست في (ح)، والصواب إثباتها.
(٨) رواه البخاري (٥٠٠٢).

وهذا كله حق وصدق، وهو من إخبار الرَّجل بما يعلم مِن نفسه ما قد يجهله غيره، فيجوز ذلك للحاجة، كما قال تعالىٰ إخبارًا عن يوسف لمَّا قال لصاحب مصر: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

ويكفيه مدحًا وثناءً قول رسول الله ﷺ: «اسْتَقْرِئُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ»، فبدأ به.

وقال أبو عبيد: حدَّثنا مصعب بن المقدام، عن سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ[١] الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ حَرْفِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»[٢]. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي معاوية، عن الأعمش به مطولًا وفيه قصة. وأخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي معاوية وصححه الدارقطني[٣]. وقد ذكرته في مسند عمر[٤].

وفي مسند الإمام أحمد -أيضًا- عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ حَرْفِ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»[٥] وابنُ أم عبد هو: عبد الله بن مسعود، وكان يعرف بذلك.

ثم قال البخاري: حدَّثنا حفص بن عمر، حدَّثنا همام، حدَّثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك: مَن جمع القرآن علىٰ عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة، كُلُّهم من الأنصار: أُبيُّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. ورواه مسلم من حديث همام[٦].

ثم قال البخاري: تابعه الفضل، عن حسين بن واقد، عن ثمامة، عن أنس.

حدَّثنا معلىٰ بن أسد، حدَّثنا عبد الله بن المثنىٰ قال: حدَّثني ثابت [البناني][٧] وثمامة، عن أنس بن مالك قال: مات النَّبيُّ ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدَّرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، [وأبو زيد][٨]. قال: ونحن ورثناه[٩].

فهذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآنَ مِن الصَّحابة سوىٰ هؤلاء الأربعة فقط، وليس هذا هكذا، بل الذي لا شك فيه أنَّه جمعه غير واحد من المهاجرين أيضًا، ولعلَّ مراده: لم يجمع القرآن من الأنصار؛ [ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار][١٠] وهم أُبَي بن كعب في الرواية الأولىٰ المُتَّفَق عليها، وفي الثانية من أفراد البخاري: أبو الدَّرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، وكلهم مشهورون إلَّا أبا

(١) لوحة (٢٦ ب/ح).
(٢) إسناده صحيح: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٧٢)، وانظر ما بعده.
(٣) إسناده صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٥، ٢٦)، والترمذي (١٦٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٢٥٦).
(٤) «مسند عمر» للمؤلف (ص ١٧١-١٧٣).
(٥) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٤٤٦)، وفيه جرير بن أيوب: منكر الحديث.
(٦) رواه البخاري (٥٠٠٣)، ومسلم (٢٤٦٥).
(٧) ليست في (ح).
(٨) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «البخاري».
(٩) رواه البخاري (٥٠٠٤).
(١٠) ليست في (ح).

زيد هذا، فإنَّه غير معروف إلا في هذا الحديث، وقد اختلف في اسمه؛ فقال الواقدي: اسمه: قيس بن السكن بن [قيس بن][1] زعورا بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار.

وقال ابن نمير: اسمه سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أُمَيَّة من الأوس.

وقيل: هما اثنان جمعا القرآن، حكاه أبو عمر بن عبد البر. وهذا بعيد، وقول الواقدي أصحُّ؛ لأنَّه خزرجي؛ لأنَّ أنسًا قال: ونحن وَرِثْنَاه، وهم من الخزرج، وفي بعض ألفاظه: وكان أحد عمومتي. وقال قتادة عن أنس: افتخر الحيَّان الأوسُ والخزرجُ، فقالت الأوس: منَّا غسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر، ومنَّا الذي حَمَتْهُ الدَّبْرُ عاصم بن ثابت، ومنَّا الذي اهْتَزَّ العرش لموته سعد بن معاذ، ومنَّا مِن أجيزت شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت، فقالت الخزرج: منَّا أربعة جمعوا القرآن علىٰ عهد رسول الله ﷺ: أبيُّ بن كعب، ومعاذ بن جبل[2]، وزيد بن ثابت، وأبو زيد[3].

فهذا كله يدلُّ علىٰ صحَّة قول الواقدي، وقد شهد أبو زيد هذا بدرًا فيما ذكره غير واحد.

وقال موسىٰ بن عقبة عن الزهري: قُتل أبو زيد قيس بن السكن يوم جسر أبي عبيدة علىٰ رأس خمس عشرة [سنة][4] من الهجرة.

والدَّليل علىٰ أنَّ من المهاجرين من جمع القرآن أن الصديق رضي الله عنه قدَّمه رسول الله ﷺ في زَمَنِهِ إمامًا علىٰ المهاجرين والأنصار، مع أنَّه ﷺ قال: «**يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ**»[5] فلولا أنَّه كان أقرأهم لكتاب الله لَمَا قدَّمه عليهم.

هذا مضمون ما قرَّره الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهذا التَّقرير لا يُدفع ولا شك فيه، وقد جمع الحافظ ابن السمعاني في ذلك جزءًا، وقد بسطت تقرير ذلك في كتاب مسند الشيخين رضي الله عنهما. ومنهم عثمان بن عفان وقد قرأه في ركعة -كما سنذكره- وعلي بن أبي طالب يقال: إنَّه جمعه علىٰ ترتيب ما أنزل، وقد قدَّمنا هذا.

ومنهم عبد الله بن مسعود، وقد تقدَّم عنه أنَّه قال: ما مِن آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ وفِيمَ نزلت؟ ولو عَلِمْتُ أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطي لذهبت إليه.

ومنهم سالم مولىٰ أبي حذيفة، كان من السَّادات النُّجباء والأئمَّة الأتقياء[6]، وقد قتل يوم اليَمَامَةِ شهيدًا.

---

(١) ليست في (ح)، وهي مثبتة في نسخة «الحويني». (٢) لوحة (٢٧ أ/ ح).

(٣) رواه أبو يعلىٰ (٢٩٥٣)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٣٤٨٨) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤١): رجاله رجال الصحيح.

(٤) ليست في (ح)، وهي مثبتة في نسخة «الحويني».

(٥) رواه مسلم (٦٧٢) وقد تقدم.

(٦) كذا في (ح)، في (حوين): «النقباء».

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عبَّاس بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن، وقد تقدَّم عن مجاهد أنَّه قال: قرأتُ القرآن علىٰ ابن عبَّاس مَرَّتَيْن، أَقِفُه عند كل آيةٍ وأسأله عنها. ومنهم عبد الله ابن عمرو، [كما رواه النسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج، عن عبد الله بن أبي مُلَيكة، عن يحيىٰ بن حكيم بن صفوان، عن عبد الله بن عمرو](١) قال: جمعت القرآنَ فقرأت به كلَّ ليلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «اقْرَأْهُ فِي شَهْرٍ». وذكر تمام الحديث(٢).

ثم قال البخاري: حدَّثنا صدقة بن الفضل، حدَّثنا يحيىٰ، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: قال عمر: عليٌّ أقضانا، وأُبيٌّ أقرؤنا، وإنا لَنَدع من لحنِ أُبيٍّ، وأُبيٌّ يقول: أخذته من فِيِّ رسول الله ﷺ، فلا أتركه لشيءٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦](٣).

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الرجل الكبير قد يقول الشيء يَظُنُّه صوابًا وهو خطأ في نفس الأمر؛ ولهذا قال الإمام مالك: ما مِن أحد إلا يؤخذ من قوله ويُرَدُّ إلَّا قول صاحب هذا القَبْرِ؛ أي: فكُلُّه مقبول، صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ذكر البخاريُّ فضلَ فاتحة الكتاب وغيرها، وسنذكر فضل كل سورة عندها ليكون(٤) ذلك أنسب. ثم قال:

نزول السَّكينة والملائكة عند القِراءَة

وقال الليث: حدَّثني يزيد بن الهاد، عن محمَّد بن إبراهيم، عن أسيد بن الحضير قال: بَيْنَما هو يقرأ من اللَّيل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جَالَتِ الفرس، فسَكَتُ فسَكَنَتْ، ثم قرأ فجَالَتِ الفرس فسَكَتُ فسَكَنَتْ، ثم قرأ فجَالَتِ الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيىٰ قريبًا منها، فأشفق أن تُصِيبَه، فلمَّا اجتره(٥) رفع رأسه إلىٰ السَّماء حتىٰ ما يراها، فلمَّا أصبح حدَّث النَّبيَّ ﷺ فقال: «اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيىٰ وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلىٰ السَّماء فإذا مثل الظُّلَّة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتىٰ لا أراها قال: «أَوَ تَدْرِي مَا ذَاكَ؟». قال: لا. قال: «تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لا تَتَوَارَىٰ مِنْهُمْ». قال ابن الهاد:

---

(١) ليست في (ح)، وهي زيادة من (حوين).

(٢) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٦٤)، وابن ماجة (١٣٤٦)، وأحمد (٢/ ١٦٣)، وفي إسناده «يحيىٰ بن حيكم بن صفوان»: مقبول كما في «التقريب».

(٣) رواه البخاري (٥٠٠٥).

(٤) لوحة (٢٧ ب/ ح).

(٥) في (ح): «أخره»، والمثبت موافق لما في «البخاري».

وحدَّثني هذا الحديث عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد الخدري، عن أسيد بن الحضير[١].

هكذا أورد البخاري هذا الحديث معلقًا، وفيه انقطاع في الرواية الأولىٰ، فإن محمَّد بن إبراهيم بن الحارث التيمي المدني تابعيٌّ صغيرٌ [لم يدرك أسيدًا؛ لأنَّه مات سنة عشرين، وصلَّىٰ عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ثم فيه غرابة][٢] مِن حيث إنَّه قال: وقال اللَّيث: حدَّثني يزيد [بن][٣] الهاد، ولم أره بسند متصلٍ عن اللَّيث كذلك، إلا ما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر في «الأطراف» أن يحيىٰ بن عبد الله بن بكير رواه عن الليث كذلك.

وقد رواه الإمام أبو عبيد في «فضائل القرآن» فقال: حدَّثنا عبد الله بن صالح ويحيىٰ بن بُكَيْر، عن الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن محمَّد بن إبراهيم بن الحارث التَّيمِيِّ، عن أسيد بن حضير، فذكر الحديث إلىٰ آخره، ثم قال: قال ابن الهاد: وحدَّثني عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد بن حضير بهذا[٤].

وقد رواه النسائي في «فضائل القرآن»، عن محمَّد بن عبد الله بن[عبد][٥] الحكم عن شعيب بن الليث، وعن علي بن محمَّد بن علي، عن داود بن منصور، كلاهما عن الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن يزيد بن عبد الله -وهو ابن الهاد- عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد به[٦].

ورواه يحيىٰ بن بكير، عن الليث كذلك أيضًا، فجمع بين الإسنادين[٧].

ورواه في «المناقب» عن أحمد بن سعيد الرباطي، عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده، الحديث. ولم يقل[٨]: عن أسيد[٩]، ولكن ظاهره أنَّه عنه، والله أعلم.

وقال أبو عبيد: حدَّثني عبد الله بن صالح، عن اللَّيث، عن ابن شهاب، عن [ابن كعب بن مالك][١٠] عن أسيد بن حضير: أنَّه كان علىٰ ظهر بَيْتِه يقرأ القرآن وهو حسن الصَّوت، ثم ذكر مثل هذا الحديث أو نحوه[١١].

حدَّثنا قبيصة، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أسيد بن

---

(١) البخاري (٥٠١٨)، وفي الإسناد انقطاع كما ذكر ابن كثير، قال الحويني حفظه الله: «وعندي أنَّ البخاري خرَّج هذا الحديث عرضًا لأجل الإسناد الموصول الذي ذكر في آخر الحديث، فالتَّعويل علىٰ الإسناد الموصول كما قال الحافظ وغيره، وقد أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٦٢) من طريق محمَّد بن عمرو، عن محمَّد بن إبراهيم، عن محمَّد بن لبيد أن أسيد بن حضير فساقه».

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ح). (٣) ليست في (ح)، والصواب إثباتها.

(٤) «فضائل القرآن» (ص ٢٠٣) والمقصود أن المصنف يذكر الخلاف في الإسناد.

(٥) ليست في (ح)، والصواب إثباتها. (٦) النسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٧٤). (٧) النسائي في «الكبرىٰ» (٨٢٤٤).

(٨) لوحة (٢٨ أ/ ح). (٩) رواه مسلم (٧٩٦)، وأحمد (٣/ ٨١).

(١٠) في (ح): «أبي بن كعب»، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «فضائل القرآن».

(١١) «فضائل القرآن» (ص ٦٤).

حضير قال: قلت: يا رسول الله، بينما أنا أقرأ البارحة بسورة، فلما انتهيت إلىٰ آخرها سمعت[١] وَجبةً من خلفي، حتىٰ ظننت أن فرسي تطلق، فقال رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ [أَبَا عَتِيكٍ» مرتين، قال: فالْتَفَتُّ إلىٰ أمثال المصابيح ملءَ بين السَّماء والأرض، فقال رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ أَبَا عَتِيكٍ».][٢] فقال: والله ما استطعت أن أمضي فقال: «تِلْكَ المَلَائِكَةُ نَزَلَتْ لِقِرَاءَةِ القُرْآنِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ مَضَيْتَ لَرَأَيْتَ الأَعَاجِيبَ»[٣].

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمع البراء يقول: بينما رجل يقرأ سورة الكهف ليلة إذ رأىٰ دابته تركض، أو قال: فرسه يركض، فنظر فإذا مثل الضبابة أو مثل الغمامة، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «تِلْكَ السَّكِينَةُ نَزَلَتْ لِلْقُرْآنِ، أَوْ تَنَزَّلَتْ عَلَىٰ القُرْآنِ»[٤].

وقد أخرجه صاحبا «الصحيح» من حديث شعبة. والظَّاهر أنَّ هذا هو أسيد بن الحضير ﵁، فهذا ما يتعلَّق بصناعة الإسناد[٥]، وهذا من أغرب تعليقات البخاري ﵀، ثم سياق ظاهر فيما ترجم عليه من نزول السكينة والملائكة عند القراءة.

وقد اتَّفق نحو هذا الذي وقع لأسيد بن الحضير لثابت بن قيس بن شماس، كما قال أبو عبيد: حدَّثنا عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن زيد، أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أنَّ رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح؟ قال: «فَلَعَلَّهُ قَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ» . قال: فسئل[٦] ثابت فقال: قرأت سورة البقرة[٧].

وفي الحديث المشهور الصحيح: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» رواه مسلم عن أبي هريرة[٨].

ولهذا قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وجاء في بعض التفاسير: أن الملائكة تشهده. وقد جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، فَيَعْرُجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ[٩] بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[١٠].

---

(١) في (ح): (سجدة). (٢) مكانها في (ح): «ما عليك». (٣) «فضائل القرآن» (ص ٦٥)، وابن حبان (١٧١٦).
(٤) الطيالسي (٧١٤)، ومسلم (٧٩٥)، والترمذي (٢٨٨٥).
(٥) البخاري (٢٦١٤)، ومسلم (٧٩٥). (٦) في (ح): «فسئلت».
(٧) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٦٥- ٦٦)، وسيأتي عند المصنف في أول سورة البقرة ذكر ما ورد في فضلها، وقال عندها ابن كثير: هذا إسناد جيِّد إلا أنَّ فيها إبهامًا، ثم هو مرسل.
(٨) رواه مسلم (٢٦٩٩). (٩) لوحة (٢٨ ب/ح). (١٠) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

من قال: لم يترك النَّبيُّ ﷺ إلا ما بين الدَّفَّتَيْن

حدَّثنا قتيبة [بن سعيد][(١)]، حدَّثنا سفيان، عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنَّا وشدَّاد بن معقل علىٰ ابن عبَّاس، فقال له شداد بن معقل: أَتَرَكَ[(٢)] النَّبيُّ ﷺ من شيءٍ؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدَّفَّتين. قال: ودخلنا علىٰ محمَّد بن الحنفيَّة فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدَّفَّتين، تفرَّد به البخاري[(٣)].

ومعناه: أنه ﷺ ما ترك مالًا ولا شيئًا يورث عنه، كما قال عمرو بن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمةً ولا شيئًا[(٤)].

وفي حديث أبي الدرداء: «**إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[(٥)].

ولهذا قال ابن عبَّاس: وإنَّما ترك ما بين الدَّفَّتين؛ يعني: القرآنَ، والسُّنَّةُ مُفسِّرةٌ له ومُبيِّنةٌ ومُوضِّحةٌ له، فهي تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، فالأنبياء -عليهم السلام- لم يُخلقوا للدنيا يجمعونها ويُوَرِّثُونها، إنَّما خُلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ**»[(٦)].

وكان أوَّل مَن أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما سُئل عن ميراث النَّبيِّ ﷺ فأخبر عنه بذلك، ووافقه علىٰ نقله عنه ﷺ غير واحد من الصحابة؛ منهم عمر[(٧)] وعثمان وعلي والعبَّاس وطلحة والزبير وعبد الرَّحمن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم، وهذا ابن عبَّاس يقوله أيضًا عنه ﷺ، رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) ليست في (ح).

(٢) في (ح): «ما ترك».

(٣) رواه البخاري (٥٠١٩).

(٤) رواه البخاري (٢٧٣٩) (٤٤٦١) وانظر ما بعده.

(٥) حسن لغيره: رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٣)، وابن ماجة (٢٢٣)، وفي إسناده داود بن جميل، قال ابن حجر: ضعيف، وقال الذهبي: مجهول، وكذلك جهله ابن عبد البر في «جامع بيان العلم»، وقيس بن كثير -ويقال: كثير بن قيس-: ضعيف، ولكن للحديث طرق ذكرها ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» يقوي بها الحديث، ولذا حسَّنه الشيخ حسن أبو الأشبال في تعليقه عليه، وحسنه الشيخ شعيب في تعليقه علىٰ مسند أحمد (٢١٧١٥)، ومن قبلهم حسنه الشيخ الألباني في تعليق الترغيب (٧٠) قال: حسن لغيره.

(٦) رواه البخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٨)، وأبو داود (٩٧٧).

(٧) في (ح): «منهم: أبو بكر وعمر».

فضل القرآن على سائر الكلام

حدَّثنا هُدْبَة بن خالد أبو خالد، حدَّثنا همام، حدَّثنا قتادة، حدَّثنا أنس بن مالك، عن أبي موسى رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلا رِيحَ لَهَا»(١). وهكذا رواه في مواضع أخر مع بقية الجماعة [من طرق](٢) عن قتادة به.

ووَجْهُ مناسبةِ الباب لهذا الحديث: أن طيب الرَّائحة دار مع القرآن وجودًا وعدمًا(٣)، فدَلَّ علىٰ شَرَفِهِ علىٰ ما سواه من الكلام الصَّادر من البرِّ والفاجر.

ثم قال: حدَّثنا مُسَدَّد، حدَّثنا يحيىٰ، عن سفيان، حدَّثني عبد الله بن دينار، قال: سمعت ابن عمر عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلا مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ العَصْرِ وَمَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَىٰ العَصْرِ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَىٰ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ العَصْرِ إِلَىٰ المَغْرِبِ بِقِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ عَطَاءً! قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ [شَيْئًا](٤)؟ قَالُوا: لا. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ شِئْتُ»(٥)، تفرَّد به من هذا الوجه.

ومناسبتُهُ للتَّرجمة: أنَّ هذه الأُمَّة مع قِصَرِ مُدَّتِهَا فضُلَتِ الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفي المسند والسنن عن بَهْزِ بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ»(٦).

وإنَّما فازوا بهذا ببركة الكِتَاب العظيم: القرآن الذي شرَّفه الله تعالىٰ علىٰ كلِّ كتاب أنزله، وجعله مهيمنًا عليه، وناسخًا له، وخاتمًا له؛ لأنَّ كل الكتب المتقدمة نزلت إلىٰ الأرض جملةً واحدةً، وهذا القرآن نزل منجمًا بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبِمَن أنزله عليه، فكل مَرَّة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة، وأعظم الأمم المُتَقَدِّمة هم اليهود والنَّصارىٰ، فاليهود استعملهم الله مِن لَدُن موسىٰ إلىٰ زمان عيسىٰ، والنَّصارىٰ من ثَمَّ إلىٰ أن بُعِثَ محمَّد ﷺ، ثم استعمل أمته إلىٰ قيام السَّاعة، وهو المشبه بآخر النهار، وأعطىٰ الله المتقدمين قيراطًا قيراطًا، وأعطىٰ هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفي ما أعطىٰ أولئك، فقالوا: أي

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٠)، وانظر ما بعده.
(٢) ليست في (ح).
(٣) لوحة (٢٩ أ/ح).
(٤) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «صحيح البخاري».
(٥) البخاري (٥٤٢٧) (٥٠٥٩)، ومسلم (٧٩٧)، وأبو داود (٤٨٢٩) (٤٨٣٠)، والترمذي (٢٨٦٥)، و ابن ماجة (٢٧٦٣).
(٦) حسن: رواه أحمد (٤/ ٤٤٧)، والترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجة (٤٢٨٧).

ربنا، ما لنا أكثر عملًا وأقل أجرًا؟ فقال: هل ظلمتكم [من أجركم][(١)] شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فَضْلِي؛ أي: الزائد على ما أعطيتكم أُوتيهِ من أشاء كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

الوصاة بكتاب الله

حدَّثنا محمَّد بن يوسف، حدَّثنا مالك بن مِغْول، حدَّثنا طلحة بن مُصَرِّف قال: سألت عبد الله بن أبي أوفىٰ: أوصىٰ النَّبيُّ ﷺ؟ قال: لا. فقلت: كيف كتب علىٰ النَّاس[(٢)] الوصية، أمروا بها ولم يُوصِ؟ قال: أوصىٰ بكتاب الله ﷻ[(٣)].

وقد رواه في مواضع أخر مع بقيَّة الجماعة، إلا أبا داود مِن طرق عن مالك بن مغول به[(٤)].

وهذا نظير ما تقدم عن[(٥)] ابن عبَّاس: «ما ترك إلَّا ما بين الدَّفَّتين».

وذلك أنَّ النَّاس كتب عليهم الوَصِيَّة في أموالهم كما قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وأما هو ﷺ فلم يترك شيئًا يورث عنه، وإنَّما ترك ماله صدقة جارية من بعده، فلَمْ يحتج إلىٰ وصية في ذلك ولم يُوصِ إلىٰ خليفة يكون بعده علىٰ التَّنصيص؛ لأنَّ الأمر كان ظاهرًا مِن إشارته وإيمائه إلىٰ الصِّدِّيق؛ ولهذا لما هَمَّ بالوصية إلىٰ أبي بكر ثم عدل عن ذلك فقال: «**يَأْبَىٰ اللهُ وَالمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ**»[(٦)] وكان كذلك، وإنَّما أوصىٰ النَّاس باتِّباع كتاب الله تعالىٰ.

باب مَن لم يتغنَّ بالقرآن

وقول الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

حدَّثنا يحيىٰ بن بكير، حدَّثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِشَيْءٍ، مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّىٰ بِالقُرْآنِ**»، وقال صاحب له: يُرِيدُ: يجهر به، فُرِدَّ من هذا الوجه. ثم رواه عن علي بن عبد الله بن المديني، عن سفيان ابن عيينة، عن الزهري به[(٧)]. قال سفيان: [تفسيره][(٨)] يستغنىٰ به، وقد أخرجه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن[(٩)] عيينة به.

---

(١) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «صحيح البخاري».
(٢) لوحة (٢٩ ب/ح).
(٣) البخاري (٥٠٢٢) وانظر ما بعده.
(٤) البخاري (٢٧٤٠) (٤٤٦٠)، ومسلم (١٦٣٤)، والترمذي (٢١١٩)، والنسائي (٦/ ٢٤٠)، وابن ماجة (٢٦٩٦).
(٥) في (ح): «أنس عن ابن عبَّاس».
(٦) البخاري (٧٢١٧)، ومسلم (٢٣٨٧).
(٧) البخاري (٥٠٢٣) (٥٠٢٤).
(٨) ليست في (ح).
(٩) مسلم (٧٩٢)، والنسائي (٢/ ١٨٠).

ومعناه: أنَّ الله ما استمع لشيءٍ كاستماعه لقراءة نبيٍّ يجهر بقراءته ويُحَسِّنُها، وذلك أنَّه يجتمع في قراءة الأنبياء طيبُ الصَّوت؛ لكمالِ خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك.

وهو ﷻ يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة ﵂: سبحان الله الَّذِي وَسِعَ سمعُه الأصواتِ[1]. ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]، ثم استماعه لقراءة أنبيائِهِ أبلغ كما دلَّ عليه هذا الحديث العظيم، ومنهم مَن فَسَّر الأَذْن هاهنا بالأمر، والأول أولىٰ لقوله: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَتَغَنَّىٰ بِالقُرْآنِ» أي: يجهر به، والأَذْنُ: الاستماع؛ لدلالة السِّياق عليه، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا[2] وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٥] أي: استمعت لربِّها وحُقَّت؛ أي: وحُقَّ لها أن تستمع أمره وتُطِيعه، فالأَذْن هاهنا هو الاستماع؛ ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجه بسندٍ جيِّدٍ عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لَلهُ أَشَدُّ أَذَنًا إِلَىٰ الرَّجُلِ الحَسَنِ الصَّوْتِ بِالقُرْآنِ [يَجْهَرُ بِهِ][3] مِنْ صَاحِبِ القَيْنَةِ إِلَىٰ قَيْنَتِهِ»[4].

وقال سفيان بن عيينة: إنَّ المراد بالتَّغنِّي: يستغني به، [فإن أراد: أنَّه يستغني][5] عن الدُّنيا، وهو الظَّاهر من كلامه الذي تابعه عليه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره، فخلاف الظاهر من مراد الحديث؛ لأنَّه قد فسَّره بعضُ رواته بالجَهْر، وهو تحسين القراءة والتَّحْزين بها.

قال حرملة: سمعت ابن عيينة يقول: معناه: يستغني به، فقال لي الشافعي: ليس هو هكذا، ولو كان هكذا لكان يَتَغَانَىٰ به، وإنَّما هو يتحزَّن ويترنَّم به، ثم قال حرملة: وسَمِعْتُ ابن وهب يقول: يَتَرَنَّم به، وهكذا نقل المزني والربيع عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعلىٰ هذا فتصدير البخاري الباب بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فيه نظرٌ؛ لأنَّ هذه الآية الكريمة ذكرت ردًّا علىٰ الَّذين سألوا آيات تدُلُّ علىٰ صدقه، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [العنكبوت: ٥٠، ٥١]. ومعنىٰ ذلك: أو لم يكفهم آية دالَّة علىٰ صدقك إنزالنا القرآن عليك وأنت رَجُلٌ أُمِّيٌّ ﴿وَمَا

---

(١) البخاري (٧٣٨٥) تعليقًا، ورواه موصولًا: النسائي (٦/ ١٦٨)، وابن ماجة (٨٨١) (٢٠٦٣).

(٢) لوحة (٣٠أ/ ح).

(٣) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «ابن ماجة».

(٤) إسناده ضعيف: رواه ابن ماجة (١٣٤٠)، وفيه ميسرة مولىٰ فضالة: لم يوثِّقه غير ابن حبَّان، وفي سماع إسماعيل منه نظر كما قال ابن حجر، وضعَّفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٢٩٥٢).

(٥) ليست في (ح).

كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أي: وقد جئتَ فيه بخبر الأوَّلين والآخِرينَ، فأين هذا مِن التَّغنِّي بالقرآن وهو تحسين الصوت به أو الاستغناء به عمَّا عداه[١] مِن أمور الدُّنيا، فعلىٰ كل تقديرٍ تصدير البَاب بهذه الآيَةِ الكريمة فيه نظر.

فصل في إيراد أحاديث

في معنى هذا الباب وذكر أحكام التلاوة بالأصوات

قال أبو عبيد: حدَّثنا عبد الله بن صالح، عن قباث بن رزين، عن علي بن رباح اللَّخمي، عن عقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا ونحن في المسجد نتدارس القرآن، فقال: «**تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللهِ وَاقْتَنُوهُ**». قال: وحسبت أنَّه قال: وَتَغَنُّوا بِهِ «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ المَخَاضِ مِنَ العُقُلِ**»[٢].

وحدَّثنا عبد الله بن صالح، عن موسىٰ بن علي، عن أبيه، عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ مثل ذلك إلا أنَّه قال: «**وَاقْتَنُوهُ وَتَغَنُّوا بِهِ**» ولم يَشُكَّ.

وهكذا رواه أحمد والنسائي في «فضائل القرآن»[٣]، من حديث موسىٰ بن علي، عن أبيه به، ومن حديث عبد الله بن المبارك، عن قباث بن رزين، عن علي بن رباح، عن عقبة، وفي بعض ألفاظه: خرج علينا ونحن نقرأ القرآن فسَلَّم علينا، وذكر الحديث[٤]. ففيه دلالة علىٰ السلام علىٰ القارئ.

ثم قال أبو عبيد: حدَّثنا أبو اليمان، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن المهاصر[٥] بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَهْلَ القُرْآنِ، لا تَوَسَّدُوا القُرْآنَ، وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَغَنُّوهُ وَاقْتَنُوهُ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**»، وهذا مرسل[٦].

ثم قال أبو عبيد: قوله: «**تَغَنُّوهُ**»: يعني: اجعلوه غناءكم من الفقر، ولا تَعُدُّوا الإقلال معه فقرًا. وقوله: «**وَاقْتَنُوهُ**»، يقول: اقتنوه كما تقتنون الأموال: اجعلوه مالكم.

وقال أبو عبيد: حدَّثني هشام بن عمار، عن يحيىٰ[٧] بن حمزة، عن الأوزاعي، حدَّثني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن فضالة بن عبيد، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَلهُ أَشَدُّ أَذَنًا إِلَىٰ الرَّجُلِ الحَسَنِ**

---

(١) في (ح): «والاستعانة بما عداه».

(٢) «فضائل القرآن» (ص ٦٩، ٧٠)، ورواه أحمد (٤/ ١٤٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٦١).

(٣) لوحة (٣٠ ب/ ح).

(٤) انظر التعليق السابق.

(٥) في (ح): «المهاجر بن حبيب»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «فضائل القرآن».

(٦) إسناده ضعيف: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٧٠)، والبيهقي في «السنن» (١٨٥٢)، وفي «الشعب» (٢٠٠٨) (٢٠٠٩)، وفيه أبو بكر بن أبي مريم: ضعيف اختلط، وعلَّة أخرىٰ أشار إليها المؤلف وهي الإرسال.

(٧) كذا في (ح)، وهو موافق لما في «الفضائل»، وعند (حوين): «علي بن حمزة».

الصَّوْتِ بِالقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ القَيْنَةِ إِلَىٰ قَيْنَتِهِ»(١).

قال أبو عبيد: هذا الحديث بعضهم يزيد في إسناده يقول: عن إسماعيل بن عبيد الله(٢)، عن مولىٰ فضالة، عن فضالة، وهكذا رواه ابن ماجه، عن راشد بن سعيد بن [أبي](٣) راشد، عن الوليد، عن الأوزاعي، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن ميسرة مولىٰ فضالة، عن فضالة عن النَّبيِّ ﷺ: «للهُ أَشَدُّ أَذَنًا إِلَىٰ الرَّجُلِ الحَسَنِ الصَّوْتِ بِالقُرْآنِ [يَجْهَرُ بِهِ](٤) مِنْ صَاحِبِ القَيْنَةِ إِلَىٰ قَيْنَتِهِ»(٥). قال أبو عبيد: يعني: الاستماع. وقوله في الحديث الآخر: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ» أي: ما استمع.

وقال أبو القاسم البغوي: حدَّثنا محمَّد بن حميد، حدَّثنا سلمة بن الفضل، حدَّثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي مُلَيكة، حدَّثنا القاسم بن محمَّد، حدَّثنا السائب قال: قال لي سعد: يا ابن أخي، هل قرأت القرآن؟ قلت: نعم. قال: غَنِّ به، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غَنُّوا بِالقُرْآنِ، لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُغَنِّ بِالقُرْآنِ، وَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَىٰ البُكَاءِ فَتَبَاكَوْا»(٦).

وقد روىٰ أبو داود من حديث الليث وعمرو بن دينار كلاهما عن عبد الله بن أبي مُلَيكة، عن عبيد الله(٧) ابن أبي نَهِيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ»(٨).

ورواه ابن ماجه من حديث ابن أبي مليكة، عن عبد الرحمن بن السائب، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ(٩): «إِنَّ هَذَا القُرْآنَ نَزَلَ بِحَزَنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، وَتَغَنَّوا بِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»(١٠).

وقال أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا سعيد(١١) بن حسَّان المخزومي، عن ابن أبي مُلَيكة، عن عبد الله ابن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ». قال وكيع: يعني: يستغني به(١٢).

---

(١) إسناده ضعيف: تقدَّم تخريجه في الباب السابق: وهذه الطريق رواها الحاكم (١/ ٥٧٠) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين فرده الذهبي بقوله: «منقطع»، قلت: والرواية الآتية فيها ضعف كما تقدم.

(٢) في (ح): (عبد)، والمثبت هو الصواب.

(٣) ليست في (ح).

(٤) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «سنن ابن ماجة».

(٥) إسناده ضعيف: كما تقدم في الباب السابق، وعلته ميسرة مولىٰ فضالة: لم يوثقه غير ابن حبان.

(٦) ضعيف جدًّا: فيه محمَّد بن حميد ، قال عنه الحافظ في «التقريب»: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه؛ رواه من طريق محمد بن حميد: المخلص في «الفوائد» (١١٢).

(٧) كذا في (ح)، وفي (حوين): (عبد الله)، وهو مختلف في اسمه.

(٨) إسناده صحيح: رواه أبو داود (١٤٦٩) (١٤٧٠).

(٩) لوحة (٣١أ/ ح).

(١٠) رواه ابن ماجة (١٣٣٧)، وفيه أبو رافع إسماعيل بن رافع، قال الحافظ: ضعيف الحفظ (تقريب – ترجمة ٤٤٢).

(١١) في (ح): «سفيان»، وهو خطأ.

(١٢) رواه أحمد (١/ ١٧٢)، وإسناده صحيح.

ورواه أيضًا عن الحجاج وأبي النضر، كلاهما عن الليث بن سعد، وعن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة به(١). وفي هذا الحديث كلام طويل يتعلّق بسَنَدِهِ ليس هذا موضعه(٢)، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدَّثنا عبد الأعلىٰ بن حماد، حدَّثنا عبد الجبار بن الورد، سمعت ابن أبي مُلَيْكة، يقول: قال عبيد الله بن أبي يزيد: مرَّ بنا أبو لُبَابة فاتَّبعناه حتىٰ دخل بيته فدخلنا عليه، فإذَا رجل رَثُّ البيت، رَثُّ الهيئة، فانتسبنا له، فقال: تجارٌ كَسَبَةٌ، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمَّد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع. تفرَّد به أبو داود(٣).

فقد فُهِمَ مِن هذا أنَّ السلف ﷺ إنَّما فهموا من التَّغنِّي بالقرآن: إنَّما هو تحسين الصَّوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمَّة رحمهم الله.

ويدل علىٰ ذلك -أيضًا- ما رواه أبو داود حيث قال: حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا جرير، عن الأعمش، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»(٤).

وأخرجه النَّسائي وابن ماجه من حديث شعبة، عن طلحة وهو ابن مصرف، به(٥).

وأخرجه النَّسائي من طرق أخر عن طلحة، وهذا إسناد جيد(٦).

وقد وثَّق النَّسائي وابن حبان عبد الرحمن بن عوسجة هذا، ونقل الأزدي عن يحيىٰ بن سعيد [القطان أنه قال: سألت عنه بالمدينة، فلم أرهم يحمدونه.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد](٧)، عن شعبة قال: نهاني أيوب أن أحدث بهذا الحديث: [«زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»(٨). قال أبو عبيد: وإنَّما كَرِهَ أَيُّوب فيما نرىٰ، أن يتأوَّل النَّاس بهذا الحديث](٩) الرخصة مِن رسول الله ﷺ في الألحان المبتدعة، فلهذا نهاه أن يحدث به.

قلت: ثم إنَّ شعبة روىٰ الحديث متوكلًا علىٰ الله كما رُوِيَ له، ولو ترك كل حديث يتأوَّله مبطل لترك من السُّنَّة شيءٌ كثير، بل قد تطرقوا إلىٰ تأويل آيات كثيرة من القرآن وحملوها علىٰ غير محاملها الشرعيَّة المرادة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) أحمد (١/ ١٧٥، ١٧٩).
(٢) وانظر: «العلل» للدارقطني (٦٩٩).
(٣) إسناده حسن: رواه أبو داود (١٤٧١).
(٤) إسناده صحيح: رواه أبو داود (١٤٦٨)، وانظر ما بعده.
(٥) إسناده صحيح: رواه النسائي (٢/ ١٧٩-١٨٠)، وابن ماجة (١٣٤٢).
(٦) النسائي (٢/ ١٧٩).
(٧) سقط من (ح).
(٨) «فضائل القرآن» (ص ١٦٧).
(٩) سقط من (ح).

والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتَّخَشُّع به[١]، كما رواه الحافظ الكبير بَقِيُّ ابن مَخْلَد، حيث قال: حدَّثنا أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد الأموي، حدَّثنا طلحة بن يحيىٰ بن طلحة، عن أبي بردة بن[٢] أبي موسىٰ، عن أبيه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ قِرَاءَتَكَ الْبَارِحَةَ». قلت: أما والله لو علمت أنك تستمع قراءتي لحَبَّرتها لك تحبيرًا[٣]. ورواه مسلم من حديث طلحة به وزاد: «لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ». وسيأتي هذا في بابه حيث يذكره البخاري، والغرض أنَّ أبا موسىٰ قال: لو أعلم أنك تستمع لحَبَّرْتُه لك تحبيرًا[٤]، فدلَّ علىٰ جوازِ تعاطي ذلك وتكلُّفِهِ، وقد كان أبو موسىٰ كما قال ﷺ قد أُعْطِيَ صوتًا حسنًا كما سنذكره إن شاء الله، مع خشيةٍ تامَّةٍ ورِقَّة أهل اليمن الموصوفة، فدَلَّ علىٰ أنَّ هذا من الأمور الشرعيَّة.

قال أبو عبيد: حدَّثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: كان عمر إذا رأىٰ أبا موسىٰ قال: ذَكِّرْنَا ربَّنا يا أبا موسىٰ، فيقرأ عنده[٥].

وقال أبو عبيد: [وحدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم][٦]، حدَّثنا سليمان التيمي، أنبئت عنه، حدَّثنا أبو عثمان النهدي قال: كان أبو موسىٰ يُصَلِّي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنجٍ قط، ولا بربطٍ قط، ولا شيئًا قط أحسن مِن صوتِهِ[٧].

وقال ابن ماجه: حدَّثنا العبَّاس بن عثمان الدمشقي، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثني حنظلة بن أبي سفيان، أنه سمع عبد الرحمن بن سابط الجمحي، يحدث عن عائشة ﵂ قالت: أبطأت علىٰ رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: «أَيْنَ كُنْتِ؟». قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أَسْمَع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقُمْتُ معه حتىٰ استمع له، ثم التفت إلي فقال: «هَذَا سَالِمٌ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ، الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَ هَذَا». إسناد جيد[٨].

وفي «الصحيحين» عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطُّور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا -أو قال: قراءةً- منه. وفي بعض ألفاظه: فلما سمعته قرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ

(١) لوحة (٣١ ب/ ح).
(٢) في (ح): «عن أبي موسىٰ»، وهو خطأ.
(٣) رواه مسلم (٦٩٣)، وهو ما أشار إليه المصنف بعده.
(٤) هنا تكررت في (ح) عبارة: «ورواه مسلم...».
(٥) إسناده منقطع: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٦٣)، وفيه انقطاع بين أبي سلمة وعمر.
(٦) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «الفضائل».
(٧) رواه في «فضائل القرآن» (ص ١٦٣)، وقول إسماعيل بن إبراهيم: «أنبئت عنه»- هكذا علىٰ الشك- لكنه ثبت الأثر من طرق أخرىٰ عن سليمان التَّيمي به: رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٨)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٢٩١)، وقال الحافظ في «الفتح» (٩/ ٩٣): سنده صحيح.
(٨) إسناده صحيح: رواه ابن ماجة (١٣٣٨)، ولا يضر كون الوليد بن مسلم : يدلس تدليس تسوية فقد صرح بصيغة الاتصال في جميع طبقات السند.

أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، خلت أن فؤادي قد انصدع [١]. وكان جبير لما سمع هذا بعدُ مشركًا على دين قومه، وإنما قدم في فداء الأسارى بعد بدر، وناهيك بمن تؤثر قراءته في المشرك المصر على الكفر! وكان هذا سبب هدايته، ولهذا كان أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب، كما قال أبو عبيد: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن ليث [٢]، عن طاوس قال: أحسن الناس صوتًا بالقرآن أخشاهم لله [٣].

حدَّثنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه، وعن الحسن بن مسلم، عن طاوس قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ النَّاس أحسن صوتًا بالقرآن؟ فقال: «الَّذِي إِذَا سَمِعْتَهُ رَأَيْتَهُ يَخْشَى اللهَ» [٤].

وقد روي هذا متصلًا من وجه آخر، فقال ابن ماجه: حدَّثنا بشر بن معاذ الضرير، حدَّثنا عبد الله بن جعفر المديني، حدَّثنا إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع [٥]، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللهَ» [٦] ولكن عبد الله ابن جعفر هذا -وهو والد علي بن المديني- وشيخه ضعيفان، والله أعلم.

والغرض أنَّ المطلوب شرعًا إنَّما هو التَّحسين بالصَّوت الباعث على تدبر القُرْآنِ وتَفَهُّمِهِ والخشوع والخضوع والانقياد للطَّاعة، فأمَّا الأصوات بالنَّغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهِيَةِ والقانون الموسيقائي، فالقرآن يُنَزَّه عن هذا ويُجَلُّ ويُعَظَّم أن يُسْلَكَ في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السُّنَّة بالزَّجر عن ذلك، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللهُ:

حدَّثنا نعيم بن حماد، عن بَقِيَّة بن الوليد، عن حصين بن مالك الفزاري: سمعت شيخًا يكنى أبا محمَّد يحدث عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ بِلُحُونِ الْعَرَبِ وَأَصْوَاتِهَا، وَإِيَّاكُمْ وَلُحُونَ أَهْلِ الفِسْقِ وَأَهْلِ الكِتَابَيْنِ، وَسَيَجِيءُ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِي يُرَجِّعُونَ بِالْقُرْآنِ تَرْجِيعَ الْغِنَاءِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ وَالنَّوْحِ، لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، مَفْتُونَةٌ قُلُوبُهُمْ وَقُلُوبُ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ» [٧].

حدَّثنا يزيد، عن شريك، عن أبي اليقظان عثمان بن عمير، عن زاذان أبي عمر، عن عليم قال: كنَّا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ. قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: عابس [٨] الغفاري، فرأى النَّاس

---

(١) البخاري (٧٦٥) (٤٨٥٤)، ومسلم (٤٦٣). (٢) لوحة (٣٢أ/ح).

(٣) «فضائل القرآن» (ص ١٦٥)، وفيه ليث بن أبي سليم، أدخل في حديثه ما ليس منه ولم يتميز فترك.

(٤) مرسل: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٦٥)، ورواه الدارمي (٢/ ٣٣٨)، وإسناده مرسل.

(٥) كذا في (ح)، وهو الصواب، وعند (الحويني): «عن مجمع»، وهو خطأ.

(٦) إسناده ضعيف جدًّا: رواه ابن ماجة (١٣٣٩)، وإسناده ضعيف كما ذكر المصنف، وضعّفه البوصيري في «الزوائد»، والعراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٨٦).

(٧) منكر: رواه أبو عبيد في «فضائل الأعمال» (ص ٨٠)، وفيه بقية بن الوليد يدلس عن الضعفاء تدليس تسوية، وشيخ بقية وشيخه مجهولان، وقال الذهبي: والخبر منكر «الميزان» (١/ ٥٥٣).

(٨) في (ح): «عبَّاس».

يخرجون في الطاعون فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يَفِرُّون من الطَّاعون، فقال: يا طاعون خذني، فقالوا: تتمنىٰ الموت وقد سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ**»؟ فقال: إني أبادر خصالًا سمعتُ رسول الله ﷺ يتخوفهنَّ علىٰ أُمَّتِهِ: «**بَيْعُ الحُكْمِ، وَالِاسْتِخْفَافُ بِالدَّمِ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَقَوْمٌ يَتَّخِذُونَ القُرْآنَ مَزَامِيرَ يُقَدِّمُونَ أَحَدَهُمْ لَيْسَ بِأَفْقَهِهِمْ وَلَا أَفْضَلِهِمْ إِلَّا لِيُغَنِّيَهُمْ بِهِ غِنَاءً**» وذكر خصلتين[(١)] أخريين[(٢)].

وحدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، عن ليث بن أبي سليم، عن عثمان بن عمير، عن زاذان، عن عابس الغفاري، عن النَّبيِّ ﷺ مثل ذلك أو نحوه[(٣)]. وحدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، عن الأعمش، عن رجل، عن أنس بن مالك: أنَّه سمع رجلًا يقرأ القرآن بهذه الألحان التي أحدث النَّاس، فأنكر ذلك ونهىٰ عنه[(٤)].

هذه طرقٌ حسنة في باب الترهيب، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّه محذورٌ كبيرٌ، وهو قراءة القرآن بالألحان التي يُسْلَكُ بها مذاهب الغناء، وقد نصَّ الأئمة -رحمهم الله- علىٰ النَّهي عنه، فأمَّا إن خرج به إلىٰ التَّمطيط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفًا أو ينقص حرفًا، فقد اتَّفق العلماء علىٰ تحريمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا محمَّد بن معمر، حدَّثنا روح، حدَّثنا عبيد الله بن الأخنس، عن ابن أبي مُلَيكة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ**»[(٥)].

ثم قال: وإنَّما ذكرناه؛ لأنهم اختلفوا علىٰ ابن أبي مليكة فيه، فرواه عبد الجبار بن الورد عنه، عن أبي ابن أبي مليكة، عن أبي لبابة، ورواه عمرو بن دينار والليث عنه، عن ابن أبي نَهِيك، عن سعد، ورواه عَسْل بن سفيان عنه، عن عائشة، ورواه نافع بن عمر[(٦)] عنه، عن ابن الزبير[(٧)].

باب اغتباط صاحب القرآن

حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، حدَّثني سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حَسَدَ إِلَّا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الكِتَابَ فَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَيَقُولُ: رَجُلٍ أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**»[(٨)].

---

(١) لوحة (٣٢ ب/ ح).

(٢) إسناده ضعيف (والحديث صحيح): رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٦٦)، وفيه قيس بن عثمان -ويقال: عثمان بن عمير، وهو أبو اليقظان: ضعيف، لكن الحديث له طرق أخرىٰ يقوىٰ بها، وقد جمعها الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٩٧٩) وصحح الحديث.

(٣) إسناده ضعيف: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٦٦)، وانظر ما تقدم: وهذا الإسناد فيه ليث بن سليم: تركت أحاديثه، وعثمان بن عمير: ضعيف كما تقدم.

(٤) ضعيف: رواه في «فضائل القرآن» (ص ١٦٦)، وفيه رجل لم يسم.

(٥) مسند البزار (٢٣٣٤- كشف الأستار)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧٠): رواه البزار، والطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح.

(٦) في (ح): «نافع عن ابن عمر»، وهو خطأ.

(٧) وقد أوردها الحافظ الدارقطني في «العلل» (٦٩٩).

(٨) رواه البخاري (٥٠٢٥).

انفرد به البخاري من هذا الوجه، واتفقا على إخراجه من رواية سفيان عن الزهري[١].

ثم قال البخاري: حدَّثنا علي بن إبراهيم، حدَّثنا روح، حدَّثنا شعبة، عن سليمان: سمعت ذكوان، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الحَقِّ[٢]، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**»[٣].

ومضمون هذين الحديثين: أنَّ صاحب القرآن في غِبطةٍ وهي حسن الحال، فينبغي أن يكون شديد الاغتباط بما هو فيه، ويستحب[٤] تغبيطه بذلك، يقال: غبطه يغبِطه -بكسر الباء- غبطًا: إذا تمنىٰ مثل ما هو فيه من النِّعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم وهو تَمَنِّي زوال نعمة [المحسود][٥] عنه، سواء حصلت لذلك الحاسِد أو لا وهذا مذموم شرعًا مهلكٌ، وهو أوَّل معاصي إبليس حين حسد آدم عليه السلام [على][٦] ما منحه الله تعالىٰ من الكرامة والاحترام والإعظام. والحسد الشَّرعي الممدوح هو تَمَنِّي مثل حال ذلك الذي هو علىٰ حالة سارَّة؛ ولهذا قال عليه السلام: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ**»، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنِّعمة المتعدِّيَة وهي إنفاق المال باللَّيل والنَّهار، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقد روي نحو هذا من وجه آخر، فقال عبد الله ابن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخط يده: كتب إليَّ أبو توبة الربيع بن نافع، فكان في كتابه: حدَّثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسىٰ، عن كثير بن مرة، عن يزيد بن الأخنس، أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَنَافُسَ بَيْنَكُمْ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ أَعْطَاهُ اللهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَيَتَّبِعُ مَا فِيهِ، فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ أَنَّ اللهَ أَعْطَانِي مِثْلَ مَا أَعْطَىٰ فُلَانًا فَأَقُومُ كَمَا يَقُومُ بِهِ، وَرَجُلٍ أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ وَيَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ أَنَّ اللهَ أَعْطَانِي مِثْلَ مَا أَعْطَىٰ فُلَانًا فَأَتَصَدَّقُ بِهِ**»[٧]. وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الله بن نمير، حدَّثنا عبادة بن مسلم، حدَّثني يونس بن خباب، عن سعيد أبي[٨] البختري الطائي، عن أبي كبشة

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٥)، ومسلم (٨١٥).

(٢) في (ح): «الخير».

(٣) رواه البخاري (٥٠٢٦).

(٤) لوحة (٣٣أ/ح).

(٥) ليست في (ح).

(٦) ليست في (ح).

(٧) رواه عبد الله بن أحمد (٤/ ١٠٤)، وإسناده منقطع؛ فإنَّ سليمان بن موسىٰ وهو الأشدق لم يدرك كثير بن مرَّة، وقال الحافظ: صدوق فيه في حديثه بعض لين، وخولط قبل موته بقليل، ذكر ذلك المزي عن أبي مسهر في «تهذيب الكمال».
- والحديث رواه الطبراني (٢٢/ ٦٢٦)، وفي «الأوسط» (٢٢٠٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٦): رجاله ثقات.
- قلت: ويشهد له ما تقدم من رواية ابن مسعود وابن عمر، وهذا الحديث حسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٣٦).

(٨) في (ح): «سعيد البحتري»، والمثبت هو الصواب.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثَلاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُم حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، فَأَمَّا الثَّلاثُ الَّتِي أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: فَإِنَّهُ مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزًّا، وَلا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ لَهُ بَابَ فَقْرٍ، وَأَمَّا الَّذِي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، فَإِنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْمَلُ للهِ فِيهِ حَقَّهُ»، قال: «فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ» قال: «فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلا يَصِلُ [فِيهِ][1] رَحِمَهُ، وَلا يَعْمَلُ للهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ[2]، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَفَعَلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ». قال: «هِيَ نِيَّتُهُ فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ»[3].

وقال أيضًا: حدَّثنا وَكيع، حدَّثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَالِ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ». قال رسول الله ﷺ: «فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٍ لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ مَالًا وَلا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَالِ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ [مِثْلَ][4] الَّذِي يَعْمَلُ» قال رسول الله ﷺ: «فَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ». إسناده صحيح[5].

باب خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه

حدَّثنا حجاج بن مِنْهال، حدَّثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مَرْثَد، سمعت سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان رضي الله عنه حتَّىٰ كان الحجاج، قال: وذلك الَّذي أَقْعَدَنِي مقعدِي هذا[6].

وقد أخرج الجماعة هذا الحديث سوىٰ مسلم من رواية شعبة، عن عَلْقَمة بن مرثد، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن وهو عبد الله بن حبيب السلمي رحمه الله[7].

وحدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان بن

---

(١) ليست في (ح). (٢) لوحة (٣٣ ب/ح).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٣١)، وفيه يونس بن خباب: ضعيف، ورواه الترمذي (٢٣٢٠)، وقال: حسن صحيح، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٦): حسن صحيح، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٠٢٤) وانظر ما بعده.

(٤) ليست في (ح).

(٥) رواه أحمد (٤/ ٢٣٠)، وابن حبان (٤٢٢٨)، وهذا طريق آخر لبعض ألفاظ الحديث السابق وإسناده صحيح.

(٦) البخاري (٥٠٢٧)، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٣٧)، وابن ماجة (٣١١).

(٧) انظر التعليق السابق.

عفان قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(١).

وهكذا رواه التِّرمذي والنسائي وابن ماجه من طرقٍ عن سفيان، عن علقمة، عن أبي عبد الرحمن، من غير ذكر سعد بن عبيدة(٢)، كما رواه شعبة ولم يختلف عليه فيه، وهذا المقام مما حكم لسفيان الثوري فيه على شعبة، وخطأ بُنْدار يحيىٰ بن سعيد في روايته ذلك عن سفيان، عن علقمة، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، وقال: [رواه](٣) الجماعة من أصحاب سفيان عنه، بإسقاط سعد بن عبيدة، ورواية سفيان أصحُّ في هذا المقام المتعلق بصناعةِ الإسناد، وفي ذكره طول لولا الملالة لذَكَرْناه، وفيما ذكر كفاية وإرشاد إلىٰ ما ترك، والله أعلم.

والغرض أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» وهذه من صفات المُؤمِنِين المُتَّبِعين للرُّسل، وهم الكُمَّل في أنفسهم، المُكَمِّلُون لغيرهم، وذلك جمع بين النَّفع القاصر(٤) والمتعدِّي، وهذا بخلاف صفة الكفَّار الجبَّارين الذين لا ينفعون، ولا يتركون أحدًا ممَّن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، في أصحِّ قولي المفسِّرين في هذا، وهو أنَّهم ينهون النَّاس عن اتِّباع القرآن مع نَأْيِهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التَّكذيب والصَّدِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن شِرار الكفَّار، كما أنَّ شأن خيار الأبرار أن يكمل في نفسه وأن يسعىٰ في تكميل غيره، كما قال عليه السلام: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، وكما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فجمع بين الدَّعوة إلىٰ الله -سواء كان بالأذان أو بغَيْرِهِ مِن أنواع الدَّعوة مِن تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، ممَّا يُبتغىٰ به وجه الله- وعمل هو في نفسه صالحًا، وقال قولًا صالحًا، فلا أحد أحسن حالًا من هذا. وقد كان أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي -أحد أئمة الإسلام ومشايخهم- ممَّن رَغَّب في هذا المقام، فقعد يُعَلِّم النَّاس في إمارة عثمان إلىٰ أيام الحجَّاج، قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة رحمه الله، [وآتاه الله](٥) ما طلبه [ورامه](٦). آمين.

قال البخاري رحمه الله: حدَّثنا عمرو بن عون، حدَّثنا حماد عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: أتت النَّبيَّ ﷺ امرأةٌ فقالت: إنَّها قد وهبت نفسها لله ورسوله، فقال: «مَا لِي فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ». فقال رجل: زوِّجنيها قال: «أَعْطِهَا ثَوْبًا»، قال: لا أجد، قال: «أَعْطِهَا وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ»، فاعتلَّ له، فقال «مَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ». قال: كذا وكذا. فقال: «قَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ»(٧)، وهذا الحديث متَّفق علىٰ إخراجه

---

(١) البخاري (٥٠٢٨).

(٢) الترمذي (٢٩٠٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٣٠٣٨)، وابن ماجة (٣١٣).

(٣) ليست في (ح).

(٤) لوحة (٣٤/أ/ح).

(٥) في (ح): «وهنَّأه».

(٦) ليست في (ح).

(٧) البخاري (٥٠٢٩)، ومسلم (١٤٢٥)، وأبو داود (٢١١١)، والترمذي (١١١٤)، والنسائي (٦/ ١٢٣)، وابن ماجة (١٨٨٩).

من طرق عديدة، والغرض منه أنَّ الذي قصده البخاري أنَّ هذا الرَّجُل تعلَّم[١] الَّذِي تعلَّمه من القرآن، وأمره النَّبيُّ ﷺ أن يُعَلِّمه تلك المرأة، ويكون ذلك صداقًا لها علىٰ ذلك، وهذا فيه نزاع بين العلماء، وهل يجوز أن يجعل مثل هذا صداقًا؟ أو هل يجوز أخذ الأُجْرَة علىٰ تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصًّا بذلك الرَّجل؟ وما معنىٰ قوله عليه الصلاة والسلام: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ»؟ أبسبب ما معك من القرآن؟ كما قاله أحمد بن حنبل: نُكْرِمُك بذلك أو بعوض ما معك، وهذا أقوىٰ؛ لقوله في صحيح مسلم: «فَعَلِّمْهَا» وهذا هو الذي أراده البخاري[٢] هاهنا. وتحرير باقي الخلاف مذكور في كتاب النِّكاح والإجارة، والله المستعان.

القراءة عن ظهر قلب

إنَّما أفرد البخاري في هذه الترجمة[٣] حديث أبي حازم عن سهل بن سعد، الحديث الذي تقدَّم الآن، وفيه أنه عليه السلام قال لرجل: «فَمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ؟». قال: معي سورة كذا وسورة كذا، لسور عددها. قال: «أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟». قال: نعم. قال: «اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ».

وهذه الترجمة من البخاري رحمه الله [مشعرة][٤] بأنَّ قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل، والله أعلم. ولكن الذي صرح به كثيرون من العلماء أنَّ قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنَّه يشتمل علىٰ التلاوة والنَّظر في المصحف وهو عبادة، كما صرَّح به غير واحد من السَّلف، وكرهوا أن يمضي علىٰ الرَّجل يوم لا ينظر في مصحفه، واستدلُّوا علىٰ فضيلة التلاوة في المصحف بما رواه الإمام العلم أبو عبيد في كتاب «فضائل القرآن» حيث قال: حدَّثنا نعيم بن حماد، عن بقية بن الوليد، عن معاوية بن يحيىٰ، عن سليمان بن مسلم، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النَّبيِّ ﷺ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «فَضْلُ قِرَاءَةِ القُرْآنِ نَظَرًا عَلَىٰ مَنْ يَقْرَأُهُ ظَهْرًا كَفَضْلِ الفَرِيضَةِ عَلَىٰ النَّافِلَةِ»[٥]، وهذا الإسناد ضعيف؛ فإن معاوية بن يحيىٰ هو الصدفي أو الأطرابلسي، وأيُّهما كان فهو ضعيف.

وقال الثوري، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: أَدِيمُوا النَّظر في المصحف[٦].

وقال حمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عبَّاس، عن عمر: أنَّه كان إذا دخل بيته نَشَرَ المصحف فقرأ فيه[٧].

---

(١) في (ح): «يعلمها».
(٢) لوحة (٣٤ ب/ح).
(٣) في (ح): «الوجه».
(٤) ليست في (ح).
(٥) إسناده ضعيف: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٤)، وفيه سليمان بن مسلم: ضعيف، وبقية بن الوليد: مدلس وقد عنعن.
(٦) إسناده حسن: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٤)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٩٧٩) ورجاله ثقات عدا عاصم بن أبي النجود: صدوق.
(٧) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٥)، وفيه علي بن زيد: ضعيف.

وقال حمَّاد أيضًا: عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن ابن مسعود: أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف، فقرءوا، وفَسَّر لهم. إسناد صحيح[١].

وقال حمَّاد بن سلمة: عن حجاج بن أرطأة، عن ثوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: إذا رجع [أحدكم][٢] من سوقه فلينشر المصحف وليقرأ[٣].

وقال الأعمش، عن خَيْثَمة: دخلت علىٰ ابن عمر وهو يقرأ في المصحف فقال: هذا جُزْئِي الذي أقرأُ به الليلة[٤].

فهذه الآثار تدلُّ علىٰ أن هذا أمر مطلوب؛ لئلَّا يُعَطَّل المصحف فلا يُقْرَأُ مِنْهُ، ولعلَّه قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير، فالاستثبات أولىٰ، والرُّجوع إلىٰ المصحف أثبت مِن أفواه الرِّجال، فأما تلقين القرآن فمِن فَمِ المُلَقِّن أحسن؛ لأن الكتابة لا تدلُّ علىٰ كمال الأداء، كما أنَّ[٥] المشاهد من كثير ممَّن يحفظ مِن الكتابة فقط يكثر تصحيفه وغلطه، وإذا أدَّىٰ الحال إلىٰ هذا منع منه إذا وجد شيخًا يوقفه علىٰ لفظِ القرآن، فأمَّا عند العجز عمَّن يلقن فلا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها، فيجوز عند الضَّرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فإذا قرأ في المصحف -والحالة هذه- فلا حرج عليه، ولو فرض أنَّه قد يُحَرِّف بعض الكلمات عن لفظها علىٰ لغته ولفظه، فقد قال الإمام أبو عبيد: حدَّثني هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمَّد بن شعيب، عن الأوزاعي؛ أنَّ رجلًا صحبهم في سفر قال: فحدَّثنا حديثًا ما أعلمه إلا رفعه إلىٰ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا قَرَأَ فَحَرَّفَ أَوْ أَخْطَأَ كَتَبَهُ المَلَكُ كَمَا أُنْزِلَ**»[٦].

وحدَّثنا حفص بن غياث، عن الشيباني عن بكير بن الأخنس قال: كان يقال: إذا قرأ الأعجمي والذي لا يقيم القرآن كتبه الملك كما أنزل. وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة علىٰ الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة علىٰ ظهر القلب فهُو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضل، فإن استويا فالقراءة نظرًا أولىٰ؛ لأنَّها أثبت وتمتاز بالنَّظر في المصحف، قال الشيخ أبو زكريا النووي في «التبيان»: والظاهر أن كلام السَّلف وفعلهم محمول علىٰ هذا التَّفصيل.

---

(١) أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٥) ورجاله ثقات؛ غير أنَّ الراوي عن حمَّاد هو حجاج وهو ضعيف، لكن له طريق أخرىٰ من رواية الأعمش، عن مسروق، عن ابن مسعود: رواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٥٦٢) ورجاله ثقات، لكن الأعمش لم يسمع من مسروق، وبمجموع الطريقين فالأثر حسن إن شاء الله.

(٢) ليست في (ح).

(٣) إسناده ضعيف: رواه أبو عبيد (ص ١٠٥)، وفيه حجاج بن أرطأة وثوير بن أبي فاختة: كلاهما ضعيف.

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٥)، وإسناده صحيح.

(٥) لوحة (٣٥أ/ح).

(٦) ضعيف: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٦)، وإسناده ضعيف، وعلته: الإعضال.

تنبيه: إن كان البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، أراد بذكره حديث سهل الدَّلالة علىٰ أنَّ تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل منها في المُصْحَف، ففيه نظر؛ لأنها قضية عين، فيحتمل أنَّ ذلك الرجل كان لا يحسن الكتابة ويعلم ذلك رسول الله ﷺ منه، فلا يدل علىٰ أنَّ التلاوة عن ظهر قلب أفضل مطلقًا في حَقِّ مَن يُحْسِن ومن لا يحسن، إذ لو دلَّ [علىٰ][1] هذا لكان ذكر حال رسول الله ﷺ وتلاوته عن ظهر قلب -لأنه أمي لا يدري الكتابة- أولىٰ مِن ذكر هذا الحديث بمفرده.

الثاني: أنَّ سياق الحديث إنَّما هو لأجل استثبات أنَّه يحفظ تلك السُّور عن ظهر قلب؛ لِيُمْكِنه تعليمها لزوجته، وليس المراد هاهنا: أنَّ هذا أفضل من التِّلاوة نظرًا ولا عدمه، والله تَعَالَىٰ أعلم.

باب استذكار القرآن وتعاهده

حدَّثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**» هكذا رواه مسلم والنسائي من حديث مالك به[2].

وقال الإمام[3] أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ القُرْآنِ إِذَا عَاهَدَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ إِبِلٌ، فَإِنْ عَقَلَهَا حَفِظَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَ عِقَالَهَا ذَهَبَتْ، فَكَذَلِكَ صَاحِبُ القُرْآنِ**». أخرجاه[4]، قاله ابن الجوزي في «جامع المسانيد»، وإنما هو من أفراد مسلم من حديث عبد الرزاق به.

وحدَّثنا محمَّد بن عرعرة، حدَّثنا شعبة، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّيَ، فَاسْتَذْكِرُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ**». تابعه بشر -هو ابن محمَّد السختياني- عن ابن المبارك، عن شعبة[5].

وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة به، وقال: حسن صحيح. وأخرجه النسائي من رواية شعبة[6].

وحدَّثنا عثمان، حدَّثنا جرير، عن منصور مثله.

وتابعه[7] ابن جريج عن عبدة[8]، عن شقيق: سمعت عبد الله قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ[9].

---

(١) ليست في (ح).
(٢) البخاري (٥٠٣١)، ومسلم (٧٨٩)، والنسائي (٢/ ١٥٤).
(٣) لوحة (٣٥ ب/ ح).
(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٥)، ومسلم (٧٨٩)، وهو من أفراد مسلم كما ذكر المصنف.
(٥) البخاري (٥٠٣١)، وانظر ما بعد.
(٦) رواه الترمذي (٢٩٤٣).
(٧) هذه الفقرة من هنا إلىٰ قوله: «أبي لبابة به» وقعت عند (حوين) بعد قوله: بالتخفيف.
(٨) في (ح): «عبيدة»، وهو خطأ.
(٩) النسائي (٢/ ١٥٤).

وهكذا أسنده مسلم من حديث جرير[١] به[٢].

ورواه النسائي في «اليوم والليلة» من حديث محمَّد بن جحادة، عن عبدة[٣]، وهو ابن أبي لُبابة به[٤].

وهكذا رواه مسلم عن عثمان وزهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم عن جرير به[٥].

وستأتي رواية البخاري له عن أبي نعيم، عن سفيان الثوري، عن منصور به[٦]، والنسائي من رواية ابن عيينة عن منصور به[٧]، فقد رواه هؤلاء عن منصور به مرفوعًا [في رواية هؤلاء كلهم.

وقد رواه النسائي عن قتيبة، عن حماد بن زيد، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله][٨] موقوفًا[٩][١٠]، وهذا غريب، وفي «مسند أبي يعلىٰ»: «**فَإِنَّمَا هُوَ نُسِيَ**» بالتَّخفيف[١١].

حدَّثنا محمَّد بن العلاء، حدَّثنا أبو أسامة، عن يزيد، عن أبي بردة، عن أبي موسىٰ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**تَعَاهَدُوا القُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**». وهكذا رواه مسلم عن أبي كريب محمَّد بن العلاء وعبد الله بن برادٍ[١٢] الأشعري، كلاهما عن أبي أسامة حماد بن أسامة به[١٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن إسحاق، حدَّثنا عبد الله بن المبارك، حدَّثنا موسىٰ بن علي: سمعت أبي يقول: سمعت عقبة بن عامر يقول: قال رسول الله ﷺ: «**تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللهِ، وَتَعَاهَدُوهُ وَتَغَنَّوا بِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ المَخَاضِ فِي العُقُلِ**»[١٤].

ومضمون هذه الأحاديث الترغيب في كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهده؛ لئلَّا يعرضه حافظه للنِّسيان فإنَّ ذلك خطر كبير، نسأل الله العافية منه، فإنَّه قال الإمام أحمد: حدَّثنا خلف بن الوليد، حدَّثنا خالد، عن يزيد[١٥] بن أبي زياد، عن عيسىٰ بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا وَيُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولًا لا يَفُكُّهُ مِنْ ذَلِكَ الغُلِّ إِلَّا العَدْلُ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ قَرَأَ القُرْآنَ فَنَسِيَهُ إِلَّا لَقِيَ اللهَ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَهُوَ أَجْذَمُ**»[١٦].

---

(١) في (ز): (ابن جريج)، والمثبت موافق لما في «صحيح مسلم».

(٢) مسلم (٧٩٠).

(٣) في (ح): «عبيدة».

(٤) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٥٦٠).

(٥) مسلم (٧٩٠).

(٦) البخاري (٥٠٣٩).

(٧) النسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٤٢).

(٨) ليست في (ح).

(٩) في (ح): «لعله موقوفًا».

(١٠) النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٥٦٤).

(١١) رواه أبو يعلىٰ (٥١٣٦).

(١٢) في (ح): «بردة»، وهو خطأ.

(١٣) البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩١).

(١٤) رواه أحمد (٤/ ١٤٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٦١).

(١٥) لوحة (٣٦أ/ح).

(١٦) ضعيف جدًّا: رواه أحمد (٥/ ٣٨٥)، وفيه أكثر من علَّة: يزيد بن أبي زياد: ضعيف، وعيسىٰ بن فائد: مجهول، وفيه رجل لم يُسَمَّ، وعلة أخرىٰ: وهي الاضطراب، ويتبين ذلك من الروايات الآتية.

وهكذا رواه جرير بن عبد الحميد، ومحمَّد بن فضيل، عن يزيد بن أبي زياد، [كما رواه خالد بن عبد الله.

وقد أخرجه أبو داود عن محمَّد بن العلاء، عن ابن إدريس، عن يزيد بن أبي زياد][(١)]، عن عيسىٰ بن فائد، عن سعد بن عبادة عن النَّبيِّ ﷺ بقصَّة نسيان القرآن، ولم يذكر الرجل المبهم[(٢)].

وكذا رواه أبو بكر بن عياش، عن يزيد بن أبي زياد، وقد رواه شعبة عن يزيد[(٣)] فوهم في إسناده، ورواه وكيع عن أصحابه، عن يزيد، عن عيسىٰ[(٤)] بن فائد، عن النَّبيِّ ﷺ مرسلًا[(٥)]. وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبادة بن الصامت فقال: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا عبد العزيز بن مسلم، حدَّثنا يزيد بن أبي زياد، عن عيسىٰ بن فائد، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولًا لا يَفُكُّهُ مِنْهَا إِلَّا عَدْلُهُ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ تَعَلَّمَ القُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إِلَّا لَقِيَ اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَجْذَمُ**»[(٦)].

وكذا رواه أبو عوانة، عن يزيد بن أبي زياد، ففيه اختلاف، لكن هذا في باب الترهيب مقبول -والله أعلم- لاسيما إذا كان له شاهد مِن وجه آخر، كما قال أبو عبيد.

حدَّثنا حجاج، عن ابن جريج قال: حُدثت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّىٰ القَذَاةَ وَالبَعْرَةَ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ المَسْجِدِ، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي فَلَمْ أَرَ ذَنْبًا أَكْبَرَ**[(٧)] **مِنْ آيَةٍ أَوْ سُورَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ أُوتِيهَا رَجُلٌ فَنَسِيَهَا**». قال ابن جريج: وحُدِّثت عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَكْبَرَ ذَنْبٍ تُوَافَىٰ بِهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ أُوتِيهَا رَجُلٌ فَنَسِيَهَا**»[(٨)].

وقد روىٰ أبو داود والترمذي وأبو يعلىٰ والبزار وغيرهم من حديث ابن أبي رواد، عن ابن جريج، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّىٰ القَذَاةَ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ المَسْجِدِ، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي، فَلَمْ أَرَ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ القُرْآنِ أَوْ آيَةٍ أُوتِيهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا**»[(٩)].

---

(١) ليست في (ح)، وهي مثبتة في نسخة الشيخ الحويني حَفِظَهُ اللَّهُ.
(٢) ضعيف جدًّا كسابقه: رواه أبو داود (١٤٧٤).
(٣) كذا في (ح)، عند (حوين): «سعيد عن زيد»، وهو خطأ.
(٤) كذا في (ح)، عند (حوين): «زيد بن عيسىٰ»، وهو خطأ.
(٥) وهذا يدل علىٰ اضطراب يزيد بن أبي زياد؛ ففي الروايات السابقة رواه موصولًا إلىٰ سعد بن عبادة، وفي هذه الروايات يراها مرسلًا، وسيأتي أنه رواه موصولًا إلىٰ عبادة بن الصامت.
(٦) ضعيف جدًّا كسابقه: رواه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وإسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد وعيسىٰ بن فائد، ثم علة الاضطراب كما تقدم.
(٧) في (ح): «أعظم أكبر».
(٨) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٠١)، وإسناده ضعيف لإبهام من حدث ابن جريج، وسيأتي أنه المطلب بن عبد الله وهو ضعيف. انظر التعليق الآتي.
(٩) إسناده ضعيف: رواه أبو داود (٤٦١)، والترمذي (٢٩١٦)، وأبو يعلىٰ (١٥١٠)، وفيه المطلب بن عبد الله بن حنطب: كثير =

قال التِّرمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به البخاري فاستغربه، وحكىٰ البخاري عن عبد الله بن عبد الرحمن الدَّارمي أنَّه أنكر سماع المطلب من أنس بن مالك.

قلت: وقد رواه محمَّد بن يزيد الآدمي[1]، عن[2] ابن أبي رواد، عن ابن جريج عن الزهري، عن أنس بن مالك، عن النَّبيِّ ﷺ به[3]. والله أعلم.

وقد أدخل بعض المفسِّرين هذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، وهذا الذي قاله هذا -وإن لم يكن هو المراد جميعه- فهُوَ بعضه، فإنَّ الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنِّسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاونٌ كثير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه؛ ولهذا قال ﷺ: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ»، وفي لفظ: «اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ».

التَّفَصِّي: التَّخلص، يقال: تَفَصَّىٰ فلان من البليَّة: إذا تخلَّص منها، ومنه: تفصىٰ النوىٰ من التَّمرة: إذا تخلَّص منها؛ أي: إن القرآن أشد تفلتًا من الصدور من النَّعَم إذا أرسلت من غير عقال.

وقال أبو عبيد: حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله -يعني ابن مسعود-: إنِّي لأمقتُ القارئ أن أراه سمينًا نسيًّا للقرآن[4].

حدَّثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: سمعت الضَّحَّاك بن مزاحم يقول: ما مِن أحدٍ تعلَّم القرآن ثم نَسِيَه إلا بذنب يُحدِّثه؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وإن نسيانَ القرآن مِن أعظم المصائب[5].

ولهذا قال إسحاق بن راهويه وغيره: يُكره لرجلٍ أن يمُرَّ عليه أربعون يومًا لا يقرأ فيها القرآن، كما أنَّه يُكره له أن يقرأ في أقلَّ مِن ثلاثة أيام، كما سيأتي هذا حيث يذكره البخاري بعد هذا، وكان الأليق أن يُتبعه هذا الباب، ولكن ذكر بعد هذا قولَهُ:

= الإرسال والتدليس وقد عنعن، (انظر: «تقريب التهذيب» ترجمة (٦٧١٠)، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢٨/ ٨٣).

(١) لوحة (٣٦ ب/ ح)، وفي (ح): «الأموي»، والمثبت هو الصواب.

(٢) سقطت لوحة (٣٧ أ/ ح) من مصورتنا من المخطوطة، وقد قابلناها وجميع الكتاب علىٰ النسخ المطبوعة، وخاصة نسخة الشيخ الحويني حَفِظَهُ اللَّهُ و«طيبة».

(٣) وهذا من الاختلاف أيضًا علىٰ ابن جريج ففي الروايات السابقة يرويه عن المطلب، ويرويه هنا عن الزهري فهذا يؤكد ضعف الإسناد.

(٤) إسناده ضعيف: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٠٢)، وفيه انقطاع بين إبراهيم النخعي وابن مسعود.

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٢٠٢)، ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٨٥).

القراءة على الدَّابَّة

حدَّثنا حجاج، حدَّثنا شعبة، أخبرني أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكَّة وهو يقرأ علىٰ راحلته سورة الفتح[(١)].

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة سوىٰ ابن ماجه من طرق، عن شعبة، عن أبي إياس، وهو معاوية بن قرة به[(٢)]، وهذا -أيضًا- له تعلق بما تقدَّم من تعاهد القرآن وتلاوته سفرًا وحضرًا، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يَتْلُهُ القارئ في الطَّريق، وقد نقله ابن أبي داود عن أبي الدرداء أنَّه كان يقرأ في الطريق[(٣)].

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنَّه أَذِنَ في ذلك.

وعن الإمام مالك أنَّه كَرِهَ ذلك، كما قال ابن أبي داود: وحدَّثني أبو الربيع، أخبرنا ابن وهب قال: سألت مالكًا عن الرجل يُصَلِّي في آخر اللَّيل، فيخرج إلىٰ المسجد، وقد بَقِيَ من السُّورة التي كان يقرأ فيها شيء، فقال: ما أعلم القراءة تكون في الطريق.

وقال الشعبي: تُكْرَه قراءة القرآن في ثلاثة مواطن: في الحمَّام، وفي الحُشُوش، وفي بيت الرَّحىٰ وهي تدور.

وخالفه في القراءة في الحمَّام كثير من السَّلف: أنَّها لا تكره، وهو مذهب مالك والشافعي وإبراهيم النخعي وغيرهم، وروىٰ ابن أبي داود عن علي بن أبي طالب: أنه كره ذلك، ونقله ابن المنذر عن أبي وائل شقيق بن سلمة، والشعبي والحسن البصري ومكحول وقبيصة بن ذؤيب، وهو رواية عن إبراهيم النخعي، ومحكيٌّ عن أبي حنيفة، رحمهم الله، أن القراءة في الحمام تكره.

وأمَّا القراءة في الحشوش فكراهتها ظاهرة، ولو قيل بتحريم ذلك صيانةً لشرف القرآن لكان مذهبًا، وأما القراءة في بيت الرَّحىٰ وهي تدور فلئلَّا يعلو غير القرآن عليه، والحَقُّ يعلو ولا يُعلىٰ، والله أعلم.

تعليم الصبيان القرآن

حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: إنَّ الذي تدعونه المفصل هو المحكم، قال: وقال ابن عبَّاس: توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكمَ[(٤)].

حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: جمعتُ المحكم في عهد النَّبيِّ ﷺ فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المُفَصَّلُ»[(٥)].

انفرد بإخراجه البخاري، وفيه دلالة علىٰ جواز تعلُّم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عبَّاس أخبر عن سِنِّه

---

(١) رواه البخاري (٥٠٣٤)، ومسلم (٧٩٤)، وأبو داود (١٤٦٧)، والترمذي في «الشمائل» (٣١٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٦٢).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) لم أقف عليه في كتاب «المصاحف» له.

(٤) رواه البخاري (٥٠٣٥).

(٥) رواه البخاري (٥٠٣٦).

حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جَمَعَ المفصل، وهو من الحجرات، كما تقدَّم ذلك، وعمره آنذاك عشر سنين. وقد روى البخاري أنه قال: توفي رسول الله ﷺ وأنا مختون. وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم، فيحتمل[1] أنَّه احتلم لعشر سنين جمعًا بين هذه الرواية وتلك، ويحتمل أنَّه تجوَّز في هذه الرواية بذكر العشر، وترك ما زاد عليها من الكسر، والله أعلم.

وعلى كل تقديرٍ ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن في الصِّبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحبًّا أو واجبًا؛ لأنَّ الصبي إذا تعلَّم القرآن بلغ وهو يعرف ما يُصَلِّي به، وحفظُه في الصِّغر أولى من حفظه كبيرًا، وأشد علوقًا بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس.

وقد استحَبَّ بعض السلف أن يترك الصبي في ابتداءِ عمرِهِ قليلًا للعب، ثم توفر همَّته على القراءة؛ لئلَّا يُلْزَم أولًا بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يُقَال له، ولكن يُترك حتى إذا عَقِل ومَيَّز عُلِّم قليلًا قليلًا بحَسَب هِمَّته ونُهْمَتِهِ وحفظه وجودة[2] ذهنه، واستحب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يلقَّن خمس آيات [خمس آيات][3] رويناه عنه بسند جيد[4].

نسيان القرآن

وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، وقول الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾

حدَّثنا الربيع بن يحيى، حدَّثنا زائدة، حدَّثنا هشام، عن عروة، عن عائشة قالت: لقد سمع النَّبيُّ ﷺ رجلًا يقرأ في المسجد فقال: «**يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي بِكَذَا وَكَذَا آيَةٍ مِنْ سُورَةِ كَذَا**»[5].

انفرد به، وحدَّثني محمَّد بن عبيد بن ميمون، حدَّثنا عيسى بن يونس، عن هشام وقال: «**أسقطتهن مِن سورة كذا وكذا**». انفرد به أيضًا. تابعه علي بن مسهر وعبدة عن هشام.

وقد أسندهما البخاري في موضع آخر، ومسلم معه في عبدة[6].

وحدَّثنا أحمد بن أبي رجاء، حدَّثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلًا يقرأ في سورة بالليل فقال: «**يَرْحَمُهُ اللهُ، فَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا**». ورواه مسلم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة[7].

---

(١) البخاري (٦٢٩٩). (٢) لوحة (٣٧ ب/ح). (٣) ليست في (ح).

(٤) انظر: «مسند الفاروق» للمؤلف (١/ ١٧٠)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣١٩).

(٥) البخاري (٥٠٣٧).

(٦) البخاري (٦٣٣٥)، ومسلم (٧٨٨).

(٧) رواه مسلم (٥٠٣٨)، ومسلم (٧٨٨).

الحديث الثاني: حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا سفيان، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ**» ورواه مسلم والنسائي من حديث منصور به. وقد تقدَّم[١]. وفي «مسند أبي يعلىٰ»: «**فَإِنَّمَا هُوَ نُسِيَ**»، بالتَّخفيف، هذا لفظه[٢].

وفي هذا الحديث -والذي قبله- دليل علىٰ أن حصول النِّسيان للشخص ليس بنقصٍ له إذا كان بعد الاجتهاد والحِرْص، وفي حديث ابن مسعود أدب في التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإنَّ النِّسيان ليس مِنْ فعلِ العبد، وقد يصدُر عنه أسبابه من التَّناسي والتَّغافل والتَّهاون المفضي إلىٰ ذلك، فأما النِّسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: «**بَلْ هُوَ نُسِّيَ**»، مبني لما لم يسم فاعله، وأدب -أيضًا- في ترك إضافة ذلك إلىٰ الله تعالىٰ، وقد أَسْنَدَ النِّسيان إلىٰ العبد في قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وهو -والله أعلم- من باب المجاز السَّائغ بذكر المسبب وإرادة السبب؛ لأنَّ النِّسيان إنَّما يكون عن سبب قد يكون ذنبًا، كما تقدَّم عن الضَّحَّاك بن مزاحم، فأمر الله تعالىٰ بذكره ليذهب الشَّيطان عن القلب كما يذهب عند النِّداء بالأذان، والحسنة تذهب السَّيِّئة، فإذا زال السَّبب للنِّسيان انزاح، فحصل الذكر لشيءٍ بسبب ذكر الله تعالىٰ، والله أعلم.

مَن لم يرَ بأسًا أن يقول: سورة البقرة[٣]، وسورة كذا وكذا

حدَّثنا عمر بن حفص بن غياث، حدَّثنا أبي، حدَّثنا الأعمش، حدَّثني إبراهيم، عن علقمة وعبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَ بِهِمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»[٤].

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعةُ من حديث عبد الرحمن بن يزيد، وصاحبا «الصحيح» والنَّسائي وابن ماجه من حديث علقمة، كلاهما عن أبي مسعود عقبة بن عمرو[٥] الأنصاري البدري[٦][٧].

الحديث الثاني: ما رواه من حديث الزهري، عن عروة، عن المِسْوَر وعبد الرحمن بن عبدٍ القارئ، كلاهما عن عمر قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان... وذكر الحديث بطوله، كما تقدم، وكما سيأتي[٨].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٣٩)، ومسلم (٧٩٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٤٢).

(٢) رواه أبو يعلىٰ (٤٤٩٢). (٣) لوحة (١٣٨/أ/ ح).

(٤) رواه البخاري (٥٠٤٠) ورواه أيضًا (٥٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧، ٨٠٨)، وأبو داود (١٣٩٧)، والترمذي (٢٨٨١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠١٨)، وابن ماجة (١٣٦٨).

(٥) في (ح): «عامر»، وهو خطأ. (٦) انظر التعليق السابق.

(٧) في (ح): «البكري»، والمثبت هو الصواب.

(٨) البخاري (٥٠٤١).

الحديث الثالث: ما رواه من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ قارئًا يقرأ من الليل في المسجد، فقال: «**يَرْحَمُهُ اللهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةٍ، كُنْتُ أَسْقَطْتُهُنَّ مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا**»(١). وهكذا في «الصحيحين» عن ابن مسعود: أنَّه كان يرمي الجمرة من الوادي ويقول: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة(٢).

وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا إلا أن يقال: السورة التي ذكر فيها كذا وكذا، كما تقدَّم من رواية يزيد الفارسي(٣) عن ابن عبَّاس، عن عثمان أنَّه قال: إذا نزل شيء من القرآن يقول رسول الله ﷺ: «**اجْعَلُوا هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**»(٤)، ولا شَكَّ أن هذا أحوط وأولىٰ، ولكن قد صحت الأحاديث بالرُّخصة في الآخر، وعليه عملُ النَّاس اليوم في ترجمة السور في مصاحفهم، وبالله التوفيق.

باب الترتيل في القراءة

وقول الله ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وما يكره أن يُهَذَّ كَهَذِّ الشعر، يفرق: يفصل، قال ابن عبَّاس: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ فَصَّلناه.

حدَّثنا أبو النعمان، حدَّثنا مهدي بن ميمون، حدَّثنا واصل [وهو ابن حيان الأحدب](٥)، عن أبي وائل، [عن](٦) عبد الله قال: غَدَوْنَا علىٰ عبد الله، فقال رجل: قرأت المفصَّل البارحة، فقال: هذًّا كهذِّ الشعر، إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القرناء التي كان يقرأ بهن النَّبيُّ ﷺ ثمان عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل «حم»(٧). ورواه مسلم عن شيبان بن فَرُّوخ، عن مهدي بن ميمون، عن واصل -وهو ابن حيان الأحدب- عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن ابن مسعود به(٨).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن الحارث بن يزيد، عن زياد بن نعيم، عن مسلم ابن مِخْراق(٩)، عن عائشةَ أنَّه ذُكِر لها أنَّ ناسًا يقرءون القرآن في اللَّيل مرَّة أو مرَّتين، فقالت: أولئك قرءوا ولم يقرءوا، كنت أقوم مع النَّبيِّ ﷺ ليلة التَّمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنِّساء، فلا يمُرُّ بآية فيها تخوُّف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يَمُرُّ بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورَغِبَ إليه(١٠).

---

(١) البخاري (٥٠٤٢).
(٢) البخاري (١٧٤٧)، ومسلم (١٢٩٦).
(٣) في (ح): «الرقاشي»، وهو خطأ، ويزيد هو الفارسي البصري.
(٤) منكر: وقد تقدم تخريجه.
(٥) ليست في (ح).
(٦) ليست في (ح).
(٧) البخاري (٥٠٤٣)، ورواه مسلم، انظر ما بعده.
(٨) مسلم (٨٢٢).
(٩) لوحة (٣٨ ب/ح).
(١٠) صحيح لغيره: رواه أحمد (٦/ ٩٢)، وفيه ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه، لكنَّهم صحَّحوا رواية قتيبة عنه، وقد توبع فرواه عنه عبد الله بن المبارك عنه في «مسنده» (٥٧) وهو قديم السماع من ابن لهيعة، وتابعه يحيىٰ بن أيوب عن الحارث بن يزيد به: رواه البيهقي (٢/ ٣١٠)، وبهذا نعلم أن علة هذا الإسناد هو مسلم بن مخراق: لم يوثقه غير ابن حبان، وله شاهد من حديث حذيفة عند مسلم (٧٧٢).

الحديث الثاني: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا جرير، عن موسىٰ بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان ممَّا يحرِّك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه. وذكر تمام الحديث كما سيأتي، وهو متَّفق عليه[١]، وفيه: والذي قبله دليل علىٰ استحباب ترتيل القراءة والتَّرسُّل فيها من غير هَذْرَمةٍ ولا سُرْعَةٍ مفرطةٍ، بل بتأملٍ وتفكُّرٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زرٍّ، عن عبد الله بن عمرو[٢]، عن النَّبيِّ ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[٣].

وقال أبو عبيد: حدَّثنا جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: قرأ علقمة علىٰ عبد الله، فكأنَّه عَجِلَ، فقال عبد الله: فِدَاكَ أَبِي وأُمِّي، رَتِّل فإنَّه زَيْنُ القرآن. قال: وكان علقمة حَسَنَ الصوت بالقرآن[٤].

وحدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن أبي جمرة قال: قلت لابن عبَّاس: إنِّي سريع القراءة وإنِّي أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلةٍ فأدَّبرها وأُرتِّلها أَحَبُّ إليَّ من أن أقرأ كما تقول[٥].

وحدَّثنا حجاج، عن شعبة وحماد بن سلمة، عن أبي جمرة، عن ابن عبَّاس نحو ذلك[٦]، إلَّا أنَّ في حديث حمَّاد: أَحَبُّ إليَّ مِن أن أقرأ القرآن أجْمَع هذرمةً.

- ثم قال البخاري رحمه الله:

مد القراءة

حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا جرير بن حازم الأزدي، حدَّثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النَّبيِّ ﷺ فقال: كان يَمُدُّ مدًّا. وهكذا رواه أهل السنن، من حديث جرير بن حازم به[٧].

وحدَّثنا عمرو بن عاصم، حدَّثنا همام، عن قتادة قال: سئل أنس بن مالك: كيف كانت قراءة النَّبيِّ ﷺ؟ فقال: كانت مدًّا، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمُدُّ بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ويمُدُّ بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ويمُدُّ بـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾. انفرد به البخاري[٨] من هذا الوجه.

---

(١) البخاري (٦) (٥٠٤٤)، ومسلم (٤٤٨). (٢) في (ح): «عمر»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) إسناده حسن: رجاله ثقات عدا عاصم بن أبي النجود فصدوق، والحديث رواه أحمد (٢/ ١٩٢)، وأبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤).

(٤) «فضائل القرآن» (ص ١٥٧)، وإسناده حسن. (٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٥٧)، وإسناده صحيح.

(٦) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٥٧)، وإسناده صحيح أيضًا.

(٧) البخاري (٥٠٤٥)، وأبو داود (١٤٦٥)، والترمذي في «الشمائل» (٣٠٨)، والنسائي (٢/ ١٧٩)، وابن ماجة (١٣٥٣).

(٨) البخاري (٥٠٤٦).

وفي معناه الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد: حدَّثنا أحمد بن عثمان، عن عبد الله بن المبارك، عن الليث بن سعد، عن ابن أبي مُلَيْكَة[١]، عن يعلىٰ بن مَملك، عن أم سلمة: أنها نعتت قراءةَ رسولِ الله ﷺ قراءةً مفسرةً حرفًا حرفًا[٢].

وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن يحيىٰ بن إسحاق، وأبو داود عن يزيد بن خالد الرملي، والترمذي والنسائي، كلاهما عن قتيبة، كلهم عن الليث بن سعد به. وقال الترمذي: حسن صحيح[٣].

ثم قال أبو عبيد: وحدَّثنا يحيىٰ بن سعيد الأموي، عن ابن جريج، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يُقَطِّع قراءته: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾. وهكذا[٤].

رواه أبو داود والترمذي من حديث ابن جريج. وقال الترمذي: غريب وليس إسناده بمتصل؛ يعني: أن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيكة لم يسمعه من أم سلمة، وإنَّما رواه عن يعلىٰ بن مَمْلَك، كما تقدم، والله أعلم.

الترجيع

حدَّثنا آدم بن أبي إياس، حدَّثنا شعبة، حدَّثنا أبو إياس قال: سَمِعْتُ عبد الله بن مغفل قال: رأيت النَّبيَّ ﷺ وهو علىٰ ناقته -أو جمله- وهي تَسِيرُ به، وهو يقرأ سورة الفتح أو مِن سورة الفتح قراءة لينة وهو يرجِّع[٥].

وقد تقدَّم هذا [الحديث في القراءة علىٰ الدَّابَّة وأنَّه من المُتَّفق عليه، وفيه أن ذلك كان يوم الفتح، وأما التَّرجيع:][٦] فهو التَّرديد في الصَّوت كما جاء -أيضًا- في البخاري أنَّه جعل يقول:(آ آ آ)، وكأن ذلك صدر مِن حركة الدَّابَّة تحته، فدلَّ علىٰ جواز التِّلاوة عليها، وإن أفضىٰ إلىٰ ذلك ولا يكون ذلك من باب الزيادة في الحروف، بل ذلك مغتفر للحاجة، كما يُصَلِّي علىٰ الدَّابَّة حيث توجهت به، مع إمكان تأخير ذلك والصلاة إلىٰ القبلة، والله أعلم.

حسن الصوت بالقراءة

حدَّثنا محمَّد بن خلف أبو بكر، حدَّثنا أبو يحيىٰ الحمَّاني، حدَّثنا بريد بن عبد الله بن أبي بردة، عن جَدِّه أبي بردة، عن أبي موسىٰ الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «يَا أَبَا مُوسَىٰ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ

---

(١) لوحة (٣٩ أ/ ح).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٥٦) ، ورواه أبو داود (١٤٦٦)، والترمذي (٢٩٢٣)، والنسائي (٢/ ١٨١)، وفيه يعلىٰ بن مملك لم يروِ عنه إلا ابن أبي مليكة؛ أي: أنه مجهول، لكن يكفي في الاستدلال رواية أنس السابقة.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) إسناده ضعيف: رواه أبو عبيد (ص ١٥٦)، وأبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٧)، وأحمد (٦/ ٣٠٢)، وضعفه الترمذي بالانقطاع، قلت: وفيه أيضًا ابن جريج: مدلس وقد عنعن.

(٥) البخاري (٥٠٤٧). (٦) ما بين المعقوفتين ليست في (ح).

مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»[(١)]، وهكذا رواه الترمذي عن موسىٰ بن عبد الرحمن الكندي، عن أبي يحيىٰ الحمَّاني – واسمه عبد الحميد بن عبد الرحمن– وقال: حسن صحيح. وقد رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيىٰ ابن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسىٰ، وفيه قصة[(٢)]، وقد تقدَّم الكلام علىٰ تحسين الصوت عند قول البخاري: مَن لَم يتغَنَّ بالقرآن، وذكرنا هناك أحكامًا كافيةً عن إعادتها هاهنا، والله أعلم.

باب من أَحَبَّ أن يسمع القُرْآن مِن غيره

حدَّثنا عمر بن حفص بن غياث، حدَّثنا أبي، حدَّثنا الأعمش، عن إبراهيم بن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لِيَ النَّبيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ القُرْآنَ». قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزِلَ؟! قال: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»[(٣)(٤)].

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق عن الأعمش، وله طرق يطول ذكرها[(٥)] وبسطها، وقد تقدم فيما رواه مسلم مِن حديث طلحة بن يحيىٰ بن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسىٰ: أن رسول الله ﷺ قال له: «يَا أَبَا مُوسَىٰ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ البَارِحَةَ». فقال: أما والله لو أعلم أنَّك تستمع قراءتي لحَبَّرْتها لك تحبيرًا.

وقال الزهري، عن أبي سلمة: كان عمر إذا رأىٰ أبا موسىٰ قال: ذكِّرنا ربنا يا أبا موسىٰ. فيقرأ عنده.

وقال أبو عثمان النَّهدي: كان أبو موسىٰ يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنجٍ قط ولا بربط قط، ولا شيئًا قط أحسن من صوته[(٦)].

باب قول المقرئ للقارئ: حسبك

حدَّثنا محمَّد بن يوسف، حدَّثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». فقلت: يا رسول الله، أأقرأ عليك وعليك أُنزل؟! قال: «نَعَمْ»، فقرأت عليه سورة النِّساء حتىٰ أتيتُ إلىٰ هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حَسْبُكَ الآنَ» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[(٧)].

أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، من رواية الأعمش به، ووجه الدلالة ظاهر، وكذا الحديث الآخر: «اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ عَلَيْهِ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا»[(٨)].

---

(١) البخاري (٥٠٤٨). (٢) مسلم (٧٩٣)، والترمذي (٣٨٥٥).
(٣) البخاري (٥٠٤٩)، وانظر ما بعده. (٤) لوحة (٣٩ ب/ح).
(٥) رواه مسلم (٨٠٠)، وأبو داود (٣٦٦٨)، والترمذي (٣٠٢٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٧٥).
(٦) تقدم تخريج هذا الحديث وهذه الآثار. (٧) البخاري (٥٠٥٠).
(٨) تقدم تخريجه.

باب في كم يقرأ القرآن؟

وقول الله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ [المزمل: ٢٠]

حدَّثنا علي، حدَّثنا سفيان، قال: قال لي ابن شبرمة: نظرت كَم يكفي الرجل من القرآن فلَمْ أجد سورة أقل من ثلاث آيات. [فقلت: لا ينبغي لأحدٍ أن يقرأ أقل من ثلاث آيات][١]. قال سفيان: أخبرنا منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، أخبره علقمة عن أبي مسعود، فلقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر النَّبيّ ﷺ «**أنَّ مَنْ قَرَأَ بالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»[٢].

وقد تقدَّم أنَّ هذا الحديث مُتفَّق عليه، وقد جمع البخاري فيما بين عبد الرحمن بن يزيد وعلقمة، عن أبي مسعود وهو صحيح؛ لأنَّ عبد الرحمن سمعه أولًا من علقمة، ثمَّ لَقِيَ أبا مسعود وهو يطوف فسمعه منه، وعليٌّ هذا هو ابن المديني، وشيخه هو سفيان بن عيينة.

وما قاله عبد الله بن شبرمة -فقيه الكوفة في زمانه- استنباط حسن، وقد جاء في حديث في السنن: «**لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَثَلَاثِ آيَاتٍ**»[٣] ولكن هذا الحديث -أعني حديث أبي مسعود- أصح وأشهر وأَخَصُّ، ولكن وجه مناسبته للتَّرجمة التي ذكرها البخاري فيه نظر، والله أعلم، والحديثُ الثاني أظهرُ في المناسبة[٤] وهو قوله:

حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا أبو عَوَانة، عن مغيرة، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: أَنْكَحَنِي أبي امرأةً ذاتَ حسبٍ، فكان يتعاهد كِنَّتَه[٥] فيسألها عن بَعْلِهَا فتقول: نِعْمَ الرَّجلُ مِن رجلٍ لم يطأ لنا فراشًا، ولم يُفَتِّش لنا كنفًا منذ أتيناه، فلمَّا طال ذلك عليه ذكر للنَّبيِّ ﷺ، فقال: «**أَلْقِنِي بِهِ**»، فلقيته بعد، فقال: «**كَيْفَ تَصُومُ؟**». قلت: كل يوم. ثم قال: «**وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟**». قال: كل ليلة. قال: «**صُمْ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةً، وَاقْرَإِ القُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**»: قال: قلت: إنِّي أُطِيق أكثر مِن ذلك. قال: «**صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الجُمُعَةِ**». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «**أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًا**». قلت: أُطِيق أكثر من ذلك. قال: «**صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ، صِيَامَ يَوْمٍ وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً**»، فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذلك أنِّي كَبِرْتُ وضعفت، فكان يقرأ علىٰ بعض أهلِه السُّبع من القرآن بالنَّهار، والذي يقرأه باللَّيل يعرضه بالنَّهار ليكون أَخفَّ عليه باللَّيل، وإذا أراد أن يتقَوَّىٰ أفطر أيامًا وأحصىٰ وصام مِثْلَهن، كراهية أن يترك شيئًا فارق عليه النَّبيَّ ﷺ. وقال بعضهم: في ثلاثٍ وفي خمسٍ وأكثرهم علىٰ سبع[٦].

---

(١) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «صحيح البخاري». (٢) رواه البخاري (٥٠٥١).

(٣) كذا عزاه ابن كثير إلىٰ أصحاب السنن، ولم أجده فيها، بل رواه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٦٨٧)، وفيه عمر بن يزيد المدائني: منكر الحديث. انظر: «ميزان الاعتدال» (ت/ ٦٢٥٠)، «الكامل في الضعفاء» (ت/ ١١٩٩).

(٤) لوحة (١٤٠أ/ ح). (٥) في (ح): «البيت»، والمثبت موافق لما في «البخاري».

(٦) البخاري (٥٠٥٢) وانظر ما بعده.

وقد رواه في الصَّوم، والنسائي -أيضًا-عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن مغيرة، والنَّسائي من حديث حصين، كلاهما عن مجاهد به (١).

ثم روىٰ البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يحيىٰ بن [أبي كثير] (٢) عن محمَّد بن عبد الرحمن -مولىٰ بني زهرة (٣)- عن أبي سلمة: قال: وأحسبني سمعت أنَا مِن أبي (٤) سلمة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي النَّبيُّ ﷺ: «اقْرَإِ القُرْآنَ فِي شَهْرٍ». قلت: إنِّي أجد قوة. قال: «فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَىٰ ذَلِكَ» (٥). فهذا السِّياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقلِّ من سبع، وهكذا الحديث الذي رواه أبو عبيد: حدَّثنا حجاج وعمر بن طارق ويحيىٰ بن بكير، كلهم عن ابن لَهِيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن قيس بن أبي صعصعة (٦)؛ أنَّه قال للنَّبيِّ ﷺ: يا رسول الله، في كَم أقرأ القرآن؟ فقال: «فِي كُلِّ خَمْسَ عَشَرَةَ». قال: إني أجدني أقوىٰ من ذلك، قال: «فَفِي كُلِّ جُمُعَةٍ» (٧).

وحدَّثنا حجاج عن شعبة، عن محمَّد بن ذكوان -رجل من أهل الكوفة-قال (٨): سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول: كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلىٰ الجمعة (٩).

وعن حجاج، عن شعبة، عن أيوب: سمعت أبا قِلابة، عن أبي المهلب (١٠) قال: كان أبيُّ بن كعب يختم القرآن في كل ثمان (١١).

[وحدَّثنا علي بن عاصم، عن خالد، عن أبي قلابة قال: كان أبيُّ بن كعب يختم القرآن في كل ثمانٍ] (١٢).

وكان تميم الدَّاري يختمه في كل سَبْعٍ (١٣).

وحدَّثنا هُشَيْم، عن الأعمش، عن إبراهيم: أنَّه كان يقرأ القرآن في كل سبع (١٤).

وحدَّثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان الأسود يختم القرآن في كل سِتٍّ، وكان علقمة يختمه في كل خمس (١٥).

---

(١) البخاري (١٩٧٨)، والنسائي (٤/ ٢٠٩، ٢١٠). (٢) في (ح): «ابن بكير بن حصين»، والمثبت هو الصواب.
(٣) في (ح): «مولىٰ أبي هريرة»، وهو خطأ. (٤) في (ح): «من ابن أبي سلمة».
(٥) البخاري (٥٠٥٤)، ومسلم (١١٥٩)، وأبو داود (١٣٨٨).
(٦) كذا في (ح)، وهو موافق لما في «فضائل القرآن»، وفي نسخة الشيخ الحويني: «قيس بن صعصعة»، وما أثبتناه هو الصواب، وانظر: «الإصابة» (٥/ ٤٧٩).
(٧) «فضائل القرآن» (ص١٧٧). (٨) في (ح): «قال رجل من أهل الكوفة».
(٩) «فضائل القرآن» (ص١٧٧)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٩٤٩)، وسنده صحيح.
(١٠) لوحة (٤٠ ب/ ح). (١١) «فضائل القرآن» (ص١٧٨).
(١٢) سقط من (ح)، ومن نسخة الشيخ الحويني، وهو مثبت من «فضائل القرآن» لأبي عبيد.
(١٣) «فضائل القرآن» (ص١٧٨)، وسنده صحيح. (١٤) «فضائل القرآن» (ص١٧٨).
(١٥) «فضائل القرآن» (ص١٧٨)، وابن أبي شيبة (٢/ ٨٠١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٩٩، ١٠٣).

فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر في ذلك جليًّا، ولكن دلَّت أحاديث أخر[١] علىٰ جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه الإمام أحمد في «مسنده»: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهيعة، حدَّثنا حبان بن واسع، عن أبيه، عَن سعد بن المنذر الأنصاري؛ أنَّه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نَعَمْ». قال: فكان يقرؤه حتىٰ توفي[٢].

وهذا إسناد جيد قوي حسن، فإن حسن بن موسىٰ الأشيب: ثقة مُتَّفقٌ علىٰ جلالته روىٰ له الجماعة، وابنُ لَهِيعة إنما يُخشىٰ من تدليسه وسوء حفظه، وقد صرح هاهنا بالسَّماع، وهو من الأئمة العلماء بالدِّيار المصريَّة في زمانه، وشيخُه حبان بن واسع بن حبان وأبوه، كلاهما من رجال مسلم. والصَّحابي لم يخرج له أحد من أهل الكتب السِّتَّة، وهذا علىٰ شرط كثير منهم، والله أعلم.

وقد رواه أبو عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن بكير، عن ابن لَهِيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نَعَمْ، إِنِ اسْتَطَعْتَ». قال: فكان يقرؤه كذلك حتىٰ تُوُفِّي[٣].

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدَّثنا يزيد، عن همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ»[٤].

وهكذا أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة به. وقال الترمذي: حسن صحيح[٥].

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدَّثنا يوسف بن الغرق، عن الطيب بن سلمان، حدثتنا عمرة بنت عبد الرحمن: أنها سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ لا يختم القُرآن في أقلَّ مِن ثلاث[٦].

هذا حديث غريب جدًّا وفيه ضعف، فإن الطيب بن سلمان هذا بصري، ضعفه الدارقطني، وليس هو بذاك المشهور، والله أعلم.

وقد كره غير واحد من السَّلف قراءة القرآن في أقلَّ مِن ثلاث، كما هو مذهب أبي عبيد وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الخلف أيضًا.

---

(١) في (ح): «أخرجوها».

(٢) حسن: رواه أبو عبيد (ص ١٧٨)، وابن المبارك في «الزهد» (١٧٤)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ٥٤٨١)، وابن لهيعة: اختلط، لكن الراوي عنه في إحدىٰ الروايات هو ابن المبارك وسماعه منه قديم.

(٣) «فضائل القرآن» (ص١٧٩).

(٤) صحيح: رواه في «فضائل القرآن» (ص١٧٩)، ورواه أبو داود (١٣٩٤)، والترمذي (٢٩٤٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٦٧)، وابن ماجة (١٣٤٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) انظر التعليق السابق.

(٦) ضعيف: «فضائل القرآن» (ص١٧٩)، وفيه يوسف بن الغرق، ترجم له ابن أبي حاتم (٩/ ٢٢٧)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وكذَّبه الأزدي، وقال أبو علي الحافظ: منكر الحديث، ووثقه ابن حبان، وأيضًا: الطيب بن سلمان: ضعيف كما ذكر المؤلف.

قال أبو عبيد: حدَّثنا يزيد، عن هشام بن حسان، عن حفصة، عن أبي العالية، عن معاذ بن جبل أنَّه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقلَّ مِن ثلاث. صحيح[١].

وحدَّثنا يزيد، عن[٢] سفيان، عن علي [ابن بَذِيمة][٣]، عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: مَن قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو رَاجِزٌ[٤].

وحدَّثنا حجاج، عن شعبة، عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله مثله سواء[٥].

وحدَّثنا حجاج، عن شعبة، عن محمَّد بن ذَكْوان، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه؛ أنَّه كان يقرأ القرآن في رمضان في ثلاث. إسناده صحيح[٦].

وفي «المسند» عن عبد الرحمن بن شبل مرفوعًا: «**اقْرَءُوا القُرْآنَ، وَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ**»[٧].

فقوله: «**لا تَغْلُوا فِيهِ**» أي: لا تبالغوا في تلاوته بسرعةٍ في أقصرِ مُدَّة، فإن ذلك ينافي التَّدبُّر غالبًا؛ ولهذا قابله بقوله: «**وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ**» أي: لا تتركوا تلاوته.

فَصْلٌ

وقد ترخَّص جماعة من السَّلف في تلاوة القرآن في أقلَّ من ذلك؛ منهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قال أبو عبيد: حدَّثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن خَصيفة، عن السائب بن يزيد: أنَّ رجلًا سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمي عن صلاة طلحة بن عبيد الله فقال: إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان رضي الله عنه فقال: نعم، قال: قلت: لأغلبن اللَّيلة على الحجر، فقمت، فلما قمت إذا أنا برجل مقنَّع يزحمني، فنظرت فإذا عثمان بن عفَّان، فتأخرت عنه، فصلَّى فإذا هو يسجد سجود القرآن، حتى إذا قلت: هذه هوادي الفجر، أوتر بركعة لم يصلِّ غيرها. وهذا إسناد صحيح[٨].

قال: وحدَّثنا هُشَيم، عن منصور، عن ابن سيرين قال: قالت نائلة بنت الفرافصة الكلبيَّة حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه: إن يقتلوه أو يدعوه، فقد كان يحيي الليل كله بركعة يجمع فيها القرآن. وهذا حسن أيضًا[٩].

---

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٧٩)، وإسناده صحيح.
(٢) لوحة (٤١ أ/ ح).
(٣) ليست في (ح).
(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٨٠).
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق، وإسناده حسن.
(٧) رواه أحمد (٣/ ٤٤٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٠).
(٨) إسناده صحيح: رواه أبو عبيد (ص ١٨١)، وعبد الرزاق (٣/ ٣٥٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٢٤، ٢٥).
(٩) «فضائل القرآن» (ص١٨١)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٧).

وقال -أيضًا-: حدَّثنا أبو معاوية، عن عاصم بن سليمان، عن ابن سيرين: أن تميمًا الدَّاري قرأ القرآن في ركعة[١].

حدَّثنا حجاج بن شعبة، عن حماد، عن سعيد بن جبير: أنَّه قال: قرأت القرآن في ركعة في البيت -يعني: الكعبة[٢].

وحدَّثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة أنَّه قرأ القرآن في ليلة، طاف بالبيت أسبوعًا، ثم أتىٰ المقام فصلىٰ عنده فقرأ بالطُّول، ثم طاف بالبيت أسبوعًا، ثم أتىٰ المقام فصلىٰ عنده فقرأ بالمِئِين، ثم طاف بالبيت أسبوعًا، ثم أتىٰ المقام فصلىٰ عنده فقرأ بالمثاني، ثم طاف بالبيت أسبوعًا ثم أتىٰ المقام فصلىٰ عنده فقرأ بقيَّة القرآن[٣].

وهذه كلها أسانيد صحيحة، ومن أغرب ما هاهنا ما رواه أبو عبيد: حدَّثنا سعيد بن عُفَيْر، عن بكر ابن مضر، أن سليم[٤] بن عتر التَّجيبي كان يختم القرآن في ليلةٍ ثلاث مرات، ويجامع ثلاثَ مرَّات. قال: فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لترضي ربك وترضي أهلك، قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: كان يقوم من الليل فيختم القرآن، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتىٰ يختم ثم يلم بأهله، ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتىٰ يختم، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويخرج إلىٰ صلاة الصبح.

قلت: كان سليم بن عتر تابعيًّا جليلًا ثقةً نبيلًا، وكان قاضيًا بمصر أيَّام معاوية وقاصّها، ثم قال أبو حاتم: روىٰ عن أبي الدرداء، وعنه[٥] ابن زحر، ثم قال: حدَّثني محمَّد بن عوف[٦]، عن أبي صالح كاتب الليث، حدَّثني حرملة بن عمران، عن كعب بن علقمة قال: كان سليم بن عتر مِن خير التابعين.

وذكره ابن يونس في «تاريخ مصر».

وقد روىٰ ابن أبي داود عن مجاهد أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء.

وعن منصور قال: كان عليٌّ الأزدي يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان.

وعن إبراهيم بن سعد قال: كان أبي يحتبي فما يحل حبوته حتىٰ يختم القرآن.

قلت: وروي عن منصور بن زاذان: أنه كان يختم فيما بين الظهر والعصر، ويختم أخرىٰ فيما بين المغرب والعشاء، وكانوا يُؤَخِّرُونها قليلًا.

---

(١) أبو عبيد (ص ٢٨٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٥٠٢)، وإسناده حسن.

(٢) «فضائل القرآن» (ص١٨٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧٣).

(٣) «فضائل القرآن» (ص١٨٢).

(٤) لوحة (٤١ ب/ح).

(٥) في (ح): «وعن ابن زحر».

(٦) كذا في (ح)، وهو الصواب، وفي (حوين): «محمَّد بن عون».

وعن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّه كان يختم في اليوم والليلة من شهر رمضان ختمتين، وفي غيره ختمة.

وعن أبي عبد الله البخاري -صاحب الصحيح-: أنه كان يختم في اللَّيلة ويومها من رمضان ختمة.

ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي قال: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربي يقول: كان ابن الكاتب يختم بالنَّهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات.

وهذا نادرٌ جدًّا.

فهذا وأمثاله من الصَّحيح عن السلف محمول إمَّا علىٰ أنَّه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدَّم، أو أنَّهم كانوا يفهمون ويتفكَّرون فيما يقرءونه مع هذه السُّرعة، والله أعلم.

قال الشيخ أبو زكريا النووي في كتابه «التبيان» بعد ذكر طرف مما تقدم: والاختيار أنَّ ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمَن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر علىٰ قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولًا بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامَّة فليقتصر علىٰ قدرٍ لا يحصل بسببه إخلالٌ بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلىٰ حدِّ الملل والهَذْرَمة.

- ثم قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

باب البكاء عند القراءة[(١)]

وأورد فيه من رواية الأعمش، عن إبراهيم، عن[(٢)] عبيدة، عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قلت: أَقْرَأُ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». قال: فقرأت «النِّساء»، حتىٰ إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال لي: «كُفَّ أَوْ أَمْسِكْ»، فرأيت عينيه تذرفان[(٣)].

وهذا من المتَّفق عليه كما تقدَّم، وكما سيأتي إن شاء الله.

من راءىٰ بقراءة القرآن أو تأكَّل به أو فخر به

حدَّثنا محمَّد بن كثير، أخبرنا سفيان، حدَّثنا الأعمش، عن خَيْثَمة، عن سُوَيد بن غفلة، عن علي رضي الله عنه قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٤)].

---

(١) لوحة (٤٢ أ/ح).

(٢) في (حوين): «إبراهيم بن عبيدة»، والمثبت هو الصواب.

(٣) صحيح: تقدم تخريجه.

(٤) صحيح: البخاري (٥٠٥٨)، وانظر ما بعده.

وقد روي في موضعين آخرين، ومسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن الأعمش به، حدَّثنا عبد الله ابن يوسف، حدَّثنا مالك، عن يحيىٰ بن سعيد، عن محمَّد بن إبراهيم [بن الحارث](١) التيمي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ فَلَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَيَتَمَارَىٰ فِي الْفُوقِ»(٢).

ورواه في موضع آخر، ومسلم -أيضًا- والنَّسائي مِن طرق عن الزُّهري، عن أبي سلمة به، وابن ماجه من رواية محمَّد بن عمر بن علقمة عن أبي سلمة به.

حدَّثنا مُسَدَّد بن مسرهد، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ أَوْ خَبِيثٌ وَرِيحُهَا مُرٌّ(٣)»(٤).

ورواه في موضع آخر مع بقية الجماعة من طرق، عن قتادة به(٥).

ومضمونُ هذه الأحاديث التَّحذيرُ من المُرَاءَاة بتلاوة القرآن التي هي من أعظم القُرَب(٦)، كما جاء في الحديث: «وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَىٰ اللهِ بِأَعْظَمَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ» يعني: القرآن.

والمذكورون في حديث علي وأبي سعيد هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد قال في الرواية الأخرىٰ: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ قِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، وَصَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ

---

(١) ليست في (ح)، وهي مثبتة في (حوين).

(٢) صحيح البخاري (٣٦١٠، ٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٥٦٠)، وابن ماجة (١٦٩).

(٣) كذا في (ح)، وفي سائر النسخ، وفي «صحيح البخاري»، وقد استُشكل جعل المرارة وصفًا للريح، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «في رواية شعبة: «وَرِيحُهَا مُرٌّ»، واسْتُشْكِلت هذه الرواية من جهة أنَّ المرارة من أوصاف الطعوم، فكيف يُوصَف بها الرِّيح، وأُجيب بأنَّ ريحها لما كان كريهًا استُعير له وصف المَرَارَة، وأطلق الزركشي هنا أنَّ هذه الرِّواية وَهْمٌ، وأنَّ الصواب ما في رواية هذا الباب، و«لَا رِيحَ لَهَا» ثم قال في كتاب الأطعمة لما جاء فيه «وَلَا رِيحَ لَهَا»، هذا أصوب من رواية الترمذي: «طَعْمُهَا مُرٌّ وَرِيحُهَا مُرٌّ»، ثم ذكر توجيهها، وكأنَّه ما استحضر أنَّها في هذا الكتاب، وتكلَّم عليها، فلذلك نسبها للترمذي. اهـ. «فتح» (٩/ ٦٧).

(٤) البخاري (٥٠٥٩)، وانظر ما بعده.

(٥) البخاري (٥٤٢٧) (٧٥٦٠)، ومسلم (٧٩٧)، وأبو داود (٤٨٣٠)، والترمذي (٢٨٦٥)، والنسائي (٨/ ١٢٤)، وابن ماجة (٢١٤).

(٦) لوحة (٤٢ ب/ح).

صِيَامِهِمْ». ومع هذا أمر بقتلهم؛ لأنَّهم مراءُون في أعمالهم في نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسَّسوا أعمالهم علىٰ اعتقاد غير صالح، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وقد اختلف العلماء في تكفير الخوارج وتفسيقهم ورد روايتهم، كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله.

والمُنَافق المشبه بالريحانة التي لها ريح ظاهر وطعمها مُرٌّ هو المرائي بتلاوته، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

- ثم قال البخاري:

اقْرَءُوا القرآن ما ائْتَلَفَتْ عليه قلوبكم

حدَّثنا أبو النعمان محمَّد بن الفضل عارم[١]، حدَّثنا حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن جندب ابن عبد الله رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ**»[٢].

حدَّثنا عمرو بن علي بن بحر الفلَّاس، حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدَّثنا سلام بن أبي مطيع، عن أبي عمران الجوني، عن جُنْدُب قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ [عَلَيْهِ]**[٣] **قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا**»[٤].

تابعه الحارث بن عُبَيْد وسعيد بن زيد، عن أبي عمران، ولم يرفعه حماد بن سلمة وأبان.

وقال غُنْدَر: عن شعبة، عن أبي عمران قال: سمعت جُنْدُبًا. قوله، وقال ابن عون، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله، وجندب أكثر وأصح.

وقد رواه في موضع آخر، ومسلم كلاهما عن إسحاق بن منصور، عن عبد الصمد، عن همام، عن أبي عمران به، ومسلم -أيضًا- [عن يحيىٰ بن يحيىٰ، عن الحارث بن عبيد أبي قدامة، عن أبي عمران به[٥]، ورواه مسلم -أيضًا-][٦] عن أحمد بن سعيد، عن حبان بن هلال، عن أبان العطار، عن أبي عمران به مرفوعًا[٧].

وقد حكىٰ البخاري: أن أبان وحماد بن سلمة لم يرفعاه، فالله أعلم.

---

(١) في (ح): «ابن عازم»، وهو خطأ.
(٢) صحيح البخاري (٥٠٦٠).
(٣) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «البخاري».
(٤) صحيح البخاري (٥٠٦١).
(٥) صحيح البخاري (٧٣٦٥)، ومسلم (٢٦٦٧).
(٦) ليست في (ح).
(٧) مسلم (٢٦٦٧).

ورواه النَّسائي والطبراني من حديث مسلم بن إبراهيم، عن هارون بن موسىٰ الأعور النحوي، عن أبي عمران به[(١)].

ورواه النسائي -أيضًا- من طرق عن سفيان، عن حجاج بن فرافصة[(٢)]، عن أبي عمران به مرفوعًا[(٣)] وفي رواية عن هارون بن زيد بن أبي الزرقاء، عن أبيه، عن سفيان، عن حجاج، عن أبي عمران، عن جُنْدُب موقوفًا، ورواه عن محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الله ابن عون، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله.

قال أبو بكر بن أبي داود: لم يخطئ ابن عون في حديث قط إلا في هذا، والصواب عن جندب.

[ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز، عن مسلم بن إبراهيم وسعيد بن منصور قالا: حدَّثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران، عن جندب مرفوعًا][(٤)(٥)].

فهذا ما تيسَّر من ذكر طرق هذا الحديث علىٰ سبيل الاختصار، والصحيح منها ما أرشد إليه شيخُ هذه الصِّناعة أبو عبد الله البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أنَّ الأكثر والأصح أنَّه عن جندب بن عبد الله مرفوعًا إلىٰ رسول الله ﷺ.

ومعنىٰ الحديث: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أرشد وحَضَّ أُمَّته علىٰ تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعةً علىٰ تلاوته، متفَكِّرةً فيه، متدبرةً له، لا في حال شُغْلِها وملالها، فإنَّه لا يحصل المقصود من التِّلاوة بذلك كما ثبت في الحديث أنه قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اكْلَفُوا مِنَ العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**»[(٦)] وقال: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ [إِلَىٰ اللهِ][(٧)] مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ وَإِنْ قَلَّ**»[(٨)]، وفي اللفظ الآخر: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ أَدْوَمُهَا**».

ثم قال البخاري: حدَّثنا سليمان بن حرب، حدَّثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال بن سبرة، عن عبد الله -هو ابن مسعود- أنَّه سمع رجلًا يقرأ آية سمع النَّبيَّ ﷺ [قرأ][(٩)] خلافها، فأخذت بيده فانطلقت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: «**كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ فَاقْرَآ**» أكبر علمي قال: «**فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[(١٠)].

وأخرجه النسائي من رواية شعبة به، وهذا في معنىٰ الحديث الذي تقدمه، وأنه ينهىٰ عن الاختلاف في القراءة والمنازعة في ذلك والمراء فيه كما تقدم النهي عن ذلك، والله أعلم.

---

(١) النسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٩٨).
(٢) لوحة (٤٣ أ/ح).
(٣) النسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٩٦).
(٤) «المعجم الكبير» (٢/ ١٦٣/ ١٦٧٣).
(٥) ليست في (ح).
(٦) البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).
(٧) ليست في (ح).
(٨) مسلم (٧٨٢).
(٩) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «البخاري».
(١٠) رواه البخاري (٥٠٦٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠٩٥).

وقريب مِن هذا ما رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدَّثنا أبو محمَّد سعيد بن محمَّد الجرمي، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد الأموي، عن الأعمش، عن عاصم، عن زر بن حبيش قال: قال عبد الله ابن مسعود: تَمَارَيْنَا في سورةٍ من القرآن فقلنا: خمس وثلاثون آية، ست وثلاثون آية، قال: فانطلقنا إلىٰ رسول الله ﷺ فوجدنا عليًّا يناجيه فقلنا له: اختلفنا في القراءة، فاحمَرَّ وجه رسول الله ﷺ، فقال علي: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرءوا كما علمتم(١).

وهذا آخر ما أورده البخاري رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «فضائل القرآن» جل منزله، وتعالىٰ قائله، ولله الحمد والمِنَّة(٢).

كتاب الجامع لأحاديث شتى
تتعلق بتلاوة القرآن وفضائله وفضل أهله

فَصْلٌ

قال أحمد: حدَّثنا معاوية بن هشام، حدَّثنا شيبان(٣)، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال نبي الله ﷺ: **«يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الجَنَّةَ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ، فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً، حَتَّىٰ يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ»**(٤).

وقال أحمد: حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا حَيْوَة، حدَّثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني؛ أنَّ الوليد بن قيس التُّجيبي حدَّثه؛ أنَّه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يَكُونُ خَلْفٌ مِنْ بَعْدِ السِّتِّينَ سَنَةً، أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا، ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ ثَلَاثَةٌ: مُؤْمِنٌ وَمُنَافِقٌ وَفَاجِرٌ»**، قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يَتَأَكَّل به، والمؤمن يُؤْمِنُ به(٥).

وقال أحمد: حدَّثنا حجاج، حدَّثنا الليث، حدَّثني يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي الخطاب، عن أبي سعيد أنه قال: إن رسول الله ﷺ عام تبوك خطب الناس وهو مسند ظهره إلىٰ نخلة

---

(١) عبد الله بن أحمد (١/ ١٠٥)، رجاله ثقات عدا عاصم بن أبي النجود: صدوق، فالإسناد حسن.

(٢) لوحة (٤٣ ب/ح).

(٣) في (ح): «سفيان»، وهو خطأ.

(٤) صحيح: وهذا إسناد ضعيف لضعف عطية العوفي، رواه أحمد (٣/ ٤٠)، وابن ماجة (٣٧٨٠)، لكن للحديث شواهد: منها: ما رواه أحمد (٢/ ١٩٢)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٧٠)، وأبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (١٩١٤) من حديث عبد الله بن عمرو وإسناده حسن، وقال الترمذي: حسن صحيح، ومنها: ما رواه أحمد (٢/ ٤٧١)، وابن أبي شيبة (١/ ٩٨)، والترمذي (١٩١٥) من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن، وبالجملة فالحديث صحيح.

(٥) إسناده حسن لغيره: رواه أحمد (٣/ ٢٨) ورجاله ثقات عدا الوليد بن قيس، قال الحافظ: مقبول، وله طريق أخرىٰ يتقوىٰ به. رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٢٠٥- ٢٠٦)، وبمجموعها فالحديث حسن، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٥٨).

فقال: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ وَشَرِّ النَّاسِ؛ إِنَّ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ رَجُلًا عَمِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَلَىٰ ظَهْرِ فَرَسِهِ أَوْ عَلَىٰ ظَهْرِ بَعِيرِهِ أَوْ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ المَوْتُ، وَإِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ رَجُلًا فَاجِرًا جَرِيئًا يَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ، لا يَرْعَوِي إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْهُ»(١).

قال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدَّثنا محمَّد بن عمر بن هياج الكوفي، حدَّثنا الحسين(٢) بن عبد الأول(٣)، حدَّثنا محمَّد بن الحسن الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ القُرْآنِ عَنْ دُعَائِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ السَّائِلِينَ»، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فَضْلَ كَلَامِ اللهِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ»، ثم قال: تفرَّد به محمَّد بن الحسن ولم يُتَابَع عليه(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عبيدة الحداد، حدَّثني عبد الرحمن بن بُدَيْل بن ميسرة، حدَّثني أبي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»(٥).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن علي بن شعيب السمسار، حدَّثنا خالد بن خِدَاش، حدَّثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، أن أنس بن مالك ﷺ: كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم(٦).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدَّثنا محمَّد بن عباد المكي، حدَّثنا حاتم بن إسماعيل، عن(٧) شريك، عن الأعمش، عن يزيد بن أبان، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القُرْآنُ غِنًىٰ لا فَقْرَ بَعْدَهُ وَلا غِنًىٰ دُونَهُ»(٨).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا سلمة بن شبيب، حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا عبد الله بن المحرر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حِلْيَةٌ، وَحِلْيَةُ القُرْآنِ الصَّوْتُ الحَسَنُ». ابن

---

(١) إسناده ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٣٧، ٤١، ٥٧)، والنسائي (٦/ ١١)، وفيه أبو الخطاب المصري: مجهول.

(٢) في (ح): «الحسن»، وهو خطأ.

(٣) في (ح): «عبد الأعلىٰ».

(٤) إسناده ضعيف جدًّا: ولم أقف عليه عند البزار، لكن رواه نحوه: الترمذي (٢٩٢٦)، والدارمي (٣٣٥٩)، وإسناده ضعيف لضعف عطية العوفي، وقال الترمذي: حسن غريب، وضعفه الحافظ في «الفتح» (٩/ ٦٦)، وقال الألباني: ضعيف جدًّا، انظر: «ضعيف الترغيب» (٨٦٠).

(٥) إسناده حسن: رواه أحمد (٣/ ١٢٧) (٣/ ١٢٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٢١٥)، ورجاله ثقات عدا عبد الرحمن بن بديل، قال الحافظ: لا بأس به، وصححه المنذري في «الترغيب» (٢/ ٣٥٤)، وجوده الألباني، وقال الذهبي في «الميزان» (٣/ ٦٢٦): إسناده صالح.

(٦) إسناده صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» (١/ ٢٤٢/ ٦٧٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧٢): رجاله ثقات.

(٧) لوحة (٤٤ أ/ح).

(٨) إسناده ضعيف جدًّا: رواه الطبراني (١/ ٢٥٥/ ٧٣٨)، وفيه يزيد بن أبان الرقاشي: ضعيف، وشريك القاضي: سيئ الحفظ.

المحرر: ضعيف(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا بكر بن سوادة، عن وفاء الخولاني، عن أنس بن مالك قال: بينما نحن نقرأ فينا العربي والعجمي والأسود والأبيض، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أَنْتُمْ فِي خَيْرٍ؛ تَقْرَءُونَ كِتَابَ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَسَيَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَثْقَفُونَهُ كَمَا يُثْقَفُ الْقِدْحُ، يَتَعَجَّلُونَ أُجُورَهُمْ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهَا»(٢).

وقد رواه الإمام أحمد -أيضًا- عن حسن، عن ابن لَهِيعة، عن بكر، عن وفاء، عن سهل بن سعد، عن النَّبيِّ ﷺ فذكره(٣).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا يوسف بن موسىٰ، حدَّثنا عبد الله بن الجهم، حدَّثنا عمرو بن أبي قيس، عن عبد ربه بن(٤) عبد الله، عن عمر بن نبهان، عن الحسن، عن أنس؛ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ يَكْثُرُ خَيْرُهُ، وَالْبَيْتُ الَّذِي لَا يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ يَقِلُّ خَيْرُهُ»(٥).

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا الفضل بن الصباح(٦)، حدَّثنا أبو عبيدة، عن محتسب، حدَّثني يزيد الرقاشي، عن أنس قال: قعد أبو موسىٰ في بيتٍ واجتمع إليه ناس، فأنشأ يقرأ عليهم القرآن، قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ألا أعجبك مِن أبي موسى، إنَّه قعد في بيت فاجتمع إليه ناس فأنشأ يقرأ عليهم القرآن فقال رسول الله ﷺ: «أَفَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُقْعِدَنِي حَيْثُ لَا يَرَانِي مِنْهُمْ أَحَدٌ؟». قال: نعم. قال: فخرج رسول الله ﷺ فأقعده الرَّجل حيث لا يراه منهم أحد، فسمع قراءة أبي موسىٰ فقال: «إِنَّهُ لَيَقْرَأُ عَلَىٰ مِزْمَارٍ مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»(٧).

---

(١) إسناده ضعيف جدًّا: رواه البزار في «البحر الزخار» وضعفه (٧٢٨٠)، وإسناده ضعيف، فيه عبد الله بن محرر، قال البخاري في «الأوسط» (ت/ ٢٠٩٨): متروك، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧١): وفيه عبد الله بن محرر: وهو متروك.

(٢) إسناده ضعيف (حسن لغيره): رواه أحمد (٣/ ١٤٦)، وفيه ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه، وقد اضطرب فيه، ففي هذه الرواية جعله من مسند أنس، وفي الرواية الآتية جعله من مسند سهل.

- وللحديث شاهد من حديث جابر وسيأتي، ولفظه: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَابْتَغُوا بِهِ وَجْهَ اللهِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بِقَوْمٍ يُقِيمُونَهُ إِقَامَةَ الْقِدْحِ يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ».

(٣) إسناده ضعيف (حسن لغيره): رواه أحمد (٥/ ٣٣٨) من طريق ابن لهيعة أيضًا، وقد جعله هنا من مسند سهل بن سعد، وقد تابعه علىٰ هذه الطريق عمرو بن الحارث. رواه أبو داود (٨٣١)، وابن حبان (١٧٨٦)، وانظر التعليق السابق.

(٤) في (ح): «عن عبد الله».

(٥) ضعيف: رواه البزار في «البحر الزخار» (٦٦٧٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧١): وفيه عمر بن نبهان: ضعيف.

(٦) في (ح): «الصبح».

(٧) ضعيف جدًّا: رواه أبو يعلىٰ (٤٠٩٦)، وفيه يزيد الرقاشي: متروك، ومحتسب: لين الحديث، وقد وهم الحافظ الهيثمي رَحِمَهُ اللهُ حيث حَسَّن إسناده في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٦٠).

- قلت: والطرف الأخير من الحديث: «يَقْرَأُ عَلَىٰ مِزْمَارٍ ...» صحيح ثابت في «الصحيحين» وقد تقدَّم.

هذا حديث غريب، ويزيد الرقاشي: ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا مصعب بن سلام، حدَّثنا جعفر -هو ابن محمَّد بن علي بن الحسين- عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحَمِدَ الله وأثنىٰ عليه بما هو له أهل، ثم قال: **«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَإِنَّ أَفْضَلَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»** ثم يرفع صوته وتحمر وَجْنَتَاه، ويشتد غضبه إذا ذكر السَّاعة، كأنَّه مُنْذِر جيش. قال: ثم يقول: **«أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ، بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ**[(١)] **هَكَذَا** -وأشار بأصبعيه السبابة والوسطىٰ- **صَبَّحَتْكُمُ السَّاعَةُ وَمَسَّتْكُمْ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضِيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ»**[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الوهاب -يعني ابن عطاء- أنبأنا أسامة بن زيد اللَّيثي، عن محمَّد بن المنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا قوم يقرءون القرآن فقال: **«اقْرَءُوا القُرْآنَ وَابْتَغُوا بِهِ وَجْهَ اللهِ ﷻ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَهُ إِقَامَةَ القِدْحِ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ»**[(٣)].

قال أحمد -أيضًا-: حدَّثنا خلف بن الوليد، حدَّثنا خالد، حدَّثنا حميد الأعرج[(٤)]، عن محمَّد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا العجمي والأعرابي قال: فاستمع فقال: **«اقْرَءُوا فَكُلٌّ حَسَنٌ، وَسَيَأْتِي قَوْمٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَامُ القِدْحُ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ»**[(٥)].

وقال أبو بكر البزار: حدَّثنا أبو كُرَيْب محمَّد بن العلاء، حدَّثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن المعلىٰ الكندي، عن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن شافع مُشَفَّع، من اتَّبعه قاده إلىٰ الجنَّة، ومَن تركه أو أعرض عنه -أو كلمة نحوها- زَخَّ في قفاه إلىٰ النَّار[(٦)]. وحدَّثنا أبو كريب، حدَّثنا عبد الله ابن الأجلح، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه[(٧)].

قال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا أحمد بن عبد العزيز بن مروان أبو صخر، حدَّثني بكر[(٨)] بن يونس،

---

(١) لوحة (٤٤ ب/ح).

(٢) إسناده صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣١٠)، ورواه مسلم (٨٦٧)، والنسائي (٣/ ١٨٨) (٣/ ٤٤٩)، وابن ماجة (٤٥).

(٣) إسناده ضعيف (والحديث صحيح): رواه أحمد (٣/ ٣٥٧)، وفيه أسامة بن زيد الليثي: ضعفه غير واحد، لكن تابعه حميد الأعرج: رواه أبو داود (٨٣٠) وأحمد (٣/ ٣٩٧) وإسناده صحيح: وثبت من طريق حميد مرسلًا؛ رواه عبد الرزاق (٦٠٣٤): وبالجملة فالحديث صحيح، وقد تقدَّم شواهد له من حديث أنس وسهل بن سعد.

(٤) في (ح): «حميد عن الأعرج» وهو خطأ.

(٥) انظر التعليق السابق.

(٦) رواه البزار (١٢١- كشف الأستار) وفيه المعلىٰ الكندي لم يوثقه غير ابن حبان، ولكن للحديث طريق أخرىٰ رواه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٢٢/ ٨٦٥٥) وإسناده صحيح، وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٠١٩).

(٧) رواه البزار (١٢٢- كشف الأستار)، وابن حبان (١٧٩٣)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٢٠١٩): إسناده جيد، وكذا قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢٠٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧١): رجاله ثقات.

(٨) في (ح): «بكير»، وهو خطأ.

عن موسىٰ بن علي، عن أبيه، عن يحيىٰ بن أبي كثير اليمامي، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ قِنْطَارًا، وَالقِنْطَارُ مِائَةُ رَطْلٍ، وَالرَّطْلُ اثْنَتَا عَشْرَةَ أُوقِيَّةً، وَالوُقِيَّةُ سِتَّةُ دَنَانِيرَ، وَالدِّينَارُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ قِيرَاطًا، وَالقِيرَاطُ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ قَرَأَ ثَلَاثَمِائَةِ آيَةٍ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: نَصِبَ عَبْدِي لِي، أُشْهِدُكُمْ يَا مَلَائِكَتِي أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَمَنْ بَلَغَهُ عَنِ اللهِ فَضِيلَةٌ فَعَمِلَ بِهَا إِيمَانًا بِهِ وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ، أَعْطَاهُ اللهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ**»(١).

وقال أحمد: حدَّثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ القُرْآنِ كَالبَيْتِ الخَرِبِ**». قال البزَّار: لا نعلمه يروىٰ عن ابن عبَّاس إلا من هذا الوجه(٢).

وقال الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عثمان بن أبي شيبة، حدَّثني أبي قال: وجدت في كتاب أبي بخطه عن عمران بن أبي عمران، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اتَّبَعَ كِتَابَ اللهِ هَدَاهُ اللهُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَوَقَاهُ سُوءَ الحِسَابِ(٣) يَوْمَ القِيَامَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾** [طه: ١٢٣]»(٤).

وقال الطبراني: حدَّثنا يحيىٰ بن عثمان بن صالح، حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عبَّاس أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ قِرَاءَةً مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ يَتَحَزَّنُ بِهِ**»(٥).

وقال -أيضًا-: حدَّثنا أبو يزيد القراطيسي، حدَّثنا نعيم بن حماد، حدَّثنا عبدة(٦) بن سليمان، عن سعيد أبي سعد البقال، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَحْسِنُوا الأَصْوَاتَ بِالقُرْآنِ**»(٧).

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه أبو يعلىٰ في «معجم شيوخه» (٧٤) مختصرًا، والحديث ضعيف، أحمد بن عبد العزيز: ضعيف، وبكر بن يونس: منكر الحديث، وفيه انقطاع بين يحيىٰ بن أبي كثير وجابر بن عبد الله.

(٢) إسناده ضعيف: رواه أحمد (١/ ٢٢٣)، والترمذي (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح، وصحَّحه الحاكم (١/ ٥٥٤)، وردَّه الذَّهبي فضعَّفه بقابوس وهو ابن أبي ظبيان الجَنْبِي: فيه لين، وأورده الألباني في «ضعيف الجامع» (١٥٢٤).

(٣) لوحة (٤٥ أ/ ح).

(٤) إسناده ضعيف: رواه الطبراني (١٢/ ٤٨/ ٢٤٣٧)، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٦٩): فيه أبو شيبة وهو ضعيف جدًّا، قلت: وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٥٣١).

(٥) إسناده ضعيف: رواه الطبراني (١١/ ٧/ ١٠٨٥٢)، وفيه ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٨٨٢)، ولكن صححه في «الصحيحة» (١٥٨٣).

(٦) كذا في (ح)، وهو الصواب، ووقع في طبعة الشيخ الحويني: «عبد الله».

(٧) إسناده ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٨/ ١٢٦٤٣)، وفيه أبو سعد البقَّال، قال الحافظ: ضعيف مدلس، والضَّحَّاك لم يسمع من ابن عبَّاس؛ فالإسناد منقطع. واعلم أنَّه قد تقدَّم فصل في «استحباب تحسين الصوت بالقرآن» وفيه جملة من الأحاديث الصحيحة.

وروىٰ -أيضًا- بسنده إلىٰ الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس مرفوعًا: «أَشْرَفُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ»[١].

وقال الطبراني: حدَّثنا معاذ[٢] بن المثنىٰ، حدَّثنا إبراهيم بن [أبي سويد][٣] الذارع، حدَّثنا صالح المري، عن قتادة، عن زرارة بن أوفىٰ، عن ابن عبَّاس قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: أي الأعمال أحب إلىٰ الله؟ فقال: «الحَالُّ المُرْتَحِلُ». قال: يا رسول الله، ما الحالُّ المرتحل؟ قال: «صَاحِبُ الْقُرْآنِ يَضْرِبُ فِي أَوَّلِهِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ آخِرَهُ، وَفِي آخِرِهِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَوَّلَهُ»[٤].

باب ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن وطرد النسيان

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «معجمه الكبير»: حدَّثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا محمَّد بن إبراهيم القرشي، حدثنىٰ أبو صالح وعكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قال علي بن أبي طالب: يا رسول الله، القرآن يتفلَّت من صدري، فقال النَّبيُّ ﷺ: «أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ وَيَنْفَعُ مَنْ عَلَّمْتَهُ». قال: قال: نعم بأبي أنت وأمي، قال: «صَلِّ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ تَقْرَأُ فِي الأُولَىٰ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَ﴿يسٓ﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَ﴿حمٓ﴾ الدُّخَانِ، وَفِي الثَّالِثَةِ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَةِ، وَفِي الرَّابِعَةِ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَ﴿تَبَارَكَ﴾ المُفَصَّلِ، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ التَّشَهُّدِ فَاحْمَدِ اللهَ وَأَثْنِ عَلَيْهِ، وَصَلِّ عَلَىٰ النَّبِيِّينَ، وَاسْتَغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي بِتَرْكِ المَعَاصِي أَبَدًا مَا أَبْقَيْتَنِي، وَارْحَمْنِي مِنْ أَنْ أَتَكَلَّفَ مَا لا يَعْنِينِي، وَارْزُقْنِي حُسْنَ النَّظَرِ فِيمَا يُرْضِيكَ عَنِّي، اللَّهُمَّ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ وَالعِزَّةِ الَّتِي لا تُرَامُ، أَسْأَلُكَ يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ بِجَلَالِكَ وَنُورِ وَجْهِكَ أَنْ تُلْزِمَ قَلْبِي حِفْظَ كِتَابِكَ كَمَا عَلَّمْتَنِي، وَارْزُقْنِي أَنْ أَتْلُوَهُ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي يُرْضِيكَ عَنِّي، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تُنَوِّرَ بِالكِتَابِ بَصَرِي، وَتُطْلِقَ بِهِ لِسَانِي، وَتُفَرِّجَ بِهِ عَنْ قَلْبِي، وَتَشْرَحَ بِهِ صَدْرِي، وَتَسْتَعْمِلَ بِهِ بَدَنِي، وَتُقَوِّيَنِي عَلَىٰ ذَلِكَ وَتُعِينَنِي عَلَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّهُ[٥] لا يُعِينُنِي عَلَىٰ الخَيْرِ غَيْرُكَ، وَلا يُوَفِّقُ لَهُ إِلَّا أَنْتَ، فَافْعَلْ ذَلِكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ أَوْ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا تَحْفَظْهُ بِإِذْنِ اللهِ وَمَا أَخْطَأَ مُؤْمِنًا قَطُّ». فأتىٰ النَّبيَّ ﷺ بعد ذلك بسبع جُمَع فأخبره بحفظ القرآن والحديث، فقال النَّبيُّ ﷺ: «مُؤْمِنٌ وَرَبِّ الكَعْبَةِ، عَلِمَ أَبُو الحَسَنِ، عَلِمَ أَبُو الحَسَنِ» هذا سياق الطبراني[٦].

---

(١) إسناده ضعيف: رواه الطبراني (١٢/ ١٢٥/ ١٢٦١٢)، وفيه سعد بن سعيد الجرجاني: ضعيف.

(٢) ليست في (ح). (٣) في (ح): «موسىٰ».

(٤) إسناده ضعيف: رواه الطبراني (١٢/ ١٦٨/ ١٢٧٨٣)، وفيه صالح المري، قال الحافظ: ضعيف (ترجمة ٢٨٤٥).

(٥) لوحة (٤٥ ب/ح).

(٦) إسناده ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٦٧/ ١٢٠٣٦)، وفي إسناده إسحاق بن نجيح: متروك.

وقال أبو عيسىٰ الترمذي في كتاب «الدعوات»: حدَّثنا أحمد بن الحسن، حدَّثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح وعكرمة مولىٰ ابن عبَّاس، عن ابن عبَّاس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه علي بن أبي طالب فقال: بأبي أنت وأمي، تفلَّت هذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا الحَسَنِ، أَفَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ، وَيَنْفَعُ بِهِنَّ مَنْ عَلَّمْتَهُ، وَيُثَبِّتُ مَا تَعَلَّمْتَ فِي صَدْرِكَ؟» قال: أجل يا رسول الله، فعلمني، قال: «إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الجُمُعَةِ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَقُومَ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ فَإِنَّهَا سَاعَةٌ مَشْهُودَةٌ، وَالدُّعَاءُ فِيهَا مُسْتَجَابٌ، وَقَدْ قَالَ أَخِي يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨]، يَقُولُ: حَتَّىٰ تَأْتِيَ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقُمْ فِي وَسَطِهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقُمْ فِي أَوَّلِهَا فَصَلِّ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، تَقْرَأُ فِي الرَّكْعَةِ الأُولَىٰ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَ[سُورَةِ] (١)﴿يسٓ﴾، وَفِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَ﴿حمٓ﴾ الدُّخَانِ، وَفِي [الرَّكْعَةِ](٢) الثَّالِثَةِ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَةِ، وَفِي الرَّكْعَةِ الرَّابِعَةِ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَ﴿تَبَارَكَ﴾ المُفَصَّلِ، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ التَّشَهُّدِ، فَاحْمَدِ اللهَ وَأَحْسِنِ الثَّنَاءَ عَلَىٰ اللهِ، وَصَلِّ عَلَيَّ وَأَحْسِنْ وَعَلَىٰ سَائِرِ النَّبِيِّينَ، وَاسْتَغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ، وَلإِخْوَانِكَ الَّذِينَ سَبَقُوكَ بِالإِيمَانِ، ثُمَّ قُلْ فِي آخِرِ ذَلِكَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي بِتَرْكِ المَعَاصِي أَبَدًا مَا أَبْقَيْتَنِي، وَارْحَمْنِي أَنْ أَتَكَلَّفَ مَا لا يَعْنِينِي، وَارْزُقْنِي حُسْنَ النَّظَرِ فِيمَا يُرْضِيكَ عَنِّي، اللَّهُمَّ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ وَالعِزَّةِ الَّتِي لا تُرَامُ، أَسْأَلُكَ يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ بِجَلالِكَ وَنُورِ وَجْهِكَ أَنْ [تُلْزِمَ قَلْبِي حِفْظَ كِتَابِكَ كَمَا عَلَّمْتَنِي، وَارْزُقْنِي أَنْ أَتْلُوَهُ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي يُرْضِيكَ عَنِّي، اللَّهُمَّ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ وَالعِزَّةِ الَّتِي لا تُرَامُ، أَسْأَلُكَ يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ بِجَلالِكَ وَنُورِ وَجْهِكَ، أَنْ](٣) تُنَوِّرَ بِكِتَابِكَ بَصَرِي، وَأَنْ تُطْلِقَ بِهِ لِسَانِي، وَأَنْ تُفَرِّجَ بِهِ عَنْ قَلْبِي، وَأَنْ تَشْرَحَ بِهِ صَدْرِي، وَأَنْ تَغْسِلَ بِهِ بَدَنِي، فَإِنَّهُ لا يُعِينُنِي عَلَىٰ الحَقِّ غَيْرُكَ وَلا يُؤْتِيهِ إِلَّا أَنْتَ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ، يَا أَبَا الحَسَنِ، تَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ جُمَعٍ أَوْ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا تُجَابُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ(٤) مَا أَخْطَأَ مُؤْمِنًا قَطُّ».

قال ابن عبَّاس: فوالله [ما لبث عليٌّ](٥) إلا خمسًا أو سبعًا حتىٰ جاء رسول الله ﷺ في مثل ذلك المجلس، فقال: يا رسول الله، والله إنِّي كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن، فإذا قرأتُهُن علىٰ نفسي تَفَلَّتْنَ وأنا أتعلَّم اليوم أربعين آية أو نحوها، فإذا قرأتها علىٰ نفسي فكأنَّما كتاب الله بين عَيْنِي، ولقد كنت أسمع الحديث، فإذا رَدَّدْتُه تَفَلَّت، وأنا اليوم أسمع الأحاديث، فإذا تحدثتُ بها لم أخْرِم منها

---

(١) ليست في (ح)، والمثبت موافق لما في «الترمذي». (٢) ليست في (ح)، والمثبت موافق لما في «الترمذي».

(٣) ليست في (ح)، ولا في نسخة الشيخ الحويني، وهي مثبتة في «الترمذي».

(٤) لوحة (٤٦/أ/ح). (٥) ليست في (ح)، والمثبت موافق لما في «الترمذي».

حرفًا، فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك: «مُؤْمِنٌ وَرَبِّ الكَعْبَةِ [يَا][١] أَبَا الحَسَنِ»[٢].

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. كذا قال، وقد تقدم من غير طريقه. ورواه الحاكم في مستدركه من طريق الوليد، ثم قال: علىٰ شرط الشيخين ولا شَكَّ أنَّ سنده من الوليد علىٰ شرط الشَّيخين حيث صرَّح الوليد بالسَّماع من ابن جريج، فالله أعلم؛ فإنه في المتن غرابة بل نكَارَة[٣]، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا العمري، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ القُرْآنِ مَثَلُ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ إِنْ تَعَاهَدَهَا صَاحِبُهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا ذَهَبَتْ»[٤].

ورواه -أيضًا- عن محمَّد بن عبيد ويحيىٰ بن سعيد، عن عبيد الله العمري به[٥].

ورواه -أيضًا- عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعًا نحوه[٦].

وقال البزَّار: حدَّثنا محمَّد بن معمر، حدَّثنا حميد بن حماد بن أبي الحوار، حدَّثنا مِسْعر، عن عبد الله ابن دينار، عن ابن عمر قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ: أي الناس أحسن قراءة؟ قال: «مَنْ إِذَا سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ رُؤِيتَ أَنَّهُ يَخْشَىٰ اللهَ ﷻ»[٧].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ [وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا][٨] فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»[٩].

وقال أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثني حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي أقرأ القرآن فلا أجد قلبي

---

(١) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «الترمذي».

(٢) إسناده ضعيف: رواه الترمذي (٣٥٧٠)، والحاكم (١/ ٣١٦، ٣١٧)، وقال الذهبي: هذا حديث منكر شاذٌّ؛ أخاف أن يكون موضوعًا، وقد حَيَّرَني -والله- خوف سَنَدِهِ، ليس فيه إلا الوليد بن مسلم، قلتُ: ويكفي هذا في ضعف الحديث، فإنَّ الوليد بن مسلم مدلس تدليس تسوية، ويشترط لقبول حديثه أن يروي بالتَّحديث في جميع طبقات السند، ولكن الإسناد هنا معنعن فالحديث ضعيف، وأيضًا في الإسناد ابن جريج وهو مدلس وقد عنعن.

(٣) المثبت من (ح)وفي (حوين): «فإنَّه من البيِّن غرابته بل نكارته».

(٤) إسناده صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٣).

(٥) رواه أحمد (٢/ ١٧) (٢/ ٣٠)، وإسناده صحيح. (٦) إسناده صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٥).

(٧) إسناده ضعيف: رواه البزار في «البحر الزخار» (٦١٣٦)، وفي إسناده حميد بن حماد بن أبي الحوار: ضعيف لم يُوَثِّقه غير ابن حبان

(٨) ليست في (ح).

(٩) إسناده حسن: رواه أحمد (٢/ ١٩٢) وقد تقدم.

يعقل عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ قَلْبَكَ حُشِيَ الإِيمَانَ، وَإِنَّ العَبْدَ يُعْطَىٰ الإِيمَانَ قَبْلَ القُرْآنِ»(١).

وبهذا الإسناد: أنَّ رجلًا جاء بابن له فقال: يا رسول الله، إنَّ ابني هذا يقرأ المصحف(٢) بالنَّهار ويبيت بالليل، فقال رسول الله ﷺ: «مَا تَنْقِمُ؟ إِنَّ ابْنَكَ يَظَلُّ ذَاكِرًا وَيَبِيتُ سَالِمًا»(٣).

وقال أحمد: حدَّثنا موسىٰ بن داود، حدَّثنا ابن لَهيعة، عن حيي، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «الصِّيَامُ وَالقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، أَنَا مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ القُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ»، قال: «فَيُشَفَّعَانِ»(٤).

وقال أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهيعة، [حدَّثنا درَّاج](٥) عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا»(٦).

وقال أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثني همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ لَمْ يَفْقَهْ».

ورواه -أيضًا- عن غُنْدَر، عن شعبة، عن قتادة به. وقال الترمذي: حسن صحيح(٧).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن إسحاق بن راهويه، حدَّثنا أبي، حدَّثنا عيسىٰ بن يونس، ويحيىٰ بن أبي الحجاج التميمي، عن إسماعيل بن رافع، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فَكَأَنَّمَا اسْتُدْرِجَتْ النُّبُوَّةُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَمَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فَرَأَىٰ أَنَّ أَحَدًا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ عَظَّمَ مَا صَغَّرَ اللهُ، وَصَغَّرَ مَا عَظَّمَ اللهُ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِحَامِلِ القُرْآنِ أَنْ يَسْفَهَ فِيمَنْ يَسْفَهُ، أَوْ يَغْضَبَ فِيمَنْ يَغْضَبُ، أَوْ يَحْتَدَّ فِيمَنْ يَحْتَدُّ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، لِفَضْلِ القُرْآنِ»(٨).

---

(١) **إسناده ضعيف:** رواه أحمد (٢/ ١٧٢)، وفيه ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه.

(٢) لوحة (٤٦ ب/ح).

(٣) **إسناده ضعيف كسابقه:** رواه أحمد (٢/ ١٧٣).

(٤) **إسناده ضعيف (والحديث صحيح):** رواه أحمد (٢/ ١٧٤)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، لكنه توبع، رواه الحاكم (١/ ٥٥٤)، وصححه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٣٤/ ٨٨)، وابن نصر في «قيام الليل» (١/ ٤٦)، وتابعه رشدين بن سعد وهو ضعيف، ورواه البغوي في «تفسيره» (١/ ٣٢٥).

(٥) سقط من (ح)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) **صححه الألباني:** رواه أحمد (٢/ ١٧٥)، وإسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة: اختلط، وقد اضطرب فيه، فرواه هنا من مسند عبد الله بن عمرو، ورواه من مسند عقبة بن عامر، أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٩٤٤).
- وللحديث شواهد، أوردها الشيخ الألباني. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٧٥٠).

(٧) **صحيح:** رواه أحمد (٤/ ١٥١)، وأبو داود (١٣٩٠)، والترمذي (٢٩٤٧) وقال: حسن صحيح، وقد تقدم.

(٨) **إسناده ضعيف جدًّا:** رواه الطبراني (١٣/ ٦٤٩)، وأورده الهيتمي في «المجمع» (٧/ ١٥٩) وفيه إسماعيل بن رافع: متروك، وقد ثبت الحديث موقوفًا من طرق ضعيفة أيضًا.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا عباد بن ميسرة، عن الحَسَن، عن أبي هُريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ اسْتَمَعَ إِلَىٰ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ، وَمَنْ تَلَاهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

وقال البزَّار: حدَّثنا محمَّد بن حرب، حدَّثنا يحيىٰ بن المتوكل، حدَّثنا عَنْبَسة بن مهْران عن الزُّهري، عن سَعِيدٍ وأبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: [«**مِرَاءٌ فِي القُرْآنِ كُفْرٌ**»(٢). ثم قال: عَنْبَسة: هذا ليس بالقويِّ. وعنده فيه إسناد آخر.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا أبو بكر، حدَّثنا ابن إدريس، حدَّثنا المقبري، عن جدِّه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:](٣) «**أَعْرِبُوا القُرْآنَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ**»(٤).

وقال الطبراني: حدَّثنا موسىٰ بن خازم(٥) الأصبهاني، حدَّثنا محمَّد بن [بكير الحضرمي، حدَّثنا إسماعيل بن](٦) عَيَّاش(٧)، عن يحيىٰ بن الحارث(٨) الذِّماري، عن القاسم بن أبي عبد الرحمن، عن فضالة بن عُبَيد، وتَمِيم الداريِّ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قِنْطَارٌ، وَالقِنْطَارُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَقُولُ رَبُّكَ ﷻ: اقْرَأْ وَارْقَ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ مَعَهُ، يَقُولُ رَبُّكَ: اقْبِضْ، فَيَقُولُ العَبْدُ بِيَدِهِ: يَا رَبِّ أَنْتَ أَعْلَمُ. فَيَقُولُ: بِهَذِهِ الخُلْدُ وَبِهَذِهِ النَّعِيمُ**»(٩).

وروىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة معقس بن عمران بن حطان قال: دخلتُ مع أبي علىٰ أم الدرداء ﵂ فسألها أبي: ما فضل مَن قرأ القرآن علىٰ من لم يقرأ؟ قالت: حدثتني عائشة قالت: جُعِلت دَرَجُ الجنَّة علىٰ عدد آي القرآن، فمن قرأ ثلث القرآن ثم دخل الجنَّة كان علىٰ الثُّلُث من دَرَجها، ومن قرأ نصف القرآن كان علىٰ النِّصف مِن دَرَجها، ومن قرأ كُلَّه كان في عِلِّيِّين، لم يكن فوقه إلا نبي أو صديق أو شهيدٌ(١٠).

وقال الطبراني: حدَّثنا مَسْعَدَةُ بن سَعْد العطارُ المكي، حدَّثنا إبراهيم بن المنذر الحِزَامي، حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم مولىٰ جميع [بن حارثة](١١) الأنصاري، حدَّثنا عبد الله بن ماهان الأزدي، حدَّثني

---

(١) إسناده ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٣٤١)، وفيه عباد بن ميسرة: ضعيف، وفيه أيضًا انقطاع بين الحسن وأبي هريرة.

(٢) صححه الألباني: رواه البزار (٧٦٨٨)، وانظر: «صحيح الجامع» (٤٤٤٤).

(٣) ما بين المعقوفتين ليست في (ح)، وهو في نسخة «الحويني».

(٤) إسناده ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٦٥٦٠)، وفيه عبد الله بن سعيد: متروك، والحديث رواه الحاكم (٧/ ١٦٣) وصححه، ورده الذهبي فقال: بل أجمع علىٰ ضعفه.

(٥) في (ح): «حازم»، والمثبت هو الصواب.

(٦) ليست في (ح)، والمثبت موافق لما في «الطبراني».

(٧) في (ح): «عبَّاس»، وهو خطأ.

(٨) لوحة (٤٧أ/ح).

(٩) إسناده حسن: رواه الطبراني (٢/ ٥٠/ ١٢٥٣)، ولا يضر أن فيه إسماعيل بن عياش؛ لأن روايته عن الشاميين صحيحة وهذا منها.

(١٠) رواه ابن عساكر (٥٩/ ٣٥٥) (ت/ ٧٥٥٨)، وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة»: موضوع.

(١١) ليست في (ح)، وهي مثبتة في «الطبراني».

فائد مولىٰ عُبَيد الله بن أبي رافع، حدثتني سُكينة بنت الحُسَين بن علي، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «حَمَلَةُ القُرْآنِ عُرَفَاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

وروىٰ الطبراني من حديث بقيَّة، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن المهاصر بن حبيب، عن عبيدة المليكي، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «يَا أَهْلَ القُرْآنِ، لَا تَوَسَّدُوا القُرْآنَ، وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ مِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَغَنَّوْهُ وَتَقَنَّوْهُ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا ثَوَابَهُ، فَإِنَّ لَهُ ثَوَابَيْنِ»(٢)(٣).

وفي حديث عقبة بن عامر نحوه، كما تقدَّم.

وقال **الإمام أحمد**: حدَّثنا أبو سعيد، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، عن مِشْرَح، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ القُرْآنَ جُعِلَ فِي إِهَابٍ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ مَا احْتَرَقَ»(٤). تفرَّد به. قيل: معناه: أنَّ الجسد الَّذي يقرأ القرآن [لَا تَمَسُّه النَّارُ](٥).

وفي سُنَن ابن ماجه من طريق المغيرة بن نَهِيكٍ، عن عقبة بن عامر مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ(٦) ثُمَّ تَرَكَهُ فَقَدْ عَصَانِي»(٧).

وفي حديث رواه أبو يعلىٰ من طريق ليث، عن مجاهد، عن [أبي](٨) سعيد مرفوعًا: «عَلَيْكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ، فَإِنَّهَا رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ، وَعَلَيْكَ بِالجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ القُرْآنِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ وَذِكْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ، وَاخْزُنْ(٩) لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ، فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ»(١٠).

وهكذا أذكُرُ آثارًا مرويَّةً(١١) عن ابن أمِّ عَبْد [عبد الله بن مسعود](١٢) أحدِ قُرَّاء القرآن مِنَ الصَّحابةِ المأمورِ بالتلاوة علىٰ نحوهم: روىٰ الطبراني، عن الدَّبَرِيِّ، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن أبي إسحاق، قال ابن مسعود: كلُّ آية في كتاب الله خيرٌ مما في السماء والأرض(١٣).

---

(١) إسناده ضعيف: رواه الطبراني (٣/ ١٣٢/ ٢٨٩٩)، وفيه إسحاق بن إبراهيم المدني: ضعيف، وفائد مولىٰ عبيد الله: ضعيف، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به.

(٢) لم أجده في المطبوع، لكن عزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٢) وعزاه للطبراني في «الكبير» وضعفه؛ لأن فيه أبو بكر بن أبي مريم.

(٣) في (ح): «ثوابان».

(٤) **حسنه الألباني**: رواه أحمد (٤/ ١٥١٠)، ورواه من طريق عبد الله بن يزيد عن ابن لهيعة (٤/ ١٥٤)، ولا يضر أنَّ فيه ابن لهيعة؛ لأنَّ الراوي عنه أحد العبادلة وهو أبو عبد الرحمن المقرئ، والحديث في «الصحيحة» (٣٥٦٢).

(٥) ليست في (ح).

(٦) في «سنن ابن ماجة»: «الرَّمي».

(٧) هذا وَهْمٌ من الحافظ ابن كثير، فإنَّ لفظ الحديث عند ابن ماجة (٢٨١٤): «مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَقَدْ عَصَانِي».

(٨) ليست في (ح).

(٩) في (ح): «وأخرس».

(١٠) إسناده ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (١٠٠٠)، وفيه ليث بن أبي سليم: أدخل في حديثه ما ليس منه ولم يتميز فترك.

(١١) لوحة (٤٧ ب/ح).

(١٢) ليست في (ح)، وهي مثبتة في نسخة الشيخ الحويني حَفِظَهُ اللهُ.

(١٣) إسناده ضعيف: رواه الطبراني (٩/ ١٤٥/ ٨٦٦٢)، وفيه انقطاع بين أبي إسحاق وابن مسعود.

ومِن طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرَّة قال ابن مسعود: من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن[١]، فإنَّ فيه علم الأوَّلين والآخرين[٢].

ومِن طريق سُفيان وشعبة، عن سلمة بن كُهَيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: إنَّ هذا القرآن ليس فيه حرف إلا له حدٌّ، ولكلِّ حد مَطلعٌ[٣].

ومن حديث الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد عن سيار أبي الحكم، عن ابن مسعودٍ أنَّه قال: أعربوا هذا القرآن فإنَّه عربيٌّ، وسيجيءُ قوم يَثْقَفُونه وليسوا بخياركم[٤].

والثوري، عن عاصمٍ، عن زرٍّ، عن ابن مسعود قال: أَدِيمُوا النَّظر في المصحف، وإذا اختلفتم في ياءٍ أو تاءٍ فاجعلوها ياء، ذكِّروا القرآن فإنَّه مذكَّر[٥].

وقال عبد الرزَّاق، عن إسرائيل، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن شَدَّاد بن مَعْقِل، سَمِعْتُ ابنَ مسعود يقول: إنَّ أوَّل ما تفقدونَ مِن دينكم الأمانَة، وآخر ما يبقىٰ من دينكم الصَّلاة، وَلَيُصَلِّيَنَّ قومٌ لا خَلاقَ لهم، ولينزعنَّ القرآن مِن بين أظهركم. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألسنا نقرأُ القرآن وقد أثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يُسْرَىٰ علىٰ القرآن ليلًا فَيُذْهَبُ به مِن أجواف الرِّجال فلا يبقىٰ في الأرض منه شيء - وفي رواية: لا يبقىٰ في مصحف منه شيءٌ- ويصبح الناسُ نفرًا[٦] كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٦][٧].

وقال الطبراني: حدَّثنا علي بن عبد العزيز، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثني شعبة، عن علي بن بذيمةَ عن أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه قال: مَن قرأ القرآن في أقَلَّ من ثلاثٍ فهو راجزٌ.

وقال هشام عن الحسَنِ: إنه بلغه عن ابن مسعود مثلُ ذلك[٨].

ومن طريق الأعمش، عن أبي وائلٍ قال: كان عبد الله بن مسعود يُقِلُّ الصوم، فيقال له في ذلك، فيقول: إني إذا صُمْتُ ضَعُفْتُ عن القراءةِ والصلاة، والقراءة والصلاة أحبُّ إليَّ[٩].

---

(١) في (ح): «فَلْيَتَبَوَّأْ مِنَ القُرْآنِ»، والمثبت موافق لما في «الكبير» للطبراني.

(٢) **إسناده صحيح**: رواه الطبراني (٩/ ١٤٦/ ٨٦٦٥).

(٣) **إسناده صحيح**: رواه الطبراني (٩/ ١٤٦/ ٨٦٦٧).

(٤) **إسناده ضعيف**: رواه الطبراني (٩/ ١٤٦/ ٨٦٨٦)، وفيه عبد الله بن محمَّد بن سعيد شيخ الطبراني: واهٍ، قال ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٥٦٨): حدث عن الفرياني وغيره بالبواطيل.

(٥) **إسناده ضعيف كسابقه**: رواه الطبراني (٩/ ١٤٥/ ٨٦٨٤) من طريق شيخه عبد الله بن محمَّد بن سعيد، وقد تقدم الكلام عليه في الحديث السابق.

(٦) في (ح): «بَقَرًا»، وفي «مصنف عبد الرزاق»: «فَقْرًا كَالبَهَائِمِ» والمثبت من نسخة الحويني؛ وهو أوجه .

(٧) رواه الطبراني (٩/ ١٥٣/ ٨٧٠٠)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥٩٨٠)، وفيه شداد بن معقل لم يوثقه غير ابن حبان.

(٨) **إسناده ضعيف**: رواه الطبراني (٩/ ١٥٤/ ٨٧٠١- ٨٧٠٥)، وفيه انقطاع بين أبي عبيدة وابن مسعود.

(٩) **إسناده صحيح**: رواه الطبراني (٩/ ١٩٥/ ٨٨٦٨)، وعبد الرزاق (٧٩٠٣).

مُقَدِّمَةٌ مُفِيدَةٌ

[تُذْكَر في أول التفسير قبل الفاتحة][1]

قال أبو بكر بن الأنباري: حدَّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن حجاج بن مِنْهال، عن همام، عن قتادة قال: نزل في المدينة من القُرآن البقرة، وآل عمرانَ، والنِّساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرَّعد، والنَّحل، والحج، والنُّور، والأحزاب، ومحمَّد، والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة[2]، والحشر، والممتحنة، والصَّف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إلىٰ رأس العشر، و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾. هؤلاء السُّور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة.

فأمَّا عددُ آيات القرآن فستَّةُ آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد علىٰ ذلك علىٰ أقوال، فمنهم مَن لم يَزِدْ علىٰ ذلك، ومنهم من قال: ومِائتَا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرةَ آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، وست وعشرون آية، وقيل: ومائتا آية، وست وثلاثون آية. حكىٰ ذلك أبو عمرو الداني في كتاب «البيان».

وأمَّا كلماتُه، فقال الفضل بن شاذان، عن عطاءِ بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة.

وأمَّا حروفُه، فقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثُمائة ألفِ حرف وواحدٌ وعشرون ألفَ حَرْفٍ ومائةٌ وثمانونَ حرفًا.

وقال الفضل، عن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفًا وخمسة عشر حرفًا.

وقال سَلام أبو محمَّد الحمانيّ: إنّ الحجاج جَمَعَ القراءَ والحفَّاظ والكُتَّاب فقال: أخبروني عن القرآن كُلِّه كم من حرفٍ هو؟ قال: فَحَسَبناه فأجمعوا أنه ثلاثُمائة ألفِ حَرْف وأربعون ألفًا وسبعمائة وأربعون حرفًا. قال: فأخبروني عن نصفه. فإذًا هو إلىٰ الفاء من قوله في الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩]. وثُلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثاني علىٰ رأس مائة أو إحدىٰ ومائة من الشعراء، والثالث إلىٰ آخره. وسُبُعُه الأول إلىٰ الدَّال من قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥]. والسُّبُع الثاني إلىٰ الباء من قوله في الأعراف: ﴿حَبِطَتْ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، والثالث إلىٰ الألف الثانية من:

---

(١) ما بين المعقوفتين ليست في (ح)، وزدناه من بعض النسخ المطبوعة.

(٢) لوحة (٤٨ أ/ح).

﴿أُكُلُهَا﴾ في الرعد [الرعد: ٣٥]، والرابع إلىٰ الألف من قوله في الحج: ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الحج: ٦٧]، والخامس إلىٰ الهاء من قوله في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والسادس إلىٰ الواو من قوله في الفتح: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، والسابع إلىٰ آخر القرآن.

قال سلام أبو محمَّد: عملنا ذلك في أربعة أشهر. قالوا: وكان الحجاج يقرأ في كلِّ ليلةٍ ربع القُرآن، فالأول إلىٰ آخر الأنعام، والثاني إلىٰ ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩] من سورة الكهف، والثالث إلىٰ آخر الزمر، والرابع إلىٰ آخر القرآن.

وقد ذكر الشَّيخ أبو عمرو الدَّاني في كتابه «البيان» خلافًا في هذا كله، والله أعلم.

وأما التَّحزيب والتَّجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات في المدارس وغيرها، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن.

والحديث في مسند أحمدَ وسُنَن أبي داودَ وابن ماجَة(١) وغيرهما عن أوس بن حُذَيفة أَنَّه سَأَلَ أصحابَ رسولِ الله ﷺ في حياته: كيف يُحَزِّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدىٰ عشرَةَ وثلاثَ عَشْرَةَ، وحزْبُ المُفَصَّل من ﴿قٓ﴾ حتىٰ يختم(٢).

[فصل](٣)

قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس في القرآن شيءٌ من التَّراكيب(٤) الأعجميَّة؟ وأجمعوا أنَّ فيه أعلامًا من الأعجميَّة كإبراهيم، ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شيءٌ مِن غير ذلك بالأعجميَّة؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري، قالا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجميَّة، فهو من باب ما توافقت فيه اللُّغات.

فصل

واختلفوا في معنىٰ السورة: مِمَّ هي مشتَّقة؟ فقيل: من الإبانة والارْتِفَاع؛ قال النابغة:

أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَـــاكَ سُـــورَةً ... تَـــرَىٰ كُـــلَّ مَلْـــكٍ دُونَهَـــا يَتَذَبْـــذَبُ

فكأنَّ القارئ يتنقل بها من منزلة إلىٰ منزلة.

وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد. وقيل: سُمِّيت سُورَةً لكونها قِطْعَةً من القرآن وجزءًا منه، مأخوذ من أَسْآر الإناء وهو البقيَّة، وعلىٰ هذا فيكون أصلها مهموزًا، وإنَّما خُفِّفت فأبدلت الهمزة واوًا لانضمام ما قبلها، وقيل: لتمامها وكمالها؛ لأن العرب يسمون الناقة التامة سُورَةً.

---

(١) لوحة (٤٨ ب/ح).

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٩)، وأبو داود (١٣٩٣)، وفيه عبد الله بن أوس: مقبول، وعبد الله الطائفي: صدوق يخطئ ويهم.

(٣) ليست في (ح).

(٤) في (ح): «الكتب»، والمثبت من «القرطبي».

قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّي سورُ البلد لإحاطته بمنازِله ودُورِه، والله أعلم.

وجمعُ السورة سُوَرٌ بفتح الواو، وقد تُجمع علىٰ سُوَرَاتٍ وسُورَات.

وأمَّا الآية فمن العلامَةِ علىٰ انقطاع الكلام الذي قبلها عن الَّذي بعدها وانفصاله؛ أي: هي بائنة من أختها. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. وقال النابغة:

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا ... لِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا العَامِ سَابِعُ

وقيل: لأنها جماعةُ حروفٍ من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم بآيتهم؛ أي: بجماعتهم. قال الشاعر:

خَرَجْنَا مِنَ النَّقْبَيْنِ لا حَيَّ مِثْلُنَا ... بِآيَتِنَا نُزْجِي اللِّقَاحَ المَطَافِلَا

وقيل: سُمِّيت آيةً؛ لأنَّها عَجَبٌ يَعْجِز البشر عن التكلُّم بمثلها.

قال سيبويه: وأصلُها أَيَيَة مثل أَكَمَة وشَجَرَة، تحرَّكت الياءُ وافتتح ما قبلها فقلبت ألفًا فصارت آية، بهمزة بعدها مدة.

وقال الكسائي: آيِيَة علىٰ وزن آمِنة، فَقُلِبت ألفًا، ثم حُذفت لالتباسها.

وقال الفرَّاء: أصلها أيَّة -بتشديد الياء- فَقُلِبَت الأولىٰ ألفًا، كراهيةَ التشديد فصارت آية.

وجمعُها: آيٌ وآيايٌ وآياتٌ.

وأما الكلمة فهي اللَّفظ الواحد، وقد يكون علىٰ حرفين مثل: «ما» و«لا» و«له» و«لك»، وقد يكون أكثر. وأكثر ما يكون عشرة أحرف: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، و﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٢٨]، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقد تكون[1] الكلمة آية، مثل: والفجر، والضحىٰ، والعَصْر، وكذلك: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿طه﴾، و﴿يسٓ﴾، و﴿حمٓ﴾ -في قول الكوفيين- و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول: هي فواتح السُّوَرِ. وقال أبو عَمْرو الدانيُّ: لا أعلم كلمةً هي وحدها آيةٌ إلا قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] في سورة الرحمن.

آخر المقدمة

---

(١) لوحة (٤٩أ/ح).

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

فاتحة الكتاب(١)

وهي مكيَّة، وقيل: مدنية، ويُقال: نزلت مرتين: مرَّة بمكَّة ومرَّة بالمدينة، والأوَّل أشبه، والله أعلم.

[ويقال(٢) **لها**: الفاتحة؛ أي: فاتحة الكتاب خطًّا، وبها تُفْتَح القراءة في الصلاة.

ويقال لها أيضًا: أُمُّ الكتاب عند الجمهور.

وكَرِهَ أنس، والحسن وابن سيرين تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ، **وقال الحسن**: والآيات المحكمات هُنَّ أُمُّ الكتاب.

وكذا كره أيضًا أن **يقال لها**: أم القرآن، وقد ثبت في الحديث الصحيح(٣) عند الترمذي وصححه، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحَمْدُ للهِ أُمُّ القُرْآنِ وَأُمُّ الكِتَابِ وَالسَّبْعُ المَثَانِي**»(٤).

ويقال لها: السبع المثاني والقرآن العظيم.

ويقال لها: الحمد.

ويقال لها(٥): الصلاة؛ لقوله ﷺ عن ربه(٦): «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا**

---

(١) في (ز): «سورة الفاتحة».

(٢) كما أشرنا في المقدمة فإنَّ المخطوطة الأزهريَّة نُسِخَت عن النسخة الأولىٰ التي كتبها ابن كثير، وقد كتب ابن كثير التفسير مرَّة أخرىٰ فزاد فيه زيادات كثيرة أكثرها من «تفسير القرطبي» و«الفخر الرازي»، وقد خَلَتِ «الأزهرية» مِن هذه الزيادات، وهذا ما حَمَلَنَا علىٰ الاعتماد علىٰ مخطوطة الحرم المكي في استدراك هذه الزِّيادات فقد اشتملت علىٰ معظمها، وهذه الزِّيادات شملت «الفاتحة» إلىٰ منتصف «سورة البقرة» كما أشار إليه محقق ط. «الشعب»، وهذه أوَّل الزِّيادات.

(٣) كلمة: «الصحيح» ليست في (ح).

(٤) صحيح: هكذا عزاه المؤلِّف عند التِّرمذي بهذا اللَّفظ (٣١٢٤): «الحمد لله أُمُّ القرآن وأُمُّ الكتاب والسَّبع المثاني». وكذا رواه أبو داود (١٤٥٧) إلا أنَّه عنده «الحمد لله رَبِّ العالمين...» والحديث رواه البخاري (٤٧٠٤)، ولفظه: «**أُمُّ القُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ**»، ورواه أحمد (٢/ ٤٤٨)، وانظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٧).

(٥) كلمة: «يقال لها» ليست في (ح).

(٦) كلمة: «عن ربه» ليست في (ح).

قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي» الحديث(١)، فَسُمِّيَت الفاتحة: صلاة؛ لأنَّها شرط فيها.

ويُقَال لها: الشفاء؛ لما رواه الدَّارمي عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «فَاتِحَةُ الكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُمٍّ»(٢).

ويُقال لها: الرُّقية؛ لحديث أبي سعيد رضي الله عنه في «الصحيحين» حين رقىٰ بها الرَّجل السليم(٣)، فقال له رسول الله ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»(٤).

وروىٰ الشعبي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه أنَّه سمَّاها: أساسُ القرآن، قال: فأساسها: بسم الله الرحمن الرحيم.

وسمَّاها سفيان بن عيينة: الواقية.

وسمَّاها يحيىٰ بن أبي كثير: الكافية؛ لأنَّها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة: «أُمُّ القُرْآنِ عِوَضٌ مِنْ غَيْرِهَا، وَلَيْسَ غَيْرُهَا عِوَضًا عَنْهَا»(٥).

ويقال لها: سورة الصلاة والكنز، ذكرهما الزمخشري في «كشَّافه».

وهي مكيَّة. قاله ابن عبَّاس وقتادة وأبو العالية.

وقيل: مدنية. قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري.

ويقال: نزلت مرَّتين: مرَّة بمكة، ومرَّة بالمدينة، والأول أشبه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٢/ ١٣٥)، وابن ماجة (٣٧٨٤).

(٢) ضعيف جدًا: رواه سعيد بن منصور (١٧٨ - تفسير)، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٦٨) وفي إسناده سلام بن سليم: قال أحمد: منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: تركوه، وقال النسائي: متروك الحديث، وفيه أيضًا زيد بن الحواري: ضَعَّفَه ابن المديني وابن سعد والعجلي والنَّسائي وغيرهم، والحديث قال الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع»: موضوع. وأشار الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» إلىٰ الوَهْمِ من ابن كثير في عَزْوِهِ إلىٰ الدارمي وكذا القرطبي؛ لأنَّه عند الدارمي عن ابن عمير مرسلًا ولفظه: «مِن كُلِّ دَاءٍ».

(٣) السَّلِيمُ: اللَّديغ، يقال: سلمته الحيَّة؛ أي: لَدغته، وقيل: إنَّما سُمِّي سَليمًا تفاؤُلًا بالسَّلامة، كما قيل للفَلاةِ المُهْلكة: مَفَازَة «النهاية» (٢/ ٣٩٦).

(٤) البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١)، وأبو داود (٣٤١٨)، والترمذي (٢٠٦٥)، وابن ماجة (٢١٥٦).

(٥) ضعيف: رواه الدارقطني (١/ ٣٢٢)، والحاكم (١/ ٣٤٨)، وقد أشار كل من الدارقطني والحاكم إلىٰ شذوذ هذه الرواية بهذا اللفظ، وأنها ممَّا تفرَّد بها محمد بن خلَّاد، عن أشهب عن ابن عيينة عن الزهري، عن محمود بن الرَّبيع عن عبادة، والمحفوظ عن الزُّهري بهذا السند حديث: «لا تُجْزِئُ صَلاةٌ لا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ» وسيأتي لفظه وتخريجه (٩١).

ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧] والله أعلم.

وحكىٰ أبو اللَّيث السمرقندي أنَّ نصفها نزل بمكَّة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جدًّا، نقله القرطبي عنه][١].

وهي سَبْعُ آيات بلا خلاف.

[وقال عمرو بن عبيد: ثمان، وقال حسين الجعفي: ستًّا، وهذان شاذَّان][٢].

وإنَّما اختلفوا في البَسْمَلَةِ: هل هي آية مستقلَّة مِن أوَّلها كمَا هو المشهور عند جمهور قرَّاء الكوفة وقول جماعة من الصَّحابة والتَّابعين وخلقٍ مِن الخَلَفِ، أو بعض آية، أو لا تعد مِن أوَّلها بالكُلِّيَّة، كما هو قول أهلِ المدينة مِن القُرَّاء والفقهاء؟ علىٰ ثلاثة أقوال، سيأتي تقريرها[٣] [في موضعه][٤] إِن شاء الله تعالىٰ، وبه الثِّقَة.

قالوا: وكلماتُهَا خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفًا.

قال البخاري في أول «كتاب التفسير»: وسُمِّيَت أُمَّ الكتاب؛ لأنَّه يبدأ بكتابتها في المَصَاحِف، ويبدأ بقراءتها في الصَّلاة، وقيل: إنَّما سُمِّيَت بذلك[٥] لرجوع معاني القرآن كله إلىٰ ما تضمنته.

قال ابن جرير: والعرب تسمي كلَّ أمرٍ جامعٍ أمرًا أو مقدَّمٍ لأمر -إذا كانت له توابع تَتْبَعُه هو لها إمام جامع- أُمًّا، فتقول للجلدة الَّتِي تجمع الدماغ، أُمَّ الرَّأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أُمًّا، واستشهد بقول ذي الرمة:

عَلَىٰ رَأْسِهِ أُمٌّ لَنَا نَقْتَدِي بِهَا ... جِمَاعُ أُمُورٍ لا نُعَاصِي لَهَا أَمْرًا

يعني: الرمح.

قال: وسُمِّيَت مكة: أُمَّ القرىٰ لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل: لأنَّ الأرض دُحِيَت مِن تحتها.

ويقال لها أيضًا: الفاتحة؛ لأنها تفتتح بها القِرَاءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وصَحَّ تسميتها بالسَّبع المثاني، قالوا: لأنَّها تُثَنَّىٰ في الصلاة، فتقرأ في كل رَكْعَةٍ، وإن كان للمثاني معنًىٰ آخر غير هذا، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

---

(١) آخر الكلام الذي زدناه من (ح).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) في (ز): «تفسيرها»، والمثبت من (ح).
(٤) ليست في (ز).
(٥) لوحة (٦ ب/ ١).

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا ابن أبي ذئب، وهاشم بن القاسم[(١)] عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال لأم القرآن: «هِيَ أُمُّ القُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَهِيَ القُرْآنُ العَظِيمُ [الَّذِي أُوتِيتُهُ][(٢)]».

ثمَّ رواه عن إسماعيل بن عمر عن ابن أبي ذئب به، وقال أبو جعفر محمَّد بن جرير الطبري: حدَّثني يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «هِيَ أُمُّ القُرْآنِ، وَهِيَ فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي»[(٣)].

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسىٰ بن مَرْدوَيه في «تفسيره»: حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن زياد، ثنا محمَّد بن غالب بن حرب، ثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلي، ثنا المعافىٰ بن عمران، عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن المقبري، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالِمِينَ سَبْعُ آيَاتٍ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِحْدَاهُنَّ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ، وَهِيَ أُمُّ الكِتَابِ وَفَاتِحَةُ الكِتَابِ»[(٤)].

وقد رواه الدارقطني أيضًا عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا بنحوه أو مثله، وقال: كلهم ثقات.

وروىٰ البيهقي عن علي وابن عبَّاس وأبي هريرة أنهم فسَّروا قوله تعالىٰ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧] بالفاتحة، وأن البسملة هي الآية السابعة منها[(٥)]، وسيأتي تمام هذا عند البسملة.

[وقد روىٰ الأعمش عن إبراهيم قال: قيل لابن مسعود: لِمَ لَمْ تكتب الفاتحة في مصحفك؟

---

(١) في (ز): «هشام بن هاشم»، وفي (ح): «هاشم بن هاشم»، والمُثْبَت هو الصواب، وهو موافق لما في «المسند»، وهو شيخ أحمد في هذا السند.

(٢) زيادة من (ح)، وهي ليست في «المسند» في هذا الموضع.

(٣) صحيح: تقدم تخريجه نحوه، انظر أول السورة.

(٤) ضعيف: رواه الدارقطني (١/ ٣١٢)، والبيهقي (٢/ ٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٠٢)، وقال الطبراني: لم يَرْوِ هذا الحديث عن نوح بن أبي بلال إلَّا عبد الحميد بن جعفر، تفرد به علي بن ثابت.

- قلت: عبد الحميد بن جعفر ضَعَّفَه سفيان الثوري والقطان، وقد وَهِمَ في رفعه الحديث. ففي رواية الدارقطني والبيهقي: قال أبو بكر الحنفي -الراوي عن عبد الحميد-: ثم لقيت نوحًا فحدثني به عن سعيد عن أبي هريرة موقوفًا.

(٥) أثر علي بن أبي طالب: رواه البيهقي (٢/ ٤٥)، والطبري (١٤/ ٥٦)، وفيه إسماعيل السُّدِّي: ضعيف.

وأسباط بن نصر قال الحافظ: صدوق كثير الخطإ يغرب.

وأثر ابن عباس: رواه البيهقي (٢/ ٤٥)، والطبري (١٤/ ٥٦)، وفيه عبد العزيز بن جريج، قال الحافظ: لين الحديث.

وأما أثر أبي هريرة فرواه البيهقي (٢/ ٤٥)، وإسناده حسن.

قال: لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة.

قال أبو بكر بن أبي داود: يعني حيث يقرأ في الصلاة، قال: واكتفيت بخط المسلمين لها عن كتابتها[(١)].

قال: وقد قيل: إنَّ الفاتحة أول شيء نزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البيهقي في «دلائل النبوة»[(٢)] ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة هذا أحدها، وقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ كما ورد في حديث جابر[(٣)] في «الصحيح». وقيل: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] وهذا هو الصحيح، كما سيأتي تقريره في موضعه، والله المستعان][(٤)].

---

(١) لم أقف على إسناده، والظاهر أنها في كتاب «المصاحف» لابن أبي داود وهو ضعيف؛ أعني: ابن أبي داود، وأيضًا فإبراهيم النَّخَعِي: كثير الإرسال، وإن كان جماعة من الأئمَّة صححوا مراسيله خاصَّة عن ابن مسعود.

(٢) ضعيف: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٥٨) وأعلَّه بالانقطاع.

(٣) حديث جابر المشار إليه رواه البخاري، كتاب التعبد (٤٩٢٢)، ومسلم، كتاب الإيمان (١٦١).

(٤) زيادة من (ح).

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

قال الإمام أحمد بن محمَّد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في «مسنده»: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن شعبة، حدَّثني خبيب[(١)] بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المُعَلَّىٰ رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ، فلَم أُجِبْهُ حتىٰ صلَّيت وأتيته، فقال: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟». قال: قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي. قال: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» ثم قال: «لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ». قال: فأخذ بيدي، فلمَّا أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنَّك قلتَ: «لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سَورَةٍ فِي القُرْآنِ»؟ قال: «نَعَمْ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ هِيَ: السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»[(٢)].

وهكذا رواه البخاري عن مسدد، وعلي بن المديني، كلاهما عن يحيىٰ بن سعيد القطان به.

ورواه في موضع آخر من «التفسير»، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة من طرق عن شعبة به.

ورواه الواقدي عن محمَّد بن معاذ الأنصاريِّ، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المُعَلَّىٰ، عن أبي بن كعب، فذكر نحوه.

وقد وقع في «الموطأ» للإمام مالك بن أنس ما ينبغي التَّنْبِيهُ عليه، فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقي: أنَّ أبا سعيدٍ مولىٰ عامر بن كريز أخبرهم، أن رسول الله ﷺ نادىٰ أُبَيَّ بن كعب، وهو يصلي في المسجد، فلما فرغ من صلاته لحقه، قال: فوضع النَّبيُّ ﷺ يده علىٰ يَدِي، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، ثم قال: «إِنِّي لأَرْجُو أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ بَابِ المَسْجِدِ حَتَّىٰ تَعْلَمَ سُورَةً مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الإِنْجِيلِ وَلَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا». قال أُبَيٌّ: فجعلت أُبْطِئُ في المشي رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله، ما السورة التي وعدتني؟ قال: «كَيْفَ تَقْرَأُ إِذَا افْتَتَحْتَ الصَّلَاةَ؟» قال: فقرأت عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتىٰ أتيت علىٰ آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «هِيَ هَذِهِ السُّورَةُ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُ»[(٣)].

فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المُعَلَّىٰ، كما اعتقده ابن الأثير في «جامع الأصول» ومَنْ تَبِعَه، فإنَّ

---

(١) لوحة (٧/ أ/ ١).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤)، وأبو داود (١٤٥٨)، والنسائي (٢/ ١٣٩)، وابن ماجة (٣٧٨٥)، وأحمد (٣/ ٤٥٠)، (٤/ ٢١١).

(٣) صحيح: مدار الحديث علىٰ العلاء بن عبد الرحمن، فقد ضَعَّفَه بعضهم ووثَّقه بعضهم لكنَّه في الرواية الأولىٰ في «الموطأ» (١/ ٨٣) رواه بإسناد منقطع عن أبي سعيد أن رسول الله نادىٰ أبي بن كعب... الحديث، فهذا منقطع كما ذكر ابن كثير، وقد خالف فيها مالك الرواة، فرواه غيره متصلًا عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: خرج النَّبيُّ ﷺ علىٰ أُبي فالتفت... فذكر الحديث، رواه أحمد (٢/ ٤١٢، ٤١٣)، والترمذي (٢٨٧٥) وقال: حسن صحيح، وفي «زوائد المسند» (٥/ ١١٤).

ابن المعلىٰ صحابي أنصاري، وهذا تابعي [من][1] موالي خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنَّه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أُبيِّ بن كعب، فإن كان قد سَمِعَه منه فهو علىٰ شرط مسلم، والله أعلم. علىٰ أنَّه قد رُوِيَ عن أبيِّ بن كعب مِن غير وجه كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا عفَّان، حدَّثنا[2] عبد الرحمن بن إبراهيم، حدَّثنا العلاء[3] بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أُبيِّ بن كعب، وهو يصلي، فقال: «يَا أُبَيُّ»، فالتفت ثم لم يجبه، ثم قال: «أُبَيُّ»، فخفَّف. ثم انصرف إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: السَّلام عليك أَيْ رسول الله. قال: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ» قال: «مَا مَنَعَكَ -أَيْ أُبَيُّ- إِذْ دَعَوْتُكَ أَنْ تُجِيبَنِي؟». قال: أَيْ رسول الله، كنت في الصلاة، قال: «أَوَلَسْتَ تَجِدُ فِيمَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾»؟!. قال: بلىٰ يا رسول الله، لا أعود، قال: «أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يُنَزَّلْ لَا فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟» قلت: نعم، أَيْ رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا أَخْرُجَ مِنْ هَذَا البَابِ حَتَّىٰ تَعْلَمَهَا» قال: فأخذ رسول الله ﷺ بِيَدِي يحدِّثني، وأنا أَتَبَطَّأُ مخافة أن يبلغ قبل أن يقضي الحديث، فلمَّا دنونا من الباب قلت: أَيْ رسول الله، ما السورة التي وعدتني؟ قال: «مَا تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ؟». قال: فقرأت عليه أم القرآن، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلَهَا؛ إِنَّهَا السَّبْعُ المَثَانِي»[4].

ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدَّرَاوَرْدِي، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكره، وعنده: إنَّها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُعْطِيتُهُ، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.

وفي الباب، عن أنس بن مالك[5]، ورواه عبد الله ابن الإمام أحمد، عن إسماعيل أبي مَعْمَر[6]، عن أبي أسامة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، فذكره مطولًا بنحوه، أو قريبًا منه[7].

وقد رواه التِّرمذي والنسائي جميعًا عن أبي عمار حسين بن حريث، عن الفضل بن موسىٰ، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبيِّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ القُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) لوحة (٧ ب/ ١).
(٣) في (ز): (المعلّىٰ)، والمثبت من (ح)، وهو الصواب.
(٤) انظر التعليق السابق (١/ ١٥٨).
(٥) صحيح: رواه الحاكم (١/ ٥٦٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٠١١)، ولفظه: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ القُرْآنِ؟» قال: «فَتَلَا عَلَيْهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».
(٦) في بعض النسخ: «عن إسماعيل بن أبي معمر»، والمثبت من (ز)، و (ح) وهو الصواب.
(٧) انظر التعليق قبل السابق.

وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»[١]، هذا لفظ النسائي. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن عبيد، حدَّثنا هاشم - يعني: ابن البريد - حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن[٢] عقيل، عن ابن جابر، قال: انتهيت إلىٰ رسول الله ﷺ وقد[٣] أهراق الماء[٤]، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد عليَّ، قال: فقلت: السَّلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليَّ، [قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد عليَّ. قال:][٥] فانطلق رسول الله ﷺ يمشي، وأنا خلفه حتىٰ دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كئيبًا حزينًا، فخرج عليَّ رسول الله ﷺ وقد تطهر، فقال: «عَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ» ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ جَابِرٍ بِخَيْرِ[٦] سُورَةٍ فِي القُرْآنِ؟» قلت: بلىٰ يا رسول الله. قال: «اقْرَإِ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، حَتَّىٰ تَخْتِمَهَا»[٧].

هذا إسناد جيِّد، وابن عقيل تحتج به الأئمة الكبار، وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابي، ذكر ابن الجوزي أنَّه هو العبديُّ، والله أعلم.

ويقال: إنه عبد الله بن جابر الأنصاري البياضي، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر.

واستدلُّوا بهذا الحديث وأمثاله علىٰ تفاضل بعض الآيات والسور علىٰ بعض، كما هو المَحْكِي عن كثير من العلماء، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، وابن الحصار[٨] من المالكية.

وذهبت طائفةٌ أخرىٰ إلىٰ أنَّه لا تفاضل في ذلك؛ لأنَّ الجميع كلام الله، ولئلا يوهم التفضيل نقص[٩] المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلًا نقله القُرطُبي عن الأشعريِّ، وأبي بكر الباقلاني، وأبي حاتم بن حبان البستي، ويحيىٰ بن يحيىٰ، ورواية عن الإمام مالك [أيضًا][١٠].

حديث آخر: قال البخاري في فضائل القرآن: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا وهب، حدَّثنا هشام، عن محمَّد، عن معبد، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنَّا في مسيرٍ لنا فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إنَّ

---

(١) صحيح: الترمذي (١٣٢٤)، والنَّسائي (٢/ ١٣٩)، وابن خزيمة (٥٠٠/ ٥٠١).

(٢) في (ز): «عن عقيل»، والمثبت من (ح)، وهو الصواب.

(٣) لوحة (٨ أ).

(٤) كناية عن البول وإخراجه، «مشارق الأنوار» (١/ ٢٧).

(٥) ليست في (ز)، ولا (ح)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) في (ز): «بِأَخْيَرَ»، وفي (ح): «مَا خَيْرٌ»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٧) ضعيف: ويكفي للاحتجاج بأنَّها أفضل سورة في القرآن ما تقدَّم من الأحاديث، وأما هذه الرواية فهي من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل: صدوق في حديثه لين، وقد تكلَّم فيه العلماء مِن قِبَلِ حفظه، وأما قول بعضهم فيه: صدوق؛ أي: في ديانته لا في حفظه، وأمَّا احتجاج بعض الأئمة به كما ذكر ابن كثيرَ: فهذا يعارضه قول من جرحه، ويقدم الجرح علىٰ من احْتَجَّ به، وانظر أقوال أئمة الجرح والتعديل فيه في كتاب «تهذيب الكمال» (١٦/ ٧٨- ٨٥).

(٨) في (ز): «القصار»، والمثبت من (ح)، وهو الصواب.

(٩) في (ز): «لأن لا يوهن الفضل انقصا»، والمثبت من (ح).

(١٠) زيادة من (ح).

سيد الحي سَلِيمٌ، وإنَّ نَفَرَنَا غُيَّب، فهل منكم[١] راقٍ؟ فقام معها[٢] رجل ما كنا نأْبُنُه[٣] برقية، فرقاه فَبَرِأَ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبنًا، فلمَّا رجع[٤] قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقي؟ قال: لا ما رقيت إلا بأُمِّ الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئًا حتىٰ نأتي -أو نسأل- رسول الله ﷺ، فلمَّا قَدِمْنَا المدينة ذكرنا للنَّبيِّ ﷺ فقال: «**وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ**»[٥].

وقال أبو معمر: حدَّثنا عبد الوارث، حدَّثنا هشام، حدَّثنا محمَّد بن سيرين، حدَّثني معبد بن سيرين، عن أبي سعيد الخدري بهذا.

وهكذا رواه مسلم، وأبو داود من رواية هشام -وهو ابن حسان- عن ابن سيرين به.

وفي بعض روايات مسلم[٦] لهذا الحديث: أنَّ أبا سعيد هو الذي رقىٰ ذلك السليم؛ يعني: اللَّدِيغ يُسَمُّونه بذلك تفاؤلًا.

حديث آخر: روىٰ مسلم في «صحيحه»، والنسائي في «سننه»، من حديث أبي الأحوص سلام بن سليم، عن عمار بن رُزَيق، عن عبد الله بن عيسىٰ بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: بَيْنَا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضًا[٧] فوقه، فرفع جبريل بصره إلىٰ السماء، فقال: «**هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ، مَا فُتِحَ قَطُّ**». قال: فنزل منه ملك، فأتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: «**أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةِ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ البَقَرَةِ، وَلَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيتَهُ**». وهذا لفظ النسائي. ولمسلم نحوه[٨] حديث آخر.

قال مسلم: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي - هو ابن راهويه - حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن العلاء؛ يعني: ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقي - عن أبيه عن أبي هريرة، عن النَّبيّ ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّىٰ صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ**[٩] -ثلاثًا- **غَيْرُ تَمَامٍ**».

فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، قال: اقرأ بها في نَفْسِك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ ﷻ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ:**

---

(١) في (ح): «معكم»، والمثبت من (ز)، وهو موافق لما في «البخاري».

(٢) في (ز): «فقام منا رجل»، والمثبت من (ح).

(٣) أي: ما كنا نعلم أنه يَرْقي فَنَعيبَهُ بذلك «النهاية» (١/ ١٧).

(٤) المثبت من (ز)، وهو موافق لما في «البخاري»، وفي (ح): «رجعنا».

(٥) البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١)، وأبو داود (٣٤١٩)، والترمذي (٢٠٦٣)، وابن ماجة (٢١٥٦)، والنسائي (٢/ ١٣٨).

(٦) لوحة (٨ ب). (٧) النَّقيض: الصَّوت، «النهاية» (٥/ ١٠٧).

(٨) مسلم (٨٠٦)، والنسائي (٢/ ١٣٨). (٩) الخِدَاج: النُّقْصَان. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٢).

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ اللهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وقال مرة-: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمِينَ، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

وهكذا رواه النسائي، عن إسحاق بن راهويه. وقد روياه -أيضًا- عن قتيبة، عن مالك، عن العلاء، عن أبي السائب مولىٰ هشام بن زهرة[2]، عن أبي هريرة به، وفي هذا السياق: «فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

وكذا رواه ابن إسحاق، عن العلاء، وقد رواه مسلم من حديث ابن جُرَيْج، عن العلاء، عن أبي السائب هكذا.

ورواه أيضًا من حديث ابن أبي أويس، عن العلاء، عن أبيه وأبي السائب، كلاهما عن أبي هريرة.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وسألت أبا زُرْعَة عنه فقال: كلا الحديثين صحيح[3]، مَن قال: عن العلاء، عن أبيه، وعن العلاء، عن أبي السائب.

وقد روىٰ هذا الحديث عبد الله ابن الإمام أحمد، من حديث العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أُبَيِّ بن كعب مطولًا.

وقال ابن جرير: حدَّثنا صالح بن مسمار المروزي، حدَّثنا زيد بن الحباب، حدَّثنا عَنْبسة بن سعيد، عن مُطَرِّف بن طريف، عن سعيد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلَهُ مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي. ثُمَّ قَالَ: هَذَا لِي وَلَهُ مَا بَقِيَ» وهذا غريب من هذا الوجه[4].

ثمَّ الكلام علىٰ ما يتعلق بهذا الحديث ممَّا يختص بحكم الفاتحة من وجوه:

أحدها: أنَّه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: بقراءتك كما جاء مصرحًا به في الحديث الصحيح، عن ابن عبَّاس[5]، وهكذا قال في هذا الحديث: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» ثم بيَّن تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدلَّ علىٰ عظم القراءة في الصلاة، وأنَّها مِن أكبر أركانها، إذ أُطْلِقَت العبادة وأُرِيْدَ بها جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أُطْلِقَ لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]،

---

(١) مسلم (٣٩٥)، والنسائي (٢/ ١٣٥)، والترمذي (٢٩٥٣).

(٢) في (ز): «هشام بن عروة»، والمثبت من (ح)، وهو الصواب.

(٣) لوحة (٩ أ). (٤) البخاري (٧٤٩٠)، ومسلم (٤٤٦).

(٥) رواه الطبري (٢٢٤)، وإسناده صحيح، وقال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده جيد صحيح».

والمراد: صلاة الفجر، كما جاء مصرحًا به في «الصحيحين»: من أنَّه يشهدها ملائكة اللَّيل وملائكة النَّهار(١)، فدلَّ هذا كله علىٰ أنَّه لا بد من القِرَاءَة في الصَّلاة، وهو اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنَّه [هل](٢) يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هي أو غيرها؟ علىٰ قولين مشهورين:

فعند أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ ومَنْ وافقه من أصحابه وغيرهم أنَّها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأَهُ في الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالىٰ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبما ثبت في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة في قصة المسيء [في](٣) صلاته أن رسول الله ﷺ قال له: «**إِذَا قُمْتَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ**»(٤) قالوا: فأمره بقراءة ما تيسَّر، ولم يُعَيِّن له الفاتحة ولا غيرها، فدلَّ علىٰ ما قُلْنَاه.

والقول الثاني: أنَّه تتعين قراءة الفاتحة(٥) في الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقيَّة الأئمَّة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا علىٰ ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال ﷺ: «**مَنْ صَلَّىٰ صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ**»(٦)، والخِدَاج هو: النَّاقص كما فسِّر به في الحديث: «**غَيْرُ تَمَامٍ**». واحتجوا أيضًا بما ثبت في «الصحيحين» من حديث الزهريِّ، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصّامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»(٧).

وفي «صحيح ابن خزيمة» و«ابن حبان»، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تُجْزِئُ صَلَاةٌ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ**»(٨)، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، ووجه المناظرة هاهنا يطول ذكره، وقد أشرنا إلىٰ مأخذهم في ذلك، رحمهم الله تعالىٰ.

ثم إنَّ مذهب الشافعيِّ وجماعة مِن أهل العِلْم: أنَّه تَجِبُ قراءتها في كل ركعة. وقال آخرون: إنَّما تجب قراءتها(٩) في معظم الرَّكعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنَّما تَجِبُ قراءتها(١٠) في ركعة واحدة من الصلاة، أخذًا بمطلق الحديث: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تَتَعَيَّن قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله

---

(١) البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩). (٢) زيادة من (ح). (٣) زيادة من (ح).

(٤) البخاري (٧٩٣)، ومسلم (٣٩٧)، وأبو داود (٨٥٦)، والترمذي (٣٠٣)، وابن ماجة (١٠٦٠)، والنسائي (١/ ١٤١).

(٥) لوحة (٩ ب). (٦) **صحيح**: رواه مسلم (٣٩٥)، وتقدم قريبًا.

(٧) البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤)، وأبو داود (٨٢٢)، والترمذي (٢٤٧) (٣١١)، وابن ماجة (٨٣٧)، والنسائي (٢/ ١٣٧).

(٨) **صحيح**: رواه ابن خزيمة (٤٩٠)، وابن حبان (١٧٨٩، ١٧٩٤).

(٩) في (ز): «من أنها»، والمثبت من (ح). (١٠) في (ز): «من أنها»، والمثبت من (ح).

تعالىٰ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، كما تقدم والله أعلم.

وقد روىٰ ابن ماجة من حديث أبي سفيان السعدي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مرفوعًا: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِالحَمْدِ وَسُورَةٍ فِي فَرِيضَةٍ أَوْ غَيْرِهَا**»[١]. وفي صحَّة هذا نظر، وموضع تحرير هذا كله في كتاب «الأحكام الكبير»، والله أعلم.

الوجه الثَّالث: هل تَجِب قراءة الفاتحة علىٰ المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنَّه تَجِب عليه قراءتها، كما تجب علىٰ إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثاني: لا تجب علىٰ المأموم قراءة بالكليَّة لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهريَّة ولا السِّرِّيَّة، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»، عن جابر بن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ**»[٢] ولكن في إسناده ضعف.

ورواه مالك، عن وهب بن كَيْسَان، عن جابر من كلامه[٣]. وقد روي هذا الحديث من طرق، ولا يَصِحُّ شيء منها عن النَّبيِّ ﷺ، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة علىٰ المأموم في السِّرِّيَّة، لما تقدم، ولا تجب في الجهرية لما ثبت في «صحيح مسلم»، عن أبي موسىٰ الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ[٤]: «**إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ؛ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا**»[٥] وذكر بقيَّة الحديث.

وهكذا رواه أهل السنن: أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا**». وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضًا، فدل هذان الحديثان علىٰ صحة هذا القول، وهو قول قديم للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل.

والغَرَضُ مِن ذكر هذه المسائل هاهنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها مِن السُّوَرِ، والله أعلم.

---

(١) ضعيف: رواه ابن ماجة (٨٣٩)، وفيه أبو سفيان السعدي طريف بن شهاب: ضعيف كما في «التقريب»، وضعفه البوصيري.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٣٣٩)، وابن ماجة (٨٥٠)، وفي إسناده جابر الجعفي. قال الحافظ في «التقريب» (٨٧٥): ضعيف رافضي، وفي الإسناد كذلك أبو الزبير: وهو مدلس وقد عنعن.
- وله طريق آخر عند الدارقطني عن أبي الزبير به، وقال الدارقطني: حديث منكر. وله طرق وشواهد أوردها الزيلعي في «نصب الراية» (٢/ ٦- ١٢)، وكلها لا تصح، ولا يعضد بعضها بعضًا.

(٣) صحيح: رواه البيهقي (٢/ ١٦٠).

(٤) لوحة: (١٠ أ).

(٥) مسلم (٤٠٤)، وأبو داود (٩٧٢- ٩٧٣) من حديث أبي موسىٰ، ورواه أبو داود (٦٠٤)، والنسائي (٢/ ١٤١- ١٤٢)، وابن ماجة (٨٤٦). قال أبو داود: وهذه الزيادة: «وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا» ليست بمحفوظة؛ أي: في رواية أبي هريرة، الوهم من أبي خالد. اهـ.
- وفي هذه الزيادة نزاع بين العلماء في ثبوتها وعدم ثبوتها، انظر: «نصب الراية» للزيلعي (٢/ ١٦- ١٧) والراجح عندي ثبوتها. والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهريُّ، حدَّثنا غسان بن عبيد، عن أبي عمران الجَوْني، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا وَضَعْتَ جَنْبَكَ عَلَىٰ الفِرَاشِ، وَقَرَأْتَ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَقَدْ أَمِنْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا المَوْتَ»(١).

الكلام على تفسير الاستعاذة

قال الله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨] وقال تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

فهذه ثلاث آيات ليس لهُنَّ رابعة في معناها، وهو أنَّ الله يأمر بمُصَانَعَةِ(٢) العدو الإنسي والإحسان إليه، ليَرُدَّه طبعُهُ الطَّيب الأصل إلىٰ الموادة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به مِن العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعةً ولا إحسانًا ولا يبتغي غير هلاكِ ابن آدم؛ لشِدَّة العداوة بينه وبين أبيه آدم مِن قبل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم للوَالِدِ آدم أنه لمن النَّاصحين، وكَذَب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ(٣) يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩].

قالت طائفة مِن القُرَّاء وغيرهم: نتعوَّذ بعد القِرَاءَةِ، واعتمدوا علىٰ ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة؛ ومِمَّن ذهب إلىٰ ذلك حمزة فيما ذكره ابن قلوقا(٤) عنه، وأبو حاتم السجستاني، حكىٰ ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جُبارة الهذلي المغربي في كتاب «الكامل».

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا وهو غريب.

---

(١) ضعيف: البزار (٣١٠٩- كشف الأستار)، وفيه غسان بن عبيد، ضعفه ابن عدي ويحيىٰ وأحمد (وانظر: «الكامل» ٦/ ٩،٨).

(٢) صَانَعَهُ: دَارَاه ولَايَنَهُ، وعن الشَّيءِ: خادعه، «المعجم الوسيط» (ص٥٢٥).

(٣) لوحة: (١٠ ب).

(٤) هو عبد الرحمن بن قلوقا، ويقال: (أقلوقا) الكوفي المقرئ، قرأ علىٰ حمزة، وتوفي عام (٢٠١هـ).

[ونقله فخر الدين محمَّد بن عمر الرازي في «تفسيره» عن ابن سيرين في رواية عنه، قال: وهو قول إبراهيم النخعي وداود بن علي الأصبهاني الظاهري.

وحكىٰ القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ القارِئَ يتعوَّذ بعد الفاتحة، واستغربه ابن العربي. وحكي قولًا ثالثًا وهو الاستعاذة أولًا وآخرًا جمعًا بين الدَّلِيلين نقله فخر الدين][1].

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدَفْعِ الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنىٰ الآية عندهم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]؛ أي: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦]؛ أي: إذا أردتم القيام.

والدليل علىٰ ذَلِكَ الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك؛ قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا محمَّد بن الحسن بن أتش[2] حدَّثنا جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرفاعي اليشكري، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام مِنَ الليل فاستفتح صلاته وكبَّر قال: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَىٰ جَدُّكَ**[3]**، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**». ويقول: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» ثلاثًا، ثم يقول: «**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**»[4].

وقد رواه أهل السُّنَن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن علي بن علي، وهو الرِّفاعي، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب.

وقد فسَّر الهمز بالمَوْتَةِ وهي الخَنْق، والنَّفخ بالكِبْرِ، والنَّفث بالشِّعْر.

كما رواه أبو داود وابن ماجة من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن عاصم العَنَزيّ، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة، قال: «**اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا** –ثلاثًا– [**الحَمْدُ للهِ كَثِيرًا** –ثلاثًا–][5]، **سُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**[6] –ثلاثًا– **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ**

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) كذا في (ز) «أتش» بالتاء مفتوحة، والشين المعجمة، وهو الصواب وقد قال محقق «طيبة»: (في جميع النسخ والمسند «أنس» والصواب ما أثبتناه).

– قلت: وهو في (ز) علىٰ الصواب، وكذلك في «المسند».

(٣) أي: عَلا جَلَالُك وعظَمَتُك، والجَدُّ: الحظُّ والسَّعادة والغنَىٰ. «النهاية» (١/ ٢٤٤).

(٤) حسن: أحمد (٣/ ٥٠)، وأبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، وابن ماجة (٨٠٤)، والنسائي (٢/ ١٣٢)، وجعفر بن سليمان قال عنه الحافظ: صدوق، وقال عن علي بن علي: لا بأس به. ويشهد له الأحاديث الأخرىٰ الواردة بعده.

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من مصادر التخريج.

(٦) الإبكار والبكرة: الصباح، والأصيل: الوقت بعد العصر إلىٰ المغرب. ينظر: «اللسان» (بكر، وأصل).

الشَّيْطَانِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ».

قال عمرو: وهمزُهُ: الموتة، ونفخُهُ: الكِبْر، ونفثُهُ: الشِّعر[١].

وقال ابن ماجة: حدَّثنا علي بن المنذر، حدَّثنا ابن فُضيل، حدَّثنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن ابن مسعود عن النَّبيِّ ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَهَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»[٢].

قال: همزه: المَوْتة، ونَفْثُه: الشعر، ونفخه: الكِبْر.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق بن يوسف، حدَّثنا شريك، عن يعلىٰ بن عطاء، عن رجل حدثه: أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلىٰ الصلاة كبَّر ثلاثًا[٣]، ثم قال: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ثلاث مرات، و«سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» ثلاث مرات. ثم قال: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»[٤].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنىٰ الموصلي في «مسنده»: حدَّثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي، حدَّثنا علي بن هشام بن البريد عن يزيد بن زياد، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أبي بن كعب، قال: تلاحىٰ رجلان[٥] عند النَّبيِّ ﷺ فتمزَّع[٦] أنف أحدهما غضبًا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ شَيْئًا لَوْ قَالَهُ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[٧].

وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة»، عن يوسف بن عيسىٰ المروزي، عن الفضل بن موسىٰ،

---

(١) ضعيفٌ؛ ومَحَلُّ الشاهد حسن لغيره: رواه أبو داود (٧٦٤)، وابن ماجة (٨٠٧)، وفيه عاصم بن عمير العنزي، قال الحافظ: مقبول، ولم يذكر فيه البخاري جرحًا ولا تعديلًا وكذلك ابن أبي حاتم، انظر: «التاريخ الكبير» (٦/ ٤٨٨)، و«الجرح والتعديل» (٦/ ٣٤٩).

- لكن يشهد للفظ الاستعاذة حديث أبي سعيد الخدري السابق.

(٢) حسن لغيره: رواه ابن ماجة (٨٠٨)، وفيه عطاء بن السائب: اختلط، والراوي عنه محمد بن فضيل روىٰ عنه بعد الاختلاط فلا يصح الإسناد، ولكن يشهد له الروايات السابقة.

(٣) لوحة (١١ أ).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٥٣)، وفيه رجل لم يُسَمَّ. وفيه شريك القاضي: قال الحافظ: صدوق يخطئ، لكنَّه توبع في رواية الإمام أحمد.

(٥) أي: تخاصما، والملاحاة: الخصومة. (٦) أي: تَقَطَّعَ وتَشَقَّقَ غضبًا.

(٧) صحيح: ثبت مِن حديث سليمان بن صُرَد، وأُبَي بن كعب، ومعاذ؛ أمَّا حديث سليمان بن صرد فقد رواه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠)، وأبو داود (٤٧٨١)، والنسائي.

- وأما حديث أبي بن كعب: فقد عزاه ابن كثير إلىٰ أبي يعلىٰ -ولم أقف عليه- ورجاله ثقات.

- **وأما حديث معاذ**: فرواه أحمد (٥/ ٢٤٠، ٢٤٤)، وأبو داود (٤٧٨٠)، والترمذي (٣٤٥٢) وأَعَلَّه التِّرمذي: بأن عبد الرحمن لم يُدْرِك معاذًا وأيًّا كان فيشهد لرواية معاذ وأبيٍّ الرواية السابقة، وكان الأحرىٰ تقديمها لثبوتها في «الصحيحين».

عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد به.

وقد روىٰ هذا الحديث أحمد بن حنبل، عن أبي سعيد، عن زائدة، وأبو داود، عن يوسف بن موسىٰ، عن جرير[١] بن عبد الحميد، والترمذي، والنسائي في «اليوم واللَّيلة» عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن الثوري، والنَّسائي أيضًا من حديث زائدة بن قدامة، ثلاثتهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن معاذ بن جبل، قال: استبَّ رجلان عند النَّبيِّ ﷺ، فغَضِبَ أحدهما غضبًا شديدًا حتىٰ خُيِّل إليَّ أن أحدهما يَتمزَّع أنفه مِن شدة غضبه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِنَ الغَضَبِ**» قال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «**يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبىٰ ومَحِكَ[٢]، وجعل يزداد غضبًا. وهذا لفظ أبي داود[٣].

وقال الترمذي: مرسل؛ يعني: أن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ لَمْ يَلْقَ معاذ بن جبل، فإنَّه مات قبل سنة عشرين.

قلتُ: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ سمعه مِن أُبَيِّ بن كعب كما تقدَّم، وبلغه عن مُعَاذ ابن جبل، فإن هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة ﭫ.

قال البخاري: حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا جرير، عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، قال: قال سليمان بن صُرَد: استب رجلان عند النَّبيِّ ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يَسُبُّ صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**» فقالوا[٤] للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ، قال: إنِّي لست بمجنُونٍ[٥].

وقد رواه أيضًا مع مسلم، وأبي داود، والنسائي، مِن طرق متعددة، عن الأعمش به.

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها هاهنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال، والله أعلم. وقد رُوِيَ أن جبريل ﵇ أوَّل ما نزل بالقرآن علىٰ رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا عثمان بن سعيد، حدَّثنا بشر بن عمارة، حدَّثنا أبو روق، عن الضَّحَّاك، عن عبد الله بن عبَّاس، قال: أوَّل ما نزل جبريل علىٰ محمَّد ﷺ قال: «**يَا مُحَمَّدُ، اسْتَعِذْ**». قال: «**أَسْتَعِيذُ بِالسَّمِيعِ**[٦] **العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**» ثم قال: «**قُلْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، ثم قال: «﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾».

---

(١) في (ز): «حريث»، والمثبت من (ح)، وهو الصواب.
(٢) مَحِكَ: اشتد في الخصومة.
(٣) انظر التعليق السابق.
(٤) لوحة: (١١ ب).
(٥) انظر التعليق السابق.
(٦) كذا في (ز)، وهو موافق لما في «تفسير الطبري»، وفي (ح): «أَسْتَعِيذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ».

قال عبد الله: وهي أوَّل سورة أنزلها الله علىٰ محمَّد ﷺ بلسان جِبْرِيل[(١)]. وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفًا وانقطاعًا، والله أعلم.

[مسألة:

وجمهور العلماء علىٰ أنَّ الاستعاذة مستحبةٌ ليست بمُتَحَتِّمَة يَأْثَم تاركها، وحكىٰ فخر الدِّين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلمَّا أراد القراءة. قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوَّذ مرَّة واحدة في عمرِهِ فقد كفىٰ في إسقاط الوجوب.

واحتَجَّ فخر الدِّين لعطاء بظاهر الآية: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ وهو أمر ظاهره الوجوب، وبمواظبة النَّبيِّ ﷺ عليها؛ ولأنَّها تَدْرَأُ شرَّ الشيطان، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب.

وقال بعضهم: كانت واجبةً علىٰ النَّبيِّ ﷺ دون أُمَّتِه، وحُكِيَ عن مالك أنَّه لا يتعوَّذ في المكتوبة، ويتعوَّذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة منه][(٢)].

[مسألة:

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإملاء»: يجهر بالتَّعوذ، وإن أسرَّ فلا يضر، وقال في «الأم» بالتَّخيير؛ لأنَّه أَسَرَّ ابن عمر وجهر أبو هريرة، واختلف قول الشَّافعي فيما عدا الرَّكعة الأولىٰ: هل يستحب التعوُّذ فيها؟ علىٰ قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم.

فإذا قال المُسْتَعِيذُ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفىٰ ذلك[(٣)] عند الشَّافعي وأبي حنيفة وزَادَ بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشَّيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، قاله الثوري والأوزاعي. وحكي عن[(٤)] بعضهم أنه يقول: أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية ولحديث الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس المذكور، والأحاديث الصحيحة كما تقدَّم، أولىٰ بالاتِّباع من هذا، والله أعلم][(٥)].

[مسألة:

ثم الاستعاذة في الصَّلاة إنَّما هي للتِّلاوة، وهو قول أبي حنيفة ومحمَّد. وقال أبو يوسف: بل للصِّلاة، فعلىٰ هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوَّذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور

---

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (١/ ٥٠). وعلته بشر بن عمارة، قال الحافظ: ضعيف، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي في الحديث، وقال البخاري: تعرف وتنكر. وضعفه النسائي [انظر: «تهذيب الكمال» (٤/ ١٣٧ - ١٣٨)].

(٢) زيادة من (ح).

(٣) كلمة «ذلك» ليست في (ح).

(٤) في (ح): وحكىٰ بعضهم.

(٥) زيادة من (ح).

بعدها قبل القراءة. ومن لطائف الاستعاذة أنَّها طهارة للفَمِّ ممَّا كان يتعاطاه من اللَّغو والرَّفث[١]، وتطْيِيب له وتهيؤ لتِلَاوَةِ كلام الله، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضَّعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر علىٰ منعه ودفعه إلا الله الَّذِي خلقه، ولا يقبل مُصَانَعَةً، ولا يدارىٰ[٢] بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان، كما دَلَّت علىٰ ذلك آيات القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقد نزلت الملائكة لمُقَاتَلَةِ العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدو البشري كان شهيدًا، ومن قتله العدو الباطني كان طَرِيدًا، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجورًا، ومَن قهره العدو الباطن كان مفتونًا أو موزورًا، ولما كان الشيطان يرىٰ الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان][٣].

فصل

[والاستعاذة هي: الالتجاء إلىٰ الله والالتصاق بجَنَابِهِ مِن شرِّ كل ذي شَرٍّ، والعياذ يكون[٤] لدفع الشر، واللِّياذ يكون[٥] لطلب جلب الخير، كما قال المتنبي:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّنْ أُحَاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلا يُهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ][٦]

ومعنىٰ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجَنَاب الله من الشيطان الرجيم أن يَضُرَّني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يَحُثَّني علىٰ فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالىٰ بمصانعة شيطان الإنس ومدَارَاتِهِ بإسداء الجميل[٧] إليه، ليرده طبعه عمَّا هو فيه من الأذىٰ، وأمر بالاستعاذة به مِن شيطان الجِنِّ؛ لأنَّه لا يقبل رشوة ولا يُؤَثِّر فيه جميل؛ لأنَّه شِرِّير بالطبع ولا يَكُفُّه عنك إلا الَّذِي خلقه، وهذا المعنىٰ في ثلاث آيات مِنَ القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله تعالىٰ: في الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

---

(١) اللَّغْو: السَّقَط وما لا يُعتدُّ به من كلام وغيره، ولا يُحصَل منه علىٰ فائدة ولا علىٰ نفع. «اللسان»: لغا. والرَّفَثُ: الجماعُ وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته، وأَصله: قول الفُحْش. «اللسان»: رفث.

(٢) المُدَارَاة: الملاينة والمصانعة.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) كلمة «يكون» ليست في (ح).

(٥) كلمة «يكون» ليست في (ح).

(٦) ما بين المعقوفتين زيادة من (ح).
- وقال الشيخ المحدث أبو إسحاق الحويني حفظه الله: (ثم اعلم أن المتنبي قال هذه الأبيات في جعفر بن كيغلغ، فنسأل الله السلامة، ولا ينبغي أن يخاطب بهذا إلا الله تعالىٰ).اهـ، وقد أنكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كذلك، وذكر أنه ربما قالهما في السجود يدعو بهما ربه ﷻ، انظر: «البداية والنهاية» (١١/ ٢٧٥).

(٧) أي: باصْطناع المعروف. ينظر: «اللسان»: سدا.

[الأعراف: ١٩٩]، فهذا فيما يتعلَّق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالىٰ في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ -٩٨]، وقال تعالىٰ في سورة «حم السجدة»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ (١) أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ -٣٦].

والشَّيطان في لغة العرب مشتق من شَطَن إذا بَعُد، فهو بَعِيدٌ بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عَن كلِّ خير، وقيل: مشتق من شاطَ؛ لأنَّه مخلوق مِن نار، ومِنهم مَن يقول: كلاهما صحيح في المعنىٰ، ولكن الأول أصح، وعليه يدلُّ كلام العرب؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ... ثُمَّ يُلْقَىٰ فِي السِّجْنِ وَالأَغْلَالِ (٢)

فقال: أيُّما شاطن، ولم يقل: أيما شائط.

وقال النابغة الذبياني -وهو: زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن [غيظ] (٣) ابن مرة بن سعد بن ذُبْيان-:

نَأَتِ بِسُعَادِ عَنكَ نَوَىٰ شَطُونُ ... فَبَانَتْ وَالفُؤَادُ بِهَا رَهِينُ

يقول: بعدت بها طريق بعيدة.

[وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فَعَل فِعْل الشيطان، ولو كان من شاط لقالوا: تشيَّط] (٤)، فالشَّيطان (٥) مشتق مِن البُعْدِ علىٰ الصحيح؛ ولهذا يُسمُّون كل ما تَمرَّد مِن جني وإنسي وحيوان شيطانًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي «مسند الإمام أحمد» عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نَعَمْ» (٦).

---

(١) لوحة (١٢ أ).

(٢) بهامشه في (ز): «والأكتال».

(٣) في (ز): «يربوع بن ... بن مرة»، وفي (ح) «يربوع بن مرة»، المثبت من ط: ابن الجوزي. قال محققه: واستدركه من «طبقات الشعراء».

(٤) زيادة من (ح).

(٥) في (ز): «والشيطان»، والمثبت من (ح).

(٦) حسن لغيره: رواه أحمد (٥/ ١٧٨ - ١٧٩)، والنسائي (٨/ ٢٧٥) وفي الكبرىٰ (٧٨٩١) من طريق المسعودي عن أبي عمرو، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر، والمسعودي: ثقة لكنه اختلط، لكن الراوي عنه وكيع، وسماعه منه =

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ الأَسْوَدُ». فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر من الأصفر فقال: «الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»(١).

وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب ﵁ ركب بِرْذونًا(٢)، فجعل يتبَختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترًا، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي. إسناده صحيح(٣).

والرَّجيم: فعيل بمعنى مفعول؛ أي: إنه مرجوم مطرود عن الخير(٤) كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨] إلى غير ذلك من الآيات.

[وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوساوس والربائث(٥)، والأول أشهر](٦).

= قبل الاختلاط، وقال البخاري: عبيد بن الخشخاش لم يذكر سماعًا من أبي ذرٍّ. وقال الدارقطني: المسعودي عن أبي عمر: متروك، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٤٧١٨) وفيه ابن لهيعة، ورواه الحارث في مسنده (٥٣)، وفيه رجل مجهول، ولكن للحديث شاهد من حديث أبي أمامة: رواه أحمد (٥/ ٢٦٥- ٢٦٦)، والطبري (٨/ ٢٥٨)، وفيه علي بن يزيد: وهو ضعيف، وقد أورد ابن كثير هذه الطرق عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام، وبمجموع طرقه فالحديث حَسَنٌ إن شاء الله. قال ابن كثير بعد إيراده لطرق الحديث: ومجموعها يفيد قوته وصحته، واعلم أن الحديث ورد مطولًا، وإسناده ضعيف ولكن فيه فقرات لها شواهد، وهذا منها، والله أعلم.

(١) مسلم (٥١٠)، وثبت نحوه عند أبي داود (٧٠٢)، وابن ماجة (٣٢١٠).

(٢) البِرْذَوْن: يُطلق على غير العربي من الخيل والبغال من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر. ج «براذين». «المعجم الوسيط»: «صـ:٤٨».

(٣) صحيح: رواه ابن جرير الطبري (١/ ٤٩).

(٤) لوحة (١٢ ب).

(٥) في (ح): «الرفائث». الرَّبِيثَة: الأمر يحبسك، ويقال: فعل ذلك له ربيثة: خديعةً وحبسًا.
ويقال: ربثته عن الأمر: إذا حبسته وثبطته، والمقصود: حبس الإنسان عن مهامه.

(٦) زيادة من (ح).

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾

افتتح بها الصَّحابةُ كتاب الله، واتَّفق العلماء علىٰ أنَّها بعض آية من سورَة النمل، ثمَّ اختلفوا: هل هي آية مستقلة في أوَّل كل سورةٍ، أو مِن أوَّل كل سورة كتبت في أوَّلها، أو أنها بعض آية من أوَّل كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنَّها إنما كُتِبَت للفصل، لا أنها آية؟ علىٰ أقوال للعلماء سلفًا وخلفًا، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع.

وفي «سنن أبي داود» بإسناد صحيح، عن ابن عبَّاس ﵄ أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتىٰ ينزل عليه ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[١]. وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في «مستدركه» أيضًا، وروي مرسلًا عن سعيد بن جُبَير.

وفي «صحيح ابن خزيمة» عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدَّها آية، لكنَّه مِن رواية عمر بن هارون البلخي -وفيه ضعف- عن ابن جُرَيْج، عن ابن أبي مُلَيْكَة، عنها[٢]، ورویٰ له الدارقطني متابعًا، عن أبي هريرة مرفوعًا[٣]، ورُوِيَ مثله عن علي وابن عبَّاس[٤] وغيرهما، وممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عبَّاس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعليٌّ. ومن التابعين: عطاء، وطاووس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي ، وأحمد بن حنبل -في رواية عنه- وإسحاق بن رَاهوَيه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من[٥] الفاتحة ولا من غيرها من السور.

وقال الشافعي في قولٍ في بعض طرق مذهبه: هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان.

وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد ابن حنبلٍ. وحكاه أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٧٨٨)، والحاكم (١/ ١٢٣) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين.

(٢) ضعيف: رواه ابن خزيمة (٤٩٣) وإسناده ضعيف، فيه عمرو بن هارون: وهو ضعيف، لكنَّه تُوبع. فقد رواه أبو داود (٢٠٠١) من طريق آخر عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن أمِّ سلمة، فيكون مدار الحديث علىٰ ابن جريج: وهو مدلس، وقد عنعن.

(٣) ضعيف: رواه الدارقطني (١/ ٣٠٧) وفيه محمد بن قيس شيخ أبي معشر: ضعيف. وروايته عن أبي بكر: مرسلة، وأبو معشر المدني أيضًا ضعيف مثل شيخه.

(٤) تقدم أثر علي وابن عباس: انظر أول سورة الفاتحة.

(٥) لوحة (١٣ أ).

حنيفة، رحمهم الله[(١)].

هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا، فأمَّا ما يتعلَّق بالجهر بها، فمفرَّع علىٰ هذا؛ فمن رأىٰ أنَّها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية [في][(٢)] أوَّلها، وأمَّا من قال: بأنها من أوائل السور فاختلفوا:

فذهب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أنَّه يجهر بها مع الفَاتِحَة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتَّابعين وأئمَّة المسلمين سلفًا وخلفًا، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عبَّاس، ومعاوية، وحكاه ابن عبد البر، والبيهقي عن عمر وعليٍّ، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ، وهو غريب.

ومِن التابعين عن سعيد بن جبير، وعِكْرِمة، وأبي قِلابة، والزهري، وعليِّ بن الحسين، وابنه محمَّد، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسالم، ومحمَّد بن كعب القرظي، وأبي بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل، وابن سيرين، ومحمَّد بن المنْكَدِر، وعلي بن عبد الله بن عبَّاس، وابنه محمَّد، ونافع مولىٰ ابن عمر، وزيد بن أسلم، وعمر بن عبد العزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبي ثابت، وأبي الشعثاء، ومكحول، وعبد الله بن مَعْقِل بن مُقَرِّن. زاد البيهقيُّ: وعبد الله بن صفوان، ومحمَّد بن الحنفية. زاد ابن عبد البر: وعمرو بن دينار.

والحُجَّة في ذلك أنَّها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أبعاضها، وأيضًا فقد روىٰ النسائي في «سننه» وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم في «مستدركه»، عن أبي هريرة أنَّه صلَّىٰ فجهر في قراءته بالبَسْمَلَةِ، وقال بعد أن فرغ: إِنِّي لَأَشْبَهُكُمْ صلاةً بِرَسُول الله ﷺ[(٣)]. وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم.

وروىٰ أبو داود والترمذي، عن ابن عبَّاس: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة بـ«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». ثم قال الترمذي: وليس إسناده بذاك[(٤)][(٥)].

---

(١) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل البسملة آية من الفاتحة أو لا؟

- في هذا خلاف بين العلماء؛ فمِنْهُم من يقول: إنَّها آية مِن الفاتحة، ويقرأ بها جهرًا في الصلاة الجهرية، ويرىٰ أنها لا تَصِحُّ إلا بقراءة البَسْمَلَةِ؛ لأنها من الفاتحة؛ ومنهم من يقول: إنَّها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله؛ وهذا القول هو الحق... فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة. كما أن البسملة ليست مِن بقيَّة السُّور.

(٢) في (ز): من أولها.

(٣) رواه النسائي (٢/ ١٣٤)، والترمذي (٢٤٤) وحَسَّنَه، وأحمد (٤/ ٨٥).

(٤) لوحة (١٣ ب).

(٥) ضعيف: الترمذي (٢٤٥)، وقال: ليس إسناده بذاك وأبو خالد -راوي الحديث- يقال: أبو خالد الوالبي واسمه: هرمز، والحديث ضَعَّفَه الشيخ الألباني، ونقل الزيلعي أن العقيلي وابن عدي رويا هذا الحديث وأنَّهما ضعَّفاه.

وقد رواه الحاكم في «مستدركه»، عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ يجهر بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم قال: صحيح[1].

وفي «صحيح البخاري»، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مدًّا، ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، يمد بِسْمِ الله، ويمد الرَّحمن، ويمد الرحيم[2].

وفي «مسند الإمام أحمد»، و«سنن أبي داود»، و«صحيح ابن خزيمة»، و«مستدرك الحاكم»، عن أم سلمة، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع[3] قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وقال الدارقطني: إسناده صحيح[4].

وروىٰ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، والحاكم في «مستدركه»، عن أنس: أن معاوية صلىٰ بالمدينة، فترَكَ البسملة، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك، فلما صلَّىٰ المرَّة الثَّانية بَسْمَلَ[5].

وفي هذه الأحاديث، والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطريقها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلىٰ أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله ابن مغفل، وطوائف من سلف التَّابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسملة بالكليَّة، لا جهرًا ولا سرًّا، واحتجوا بما في «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين[6]. وبما في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صلَّيْتُ خلف النَّبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين[7]. ولمسلم: لا يذكرون «بسم الله الرحمن الرحيم» في أوَّل

---

(١) **ضعيف جدًّا**: رواه الحاكم (١/ ٢٠٨) وصَحَّحَه، وتعقبه الذهبي، فقال: عبد الله بن عمرو بن حسان المذكور في إسناده: كذَّبه غير واحد، ومثل هذا لا يخفىٰ علىٰ المصنف.
- وانظر: ترجمة عمرو بن حسان في «الميزان» (٢/ ٤٦٨).

(٢) البخاري (٥٠٤٦)، وأبو داود (١٤٦٥)، وابن ماجة (١٣٥٣)، والنسائي (٢/ ١٧٩).

(٣) بتشديد الطاء -من التقطيع، وهو جعل الشيء قطعة قطعة؛ أي: يقف علىٰ فواصل الآي. «فيض القدير» (٥/ ٢٣٨).

(٤) **حسن لغيره** بدون ذكر البسملة: رواه أبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٨)، وأحمد (٦/ ٣٠٢) وفي إسناده ابن جريج: مدلس وقد عنعن، وللحديث شاهد من حديث حفصة، رواه أحمد (٦/ ٢٨٨) بدون ذكر البسملة.

(٥) رواه الحاكم (١/ ٢٢٣)، ومدار الحديث علىٰ عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، قال ابن معين: أحاديثه غير قوية، وقال النسائي: لين الحديث، ليس بالقوي فيه، وقال الدارقطني: ضعيف لسوء حفظه، وقال ابن المديني: منكر الحديث.
- قلت: وقد تكلَّم الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٢٥٣) علىٰ هذا الحديث، وبيَّن علله، وشذوذه واضطرابه، فراجعه إن شئت في المصدر المذكور.

(٦) مسلم (٤٩٨)، وأبو داود (٧٨٣)، وابن ماجة (٨١٢).

(٧) البخاري (٧٤٣)، ومسلم (٣٩٩)، وعند أبي داود (٧٨٢) بنحوه.

قراءة ولا في آخرها. ونحوه في السنن عن عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه[(١)].

فهذه مآخذ الأئمة -رحمهم الله- في هذه المسألة وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة مَن جهر بالبسملة ومَن أسَرَّ، ولله الحمد والمنة.

فصل في فضلها

قال الإمام العالم الحبر العابد أبو محمَّد عبد الرحمن بن أبي حاتم رحمه الله[(٢)] في «تفسيره»:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا جعفر بن مسافر، حدَّثنا زيد بن المبارك الصنعاني، حدَّثنا سلام بن وهب الجَنَديُّ، حدَّثنا أبي، عن طاوس، عن ابن عبَّاس؛ أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال: «**هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اسْمِ اللهِ الأَكْبَرِ إِلَّا كَمَا بَيْنَ سَوَادِ العَيْنَيْنِ وَبَيَاضِهِمَا مِنَ القُرْبِ**»[(٣)]. وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدوَيه، عن سليمان بن أحمد، عن عليِّ ابن المبارك، عن زيد بن المبارك به.

وقد روى الحافظ ابن مَرْدوَيه من طريقين، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن مِسْعَر، عن عطية، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَسْلَمَتْهُ أُمُّهُ إِلَى الكُتَّابِ لِيُعَلِّمَهُ، فَقَالَ لَهُ المُعَلِّمُ: اكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، قَالَ لَهُ عِيسَى: وَمَا بِاسْمِ اللهِ؟ قَالَ المُعَلِّمُ: مَا أَدْرِي. قَالَ لَهُ عِيسَى: البَاءُ بَهَاءُ اللهِ، وَالسِّينُ سَنَاؤُهُ، وَالمِيمُ مَمْلَكَتُهُ، وَاللهُ إِلَهُ الآلِهَةِ، وَالرَّحْمَنُ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالرَّحِيمُ رَحِيمُ الآخِرَةِ**»[(٤)].

وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء[(٥)] الملقب: زِبْرِيق، عن إسماعيل بن عياش،

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٤)، وابن ماجة (٨١٥)، والنسائي (٢/ ١٣٥)، وفي إسناده جهالة ابن عبد الله بن مغفل الراوي عن أبيه، انظر: «نصب الراية» للزيلعي (١/ ٣٣٢)، حيث نفى جهالته وحسَّن الحديث، وفي الحكم على الحديث نزاع بين العلماء، ويكفي للاحتجاج لهذا الرأي بحديث أنس وعائشة المتقدمين.

(٢) لوحة (١٤ أ).

(٣) موضوع: راوه ابن أبي حاتم (١/ ٢٥/ ٥)، والحاكم (١/ ٥٥٢) وصححه، ووافقه الذهبي. هكذا وافقه الذَّهَبِي في «التلخيص»، وهو ذهول منه، فقد حكم في «الميزان» (٢/ ١٨٢) عليه بأنَّه منكر بل كذب.

(٤) موضوع: رواه الطبري (١/ ٥٣)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٣) إلى ابن عدي في «الكامل»، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»، والثعلبي في «تفسيره»، فيه إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي، قال الحافظ في «اللسان» (١/ ٤٤١): اتُّهم بالوضع ورواية الأباطيل، قال الدارقطني: متروك كذاب؛ انظر: «الضعفاء» له، وقال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ١٢٦): كان ممن يروي الموضوعات عن الثِّقات، وما لا أصل له عن الأثبات، لا يحل الرواية عنه ولا الاحتجاج به بحال؛ ولذا قال ابن كثير بعد إيراده الحديث: «وهذا غريب جدًّا»، وقد يكون صحيحًا إلى من دون رسول الله، وقد يكون من الإسرائيليات لا مِن المرفوعات، وقال السيوطي في «الدر المنثور»: ضعيف جدًّا.

(٥) في (ز): «المعلا»، والمثبت من (ح)، وهو الصواب.

عن إسماعيل بن يحيىٰ، عن ابن أبي مُلَيْكة، عمن حدثه، عن ابن مسعود، ومسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النَّبيِّ ﷺ فذكره. وهذا غريب جدًّا[١]، وقد يكون صحيحًا إلىٰ من دون رسول الله ﷺ ويكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات، والله أعلم.

وقد روىٰ جُوَيبر، عن الضَّحَّاك، نحوه من قبله.

وقد روىٰ ابن مَرْدوَيه، من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفي رواية عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ لَمْ تَنْزِلْ عَلَىٰ نَبِيٍّ غَيْرَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ وَغَيْرِي، وَهِيَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»[٢].

وروىٰ بإسناده عن عبد الكبير[٣] بن المعافىٰ بن عمران، عن أبيه، عن عمر بن ذرٍّ، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ هرب الغيم إلىٰ المشرق، وسكنت الرياح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بآذانها، ورُجمت الشياطين من السماء، وحلف الله تعالىٰ بعزته وجلاله ألا يسمىٰ اسمه[٤] علىٰ شيء إلا بارك فيه[٥].

[وقال وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: من أراد أن يُنَجِّيَه الله من الزَّبَانِيَة التِّسعة عشر فليقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، لِيَجْعَل الله له مِن كل حرف منها جُنَّة مِن كل واحد[٦]، ذكره ابن عطية والقرطبي ووجهه ابن عطية ونصره بحديث: «**فَقَدْ رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا**[٧]»[٨]؛ لقول الرجل: ربَّنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، من أجل أنَّها بضعة وثلاثون حرفًا وغير ذلك][٩].

---

(١) جاء بهامش (ز) عند هذه الكلمة: «عجب من الشيخ في اقتصاره في الكلام علىٰ هذا الحديث باستغرابه فقط وقد نَصَّ علىٰ كذب راويه وهو (إسماعيل بن يحيىٰ) غير واحد من الأئمة، وقال ابن عدي بعد أن ساق له أحاديث منكرة وهذا منها: إنه خبر باطل. وقال: عامة ما يرويه بواطيل.

(٢) ضعيف: وعلته عبد الكريم أبو أمية، قال في «التقريب»: ضعيف، وضعفه الحافظ ابن كثير، انظر: سورة [النمل: ٣٠]، رواه أبو نعيم في «تاريخ أصفهان» (٢/ ١٨٧).

(٣) في (ز): «عبد الكريم بن المعافىٰ»، والمثبت هو الصواب.

(٤) لوحة (١٤ ب).

(٥) لم أقف علىٰ بقيَّة إسناده، وقد عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٦) إلىٰ ابن مردويه والثعلبي، وفي الإسناد عطاء بن أبي رباح: ثقة، لكنه يرسل كثيرًا، وقد عنعن.

(٦) رجاله ثقات، عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٦) إلىٰ وكيع والثعلبي، وهو بهذا صحيح الإسناد، وهو مما لا يقال بالرأي، فله حكم المرفوع.

(٧) أي: يسارعون ويتسابقون عليها. في (ح): «يرونها».

(٨) البخاري (٧٩٩)، وأبو داود (٧٧)، والترمذي (٤٠٤)، والنسائي (٢/ ١٩٦).

(٩) زيادة من (ح).

وقال الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن عاصم، قال: سمعت أبا تميمة يُحدِّث عن رديف النَّبيِّ ﷺ قال: عثر بالنَّبيِّ ﷺ فقلت: تَعِس الشيطان. فقال النَّبيُّ ﷺ: «لَا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ، وَقَالَ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ اللهِ، تَصَاغَرَ، حَتَّىٰ يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ»(١). هكذا وقع في رواية الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

وقد روىٰ النسائي في «اليوم والليلة»، وابن مَرْدوَيه في «تفسيره»، من حديث خالد الحذاء، عن أبي تميمة هو الهجيمي(٢)، عن أبي المليح بن أسامة بن عمير، عن أبيه، قال: كنت رديف(٣) النَّبيِّ ﷺ فذكره، وقال: «لَا تَقُلْ هَكَذَا، فَإِنَّهُ يَتَعَاظَمُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَالبَيْتِ، وَلَكِنْ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَالذُّبَابَةِ»(٤). فهذا مِن تأثير بركة باسم الله؛ ولهذا تستحب في أوَّل كلِّ عمل وقول. فتستحب في أوَّل الخطبة لما جاء: «كُلُّ أَمْرٍ(٥) لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَجْذَمُ»(٦).

[وتستحب البسملة عند دخول الخلاء ولِمَا ورد من الحديث في ذلك(٧)](٨)، وتُستحب في أوَّل الوضوء لما جاء في «مسند الإمام أحمد» «والسنن»، من رواية أبي هريرة، وسعيد بن زيد، وأبي سعيد مرفوعًا: «لَا [وُضُوءَ](٩) لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ»(١٠)، وهو حديث حسن.

ومِن العلماء مَن أوجبها عند الذِّكر(١١) هاهنا، ومنهم مَن قال بوجوبها مطلقًا، وكذا تستحب عند الذَّبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقًا في قول بعضهم، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

[وقد ذكر الرازي في «تفسيره» في فضل البسملة أحاديثَ منها: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَتَيْتَ أَهْلَكَ فَسَمِّ اللهَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ وُلِدَ(١٢) لَكَ وَلَدٌ كُتِبَ لَكَ بِعَدَدِ أَنْفَاسِهِ وَأَنْفَاسِ ذُرِّيَّتِهِ حَسَنَاتٌ»(١٣) أو

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٥٩، ٧١)، والحاكم (٤/ ٢٩٢) وصَحَّحَه، ورواه أبو داود (٤٩٨٢)، وهي الأصح مِن حيث الإسناد، وهي الموافقة لرواية النسائي التي أوردها ابن كثير بعده، انظر: «عمل اليوم والليلة» للنسائي (٥٥٥).

(٢) في (ز): «الجهيم»، والمثبت من (ح).

(٣) الرديف: الراكبُ خلف الراكب.

(٤) انظر التعليق السابق.

(٥) في (ز): «كل خطبة»، والمثبت من (ح)، وهو موافق لما في مصادر التخريج.

(٦) **ضعيف جدًّا**: وقد بيَّن ذلك الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «إرواء الغليل» (١/ ٢٩- ٣٠).

(٧) **صحيح**: وله ألفاظ منها: «سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ أَحَدُهُمُ الخَلَاءَ أَنْ يَقُولُوا: بِسْمِ اللهِ».

(٨) زيادة من (ح).

(٩) سقط من (ز).

(١٠) **حسن بشواهده**: رواه أبو داود (١٠١)، وابن ماجة (٣٩٩)، وللشيخ أبي إسحاق الحويني رسالة في تخريج طرقه بعنوان «كشف المخبوء» فراجعها. وحسنه المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

(١١) يعني: عند التذكر، فإن تركها عامدًا وقع في الإثم، وإن تركها ناسيًا لم يأثم.

(١٢) في (ح): «إن وجد».

(١٣) لا أصل له بهذا اللفظ، كما قال ابن كثير، لكنه ثبت صحيحًا بلفظ آخر: «إِذَا أَتَىٰ أَحَدُكُمْ أَهْلَهُ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ، فَإِنَّهُ إِنْ قُدِّرَ بَيْنَهُمْ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ»، وسيأتي بعد حديثين.

كما قال، وهذا لا أصل له، ولا رأيته في شيء من الكتب المعتمدة عليها ولا غيرها][١].

وهكذا تُسْتَحَبُّ عند الأكل لما في صحيح مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال لربيبه[٢] عمر بن أبي سلمة: «قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»[٣]. ومِن العُلَمَاءِ مَن أوجبها والحالة هذه.

وكذلك تستحب عند الجماع لما في «الصحيحين»، عن ابن عبَّاس أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»[٤].

ومن هاهنا ينكشف لك أنَّ القولين عند النُّحاة في تقدير المتعلق بالباء في قولك: باسم الله، هل هو اسم أو فعل؟ متقاربان[٥]، وكلٌّ قد ورد به القُرْآنُ؛ أمَّا مَن قدَّره باسم، تقديره: باسم الله ابتدائي؛ فلقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، ومَن قدَّره بالفِعْل [أمرًا أو خبرًا نحو: ابدأْ بـ«بسم الله» أو ابتدأت بـ«بسم الله»][٦] فلقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] وكلاهما صحيح، فإنَّ الفعل لا بُدَّ له مِن مصدر، فلك أن تُقَدِّر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله؛ إن كان قيامًا أو قعودًا أو أكلًا أو شربًا أو قراءةً أو وُضوءًا أو صلاةً، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كلِّه، تبركًا وتيمنًا واستعانةً علىٰ الإتمام والتَّقبُّل، والله أعلم؛ ولهذا روىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث بشر بن عُمَارة، عن أبي روق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، قال: إن أوَّل ما نزل به جبريل علىٰ محمَّد ﷺ قال: «يَا مُحَمَّدُ قُلْ: أَسْتَعِيذُ بِالسَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَالَ: قُلْ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ: قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: قُلْ: بِاسْمِ اللهِ يَا مُحَمَّدُ، يَقُولُ: اقْرَأْ بِذِكْرِ اللهِ رَبِّكَ، وَقُمْ وَاقْعُدْ بِذِكْرِ اللهِ». هذا لفظ ابن جرير[٧].

وأمَّا مسألة الاسم: هل هو المسمَّىٰ أو غيره؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال:

[أحدها[٨]: أنَّ الاسم هو المسمىٰ، وهو قول أبي عبيدة وسيبويه، واختاره الباقلاني وابن فورك، وقال فخر الدين الرازي -وهو محمَّد بن عمر المعروف بابن خطيب الرازي- في مقدمات «تفسيره»:

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) الربيب: ابنُ امرأة الرجل من غيره، والربيبة كذلك.

(٣) البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٤) البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤).

(٥) لوحة (١٥ أ).

(٦) زيادة من (ح).

(٧) ضعيف: تقدَّم تخريجه، وعند ابن أبي حاتم نحوه كما أشار «المصنف» (١/ ٢٥).

(٨) من هاهنا وقع سقط في (ز) قدر صفحة، وقد ترك له الناسخ بياض بالأصل قدر تسعة أسطر وكتب بالهامش «كذا في الأصل».

وقالت الحشوية[١] والكرامية والأشعرية[٢]: الاسم هو نفس المسمىٰ وغير التَّسمية، وقالت المعتزلة[٣]: الاسم غير المسمَّىٰ ونفس التَّسمية، والمختار عندنا: أنَّ الاسم غير المسمىٰ وغير التَّسمية،

---

(١) قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق رده علىٰ الفخر الرازي: «مُسمَّىٰ الحشوية في لغة النَّاطقين به ليس اسمًا لطائفةٍ معينة لها رئيس قال مقالةً فاتَّبعَتْه، كالجهميَّة و...وإذا كان كذلك، فأول من عُرف أنه تكلم في الإسلام بهذا اللفظ: عمرو بن عُبيد رئيس المعتزلة، فإنَّه ذُكر له عن ابن عمر شيء يُخَالِف قوله فقال :كان ابنُ عمر حَشويًّا، نسبة إلىٰ الحشو، وهم العامَّة والجمهور، فإنَّ الطَّوائف الذين تميَّزوا عند أنفسهم بقوله، تميزوا به عما عليه جماعة المسلمين، وعامتهم يُسَمُّونهم بنحو هذا الاسم، فالرافضة تسميهم: الجمهور، وكذلك تُسميهم: الفلاسفة، كما سماهم بذلك صاحب هذا الكتاب، والمعتزلة ونحوهم يُسَمُّونهم: الحشوية، والمعتزلة تعني بذلك: كل من أثبت الصفات وأثبت القدر، وأخذ ذلك عنها متأخروا الرافضة فسموا الجمهور بهذا الاسم، وأخذ ذلك عنهم القرامطة الباطنية، فسَمُّوا بذلك كل من اعتقد صحة ظاهر الشَّريعة، كما رأينا ذلك مذكورًا في مصنفاتهم، والفلاسفة تُسمي من أقر بالمعاد الحسي والنَّعيم الحسي: حشويًّا، وأخذ ذلك عن المعتزلة تلامذتهم من الأشعرية، فسَمُّوا من أقر بما ينكرونه من الصفات ومَن يذم ما دخلوا فيه من بدع أهل الكلام والجهمية والإرجاء: حشويًّا، ومنهم أَخَذَ ذلك هذا المُصَنِّفُ» . «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٢٤-١٣١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٨٦) (٣/ ٨٧) ، و(٤/ ٨٧) و٨٩ و ١٤٦، و (١٢/ ١٧٦).

(٢)الكرَّامية: أتباع محمد بن كَرَّام السجستاني، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكرَّاميَّة قولهم في الإيمان قولٌ منكر لم يَسْبِقْهُم إليه أحد؛ حيث جعلوا الإيمان قول اللِّسان وإن كان مع عدم تصديق القلب، فيجعلون المنافق مؤمنًا لكنه يخلد في النار». «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٠٣)، وانظر: (١٣/ ٥٦)، و«كتاب الإيمان» في المجلد السابع.

وقال الذهبيُّ عن ابن كرام: «شيخ الكرامية، ساقط الحديث علىٰ بدعته...قال ابنُ حِبان :خُذِل حتىٰ التقط مِن المذاهب أردأها، ومن الأحاديث أوهاها...وقال ابنُ حزم :قال ابن كرام، الإيمان قول باللِّسان، وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن .قلت- القائل الذهبي:- هذا منافق محض، في الدرك الأسفل من النَّار قطعًا».... هلك عام٢٥٥ هـ ينظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٢١)، و«السير» (١١/ ٥٢٣)، و«تاريخ الإسلام» (٦/ ١٨٨) ثلاثتها للذهبي، و«طبقات الشافعية» لابن السبكي (٢/ ٣٠٤)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٥١٥).

- **والأشعريَّة**: هم مَنِ انتسَبَ لأبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ ، وهذه النسبة فيها نظر؛ فإنَّ أبا الحسن الأشعري مَرَّ بثلاثة مراحل؛ الأولىٰ: كان معتزليًّا، تبع في ذلك زوج أُمِّه أبا علي الجبائي، وانتصر للمعتزلة ونافح عنهم وناظر علىٰ ذلك، ينظر: «فتاوى ابن تيمية» (٤/ ٧٢) الثانية: ترك الاعتزال، ورد علىٰ المعتزلة والجبائي وبَيَّن عوارهم وضَلَّلَهُم، وانتحل عقيدة ابن كُلَّاب وهي إثبات الصفات السبع التي دلَّ عليها العقل ونفىٰ ما سواها، ينظر: «فتاوى ابن تيمية» (٥/ ٥٥٦)، الثالثة: رجوعه عن كل ذلك إلىٰ مذهب أهل السنة والحديث وتصريحه بإثبات الصفات وعدم تأويلها وأنه علىٰ عقيدة الإمام أحمد بن حنبل، وألف في ذلك كتابه: «الإبانة» وهو من آخر مؤلفاته إن لم يكن آخرها-، ينظر: «فتاوى ابن تيمية» (٤/ ١٦٧) و(٥/ ٩٣) و(٦/ ٣٥٩)، فمن أراد أن ينتسب للأشعري فلينتسب إلىٰ آخر مراحله التي مات عليها، أما مَن ينتسب إليه وهو باقٍ علىٰ تأويل الصِّفات فهو علىٰ ما كان عليه الأشعري في مرحلته الثانية علىٰ عقيدة ابن كُلَّاب. والله الهادي إلىٰ سواء السبيل.

(٣)**المعتزلة**: هم أتباع واصل بن عطاء، الذي اعتزل مجلس شيخه الحسن البصري، وهم نُفاة للقَدَر ونُفاة لصِفَات الله تعالىٰ، ويقولون بالمنزلة بين المنزلتين، ويُسمون أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد، وهم عدة فرق. ينظر: «مقالات الأشعري» (صـ: ٢٧٨/ ١٥٥)، و «التبصير في الدين» (ص: ٢٤/ و٦٣) ط الحوت، و«الملل والنحل» (١/ ٤٣-٨٥) ، «الفَرْق بين الفِرَق» (صـ ٢٤/ و ١١٧).

ثم نقول: إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة، فالعلم الضروري حاصل أنَّه غير المسمىٰ، ثم نقول: وإن كان المراد بالاسم ذات المسمىٰ، فهذا يكون مِن باب إيضاح الواضحات وهو عبث، فثبت أن الخوض في هذا البحث علىٰ جميع التقديرات يجري مجرىٰ العبث.

ثم شرع يستدل علىٰ مغايرة الاسم للمسمىٰ، بأنَّه قد يكون الاسم موجودًا والمسمىٰ مفقودًا كلفظة المعدوم، وبأنَّه قد يكون للشَّيء أسماء متعددة كالمترادفة، وقد يكون الاسم واحدًا والمسمَّيات متعددة كالمشترك، وذلك دالٌّ علىٰ تغاير الاسم والمسمَّىٰ، وأيضًا فالاسم لفظ وهو عَرَض(١)، والمسمىٰ قد يكون ذاتًا ممكنة أو واجبة بذاتِهَا، وأيضًا فلفظ النَّار والثَّلج لو كان هو المسمىٰ لوجد اللافظ بذلك حر النَّار أو برد الثلج ونحو ذلك، ولا يقوله عاقل، وأيضًا فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا»(٢)، فهذه أسماء كثيرة والمسمَّىٰ واحد وهو الله تعالىٰ، وأيضًا فقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أضافها إليه، كما قال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦] ونحو ذلك. والإضافة تقتضي المغايرة، وقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ أي: فادعوا الله بأسمائه، وذلك دليل علىٰ أنَّها غيره، واحتجَّ مَن قال: الاسم هو المسمىٰ، بقوله تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] والمتبارك هو الله، والجواب: أنَّ الاسم يعظَّم لتَعْظِيم الذَّات المقدسة، وأيضًا فإذا قال الرجل: زينب طالق؛ يعني: امرأته طالق، طُلِّقت، ولو كان الاسم غير المسمىٰ لما وقع الطلاق، والجواب: أنَّ المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق. قال الرازي: وأما التسمية فإنَّها جَعْل الاسم مُعَيَّنًا لهذه الذات فهي غير الاسم أيضًا، والله أعلم](٣).

﴿ٱللَّهُ﴾ عَلَمٌ علىٰ الرب تبارك وتعالىٰ، يقال: إنَّه الاسم الأعظم؛ لأنَّه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ(٤) لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [الحشر].

---

(١) قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولفظ: «العَرَض» في اللغة له معنىٰ، وهو ما يَعْرِض ويزول، كما قال تعالىٰ: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وعند أهل الاصطلاح الكلامي: قد يُراد بالعرض ما يقوم بغيره مطلقًا، وقد يراد به ما يقوم بالجسم من الصفات، ويراد به في غير هذا الاصطلاح أمور أخرىٰ. «مجموع الفتاوىٰ» (٩/ ٣٠٠).

(٢) البخاري (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧)، والترمذي (٣٥٠٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٥)، والدارمي في «الرد علىٰ المريسي» (ص١٢) وله طرق ومتابعات، انظر: «فتح الباري» (١١/ ٥١٤).

(٣) هنا نهاية السقط، وقد أثبتناه من (ح).

تعليق: لم يُبيِّن ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ مذهب أهل السُّنَّة في هذا ولم يُعَلِّق علىٰ كلام الرازي وكأنَّه ارتضاه، والمختار عند أهل السُّنَّة هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية مِن أن الاسم ليس هو عين المسمىٰ ولا هو غيره، بل هو دالٌّ عليه مرتبط به.

وهناك مبحث نفيس حول هذه المسألة في «شرح أصول السنة» للالكائي وهوامشه، انظره: (٢/ ٢٢٨).

(٤) لوحة (١٥ ب).

فأجرىٰ الله الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١)، وجاء تعدادها في رواية الترمذي، [وابن ماجة(٢) وبين الروايتين اختلافُ زيادات ونقصان، وقد ذكر فخر الدين الرازي في «تفسيره» عن بعضهم أنَّ لله خمسة آلاف اسم: ألف في الكتاب والسُّنَّة الصحيحة، وألف في التوراة، وألف في الإنجيل، وألف في الزبور، وألف في اللوح المحفوظ](٣)(٤).

وهو اسمٌ لم يسمَّ به غيره تبارك وتعالىٰ؛ ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق مِن فعل ويَفْعَلُ، فذهب مَن ذهب مِن النُّحاة إلىٰ أنَّه اسم جامد لا اشتقاق له. [وقد نقل القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم، وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابي: ألا ترىٰ أنَّك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرَّحمن، فلولا أنَّه مِن أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النِّداء علىٰ الألف واللَّام](٥). وقيل: إنَّه مُشْتَقٌّ، واستدلوا عليه بقول رؤْبَة بن العَجَّاج:

للهِ دَرُّ الغَانِيَاتِ المُدَّهِ ... سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

فقد صرَّح الشَّاعر بلفظ المصدر، وهو التَّألُّه، من أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَاهَةً وتَأَلُّهًا، كما روي أن ابن عبَّاس قرأ: «وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ»(٦) قال: عبادتك، أي: أنه كان يُعْبَد ولا يَعْبُد، وكذا قال مجاهد وغيره.

---

(١) البخاري (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧)، والترمذي (٣٥٠٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٥)، والدارمي في «الرد علىٰ المريسي» (ص١٢) وله طرق ومتابعات، انظر: «فتح الباري» (١١/ ٥١٤).

(٢) رواه الترمذي (٥٣٠٧)، وابن ماجة (٣٨٦١) من طريقين وفيهما سرد هذه الأسماء وفي إسناده ضعف؛ ففي الأولىٰ الوليد بن مسلم: وهو مدلس، وفي الثانية: عبد الملك بن محمد: وهو ضعيف، وفيه عِلَّة الاضطراب في إسناده ومتنه، وقد أطال الحافظ ابن حجر في بيان ضعف هذا الحديث في «فتح الباري» (١١/ ٢١٤- ٢١٥) وتعقب الذين زعموا تصحيحه كالحاكم. والصحيح أن سرد هذه الأسماء مدرجة من بعض الرواة، ولم يثبت في رفعها حديث صحيح.

تنبيه: أورد ابن كثير فيما ذكره الرازي أنَّ لله خمسة آلاف اسم... إلخ، وهذا كلام لا أصل له، إذ المرجع في ذلك إلىٰ السنة، ولم يثبت في ذلك شيء.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) وهذا كلامٌ مردود؛ لأن أسماء الله تعالىٰ توقيفية، يتوقف في إثباتها علىٰ ثبوت نصٍّ بذلك، ولم يأتِ بهذا نص، وهي ليست محصورة، فلا يعلم عددها إلا الله ﷻ، كما في الحديث: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**» ....فمن أسماء الله ما استأثر به في علم الغيب عنده، فكيف يقال: إنها محصورة بخمسة آلاف .وانظر: «مجموع فتاوى العثيمين» (١/ ١٢٢)، و(٣/ ٢٧٥)، و(٤/ ٢٦٢)، و (٥/ ١٣).

(٥) زيادة من (ح).

(٦) شاذة: قَرَأَ (وَإِلَاهَتَكَ) الْحَسَنُ وَابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَآلِهَتَكَ).

[وقد[1] استدلَّ بعضهم علىٰ كونه مشتقًّا بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] أي: المعبود في السَّموات والأرض، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٞ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ونقل سيبويه عن الخليل: أنَّ أصله: إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلًا من الهمزة، قال سيبويه: مِثل الناس، أصله: أناس، وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتَّعْظِيم وهذا اختيار سيبويه. قال الشاعر:

لَاهِ ابْـنِ عَمِّـكَ لَا[2] أَفْـضَلْتَ فِـي حَـسَبٍ ... عَنِّـي وَلَا أَنْـتَ دَيَّـانِي فَتَخْزُونِـي

قال القرطبي: بالخاء المعجمة؛ أي: فتسوسني[3]، وقال الكسائي والفراء: أصله: الإله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولىٰ في الثانية، كما قال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٣٨] أي: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن، قال القرطبي: ثم قيل: هو مشتق من وَلِهَ: إذا تحيَّر، والوَلَهُ ذهاب العقل؛ يقال: رجل وَالِهٌ، وامرأة وَلْهَىٰ، وماء موله: إذا أرسل في الصَّحَارِي، فالله تعالىٰ تتحير الألباب والفكر في حقائق صفاته، فعلىٰ هذا يكون أصله: ولاه، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا في وشاح: أشاح، ووسادة: أسادة.

وقال فخر الدين الرازي: وقيل: إنه مشتق مِن أَلِهْتُ إلىٰ فلان؛ أي: سكنتُ إليه، فالعُقُول لا تسكن إلا إلىٰ ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته؛ لأنَّه الكامل علىٰ الإطلاق دون غيره، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال: وقيل: من لَاهَ يَلُوهُ: إذا احتجب. وقيل: اشتقاقه[4] من أَلِهَ الفصيل، إذ ولع بأمه، والمعنىٰ: أنَّ العباد مألوهون مولعون بالتَّضَرُّع إليه في كل الأحوال.

قال: وقيل: مشتق مِن أَلِهَ الرَّجُلُ يَأْلَهُ: إذا فَزِعَ مِن أمرٍ نَزَلَ بِهِ فَأَلِهَهُ؛ أي: أجاره، فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وهو المنعم؛ لقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وهو المطعم؛ لقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وهو الموجد؛ لقوله: ﴿قُلْ كُلّٞ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم غير مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم أخذ يستدل علىٰ ذلك بوجوه:

منها: أنَّه لو كان مشتقًّا لاشترك في معناه كثيرون ومنها: أنَّ بقية الأسماء تذكر صفات له، فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل علىٰ أنَّه ليس بمشتق، قال: فأما قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢] علىٰ قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان. ومنها قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، وفي الاستدلال بهذه علىٰ كون هذا الاسم جامدًا غير مشتق نظر، والله أعلم[5].

---

(١) من هنا تبدأ زيادة تزيد علىٰ صفحة زدناها من (ح).

(٢) في (ح): «لاه أفضلت في حسب».

(٣) في (ح): «فتوسني».

(٤) كلمة «اشتقاقه» ليست في (ح).

(٥) قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «الله» علم علىٰ نفس الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يُسمَّىٰ به غيره، ومعناه: المألوه؛ أي: المعبود محبة =

وحكىٰ فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلىٰ أنَّ اسم الله تعالىٰ عِبْرَانِيٌّ لا عربي، ثم ضعفه، وهو حقيق بالتَّضْعِيفِ كما قال، وقد حكىٰ فخر الدين هذا القول ثم قال: واعلم أنَّ الخلق قسمان: واصلون إلىٰ ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الحِيرَةِ وتِيهِ الجهالة؛ فكأنَّهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم، وأمَّا الواجدون فقد وصلوا إلىٰ عرصة النُّور وفسحة الكبرياء والجلال، فتَاهُوا في ميادين الصَّمَدِيَّة، وبادوا في عرصة الفردانية، فثبت أن الخلق كلهم وَالِهُونَ في معرفته، وروي عن الخليل بن أحمد أنَّه قال: لأنَّ الخلق يَأْلَهُونَ إليه -بنصب اللام وجرها لغتان- وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لَاهًا، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لَاهَتْ.

وقيل: إنَّه مشتق مِن أَلِهَ إذا تعبَّد وتَأَلَّهَ وتنسَّك، وقرأ ابن عبَّاس: ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ﴾ وعبادتك][1].

وأصل ذلك الإِلَه، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أوَّلها للتعريف فأدغمت إحداهما في الأخرىٰ، فصارتا في اللفظ لامًا واحدةً مشددةً، وفُخِّمَت تعظيمًا، فقيل: الله.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة علىٰ وَجْهِ المبالغة، ورحمن أشد مبالغة مِن رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يُفْهِم حكاية الاتفاق علىٰ هذا، وفي تفسير بعض السَّلف ما يَدُلُّ علىٰ ذلك، كما تقدَّم في الأثر، عن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة[2].

[وقد[3] زعم بعضهم أنه غير مشتق[4] إذ لو كان كذلك لاتَّصل بذكر المرحوم، وقد قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وحكىٰ ابن الأنباري في الزاهر عن المبرد: أنَّ الرحمن اسم عبراني ليس بعربي، وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: وقال أحمد بن يحيىٰ: الرحيم عربي، والرَّحمن عبراني، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه.

وقال القرطبي: والدَّلِيل علىٰ أنه مشتق ما خرَّجه الترمذي وصحَّحه عن عبد الرحمن بن عوف، أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ**»[5]. قال: وهذا نَصٌّ في الاشتقاق فلا معنىٰ للمخالفة والشقاق.

= وتعظيمًا، وهو مشتقٌ علىٰ القول الراجح؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] «مجموع فتاوى العثيمين» (٨/ ٢٧).

(١) هنا انتهت الزيادة التي زدناها من (ح). (٢) تقدم: انظر (ص٢٥٤).

(٣) من هنا تبدأ زيادة قدر صفحة زدناها من (ح). (٤) يعني: ﴿الرحمن﴾.

(٥) صحيح: رواه الترمذي كما أشار ابن كثير (١٩٠٧) وصحَّحه، لكن فيه انقطاع؛ لأنَّ أبا سلمة لم يسمع من أبيه عبد الرحمن بن عوف، وثبت الإسناد مِن طريق آخر عن أبي سلمة عن أبي الرداد الليثي عن عبد الرحمن لكن البخاري خطَّأ معمرًا في هذا الإسناد، وقد أشار لذلك الترمذي بعد إيراده الحديث السابق.

=

قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم باللهِ وبِمَا وَجَبَ لَهُ.

قال القرطبي: هما بمَعْنَىٰ واحد كنَدْمَان ونديم قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا علىٰ مبالغة الفعل، نحو قولك: رجل غضبان، وفعيل قد يكون بمعنىٰ الفاعل والمفعول.

قال أبو علي الفارسي: **الرحمن**: اسم عام[١] في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالىٰ، **والرَّحيم**: إنَّما هو مِن جهة المؤمنين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ابن عبَّاس: هما اسْمَانِ رقيقان، أحدهما أرق من الآخر؛ أي: أكثر رحمة، ثم حُكِيَ عن الخطابي وغيره: أنَّهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعلَّه أرفق كما جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ، وَإِنَّهُ يُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَىٰ العُنْفِ**»[٢].

وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سُئِلَ أعطىٰ، والرَّحيم إذا لم يسأل يغضب، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجة من حديث أبي صالح الفارسي الخوزي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»[٣]، وقال بعض الشعراء:

لا تَطْلُبَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُغْلَقُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ][٤]

قال ابن جرير: حدَّثنا السري بن يحيىٰ التميمي، حدَّثنا عثمان بن زُفَر، سمعت العَرْزَميَّ يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرَّحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمُؤْمِنِين. قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليَعُمَّ جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فخَصَّهُم باسمه الرحيم،

= - لكن للحديث متابعات منها ما رواه أحمد (١/ ١٩١)، والحاكم (٤/ ١٥٧) من طريق إبراهيم بن عبد الله ابن قارظ أن أبان حدثه أنه دخل علىٰ عبد الرحمن بن عوف... إلخ وإسناده صحيح.
- وله شاهد من حديث أبي هريرة عند أحمد (٢/ ٤٩٨)، والحاكم (٤/ ١٥٧) وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(١) في (ح): «اسم غاية».

(٢) مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة، وله شواهد عن جماعة من الصحابة، وأوردها الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقه علىٰ «صحيح ابن حبان» (٥٤٩).

(٣) حسن: رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجة (٣٨٢٧)، وروىٰ نحوه أحمد (٢/ ٤٤٣، ٤٤٧)، والحاكم (١/ ٤٩١) وصححه، وفيه أبو المليح الفارسي، قال أبو زرعة: لا بأس به «الجرح والتعديل»، وقال المصنف عند تفسير الآية (٦٠) من سورة غافر: وإسناده لا بأس به، وله شاهد من حديث أنس. رواه الطبراني في «الدعاء» (٢٤)، وفيه ضعف، والحديث حسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٦٥٤).

(٤) نهاية الزيادة التي زدناها من (ح).

قالوا: فدَلَّ علىٰ أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعُمُومِها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة[(١)] بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما[(٢)].

[واسمه تعالىٰ «الرحمن» خاص به لم يُسمّ به غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمىٰ برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشُهِر به؛ فلا يُقَال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المَدَرِ، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب][(٣)].

وقد زعم بعضهم أنَّ الرحيم أشد مبالغةً من الرَّحمن؛ لأنَّه أُكِّد به، والتأكيد لا يكون إلا أقوىٰ من المؤكَّد، والجواب: أن هذا ليس من باب التَّوكيد، وإنَّما هو من باب النعت [بعد النعت][(٤)] ولا يلزم فيه ما ذكروه، وعلىٰ هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يُسَمَّ به أحد غيره، ووصفه أولًا بالرحمن الذي منع من التَّسْمِيَة به لغيره، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التَّسَمِّي به، ولم يتابعه علىٰ ذلك إلا مَن كان معه في الضلالة. وأما الرحيم فإنَّه تعالىٰ وصف به غيره حيث قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والحاصل: أنَّ مِن أسمائه تعالىٰ ما يسمىٰ به غيره، ومنها مَا لا يسمىٰ به غيره، كاسم الله والرحمن والخَالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ بِاسْمِ الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف مِنَ الرَّحِيم؛ لأن التسمية أولًا إنَّما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

فإن قيل: فإذَا كان الرحمن أشدَّ مبالغة؛ فهلا اكتفىٰ به عَن الرحيم؟ فقد روي عن عطاء الخراساني ما مَعْنَاه: أنَّه لما تسمَّىٰ غيره تعالىٰ بالرحمن، جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنَّه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالىٰ. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أنَّ العرب لا تعرف الرحمن، حتىٰ رَدَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعَليٍّ: «اكْتُبْ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه

---

(١) لوحة (١٦ أ).

(٢) ضعيف جدًّا: ولفظه: «اللَّهُمَّ فَارِجَ الهَمِّ كَاشِفَ الغَمِّ مُجِيبَ دَعْوَةِ المُضْطَرِّينَ رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَرَحِيمَهَا أَنْتَ تَرْحَمُنَا...» الحديث.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من (ح).

(٤) زيادة من (ح).

البخاري [١]، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

والظَّاهر أنَّ إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت [٢] في كفرهم؛ فإنه [قد] [٣] وجد في أشعارهم في الجاهليَّة تسمية الله تعالىٰ بالرحمن.

قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجُهَّال.

أَلا ضَرَبَتْ تِلْكَ الفَتَاةُ هَجِينَهَا ... أَلا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

وقال سلامة بن جندب الطهوي:

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا عَجْلَتَيْنَا [٤] عَلَيْكُمُ ... وَمَا يَشَإِ الرَّحْمَنُ يَعْقِدْ ويُطْلِقِ

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا عثمان بن سعيد، حدَّثنا بشر بن عمارة، حدَّثنا أبو روق، عن الضَّحَّاك، عن عبد الله بن عبَّاس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الرقيق الرفيق بمَن أحبَّ أن يَرْحَمَهُ، والبعيد الشَّديد علىٰ مَن أَحَبَّ أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها [٥].

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا حماد بن مَسْعَدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرَّحْمَن اسم ممنوع.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد بن يحيىٰ بن سعيد القطان، حدَّثنا زيد بن الحباب، حدَّثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحيم: اسم لا يَسْتَطِيع النَّاس أن ينتحلوه [٦]، تسمىٰ به تبارك وتعالىٰ [٧].

[وقد جاء في حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قرآنه حرفًا حرفًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④﴾ [٨]، فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة من الكوفيين، ومنهم من وصلها بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②﴾ وكسرت الميم لالتقاء الساكنين [٩] وهم الجمهور. وحكىٰ الكسائي عن بعض العرب أنَّها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمزة، فيقولون: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وأبو داود (٢٧٦٥)، وأحمد (٤/ ٣٢٨- ٣٣١).

(٢) لوحة (١٦ ب). (٣) زيادة من (ح).

(٤) في (ز): «عجلتنا» وفي (ح): «إذ عجلنا».

(٥) **إسناده ضعيف**: رواه الطبري (١/ ٥٧)، وفيه بشر بن عمارة: ضعيف، والضَّحَّاك لم يلقَ ابن عباس، فالإسناد منقطع.

(٦) **انتحل الشيء**: ادعاه لنفسه وهو لغيره.

(٧) **إسناده حسن**: رواه الطبري (١/ ٥٩)، والرواية الثانية: رواها ابن أبي حاتم (١/ ١٣) بإسناد حسن.

(٨) **حسن لغيره** بدون ذكر البسملة. تقدم قريبًا.

(٩) كذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو سهو منه، وإنما «كسرت الميم بالتبعية؛ لأنه نعتٌ مجرور وهو لفظ الجلالة المجرور بالإضافة».

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ فنقلوا حركة الهمزة إلىٰ الميم بعد تسكينها، كما قرئ قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال ابن عطية: ولم تُرْوَ بهذا قراءة عن أحد فيما علمت][1].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾

[القراء السبعة علىٰ ضَمِّ الدَّال من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[2] وهو مبتدأ وخبر.

وروي عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا: ﴿الحَمْدَ للهِ﴾ بالنَّصب وهو علىٰ إضمار فعل، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿الحَمْدُ لُلَّهِ﴾ بضم الدال واللام إتباعًا للثاني الأول وله شواهد لكنه شاذ[3]، وعن الحسن وزيد بن علي: ﴿الحَمْدِ لِلَّهِ﴾ بكسر الدَّال إتباعًا للأول الثاني][4][5].

قال أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: معنىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الشُّكر لله خالصًا دون سائر ما يُعْبَد مِن دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم علىٰ عباده من النعم التي لا يُحْصِيها العدد، ولا يُحِيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذَّاهم به من نعيم العيش، مِن غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبَّهَهُم عليه ودَعَاهُم إليه، مِن الأسباب المُؤَدِّية إلىٰ دوام الخلود في دار المقام في النَّعيم المُقِيم، فلربنا الحمد علىٰ ذلك كله أولًا وآخرًا.

[وقال ابن جرير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء أثنىٰ به علىٰ نفسه وفي ضمنه أَمَرَ عباده أن يثنوا عليه فكأنَّه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾][6].

قال: وقد قيل: إن قول القائل: [الْحَمْدُ لِلَّهِ][7]، ثناء عليه [بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلَىٰ،][8] وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأَيَادِيه، ثم شرع في رَدِّ ذلك بما حاصله أنَّ جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلًّا مِن الحمد والشكر مكان الآخر.

[وقد نقل السلمي هذا المذهب أنهما سواء عَن جعفر الصَّادق وابن عطاء من الصوفيَّة.

وقال ابن عبَّاس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلمة كل شاكر، وقد استدل القرطبي[9] لابن جرير بصِحَّة قول القائل:

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من (ح).

(٢) قال أبو حيان: «وقراءة الرفع أمكنُ في المعنىٰ، ولهذا أجمع عليها السبعة؛ لأنها تدل علىٰ ثبوت الحمد واستقراره لله تعالىٰ. «البحر المحيط»: (١/ ١٣١)، وانظر: «تفسير القرطبي» (١/ ٢٠٨).

(٣) ينظر: «القراءات الشاذة» لابن خالويه: (ص ٩)، و «المحتسب» (١/ ٣٧).

(٤) زيادة من (ح). (٥) وهي شاذة أيضًا، ينظر: «القراءات الشاذة»: (صـ: ٩). و «المحتسب» (١/ ٣٧).

(٦) زيادة من (ح). (٧) زيادة من (ح). (٨) في (ز): «بأسمائه وصفاته الحسنىٰ»، والمثبت من (ح).

(٩) والذي في تفسير القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ بخلاف هذا، فقد قال القرطبي في تفسيره: «ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس =

القائل: الحمد لله شكرًا][(١)].

وهذا الَّذِي ادَّعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العُلَمَاء مِن المتأَخِّرين أن الحمد هو الثناء بالقَوْلِ علىٰ المحمود بصفاتِهِ اللَّازمة والمتعديَّة، والشكر لا يكون إلا علىٰ[(٢)] المتعديَّة ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أَفَــادَتْكُمُ النَّعْمَــاءُ مِنِّــي ثَلَاثَــةً ... يَــدِي وَلِــسَانِي وَالــضَّمِيرَ المُحَجَّبَــا[(٣)]

ولَكِنِ اخْتَلَفُوا: أيُّهما أعم، الحمد أو الشُّكر؟ علىٰ قولين، والتَّحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم من الشكر مِن حيث ما يقَعَان عليه؛ لأنَّه يكون علىٰ الصفات اللازمة والمُتَعَدِّيَة، تقول: حَمدته لفُرُوسِيَّتِهِ وحمدته لكرمه. وهو أَخَصُّ؛ لأنَّه لا يكون إلا بالقول، والشُّكر أعم مِن حيث ما يَقَعَانِ به؛ لأنَّه يكون بالقول والعمل والنِّيَّة، كما تقدَّم، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا علىٰ الصِّفات المتعديَّة، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته علىٰ كرمه وإحسانه إليَّ. هذا حاصل ما حرَّره بعض المتأخرين، والله أعلم.

وقال أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهري: الحَمْدُ نقيض الذَّمِّ، تقول: حَمِدت الرجل أَحْمَدُهُ حمدًا ومحمدة، فهو حميد ومحمود، والتَّحْمِيد أَبْلَغ مِن الحمد، والحَمْدُ أَعَمُّ مِن الشكر. وقال في الشكر: هو الثَّناء علىٰ المُحْسِن بما أَوْلَاكَهُ من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له. وباللام أفصح.

[وأما المَدْحُ فهو أعم مِن الحَمْدِ؛ لأنَّه يكون للحَيِّ وللمَيِّت وللجماد أيضًا كما يمدح الطَّعام والمال ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلىٰ الصِّفات المتعديَّة واللازمة أيضًا فهو أعم][(٤)].

ذكر أقوال السلف في الحمد

قال ابن أبي حاتم: حدَّثني أبي، حدَّثنا أبو معمر القطيعي، حدَّثنا حفص، عن حجاج، عن ابن أبي مُلَيْكة، عن ابن عبَّاس ﷺ قال: قال عمر: قد عَلِمْنا سبحان الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد لله؟ فقال عَلِيٌّ: كلمة رضيها الله لنفسه[(٥)]. ورواه غير أبي مَعْمَر، عن حفص، فقال: قال عمر لعَلِيٍّ، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال علي: كَلِمَةٌ أَحَبَّها الله لنفسه، ورَضِيَهَا لنفسه، وأحب أن تقال[(٦)].

= المبرد إلىٰ أن الحمد والشكر بمعنىٰ واحد سواء، وليس بمرضي» (١/ ٩٤)، وانظر: «التحبير للأوهام والتنبيهات الواردة في تفسير ابن كثير» (ص٦).

(١) زيادة من (ح).
(٢) لوحة (١٧ أ).
(٣) البيت في «الفائق» للزمخشري (١/ ٣١٤): بلا نسبة.
(٤) زيادة من (ح).
(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٢، ١٣)، وفيه حجاج ابن أرطأة: مدلس، وقد عنعن.
(٦) انظر التعليق السابق.

وقال علي بن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف بن مِهْرَان، قال: قال ابن عبَّاس: الحمد لله كلمةُ الشُّكْر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شَكَرَنِي عبدي. رواه ابن أبي حاتم(١).

وروى أيضًا هو وابن جرير، من حديث بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: أنه قال: الحمد لله هو الشكر لله والاسْتِخْذَاء له، والإقرار له بنعمه وهدَايَتِهِ وابتدائه وغير ذلك(٢).

وقال كعب الأحبار: الحمد لله ثناء الله. **وقال الضَّحَّاك**: الحمد لله رداء الرحمن. وقد ورد الحَدِيثُ بنحو ذلك.

قال ابن جرير: حدَّثني سعيد بن عمرو السَّكوني، حدَّثنا بقيَّة بن الوليد، حدَّثني(٣) عيسىٰ بن إبراهيم، عن موسىٰ بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا قُلْتَ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فَقَدْ شَكَرْتَ اللهَ، فَزَادَكَ**»(٤).

وقد روىٰ الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا روح، حدَّثنا عوف، عن الحسن، عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي، تبارك وتعالىٰ؟ فقال: «**أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الحَمْدَ**»(٥). ورواه النسائي، عن علي بن حجر، عن ابن عليَّة، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن الأسود بن سريع به.

وروىٰ الترمذي، والنسائي وابن ماجة، من حديث موسىٰ بن إبراهيم بن كثير، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ للهِ**».

وقال الترمذي: حسن غريب(٦).

[وروىٰ(٧) ابن ماجة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَىٰ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ**»(٨).

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (٩)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

(٢) **إسناده ضعيف**: رواه الطبري (١/ ٦٠)، وفيه بشر بن عمارة ضعيف، والضَّحَّاك لم يلق ابن عباس.

(٣) لوحة (١٧ ب).

(٤) **ضعيف جدًّا**: ابن جرير (١/ ٦٠)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ الحاكم في «تاريخ نيسابور» والديلمي، وضعفه السيوطي، قلت: فيه عيسىٰ بن إبراهيم: وهو منكر الحديث، انظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ٣٠٨)، وموسىٰ بن أبي حبيب: ضعيف، ضعفه أبو حاتم، وانظر «الميزان» (٤/ ٢٠٢).

(٥) **إسناد ضعيف، والحديث حسن لغيره**: رواه أحمد (٣/ ٤٢٥) وفيه انقطاع؛ لأن الحسن البصري لم يسمع من الأسود بن سريع.
- قلت: ويشهد له حديث: «لَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ». رواه البخاري (٤٦٣٧)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٦) **حسن**: التِّرمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجة (٣٨٠٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣١)، والحاكم (١/ ٥٠٣) وصححه ووافقه الذَّهبي، وفيه موسىٰ بن إبراهيم، قال ابن حجر: صدوق يخطئ. والحديث حسنه البغوي (٥/ ٤٩)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٩٧)، والأرنؤوط في تعليقه علىٰ ابن حبان (٨٤٦).

(٧) من هنا تبدأ زيادة من (ح).

(٨) **حسن**: رواه ابن ماجة (٣٨٠٥)، والخرائطي في «فضيلة الشكر» (١)، وفيه شبيب بن بشر: صدوق يخطئ كما في «التقريب».
=

وقال القرطبي في «تفسيره»، وفي «نوادر الأصول» عن أنس عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ للهِ، لَكَانَ الحَمْدُ للهِ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ»(١). قال القرطبي وغيره: أي لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدُّنيا؛ لأنَّ ثواب الحمد لا يفنىٰ ونعيم الدنيا لا يبقىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وفي سنن «ابن ماجة» عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ قَالَ: يَا رَبِّ، لَكَ الحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَعَضَلَتْ(٢) بِالمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا، فَصَعَدَا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالَا: يَا رَبَّنَا، إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا، قَالَ اللهُ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ-: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَا: يَا رَبِّ إِنَّهُ قَدْ قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ؛ فَقَالَ اللهُ لَهُمَا: اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي حَتَّىٰ يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا»(٣).

وحكىٰ القرطبي عن طائفة أنهم قالوا: قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أفضل مِن قول: لا إله إلا الله؛ لاشتمال الحمد للهِ رَبِّ العالمين علىٰ التَّوحيد مع الحمد، وقال آخرون: لا إله إلا الله أفضل؛ لأنَّها الفصل بين الإيمان والكفر، وعليها يُقَاتَل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، كما ثبت في الحديث المتفق عليه(٤).

وفي الحديث الآخر في «السنن»: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»(٥). وقد تقدم عن جابر مرفوعًا: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ للهِ». وحسَّنه الترمذي(٦)](٧).

= - والحديث حسَّنَه الألباني كما في «صحيح الجامع»، وحسَّنَه البوصيري في «الزوائد»، وحسنه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣١)، وأورد له شاهدًا من حديث جابر عند البيهقي في «الشعب».

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣١) إلىٰ الحكيم في «نوادر الأصول»، وعزاه في «الجامع الصغير» إلىٰ ابن عساكر، ورمز له بالضعف، وأما الشيخ الألباني فقد ذكره في «الضعيفة» (٨٧٥) وبيَّن علته، وقال: «موضوع».

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «قال أهلُ اللغة: أعضل الأمر: اشتد واستغلق، والمُعَضِّلاتُ- بتشديد الضاد :-الشدائد. وعَضَّلَتِ المرأةُ والشاة: إذا نَشِبَ ولدها فلم يسهل مخرجه، بتشديد الضاد أيضًا، فعلىٰ هذا يكون: أعضلت الملكين، أو عضلت الملكين بغير باء، والله أعلم «تفسيره» (٢٠٤- ٢٠٣/ ١)، وانظر: «اللسان» عضل.

(٣) ضعيف: ابن ماجة (٣٠٨١): وفيه «صدقة بن بشير»، قال في «التقريب»: مقبول، وكذلك «قدامة بن إبراهيم»: مقبول، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجة»، و«التعليق علىٰ الترغيب».

(٤) رواه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠، ٢١).

(٥) حسن: رواه الترمذي (٣٥٨٥)، وأورده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٥٠٣)، وأورد له شواهد، وقال: «وجملة القول أن الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد، والله أعلم».

(٦) حسن: تقدم عند ذكر أقوال السلف في الحمد. (٧) هنا انتهت الزيادة التي زدناها من (ح).

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالىٰ كما جاء في الحديث: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ المُلْكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِكَ الخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ» الحديث(١).

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والرَّبُّ هو: المالك المُتَصَرِّف، ويُطْلَق في اللُّغَة علىٰ السَّيِّد، وعلىٰ المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالىٰ(٢).

[ولا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدَّار رَبُّ كذا، وأما الرَّبُّ فلا يقال إلا لله ﷻ وقد قيل: إنه الاسم الأعظم.](٣) والعالمين: جمع عالم، [وهو كل موجود سوىٰ الله ﷻ](٤) والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات [في السموات والأرض](٥) في البر والبحر، وكل قرن مِنْهَا وجيل يسمىٰ عالمًا أيضًا.

قال بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحَمْدُ لله الَّذِي له الخلق كله، السَّموات والأرضون، ومن فيهن وما بينهن، ممَّا نعلم، وما لا نعلم.

وفي رواية سعيد بن جبير، وعكرمة، عن ابن عبَّاس: رَبُّ الجِنِّ والإنس. وكذلك قال سعيد بن جبير، ومجاهد وابن جريج، وروي عن علي نحوه. وقال ابن أبي حاتم: بإسناد لا يعتمد عليه.

[واستدل القرطبي لهذا القول بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وهم الجِنُّ والإنس. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم: عالم، وعَن زيد بن أسلم وأبي عمرو بن العلاء: كلُّ ما له روح يَرْتَزِق. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن محمَّد بن مروان بن الحكم -وهو آخر خلفاء بني أمية ويعرف بالجعدي ويلقب بالحمار- أنه قال: خلق الله سَبْعَة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد وسائر ذلك لا يعلمه إلا الله ﷻ](٦).

وقال قتادة: رب العالمين، كل صنف عالَم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: الإنس عالَم، والجن عالَم، وما عدا(٧) ذلك ثمانية عشر

---

(١) إسناده ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٩٦)، وفيه رجل مجهول، وله شاهد من حديث ابن أبي وقاص، رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٩٩)، وفيه أبو بلج مختلف فيه.

(٢) قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرَّبُّ، هو المربي جميع العالمين -وهم من سوىٰ الله-... وتربيته تعالىٰ لخلقه نوعان: عامَّة وخاصة.
- فالعامَّة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.
- والخاصَّة: تربيته لأوليائه، فيُرَبِّيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحَائِلَة بينهم وبينه... ولعلَّ هذا المعنىٰ هو السِّرُّ في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرَّبِّ؛ فإنَّ مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصَّة.

(٣) زيادة من (ح). (٤) زيادة من (ح). (٥) زيادة من (ح).

(٦) ما بين المعقوفتين زيادة من (ح). (٧) في (ز): «وما سوىٰ ذلك»، والمثبت من (ح).

ألف عالَم، أو أربعة عشر ألف عالَم، هو يشك، [من][(١)] الملائكة علىٰ الأرض، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالَم، وخمسمائة عالَم، خلقهم الله لعبادته. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

[وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلىٰ دليل صحيح.][(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن خالد، حدَّثنا[(٣)] الوليد بن مسلم، حدَّثنا الفرات - يعني: ابن الوليد - عن معتب بن سمي، عن تُبيع؛ يعني: الحميري، في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: العالمين ألف أمة فستمائة في البحر، وأربعمائة في البر[(٤)].

[وحكي مثله عن سعيد بن المسيب][(٥)].

وقد روي نحو هذا مرفوعًا كما قال الحافظ أبو يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنىٰ في «مسنده»:

حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا عبيد بن واقد القيسي، أبو عباد، حدَّثني محمَّد بن عيسىٰ بن كيسان، حدَّثنا محمَّد بن المنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله، قال: قلَّ[(٦)] الجراد في سنة من سِنِيِّ عمر الَّتي وَلِيَ فيها فسأل عنه، فلم يُخبر بشيء، فاغْتَمَّ لذلك، فأرسل راكبًا يضرب إلىٰ اليَمَنِ[(٧)]، وآخر إلىٰ الشَّام، وآخر إلىٰ العراق، يسأل: هل رُئي من الجراد شَيءٌ أم لا؟ قال: فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة مِن جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبَّر، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خَلَقَ اللهُ أَلْفَ أُمَّةٍ، سِتِّمِائَةٍ فِي البَحْرِ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فِي البَرِّ، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَهْلِكُ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ الجَرَادُ، فَإِذَا هَلَكَ تَتَابَعَتْ مِثْلَ النِّظَامِ إِذَا قُطِعَ سِلْكُهُ**»[(٨)]. محمَّد بن عيسىٰ هذا -وهو الهلالي- ضعيف.

[وحكىٰ البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: لله أَلْفُ عالَم؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البر.

وقال وهب بن منبه: لله ثمانية عشر ألف عالَم؛ الدُّنيا عالم منها.

وقال مقاتل: العَوَالِمُ ثمانون ألفًا.

وقال كعب الأحبار: لا يعلم عدد العوالم إلا الله ﷻ نقله كله البغوي.

وحكىٰ القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: إن لله أربعين ألف عالَم؛ الدنيا من شرقها إلىٰ

---

(١) زيادة من «الطبري». (٢) زيادة من (ح). (٣) لوحة (١٨ أ).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٩٤٥)، ومثله يحتاج إلىٰ خبر صحيح ولا دليل علىٰ ذلك.

- وكذا القول فيما عزاه بعد ذلك إلىٰ سعيد بن المسيب وغيره.

(٥) زيادة من (ح). (٦) في (ز): «قتل الجراد»، والمثبت من (ح).

(٧) في (ز)، (ح): «يضرب إلىٰ كذا».

(٨) موضوع: أورده الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» بسند أبي يعلىٰ (٢٣٩٩).

- قلت: وفيه محمد بن عيسىٰ بن كيسان، قال فيه ابن حبان: يروي عن محمد ابن المنكدر العجائب وعن الثقات الأوابد، لا يجوز الاحتجاج به - ثم ساق حديثه هذا- وقال: وهذا شيء لا شك أنه موضوع، ليس هذا من كلام رسول الله ﷺ «المجروحين» (٢/ ٢٥٦).

مغربها عالَم واحد منها، وقال الزَّجَّاج: العالَم كل ما خلقه الله في الدُّنْيا والآخرة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنَّه شاملٌ لكل مخلوقٍ؛ كقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ والعالم مشتق من العلامة (قلت): لأنَّه علَمٌ دالٌّ على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَىٰ الإِلَـهُ؟! أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ؟!
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَلَـىٰ أَنَّـهُ وَاحِـدُ][1]

[﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾][2]

وقولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تقدم الكلام عليه في البَسْمَلَةِ بما أغنىٰ عن إعادته.

[قال القرطبي: وإنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لِيَكُون مِن باب قرن الترغيب بعد الترهيب كما قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال: فالربُّ فيه ترهيب، والرَّحمن الرحيم تَرْغِيبٌ.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**»[3]][4].

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾

قرأ بعض القراء: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وقرأ آخرون: ﴿مَلِكِ﴾.وكلاهما صحيح متواتر في السبع[5][6].

[ويقال: مَلكِ، بكسر اللام وإسكانها، ويقال: مليك أيضًا، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ: «ملكي يوم الدين».

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من (ح). (٢) ليست في (ز).

(٣) البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥)، والترمذي (٣٥٤٢)، وأحمد (٢/ ٤٨٤).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) **قال ابن عثيمين رحمه الله:** وفي قوله تعالىٰ: ﴿مالك﴾ قراءة سبعية: ﴿مَلِك﴾، و«الملك» أخص من «المالك».

- وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي أن ملكه -جلَّ وعلا- ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون ملكًا، ولكن ليس بمالك: يسمىٰ ملكًا اسمًا وليس له من التَّدبير شيء؛ ومِن الناس مَن يكون مالكًا، ولا يكون ملكًا: كعامة الناس؛ ولكن الرب ﷻ مالكٌ ملِك.

(٦) **متواترة:** قَرَأَ (مَالِكِ) عَاصِمٌ وَالْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مَلِكِ).

وقد رجح كُلًّا من القراءتين مرجحون من حيث المعنىٰ، وكلاهما صحيحة حسنة، ورَجَّح الزمخشري ﴿مَلِكِ﴾؛ لأنها قراءة الحرمين، ولقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، وقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، وحكي عن أبي حنيفة أنه قرأ: «مَلَكَ يَوْمَ الدِّينِ» علىٰ أنه فعل وفاعل ومفعول، وهذا غريبٌ شاذٌّ جدًّا[(١)] وقد روىٰ أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئًا غريبًا حيث قال: حدَّثنا أبو عبد الرحمن الأذْرَمِيُّ، حدَّثنا عبد الوهاب عن(٢) عدي بن الفضل، عن أبي المطرف، عن ابن شهاب: أنه بلغه أنَّ رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرءون: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. وأول من أحدث (مَلِكِ) مروان(٣).

قلت: مروان عنده علم بصحة ما قرأه(٤)، لَمْ يَطَّلِع عليه ابن شهاب، والله أعلم.

وقد روي من طرق متعددة أوردها ابن مَرْدوَيه أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

و﴿مَٰلِكِ﴾ مأخوذ من المِلْك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢]، و«ملك»: مأخوذ من المُلْك، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ(٥) عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه؛ لأنَّه قد تقدَّم الإخبار بأنَّه رب العالمين، وذلك عامٌّ في الدنيا والآخرة، وإنَّما أضيف إلىٰ يوم الدِّين؛ لأنَّه لا يَدَّعِي أحد هنالك شيئًا، ولا يتكلَّم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] وقال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكمًا، كملكهم في الدنيا. قال: و﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة [يوم](٦) يَدِينهم

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من (ح).

(٢) في (ز): (عبد الوهاب بن عدي بن الفضل)، والمثبت هو الصواب كما في «المصاحف»، وكتب الرجال.

(٣) **ضعيف جدًّا:** رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص٩٤)، وفيه عدي بن الفضل. قال الحافظ: متروك، وضعفه ابن معين وأبو داود، وقال أبو حاتم: متروك الحديث [انظر: «تهذيب الكمال» (١٩/ ٥٤٠)]، و«التقريب» ومع هذه العلة القادحة في الحديث فإنه أيضًا مرسل.

(٤) ففي ترجمته من «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٧٧) وَصَفَه معاويةُ رضي الله عنه بالقارئ. والقراءة متواترة، ينظر: «السبعة» لابن مجاهد: (ص١٠٤)، والرد علىٰ كلام ابن شهاب في «المحرر الوجيز» لابن عطية (١/ ٦٩)، و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (١/ ١٧٥)، و «مناهل العرفان» للزرقاني (١/ ٣٢٤).

(٥) لوحة (١٨ ب). (٦) زيادة من (ح).

بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

وحكىٰ ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلىٰ أن تفسير ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أنه القادر علىٰ إقامته، ثم شرع يضعفه.

والظاهر أنَّه لا منافاة بين هذا القول وما تقدَّم، وأن كُلًّا مِن القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدلُّ علىٰ المعنىٰ الأول من هذا، كما قال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، والله أعلم.

[والمَلِكُ[١] في الحقيقة هو الله ﷻ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ...﴾ [الحشر: ٢٣].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**أَخْنَعُ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ بِمَلِكِ الأَمْلاكِ وَلَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ**»[٢].

«وفيهما» عنه[٣] عن رسول الله ﷺ قال: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟ أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟**»[٤].

وفي القرآن العظيم: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فأمَّا تسمية غيره في الدنيا بملك فعلىٰ سبيل المجاز، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾. وفي «الصحيحين»: «**مِثْلَ المُلُوكِ عَلَىٰ الأَسِرَّةِ**»[٥].

والدين: الجزاء والحساب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، وقال: ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مجزيون محاسبون.

وفي الحديث: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ**»[٦]؛ أي: حاسب نفسه لنفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزِنُوا أنفسَكُم قبل أن تُوزَنُوا، وتأهبوا للعَرْضِ

---

(١) من هنا تبدأ زيادة أثبتناها من (ح).

(٢) البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣)، وأبو داود (٤٩٦١)، والترمذي (٢٨٣٧).

(٣) كلمة «عنه» ليست في (ح).

(٤) البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧)، وابن ماجة (١٩٢).

(٥) البخاري (٢٨٧٨)، ومسلم (١٩١٢)، والترمذي (١٦٤٥).

(٦) ضعيف: الترمذي (٢٥٧٧)، وابن ماجة (٤٢٦٠)، والحاكم (١/ ٥٧) (٤/ ٢٥١)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١)، وفي إسناده عبد الله بن أبي مريم الغساني وهو من الضعفاء. قال الحافظ: مقبول، ولذلك تعقب الذهبي تصحيح الحاكم فقال: لا والله، في سنده أبو بكر بن أبي مريم وهو واهٍ.

- والحديث ضعفه الألباني، انظر: «ضعيف الجامع» وضعيف ابن ماجة.

للعَرْضِ الأكبر (علىٰ من لا تخفىٰ عليه أعمالكم[1]:) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2]][3].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

[قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾، وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر[4] وهي قراءةٌ شاذةٌ مردودةٌ؛ لأن «إِيَا» ضوء الشمس. وقرأ بعضهم: «أَيَّاك» بفتح الهمزة وتشديد الياء[5]، وقرأ بعضهم: «هَيَّاك» بالهاء بدل الهمزة، كما قال الشاعر:

فَهَيَّاكَ وَالأَمْرُ الَّذِي إِنْ تَرَاحَبَتْ ... مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهُ[6]

و﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون في أول الكلمة في قراءة الجميع سوىٰ يحيىٰ بن وثَّاب والأعمش فإنَّهما كسراها[7]، وهي لغة بني أسد وربيعة وبني تميم وقيس][8]. العبادة في اللغة من الذِّلَّة، يقال: طريق مُعَبَّد، وبعير مُعَبَّد؛ أي: مذلَّل، وفي الشَّرع: عبارة عمَّا يجمع كمال المحبَّة والخضوع والخوف[9].

وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام والحصر؛ أي: لا نَعْبُد إلا إيَّاك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدِّين يرجع كله إلىٰ هذين المعنيين[10]، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسِرُّها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثَّاني تَبَرُّؤ مِن الحول والقوَّة، وتفويض إلىٰ الله ﷻ. وهذا المعنىٰ في غير آية من القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ

---

(١) ما بين القوسين ليس في (ح).

(٢) صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٢)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٢).

(٣) هنا تنتهي الزيادة التي زدناها من (ح).

(٤) فتكون: (إِيَاك)، وهي في: «القراءات الشاذة» (ص ٩)، و«المحتسب» (١/ ٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٢٥).

(٥) وهي شاذة والتي بعدها كذلك. ينظر: «القراءات الشاذة» (ص ٩)، و«المحتسب» (١/ ٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٧٢/ ١).

(٦) البيت في «اللسان»: «هيا، وأيا» و«تاج العروس» (٤٠/ ٣٩١)، و (٣٩٦ مع اختلاف يسير)، وانظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي: (١١٥٢/ ٢) ط. الجيل.

(٧) فتكون: «نِسْتعين»، وهي في «القراءات الشاذة» (ص٩٠).

(٨) ما بين المعقوفتين زيادة من (ح).

(٩) قال ابنُ تيمية رحمه الله: «العبادةُ :هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبهُ اللهُ ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة». «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١٤٩)، «رسالة العبودية»، وانظر: «اللسان»: (عبد)، و «تفسير الطبري» (١/ ١٥٩).

(١٠) قال القاسمي رحمه الله: وفيه إعلام بما صدع به الإسلام مِن تحرير الأنفس لله تعالىٰ وتخليصها لعبادته وحده. أعني: أن لا يُشْرَك شيء ما معه، لا في محبته كمحبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقريب، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده، وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب، فلا بد أن يكون العابد محبًّا للإله المعبود كمال حُبٍّ، ولا بد أن يكون ذليلاً له كمال الذُّلِّ، وهما لا يصلحان إلا لله وحده.

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة(١): ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتحول الكلام مِن الغيبة إلىٰ المواجهة بكاف الخطاب(٢)، وهو مناسب(٣)؛ لأنه لَمَّا أثنىٰ علىٰ الله فكأنَّه اقترب وحضر بين يدي الله تعالىٰ؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي هذا دليلٌ علىٰ أنَّ أوَّل السورة خبر مِن الله تعالىٰ بالثَّناء علىٰ نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنىٰ، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصح صلاةُ مَن لم يَقُل ذلك، وهو قادر عليه(٤)، كما جاء في «الصحيحين»، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «**لا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»(٥). وفي «صحيح مسلم»، من حديث العلاء بن عبد الرحمن، مولىٰ الحُرَقَة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، إِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ اللهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»(٦). وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني: إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علىٰ طاعتك وعلىٰ أمورنا كلها.

وقال قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يأمركم أن تُخْلِصُوا له العبادة وأن تستعينوه علىٰ أمركم.

وإنَّما قدَّم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأنَّ العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمامُ والحزمُ هو تقديم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم(٧).

[فإن قيل(٨): فما معنىٰ النون في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن كانت للجمع فالدَّاعي

---

(١) لوحة (١٩ أ).

(٢) وهذا يسمىٰ الالتفات في علم البيان. ينظر: «الكشاف» (١/ ١١٨-١٢٠)، و«البحر المحيط» (١/ ١٤١).

(٣) في (ز): مناسبة.

(٤) في (ز): «وهو قادر بذلك»، والمثبت من (ح).

(٥) البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٦) أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٧) **قال ابن القيم** رحمه الله: القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلىٰ التَّلف ولا بد، وهما: الرِّياء والكبر؛ فدواء الرياء بـ«إياك نعبد»، ودواء الكبر بـ«إياك نستعين»، وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية -قدَّس الله روحه- يقول: «إيَّاك نعبد» تدفع الرِّياء و«إيَّاك نستعين» تدفع الكبرياء، فإذا عوفي من مرض الرياء بـ«إياك نعبد» ومن مرض الكبرياء والعجب بـ«إياك نستعين» ومن مرض الضلال والجهل بـ«اهدنا الصراط المستقيم» عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم، «غير المغضوب عليهم» وهم: أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، و«الضَّالِّين» وهم: أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

(٨) من هنا تبدأ زيادة قدر صفحة زدناها من (ح).

واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ فقد أُجِيب: بأن المراد مِن ذلك الإخبار عن جنس العباد والمُصَلِّي فَرْدٌ منهم، ولا سِيَّمَا إن كان في جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها، وتَوَسَّط لهم بخير.

ومنهم مَن قال: يجوز أن تكون للتَّعظيم، كأنَّ العبد قيل له: إذا كنت في العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وإذا كنت خارج العبادة فلا تَقُل: نحن، ولا: فعلنا، ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لافتقار الجميع إلىٰ الله ﷻ، ومنهم من قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ألطف في التَّواضع مِن إيَّاك أعبد، لما في الثَّاني من تعظيمه نفسه من جعله نفسه وحده أهلًا لعبادة الله تعالىٰ الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حَقَّ عبادته، ولا يُثْنِي عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلىٰ جناب الله تعالىٰ، كما قال بعضهم:

لا تَــدْعُنِي إِلَّا بِيَــا عَبْــدَهَا فَإِنَّــهُ أَشْــرَفُ أَسْــمَائِي

وقد سمَّىٰ اللهُ رسولَه ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال[(١)]: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: ١] فسماه عبدًا عند إنزَالِهِ عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلىٰ القيام بالعبادة في أوقاتٍ يضيق صدره من تكذيب المخالفين له، حيث يقول: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

وقد حكىٰ فخر الدين في «تفسيره» عن بعضهم: أنَّ مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة؛ لِكَوْنِ العبادة تصدر من الخلق إلىٰ الحق والرِّسالة من الحق إلىٰ الخلق؛ قال: ولأنَّ الله متولي مصالح عبده، والرسول متولي مصالح أُمَّتِه.

وهذا القول خطأ، والتوجيه أيضًا ضعيف لا حاصل له، ولم يتعرض له فخر الدين بتضعيف ولا رده.

وقال بعض الصوفية: العبادة إما لتحصيل ثواب ورد عقاب؛ قالوا: وهذا ليس بطائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده، وإما للتَّشريف بتكاليف الله تعالىٰ، وهذا أيضًا عندهم ضعيف، بل العالي أن يُعبَدَ اللهُ لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال، قالوا: ولهذا يقول المصلي: أصلي لله، ولو كان لتحصيل الثواب ودرء العذاب لبطلت صلاته.

وقد رَدَّ عليهم ذلك آخرون وقالوا[(٢)]: كون العبادة لله ﷻ لا ينافي أن يَطْلُب معها ثوابًا، ولا أن يدفع عذابًا، كما قال ذلك الأعرابي: أمَا إنِّي لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ إنَّما أسأل الله الجنة

---

(١) كلمة «فقال» ليست في (ح).

(٢) رد عليهم شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٢/ ٤٠٥ - ٤٠٩) الكلام علىٰ رسالة القشيري.

وأعوذ به من النَّار، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّمَا حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»[1]][2].

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾

[قراءة الجمهور بالصاد][3] [وقرئ: «السِّرَاط» وقرئ بالزاي[4]، قال الفراء: وهي لغة بني عذرة وبلقين وبني كلب][5].

لما تقدَّم الثَّناء على المسؤول، تبارك وتعالى، نَاسَب أن يعقب بالسؤال؛ كما قال: «فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسئوله، ثم يسأل حاجته [وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا﴾][6]؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة[7]، ولهذا أرشد الله تعالى إليه؛ لأنَّه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى[8] عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول، كقول ذي النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول، كقول الشاعر[9]:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي؟ أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ؟
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

والهداية هاهنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تُعدَّى الهداية بنفسها كما هنا ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى: أَلْهِمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛ ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠] أي: بيَّنَّا له الخير والشر، وقد تعدَّى بـ«إِلَى» كقوله تعالى: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النحل: ١٢١]، ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٧٩٢)، وأحمد (٢/ ٤٧٤)، و«الدندنة»: أن يتكلم الرجل بكلام يسمع نغمته ولا يُفهم «النهاية» لابن الأثير (٢/ ١٣٧)، وانظر تعليقي بكتاب «تمام المنة في فقه الكتاب وصحيح السنة».

(٢) هنا تنتهي الزيادة التي زدناها من (ح).

(٣) ليست في (ز).

(٤) متواترة: قَرَأَ (السِّرَاطَ) قُنبُلٌ (بِخُلْفٍ عَنْهُ) وَرُوَيْسٌ وَوَافَقَهُمْ ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ (الصِّرَاطَ) بِإِشْمَامِ الصَّادِ صَوْتَ الزَّايِ حَمْزَةُ بِخُلْفِ خَلَّادٍ وَوَافَقَهُ الْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (الصِّرَاطَ) بِالصَّادِ الْخَالِصَةِ.

(٥) زيادة من (ح). (٦) زيادة من (ح).

(٧) قال أبو العباس بن تيمية رحمه الله: «ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾، فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يُصِبْهُ شرٌّ لا في الدنيا ولا في الآخرة. «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢١٥-٢١٦).

(٨) لوحة (١٩ ب).

(٩) هو أمية بن أبي الصلت، وقد قال البيتان يمدح بهما ابن جُدعان .ينظر: «ديوان أمية» (صـ:١٧) ط صادر، و «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٥)، و«فتح الباري» (١١/ ١٤٧).

صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وذلك بمعنىٰ الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقد تعدَّىٰ باللَّام، كقول أهل الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أي: وَفَّقَنَا لهذا وجعلنا له[أهلًا][١].

وأما ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير[٢]: أجمعت الأُمَّة مِن أهل التَّأويل جميعًا علىٰ أن الصراط المستقيم هو الطريق الوَاضِح الذي لا اعْوِجَاجَ فيه[٣].

وكذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفي[٤]:

أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ ... إِذَا اعْوَجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقِيمِ

قال[٥]: والشواهد علىٰ ذلك أكثر من أن تحصر، قال: ثم تَسْتَعِير العرب الصراط فتَسْتَعْمِلُه في كلِّ قول وعمل وصف باستقامةٍ أو اعوجاج، فتَصِف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه.

ثم اختلفتْ عِبَارَات المفسِّرين من السَّلف والخلف في تفسير الصِّراط، وإن كان يرجع حاصلها إلىٰ شيءٍ واحدٍ، وهو المتابعة لله وللرَّسول؛ فرُوِيَ أنَّه كتاب الله، قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن ابن عرفة، حدَّثني يحيىٰ بن يمان، عن حمزة الزيات، عن سعد - وهو أبو المختار[٦] الطائي - عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ كِتَابُ اللهِ**»[٧].

وكذلك رواه ابن جرير، من حديث حمزة بن حبيب الزيات[٨]، وقد [تقدم في فضائل القرآن فيما][٩] رواه أحمد والترمذي من رواية الحارث الأعور، عن علي مرفوعًا: «**وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينِ**،

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) «جامع البيان» (١/ ١٧٠).
(٣) قال ابن القيم ﵀: «فمن هُدِيَ في هذه الدار إلىٰ صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه، هدي هناك إلىٰ الصراط المستقيم الموصل إلىٰ جَنَّتِه ودار ثوابه، وعلىٰ قدر ثبوت قدم العبد علىٰ هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدَّار يكون ثبوت قدمه علىٰ الصِّراط المنصوب علىٰ مَتْنِ جهنَّم، وعلىٰ قدر سَيْره علىٰ هذه الصراط يكون سَيْرُهُ علىٰ ذاك الصِّراط، فمنهم مَن يمُرُّ كالبرق، ومنهم من يمُرُّ كالطَّرف، ومنهم مَن يمرُّ كالرِّيح، ومنهم مَن يمر كشَدِّ الرِّكاب، ومنهم من يسعىٰ سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يَحْبُوا حبوًا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره علىٰ ذلك الصراط من سيره علىٰ هذا حذو القُذَّةِ بالقُذَّة جزاءً وفاقًا: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النمل: ٩٠]».
(٤) «ديوان جرير بشرح الصاوي» (ص: ٥٠٧) ط: المكتبة التجارية.
(٥) «تفسير الطبري» (١/ ١٧١).
(٦) في (ز): «ابن المختار الطاعن»، والمثبت من (ح)، وهو الصواب.
(٧) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٠)، فيه الحارث الأعور: وهو ضعيف، أورده الذهبي في «ميزان الاعتدال» (١/ ٤٣٥) وكذبه الشعبي وابن المديني، وضعفه ابن معين والنسائي والدارقطني، وفيه سعيد الطائي: مجهول.
(٨) لوحة (٢٠ أ).
(٩) زيادة من (ح).

وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ»[(١)].

وقد رُوِيَ هذا موقوفًا عن علي، وهو أشبه، والله أعلم[(٢)].

وقال الثوري، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم. كتاب الله، وقيل: هو الإسلام.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، قال: قال جبريل لمحمَّد عليهما السلام: قل: يا محمَّد، اهدنا الصراط المستقيم. يقول: ألهمنا الطريق[(٣)] الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج فيه.

وقال ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: ذاك الإسلام.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قالوا: هو الإسلام.

وقال عبد الله بن محمَّد بن عقيل، عن جابر: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: الإسلام، هو أوسع مما بين السماء والأرض. وقال ابن الحنفية في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: هو دين الله، الذي لا يُقْبَل من العباد غيره. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: اهدنا الصِّرَاط المستقيم، قال: هو الإسلام.

وفي معنىٰ هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»، حيث قال: حدَّثنا الحسن بن سوار أبو العلاء، حدَّثنا ليث - يعني: ابن سعد - عن معاوية بن صالح: أنَّ عبد الرحمن بن جبير بن نفير، حدثه عن أبيه، عن النَّوَّاس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ [جَمِيعًا وَلَا تَعْوَجُّوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ][(٤)] فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ، لَا تَفْتَحْهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ. فَالصِّرَاطُ: الإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ [الصِّرَاطِ][(٥)]: وَاعِظُ اللهِ[(٦)] فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[(٧)].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير مِن حديث الليث بن سعد به. ورواه الترمذي والنسائي

---

(١) ضعيف: فيه الحارث الأعور (انظر الحديث السابق) رواه الترمذي (٢٩٠٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٩٠ - ١٩١ بتحقيقي)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٢)، والدارمي (٢/ ٤٣٥).

(٢) وهو ضعيف أيضًا؛ لأنه من نفس الطريق.

(٣) في (ز): «اهدنا الصراط»، والمثبت من (ح).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) لوحة (٢٠ ب).

(٧) صحيح: الترمذي (٢٨٥٩)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٠- مختصرًا)، وابن جرير، وأحمد (٤/ ١٨٢)، وقال الحاكم (١/ ٧٣): صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٩) إلىٰ ابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في «الشعب».

جميعًا، عن علي بن حجر عن بقية، عن بُجَيْر بن سعد، عن خالد بن مَعْدَان، عن جبير بن نفير، عن النواس بن سمعان به. وهو إسناد حسن صحيح، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، قال: الحق. وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدَّم.

وروىٰ ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم؛ حدَّثنا حمزة بن المغيرة، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: هو النَّبيُّ ﷺ، وصاحباه مِن بعده، قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح.

وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتَّبع النَّبيَّ ﷺ، واقتدىٰ باللَّذَيْن مِن بعده أبي بكر وعمر، فقد اتَّبع الحَقَّ، ومن اتَّبع الحقَّ فقد اتَّبع الإسلام، ومن اتَّبع الإسلام فقد اتَّبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحةٌ يصدِّق بعضها بعضًا، ولله الحمد(١).

وقال الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن الفضل السقَطي، حدَّثنا إبراهيم بن مهدي المِصِّيصي، حدَّثنا يحيىٰ بن زكريا بن أبي زائدة، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسولُ الله ﷺ(٢).

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): والَّذِي هو أَوْلَىٰ بتأويل هذه الآية عندي -أعني: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾- أن يكون معنيًّا به: وفِّقْنا للثبات علىٰ ما ارتضيته ووفقت له مَنْ أنعمت عليه مِنْ عبادك، مِن قولٍ وعملٍ، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأنَّ مَن وُفِّق لما وُفق له من أنعم الله عليهم مِن النَّبيِّين والصديقين والشهداء [والصالحين](٤) فقد وُفِّق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتِّباع منهاج النَّبيِّ ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم.

فإن قيل: كيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقتٍ من صلاة وغيرها، وهو(٥) متصف بذلك(٦)؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلًا ونهارًا إلىٰ سؤال الهداية لما أرشده الله إلىٰ ذلك؛ فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلىٰ الله تعالىٰ في تَثْبِيتِهِ علىٰ الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإنَّ العبد لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله، فأرشده تعالىٰ إلىٰ أن يسأله

---

(١) وهذا ما يقال عنه: اختلاف تنوع. ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٣٣٣)، و«مقدمة التفسير» (٣٨١ - ٣٨٢).

(٢) **إسناده صحيح:** رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٤٥/ ١٠٤٥٤).

(٣) «جامع البيان» (١/ ١٧١).

(٤) ليست في (ز).

(٥) لوحة (٢١ أ).

(٦) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٩ - ١٠)، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٧٤).

في كل وَقْتٍ أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسَّعيد مَن وفَّقه الله تعالىٰ لسؤاله؛ فإنَّه تعالىٰ قد تكفَّل بإجابة الدَّاعي إذا دعاه، ولا سِيَّما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء اللَّيل وأطراف النهار، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثَّبات والاستمرار والمداومة علىٰ الأعمال المعينة علىٰ ذلك، والله أعلم.

[وقال تعالىٰ آمرًا لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ وقد كان الصدِّيق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرًّا. فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلىٰ غيره. ولا تضلنا عنه][(١)].

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

قد تقدَّم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلىٰ آخرها أن الله يقول: «**هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**». وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو بدل منه عند النحاة[(٢)]، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم.

و﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠][(٣)].

وقال **الضَّحَّاك**، عن ابن عبَّاس: «صراط الذين أنعمت عليهم» بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية [النساء: ٦٩].

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم النَّبيّون. وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عبَّاس: هم المؤمنون. وكذا قال مجاهد. وقال وَكِيع: هم المسلمون.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النَّبيُّ ﷺ ومن معه.

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من (ح).

(٢) ينظر: «الكشاف» (١/ ١٢١)، و«تفسير القرطبي (١/ ٢٢٩).

(٣) قال ابنُ تيمية رحمه الله: «المُنعم عليهم: هم الذين ذكرهم الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء]، فهؤلاء هم الذين أمر الله عباده أن يَسْألُوا هداية صراطهم. «الجواب الصحيح» (٣/ ١٦٦ - ١٦٧).

والتفسير[١] المتقدم، عن ابن عبَّاس أعم وأشمل، والله أعلم[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [قرأ الجمهور: «غَيْرِ» بالجر على النعت، قال الزمخشري[٣]: وقرئ «غَيْرَ المَغْضُوبِ» بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير[٤]، وذو الحال الضمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ والعامل: ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾][٥] والمعنىٰ[٦] اهدنا الصراط المستقيم، صراط الَّذِين أنعمت عليهم ممن تقدَّم وصفهم ونَعْتُهم، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحَقَّ وعَدَلُوا عنه، ولا صراط الضَّالين [وهم الذين][٧] فقدوا العلم فهم هائمون في الضَّلالة لا يهتدون إلىٰ الحق، وأَكَّدَ الكلام بـ«لَا» لِيَدُلَّ علىٰ أن ثَمَّ مَسْلَكَيْن فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنَّصارىٰ[٨].

---

(١) لوحة (٢١ ب).

(٢) وهو تفسير الجمهور ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٧٦-١٨٠)، و «المحرر الوجيز» (٧٥/ ١).
وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختلف الناسُ في المُنْعَم عليهم، فقال الجمهور من المفسرين :إنه أراد صراط النَّبِيِّين والصدِّيقينَ والشُّهداء والصالحين. وانتزعوا ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء]، فالآية تقتضي أن هؤلاء علىٰ صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد، وجميع ما قيل إلىٰ هذا يرجع، فلا معنىٰ لتعديد الأقوال، والله المستعان. «تفسيره» (١/ ٢٣٠).

(٣) «الكشاف» (١/ ١٢٣).

(٤) رُوي الوجهان عن ابن كثير، النصب والخفض. ينظر: «السبعة» (١١١-١١٢)، و «الحجة» للفارسي (١/ ١٤٢ – ١٦٢)، و«البحر المحيط» (١/ ١٤٨-١٤٩).
وقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد يجوز نصب [غير] في [غير المغضوب عليهم]، وإن كنتُ للقراءة بها كارهًا لشذوذها عن قراءة القُرَّاء، وإنَّ ما شَذَّ من القراءات عما جاءت به الأمة نقلًا ظاهرًا مستفيضًا، فرأيٌ للحق مخالف، وعن سبيل الله وسبيل رسوله ﷺ وسبيل المسلمين مُتجانفٌ، وإن كان له –لو كان جائزَ القراءةِ به – في الصواب مخرجٌ...والصَّوابُ من القول في تأويله وقراءته عندنا، القول الأول، وهو قراءةُ [غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ] بخفض الراء من [غير]، بتأويل أنها صفة لِـ[الذين أنعمت عليهم]، ونعتٌ لهم –لما قد قدمنا من البيان– إن شئتَ، وإن شئت فبتأويلِ تكرار: [صراط]، كلُّ ذلك صوابٌ حَسنٌ. «جامع البيان» (١/ ١٨٢ – ١٨٥).

(٥) زيادة من (ح).

(٦) في (ز): «يعني»، والمثبت من (ح).

(٧) ليست في (ز).

(٨) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إمَّا الجهل؛ أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم. وعلىٰ رأسهم اليهود؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق. وعلىٰ رأسهم النصارىٰ؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة؛ أعني: النَّصارىٰ، أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم واليهود سواءً. كلهم مغضوب عليهم.

وقد زَعَم بعض النُّحاة أن ﴿غَيْرِ﴾ هاهنا استثنائية، فيكون علىٰ هذا منقطعًا لاستثنائهم من المُنْعَم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولىٰ، لقول الشاعر [(١)]:

كَأَنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِي أُقَيْشٍ ... يُقَعْقَعُ عِنْدَ [(٢)] رِجْلَيْهِ بِشَنِّ

أي: كأنَّك جمل مِن جمال بني أقيش، فحَذَف الموصوف واكتفىٰ بالصِّفة، وهكذا، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [أي: غير صراط المغضوب عليهم] [(٣)].

اكتفىٰ بالمضاف إليه عَن ذكر المضاف، وقد دلَّ عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالىٰ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال تعالىٰ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ومنهم من زعم أنَّ «لا» في قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين [(٤)]، واستشهد ببيت العجاج:

«فِي بِئْرِ لا حُورٍ سَرَىٰ وَمَا شَعَرْ [(٥)(٦)]»

أي: في بئر حور. والصَّحيح ما قدَّمناه. ولهذا روىٰ أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «فضائل القرآن» عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كان يقرأ: «غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّين» [(٧)]. وهذا إسناد صحيح.

[وكذا حكي عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك] [(٨)] وهو محمول علىٰ أنَّه صدر منه علىٰ وجه التَّفسير، فيدلُّ علىٰ ما قلناه من أنه إنما جيء بـ «لا» لتأكيد النفي، [لئلا يتوهم أنه معطوف علىٰ ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾] [(٩)] وللفرق بين الطَّريقتين، لتُجْتَنَب كلٌّ منهما؛ فإنَّ طريقة أهل الإيمان مشتملة علىٰ العلم بالحَقِّ والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنَّصارىٰ فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضَّلال للنَّصارىٰ، لأنَّ مَن علم وترك استحقَّ الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنَّصارىٰ لمَّا كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلىٰ طريقه؛ لأنَّهم لم [(١٠)] يأتوا الأمر من بابه، وهو اتِّباع الرسول الحق - ضَلُّوا.

وكل من اليهود والنصارىٰ ضالٌّ مغضوبٌ عليه، لكن أَخصُّ أوصاف اليهود الغضب [كما قال فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]] [(١١)] وأخص أوصاف النصارىٰ الضَّلال [كما قال:

---

(١) هو النابغة الذُّبياني، والبيت في «ديوانه» (ص: ١٣٧) ط دار الكتب العلمية، وبنو أُقيش: حي من اليمن، والشن: القربة البالية، وكانت إبلهم إذا سمعت صوت الشن نفرت نفورًا شديدًا.

(٢) في (ح): «بين».

(٣) زيادة من (ح).

(٤) المقصود أبا عبيدة، وكلامه في «مجاز القرآن» (١/ ٢٥).

(٥) في (ز): «في بئر لا جور سعىٰ».

(٦) الشعر في «اللسان»: و«تفسير الطبري» (١/ ١٩٠)، والحور: الهلكة؛ يعني: في بئر هلكة.

(٧) **إسناده صحيح**: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص:٢٨٩، ٢٩٠) وسعيد بن منصور (١٧٧).

(٨) زيادة من (ح).

(٩) زيادة من (ح).

(١٠) لوحة (٢٢ أ).

(١١) زيادة من (ح).

﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]](١) وبهذا جاءت الأحاديث والآثار. وذلك واضح بَيِّنٌ.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، قال: سمعت سِماك بن حرب، يقول: سَمِعْت عبَّاد بن حُبَيش، يُحدث عن عدي بن حاتم، قال: جاءت خَيْلُ رسول الله ﷺ فأخذوا عمتي وناسًا، فلما أتوا بهم إلىٰ رسول الله ﷺ صُفُّوا له، فقالت: يا رسول الله، نَاءَ الوافد وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فمُنَّ عليَّ مَنَّ الله عليك، قال: «**مَنْ وَافِدُكِ؟**» قالت: عدي بن حاتم، قال: «**الَّذِي فَرَّ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ!**» قالت: فمنَّ علي، فلما رجع، [ورجل إلىٰ جنبه](٢) ترىٰ أنه علي، قال: «**سَلِيهِ حُمْلَانًا**» فسألته، فأمر لها، قال: فأتتني فقالت: لقد فعل فِعْلَة ما كان [أبوك](٣) يفعلها، فإنَّه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي، وذكر قربهم من النَّبيِّ ﷺ، قال: فعرفت أنَّه ليس بملك كسرىٰ ولا قيصر، فقال:

«**يَا عَدِيُّ، مَا أَفَرَّكَ**(٤) **أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ**(٥)**؟ قَالَ: مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ ﷻ؟**». قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وقال: «**إِنَّ المَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ اليَهُودُ، وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَىٰ**». وذكر الحديث(٦).

ورواه الترمذي، من حديث سماك بن حرب، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

قلت: وقد رواه حماد بن سلمة، عن سِمَاك، عن مُرِّيِّ بن قَطَرِيٍّ، عن عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «**هُمُ اليَهُودُ**» ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «**النَّصَارَىٰ هُمُ الضَّالُّونَ**»(٧).

وهكذا رواه سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم به.

وقد روي حديث عدي هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها.

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) في (ح): «ودخل إلىٰ ختنه»، والمثبت من (ز)، وهو موافق لما في «المسند».

(٣) زيادة من (ح)، وهي مثبتة في «المسند».

(٤) أي: ما الذي جعلك تفر وتهرب.

(٥) في (ز): «لا إله إلا الله»، والمثبت من (ح).

(٦) **صحيح**: أعني: محلَّ الشَّاهد، فقد أورد الحافظ ابن كثير معها قصة إسلام عدي بن حاتم، رواه أحمد (٤/ ٣٧٨)، والترمذي (٢٩٥٣)، وفيه عباد بن حبيش، لم يُوَثِّقه غير ابن حبان، وقال الحافظ: مقبول فالحديث بهذا الإسناد ضعيف، لكن محل الشاهد له متابعات ذكرها ابن كثير، رواها ابن جرير (١/ ٨٢- ٨٣) من حديث عدي بن حاتم بإسناد حسن، ورواه من حديث من سمع النَّبيَّ ﷺ (١/ ٨٣)، أما رواية أبي ذرٍّ فقد ذكرها ابن كثير وعزاها لابن مردويه بإسناده، وإسناده حسن. وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٤١- ٤٢).

(٧) انظر التعليق السابق.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن بُدَيْل العُقَيْلي، أخبرني عبد الله بن شَقِيق، أنه أخبره من سمع النَّبيَّ ﷺ وهو بوادي القُرىٰ[(١)]، وهو علىٰ فرسه[(٢)]، وسأله رجل من بني القين[(٣)]، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «المَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ -وأشار إلىٰ اليهود- وَالضَّالُّونَ هُمُ النَّصَارىٰ»[(٤)].

وقد رواه الجُرَيري وعروة، وخالد الحَذَّاء، عن عبد الله بن شقيق، فأرسلوه، ولم يذكروا من سمع النَّبيَّ ﷺ. ووقع في رواية عروة تسمية عبد الله بن عمر، فالله أعلم.

وقد روىٰ ابن مَرْدوَيه، من حديث إبراهيم بن طَهْمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذرٍّ قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال: «اليَهُودُ»، قال: قلت: الضالين، قال: «النَّصَارىٰ»[(٥)].

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النَّبيِّ ﷺ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم النصارىٰ.

وقال الضَّحَّاك، وابن جُرَيْج، عن ابن عبَّاس: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم النصارىٰ.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافًا[(٦)].

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنَّصارىٰ ضالُّون، الحديث المُتقدِّم، وقوله تعالىٰ في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال في المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ[(٧)] عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا۟ لَا

---

(١) وادي القُرىٰ: وادٍ بين الشام والمدينة. «معجم البلدان» (٤/ ٣٣٨).

(٢) لوحة (٢٢ ب).

(٣) بنو القَيْن: قبيلة كبيرة ينسبون إلىٰ القَين بن جسر، ويقال :كان له عَبْد يُسمىٰ القين حضنه فنسب إليه، وكان اسمه: النعمان بن جسر بن شِيْع الله...بن قُضاعة، ووهم ابنُ التين فقال: بنوالقَين قَبيلة من بني تَميم. «فتح الباري» (٨/ ٧٤).

(٤) انظر التعليق السابق. (٥) انظر التعليق السابق.

(٦) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣١) ط الباز، وعلىٰ الرغم من هذا الوضوح في تفسير النَّبيِّ ﷺ والصحابة ومن بعدهم بأنهم اليهود والنصارىٰ تجد من يُجامل ويستحي أن يتكلم بهذا . !! ومع ورود النص في اليهود والنصارىٰ فهناك أصناف تشبههم؛ قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: (مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَىٰ). «البداية والنهاية» (١٩/ ٤٢). نسأل الله العافية والسلامة، وسيذكر المؤلف كلام ابن عيينة هذا عند تفسيره للآية (٣٤) من سورة التوبة.

(٧) في (ز): «وأضل سبيلًا»، وهو خطأ.

﴿ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وفي السِّيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلىٰ الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنَّك لن تستطيع الدخول معنا حتىٰ تأخذ بنَصِيبِكَ من غضب الله. فقال: أنا من[1] غضب الله أَفِرُّ. وقالت له النصارىٰ: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتىٰ تأخذ بنصيبك من سَخَط الله، فقال: لا أستطيعه. فاستمر علىٰ فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النَّصارىٰ، وأما أصحابه فتَنَصَّروا ودخلوا في دِينِ النَّصْرَانِيَّة؛ لأنهم وجدوه أقرب مِن دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل، حتىٰ هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي ﷺ[2].

[مسألة:

والصحيح من مذاهب العلماء أنَّه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضَّاد والظَّاء لقرب مخرجيهما؛ وذلك أنَّ الضَّاد مخرجها من أوَّل حافَّة اللِّسان وما يَلِيهَا مِن الأضراس، ومخرج الظَّاء من طرف اللسان وأطراف الثَّنايا العُلْيَا؛ ولأن كُلًّا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز بين ذلك والله أعلم. وأما حديث: «أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ»[3] فلا أصل له، والله أعلم][4].

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات، علىٰ حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنىٰ المستلزمة لصفاته العليا، وعلىٰ ذِكْرِ المعاد وهو يوم الدين، وعلىٰ إرشاده عَبِيدَهُ إلىٰ سؤاله والتَّضرُّع إليه، والتَّبرؤ مِن حولهم وقوَّتهم، وإلىٰ إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهيَّة تبارك وتعالىٰ، وتنزيهِهِ أن يكون له شريك أو نظير أو مُمَاثِل، وإلىٰ سؤالهم إيَّاه الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتىٰ يُفضِي بهم ذلك إلىٰ جواز الصِّراط الحِسِّي يوم القيامة، المفضي بهم إلىٰ جنات النعيم في جوار النَّبيِّين، والصِّدِّيقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت علىٰ التَّرغيب في الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتَّحذير من مسالك الباطل؛ لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضَّالُّون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالىٰ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، وحذف الفاعل في الغضب

---

(١) لوحة (٢٣ أ).

(٢) ورقة بن نوفل الأسدي، ابن عم أُمنا خديجة ﵄، مختلف في إسلامه. ينظر: «أُسْد الغابة» لابن الأثير (٥/ ٤١٦) ط. دار الكتب العلمية، و«البداية والنهاية» (٢/ ٤٢)، و«الإصابة» لابن حجر (١١/ ٣٢٩)، و«بذل النصح والشفقة» للبقاعي ط. الفكر.

(٣) لا أصل له: كما قال ابن كثير: انظر: «تذكرة الموضوعات» و«كشف الخفاء» و«الفوائد المجموعة».

(٤) ما بين المعقوفتين من (ح).

في قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية [المجادلة: ١٤].

وكذلك إسناد الضَّلال إلىٰ مَن قام به، وإن كان هو الذي أضلَّهم بقدَره، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. إلىٰ غير ذلك من الآيات الدَّالة علىٰ أنَّه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال(١)، لا كما تقوله الفرقة القَدَريَّة(٢) ومن حذا حذوهم، من أنَّ العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه(٣)، ويَحْتَجُّون(٤) علىٰ بدعتهم بمتشابه(٥) من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحًا في الرَّدِّ عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغيِّ.

وقد ورد في الحديث الصحيح: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ»(٦). يعني في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فليس -بحمد الله- لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليُفَصِّل الحق من الباطل مفرقًا بين الهدىٰ والضَّلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنَّه مِن عند الله، تنزيل من حكيم خبير.

فصل

يُسْتَحَبُّ لمَن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين، [مثل: يس](٧) ويقال: أمين. بالقصر أيضًا [مثل: يمين](٨) ومعناه: اللَّهمَّ استجب، والدَّليل علىٰ ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذي، عن وائل بن حجر، قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال: «آمِينَ»، مَدَّ بها صوته.

---

(١) لكن لا ينسب إليه سبحانه -الشر تأدبًا؛ فقد كان النَّبيُّ ﷺ يقول في استفتاحه الصلاة: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». رواه مسلم (٧٧١).

(٢) قال ابنُ أبي العز رحمه الله: «وسُمُّوا قَدَرِيةً لإنكارهم القَدَر، وكذلك تُسمىٰ الجَبْرِية المُحتجون بالقدر قدرية أيضًا، والتسمية علىٰ الطائفة الأولىٰ أغلب». «شرح الطحاوية» (ص: ١١٣) ط. المكتب الإسلامي، وذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنَّ القدرية ثلاثة أصناف: ١-قدرية مُشركية ٢- قدرية مَجُوسية ٣- قدرية إبليسيَّة. ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٢٥٦-٢٦١).

(٣) قال ابن عثيمين رحمه الله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات] ففعل العبد مخلوقٌ لله، لكن المباشر للفعل هو العبد وليس الله، لكن الله هو الذي خلق هذا الفعل ففعله العبد، فهو منسوبٌ للهِ خَلْقًا ومنسوبٌ إلىٰ العَبْد كَسبًا وفِعلًا، فكل شيء مما يحدث فإنه مخلوقٌ لله ﷻ. «شرح رياض الصالحين» (١/ ٢٥١) ط. المكتبة الإسلامية.

(٤) لوحة (٢٣ ب).

(٥) تقدَّم الكلام علىٰ المتشابه في «فضائل القرآن».

(٦) البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥)، وأبو داود (٤٥٩٨)، والترمذي (٢٦٦٥)، ابن ماجة (٤٧).

(٧) زيادة من (ح). (٨) زيادة من (ح).

ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وروي عن علي، وابن مسعود وغيرهم(١).

وعن أبي هريرة ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: «آمِينَ» حتىٰ يسمع من يليه من الصَّفِّ الأول، رواه أبو داود، وابن ماجة، وزاد: فيَرْتَجُّ بها المسجد، والدارقطني وقال: هذا إسناد حسن(٢).

وعن بلال أنَّه قال: يا رسول الله، لا تسبقني بـ«آمِينَ». رواه أبو داود(٣).

[ونقل أبو نصر القشيري ﵀ عن الحسن وجعفر الصَّادق أنَّهما شدَّدا الميم من «آمِينَ» مثل: ﴿ءَآمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]](٤).

قال أصحابنا(٥) **وغيرهم**: ويستحب ذلك لمَنْ هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفردًا أو إمامًا أو مأمومًا، وفي جَمِيع الأحوال؛ لما جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٦). ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ: آمِينَ، وَالمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٧). [قيل: بمعنىٰ من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزَّمان، وقيل: في الإجابة، وقيل: في صفةِ الإخلاص](٨)(٩).

وفي «صحيح مسلم» **عن أبي موسىٰ** مرفوعًا: «**إِذَا قَالَ؛** يَعْنِي: الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، **فَقُولُوا:**

---

(١) **صحيح**: أبو داود (٩٣٢)، والترمذي (٢٤٨)، وابن ماجة (٨٥٥)، وأحمد (٤/ ٣١٥- ٣١٦).
- وله شاهد من حديث أبي هريرة ذكره «المصنف»: رواه أبو داود (٩٣٤)، وابن ماجة (٨٥٣)، وضعفه البوصيري، وضعَّفه الشيخ الألباني وعلته: بشر بن رافع: ضعيف، وأبو عبد الله ابن عم أبي هريرة: مجهول، لكن يشهد له ما رواه البخاري تعليقًا (٢/ ٢٦٢) ووصله عبد الرزاق (٢٦٤٠) عن ابن الزبير ومن معه، أنهم كانوا يرفعون أصواتهم حتىٰ إن للمسجد للجة. وإسناده صحيح.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) **ضعيف**: رواه أبو داود (٩٣٧)، وأحمد (٦/ ١٢)، وفيه انقطاع.

(٤) زيادة من (ح).

(٥) يعني: الشافعية، والمسألة في «البيان» للعمراني (٢/ ١٩٠)، و «المجموع» للنووي (٣/ ٣٢٧-٣٣٢) ط. الإرشاد.

(٦) البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠)، وأبو داود (٩٣٦)، والترمذي (٢٥٠)، وابن ماجة (٨٥٢)، والنسائي (٢/ ٥٧).

(٧) البخاري (٧٨١)، ومسلم (٤١٠).

(٨) زيادة من (ح).

(٩) **قال ابنُ حجر** ﵀: «المراد الموافقة في القول والزَّمان، خلافًا لمن قال: المراد الموافقة في الإخلاص والخشوع...قوله: غفر له ما تقدم من ذنبه...هو محمول عند العلماء علىٰ الصغائر. «فتح الباري» (٢/ ٢٦٥).

آمِينَ يُحِبْكُمُ اللهُ»(١).

وقال جُوَيبر(٢)، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنىٰ آمين؟ قال(٣): «رَبِّ افْعَلْ»(٤).

[وقال الجوهري(٥): معنىٰ آمين: كذلك فلْيَكُن، وقال الترمذي: معناه: لا تُخَيِّب رجاءنا.

وقال الأكثرون: معناه: اللهم استجب لنا، وحكىٰ القرطبي(٦) عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان: أنَّ «آمِينَ» اسم من أسماء الله تعالىٰ.

وروي عن ابن عبَّاس ﷺ مرفوعًا ولا يَصِحُّ، قاله أبو بكر بن العربي المالكي](٧).

وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سُمَيّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: [«وَإِذَا قَالَ؛ يعني: الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ»](٨) [الحديث](٩).

واستأنسوا أيضًا بحديث أبي موسىٰ: «وَإِذَا قَرَأَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ»(١٠).

وقد قدَّمنا في المتفق عليه: «إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا»، وأنه عليه الصلاة والسلام كان يُؤَمِّنُ إذا قرأ(١١): ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهريَّة، وحاصل الخلاف: أنَّ الإمام إن نَسِيَ

---

(١) مسلم (٤٠٤)، وأبو داود (٩٧٢)، وأحمد (٤/ ٤٠١).

(٢) في (ز): «جوهر» والمثبت من (ح)، وهو الصواب. (٣) لوحة (٢٤ أ).

(٤) ضعيف جدًّا: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٥)، إلىٰ تفسير جويبر، وإلىٰ تفسير الثعلبي من طريق الكلبي، وكلا الإسنادين لا يصح، فجويبر بن سعيد الأزدي. ضعفه أحمد، وقال: لا يشتغل بحديثه، وقال ابن معين: ليس بشيء، وفي موضع آخر: ضعيف، وضعفه جدًّا علي بن المديني، وقال النسائي والدارقطني: متروك، وفي موضع آخر قال النسائي: ليس بثقة، وقال ابن عدي: والضعف علىٰ حديثه وروايته بيّن. (انظر: «تهذيب الكمال» (٥/ ١٧٠) وقال الحافظ: ضعيف جدًّا، والكلبي: متهم بالكذب.

- تنبيه: والمقصود من ضعف الحديث؛ أي: ضعف نسبته إلىٰ رسول الله ﷺ، ولكن المعنىٰ من حيث التفسير: «اللَّهُمَّ استَجِب». معنًىٰ صحيحٌ.

(٥) في «الصحاح»: «أمن».

(٦) في «تفسيره» (١/ ١٩٧).

(٧) زيادة من (ح)، وبياض في (ز).

(٨) زيادة من (ح)، بياض في (ز).

(٩) بياض في (ز).

(١٠) تقدم في الصفحة السابقة.

(١١) كذا في (ز)، وفي (ح): «كانوا يُؤَمِّنُونَ خلفه إذا قَرَأَ».

التَّأمين جهر المأموم به قولًا واحدًا، وإن أمَّن الإمام جهرًا فالجديد: أنَّه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورِوَايَةٌ عَن مالك؛ لأنَّه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يُجْهَرُ به، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لماتقدم: «**حَتَّىٰ يَرْتَجَّ الْمَسْجِدُ**».

ولنا قول آخر ثالث: أنَّه إن كان المسجد صغيرًا لم يجهر المأموم؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيرًا جهر ليبلغ التأمين مَنْ في أرجاء[1] المسجد، والله أعلم.

وقد روىٰ الإمام أحمد في «مسنده»، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود، فقال: «**إِنَّهُمْ لَنْ يَحْسُدُونَا عَلَىٰ شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَا عَلَىٰ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَىٰ الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَىٰ قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِينَ**»[2]. ورواه ابن ماجة، ولفظه: «**مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَىٰ السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ**»[3].

وله عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَىٰ قَوْلِ: آمِينَ، فَأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: آمِينَ**» وفي إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف[4].

وروىٰ ابن مَرْدوَيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**آمِينَ: خَاتَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**»[5].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعْطِيتُ آمِينَ فِي الصَّلَاةِ وَعِنْدَ الدُّعَاءِ، لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُوسَىٰ، كَانَ مُوسَىٰ يَدْعُو، وَهَارُونُ يُؤَمِّنُ، فَاخْتِمُوا الدُّعَاءَ بِآمِينَ، فَإِنَّ اللهَ يَسْتَجِيبُهُ لَكُمْ**»[6].

قلت: ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ [7] فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ

---

(١) في (ز): «أرجاء المسجد»، والمثبت من (ح).

(٢) صحيح: أحمد (٦/ ١٣٥)، وابن ماجة (٨٥٦) من رواية عائشة وإسناده صحيح. وثبت من رواية ابن عباس لكن فيها طلحة بن عمرو: وهو متروك، وهي عند ابن ماجة (٨٥٧).

(٣) انظر التعليق السابق. (٤) انظر التعليق السابق.

(٥) ضعيف: ضعفه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٤)، وعزاه إلىٰ ابن عدي «الكامل» (٦/ ٢٤٣٢)، والطبراني في «الدعاء»، وابن مردويه، وعلته أبو أمية بن يعلىٰ: ضعيف الحديث، وضعفه الدارقطني. وقال ابن حبان: لا تحل الرواية عنه إلا للخواص. انظر «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٩٣)، وقال الذهبي في «الضعفاء»: بصري متروك، ومؤمل بن عبد الرحمن، ضعفه أبو حاتم، وقال ابن عدي: وعامة أحاديثه غير محفوظة.

(٦) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ الحارث بن أسامة، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وابن مردويه، ولم أقف علىٰ إسناده.

(٧) لوحة (٢٤ ب).

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فذكر الدعاء عن موسىٰ وحده، ومن سياق الكلام ما يدل علىٰ أن هارون أمَّن، فنزل منزلة من دعا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، فدلَّ ذلك علىٰ أن مَن أمَّن علىٰ دعاءٍ فكأنما قاله؛ فلهذا قال مَن قال: إن المأموم لا يقرأ؛ لأنَّ تأمينه علىٰ قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها؛ ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ»(١)، [ورواه الإمام أحمد في «مسنده»](٢) وكان بلال يقول: لا تسبقني بآمين(٣). فدل هذا المنزع علىٰ أن المأموم لا قراءة عليه في الجهريَّة، والله أعلم.

ولهذا قال ابن مَرْدوَيه: حدَّثنا أحمد بن الحسن، حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن سلام، حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا جرير، عن ليث بن أبي سليم، عن كعب، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَالَ الإِمَامُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَقَالَ: آمِينَ، فَوَافَقَ آمِينَ أَهْلِ الأَرْضِ آمِينَ أَهْلِ السَّمَاءِ؛ غَفَرَ اللهُ لِلْعَبْدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَثَلُ مَنْ لا يَقُولُ: آمِينَ، كَمَثَلِ رَجُلٍ غَزَا مَعَ قَوْمٍ، فَاقْتَرَعُوا، فَخَرَجَتْ سِهَامُهُمْ، وَلَمْ يَخْرُجْ سَهْمُهُ، فَقَالَ: لِمَ لَمْ يَخْرُجْ سَهْمِي؟ فَقِيلَ: إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ: آمِينَ»(٤).

---

(١) ضعيف: تقدم (ص٢٤٠) من هذه السورة.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) ضعيف: رواه أبو داود (٩٣٧)، وضعفه الشيخ الألباني وعلته الانقطاع.

(٤) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ أبي يعلىٰ (٦٤١١) وابن مردويه، قال السيوطي: بسند جيد، قلت: بل هو ضعيف، فيه ليث بن أبي سليم قال الحافظ: صدوق اختلط جدًا ولم يتميز حديثه فترك؛ ولذا أشار الهيثمي إلىٰ تضعيفه في «مجمع الزوائد» (٢/ ١١٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة البقرة

[خمسةٌ وعشرون ألفًا وخمسمائةُ حرفٍ، وستةُ آلافٍ ومائةٌ وإحدى وعشرونَ كلمةً، ومائتانِ وستةٌ وثمانون آيةً في عدد الكوفيِّ وعدد عليِّ بن أَبي طالب ﷺ][(١)].

ذِكْرُ ما ورد في فضلها

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عارم، حدَّثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**البَقَرَةُ سَنَامُ القُرْآنِ وَذِرْوَتُهُ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا، وَاسْتُخْرِجَتْ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، فَوُصِلَتْ بِهَا، أَوْ فَوُصِلَتْ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، وَ﴿يس﴾: قَلْبُ القُرْآنِ، لا يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللهَ وَالدَّارَ الآخِرَةَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ، وَاقْرَؤُوهَا عَلَىٰ مَوْتَاكُمْ**» انفرد به أحمد[(٢)].

وقد رواه أحمدُ أيضًا عن عَارم، عن عبد الله بن المُبارك، عن سليمان التَّيمي عن أبي عثمان -وليس بالنَّهْدي- عن أبيه، عن مَعْقِل بن يَسَار، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**اقْرَؤُوهَا عَلَىٰ مَوْتَاكُمْ**» يعني: ﴿يس﴾[(٣)].

---

(١) ليست في (ز).

(٢) ضعيف عدا الفقرة الأولىٰ: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥١) إلىٰ أحمد (٥/ ٢٥)، ومحمد بن نصر، والطبراني (٢٠/ ٢٢٠، ٥١١) (٢٠/ ٢٣٠، ٥٤١) قال السيوطي: بسند صحيح.
- قلت: بل هو ضعيف لجهالة الراوي، ولا تصلح الرواية الأخرىٰ التي ذكرها ابن كثير متابعًا لها؛ لأنها أولًا: مختصرة، وثانيًا: فهي أيضًا ضعيفة، انظر التعليق الآتي.
- قلت: لكن قوله: «البقرة سنام القرآن» حسن لغيره، له شواهد، له شاهد من حديث أبي هريرة كما ذكره ابن كثير وسيأتي، وله شاهد آخر من حديث سهل بن سعد، رواه ابن حبان (٧٨٠٠) وفي كل منها مقال، لكن بمجموع هذه الشواهد تحسّن هذه الفقرة والله أعلم.

(٣) ضعيف: أحمد (٥/ ٢٥، ٢٧)، وأبو داود (٣١٢١)، وابن ماجة (١٤٤٨)، والحاكم (١/ ٥٦٥)، وابن حبان (٣٠٠٢). قال ابن حجر في «التلخيص» (٢/ ١٠٤): وأعله ابن القطان بالاضطراب وبالوقف، وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه، ونقل أبو بكر بن العربي عن الدارقطني أنه قال: هذا حديث ضعيف الإسناد، مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث -يعني: قراءة سورة يس-.

فقد بيَّنَّا بهذا الإسناد معرفةَ المُبهم في الرِّواية الأولىٰ[(١)]. وقد أخرج هذا الحديث علىٰ هذه الصِّفة في الرِّواية الثَّانية أبو داود والنَّسائي وابن ماجة.

وقد رَوىٰ التِّرمذي من حديث حكيم بن جُبَير، وفيه ضعف، عن أبي صَالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ[(٢)]، وَإِنَّ سَنَامَ القُرْآنِ البَقَرَةُ، وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ القُرْآنِ: آيَةُ الكُرْسِيِّ»[(٣)].

وفي «مسند أحمدَ» و«صحيحِ مسلمٍ» و«التِّرمذيِّ» و«النَّسائي»، من حديث سُهَيل بن أبي صالح، عَن أبيه، عن أَبِي هُريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا[(٤)]، فَإِنَّ البَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ لا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ» وقال التِّرمذي: حسنٌ صحيحٌ[(٥)].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: حدَّثني ابن أبي مَريم، عن ابن لَهيعة، عن يَزيد بن أَبِي حَبيبٍ، عن سِنان بن سَعد، عن أنسِ بن مَالكٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَخْرُجُ مِنَ البَيْتِ إِذَا سَمِعَ سُورَةَ البَقَرَةِ تُقْرَأُ فِيهِ»[(٦)].

سِنان بن سَعد، ويُقال بالعكس، وثَّقه ابن معين واستَنكَر حديثَه أحمدُ بن حنبل وغيرُه.

وقال أبُو عُبيد: حدَّثنا محمَّد بن جَعفر، عن شُعبَة، عن سَلمة بن كُهَيْل، عن أبي الأَحوَص، عن عبد الله -يعني ابن مسعود ﷺ- قال: إِنَّ الشَّيطَان يفرُّ من البَيتِ [الَّذِي][(٧)] يَسمعُ فيه سُورةَ البَقرةِ[(٨)]. ورواه النَّسائي في «اليَوم واللَّيلة»، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديثِ شُعبةَ، ثم قال الحاكم: صَحيحُ الإسنادِ، ولم يُخرِّجاه.

---

(١) لوحة (٢٥أ).

(٢) أي: رفعةً وعلوًّا، استُعير من سنام البعير، ثم كثر استعماله حتىٰ صار مَثَلًا. «فيض القدير» للمناوي (٢/ ٥١١).

(٣) حسن لغيره: رواه الترمذي (٢٨٧٨)، وفي إسناده حكيم بن جبير، قال الحافظ: ضعيف، رمي بالتشيع «التقريب» - ترجمة (١٤٦٨)، وقال أحمد: ضعيف الحديث مضطرب، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث، منكر الحديث غالٍ في التشيع، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الدارقطني: متروك، انظر: «تهذيب التهذيب» (٢/ ٤٤٦)، لكن للحديث شواهد ذكرتها قبل حديثين (١١٢) وبها يحسن الحديث، وحسنه الشيخ الألباني في تعليقه علىٰ «الترغيب والترهيب». وأما الفقرة الأخيرة (وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي) فلها شواهدها، وستأتي عند تفسير الآية (٢٥٥) من السورة.

(٤) أي :لا تناموا فتكونوا كالأموات، فتكون بيوتكم كالقبور. «فتح الباري» (٤/ ٢٦٩).

(٥) رواه مسلم (٧٨٠)، والترمذي (٢٨٧٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨-١٥) وأحمد (٢/ ٢٨٤).

(٦) حسن لغيره: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٢١) فيه سعد بن سنان: مختلف في توثيقه وتضعيفه، فالإسناد ضعيف، ويشهد له الحديث السابق، وحديث ابن مسعود الآتي.

(٧) سقط من (ز).

(٨) صحيح: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٢٢)، والنسائي في «اليوم والليلة» والحاكم (١/ ٥٦١) (٢/ ٢٦٠) وصححه، وله طريق أخرىٰ عن أبي الأحوص به، رواه الدارمي (٢/ ٤٤٦) وإسناده حسن. وسيأتي لفظه.

وقال ابنُ مَرْدوَيه: حدَّثنا أحمد بن كامل، حدَّثنا أبو إسماعيل التِّرمذي، حدَّثنا أيوبُ بن سُليمَان ابن بلال، حدَّثني أبو بكر بن أَبِي أُوَيس، عن سُليمَان بن بلال، عن محمَّد بنِ عجلَان، عن أبي إسحَاق، عن أبي الأحوَص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا أَلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَضَعُ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ يَتَغَنَّىٰ، وَيَدَعُ سُورَةَ البَقَرَةِ يَقْرَؤُهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنَ البَيْتِ الَّذِي[1] تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ، وَإِنَّ أَصْفَرَ البُيُوتِ؛ الجَوْفُ الصِّفْرُ مِنْ كِتَابِ اللهِ»[2].

وهكذا رواه النَّسائي في «اليَوم واللَّيلة»، عن محمَّد بن نَصر، عن أَيُّوب بن سُليمان به[3].

[وروَىٰ الدَّارمي في «مُسنده» عن ابن مَسعود قال: مَا مِن بَيتٍ تُقرَأ فيه سورةُ البقرَة إلَّا خرج منه الشَّيطَان وله ضُراطٌ[4][5]. وقال: إنَّ لكلِّ شيءٍ سنامًا، وإنَّ سَنَام القُرآنِ سورةُ البقرَةِ، وإنَّ لكلِّ شَيءٍ لُبابًا، وإنَّ لُبابَ القُرآنِ المُفصَّل[6].

وروىٰ أيضًا مِن طريق الشَّعبي قال: قال عبد اللهِ بنُ مسعودٍ: مَن قرَأ عَشرَ آياتٍ مِن سورَةِ البقرَةِ في ليلةٍ لَم يدخُل ذلكَ البيتَ شيطانٌ تلكَ اللَّيلَة؛ أربعٌ مِن أوَّلها وآيةُ الكُرسيِّ وآيَتان بعدَها وثلاثُ آياتٍ مِن آخرِها؛ وفي روايةٍ: لم يَقربْه ولَا أهْلَه يومئذٍ شيطَانٌ ولا شيءٌ يكرَهُه ولا يُقرأْنَ علىٰ مجنونٍ إلَّا أفَاق[7]][8].

وعن سَهل بن سَعد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَإِنَّ سَنَامَ القُرْآنِ البَقَرَةُ، مَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلَةً لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ نَهَارًا[9] لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ»[10].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) أصفر البيوت: أخلاها، وبيت صفر: خال، وأراد بالجوف: القلب. ينظر: «اللسان» (صفر).

(٣) رواه النسائي في «اليوم والليلة» مرفوعًا، ورواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» من طريق شعبة عن أبي إسحاق موقوفًا، وهو الأصح، ومدار الحديث علىٰ أبي إسحاق وهو السبيعي: ثقة لكنه مكثر من التدليس، انظر: «جامع التحصيل» ترجمة (٥٧٦)، وانظر: «تهذيب الكمال» (٢٢/ ١٠٣).

- قلت: ويكفي في صحة الحديث ما تقدم.

(٤) رواه الدارمي (٢/ ٤٤٧)، ورجاله ثقات، ويشهد له الروايات السابقة.

(٥) الضُّراطُ: الصوت. «اللسان» (ضرط).

(٦) رواه الدرامي (٢/ ٤٤٧)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٧٨) ورجاله ثقات عدا عاصم بن بهدلة، قال الحافظ: صدوق له أوهام.

(٧) ضعيف: رواه الدرامي (٢/ ٤٤٨)، من طريق الشعبي عن ابن مسعود، والشعبي لم يسمع من ابن مسعود، فالإسناد منقطع.

(٨) ليست في (ز).

(٩) لوحة (٢٥ ب).

(١٠) حسن لغيره (دون ذكر ثلاث ليال أو ثلاثة أيام): رواه ابن حبان (٧٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٦٣/ ٥٨٦٤)، =

رواهُ أبُو القاسم الطَّبراني، وأبُو حاتمِ بن حبَّان في صحيحه.

وقد روَىٰ التِّرمذي والنَّسائي وابنُ ماجَة من حديث عبد الحميد بن جَعفر، عن سَعيد المقبُري، عن عطاء مَولىٰ أبي أحمد، عن أبي هُريرة، قال: [بعَث][1] رسولُ الله ﷺ [بعثًا وهُم][2] ذوُو عددٍ، فَاستَقْرَأهم فاستقرأ كُلُّ واحدٍ منهم؛ يَعني: ما مَعَه من القُرآن، فأتَىٰ علىٰ رجلٍ مِن أَحدَثِهم سنًّا، فقال: «مَا مَعَكَ يَا فُلَانُ؟» قال: معِي كذَا وكذَا وسُورةُ البَقَرة، فقال: «أَمَعَكَ سُورَةُ البَقَرَةِ؟» قال: نعم. قال: «اذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ» فقال رجلٌ مِن أَشرافِهم: واللهِ مَا منَعنِي أن أتعلَّم البَقرةَ إلَّا أَنِّي خَشيتُ أَلَّا أَقُومَ بهَا. فقال رسولُ الله ﷺ: «تَعَلَّمُوا القُرْآنَ وَاقْرَؤُوهُ، فَإِنَّ مَثَلَ القُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ، فَيَرْقُدُ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ، كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوكِيَ[3] عَلَىٰ مِسْكٍ»[4].

هذا لفظُ روايةِ التِّرمذي، ثم قال: هذا حديث حسن. ثم رواهُ مِن حديث اللَّيث، عن سعيدٍ، عن عطاء مولَىٰ أبِي أحمَد مُرسَلًا، فالله أعْلَم.

قال البخاريُّ: وقال اللَّيثُ: حدَّثني يَزيد بن الهَاد، عن محمَّد بن إبراهِيم، عن أُسَيد بن حُضَير قال: بينَما هو يَقرأُ منَ اللَّيل سورةَ البقرَةِ، وفرسُهُ مربوطةٌ عندَهُ، إذْ جالَت الفَرسُ[5]، فسَكَتَ، فسكَنَتْ، فقرَأ فجَالتِ الفرسُ، فسَكَتَ، فسَكَنَت، ثمَّ قرَأ فجَالَت الفَرسُ، فانصَرف، وكان ابنُه يَحيَىٰ قَرِيبًا منها، فَأشفَق أَن تُصيبَه، فلمَّا أخذَهُ رفَع رأسَه إلىٰ السَّماء حتَّىٰ ما يرَاها، فلمَّا أصبَح حدَّث النَّبيَّ ﷺ فقال: «اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ»، قال: فأشفقْتُ يا رسولَ الله أَنْ تطَأَ يَحيَىٰ، وكان منها قريبًا، فَرفعْتُ رَأسِي وانصَرفْتُ إلَيْهِ، فرَفعْتُ رَأسِي إلىٰ السَّماء، فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثالُ المصَابيح، فخرجت حتَّىٰ

= وإسناده ضعيف، وعلته سعد بن خالد: ضعيف الحديث، لكن للحديث شواهد: أما الفقرة الأولىٰ فقد تقدم شواهدها. انظر: حديث معقل بن يسار وحديث أبي هريرة السابقين.
- وأما آخر الحديث: «وإن من قرأها في بيته... إلخ» فقد تقدم في حديث أبي هريرة مرفوعًا عند مسلم، إلا أنه لم يأتِ فيه تحديد عدد للأيام والليالي في هذه الشواهد، فتكون هذه الزيادة ضعيفة، والله أعلم.

(١) ليست في (ز).

(٢) في (ز): ساووهم.

(٣) الوكاء: خيط يشد به فم الوعاء.

(٤) ضعيف: رواه الترمذي (٢٨٧٦)، وابن ماجة (٢١٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٧٤٩)، وعلته عطاء مولىٰ أبي أحمد؛ قال الحافظ: مقبول، وقال الذهبي: لا يعرف، والحديث ضعفه الشيخ الألباني، ومعنىٰ «أوكىٰ»؛ أي: ربط عليه.

(٥) أي: دارت وتحركت. ينظر: «اللسان» (جول).

لَا أراها، قال: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟»، قال: لَا، قال: «تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَىٰ مِنْهُمْ»(١).

وهكَذا رواه الإمامُ العَالم أبو عُبيد القاسم بن سلام، في كتاب «فَضائِل القُرآن»، عن عبد الله ابن صالح، ويحيىٰ بن بُكَير، عن اللَّيث به.

وقد رُوِيَ من (وجهٍ آخر)(٢) عن أُسيد بن حُضير؛ كما تقدَّم، والله أعلم.

وقد وقَع نحوٌ مِن هذا لثابتِ بن قَيس بن شمَّاس ﷺ وذلك فيما روَاه أبو عُبيد القَاسم: حدَّثنا عبَّاد بن عبَّاد، عن جرير بن حازم، عن عمِّه جرير بن زيد: أنَّ أشياخَ أهلِ المدينَة حدَّثوه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قيل لَه: أَلم ترَ ثابتَ بنَ قيس بن شمَّاس؟ لم تزَل دارُه البارحةَ تزهرُ مصَابِيح، قال: «فَلَعَلَّهُ قَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ». قال: فسئل ثابت، فقال: قرأتُ سورةَ البَقَرة(٣).

وهذا إسنادٌ جيِّد، إلَّا أنَّ فيه إبهامًا، ثم هو مُرسَل، والله أعلم.

---

(١) البخاري (٥٠١٨)، ورواه مسلم (٧٩٦)، ورواه أبو عبيد (ص٢٦).
(٢) لوحة (٢٦أ).
(٣) ضعيف: رواه أبو عبيد (ص٢٧)، وقد بيَّن ابن كثير علته بأن فيه إبهامًا، ثم هو مرسل.

[ذِكْرُ][1] ما ورد في فضلها مع آل عمران:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا بشير بن المهاجر، حدَّثني عبد الله بن بُريدة، عن أبيه، قال: كُنتُ جالسًا عند النَّبيِّ ﷺ فسمعتُه يقول: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلا تَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ». قال: ثمَّ سكت ساعةً، ثم قال: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ القِيَامَةِ، كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، وَإِنَّ القُرْآنَ يَلْقَىٰ صَاحِبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ[2]، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ القُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الهَوَاجِرِ[3]، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَىٰ المُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، وَيُكْسَىٰ وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ، لا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا[4] كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا»[5].

وروىٰ ابنُ ماجة من حديث بشير بن المهاجر بعضه.

وهذا إسنادٌ حسنٌ علىٰ شرط مسلم، فإن بشيرًا هذا أخرج له مسلم، ووثَّقه ابن معين. وقال النَّسائي: ليس به بأس. إلَّا أنَّ الإمام أحمد قال فيه: هو مُنكَر الحديث، قد اعتبرت أحاديثه فإذا هي تجيءُ بالعَجب. وقال البخاريُّ: يخالف في بعض حديثِهِ. وقال أبو حاتم الرَّازي: يُكتَب حديثُه ولا

---

(١) ليست في (ز).

(٢) الشاحب: المتغير اللون. ينظر: «اللسان» شحب، و«حاشية السندي علىٰ ابن ماجة» (٤/ ٢٣٩) ط المعرفة.

(٣) هواجر وهاجرات، جمع هاجرة، وهو نصف النهار عند اشتداد الحر. ينظر: «المعجم الوسيط»: (ص٩٧٣)، وسيشرح المؤلف باقي غريب هذه الرواية بعد قليل.

(٤) الهذ: الإسراع في القراءة.

(٥) حسن: دون قوله: «وإن القرآن يلقىٰ صاحبه... -إلىٰ قوله- فيقال: بأخذ ولدكما القرآن»، وأما بقية ألفاظه فلها شواهد كما سيأتي. رواه أحمد (٥/ ٣٤٨)، وروىٰ الحاكم (١/ ٥٦٠)، وروىٰ ابن ماجة (٣٧٨١) بعض ألفاظه من طريق بشير بن المهاجر، قال الحاكم: صحيح علىٰ شرط مسلم وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح.

قال الشيخ الألباني: «لا فإن فيه بشير بن المهاجر، وهو صدوق لين الحديث، كما قال الحافظ في «التقريب» فمثله يحتمل حديثه التحسين، أما التصحيح فهو بعيد».

قلت: وهذا يوافق حكم الحافظ ابن كثير علىٰ الحديث، ولبعض فقراته شواهد، كما سيأتي في الحديث الذي بعده، ومعنىٰ «البطلة»: السحرة.

يحتجُّ به. وقال ابن عدي: روىٰ ما لا يتابع عليه[١] . وقال الدارقطني: ليس بالقوي.

قلت: وَلكِن لبعضه شواهِد؛ فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي:

قال الإمام أحمدُ: حدَّثنا عبد الملك بن عَمرو حدَّثنا هشام، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلَّام، عن أبي أُمامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقْرَؤُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ شَافِعٌ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ أَهْلِهِمَا**» ثم قال: «**اقْرَؤُوا البَقَرَةَ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا البطَلَةُ**»[٢] .

وقد رواه مسلمٌ في الصَّلاة من حديث معاوية بن سلّام، عن أخيه زيد بن سلّام، عن جده أبي سلّام مَمْطور الحَبَشِيّ، عن أبي أُمامة صُدَيّ بن عجلان الباهلي به.

«الزَّهراوان»: المُنيران، و«الغَيَايَة»: ما أظلَّك من فوقك، و«الفِرْقُ»: القطعةُ من الشَّيء، و«الصَّواف»: المصطَفة المتضَامَّة، و«البطَلَة»: السَّحرَة، ومعنىٰ «لا تستطيعُها» أي: لا يمكنُهم حفظُهَا، وقيل: لا تستطيع النُّفوذَ في قَارِئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النَّوّاس بن سِمْعان:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يَزيد بن عبد ربه، حدَّثنا الوليد بن مسلم، عن محمَّد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي، عن جُبَير بن نُفَير، قال: سمعتُ النَّوَّاس بن سمعان الكِلَابي، يقول: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يُؤْتَىٰ بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ**». وضرب لهما رسولُ الله ﷺ ثلاثةَ أمثالٍ ما نَسيتهنَّ بعد، قال: «**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرَقٌ**[٣]، **أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**»[٤].

ورواه مسلم، عن إسحاق بن منصور، عن [يزيد][٥] بن عبد ربه به.

والتِّرمذي من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشي به. وقال: حسنٌ غريبٌ.

---

(١) لوحة (٢٦ ب).

(٢) مسلم (٨٠٤)، وأحمد (٥/ ٢٥٥، ٢٥٧)، والحاكم (١/ ٥٦٤).

(٣) الشرق: الضوء.

(٤) مسلم (٨٠٥)، وأحمد (٣/ ١٨٣)، والترمذي (٢٨٨٣)، ومعنىٰ «فرقان»: قطيعان وجماعتان، و«الصواف» جمع صافة، وهي من الطيور ما يبسط أجنحتها في الهواء.

(٥) في (ز): (محمد)، وهو خطأ.

وقال أبو عبيد: حدَّثنا حجَّاج، عن حمَّاد بن سلمة، عن عبد الملك بن عُمير، قال: قال حماد: أحسبه عن أبي مُنيب، عن عمِّه؛ أن رجلًا قرأ البقرَة وآلَ عمران، فلمَّا قضىٰ صلاته قال له كعب: أقرأْتَ البقرةَ وآل عِمران؟ قال: نعَمْ، قال: فوالَّذِي نفسي بيدِهِ، إنَّ فيهما اسمَ اللهِ الَّذي إذا دُعِيَ به استجَاب[١]. قال: فأخبِرني به، قال: لَا واللهِ لَا أُخبِرُك به، ولو أخبرتُك لأوشكتَ أَن تَدْعُوَهُ بدعوةٍ أَهْلَكُ فيها أنَا وأَنت[٢].

وحدَّثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صَالح، عن سليم بن عامر: أنَّه سمع أبا أُمامة يقول: إنَّ أخًا لكم أُرِيَ في المنام أنَّ النَّاس يسلكُون في صُدع[٣] -جبَلٍ وَعْرٍ طويلٍ-، وعلىٰ رَأس الجَبل شجرتَان خضْرَاوَان تهتفان: هل فِيكُم مَن يقرأ سُورة البقرة؟ وهل فيكُم مَن يقرأُ سورةَ آل عمران؟ قال: فإذَا قال الرَّجل: نعم؛ دَنَتَا منه بأعذَاقِهِما[٤]، حتَّىٰ يتعلَّق بهما فتَخْطِرَانِ به الجبَل[٥].

وحدَّثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن أبي عمران: أنَّه سمع أمَّ الدَّرداء تقول: إنَّ رجلًا ممن قَد قرأ القُرآن أغارَ علىٰ جارٍ له، فقتَلَه، وإنه أُقِيدَ منه، فقُتِل، فما زال القُرآن ينسلُّ منه سورةً سورةً، حتَّىٰ بَقِيت البقرة وآل عمران جمعة، ثمَّ إنَّ آل عمران انسلَّت منه، وأقامت البقرة جمعةً، فقيل لها: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] قال: فخرجت كأنَّها السَّحابة العَظِيمَة[٦].

قال أبُو عبيد: أراه؛ يعني: أنَّهما كانتا معه في قَبره تَدفعَان عنه وتُؤنِسَانِه، فكانتا مِن آخر ما بَقِي معه من القُرآن.

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو مُسْهِر الغسَّاني، عن سعيد بن عبد العزيز التَّنوخي: أن يَزيد بن الأسود الجُرَشي كان يحدِّث: أنَّه مَن قرأ البقرةَ وآلَ عمران في يومٍ بَرِئَ من النِّفاق حتىٰ يُمسي، ومَن قرأهما

---

(١) لوحة (٢٧ أ).

(٢) ضعيف: رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٢٦)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» وفي إسناده (حجاج بن أرطأة): صدوق كثير الخطأ والتدليس وهو ضعيف، وعبد الملك بن عمير: ثقة لكنه تغيَّر حفظه وربما دلَّس. انظر: «تقريب التهذيب».

(٣) الصُّدع: الشق في الشيء الصلب. «اللسان» صدع.

(٤) الأعذاق: جمع عِذق، وهو: العرجون بما فيه من الشماريخ.

(٥) رواه أبو عبيد (ص١٢٦)، والدارمي (٢/ ٤٥١)، ورجاله ثقات، لكن عبد الله بن صالح: صدوق كثير الغلط.

(٦) رواه أبو عبيد (ص١٢٦) وإسناده كسابقه.

مِن ليلةٍ بَرِئَ من النِّفاق حتىٰ يُصبِح، قال: فكان يَقرؤُهما كلَّ يومٍ وليلةٍ سوىٰ جُزئِه[١].

وحدَّثنا يزيد، عن وقاء بن إياس، عن سعيد بن جبير، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَن قَرَأَ البقَرة وآلَ عمران في ليلةٍ كان -أو كُتب- مِن القَانتِين[٢]. فيه انقطاع، ولكن ثبت في الصَّحيحين: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعةٍ واحدةٍ[٣].

---

(١) رواه أبو عبيد (ص١٢٧)، ولا دليل علىٰ ما قاله، فمثل هذا لا يثبت إلا بقرآن أو سنة.

(٢) ضعيف: رواه في «فضائل القرآن» (ص١٢٧)، وسعيد بن منصور (٤٨٥) وإسناده منقطع كما ذكر ابن كثير، فسعيد بن جبير لم يدرك عمر، ووقاء بن إياس: ضعيف. انظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٣٣٥).

(٣) مسلم (٧٧٢)، والنسائي (٢/ ١٧٧) (٣/ ٢٢٥).

[ذكر][1] ما وردَ في فضل السَّبع الطِّوال

قال أبو عبيد: حدَّثنا هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمَّد بن شعيب، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي المليح، عن وَاثِلَة بن الأسقع، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**أُعطِيتُ السَّبْعَ [الطُّوَلَ]**[2] **مَكَانَ التَّوْرَاةِ، وَأُعْطِيتُ الِمِئِينَ مَكَانَ الإنْجِيلِ، وَأُعْطِيتُ المثَانِيَ مَكَانَ الزَّبُورِ، وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ**»[3]، هذا حديثٌ غريبٌ، وسعيد بن بشير فيه لِين.

وقد رواه أبو عبيد أيضًا، عن عبد الله بن صالح، عن اللَّيث، عن سعيد بن أبي هلال، قال: بلغَنَا[4] أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ... فذَكَرَه، والله أعلم.

ثمَّ قال: حدَّثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، مولىٰ المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن حبيب بن هِند الأسلميِّ، عن عروة، عن عائشة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ فَهُوَ حَبْرٌ**[5]»[6]، وهذا أيضًا غريبٌ، وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثةَ الأسلمي رَوَىٰ عنه عمرو بن أبي عمرو وعبد الله بن أبي بكرة، وذكرَه أبو حاتم الرَّازي ولم يذكُر فيه جرحًا، فالله أعلم.

وقد روَاه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، وحسين، كلاهما عن إسماعيل بن جعفر به.

ورواه أيضًا عن أبي سعيد، عن سليمان بن بلال، [عن حبيب بن هند، عن عروة][7]، عن عائشة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الأُوَلَ مِنَ القُرْآنِ فَهُوَ حَبْرٌ**»[8].

قال أحمد: وحدَّثنا حسين، حدَّثنا ابن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُريرة، عن النَّبيِّ ﷺ مثلَه.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) زيادة من «فضائل القرآن» (٢٢٥).

(٣) حسن: رواه ابن جرير (١/ ٤٤)، وأحمد (٤/ ١٠٧) من طرق عن قتادة به، وفيه سعيد بن بشير، قال الحافظ: ضعيف «التقريب» ترجمة (٢٢٧٦)، وتابعه عمران القطان (مختلف فيه) عن قتادة، رواه أحمد (٤/ ١٠٧)، وتابع قتادة أبو بردة عن أبي المليح، رواه ابن جرير (١/ ٤٥) به، وفيه ليث بن أبي سليم: صدوق ولم تتميز أحاديثه فترك، لكنه بمجموع طرقه يكون الحديث حسنًا.

(٤) لوحة (٢٧ ب).

(٥) الحِبر والحَبر: العَالِم. «اللسان»: حبر.

(٦) حسن لغيره: رواه أحمد (٦/ ٧٣) (٦/ ٨٢)، والحاكم (١/ ٥٦٤)، وفي إسناده حبيب بن هند الأسلمي لم يوثقه غير ابن حبان، ووثقه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٢) وبقية رجاله ثقات.

وله شاهد من حديث أبي هريرة كما ذكره ابن كثير، رواه الإمام أحمد (٦/ ٧٣) وفيه انقطاع، وبمجموع الطرق فالحديث حسن. والحديث حسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٣٠٥).

(٧) في (ز): [عن حبيب بن عبد عروة]، وهو خطأ.

(٨) انظر التعليق السابق.

قال عبد الله بن أحمد: وهذا أرىٰ فيه: عن أبيه، عن الأعرج، ولكن كذا كان في الكتاب بلا «أبِي»، أغفله أبِي، أو كذا هو مرسل[١].

...[٢].

ثم قال أبو عبيد: حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، قال: هي السَّبعُ الطُّوَل: البقرةُ، وآلُ عمران، والنِّساء، والمائِدَة، والأَنعَام، والأعرَاف، ويُونس. قال: وقال مجاهد: هي السَّبع الطُّول. وهكذا قال مكحول، وعطيَّة بن قيس، وأبو محمَّد الفارسي، وشَدَّاد بن عُبيد الله، ويحيَىٰ بن الحارث الذماري في تفسير الآية بذلك، وفي تعدَادِها، وأنَّ يونس هي السابعة.

---

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) [وروىٰ الترمذي، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث بعثًا وهم ذوو عدد، وقدَّم عليهم أحدثهم سنًّا لحفظه سورة البقرة، وقال له: «اذهب فأنت أميرهم». وصححه الترمذي] زيادة من (ح) وسقط من بعض المطبوعات ولم نضعها في المتن للشك أنها مُقْحَمَةٌ؛ لأن الكلام السابق واللاحق في فضل السبع الطوال، وقد مر ذكر هذا الحديث في فضل سورة البقرة.

فصلٌ

والبقرةُ جميعها مدنيةٌ بلا خلافٍ، [وهي مِن أوائِل ما نزل بها، لكن قوله تعالىٰ فيها: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية؛ يقال: إنَّها آخر ما نزَل من القُرآن ويُحتمل أن يكُون منها، وكذلك آيات الرِّبا من أواخر ما نزل.

وكان خالد بن معدان يسمِّي البقرة فُسطاط القُرآن][1] قال بعض العلماء: وهيَ مشتملةٌ علىٰ أَلْفِ خَبَرٍ، وأَلْفِ أَمْرٍ، وأَلْفِ نَهْيٍ.

وقال العادُّون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتُها ستَّة آلاف كلمةٍ ومائةٌ وإحدىٰ وعِشرُون كلمةً، وحروفها خمسةٌ وعشرون ألفًا وخمسمائة حرفٍ، فالله أعلم.

قال ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: نزلت بالمدينَة سورة البقَرة[2].

وقال خُصيف: عن مجاهد، عن عبد الله بن الزُّبير، قال: أُنزِل بالمدينة سورةُ البقرة[3].

وقال الواقدي: حدَّثني الضحاك بن عثمان، عن أبي الزِّناد، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، قال: نَزلَت البقرةُ[4] بالمدينةِ[5].

وهكذا قال غيرُ واحدٍ من الأئمَّة والعلماء والمفسِّرين، ولا خلاف فيه.

وقال ابن مَرْدوَيه: حدَّثنا محمد بن مَعْمَر، حدَّثنا الحسن بن علي بن الوليد الفارسي، حدَّثنا خلف ابن هشام، حدَّثنا عُبيس بن مَيمون، عن موسىٰ بن أنس بن مالك، عن أبيه، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«لا تَقُولُوا: سُورَةُ البَقَرَةِ، وَلا سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، وَلا سُورَةُ النِّسَاءِ، وَكَذَا القُرْآنُ كُلُّهُ، وَلَكِنْ قُولُوا: السُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا البَقَرَةُ، وَالَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا آلُ عِمْرَانَ، وَكَذَا القُرْآنُ كُلُّهُ»**[6]، هذا حديثٌ غريبٌ لا يصحُّ رفعه،

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) رواه ابن الضريس (١٨)، وفي إسناده انقطاع، فعطاء الخراساني لم يسمع من ابن عبَّاس، وأيضًا ابن جريج يدلس وقد عنعن.

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» لابن مردويه، وفي إسناده: خصيف بن عبد الرحمن. قال أحمد: ليس بحجة، ولا قوي في الحديث، وقال في موضع آخر: ضعيف الحديث، وقال ابن معين: صالح. وقال في موضع آخر: ليس به بأس. وفي موضع ثالث: ثقة. وقال أبو زرعة والعجلي: ثقة. وقال أبو حاتم: صالح يخلط. وقال ابن عدي: إذا حدث عن خصيف ثقة فلا بأس بحديثه ولا بروايته إلا أن يروي عنه عبد العزيز بن عبد الرحمن البالسي، فإن رواياته عنه بواطل. انظر: «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٥٧). وقال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ خلط بأخرة.

(٤) لوحة (٢٨ أ).

(٥) في إسناده الواقدي وهو متروك، قال ابن حبان في «المجروحين»: يروي عن الثقات المقلوبات، وعن الأثبات المعضلات حتىٰ ربما سبق إلىٰ القلب أنه كان المتعمد.

(٦) ضعيف جدًّا: ضعفه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤١)، وعزاه لابن الضريس والطبراني في «الأوسط» (٥٧٥٥)، =

و[عُبَيس][(١)] بن مَيمُون هذا هو [أبُو سلمة الخوَّاص][(٢)]، وهو ضعيفُ الرِّواية، لا يُحتجُّ به.

وقد ثبت في «الصَّحِيحَين»، عن ابن مسعود: أنَّه رَمَىٰ الجمرةَ مِن بطن الوَادي، فجعل البيتَ عَن يسَاره، ومنًىٰ عن يَمينِه، ثم قال: هذا مقام الَّذي أُنزِلَت عليه سورةُ البَقرةِ. أخرجاه[(٣)].

وروىٰ ابن مَرْدوَيه، مِن حديث شُعبة، عن عقيل بن طلحة، عن عتبة بن فرقد[(٤)] قال: رأىٰ النَّبيُّ ﷺ في أصحابِه تأخُّرًا، فقال: «يَا أَصْحَابَ سُورَةِ البَقَرَةِ»، وأظنُّ هذا كان يوم حُنين، حين وَلَّوا مدبرين أمر العبَّاس فناداهم: «يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ»، يعني: أهل بيعة الرِّضوان، وفي رواية: «يَا أَصْحَابَ البَقَرَةِ»؛ ليُنشِّطهم بذلك، فجعلوا يُقبِلُون مِن كلِّ وجهٍ[(٥)].

وكذلك يوم اليَمامَة[(٦)] مع أصحاب مُسيْلِمَة، جعل الصَّحابة يَفرُّون لكثَافةِ حَشْر بني حنيفَةَ، فجعل المهاجرون والأنصار يَتَنادون: يَا أصحَاب سورةِ البَقَرة، حتَّىٰ فتح اللهُ عليهم[(٧)]. رضي الله عَن أصحاب رسول الله أجمعين.

= وابن مرْدويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٥٨٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٥٧): فيه عُبيس بن ميمون وهو متروك، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٥٠) والسيوطي في «اللآلئ» (١/ ٢٣٩).

(١) تصحف في الأصول إلىٰ «عيسىٰ»، وكثيرًا ما يصحف في الكتب والمخطوطات إلىٰ :عيسىٰ.

(٢) كذا كناه الحافظ «أبو سلمة الخواص»، وهذه الكنية هي لـ: «عيسىٰ بن ميمون»، وكنية عبيس هذا: «أبو عبيدة الخزاز» كما نسبه البيهقي في «الشعب» (٢/ ٥١٩) ومن مصادر ترجمته، وهو من رجال ابن ماجة، ولم يرد التنبيه علىٰ ذلك في كل الطبعات السابقة لتفسير ابن كثير.

(٣) البخاري (١٧٤٧)، ومسلم (١٢٩٦).

(٤) تصحفت في الأصول إلىٰ: «مربد».

(٥) صحيح: رواية عتبة عزاها المصنف لابن مردويه، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٣٣)، وفي إسناده علي بن قتيبة وهو: ضعيف.

والرواية الثانية من طريق (كثير بن العبَّاس بن عبد المطلب به)، رواه مسلم (١٧٧٥)، وأحمد (١/ ٢٠٧). وله شاهد من حديث أنس رواه أبو يعلىٰ (٣٦٠٦) ورجاله ثقات عن ابن عمران القطان: مختلف فيه.

(٦) اليمامة من نجد الرياض، وقد تقدمت.

(٧) صحيح: رواه ابن أبي شيبة (١٢/ ٥٠٢)، وعبد الرزاق (٥/ ٩٤٦٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾

قد اختلفَ المفسِّرون في الحروف المقطَّعة التي في أوائل السُّور، فمِنهُم مَن قال: هي ممَّا استأثر الله بعلمه، فرَدُّوا علمهَا إلىٰ الله، ولَم يفسِّروها. [حكاه القرطبيُّ في تفسيره عَن أبي بكرٍ وعُمَر وعُثمَان وعليٍّ وابن مسعود ﷺ به، وقاله عامرُ الشَّعبيُّ وسفيانُ الثَّوري والرَّبيع بن خُثَيم، واختارَهُ أبو حاتم بن حبان][1].

ومنهم مَن فسَّرها، واختلف هؤلاء في معناها[2]، فقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم: إنَّما هي أسماء السُّور [قال العلَّامة أبو القاسم محمود بن عُمر الزَّمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر. ونقل عن سيبويه أنَّه نصَّ عليه][3]، ويَعتَضِد هذا بما ورد في «الصَّحيحين»، عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأُ في صلاة الصبح يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ﴾ السَّجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾[4].

وقال سفيانُ الثَّوري، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: أنه قال[5]: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿حمٓ﴾، و﴿الٓمٓصٓ﴾، و﴿صٓ﴾، فواتح افتتح الله بها القرآن.

وكذا قال غيره: عن مجاهد، وقال مجاهد في روايةِ أبي حُذيفة موسىٰ بن مسعود، عن شِبل، عن ابن أبي نَجِيح عنه أنه قال: ﴿الٓمٓ﴾ اسم من أسماء القرآن.

وهكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. ولعلَّ هذا يَرجع إلىٰ معنىٰ قول عبد الرَّحمن بن زيد: أنَّه اسمٌ مِن أسماء السُّور، فإنَّ كلَّ سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنَّه يبعد أن يكون ﴿الٓمٓصٓ﴾ اسمًا للقرآن كله؛ لأنَّ المتبادر إلىٰ فهم سامع من يقول: قرأت ﴿الٓمٓصٓ﴾، إنَّما ذلك عبارة عن سورة الأعراف، لا لمجموعِ القُرآن. والله أعلم.

وقيل: هي اسم مِن أسماء الله تعالىٰ. [فقال الشَّعبي: فواتح السور مِن أسماء الله تعالىٰ][6]، وكذلك قال سالم بن عَبد الله، وإسماعيل بن عبد الرَّحمن السُّدِّي الكبير، وقال شعبة عن السُّدِّي: بلغني أنَّ ابن عبَّاس قال: ﴿الٓمٓ﴾ اسمٌ من أسماء الله تعالىٰ الأعظَم. هكذا رواه ابن أبي حاتم مِن حديث شعبة.

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها: السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستندٍ شرعيٍّ، مع الجزم بأن الله تعالىٰ لم ينزلها عبثًا بل لحكمة لا نعلمها.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠)، وأبو داود (١٠٧٤)، وابن ماجة (٨٢١)، والترمذي (٥٢٠)، والنسائي (٢/ ١٥٩).

(٥) لوحة (٢٨ ب).

(٦) زيادة من (ح).

ورواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن ابن مَهْدِي، عن شعبة، قال: سألتُ السُّدِّي عن ﴿حمٓ﴾ و﴿طسٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾، فقال: قال ابن عبَّاس: هي اسم الله الأعظم.

وقال ابن جرير: وحدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا أبو النعمان، حدَّثنا شعبة، عن إسماعيل السُّدِّي، عن مُرَّة الهمداني قال: قال عبد الله، فذكر نحوه [وحُكِيَ مثله عن عليٍّ وابن عبَّاس](١).

وقال عليُّ بن أَبِي طلحة، عن ابن عبَّاس: هو قَسَمٌ أقسم اللهُ به، وهو مِن أسماء الله تعالىٰ.

ورَوىٰ ابن أَبي حاتِم وابن جرير مِن حديث ابن عُلَيَّة، عن خالد الحذَّاء، عن عِكرمة أنَّه قال: ﴿الٓمٓ﴾ قَسَمٌ.

ورَوَيا أيضًا مِن حديث شَريك بن عبد الله، عن عطاء بن السَّائب، عن أبي الضُّحَىٰ، عن ابن عبَّاس: ﴿الٓمٓ﴾ قال: أنَا اللهُ أعلم.

وكذا قال سعيد بن جُبير، وقال السُّدِّي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مرَّة الهمذاني عن ابن مسعود، وعن ناسٍ مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ: ﴿الٓمٓ﴾. قال: [أمَّا](٢) ﴿الٓمٓ﴾ فهي حروفٌ استفتَحَت مِن حروف هجاء أسماءِ الله تعالىٰ.

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أَبِي العالية في قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ﴾ قال: هذه الأحرف الثَّلاثة من التِّسعة والعِشرين حرفًا دارَت فيها الألسُن كلُّها، ليس منها حرفٌ إلَّا وهو مفتاح اسْم مِن أسمائه، وليس مِنها حَرفٌ إلَّا وهو من آلائِهِ وبلائِهِ، وليس منها(٣) حرف إلَّا وهو في مُدَّة أقوامٍ وآجالِهِم. قال عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ -وعَجب- فقال: وأعْجَب أنَّهم يَنطقونَ بأسمائه ويعيشون في رِزقه، فكيف يكفرون به؛ فالألِفُ: مفتاح اسم الله، واللَّامُ مُفتاح: اسمه لَطيف، والميمُ: مفتاح اسمه مَجيد: فالألِفُ آلاءُ الله، واللَّامُ: لُطف الله، والميم: مَجد الله، والألِفُ: سَنَةٌ، واللَّام: ثلاثون [سنةً](٤)، والميم: أَربعُون [سنةً](٥). هذا لفظ ابن أبي حاتم. ونحوه رواه ابن جرير.

ثمَّ شرع يُوجِّه كلَّ واحدٍ من هذه الأقوال ويُوَفِّق بَينَها، وأنَّه لا مُنافاة بين كلِّ واحدٍ منها وبين الآخر، وأنَّ الجمع مُمكن، فهي أسماءُ السُّور، ومِن أسماءِ الله تعالىٰ يفتتح بها السُّور، فكلُّ حرفٍ منها دَلَّ علىٰ اسمٍ مِن أسمائه وصفةٍ من صِفاته، كما افتتح سورًا كثيرةً بتحميده وتسبيحه وتعظيمه. قال: ولا مانع مِن دلالة الحرف منها علىٰ اسمٍ مِن أسماء الله، وعلىٰ صفةٍ من صفاته، وعلىٰ مُدَّةٍ وغير

(١) زيادة من (ح).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) لوحة (٢٩ أ).
(٤) زيادة من (ح).
(٥) زيادة من (ح).

ذلك، [كما ذكره][(١)] الرَّبيع بن أنس عن أبي العالية؛ لأنَّ الكلمة الواحدة تطلق علىٰ معانٍ كثيرةٍ، كلفظة: «الأُمَّة» فإنَّها تُطلق ويُراد به: الدِّين، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣]. وتُطلق ويُراد بها: الرَّجل المُطيع لله، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وتُطلقُ ويُراد بها: الجماعة، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] وتُطلَق ويُراد بها: الحِينُ من الدَّهر، كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: بعد حين علىٰ أصحِّ القولين، قال: فكذلك هذا.

هذا حاصلُ كلامه موجهًا، ولكن هذا ليس كما ذكره أبُو العالية، فإنَّ أبا العالية زعَم أنَّ الحرف دلَّ علىٰ هذا، وعلىٰ هذا، وعلىٰ هذا معًا، ولفظة «الأُمَّة» وما أَشبَهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح، إنَّما دلَّ في القرآن في كلِّ موطنٍ علىٰ معنًىٰ واحدٍ دلَّ عليه سياق الكلام، فأمَّا حمله علىٰ مجموع محامله إذا أمكن فمسألةٌ مختلَف فيها بين عُلماء الأُصول، ليس هذا موضع البحث فيها، والله أعلم؛ ثمَّ إنَّ لفظ «الأُمَّة» تدلُّ علىٰ كلِّ معانيه في سِياق الكلَام بدلالة الوضع، فأمَّا دلالة الحرف الواحد علىٰ اسمٍ يُمكن أَن يدلَّ علىٰ اسمٍ آخر مِن غير أَن يكون أحدهما أَوْلَىٰ من الآخر في التَّقدير أو الإضمار بوضعٍ[(٢)] ولا بغيره، فهذا ممَّا لا يُفهم إلا بتوقيفٍ، والمسألة مختلفٌ فيها، وليس فيها إجماعٌ حتىٰ يُحكم به.

وما أَنشدُوه من الشَّواهد علىٰ صحَّة إطلاق الحرف الواحد علىٰ بقيَّة الكلمة، فإنَّ في السِّياق ما يدلُّ علىٰ ما حُذِفَ بخلاف هذا، كما قال الشاعر:

قُلْنَـــا قِفِـــي لَنَـــا فَقَالَـــتْ قَـــاف ... لا تَحْـــسَبِي أَنَّـــا نَـــسِينَا الإِيجَـــافَ

تعني: وقفت. وقال الآخر:

مَـــا لِلظَّلِـــيم عَـــالَ كَيْـــفَ لا يَـــا ... يُنْقَـــدُّ عَنْـــهُ جِلْـــدُهُ إِذَا يَـــا

قال ابن جرير: كأنَّه أراد أَن يقول: إذا يفعل كذا وكذا، فاكتفىٰ بالياء مِن يَفعَل، وقال الآخر:

بِـــالخَيْرِ خَيْـــرَاتٍ وَإِنْ شَـــرًّا فَـــا ... وَلا أُرِيـــــدُ الـــــشَّرَّ إِلَّا أَنْ تَـــا

يقول: وإن شرًّا فشرٌّ، ولا أُريد الشَّر إلا أن تشاء، فاكتفىٰ بالفاء والتَّاء من الكَلمتَين عن بقيَّتهِمَا، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام، والله أعلم.

[قال القُرطبيُّ: وفي الحديث: «مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ»[(٣)] الحديث. قال شقيقٌ: هو

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) لوحة (٢٩ ب).

(٣) ضعيف: رواه ابن ماجة (٢٦٢٠)، وضعفه البوصيري في «الزوائد» وعلته: يزيد بن زياد الشامي، قال البخاري: منكر =

أن يقول في «اقْتُلْ»: اقْ](١).

وقال خصيف، عن مجاهد، أنَّه قال: فواتح السُّور كلها ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ و﴿الٓر﴾ وغير ذلك هجاء موضوع. وقال بعضُ أهل العربيَّة: هي حروفٌ مِن حروف المُعجم، استغنىٰ بذكر ما ذكر منها في أوائِل السُّور عن ذكر بواقيها، التي هي تتمَّة الثَّمانية والعشرين حرفًا، كما يقول القائل: ابنِي يكتُب في: «ا ب ت ث»؛ أي: في حُروف المعجم الثَّمانية والعشرين فيَسْتَغْنِي بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير.

قلت: مجمُوع الحروف المذكورةِ في أوائل السور بحذف المُكرَّر منها أربعةَ عشر حرفًا، وهي: «ا ل م ص ر ك هـ ي ع ط س ح ق ن» يجمعها قولك: «نَصٌّ حَكِيمٌ قَاطِعٌ لَهُ سِرٌّ». وهي نصفِ الحروف عددًا، والمذكور منها أشرف من المترُوك، وبيان ذلك من صناعة التَّصريف.

[قال الزَّمخشريُّ: وهذه الحُروف الأربعة عشر مشتملة علىٰ أنصاف أجناس الحروف؛ يعني: من المهموسَة والمجهورَة، ومِن الرَّخوة والشَّديدة، ومن المُطبقة والمفتُوحة، ومن المُستعلية والمُنخفضة ومن حروف القَلقلة. وقد سردها مفصَّلة، ثم قال: فسُبحان الَّذي دقَّت في كلِّ شيءٍ حكمتُه، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون بالمَذكورة منها، وقَد علمت أنَّ مُعظم الشَّيءِ وجُلَّه يُنزَّل منزلة كُلِّه](٢).

ومن هاهنا لحظ بعضُهُم في هذا المقام كلامًا، فقال: لا شكَّ أنَّ هذه الحروف لم يُنزلها ﷻ عبثًا ولا سدًىٰ؛ ومَن قال من الجهلة: إنَّه في القرآن ما هو تَعبُّد لا معنىٰ له بالكليَّة، فقد أخطأ خطأً كبيرًا، فتعيَّن أنَّ لها معنًىٰ في نفس الأمر، فإن صحَّ لنا فيها عن المعصوم شيءٌ قلنا به، وإلَّا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

ولم يُجْمِعِ العلماء فيها [علىٰ](٣) شيءٍ معيَّنٍ، وإنَّما اختلفوا، فمَن ظهر له بعض الأقوال بدليلٍ فعليه اتِّباعه، وإلَّا(٤) فالوقف حتىٰ يتبيَّن. هذا مقام.

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضَت إيرادَ هذه الحروف في أوائل السُّور، ما هي؟ مع قطع النَّظر عن معانيها في أَنْفُسِها. فقال بعضُهم: إنَّما ذُكِرت لنَعْرِف بها أوائل السُّور. حكاه ابن جرير، وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ الفصل حاصلٌ بدونها فيما لم تُذْكَر فيه، وفيما ذُكِرَت فيه بالبسملة تلاوةً وكتابةً.

= الحديث، ولا يتابعه إلا من هو نحوه، وانظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني (٥٠٣)، و«التلخيص الحبير» لابن حجر العسقلاني (٤/ ١٤).

(١) زيادة من (ح).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) لوحة (٣٠ أ).

وقال آخرون: بل ابتُدِئَ بها لتُفْتَحَ لاستماعها أسماعُ المشركين -إذ تواصَوْا بالإعراض عن القُرآن- حتَّىٰ إذا استمعوا له تُلِيَ عليهم المؤلَّف منه. حكاه ابن جرير أيضًا، وهو ضعيفٌ أيضًا؛ لأنَّه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السُّور لا يكون في بعضها، بل غالبُها ليس كذلك، ولو كان كذلك أيضًا لَانْبَغَىٰ الابتداء بها في أوائِل الكلَام معَهُم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثمَّ إنَّ هذه السورة والتي تليها؛ أعني: البقرةَ وآل عمران مدَنيَّتَان ليسَتَا خطابًا للمُشركين، فانتقَضَ ما ذكروه بهذه الوجوه.

وقال آخرون: بل إنَّما ذُكِرَت هذه الحروف في أوائل السُّور التي ذُكِرَت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلق عاجزُون عَن مُعارَضَتِه بمثله، هذا مع أنَّه [تركَّب][1] مِن هذه الحروف المقطَّعة الَّتي يتخَاطبُون بهَا[2].

[وقد حكىٰ هذا المذهبَ فخرُ الدِّين الرَّازي في «تفسيره» عن المبرِّد وجمع من المحققين][3].

[وحكىٰ القرطبي عن الفرَّاء وقُطرب نحوَ هذا وقرَّره الزمخشري في «كشَّافه»، ونصَرَه أتمَّ نصرٍ، وإليه ذهب الشَّيخ الإمام العلَّامة أبو العبَّاس أحمد بن تيمية، وشيخُنا الحافظ الجهبذ أبو الحجَّاج المِزِّي وحكاه لي من ابن تيمية][4].

قال الزَّمخشريُّ: ولم تَرِدْ كلُّها مجموعةً في أوَّل القرآن، وإنَّما كُرِّرت ليكون أبلغَ في التَّحدي والتَّبكِيت، كما كررت قصصٌ كثيرةٌ، وكرِّر التَّحدي بالتَّصريح في أماكن، قال: وجَاء منها علىٰ حرفٍ واحدٍ؛ كقوله: ﴿صٓ﴾، ﴿نٓ﴾، ﴿قٓ﴾. وحرفين، مثل: ﴿حمٓ﴾. وثلاثة، مثل: ﴿الٓمٓ﴾. وأربعة، مثل: ﴿الٓمٓر﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾. وخمسة، مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾؛ لأن أساليبَ كلامِهِم علىٰ هذا من الكلمات، ما هو علىٰ حرفٍ، وعلىٰ حرفين، وعلىٰ ثلاثةٍ، وعلىٰ أربعةٍ، وعلىٰ خمسةٍ، لا أكثر من ذلك.

قلتُ: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازِهِ وعظمتِهِ، وهذا معلومٌ بالاستقراء، وهو الواقع [في تسعٍ وعشرين سورةً][5]؛ ولهذا يقول تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [آل عمران: ١-٣]. ﴿الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم: ١]

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) ينظر: حاشية «مقدمة التفسير» لابن قاسم :(ص/ ٩١-٩٣)، ولعل هذا أقرب الأقوال وأرضاها؛ كما ذكر العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) زيادة من (ح).

﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]. ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]. ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورىٰ: ١-٣]، وغير ذلك من الآيات الدَّالة علىٰ صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعَن النَّظر، والله أعلم.

وأمَّا مَن زعم أنَّها دالَّة علىٰ معرفة المُدَدِ، وأنَّه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفِتَن والملاحم، فقد ادَّعىٰ ما ليس له، وطار في غير مطَارِه، وقد ورد في ذلك حديثٌ ضعيفٌ، وهو مع ذلك أدلَّ علىٰ بطلان هذا المسلك من التَّمسُّك[١] به علىٰ صحَّته. وهو ما رواه محمَّد بن إسحاق ابن يَسَار -صاحب المغازي- حدَّثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، عن جابر بن عبد الله بن رِئَاب، قال: مرَّ أبو ياسر بن أَخطَب، في رجالٍ من يهود، برسول الله ﷺ، وهو يتلُو فاتحةَ سُورة البقرة: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] فأتىٰ أخاه حُيَي بن أخطب في رجالٍ من اليهود، فقال: تعلمون -والله- لقد سَمِعتُ محمدًا يتلُو فيما أَنزَل الله عليه: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فقال: أنت سمِعتَه؟ قال: نعم. قال: فمشىٰ حُيَي بن أخطب في أولئك النَّفر من اليَهُود إلىٰ رسول الله ﷺ: فقالوا: يا محمَّد، ألم يُذكر أنَّك تتلُو فيما أَنزَل الله عليك: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «بَلَىٰ». فقالوا: جاءَك بهذا جبريلُ مِن عند الله؟ فقال: «نَعَمْ». قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياءَ ما نعلمه بيَّنَ لنبيٍّ منهم ما مُدَّةَ مُلكِهِ وما أَجَلُ أُمَّتِه غيرَكَ. فقام حُيَي بن أخطب، وأقبل علىٰ مَن كان معه، فقال لهم: الأَلِفُ واحدة، واللَّامُ ثلاثُون، والمِيمُ أربعُون، فهذه إحدىٰ وسبعون سنة، أفتَدْخُلُون في دين نبيٍّ، إنَّما مُدَّةُ مُلكِهِ وأَجَلُ أُمَّتِه إحدىٰ وسبعون سنة؟ ثم أقبل علىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا محمَّد، هل مَع هذا غيره؟ فقال: «نَعَمْ»، قال: ما ذاك؟ قال: ﴿الٓمٓصٓ﴾، قال: [هذه][٢] أثقلُ وأطول، الأَلِفُ واحدة، واللَّام ثلاثُون، والميمُ أربعُون، والصَّاد سَبعُون، فهذه إحدىٰ وثلاثُون ومائة سَنة. هل مع هذا يا محمَّد غيره؟ قال: «نَعَمْ» قال: ما ذاك؟ قال: ﴿الٓر﴾. قال: هذه أثقلُ وأَطْوَل، الأَلِفُ واحدَة، واللَّام ثلاثُون، والرَّاء مائتَان. فهذه إحدىٰ وثلاثُون ومِائَتَا سنة. فهل مع هذا يا محمَّد غيره؟ قال: «نَعَمْ»، قال: ﴿الٓمٓر﴾. قال: فهذه أثقلُ وأطولُ، الأَلِفُ وَاحِدَةٌ، واللَّامُ ثلاثُون، والميمُ أربعُون، والرَّاء مائتَان، فهذه إِحدَىٰ وسبعُون ومِائَتَان، ثم قال: لَقَد لُبِّسَ عَلينا أمرُك يا محمَّد، حتَّىٰ ما ندري أقليلًا أُعطِيتَ أم كثيرًا. ثم قال: قُومُوا عَنْهُ. ثمَّ قال أبو ياسر لأخيه حُيَي بن أخطب، ولمن معه من الأحبار: ما يُدرِيكُم؟ لعلَّه قد جمع هذا لمحمَّدٍ كله إحدَىٰ وسبعُون وإحدَىٰ وثلاثُون ومائة

---

(١) لوحة (٣٠ ب).

(٢) في (ز): (هذا) وما أثبتناه من (ح) هو الأولىٰ والموافق لما في «تفسير الطبري».

وإحدىٰ وثلاثُون ومائتَان وإحدىٰ وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع سنين. فقالوا: لقد تشابه[١] علينا أمره، فيزعمون أنَّ هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران:٧][٢].

فهذا مَدَارُه علىٰ محمَّد بن السَّائب الكَلْبِيِّ، وهو ممَّن لا يُحتجُّ بما انفردَ به، ثمَّ كان مقتضىٰ هذا المسْلَك إنْ كان صحيحًا أَنْ يحسب مَا لكلِّ حرفٍ من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرةٌ، وإن حسبت مع التكرار فأَطَمُّ وأعظم والله أعلم. [«قال الطَّبرانيُّ: حدَّثنا فضيل بن محمَّد ثنا أبو نعيم ثنا أبو العميس سمعتُ الشَّعبي يقول: مَن قرأ عشر آياتٍ من البقرةِ في بيتٍ لم يدخُلْه شيطانٌ تلك اللَّيلة حتىٰ يُصبح أربعًا مِن أوَّلها وآيةُ الكرسي واثنين بعدها وخواتيمها»[٣]][٤].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾

قال ابن جُرَيج: قال ابن عبَّاس: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾: هذا الكِتاب. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسُّدِّي ومُقاتِل بن حيَّان، وزيد بن أَسْلَم، وابن جريج: أنَّ «ذَٰلِكَ» بمعنىٰ: هذَا، والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة فيستعملون كلًّا منهما مكان الآخر، وهذا معروف في كلامهم[وقد حكاه البخاريُّ عن معمر بن المثَنَّىٰ أبي عبيدة، وقال الزمخشري ذلك إشارةٌ إلىٰ ﴿الٓمٓ﴾ كما قال: ﴿لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ وقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ وأمثالُ ذلك ممَّا أُشيرَ به إلىٰ ما تقدَّم ذكره والله أعلم».

وقد ذهب بعضُ المفسِّرين فيما حكاه القرطبي وغيره أنَّ ذلك إشارة إلىٰ القرآن الذي وُعِدَهُ الرَّسول أو التوراة أو الانجيل أو نحو ذلك مِن أقوال، وقد ضعَّفَ هذا المذهبَ كثيرونَ والله أعلم][٥].

و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾: القرآن. ومَن قال: إنَّ المراد بـ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾: الإشارة إلىٰ التَّوراة والإنجيل -كما حكاه ابن جرير وغيره- فقد أَبْعَد النُّجْعَة[٦] وأغْرق في النَّزع، وتكلَّف ما لا عِلمَ لَهُ به.

والرَّيبُ: الشَّكُّ، قال السُّدِّي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عبَّاس، وعن مرَّة الهَمْدانيُّ عن ابن مسعود، وعن أناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾: لا شكَّ فيه.

وقاله أبو الدَّرداء وابن عبَّاس ومجاهد وسعيد بن جُبَير وأبو مالك ونافع مولىٰ ابن عُمر وعطاء

(١) لوحة (٣١أ).

(٢) منكر: رواه ابن جرير الطبري (١/ ٩٣) من طريق ابن إسحاق به وعلته (محمد بن السائب الكلبي) متهم بالوضع كما في «التقريب».

(٣) ضعيف: تقدم تخريجه عند ذكر ما ورد في فضلها.

(٤) زيادة من (ح).

(٥) زيادة من (ح).

(٦) يعني :جَانَب الحق والصواب.

وأبو العالية والرَّبيع بن أنس ومُقاتل بن حيَّان والسُّدِّي وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد. وقال ابن أبِي حاتم: لا أَعْلَمُ في هذا خِلافًا.

[وقد يُستعمل الرَّيبُ في التُّهمَة قال جميل(١):

بُثَيْنَةُ قَالَتْ: يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي ... فَقُلْتُ كِلَانَا يَا بُثَيْنُ مُرِيبُ

واسْتُعْمِلَ أيضًا في الحاجَة، كما قال بعضهم(٢):

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ ... وَخَيْبَرَ ثُمَّ أَجْمَمْنَا السُّيُوفَا](٣)

ومعنىٰ الكلام هنا: أنَّ هذا الكتاب -وهو القرآن- لا شكَّ فيه أنَّه نزل مِن عند الله، كما قال تعالىٰ في السَّجدة: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]. [وقال بعضُهم: هذا خبرٌ ومعناه: النَّهيُ؛ أي: لا تَرْتَابُوا فيه](٤).

ومِنَ القُرَّاء مَن يَقِفُ علىٰ قوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾ وَيَبْتَدِئُ بقوله: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والوَقفُ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَوْلىٰ للآية الَّتِي ذكرنا؛ ولأنَّه يَصيرُ قولُه: ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ مِن كون: ﴿فِيهِ هُدًى﴾.

و﴿هُدًى﴾ يحتمل مِن حيث العربيَّة أن يكون مرفوعًا علىٰ النَّعت، ومنصوبًا علىٰ الحال.

وخصَّت الهدايةُ للمتَّقين. كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ(٥) مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إلىٰ غير ذلك من الآيات [الدَّالَّة](٦) علىٰ اختصاص المؤمنين بالنَّفع بالقرآن؛ لأنَّه هو في نفسِهِ هُدًى، ولكن لا ينالُه إلَّا الأبرار، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقد قال السُّدِّي عن أبي مالكٍ، وعن أبي صالح عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أُناسٍ مِن أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: نورًا للمُتَّقين(٧).

---

(١) الشاعر المعروف بجميل بثينة، ترجمته في «السير» للذهبي: (٤/ ١٨١)، والبيت في «ديوانه»: (ص ١٩ / ط صادر).

(٢) البيت لكعب بن مالك رضي الله عنه، كما في «اللسان»: ريب.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) لوحة (٣١ ب).

(٦) زيادة من (ح).

(٧) قال ابن تيمية رحمه الله: وهنا لطيفة تزيل إشكالًا يفهم هنا، وهو: أنه ليس من شرط هذا المتقي المؤمن أن يكون كان من المتقين المؤمنين قبل سماع القرآن فإن هذا أولًا ممتنع ؛ إذ لا يكون مؤمنًا متقيًا من لم يسمع شيئًا من القرآن . وثانيًا: أن الشرط إنما يجب أن يقارن المشروط لا يجب أن يتقدمه تقدمًا زمانيًّا كاستقبال القبلة في الصلاة. وثالثًا: أن المقصود أن يبين شيئان : «أحدهما» أن الانتفاع به بالاهتداء والاتعاظ والرحمة هو وإن كان موجبًا له ؛ لكن لا بد مع الفاعل من القابل إذ الكلام لا=

وقال الشَّعبي: هدًىٰ من الضَّلالة. وقال سعيد بن جُبير: تِبْيانٌ للمتَّقين. وكل ذلك صحيح.

وقال السُّدِّي: عن أبي مالكٍ، وعن أبي صالح، عن ابنِ عبَّاس، وعن مُرَّة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناسٍ مِن أصحاب رسولِ الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: همُ المؤمِنُون.

وقال أبو رَوْق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: المؤمِنِين الذين يتَّقون الشِّرك بي، ويَعمَلُون بطَاعَتِي.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد [بن أبي محمَّد][1] مولىٰ زيد بن ثابت، عن عِكْرَمة أو عن سَعيدِ بن جُبير، عن ابن عبَّاس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يحذَرُون مِن الله عقوبَتَه في تَرْكِ ما يَعْرِفُون مِن الهُدَىٰ، ويَرجُون رحمتَهُ في التَّصدِيق بمَا جاء بِهِ.

وقال سُفيانُ الثَّورِي، عَن رَجُل، عن الحسن البصرِي، قوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: اتَّقُوا ما حرَّم الله عليهم، وأدُّوا ما افتُرِض عليهم.

وقال أبو بكر بن عيَّاش: سألَنِي الأعمش عن المتَّقين، قال: فَأَجَبْتُه. فقال لي: سَلْ عَنْهَا الكلبي، فسألته فقال: الَّذِين يجتَنِبُون كبائرَ الإِثْم. قال: فرَجَعْتُ إلىٰ الأعمش، فقال: نرَىٰ أنَّه كذلك. ولم يُنْكِرْه.

وقال قتَادة: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ همُ الَّذين نعتَهُمُ الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ الآية والتي بعدها [البقرة: ٣، ٤].

واختار ابن جرير: أنَّ الآية تَعُمُّ ذلك كله، وهو كما قال.

وقد روىٰ التِّرمذي وابن ماجة، مِن رواية أبي عقيل عبد الله بن عقيل، عَن عبد الله بن يَزيد، عن رَبيعة بن يزيد، وعَطِيَّة بن قيس، عن عَطِيَّة السعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَبْلُغُ العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ حَتَّىٰ يَدَعَ مَا لا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ**». ثمَّ قال التِّرمذي: حسنٌ غريبٌ[2].

وقال ابنُ أَبِي حاتمٍ: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن عِمْرَان، حدَّثنا إسحاق[3] بن سُليمان -يعني الرَّازي-، عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون أبي حمزة، قال: كُنتُ جالسًا عندَ أبي وائل، فدخل علينا

= يؤثر فيمن لا يكون قابلًا له وإن كان من شأنه أن يهدي ويعظ ويرحم وهذا حال كل كلام. «الثاني» أن يبين أن المهتدين بهذا هم المؤمنون المتقون ويستدل بعدم الاهتداء به علىٰ عدم الإيمان والتقوىٰ كما يقال: المتعلمون لكتاب بقراط هم الأطباء وإن لم يكونوا أطباء قبل تعلمه بل بتعلمه، وكما يقال: كتاب سيبويه كتاب عظيم المنفعة للنحاة وإن كانوا إنما صاروا نحاةً بتعلمه، وكما يقال: هذا مكان موافق للرماة والركاب.

(١) زيادة من (ح).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٢٤٥١) وحسنه، وابن ماجة (٤٢١٥)، والحاكم (٤/ ٣١٩) وصححه، ووافقه الذهبي، وتعقبهما الألباني فقال: وهذا عجب منه -أي: الذهبي- خاصةً، فإن عبد الله بن يزيد وهو الدمشقي لم يوثقه أحد، بل قال الجوزجاني: روىٰ عنه ابن عقيل أحاديث منكرة... وأورده الذهبي نفسه في «الضعفاء» وذكر قول الجوزجاني هذا، وقال الحافظ في «التقريب»: ضعيف، انظر: «غاية المرام» (١٧٨).

(٣) لوحة (٣٢ أ).

رجلٌ، يُقال له: أبو عَفِيف، مِن أصحاب مُعاذ، فقال له شَقِيق بن سَلَمَة: يا أبا عَفِيف، ألَا تحدِّثنا عن مُعاذِ بن جَبل؟ قال: بلىٰ سَمِعْتُه يقول: يُحْبَسُ النَّاس يوم القيامة في بَقِيع[١] واحدٍ، فيُنادِي مُنادٍ: أَيْنَ المتَّقون؟ فيَقُومُون في كَنَفٍ مِن الرَّحمن لا يَحتَجِب الله مِنهُم ولا يَسْتَتِر. قلتُ: مَنِ المتَّقون؟ قال: قومٌ اتَّقوا الشِّرك وعِبَادة الأَوْثَان، وأَخْلَصُوا لله العِبَادة، فيَمُرُّونَ إلىٰ الجنَّة[٢].

[ويُطلَق الهُدَىٰ ويُرادُ به ما يَقِرُّ في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدِرُ علىٰ خَلقِه في قلوب العِبَاد إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾. إلىٰ غير ذلك من الآيات، ويُطلَق ويُرادُ به بيان الحقِّ، وتَوضِيحُهُ والدَّلالةُ عليه والإرشادُ إليه. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ علىٰ تفسيرِ مَن قال: المُراد بهما الخَير والشَّر. وهو الأرجح والله أعلم. وأَصلُ التَّقْوَىٰ: التَّوَقِّي ممَّا يُكرَه؛ لأنَّ أصلها: وَقْوَىٰ، مِن الوِقَاية. قال النَّابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ ... فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِاليَدِ[٣]

وقال آخر:

فَأَلْقَتْ قِنَاعًا دُونَهُ الشَّمْسُ وَاتَّقَتْ ... بِأَحْسَنِ مَوصُولَيْنِ كَفٍّ وَمِعْصَمِ[٤]

وقد قيل: إنَّ عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سأل أُبَيَّ بن كعبٍ عن التَّقوىٰ، فقال له: أمَا سَلكْتَ طريقًا ذَا شَوْكٍ؟ قال: بلىٰ. قال: فمَا عَمِلْتَ؟ قال: شَمَّرْتُ واجْتَهَدْت، قال: فذلك التَّقْوَىٰ.

وقد أخذ هذا المعنىٰ ابن المعتز فقال:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَىٰ

وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَىٰ

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَىٰ[٥]

وأنشد أبو الدَّرداء يومًا:

يُرِيدُ المَرْءُ أَنْ يُؤْتَىٰ مُنَاهُ ... وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلَّا مَا أَرَادَا

---

(١) البقيع: المكان المتسع من الأرض «اللسان»: بقع.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦١) وفيه ميمون أبو حمزة القطاب ضعفه الأئمة.

(٣) البيت في «اللسان»: نصف.

(٤) البيت لأبي حية النميري، وهو في «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي: (٣/ ١٣٦٩).

(٥) ديوان ابن المعتز: (ص٢٦).

يقــولُ المــرءُ فائــدتي ومــالي   وتقــوىٰ اللهِ أفــضلُ مــا اســتفادا(١)

وفي «سُنَن ابن ماجة» عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا اسْتَفَادَ المَرْءُ بَعْدَ تَقْوَىٰ اللهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ»(٢)](٣).

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

قال أبو جعفر الرَّازي، عن العلاء بن المسيب بن رافع، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: الإيمانُ التَّصْديق.

وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عبَّاس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يُصدِّقون.

وقال مَعْمَر عن الزهري: الإيمَانُ: العَمَلُ.

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يَخْشَوْن.

قال ابن جرير(٤) وغيره: والأَوْلىٰ أن يكونوا مَوصُوفِين بالإيمَان بالغَيْب قولًا واعتِقادًا وعمَلًا قال: وقَد تدخُل الخَشْيَة لله في معنىٰ الإيمَان، الَّذي هو تصدِيق القَولِ بالعَمَل، والإيمان كلمةٌ جامعةٌ للإقرَار بالله وكتُبِه ورسُلِه، وتَصدِيق الإقرارِ بالفِعْل.

قلتُ: أمَّا الإيمان في اللُّغة فيطلق علىٰ: التَّصدِيق المحْضِ(٥)، وقد يُستعمل في القرآن، والمراد بِهِ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استُعمِل مقرونًا مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الإنشقاق: ٢٥، والتين: ٦]، فأمَّا إذا استُعْمِل مطلقًا فالإيمانُ الشَّرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولًا وعملًا.

هكذا ذهَب إليه أكثرُ الأئمَّة، بل قد حكاه الشَّافعي وأحمد بن حنبل وأبو عُبَيد وغيرُ واحدٍ إجماعًا: أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ يزيدُ ويَنقصُ(٦). وقد ورَدَ فيه آثارٌ كثيرةٌ، وأحاديثُ أوردنا الكَلَام فيها

---

(١) البيتين في «حلية الأولياء» لأبي نعيم: (١/ ٢٢٥).

(٢) ضعيف بهذا اللفظ: رواه ابن ماجة (١٨٥٧)، وفيه عثمان بن أبي عاتكة، قال الحافظ: «ضعفوه في روايته عن علي بن يزيد الألهاني»، وعلي أيضًا ضعيف لكن الحديث محفوظ بإسناد حسن ولفظه: قيل: يا رسول الله! أي النساء خير؟ قال: «التي تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره». رواه النسائي (٦/ ٦٨)، وثبت بلفظ نحوه صحيحًا، رواه مسلم (١٤٦٧)، وابن ماجة (١٨٥٢)، وأحمد (٢/ ١٧٨) مختصرًا بلفظ: «إنما الدنيا متاع، وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة».

(٣) زيادة من (ح).

(٤) «تفسيره» (١/ ٢٤١).

(٥) ينظر: «اللسان»: أمن.

(٦) قال الإمامُ البخاريُّ رحمه الله: (لَقِيتُ أكثر من ألف رجلٍ من العلماء بالأمصار، فما رأيتُ أحداً منهم يختلفُ في أن =

في أوَّلِ شرح البخاريِّ[١]، ولله الحمد والمنَّة.

[ومنهم][٢] مَن فسَّره بالخشية؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢]، وقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، والخشيةُ خُلاصَة الإيمان والعِلْم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

[«وقال بعضهم: الَّذين يُؤمنون بالغَيب كما يُؤمِنُون بالشَّهادة ولَيْسُوا كما قال تعالىٰ عن المنافِقِين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ وقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فعلىٰ هذا يَكونُ قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالًا؛ أي: يؤمنون في حال كونهم غيبًا عن الناس»][٣]، وأمَّا الغيب المراد[٤] هاهُنا: فقد اختلفت عبارات السَّلف فيه، وكلُّها صحيحة تَرجع إلىٰ أنَّ الجميع مُرادٌ.

قال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: يُؤمِنون بالله وملائكتِهِ وكتُبِه ورسُلِه واليومِ الآخر، وجنَّته ونارِه ولقَائِه، ويُؤمِنون بالحياة بعد الموت وبِالبَعْث، فهذا غيبٌ كلُّه.

وكذا قال قتادة بن دِعَامة.

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك، [وعن أبي صالح][٥]، عن ابن عبَّاس، وعن مرَّة الهمداني عن ابن مسعُود، وعن ناسٍ مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ: أمَّا الغَيب فما غَاب عَن العِبَاد مِن أمرِ الجنَّة، وأمر النَّار، وما ذُكِرَ في القُرْآن.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عِكْرِمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بِمَا جاء مِنهُ؛ يعني: مِنَ الله تعالىٰ.

وقال سُفيان الثوري، عن عاصم، عن زِرٍّ، قال: الغَيْبُ: القُرْآن.

وقال عطاءُ بن أَبِي رَبَاح: مَن آمَن بالله فقدْ آمَن بالغَيْب.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بِغَيْب الإسْلَام.

= الإيمان :قولٌ وعمل، ويزيد وينقص). ينظر: «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي: (١/ ١٩٥) و«مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٣٨٨)، «كتاب الإيمان»، و«فتح الباري» (١/ ٤٧).

(١) شَرَحَ ابنُ كثير جزءًا من «صحيح البخاري» ولم يتمه، وهو في عِداد المفقودات . يُرجع إلىٰ الكلام علىٰ مؤلفات ابن كثير في ترجمته من مقدمات طبعتنا.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) لوحة (٣٢ ب).

(٥) في (ز) [عن أبي مالك، عن أبي صالح]، وهو خطأ.

وقال زَيدُ بن أَسْلَم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بالقَدَر. فكلُّ هذه مُتقَارِبَةٌ في معنًى واحدٍ؛ لأنَّ جميع هذه المذكُورَات مِن الغَيبِ الَّذِي يجبُ الإِيمَان بِهِ(١).

وقال سعيدُ بنُ مَنصُور: حدَّثنا [أبو مُعاوِيَة](٢)، عن الأَعْمَشِ، عن عِمَارة بن عمير، عن عبد الرحمن بن يَزِيد قال: كنَّا عند عَبدِ الله بن مسعُود جلوسًا، فذَكَرْنا أصحَابَ النَّبيِّ ﷺ وما سَبَقُوا به، قال: فقال عبدُ الله: إنَّ أَمْرَ محمَّد ﷺ كان بَيِّنًا لمن رَآه، والَّذِي لا إِلَه غيرُهُ مَا آمَن أحدٌ قطُّ إيمانًا أفضل مِن إيمانٍ بغَيْبٍ، ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥](٣).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدوَيه، والحاكم في مُسْتَدْرَكِه، من طرقٍ، عن الأعمش به. وقال الحاكم: صحيحٌ علىٰ شرط الشَّيخين، ولم يخرجاه.

وفي معنىٰ هذا الحديث الَّذِي رواه الإمام أحمد، حدَّثنا أبو المغِيرَة، أخبرنا الأوزاعيُّ، حدَّثني أسيد بن عبد الرَّحمن، عن خالد بن دُرَيك، عن ابن مُحَيريز، قال: قُلتُ لأبي جُمعَة: حدِّثنا حديثًا سمعتَهُ مِن رسول الله ﷺ قال: نَعَم، أُحدِّثُك حَدِيثًا جيِّدًا: تَغَدَّيْنا مع رسولِ الله ﷺ ومعَنا أبُو عُبيدَة بن الجرَّاح(٤)، فقال: يا رَسُول الله، أحدٌ خَيْرٌ مِنَّا؟ أسلمْنَا مَعَكَ وجَاهَدْنَا معكَ. قال: «**نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي**»(٥).

طريقٌ أُخرَىٰ: قال أبُو بكرِ بن مَرْدوَيه في «تفسيره»: حدَّثنا عبد الله بن جعفر، حدَّثنا إسماعيل بن عبد الله بن مَسعُود، حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثنا مُعاوية بن صَالح، [عن صالح](٦) بن جُبَيْر، قال: قَدِم عَلينَا أبو جُمْعَة الأَنصَارِي، صاحبُ رسولِ الله ﷺ ببَيْتِ المقدِس، ليُصلِّي فيه، ومعنَا يَوْمئذٍ رَجاء ابن حَيْوة، فلمَّا انصرَفَ خرَجْنا نُشيِّعه، فلمَّا أراد الانصِرَاف قال: إنَّ لكم جائزةً وحقًّا؛ أُحدِّثُكم بحديثٍ سمعتُهُ مِن رسول الله ﷺ، قُلْنا: هَاتِ رَحِمَك الله قال: كُنَّا معَ رَسُول الله ﷺ ومَعَنَا مُعاذُ بن جَبل عاشرُ عشَرَة، فقُلنا: يا رسُول الله، هَل مِن قَومٍ أَعْظَم أَجْرًا منَّا؟ آمنَّا بك واتَّبعنَاك، قال: «مَا

---

(١) وهذا من اختلاف التنوع الذي تقدم الكلام عليه.

(٢) في (ز): ابن معاوية. وهو خطأ.

(٣) حسن: رواه سعيد بن منصور (١٨٠)، والحاكم (٢/ ٢٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٦)، وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
قلت: ويشهد له الروايات الأخرىٰ المذكورة بعده.

(٤) لوحة (٣٣ أ).

(٥) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٠٦)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة»، (٦٧٣٥ - بتحقيقي) وهذا إسناد صحيح.
ورواه الحاكم (٤/ ٨٥)، وأبو يعلىٰ (١٥٥٩) إلا أن فيه صالح بن جبير بدلًا من خالد بن دريك وهو إسناد صحيح أيضًا، وقال الحافظ في «فتح الباري» (٧/ ٦): إسناده حسن وقد صححه الحاكم. ويشهد له الروايات المذكورة قبله وبعده.

(٦) زيادة من (ح).

يَمْنَعُكُمْ مِنْ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يَأْتِيكُمْ بِالوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِكُمْ يَأْتِيهِمْ كِتَابٌ بَيْنَ لَوْحَيْنِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ مِنْكُمْ أَجْرًا» مرَّتين [(١)]. ثم رواه مِن حَدِيث ضَمْرَة بن رَبِيعة، عن مَرزُوق بن نَافع، عن صَالِح بن جُبَير، عن أَبِي جُمعة، بنحوِهِ.

وهذا الحديثُ فيه دلالة علىٰ العمل بالوِجَادَةِ الَّتِي اختلفَ فيها أهلُ الحَدِيث، كما قرَّرْتُه في أوَّل شَرحِ البُخارِي؛ لأنَّه مَدَحَهُم علىٰ ذَلِك، وذَكَر أنَّهم أعظم أجرًا مِن هذه الحَيْثِيَّة لا مُطْلَقًا.

وكذا الحديث الآخرُ الَّذِي رواه الحسنُ بن عَرفَة العَبْدِي: حدَّثنا إسماعيلُ بن عيَّاش الحمصِي، عن المغيرَة بن قَيس التَّمِيمي، عن عمرِو بن شُعَيب، عن أَبِيه، عن جَدِّه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَيُّ الخَلْقِ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟»**. قالوا: الملائكةُ. قال: **«وَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟»**. قالوا: فالنَّبِيُّون. قال: **«وَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَالوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟»**. قالوا: فنحنُ. قال: **«وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟»**. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: **«أَلا إِنَّ أَعْجَبَ الخَلْقِ إِلَيَّ إِيمَانًا لَقَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا فِيهَا كِتَابٌ يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا»** [(٢)].

قال أبو حاتم الرَّازي: المغيرة بن قَيس البَصرِي مُنكَر الحَدِيث.

قلتُ: ولكِن قد رَوىٰ أبُو يَعلَىٰ في «مُسنَدِه»، وابن مَردوَيه في «تفسيره»، والحاكِمُ في «مُستَدْرَكه»، من حديث محمَّد بن أبي حُميد -وفيه ضَعفٌ- عَن زَيد بن أَسْلَم، عن أَبِيه، عن عُمَر، عن [(٣)] النَّبيِّ ﷺ، بمثلِهِ أو نحوِهِ [(٤)]. وقال الحاكِمُ: صحيحُ الإسنَاد، ولم يخرِّجَاه وقد رُوِي نحوُهُ عن أنسِ بن مَالِك مرفوعًا [(٥)]، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتِم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن محمد المسندي، حدَّثنا إسحاقُ بن إِدْرِيس، أخبرنِي إِبْرَاهِيم بن جَعفَر بن محمود بن سَلمَة الأنصاري، أخبرَنِي جعفر بن محمُود، عن جدَّته تُوَيْلَةُ

---

(١) صحيح: هو نفسه الحديث السابق لكن من طريق آخر، رواه الطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٣/ ٣٥٤٠)، وقال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٧): وإسناد هذه الرواية أقوىٰ من إسناد الرواية المتقدمة.

(٢) ضعيف: يكفي للاستشهاد بالحديث المقدم. أما هذا الحديث فالرواية الأولىٰ (عن عمرو بن العاص)، رواه الحسن بن عرفة (١٩) والخطيب في شرف أصحاب الحديث» (٦١)، وفيه المغيرة بن قيس: قال ابن أبي حاتم (٨/ ٢٢٧): منكر الحديث، وفيه إسماعيل بن عياش وروايته عن غير الشاميين ضعيفة، وهذا منها.

والرواية الثانية (عن عمر) رواه الحاكم (٤/ ٨٥- ٨٦) وصححه، ورده الذهبي فقال: بل محمد -أي: ابن أبي حميد- ضعفوه، وقال البخاري: منكر الحديث، فلا يصلح شاهدًا للذي قبله.

والرواية الثالثة: (عن أنس)، رواه البزار (٢٨٤٠- كشف الأستار) وإسناده، ضعيف كذلك، فيه سعيد بن بشير، قال الحافظ: ضعيف، والحديث ضعفه الألباني. انظر: «الضعيفة» (٦٤٧، ٦٤٨).

(٣) لوحة (٣٣ ب).

(٤) انظر التعليق السابق وفيها تخريج رواية عمر ﷺ.

(٥) انظر التعليق السابق وفيها تخريج رواية أنس ﷺ.

بنتُ أَسْلَم، قالت: صَلَّيتُ الظُّهر أو العَصْر في مَسجِد بَنِي حَارِثَة، فاسْتَقْبَلْنا مَسجِد إِيلِيَاء[١]، فصَلَّيْنا سَجْدَتَين، ثمَّ جَاءَنا مَن يُخْبِرنا: أنَّ رسولَ الله ﷺ قد اسْتقْبَل البيتَ الحرَام، فتحوَّل النِّساءُ مَكانَ الرِّجالِ، والرِّجالُ مكانَ النِّساءِ، فصَلَّيْنا السَّجدتَيْن البَاقِيَتَيْن، ونحنُ مُستقبِلُون البيتَ الحرَام.

قال إبراهيم: فحدَّثني رِجالٌ مِن بني حارِثَة[٢]: أنَّ رسولَ الله ﷺ حين بلغه ذَلكَ قال: «**أُولَئِكَ قَوْمٌ آمَنُوا بِالغَيْبِ**»[٣].

هذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوجه.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال ابن عبَّاس: يُقيمُون الصَّلاة؛ أي: يُقيمُون الصَّلاة بفُرُوضِها.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: إقامةُ الصَّلاةِ: إتمامُ الرُّكوعِ والسُّجود والتِّلاوَة والخُشُوع والإِقبَال عليها فيهَا.

وقال قتادةُ: إقامةُ الصَّلاةِ: المحافظَةُ علىٰ مَواقِيتِهَا ووُضوئِها، ورُكوعِهَا وسُجودِهَا.

وقال مُقاتِل بن حيَّان: إقامَتُها: المحافظَةُ علَىٰ مَواقِيتِهَا، وإسباغُ الطُّهورِ فيهَا وتمَامُ رُكوعِها وسُجودِها وتلاوةُ القُرآن فِيهَا، والتَّشهُّد والصَّلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ، فهذا إقامتها.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، وغيره عن ابنِ عبَّاس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: زكاةُ أَمْوَالِهم.

وقال السُّدِّي، عَن أبي مَالِك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة عن ابنِ مسعُود، وعن أُناسٍ من أصحابِ رسُول الله ﷺ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: نَفقَةُ الرَّجلِ عَلىٰ أَهلِهِ، وهذَا قَبْل أَن تَنزِل الزَّكاةُ.

وقال جُوَيْبر، عن الضَّحاك: كانت النَّفقاتُ قُرباتٌ يتقرَّبُون بها إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ قَدْرِ مَيْسَرَتِهم وجُهْدِهم، حتَّىٰ نزلت فرائضُ الصَّدقات: سبعُ آياتٍ في سورة براءَة، ممَّا يُذكر فيهنَّ الصَّدقَات، هنَّ النَّاسخاتُ المُثْبَتات[٤].

وقال قتادةُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فأنفِقُوا مما أعطَاكُم الله، هذه الأموالَ عَوَارِي[٥] ووَدَائِع عندك يا ابنَ آدم، يُوشِك أَن تُفَارِقَها.

---

(١) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، قيل: معناه بيت الله، ومسجدها: المسجد الأقصىٰ -حرره الله-. ينظر:« معجم البلدان» (١/ ٢٩٣)، و«اللسان»: أيل.

(٢) بنو حارثة: بطن من الأوس.

(٣) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٥/ ٤٣)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٥٧) بتحقيقي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٤): فيه إسحاق بن إدريس الأسواري وهو ضعيف متروك. واعلم أن تحول الصحابة عن القبلة أثناء الصلاة ثابتٌ صحيحٌ، وستأتي الروايات فيه (انظر: الآية ١٤٢-١٤٣) من هذه السورة.

(٤) أي: التي ثبت حكمها ولم يُنسخ.

(٥) جمع عارية، وهو ما تعيره غيرك ثم تسترده منه. ينظر: «اللسان»: عور، وعير.

واختار[١] ابنُ جرير[٢] أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ في الزَّكاة والنَّفقَات[٣]، فإنَّه قال: وَأَوْلَىٰ التَّأويلات وأحقُّها بصِفَة القَوْم: أن يكونُوا لجَميع اللَّازم لهم في أموالهم مُؤَدِّين، زكاةً كان ذلك أو نفقةَ مَنْ لَزِمَتْه نفقتُه مِن أهلٍ أو عيالٍ وغيرِهِم، ممَّن تجبُ عليهم نَفَقَتُه بالقَرَابة والملك وغير ذلك؛ لأنَّ الله تعالىٰ عمَّ وَصفَهُم ومَدَحَهُم بذلك، وكلٌّ مِن الإنفاقِ والزَّكاة ممدوحٌ به محمودٌ عليه.

قلتُ: كثيرًا ما يَقرنُ الله تعالىٰ بين الصَّلاة والإنفَاق من الأموَال، فإنَّ الصَّلاة حقُّ الله وعبادته، وهي مشتملةٌ علىٰ توحيدِهِ والثَّناء عليه، وتمجيدِه والابتهالِ إليه، ودُعائِه والتَّوكُّل عليه؛ والإنفاقُ هو الإحسانُ إلىٰ المخلُوقِين بالنَّفع المتعدِّي إليهم، وأَوْلَىٰ النَّاس بذلك القَرَابَات والأهلُون والمماليك، ثم الأجانبُ، فكلٌّ مِن النَّفقَات الواجبَة والزَّكاة المفروضَة داخلٌ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ولهذا ثبت في «الصَّحيحَين» عن ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ». والأحاديث في هذا كثيرة[٤].

وأصلُ الصَّلاة في كلَام العَرَب الدُّعاء[٥]، قال الأعشىٰ:

لَهَا حَارِسٌ لا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا ... وَإِنْ ذُبِحَتْ صَلَّىٰ عَلَيْهَا وَزَمْزَمَا[٦]

وقال أيضًا:

وَقَابَلَهَا الرِّيحُ فِي دَنِّهَا ... وَصَلَّىٰ عَلَىٰ دَنِّهَا وَارْتَسَمْ[٧]

أنشدهُما ابنُ جرير[٨] مُستَشهدًا علىٰ ذلك. وقال الآخر -[وهُو الأعشَىٰ أيضًا][٩]-:

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَّبْتُ مُرْتَحِلا ... يَا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الأَوْصَابَ وَالوَجَعَا

عَلَيْكِ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضِي ... نَوْمًا فَإِنَّ لِجَنْبِ المَرْءِ مُضْطَجَعَا[١٠]

يقول: عَليكَ مِن الدُّعاء مثل الَّذِي دَعَيْتُه لِي. وهذا ظاهرٌ، ثم استُعْمِلَتِ الصَّلاة في الشَّرع في ذاتِ

---

(١) لوحة (٣٤أ).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٢٥٠).

(٣) قال السعدي رحمه الله: وكثيرًا ما يجمع تعالىٰ بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان علىٰ عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق.

(٤) البخاري (٨)، ومسلم (١٦)، والترمذي (٢٦٠٩)، والنسائي (٨/ ١٠٧).

(٥) «اللسان»: صلا.

(٦) «ديوان الأعشىٰ»: (ص٢٩٣ / ط مكتبة الآداب).

(٧) «ديوان الأعشىٰ»: (ص٣٥)، وارتسم :دعا وتعوذ.

(٨) في «تفسيره» (١/ ٢٤٨).

(٩) زيادة من (ح).

(١٠) «ديوان الأعشىٰ» (ص١٠١).

الرُّكوع والسُّجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصُوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتِها، وأنواعِها المشهُورة.

وقال ابن جرير(١): وأرَىٰ أنَّ الصَّلاة المفرُوضة سُمِّيت صلاةً؛ لأنَّ المصلِّي يتعرَّض لاستنجَاح طُلبتِه مِن ثوابِ الله بعملِه، مَع ما يَسأَلُ ربَّه فيها مِن حاجَتِه.

[وقِيل: هي مُشتقَّة من الصلَوَيْن إذا تحرَّكا في الصَّلاة عند الرُّكوع، وهما: عِرقَان يَمتدَّان مِن الظَّهر حتَّىٰ يَكْتنِفَا عجُب الذَّنَب، ومنه سُمِّي المصَلِّي؛ وهو الثَّاني للسَّابق في حَلَبَة الخَيْل، وفيه نظرٌ، وقيل: هِيَ مُشتقَّةٌ مِن الصِّليّ، وهو الملازَمة للشَّيءِ مِن قوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ أي: يَلزمُها ويَدُوم فيهَا ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] وقيل: مُشتقَّةٌ مِن تَصلِيَة الخَشَبةِ في النَّار لتقوَّم، كما أنَّ المصلِّي يقوِّم عِوَجَه بالصَّلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] واشتقاقها من الدُّعاء أصحُّ وأشهَرُ، والله أعلم](٢).

وأمَّا الزَّكاة فسيأتي الكلامُ عليها(٣) في موضعِهِ، إن شاء الله(٤).

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

قال ابن عبَّاس: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: يُصدِّقون بما جِئتَ به مِن الله، وما جاء بِهِ مَنْ قبلك مِن المرسَلِين، لا يُفرِّقون بَينهم، ولا يجحدُون ما جاؤُوهم به مِن ربِّهم ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: بالبَعثِ والقيامَة، والجنَّة، والنَّار، والحساب، والميزان.

وإنَّما سُمِّيت الآخرة؛ لأنَّها بعد الدُّنيا، وقد اختلف المفسِّرون في الموصُوفِين هاهنا: هل هُم الموصُوفُون بما تقدَّم مِن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومَن هُم؟

علىٰ ثلاثةِ أقوالٍ حكاهَا ابن جرير:

أحدُهُما: أنَّ الموصوفين أوَّلًا هم الموصُوفُون ثانيًا، وهُم كلُّ مؤمنٍ، مُؤمِنُو العَربِ [ومُؤمِنُو](٥) أهل الكتاب وغيرهم، قاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة.

والثَّاني: همَا واحدٌ، وهم مُؤمِنُو أهلِ الكتاب، وعلىٰ هَذَيْن تكون الواو عاطفة صفاتٍ علىٰ صفاتٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١-٥] وكما قال الشاعر:

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٤٨).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) لوحة (٣٤ ب).

(٤) عند تفسير الآية (٦٠) من سورة التوبة، والآية (٤) من سورة المؤمنون.

(٥) ليست في (ز).

إِلَىٰ المَلكِ القَرْمِ وَابْنِ الهُمَام وَلَيْثِ الكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحَمِ(١)

فعطَفَ الصفاتِ بعضها علىٰ بعض، والموصوفُ واحدٌ.

والثّالث: أنَّ الموصوفين أوّلًا مُؤمِنُو العرب، والموصوفون ثانيًا بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية مُؤمِنُو أهلِ الكتاب، نقلَهُ السُّدِّي في «تفسيرِه»، عن ابن عبَّاس وابن مسعُود وأُناسٍ منَ الصَّحابة، واختاره ابنُ جرير، ويَسْتَشْهِد لما قالَ بقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]، وبقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۞ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]. وثبتَ في «الصَّحيحين» مِن حديث الشَّعبي عن أبي بُردَة عن أبي موسىٰ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي(٢)، وَرَجُلٌ مَمْلُوكٌ أَدَّىٰ حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ جَارِيَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا»(٣).

وأمَّا ابن جريرٍ فما اسْتَشْهَد علىٰ صحَّة ما قالَ إلَّا بمناسبةٍ، وهي أنَّ الله وَصَفَ في أوَّل هذه السُّورة المؤمنين والكافرين، فكما أنَّه صنَّف الكافرين إلىٰ صِنفينِ: مُنافقٍ وكافرٍ، فكذلك المؤمنُون صنَّفهم إلىٰ عربيٍّ وكتابيٍّ.

قلتُ: والظَّاهر قولُ مجاهدٍ فيما رَواه الثَّوري، عَن رجلٍ، عن مُجاهِد. ورواه غيرُ واحدٍ، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهِد أنَّه قال: أربعُ آياتٍ مِن أوَّل سورةِ البقرَة في نعت المؤمنِينَ، وآيتَانِ في نعتِ الكَافِرِينَ، وثلاثَ عشرَةَ في المنَافقِين، فهذه الآياتُ الأربعُ عامَّةٌ في كلِّ مؤمنٍ اتَّصف بها مِن عربيٍّ وعجميٍّ، وكتابيٍّ من إنسيٍّ وجنيٍّ، وليس تصحُّ واحدةٌ مِن هذه الصِّفات بدون الأخرىٰ، بل كلُّ واحدةٍ مُستلزِمَةٌ للأُخرىٰ وشرطٌ معهَا، فلا يصحُّ الإيمانُ بالغيب وإقَام الصَّلاةِ والزَّكاةِ إلَّا مع الإيمان بما جاء به الرَّسول ﷺ وما جاءَ به مَنْ قَبلَهُ مِن الرُّسل والإيقان بالآخرة، كما أنَّ هذا لا يصحُّ إلَّا بذاك، وقد أمر الله تعالىٰ المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نزلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]. وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦]. وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: ٤٧] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ

(١) البيت في «خزانة الأدب» للبغدادي - (١/ ٤٥١): ط الخانجي - بلا نسبة.

(٢) لوحة (٣٥أ).

(٣) البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤)، وأبو داود (٢٥٥٤)، والترمذي (١١١٦)، وابن ماجة (١٩٥٦)، والنسائي (٦/ ١١٥).

ﵟٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡﵞ [المائدة: ٦٨] وأخبر تعالىٰ عن المؤمنين كلِّهم بذلك، فقال تعالىٰ: ﵟءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦﵞ الآية [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﵟوَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡﵞ [النساء: ١٥٢] وغير ذلك من الآيات الدَّالة علىٰ أمرِ جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسلِهِ وكتبِهِ. لكنَّ لمؤمِنِي أهلِ الكتاب خُصوصيَّةً؛ وذلك أنَّهم مؤمنُونَ بما بِأَيْدِيهم مفصَّلًا فإذا دخلوا في الإسلام وآمنُوا به مُفصَّلًا كان لهم علىٰ ذلك الأجر مرَّتين، وأمَّا غيرهم فإنَّما يحصلُ لَهُ الإيمانُ بما تقدَّم مُجملًا كما جاء[1] في الصحيح: «**إذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَلَكِنْ قُولُوا: آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ**»[2] ولكن قَد يكونُ إيمانُ كثيرٍ مِن العرب بالإسلام الَّذي بُعِثَ به محمَّد ﷺ أتمُّ وأكملُ وأعمُّ وأشملُ مِن إيمان مَن دخل مِنهُم في الإسلام، فهُم وإن حصَلَ لهم أجرَان من تلك الحَيْثيَّة، فغيرهم قَد يحصُل له مِن التَّصديق ما يُنيف[3] ثوابه علىٰ الأجرَين اللَّذين حصلا لهم، والله أعلم.

ﵟأُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ﵞ

يقول الله تعالىٰ: ﵟأُوْلَٰٓئِكَﵞ أي: المتَّصفون بما تقدَّم: مِن الإيمان بالغيب، وإقام الصَّلاة، والإنفاقِ مِن الذي رزقهم الله، والإيمان بما أَنزَل الله إلىٰ الرَّسول ومَنْ قبله من الرُّسل، والإيقان بالدَّار الآخرة، وهو يَستَلْزِم الاستعدادَ لها مِن العمل بالصَّالحات وتَرك المحرَّمات.

ﵟعَلَىٰ هُدٗىﵞ[4] أي: نورٌ وبيانٌ وبصيرةٌ مِن الله تعالىٰ. ﵟوَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَﵞ أي: في الدُّنيا والآخِرَة.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عِكْرِمة أو سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس: ﵟأُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡﵞ أي: علىٰ نُورٍ مِن ربِّهم، واستقامةٍ علىٰ ما جاءهم، ﵟوَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَﵞ أي: الَّذين أَدْرَكوا ما طلبُوا، ونجُوا مِن شرِّ ما منه هَربُوا.

وقال ابن جرير[5]: وأمَّا معنىٰ قوله: ﵟأُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡﵞ فإنَّ معنىٰ ذلك: أنَّهم علىٰ نور مِن ربِّهم، وبُرهانٍ واستقامةٍ وسدادٍ، بتسديدِ الله إيَّاهم، وتوفيقِه لهم، وتأويلُ قوله: ﵟوَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَﵞ أي: المُنجِحون المدرِكُون ما طلبوا عِندَ الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتُبِه ورسُلِه، من

---

(١) لوحة (٣٥ ب).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢) ولفظه: «... لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»، وثبت نحوه من حديث أبي نملة، رواه أحمد (٤/ ١٣٦)، وابن حبان (٦٢٥٧).

(٣) بمعنىٰ: يزيد.

(٤) قال السعدي رحمه الله: وأتىٰ بـ «علىٰ» في هذا الموضع، الدالة علىٰ الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ «في» كما في قوله: ﵟوَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢٤ﵞ لأن صاحب الهدىٰ مستعلٍ بالهدىٰ مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقَر.

(٥) في «تفسيره» (١/ ٢٥٦).

الفوز بالثَّواب، والخلود في الجنَّات، والنَّجاة ممَّا أعدَّ الله لأعدائه مِن العقاب.

وقَد حكىٰ ابنُ جرير[1] قولًا عَن بعضهم أنَّه أعاد اسم الإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلىٰ مُؤمِني أهلِ الكتاب الموصوفين بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، علىٰ ما تقدَّم من الخلاف. قال: وعلىٰ هذا فيجُوز أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ منقطعًا ممَّا قبله، وأن يكون مرفوعًا علىٰ الابتداء، وخبره: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ واختار أنَّه عائدٌ إلىٰ جميع مَن تقدَّم ذكرُه مِن مُؤمِني العرب وأهلِ الكتاب، لما رواه السُّدِّي عن أَبِي مالك، وعن أبي صَالح، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة الهمداني عن ابنِ مسعود، وعن أُناس من أصحابِ[2] رسول الله ﷺ: أمَّا الَّذين يُؤمنون بالغيب، فهم المؤمِنُون من العَرب، والذين يُؤمِنُون بما أُنزِل إليك وما أُنزل مِن قبلك هم المؤمِنُون مِن أهل الكتاب. ثمَّ جمَعَ الفَرِيقَين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3] وقد تقدَّم مِن التَّرجِيح أنَّ ذلك صفةٌ للمؤمنين عامَّة، والإشارة عائدةٌ عليهم، والله أعلم[4]. وقد نُقِل هذا عن مجاهِد، وأبي العالية، والرَّبيع بن أنس، وقتادة رحمهم الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن عثمان بن صالح المصري، حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن لَهيعة، حدَّثني عُبيدُ الله بن المغيرةِ عن أبي الهَيثم واسمه سُليمان بن عمرو[5]، عن عبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ، وقيل له: يَا رسولَ الله، إنَّا نقرأُ مِن القُرآنِ فنرجُو، ونقرأُ مِن القُرآن فنكَادُ أَن نيأَسَ، أو كما قال. قال: فقَال: «أَفَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ؟». قالوا: بلىٰ يَا رسُول الله. قال: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ «هَؤُلَاءِ أَهْلُ الجَنَّةِ». قالوا: إنَّا نرجُو أن نكونَ هَؤُلاء. ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ «هَؤُلَاءِ أَهْلُ النَّارِ». قالوا: لَسنا هُم يا رسولَ الله. قال: «أَجَلْ»[6].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: غطُّوا الحقَّ وستَرُوه، وقد كتب الله تعالىٰ عليهم ذلِك، سواءٌ عليهم إِنذارُك وعدمه، فإنَّهم لا يُؤمنون بما جئتهم به، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال في حقِّ المعانِدِين مِن أهل الكتاب: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ الآية [البقرة:

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٥٤).
(٢) لوحة (٣٦ أ).
(٣) رواه ابن جرير (١/ ١٠٢).
(٤) انظر: (ص ١٧٦ - ١٧٧).
(٥) في (ز): (سليمان بن عبد)، والمثبت هو الصواب.
(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٩)، وفيه عبد الله بن لهيعة: ثقة، إلا أنه اختلط بعد احتراق كتبه. وفيه أيضًا عثمان ابن صالح: فيه مقال. انظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٠).

١٤٥] أي: إنَّ مَن كتَب الله عليه الشَّقاوَة فلا مُسْعِد له، ومَن أضَلَّه فلا هاديَ له، فلا تذهب نفسُك عليهم حسَراتٍ، وبلِّغهم الرِّسالة، فمَن استجاب لك فلَه الحظُّ الأوفر، ومَن تولَّىٰ فلا تَحزَن عليهم ولا يُهْمِدَنَّك [١] ذلك؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، و﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرصُ أن يُؤمِن جميع النَّاس ويُتابعوه علىٰ الهُدىٰ، فأخبره الله تعالىٰ أنَّه لا يُؤمن إلَّا مَن سبق له مِن الله السَّعادةُ في الذِّكر الأوَّل [٢]، ولا يُضلُّ إلَّا [٣] مَن سبق لَه مِن الله الشَّقاوة في الذِّكر الأوَّل.

وقال محمَّد بن إسحاقَ: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عِكرمة، أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بما أُنزِل إليك، وإن قالوا: إنَّا قَد آمنَّا بما جاءَنا قبلك ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنَّهم قد كفروا بما عِندَهم مِن ذِكرِك، وجحَدُوا ما أُخِذ عليهم مِن الميثَاق، فقد كفرُوا بما جاءَك، وبما عِندَهُم ممَّا جاءَهُم به غَيرُك، فكيفَ يَسمعُون مِنك إنذارًا وتحذيرًا، وقد كفروا بما عندهم مِن عِلمِك؟!

وقال أبو [٤] جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية، قال: نَزَلَتْ هاتان الآيتَان في قَادَة الأحزَاب، وهمُ الَّذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩] [٥].

والمعنىٰ الذي ذكَرْناه أوَّلًا وهو المَرْويُّ عن ابن عبَّاس في رواية عليِّ بن أبي طلحة أظهَر، ويُفسَّر ببقيَّة الآيات التي في معناها، والله أعلم.

وقد ذكر ابنُ أبي حاتمٍ هاهنا حديثًا، فقال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن عثمان بن صالح المصري، حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثني عبد الله بن المغِيرة، عن أبي الهيثم عن عَبد الله بن عَمرٍو، قال: قيل: يا رسُول الله، إنَّا نقرأُ مِن القرآن فنَرجُو، ونقرأُ فنكاد أن نَيأَس، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ»، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هَؤُلَاءِ أَهْلُ النَّارِ». قالوا: لسنَا منهم

---

(١) أي: يُهلكنك. «اللسان»: همد.

(٢) قال أبو بكر الجزائري: قد يقال: ما دام قد علم الله تعالىٰ أن بعضًا لا يؤمنون فلِمَ ينذرون؟ إذ إنذارهم مع العلم بأنه لا ينفعهم، تكليف بالمحال. والجواب: أن دعوة النبي ﷺ لكل أحد وهو ﷺ لم يعلم من كتب الله تعالىٰ عليه الشقاء ممن كتب له السعادة فلذا هو يدعو وينذر ومَنْ كان من أهل السعادة أجاب الدعوة ومَنْ لم يكن من أهلها رفضها ولم يجب.

(٣) لوحة (٣٦ ب).

(٤) في (ز): ابن.

(٥) مرسل: وفيه أبو جعفر الرازي: ضعيف.

يَا رسول الله؟ قال: «أَجَلْ»(١).

[وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ محلُّه مِن الإعراب أنَّه جملةٌ مؤكِّدةٌ للتي قبلها: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: هم كفَّار في كلا الحالين؛ فلهذا أكَّد ذلك بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويحتمل أَن يكون ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرًا؛ لأنَّ تقديره: إنَّ الذين كفروا لا يُؤمنون، ويكون قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ جملة معترضة، والله أعلم](٢)(٣).

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ(٤) وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

قال السُّدِّي: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أي: طبع الله، وقال قتادة في هذه الآية: استَحْوَذ عليهم الشَّيطان، إِذْ أطاعُوه، فختم اللهُ علىٰ قُلوبِهم وعلىٰ سَمعِهم وعلىٰ أبصَارِهم غشاوة، فهُم لا يُبصرون هدًىٰ ولا يَسمعُون ولا يَفقهون ولا يَعقِلون.

وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: [نُبِّئْتُ أَنَّ الذُّنوب علىٰ القَلب تحِفُّ بِهِ](٥) مِن كلِّ نَواحِيهِ حتَّىٰ تَلتقِي عليه، فَالتِقَاؤُها عليه: الطَّبع، والطَّبعُ: الخَتْم، قال ابن جريج: الختم علىٰ القَلب والسَّمع(٦).

قال ابن جُرَيْج: وحدَّثني عبد الله بن كَثيرٍ أَنَّه سَمِع مجاهدًا يقول: الرَّانُ(٧) أَيسرُ مِن الطَّبع، والطَّبعُ أَيسرُ مِن الأَقفَال، والأقفَال أشدُّ مِن ذلك كُلِّه(٨).

وقال الأعمش: أرَانا مجاهدٌ بِيَدِهِ فقال: كانوا يَرَوْن أَنَّ القلب في مثل هذه -يعني: الكفَّ- فإذا أَذنَب العَبدُ ذنبًا ضُمَّ مِنه، وقال بأصبعه(٩) الخِنصَر هكذا، فإذا أذنَب ضُمَّ. وقال بأصبع أُخرىٰ، فإذا أَذنب ضُمَّ. وقال بأُصبع أُخرىٰ وهكذا، حتىٰ ضَمَّ أصابِعَه(١٠) كُلَّها، قال: ثم يُطبع عَليه بطَابِعٍ(١١).

---

(١) ضعيف:رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٩)، وفيه عبد الله بن لهيعة: ثقة، إلا أنه اختلط بعد احتراق كتبه، وفيه أيضًا عثمان ابن صالح: فيه مقال، والحديث سبق قريبًا.

(٢)ما بين المعقوفتين زيادة من (ح).

(٣)ينظر: «الكشاف» (١/ ١٦٤).

(٤) قال أبو بكر الجزائري:تقديم السمع علىٰ البصر في عدة آيات من القرآن يفيد أن حاسة السمع أنفع من حاسة البصر، وهو كذلك والعقل أعظم من ذلك.

(٥)في (ز) و(ح): [الطبع ثبتت الذنوب علىٰ القلب فحفت به] والمثبت من «تفسير الطبري».

(٦)رواه ابن جرير (١/ ١١٢).

(٧)الران أو الرين: الطبع والدنس والصدأ الذي يعلو السيف والمرآة، والرين كالصدإ يغشي القلب. «اللسان»: رين.

(٨)انظر التعليق السابق.

(٩)أي :أشار.

(١٠)لوحة (٣٧أ).

(١١)رواه ابن جرير (١/ ١١٢) وإسناده صحيح.

وقال مجاهد: وكانوا يَرَوْن أنَّ ذلك: الرَّيْنَ.

ورواه ابن جرير[(١)]: عن أبي كُرَيْب، عن وَكِيع، عن الأعمش، عن مجاهد بنحوه[(٢)].

قال ابن جرير: وقال بعضُهم: إنَّما معنىٰ قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إخبارٌ مِن الله عن تكبُّرهم، وإعرَاضِهم عن الاسْتِماع لما دُعُوا إليه مِن الحقِّ، كما يُقال: إنَّ فلانًا لأصَمٌّ عَن هذا الكلَام، إذا امتنع من سماعه، ورَفع نفسه عَن تَفهُّمه تكبُّرًا.

قال: وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ الله قد أخبر أنَّه هو الذي ختم علىٰ قلوبهم وأسماعهم.

[(قلتُ): وقد أطنب الزَّمخشري في تقريرِ ما ردَّه ابن جرير هاهُنا وتأوَّل الآية مِن خمسة أوجهٍ وكلُّها ضعيفةٌ جدًّا، وما جرَّأه علىٰ ذلك إلا اعتزَاله؛ لأنَّ الختم علىٰ قلوبهم ومَنْعهَا مِن وصول الحقِّ إليها قبيحٌ عنده -تعالىٰ الله عنه في اعتقاده- ولو فَهِم قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وما أشبه ذلك مِن الآيات الدَّالَّة علىٰ أنَّه تعالىٰ إنَّما ختم علىٰ قُلوبهم وحالَ بينهم وبين الهُدىٰ جزاءً وِفاقًا علىٰ تمادِيهم في الباطل وتركهم الحقَّ، وهذا عدلٌ منه تعالىٰ حسنٌ وليس بقبيحٍ، فلو أحاط علمًا بهذا لما قال ما قال، والله أعلم.

قال القُرطبيُّ: وأجمعت الأمَّة علىٰ أنَّ الله ﷻ قد وصف نفسَه بالختم والطَّبع علىٰ قلوب الكافرين مجازاةً لكفرِهم كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فلا يؤمنون إلا قليلًا﴾ وذكر حديث تقليب القلوب: «**وَيَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ دِينِكَ**»[(٣)]، وذكر حديث حذيفة الَّذي في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ قال: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَىٰ القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءَ، حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ: عَلَىٰ أَبْيَضَ مِثْلَ الصَّفَاءِ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرِ أَسْوَدَ مُرْبَادًّ كَالكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا**» الحديث[(٤)]][(٥)].

قال [ابن جرير][(٦)]: والحقُّ عندي في ذلك ما صَحَّ بنظيرِهِ الخبرُ عَن رسول الله ﷺ، وهو مَا حدَّثنا به محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا صَفوَان بن عيسىٰ، حدَّثنا ابن عَجْلان، عن القَعقاع، عن أبي صالح، عن

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٦٧).

(٢) ابن جرير (١/ ١١٢) وإسناده صحيح.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجة (١٩٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢)، وابن حبان (٩٤٣) وله شواهد كثيرة عن أبي هريرة، وعائشة وأم سلمة وسبرة بن الفاكه، انظر: ابن أبي عاصم (٢١٩- ٢٢٥).

(٤) مسلم (١٤٤)، وأحمد (٥/ ٣٨٦، ٤٠٥).

(٥) زيادة من (ح).

(٦) زيادة من (ح).

أبي هُريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ[(١)] صُقِلَ قَلْبُهُ[(٢)]، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّىٰ تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][(٣)].

وهذا الحديثُ مِن هذا الوجه قد روَاه التِّرمذي والنَّسائي، عن قُتيبة، عن اللَّيث بن سعد، وابن ماجة عن هشام بن عمَّار عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم، ثلاثتُهم عن محمَّد بن عجلان به.

وقال التِّرمذي: حسنٌ صحيحٌ.

ثم قال ابن جرير[(٤)]: فأخبر رسولُ الله ﷺ أنَّ الذُّنوب إذا تتابعَتْ علىٰ القلوب أَغْلَقَتْها، وإذا أَغلَقَتْها أتاها حينئذٍ الخَتْم مِن قِبَل الله تعالىٰ والطَّبع، فلا يكون للإيمان إليها مَسلكٌ، ولا للكُفْر عنها مخلصٌ، فذلك هو الخَتْمُ والطَّبْع الذي ذكره الله في قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ نظيرَ الطَّبع والخَتْم علىٰ ما تُدْركُه الأبصارُ مِن الأوعيَة والظُّروف، التي لا يُوصَل إِلَىٰ ما فيها إلا بفضِّ ذلك عنها ثمَّ حَلِّها، فكذلك لا يصل الإيمان إلىٰ قُلوبِ مَن وصف الله أنَّه ختم علىٰ قُلوبهم وعلىٰ سَمْعِهم إلَّا بعد فضِّ خاتمه وحَلِّه رباطَه عنها.

واعلم أنَّ الوقف التَّام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ جملة تامَّة، فإنَّ الطَّبع يكون علىٰ القلب وعلىٰ السَّمع، والغشاوةُ -وهي الغطاء- تكون علىٰ البَصر، كما قال السُّدِّي في «تفسيره» عن أَبِي مالك، وعن أَبِي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مرَّة الهَمْداني، عن ابن مسعود، وعن أُناسٍ مِن أصحاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ يقول: فلا يَعقِلُون ولا يسمعون، ويقول: وجعل علىٰ[(٥)] أبصارهم غشَاوة، يقول: علىٰ أَعيُنِهم فلا يبصرون[(٦)].

قال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن سعد حدَّثنا أبي، حدَّثني عمِّي الحسين بن الحسن، عن أبيه، عن جدِّه، عن ابن عبَّاس: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ والغِشَاوةُ علىٰ أَبصَارِهم[(٧)].

---

(١) استعتب: طلب أن يُرضَىٰ عنه. «اللسان»: عتب.

(٢) أي: مُحي ما عليه وزال وانجلىٰ.

(٣) حسن: رواه ابن جرير الطبري (١/ ١١٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجة (٤٢٤٤)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٤١٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٧) ورجاله ثقات، عدا محمد بن عجلان: فهو صدوق، إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة. كما في «التقريب».

(٤) في «تفسيره» (١/ ٢٦٧).

(٥) لوحة (٣٧ ب).

(٦) الطبري (١/ ١١٥).

(٧) الطبري (١/ ١١٤).

وقال: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين -يعني: ابن داود- وهو سُنَيد، حدَّثني حجَّاج، وهو ابن محمَّد الأعور، حدَّثني ابن جريج قال: الخَتمُ علىٰ القَلب والسَّمع، والغِشاوَة علىٰ البَصَر، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشورىٰ: ٢٤]، وقال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣][١].

قال ابن جرير[٢]: ومِن نصبَ ﴿غِشَٰوَةً﴾ مِن قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٌ﴾ يُحتمل أنَّه نصبها بإضمارِ فِعْلٍ، تقديره: وجَعَل علىٰ أبصارهم غشاوةً، ويُحتمل أنْ يكون نصبُها علىٰ الاتباع، علىٰ محلِّ ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]، وقول الشاعر:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا ... حَتَّىٰ شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا[٣]

وقال الآخر:

وَرَأَيْتِ زَوْجَكِ فِي الوَغَىٰ ... مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحَا[٤]

تقديره: وسقيتها ماء باردًا، ومعتقِلًا رمحًا.

لمَّا تقدَّم وصفُ المؤمنين في صَدر السُّورة بأربعِ آياتٍ، ثم عرَّف حال الكافرين بهاتين الآيتَيْن، شرع تعالىٰ في بيانِ حالِ المنافِقين الَّذين يُظهِرُون الإيمانَ ويُبْطِنُون الكُفْر، ولمَّا كان أمرهُم يَشتَبِه علىٰ كثيرٍ مِن النَّاس أَطْنَبَ فِي ذِكرِهم بصفاتٍ مُتعَدِّدةٍ، كلٌّ منها نفاقٌ، كما أَنْزَل سورة (براءة) فيهم، وسورةَ (المنافقين) فيهم، وذكرهم في سُورة (النُّور) وغيرِها مِن السُّور، تعريفًا لأحوالهم لتُجْتَنَب، ويُجْتَنَب مَن تلبَّس بها أيضًا، فقال تعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾

النِّفاق: هو إظهارُ الخيرِ وإسرَار الشَّرِّ، وهو أنواع: اعتِقادِي: وهو الذي يُخلِّد صاحبَهُ في النَّار، وعَمليٌّ: وهو مِن أكبَر الذُّنوب، كما سيأتي تفصيلُهُ في موضِعِه، إن شاء الله تعالىٰ، وهذا كما قال ابنُ جُريج: المُنافقُ يُخالفُ قَوْلُه فِعْلَهُ، وسِرُّه علانيتَهُ، ومدخلُهُ مخرجَهُ، ومشهَدُهُ مَغِيبَه.

وإنَّما نزلتْ صِفات المنافِقين في السُّور المدنيَّة؛ لأنَّ مكَّة لم يكُن فيها نفاقٌ، بل كان خلافُه، مِن النَّاس

---

(١) الطبري (١/ ١١٤).
(٢) في «تفسيره» (١/ ٢٧٠).
(٣) البيت في «تفسير الطبري» (١/ ٢٧١) و«اللسان»: علف، و«خزانة الأدب» (٣/ ١٤٠) بلا نسبة.
(٤) البيت في «تفسير الطبري» (١/ ١٤٠) و (٢٧١) بلا نسبة، ونسبه العلامة عبد السلام هارون لعبد الله بن الزبعري. ينظر: «ديوان الحماسة» بشرح المرزوقي (٣/ ١١٤٧) ط: هارون.

مَن كان يُظهر الكُفر مُسْتكْرَهًا، وهُو في الباطن مُؤْمِنٌ، فلمَّا هاجر رسولُ الله ﷺ[١] إلىٰ المدينَة، وكان بها الأنصارُ مِن الأوس والخَزْرَج، وكانوا في جَاهِلِيَّتِهم يعبدون الأصنَام، علىٰ طَرِيقَةِ مُشركي العرب، وبها اليهود مِن أهل الكتاب علىٰ طريقة أَسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظَة حُلفاء الأوس، فلمَّا قَدِم رسول الله ﷺ المدينةَ، وأسلم مَن أَسلَم مِن الأنصار مِن قَبيلَتَي الأوس والخَزْرَج، وقلَّ مَن أسلم مِن اليَهودِ إلَّا عبدَ الله بن سَلام ﷺ ولم يكُن إذ ذاك نفاقٌ أيضًا؛ لأنَّه لم يَكُن للمُسلمِين بَعْدُ شوكةٌ تُخَاف، بل قد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَادعَ اليهودَ وقبائلَ كثيرةً مِن أحياء العَرَب حوالَي المدينة، فلمَّا كانت وقعة بدر العُظْمَىٰ وأظهر الله كلمتَه، وأعلىٰ الإسلامَ وأهلَهُ، قال عبد الله بن أُبَيّ ابنِ سلولٍ، وكان رأسًا في المدينَةِ، وهو مِن الخزرج، وكان سيِّد الطَّائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عَزموا علىٰ أن يملِّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأَسلَمُوا، واشتغلوا عنه، فبَقِيَ فِي نَفسِه مِن الإسلام وأهله، فلمَّا كانت وقعةُ بدرٍ قال: هذا أمرٌ قد تَوَجَّه[٢] فأظهر الدُّخول في الإسلام، ودخل معهُ طوائفُ ممن هو علىٰ طريقته ونِحْلَتِهِ، وآخرون مِن أهل الكتابِ، فمِن ثَمَّ وُجِد النِّفاق في أهلِ المدينَةِ ومَن حَولهَا من الأعرابِ، فأمَّا المهاجرُون فلَم يكُن فيهم أحدٌ؛ لأنه لم يكن أحدٌ يُهاجر مكرَهًا، بل يُهاجر ويتركُ مالَه، وولده، وأرضه رغبةً فيما عندَ الله في الدَّار الآخرةِ.

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكْرِمة، أو سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المنافقين مِن الأوس والخزرج ومَن كان علىٰ أمرِهِم.

وكذا فسَّرها بالمنافقين أبو العالية، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي[٣].

ولهذا نبَّه الله سبحانه علىٰ صفات المنافقين؛ لئلَّا يغترَّ بظاهرِ أَمرِهم المؤمنون، فيقع بذلك فسادٌ عريضٌ مِن عدم الاحتراز مِنهُم، ومِن اعتقادِ إيمانِهِم، وهُم كفَّارٌ في نَفس الأمر، وهذا مِن المحذُورَات الكِبارِ، أَن يُظَنَّ بأهلِ الفُجور خَيرٌ، فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يقولون ذلك قولًا ليس وراءَهُ شيءٌ آخر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ[٤] قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١] أي: إنَّما [يقولون][٥] ذلك إذا جاؤُوك فقط، لا في نفس الأمر؛ ولهذا يُؤكِّدُون في الشَّهادة بـ«إنَّ» ولَام التَّأكيد في خبرها؛ كما أكَّدوا قولهم:

---

(١) لوحة (٣٨ أ).

(٢) يعني :تولىٰ وانقضىٰ؛ ويعني بالأمر :ملكه.

(٣) رواه الطبري (١/ ١١٦)، وابن أبي حاتم (١٠٤)، ومحمد بن أبي محمد: مجهول.

(٤) لوحة (٣٨ ب).

(٥) في (ز): «تقول».

﴿بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وليس الأمر كذلك، كما أكْذَبهم اللهُ في شهادتهم، وفي خَبَرِهم هذا بالنِّسبة إلىٰ اعتقادِهم، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وبقوله ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بإظهارهم ما أظهروه مِن الإيمان مع إِسرَارهم الكفرَ، يَعتقدُون بجهلهم أنَّهم يَخدعُون الله بذلك، وأنَّ ذلك نافعُهم عندَهُ، وأنَّه يَرُوجُ عليه كما يَرُوجُ علىٰ بعضِ المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم علىٰ اعتِقَادِهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يَغُرُّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلَّا أنفسَهُم، وما يشعرون بذلك مِن أنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

ومن القُرَّاء من قرأ: «وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ»، وكلا القِراءَتين تَرجعُ إلىٰ معنًىٰ واحدٍ(١).

قال ابن جرير: فإن قال قائلٌ: كيف يكون المنافقُ لله وللمُؤمنين مخادعًا، وهو لا يُظهِرُ بلسانه خلاف ما هُو لَهُ مُعْتَقِدٌ إلَّا تُقْيَةً؟

قيل: لا تمتنع العرب أَن تُسمِّي مَن أَعْطَىٰ بلسانه غير الَّذي في ضميره تُقْيَة -لينجو ممَّا هو له خائفٌ- مخادعًا، فكذلك المنافق، سُمِّي مخادعًا لله وللمُؤمنين، بإظهارِهِ ما أظهر بلسانه تُقْيَةً مما تخلَّص به مِن القتل والسِّباء والعذَاب العاجل، وهو لغير ما أظهر مُسْتَبْطِنٌ، وذلك من فعلِه -وإن كان خِداعًا للمؤمنين في عاجل الدُّنيا- فهو لنفسه بذلك مِن فعله خَادِعٌ؛ لأنَّه يُظْهِر لها بفعله ذلك بها أنَّه يعطِيها أمنيَّتها، ويُسقيها كأس سُرُورِها، وهو مُورِدُها حياضَ عَطَبِهَا، ومُجرِّعُهَا بها كأسَ عَذَابِها، ومُزِيرُها مِن غضب الله وأَليم عِقابِه ما لا قِبَلَ لها به، فذلك خَديعتُه نفسه، ظنًّا منه -مع إساءته إليها في أمر معادها- أنَّه إليها محسنٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعلامًا منه عِبادَه المؤمنين أنَّ المنافقين بإساءتهم إلىٰ أنفسِهم في إسْخَاطهم(٢) عليها ربَّهم بكفرهم، وشكِّهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دَارِين، ولكنَّهم علىٰ عَمْيَاء مِن أمرهم مُقِيمُون.

وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا عليُّ بن المبارك، فيما كتب إليَّ، حدَّثنا زيد بن المبارك، حدَّثنا محمد ابن ثَوْر، عن ابن جُرَيْج، في قوله تعالىٰ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» يُريدون أن يُحرِزُوا بذلك دماءَهم وأموالَهُم، وفي أَنفُسِهم غير ذلك(٣).

وقال سعيد، عن قتادة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ

---

(١) متواترة: قرأ (وَمَا يُخَادِعُونَ) نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَوَافَقَهُمُ الْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَمَا يَخْدَعُونَ).
(٢) لوحة (٣٩أ).
(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٠٧).

ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ نعتُ المنافق عند كثيرٍ: خَنِعُ الأخلاق يُصدِّق بلسَانِه ويُنكِرُ بقلبه ويُخَالِف بعمله، يُصْبِح علىٰ حالٍ ويُمْسِي علىٰ غَيْرِه، ويُمْسِي علىٰ حالٍ ويُصْبِح علىٰ غيره، ويتكفَّأُ تكفُّأَ السَّفِينة كلما هبَّت ريح هبَّ معها.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[1] بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قال السُّدِّي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مرَّة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أُناس مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ في هذه الآية: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال: شَكٌّ، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكًّا[2].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عِكْرِمة، أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال: شكٌّ.

وكذلك قال مجاهد، وعكرمةُ، والحسن البصريُّ، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس، وقتادة.

وعن عِكرمة، وطاوُس: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ يعني: الرِّياءَ.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال: نِفَاقٌ ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: نفاقًا، وهذا كالأول.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال: هذا مَرَضٌ في الدِّين، ولَيس مرضًا في الأجساد، وهمُ المنافقون. والمرضُ: الشَّك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجسًا، وقرأ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] قال: شرًّا إلىٰ شَرِّهم وضلالةً إلىٰ ضلالتهم.

وهذا الذي قاله عبد الرحمن: حَسَنٌ، وهو الجزاء مِن جنس العمل، وكذلك قاله الأوَّلون، وهو نظيرُ قوله تعالىٰ أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

[وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ وقُرِئَ: «يُكَذِّبُونَ»[3][4]، وقد كانوا مُتَّصِفين بهذا وهذا، فإنَّهم كانوا كَذَبَةً يُكذِّبون بالحقِّ يجمعون بين هذا وهذا. وقد سُئِل القرطبي وغيره مِن المفسِّرين عن حكمةِ كفِّهِ عليه السلام

---

(١) قال القاسمي رحمه الله: قال في «المحكم»: الأليم من العذاب الذي يبلغ إيجاعهُ غاية البلوغ. ومنه يُعلم وجه إيثاره في عذاب المنافقين علىٰ العظيم المتقدم في وصف عذاب الكافرين ويؤيده: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥].

(٢) رواه الطبري (١/ ١٢١ - ١٢٢) وروىٰ الإسناد الثاني ابن أبي حاتم (١١٢).

(٣) قال أحمد شاكر رحمه الله: أي بفتح الياء مع سكون الكاف، وبضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال المكسورة، وكلاهما من القراءات السبعة.

(٤) متواترة: قرأ (يَكْذِبُونَ) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يُكَذِّبُونَ).

عَن قَتْلِ المنافِقين مع عِلْمِه بأعيانِ بَعْضِهِم، وذكروا أجوبةً عن ذلك مِنهَا ما ثبت في «الصَّحِيحَيْن»: أنه قال لعمر: «أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ العَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1]، ومعنىٰ هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغيُّرٌ لكثيرٍ من الأعراب عن الدُّخول في الإسلام ولا يَعلمُون حكمة قتلِهِ لهُم، وأنَّ قتله إيَّاهم إنَّما هو علىٰ الكُفْر، فإنَّهم إنَّما يأخذونه بمجرَّد ما يَظْهَرُ لهم فيقولون: إنَّ محمَّدًا يقتل أصحابَهُ، قال القرطبي: وهذا قولُ عُلمائِنا وغيرهم كما كان يُعطِي المؤلَّفة قلوبهم مع علمه بشَرِّ اعتقادِهِم. قال ابن عطيَّة: وهي طريقةُ أصحاب مالكٍ، نصَّ عليه محمَّد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهري وابن المَاجشون. ومنها: ما قال مالك: إنَّما كفَّ رسول الله ﷺ عَن المنافقين ليُبيِّنَ لأُمَّته أنَّ الحاكم لا يَحكُم بِعلمِهِ.

قال القُرطبيُّ: وقد اتَّفق العُلماءُ عَن بَكرةِ أَبِيهم علىٰ أنَّ القاضي لا يَقتلُ بعلمِهِ، وإن اختلفوا في سائر الأحكام، قال: وَمِنْهَا ما قال الشَّافعي: إنَّما منعَ رسولُ الله ﷺ مِن قَتْلِ المنافقين ما كانوا يُظهِرونه مِنَ الإسلام مع العِلمِ بنفاقهم؛ لأنَّ ما يُظهرونه يَجُبُّ ما قبله. ويُؤيِّد هذا قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث المجمَع علىٰ صحَّتِهِ في «الصَّحيحين» وغيرهما: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ ﷻ»[2]. ومعنىٰ هذا: أنَّ مَن قالها جَرت عليه أحكام الإسلام ظاهرًا، فإن كان يَعتَقِدُها وجدَ ثواب ذلك في الدَّار الآخرة، وإن لم يعتقِدْها لم ينفعه في الآخِرَة جريان الحكم عليه في الدُّنيا، وكونه كان خَليطَ أهلِ الإيمان ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الآية [الحديد: ١٤]، فهُم يُخالطونهم في بعض المحشر، فإذا حقَّت المحقوقيَّة تميَّزوا منهم وتخلَّفوا بعدهُم ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] ولم يُمكنْهُم أن يسجدوا معهم كما نطَقَتْ بذلك الأحاديث، ومِنهَا ما قاله بعضهم: أنَّه إنَّما لم يَقتُلْهُم؛ لأنَّه كان يخاف مِن شَرِّهم مع وجوده ﷺ بين أَظْهُرِهم يتلو عليهم آياتِ الله مبيِّنات، فأمَّا بعده فيُقْتَلُون إذا أَظْهَرُوا النِّفاقَ وَعَلِمَهُ المُسْلِمُون، قال مالك: المنافِقُ في عهد رَسول الله ﷺ هو: الزِّنديقُ اليوم. قُلتُ: وقد اختلف العلماء في قَتلِ الزِّندِيق إذا أظهر الكُفْر هل يُستتَاب أم لا. أو يُفرَّق بينَ أَن يكون دَاعيةً أم لا، أو يَتكرَّر مِنه ارتدَادُه أم لا، أو يكون إسلامُه ورجوعُه مِن تلقاءِ نفسِهِ أو بعد أن ظَهَرَ عليه؟ علىٰ أقوالٍ موضع بَسطِها وتقريرِها وعزوِها كتاب الأحكام.

(تنبيهٌ) قول مَن قال: كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعلَمُ أعيان بعض المنافقين إنَّما مُستنده حديث حُذيفة بن اليمان[3] في تسميةِ أولئك الأربعة عشر مُنافقًا في غزوة تبوك الَّذين هَمُّوا أن يَفْتِكُوا برسول الله ﷺ في ظَلْمَاء اللَّيل عند عَقَبَةٍ هُناكَ؛ عزمُوا علىٰ أن يُنَفِّرُوا به النَّاقة ليَسقُط عَنهَا فأوحىٰ اللهُ إليهِ أمرَهُم فأَطْلَع

---

(١) البخاري (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤) نحوه، وأحمد (٣/ ٣٣٨).

(٢) البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

(٣) رواه مسلم (٢٧٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٩٠).

علىٰ ذلك حُذيفَةَ. ولعلَّ الكفَّ عَن قتلهم كان لِمَدْرَكٍ مِن هذه المَدارك أو لغيرها والله أعلم.

فأمَّا غيرُ هَؤُلاء فقد قال تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ ففيها دليلٌ علىٰ أنَّه لم [يُغْرَ][(١)] بهم ولم [يدل][(٢)] علىٰ أعيانهم وإنَّما كانت تُذكَر له صفاتهم فيتوسَّمُها في بعضهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ وقد كان مِن أشهَرِهم بالنِّفاق عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول، وقد شَهِد عليه زيدُ بن أرقم بذلك الكلام الَّذي سبق في صِفَات المنافقين ومع هذا [لمَّا مَات صلَّىٰ عليه رسولُ الله ﷺ وشَهِدَ دَفْنَه كما يفعل ببقيَّة المسلمين، وقد عَاتبَهُ عُمرُ بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال: «إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ العَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» وفي روايةٍ في الصَّحيح: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ» وفي روايةٍ: «لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ لَوْ زِدْتُ عَلَىٰ السَّبْعِينَ يَغْفِرُ اللهُ لَهُ لَزِدْتُ»[(٣)]][(٤)].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قال السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة الطيب الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أُناسٍ مِن أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أمَّا لا تُفسِدُوا في الأرض، قال: الفساد هو الكُفرُ، والعَمَلُ بالمَعْصِية[(٥)].

وقال أبو جعفر، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: يعني: لا تَعْصُوا في الأرضِ، وكان فسادهم ذلك معصيةُ الله؛ لأنَّه مَن عصىٰ الله في الأرضِ أو أَمَرَ بمعصيةِ الله، فقد أَفْسَدَ في الأرض؛ لأنَّ صلاح الأرضِ والسماءِ بالطَّاعة.

وهكذا قال الرَّبيع بن أنس، وقتادة.

وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: إِذَا رَكِبُوا معصيةَ الله، فقِيلَ لهم: لا تفعَلُوا كذا وكذا، قالوا: إنَّما نحنُ علىٰ الهُدَىٰ مُصْلِحُون.

وقد قال وَكِيع، وعيسىٰ بن يُونس، و[عثَّام][(٦)] بن عليٍّ، عن الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن

---

(١) معناها: لم يَعْلمهم، وقيل: لم يُسلَّط عليهم.

(٢) في (ز): (يدرك).

(٣) البخاري (١٣٦٦).

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة من (ح).

(٥) الطبري (١/ ١٢٥).

(٦) في (ز): غنام.

عبَّاد بن عبد الله الأسدي، عن سلمان الفارسي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال سلمان: لم يَجِئْ أهل هذه الآية بَعْدُ[١].

وقال ابن جرير: حدَّثني أحمد بن عثمان بن حَكيم، حدَّثنا عبد الرحمن بن شَريك، حدَّثني أبي، عن الأعمش، عن زيد بن وهب وغيره، عن سَلْمان في هذه الآية، قال: مَا جَاء هَؤُلاءِ بَعْدُ[٢].

قال ابن جرير: يُحتَمَل أنَّ سَلمان أراد بهذا أنَّ الذين يَأتُون بهذه الصِّفة أعظم فسادًا مِن الَّذين كانوا في زمان النَّبيِّ ﷺ، لا أنَّه عَنَىٰ أنَّه لم يَمْضِ ممَّن تلك صفته أحدٌ.

قال ابن جرير: فأهلُ النِّفاق مُفسِدُون في الأرض بِمعْصِيَتِهم فيها ربَّهم، ورُكوبِهم فيها ما نَهاهم عَن رُكوبِهِ، وتضيِيعِهم فَرائِضَه، وشكِّهم في دِينِهِ الذي لا يُقْبَلُ مِن أحدٍ عَمَلٌ إلَّا بالتَّصديق به والإيقان بحقيقته، وكذِبِهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مُقِيمُون من الشَّكِّ والريب، ومُظاهَرَتِهم أهلَ التَّكذيب بالله وكتبه ورُسُلِه علىٰ أولياء الله، إذَا وجدوا إلىٰ ذَلِكَ سَبيلًا. فذلك إفساد المنافقين[٣] في الأرض، وهم يَحْسَبُون أنَّهم بِفِعْلِهم ذلك مُصْلِحُون فيها.

وهذا الَّذي قاله حسن، فإنَّ مِن الفساد فِي الأرض اتِّخاذ المؤمِنين الكافرين أولياءَ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] فقطَع اللهُ المُوَالَاة بين المُؤمِنين والكَافِرينَ كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] ثمَّ قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] فالمُنافق لمَّا كان ظاهِرُهُ الإيمان اشْتَبَه أمره علىٰ المؤمنين، فكأنَّ الفساد مِن جهة المنافق حاصلٌ؛ لأنَّه هو الذي غَرَّ المؤمنين بقولِهِ الذي لا حقيقةَ له، ووَالَىٰ الكافرين علىٰ المؤمنين، ولو أنَّه اسْتَمَرَّ علىٰ حالته الأُولىٰ لكان شرُّه أخفَّ، ولو أَخْلَصَ العمل لله وتطابق قولُهُ وعَمَلُهُ لأَفْلَح وَأَنْجَحَ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: نُريد أن نُدارِي الفَرِيقَيْن مِن المؤمِنين والكافرين، ونَصْطَلِح مع هؤُلاء وهؤُلاء، كما قال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: إنَّما نُريد الإصلاحَ بَين الفَريقَيْن مِن المؤمنين وأهلِ الكتاب[٤]. يقول الله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: أَلَا

---

(١) رواه الطبري (١/ ١٢٥)، وابن أبي حاتم (١٢٣) وفيه عباد بن عبد الله الأسدي: ضعفه البخاري وابن المديني، لكن تابعه زيد بن وهب كما في الرواية التي بعده. رواه الطبري (١/ ١٢٥) وفيه عبد الرحمن بن شريك. قال أبو حاتم: واهي الحديث. وبمجموع الطريقين فالإسناد حسن.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) لوحة (٤٠ أ).

(٤) رواه الطبري (١/ ١٢٦)، وابن أبي حاتم (١٢٤).

إنَّ هذا الذي يَعتَمِدُونه ويَزْعُمُون أنَّه إصلاح هو عينُ الفساد، ولكِن مِن جَهْلِهم لا يَشْعُرون بكونه فسادًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول الله تعالىٰ: وإذا قِيل للمنافقين: ﴿ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: كإيمان النَّاس بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ والبعثِ بعد الموت والجنَّةِ والنَّارِ وغير ذلك، ممَّا أخبر المؤمنين بِهِ وعَنْهُ، وأطيعوا الله ورسوله في امتثالِ الأوامِرِ وتَرْكِ الزَّوَاجِرِ: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعنون -لعنهم الله- أصحابَ رسول الله ﷺ رَضِي الله عَنهُم، قاله أبو العالية والسُّدِّي في «تفسيره»، بسنده عن ابن عبَّاس وابن مسعودٍ وغير واحدٍ من الصَّحابة[1]، وبه يقول الرَّبيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أَنَصِيرُ[2] نَحْنُ وهؤلاء بمنزلةٍ واحدةٍ وعلىٰ طريقةٍ واحدةٍ وهُم سُفَهَاء!!

والسُّفهاء: جمع سَفيهٍ، كما أنَّ الحكماء جمع حكيم، والحُلماء جمع حَليم، والسَّفيه: هو الجاهل الضَّعيف الرَّأي القَليلُ المعرِفَة بمواضع المصَالِح والمضَارِّ؛ ولهذا سَمَّىٰ الله النِّساء والصِّبيان: سُفهَاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] قال عامَّة علماء السَّلف: هم النِّساء والصِّبيان.

وقد تولَّىٰ الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كُلِّها، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فأَكَّدَ وحصر السَّفاهَة فيهم.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[3] يعني: وَمِن تمام جَهْلِهم أنَّهم لا يعلمون بحالهم في الضَّلالة والجهل، وذلك أَرْدَىٰ لهم وأبلغُ في العمىٰ، والبُعد عَن الهدىٰ.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقولُ الله تعالىٰ: وإذا لَقِي هؤلاء المنافقُون المؤمنين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: أَظْهَرُوا لهمُ الإيمان والمُوالَاةَ والمُصَافَاة، غُرُورًا منهم للمُؤمنين ونِفاقًا ومُصَانَعَةً وتُقْيَةً، ولِيَشركوهم فيما أصابوا مِن خَيرٍ ومَغْنَمٍ، ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ يعني: وإذا انصرفوا وذهبوا وخَلَصُوا إلىٰ شياطينهم. فضَمَّن ﴿خَلَوْا۟﴾

---

(١) الطبري (١/ ١٢٨).

(٢) لوحة (٤٠ ب).

(٣) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: فإن قيل: ما الفرق بين قوله تعالىٰ هنا: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالىٰ فيما سبق: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾؟
فالجواب: أن الإفساد في الأرض أمر حسي يدركه الإنسان بإحساسه، وشعوره؛ وأما السفه فأمر معنوي يدرك بآثاره، ولا يُحَسُّ به نفسِه.

معنىٰ انْصَرَفُوا؛ لِتَعْدِيَتِهِ بـ«إِلَىٰ»؛ لِيَدُلَّ علىٰ الفعل المضمر والفعل الملفوظ به. ومِنْهُم مَن قال: «إِلَىٰ» هنا بمعنىٰ «مَعَ»، والأوَّل أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير.

وقال السُّدِّي عن أبي مالك: ﴿خَلَوْا﴾ يعني: مَضَوْا، و ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾ يعني: سَادَتَهم وكُبَراءهم ورُؤَساءهم مِن أحبار اليهود ورُءُوس المشركين والمنافقين.

قال السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود، وعَن ناسٍ مِن أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ يعني: هم رُءُوسهم مِن الكفر[1].

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: وإِذَا خَلَوْا إلىٰ أصحابهم، وهم شَياطِينهم.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عِكْرِمة أو سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ مِن يهودٍ، الَّذين يأمُرُونَهُم بالتَّكذيب وخلافِ ما جاء به الرَّسول.

وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ إلىٰ أصحابهم مِن المنافقين والمشركين.

وقال قتادة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ قال: إلىٰ رُءوسهم، وقَادَتِهم في الشِّرك والشَّر.

وبِنَحْو ذلك فسَّره أبو مالك، وأبو العالية، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس.

قال ابن جرير: وشياطينُ[2] كلِّ شيءٍ مَرَدَتُه، وتكون الشياطين مِن الإنس والجنِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي «المسند» عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ». فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نَعَمْ»[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ قال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة، أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس؛ أي: إنَّا علىٰ مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: إنَّما نحن نستهزئُ بالقوم ونَلعَبُ بهم[4].

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: قالوا: إنَّما نحن مُستهزِئُون ساخِرُون بأصحاب محمَّد ﷺ.

وكذلك قال الرَّبيع بن أنس، وقتادة.

وقوله تعالىٰ جوابًا لهم ومقابلةً علىٰ صنيعهم: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقال ابن جرير: أخبر الله تعالىٰ أنَّه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ

---

(١) الطبري (١/ ١٣٠)، وانظر: ابن أبي حاتم (١٣٧).

(٢) لوحة (٤١ أ).

(٣) تقدم. انظر: رقم (٤١) من سورة الفاتحة.

(٤) رواه الطبري (١/ ١٣١)، وابن أبي حاتم (١٤١).

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية [الحديد: ١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. قال: فهذا وما أشبهه، مِن استهزاء الله -تعالىٰ ذكره- وسُخْرِيَّتِه ومَكْرِه وخَدِيعَتِه للمنافقين، وأهل الشِّرك به عند قائل هذا القَوْل، ومُتَأَوِّل هذا التأويل.

قال: وقال آخرون: بل استهزاؤه بهم تَوْبِيخُه إيَّاهم، ولَوْمُه لهُم علىٰ ما رَكِبُوا مِن مَعَاصِيه، والكفر به.

قال: وقال آخرون: هذا وأمثاله علىٰ سَبِيل الجواب؛ كقول الرَّجل لمن يخدعه إذا ظَفَر به: أنا الذي خَدَعْتُكَ. ولم تكن منه خديعةٌ، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه، قالوا: وكذلك قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران] و﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ علىٰ الجواب، والله لا يكون منه المَكْرُ ولا الهُزْءُ؛ والمعنىٰ: أنَّ المكر والهُزْءَ حَاقَ بهم.

وقال آخرون: قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] و﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وما أشبه ذلك، إخبارٌ مِن الله تعالىٰ أنَّه يُجَازِيهم جَزَاءَ الاسْتِهْزَاء، ويُعاقبهم عقوبةَ الخِدَاع[(١)] فأخرج خبرَه عن جَزَائِه[(٢)] إيَّاهم وعقابه لهم مَخْرَج خبره عَن فِعْلِهِم الَّذي عليه استحقُّوا العقاب في اللَّفظ، وإن اختلف المعنيَان كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورىٰ: ٤٠] وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فالأوَّل ظلم، والثَّاني عدلٌ، فهما وإن اتَّفق لفظاهما فقد اختلف معناهُما.

قال: وإلىٰ هذا المعنىٰ وَجَّهوا كل مَا في القرآن مِن نظائر ذلك.

قال: وقال آخرون: إنَّ معنىٰ ذلك: أنَّ الله أخبر عن المنافقين أنَّهم إذا خَلَوا إلىٰ مَرَدَتِهم قالوا: إنَّا معكم علىٰ دِينِكُم، في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم -مِن قولنا لهم: [صَدَّقْنا بمحمَّد ﷺ وما جاء به][(٣)] - مُسْتَهْزِئُون؛ فأخبر الله تعالىٰ أنه يَسْتَهْزِئ بهم، فيظهر لهم مِن أحكامه في الدُّنيا؛ يعني: مِن عصمة دِمَائِهم وأموالهم خلافَ الذي لهم عنده في الآخرة؛ يَعْنِي: مِن العذاب والنَّكال.

ثمَّ شرع ابن جرير يُوَجِّهُ هذا القول ويَنْصُرُهُ؛ لأنَّ المكر والخداع والسُّخرية علىٰ وجه اللَّعب والعبث مُنْتَفٍ عن الله ﷻ بالإجماع، وأمَّا علىٰ وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يَمْتَنِع ذلك.

---

(١) لوحة (٤١ ب).

(٢) في (ز): جوابه.

(٣) زيادة من (ح).

قال: وبِنَحْو ما قُلْنا فيه رُوِيَ الخبر عن ابن عبَّاس: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا عثمان، حدَّثنا بِشر، عن أبي رَوْق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ قال: يَسْخَرُ بهم للنِّقْمة مِنهُم(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال السُّدِّي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن أُناسٍ من الصَّحابة قالوا: يَمُدُّهم(٢): يُمْلِي لَهُم(٣).

وقال مجاهد: يَزيدُهم [وقال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: كُلَّما أَحْدَثُوا ذنبًا أحدثَ نِعْمَة هي في الحقيقة نِقْمَةٌ، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾](٤).

قال ابن جرير: والصَّواب يَزيدُهم علىٰ وجهِ الإملاء والتَّرك لهم في عُتُوِّهم وتَمَرُّدهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

والطُّغيان: هو المجاوزَةُ في الشَّيء؛ كما قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ في كُفْرِهم يَتَرَدَّدُون(٥).

وكذا فسَّره السُّدِّي بسنده عن الصَّحابة، وبه يقول أبو العالية، وقتادة، والرَّبيع بن أنس، ومجاهد، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد: في كُفْرِهم وضَلالَتِهم(٦).

قال ابن جرير: والعَمَهُ: الضَّلال، يُقال: عَمِهَ فُلانٌ يَعْمَهُ عَمَهًا وعُمُوهًا: إذا ضلَّ.

قال: وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ في ضَلالِهم وكُفْرِهم الذي قد غَمَرَهُم دَنَسُه، وعَلاهُم رِجْسُه، يتردَّدُون حَيارَىٰ ضُلَّالًا لا يَجدُون إلىٰ المخرجِ منه سَبِيلًا؛ لأنَّ الله تعالىٰ قد طَبَع علىٰ قلوبهم وخَتَم عليها، وأَعْمَىٰ أبصارهم عَن الهُدىٰ وأغشاها، فلا يُبْصِرُون رُشْدًا، ولا يَهْتَدُون سَبيلًا.

---

(١)رواه الطبري (١/ ١٣٤).

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله: اعلم أن بين «يَمد» الثلاثي، و«يُمد» الرباعي فرقًا؛ فالغالب أن الرباعي يستعمل في الخير، والثلاثي في الشر؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ [مريم: ٧٩] : وهذا في الشر؛ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الطور: ٢٢] : وهذا في الخير؛ وهنا قال تعالىٰ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: فهو في الشر...

فإن قال قائل: كيف يعرف الفرق بين النعم التي يجازىٰ بها العبد، والنعم التي يستدرج بها العبد؟

فالجواب: أن الإنسان إذا كان مستقيمًا علىٰ شرع الله فالنعم من باب الجزاء؛ وإذا كان مقيمًا علىٰ معصية الله مع توالي النعم فهي استدراج.

(٣)رواه الطبري (١/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم (١٤٤).

(٤)زيادة من (ح).

(٥)الطبري (١/ ١٣٦).

(٦)لوحة (٤٢ أ).

[وقال بَعضُهم: العَمَىٰ في العَيْن، والعَمَهُ في القَلْب، وقد يُسْتَعْمَل العمىٰ في القَلْب أيضًا؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ويقال: عَمِهَ الرَّجُلُ يَعْمَهُ عُمُوهًا فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ، وجمعهُ عُمَّهٌ، وذَهَبَتْ إِبِلُهُ العَمْهَاء: إذا لم يَدْرِ أين ذهبت][١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

قال السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالكٍ وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس ، وعن مُرَّةَ، عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصَّحابة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ قال: أَخذُوا الضَّلالة وتَركُوا الهدىٰ[٢].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عِكْرِمَة، أو عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: الكفر بالإيمان[٣].

وقال مجاهد: آمَنُوا ثُمَّ كَفرُوا.

وقال قَتادةُ: اسْتَحَبُّوا الضلالة علىٰ الهُدىٰ[٤].

وهذا الذي قاله قَتادة يُشْبِهُهُ في المعنىٰ قوله تعالىٰ في ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وحاصل قول المفسِّرين فيما تقدَّم: أنَّ المنافقين عَدَلوا عن الهدىٰ إلىٰ الضَّلال، واعْتَاضُوا عن الهدىٰ بالضَّلالة، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بذلوا الهُدىٰ ثمنًا للضَّلالة، وسواءٌ في ذلك مَن كان مِنهُم قد حصل له الإيمان ثمَّ رجع عنه إلىٰ الكُفْر، كما قال تعالىٰ فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، أو أنَّهم استحبُّوا الضَّلالة علىٰ الهُدىٰ، كما قد يكون حالُ فريقٍ آخر منهم، فإنهم أنواعٌ وأقسامٌ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [أي: ما رَبِحَتْ صَفْقَتُهُم في هذه البَيْعَةِ، ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾][٥] أي: رَاشِدِين في صَنِيعِهِم ذلك.

قال ابن جرير: حدَّثنا بِشر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) الطبري (١/ ١٣٧).

(٣) الطبري (١/ ١٣٧)، وابن أبي حاتم (١٥٢).

(٤) قال السعدي رحمه الله: وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة، التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدىٰ الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدىٰ رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وهذه صفقتهم فبئس الصفقة.

(٥) زيادة من (ح).

فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ قد -والله- رَأَيْتُمُوهم خرجوا مِن الهدىٰ إلىٰ الضَّلالة، ومِن الجماعة إلىٰ الفُرْقَة، ومن الأَمْن إلىٰ الخوف، ومن السُّنَّة إلىٰ البدعة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة بمثله سواء[١].

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

[يقال: مَثَلٌ ومِثْلٌ ومَثِيلٌ أيضًا، والجمع أمثال، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]][٢].

وتقريرُ هذا المثل: أنَّ الله سبحانه شبَّههم في اشترائِهِم الضَّلالة بالهدىٰ، وصَيْرُورَتُهم بعد التَّبصرة إلىٰ العَمَىٰ، بمَنِ اسْتَوْقَد نارًا، فلما أضاءت مَا حوله وانتفع بها وأَبْصَر بها ما عَن يَمِينِه وشماله، وتَأَنَّس بها فبَيْنَا هو كذلك إذْ طُفِئَتْ نارُه، وصار في ظلام شديدٍ، لا يُبْصِر ولا يَهْتَدِي، وهو مع ذلك أصمُّ لا يسمع، أبكمُ لا يَنْطِق، أعمىٰ لو كان ضياءً لما أَبْصَر؛ فلهذا لا يرجع إلىٰ ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافِقُون في استبدالهم الضَّلالة عوضًا عن الهُدىٰ، واستحبابهم الغَيَّ علىٰ الرُّشْدِ. وفي هذا المثل دلالة علىٰ أَنَّهم آمنوا ثمَّ كفروا، كما أخبر عنهم تعالىٰ في غير هذا الموضع، والله أعلم.

[وقد حكىٰ هذا الذي قُلناه فخرُ الدِّين الرَّازي في «تفسيره» عن السُّدِّي ثم قال: والتَّشبيه هاهنا في غاية الصِّحَّة؛ لأنَّهم بإيمانِهِم اكتسبوا أوَّلًا نورًا ثم بِنفاقِهِم ثانيًا أبطلوا ذلك النُّور فوقعوا في حِيرةٍ عظيمةٍ، فإنَّه لا حِيرَةَ أعظم مِن حِيرَة الدِّين][٣].

وزعم ابن جرير أنَّ المضروب لهم المثل هاهنا لم يُؤْمِنُوا في وقتٍ من الأوقات، واحتجَّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

والصواب: أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنَّه كان حصل لهم إيمانٌ قبل ذلك، ثم سُلِبُوهُ وطُبِعَ علىٰ قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية هاهنا، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]؛ فلهذا وجَّهَ هذا المثل بأنَّهم استضاؤُوا بما أَظْهَرُوه مِن كلمةِ الإيمانِ؛ أي: في الدنيا، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة.

قال: وصحَّ ضربُ مثل الجماعة بالواحِدِ، كما قال: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي: كدَوَرَان عَيْنِي الَّذِي يُغْشَىٰ عليه من الموت، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] [وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ

---

(١) لوحة (٤٢ ب). (٢) زيادة من (ح).
(٣) زيادة من (ح).

يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارًاۢ﴾ [الجمعة: ٥]، وقال بَعضُهم: تقدير الكلام: مثل قِصَّتِهم كقصَّة الذي استوقد نارًا. وقال بعضهم: المُسْتَوْقِدُ واحدٌ لجماعةٍ معه. وقال آخرون: الَّذِي هاهنا بمعنىٰ: الَّذِين كما قال الشاعر:

وَإِنَّ الَّـــذِي حَانَـــتْ بِفَلْـــجٍ دِمَـــاؤُهُمْ   قُلْتُ هُمُ القَـوْمُ كُلُّ القَـوْمِ يَـا أُمَّ خَالِـدِ][١]

قلت: وقد التفت في أثناء المَثَل مِن الواحد إلىٰ الجمع في قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبۡصِرُونَ ۞ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ وهذا أفصحُ في الكلام، وأبلغ في النِّظام، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ أي: أذهب عنهم ما يَنفعُهُم، وهو النُّور، وأبقىٰ لهم ما يضرُّهم، وهو الإحراق والدُّخان ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشَّكِّ والكُفر والنِّفاق، ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ لا يَهْتَدُون إلىٰ سُبُل خَيرٍ ولا يعرفونها[٢]، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون خيرًا ﴿بُكۡمٌ﴾ لا يتكلَّمون بما ينفعهم ﴿عُمۡىٌ﴾ في ضلالةٍ وعمايةِ البصيرةِ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلهذا لا يرجعون إلىٰ مَا كانوا عليه مِن الهداية التي باعوها بالضَّلالة.

ذِكْرُ أقوال المفسِّرين مِن السَّلف بنحوِ ما ذَكَرْنَاهُ:

قال السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالك وعن أبي صالِحٍ، عن ابنِ عبَّاس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصَّحابة، في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ زعم أنَّ ناسًا دخلوا في الإسلام مَقْدَم نبيِّ الله ﷺ المدينة، ثمَّ إنَّهم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجُلٍ كان في ظُلمةٍ، فأوقد نارًا، فلمَّا أضاءتْ ما حوله مِن قذًىٰ، أو أذًىٰ، فأبصره حتَّىٰ عرف ما يَتَّقِي منه فبَيْنَا هو كذلك إِذْ طُفِئَتْ نَارُهُ، فأقبل لا يدري ما يَتَّقِي مِن أذًىٰ، فكذلك المنافق: كان في ظُلمةِ الشِّرك فأسلم، فعرف الحلال والحرام، و[عرف][٣] الخَير والشَّرَّ، فبَيْنَا هو كذلك إِذْ كفَر، فصار لا يَعْرِف الحلال مِن الحرام، ولا الخَيْرَ مِن الشَّرِّ[٤].

«قال العوفي عن ابن عبَّاس في هذه الآية قال: أمَّا النُّور فهو إيمانُهم الَّذي كانوا عليه يَتَكَلَّمُون به، وأمَّا الظُّلمة فهي ضَلالَتُهم وكفرهم يتكلَّمون به وهم قَوْمٌ كانوا علىٰ هُدًىٰ ثم نُزِعَ مِنْهُم فَعَتَوْا بَعْدَ ذلك»[٥].

وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ أمَّا إضاءةُ النَّار فإقبالهم إلىٰ المؤمنين، والهُدَىٰ.

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) لوحة (٤٣ أ).
(٣) زيادة من (ح).
(٤) الطبري (١/ ١٤٢).
(٥) الطبري (١/ ١٤٢).

وقال عطاء الخُرَسَاني في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل المنافِقِ، يُبْصِر أحيانًا ويَعْرِف أحيانًا، ثم يُدْرِكُهُ عَمَىٰ القلب.

وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة، والحسن والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس نحو قول عطاء الخُرَسَاني.

وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم، في قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلىٰ آخر الآية، قال: هذه صفة المنافقين. كانوا قد آمنوا حتَّىٰ أضاء الإيمانُ في قلوبهم، كما أضاءت النَّار لهؤلاء الذين اسْتَوْقَدُوا نارًا ثم كفرُوا فذهب الله بنُورِهم فَانْتَزَعَهُ، كما ذهب بضَوْءِ هذه النَّار فتركهم في ظلماتٍ لا يُبْصِرون.

وأمَّا قول ابن جرير فيُشْبِه ما رواه عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثَلٌ ضربَهُ الله للمنافقين أنَّهم كانوا يَعْتَزُّون بالإسلام، فيُنَاكِحُهُم المسلمون ويُوَارِثُونهم ويُقَاسِمُونَهم الفيءَ، فلمَّا ماتوا سَلَبَهُم الله[1] ذلك العِزَّ، كما سُلِب صاحب النَّار ضَوءَه[2].

[وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى][3]ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فإنَّما ضوء النَّار ما أَوْقَدتها، فإذا خَمَدَتْ ذهَب نُورُها، وكذلك المنافق، كلَّما تكلَّم بكلمةِ الإخلاص بـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أضاءَ له، فإذا شَكَّ وقع في الظُّلمة.

وقال الضَّحَّاك في قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [أمَّا النُّور][4] فهو إيمانهم الذي تكلَّموا به.

وقال عبد الرَّزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ فهي: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أضاءَتْ لهُم فأكلُوا بها وشَرِبُوا وأَمِنُوا في الدُّنيا، ونكَحُوا النِّساء، وحَقَنُوا دِمَاءَهُم، حتَّىٰ إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون.

وقال سعيد، عن قتادة في هذه الآية: إنَّ المعنىٰ: أنَّ المنافق تكلَّم بـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فأضاءتْ له الدُّنيا، فناكح بهَا المُسلِمين، وغازاهم بها، ووارثهم بها، وحَقَن بها دَمَه ومَالَهُ، فلمَّا كان عند الموت، سُلِبَهَا المنافق؛ لأنَّه لم يكن لها أصلٌ في قلبه، ولا حقيقةٌ في عمله.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ يقول: في عذابٍ إذا ماتوا[5].

---

(١) لوحة (٤٣ ب).
(٢) الطبري (١/ ١٤٢).
(٣) زيادة من (ح).
(٤) زيادة من «تفسير الطبري».
(٥) الطبري (١/ ١٤٢).

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عِكْرِمة، أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ أي: يُبْصِرون الحقَّ ويقولُون به، حتَّىٰ إذا خرجوا به[1] مِن ظلمة الكفر أَطْفَئُوه بكُفْرِهم ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلماتِ الكُفْر، فهم لا يُبْصِرون هدًىٰ، ولا يستقيمون علىٰ حقٍّ[2].

وقال السُّدِّي في «تفسيره» بسنده: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ فكانت الظُّلْمَةُ نِفَاقَهُم.

وقال الحسن البصري: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ فذلك حين يموتُ المنافق، فيُظْلِم عليه عمله عمل السُّوء، فلا يجدُ له عملًا مِن خير عَمِلَ به يُصَدِّق به قول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ قال السُّدِّي بسنده: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ فهم خُرْسٌ عُمْيٌ.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ يقول: لا يسمعون الهُدَىٰ ولا يُبصِرُونه ولا يَعْقِلونه، وكذا قال أبو العالية، وقتادة بن دعامة.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن عبَّاس: أي لا يَرجِعُون إلىٰ هدًىٰ، وكذلك قال الرَّبيع بن أنس.

وقال السُّدِّي بسنده: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلىٰ الإسلام.

وقال قتادة: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يتوبُون ولا هم يذَّكَّرون.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ[3] أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

وهذا مثلٌ آخرُ ضرَبَه الله تعالىٰ لضَرْبٍ آخرَ مِن المنافقين، وهم قومٌ يظهَر لهُم الحقُّ تارةً، ويشكُّون تارةً أخرىٰ، فقُلوبُهم في حالِ شكِّهم وكُفرِهم وتردُّدِهم ﴿كَصَيِّبٍ﴾ والصَّيِّب: المطر، قاله ابن مسعود، وابن عبَّاس، وناسٌ من الصَّحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعطاء، والحسن البصري، وقتادةُ، وعطية العَوْفِي، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس.

وقال الضَّحاك: هو السَّحاب.

والأَشهَر هو المَطَرُ نزَل من السَّماء في حال ظُلُماتٍ، وهي: الشُّكوك والكُفْر والنِّفاق. ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو ما يُزْعِج القلوب مِن الخوف، فإنَّ مِن شأن المنافِقين الخوفَ الشَّديدَ والفَزَعَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ

---

(١) في الأصل: (حتىٰ خرجوا به)، والمثبت من «تفسير الطبري».

(٢) الطبري (١/ ١٤٢).

(٣) لوحة (٤٤ أ).

وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧].

والبَرْقُ: هو ما يَلمَع في قلوب هؤلاء الضَّرْبِ من المنافقين في بعض الأحيان، مِن نُورِ الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: ولا يُجْدِي عنهم حذرُهم شيئًا؛ لأن الله محيطٌ بهم بِقُدْرتِه، وهم تحتَ مشيئته وإرادَتِه، كما قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ * وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ١٧-٢٠].

[والصَّواعقُ: جمع صاعقة، وهي: نارٌ تَنْزِل مِن السَّماءِ وقت الرَّعد الشَّديد، وحكىٰ الخليل بن أحمد عن بعضهم صَاعِقَة، وحكىٰ بعضُهُم: صَاعِقَةٌ وَصَعْقَةٌ وصَاقِعَةٌ، ونُقِل عن الحسن البصري أنَّه: قرأ «مِنَ الصَّوَاقِعِ حَذَرَ المَوْتِ» بتقديم القاف وأنشدوا لأبي النَّجم:

يَحْكُوكَ بِالمَثْقُولَةِ القَوَاطِعِ ... شَفْقُ البَرْقِ عَنِ الصَّوَاقِعِ

قال النَّحاس: وهي لغةُ بَنِي تميم وبعض بني رَبِيعة، حكىٰ ذلك القُرطُبِي في «تفسيره»: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ عنهم حذَرهم شيئًا؛ لأنَّ الله محيطٌ بهم بقدرته وهم تحت مشيئته ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ * وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾][(١)].

ثم قال: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ أي: لشدَّته وقوَّته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثَبَاتِها للإيمان.

وقال عليُّ بن أبي طَلْحَة، عن ابن عبَّاس: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ يقول: يَكَادُ مُحْكَمُ القُرآن يدلُّ علىٰ عَوَرَات المنافقين.

وقال ابن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة، أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ ﴾ أي: لشدَّة ضوءِ الحقِّ، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي: كلَّما ظهر لهم من الإيمان شيءٌ استأنَسُوا به واتَّبعوه، وتارةً تَعْرِض لهم الشُّكوك أَظْلَمَتْ قلوبهم فوَقَفُوا حَائِرين[(٢)].

وقال عليُّ بن أَبِي طَلحة، عَن ابْنِ عبَّاس: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ يقول: كُلَّما أصاب المُنافِقِين مِن عزِّ الإسلام اطمأنُّوا إليه، وإن أصاب الإسلامَ نكبةٌ قاموا ليَرْجِعُوا إلىٰ الكفر[(٣)]؛ كقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ[(٤)] عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ ﴾ الآية [الحج: ١١][(٥)].

---

(١) زيادة من (ح)، وهو ساقط من طبعة «ابن الجوزي»، و«أولاد الشيخ».
(٢) الطبري (١/ ١٥٤).
(٣) الطبري (١/ ١٥٤).
(٤) لوحة (٤٤ ب).
(٥) الطبري (١/ ١٥٤).

وقال محمَّد بن إسحَاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عِكْرِمَة، أو سَعيدِ بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ أي: يعرفون الحقَّ ويتكلَّمون به، فهُم مِن قَولهم به علىٰ استِقَامَةٍ، فإذا ارتكسوا منه إلىٰ الكُفْر ﴿قَامُواْ﴾ أي: مُتحَيِّرِينَ[(١)].

وهكذا قال أبو العالية، والحسنُ البَصرِيُّ، وقتادة، [والرَّبيع بن أنس][(٢)]، والسُّدِّي بسنده، عن الصحابة وهو أصحُّ وأظهر. والله أعلم.

وهكذا يكونُون يوم القيامة عندمَا يُعْطَىٰ النَّاس النُّور بحسب إيمانهم، فمنهُم مَن يُعْطَىٰ مِن النُّور ما يُضِيءُ له مسيرة فراسخ، وأكثر مِن ذلك وأقل مِن ذلك، ومِنهم مَن يُطْفَأُ نوره تارةً ويُضيءُ له أخرىٰ، فيَمشِي علىٰ الصِّراط تارةً ويقف أُخرىٰ، ومنهم من يُطفَأُ نورُه بالكليَّة وهم الخُلَّص مِن المنافِقِين، الَّذين قال تعالىٰ فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾، [الحديد: ١٣] وقال في حقِّ المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ الآية [الحديد: ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

ذِكْرُ الحديثِ الوَارِدِ في ذَلِكَ:

قال سعيدُ بنُ أَبِي عَرُوبةَ، [عن قَتَادَة][(٣)] في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية [الحديد: ١٢]، ذُكِرَ لنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول: «**مِنَ المُؤْمِنِينَ مَنْ يُضِيءُ نُورُهُ مِنَ المَدِينَةِ إِلَىٰ عَدَنٍ، أَوْ بَيْنَ صَنْعَاءَ وَدُونَ ذَلِكَ، حَتَّىٰ إِنَّ مِنَ المُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُضِيءُ نُورُهُ إِلَّا مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ**». رواه ابن جرير[(٤)].

ورواه ابن أبي حاتم مِن حديث عمران بن دَاوَر القطَّان، عن قتادة، بنحوه.

وهذا كما قال المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السَّكن، عن عبد الله بن مسعود، قال: يُؤْتَوْنَ نورَهُم علىٰ قَدْرِ أعمالهم، فمِنْهُم مَن يُرَىٰ نوره كالنَّخلة، ومنهم من يُرَىٰ نوره كالرَّجُل القَائم، وأدناهم نورًا علىٰ إبهامه يُطْفَأُ مَرَّةً ويَقِدُ مَرَّةً[(٥)].

وهكذا رواه ابن جرير، عن ابن مُثَنَّىٰ، عن ابن إدريس، عن أبيه، عن المنهال.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن محمد [الطَّنَافسي][(٦)] حدَّثنا ابن إدريس، سمعت

---

(١) الطبري (١/ ١٥٤).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) سقط من الأصول واسْتُدْرِكَ من «تفسير الطبري».
(٤) ضعيف؛ علته الإرسال، رواه الطبري (٢٧/ ٢٢٢).
(٥) صحيح؛ رواه ابن جرير (٢٧/ ٢٢٣)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩٩)، والحاكم (٢/ ٤٧٨) وصححه.
(٦) في الأصول: (الطيالسي) وهو خطأ.

[أبي يذكر][(١)] عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السَّكن، عن عبد الله بنِ مَسعُود: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨] قال: عَلَىٰ قَدْرِ أعمالهم يَمُرُّونَ علىٰ الصراط[(٢)]، منهم مَن نُورُه مثل الجَبَل، ومِنهُم مَن نوره مِثْل النَّخْلَة، وأدناهم نورًا مَنْ نُورُه في إبهامه يَتَّقِدُ مرَّةً ويُطفَأُ أُخرىٰ[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل الأحمسي، حدَّثنا أبو يحيىٰ الحِمَّاني، حدَّثنا عُتْبَةُ بن [اليَقْظَان][(٤)]، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: ليس أحدٌ مِن أهل التَّوحيد إلَّا يُعْطَىٰ نورًا يوم القيامة، فأمَّا المنافق فيُطْفَأُ نُورُه، فالمؤمن مُشْفِقٌ ممَّا يرىٰ من إطفاء نورِ المنافقين، فهم يَقولُون: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[(٥)].

وقال الضَّحَّاك بن مُزاحِم: يُعطَىٰ كلُّ مَن كان يُظْهِر الإيمان في الدُّنيا يوم القيامة نورًا؛ فإذا انتهىٰ إلىٰ الصِّراط طُفِئَ نور المنافقين، فلمَّا رأىٰ ذلك المؤمنون أَشفَقُوا، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨].

فإذا تقرَّر هذا صار النَّاس أقسامًا: مُؤمنون خُلَّصٌ؛ وهم الموصوفون بالآيات الأَربع في أوَّل البقرة، وكُفَّارٌ خُلَّصٌ؛ وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومُنافِقُونَ؛ وهم قسمان: خُلَّصٌ؛ وهم المضروب لهم المثل النَّارِي، ومُنافِقُونَ يَتَرَدَّدُونَ؛ تَارةً يظهر لهم لُمَعٌ من الإيمان، وتارةً يَخْبُو وهم أصحاب المثل[(٦)] المائي، وهُم أَخَفُّ حالًا مِن الَّذين قبلهم.

وهذا المقام يُشْبِهُ مِن بعض الوجوه ما ذُكِرَ في سورة النُّور؛ مِن ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه مِن الهدىٰ والنور، بالمصباح في الزُّجاجة التي كأنها كوكب دُرِّيٌّ، وهي قلب المؤمن المفطور علىٰ الإيمان واستمداده مِن الشَّريعة الخالصة الصَّافية الواصلة إليه مِن غير كَدَرٍ ولا تَخْلِيطٍ، كما سيأتي تقريرُه في موضعه إن شاء الله.

ثمَّ ضرب مثل العُبَّاد مِن الكُفَّار، الذين يعتقدون أنهم علىٰ شيء، وليسوا علىٰ شيء، وهم أصحاب الجهل المركب، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ الآية [النور: ٣٩].

ثم ضرب مثل الكُفَّارِ الجُهَّال الجَهْلَ البسيط، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ

---

(١) في (ز): (أبي بكر) وهو خطأ.
(٢) لوحة (٤٥ أ).
(٣) انظر التعليق السابق.
(٤) في (ز): (القطان) وهو خطأ.
(٥) رجاله ثقات عدا أبو يحيىٰ الحماني، قال الحافظ: صدوق يخطئ ورمي بالإرجاء. رواه الحاكم (٢/ ٥٣٨) وصححه، وتعقبه الحافظ الذهبي بقوله: عتبة واهٍ.
(٦) في (ز): (الشك).

مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فقَسَّمَ الكُفَّار هاهنا إلىٰ قسمين: داعيةٍ ومُقَلِّدٍ، كما ذكرهما في أول سورة الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ[1] كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣] وقال بعده: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ[2]﴾ [الحج: ٨] وقد قَسَّمَ الله المؤمنين في أول سورة الواقعة وآخرها، وفي سورة الإنسان إلىٰ قسمين: سابقون وهم: المقربون، وأصحاب يَمِينٍ وهم: الأبرار.

فَتَلَخَّصَ مِن مجموع هذه الآيات الكريمات: أَنَّ المؤمنين صِنْفَانِ: مُقَرَّبُونَ وأبرار، وأَنَّ الكافرين صِنْفَانِ: دُعاةٌ ومُقَلِّدُونَ، وأَنَّ المنافقين أيضًا صِنفان: منافق خَالِصٌ، ومنافق فيه شُعْبَةٌ مِن نِفَاقٍ، كما جاء في «الصَّحيحين»، عن عبد الله بن عَمْرو، عن النَّبِيِّ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[3].

استدلُّوا به علىٰ أَنَّ الإنسان قد تكون فيه شُعبةٌ من إيمانٍ، وشُعبةٌ مِن نفاقٍ، إمَّا عَمَلِيٌّ لهذا الحديث، أو اعتقادِيٌّ كما دلَّت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة مِن السَّلف وبعض العلماء كما تقدَّم، وكما سيأتي إن شاء الله.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو النَّضر، حدَّثنا أبو معاوية -يعني: شيبان-، عن ليث، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البُخْتَري، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ، فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَىٰ غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ، فَأَمَّا القَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ المُؤْمِنِ، سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا القَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الكَافِرِ، [وَأَمَّا القَلْبُ المَنْكُوسُ فَقَلْبُ المُنَافِقِ][4]، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا القَلْبُ المُصَفَّحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ البَقْلَةِ، يَمُدُّهَا المَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ القُرْحَةِ يَمُدُّهَا القَيحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ المُدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ غَلَبَتْ عَلَيْهِ»[5]. وهذا إسناد جيد حسن.

---

(١) لوحة (٤٥ ب).

(٢) في (ز): حصل تقديم وتأخير في هذه الآية والسابقة لها.

(٣) البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو نحوه، والترمذي (٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ١١٦) ولفظه «أربع»، وأما لفظ ثلاث التي أوردها فليست من رواية عبد الله بن عمرو، بل هي من حديث أبي هريرة. رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، وغيرها.

(٤) سقط من الأصول واسْتُدْرِكَ من «المسند».

(٥) ضعيف: أحمد (٣/ ١٧)، والطبراني في «الصغير» (١٠٧٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: في إسناده ليث بن أبي سليم، قلت: يعني أنه علة الحديث. قال في «التقريب»: صدوق اختلط أخيرًا ولم يتميز حديثه فترك، وفي الإسناد أيضًا انقطاع بين أبي البختري وأبي سعيد.

وله شاهد من حديث حذيفة موقوفًا، لكنه أيضًا من طريق أبي البختري عنه فهو منقطع أيضًا، رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٠٦)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢١٤) إلىٰ ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في «الإخلاص».

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد عن عِكْرِمة، أو سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ قال: لِمَا تَركُوا مِن الحقِّ بعد معرفته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن إسحاق (١)أي: إنَّ الله علىٰ كلِّ ما أراد بعباده مِن نقمة، أو عفْوٍ قدير.

وقال ابن جرير: إنَّما وصف الله تعالىٰ نَفْسَهُ بالقدرة علىٰ كلِّ شيءٍ في هذا الموضع؛ لأنَّه حذَّر المنافقين بأْسَهُ وسَطْوَتَهُ وأخبرهم أنَّه بهم محيطٌ، وأنَّه علىٰ إذْهَابِ أسماعهم وأبصارهم قديرٌ، ومعنىٰ ﴿قَدِيرٌ﴾: قادر (٢)، كما أنَّ معنىٰ ﴿عَلِيمٌ﴾: عالم.

[وذهب ابن جرير الطَّبري ومَن تَبِعه مِن كثيرٍ مِن المفسِّرين أنَّ هذين المَثَلَيْن مضروبان لصنفٍ واحدٍ من المنافقين وتكون «أَوْ» في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بمعنىٰ الواو، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو تكون للتَّخْيير؛ أي: اضرب لهم مثلًا بهذا وإنْ شِئْتَ بهذا، قاله القُرْطُبي. أو للتَّساوي مِثْل: «جَالِسِ الحَسَنَ أَوِ ابْنَ سِيرِينَ»، علىٰ ما وجهَّه الزَّمخشري: أنَّ كلًّا منهما مساوٍ للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه علىٰ قوله: سواء ضربت لهم مثلًا بهذا أو بهذا فهو مُطَابِقٌ لِحَالهِمْ.

قلتُ: وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين، فإنَّهم أصناف ولهم أحوال وصفات؛ كما ذكرها الله تعالىٰ في سورة براءة: وَمِنْهُم، وَمِنْهُم، وَمِنْهُم- يذكر أحوالَهم وصفاتهم وما يعتمدونه مِنَ الأفعال والأقوال، فجعل هذين المثلين لِصِنْفَيْنِ منهم أشدَّ مطابقة لأحوالهم وصفاتهم، والله أعلم، كما ضرب المثلين في سُورَةِ النُّور لِصِنْفَيِ الكفَّار الدَّعاة والمقلِّدين في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ الآية [النور: ٣٩، ٤٠]، فالأوَّل للدُّعاة الَّذين هم في جهل مُرَكَّبٍ، والثَّاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلِّدين، والله أعلم بالصَّواب] (٣).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (٤)

---

(١) كذا في الأصول، وهو موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم»، وقد وقع في بعض المطبوعات: «ابن عبَّاس» وهو خطأ.

(٢) لوحة (٤٦ أ).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) [قال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا محمد بن عبد الملك الواسطي، حدَّثنا طلق بن غنام، حدَّثنا قيس عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: «كل شيء نزل بـ: (يا أيها الناس) فهو بمكة وكل شيء نزل بـ(يأيها الذين آمنوا) =

شرع تبارك وتعالىٰ في بيان وَحْدَانِيَّةِ أُلُوهِيَّتِه، بأنَّه تعالىٰ هو المُنْعِمُ علىٰ عَبيده [(١)] بإخراجهم مِن العَدَمِ إلىٰ الوجود، وإسباغه عليهم النِّعَمَ الظاهرة والباطنة، بأَنْ جعل لهم الأرض فراشًا؛ أي: مهدًا كالفِراش مُقَرَّرَةً [(٢)] مُوَطَّأَةً مُثَبَّتَةً بالرَّواسي الشَّامخات، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وهو السَّقف، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] وأنزل لهم مِن السَّماء ماء -والمراد به السَّحاب هاهنا- في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به مِن أنواع الزُّروع والثِّمار ما هو مُشاهَد؛ رزقًا لهم ولأنعامهم، كما قرَّر هذا في غير موضع مِنَ القرآن. ومِنْ أَشْبَهِ آيَةٍ بهذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنَّه الخالق الرَّازق مالك الدَّار، وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يَسْتَحِقُّ أن يُعبَدَ وحده ولا يُشْرَك به غَيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفي «الصَّحيحين» عن ابن مسعودٍ، قال: قُلتُ: يا رسول الله، أيُّ الذَّنب أعظم؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا، وَهُوَ خَلَقَكَ**» [(٣)] الحديث. وكذا حديثُ معاذٍ: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**» [(٤)] الحديث، وفي الحديث الآخر: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: مَا شَاءَ اللهُ**

= فهو بالمدينة». ثم قال: لا يعلم أحد أسنده إلا قيس وغيره يرويه مرسلًا]: هذه الفقرة هي زيادة من أحد النساخ وليست من صنع المؤلف، لذا فإنها وقعت في بعض المخطوطات في الحاشية، وقد صرح بذلك أحد نساخ المخطوطات، وهو ابن المحب، كما نقل ذلك الشيخ الفاضل أبو إسحاق الحويني (٢/ ١٦٧)، وللذكر فقد وقع خطأ في نفس الموضع في نسخة الشيخ حَفِظَهُ اللهُ فقال في الإسناد: «...عن إبراهيم عن عكرمة عن عبد الله -يعني ابن مسعود-...» والصحيح: عن علقمة عن عبد الله، فلتصحح.
رواه البزار (١٥٣١)، وأعله الدارقطني في «العلل» (٥/ ١٦٨).

(١) قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ لما ذكر الله علوَّ طبقة كتابه الكريم، وتحزّب الناس في شأنه إلىٰ ثلاث فرق، مؤمنة به محافظة علىٰ ما فيه من الشرائع والأحكام. وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق، وأخرىٰ مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق، وما اختصت به كلّ فرقة مما يسعدها ويشقيها، ويحظيها عند الله ويرديها، أقبل عليهم بالخطاب - وهو من الالتفات المذكور عند قوله جل ذكره: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ - وهو فنّ من الكلام جزلٌ، فيه هزٌّ وتحريك من السامع - كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكيًا عن ثالث لكما: إنّ فلانًا من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلت بخطابك إلىٰ الثالث، فقلت: يا فلان! من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، وتستوي علىٰ جادة السداد في مصادرك ومواردك - نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبه، واستدعيت إصغاءه إلىٰ إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلىٰ المواجهة هازًّا من طبعه، ما لا يجده إذا استمررت علىٰ لفظ الغيبة، وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلىٰ صنف، يستفتح الآذان للاستماع، ويستهش الأنفس للقبول.

(٢) مقررة: مُسَوَّاةً مَدْحُوَّةً، أخذًا من قوله تعالىٰ الله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

(٣) رواه البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦)، وأبو داود (٢٣٠١)، والترمذي (١٣٨١)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٢٣٨- ٣٦٢- بتحقيقي).

(٤) البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠)، وأحمد (٥/ ٢٣٠- ٢٣٤)، والترمذي (٢٦٤٣).

وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»[(١)].

وقال حمَّاد بن سلمة: حدَّثنا عبد الملك بن عُمَير، عن رِبْعِيِّ بن حِرَاش، عن الطُّفيل بن سَخْبَرَة، أخي عائشة -أم المؤمنين- لأُمِّها، قال: رَأَيْتُ فيما يرىٰ النَّائم، كأَنِّي أَتَيْتُ علىٰ نَفَرٍ من اليهود، فقُلتُ: مَنْ أنتم؟ فقالوا: نحن اليهود، قُلتُ: إنَّكم لأنتم القَومُ لولا أنَّكم تقولون: عُزَيرٌ ابنُ الله. قالوا: وإنَّكم لأنتم القَومُ لولا أنَّكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمَّد. قال: ثمَّ مَرَرْتُ بنَفَرٍ من النَّصارىٰ، فقلتُ: مَن أنتم؟ قالوا: نحن النَّصارىٰ. قلتُ: إنَّكم لأنتم القَومُ لولا أنَّكم تقولون: المسيحُ ابنُ الله. قالوا: وإنَّكم لأنتم القَومُ لولا أنَّكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمَّد. فلما أَصْبَحْتُ أخبرت بها مَنْ أخبرت، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فأخبرتُهُ، فقال: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» فقلت: نعم. فقام، فَحَمِدَ الله وأَثْنَىٰ عليه ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَىٰ رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[(٢)]. هكذا رواه ابن مَرْدَوَيه في تفسير هذه الآية مِن حديث حمَّاد بن سلمة به. وأخرجه ابن ماجة مِن وجهٍ آخر، عن عبد الملك بن عمير به بنحوه.

وقال سُفيان بن سعيد الثَّوري، عن الأَجْلَح بن عبد الله الكِنْدِي، عن يَزيد بن الأصمِّ، عن ابن عبَّاس، قال: قال رجلٌ للنَّبيِّ ﷺ: ما شاء اللهُ وشِئْتَ. فقال: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[(٣)]. رواه ابن مَرْدوَيه، وأخرجه النَّسائي، وابن ماجة مِن حَدِيث عيسىٰ بن يونس، عن الأجلح به.

وهذا كله صيانةٌ، وحمايةٌ لجنابِ التَّوحيد، والله أعلم.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة، أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس، قال: قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ للفريقين جميعًا مِن الكفَّار والمنافقين، أي: وَحِّدُوا ربَّكم الذي خلقكم والَّذين مِن قبلِكم[(٤)].

وبه عن ابن عبَّاس: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا تُشْرِكُوا بالله غيره مِن الأنداد

---

(١) صحيح: أبو داود (٤٩٨٠)، وأحمد (٥/ ٣٨٤).

(٢) ضعيف: رواه ابن ماجة (٢١١٨)، وأحمد (٥/ ٧٢) وصحح البوصيري إسناده في «الزوائد»، وصححه الألباني بشواهد في «الصحيحة» (١٣٨).

قلت: بل إسناده ضعيف، فيه عبد الملك بن عمير، قال أحمد: مضطرب الحديث، وضعفه جدًا، وقال ابن معين: مخلط، وقال أبو حاتم ليس بحافظ وهو صالح الحديث تغير بآخرة، وقال الحافظ: تغير حفظه وربما دلس قلت: وقد اضطرب فيه فرواه عن ربعي بن خراش عن حذيفة عند ابن ماجة (١١٨)، ورواه عن ربعي عن الطفيل، أخرجه ابن ماجة والدارمي وأحمد: وأيضًا فالحديث فيه نكارة في متنه، وهي قوله: «كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها».

(٣) حسن: رواه ابن ماجة (٢١١٧)، وأحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤) في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٩٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

(٤) رواه الطبري (١/ ١٦٠)، وابن أبي حاتم (٢١٦).

التي لا تَنْفَع ولا تَضُرُّ، وأنتم تعلمون أنَّه لا رَبَّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أنَّ الذي يَدعُوكُم إليه الرَّسول ﷺ مِن توحيده هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه. وهكذا قال قتادة(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عَمْرو بن أبي عاصِم، حدَّثنا أبي عاصِم، حدَّثنا أبي عمرو، حدَّثنا أبي الضَّحَّاك ابن مَخْلَد أبو عاصم، حدَّثنا شَبِيب بن بِشْر، حدَّثنا عكرمة، عن ابن عبَّاس، في قول الله ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: الأنداد هو الشِّرك، أخفىٰ مِن دَبِيبِ النَّمْل علىٰ صَفَاةٍ سوداء في ظُلمةِ اللَّيل، وهو أن يقول: واللهِ وَحياتِكَ يا فُلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبةُ هذا لأتانا اللُّصوص، ولولا البطُّ في الدَّار لأتىٰ اللُّصوص، وقول الرُّجل لصاحبه: ما شاءَ الله وشئتَ، وقول الرجل: لولَا الله وفلان. لا تجعل فيها «فُلَان» [لأنَّ](٢) هذا كله به شِرْك(٣).

وفي الحديث: أنَّ رجلًا قال لرسولِ الله ﷺ: ما شاء الله وشِئْتَ، فقال: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا»(٤). وفي الحديث الآخر: «نِعْمَ القَوْمُ أَنْتُم، لَوْلَا أَنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ فُلَانٌ(٥)»(٦).

قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: عُدَلاء شُرَكاء. وهكذا قال الرَّبيع بن أنس، وقتادة، والسُّدِّي، وأبو مالك: وإسماعيل بن أبي خالد.

وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنَّه إلهٌ واحدٌ في التَّوراة والإنجيل.

ذِكْرُ حَدِيثٍ في مَعْنَىٰ هذه الآيةِ الكريمةِ:

قال الإمامُ أحمد: حدَّثنا عفَّان، حدَّثنا أبو خلف موسىٰ بن خلف، وكان يُعَدُّ من البُدَلاء(٧)، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جَدِّه ممطور، عن الحارث الأشعري، أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ ﷻ، أَمَرَ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا ﵇ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا

---

(١) رواه الطبري (١/ ١٦٤)، وابن أبي حاتم (٢٣٢).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٢٣٠).
(٤) تقدم: انظر رقم (٩٧).
(٥) لوحة (٤٧ أ).
(٦) تقدم، انظر: رقم (٩٦).
(٧) قال العثيمين ﵀: الأَبْدَالُ هم الذين إذا مات منهم واحد أبدله الله تعالىٰ بغيره، يقوم في الناس مُعلمًا وموجهًا ومرشدًا، هذا من الأبدال، أما أن أحدًا يتصرف في الكون كمن يدعي أن أحدًا يتصرف في الكون مع الله فهو مشركٌ بالله ﷻ شركًا أكبر، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].
ومراد العلماء الذين قالوا: إن هذه الأمة فيها الأبدال- كشيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية»، وكذلك ابن كثير، وغيرهم من علماء السنة - قصدهم بالأبدال :هم الذين إذا مات أحدٌ ممن يقوم لعباد الله بالتوجيه والإرشاد والعلم خَلَفَهُ غيره؛ أي :صار بدلًا عنه. «لقاءات الباب المفتوح».

بِهِنَّ، وَكَانَ يُبْطِئُ بِهَا، فَقَالَ لَهُ عِيسَىٰ ﷺ: إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَىٰ إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي. قَالَ: «فَجَمَعَ يَحْيَىٰ بْنُ زَكَرِيَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، حَتَّىٰ امْتَلأَ المَسْجِدُ، فَقُعِدَ عَلَىٰ الشُّرُفِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَأَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَىٰ عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَىٰ غَيْرِ سَيِّدِهِ فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَأَنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَكُمْ بِالصَّلاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلا تَلْتَفِتُوا. وَأَمَرَكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ، كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ المِسْكِ. وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ المِسْكِ. وَأَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَىٰ عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّىٰ فَكَّ نَفْسَهُ. وَأَمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا؛ وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَىٰ حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ العَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ».

قال: وقال [(١)] رسولُ الله ﷺ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ؛ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: الجَمَاعَةُ، وَالسَّمْعُ، والطَّاعَةُ، وَالهِجْرَةُ، وَالجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الجَمَاعَةِ قِيْدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ [رِبْقَةَ] [(٢)(٣)] الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَىٰ جَاهِلِيَّةٍ فَهُوَ مِنْ جِثِيِّ جَهَنَّمَ». قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصَلَّىٰ؟ فقال: «وَإِنْ صَلَّىٰ وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ؛ فَادْعُوا المُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ [بِمَا] [(٤)] سَمَّاهُمُ اللهُ ﷻ: المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ» [(٥)].

هذا حديثٌ حسنٌ، والشَّاهد منه في هذه الآية قوله: «وَإِنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا».

[وهذه الآية دالَّةٌ علىٰ توحيدِه تعالىٰ بالعبادة وحدَهُ لا شريك له، وقد استدلَّ بها كثيرٌ من المفسِّرين كالرَّازي وغيرُه علىٰ وجود الصَّانع فقال: وهي دالَّةٌ علىٰ ذلك بطريقِ الأَوْلَى، فإنَّ مَن

---

(١) لوحة (٤٧ ب).

(٢) في الأصول: (ربق)، والتصحيح من مصادر التخريج.

(٣) الرِّبْقة في الأصل: عُرْوة في حَبْل تُجعل في عُنُق البهيمة أو يَدِها تُمسِكها، والمقصود: ما يَشدُّ به المُسلم نفسَه من عُرَىٰ الإسلام؛ أي: حُدُوده وأحكامه وأوامِره ونواهيه. «النهاية» (٢/ ١٩٠).

(٤) في الأصول: (بل بما)، والتصحيح من مصادر التخريج.

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، وأبو يعلىٰ (١٥٧١)، والحاكم (١/ ١١٨)، وأحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢) وغيرهم.

تأمَّل هذه الموجُودَات السُّفليَّة والعُلويَّة واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافِعِهَا ووضعها في مواضع النَّفع بها محكمة، عَلِمَ قُدرَةَ خَالِقِهَا وحِكْمَتِه وعِلمِه وإتقَانِه وعظيم سُلطَانه، كما قال بعضُ الأعراب، وقد سُئِلَ: مَا الدَّليل علىٰ وجود الرَّبِّ تعالىٰ؟ فقال: يَا سُبحَان الله، إنَّ البَعْرَةَ لَتَدُلُّ عَلَىٰ البَعِيرِ، وإنَّ أَثَرَ الأَقْدَامِ لَتَدُلُّ عَلَىٰ المَسِيرِ، فسَماءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وأرضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وبحارٌ ذاتُ أَمْواجٍ؟ ألا يدلُّ ذلك علىٰ وُجودِ اللَّطِيف الخبير؟

وحكىٰ فخرُ الدِّين عن الإمام مالك أنَّ الرَّشيد سأَلَه عَن ذلك، فاستدلَّ باختلاف اللُّغات والأَصواتِ والنَّغمات، وعن أبي حنيفة أنَّ بعض الزَّنادِقَة سألوهُ عن وجود البَاري تعالىٰ فقال لهم: دَعُوني فَإِنِّي مُفكِّرٌ فِي أَمْرٍ قَدْ أُخْبِرْتُ عَنْهُ، ذكروا لي أنَّ سفينة في البحر مُوقَرَةٌ فِيهَا أنواعٌ مِن المتاجِرِ وليس بها أحدٌ يحرُسُها ولا يَسوقُها، وهي مَعَ ذلكَ تَذْهَبُ وتَجِيءُ وتَسِيرُ بنَفْسِهَا وتخترِقُ الأمواجَ العظامَ حتَّىٰ تتخلَّص منها، وتسيرُ حيث شَاءَتْ بنَفْسِها مِن غير أَن يسوقها أحدٌ. فقالوا: هذا شيءٌ لا يقولُهُ عاقلٌ، فقال: وَيْحَكُمْ!! هذه الموجُودات بما فِيهَا مِن العَالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ وما اشتملت عليه مِن الأشياء المحكمة لَيْسَ لها صَانعٌ!! فبُهِتَ القَوْمُ ورجعوا إلىٰ الحقِّ وأسلموا علىٰ يَدَيْه.

وعَن الشَّافعيِّ: أنَّه سُئِل عن وجود الصَّانع، فقال: هذا وَرَقُ التُّوت طعمُهُ واحدٌ تأكلُهُ الدُّود فيَخرُج مِنْهُ الإِبْرَيْسَمُ، وتأكله النَّحل فيخرج منه العسل، وتأكلُهُ الشَّاة والبعير والأنعام فتُلقِيهِ بَعْرًا ورَوَثًا، وتأكله الظِّبَاءُ فيخرجُ منها المسكُ وهو شيءٌ واحدٌ.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنَّه سُئِلَ عن ذلك فقال: هاهنا حِصْنٌ حَصِينٌ أَمْلَسُ، ليس له بابٌ ولا مَنْفَذٌ، ظاهره كالفِضَّةِ البيضاء، وباطنُهُ كالذَّهَبِ الإِبْرِيزِ، فبينا هو كذلك إِذِ انصدَعَ جدارُه فخرج منه حيوانٌ سميعٌ بصيرٌ ذو شَكْلٍ حَسَنٍ وصَوْتٍ مَلِيحٍ؛ يعني بذلك: البَيْضَة إذا خرج منها الدَّجاجة.

وسُئِلَ أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَىٰ آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيُونٌ مِن لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَىٰ قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وقال ابن المعتز:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَىٰ الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

وقال آخرون: ومَن تأمَّل هذه السَّموات في ارتِفَاعها واتِّسَاعها وما فيها مِن الكواكب الكبار والصِّغار المنيرة مِن السَّيَّارة ومِن الثَّوابِتِ، وشَاهَدَهَا كيف تدُورُ مع الفلك العظيم في كلِّ يومٍ وليلةٍ دُوَيْرَةً ولها في

أنفسِهَا سَيرٌ يَخُصُّهَا، ونظر إلىٰ البحار الملتفة للأرض مِن كُلِّ جانبٍ، والجبال الموضوعة في الأرض لِتَقِرَّ وَيَسْكُنَ سَاكِنُوهَا مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰؤُا﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨] وكذلك هذه الأنهار السَّارحة مِن قُطْرٍ إلىٰ قُطْرٍ لمنافع العباد وما ذَرَأ في الأرض مِن الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطُّعوم والأَرَايِيح والأشكال والألوان مع اتِّحاد طبيعة التُّربة والماء، عَلِمَ وُجُود الصَّانع وقدرته العظيمة وحكمته ورَحْمَتِهِ بخلقه ولُطفِهِ بهم وإحسانه إليهم وبِرِّهِ بهم لا إله غيره ولا رَبَّ سواه، عليه توكَّلت وإليه أُنِيبُ، والآيات في القرآن الدَّالَّة علىٰ هذا المقام كثيرةٌ جدًّا][(١)].

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثُمَّ شرع تعالىٰ في تقرير النُّبوَّة بعد أن قَرَّرَ أنَّه لا إله إلَّا هو، فقال مخاطبًا للكافرين: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[(٢)] يعني: محمَّدًا ﷺ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ مِن مِثْلِ ما جاء به إن زعمتم أنَّه مِن عند غير الله، فعَارِضُوهُ بمثل ما جاء به، واستعينوا علىٰ ذلك بمَنْ شِئْتُم مِن دون الله، فإنَّكم لا تستطيعون ذلك.

قال ابن عبَّاس: ﴿شُهَدَاءَكُم﴾: أعوانكم [أي: قومًا آخرين يُساعدونكم علىٰ ذلك][(٣)].

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك: شُركَاءُكُم [أي: استعينوا بآلهتكم في ذلك يَمُدُّونكُم وينصرونكم][(٤)].

وقال مجاهد: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ قال: ناس يشهدون به [يعني: حُكَّام الفُصَحَاء].

وقد تحدَّاهم الله تعالىٰ بهذا في غيرِ موضعٍ من القرآن، فقال [في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩] وقال][(٥)] في سورة سبحان: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) قال السعدي رحمه الله: وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم، دليل علىٰ أن أعظم أوصافه ﷺ، قيامه بالعبودية، التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) زيادة من (ح).

مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨] وكل هذه الآيات مكية.

ثمَّ تحدَّاهم الله تعالىٰ بذلك أيضًا في المدينة، فقال في هذه الآية: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ أي: في شكٍّ ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ يعني: محمَّدًا ﷺ(١). ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ يعني: مِن مِثْلِ هذا القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير [الطَّبريُّ والزَّمخشري وفخرُ الدِّين الرازي ونقله عن عُمرَ وابن مسعود وابن عبَّاس والحسن البصري وأكثر المحققين ورجَّح ذلك بوجوهٍ مِن أحسنها أنَّه تحدَّاهم كلهم مُنفَرِدين ومُجْتَمِعين](٢) بدليل قوله: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [هود: ١٣] وقوله: ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال بعضهم: مِنْ مِثْلِ محمَّد ﷺ؛ يعني: من رَجُلٍ أُمِّيٍّ مثله. والصَّحيح الأوَّل؛ لأنَّ التَّحدي عَامٌّ لهم كلهم، مع أنَّهم أفصح الأمم، وقد تحدَّاهم بهذا في مكَّة والمدينة مرَّاتٍ عديدةً، مع شدَّة عداوَتِهم له وبُغْضِهم لدينه ومع هذا عَجَزُوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ «وَلَنْ»: لنفي التَّأبِيدِ في المستقبل؛ أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا. وهذه أيضًا معجزةٌ أخرىٰ، وهو أنَّه أخبر [خبرًا جازمًا قاطعًا مُقْدِمًا غير خائفٍ ولا مُشْفِقٍ](٣) أنَّ هذا القرآن لا يُعَارَضُ بمثله [أبدَ الآبدين ودَهْر الدَّاهِرين](٤) وكذلك وقع الأمر، لم يُعَارَض مِن لدنه إلىٰ زماننا هذا ولا يمكن، وَأنَّىٰ يَتَأتَّىٰ ذلك لأحدٍ، والقرآن كلام الله خالقُ كلِّ شيءٍ؟ وكيف يُشْبِهُ كلامُ الخَالِقِ كلامَ المخلُوقِين؟!

[ومَن تَدبَّر القرآن وجد فيه مِن وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرةً وخفيَّةً مِن حيث اللَّفظ ومِن جهة المعنىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فأُحْكِمَت ألفاظه وفُصِّلَتْ معانيه أو بالعكس علىٰ الخلاف، فكلٌّ مِن لفظه ومعناه فصيحٌ لا يُجَارَىٰ ولا يُدَانَىٰ، فقد أخبر عَن مَغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طِبْقَ ما أخبر سواء بسواء، وأَمَرَ بكُلِّ خيرٍ، ونهىٰ عن كُلِّ شرٍّ كما قال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، فكلُّهُ حقٌّ وصدقٌ وعدلٌ وهدًىٰ، ليس فيه مجازَفَةٌ ولا كذبٌ ولا افتراءٌ، كما يُوجد في أشعار العَرَب وغيرهم مِن الأكاذيب والمُجازَفَات التي لا يَحْسُنُ شِعْرُهُم إلَّا بها، كما قيل في الشِّعر: إنَّ أَعْذَبَهُ أَكْذَبُهُ، وتجد القصيدة الطَّويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النِّساء أو الخيل أو الخَمْر، أو في مدح شخصٍ معيَّنٍ أو فرسٍ أو ناقةٍ أو حربٍ أو كائنةٍ أو سيرٍ أو مخافةٍ أو سبعٍ، أو شيءٍ من المشاهدات المتعيِّنة التي لا تُفِيدُ شيئًا إلا قُدْرَةَ

---

(١) لوحة (٤٨ أ).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) زيادة من (ح).
(٤) زيادة من (ح).

المتكلِّم المعبِّر علىٰ التعبير علىٰ الشيء الخفي أو الدَّقيق أو إبرازه إلىٰ الشَّيءِ الواضح، ثم تَجِدُ له فيها بيتًا أو بيتَيْنِ أو أكثر وهي بيوت القصيد وسائرها هَذْرٌ لا طائل تحته.

وأمَّا القرآن فجميعُهُ فصيحٌ في غاية نهايات البلاغة عِندَ مَن يعرف ذلك تفصيلًا وإجمالًا ممَّن فَهِمَ كلام العرب وتصاريف التَّعبير، فإنَّه إن تأمَّلت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطةً أو وجيزةً، وسواء تكرَّرت أم لا، وكلَّما تكرَّر حلا وعلا لا يَخْلَقُ عَن كثرة الرَّدِّ، ولا يَمَلُّ منه العلماء، وإِنْ أَخَذَ في الوعيد والتَّهديد جاء منه مَا تقشعرُّ منه الجبال الصُّمُّ الرَّاسيات، فما ظنُّك بالقلوب الفاهمَات، وإن وعد أَتَىٰ بما يَفتَحُ القلوب والآذان، ويُشَوِّق إلىٰ دار السَّلام ومجاورةِ عرش الرَّحمن، كما قال في التَّرغيب: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال في التَّرهيب: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۞ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧] وقال في الزَّجر: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال في الوَعْظِ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۞ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ -٢٠٧] إلىٰ غيرِ ذلك مِن أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإِنْ جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنَّواهي، اشتملت علىٰ الأمرِ بكلِّ معروفٍ حسنٍ نافعٍ طيِّبٍ محبوبٍ، والنَّهي عن كلِّ قبيحٍ رذيلٍ دنيءٍ؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السَّلف: إذا سمعت الله تعالىٰ يقول في القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فأَوْعِهَا سَمْعَكَ فإنه خَيرٌ مَا يَأمُرُ به أو شَرٌّ يَنْهَىٰ عنه. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وبيان الأهوال، وفي وصف الجنَّة والنَّار وما أَعَدَّ الله فيهما لأوليائه وأعدائه مِن النَّعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بَشَّرتْ به وحَذَّرت وأَنْذَرتْ؛ ودَعَتْ إلىٰ فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزَهَّدَتْ في الدنيا ورَغَّبَتْ في الأخرىٰ، وثَبَّتَتْ علىٰ الطَّريقة المثلىٰ، وهَدَتْ إلىٰ صراط الله المستقيم وشَرعِهِ القويم، ونَفَتْ عن القلوب رِجْسَ الشَّيطان الرَّجيم][(١)].

ولهذا ثبت في «الصَّحيحين» عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ» لفظ مسلم[(٢)]. وقوله: «وَإِنَّما كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا» أي: الذي

(١) زيادة من (ح).
(٢) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

اختصصت به مِن بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أَن يُعارِضُوه، بخلاف غيره مِن الكتب الإلهيَّة، فإنَّها ليست معجزةً عند كثيرٍ من العلماء والله أعلم. وله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الآيات الدَّالَّة علىٰ نُبُوَّتِه، وصدقه فيما جاء به ما لا يَدخُل تحت حَصرٍ، ولله الحمد والمنَّة.

[وقد قرَّر بعض المتكلِّمين الإعجازَ بطريقٍ يَشمَل قول أهل السُّنَّة وقول المعتزلة في الصَّرفة، فقال: إن كان هذا القرآن مُعْجِزًا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قُوَاهُم معارضته، فقد حصل المدعىٰ وهو المطلوب، وإن كان في إمكانِهِم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شِدَّة عداوتهم له، كان ذلك دليلًا علىٰ أنَّه مِن عند الله؛ لصَرْفِهِ إيَّاهم عَن معارضته مع قُدْرَتِهم علىٰ ذلك، وهذه الطَّريقة وإن لم تكن مُرْضِيَةً -لأنَّ القرآن في نفسه مُعْجِزٌ لا يستطيع البشر معارضته، كما قرَّرنا- إلَّا أنَّها تصلح علىٰ سبيل التَّنَزُّلِ والمجادلة والمنافحة عن الحقِّ، وبهذه الطريقة أجاب فخر الدِّين الرَّازي في «تفسيره» عن سؤاله في السُّور القِصَار كالعصر و ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾](١).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أما الوَقُود -بفتح الواو- فهو ما يُلقىٰ في النَّار لإضرامها كالحطب ونحوه، كما قال: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والمراد بالحجارة هاهنا: هي حجارة الكِبْرِيتِ العَظِيمة السَّوداء الصُّلبة المُنْتِنَة، وهي أشدُّ الأحجار حرًّا إذا حَمِيَت، أجارنا الله منها.

قال عبد الملك بن ميسرة الزرَّاد عن عبد الرحمن بن سَابط، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود، في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ قال: هي حجارة مِن كِبْرِيتٍ، خلقها الله(٢) يَوم خلق السَّموات والأرض في السَّماء الدُّنيا، يُعِدُّها للكافرين(٣). رواه ابن جرير، وهذا لفظه. وابن أبي حاتم، والحاكم في «مستدركه» وقال: علىٰ شرط الشَّيخين.

وقال السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالكٍ، وعن أبي صالحٍ، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصَّحابة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أمَّا الحجارة فهي حجارةٌ في النَّار من كِبريتٍ أسودٍ، يُعذَّبُون به مع النَّار(٤).

وقال مجاهد: حجارةٌ من كِبريتٍ أَنتَنُ مِن الجيفَةِ. وقال أبو جعفر محمَّد بن علي: هِي حجارةٌ مِن كِبريتٍ. وقال ابن جريج: حجارةٌ مِن كبريتٍ أسودَ في النَّار، وقال لي عمرو بن دِينار: أصلبُ مِن هذه

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) لوحة (٤٨ ب).
(٣) صحيح: رواه الطبري (١/ ١٦٨) وابن أبي حاتم (٢٤٥)، والحاكم (٢/ ٢٦١) وصححه علىٰ شرط الشيخين.
(٤) رواه الطبري (١/ ١٦٩) ويشهد له أثر ابن مسعود السابق.

الحجارةِ وأعظم.

[وقيل: المراد بها: حجَارةُ الأصنام والأندادِ التي كانت تُعْبَد مِن دون الله كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨]، حكاه القرطبي وفخر الدِّين ورجحه علىٰ الأوَّل؛ قال: لأنَّ أخذ النَّار في حجارة الكِبريت ليس بمُنكَرٍ فجعلها هذه الحجارة أَوْلىٰ، وهذا الَّذي قاله ليس بقويٍّ؛ وذلك أنَّ النَّار إذا أُضْرِمَتْ بحجارة الكِبريتِ كان ذلك أشدَّ لحَرِّها وأقوىٰ لسَعِيرِهَا، ولا سِيَّما علىٰ ما ذكره السَّلف من أنَّها حجارة مِن كِبريتٍ معدَّةٌ لذلك، ثمَّ إنَّ أَخْذَ النَّار في هذه الحجارة أيضًا مشاهد، وهذا الجِصُّ يكون أحجارًا فتَعْمَلُ فيه بالنَّار حتىٰ يصير كذلك. وكذلك سائر الأحجار تَفْخُرُهَا النار وتحرِقُها. وإنَّما سِيقَ هذا في حَرِّ هذه النَّار التي وُعِدُوا بها، وشِدَّة ضِرَامِهَا وقُوَّة لَهِبِهَا كما قال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وهكذا رجَّح القرطبي أنَّ المراد بها الحجارة التي تُسَعَّر بها النَّار لتَحْمَىٰ ويشتد لهبها قال: ليكون ذلك أشد عذابًا لأهلها، قال: وقد جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «كُلُّ مُؤْذٍ فِي النَّارِ»(١)، وهذا الحديث ليس بمحفوظٍ ولا معروفٍ، ثمَّ قال القرطبي: وقد فُسِّر بمعنيين، أحدُهُما: أنَّ كُلَّ مَن آذىٰ النَّاس دخل النَّار، والآخرُ: كلُّ ما يُؤْذِي فهو في النَّار يتأَذَّىٰ به أهلها مِن السِّبَاع والهَوَام وغير ذلك](٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ الأظهر أنَّ الضمير في ﴿أُعِدَّتْ﴾ عائدٌ إلىٰ النَّار التي وقودها النَّاس والحجارة، ويحتمل عَوْدُهُ إلىٰ الحجارة، كما قال ابن مسعود، ولا مُنافاة بين القولين في المعنىٰ؛ لأنَّهما متلازمان.

و ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أُرْصِدَت وحَصَلَتْ للكافرين بالله ورسوله، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمَّد، عن عكرمة، أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لمن كان علىٰ مِثْل ما أنتم عليه مِن الكُفْر(٣).

[وقد استدلَّ كثيرٌ من أئمَّة السُّنَّة بهذه الآية علىٰ أنَّ النَّار موجودة الآن؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أُرْصِدَت وهُيِّئَتْ، وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في ذلك منها: «**تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ**»(٤) ومنها: «**اسْتَأْذَنَتِ النَّارُ رَبَّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي**

(١) موضوع: رواه الخطيب (١١/ ٢٩٩)، وعزاه السيوطي في «الجامع الصغير» إلىٰ ابن عساكر، وفيه عثمان بن الخطاب البلوي قال الذهبي: كذاب، والحديث قال عنه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٤٢٣٣): موضوع.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالىٰ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك، بدليل ما ذكره في غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة، علىٰ ما يأتي. وفيه دليل علىٰ ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودةٌ مخلوقةٌ، خلافًا للمبتدعة في قولهم: إنها لم تخلق حتىٰ الآن.

(٤) البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، والترمذي (٢٥٦١)، وابن حبان (٧٤٤٧).

الصَّيفِ»[١]، وحديث ابن مسعود: سَمِعْنَا وَجْبَةً، فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هَذَا حَجَرٌ أُلْقِيَ بِهِ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً الآنَ وَصَلَ إِلَىٰ قَعْرِهَا**» وهو عند مسلم[٢] وحديث صلاة الكسوف[٣] وليلة الإسراء[٤]، وغير ذلك مِن الأحاديث المتواترة في هذا المعنىٰ، وقد خَالَفَتِ المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس.

تَنبِيهٌ يَنبَغِي الوقُوفُ عَلَيْهِ:

قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[يونس: ٣٨] يَعُمُّ كل سورةٍ في القرآن طويلةً كانت أو قصيرةً؛ لأنَّها نكرةٌ في سياق الشَّرط فتَعُمّ كما هي في سياق النَّفْيِ عند المحقِّقين من الأُصوليين كما هو مُقرَّر في موضعه، فالإعجازُ حاصلٌ في طوال السُّور وقصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين الناس سلفًا وخلفًا، وقد قال الإمام العلَّامة فخر الدِّين الرَّازي في «تفسيره»: فإن قيل: قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ونحن نعلم بالضَّرورة أنَّ الإتيان بمثله أو بما يَقْرُبُ منه ممكن. فإن قلتم: إنَّ الإتيان بمثل هذه السور خارجٌ عن مقدورِ البشَرِ كان ذلك مكابرةً، والإقدام علىٰ هذه المكابَرات مما يطرق بالتُّهمة إلىٰ الدِّين: قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطَّريق الثَّاني، وقلنا: إن بلغت هذه السُّورة في الفصاحة حدَّ الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم مِن المعارضة مع شِدَّة دواعيهم إلىٰ تَهْوِين أمرِهِ مُعْجِزًا، فعلىٰ كلَا التَّقديرين يحصل المعجز، هذا لفظه بحروفه. والصَّواب: أنَّ كل سورة مِن القرآن مُعْجِزَةٌ لا يستطيع البشر معارضتها، طويلةً كانت أو قصيرةً.

قال الشافعي: لو تَدبَّر الناس هذه السورة لكفتهم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر]. وقد رُوينا عن عمرو بن العاص أنَّه وفد علىٰ مسيلمة الكذاب قبل أن يُسْلِم، فقال له مُسَيْلِمَةُ: ماذا أُنْزِلَ علىٰ صاحبكم بمكَّة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أُنْزِل عليه سورةٌ وجيزةٌ بليغةٌ، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ ففكَّر ساعةً ثم رفع رأسه فقال: ولقد أُنْزِلَ عليَّ مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: يَا وَبْرُ يَا وَبْرُ، إنَّما أنت أُذُنَان وصدر، وسَائِرك حَقْرٌ فَقْرٌ، ثم قال: كيف ترىٰ يا عَمْرُو؟ فقال له عمرو: والله إنَّك لَتَعْلَمُ أنِّي لأعلم أنَّك تكذبُ][٥].

---

(١) البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧)، وأبو عوانة (١/ ٣٤٨)، وأحمد (٢/ ٢٣٨).

(٢) مسلم (٢٨٤٤)، وأحمد (٢/ ٣٧١).

(٣) البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

(٤) انظر أول سورة الإسراء.

(٥) زيادة من (ح).

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥)﴾

لما ذكر تبارك وتعالىٰ ما أعدَّه لأعدائه مِن الأشقياء الكافرين به وبِرُسُلِهِ من العذاب والنَّكال، عَطف بذكر حال أوليائه مِن السُّعداء المؤمنين به وبِرُسُلِهِ، الذين صَدَّقوا [إيمانهم] (١) بأعمالهم الصَّالحة، وهذا معنىٰ تسميةِ القرآن «مَثَانِي» علىٰ أصحِّ أقوال العلماء، كما سَنَبْسُطُه في موضعه إن شاء الله تعالىٰ وهو أن يَذْكُرَ الإيمانَ ويُتْبِعَهُ بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصِلُهُ: ذِكْرُ الشَّيء ومقابله. وأما ذِكْرُ الشَّيءِ ونظيره فذاك التَّشابه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (٢)[فوصفها بأنَّها تجري مِن تحتها الأنهار] (٣)، كما وصف النَّار بأنَّ وقودها النَّاس والحجارة، ومعنىٰ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا (٤) ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري مِن تحت أشجارها وغُرَفِها، وقد جاء في الحديث: أنَّ أنهارها تجري مِن غير أُخْدُودٍ (٥)، وجاء في الكوثر [أنَّ حَافَّتَيْهِ] (٦) قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ المجوَّف (٧)، ولا منافاة بينهما، وطِينُهَا المسك الأَذْفَر (٨)، وحصباؤها اللُّؤْلُؤ والجوهر، نسأل الله مِن فضله وكرمه إنَّه هو البرُّ الرَّحيم.

وقال ابن أبي حاتم: قُرِئَ علىٰ الرَّبيع بن سليمان: حدَّثنا أسد بن موسىٰ، حدَّثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن قُرَّة، عن عبد الله بن ضَمْرَة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنْهَارُ الجَنَّةِ تُفَجَّرُ مِنْ**

---

(١) في (ز): (أيمانهم الصادقة).

(٢) قال السعدي رحمه الله: ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المبشِّر والمبشَّر، والمبشَّرُ به، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمبشِّر: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشَّر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشَّر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك، هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلىٰ الوصول إلىٰ هذه البشارة، إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة، علىٰ يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) لوحة (٤٩ أ).

(٥) صححه الألباني: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٥)، وفي «صفة الجنة» (٣١٦)، وفي إسناده الجريري اختلط، والراوي عنه يزيد بن هارون؛ ممن رووا عنه بعد الاختلاط، فالإسناد ضعيف.

ورواه ابن أبي الدنيا، وصححه الشيخ الألباني أثناء تعليقه علىٰ الحديث (٢٥١٣) من «الصحيحة». وقد صحح المنذري الموقوف.

قلت: وهو في حكم المرفوع؛ لأنَّ مثله لا يقال بالرأي.

(٦) في (ح): (حافتاه) بالرفع من غير «إن».

(٧) البخاري (٦٥٨١)، والترمذي (٣٤١٧)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٢٧)، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٦٥)، وانظر: تفسير سورة الكوثر.

(٨) المسك الأذفر: الطيب والريح.

تَحْتِ تِلَالِ -أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالِ- الِمسْكِ»[1].

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو سعيد، حدَّثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّةَ، عن مسروق، قال: قال عبد الله: أَنهارُ الجنَّة تُفَجَّرُ مِن جبل مِسْكٍ[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قال السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس وعن مُرَّة عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصَّحابة: ﴿قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قال: إنَّهم أَتَوْا بالثَّمرة في الجنَّة، فلمَّا نظروا إليها قالوا: هذا الَّذي رُزِقْنَا من قَبْلُ في دار الدُّنيا[3].

وهكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زَيدِ بن أسلم، ونصره ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قال: معناه: مثل الذي كان بالأمس، وكذا قال الرَّبيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون: ما أَشْبَهَهُ بِهِ.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويلُ ذلك هذا الَّذي رُزِقْنَا مِن ثمار الجنَّة مِن قَبْلِ هذا لشدَّة مشابهة بعضه بعضًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ وقال سُنَيد بن داود: حدَّثنا شيخٌ مِن أهلِ المِصِّيصَةِ[4]، عن الأوزاعي، عن يحيىٰ بن أبي كثير، قال: يُؤْتَىٰ أحدُهُم بالصَّحْفَةِ مِن الشيء، فيأكُل منها ثمَّ يُؤْتَىٰ بأخرىٰ فيقول: هذا الذي أُوتِينَا به من قبل. فتقول الملائكة: كُلْ، فاللَّون واحد، والطَّعم مُخْتَلِفٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا عامر بن يَسَاف، عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: عُشْبُ الجنَّة الزَّعفران، وكُثبَانُها المسك، ويطوف عليهم الوِلْدَانُ بالفواكه فيأكلونها ثم يُؤْتَوْن بمثلها، فيقول لهم أهلُ الجنَّة: هذا الذي أَتَيْتُمُونا آنفًا به، فيقول لهم الوِلْدَانُ: كُلُوا، فإنَّ اللَّون واحد، والطَّعم مختلف. وهو قول الله تعالىٰ: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

وقال أبو[5] جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يُشْبِهُ بعضه بعضًا، ويختلف في الطعم.

وقال ابن أبي حاتم: ورُوي عن مجاهد، والربيع بن أنس، والسُّدِّي نحو ذلك.

---

(١) حسن: رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٣١٣)، وابن أبي حاتم (١/ ٦٥)، وابن حبان (٧٤٠٨)، وله شاهد موقوف عن ابن مسعود، رواه ابن أبي شيبة (١٣/ ٩٦)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٠٦)، وإسناده صحيح وهو الأثر الذي أورده ابن كثير بعده.

(٢) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٢٥٥)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٩٦).

(٣) رواه الطبري (١/ ١٧١)، وابن أبي حاتم (٢٥٨).

(٤) المَصِّيصَة: مدينة علىٰ شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طَرَسوس. «معجم البلدان» (٥/ ١٤٤).

(٥) لوحة (٤٩ ب).

وقال ابن جرير بإسناده عن السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس وعن مُرَّة، عن ابن مسعودٍ، وعن ناسٍ من الصَّحابة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ يعني: في اللَّون والمَرْأَىٰ، وليس يَشْتَبِه في الطعم[(١)].

وهذا اختيار ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ قال: يُشْبِهُ ثَمَرَ الدُّنيا، غير أنَّ ثمر الجنَّة أطيب.

وقال سفيان الثَّوري، عن الأعمش، عن أبي ظِبْيان، عن ابن عبَّاس، لا يُشْبِه شَيءٌ مما في الجنَّة ما في الدُّنيا إلا في الأسماء[(٢)]، وفي روايةٍ: ليس في الدُّنيا ممَّا في الجنَّة إلا الأسماء. رواه ابن جرير، من رواية الثوري، وابن أبي حاتم مِن حديث أبي معاوية كلاهُما عن الأعمش به.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدُّنيا: التُّفَّاح بالتُّفَّاح، والرُّمَّان بالرُّمَّان، قالوا في الجنَّة: هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْل في الدنيا، وأُتُوا به مُتَشابِهًا، يعرفونه وليس هو مثله في الطعم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: مُطهَّرةٌ مِن القَذَرِ والأذَىٰ.

وقال مجاهد: مِن الحيضِ والغَائطِ والبَولِ والنُّخَام والبُزَاق والمَنِيِّ والوَلَدِ.

وقال قتادة: مُطهَّرة من الأذىٰ والمَأْثَم. وفي رواية عنه: لَا حَيْضَ ولا كَلَفَ. ورُوِيَ عن عطاء والحسنِ والضَّحَّاك وأبي صالح وعطيَّة والسُّدِّي نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس بن عبد الأعلىٰ أنبأنا ابن وَهْب، عن عبد الرحمن بن زَيد بن أَسْلَم، قال: المطهَّرة التي لا تَحيضُ. قال: وكذلك خُلِقَتْ حَوَّاء -عليها السَّلام- حتَّىٰ عصَتْ، فلمَّا عصَتْ قال الله تعالىٰ: إنِّي خلقتُكِ مطهَّرةً وسَأُدْمِيكِ كما أَدْمَيْتِ هذه الشَّجرة. وهذا غريب[(٣)].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه: حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد، حدَّثني جعفر بن محمَّد بن حرب، وأحمد بن محمَّد الجُوري قالا: حدَّثنا محمَّد بن عُبَيْدِ الكِنْدِي، حدَّثنا عبد الرَّزاق بن عمر البَزِيعيّ حدَّثنا عبد الله بن المبارك عن شُعبة، عن قتادة، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «مِنَ الحَيْضِ وَالغَائِطِ والنُّخَاعَةِ وَالبُزَاقِ[(٤)]»[(٥)].

---

(١) رواه الطبري (١/ ١٧٣).

(٢) رواه الطبري (١/ ١٧٤) وإسناده صحيح.

(٣) رواه الطبري (١/ ١٧٦) وإسناده مرسل.

(٤) لوحة (٥٠ أ).

(٥) ضعيف عزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ ابن مردويه، والحاكم ورواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٦٣)، وقد بيَّن ابن كثير علته: أن عبد الرزاق بن عمر البزيعي قال فيه أبو حاتم: لا يجوز الاحتجاج به، وقد عزاه الحافظ في «تغليق التعليق» (٣/ ١٩٩) إلىٰ ابن الأعرابي في «معجمه» وقال: إسناده لا بأس به (لكنه لم يذكر إسناده)، فإن كان من نفس الطريق فيكون ذلك وهمًا من الحافظ؛ لأنه قال في «الفتح» (٥/ ٣٢٠): ولا يصح إسناده.

هذا حديثٌ غريب. وقد رواه الحاكم في «مستدركه»، عن محمَّد بن يعقوب، عن الحسن بن علي ابن عفان، عن محمَّد بن عُبَيد به، وقال: صحيحٌ علىٰ شرط الشيخين.

وهذا الذي ادَّعاه فيه نظر؛ فإنَّ عبد الرزاق بن عمر البزيعي هذا قال فيه أبو حاتم بن حِبَّان البُسْتي: لا يجوز الاحتِجَاج به.

قلتُ: والأظهر أنَّ هذا مِن كلام قتادة، كما تقدَّم، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذا هو تمام السَّعادة، فإنَّهم مع هذا النَّعيم في مقام أمينٍ مِن الموت والانقطاع فلا آخِر له ولا انقضاء، بل في نعيمٍ سَرمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ علىٰ الدَّوام، والله المسؤول أن يحشُرَنا في زُمْرَتِهِم، إنَّه جواد كريم، برٌّ رحيم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قال السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصَّحابة: لما ضربَ الله هذين المثلين للمنافقين؛ يعني: قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: اللهُ أَعْلَىٰ وأَجَلُّ مِن أن يَضْرِب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: لما ذكر الله العنكبوت والذُّباب، قال المشركون: ما بَال العنكبوت والذُّباب يُذْكَرَان؟ فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ(٢) أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

وقال سعيد، عن قتادة: أي: إنَّ الله لا يَسْتَحِيي من الحقِّ أن يَذْكُرَ شيئًا ما، قلَّ أو كثُر، وإنَّ الله حين

---

(١) رواه الطبري (١/ ١٧٧).

(٢) قال أبو بكر الجزائري: الحياء: تغيّر وانكسار يعتري الإنسان عند الخوف مما يعاب به أو يذم، والله يوصف بالحياء علىٰ الوجه اللائق به، فصفة الحياء عنده تعالىٰ لا تشبه صفات المحدثين كسائر صفاته ﷻ، والاستحياء والحياء بمعنىٰ واحد، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي يقول الرسول ﷺ: «**إن الله حيي كريم يستحي أن يرفع إليه العبد يديه فيردهما صفرًا**»، فقد ثبت صفة الحياء لله ﷻ وهو قطعًا حياء واستحياء لا يشبه حياء واستحياء البشر بحال من الأحوال.

ذَكَرَ في كتابه الذُّباب والعَنكبُوت قال أهلُ الضَّلالة: ما أراد الله مِن ذِكْر هذا؟ فأنْزَل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾.

قلتُ: العبارة الأُولىٰ عَن قتادة فيها إشعار أنَّ هذه الآية مكيَّة، وليس كذلك، وعبارة رواية سعيد، عن قتادة أقربُ والله أعلم. ورَوَىٰ ابن جُرَيج عن مجاهد نحو هذا الثَّاني عَن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: رُوِيَ عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السُّدِّي[١] وقتادة.

وقال أبو جعفر الرَّازي عن الرَّبيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ الله للدُّنيا؛ إِذِ البعوضة تحيا ما جَاعَتْ، فإذا سَمِنَتْ مَاتَتْ. وكذلك مثل هؤلاء القَوم الَّذين ضُرِبَ لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلَؤُوا مِن الدُّنيا رِيًّا أخذهم الله تعالىٰ عند ذلك، ثمَّ تَلَا ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

هكذا رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم مِن حديث أبي جعفر، عن الرَّبيع، عن أبي العالية بنحوه، فالله أعلم.

فهذا اختلافهم في سبب النُّزول، وقد اختار ابن جرير ما حكاه السُّدِّي؛ لأنَّه أَمَسُّ بالسُّورة، وهو مناسب، ومعنىٰ الآية: أنَّه تعالىٰ أخبر أنَّه لا يستحيي؛ أي: لا يَسْتَنْكِف، وقيل: لا يَخْشَىٰ أَنْ يضرب مثلًا ما؛ أي: أيَّ مَثَل ما كان، بأيِّ شيءٍ كان، صغيرًا كان أو كبيرًا.

و«مَا» هاهنا للتَّقليل [زائدة][٢] وتكون ﴿بَعُوضَةٗ﴾ منصوبةً علىٰ البدل، كما تقول: لَأَضْرِبَنَّ ضَرْبًا مَا، فيَصْدُقُ بأدنىٰ شيءٍ [أو تكون «ما» نكرة موصوفة بِبَعُوضَة][٣]. واختار ابن جرير أنَّ «مَا» موصولة، و﴿بَعُوضَةٗ﴾ معربة بإعرابها، قال: وذلك سائغٌ في كلام العرب، أنَّهم يعربون صلة «مَا» و«مَنْ» بإعرابهما؛ لأنَّهما يكونان معرفةً تارةً، ونكرةً أخرىٰ، كما قال حسَّان بن ثابت:

وَكَفَىٰ بِنَا فَضْلًا عَلَىٰ مَنْ غَيْرِنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا

قال: ويجوز أن تكون ﴿بَعُوضَةٗ﴾ منصوبة بحذف الجار، وتقديرُ الكلام: إنَّ الله لا يستحيي أَنْ يَضْرِب مثلًا مَا بين بعوضةٍ إلىٰ ما فوقها.

[وهذا الَّذي اختاره الكسائي والفراء. وقَرَأَ الضَّحَّاك وإبراهيم بن أبي عَبْلَة ورُوِيَت «بَعُوضَةٌ» بالرَّفع[٤]، قال ابن جني: وتكون صلة لـ«مَا» وحُذِف العائد كما في قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾

---

(١) لوحة (٥٠ ب).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) قراءة: قَرَأَ (بَعُوضَةٌ) الضَّحَاكُ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي عَبْلَةَ وَرُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ وَقُطْرُبٌ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ وَالشَّاذِّ إِلَّا النَّصْبُ.

[الأنعام: ١٥٤] أي: علىٰ الَّذي أحسن هو أحسن، وحكىٰ سيبويه: ما أَنَا بالَّذِي قائلٌ لك شيئًا؛ أي: يعني بالذي هو قائل لك شيئًا](١).

وقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: فما دونها في الصِّغَر والحقارة، كما إذا وُصِفَ رَجُلٌ باللُّؤم والشُّح، فيقول السَّامع: نعم، وهو فوق ذلك؛ يعني: فيما وَصَفْتَ. [وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة، قال الرازي: وأكثر المحققين، وفي الحديث: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»(٢)](٣). والثَّاني: فما فوقها: فما هو أكبر منها؛ لأنَّه ليس شيءٌ أحقرَ ولا أصغرَ مِن البعوضة. وهذا [قول قتادة بن دِعَامة](٤) واختيار ابن جرير.

[ويُؤَيِّدُه ما رواه مسلم عن عائشة ﵂: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»(٥)](٦).

فأخبر أنَّه لا يستصغر شيئًا يَضْرب به مثلًا ولو كان في الحقارة والصِّغَر كالبعوضة، [كما لم يَسْتَنْكِف عن خلقها كذلك لا يَستَنْكِف مِن ضَرْب المثل بها](٧) كما ضرَب المثَل بالذُّباب والعنكبوت في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ (٨) أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ الآية [النحل: ٧٥]،

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) حسن لشواهده: رواه الترمذي (٢٣٢٠)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢٥٠)، وفيه عبد الحميد بن سليمان. قال ابن معين: ليس بشيء، وللحديث متابعات وشواهد، فقد تابع عبد الحميد: زكريا بن منظور، رواه ابن ماجة (٤١١٠)، والحاكم (٤/ ٣٠٦)، وزكريا هذا ضعفوه كما قال الذهبي.

ومن شواهد الحديث: عن ابن عمر، وابن عبَّاس وعن رجال من أصحاب النبي ﷺ، وقد أوردها الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٩٤٣)، وقال: والصواب أن الحديث صحيح لغيره.

(٣) زيادة من (ح). (٤) زيادة من (ح).

(٥) مسلم (٢٥٧٢)، ورواه البخاري (٥٦٤٠)، والترمذي (٩٦٥) نحوه.

(٦) زيادة من (ح).

(٧) زيادة من (ح). (٨) لوحة (٥١ أ).

ثم قال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ الآية [النحل: ٧٦]، كما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨]. وقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ الآية [الزمر: ٢٩]، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السَّلف: إذا سَمِعْت المثَل في القُرآن فلَم أفْهمْهُ بَكَيْتُ علىٰ نفسي؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾

وقال مجاهد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الأمثال صغيرها وكبيرها يُؤْمِن بها المؤمنون ويَعلمون أنَّها الحقُّ مِن ربهم، ويهديهم الله بها.

وقال قتادة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: يعلمون أنَّه كلام الرحمن، وأنَّه مِن عند الله.

وروي عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال أبو العالية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني: هذا المثل: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ كما قال في سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]، وكذلك قال هاهنا: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

قال السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصَّحابة: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعني: المنافقين، ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعني: المؤمنين، فيَزِيدُ هؤلاء ضلالةً إلىٰ(١) ضلالهم لتكذيبهم بما قد عَلِمُوه حقًّا يَقِينًا، من المثل الَّذي ضربه الله بما ضَرَبَه [لهم وأنَّه لِما ضربه](٢) له مُوافقٌ، فذلك إضلالُ الله إيَّاهم به ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعني: بالمثل كثيرًا مِن أهل الإيمان والتَّصديق، فيَزيدهم هدًىٰ إلىٰ هداهم وإيمانًا إلىٰ إيمانهم؛ لتصديقهم بما قد عَلِمُوه حقًّا يقينًا أنَّه موافق ما ضربه الله له مثلًا وإقرارهم به، وذلك هدايةٌ مِن الله لهم به ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون(٣).

---

(١) لوحة (٥١ ب).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) الطبري (١/ ١٨١).

وقال أبو العالية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: هُم أهلُ النِّفاق. وكذا قال الرَّبيع بن أنس.

وقال ابن جريج عن مجاهد، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يقول: يَعْرِفُه الكافِرُون فيَكْفُرُون به(١).

وقال قتادة: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فَسَقُوا، فأضلَّهم الله علىٰ فِسْقِهم.

وقال ابن أبي حاتم: حُدِّثتُ عن إسحاق بن سليمان، عن أبي سِنان، عن عمرو بن مُرَّة، عن مصعب بن سعد، عن سعد ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعني: الخوارج(٢).

وقال شُعْبَةُ، عن عمرو بن مُرَّة، عن مصعب بن سعد، قال: سألتُ أبي فقلت: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ إلىٰ آخر الآية، فقال: هم الحَرُورِيَّة(٣). وهذا الإسناد إن صَحَّ عن سعد بن أبي وقَّاص ﷺ فهو تفسيرٌ علىٰ المعنىٰ، لا أنَّ الآية أُرِيدَ منها التَّنصِيص علىٰ الخوارج، الَّذين خرجوا علىٰ عليٍّ بالنَّهْرَوَانِ، فإنَّ أولئك لم يكونوا حَالَ نُزُولِ الآية، وإنَّما هم داخلون بِوَصْفِهِم فيها مع مَنْ دَخَلَ؛ لأنَّهم سُمُّوا خوارجَ لخروجهم علىٰ طاعةِ الإمام والقيام بشَرَائِع الإسلام.

والفاسِقُ في اللُّغة: هو الخارج عن الطَّاعة أيضًا. وتقول العَرب: فَسَقَتِ الرُّطَبَة: إذا خرجت مِن قِشْرَتها؛ ولهذا يقال للفأْرة: فُوَيْسِقَة؛ لخروجها عن جُحْرِها للفَساد. وثبت في «الصَّحيحين»، عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**خَمْسُ فَوَاسِقَ يُقْتَلْنَ فِي الحِلِّ وَالحَرَمِ: الغُرَابُ، وَالحِدَأَةُ، وَالعَقْرَبُ، وَالفَأْرَةُ، وَالكَلْبُ العَقُورُ**»(٤).

فالفاسق يشمل الكافِر والعَاصِي، ولكن فِسْقُ الكافر أَشَدُّ وأفحَشُ، والمراد مِن الآية: الفَاسق الكافر، والله أعلم، بدليلِ أنَّه وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وهذه الصفات صفات الكفار المُبَايِنَةِ لصفات المؤمنين، كما قال(٥) تعالىٰ في سُورَة الرَّعد: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۞ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ الآيات، إلىٰ أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٥].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٢٨٧).

(٢) ابن أبي حاتم (٢٨٢، ٢٨٨، ٢٩٣) والإسناد الأول: منقطع، والثاني: صحيح.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) البخاري (٣٣١٤) (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨)، والترمذي (٨٣٧)، والنسائي (٥/ ٢٠٨)، وابن ماجة (٣٠٨٧).

(٥) لوحة (٥٢ أ).

وقد اختلف أهلُ التَّفسير في معنىٰ العَهْد الَّذي وصف هؤلاء الفاسقين بِنَقْضِهِ، فقال بعضهم: هو وَصِيَّة الله إلىٰ خَلْقِهِ وأَمْرُهُ إيَّاهم بما أَمَرَهُمْ بِهِ مِن طاعته، ونَهْيِهِ إيَّاهم عما نهاهم عنه مِن معصيته في كُتُبِهِ، وعلىٰ لسان رُسُلِهِ، وَنَقْضِهِم ذلك هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هِيَ في كُفَّارِ أهل الكتاب والمُنَافِقِين مِنهُم، وعَهْدُ الله الذي نقضوهُ هُو ما أخذه الله عَلَيْهِم في التَّوراة مِن العمل بما فيها واتِّباع محمَّد ﷺ إذا بعث والتَّصديق بِهِ، وبما جاء به مِن عِنْدِ رَبِّهِم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد مَعْرِفَتِهِم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكِتْمَانِهِم عِلْمَ ذلك عَنِ النَّاس بعد إعطائهم الله مِن أنفسهم الميثاق لَيُبَيِّنُنَّهُ للنَّاس ولا يَكتُمُونَه، فأخبر تعالىٰ أَنَّهم نبذُوهُ وراء ظُهُورِهم، واشْتَرَوْا به ثمنًا قليلًا. وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقول مقاتل بن حيَّان.

وقال آخرون: بل عَنَىٰ بهذه الآية جميع أهل الكُفْر والشِّرْكِ والنِّفَاق. وعَهْدُهُ إلىٰ جَمِيعِهِم في توحيده: ما وضع لهم مِن الأدلَّة الدَّالَّة علىٰ رُبُوبِيَّته، وعَهْدُهُ إليهم في أمره ونَهْيِهِ ما احتجَّ به لرسله مِن المعجزات التي لا يقدر أحدٌ مِن الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، الشَّاهدة لهم علىٰ صدقهم، قالوا: ونَقْضُهُم ذلك: تَركُهُم الإقرار بما ثبتت لهم صحَّتُه بالأدلَّة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أنَّ ما أَتَوْا به حق.

وروي أيضًا عن مقاتل بن حيان نحو هذا، وهو حسن، [وإليه مَالَ الزَّمخشري، فإنَّه قال: فإن قُلتَ: فما المُرادُ بعَهْدِ الله؟ قلتُ: ما رَكَزَ في عقولهم مِن الحُجَّة علىٰ التَّوحيد كأنَّه أَمْرٌ وَصَّاهُم به ووَثَّقَهُ عَلَيْهِم وهو معنىٰ قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢] إذ أخذ الميثاق عليهم في الكتب المُنَزَّلة عليهم لقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾][(١)] [البقرة: ٤٠].

وقال آخرون: العهدُ الَّذي ذكره الله تعالىٰ هو العهدُ الَّذي أخذه عليهم حِينَ أَخرجَهُم مِن صُلْب آدم الَّذي وصف في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ[(٢)] قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ الآيتين [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] ونَقْضُهُم ذلك تَرْكُهُم الوفاء به. وهكذا رُوِي عن مقاتل بن حيَّان أيضًا.

حكىٰ هذه الأقوال ابن جرير في «تفسيره».

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قال: هي ستُّ خصالٍ مِن المنافقين إذا كانت فيهم الظَّهْرَةُ[(٣)] علىٰ النَّاس أظهروا هذه الخصال: إذا حَدَّثُوا كَذَبُوا، وإذا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وإذا اؤْتُمِنُوا خَانُوا، ونقضوا عهد الله

(١) زيادة من (ح).
(٢) لوحة (٥٢ ب).
(٣) الظهرة :الغلبة.

مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وقطعوا ما أَمَرَ الله به أَن يُوصَل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظَّهْرَةُ عليهم أظْهَرُوا الخصال الثَّلاث: إذا حَدَّثُوا كَذَبُوا، وإذا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وإذا اؤْتُمِنُوا خانُوا.

وكذا قال الرَّبيع بن أنس أيضًا. وقال السُّدِّي في «تفسيره» بإسناده قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ قال: هو ما عَهِدَ إليهم في القرآن فأقَرُّوا به ثُمَّ كفروا فنقَضُوه.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به: صلةُ الأرحَام والقَرَابَات، كما فسَّره قتادة كقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ورجَّحه ابن جرير. وقيل: المراد أعمُّ مِن ذلك فكُلُّ ما أمَرَ الله بِوَصْلِهِ وفِعْلِهِ قَطَعُوه وتَرَكُوه.

وقال مُقاتل بن حيَّان في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قال في الآخرة، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: كلُّ شيءٍ نسبه الله إلىٰ غير أهل الإسلام مِن اسمٍ مثل خَاسِرٍ، فإنَّما يعني به الكفر، وما نَسَبَه إلىٰ أهل الإسلام فإنَّما يَعْنِي به الذَّنْبَ[١].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الخاسرون: جمع خاسر، وهم النَّاقصون أنفسهم حُظوظَهُم بمعْصِيَتِهِم اللهَ مِن رَحْمَتِهِ، كما يخسر الرَّجُل في تِجارَتِهِ بأن يُوضَع مِن رَأْسِ مَالِهِ في بَيْعِهِ، وكذلك الكافر والمنافق خَسِرَ بحرمان الله إيَّاه رحمته التي خلقها الله لعباده في القيامة أَحْوَجَ ما كانوا إلىٰ رحمته، يُقال منه: خَسِرَ الرَّجُلُ يَخْسَرُ خَسْرًا وخُسْرانًا وخَسارًا، كما قال جرير بن عطية:

إنَّ سَلِيطًا فِي الخَسَارِ إنَّهُ … أَوْلادُ قَوْمٍ خُلِقُوا أَقِنَّهْ[٢][٣]

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مُحْتَجًّا علىٰ وُجُودِهِ وقُدْرتِهِ، وأنَّه الخالق المُتَصَرِّفُ فِي عِبادِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: كيف تَجْحَدُون وُجُودَه أو تَعْبُدُون معه غيره! ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ أي: قد كنتم عَدَمًا فأخرجكُم إلىٰ الوجود؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والآيات في هذا كثيرة.

وقال سُفيان الثَّوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأَحْوَص، عن عبد الله بن مسعود ﷺ: ﴿قَالُوا۟

---

(١) رواه الطبري (١/ ١٨٥)، وفيه بشر بن عمارة: ضعيف، والإسناد منقطع، فالضحاك لم يلقَ ابن عبَّاس.
(٢) لوحة (٥٣ أ).
(٣) أقنة :جمع قِن، وهو العبد.

﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر: ١١] قال: هي التي في البقرة: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾[1].

وقال ابن جُريج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ أمواتًا في أصلاب آبائِكُم، لم تكُونوا شيئًا حتىٰ خلقكُم، ثم يُمِيتكم مَوْتَةَ الحقِّ، ثم يُحْيِيكم حين يَبْعَثكم. قال: وهي مثل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾[2].

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ قال: كُنتم ترابًا قبل أنْ يخلقكم فهذه مِيتَةٌ، ثمَّ أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثمَّ يُميتكم فترْجِعُون إلىٰ القبور فهذه مِيتَةٌ أُخرَىٰ، ثم يَبْعَثُكُم يومَ القيامة فهذه حياةٌ أخرىٰ. فهذه مِيتَتَان وحياتَانِ، فهو كقوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾[3].

وهكذا روي عن السُّدِّي بسنده، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة، عن ابن مسعود وعن ناسٍ من الصَّحابة -وعن أبي العالية والحسن البصري ومجاهد وقتادة وأبي صالح والضَّحَّاك وعطاء الخراساني نَحْوُ ذلك.

وقال الثوري، عن السُّدِّي عن أبي صالح: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ قال: يُحْيِيكُم في القبر، ثم يُمِيتكم.

وقال ابن جرير عَن يُونُس، عن ابن وَهْبٍ، عن عبد الرَّحمن بن زَيْد بن أسلم؛ خلقهُم مِن ظَهْرِ آدم ثمَّ أخذ عليهم الميثاق، ثمَّ أماتهم ثمَّ خلقهم في الأَرْحَام، ثمَّ أماتهم، ثمَّ أحياهم يومَ القِيامة. وذلك كقول الله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ وهذا[4] غريبٌ والذي قبله. والصَّحيح ما تقدَّم عَن ابنِ مسعود وابن عبَّاس، وأولئك الجماعة مِن التَّابعين، وهو كقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

[وعبَّر عن الحال قبل الوُجود بالمَوتِ بجامع ما يَشتَرِكان فيه مِن عدمِ الإِحسَاس، كما قال في الأصنام: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النحل: ٢١]، وقال ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]][5].

---

(١) صحيح: رواه الطبري (١/ ١٨٦)، وابن أبي حاتم (٣٠٠)، والحاكم (٥/ ٤٣٧).

(٢) رواه الطبري (١/ ١٨٦- ١٨٧)، وابن أبي حاتم (٣٠٢)، وإسناده منقطع بين عطاء الخراساني وابن عبَّاس، لكن يشهد له أثر ابن مسعود السابق.

(٣) رواه الطبري (١/ ١٨٧)، وإسناده منقطع، وفيه بشر بن عمارة: ضعيف، والضحاك لم يلقَ ابن عبَّاس، لكن يشهد له أثر ابن مسعود السابق.

(٤) لوحة (٥٣ ب).

(٥) زيادة من (ح).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

لمَّا ذكر تعالىٰ دلالةً مِنْ خَلْقهم وما يُشاهِدُونه من أنفسهم، ذكر دليلًا آخرَ ممَّا يُشاهدونه مِنْ خَلْق السَّموات والأرض، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ[1] إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: قصد إلىٰ السَّماء، والاستواء هاهنا تَضَمَّن معنىٰ القصد والإقبال؛ لأنَّه عُدِّيَ بـ«إلىٰ» ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي: فخلق السَّماء سبعًا، والسَّماء هاهنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وعِلْمُه محيطٌ بجميع ما خلق. كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وتفصيل هذه الآية في سورة ﴿حمٓ﴾ السجدة وهو قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۞ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۞ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

ففي هذا دلالة علىٰ أنَّه تعالىٰ ابتدأ بخلق الأرض أولًا ثمَّ خَلَقَ السَّموات سبعًا، وهذا شأن البناء أن يُبْدأَ بعمارة أَسافِله ثم أَعاليه بعد ذلك، وقد صرَّح المفسِّرون بذلك، كما سنذكره بعد هذا [إن شاء الله][2]. فأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۞ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢] فقد قيل: إنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا إنَّما هي لعطف الخبر علىٰ الخبر، لا لعطف الفِعل علىٰ الفِعل، كما قال الشاعر:

قُـلْ لِمَـنْ سَـادَ ثُـمَّ سَـادَ أَبُـوهُ ... ثُـمَّ قَـدْ سَـادَ قَبْـلَ ذَلِـكَ جَـدُّهُ

وقيل: إن الدَّحْي كان بعد خَلْقِ السموات، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس.

وقد قال السُّدِّي في «تفسيره»، عن أبي مالك - وعن أبي صالح عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن[3] ناسٍ مِن الصحابة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال: إنَّ الله تبارك وتعالىٰ كان عرشُهُ علىٰ المَاءِ، لم يَخْلُق شيئًا غير ما

---

(١) قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترد في القرآن علىٰ ثلاثة معاني: فتارة لا تعدیٰ بالحرف، فيكون معناها، الكمال والتمام، كما في قوله عن موسىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ وتارة تكون بمعنىٰ «علا» و «ارتفع» وذلك إذا عديت بـ «علىٰ» كما في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ وتارة تكون بمعنىٰ «قصد» كما إذا عديت بـ «إلىٰ» كما في هذه الآية.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) لوحة (٥٤ أ).

خلق قبل الماء. فلمَّا أراد أن يخلق الخَلْقَ، أخرج مِن الماء دُخانًا، فارْتَفَع فوق الماء فسَمَا عليه، فسَمَّاه سَمَاءً. ثم أَيْبَسَ الماء فجعله أرضًا واحدةً، ثم فتقها فجعَلَهَا سبع أرضين في يَوْمَيْن في الأحد والاثنين، فخلق الأرضَ علىٰ حُوتٍ، والحُوتُ هو النُّون الذي ذكره الله في القرآن: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ والحوت في الماء، والماء علىٰ ظهر صَفَاةٍ، والصَّفَاةُ علىٰ ظَهْرِ مَلَك، والملك علىٰ صَخْرَةٍ، والصَّخْرَة في الرِّيح، وهي الصخرة التي ذكر لقمان -لَيْسَت في السَّماء ولا في الأرض، فتحرَّك الحوت فاضْطَرَبَ، فتزَلْزَلَتِ الأرض، فأَرْسَىٰ عليها الجبال فقَرَّت، فالجبال تَفْخَرُ علىٰ الأرض، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]. وخَلَقَ الجبال فيها، وأَقْوَاتَ أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يَوْمَيْن، في الثُّلاثاء والأَرْبِعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ٩، ١٠]. يقول: أَنْبَتَ شجرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [يقول: أقواتها][1] لِأَهْلِها ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] يقول: مَنْ سَأَلَ فَهكَذَا الأَمْرُ. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وذلك الدُّخان مِن تَنَفُّسِ الماء حين تَنَفَّسَ، فجعلها سماءً واحدةً، ثم فَتَقَهَا فجعلها سبع سموات في يومين، في الخميس والجمعة، وإنَّما سُمِّي يوم الجمعة؛ لأنَّه جمع فيه خلق السَّماوات والأرض، ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] قال: خلق الله في كلِّ سماءٍ خلقها مِن الملائكة والخلق الذي فيها، مِن البحار وجِبَالِ البَرَدِ وما لا نعلم، ثمَّ زَيَّن السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينةً وحِفظًا تُحفَظُ مِن الشياطين. فلما فَرَغَ مِن خلق ما أَحَبَّ استوىٰ علىٰ العرش، فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ويقول: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠][2].

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنَّىٰ، حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثني أبو معشر عن سَعيد بن أبي سَعيد، عن عبد الله بن سلام أنَّه قال: إنَّ الله بدأ الخلق يوم الأَحَدِ، فخلق الأَرَضِينَ[3] في الأحد والاثنين، وخلق الأقواتَ والرَّواسِي في الثُّلاثاء والأربعاء، وخلق السَّماوات في الخميس والجمعة، وفرغ في آخِرِ ساعةٍ من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم علىٰ عَجَل، فتلك السَّاعة التي تقوم فيها الساعة[4].

وقال مجاهد في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: خلق الله الأرض قبل

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (١/ ١٩٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١١٨)، وإسماعيل السُّدِّي: ضعيف وفي الإسناد: أسباط بن نصر، قال الحافظ: صدوق كثير الخطأ يغرب، وهذه الروايات أشبه أن تكون من الإسرائيليات.

(٣) لوحة (٥٤ ب).

(٤) رواه الطبري (١/ ١٩٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٨٢) وإسناده ضعيف، ففي إسناده عبد الله بن صالح: صدوق كثير الغلط، وأبو معشر: نجيح بن عبد الرحمن ضعيف الحديث، لكن رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٨٦) من طريق آخر مع بعض الاختلاف في لفظه بسند صحيح، ولبعض ما جاء به شاهد في «الصحيح». انظر: حديث أبي هريرة الآتي.

السماء، فلمَّا خلق الأرض ثَار منها دُخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قال: بعضُهُنَّ فوق بعض، وسبع أرضين؛ يعني: بعضهن تحت بعض.

[وهذه الآية دالَّة علىٰ أنَّ الأرض خُلِقَت قبل السَّماء، كما قال في آية السجدة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢] فهذه وهذه دالَّتان علىٰ أنَّ الأرض خُلِقَت قَبْلَ السَّماء، وهذا ما لا أَعْلَم فيه نزاعًا بين العُلَمَاء إلَّا ما نقله ابن جرير عَن قتادة: أنَّه زعم أنَّ السماء خُلِقَتْ قبل الأرض، وقد توَقَّف في ذلك القرطبي في «تفسيره» لقوله تعالىٰ:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣١] قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض. وفي «صحيح البخاري»: أنَّ ابن عبَّاس سُئِلَ عن هذا بعَيْنِه، فأجاب بأنَّ الأرض خُلِقَت قبل السَّماء وأنَّ الأرض إنَّما دُحِيَتْ بعد خلق السماء(١)، وكذلك أجاب غير واحد مِن عُلَماء التَّفسير قديمًا وحديثًا، وقد قَرَّرْنا ذلك في تفسير سورة النَّازعات، وحاصل ذلك أنَّ الدَّحْي مُفسَّرٌ بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠-٣٢] ففسَّر الدَّحْي بإخراج ما كان مُودعًا فيها بالقوَّة إلىٰ الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضيَّة ثم السماويَّة دَحَىٰ بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعًا فيها مِن المياه، فَنَبَتَتِ النباتات علىٰ اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جَرَتْ هذه الأفلاك فدَارَت بما فيها من الكواكب الثَّوابت والسَّيَّارة، والله ﷻ أعلم](٢).

وقد ذكر ابنُ أبي حاتم وابن مَرْدوَيْه في تفسير هذه الآية الحديثَ الَّذي رواه مسلم والنَّسائي في التَّفسير أيضًا مِن رواية ابن جُرَيج قال: أخبرني إسماعيل بن أُميَّة، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولىٰ أم سلمة، عن أبي هريرة ﷺ، قال: أخذ رسولُ الله ﷺ بِيَدِي فقال: «**خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصْرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَىٰ اللَّيْلِ**»(٣).

---

(١) البخاري (٨/ ٥٥٥).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) مسلم (٢٢٨٩)، وابن أبي حاتم (١/ ٧٤)، وأحمد (٢/ ٣٢٧).

وهذا الحديث مِن غرائب «صحيح مسلم»، وقد تكلَّم عليه عَلِيُّ بن المديني والبخاري وغيرُ واحدٍ من الحفَّاظ، وجعلوه مِن كلام كَعْب، وأنَّ أبا هريرة إنَّما سَمِعَهُ مِن كلام كعب الأَحبَار، وإنَّما اشتبَه علىٰ بَعْضِ الرُّوَاة فجَعَلُوه مرفوعًا، وقد حرَّرَ ذلك البيهقي.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يُخبِر تعالىٰ بِامْتِنَانِه علىٰ بني آدم، بتَنْوِيهِهِ بذكرهم في الملأ الأعلىٰ قبل إيجادهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: واذكر يا محمَّد إذ قال ربُّك للملائكة، واقْصُصْ علىٰ قومك ذلك. وحكىٰ ابن جرير عَن بعض أهل العربيَّة [وهو أبو عبيدة][(١)] أنَّه زعم أن «إِذْ» هاهنا زائدة، وأنَّ تقدير الكلام: وقال ربُّك. ورده ابن جرير.

[قال القرطبي: وكذا ردَّه جميع المفسِّرين حتَّىٰ قال الزَّجاج: هذا اجتراء من أبي عبيدة][(٢)].

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[(٣)] [النمل: ٦٢]. وقال ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠]. وقال ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩]. [وقُرِئَ في الشَّاذِّ: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيقَةً» حكاه الزمخشري وغيره ونقلها القرطبي عن زيد بن علي][(٤)]. وليس المراد هاهنا بالخليفَةِ آدم عليه السلام فقط، [كما يقوله طائفةٌ مِن المفسِّرين، وعزاه القرطبي إلىٰ ابن مسعود وابن عبَّاس وجميع أهل التَّأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كَثِيرٌ، حكاه فخر الدِّين الرَّازي في «تفسيره» وغيره، والظَّاهر أنَّه لم يُرِدْ آدَمَ عينًا][(٥)] إذ لو كان كذلك لما حسَّن قولَ الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فإنَّهم إنَّما أرادوا أنَّ مِنْ هذا الجنس مَنْ يفعل ذلك، وكأنَّهم عَلِمُوا ذلك بعلمٍ خاصٍّ، أو بما فهموه من الطَّبيعة البشريَّة فإنَّ الله أخبرهم أنَّه يخلق هذا الصِّنف مِن صَلْصَالٍ مِن حمإٍ مسنُونٍ [أو فهموا مِن الخليفة أنَّه الذي يفصل بين النَّاس ما يقع بينهم مِن المظالم ويَرْدعهم عن المحارم والمآثِمِ، قاله القرطبي][(٦)] أو أنَّهم قاسوهُم علىٰ مَن سَبَق، كما سنذْكُر أقوالَ المفسِّرين في ذلك.

وقولُ الملائكةِ هذا ليس علىٰ وجهِ الاعتِرَاض علىٰ الله، ولا علىٰ وجه الحسدِ لبني آدم، كما قد

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) لوحة (٥٥ أ).
(٤) زيادة من (ح).
(٥) زيادة من (ح).
(٦) زيادة من (ح).

يتوهَّمُه بعض المفسِّرين [وقد وصفهم الله تعالىٰ بأنَّهم لا يَسْبِقُونَه بالقول؛ أي: لا يَسألُونَه شيئًا لم يَأْذَن لهم فيه وهاهنا لمَّا أعلمَهُم بأنَّه سيَخْلُق في الأرض خلقًا. قال قتادة: وقد تقدَّم إلَيْهِم أنَّهم يُفسِدُون فيها فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الآية][1] وإنَّما هو سؤال استعلَامٍ واستكشافٍ عن الحِكْمَة في ذلك، يقولون: يا ربَّنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أنَّ مِنهُم مَن يُفسِد في الأرض ويَسْفِكُ الدِّماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نُسبِّح بحمدك ونُقَدِّس لك؛ أي: نصلِّي لك كما سيأتي؛ أي: ولا يصدرُ منَّا شيء مِن ذلك، وهَلَّا وَقَعَ الاقتصار علينا؟ قال الله تعالىٰ مجيبًا لهم عن هذا السُّؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة الرَّاجحة في خَلق هذا الصنف علىٰ المفاسد التي ذَكَرْتُمُوها ما لا تعلمون أنتم؛ فإنِّي سأجعل فيهم الأنبياء، وأُرْسِلُ فيهم الرُّسُل، ويُوجد فيهم الصِّدِّيقُون والشُّهداء، والصَّالحون والعبَّاد، والزُّهَّاد والأولياء، والأبرار والمقرَّبُون، والعلماء العاملون والخَاشِعُون، والمحبُّون له تبارك وتعالىٰ المتَّبِعُون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

[وقد ثَبتَ في «الصَّحيح»: أنَّ الملائكة إذا صعدَت إلىٰ الرَّبِّ تعالىٰ بأعمالِ عبادِهِ سألهم وهو أعلم: «**كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»[2]؛ وذلك لأنَّهم يَتَعاقَبُون فينا ويجتمعون في صلاة الصُّبح وصلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويَصْعَد أولئك بالأعمال كما قال ﷺ: «**يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ**»[3]، فقولهم: أتيناهم وهُم يُصلُّون وتركناهم وهم يُصلُّون مِن تفسير قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وقيل: معنىٰ قوله جوابًا لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ لي حكمةً مفصَّلةً في خلق هؤلاء، والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنَّه جواب لقولهم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: مِن وجود إبليس بَينكُم وليس هو كما وَصَفتُم أنفسَكُم به. وقيل: بل تَضَمَّنَ قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ طلبًا مِنهم أن يسكنُوا الأرضَ بدلَ بني آدمَ، فقال الله تعالىٰ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مِن أنَّ بقاءَكُم في السَّماء أصلحُ لكُم وأَلْيَقُ بكم. ذكرها فخر الدِّين مع غيرها مِن الأجوبة، والله تعالىٰ أعلم][4].

ذِكْرُ أقوال المفسِّرين ببَسْطِ ما ذَكَرْنَاهُ:

قال ابن جرير: حدَّثني القاسم بن الحسن [قال: حدَّثنا الحسين قال:][5] حدَّثني الحجَّاج، عن

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) رواه البخاري (٨٢) (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وأحمد (٢/ ٣١٢).

(٣) مسلم (١٧٩)، وابن ماجة (١٩٥)، وأحمد (٤/ ٣٩٥، ٤٠١).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) ليست في الأصول واسْتُدْرِكَتْ من «تفسير الطبري».

جرير بن حازم، ومُبارك، عن الحسن وأبي بَكْرٍ، عن الحسن وقَتَادَة، قالوا: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: «إِنِّي فَاعِلٌ». وهذا معناه أنه أخبرهم بذلك.

وقال السُّدِّي: استشار الملائكةَ في خلق آدم. رواه ابن أبي حاتم، وقال: وروي عن قتادة نحوه. وهذه العبارة إن لم تَرْجِعْ إلىٰ معنىٰ الإخبار ففيها تساهُلٌ، وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير أَحْسَنُ، والله أعلم.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال[1] ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو سلمة، حدَّثنا حمَّاد، حدَّثنا عطاء بن السَّائب، عن عَبد الرَّحمن بن سَابط؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**دُحِيَتِ الأَرْضُ مِنْ مَكَّةَ، وَأَوَّلُ مَنْ طَافَ بِالبَيْتِ المَلائِكَةُ، فَقَالَ اللهُ: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**»؛ يعني: مكَّة[2] .

وهذا مرسل، وفي سَنَدِه ضعف، وفيه مُدْرَج، وهو أنَّ المراد بالأرض: مكَّة، والله تعالىٰ أعلم، فإنَّ الظَّاهر أنَّ المراد بالأرض أعمُّ مِن ذلك، والله أعلم.

﴿خَلِيفَةً﴾ قال السُّدِّي في «تفسيره» عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة، عن ابن مسعودٍ، وعن ناسٍ من الصحابة أنَّ الله تعالىٰ قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربَّنَا وما يكون ذلك الخليفةُ؟ قال: «**يَكُونُ لَهُ ذُرِّيَّةٌ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَيَتَحَاسَدُونَ وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»[3] .

قال ابن جرير: فكان تأويلُ الآية علىٰ هذا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ مني، يَخلُفُني في الحكم بالعدل بين خَلْقِي، وإنَّ ذلك الخليفة هو آدمُ ومَن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. وأمَّا الإفساد وسفكُ الدِّماء بغير حَقِّها فمِنْ غَيْر خُلَفَائِهِ.

قال ابن جرير: وإنَّما معنىٰ الخلافة التي ذكرها الله تعالىٰ إنما هي خلافة قَرْنٍ منهم قرنًا.

قال: والخليفةُ الفَعِيلَةُ مِن قولك: خَلَفَ فُلانٌ فُلانًا في هذا الأمر: إذا قامَ مَقامَهُ فيه بعده، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] ومن ذلك قيل للسُّلطان الأعظَم: خليفةٌ؛ لأنَّه خَلَفَ الَّذي كان قبله، فقَامَ بالأمر مقامَهُ، فكان منه خَلَفًا.

قال: وكان محمَّد بن إسحاق يقولُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقول: سَاكنًا وعَامرًا يسكُنُها ويعمُرُها خلفًا ليس منكم.

---

(١) لوحة (٥٥ ب).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٧٦/ ٣١٧)، والطبري (١/ ١٩٩) وهو مرسل، كما ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ مع العلل الأخرىٰ التي ذكرها.

(٣) رواه الطبري (١/ ٢٠٠) وإسناده ضعيف لضعف السُّدِّي.

[قال ابن جرير:][1] وحدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا عثمان بن سَعِيد، حدَّثنا بِشْر بن عِمَارة، عن أبي رَوْق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، قال: أوَّل مَن سكن الأرضَ الجنُّ، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدِّماء، وقتل بعضُهم بعضًا. قال: فبعث الله إليهم إبليسُ، فقتَلَهُم إبليس ومَن مَعَهُ حتىٰ ألحقهم بجَزَائِرِ البحور وأطراف الجبال. ثم خلق آدمَ وأسكنه إيَّاها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2].

وقال سفيان الثَّوري[3]، عن عطاء بن السَّائب، عن ابن سابط:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ قال: يعنون به بني آدم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إنِّي أُرِيد أن أخلُقَ في الأرض خلقًا وأجعل فيها خليفةً وليس لله ﷻ خلقٌ إلَّا الملائكة، والأرض ليس فيها خَلْقٌ، قالوا: أتجعل فيها من يُفْسِد فيها ويَسْفِكُ الدِّماء؟!

وقد تقدَّم ما رواه السُّدِّي، عن ابن عبَّاس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أنَّ الله أعْلَمَ الملائكةَ بما يفعل ذرِّيَّة آدم، فقالت الملائكةُ ذلك. وتقدَّم آنفًا ما رواه الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: أنَّ الجنَّ أفسَدُوا في الأرض قبل بني آدم، فقالتِ الملائكةُ ذلك، فقاسوا هؤلاء بأولئك.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن محمد الطَّنَافِسي، حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن بُكَير بن الأخنس، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: كان الجنُّ بنو الجانِّ في الأرض قبل أَنْ يُخْلَقَ آدمُ بِأَلْفَيْ سنة، فأفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فبعث الله جندًا من الملائكة فضربوهم، حتىٰ ألحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[4].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] قال: خلق الله الملائكة يوم الأربعاء، وخلق الجنَّ يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة؛ فكفر قوم من الجنِّ، فكانت الملائكة تَهبطُ إليهم في الأرض فتُقَاتِلَهُم، فكانت الدِّماء بينهم، وكان الفساد في الأرض، فمن ثم قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما أفسدت الجنُّ ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كما سَفَكُوا؟

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١/ ١٩٩)، والحاكم (٢/ ٢٦١)، وفيه انقطاع بين الضحاك وابن عبَّاس، وفيه أيضًا بشر بن عمارة، وهو ضعيف.

(٣) لوحة (٥٦ أ).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٣٢١) ورجاله ثقات، لكنه موقوف علىٰ عبد الله بن عمرو، ويشبه أن يكون من الزاملتين اللتين أخذهما من كتب بني إسرائيل.

قال ابن أبي حاتم: وحدَّثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا مبارك بن فضالة، حدَّثنا الحسن، قال: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إنِّي فاعل. [أفاضوا برأيهم](١)، فعلَّمهم علمًا وطوىٰ عنهم علمًا عَلِمَهُ ولم يعلموه، فقالوا بالعِلْم الَّذِي عَلَّمَهُم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن (٢)يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال الحسن: إنَّ الجنَّ كانوا في الأرض يُفْسِدُون ويَسْفِكُون الدماء، ولكن جعل الله في قلوبهم أنَّ ذلك سيكون؛ فقالوا بالقول الذي عَلَّمهم.

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كان الله أعلمهم أنَّه إذا كان في الأرض خَلْق أفسدوا فيها وسفكوا الدِّماء، فذلك حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام الرازي، حدَّثنا ابن المبارك، عن معروف؛ يعني: ابن خَرَّبوذ المكي، عمَّن سمع أبا جعفر محمَّد بن علي يقول: السِّجِلُّ ملك، وكان هاروت وماروت مِن أعوانه، وكان لَهُ في كلِّ يوم ثلاث لمحات يَنْظُرُهُنَّ في أمِّ الكتاب، فنظر نظرةً لم تكن له، فأبْصَر فيها خلق آدم وما كان فيه مِن الأمور، فأسَرَّ ذلك إلىٰ هاروت وماروت، وكانا مِن أعوانه، فلمَّا قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ قالا ذلك استطالة علىٰ الملائكة(٣).

وهذا أثرٌ غريبٌ. وبتقدير صِحَّتِه إلىٰ أبي جعفرٍ محمَّد بن علي بن الحسين الباقر، فهو نَقَلَهُ عن أهل الكتاب، وفيه نَكَارَةٌ تُوجِبُ رَدَّهُ، والله أعلم. ومقتضاه أنَّ الذين قالوا ذلك إنَّما كانوا اثنين فقط، وهو خلاف السِّياق.

وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم أيضًا حيث قال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن أبي عَبْد الله، حدَّثنا عبد الله بن يحيىٰ بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: إنَّ الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عشْرَةَ آلاف، فخرجت نار من عند الله فَأَحْرَقَتْهُمْ(٤).

وهذا أيضًا إسرائيليٌّ مُنْكَرٌ كالَّذِي قبله، والله أعلم.

وقال ابن جريج: إنَّما تكلموا بما أَعْلَمَهُمُ الله أنَّه كائن مِن خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

---

(١) كذا في الأصول، وهو موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم»، وجاء في بعض المطبوعات: «فآمنوا بربهم»، وهو خطأ.
(٢) لوحة (٥٦ ب).
(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٣٢٧) وفيه أكثر من علة: منها جهالة الراوي عن أبي جعفر، ومنها: معروف بن خربوذ: ضعيف، وفي متن الحديث نكارة، لذا استنكره ابن كثير بعد إيراده.
(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٣٢٨) فيه يحيىٰ بن أبي كثير: كثير الإرسال، والأثر لم يرفعه إلىٰ النبي ﷺ فهو مرسل، وفيه نكارة شديدة؛ لذا استنكره بعد إيراده له.

وقال ابن جرير: وقال بعضُهُم: إنَّما قالت الملائكة ما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ لأن الله أذن [لها] (١) في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة، فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم؟ فأجابهم ربُّهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أي ذلك كائن منهم، وإن لم تعلموه أنتم، ومن بعض مَن ترونه لي طائعًا. قال: وقال بعضهم: ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عمَّا لم يعلموا من ذلك، فكأنَّهم قالوا: يا رب خَبِّرْنا، مسألة الملائكة استخبار منهم، لا على وجه الإنكار، واختاره ابن جرير.

[وقال سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فاستشار الملائكة في خلق آدم، فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ وقد علمت الملائكة مِن عِلمِ الله أنَّه لا شيءَ أكره إلى الله مِن سفك الدِّماء والفساد في الأرض ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكان في عِلْمِ الله أنَّه سيكون من تلك الخليقَةِ أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، قال: وذُكِرَ لنا عن ابن عبَّاس أنَّه كان يقول: إن الله لمَّا أخذ في خلق آدَمَ قالت الملائكة: ما الله خالِقٌ خلقًا أكرَمَ عليه منَّا ولا أعلمَ منَّا، فابْتُلُوا بخلق آدم، وكلُّ خلقٍ مبتلًى كما ابتليت السماوات والأرض بالطَّاعة فقال: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله تعالى:] (٢) ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: التَّسبيحُ: التَّسبيحُ (٣)، والتَّقديس: الصَّلاة.

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة، عن ابن مسعود -وعن ناسٍ من الصَّحابة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: يقولون: نُصَلِّي لك.

وقال مجاهد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نُعَظِّمُك ونُكَبِّرُك.

وقال الضَّحَّاك: التَّقديس: التَّطهير.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: لا نعصي ولا نأتي شيئًا تكرهه.

وقال ابن جرير: التَّقديس: هو التَّعظيم والتَّطهير، ومنه قولهم: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ؛ يعني بقولهم: سُبُّوح: تَنْزِيهٌ له، وبقولهم: قُدُّوسٌ: طهارةٌ وتعظيمٌ له. ولذلك قيل للأرض: أرضٌ مُقدَّسةٌ؛ يعني بذلك: المطهَّرة. فمعنى قول الملائكة إذًا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: نُنَزِّهُكَ وَنُبَرِّئُكَ ممَّا يُضِيفُهُ إليك أهلُ الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: نَنْسُبُكَ إلى ما هو مِن صفاتك مِن الطَّهارة مِن الأدناس وما أضاف

---

(١) في (ز): (لهم)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٢) زيادة من (ح).

(٣) معناه: التسبيح في الآية هو التسبيح المتعارف لديكم.

إليك أهل الكفر بك.

[وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرٍّ أنَّ رسول الله ﷺ سئل: أيُّ الكلام أفضل؟ قال: «**مَا اصْطَفَىٰ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»(١). وروى البيهقيُّ عن عبد الرحمن بن قُرْط أنَّ رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ به سَمِع تسبيحًا في السماوات العُلا «**سُبْحَانَ العَلِيِّ الأَعْلَىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**»](٢)(٣).

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قال قتادة: فكان في عِلْمِ الله أنَّه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، وسيأتي عن ابن مسعود وابن عبَّاس وغير واحدٍ من الصحابة والتابعين أقوال في حكمة قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

[وقد استدلَّ القُرْطُبِي وغيره بهذه الآية علىٰ وجوب نصب الخليفة ليَفْصِل بين الناس فيما يختلفون فيه، ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم مِن ظالمهم، ويُقِيمُ الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش، إلىٰ غير ذلك من الأمور المهمَّة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجبٌ.

والإمامة تُنَال بالنَّصِّ كما يقوله طائفةٌ مِن أهل السُّنَّة في أبي بكر، أو بالإيماءِ إليه كما يقول آخرون مِنْهُم، أو باستخلاف الخليفةِ آخرَ بعده كما فعل الصِّدِّيقُ بعمر بن الخطاب، أو بترْكِهِ شورىٰ في جماعة صالحين كذلك كما فعله عُمَرُ، أو باجتماع أهل الحَلِّ والعَقْدِ علىٰ مبايعته أو بمُبَايَعَةِ واحدٍ مِنهُم له فيجب التزامها عند الجمهور، وحكىٰ علىٰ ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم.

أو بِقَهْرِ واحدِ النَّاسَ علىٰ طاعته فتجب؛ لئلَّا يُؤَدِّي ذلك إلىٰ الشِّقاق والاختلاف، وقد نصَّ عليه الشافعي.

وهل يجب الإشهاد علىٰ عقد الإمامة؟ فيه خلاف، فمنهم مَن قال: لا يشترط، وقيل: بلىٰ، ويكفي شاهدان. وقال الجبائي: يجب أربعة وعاقد ومعقود له، كما ترك عمر رضي الله عنه الأمر شورىٰ بين سِتَّةٍ، فوقع الأمر علىٰ عاقدٍ وهو عبد الرحمن بن عوف، ومعقودٌ له وهو عثمان، واستنبط وجوب الأربعة الشُّهود من الأربعة الباقين، وفي هذا نظر، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكرًا حرًّا بالغًا عاقلًا مسلمًا عدلًا مجتهدًا بصيرًا سليمَ الأعضاء خبيرًا بالحروب والآراء قرشيًّا علىٰ الصَّحيح، ولا يشترط الهاشميُّ ولا المعصوم مِن الخطأ خلافًا للغُلاةِ الروافض،

---

(١) مسلم (٢٧٣١)، والترمذي (٣٥٩٣)، وأحمد (٥/ ١٦١).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) منكر: ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٧)، وفي «معرفة الصحابة» (٣١٠٢ بتحقيقي)، وفيه مسكين بن ميمون، قال الذهبي: لا أعرفه، وخبره منكر.

ولو فَسَقَ الإمام هل يَنْعَزِلُ أم لا؟ فيه خلافٌ، والصحيح: أنَّه لا يَنْعَزِلُ؛ لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»(١). وهل له أن يَعْزِلَ نفسه؟ فيه خلاف، وقد عزل الحسنُ بن عليٍّ نفسه وسَلَّمَ الأمر إلىٰ معاوية لكن هذا لعذرٍ وقد مُدِحَ علىٰ ذلك.

فأمَّا نصبُ إمامَيْنِ في الأرض أو أكثر فلا يجوز؛ لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ جَاءَكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَكُمْ فَاقْتُلُوهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ»(٢). وهذا قول الجمهور، وقد حكىٰ الإجماع علىٰ ذلك غير واحد، منهم إمام الحرمين، وقالت الكَرَّاميَّة: يجوز نصب إمامين فأكثر كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطَّاعة، قالوا: وإذا جاز بَعثُ نبيَّين في وقتٍ واحدٍ وأكثر جاز ذلك في الإمامة؛ لأنَّ النُّبوَّة أعلىٰ رتبةً بلا خلافٍ، وحكىٰ إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنَّه جوَّز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدتِ الأقطارُ واتَّسعَتِ الأقاليم بينهما، وتردَّدَ إمام الحرمين في ذلك، قلتُ: وهذا يُشْبِهُ حال خلفاء بني العبَّاس بالعراق والفاطميين بمِصْرَ والأمويين بالمغرب](٣).

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذا مقامٌ ذَكَرَ الله تعالىٰ فيه شرفَ آدم علىٰ الملائكة، بما اختصَّه به مِن عِلم أسماء كلِّ شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنَّما قدَّم هذا الفصل علىٰ ذاك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم الله تعالىٰ(٤) بأنَّه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر تعالىٰ هذا المقام عُقَيْبَ هذا ليُبيِّن لهم شرف آدم بما فُضِّلَ به عليهم في العلم(٥)، فقال

---

(١) البخاري (٧١٩٩، ٧٠٥٥، ٧٢٠٠)، ومسلم (١٧٠٩)، ومالك (٢/ ٤٤٥)، والنسائي (٧/ ١٣٨).
(٢) مسلم (١٨٥٢)، والبيهقي (٨/ ١٦٩).
(٣) زيادة من (ح).
(٤) لوحة (٥٧ ب).
(٥) قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ: آيات القرآن الصريحة المتكاثرة، والأحاديث الصحيحة المتواترة، كلها قاطعة الدلالة علىٰ أن الله خلق آدم علىٰ صورته وهيئته التي توارثها عنه أبناؤه إلىٰ اليوم، والتي يتوارثها من سيكون من نسله إلىٰ قيام الساعة، أدلة صحيحة صريحة، لا تحتمل تأويلًا، ولا تقبل جدلًا في دلالتها، بما تدل به الألفاظ علىٰ المعاني، فمن عجب أن يأتي بعد ذلك من ينتسبون إلىٰ الإسلام، ويتسمون بأسماء المسلمين، فيقبلوا نظرة التطور الإفرنجية - التي يقول دروين وأتباعه وأشباهه - يقبلونها ويسلمون بها ويؤمنون، إيمانهم بالقطعي من الدين، بل أشد وأوثق. ثم يتأولون الدلائل القطعية الثبوت والدلالة، من الكتاب والسنة، فيحرفونها عن مواضعها، كما فعل اليهود في دينهم من قبل، ثم لا يستحون أن ينكروا الأحاديث المتواترة المعنىٰ في ذلك، ثم يدور كلامهم وأدبهم وعلومهم علىٰ حساب =

تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

وقال السُّدِّي، عمَّن حدَّثه، عن ابن عبَّاس: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: عرض عليه أسماء ولده إنسانًا إنسانًا، والدَّوابَّ، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس(١).

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا (٢)﴾ قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها النَّاس: إنسانٌ، ودابَّة، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأُمَمِ وغيرها(٣).

وروىٰ ابن أبي حاتم وابن جرير مِن حديث عاصم بن كُليب، عن سعيد بن معبد، عن ابن عبَّاس: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: علَّمَهُ اسم الصحفة والقِدر، قال: نعم حتىٰ الفَسْوَةَ والفُسَيَّةَ(٤).

وقال مجاهد: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: علَّمهُ اسم كلِّ دابة، وكل طير، وكل شيءٍ.

وكذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم مِن السَّلف: أنَّه علَّمهُ أسماء كلِّ شيءٍ، وقال الرَّبيع في رواية عنه: أسماءَ الملائكة. وقال حميد الشَّامي: أسماء النَّجومِ. وقال عبد الرحمن بن زيد: علَّمهُ أسماء ذُرِّيتهِ كلهم.

واختار ابن جرير أنَّه علَّمَهُ أسماء الملائكة وأسماء الذُّرِّية؛ لأنَّه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عمَّا يعقل. وهذا الذي رجَّح به ليس بلازم، فإنَّه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبِّر عن الجميع بصيغة مَن يعقل للتَّغليب. كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥].

[وقد قرأ عبد الله بن مسعود: «ثُمَّ عَرَضَهُنَّ»(٥) وقرأ أبي بن كعب: «ثُمَّ عَرَضَهَا»(٦) أي: السماوات](٧) والصَّحيح أنَّه علَّمَهُ أسماء الأشياء كلِّها: ذواتها وأفعالها؛ كما قال ابن عبَّاس حتىٰ الفسوة والفُسَية؛ يعني: أسماء الذَّوات والأفعال المكبر والمصغر؛ ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير مِن «صحيحه»: حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا هشام، حدَّثنا قتادة، عن أنس ﷺ عن

= هذه النظرية التي لم تثبت قط، والتي لا تقوم أمام النقد، والتي تتهافت تهافتًا شديدًا، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون، ويسمون أنفسهم علماء وهم مقلدون!! تعالىٰ الله عما يفترون.

(١) انظر: ابن أبي حاتم (٣٣٩) (٣٤٠)، وابن جرير الطبري (١/ ٢١٥)، ولا يخلو كل منها من ضعف.

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله: وهل هذه الأسماء أسماء لمسميات حاضرة؛ أو لكل الأسماء؟ للعلماء في ذلك قولان؛ والأظهر أنها أسماء لمسميات حاضرة بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾؛ وهذه الأسماء -والله أعلم- ما يحتاج إليها آدم، وبنوه في ذلك الوقت.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) قراءة: قَرَأَ (عَرَضَهُنَّ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (عَرَضَهُمْ).

(٦) قراءة: قَرَأَ (عَرَضَهَا) أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (عَرَضَهُمْ).

(٧) زيادة من (ح).

النَّبِيِّ ﷺ، وقال لي خليفة: حدَّثنا يزيد بن زُرَيع، حدَّثنا سعيد، عن قتادة عن أنس بن مالك، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَىٰ رَبِّنَا؟ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ[(١)] لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّىٰ يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي؛ ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ. وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحْي. فَيَقُولُ: ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ؛ فَيَقُولُ: ائْتُوا مُوسَىٰ عَبْدًا كَلَّمَهُ اللهُ، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَيَسْتَحْي مِنْ رَبِّهِ؛ فَيَقُولُ: ائْتُوا عِيسَىٰ عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَةَ اللهِ وَرُوحَهُ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّدًا عَبْدًا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ حَتَّىٰ أَسْتَأْذِنَ عَلَىٰ رَبِّي، فَيُؤْذَنَ لِي، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي عَمِلْتُ مِثْلَهُ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ».

هكذا ساق البخاري هذا الحديث هاهنا. وقد رواه مسلم والنَّسائي مِن حديث هشام، وهو ابن أبي عبد الله الدَّسْتُوائي، عن قتادة به[(٢)]. وأخرجه مسلم والنَّسائي وابن ماجة مِن حديث سعيد، وهو ابن أبي عَرُوبَة، عن قتادة به. ووَجْهُ إيراده هاهنا والمقصود منه قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ»، فدلَّ هذا علىٰ أنَّه علَّمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يعني: المسميات؛ كما قال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: ثم عرض تلك الأسماء علىٰ الملائكة ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقال السُّدِّي في «تفسيره» عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناسٍ مِن الصحابة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ثمَّ عرض الخَلْق علىٰ الملائكة[(٣)].

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ عرض أصحاب الأسماء علىٰ الملائكة.

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثني[(٤)] الحجَّاج، عن جرير بن حازم ومبارك

---

(١) لوحة (٥٨ أ).

(٢) البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣)، وابن ماجة (٤٣١٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٩٨٤).

(٣) الطبري (١/ ٢١٧)، وابن أبي حاتم (٣٤٤).

(٤) لوحة (٥٨ ب).

ابن فضالة، عن الحسن -وأبي بكر، عن الحسن وقتادة- قالا: علَّمَهُ اسم كلِّ شيءٍ، وجعل يُسَمِّي كل شيءٍ باسمه، وعرضت عليه أمَّة أمَّة.

وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنِّي لم أخلق خلقًا إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة.

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصحابة: إن كنتم صادقين أنَّ بني آدم يُفسِدُون في الأرض ويَسْفِكُون الدِّماء [١].

وقال ابن جرير: وأَوْلَىٰ الأقوال في ذلك تأويل ابن عبَّاس ومَن قال بقوله، ومعنىٰ ذلك فقال: أنبئوني بأسماء مَن عَرَضْتُه عليكم أيُّها الملائكة القائلون: أتجعل في الأرض مَن يُفْسِدُ فيها ويسفك الدماء، مِن غيرنا أم منَّا، فنحن نُسبِّح بحمدك ونُقدِّس لك؟ إن كنتم صادقين في قِيلِكُم: إنِّي إنْ جَعَلْتُ خليفتي في الأرض مِن غيركم عصاني ذُرِّيته وأفسدوا وسفكوا الدِّماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتَّبعتم أمري بالتَّعظيم لي والتَّقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود مِن الأمور الكائنة التي لم توجد أحرىٰ أن تكونوا غير عالمين.

[وقوله] [٢]: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذا تقديسٌ وتَنْزِيهٌ مِنَ الملائكة لله تعالىٰ أن يحيط أحدٌ بشيءٍ مِن علمه إلا بما شاء، [أو] [٣] أن يَعْلَمُوا شيئًا إلا ما عَلَّمَهُم الله تعالىٰ، ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بكلِّ شيءٍ، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك مَن تشاء ومنعك مَن تشاء، لك الحكمة في ذلك، والعدل التَّامُّ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا حفص بن غياث، عن حجَّاج، عن ابن أبي مُلَيكَة، عن ابن عبَّاس: سُبحَان الله، قال: تنزيهُ الله نفسَهُ عَن السُّوءِ. قال: ثمَّ قال عُمرُ لعليٍّ وأصحابه عنده: لا إلهَ إلا الله، قد عرفناها، فما سبحان الله؟ فقال له عليٌّ: كلمة أحبَّها الله لنفسه، ورَضِيَها [٤] وأحبَّ أَن تُقَال [٥].

قال: وحدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن نُفَيْلٍ، حدَّثنا النضر بن عربي قال: سأل رجلٌ ميمونَ بن مِهْرَان عن «سُبْحَانَ اللهِ»، فقال: اسم يُعَظَّمُ الله به، ويُحَاشَىٰ به من السُّوء [٦].

---

(١) الطبري (١/ ٢١٨).
(٢) ليست في (ز)، معظم الطبعات لم تثبتها، وبعضهم وصل الآية بكلام ابن جرير، وهو خطأ.
(٣) في (ز): (و). (٤) لوحة (٥٩ أ).
(٥) رواه ابن أبي حاتم (٣٤٦) وفيه الحجاج بن أرطأة: مدلس وقد عنعن، وهو ضعيف.
(٦) رواه ابن أبي حاتم (٣٤٧)، وإسناده حسن.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال زيد بن أسلم. قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل، حتىٰ عدَّد الأسماء كلها، حتىٰ بلغ الغراب.

وقال مجاهد في قول الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ قال: اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيءٍ.

وروي عن سعيد بن جُبَيْرٍ، والحسن، وقتادة، نحو ذلك.

فلما ظهر فضل آدم عليه السلام علىٰ الملائكة -عليهم السلام- في سرده ما علَّمه الله تعالىٰ مِن أسماء الأشياء، قال الله تعالىٰ للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: ألم أتقدم إليكم أنِّي أعلم الغيب الظَّاهر والخفيَّ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ وكما قال تعالىٰ إخبارًا عن الهدهد أنَّه قال لسليمان: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وقيل في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ غيرُ ما ذكرناه؛ فروىٰ الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: يقول: أَعْلَم السِّرَّ كما أعلمُ العلانِيَةَ؛ يعني: ما كَتَم إبليسُ في نَفْسِهِ من الكِبْر والاغترار.

وقال السُّدِّي، عن أبي مالكٍ وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصَّحابة، قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني: ما أسرَّ إبليس في نفسه مِن الكِبْرِ(١).

وكذلك قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، والثَّوري. واختار ذلك ابن جرير.

وقال أبو العالية، والرَّبيع بن أنس، والحسن، وقتادة: هو قولهم: لم يخلق ربُّنا خلقًا إلا كُنَّا أعلم مِنه وأكرم عليه منه.

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان الذي أبدوا قولهم(٢): ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وكان الذي كتموا بيْنَهُم قولهم: لَن يخلُق ربُّنا خلقًا إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أنَّ الله فضَّل عليهم آدم في العلم والكرم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يونس، حدَّثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قصَّة الملائكة وآدم: فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم عِلْمٌ، إنَّما أردتُ أن أجعلهم ليُفْسِدُوا فيها، هذا عندي قد علمته؛ ولذلك أَخْفَيْتُ عنكم أنِّي أجعل فيها مَن يعصيني ومَن يطيعني، قال: وسَبَقَ من الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم

---

(١) الطبري (١/ ٢٢٢).

(٢) لوحة (٥٩ ب).

يَدْرُوه قال: ولما رَأَوْا ما أعطىٰ الله آدمَ مِن العلم أقرُّوا له بالفضل.

وقال ابن جرير: وأولىٰ الأقوال في ذلك قولُ ابن عبَّاس، وهو أنَّ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ وأعلم -مع علمي غيب السماوات والأرض- ما تُظْهِرُونه بألسنتكم وما كنتم تُخْفُونه في أنفسكم، فلا يخفىٰ عَلَيَّ شيءٌ، سواء عندي سرائركم، وعلانيتكم.

والذي أظهروه بألسنتهم قولهم: أتجعل فيها مَن يُفسِد فيها، والذي كانوا يكتمون ما كان عليه منطويًا إبليس مِن الخلاف علىٰ الله في أمره، والتَّكبُّر عن طاعته.

قال: وصحَّ ذلك كما تقول العرب: قُتِل الجيش وهُزموا، وإنَّما قتل الواحد أو البعض، وهُزِمَ الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عَن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤] ذكر أنَّ الذي نادىٰ إنَّما كان واحدًا مِن بني تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وهذه كرامةٌ عظيمةٌ مِن الله تعالىٰ لآدم امتنَّ بها علىٰ ذُرِّيتِهِ، حيث أخبر أنَّه تعالىٰ أمر الملائكة بالسُّجود لآدم. وقد دلَّ علىٰ ذلك أحاديث أيضًا كثيرةٌ منها حديث الشَّفاعة المتقدم(١)، وحديث موسىٰ عليه السلام: «رَبِّ، أَرِنِي آدَمَ الَّذِي أَخْرَجَنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ» فلما اجتمع به قال: «أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ» . قال... وذكر الحديث كما سيأتي(٢).

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا عثمان بن سعيد، حدَّثنا بشْر بن عُمارة، عن أبي رَوْق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس قال(٣): كان إبليسُ من حَيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجِنُّ، خُلِقُوا مِن نار السَّموم، مِن بين الملائكة، وكان اسمه الحَارِث، وكان خازنًا مِن خُزَّان الجنَّة، قال: وخُلِقَت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحَيِّ، قال: وخُلِقَت الجنُّ(٤) الذين ذكروا في القرآن مِن مارجٍ مِن نار، [وهو لسان النَّار الذي يكون في طرفها إذا لهبت. قال: وخلق الإنسان من طين](٥). فأوَّل مَن سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسَفَكُوا [الدِّماء](٦)، وقتل بعضُهم بعضًا. قال: فبعَثَ الله إليهم إبليسُ في جندٍ مِن الملائكة -وهُم هذا الحي الذي يقال لهم: الجنُّ- فقتلهم إبليسُ ومَن معه، حتَّىٰ ألحقهم بجزائر البحور وأطراف

---

(١)تقدم، انظر (١٤٨).

(٢)البخاري (٣٢٢٨)، ومسلم (٢٦٥٢)، وأبو داود (٤٧٠١)، والترمذي (٢١٣٤)، وأحمد (٢/ ٢٦٤).

(٣)لوحة (٦٠ أ).

(٤)يراجع ما كتبه العلامة محمود شاكر رحمه الله معلقًا علىٰ هذا الموضع من «تفسير الطبري» (١/ ٤٥٥).

(٥)زيادة من (ح).

(٦)زيادة من (ح).

الجبال، فلمَّا فعل إبليسُ ذلك اغترَّ في نفسه، فقال: قد صَنَعْتُ شيئًا لم يصنعه أحدٌ. قال: فاطَّلع الله علىٰ ذلك مِن قلبه، ولم يَطَّلع عليه الملائكة الذين كانوا معه، فقال الله تعالىٰ للملائكة الذين معه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كما أفسدت الجنُّ وسفكت الدماء، وإنما بعثنا عليهم لذلك؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: إني قد اطَّلَعْتُ [من][(١)] قلب إبليس علىٰ ما لم تطلعوا عليه مِن كِبْرِهِ واغتراره، قال: ثمَّ أمر بتربةِ آدمَ فرُفِعَتْ، فخلق الله آدمَ مِن طينٍ لازبٍ واللَّازب[(٢)]: اللَّزِج [الصلب][(٣)] مِن حمإٍ مسنونٍ مُنتنٍ، وإنَّما كان حَمَأً مسنونًا بعد التُّراب. فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلةً جسدًا مُلقًى. فكان إبليس يأتيه فيضرِبُهُ برجله، فيُصَلْصِلُ؛ أي: فيصوِّت. قال: فهو قول الله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] يقول: كالشَّيءِ المنفرج الذي ليس بمُصْمَتٍ. قال: ثم يدخل في فِيهِ ويخرج مِن دُبره، ويدخل مِن دُبره، ويخرج مِن فِيهِ. ثم يقول: لستَ شيئًا -للصَّلصلَةِ- ولشيءٍ ما خُلِقْتَ، ولئن سُلِّطْتُ عليك لأُهْلِكَنَّكَ، ولئن سُلِّطْتُ عَلَيَّ لأعْصِيَنَّك. قال: فلمَّا نفخ الله فيه مِن روحه، أَتَتْ النَّفخَة مِن قِبَلِ رأسه، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحمًا ودمًا، فلما انتهت النَّفخة إلىٰ سُرَّتِهِ نظر إلىٰ جسده فأعجبه ما رأىٰ من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالىٰ: ﴿[وَكَانَ][(٤)] ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] قال: ضَجِرٌ لا صبر له علىٰ سَرَّاء ولا ضَرَّاء. قال: فلمَّا تمَّت النَّفخَة في جسده عَطَسَ، فقال: «الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالِمِينَ» بإلهام الله. فقال الله له: «يَرْحَمُكَ اللهُ يَا آدَمُ». قال: ثم قال الله تعالىٰ للملائكة الذين[(٥)] كانوا مع إبليس خاصَّة دون الملائكة الذين في السماوات: اسجدوا لآدم. فسجدوا كلهم أجمعون إلَّا إبليس أبَىٰ واستكبر، لِمَا كان حدَّث نَفْسَهُ مِن الكبر والاغترار. فقال: لا أسجد له، وأنا خيرٌ مِنهُ وأكبر سنًّا وأقوىٰ خلقًا، خلقتني مِن نارٍ وخلقته مِن طينٍ. يقول: إنَّ النَّار أقوىٰ مِن الطِّين. قال: فلمَّا أبىٰ إبليسُ أن يسجد أبلسه الله، [أي:] آيسه مِن الخير كُلِّه، وجعله شيطانًا رجيمًا عُقُوبةً لمعصيته، ثمَّ عَلَّم آدم الأسماء كلَّهَا، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها النَّاس: إنسانٌ ودابَّة وأرضٌ وسهلٌ وبحرٌ وجبلٌ وحمارٌ، وأشباه ذلك مِن الأمم وغيرها. ثمَّ عرض هذه الأسماء علىٰ أولئك الملائكة؛ يعني: الملائكة الذين كانوا مع إبليس، الَّذِين خُلِقُوا مِن نار السَّموم، وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم تعلمون لِمَ أجعل في

---

(١) في الأصول: (علىٰ).
(٢) لَزِبَ الشَّيْءُ يَلْزُبُ لَزْبًا ولُزوبًا: دَخَلَ بعْضُه في بَعْض، ولَزُبَ الطِّينُ: لَزِقَ وصَلُبَ «تاج العروس»(٤ /٢٠٦) .
(٣) في الأصول: (الطيب)، وما أثبتناه من «تفسير الطبري».
(٤) في الأصول: «وخلق».
(٥) لوحة (٦٠ ب).

الأرض خليفة. قال: فلمَّا علمت الملائكة مَوْجِدَةَ الله عليهم فيما تكلَّموا به مِن علم الغيب، الذي لا يعلمه غيره، الذي ليس لهم به علم قالوا: سبحانك، تنزيهًا لله مِن أن يكون أحدٌ يعلم الغيب غيره، وتُبْنا إليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ تبريًا منهم مِن علم الغيب، إلا ما علَّمْتَنَا كما علمت آدم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ يقول: أخبرهم بأسمائهم [﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾][(1)] يقول: أخبرهم ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ أيها الملائكة خاصة ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا يعلم غيري ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية؛ يعني: ما كتم إبليس في نفسه مِن الكبر والاغترار[(2)].

هذا سياقٌ غريبٌ، وفيه أشياء فيها نظر، يطول مناقشتها، وهذا الإسناد إلىٰ ابن عبَّاس يروىٰ به تفسيرٌ مشهورٌ.

وقال السُّدِّي في «تفسيره»[(3)]: عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة، عن ابن مسعودٍ، وعن أناسٍ مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ: لما فَرَغَ الله مِن خلق ما أحبَّ استوىٰ علىٰ العرش، فجعل إبليسُ علىٰ مُلْكِ السَّماء الدُّنيا، وكان مِن قبيلةٍ مِن الملائكة يقال لهم: الجِنُّ، وإنَّما سُمُّوا الجنَّ؛ لأنهم خُزَّان الجنَّة، وكان إبليس مع مُلْكه خازنًا، فوقع في صدره [كِبْرٌ][(4)] وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزيَّةٍ لي علىٰ الملائكة. فلمَّا وقع ذلك الكبر في نفسه اطَّلعَ الله علىٰ ذلك منه. فقال الله[(5)] للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرِّيَّةٌ يُفْسِدُون في الأرض ويتحاسَدُون ويقتل بعضهم بعضًا. قالوا: ربنا، ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: مِن شأن إبليس. فبعث [الله] جبريل إلىٰ الأرض ليأتيه بطينٍ منها، فقالت الأرض: إنِّي أعوذ بالله منك أن تَقْبِضَ مني أو تُشِينَنِي فرجع ولم يأخذ، وقال: رَبِّ مني عَاذَتْ بك فَأَعَذْتُها، فبعث ميكائيل، فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث مَلَك الموت فعاذت منه. فقال: وأنا أعوذ بالله أَنْ أَرْجِعَ ولم أُنَفِّذْ أَمْرَهُ، فأخذ مِن وجهِ الأرض، وخَلَطَ ولم يأخذ مِن مكانٍ واحدٍ، وأخذ مِن تربةٍ حمراءَ وبيضاءَ وسوداءَ، فلذلك خرج بنو آدم مُختلِفِينَ، فَصعِد به فَبَلَّ التُّراب حتَّىٰ عاد طِينًا لازبًا -واللَّازبُ: هو الذي يَلتزِق بعضُه ببعضٍ- ثم

(١) زيادة من (ح).
(٢) رواه الطبري (١/ ٢٢٤)، وإسناده ضعيف وعلة بشر بن عمارة: ضعيف، والإسناد منقطع، فالضحاك لم يلقَ ابن عبَّاس.
(٣) رواه الطبري (١/ ٢٢٥) فإنه في إسناده ضعف كما تقدم، وانظر إلىٰ تعليق ابن كثير عقب الرواية.
(٤) زيادة من «تفسير الطبري».
(٥) لوحة (٦١ أ).

قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢] فخلقه الله بيده؛ لئلَّا يتكبَّر إبليس عنه، ليقول له: تتكبَّر عمَّا عَمِلْتُ بِيَدِيَّ، ولم أتكبَّر أنا عنه بخلقه بشرًا، فكان جسدًا مِن طين أربعين سنة مِن مقدار يوم الجمعة، فمرَّت به الملائكة ففزعوا منه لما رَأَوْهُ، وكان أشدُّهم فزعًا منه إبليس، فكان يمرُّ به فيَضْرِبُهُ فيُصَوِّت الجسد كما يُصَوِّتُ الفُخَّار وتكون له صلصلة. فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول: لأمرٍ ما خُلِقْتَ. ودخل مِن فِيهِ فخرج من دُبُرِهِ، وقال للملائكة: لا ترهبوا مِن هذا، فإن رَبَّكُمْ صَمَدٌ وهذا أجوف. لئن سُلِّطْتُ عليه لأُهْلِكَنَّهُ، فلمَّا بلغ الحين الذي يريد الله ﷻ أن ينفخ فيه الرُّوح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه مِن روحي فاسجدوا له، فلمَّا نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه، عَطِسَ، فقالت الملائكة: قل: الحَمْدُ للهِ. فقال: الحَمْدُ للهِ، فقال له الله: رَحِمَكَ رَبُّكَ، فلمَّا دخلت الروح في عينيه نظر إلىٰ ثمارِ الجنَّة. فلمَّا دخل الرُّوح في جوفه اشتهىٰ الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلَان إلىٰ ثمار الجنَّة، فذلك حين يقول الله تعالىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ(١) مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] أَبَىٰ واسْتَكْبَر وكان مِن الكافرين. قال الله له: ما منعك أن تسجد إِذْ أَمَرْتُكَ لما خلقتُ بيدي؟ قال: أنا خير منه، لم أكن لأسجد لمن خلقته مِن طين. قال الله له: اخرج منها فما يكون لك؛ يعني: ما ينبغي لك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] والصَّغَار: هو الذُّلُّ. قال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخلق علىٰ الملائكة ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ بني آدم يُفسِدُون في الأرض ويَسْفِكُون الدِّماء، فقالوا له: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذي أَبْدَوْا وأعلم ما كنتم تكتمون؛ يعني: ما أَسَرَّ إبليس في نفسه من الكبر.

فهذا الإسناد إلىٰ هؤلاء الصَّحابَةِ مشهورٌ في تفسير السُّدِّي ويقع فيه إسرائيلياتٌ كثيرةٌ، فلعلَّ بعضها مُدْرَجٌ ليس مِن كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه مِن بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم. والحاكم يروي في «مستدركه» بهذا الإسناد بعينه أشياء، ويقول: هو علىٰ شرط البخاري.

والغرض أنَّ الله تعالىٰ لمَّا أمر الملائكة بالسُّجود لآدم دخل إبليس في خطابهم؛ لأنه -وإن لم يكن من عُنْصرهم- إلا أنَّه كان قد تشَبَّه بهم وتوسَّم بأفعالهم؛ فلهذا دخل في الخطاب لهم(٢)، وذُمَّ في

---

(١) لوحة (٦١ ب).

(٢) قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (للعلماء في إبليس، هل كان من الملائكة أم لا؟ قولان: أحدهما: أنه كان من الملائكة... قال البغوي: هذا قول أكثر المفسرين...، والقول الثاني: أنه كان من الجن، ولم يكن من الملائكة...
=

مخالفة الأمر. وسنبسط المسألة -إن شاء الله تعالىٰ- عند قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولهذا قال محمَّد بن إسحاق، عن خلَّاد، عن عطاء، عن طاوس، عن ابن عبَّاس قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية مِن الملائكة اسمه عزازيل، وكان مِن سُكَّان الأرض، وكان مِن أشدِّ الملائكة اجتهادًا، وأكثرهم علمًا؛ فذلك دعاه إلىٰ الكبر، وكان مِن حيٍّ يُسَمَّوْنَ جِنًّا(١).

وفي رواية عن خلَّاد، عن عطاء، عن طاوس -أو مجاهد- عن ابن عبَّاس، أو غيره، بنحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا عباد -يعني: ابن العوام- عن سفيان بن حسين، عن يَعْلَىٰ بن مسلم، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس قال: كان إبليس اسمه عزازيل، وكان مِن أشراف الملائكة مِن ذوي الأجنحة الأربعة، ثم أُبْلِسَ بعد(٢)(٣).

وقال سُنَيْد، عن حجَّاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عبَّاس: وكان إبليسُ مِن أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلةً، وكان خازنًا علىٰ الجنان، وكان له سلطان سماء الدُّنيا، وكان له سُلطَان الأرض(٤).

وهكذا روىٰ الضَّحَّاك وغيره عن ابن عبَّاس، سواء.

وقال صالح مولىٰ التَّوْأَمَةِ، عن ابن عبَّاس: إنَّ مِن الملائكة قَبيلًا يُقال لهم: الجنُّ، وكان إبليسُ منهُم، وكان يَسُوس ما بين السَّماء والأرض، فعصىٰ، فمسخه الله شيطانًا رجيمًا. رواه ابن جرير(٥).

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيسَ ملائكةِ سماء الدُّنيا.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا عدي بن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، قال: ما كان إبليسُ مِنَ الملائكة طرفةَ عينٍ قَطُّ، وإنَّه لأصل الجنِّ، كما أنَّ آدم أصل الإنسِ. وهذا إسنادٌ

= قال ابن القيم: الصواب التفصيل في هذه المسألة، وأن القولين في الحقيقة قول واحد. فإن إبليس كان من الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله. كان أصله من نار، وأصل الملائكة من نور. فالنافي كونه من الملائكة، والمثبت، لم يتواردا علىٰ محل واحد.

وكذلك قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في «الفتاوىٰ المصرية»: وقيل: إن فِرقة من الملائكة خلقوا من النار سُموا «جنًّا»، لاستتارهم عن الأعين، فإبليس كان منهم. الدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾، وهو قولهم: الملائكة بنات الله، ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية).اهـ.

(١) رواه الطبري (١/ ٢٢٧) وإسناده ضعيف فابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وعطاء اختلط.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٣٦٤) ورجاله ثقات لكن ابن عبَّاس ممن أخذ من كتب أهل الكتاب فمثل هذا لا يصلح الاعتماد عليه.

(٣) لوحة (٦٢ أ).

(٤) منقطع: رواه ابن جرير (١/ ٢٢٥) ابن جريج لم يسمع من ابن عبَّاس، والرواية التي بعده من طريق الضحاك وبينه وبين ابن عبَّاس انقطاع.

(٥) رواه ابن جرير (١/ ٢٢٥)، وفيه ابن جريج، وهو مدلس وقد عنعن.

صحيحٌ عن الحسن. وهكذا قال عبد الرحمن بن زَيد بن أسلم سواء.

وقال شَهْر بن حَوْشَب: كان إبليسُ مِنَ الجنِّ الذين طردتهم الملائكةُ، فأسرَهُ بعض الملائكة فذهب به إلىٰ السَّماء، رواه ابن جرير.

وقال سُنَيْد بن داود: حدَّثنا هُشَيم، أنبأنا عبد الرحمن بن يحيىٰ، عن موسىٰ بن نُمَيْر وعثمان بن سعيد بن كامل، عن سعد بن مسعود، قال: كانت الملائكة تُقَاتِلُ الجنَّ، فسُبِيَ إبليسُ وكان صغيرًا، فكان مع الملائكة، فتعبَّد معها، فلما أُمِرُوا بالسُّجود لآدم سجدوا، فأبىٰ إبليس. فلذلك قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمد بن سنان القزاز، حدَّثنا أبو عاصم، عن شريك، عن رجلٍ، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: إنَّ الله خلق خلقًا، فقال: اسجدوا لآدم. فقالوا: لا نفعل. فبعث الله عليهم نارًا فأحرقتهم، ثمَّ خلق خلقًا آخر، فقال: إنِّي خالقٌ بشرًا مِن طينٍ، اسجدوا لآدم. قال: فأَبَوْا. فبعث الله عليهم نارًا فأحرقتهم. ثمَّ خلق هؤلاء، فقال: اسجدوا لآدم، قالوا: نعم. وكان إبليسُ مِن أولئك الذين أَبَوْا أن يسجدوا لآدم(١). وهذا غريبٌ، ولا يكاد يصح إسناده، فإن فيه رجلًا مبهمًا، ومثله لا يُحتجُّ به، والله أعلم.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ فكانت الطاعة لله، والسَّجدة لآدم أكرم الله تعالىٰ آدمَ بها أن أَسْجَدَ له ملائكته.

وقال في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حسد عدوُّ الله(٢) إبليسُ آدمَ عليه السلام علىٰ ما أعطاه الله مِن الكرامة، وقال: أنا ناريٌّ وهذا طينيٌّ، وكان بدء الذُّنوب الكِبْرُ، استكبر عدوُّ الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو أسامة، حدَّثنا صالح بن حيَّان، حدَّثنا عبد الله بن بُرَيدة: قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من الذين أَبَوْا، فأحرقتهم النار.

وقال أبو جعفر، عن الرَّبيع، عن أبي العالية: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني: مِن العاصين.

وقال السُّدِّي: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين لم يخلقهم الله يومئذٍ يكونون بعد.

وقال محمَّد بن كعب القُرَظِيُّ: ابتدأ الله خلقَ إبليس علىٰ الكفر والضَّلالة، وعَمِلَ بعَمَلِ الملائكة، فصيَّره إلىٰ ما [ابتدأه](٣) عليه خَلْقَهُ مِن الكفر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

[وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحيَّة وسلام وإكرام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى

---

(١) رواه الطبري (١/ ٢٢٧)، وفيه رجل مبهم، فالإسناد ضعيف.

(٢) لوحة (٦٢ ب). (٣) في (ز): (أبدىٰ).

ﭐلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وقد كان هذا مشروعًا في الأمم الماضية ولكنَّه نُسِخَ في مِلَّتِنَا، قال معاذ: قدِمْتُ الشَّام فرأيتُهُم يسجدون لأساقفتهم وعلمائِهِم، فأنت يا رسول الله أحقُّ أن يُسْجَدَ لك، فقال: «لَا لَوْ كُنْتُ آمِرًا بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»(١). ورجَّحه الرَّازي، وقال بعضهم: بل كانت السَّجدة لله وآدمُ قِبلَةٌ فيها كما قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وفي هذا التَّنظير نظر، والأظهر أنَّ القول الأوَّل أولىٰ، والسَّجدةُ لآدم إكرامًا وإعظامًا واحترامًا وسلامًا، وهي طاعة لله ﷻ؛ لأنَّها امتثالٌ لأمره تعالىٰ، وقد قوَّاه الرَّازي في «تفسيره» وضعَّف ما عداه مِن القولين الآخرين وهما كونه جُعِلَ قِبلةً إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر: أنَّ المراد بالسُّجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهةِ علىٰ الأرض وهو ضعيف كما قال.

قلتُ: وقد ثبت في «الصحيح»: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»(٢).

وقال ابن أبي حاتم حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو أسامة، حدَّثنا صالح بن حيان، حدَّثنا عبد الله بن بريدة: قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مِن الذين أَبَوْا، فأحرقتهم النار. ممم

وقد كان في قَلبِ إبليس مِن الكبر والكفر والعناد ما اقتضىٰ طرده وإبعادَه عن جناب الرَّحمة وحضرة القُدْسِ؛ قال بعض المعربين: وكان مِن الكافرين؛ أي: وصار منَ الكافرين بسببِ امتناعه، كما قال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] وقال ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال الشاعر:

بِتَيْهَــاءَ قَفْــرٍ وَالمَطِــيُّ كَأَنَّهَــا ... قَطَا الحَـزْنِ قَـدْ كَانَـتْ فِرَاخًـا بُيُوضُـهَا

أي: وقد صارت، وقال ابن فُورَك: تقديره: وقد كان في عِلْمِ الله مِن الكافرين، ورجَّحه القرطبي، وذكر هاهنا مسألةً فقال: قال علماؤُنا: مَن أظهر الله علىٰ يديه ممن ليس بنَبِيٍّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالًّا علىٰ ولايته، خلافًا لبعض الصُّوفية والرافضة. هذا لفظه، ثم استدل علىٰ ما قال: بأنَّا لا نقطع بهذا الذي جرىٰ الخارق علىٰ يديه أنَّه يوافي الله بالإيمان، وهو لا يقطع لنفسه بذلك؛ يعني: والوليُّ الذي يُقطَع له بذلك في نفس الأمر.

قلتُ: وقد استدلَّ بعضهم علىٰ أنَّ الخارق قد يكون علىٰ يديْ غيرِ الوليِّ، بل قد يكونُ علىٰ يدي الفاجر والكافر أيضًا، بما ثبت عن ابن صيَّاد أنَّه قال: هو الدُّخ حين خبَّأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]، وبما كان يصدر عنه مِن أنَّه كان يملأُ الطَّريق إذا غَضِبَ حتىٰ ضربه عبدُ الله بن عُمَرَ، وبما ثَبَتَتْ به الأحاديث عن الدَّجَّال بما يكون علىٰ يَدَيْهِ مِن الخوارق

(١) صحيح لغيره: رواه الترمذي (١١٥٩) من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن، ورواه ابن ماجة (١٨٥٣) من حديث ابن أبي أوفىٰ وإسناده حسن، وله شواهد أخرىٰ أوردها الشيخ الألباني ر في «إرواء الغليل» (١٩٩٨).
(٢) رواه مسلم (٩١).

الكثيرة مِن أنَّه يأمرُ السَّماءَ أن تُمطِرَ فتُمْطِرُ، والأرض أن تُنْبِتَ فتُنْبِتُ، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليَعَاسِيب، وأنَّه يقتل ذلك الشَّاب ثمَّ يُحييهِ إلىٰ غير ذلك مِن الأمور المهولة[١].

وقد قال يونس بن عبد الأعلىٰ الصدفي: قلتُ للشَّافعي: كان اللَّيث بن سعد يقول: إذا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يمشي علىٰ الماء فلا تَغْتَرُّوا به حتىٰ تعرضوا أمرَهُ علىٰ الكتاب والسُّنَّة، فقال الشافعي: قصَّر الليث: بل إذا رأيتم الرَّجُل يمشي علىٰ الماء ويَطِيرُ في الهواء فلا تغترُّوا به حتىٰ تعرضوا أمره علىٰ الكتاب والسُّنَّة، وقد حكىٰ فخر الدين وغيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسُّجود لآدَمَ خاصٌّ بملائكةِ الأرض، أو عامٌّ بملائكة السماوات والأرض، وقد رجَّح كلًّا مِن القولين طائفةٌ، وظاهر الآية الكريمة العموم: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١، ص: ٧٣، ٧٤]، فهذه أربعة أوجه مقويَّة للعموم، والله أعلم.

وقد تكلَّم كثيرٌ مِن المفسِّرين عند هذه الآية وهي الأمرُ بسُجودِ الملائكة لآدَمَ علىٰ مسألةِ تفضيل البشر علىٰ الملك أو بالعكس وقد بَسَطَ الكلام فيها هاهنا فخر الدِّين الرَّازي في «تفسيره»، وحكىٰ عَن أكْثَرِ أَهْلِ السُّنَّة أنَّ الأنبياء أفضل مِن الملائكة إلَّا أبا بكر الباقِلَّانِي وأبا عبد الله الحليمي فإنَّهما ذهبا إلىٰ تفضيل الملائكة علىٰ الأنبياء ثمَّ شَرَعَ يذكر دلائل كل قول منتشرة ولم يتكلَّم كثيرٌ مِن السَّلف فيها فَرَأَيْنَا الإضراب عَن أصلِ بَسْطِ الكلام فيها هاهنا. والله أعلم بالصواب][٢].

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

يقول الله تعالىٰ إخبارًا عمَّا أكرم به آدم: بعد أن أمر الملائكة بالسجودِ له، فسجدوا إلَّا إبليس: إنَّه أباحه الجنَّة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء رَغَدًا؛ أي: هنيئًا واسعًا طيبًا.

وروىٰ الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيه، من حديث محمد بن عيسىٰ الدامغاني، حدَّثنا سلمة بن الفضل، عن ميكائيل، عن ليث، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر: قال: قلت: يا رسول الله؛ أرأيتَ آدمَ، أنبيًّا كان؟ قال: «نَعَم، نَبِيًّا رَسُولًا كَلَّمَهُ اللهُ قِبَلًا[٣][٤] فَقَالَ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[٥].

---

(١) البخاري (١٢٨٩)، ومسلم (٥٦٠).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) قال أحمد شاكر رحمه الله: وقوله في الحديث ـ هنا ـ «قبلًا» هو بكسر القاف وفتح الباء، ويجوز فتحهما وضمهما؛ أي: «عيانًا ومقابلة، لا من وراء حجاب، ومن غير أن يولي أمره أو كلامه أحدًا من ملائكته»، كما قال ابن الأثير.
(٤) أي: عِيانًا ومُقابلة، لا مِن وَراء حِجاب. «النهاية» (٨/ ٤).
(٥) حسن لغيره: وهو جزء من حديث طويل، وأوله: «يا أبا ذر؛ تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن» (انظر: تفسير الاستعاذة).

وقد اختلف في الجنَّة التي أسكنها آدم، أهيَ في السَّماء أم في الأرض؟[١] والأكثرون علىٰ الأول [وحكىٰ القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنَّها في الأرض][٢]، وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف، إن شاء الله تعالىٰ، وسياق الآية يقتضي أنَّ حواء خُلِقَت قبل دخول آدمَ الجنَّة، وقد صرَّح بذلك محمَّد بن إسحاق، حيث قال: لمَّا فرغ الله مِن مُعاتَبَةِ إبليس، أقبل علىٰ آدم وقد علَّمه الأسماء كُلَّها، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قال: ثم أُلْقِيَتِ السِّنَةُ علىٰ آدم -فيما بَلَغَنَا عن أهل الكتاب مِن أهل التَّوراةِ وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عبَّاس وغيره- ثمَّ أُخِذَ ضِلعًا مِن أضلاعه من شِقِّه الأيسر، ولأَمَ مَكانُهُ لحمًا، وآدم نائمٌ لم[٣] يَهُبَّ مِن نومه، حتىٰ خلق الله مِن ضلعه تلك زوجته حوَّاء، فسوَّاها امرأة ليسكن إليها. فلما كُشِفَ عنه السِّنَة وَهَبَّ مِن نومه، رآها إلىٰ جنبه، فقال -فيما يزعمون والله أعلم- : لَحْمِي وَدَمِي وَرُوحِي. فسكنَ إليها. فلما زوَّجه الله، وجعل له سكنًا مِن نفسه، قال له قِبَلًا: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ويُقال: إنَّ خلق حواء كان بعد دخوله الجنَّة، كما قال السُّدِّي في «تفسيره»، ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، -وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصَّحابة: أُخْرِجَ إبليسُ من الجنَّة، وأسكن آدمُ الجنَّة، فكان يَمشِي فيها وحشًا ليس له زوجٌ يسكنُ إليه، فنام نومةً فاستيقظ، وعند رأسه امرأةٌ قاعدةٌ خلقها الله مِن ضلعه، فسألها: ما أَنتِ؟ قالت: امْرَأَةٌ. قال: ولِمَ خُلِقْتِ؟ قالت: لِتَسْكُنَ إِلَيَّ. قالت له الملائكة -ينظرون ما بلغ من علمه- : ما اسمها يا آدمُ؟ قال: حَوَّاء. قالوا: ولِمَ [سُمِّيَتْ][٤] حواء؟ قال: إنَّها خُلِقَتْ مِن شيءٍ حَيٍّ[٥]. قال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾.

وأمَّا قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبارٌ مِن الله تعالىٰ وامتحان لآدَمَ. وقد اختلف في هذه الشجرة: ما هي؟

فقال السُّدِّي، عمَّن حدَّثه، عن ابن عبَّاس: الشجرة التي نهي عنها آدم عليه السلام هي الكَرْم[٦]. وكذا

---

(١) قال ابن عثيمين رحمه الله: ظاهر الكتاب، والسنة أنها جنة الخلد، وليست سواها؛ لأن «أل» هنا للعهد الذهني..
فإن قيل: كيف يكون القول الصحيح أنها جنة الخلد مع أن من دخلها لا يخرج منها . وهذه أُخرج منها آدم؟
فالجواب: أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها: بعد البعث .
(٢) زيادة من (ح).
(٣) لوحة (٦٣ أ).
(٤) زيادة من «تفسير الطبري».
(٥) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٢٢٩) وفيه السُّدِّي: ضعيف، وقد تقدم تعليق ابن كثير رحمه الله علىٰ هذا الإسناد قريبًا، وفيه بيان أن هذا الإسناد ورد فيه إسرائيليات كثيرة.
(٦) إسناده ضعيف، وعلته الجهالة، وفيه أيضًا السُّدِّي وهو ضعيف.

قال سعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، والشَّعبي، وجَعْدة بن هُبَيرة، ومحمَّد بن قيس.

وقال السُّدِّي أيضًا في خبر ذكره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناسٍ مِن الصحابة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هي الكَرْمُ. وتزعم يهود أنها الحِنْطَة.

وقال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل بن سَمُرَة الأحمسي، حدَّثنا أبو يحيىٰ الحِمَّاني، حدَّثنا النضر أبو عمر الخراز، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس، قال: الشَّجرة التي نُهِي عنها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي السُّنبَلَة(١).

وقال عبد الرزَّاق: أنبأنا ابن عُيَيْنَةَ وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: هي السُّنْبُلَة(٢).

وقال محمَّد بن إسحاق، عن رَجُلٍ مِن أهل العلم، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، قال: هي البرُّ(٣).

وقال ابن جرير: وحدَّثني المثنَّىٰ بن إبراهيم، حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا القاسم، حدَّثني رجلٌ مِن بني تميم، أنَّ ابن عبَّاس كتب إلىٰ أبي الجلد يسألُهُ عَن الشَّجرة التي أكل منها آدم، والشجرة التي تاب عندها(٤) آدم. فكتب إليه أبو الجلد: سألتني عَن الشجرة التي نُهِي عنها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي: السُّنْبُلة، وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم وهي الزَّيْتُونَة(٥).

وكذلك فسَّره الحسن البصري، ووَهْبُ بن مُنَبِّه، وعطية العَوفي، وأبو مالك، ومحارب بن دِثَار، وعبد الرحمن بن أبي ليلىٰ.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن بعض أهل اليَمَنِ، عن وهب بن منبه: أنَّه كان يقول: هي البُرُّ، ولكن الحبَّة منها في الجنة ككُلَىٰ البقر، أَلْيَنُ مِن الزُّبْدِ وأَحْلَىٰ مِن العسل.

وقال سُفيان الثوري، عن حصين، عن أبي مالك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ قال: النَّخْلَة.

وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ قال: تِينَةٌ. وبه قال قتادة وابن جريج.

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية: كانت الشَّجرة مَن أكل منها أَحْدَثَ، ولا يَنبغِي أن يكون في الجنة حَدَثٌ، وقال عبد الرزاق: حدَّثنا عمر بن عبد الرحمن بن مُهْرِب قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لمَّا أسكن الله آدمَ وزوجتَهُ الجنَّة، ونهاه عن أَكْلِ الشَّجرة، وكانت شجرة

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (١/ ٢٣١) وابن أبي حاتم (٣٨٠) وفيه النضر بن عبد الرحمن أبو عمر، قال البخاري: منكر الحديث، وأبو يحيىٰ الحماني: صدوق يخطئ ورمي بالإرجاء.

(٢) ضعيف جدًّا: فيه الحسن بن عمارة: متروك. رواه الطبري (١/ ٢٣١).

(٣) ضعيف: محمد بن إسحاق مدلس، وفيه رجل مبهم.

(٤) لوحة (٦٣ ب).

(٥) ضعيف: رواه الطبري (/ ٢٣١) وفيه رجل لم يسمَّ.

غصونها متشعبٌ بعضها من بعضٍ، وكان لها ثمرٌ تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نهىٰ الله عنها آدم وزوجته.

فهذه أقوال ستَّة في تفسير هذه الشجرة.

قال الإمام العلَّامة أبو جعفر بن جرير: والصَّواب في ذلك أَن يقال: إنَّ الله جلَّ ثَناؤُه نهىٰ آدمَ وزوجتَهُ عَن أكل شجرةٍ بِعَيْنِهَا مِن أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأيِّ شجرة كانت علىٰ التَّعيين؟ لأنَّ الله لم يضع لعباده دليلًا علىٰ ذلك في القرآن ولا مِن السُّنَّة الصَّحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البُرِّ. وقيل: كانت شجرة العِنَب، وقيل: كانت شجرة التِّين. وجائز أن تكون واحدةً منها، وذلك عِلْمٌ إذا عُلِمَ لم ينفع العالمَ به علمُه، وإن جَهِلَهُ جاهلٌ لم يضرَّه جهله به، والله أعلم. [وكذلك رجَّح الإمام فخر الدين الرَّازي في «تفسيره» وغيره، وهو الصواب][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَنۡهَا﴾ عائدًا إلىٰ الجنَّة، فيكون معنىٰ الكلَامِ كما قرأ [حمزة و][2] [عاصم بن بَهْدلَة، وهو ابن أبي النَّجُود][3]، فأزالهما[4]؛ أي: فنحَّاهما. ويصح أن يكون عائدًا علىٰ أَقْرَبِ المذكورين، وهو الشَّجرة، فيكون معنىٰ الكلام كما قال الحسن وقتادةُ ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: من قبيل الزَّلَل، فعلىٰ هذا يكون تقديرُ الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ أي: بسببها، كما قال تعالىٰ: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩] أي: يُصْرَف بِسَبَبِه مَن هو[5] مأفوكٌ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[6] أي: مِن اللِّباس والمنزل الرَّحب والرِّزق الهنيء والراحة.

﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: قرار وأرزاق وآجال ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلىٰ وقتٍ مؤقَّتٍ ومقدارٍ معيَّنٍ، ثم تقوم القيامة.

وقد ذكر المفسِّرون من السلف كالسُّدِّي بأسانيده، وأبي العالية، ووهب بن مُنبِّه وغيرهم، هاهنا أخبارًا إسرائيليَّةً عَن قِصَّة الحيَّة، وإبليس، وكيف جرىٰ مِن دخول إبليس [إِلَىٰ] الجنَّة ووسوسته، وسنبسط ذلك

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) أثبت في الأصول، ولكن عاصمًا وافق الجمهور، والذي تفرد بهذا الحرف هو حمزة.

(٤) متواترة: قَرَأَ (فَأَزَالَهُمَا) حَمْزَةُ وَوَافَقَهُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (فَأَزَلَّهُمَا).

(٥) لوحة (٦٤ أ).

(٦) قال أحمد شاكر رحمه الله: وقد دأب الكُتَّابُ والأدباء في عصرنا هذا علىٰ فريةٍ أن آدم عليه السلام خدعته حواء حتىٰ أكل من الشجرة!! يصطنعون قول الكاذبين المفترين من أهل الكتاب، بما حرفوا وكذبوا. ثم اجترؤوا واجترأت الصحف الماجنة والمجلات الداعرة، علىٰ السخرية بآدم وحواء، وتصويرهما في صورٍ قبيحةٍ منكرةٍ، جرأةً منهم علىٰ الدين، واستهزاءً بأول النبيين، وما كان لمسلم أن يفعل هذا أو يقوله. أعاذنا الله مما يقولون ويصنعون.

-إن شاء الله- في سورة الأعراف، فهناك القصة أبسط منها هاهنا، والله الموفق.

وقد قال ابن أبي حاتم هاهنا: حدَّثنا علي بن الحسن بن إِشْكَاب، حدَّثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طُوَالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ**[(١)]**، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَا مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَىٰ عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ**[(٢)] **فِي الجَنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةٌ، فَنَازَعَهَا، فَنَادَاهُ الرَّحْمَنُ: يَا آدَمُ، مِنِّي تَفِرُّ! فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ، لَا وَلَكِنِ اسْتِحْيَاءً**»[(٣)].

قال: وحدَّثني جعفرُ بن أحمد بن الحكم القُومَسيُّ سنة أربع وخمسين ومائتين، حدَّثنا [سليم][(٤)] بن منصور بن عمَّار، حدَّثنا علي بن عاصم، عن سَعِيد، عن قتادة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا ذَاقَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ فَرَّ هَارِبًا؛ فَتَعَلَّقَتْ شَجَرَةٌ بِشَعْرِهِ، فَنُودِيَ: يَا آدَمُ، أَفِرَارًا مِنِّي؟ قَالَ: بَلْ حَيَاءً مِنْكَ، قَالَ: يَا آدَمُ اخْرُجْ مِنْ جِوَارِي؛ فَبِعِزَّتِي لَا يُسَاكِنُنِي فِيهَا مَنْ عَصَانِي، وَلَوْ خَلَقْتُ مِثْلَكَ مِلْءَ الأَرْضِ خَلْقًا ثُمَّ عَصَوْنِي لَأَسْكَنْتُهُمْ دَارَ العَاصِينَ**»[(٥)].

هذا حديثٌ غريبٌ، وفيه انقطاعٌ، بل إعضال بَيْنَ قتادة وأبي بن كعب ﵁.

وقال الحاكم: حدَّثنا أبو بكر بن بَالُويه، عن محمَّد بن أحمد بن النَّضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائدة، عن [عمَّار بن أبي معاوية[(٦)] البَجَلي]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: ما أُسْكِنَ آدمُ الجنَّة إلا ما بين صلاة العصر إلىٰ غروب الشَّمس[(٧)]. ثم قال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال عبد بن حميد في «تفسيره»: حدَّثنا رَوح، عن هشام، عن الحسن، قال: لَبِثَ آدمُ في الجنَّة ساعة من نهارٍ، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة مِن أيام الدنيا.

---

(١) النخلة السحوق: الطويلة التي بعد ثمرها علىٰ المجتني.

(٢) أي: يعدو.

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٨٧)، والبيهقي في «البعث والنشور» (١٧٥)، والحاكم (٢/ ٢٦٢) وصححه ووافقه الذهبي.
وعزاه السيوطي في «الدرالمنثور» (١/ ١٣٢) إلىٰ ابن إسحاق في «المسند»، وابن سعد (١/ ٣١)، وأحمد وابن أبي الدنيا في «التوبة»، وفي بعض الروايات السابقة عن الحسن عن أُبيّ، وفي بعضها عن الحسن عن عُتي بن ضمرة عن أُبي، ولم يصرح الحسن البصري بالتحديث وهو معروف بالإرسال والتدليس، انظر: «جامع التحصيل» (ص١٩٤). وهو لم يسمع من أُبي، فالإسناد منقطع.

(٤) في الأصول: (سليمان)، والمثبت من «تفسير ابن أبي حاتم» وهو الصواب.

(٥) ضعيف: لأنه معضل بين قتادة وأُبيٍّ، كما ذكر ذلك ابن كثير في تعليقه علىٰ الحديث. رواه ابن أبي حاتم (٣٩٢).

(٦) كذا في الأصول، ويقال له أيضًا: (عمار بن معاوية البجلي) بدون ذكر: (أبي).

(٧) ضعيف: رواه الحاكم (٢/ ٥٤٢) وصححه علىٰ شرطهما.
قلت: فيه انقطاع، فعمار بن معاوية لم يسمع من سعيد بن جبير كما قال أحمد، انظر: «جامع التحصيل» (ص٢٤١).

وقال أبو جعفر الرَّازي: عن الرَّبيع بن أنس، قال: خرج آدمُ مِن الجنَّة للسَّاعة التاسعة أو العاشرة، فأخرج آدم معه غُصْنًا من شجر الجنَّة، علىٰ رأسه تاجٌ من شجر الجنَّة وهو الإكليل مِن ورقِ الجنَّة.

وقال[1] السُّدِّي: قال الله تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ فهبطوا فنزل آدمُ بالهِنْدِ، [ونزل معه الحجر الأسودُ، وقبضة مِن وَرقِ الجنَّة فبثه بالهند][2]، فنبتت شجرة الطِّيب، فإنَّما أصل ما يجاء به مِن الهند من الطِّيب مِن قبضة الوَرَقِ التي هبط بها آدم، وإنما قبضها آدمُ حين أُخْرِج مِن الجنَّة، أسفًا علىٰ الجنة حين أخرج منها.

وقال عمران بن عُيَيْنَة، عن عطاء بن السَّائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: أُهْبِطَ آدم من الجنة بـ«دَحْنَا»، أرض بالهند[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا عثمان بن أبي شَيْبَة، حدَّثنا جرير، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عبَّاس قال: أُهْبِطَ آدم عليه السلام إلىٰ أرضٍ يُقال لها: دَحْنا[4]، بين مكَّة والطَّائف[5].

وعن الحسن البصري قال: أُهبِطَ آدمُ بالهند، وحواء بجَدَّة، وإبليس بدَسْتُمِيسان من البَصرةِ علىٰ أميال، وأُهبطَت الحيَّة بأصبهان. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عمَّار بن الحارث، حدَّثنا محمَّد بن سعيد بن سابق، حدَّثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن عدي، عن ابن عُمَر، قال: أُهْبِطَ آدم بالصفا، وحوَّاء بالمروة[6].

وقال رجاءُ بن سلمة: أُهْبِطَ آدمُ عليه السلام يداهُ علىٰ رُكْبَتَيْهِ مُطَأْطِئًا رأسه، وأُهْبِطَ إبليسُ مُشَبِّكًا بين أصابعه رافعًا رأسَه إلىٰ السَّماء.

وقال عبد الرزَّاق: قال مَعْمَر: أخبرني عَوْف عن قَسَامة بن زُهَير، عن أبي موسىٰ، قال: إنَّ الله حين أَهْبَطَ آدم من الجنَّة إلىٰ الأرض، عَلَّمه صنعةَ كلِّ شيءٍ، وزوَّده مِن ثمار الجنَّة، فثماركم هٰذِهِ مِن ثمار الجنة، غير أنَّ هذه تتغيَّر وتلك لا تتغيَّر[7].

وقال الزُّهري عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) لوحة (٦٤ ب).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٣٩٦)، والحاكم (٢/ ٥٤٢) وفيه عمران بن عيينة قال أبو حاتم: يأتي بالمناكير: وفيه أيضًا عطاء بن السائب: اختلط، ومدار الحديث عليه كما في الإسناد الثاني.

(٤) في الأصل: دحناء.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) رواه ابن أبي حاتم (٣٩٥) وإسناده حسن.

(٧) صحيح: رواه عبد الرزاق (١/ ٤٣)، وابن أبي حاتم (٤٢٠)، والطبري (٥٣٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٣) موقوفًا وهو مما لا يقال بالرأي.

«خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا» رواه مسلم والنسائي(١).

[وقال فخر الدِّين: اعلم أنَّ في هذه الآيات تهديدًا عظيمًا عَن كلِّ المعاصي(٢) مِن وجوهٍ: الأول: أنَّ مَن تصوَّر ما جرَىٰ علىٰ آدمَ بسبب إقدامِهِ علىٰ هذه الزَّلَّة الصَّغيرة كان علىٰ وجلٍ شديدٍ مِن المعاصي، قال الشاعر:

يَـا نَـاظِرًا يَرْنُـو بِعَيْنَـيْ رَاقِـدٍ ... وَمُشَاهِدًا لِلأَمْـرِ غَيْـرَ مُشَاهِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَىٰ الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرَجَ الجِنَانِ وَنَيْـلَ فَـوْزِ العَابِـدِ
أَنَسِيتَ رَبَّكَ حِينَ أَخْـرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَىٰ الـدُّنْيَا بِـذَنْبٍ وَاحِـدِ

قال فخر الدِّين عن فتح الموصلي أنَّه قال: كنَّا قومًا مِن أهل الجنَّة فسبانا إبليسُ إلىٰ الدُّنيا، فليس لنا إلا الهمُّ والحزن حتىٰ نُرَدَّ إلىٰ الدَّارِ التي أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنَّةُ آدم التي أسكنها في السَّماء كما يقوله الجمهورِ مِن العلماء، فكيف يُمكِنُ إبليس من دخول الجنَّة، وقد طُرِد مِن هنالك طردًا قدريًّا، والقدري لا يخالف ولا يمانع؟

فالجواب: أنَّ هذا بعينه استدلَّ به مَن يقول: إنَّ الجنَّة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، وقد بسطنا هذا في أوَّل كتابنا «البداية والنِّهاية»، وأجاب الجمهورُ بأجوبةٍ، أحدُهَا: أنَّه مُنِعَ مِن دخول الجنة مُكْرَمًا، فأمَّا علىٰ وجهِ الرَّدعِ والإهانَةِ، فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم: كما جاء في التَّوراة أنَّه دخل في فَم الحيَّة إلىٰ الجنَّة، وقد قال بعضُهُم: يحتمل أنَّه وسوس لهما وهو خارج باب الجنَّة، وقال بعضهم: يحتمل أنَّه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السَّماء، ذكرها الزمخشري وغيره. وقد أورد القُرطبي هاهنا أحاديث في الحيَّات وقَتْلِهِنَّ وبيان حكم ذلك، فأجاد وأفاد](٣).

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

قيل: إنَّ هذه الكلمات مفسَّرة بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] رُوِيَ هذا عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وأبي العالية، والرَّبيع بن أنس،

---

(١) مسلم (٨٥٤)، والترمذي (٤٨٨)، والنسائي (٣/ ٨٩)، وأحمد (٢/ ٤٠١).

(٢) قال أبو بكر الجزائري: يتساءل البعض: هل آدم ارتكب بأكله من الشجرة كبيرةً، وهل يجوز في حق الأنبياء ارتكاب الكبائر؟

الجواب: أن آدم ما نُبِّئَ إلا بعد أن هبط إلىٰ الأرض، إذ هي دار التكليف، أما وهو في السماء فما كان قد نُبِّئَ بعد، وأكله من الشجرة لم يترتب عليه عقاب أكثر من الخروج من الجنة؛ لأنها ليست دار إقامة لمن يخالف فيها أمر الله تعالىٰ، أما الأنبياء فلا يجوز في حقهم ارتكاب الكبائر ولا الصغائر لعصمة الله تعالىٰ لهم؛ لأنهم محل أسوة لغيرهم.

(٣) زيادة من (ح).

والحسن، وقتادة، ومحمَّد بن كعب القُرَظي، وخالد بن مَعْدان، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن رجلٍ مِن بني تميم، قال: أتيت ابن عبَّاس، فسألته: قلت: ما الكلماتُ الَّتِي تلقَّىٰ آدمُ من ربه؟ قال: عُلِّم آدم شَأنَ الحجِّ[1].

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رُفَيع، أخبرني مَن سَمِعَ عبيد بن عُمَير، وفي روايةٍ: قال: أخبرني[2] مجاهد، عن عُبَيد بن عمير، أنَّه قال: قال آدم: يا ربِّ، خَطِيئَتِي التي أخطأت شيء كتبتَه علي قبل أن تخلُقَنِي، أو شيء ابتدعته مِن قِبَلِ نَفْسِي؟ قال: بل كتبته عليك قبل أن أَخْلُقَكَ. قال: فكما كتبته عليَّ فاغفر لي. قال: فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾.

وقال السُّدِّي، عمَّن حدَّثه، عن ابن عبَّاس: فتلقَّىٰ آدمُ مِن ربِّه كلمات، قال: قال: آدم عليه السلام: يا ربِّ، ألم تخلُقْنِي بيدكَ؟ قيل له: بلىٰ. ونفخت فِيَّ مِن روحك؟ قيل له: بلىٰ. وعَطستُ فقلتَ: يَرْحَمُكَ الله، وسَبَقَتْ رحمتُك غَضبَك؟ قيل له: بَلَىٰ، وكتبتَ عليَّ أن أعمل هذا؟ قيل له: بلىٰ. قال: أفرأَيْتُ إِن تبتُ هل أنت راجعي إلىٰ الجنَّة؟ قال: نعم[3].

وهكذا رواه العوفي، وسعيد بن جبير، وسعيد بن مَعْبَد، عن ابن عبَّاس بنحوه. ورواه الحاكم في «مستدركه» مِن حديث سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه وهكذا فسَّره السُّدِّي وعَطِيَّة العَوْفي.

وقد روىٰ ابن أبي حاتمٍ هاهنا حديثًا شبيهًا بهذا فقال: حدَّثنا علي بن الحُسين بن إشكاب، حدَّثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ آدَمُ عليه السلام: أَرَأَيْتَ يَا رَبِّ إِنْ تُبْتُ وَرَجَعْتُ، أَعَائِدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ**: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾»[4].

وهذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ قال: إنَّ آدم لما أصاب الخطيئة قال: يا ربِّ، أرأيت إن تُبْتُ وأَصْلَحْتُ؟ قال الله: إِذَنْ أُرْجِعُكَ إلىٰ الجنَّة فهي مِن الكلمات. ومِن الكلمات أيضًا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤١١)، وفيه رجل لم يسمَّ وأبو إسحاق يرسل. وقد عنعن.
(٢) لوحة (٦٥ أ).
(٣) رواه ابن أبي حاتم (٤١٠)، ورواه الحاكم في «المستدرك» من طريقٍ أخرىٰ (٢/ ٥٤٥) كما أشار لذلك ابن كثير وصححه الحاكم ورواه ابن جرير (١/ ٢٤٣). قلت: فيه الحسن بن عطية: ضعيف، ورواية السُّدِّي ضعيفة أيضًا، ففيه من لم يسمَّ، والسُّدِّي: ضعيف.
(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤١٠)، والحسن لم يسمع من أُبَيٍّ فهو منقطع.

مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مُجاهَدٍ أنَّه كان يقول في قول الله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ قال: الكلمات: اللَّهُمَّ لا إله إلا أَنْت سبحانك وبِحَمْدِك، ربِّ إنِّي ظلمت نفسِي فاغفر لي إنَّك خير الغافرين، اللَّهمَّ لا إله إلا أنت سُبحانك وبِحَمدك، رَبِّ إني ظلمت نفسي فَارحَمْنِي، إنَّك خير الراحمين. اللَّهمَّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ إنِّي ظلمت نفسي فتُبْ عليَّ، إنك أنت التواب الرحيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: إنه يتوب علىٰ مَن تاب إليه وأناب[١]، كقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤] وقوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ الفرقان: ٧١ وغير ذلك مِن الآيات الدَّالَّة علىٰ أنَّه تعالىٰ يغفر الذنوب ويتوب علىٰ مَن يتوب، وهذا مِن لُطفِهِ بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التَّوَّاب الرحيم.

[وذكرنا في «المسند الكبير» مِن طريق سليمان بن سليم عن ابن بُرَيدة وهو سليمان عن أبيه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لمَّا أَهْبَطَ اللهُ آدَمَ إِلَىٰ الأَرْضِ طَافَ بِالبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّىٰ خَلْفَ المَقَامِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي فَاقْبَلْ مَعْذِرَتِي، وَتَعْلَمُ حَاجَتِي فَأَعْطِنِي سُؤْلِي، وَتَعْلَمُ مَا عِنْدِي فَاغْفِرْ ذُنُوبِي، أَسْأَلُكَ إِيمَانًا يُبَاشِرُ قَلْبِي، وَيَقِينًا صَادِقًا حَتَّىٰ أَعْلَمَ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَنِي إِلَّا مَا كَتَبْتَ لِي. قَالَ: فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ إِنَّكَ قَدْ دَعَوْتَنِي بِدُعَاءٍ أَسْتَجِيبُ لَكَ فِيهِ وَلِمَنْ يَدْعُونِي بِهِ، وَفَرَّجْتُ هُمُومَهُ وَغُمُومَهُ، وَنَزَعْتُ فَقْرَهُ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ، وَأَجَرْتُ لَهُ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تَاجِرٍ زِينَةَ الدُّنْيَا وَهِيَ كَلِمَاتُ عَهْدٍ وَإِنْ لَمْ يَرِدْهَا» رواه الطبراني في «معجمه الكبير»[٢].][٣].

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمَّا أنذر به آدم وزوجته وإبليس حتىٰ أهبطهم مِن الجنَّة، والمراد الذُّرِّية: أنَّه سُينزِلُ الكتب، ويبعث الأنبياء والرُّسل؛ كما قال أبو العالية: الهُدَىٰ: الأنبياء والرُّسل والبيان، وقال

---

(١) لوحة (٦٥ ب).

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٩٢) إلىٰ الأزرقي في «تاريخ مكة»، والبيهقي في «الدعوات»، والطبراني في «الأوسط»، وقال السيوطي: بإسناد لا بأس به، وعزاه إلىٰ الطبراني في «الأوسط» (٦/ ١١٧) من حديث عائشة نحوه؛ قال المنذري: وفيه النضر بن طاهر: ضعيف.

(٣) زيادة من (ح).

مقاتل بن حَيَّان: الهدىٰ: محمد ﷺ. وقال الحسن: الهدىٰ: القرآن. وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعمُّ.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: مَن أقبَلَ علىٰ ما أنزلت به الكُتُبَ وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه مِن أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما فاتَهم مِن أمور الدُّنيا، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عبَّاس: فلا يَضلُّ في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] كما قال هاهنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: مُخَلَّدُون فيها، لا مَحِيدَ لهم عنها، ولا محيص.

وقد أوردَ ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: هاهنا حديثًا ساقه مِن طريقين، عن أبي مَسْلَمة سَعيد بن يزيد، عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطْعَة عن أبي سعيد -واسمه سعد بن مالك بن سِنَان الخُدْري- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، لَكِنَّ أَقْوَامًا أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِخَطَايَاهُمْ، أَوْ بِذُنُوبِهِمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّىٰ إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ**»(١). وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة به.

[وذِكْرُ هذا الإهباط الثَّاني لِمَا تعلَّق به ما بعده مِن المعنىٰ المغاير للأوَّل، وزعم بعضُهم أنَّه تأكيدٌ وتكريرٌ، كما تقول: قُمْ قُمْ، وقال آخرون: بل الإهباطُ الأول من الجنَّة إلىٰ السماء الدُّنيا، والثَّاني مِن سماء الدُّنيا إلىٰ الأرض، والصَّحيح الأول، والله تعالىٰ أعلم بأسرار كتابه](٢).

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ(٣) عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا بني إسرائيل بالدُّخول في الإسلام، ومتابعة محمَّد عليه مِن الله أفضل الصَّلاة والسلام، ومُهَيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتقديره: يا بَنِي العبد الصالح المطيع لله كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا. يا ابن الشُّجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم اطلب العلم ونحو ذلك.

ومِن ذلك أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] فإسرائيل هو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي: حدَّثنا عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن

(١) مسلم (١٨٥)، وابن ماجة (٤٣٠٩)، وأحمد (٣/ ١١، ٧٨، ٧٩).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) لوحة (٦٦ أ).

حَوشب، قال: حدَّثني عبد الله بن عبَّاس قال: حضَرتْ عصابةٌ من اليهود نبيَّ الله ﷺ فقال لهم: «هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبُ؟». قالوا: اللهمَّ نعم. فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»(١).

وقال الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن [عمير](٢) مولىٰ ابن عبَّاس، عن عبد الله بن عبَّاس؛ أن إسرائيل كقولك: عَبْدَ الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ قال مجاهد: نعمةُ الله التي أنعم بها عليهم فيما سَمَّىٰ وفيما سِوَىٰ ذلك، فَجَّر لهم الحَجَر، وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلْوَىٰ، وأنجاهم مِن عبودية آلِ فرعون.

وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرُّسل، وأنزل عليهم الكتب.

قلت: وهذا كقول موسىٰ عليه السلام لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] يعني: في زمانهم.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: بلائي(٣) عندكم وعند آبائكم لِمَا كان نجَّاهم بِهِ مِن فرعون وقَومِهِ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ قال: بِعَهْدِي الذي أخذتُ في أعناقكم للنَّبيِّ ﷺ إذا جاءكم أُنْجِزُ لكم ما وعدتكم عليه بتصدِيقِهِ واتِّباعه، بوضع ما كان عليكم مِن الإِصْر والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت مِن أحداثكم(٤).

[وقال الحسن البصري: هو قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الآية [المائدة: ١٢]. وقال آخرون: هو الذي أخذه الله عليهم في التَّوراة أنَّه سيبعث مِن بني إسماعيل نبيًّا عظيمًا يُطِيعه جميع العرب -الشُّعوب والقَبائل- والمُراد به: محمَّد ﷺ فمَن اتَّبعه غُفِر له ذنبه وأُدْخِل الجنَّة وجُعِلَ له أجران. وقد أورد فخر الدين الرازي هاهنا بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم السلام بمحمد ﷺ](٥).

وقال أبو العالية: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ قال: عهده إلىٰ عباده(٦): دينه الإسلام أن يَتَّبِعُوه.

---

(١) رجاله ثقات غير أن شهر بن حوشب كثير الإرسال والأوهام، لكنه صرح بسماعه في الحديث. رواه الطيالسي (٢٧٣١)، وأحمد (١/ ٢٧٢).

(٢) في (ز): (عمه).

(٣) البلاء؛ بمعنىٰ: النعمة، وهي كلمة تستعمل في الخير والشر، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾، وقال: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

(٤) رواه الطبري (١/ ٢٤٩)، وفيه محمد بن أبي محمد: مجهول.

(٥) زيادة من (ح).

(٦) لوحة (٦٦ ب).

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أَرْضَ عنكُم وأُدخلكُم الجنَّة.

وكذا قال السُّدِّي، والضَّحَّاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾أي: فاخشون؛ قاله أبو العالية، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وقتادة.

وقال ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: أُنْزِلُ بكم ما أُنْزِلَ بمن كان قبلكم مِن آبائكم من النَّقِمَات التي قد عرفتم مِن المسخ وغيره.

وهذا انتقالٌ مِن التَّرغيب إلىٰ التَّرهيب، فدعاهم إليه بالرَّغبة والرَّهبة، لعلهم يرجعون إلىٰ الحقِّ واتباع الرَّسول والاتعاظ بالقُرآن وزوَاجِره، وامتثال أوَامِرِه، وتصديق أخباره، والله الهادي لمن يشاء إلىٰ صراطه المستقيم؛ ولهذا قال: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾[1] ﴿مُصَدِّقًا﴾ [ماضيًا منصوبًا علىٰ الحال من ﴿بِمَآ﴾ أي: بالذي أنزلت مصدقًا، أو من الضمير المحذوف من قولهم: بما أنزلته مصدقًا، ويجوز أن يكون مصدرًا مِن غَيْرِ الفعل وهو قوله:﴿بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾][2] يعني به: القرآن الذي أنزله علىٰ محمَّد النبي الأميِّ العربيِّ بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا مشتملًا علىٰ الحقِّ مِنَ الله تعالىٰ، مصدِّقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

قال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: في قوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: [يا معشر أهل الكتاب آمِنُوا بما أنزلت مُصَدِّقًا لما معكم يقول][3]: لأنَّهم يجدون محمَّدًا ﷺ مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك.

---

(١) قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: كثيرًا ما يستدل مجادلة أهل الكتاب علىٰ عدم تحريف كتبهم بهذه الآية وأمثالها، كآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا﴾ [البقرة: ٨٩]، وآية: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧] وغيرهما. مع أنه ثبت بالبراهين القاطعة ذهاب قدر كبير من كتبهم، واختلاط حقها بباطلها فيما بقي، كما صنفت في ذلك مصنفات عدة، وقد رُد استدلالهم بهذه الآية وأمثالها علىٰ ما ادعوه، بأن معنىٰ كون القرآن مصدقًا لما معهم، ما ذكرناه قبل في تأويلها؛ وحاصله أن ما أنزل عليه ﷺ هو طِبْقَ ما عندهم من حقية نبوته، وصحة البشائر عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا﴾ أي: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء طبق ما عندهم عنه في التوراة والإنجيل، وبمعنىٰ أن أحواله جميعًا توافق البشائر.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ يعني: من جنسكم أهل الكتاب، بعد سماعكم بمبعثه. فالأولية نسبية، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، أو هو تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته؛ ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحىٰ إليه، والمستفتحين علىٰ الذين كفروا به، وكانوا يعدون أتباعه أول الناس كلهم، فلما بعث كان أمرهم علىٰ العكس؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي، بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، فالاشتراء استعارة للاستبدال ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ بالإيمان واتباع الحق، والإعراض عن حطام الدنيا.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) زيادة من (ح).

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾[قال بعض المفسرين: أوَّل فريقٍ كافرٍ به ونحو ذلك][١]. قال ابن عبَّاس: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم.

وقال أبو العالية: يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ [كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أول][٢] مَن كفر بمحمد ﷺ [يعني مِن جنسكم أهل الكتاب بعد سماعهم بمحمَّد وبمبعثه][٣].

وكذا قال الحسن، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس.

واختار ابن جرير أنَّ الضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ عائد على القرآن، الذي تقدَّم ذكره في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾.

وكلا القولين صحيحٌ؛ لأنَّهما متلازمان؛ لأنَّ مَن كفر بالقرآن فقد كفر بمحمَّدٍ ﷺ، ومَن كفر بمحمَّدٍ ﷺ فقد كفر بالقرآن.

وأمَّا قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فيعني به: أوَّل مَن كفر به مِن بني إسرائيل؛ لأنَّه قد تقدَّمهم مِن كفَّار قريش وغيرهم مِن العرب بَشَرٌ كثير، وإنَّما المراد: أوَّل مَن كفر به مِن بني إسرائيل مباشرة، فإنَّ يهود المدينة أوَّل بني إسرائيل خُوطبوا بالقرآن، فكُفْرُهُم به يستلزم أنَّهم أول مَن كفر به مِن جنسهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تَعْتَاضُوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنَّها قليلة فانية[٤]، كما قال عبد الله بن المبارك: أنبأنا عبد الرحمن بن يَزِيد بن جابر، عن هارون بن زيد قال: سُئِل الحسن -يعني البصري- عن قوله تعالىٰ: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال: الثَّمن القليل: الدُّنيا بحذافيرها.

وقال ابن لَهِيعة: حدَّثني عطاء بن دِينَار، عن سعيد بن جُبَيْر، في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وإن آياته: كتابه الذي أنزله إليهم، وإنَّ الثَّمن القليل: الدُّنيا وشَهَواتِها.

وقال السُّدِّي: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تَأْخُذُوا [طمعًا][٥] قليلًا، ولا تكتموا اسمَ الله لذلك الطَّمَع وهو الثمن.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجرًا. قال: وهو مكتوب عِندَهُم في الكتاب الأوَّل: يا ابن آدم عَلِّم مَجَّانًا كما عُلِّمت مَجَّانًا.

[وقيل: معناه لا تَعْتَاضُوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النَّافع في النَّاس بالكتمان واللَّبس لتستمروا علىٰ رِياسَتِكُم في الدُّنيا القليلةِ الحقيرةِ الزَّائلة عن قريبٍ، وفي «سنن أبي داود» عن أبي هريرة

(١) زيادة من (ح). (٢) زيادة من (ح).
(٣) زيادة من (ح). (٤) لوحة (٦٧ أ).
(٥) زيادة من (ح).

قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللهِ لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَرُحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

وأمَّا تعليم العلم بأجرة، فإن كان قد تعيَّن عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرةً، ويجوزُ أن يتناوَل مِن بيت المال ما يقوم به حَالُهُ وعيالُهُ، فإن لم يحصل له منه شيءٌ وقطعه التَّعليم عن التَّكسُّب، فهو كما لم يتعيَّن عليه، وإذا لم يتعيَّن عليه، فإنَّه يجوز أن يأخذ عليه أُجرَةً عند مالك والشَّافعي وأحمد وجمهور العلماء، كما في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد في قصة اللَّدِيغ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ»(٢)، وقوله في قصة المخطوبة: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ»(٣).

فأمَّا حديث عبادة بن الصامت، أنَّه عَلَّم رجلًا من أهل الصُّفَّة شيئًا مِن القرآن فأهدىٰ له قوسًا، فسأَل عنه رسول الله ﷺ فقال له: «إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تُطَوَّقَ بِقَوْسٍ مِنْ نَارٍ فَاقْبَلْهُ» فتركه(٤)، رواه أبو داود وروي مثله عن أبي بن كعب مرفوعًا فإن صحَّ إسناده فهو محمول عند كثيرٍ مِن العلماء منهم: أبو عُمر بن عبد البَرِّ علىٰ أنَّه لمَّا علَّمه الله لم يَجُزْ بعد هذا أن يعتاض عَن ثواب الله بذلك القَوسِ، فأمَّا إذا كان مِن أوَّل الأمر علىٰ التَّعليم بالأُجْرَةِ فإنَّه يَصِحُّ كما في حديث اللَّدِيغ وحديث سهل في المخطوبة، والله أعلم](٥).

﴿وَإِيَّىٰ فَاتَّقُونِ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عمر الدُّوري، حدَّثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية، عن طلق بن حبيب، قال: التَّقْوىٰ أن تعمل بطاعةِ الله رجاءَ رحمةِ الله علىٰ نورٍ مِن الله، والتَّقوىٰ أن تترك معصيةَ الله مخافةَ عذاب الله علىٰ نورٍ مِن الله.

ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِيَّىٰ فَاتَّقُونِ﴾ أنه تعالىٰ يتوعدهم فيما يعتمدونه مِن كتمان الحقِّ وإظهار خلافه ومخالفتهم الرَّسول صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) صحيح: لشواهده، رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجة (٢٥٢)، وأحمد (٢/ ٣٣٨)، وابن حبان (٧٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٨١١- بتحقيقي)، وفي إسناده فليح بن سليمان، قال في «التقريب»: صدوق كثير الخطأ. لكن للحديث شواهد، انظر: «الفقيه والمتفقه»، والحديث صححه الشيخ الألباني.

(٢) البخاري (٥٧٣٧)، وانظر ما تقدم رقم (٤) من سورة الفاتحة.

(٣) البخاري (٢٣١٠)، وأبو داود (٢١١١)، والترمذي (١١١٤).

(٤) رواه أبو داود (٣٤١٦)، وابن ماجة (٢١٥٧)، وفي إسناده مقال ففيه المغيرة بن زياد، قال عنه أحمد: حدث بأحاديث مناكير، وكل حديث رفعه فهو منكر، ووثقه يحيىٰ بن معين ووكيع، لكن القاعدة: أن الجرح مقدم علىٰ التعديل، لكن للحديث شواهد ومتابعات أوردها الشيخ الألباني ر في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٦)، و«الإرواء» (١٤٩٩)، ومعلوم أنه عند التعارض فيقدم الأحاديث الأقوىٰ. فيقدم حديث أبي سعيد، وحديث سهل كما أشار إلىٰ ذلك ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٥) زيادة من (ح).

يقول تعالىٰ ناهيًا لليهود عمَّا كانوا يعتمدونه مِن تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فنهاهم عَن الشيئين معًا، وأمرهم بإظهار الحقِّ والتَّصريح به؛ ولهذا قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لا تخلطوا الحقَّ بالباطل والصدق بالكذب .

وقال أبو العالية: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يقول: ولا تخلطوا الحقَّ بالباطل، وأدُّوا النصيحة لعباد الله مِن أمة محمَّد ﷺ.

ورُوِيَ عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه.

وقال قتادة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال: ولا تلبسوا اليهوديَّة والنَّصرانيَّة بالإسلام؛ إنَّ دين الله الإسلام[(١)] ، واليهوديَّة والنصرانيَّة بدعةٌ ليست من الله.

ورُوِيَ عن الحسن البصري نحو ذلك.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمد بن أبي محمد، عن عِكْرِمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فيما تعلمون مِن الكتب التي بأيديكم. ورُوِيَ عن أبي العالية نحو ذلك[(٢)] .

وقال مجاهد، والسُّدِّي، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

[قلت: ﴿وَتَكْتُمُوا۟﴾ يحتمل أن يكون مجزومًا، ويجوز أن يكون منصوبًا؛ أي: لا تجمعوا بين هذا وهذا، كما يقال: لا تأكل السَّمك وتشرب اللَّبن. قال الزَّمخشري: وفي مصحف ابن مسعود: «وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ» أي: في حال كتمانكم الحقَّ «وأنتم تعلمون» حالٌ أيضًا، ومعناه: وأنتم تعلمون الحق، ويجوز أن يكون المعنىٰ: وأنتم تَعلمُون ما في ذلك مِن الضَّرر العظيم علىٰ النَّاس مِن إضلالهم عَن الهدىٰ المفضي بهم إلىٰ النَّار إلىٰ أَن سلكوا ما تُبدونَه لهم مِن الباطل المشوب بنوعٍ من الحقِّ لتروِّجوه عليهم، والبيان والإيضاح وعكسه الكتمان وخلط الحقِّ بالباطل][(٣)] .

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ قال مقاتل: قوله تعالىٰ لأهل الكتاب: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمرهم أَن يُصَلُّوا مع النَّبيِّ ﷺ [﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أمرهم أن يُؤتُوا الزَّكاة؛ أي: يدفعونها إلىٰ النَّبيِّ ﷺ][(٤)] ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أمرهم أَن يركَعُوا مع الرَّاكعين من أمَّة محمَّد ﷺ.

يقول: كونوا منهم ومعهم.

---

(١) لوحة (٦٧ ب).

(٢) رواه الطبري (١/ ٢٥٩)، وابن أبي حاتم (٤٦٠)، وفيه محمد بن أبي محمد: مجهول.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) زيادة من (ح).

وقال علي بن طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص.

وقال وَكِيع، عن أبي جَنَاب، عن عِكْرِمة عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال: ما يوجب الزَّكاة؟ قال: مِائتَانِ فصَاعِدًا.

وقال مبارك بن فُضَالة، عن الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال: فريضةٌ واجبةٌ، لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا عثمان بن أبي شَيْبَة، حدَّثنا جَرِير عن أبي حيَّان [العجمي][1] التَّيمي، عن الحارث العُكلي في قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال: صدقة الفِطْر.

[وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: وكونوا مع المؤمنين في أَحْسَنِ أعمالهم، ومِن أخصِّ ذلك وأكمله الصلاة][2].

[وقد استدلَّ كثيرٌ من العلماء بهذه الآية علىٰ وجوب الجماعَة، وبسط ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله، وقد تكلَّم القُرطبي علىٰ مسائل الجماعة والإمامة فأجَادَ][3].

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: كيف يَليقُ بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون النَّاس بالبر[4]، -وهو جماع الخير- أن تنسوا أنفسكم، فلا تَأْتَمِرُوا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه علىٰ مَن قَصَّر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فَتَنْتَبِهُوا مِن رَقدتكم، وتَتبَصَّروا مِن عمايتكم. وهذا كما قال عبد الرزَّاق عن مَعْمَر، عن قَتَادَة في قوله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: كان بَنُو إسرائيل يَأْمُرُون النَّاس بطاعة الله وبتَقْوَاه، وبالبِرِّ، ويخالفون، فَعَيَّرهم الله ﷻ. وكذلك قال السُّدِّي.

وقال ابن جريج: ﴿أَتَأْمُرُونَ[5] ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون النَّاس بالصوم والصلاة، وَيَدَعُونَ العملَ بما يَأْمُرُون به النَّاس، فعيَّرهم الله بذلك، [فَمَنْ أَمَرَ بِخَيْرٍ][6] فلْيَكُنْ أشدَّ

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) زيادة من (ح).
(٤) قال القرطبي رحمه الله: اعلم -وفقك الله تعالىٰ- أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذم الله تعالىٰ في كتابه قومًا كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها، وبخهم به توبيخًا يتلىٰ علىٰ طول الدهر إلىٰ يوم القيامة فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ الآية.
(٥) لوحة (٦٨ أ).
(٦) زيادة من (ح).

النَّاس فيه مسارعةً.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تَنْهَوْن النَّاس عَن الكُفْرِ بما عِندَكُم من النُّبوَّة والعَهْد مِن التَّوراة، وتَتْرُكُون أنفسكم؛ أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عَهْدي إليكم في تصديقِ رَسُولِي، وتنقضون ميثاقي، [وتَجْحَدُون][(١)] ما تعلمون مِن كتابي[(٢)].

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس في هذه الآية، يقول: أتَأْمُرُونَ النَّاس بالدُّخول في دينِ محمَّد ﷺ وغير ذلك ممَّا أُمِرْتُمْ بِهِ مِن إِقَامِ الصَّلاة، وتَنْسَوْن أنفسكم[(٣)].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثني علي بن الحسن، حدَّثنا مُسلم الجَرْمي، حدَّثنا مَخْلَد بن الحُسين، عن أيُّوب السَّختياني، عن أبي قِلَابَةَ في قول الله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال: قال أبو الدَّرْدَاء: لا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الفِقْه حتَّىٰ يَمْقُت النَّاس في ذات الله، ثم يرجع إلىٰ نفسِهِ فيكون لها أشدَّ مَقْتًا[(٤)].

وقال عبد الرحمن بن زَيد بن أسلم في هذه الآية: هؤلاءِ اليهود إذا جاءَ الرَّجل يسألهم عَن الشَّيءِ ليس فيه حقٌّ ولا رِشْوة ولا شيءٍ أمروه بالحقِّ، فقال الله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

والغرض أنَّ الله تعالىٰ ذمَّهم علىٰ هذا الصَّنيع ونبَّهَهُم علىٰ خطئِهِم في حقِّ أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخَيْر ولا يَفعَلُونه[(٥)]، وليس المراد ذمَّهم علىٰ أمرهم بالبرِّ مع تركهم له، بل علىٰ تَرْكِهِم له، فإنَّ الأمر بالمعروف معروفٌ وهو واجب علىٰ العَالِم، ولكن [الواجب و][(٦)]الأَوْلَىٰ بالعَالِم أن يفعله مَع مَن أمرهم به، ولا يتخلَّف عنهم، كما قال شعيب ﷺ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فَكُلٌّ مِن الأمر

(١) في (ز): (وتحجون).
(٢) رواه الطبري (١/ ٢٥٨).
(٣) الطبري (١/ ٢٥٨).
(٤) الطبري (١/ ٢٥٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٢١٠)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» والإسناد فيه مسلم الجرمي: فيه مقال، وأبو قلابة ثقة لكنه يدلس وقد عنعن.
(٥) قال السعدي ﷺ: ليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنها دلت علىٰ التوبيخ بالنسبة إلىٰ الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن علىٰ الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما، لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضا فإن النفوس مجبولةٌ علىٰ عدم الانقياد لمن يخالف قولُه فعلَه، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.
(٦) زيادة من (ح).

بالمعروف وفعله واجبٌ، لا يسقط أحدهُما بتَركِ الآخر علىٰ أصحِّ قَوْلَي العلماء مِن السَّلف والخلف. وذهب بعضُهم إلىٰ أنَّ مُرْتَكِبَ المعاصي [1] لا ينهىٰ غيره عنها، وهذا ضعيفٌ، وأضعفُ مِنْهُ تمسكهم بهذه الآية؛ فإنَّه لا حُجَّة لهم فيها. والصَّحِيحُ أنَّ العالم يأمُرُ بالمَعْرُوفِ، وإن لَمْ يفعله، وينهىٰ عن المنكر وإن ارتكبه، [قال مالك عن رَبِيعَةَ: سَمِعْتُ سعيد بن جُبَيْر يقول له: لو كان المرءُ لا يأمرُ بالمعرُوفِ ولا يَنْهَىٰ عن المنكر حتَّىٰ لا يكون فيه شيءٌ مَا أَمَرَ أحدٌ بمَعْرُوفٍ ولا نهىٰ عَن مُنكَرٍ. وقال مالك: وصَدَقَ مَن ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيه شيءٌ؟ قلت] [2] ولكنَّه -والحالة هذه- مذمومٌ علىٰ ترك الطَّاعة وفعله المعصية؛ لعلمه بهَا ومخالفَتِهِ علىٰ بَصيرةٍ، فإنَّه ليس مَن يعلم كمَن لا يَعْلَم.

ولهذا جاءَت الأحاديثُ في الوَعيد علىٰ ذلك، كما قال الإمام أبو القاسم الطبراني في «معجمه الكبير»: حدَّثنا أحمد بن المعلَّىٰ الدمشقي والحسن بن علي المعمري، قالا: حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا علي بن سليمان الكلبي، حدَّثنا الأعمش، عن أبي تَميمة الهُجَيمي، عن جُندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ العَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ»** [3].

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

حديثٌ آخرُ: قال الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد هو ابن جُدْعَان، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَىٰ قَوْمٍ شِفَاهُهُمْ تُقْرَضُ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟»** [4].

ورواه عبد بن حميد في «مسنده» ، و«تفسيره»، عن الحسن بن موسىٰ، عن حماد بن سلمة به.

ورواه ابن مَرْدوَيه في «تفسيره» ، من حديث يونس بن محمد المؤدب، والحجاج بن مِنْهَال، كلاهما عن حماد بن سلمة به.

وكذا رواه يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة [به].

---

(١) لوحة (٦٨ ب).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) حسن: رواه الطبراني (٢/ ١٦٥/ ١٦٨١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٥): رجاله موثقون، وقال في موضع آخر (٦/ ٢٣٢): علي بن سليمان الكلبي لم أعرفه، قال حمدي السلفي (هامش الطبراني) قلت: «علي بن سليمان هذا ذكره ابن أبي حاتم، وقال: قال أبي: ما أرىٰ بحديثه بأسًا، صالح الحديث ليس بالمشهور».

(٤) حسن: رواه أحمد (٣/ ١٢٠، ١٨٠)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٠٨)، وفيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف، لكنه توبع، فرواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٧٢) من طريق سلمان التيمي عن أنس، ورواه أبو نعيم أيضًا (٨/ ٤٣- ٤٤)، وابن حبان (٥٢) من طرق عن مالك ابن دينار عن أنس. وبهذه المتابعات وغيرها يرقىٰ الحديث إلىٰ التحسين.

ثم قال ابن مَرْدوَيه: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن إبراهيم، حدَّثنا موسىٰ بن هارون، حدَّثنا إسحاق ابن إبراهيم التستري ببَلخ، حدَّثنا مكي بن إبراهيم، حدَّثنا عمر بن قيس، عن علي بن زيد عن ثُمامة، عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَىٰ أُنَاسٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ، الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ**»(١).

وأخرجه ابن حبَّان في «صحيحه»، وابن أبي حاتم، وابن مَرْدوَيه(٢) أيضًا مِن حديث هشام الدَّستَوائيِّ، عن المغيرة -يعني ابن حبيب- خَتَنِ مالك بن دينار، [عن مالك بن دينار](٣)، عن ثمامة، عن أنس بن مالك، قال: لمَّا عُرِجَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ تُقْرَضُ شفَاهُهُمْ، فَقَالَ: «**يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟**» **قَالَ:** «**هَؤُلَاءِ الخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ؛ أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟**»(٤).

حديثٌ آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يعلىٰ بن عبيد، حدَّثنا الأعمش، عن أبي وَائِل، قال: قيل لأسامة -وأنا رديفه- : ألا تُكلِّم عثمان؟ فقال: ألا إنَّكم تَرَون أني لا أُكلِّمه إلا أسمعكم. إنِّي لا أكلمه فيما بيني وبينه ما دون أن أفتتح أمرًا -لا أُحِبُّ أن أكون أوَّل مَن افتتحه، والله لا أقول لرجُلٍ إنَّك خير النَّاس وإن كان عليَّ أميرًا- بعد أن سمعتُ رسولَ الله ﷺ [يقول](٥)، قالوا: وما سَمِعْتَهُ يقول؟ قال: سمعته يقول: «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ بِهِ أَقْتَابُهُ**(٦)، **فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**»(٧) ورواه البخاري ومسلم مِن حديث [سليمان بن مِهْران الأعمش](٨) به نحوه.

[وقال أحمد: حدَّثنا سيار بن حاتم، حدَّثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُعَافِي الأُمِّيِّينَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا لَا يُعَافِي العُلَمَاءَ**»(٩). وقد ورد في بعض الآثار: أنَّه

---

(١) انظر السابق.
(٢) لوحة (٦٩ أ).
(٣) سقط من الأصول، واسْتُدْرِكَ من مصادر التخريج.
(٤) انظر التعليق السابق.
(٥) زيادة من (ح).
(٦) الانْدلاق: خُروج الشَّيء من مكانه، يُريد خُروج أمْعَائه من جَوْفه. «النهاية» (١٣٠/ ٢).
(٧) البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩)، وأحمد (٥/ ٢٠٥).
(٨) في (ز): [سليمان بن يزيد أن الأعمش]، والصواب ما أثبتناه.
(٩) منكر: أخرجه أبو نعيم (٢/ ٣٣١) (٩/ ٢٢٣)، والخطيب في «اقتضاء العلم والعمل» (٨٠)، وقال الألباني: حديث منكر، وبيَّن أن علته سيارٌ أبوحاتم، وقال أبو نعيم: هذا حديث غريب، تفرد به سيار عن جعفر، ولم نكتبه إلا من حديث أحمد بن حنبلٍ.

يَغْفِر للجاهل سَبْعِين مرَّة حتىٰ يغفر للعالم مرَّةً واحدة، ليس مَن يعلم كمَنْ لا يَعْلَم. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]. وقد روىٰ ابن عساكر في «ترجمة الوليد بن عقبة» عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يَطَّلِعُونَ عَلَىٰ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُونَ: بِمَ دَخَلْتُمُ النَّارَ؟ فَوَاللهِ مَا دَخَلْنَا الجَنَّةَ إِلَّا بِمَا تَعَلَّمْنَا مِنْكُمْ، فَيَقُولُونَ: إِنَّا كُنَّا نَقُولُ وَلَا نَفْعَلُ»(١) رواهُ مِن حديث الطبراني عن أحمد بن يحيىٰ بن حيَّان الرقي عن زهير بن عباد الرواسي عن أبي بكر الدَّاهري عن عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشَّعبي عن الوليد بن عُقْبَة فذكره](٢).

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: أنَّه جاءه رجلٌ، فقال: يا ابن عبَّاس، إنِّي أُرِيدُ أن آمُر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر، قال: أوَ بَلَغْتَ ذلك؟ قال: أرجو. قال: إن لم تَخْشَ أن تُفْتَضَح بثلاث آياتٍ مِن كتاب الله فافعل. قال: وما هُنَّ؟ قال: قوله ﷻ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أَحْكَمْتَ هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثَّاني. قال: قوله تعالىٰ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] أَحْكَمْتَ هذه؟ قال: لا. قال: فالحرفَ الثالث. قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] أَحْكَمْتَ هذه الآية؟ قال: لا. قال: فَابْدَأْ بِنَفْسِك(٣).

رواه ابن مَرْدوَيه في «تفسيره».

وقال الطبراني: حدَّثنا عبدان بن أحمد، حدَّثنا زيد بن الحريش، حدَّثنا عبد الله بن خِرَاش، عن العوام بن حَوْشَب، عن سعيد بن المسيِّب بن رافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا النَّاسَ(٤) إِلَىٰ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ وَلَمْ يَعْمَلْ هُوَ بِهِ لَمْ يَزَلْ فِي ظِلِّ سُخْطِ اللهِ حَتَّىٰ يَكُفَّ أَوْ يَعْمَلَ مَا قَالَ، أَوْ دَعَا إِلَيْهِ»(٥).

[إسناده فيه ضعف، وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات: قوله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] وقوله إخبارًا عن شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ

= وقال أيضًا: «قال عبد الله -أي: ابن الإمام أحمد- قال أبي: هذا حديث منكر، وما حدَّثني به إلا مرة».

(١) ضعيف جدًّا: الطبراني (٢٢/ ١٥٠/ ٤٠٥) والخطيب في «الاقتضاء» (٧٣)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٥): فيه أبو بكر الداهري، وهو ضعيف جدًّا، وقال الذهبي في «الضعفاء»: اتهموه بالوضع.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) عزاه لابن مردويه، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣/ ٧١٦٢)، والإسناد منقطع بين الضحاك وابن عبَّاس.

(٤) لوحة (٦٩ ب).

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٥٨) إلىٰ الطبراني، وضعف إسناده، وكذا ضعفه ابن كثير، وعلته عبد الله بن خراش: ضعيف.

أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وما أحسن ما قال مُسلم بن عمرو:

مَا أَقْبَحَ التَّزْهِيدَ مِنْ وَاعِظٍ ... يُزَهِّدُ النَّاسَ وَلَا يَزْهَدُ
لَوْ كَانَ فِي تَزْهِيدِهِ صَادِقًا ... أَضْحَىٰ وَأَمْسَىٰ بَيْتُهُ المَسْجِدُ
إِنْ رَفَضَ النَّاسُ فَمَا بَالُهُ ... يَسْتَفْتِحُ النَّاسَ وَيَسْتَرْفِدُ
الرِّزْقُ مَقْسُومٌ عَلَىٰ مَنْ تَرَىٰ ... يُسْقَىٰ لَهُ الأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ

وقال بعضهم: جلس أبو عثمان الحيريُّ الزَّاهد يومًا علىٰ مجلس التَّذكير فأطال السُّكوت، ثم أنشأ يقول:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَىٰ ... طَبِيبٌ يُدَاوِي وَالطَّبِيبُ مَرِيضُ

قال: فضَجَّ الناس بالبكاء. وقال أبو العتاهية الشاعر:

وَصَفْتَ التُّقَىٰ حَتَّىٰ كَأَنَّكَ ذُو تُقَىٰ ... وَرِيحُ الخَطَايَا مِنْ شَأْنِكَ تُقْطَعُ

وقال أبو الأسود الدُّؤَلي:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
فَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَىٰ ... بِالقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد بن زيد البصري العابد الواعظ، قال: دَعَوْتُ الله أن يُرِيَنِي رفيقي في الجنَّة، فقيل لي في المنام: هِي امرأةٌ في الكوفة يقال لها: ميمونَة السَّوداء فقصدت الكوفة لأراها. فقيل لي: هي تَرْعَىٰ غنمًا بوادٍ هناك، فجِئْتُ إليهَا فإِذَا هي قائمةٌ تُصَلِّي والغنم ترعىٰ حولها وبينهنَّ الذِّئابُ لا يَنْفِرْن مِنْهُ، ولا يسطو الذئاب عليهنَّ. فلما سلمت قالت: يا ابن زيد، ليس الموعد هنا إنَّما الموعد ثَمَّ، فسألتها عن شأن الذئاب والغنم. فقالت: إنِّي أَصْلَحْت ما بيني وبين سَيِّدي فأصلح ما بين الذِّئاب والغنم. فقلتُ لها: عِظِينِي. فقالت: يا عَجَبًا مِن واعظٍ يُوعَظُ، ثم قالت: يا ابن زيدٍ، إنَّك لو وضعت مَوَازِين القسط علىٰ جوارحِكَ لخَبَّرَتْك بمَكتُومِ مكنونٍ ما فِيهَا، يا ابن زيدٍ، إنَّه بلغني: مَا مِن عبدٍ أَعطَىٰ مِن الدنيا شيئًا فابتغىٰ إليه تائبًا إلا سلبه الله حبَّ الخلوة وبدَّلَه بَعْدَ القُرْبِ البُعدَ وبعد الأنس الوحشة ثم أنشأت تقول:

يَا وَاعِظًا قَامَ لَا حِسَابَ ... يَزْجُرُ قَوْمًا عَنِ الذُّنُوبِ
تَنْهَ عَنْهُ وَأَنْتَ السَّقِيمُ حَقًّا ... هَذَا مِنَ المُنْكَرِ العَجِيبِ
تَنْهَ عَنِ الغَيِّ وَالتَّمَادِي ... وَأَنْتَ فِي النَّهْيِ كَالمُرِيبِ

لَــوْ كُنْـتَ أَصْـلَحْتَ قَبْـلَ هَـذَا غَيَّــكَ أَوْ تُبْـتَ مِـنْ قَرِيــبِ
كَــانَ لِمَــا قُلْـتَ يَــا حَبِيبِــي مَوْضِـعَ صِـدْقٍ مِـنَ القُلُــوبِ](١)

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالىٰ [مخبرًا](٢) آمرًا عَبيدَهُ، فيما يؤمِّلون من خَيرِ الدُّنيا [والآخرة](٣)، بالاستعانة بالصَّبر والصَّلاة، كما قال مقاتل بن حَيَّان في تفسير هذه الآية: واستعينوا علىٰ طلبِ الآخرةِ بالصَّبر علىٰ الفرائض والصلاة.

فأمَّا الصَّبر فقيلَ: إنَّه الصِّيام، نصَّ عليه مجاهد.

[قال القرطبي وغيره: ولهذا سُمِّيَ رمضان شهر الصَّبر كما نطَق به الحديث](٤).

وقال سُفيانُ الثَّوري، عن أبي إسحاق، عن جُرَيّ بن كُليب، عن رجلٍ مِن بني سُليمٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ»(٥).

وقيل: المراد بالصبر: الكفُّ عن المعاصِي؛ ولهذا قرنه بأداءِ العبادات، وأعلاهَا: فعل الصلاة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبيد الله بن حمزة بن إسماعيل، حدَّثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سِنان، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: الصَّبر صَبْرَانِ: صبرٌ عند المصيبة حسنٌ، وأحسنُ منه الصَّبر عَن محارِمِ اللهِ(٦). قال: ورُوِيَ عن الحسن البصري نحو قول عُمر.

وقال ابن المبارك عن ابن لَهِيعة عن مالك بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: الصَّبر اعترافُ العبد لله بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يَجْزَعُ الرجل وهو يتجلَّد، لا يرىٰ منه إلا الصَّبر.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ علىٰ مرضاةِ الله، واعلموا أنَّها مِن طاعة الله.

وأمَّا قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فإنَّ الصلاة مِن أكبر العون علىٰ الثَّبات في الأمر، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت من (ح).
(٢) زيادة من (ح). (٣) زيادة من (ح). (٤) زيادة من (ح).
(٥) لا بأس به: رواه أحمد (٤/ ٣٦٠)، والترمذي (٣٥١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٧٥)، ومداره علىٰ جري بن كليب النهدي. قال الحافظ في «التقريب»: مقبول، وهذا يعني: أنه لا يصح حديثه إلا إذا توبع. وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه ابن ماجة (١٧٤٥) وفيه موسىٰ بن عبيدة :ضعيف، وفي كل من الحديثين زيادات ليست في الأخرىٰ، لكنهما اتفقا علىٰ هذه الفقرة «الصوم نصف الصبر» فالحديث بدون الزيادات الأخرىٰ لا بأس به إن شاء الله.
(٦) رواه ابن أبي حاتم (٤٨٧)، وأبو سنان لم يسمع من عمر. واسمه سعيد بن سنان.

الآية [العنكبوت: ٤٥].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا خلف بن الوليد، حدَّثنا يحيىٰ بن زكريا بن أبي زائدة، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدُّؤَلي، قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة، قال حذيفة -يعني ابن اليمان- : كان رسول الله ﷺ إذا حزَبه أمرٌ صلَّىٰ (١).

ورواه أبو داود [عن محمَّد بن عِيسىٰ عن يحيىٰ بن زكريا عن عكرمة بن عمَّار كما سيأتي] (٢).

وقد رواه ابن جرير، مِن حديث ابن جُرَيج، عن عِكْرِمة بن عمَّار، عن محمَّد بن عبيد بن أبي قُدامَة، عن عبد العزيز بن اليمان، عن حذيفة، قال: كان رسول الله ﷺ (٣) إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزِعَ إلىٰ الصَّلاة (٤).

[ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة؛ ويقال: أخي حذيفة مرسلًا عن النَّبيِّ ﷺ؛ وقال محمَّد بن نصر المروزي في كتاب الصَّلاة: حدَّثنا سهل بن عثمان أبو مسعود العسكري، حدَّثنا يحيىٰ بن زكريا بن أبي زَائِدَة قال: قال عكرمة بن عمَّار: قال محمَّد بن عبد الله الدُّؤَلي: قال عبد العزيز: قال حذيفة: رجعت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملةٍ يُصَلِّي، وكان إذا حزبه أمرٌ صَلَّىٰ (٥). وحدَّثنا عبيد الله بن معاذ، حدَّثنا أبي، حدَّثنا شعبة عَن أبي إسحاق، سمع حارثة بن مضرب، سمع عليًّا يقول: لَقَدْ رَأَيْتُنَا ليلة بدر وما فينا إلا نائمٌ غير رسول الله ﷺ يُصَلِّي ويدعو حتَّىٰ أصبح (٦).] (٧)

قال ابن جرير: ورُوِي عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه مرَّ بأبي هريرة، وهو مُنْبَطِحٌ علىٰ بطنه، فقال له: «اشكنب درد» [قال: نعم] (٨) قال: «قُمْ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ شِفَاءٌ» (٩) [ومعناه: أَيُوجِعُكَ بَطْنُكَ؟

---

(١) حسن: رواه ابن جرير (١/ ٢٦٠)، وأبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨) وعبد العزيز أخو حذيفة، قال الذهبي في «الميزان»: لا يعرف، ولكن الحافظ في «التقريب» قال: وثقه ابن حبان، وذكره بعضهم في «الصحابة».

(٢) زيادة من (ح).

(٣) لوحة (٧٠ أ).

(٤) انظر التعليق السابق.

(٥) رواه ابن نصر الدين في كتاب «تعظيم قدر الصلاة» (٢١٢)، وإسناده حسن.

(٦) صحيح: رواه ابن حبان (٢٢٥٧)، وأحمد (١/ ١٢٥)، وأبو يعلىٰ (٢٨٠).

(٧) زيادة من (ح).

(٨) زيادة من (ح).

(٩) ضعيف جدًّا: رواه أحمد (٢/ ٣٩٠)، وابن ماجة (٣٤٥٨)، فيه ليث ابن أبي سليم: صدوق، لكنه اختلط فلم تُمَيَّز أحاديثُه فترك، والحديث ضعفه البوصيري في «الزوائد» وضعفه الألباني، انظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٠٦٦) وبيَّن أن فيه علة أخرىٰ وهي: ذَوَّاد بن عُلْبة، قال ابن حبان: منكر الحديث جدًّا، يروي عن الثقات ما لا أصل له. انظر: «المجروحين» لابن حبان الترجمة (٣٣٥)، وقال ابن معين: ضعيف، وفي موضع آخر: ليس بشيء، وقال البخاري: يخالف في بعض حديثه، وقال النسائي: ليس بشيء، وقال ابن عدي: وكان أحاديثه غرائب عن كل ما يرويه، وهو في جملة الضعفاء عندي ممن يكتب حديثه، انظر: «الكامل في الضعفاء» (٤/ ٢٦).

قال: نعم.][1] قال ابن جرير: وقد حدَّثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم، قالا: حدَّثنا ابن عُلَيَّة، حدَّثنا عُيَينة[2] ابن عبد الرَّحمن، عن أبيه: أنَّ ابن عبَّاس نُعِيَ إليه أخوهُ قُثَم وهو في سَفَرٍ، فاسترجع، ثم تنحَّىٰ عن الطريق، فأناخ فصلَّىٰ ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلىٰ راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[3].

وقال سُنَيد: عن حجَّاج، عن ابن جريج: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال: إنهما مَعُونتان علىٰ رحمة الله.

والضَّمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ عائدٌ إلىٰ الصَّلاة، نصَّ عليه مجاهد، واختاره ابن جرير.

ويُحتمل أن يكون عائدًا علىٰ ما يدلُّ عليه الكلام، وهو الوصيَّة بذلك، كقوله تعالىٰ في قصة قارون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] أي: وما يُلَقَّىٰ هذه الوصية إلا الذين صبروا ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: يُؤْتَاها ويلهمها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وعلىٰ كل تقديرٍ، فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: مشقَّة ثقيلةٌ إلَّا علىٰ الخاشعين. قال ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس؛ يعني: المصدِّقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنين حقًّا. وقال أبو العالية: إلَّا علىٰ الخاشعين الخائفين، وقال مقاتل بن حيَّان: إلا علىٰ الخاشعين؛ يعني به: المتواضِعين. وقال الضَّحَّاك: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: إنَّها لثقيلةٌ إلَّا علىٰ الخاضِعينَ لطاعتِهِ، الخائفين سَطَواته، المصدِّقين بوعده ووعيده.

وهذا يُشبه ما جاء في الحديث: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ»[4].

وقال ابن جرير: معنىٰ الآية: واستعينوا أيُّها الأحبار مِن أهل الكتاب، بحَبْسِ أنفسكم علىٰ طاعة الله وبإقامةِ الصَّلاة المانعة مِن الفحشاء والمنكر، المقرِّبة مِن رضا الله، العظيمة إقامتها إلا علىٰ المتواضعين لله المُسْتكِينِينَ لطاعته المُتَذَلِّلين مِن مخافته.

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) في (ز): (ابن عيينة)، وهو خطأ.
(٣) صحيح: رواه الطبري (١/ ٢٦٠).
(٤) صححه الألباني: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجة (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح، قلت: في سنده انقطاع، وقد أشار الألباني إلىٰ تصحيحه في «صحيح ابن ماجة»، وقال في «تعليقه» علىٰ «الإيمان» لابن أبي شيبة (١): حديث صحيح بالطريق التي بعده -أي: عند ابن منده-، ورجاله ثقات.

هكذا قال، والظَّاهر أنَّ الآية [(١)] وإن كانت خطابًا في سِياق إنذارِ بني إسرائيل، فإنَّهم لم يُقْصَدُوا بها علىٰ سبيل التَّخصيص، وإنما هي عامَّة لهم، ولغيرهم. والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ هذا مِن تمام الكلام الذي قبله؛ أي: وإنَّ الصلاة أو الوَصَاة لَثَقِيلةٌ إلَّا علىٰ الخاشِعينَ الذين يظنُّون أنَّهم ملاقُوا ربِّهم؛ أي: [يعلمون أنَّهم] [(٢)] محشورون إليه يومَ القيامة، مَعرُوضُون عليه، وأنَّهم إليه راجعون؛ أي: أمورهم راجعة إلىٰ مَشِيئَتِهِ، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لمَّا أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهُل عليهم فعلُ الطاعات وترك المنكرات.

فأمَّا قوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: العرب قد تُسَمِّي اليقين ظنًّا، والشكَّ ظنًّا [(٣)]، نظير تسميتهم الظلمة [سُدْفة]، والضياء [سُدفة] [(٤)]، والمغيث صارخًا، والمستغيث صارخًا، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمَّىٰ بها الشيء وضدَّه، كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمْ فِي الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ

يعني بذلك: تيقَّنُوا بألفيْ مَدجَّجٍ يأتيكم، وقال عَمِيرة بن طارق:

فَإِنْ [تَغْتَزُوا] [(٥)] قَوْمِي وَأَقْعُدَ فِيكُمُ وَأَجْعَلَ مِنِّي الظَّنَّ غَيْبًا مُرَجَّمَا

يعني: وأجعل مني اليَقِينَ غيبًا مرجمًا، قال: والشواهد مِن أشعار العرب وكلامها علىٰ أنَّ الظنَّ في معنىٰ اليقين، أكثر مِن أن تحصر، وفيما ذكرنا لمن وُفِّقَ لفهمه كفاية، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

ثم قال [ابن جرير] [(٦)]: حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا أبو عاصم، حدَّثنا سفيان، عن جابر، عن مجاهد، قال: كلُّ ظنٍّ في القُرآن يَقِينٌ [(٧)]؛ أي: ظننت وظَنوا.

وحدَّثني المثنَّىٰ، حدَّثنا إسحاق، حدَّثنا أبو داود الحَفَرِيُّ، عن سفيان عن [ابن أبي نَجيح] [(٨)]، عن مجاهد، قال: كُلُّ ظَنٍّ في القرآن فهو عِلْمٌ. وهذا سند صحيح.

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ قال: الظَّنُّ هاهنا يَقِينٌ.

---

(١) لوحة (٧٠ ب).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) فالكلمة من الأضداد. ينظر: «اللسان»: ظنن، و«الأضداد» لابن الأنباري: (ص ١٤ / ط العصرية).

(٤) في (ز): (شدفة).

(٥) في (ح): (نصروا)، والذي أثبتناه موافق لما في «تفسير الطبري».

(٦) زيادة من (ح).

(٧) رواه الطبري (١/ ٣٦٥)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف.

(٨) زيادة من (ح).

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وقتادة نحو قول أبي العالية.

وقال سُنيدٌ، عن حجَّاج، عن ابن جريج: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [علموا أنَّهم ملاقوا ربِّهم][1]، كقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ[2]﴾ [الحاقة: ٢٠] يقول: علمت.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قلت: وفي الصحيح: «أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَلَمْ أُزَوِّجْكَ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، [وَ][3] أُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ[4]؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ اللهُ: اليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»[5]. وسيأتي مبسوطًا عند قوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله، والله تعالىٰ أعلم.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يذكرهم تعالىٰ سَالفَ نعمه علىٰ آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به مِن إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلىٰ سائر الأمم مِن أهل زمانهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: بما أُعطُوا مِن المُلك والرُّسل والكتب علىٰ عَالَم مَن كان في ذلك الزمان؛ فإن لكلِّ زمان عالمًا.

ورُوي عن مجاهد، والرَّبيع بن أنس، وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد نحوُ ذلك، ويجب الحمل علىٰ هذا؛ لأنَّ هذه الأمَّة أفضل منهم؛ لقوله تعالىٰ خطابًا لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠] وفي «المسانيد» و«السنن» عن معاوية بن حَيْدَة القُشيري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ»[6]. والأحاديث في هذا كثيرةٌ تُذْكَرُ عند قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

[وقيل: المراد تَفضيلٌ بنوعٍ مَا مِن الفضل علىٰ سائر النَّاس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقًا، حكاه

---

(١) زيادة من «تفسير الطبري».

(٢) لوحة (٧١ أ).

(٣) كذا في الأصول، وهو الموافق لما في «صحيح مسلم»، وقد وقع في بعض المطبوعات (ألم).

(٤) أي :تكون رئيسًا مطاعًا وتأخذ ربع الغنيمة. «اللسان»: رأس وربع، و«النهاية» (١٨٦/ ٢).

(٥) مسلم (٢٩٦٨)، والترمذي (٢٤٢٨).

(٦) حسن: الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجة (٤٢٨٧، ٤٢٨٨)، وأحمد (٤/ ٤٤٧).

فخر الدِّين الرَّازي وفيه نظر. وقيل: إنهم فُضِّلُوا علىٰ سائر الأمم لاشتمال أُمَّتِهِم علىٰ الأنبياء منهم، حكاه القرطبي في «تفسيره»، وفيه نظر؛ لأنَّ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامٌّ يشتمل مَن قبلهم ومَن بعدهم مِن الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل مِن سائر أنبيائهم، ومحمَّد بعدهم وهو أفضل مِن جميع الخلق وسيِّد ولد آدم في الدُّنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ إخوانه من الأنبياء والمرسلين][(١)].

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

[بحثَ فخرُ الدِّين الرَّازي هاهنا مع المعتزلة في إثبات الشَّفاعة وأورد لهم شبهًا وأجاب عنها. قُلتُ: وقد بَسَطْتُ الكلام علىٰ الأحاديث المتواترة في الشفاعة وأقسامها وتعدادها وأنواعها في كتابنا في «البعث والنشور». ولله الحمد والمنَّة][(٢)].

لمَّا ذَكَّرهم الله تعالىٰ بِنِعَمِهِ أَوَّلًا عطف علىٰ ذلك التَّحذيرَ مِن حُلُول نِقَمِهِ بهم يَومَ القيامة فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يُغْنِي أحدٌ عَن أحدٍ كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، فهذه أبلغُ المقامات: أنَّ كلًّا من[(٣)] الوالد وولده لا يُغني أحدهما عن الآخر شيئًا، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ يعني: عن الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فِداءٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [الحديد: ١٥]، فأخبر تعالىٰ أنَّهم إن لم يؤمنوا برسوله ويُتابعوه علىٰ ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة علىٰ ما هم عليه، فإنَّه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاهٍ، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملءِ الأرض ذهبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) لوحة (٧١ ب).

٢٥٤]، وقال: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

[وقال سنيد: حدَّثني حجاج، حدَّثني ابن جريج، قال: قال مجاهد: قال ابن عبَّاس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بَدَل، والبدل: الفِدْيَة[١].

وقال السُّدِّي: أمَّا عدل فيعدلها مِن العذاب يقول: لو جاءت بملءِ الأرض ذهبًا تَفتدِي به ما تُقُبِّل منها، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.][٢] وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعني: فداء.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي مالك، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه عن علي ﷺ في حديثٍ طويلٍ، قال: والصَّرف والعدل: التَّطوعُ والفريضةُ[٣].

وكذا قال الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبي العاتكة، عن عمير بن هانئ.

وهذا القول غريب هنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، وقد ورد حديث يقويه، وهو ما قال ابن جرير: حدَّثني نَجِيح بن إبراهيم، حدَّثنا علي بن حكيم، حدَّثنا حميد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عَمْرو بن قيس الملائي، عن رجل من بني أمية -من أهل الشام أحسن عليه الثناء- قال: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «**العَدْلُ الفِدْيَةُ**»[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم مِن أنَّه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جَاهٍ ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التَّلطُّف، ولا لهم ناصر مِن أنفسهم، ولا مِن غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] أي: إنَّه تعالىٰ لا يقبل فيمن كفر به[٥] فِدْيَةٌ ولا شفاعةٌ، ولا ينقذ أحدًا مِن عذابه منقذٌ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦]، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا

(١) رواه الطبري (١/ ٣٦٨)، وفيه حجاج بن أرطأة: ضعيف.
(٢) زيادة من (ح).
(٣) رواه ابن أبي حاتم (٥٠٥) ورجاله ثقات.
(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (١/ ٢٦٨- ٢٦٩)، وإسناده مرسل مع جهالة الراوي.
(٥) لوحة (٧٢ أ).

كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٨].

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ما لكم اليوم لا تمانعون منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم.

وقال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعني: أنَّهم يومئذٍ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدلٌ ولا فديةٌ، بَطَلت هنالك المحاباة واضْمَحَلَّت الرِّشىٰ والشفاعات، وارتفع من القوم التَّعاون والتَّناصر، وصار الحكم إلىٰ عدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٦].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[آلُ الرجل: مَن ينتمي إليه نسبًا أو سببًا، وقيل: هم أتباعه وأشياعُه، وقيل: مَن هو علىٰ دينه ومِلَّتِهِ، وقد يُطلَق علىٰ الرَّجل نفسه ويُضاف إلىٰ عظيمٍ فيُقال: آلُ فلانٍ، ولا يضاف إلىٰ البلدان علىٰ المشهور، وجوَّز بعضهم إلىٰ المدينة كما يقال: أهل المدينة، وحكىٰ أبو عبيد: (آل مكة آل آله) وهكذا يُضاف إلىٰ المضمر علىٰ الأشهر قال عبد المطلب:

وَانْصُرْ عَلَىٰ آلِ الصَّلِيـ ... ـبِ وَعَابِدِيهِ اليَوْمَ آلَكْ

وقال غيره:

أَنَا الفَارِسُ الحَامِي حَقِيقَةَ وَالِدِي ... وَآلِي كَمَا تَحْمِي حَقِيقَةَ آلِكَا.][(1)]

يقول تعالىٰ: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتِي عليكُم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: خلصتكم منهم وأنقذتكم مِن أيديهم صحبة موسىٰ ﷺ وقد كانوا يسومونكم؛ أي: يُوردونكم ويُذيقُونكم ويُولُونكُم سوء العذاب. وذلك أنَّ فرعون -لعنه الله- كان قد رَأَىٰ رؤيا هَالتْهُ، رأىٰ نارًا خرجت مِن بيت المقدس فدخلت دور القِبط ببلاد مصر، إلَّا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أنَّ زوال ملكه يكون علىٰ يدي رجل مِن بَنِي إسرائيل، ويُقال: بل تَحدَّث سُمَّارُه عنده بأنَّ بَنِي إسرائيل يتوقَّعون خروج رجلٍ منهم، يكون لهم به دولةٌ ورفعةٌ، وهكذا جاء فِي حديث الفُتُون، كما سيأتي في موضعه في

---

(١) زيادة من (ح).

سورة طه إن شاء الله [١]، فعند ذلك أمرَ فرعون -لعنه الله- بقتل كلِّ ذِي ذَكرٍ يُولَد بعد ذلك مِن بني إسرَائِيل، وأَن تُتْرَكَ البنات، وأَمَرَ باستعمال بَنِي إسرائيل في مَشاقِّ الأعمال وأَرَاذِلِها.

وهاهنا فسَّر العذاب بذَبْح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [٢] [إبراهيم: ٦] وسيأتي تفسير ذلك في أوَّل سورة القصص، إن شاء الله تعالىٰ، وبه الثِّقة والمعونة والتَّأييد.

[ومعنىٰ ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يُولُونَكُمْ، قاله أبو عبيدة، كما يقال: سامه خُطَّة خَسْفٍ إذا أَوْلَاه إيَّاها، قال عمرو بن كلثوم:

إِذَا مَا المَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الخَسْفَ فِينَا

وقيل: معناه: يُدِيمُون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم مِن إدامتها الرَّعي، نقله القُرطبي، وإنَّما قال هاهنا: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ليكون ذلك تفسيرًا للنِّعمة عليهم في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ثمَّ فسَّره بهذا؛ لقوله هاهنا: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وأمَّا في سورة إبراهيم فلما قال: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥] أي: بأَيَادِيهِ ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فعطف عليه الذَّبح ليدلَّ علىٰ تعدُّد النِّعم والأيادي] [٣].

وفرعونُ عَلَمٌ علىٰ كلِّ مَنْ مَلَكَ مصر، كافرًا مِن [العماليق وغيرهم] [٤]، كما أنَّ قيصر عَلَمٌ علىٰ كلِّ مَن ملك الرُّوم مع الشَّام كافرًا، وكِسْرىٰ لكلِّ مَن ملكَ الفُرْس، وتُبَّع لمن ملك اليَمَن (كافرًا) [٥] [والنجاشي لمن ملك الحبشة، وبَطْلَيْمُوسَ لمن ملكَ الهندَ] [٦] ويقال: كان اسمُ فرعون الذي كان في زمن مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الوليد بن مُصعب [بن الرَّيَّان] [٧]، وقيل: مُصْعَب بن الرَّيَّان، أيًّا ما كان فعليه لعنةُ الله، [وكان مِن سلالةِ عِمْلِيق بن دَاود بن إِرَم بن سام بن نُوح، وكنيته أَبُو مُرَّة، وأصله فارسي مِن اسْتَخْر] [٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفي الَّذي فعلنا بكم مِن إنجائنا إيَّاكم مما كنتم فيه مِن عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم. أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمةٌ. وقال مجاهد: ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمةٌ مِن ربكم عظيمة. وكذا قال أبو العالية، وأبو مالك، والسُّدِّي، وغيرهم.

وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

---

(١) انظر سورة طه الآية (٤٠).
(٢) لوحة (٧٢ ب).
(٣) زيادة من (ح).
(٤) زيادة من (ح).
(٥) قد رجح ابن جرير وغيره أن «تُبَّع» الأول هو «ذو القرنين» وقد كان مؤمنًا.
(٦) زيادة من (ح).
(٧) زيادة من (ح).
(٨) زيادة من (ح).

[الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال ابن جرير: وأكثر ما يُقال في الشَّرِّ: بلوته أبلوه بَلاءً، وفي الخير: أبليه إبلاء وبلاء، قال زهير بن أبي سلمىٰ:

جَـزَىٰ اللهُ بالإِحْسَانِ مَـا فَعَـلا بِكُـمْ   وَأَبْلاهُمَـا خَيْـرَ الـبَلَاءِ الَّـذِي يَبْلُـو

قال: فجمع بين اللُّغتين؛ لأنَّه أراد فأنعم الله عليهما خير النِّعم التي يَخْتَبر بها عباده.

[وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ إشارة إلىٰ ما كانوا فيه مِن العذاب المهين مِن ذَبْحِ الأبناء واستحياء النِّساء؛ قال القرطبي: وهذا قول الجمهور ولفظُهُ بعدما حكىٰ القول الأول، ثم قال: وقال الجمهور: الإشارة إلىٰ الذَّبح ونحوه، والبلاء هاهنا في الشَّرِّ، والمعنىٰ في الذَّبح مكروهٌ وامتحان](١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم مِن آل فرعون، وخرجتم مع موسىٰ ﷺ وخرج فرعون في طَلَبِكُم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالىٰ عَن ذلك مفصَّلًا كما سيأتي في مواضعه ومن أبسطها في سورة الشعراء إن شاء الله.

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ أي: خَلَّصْنَاكُم مِنهُم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم وأَنْتُم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفىٰ لصُدُورِكم، وأبلغ في إهانة عدوِّكم.

وقال عبد الرزَّاق: أنبأنا مَعْمر، عن أبي إسحاق الهَمْداني، عن عمرو بن ميمون الأَوْدِي في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال: لمَّا خرج موسىٰ بِبَنِي إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال: لا تَتْبعُوهم حتَّىٰ تَصِيح الدِّيَكَةُ. قال: فوالله ما صاح [لَيْلَتَئِذٍ](٢) ديكٌ حتَّىٰ أصبحوا؛ فدعا بشاةٍ فَذُبِحَت، ثم قال: لا أفرغ مِن كَبِدِها(٣) حتىٰ يجتمع إليَّ ستمائةُ ألفٍ مِن القبط. فلم يَفرُغ مِن كبدها حتىٰ اجتمع إليه ستمائةُ ألفٍ مِن القبط [ثم سار](٤)، فلما أتىٰ موسىٰ البحر، قال له رجل من أصحابه -يقال له: يوشع بن نون- : أين أَمَرَ رَبُّك؟ قال: أمامك، يُشِيرُ إلىٰ البحر. فأَقْحَم يُوشع فرسَه في البحر حتىٰ بلغ الغَمْرَ، فذهب به الغَمْرُ، ثم رجع. فقال: أين أَمَرَ ربك يا موسىٰ؟ فوالله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ. فعل ذلك ثلاث مرات، ثم أَوْحىٰ الله إلىٰ موسىٰ: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضَرَبَهُ ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، يقول: مثل الجبل. ثم سار موسىٰ ومَن مَعَهُ وأتبعهم فرعون فِي طَرِيقِهِم، حتَّىٰ إذا تتامُّوا فيه أطبقَهُ الله عليهم فلذلك قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وكذلك قال غيرُ واحدٍ من السَّلَف، كما سيأتي بيانه في موضعه. وقد ورد أنَّ هذا اليوم كان يوم

(١) زيادة من (ح).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) لوحة (٧٣ أ).

(٤) زيادة من «تفسير الطبري».

عاشوراء، كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا عبد الوارث، حدَّثنا أيوب، عن عبد الله بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عبَّاس، قال: قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ فرأىٰ اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَ؟». قالوا: هذا يوم صالحٌ، هذا يوم نجَّىٰ الله ﷻ فيه بني إسرائيل مِن عدوِّهم، فصامه موسىٰ عليه السلام؛ فقال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَىٰ مِنكُمْ». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصومه(١).

ورَوىٰ هذا الحديث البخاريُّ، ومسلم، والنَّسائي، وابن ماجة مِن طرق، عن أيُّوب السَّختياني، به نحو ما تقدم.

وقال أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا أبو الرَّبيع، حدَّثنا سلام -يعني ابن سليم- عن زَيد العَمِّيِّ عن يزيد الرَّقاشي عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «فَلَقَ اللهُ الْبَحْرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ»(٢).

وهذا ضعيف مِن هذا الوجه فإنَّ زيدًا العَمِّيَّ فيه ضعف، وشيخه يزيد الرَّقاشي أضعف منه.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: واذكروا نعمتيَ التي أنعمتُ عليكم في عفوي عَنْكُم، لمَّا عبدتُم العجلَ بعد ذهاب موسىٰ لميقات ربِّه، عند انقضاء أمَدِ المواعدة، وكانت أربعين يومًا(٣)، وهي المذكورة في الأعراف، في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قيل: إنها ذو القعدة بكماله وعشر مِن ذي الحِجَّة، وكان ذلك بعد خلاصهم مِن قوم فرعون وإنجائهم مِن البحر.

وقوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو ما يَفْرُقُ بين الحقِّ والباطل، والهدىٰ والضَّلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وكان ذلك أيضًا بعد خروجهم مِن البحر، كما دلَّ عليه سياق الكلام في سورة الأعراف؛ ولقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

[وقيل: الواو زائدة، والمعنىٰ: ولقد آتينا موسىٰ الكتاب والفرقان وهذا غريب، وقيل: عطف عليه وإن كان المعنىٰ واحدًا، كما في قول الشاعر:

وَقَدَّمْتُ الأَدِيمَ لِرَاقِشِيهِ ... فَأَلْفَىٰ قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا

---

(١) البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٢٦)، وأبو داود (٢٤٤٤)، وابن ماجة (١٧٣٤).

(٢) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٤٠٩٤)، وفيه زيد العمي. قال الحافظ في «التقريب»: ضعيف، وكذلك قوله في يزيد بن أبان الرقاشي، ولذا فقد حكم عليه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بالضعف.

(٣) لوحة (٧٣ ب).

وقال الآخر:

أَلا حَبَّـذَا هِنْـدٌ وَأَرْضٌ بِهَـا هِنْـدُ وَهِنْـدٌ أَتَـىٰ مِـنْ دُونِهَـا النَّـأْيُ وَالبُعْـدُ

فالكذب هو المَيْنُ، والنَّأي: هو البُعْدُ. وقال عنترة:

حُيِّيـتُ مِـنْ طَلَـلٍ تَقَـادَمَ عَهْـدُهُ أَقْـوَىٰ وَأَقْفَـرَ بَعْـدَ أُمِّ الهَيْـثَمِ

فعطف الإقفار علىٰ الإقواء وهو هو[(١)].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

هذه صفةُ توبته تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري: في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم مِن شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٩]. قال: فذلك حين يقول موسىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾

وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾[(٢)] أي: إلىٰ خالقكم.

قلتُ: وفي قوله هاهنا: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تنبيهٌ علىٰ عِظَمِ جُرْمِهِم؛ أي: فتوبوا إلىٰ الذي خلقكم وقد عَبَدْتُم معه غيره.

وروىٰ النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن هارون، عن الأصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: قال الله تعالىٰ: إنَّ توبتهم أن يَقْتُلَ كُلُّ واحدٍ منهم كلَّ مَنْ لَقِيَ مِن ولدٍ ووالدٍ فيقتله بالسَّيف، ولا يُبالي مَن قتل في ذلك الموطن. فتاب أولئك الذين كانوا خَفِيَ علىٰ موسىٰ وهارون ما اطَّلع الله مِن ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أُمِرُوا به فغفر الله تعالىٰ للقاتل والمقتول. وهذا قطعةٌ مِن حديث الفُتُون، وسيأتي في تفسير سورة طه بكماله، إن شاء الله[(٣)].

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله: الفاء هنا تفسيرية؛ لأن قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ﴾ تفسير للمجمل في قوله تعالىٰ: ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾؛ وعلىٰ هذا فالفاء للتفسير؛ أي: فتوبوا بهذا الفعل، وهو أن تقتلوا أنفسكم؛ أي: ليقتل بعضكم بعضًا؛ وليس المعنىٰ: أن كل رجل يقتل نفسه بالإجماع؛ فلم يقل أحد من المفسرين: إن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل كل رجل نفسه؛ وإنما المعنىٰ: ليقتل بعضكم بعضاً؛ يقتل الإنسان ولده، أو والده، أو أخاه؛ المهم أنكم تستعدون، وتتخذون سلاحاً؛ خناجر، وسكاكين، وسيوفاً، وكل واحدٍ منكم يهجم علىٰ الآخر، ويقتله.

(٣) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (١/ ١١٠)، وأبو يعلىٰ (٢٦١٨) وهذا جزء من حديث طويل يقال عنه: حديث =

وقال ابن جرير: حدَّثني عبد الكريم بن[1] الهيثم، حدَّثنا إبراهيم بن بَشَّار، حدَّثنا سفيان بن عيينة، قال: قال أبو سعيد: عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: قال موسىٰ لقومه: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال: أَمَرَ موسىٰ قومه -مِن أمر ربِّه ﷻ- أن يَقْتُلوا أنفسهم قال: واحْتَبَىٰ[2] الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا علىٰ العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظُلَّة شديدة، فجعل يَقْتُل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلَّة عنهم، وقد أجلوا عَن سبعين ألف قتيل، كل مَن قُتِلَ منهم كانت له توبة، وكل مَن بَقِيَ كانت له توبة[3].

وقال ابن جُرَيْج: أخبرني القاسم بن أبي بَزَّة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهدًا يقولان في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ قالا: قام بعضهم إلىٰ بعضٍ بالخناجر فقتل بعضُهُم بعضًا، لا يحنُو رجل علىٰ قريبٍ ولا بعيدٍ، حتىٰ ألوىٰ[4] موسىٰ بثَوْبِه، فطرحوا ما بأيديهم، فكُشِفَ عن سبعين ألف قتيل. وإن الله أوحىٰ إلىٰ موسىٰ: أن حَسْبي، فقد اكْتَفَيْت، فذلك حين ألوىٰ موسىٰ بثوبه، [ورُوِيَ عن علي رضي الله عنه نحو ذلك][5].

وقال قتادة: أُمِرَ القوم بشديدٍ من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشِّفَار يقتل بعضُهُم بعضًا، حتىٰ بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشِّفار مِن أيديهم، فأمسك عنهم القتل، فجعل لحيِّهم توبة، وللمقتول شهادةً.

وقال الحسن البصري: أصابتهم ظُلْمَةٌ حِنْدِسٌ، فقتل بعضهم بعضًا نقمةً ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ قال: فاجتلدَ الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسُّيوف، فكان مَن قُتِلَ مِن الفريقين شهيدًا، حتىٰ كَثُرَ القتل، حتىٰ كادوا أن يهلكوا، حتىٰ قُتِلَ بينهم سبعون ألفًا، وحتىٰ دعا موسىٰ وهارون: ربَّنا أَهْلَكْتَ بني إسرائيل، ربنا البَقِيَّةَ البَقِيَّةَ، فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم، فكان مَن قُتِلَ منهم مِن الفريقين شهيدًا، ومَن بَقِيَ مُكَفَّرًا عنه؛ فذلك قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقال الزهري: لما أُمِرَت بنو إسرائيل بقتل أَنْفُسِها، برزوا ومعهم موسىٰ، فاضطربوا بالسُّيوف،

= «الفتون»، وسيورده ابن كثير في تفسير سورة طه الآية (٤٠)، ورجاله ثقات، غير أن ابن كثير قال فيه: «وهو موقوف من كلام ابن عبَّاس وليس منه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عبَّاس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم».

(١) لوحة (٧٤ أ).

(٢) تقدم تعريف الاحتباء في «فضائل القرآن».

(٣) رواه الطبري (١/ ٢٨٦) موقوفًا علىٰ ابن عبَّاس ورجاله ثقات.

(٤) أي :أشار.

(٥) زيادة من (ح).

وتطاعنوا بالخناجر، وموسىٰ رافعٌ يديه، حتىٰ إذا أفنوا بعضهم [بعضًا](١)، قالوا: يا نبي الله، ادعُ الله لنا. وأخذوا بعضُديه يسندون يديه(٢)، فلم يَزَل أمرهم علىٰ ذلك، حتىٰ إذا قبل الله توبتهم قَبَضَ أيديهم، بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحَزِنَ موسىٰ وبنو إسرائيل للذي كان مِن القتل فيهم، فأوحىٰ الله -جلَّ ثناؤه- إلىٰ موسىٰ: ما يُحْزِنُك؟ أمَّا مَن قُتِل منكم فحَيٌّ عِنْدِي يرزقون، وأمَّا مَن بَقِيَ فقد قَبِلْت توبته. فسُرَّ بذلك موسىٰ، وبنو إسرائيل.

رواه ابن جرير بإسنادٍ جيدٍ عنه.

وقال ابن إسحاق: لما رجع موسىٰ إلىٰ قومه، وأحرق العجل وذَرَّاه في اليمِّ، خرج إلىٰ ربه بمن اختار مِن قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثم بُعثوا، فسأل موسىٰ ربَّه التوبةَ لبني إسرائيل مِن عبادة العجل. فقال: لا إلا أن يَقْتُلُوا أنفسهم قال: فبلغني أنَّهم قالوا لموسىٰ: نَصبر لأمر الله. فأمر موسىٰ مَن لم يكن عَبَدَ العجل أن يَقْتُل مَن عبده. فجلسوا بالأَفْنِيَةِ وأَصْلَتَ عليهم القومُ السُّيوف، فجعلوا يَقْتُلُونَهم، وبكىٰ موسىٰ، وَبَهَشَ(٣) إليه النِّساء والصبيان، يطلبون العفوَ عنهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم وأَمَرَ موسىٰ أن تُرْفَعَ عنهم السُّيوف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسىٰ إلىٰ قَوْمِهِ، وكان سبعون رجلًا قد اعتزلوا مع هارون العِجْلَ لم يعبدوه. فقال لهم موسىٰ: انطلقوا إلىٰ موعدِ ربِّكم. فقالوا: يا موسىٰ، ما مِن توبة؟ قال: بلىٰ، ﴿فَاقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فاخترطوا السُّيوف والجرزَة(٤) والخناجر والسَّكاكين. قال: وبعث عليهم ضبابة. قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضُهم بعضًا. قال: ويلقىٰ الرجلُ أباه وأخاه فيقتُلُه ولا يدري. قال: ويَتَنَادَوْن فيها: رحم الله عبدًا صَبَّر نفسه حتىٰ يَبْلُغ الله رضاه، قال: فقتلاهم شهداء، وتِيبَ علىٰ أحيائهم، ثم قرأ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: واذكروا نعمتيَ عليكم في بَعْثِي لكم بعد الصَّعق، إذ سألتم رؤيتي جهرةً عيانًا، مما لا يُسْتَطَاع لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جريج، قال ابن عبَّاس في هذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: علانيةً.

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) لوحة (٧٤ ب).

(٣) بهش النساء: تهيأن للبكاء.

(٤) الجرزة: جمع جُرز، وهو عمود من حديد.

وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحاق، عن أبي الحويرث، عن ابن عبَّاس، أنه قال[١] في قول الله تعالىٰ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: علانية؛ أي: حتىٰ نرىٰ الله.

وقال قتادة، والربيع بن أنس: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عيانًا.

وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس: هم السَّبعون الذين اختارهم موسىٰ فساروا معه. قال: فسمعوا كلامًا، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتًا فصُعِقُوا، يقول: ماتوا.

وقال مروان بن الحكم، فيما خطب به علىٰ منبر مكَّة: الصاعقة: صَيْحَةٌ مِن السَّماء.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الصاعقة: نارٌ.

وقال عروة بن رُوَيْم في قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال: فصُعِقَ بعضُهم وبَعضٌ ينظرون، ثم بُعِثَ هؤلاء وصُعِقَ هَؤُلَاءِ.

وقال السُّدِّي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فماتوا، فقام موسىٰ يَبْكِي ويدعو الله، ويقول: ربِّ، ماذا أقول لبَنِي إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارَهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ أنَّ هؤلاء السبعين ممَّن اتَّخذوا العجل، ثم إنَّ الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجلٌ رجلٌ، ينظر بعضهم إلىٰ بعض: كيف يُحْيَوْن؟ قال: فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال الربيع بن أنس: كان موتُهُم عقوبةً لهم، فبُعِثُوا مِن بعد الموت ليَسْتَوْفُوا آجالهم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن جرير[٢]: حدَّثنا محمَّد بن حميد، حدَّثنا سلمة بن الفضل، عن محمَّد بن إسحاق، قال: لما رجع موسىٰ إلىٰ قومه فرأىٰ ما هُم عليه مِن عبادة العجل، وقال لأخيه وللسَّامِري ما قال، وحَرَّق العجل وذَرَّاه في اليمِّ، اختار موسىٰ منهم سبعين رجلًا الخَيِّرَ فالخَيِّرَ، وقال: انطلقوا إلىٰ الله وتوبوا إلىٰ الله ممَّا صنعتم وسَلُوهُ التَّوبة علىٰ مَن تركتم وراءكم مِن قومكم، صوموا وتطهَّروا وطهِّروا ثيابكم. فخرج بهم إلىٰ طور سيناء لميقاتٍ وقَّته له ربُّه، وكان لا يأتيه إلا بإذنٍ منه وعِلْم، فقال له السَّبعون - فيما ذكر لي حين صنعوا ما أُمِرُوا به وخرجوا للقاء الله، -قالوا: يا موسىٰ، اطلب لنا إلىٰ ربِّك نسمع كلام ربِّنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسىٰ مِن الجبل، وقع عليه الغمام حتىٰ تغشىٰ علىٰ الجبل كله، ودنا موسىٰ فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسىٰ إذا كلَّمه الله وقع علىٰ جبهته نورٌ ساطع، لا يستطيع أحدٌ مِن بني آدم أَن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتىٰ إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا فسَمِعُوه وهو يُكلِّم موسىٰ يأمره[٣] وينهاه: افعل ولا تفعل. فلمَّا فرغ إليه مِن أمره انكشف عن

(١) لوحة (٧٥ أ).

(٢) رواه الطبري (١/ ٢٩١) وإسناده ضعيف جدًّا فيه محمد بن حميد: قال عنه الحافظ في «التقريب»: حافظٌ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه، والإسناد مرسل، بل معضل.

(٣) لوحة (٧٥ ب).

موسىٰ الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسىٰ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرَّجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعًا. وقام موسىٰ يُناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰيَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] قد سَفِهُوا، أفتهلك مَن ورائي مِن بني إسرائيل بما يفعل السُّفهاء منَّا؟ أي: إن هذا لهم هلاك. اخترتُ منهم سبعين رجلًا الخيِّر فالخيِّر، أرجع إليهم وليس معي منهم رجلٌ واحد! فما الذي يُصَدِّقُوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلم يَزَل موسىٰ يُناشد ربه ﷻ، ويطلب إليه حتىٰ ردَّ إليهم أرواحهم، وطلب إليه التَّوبة لبني إسرائيل مِن عبادة العجل، فقال: لا؛ إلا أن يَقتُلوا أنفسهم.

هذا سياق محمَّد بن إسحاق.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير: لما تابت بنو إسرائيل مِن عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضِهِم بعضًا كما أمرهم به، أمرَ الله موسىٰ أن يأتيه في كلِّ أُناسٍ مِن بني إسرائيل، يَعْتَذِرُون إليه مِن عبادة العجل، ووعدهم موسىٰ، فاختار موسىٰ قومه سبعين رجلًا علىٰ عَيْنِهِ، ثمَّ ذهب بهم ليَعْتَذِرُوا، وساق البقيَّة.

[وهذا السياق يقتضي أنَّ الخطاب توجَّه إلىٰ بني إسرائيل في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ والمراد: السَّبعون المختارون منهم، ولم يَحْكِ كثيرٌ مِن المفسرين سواه، وقد أغرب فخر الدِّين الرَّازي في «تفسيره» حين حكىٰ في قصَّة هؤلاء السَّبعين: أنهم بعد إحيائهم قالوا: يا موسىٰ، إنَّك لا تطلب من الله شيئًا إلا أعطاك، فادْعُهُ أن يجعلنا أنبياءَ، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته، وهذا غريبٌ جدًّا، إذ لا يعرف في زمان موسىٰ نبي سوىٰ هارون ثم يُوشع بن نون، وقد غلط أهل الكتاب أيضًا في دعواهم أنَّ هؤلاء رأوا الله ﷻ، فإنَّ موسىٰ الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمُنِعَ منه فكيف يناله هؤلاء السَّبعون؟

القول الثاني في الآية][(١)] قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسىٰ - لما رجع مِن عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقَتْلِ أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال - : إنَّ هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أَمْرُكُم الذي أَمَرَكُم به ونَهْيُكُم الَّذي نَهَاكم عنه. فقالوا: ومَن يأخذه بقولك أنت؟ لا -والله- حتَّىٰ نرىٰ الله جهرةً، حتىٰ يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسىٰ! وقرأ قول الله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فجاءت غَضْبَةٌ مِن الله، فجاءتهم صاعقة بعد التَّوبة، فصَعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثمَّ أحياهم الله مِن بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فقال لهم موسىٰ: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا. فقال: أيُّ شيءٍ أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثمَّ حَيِينا.

---

(١) زيادة من (جـ ط، ب، أ، و).

قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعث الله ملائكة فنتَقَتِ الجبل فوقهم.

[وهذا السِّياق يدلُّ علىٰ أنَّهم كُلِّفُوا بعد ما أُحْيُوا. وقد حكىٰ الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أنَّه سقط التَّكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرةً حتىٰ صاروا مضطرين إلىٰ التَّصديق؛ والثاني: أنَّهم مكلفون؛ لئلَّا يخلو عاقلٌ مِن تكليفٍ، قال القرطبيُّ: وهذا هو الصحيح؛ لأنَّ معاينتهم للأمور القَطِيعَة لا تمنع تكليفهم؛ لأنَّ بني إسرائيل قد شَاهَدُوا أمورًا عظامًا مِن خوارقِ العادات، وهُم في ذلك مكلَّفُون وهذا واضح، والله أعلم][(١)].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾

لما ذكر تعالىٰ ما دفعه عنهم مِن النِّقَم، شرع يُذَكِّرهم[(٢)] أيضًا بما أسبغ عليهم مِن النِّعم، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سُمِّي بذلك؛ لأنه يَغُمُّ السماء؛ أي: يُوَارِيها ويسترها. وهو السَّحاب الأبيض، ظُلِّلوا به في التِّيهِ لِيَقِيهِم حرَّ الشَّمس. كما رواه النَّسائي وغيره عن ابن عبَّاس في حديث الفُتُون[(٣)]، قال: ثم ظلل عليهم في التِّيه بالغمام.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر، والرَّبيع بن أنس، وأبي مجلز، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، نحو قول ابن عبَّاس.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ قال كان هذا في البريَّة ظَلَّلَ عليهم الغمام من الشمس.

وقال ابن جريج قال آخرون: وهو غمامٌ أَبْرَدُ مِن هذا وأطيب.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو حذيفة، حدَّثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ قال: ليس بالسَّحاب، هو الغمام الذي يَأْتِي اللهُ فيه يوم القيامة، ولم يكن إلَّا لهم.

وهكذا رواه ابن جرير، عن المثنىٰ بن إبراهيم، عن أبي حذيفة.

وكذا رواه الثوري، وغيره، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، وكأنَّه يُريد -والله أعلم- أنَّه ليس من زِيِّ هذا السَّحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهىٰ منظرًا، كما قال سنيد في «تفسيره» عن حجاج ابن محمَّد، عن ابن جريج قال: قال ابن عبَّاس: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ قال: غمام أبردُ مِن هذا

---

(١) زيادة من (جـ ط، أ، و).

(٢) لوحة (٧٦ أ).

(٣) سيأتي حديث الفتون بتمامه. انظر: سورة طه الآية (٤٠).

وأَطْيَب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بَدْرٍ. قال ابن عبَّاس: وكان معهم في التِّيهِ.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ اختلفت عبارات المفسِّرين في المنِّ: ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: كان المنُّ يَنْزِل عليهم علىٰ الأشجار، فيَغْدُون إليه فيأْكُلُون منه ما شاؤوا(١).

وقال مجاهد: المن: صَمْغَةٌ. وقال عكرمة: المنُّ: شيءٌ أنزله الله عليهم مثل الطَّلِّ، شبه الرُّبِّ الغليظ.

وقال السُّدِّي: قالوا: يا موسىٰ، كيف لنا بما هَاهُنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنَّ، فكان يسقط علىٰ شجر الزَّنْجَبِيل.

وقال قتادة: كان المنُّ يَنزِلُ عليهم في محلتهم سقوط الثَّلج، أشدُّ بياضًا مِن اللَّبن، وأحلىٰ مِن العَسَل، يسقط عليهم مِن طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشَّمس، يأخذ الرجلُ منهم قدرَ مَا يكفيه يومَهُ ذلك؛ فإذا تعدَّىٰ ذلك فسد ولَمْ يبق، حتىٰ إذا كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يَكفِيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنَّه كان يوم عِيدٍ لا يَشْخَصُ فيه لأمرِ مَعِيشَتِهِ ولا يطلبه لشيء، وهذا كلُّه في البرية.

وقال الربيع بن أنس: المنُّ شراب كان ينزل(٢) عليهم مثل العَسَلِ، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

وقال وهب بن منبه -وسُئِل عن المن- فقال: خبز الرقاق(٣) مثل الذُّرة أو مثل النَّقيِّ(٤).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثني أحمد بن إسحاق، حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا إسرائيل، عن جابر، عن عامر وهو الشَّعبي، قال: عَسَلُكُم هذا جزءٌ مِن سبعين جزءًا مِن المنِّ.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل.

ووقع في شِعرِ أُميَّة بن أبي الصَّلْتِ، حيث قال:

فَــرَأَىٰ اللهُ أَنَّهُــمْ بِمَـضِيعٍ ... لا بِــذِي مَــزْرَعٍ وَلا مَثْمُــورَا
فَسَنَاهَا عَلَيْهِم غَادِيَــاتٍ ... وَتَـرَىٰ مُـزْنَهُمْ خَلَايَــا وَخُــورَا
عَسَلًا نَاطِفًــا وَمَــاءً فُرَاتًــا ... وَحَلِيبًــا ذَا بَهْجَــةٍ مَرْمُــورَا

فالنَّاطف: هو السائل، والحليب المرمور: الصافي منه.

والغرض أنَّ عباراتِ المفسِّرين متقاربةٌ في شرح المنِّ، فمِنهُم مَن فسَّره بالطَّعام، ومنهم مَن فسَّره بالشَّراب، والظَّاهر -والله أعلم- أنَّه كلُّ ما امتن الله بِهِ عليهم مِن طعامٍ وشرابٍ، وغير ذلك مما ليس

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٥٥٥)، وفيه انقطاع بين علي بن أبي طلحة، وابن عبَّاس.
(٢) لوحة (٧٦ ب).
(٣) الرُّقاق :الخبز المنبسط الرقيق.
(٤) النقي :خبز نُخل مرات.

لهم فيه عملٌ ولا كدٌّ، فالمنُّ المشهور إن أُكِلَ وحده كان طعامًا وحلاوةً، وإن مُزِجَ مع الماء صار شرابًا طيِّبًا، وإن رُكِّبَ مع غيره صار نوعًا آخر، ولكن ليس هو المراد مِن الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول البخاري:

حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا سفيان، عن عبد الملك، عن عمرو بن حريث عن سعيد بن زيد، رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»(١).

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الملك، وهو ابن عمير به.

وأخرجه الجماعة في كُتُبِهِم، إلَّا أبا داود، مِن طرق عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به. وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ، ورواه البخاري ومسلم والنَّسائي مِن رواية الحكم، عن الحسن العُرَني، عن عمرو بن حريث به.

وقال التِّرمذي: حدَّثنا أبو عبيدة بن أبي السفر ومحمود بن غَيْلان، قالا: حدَّثنا سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العَجْوَةُ مِنَ الجَنَّةِ، وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ، وَالكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»(٢) تفرَّد بإخراجه التِّرمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا مِن حديث محمَّد بن عمرو، وإلا مِن حديث سعيد بن(٣) عامر عنه، وفي الباب عَن سعيد بن زيد، وأبي سعيد وجابر.

كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه في «تفسيره» مِن طريق آخر عن أبي هريرة، فقال: حدَّثنا أحمد بن الحسن بن أحمد البصري، حدَّثنا أسلم بن سهل، حدَّثنا القاسم بن عيسى، حدَّثنا طلحة بن عبد الرحمن، عن قتادة، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»(٤).

وهذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوجه، وطلحة بن عبد الرحمن هذا سُلَمِي وَاسِطِي، يكنَّى بأبي محمَّد،

---

(١) البخاري (٤٤٧٨، ٤٦٣٩)، ومسلم (٢٠٤٩)، والترمذي (٢٠٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (٦٦٦٧).

(٢) حسن صحيح: الترمذي (٢٠٦٦)، وابن ماجة (٣٤٥٥): وإسناده حسن من أجل محمد بن عمرو بن علقمة: صدوق ولكنه توبع في رواية الترمذي (٢٠٦٨)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٦٣)، وابن ماجة (٣٤٥٥) من طريق شهر بن حوشب وهو كثير الإرسال والأوهام، وفي الإسناد انقطاع بين شهر وأبي هريرة، وقد اضطرب فرواه عن أبي هريرة، ورواه عن جابر وأبي سعيد عند الإمام أحمد (٣/ ٤٨)، وسيورد ابن كثير مروياتهم.
وأورد ابن كثير شاهدًا آخر عن أنس وعزاه لابن مردويه، وفي إسناده حماد بن سياه، قال ابن عدي: والضعف يتبين على رواياته وأحاديثه، وثَمَّ شواهد أخرى عن ابن عبَّاس وجابر ولا يخلو كل منها من مقال، فمدارها على شهر بن حوشب وبمجموع هذه المتابعات والشواهد فالحديث صحيح.

(٣) لوحة (٧٧ أ).

(٤) هو بهذا الإسناد ضعيف؛ لضعف طلحة بن عبد الرحمن، لكن الحديث صحيح كما تقدم.

وقيل: أبو سليمان المؤدِّب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي: روىٰ عن قتادة أشياء لا يُتَابَع عليها.

ثم قال [الترِّمذي][(١)] حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا معاذ بن هشام، حدَّثنا أبي، عن قتادة، عن شهر ابن حَوْشَب، عن أبي هريرة: أنَّ ناسًا مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ قالوا: الكَمْأَة[(٢)] جُدَرِيُّ الأرض، فقال نبيُّ الله ﷺ: «**الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ، وَالعَجْوَةُ مِنَ الجَنَّةِ وَهِيَ شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ**»[(٣)].

وهذا الحديث قد رواه النَّسائي، عن محمَّد بن بشَّار به. وعنه عن غُنْدَر، عن شُعبة، عن أبي بِشر جعفر بن إِيَاس، عن شَهْر بن حَوشَب، عن أبي هريرة به . وعن محمَّد بن بشَّار، عن عبد الأعلىٰ، عن خالد الحَذَّاء، عن شَهْر بن حَوْشَب. بقصَّة الكمأة فقط .

ورواه النَّسائي أيضًا وابن ماجة مِن حديث محمَّد بن بشَّار، عن أبي عبد الصَّمَد عبد العزيز بن عبد الصَّمَد، عن مَطَر الورَّاق، عن شَهْر: بقصَّة العجوة عند النَّسائي، وبالقِصَّتَيْن عند ابن ماجة[(٤)].

وهذه الطريق منقطعة بين شَهْر بن حَوْشَب وأبي هريرة فإنَّه لم يسمعه منه، بدليل ما رواه النَّسائي في الوليمة مِن «سُنَنِه»، عن علي بن الحسين الدرهمي عن عبد الأعلىٰ، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبي هريرة، قال: خرج رسولُ الله ﷺ وهم يذكرون الكَمْأَة، وبعضهم يقول جُدَرِيُّ الأرض، فقال: «**الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**»[(٥)].

ورُوِي عن شَهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا أسباط بن محمَّد، حدَّثنا الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري، قالا: قال رسول الله ﷺ: «**الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ، وَالعَجْوَةُ مِنَ الجَنَّةِ وَهِيَ شِفَاءٌ[(٦)] مِنَ السُّمِّ**»[(٧)].

قال النَّسائي في الوليمة أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الكَمْأَةُ مِنَ**

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) الكَمْأَة :نبات لا ورق لها ولا ساق، توجد في الأرض من غير أن تزرع، قيل :سُميت بذلك لاستتارها. «فتح الباري» (١٦٣/ ١٠)، وقال ابن الأثير: شبَّهها بالجُدَرِي -وهو الحَبُّ الذي يظهر في جسد الصَّبي- لظُهورها من بطن الأرض كما يظهر الجُدَرِي من باطن الجِلْد، وأراد به ذَمَّها. «النهاية» (١/ ٢٤٦).

(٣) إسناده ضعيف، وأصل الحديث حسن صحيح. انظر: التعليق الأول في الصفحة السابقة.

(٤) كل هذه الروايات مدارها علىٰ شهر بن حوشب. انظر: النسائي (٦٦٧٢) (٦٦٧٣)، وابن ماجة (٣٤٥٥) وانظر التعليق السابق.

(٥) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٦٦٧٠). انظر التعليقات السابقة.

(٦) لوحة (٧٧ ب).

(٧) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٤٨). انظر التعليقات السابقة.

الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»[١]. ثم رواه أيضًا، وابن ماجة مِن طُرُقٍ عن الأعمش، عن أبي بشر، عن شهر عنهما به.

وقد رَوَيَاه -أعني: النسائي [من حديث جرير][٢] وابن ماجة- مِن حديث سعيد بن مسلمة كلاهما عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، زاد النسائي: [حديث][٣] جابر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»[٤].

ورواه ابن مَرْدوَيه، عن أحمد بن عثمان، عن عبَّاس الدوري، عن لاحق بن صواب عن عمار بن رزيق عن الأعمش، كابن ماجة.

وقال ابن مَرْدوَيه أيضًا: حدَّثنا أحمد بن عثمان، حدَّثنا عبَّاس الدوري، حدَّثنا الحسن بن الربيع، حدَّثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يَدِهِ كَمآتٍ، فقال: «الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»[٥].

وأخرجه النَّسائي، عن عمرو بن منصور، عن الحسن بن الربيع به ثمَّ [ابن مَرْدوَيه رواه][٦] أيضًا عن عبد الله بن إسحاق عن الحسن بن سلام، عن عبيد الله بن موسىٰ، عن شَيبان عن الأعمش به، وكذا رواه النَّسائي عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن عبيد الله بن موسىٰ به.

وقد روىٰ من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه كما قال ابن مَرْدوَيه: حدَّثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدَّثنا حمدون بن أحمد، حدَّثنا حوثرة بن أشرس، حدَّثنا حماد، عن شعيب بن الحبحاب عن أنس: أن أصحاب رسول الله ﷺ تَدَارَؤُوا في الشَّجَرة التي اجْتُثَّتْ مِن فوق الأرض ما لها من قرار، فقال بعضهم: نحسبُه الكمأة. فقال رسول الله ﷺ: «الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ، وَالْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ»[٧].

وهذا الحديث محفوظٌ أصله مِن رواية حماد بن سَلَمَة. وقد روىٰ التِّرمذي والنَّسائي مِن طريقه شيئًا مِن هذا، والله أعلم.

وقد رُوِيَ عن شهر، عن ابن عبَّاس، كما رواه النَّسائي أيضًا في الوليمة، عن أبي بكر أحمد بن علي

---

(١) انظر التعليقات السابقة.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) ليست في (ز)، وهي مثبتة من (ح).

(٤) انظر التعليق قبل السابق، رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٦٦٧٦) (٦٦٧٧)، وابن ماجة (٣٤٥٣).

(٥) صحيح: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٦٦٧٨)، وأبو يعلىٰ (١٣٤٨).

(٦) زيادة من (ح).

(٧) إسناده ضعيف: حماد هو ابن سياه: ضعيف، انظر التعليقات السابقة.

ابن سعيد، عن عبد الله بن عون الخَرَّاز، عن أبي عبيدة[1] الحداد، عن عبد الجليل بن عطية، عن شهر، عن عبد الله بن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**»[2].

فقد اختُلِفَ -كما ترىٰ فيه- علىٰ شهر بن حوشب، ويُحْتَمَل عندي أنَّه حَفِظَه ورواه مِن هذه الطُّرُق كُلِّها، وقد سَمِعَه مِن بعض الصحابة وبلَّغَه عَن بعضهم، فإنَّ الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يَتَعمَّد الكذب، وأصل الحديث محفوظ عَن رسول الله ﷺ، كما تقدَّم مِن رِوَايَة سعيد بن زيد.

وأمَّا السَّلْوَىٰ فقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: السَّلْوَىٰ: طائرٌ شَبِيهٌ بالسُّمَّانىٰ، كانوا يأكلون منه.

وقال السُّدِّي في خَبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن نَاسٍ من الصَّحابة: السَّلوىٰ: طائر يُشْبِه السُّمَّانَىٰ[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدَّثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدَّثنا قرّة بن خالد، عن جهضم، عن ابن عبَّاس، قال: السَّلْوَىٰ: هو السُّمَّانىٰ[4].

وكذا قال مجاهد، والشعبي، والضَّحَّاك، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

وعن عكرمة: أمَّا السَّلوىٰ فطَيْرٌ كطَيْرٍ يكون بالجنَّة أكبرُ مِن العُصْفُور، أو نحو ذلك.

وقال قتادة: السَّلْوَىٰ مِن طَيْرٍ إلىٰ الحُمْرَةِ، تحشُرها عليهم الريحُ الجنوبُ. وكان الرَّجُل يَذْبَحُ مِنها قَدْرَ ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدَّىٰ فسد ولم يبق عنده، حتىٰ إذا كان يوم سادسِهِ لِيَوْمِ جُمْعَتِه أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنَّه كان يوم عبادةٍ لا يَشْخَصُ فيه لشيءٍ ولا يطلبه.

وقال وهب بن مُنَبِّه: السَّلْوَىٰ: طيرٌ سَمِينٌ مثل الحمام، كان يأتيهم فيأخذون مِنه مِن سبتٍ إلىٰ سَبْتٍ. وفي رواية عن وهب، قال: سأَلَتْ بنو إسرائيل موسىٰ عليه السلام اللَّحم، فقال الله: لأُطْعِمَنَّهم مِن أقل لحمٍ يُعْلَم في الأرض، فأرسل عليهم ريحًا، فأذرت عند مساكنهم السَّلوىٰ، وهو السُّمَّانىٰ مثل ميل في ميل قِيدَ رُمْحٍ إلىٰ السماء فخبَّؤوا للغد فنَتِنَ اللحم وخنز الخبز[5].

وقال السُّدِّي: لما دخل بنو إسرائيل التِّيه، قالوا لموسىٰ عليه السلام: كيف لنا بما هاهنا؟ أين الطَّعام؟ فأنزل الله عليهم المَنَّ فكان يَسْقُط علىٰ الشَّجَر الزَّنْجبيل، والسَّلوىٰ وهو طائرٌ يُشْبِه السُّمَّانىٰ أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلىٰ الطَّير، فإن كان سمينًا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سَمُنَ أتاه، فقالوا: هذا

---

(١) لوحة (٧٨ أ).

(٢) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٦٦٦٩)، وفي إسناده شهر بن حوشب كثير الأوهام والإرسال، وفيه أيضًا عبد الجليل بن عطية، وثَّقه ابن معين، وليَّنه البخاري.

(٣) رواه الطبري (٢/ ٩٦ برقم ٩٧٩).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٥٦٤)، وإسناده صحيح.

(٥) أي :أنتن.

الطعام فأين الشَّراب[١]؟ فَأُمِر موسىٰ فضَرَبَ بعصاه الحجر، فانفجَرَتْ منه اثنتا عشرةَ عينًا، فشَرِبَ كُلُّ سِبْطٍ من عَينٍ، فقالوا: هذا الشَّراب، فأين الظِّلُّ؟ فَظَلَّل عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظِّلُّ، فأين اللِّباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصِّبْيان، ولا يَنْخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠].

ورُوِيَ عن وهب بن مُنَبِّه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السُّدِّي.

وقال سُنَيْد، عن حَجَّاج، عن ابن جُرَيْج، قال: قال ابن عبَّاس: خُلِقَ لهم في التِّيه ثياب لا تُخْرَق ولا تَدْرَن، قال ابن جريج: فكان الرَّجل إذا أخذَ مِن المنِّ والسَّلوىٰ فوق طعام يومٍ فَسَد، إلا أنَّهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السَّبت فلا يُصْبِح فاسدًا[٢].

[قال ابن عطية: السَّلْوىٰ: طيرٌ بإجماع المفسِّرين، وقد غَلِط الهذلي في قوله: إنَّه العَسَل، وأنشد في ذلك مستشهدًا:

وَقَاسَمَهَا بِاللهِ جَهْدًا لأَنْتُمُ ... أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَىٰ إِذَا مَا أَشُورُهَا

قال: فظنَّ أنَّ السَّلوىٰ عسلًا. قال القُرطُبِي: دعوىٰ الإجماع لا تصحُّ؛ لأنَّ المؤرِّخ أحد علماء اللُّغة والتَّفسير قال: إنَّه العسل، واستدلَّ ببيت الهُذَلِي هذا، وذكر أنَّه كذلك في لغة كنانة؛ لأنَّه يُسَلَّىٰ به ومنه عين سِلْوَان، وقال الجوهري: السَّلْوَىٰ: العسل، واستشهد ببيت الهذلي أيضًا، والسُّلْوَانة - بالضَّمِّ- خَرَزَة، كانوا يقولون: إذا صُبَّ عليها ماءُ المطر فشَرِبَها العاشق سَلَا، قال الشَّاعر:

شَرِبْتُ عَلَىٰ سُلْوَانَةٍ مَاءَ مُزْنَةٍ ... فَلَا وَجَدِيدِ العَيْشِ يَا مَيُّ مَا أَسْلُو

واسم ذلك الماء: السُّلوان، وقال بعضهم: السُّلوان دواء يشفي الحزين فيسلو، والأطباء يسمونه (مُفَرِّح)، قالوا: والسَّلوىٰ جمع بلفظ -الواحد- أيضًا، كما يقال: سُمَّانَىٰ للمفرد والجمع ودِفْلَىٰ كذلك، وقال الخليل واحده: سَلْوَاة، وأنشد:

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ ... كَمَا انْتَفَضَ السَّلْوَاةُ مِنْ بَلَلِ القَطْرِ

وقال الكسائي: السَّلوىٰ واحدة وجمعه: سَلَاوِي، نقله كله القرطبي][٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أمر إباحةٍ وإرشادٍ وامتنانٍ. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا۟ مِن

---

(١) لوحة (٧٨ ب).
(٢) في إسناده ابن جريج، وهو مدلس وقد عنعن، وحجاج بن أرطأة: ضعيف.
(٣) زيادة من (ح).

﴿رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه مِن الآيات البيِّنات والمعجزات القاطعات، وخوارِقِ العادات، ومِن هاهنا تتبيَّن فضيلة أصحاب محمَّد ﷺ ورضي عنهم، علىٰ سائر أصحاب الأنبياء في صَبْرِهم وثباتهم وعدم تَعَنُّتِهِم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القَيْظِ والحَرِّ الشَّدِيدِ والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أَمْرٍ، مع أنَّ ذلك كان سهلًا علىٰ الرَّسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعَامِهِم فجمعوا ما مَعَهُم، فجاء قَدْرُ مَبْرِكِ الشَّاة، فدعا [الله][1] فيه، وأمرهم فمَلَؤُوا كلَّ وعاءٍ مَعَهُم، وكذا لما احتاجوا إلىٰ الماء سأل الله تعالىٰ، فجاءت سَحَابة فأمطرتهم، فشَرِبُوا وسقوا الإبل وملؤوا أَسْقِيَتَهُم. ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في الاتِّبَاع: المشي مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا[2] وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ[3] ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالىٰ لائمًا لهم علىٰ نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدَّسة، لما قدموا مِن بلاد مصر صحبة موسىٰ عليه السلام فأُمِرُوا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عَن أَبِيهِم إسرائيل، وقتالِ مَن فيها منَ العماليق الكَفَرَةِ، فنكلوا عَن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التِّيه عقوبةً لهم، كما ذكره الله تعالىٰ في سورة المائدة؛ ولهذا كان أصحُّ القَوْلَيْن أن هذه البلدة هي بيت المقدس، كما نصَّ علىٰ ذلك السُّدِّي، والرَّبيع بن أنس، وقتادة، [وأبو مسلم الأصفهاني وغير واحدٍ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآيات. [المائدة: ٢١-٢٤]][4].

وقال آخرون: هي أَرِيحَا [ويحكىٰ عن ابن عبَّاس وعبد الرحمن بن زيد][5] وهذا بعيد؛ لأنَّها ليست علىٰ طريقهم، وهم قاصدون بيت المقدس لا أَرِيحَا [وأبعد مِن ذلك قول مَن ذهب أنها مِصر،

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله: فإن قال قائل: أليس حِلّ الغنائم من خصائص هذه الأمة؛ أي: أمة محمد ﷺ؟ فالجواب: بلىٰ، والإذن لبني إسرائيل أن يأكلوا من القرية التي دخلوها ليس علىٰ سبيل التمليك؛ بل هو علىٰ سبيل الإباحة؛ وأما حِلّ الغنائم لهذه الأمة فهو علىٰ سبيل التمليك.

(٣) لوحة (٧٩ أ).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) زيادة من (ح).

حكاه فخر الدين في «تفسيره»، والصحيح هو الأول؛ لأنَّها بيت المقدس.][1] وهذا كان لمَّا خرجوا من التِّيه بعد أربعين سَنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشيةَ جمعة، وقد حُبِسَت لهم الشمس يومئذٍ قليلًا حتَّىٰ أمكن الفتح، وأمَّا أَرِيحَا فقريةٌ ليست مقصودةً لبني إسرائيل، ولما فتحوها أُمِرُوا أن يدخلوا الباب -باب البلد- ﴿سُجَّدًا﴾ أي: شكرًا لله تعالىٰ علىٰ ما أنعم به عليهم من الفتح والنَّصر، وردِّ بلدهم إليهم وإنقاذهم من التِّيه والضَّلال.

قال العوفي في «تفسيره»، عن ابن عبَّاس أنه كان يقول في قوله: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: رُكَّعًا.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا أبو أحمد الزُّبَيْري، حدَّثنا سفيان، عن الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، وعن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال: رُكَّعًا مِن بابٍ صَغِيرٍ[2].

رواه الحاكم مِن حديث سفيان، به. ورواه ابن أبي حاتم مِن حديث سُفْيَان، وهو الثَّوري به. وزاد: فدخلوا مِن قِبَلِ استَاهِهِمْ.

[وقال الحسن البصري: أُمِرُوا أن يَسجُدوا علىٰ وجوهِهم حال دُخولِهم، واستبعده الرَّازي، وحكىٰ عن بعضهم: أنَّ المراد بالسجود هاهنا: الخُضوع؛ لتعذُّر حمله علىٰ حقيقته][3].

وقال خصيف: قال عكرمة، قال ابن عبَّاس: كان الباب قِبَلَ القِبْلَةِ[4].

وقال [ابن عبَّاس و][5] مجاهد، والسُّدِّي، [وقتادة][6]، والضحاك: هو باب الحِطَّةِ مِن باب إِيلِيَاء ببيت المقدس، [وحكىٰ الرَّازي عن بعضهم أنَّه عن باب جهةٍ من جهات القرية][7].

وقال خَصِيف: قال عكرمة: قال ابن عبَّاس: فدَخَلُوا علىٰ شقٍّ[8]، وقال السُّدِّي، عن أبي سعيد الأَزْدِيِّ، عن أبي الكَنُود، عن عبد الله بن مسعود: وقيل لهم: ادخلوا الباب سُجَّدًا، فدخلوا مُقَنِّعِي رءوسهم؛ أي: رافعي رءوسهم خلاف ما أمروا[9].

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) الطبري (١/ ٣٠٠)، والحاكم (٣/ ٢٦٢) وصححه علىٰ شرطهما، وابن أبي حاتم (٥٨٠)، وإسناده صحيح.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٥٨١).

(٥) زيادة من (ح).

(٦) زيادة من (ح).

(٧) زيادة من (ح).

(٨) انظر التعليق السابق.

(٩) رواه ابن أبي حاتم (٥٨٢)، وسنده ضعيف. أبو سعيد الأزدي وشيخه أبو الكنود، قال الحافظ عن كل منهما: مقبول؛ يعني: إذا توبع، وليس لهما متابع.

وقوله: [﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ قال الثوري عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾][١] قال: مغفرة، استغفروا[٢].

وروي عن عطاء، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه.

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ قال: قولوا: هذا الأمر حقٌّ، كما قيل لكم[٣].

وقال عكرمة: قولوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وقال الأوزاعي: كتب ابن عبَّاس إلىٰ رجلٍ قد سمَّاه يسأله عن قوله[٤] تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ فكتب إليه: أن أَقِرُّوا بالذَّنب.

وقال الحسن وقتادة: أي: احْطُطْ عَنَّا خطايانا.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذا جواب الأمر؛ أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصلُ الأمر: أنَّهم أُمِرُوا أن يخضعوا لله تعالىٰ عند الفَتح بالفعل والقول، وأن يَعْتَرِفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشُّكر علىٰ النِّعمة عندها والمبادرة إلىٰ ذلك من المحبوب لله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر] فسَّرَهُ بعض الصحابة بكثرة الذِّكر والاستغفار عند الفتح والنَّصر، وفسَّره ابن عبَّاس بأنه نُعِيَ إلىٰ رسول الله ﷺ أَجَلُهُ فيها، وأقرَّه علىٰ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٥]. ولا مُنافَاة بَين أن يكون قد أُمِرَ بذلك عند ذلك، ونُعِيَ إليه روحه الكريمة أيضًا؛ ولهذا كان عليه السلام يَظهَر عليه الخضوع جدًّا عند النَّصر، كما رُوِي أنَّه كان يوم الفتح -فتح مكة- داخلًا إليها مِن الثَّنِيَّة العُليا، وإنَّه الخاضع لربِّه حتىٰ إنَّ عُثْنُونَهُ لَيَمَسُّ مَوْرِكَ رَحْلِهِ[٦]، يشكر الله علىٰ ذلك. ثمَّ لما دخل البلد اغتسل وصلَّىٰ ثماني ركعات وذلك ضُحًىٰ[٧]، فقال بعضهم: هي صلاة الضُّحَىٰ، وقال آخرون: بل هي صلاة الفَتح، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فَتَح بلدًا أن يُصَلِّي فيه ثماني ركعات عند أوَّل دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما دخل إِيوَانَ كِسْرىٰ صلَّىٰ فيه ثماني ركعات، [والصَّحيح][٨] أنَّه يَفْصِل بين كلِّ ركعتين بتَسليمٍ؛ وقيل: يُصَلِّيها كلها بتسليمٍ واحدٍ، والله أعلم.

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) إسناده صحيح.
(٣) إسناده منقطع، فالضحاك لم يلقَ ابن عبَّاس.
(٤) لوحة (٧٩ ب).
(٥) انظر: تفسير سورة النصر.
(٦) العثنون: اللحية، والمورك: المرفقة التي تكون عند قادمة الرحل، يضع الراكب رجله عليها ليستريح من وضع رجله في الركاب.
(٧) البخاري (٢٨٠)، ومسلم (٣٣٦).
(٨) زيادة من (ح).

[وقد تكلَّم القرطبي هاهنا علىٰ مسألةِ رواية الحديث بالمعنىٰ وأطال الكلام فيها، وحكىٰ عن الجمهور وعن محمَّد بن سيرين والقاسم بن محمَّد ورجاء بن حَيوة المنع، واختار ابن العربي المالكي أنَّ ذلك يجوز في المطابَقَةِ ومنَ الصَّحَابة والتَّابعين لعلمهم باللُّغة وقدرتهم علىٰ المطَابقة وأمَّا مَن بَعْدَهُم فلا يجوز، وقد أنكر بعضُ العُلماء علىٰ ابن العربي هذه التَّفرقة والله أعلم.

قال وكيع: إن لم تكن الرِّواية بالمعنىٰ جائزةٌ فقد هلك النَّاس وصدق وكيع. وقال الحسن البصري: إذا أصبت المعنىٰ أجزاك. وقال قتادة: عن زرارة: لَقِيتُ عِدَّة من الصحابة فاختلفوا عليَّ فِي اللَّفظ واجتمعوا في المعنىٰ][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ قال البخاري: حدَّثني محمد، حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدي، عن ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبّه، عن أبي هريرة، ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَىٰ اسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حِطَّةٌ: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ**»[2].

ورواه النَّسائي، عن محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن مهدي به موقوفًا وعن محمَّد ابن عبيد بن محمد، عن ابن المبارك ببعضه مسندًا، في قوله تعالىٰ: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال: فَبَدَّلُوا فقالوا: حَبَّة.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن هَمَّام بن مُنَبه؛ أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ[3]: «**قَالَ اللهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فَبَدَّلُوا، وَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَىٰ اسْتَاهِهِمْ، فَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ**»[4].

وهذا حديثٌ صحيحٌ، رواه البخاري عن إسحاق بن نصر، ومسلمٍ عن محمَّد بن رافع. والتِّرمذي عن عبد بن حميد، كلُّهم عن عبد الرزاق به.

وقال التِّرمذي: حسنٌ صحيح.

وقال محمَّد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدَّثني صالح بن كَيْسَان، عن صالح مولىٰ التوأمة، عن أبي هريرة، وعمَّن لا أَتَّهِم، عن ابن عبَّاس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**دَخَلُوا الْبَابَ -الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ سُجَّدًا- يَزْحَفُونَ عَلَىٰ اسْتَاهِهِمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ: حِنْطَةٌ فِي شَعِيرَةٍ**»[5].

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) البخاري (٤٤٧٩، ٤٦٤١)، ومسلم (٣٠١٥)، والترمذي (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة، ورواه أبو داود (٤٠٠٦) من حديث أبي سعيد الخدري وإسناده حسن.

(٣) لوحة (٨٠ أ).

(٤) إسناده صحيح، ورواه البخاري (٤٦٤١)، ومسلم (٣٠١٥)، والترمذي (٢٩٥٦) من طريق عبد الرزاق به.

(٥) رواه الطبري (١/ ٣٠٣) من رواية أبي هريرة، وفي إسناده صالح مولىٰ التوأمة: صدوق لكنه اختلط، وبعضهم تركه، ورواية ابن عبَّاس فيها مجهول، وقد رواه ابن جرير الطبري (١/ ٣٠٤) من طرق أخرىٰ نحوه وإسناده صحيح.

وقال أبو داود: حدَّثنا أحمد بن صالح، وحدَّثنا سليمان بن داود، حدَّثنا عبد الله بن وهب، حدَّثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ: «قَالَ اللهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾» ثم قال أبو داود: حدَّثنا جعفر بن مسافر، حدَّثنا ابن أبي فديك، عن هشام بن سعد، مثله [(١)].

هكذا رواه منفردًا به في كتاب «الحروف» مختصرًا.

وقال ابن مَرْدوَيه: حدَّثنا عبد الله بن جعفر، حدَّثنا إبراهيم بن فهد، حدَّثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزَّاز، حدَّثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، قال: سِرْنَا مع رسول الله ﷺ حتَّىٰ إذَا كان مِن آخر اللَّيل، أجزْنا في ثَنِيَّةٍ يُقال لها: ذات الحنظل، فقال رسول الله ﷺ: «مَا مَثَلُ هَذِهِ الثَّنِيَّةِ اللَّيْلَةَ إِلَّا كَمَثَلِ البَابِ الَّذِي قَالَ اللهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [(٢)]».

وقال سفيان الثَّوري، عن أبي إسحاق، عن البراء: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] قال اليهود: قيل لهم: ادخُلوا الباب سُجَّدًا، قال: رُكَّعًا، وقولوا: حطَّة [أي] [(٣)]: مَغْفِرَة، فدخلوا علىٰ استاههم، وجعلوا يقولُون: حنطَةٌ حَمْرَاءُ فيها شَعِيرة، فذلك قول الله تعالىٰ: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾.

وقال الثوري، عن السُّدِّي، عن أبي سعد الأزدي، عن أبي الكَنود، عن ابن مسعود: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ فقالوا: حِنْطَةٌ حبَّةٌ حمراء فيها شعيرة، فأنزل الله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [(٤)].

وقال أسباط، عن السُّدِّي، عن مُرَّة، عن ابن مسعود أنه قال: إنَّهم قالوا: «هُطِّي [(٥)] سمعاتا أزبة مزبا» فهي بالعربيَّة: حبة حنطة حمراء مثقوبةٌ فيها شعرة سوداء، فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ رُكَّعًا مِن بابٍ صَغِير، يدخلون مِن قِبَلِ استاههم، وقالوا: حِنطَة، فهو قوله تعالىٰ: ﴿فَبَدَّلَ

= وأصل الحديث صحيح كما تقدم.

(١) إسناده حسن: رواه أبو داود (٤٠٠٦)، وانظر ما تقدم.

(٢) عزاه لابن مردويه، وهكذا عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٧٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٤٤): رجاله ثقات.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) أخرجه الطبري (١/ ٢٤١ برقم ١٠٢٣)، وابن أبي حاتم (٥٩٢).

(٥) لوحة (٨٠ ب).

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

وهكذا روي عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيىٰ بن رافع.

وحَاصِل ما ذكره المفسرون وما دلَّ عليه السِّياق مِن الحديث أنَّهم بدَّلوا أمر الله لهم مِن الخضوع بالقول والفعل، فأُمِرُوا أن يَدْخُلُوا سُجَّدًا، فدخلوا يَزْحَفُون علىٰ استاههم مِن قِبَل استاههم رافِعِي رُءُوسِهم، وأُمِرُوا أن يقولوا: حطَّة؛ أي: احطُطْ عنَّا ذُنُوبَنَا، فاستهزؤوا فقالوا: حِنْطَةٌ فِي شَعْرَةٍ. وهذا في غاية ما يكون مِن المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بَأْسَه وعذابه بفِسْقِهم، وهو خروجهم عَن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: كلُّ شيءٍ في كتاب الله مِن «الرِّجْز» يعني به: العذاب[(١)].

وهكذا روي عن مجاهد، وأبي مالك، والسُّدِّي، والحسن، وقتادة، أنَّه العذاب. وقال أبو العالية: الرِّجز: الغضب. وقال الشَّعبيُّ: الرِّجْزُ: إمَّا الطَّاعون، وإمَّا البَرَد. وقال سعيد بن جبير: هو الطَّاعُون.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا وَكِيع، عن سفيان، عَن حبيب بن أبِي ثابت، عن إبراهيم بن سعد -يعني ابن أبي وقاص- عن سَعْدِ بن مالك، وأُسَامة بن زيد، وخُزَيْمَة بن ثابت ﷺ قالوا: قال رسول الله ﷺ: «**الطَّاعُونُ رِجْزُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»[(٢)].

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به. وأصل الحديث في «الصحيحين»[(٣)] من حديث حبيب بن أبي ثابت: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا**... الحديث».

قال ابن جرير: أخبرني يونس بن عبد الأعلىٰ، عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهري، قال: أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أسامة بن زَيد عن رسول الله ﷺ، قال: «**إِنَّ هَذَا الوَجَعَ وَالسَّقَمَ رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ**»[(٤)]. وهذا الحديث أصله مخرَّج في «الصحيحين»[(٥)]، من حديث الزهري، ومن حديث[(٦)] مالك، عن محمد بن المُنْكَدِر، وسالم أبي النضر، عن عامر بن سعد، بنحوه.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري (١/ ٢٤٢ برقم ١٠٤٢).
(٢) ابن أبي حاتم (١/ ١٢٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٥٣٣).
(٣) ورواه البخاري (٥٧٢٨، ٦٩٧٤)، ومسلم (٢٢١٨)، ومالك (٢/ ٨٩٦)، وأحمد (٥/ ٢٠٦).
(٤) رواه الطبري [٢/ ١١٦ برقم (١٠٣٦)] وسنده صحيح.
(٥) البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨). (٦) لوحة (٨١ أ).

يقول تعالىٰ: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيِّكم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين استسقاني لكم، وتَيْسِيرِي لكم الماء، وإخراجه لكم مِن حَجَر[١] يُحمل معكم، وتفجيرِي الماءَ لكم منهُ مِن ثِنْتَيْ عشرةَ عينًا لكلِّ سِبْطٍ مِن أسباطكم عينٌ قد عَرَفُوها، فكلوا مِن المنِّ والسَّلْوَىٰ، واشربوا مِن هذا الماء الذي أنبعتُهُ لكم بلا سَعْيٍ منكم ولا كدٍّ، واعبدوا الَّذي سخَّر لكم ذلك. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تقابلوا النِّعم بالعصيان فتُسْلَبُوها. وقد بسطه المفسِّرون في كلامهم، كما قال ابن عبَّاس: وجُعِل بين ظَهْرَانِيهِم حجر مربَّع وأمر مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، في كلِّ ناحيةٍ منه ثلاث عيون، وأَعْلَم كل سبط عينهم، يشربون منها لا يرتحلون من مَنْقَلَة إلَّا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول.

وهذا قطعةٌ مِن الحديث الذي رواه النَّسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وهو حديث الفتون الطويل[٢].

وقال عطية العوفي: وجُعل لهم حجر مثل رأس الثَّور يحمل علىٰ ثَوْرٍ، فإذا نزلوا منزلًا وضعوه فضربه مُوسىٰ بعصاه، فانفجرت منه اثنتَا عشرة عينًا، فإذا ساروا حملوهُ علىٰ ثَوْرٍ، فاستمسك الماء.

وقال عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه: كان لبنِي إسرائيل حجر، فكان يضعه هارُون ويضربه موسىٰ بالعصا.

وقال قتادة: كان حجرًا طوريًّا، مِن الطور، يحملونه معهم حتىٰ إذا نزلوا ضَرَبَه موسىٰ بعصاه.

[وقال الزمخشري: وقيل: كان مِن رُخَام وكان ذراعًا في ذِراع، وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان مِن أُسُسِ الجنة طوله عشرة أذرع علىٰ طول موسىٰ. وله شُعْبَتَان تَتَقِدَان في الظُّلمة وكان يحمل علىٰ حمار، قال: وقيل: أهبطه آدمُ من الجنَّة فتَوارَثُوه، حتىٰ وقع إلىٰ شعيب فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته.

قال الزَّمخشري: ويحتمل أَن تكون اللَّام للجنس لا للعهد؛ أي: اضرب الشَّيءَ الذي يُقال له الحجر، وعن الحسن لم يأمره أَن يَضْرِب حجرًا بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأَبْيَن في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فيَنْفَجِر ثم يضربه فيَيْبَس، فقالوا: إن فَقَدَ موسىٰ هذا الحجر عَطِشْنا، فأوحىٰ الله إليه أَن يُكَلِّم الحجارة فتَنفَجِر ولا يَمَسها بالعصا لعلَّهم يُقِرُّون][٣].

---

(١) قال أبو بكر الجزائري: انفجار الماء من الحجر معجزة عظيمة، وانفجار الماء من بين أصابع النبي محمد ﷺ معجزة أعظم؛ لأن انفجار الماء من الأحجار معهود معروف، ولكن من أصابع هي لحم ودم غير معهود قط.

(٢) حديث الفتون حديث ضعيف، وسيأتي بتمامه عند تفسير سورة طه الآية (٤٠).

(٣) زيادة من (ح).

وقال يحيىٰ بن النَّضر: قلت لجويبر: كيف عَلِمَ كل أُناس مشربهم؟ قال: كان موسىٰ يضع الحجر، ويقوم مِن كل سبط رجلٌ، ويضرب موسىٰ الحجر فينفجرُ منه اثنتا عشرة عينًا فيَنْتَضِح مِن كل عين علىٰ رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلىٰ تلك العين.

وقال الضَّحَّاك: قال ابن عبَّاس: لما كان بنو إسرائيل في التِّيه شق لهم مِن الحجر أنهارًا[1].

وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: ذلك في التِّيه، ضَرَب لهم موسىٰ ذلك الحجر فصار فيه اثنتَا عشرة عينًا[2] من ماءٍ، لكل سِبْط منهم عَين يشربون منها[3]. وقال مجاهد نحو قول ابن عبَّاس.

وهذه القصَّة شبيهة بالقصَّة المذكورة في سورة الأعراف، ولكن تلك مكيَّة، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقصُّ ذلك علىٰ رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأمَّا في هذه السورة، وهي البقرة فهي مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهًا إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر هاهنا بما آل إليه الأمر آخرًا وهو الانفجار فناسب ذكر هذا هاهنا، وذاك هناك، والله أعلم.

[وبين السياقين تباينٌ مِن عشرة أوجهٍ لفظيَّةٍ ومعنويَّةٍ قد سَأَل عنها الرَّازي في «تفسيره» وأجاب عنها بما عنده، والأمر في ذلك قريب والله تبارك وتعالىٰ أعلم بأسرار كتابه][4].

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ...﴾

يقول تعالىٰ: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المنَّ والسَّلوىٰ، طعامًا طيِّبًا نافعًا هنيئًا سهلًا، واذكروا دَبَرَكم وضجركم مما رزَقتكم وسؤالكم موسىٰ استبدال ذلك بالأطعمة الدَّنيَّة مِن البقول ونحوها مما سألتم. وقال الحسن البصري: فبَطرُوا ذلك ولم يَصْبِروا عليه، وذكروا عَيْشَهُم الذي كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أَعْداسٍ وبَصَلٍ وبَقْلٍ وفُوم، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [وهم يأكلون المنَّ والسَّلوىٰ؛ لأنَّه لا يَتبَدَّل ولا يتغير كل يوم فهو كأكلٍ واحدٍ][5]. فالبقول والقِثَّاء والعَدَس والبصل كلها معروفة.

---

(١) إسناده منقطع، الضحاك لم يلقَ ابن عبَّاس. رواه ابن أبي حاتم (٦٠٧).

(٢) لوحة (٨١ ب).

(٣) رواه الطبري (١/ ٣٠٨).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) زيادة من (ح).

وأما «الفُوم» فقد اختلف السَّلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود «وثُومِهَا» بالثاء[(١)]، وكذلك فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم، عنه، بالثُّوم. وكذا الربيع بن أنس، وسعيد بن جبير.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمرو بن رافع، حدَّثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصري، عن يونس، عن الحسن، في قوله: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: قال ابن عبَّاس: الثُّوم.

قالوا: وفي اللُّغة القديمة: فَوِّمُوا لنا بمعنىٰ: اختبزوا.

وقال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحًا، فإنَّه من الحروف المبدلة كقولهم: وقعوا في «عاثُور شَرٍّ، وعَافُور شر»، و«أَثَافِي وأَثَاثِي»، و«مَغافِير ومَغَاثِير». وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم.

وقال آخرون: الفُوم: الحنطة، وهو البُرُّ الذي يُعْمَل منه الخبز.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ قراءة، أنبأنا ابن وهب[(٢)] قراءة، حدَّثني نافع بن أبي نعيم: أنَّ ابن عبَّاس سُئِل عَن قول الله: ﴿وَفُومِهَا﴾ ما فومها؟ قال: الحنطَةُ. قال ابن عبَّاس: أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول:

قَدْ كُنْتُ أَغْنَىٰ النَّاسِ شَخْصًا وَاحِدًا ... وَرَدَ المَدِينَةَ عَنْ زِرَاعَةِ فُومِ[(٣)]

وقال ابن جرير: حدَّثنا علي بن الحسن، حدَّثنا مسلم الجرمي، حدَّثنا عيسىٰ بن يونس، عن رشدين بن كُرَيْب، عن أبيه، عن ابن عبَّاس، في قول الله تعالىٰ: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: الفُوم: الحنطةُ بلسان بني هاشم[(٤)].

وكذا قال علي بن أبي طلحة، والضحاك [عن ابن عبَّاس][(٥)] وعكرمة عن ابن عبَّاس أنَّ الفوم: الحنطة.

وقال سفيان الثوري، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد وعطاء: ﴿وَفُومِهَا﴾ قالا: وخُبْزِهَا.

وقال هُشَيْم عن يونس، عن الحسن، وحصين، عن أبي مالك: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: الحِنْطَة.

وهو قول عكرمة، والسُّدِّي، والحسن البصري، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، والله أعلم.

[وقال الجوهري: الفُوم: الحنطَة. وقال ابن دريد: الفُوم: السُّنبُلة، وحكىٰ القرطبي عن عطاء

---

(١) قراءة: قَرَأَ (وَثُومِهَا) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَفُومِهَا).

(٢) لوحة (٨٢ أ).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٦١٣)، والطبري (١/ ٣١١)، والإسناد منقطع بين نافع بن أبي نعيم وابن عبَّاس.

(٤) رواه الطبري (١/ ٣١١)، وإسناده ضعيف؛ لضعف رشدين بن كريب.

(٥) زيادة من (ح).

وقتادة أنَّ الفوم كل حبٍّ يُختبَزُ. قال: وقال بعضهم: هو الحِمَّص لغة شاميَّة، ومنه يقال لبائعه: فَامِي مغيَّر عن فومي][١].

وقال البخاري: وقال بعضهم: الحُبوب الَّتِي تُؤْكَلُ كلها فوم.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ فيه تقريعٌ لهم وتوبيخٌ [لهم][٢] علىٰ ما سألوا مِن هذه الأطعمة الدنيَّة مع ما هم فيه من العَيش الرَّغيد، والطَّعام الهنيءِ الطَّيِّب النافع.

وقوله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾[٣] هكذا هو مُنوَّنٌ مَصْرُوفٌ مكتوب بالألف في المصاحف الأئمَّة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف.

قال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك؛ لإجماع المصاحف علىٰ ذلك.

وقال ابن عبَّاس: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ قال: مصرًا من الأمصار، رواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي سعيد البقال سعيد بن المرزبان، عن عكرمة عنه[٤].

قال: وروي عن السُّدِّي، وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: «اهْبِطُوا مِصْرَ» من غير إجراء؛ يعني: من غير صرف. ثم رَوَىٰ عن أبي العالية، والربيع بن أنس أنهما فسَّرا ذلك بِمِصْرَ فِرعون.

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية، وعن الأعمش أيضًا.

وقال ابن جرير: ويُحْتَمَل أن يكون المراد مصر فرعون علىٰ قراءة الإجراء أيضًا. ويكون ذلك من [باب][٥] الاتباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَا۠﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثم توقف في المراد ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟

وهذا الذي قاله فيه نظر، والحقُّ أنَّ المراد[٦] مصر من الأمصار كما روي عن ابن عبَّاس وغيره، والمعنىٰ علىٰ ذلك؛ لأن موسىٰ عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمرٍ عزيزٍ، بل هو كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه، فليس يُسَاوِي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البَطَر والأَشَر ولا ضرورة فيه، لم يجابوا إليه، والله أعلم.

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) شاذة: قَرَأَ (مِصْرَ) بغَيْرِ تَنْوِينِ الْحَسَنُ وَالأَعْمَشُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (مِصْرًا).
(٤) رواه الطبري (١/ ٣١٣)، وابن أبي حاتم (٦١٨)، وإسناده ضعيف جدًّا، وعلته أبو سعيد البقال: متروك.
(٥) زيادة من (ح). (٦) لوحة (٨٢ ب).

﴿... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وضعت عليهم وألزموا بها شَرْعًا وقدرًا، أي: لا يزالون مستذلين، مَن وَجَدَهُم استذلَّهم وأهانهم، وضرب عليهم الصَّغَار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلَّاء متمسْكِنُون.

قال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ قال: هم أصحاب النَّيَالَات؛ يعني: أصحاب الجزية[١].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الحسن وقتادة، في قوله تعالىٰ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ قال: يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

وقال الضَّحَّاك: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ قال: الذل. وقال الحسن: أذلَّهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم الله تحتَ أقدام المُسلِمين. ولقد أدركتهم هذه الأمَّة، وإن المجوس لتَجبيهم الجزية.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسُّدِّي: المَسْكَنَة: الفاقة.

وقال عطيَّة العوفي: الخَراج. وقال الضَّحَّاك: الجزية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقُّوا الغضب من الله، وقال الربيع بن أنس: فحدَثَ عليهم غضب من الله.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يقول: استوجبوا سخطًا، وقال ابن جرير: يعني بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾][٢] انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: باؤُوا إلا موصولًا إمَّا بخيرٍ وإمَّا بشَرٍّ، يقال منه: باءَ فلان بذَنْبه يَبُوءُ به بَوْءًا وبواء.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] يعني: تنصرف متحملهما وترجع بهما، قد صارا عليك دوني. فمعنىٰ الكلام إذًا: فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم مِن الله غضب، ووجب عليهم مِن الله سخط.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يقول تعالىٰ: هذا الذي جازيناهم به مِن الذِّلَّة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتِّباع الحقِّ، وكفرهم بآيات الله، وإهانَتِهم[٣] حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلىٰ أن أفضىٰ بهم الحال

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦٢٦)، وإسناده ضعيف، فالضحاك لم يلقَ ابن عبَّاس.
(٢) زيادة من (ح).
(٣) لوحة (٨٣ أ).

إلىٰ أَن قتلوهم، فلا كبْر أعظم مِن هذا، أنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء [الله بغير] [١] الحق؛ ولهذا جاء في الحديث المتَّفق علىٰ صحَّتِه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ» [٢].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل، عن ابن عون، عن عمرو بن سعيد، عن حميد بن عبد الرحمن، قال: قال ابن مسعود: كنت لا أحجب عن النَّجْوَىٰ، ولا عن كذا ولا عن كذا، قال: فأتيتُ رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مُرَارة الرهاوي، فأدركته مِن آخر حديثه، وهو يقول: يا رسُولَ الله، قد قُسِمَ لِي مِن الجمال مَا ترىٰ، فما أُحِبُّ أَنَّ أَحَدًا مِن الناس فَضَلَنِي بشِرَاكَيْن فما فوقهما، أفَلَيْسَ ذلك هو البغي؟ فقال: «لا لَيْسَ [ذَلِكَ مِنَ] [٣] البَغْيِ، وَلَكِنَّ البَغْيَ مَنْ بَطَرَ - أو قال: سَفَهَ الحَقَّ-وغَمَطَ النَّاسَ» [٤]. يعني: رد الحق وانتقاص الناس، والازدراء بهم والتعاظم عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أَحَلَّ الله بهم بأسه الذي لا يرد، وكساهم ذلًّا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة جزاءً وفاقًا.

قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله بن مسعود، قال: كانت بنو إسرائيل فِي اليوم تقتل ثَلَاثَمائة نبيٍّ، ثم يُقِيمُون سوق بَقْلِهِم في آخر النهار [٥].

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا أبان، حدَّثنا عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله - يعني ابن مسعود- أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامُ ضَلَالَةٍ وَمُمَثِّلٌ مِنَ المُمَثِّلِينَ» [٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وهذه علَّةٌ أخرىٰ في مجازاتهم بما جُوزُوا به، أَنَّهم كانوا يَعْصُون ويعتدون، فالعصيان: فعل المناهي، والاعتداء: المجاوزة في حدِّ المأذون فيه أو المأمور به. والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾

لمَّا بيَّن الله تعالىٰ حال مَن خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدَّىٰ في فعل ما لا إِذن فيه وانتهك المحارم، وما أحلَّ بهم مِن النَّكال، نبَّهَ تعالىٰ علىٰ أنَّ مَنْ أحسن مِن الأمم السَّالفة وأطاع، فإنَّ له جزاء

(١) زيادة من (ح).
(٢) رواه مسلم (٩١)، والترمذي (١٩٩٩)، وابن ماجة (٥٩) وقد وهم المصنف في عزوه إلىٰ البخاري.
(٣) في (ز): (ذلك هو من).
(٤) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٨٥)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٥/ ٢٠٨٠)، وعزاه ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٣٥٥) علىٰ أبي يعلىٰ، ورواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٠١٢)، والبغوي (٥/ ٢٠٧٩) نحوه.
(٥) إسناده صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١/ ١٢٦/ ٦٣٢).
(٦) حسن: رواه أحمد (١/ ٤٠٧)، ورجاله ثقات، عدا عاصم وهو ابن أبي النجود: صدوق.

الحسنىٰ[1]، وكذلك الأمر إلىٰ قيام الساعة؛ كُلُّ مَن اتَّبع الرسول النَّبيَّ الأميَّ فله السعادة[2] الأبديَّة، ولا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هُمْ يحزنون علىٰ ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر [العَدني][3]، حدَّثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، قال: قال سلمان: سألتُ النَّبيَّ ﷺ عن أهل دينٍ كنت معهم، [فذكرتُ][4] مِن صلاتهم وعبادتهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ إلىٰ آخر الآية[5].

وقال السُّدِّي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الآية نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، بَيْنا هو يحدِّث النَّبيَّ ﷺ إذْ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصُومون ويُصلُّون ويؤمنون بك، ويشهدون أنَّك ستُبْعَث نبيًّا، فلما فرغ سلمان مِن ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: «يَا سَلْمَانُ، هُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ». فاشتدَّ ذلك علىٰ سلمان، فأنزل الله هذه الآية[6].

فكان إيمان اليهود: أنَّه مَن تمسَّك بالتَّوراة وسُنَّة موسىٰ ؈ حتَّىٰ جاء عيسىٰ. فلمَّا جاء عيسىٰ كان مَن تمسَّك بالتَّوراة وأخذ بسُنَّة موسىٰ، فلم يدعها ولم يَتَّبع عيسىٰ، كان هالكًا. وإيمان النَّصارىٰ أنَّ مَن تمسَّك بالإنجيل منهم وشرائعِ عيسىٰ كان مُؤْمِنًا مقبولًا منه حتىٰ جاء محمَّد ﷺ، فمَن لم يَتَّبع محمَّدا ﷺ منهم ويَدَعْ ما كان عليه مِن سُنَّة عِيسَىٰ والإنجيل -كان هالكًا.

وقال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير نحو هذا.

قلت: وهذا لا يُنافي ما روىٰ عَليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ الآية فأنزل الله بعد ذلك: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[7] [آل عمران: ٨٥].

---

(١) قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلىٰ الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ وأن هذا مضمون أحوالهم.

(٢) لوحة (٨٣ ب).

(٣) في (ز): (العوفي)، وهو خطأ.

(٤) في (ز): (فَذَكر).

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ١٣٦/ ٦٣٤)، وفيه انقطاع بين مجاهد وسلمان الفارسي رضي الله عنه.

(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ١٣٧/ ٦٣٦)، وهو منقطع.

(٧) إسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة، وابن عبَّاس.

فإنَّ هذا الذي قاله ابن عبَّاس إخبار عن أنه لا يُقْبَل مِن أحدٍ طريقةٌ ولا عملًا إلا ما كان موافقًا لشريعة محمَّد ﷺ بعد أن بعثه الله بما بعثه به، فأمَّا قَبْل ذلك فكلُّ مَنِ اتَّبع الرسول في زمانه فهو علىٰ هُدًىٰ وسبيل نجاة، فاليهود أتباع موسىٰ [(١)] عليه السلام الذين كانوا يتحاكمُون إلىٰ التَّوراة في زمانهم.

واليهود مِن الهوادَةِ وهي المودَّة أو التَّهوُّد وهو التَّوبة؛ كقول موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تُبْنَا، فكأنَّهم سُمُّوا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودَّتِهم في بعضهم لبعضٍ.

[وقيل: لِنِسْبَتِهِم إلىٰ يهوذَا أكبرُ أولاد يعقوب عليه السلام وقال أبو عَمرو بن العلاء: لأنَّهم يَتهوَّدون؛ أي: يتحرَّكون عند قراءة التَّوراة] [(٢)].

فلما بعث عيسىٰ عليه السلام وجب علىٰ بَنِي إسرائيل اتِّباعه والانقياد له، فأصحابُه وأهل دِينه هم النَّصارىٰ، وسُمُّوا بذلك لتَنَاصُرِهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: أنصار أيضًا، كما قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنَّهم إنَّما سُمُّوا بذلك مِن أجل أنَّهم نزلوا أرضًا يقال لها: ناصرة، قاله قتادة وابن جُرَيج، وروي عن ابن عبَّاس أيضًا، والله أعلم.

والنَّصارىٰ: جمع نَصْرَان كنَشَاوَىٰ جمع نَشْوَان، وسَكَارَىٰ جمع سَكْرَان، ويقال للمرأة: نَصْرَانَة، قال الشاعر:

نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ

فلمَّا بعث اللهُ محمَّدًا ﷺ خاتمًا للنَّبيِّن، ورسولًا إلىٰ بني آدم علىٰ الإطلاق، وجب عليهم تصديقُه فيما أَخْبَر، وطاعته فيما أَمَر، والانكفاف عما عنه زَجَر. وهؤلاء هم المؤمنون [حقًّا] [(٣)]. وسُمِّيَت أمَّة محمَّد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانِهِم وشدَّة إيقانهم؛ ولأنَّهم يُؤمِنُون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية. وأمَّا الصَّابئون فقد اختلف فيهم؛ فقال سُفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال: الصابئون قومٌ بين المجوس واليهود والنَّصارىٰ، ليس لهم دِينٌ. وكذا رواه ابن أبي نجيح عنه، وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس، والسُّدِّي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضَّحَّاك [وإسحاق بن راهويه] [(٤)] الصَّابئونُ: فِرقة مِن أهل الكِتَاب يَقرؤُون الزَّبُور.

[ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأسَ بِذَبَائِحِهم ومُنَاكَحَتِهم] [(٥)].

وقال هشيم عن مُطَرِّف: كنَّا عند الحكم بن عُتَيْبَة فحدَّثه رجل مِن أهل البصرة عن الحسن أنَّه كان يقول في الصَّابئين: إنَّهم كالمجوس، فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك.

---

(١) لوحة (٨٤ أ).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) زيادة من (ح).
(٤) زيادة من (ح).
(٥) زيادة من (ح).

وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن عبد الكريم: سمعتُ الحسن ذَكَرَ الصَّابئين، فقال: هم قوم يعبدون الملائكة.

[وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، عن الحسن قال: أخبر زِياد أنَّ الصابئين يُصَلُّون إلىٰ القبلة ويُصَلُّون الخَمْس. قال: فأراد أن يَضَع عنهم الجِزْيَة. قال: فخبر بعد أنَّهم يعبدون الملائكة][1].

وقال أبو جعفر الرَّازي: بلغني أنَّ الصَّابِئِين قوم يعبدون الملائكة، ويَقْرَؤُون الزَّبور، ويُصَلُّون إلىٰ القِبْلَة.

وكذا قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: الصَّابئون: قومٌ ممَّا يَلِي العراق، وهم بكُوثَىٰ، وهم يؤمنون بالنَّبيِّين كلهم، ويصومون مِن كلِّ سَنَةٍ ثلاثين[2] يومًا ويُصَلُّون إلىٰ اليمن كل يومٍ خمس صلوات.

وسُئِل وهب بن منبه عن الصَّابئين، فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يَعْمَل بها ولم يُحْدِث كُفْرًا.

وقال عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: الصَّابئون: أهلُ دِين مِن الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وليس لهم عملٌ ولا كتابٌ ولا نبيٌّ إلا قول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللُه»، قال: ولم يؤمنوا برسولٍ، فمِن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنَّبيِّ ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يُشَبِّهُونهم بهم؛ يعني في قول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

[وقال الخليل: هُم قومٌ يُشْبِه دينهم دينَ النصارىٰ، إلا أنَّ قبلتهم نحو مَهَبِّ الجنوب، يزعمون أنَّهم علىٰ دين نوح عليه السلام. وحكىٰ القُرطبيُّ عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنَّهم قوم تَرَكَّب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تُؤْكَل ذبائحهم، قال ابن عبَّاس: ولا تُنْكَح نساؤهم. قال القرطبي: والذي تحصَّل مِن مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنَّهم مُوحِّدون ويعتقدون تأثير النُّجوم، وأنها فاعلة؛ ولهذا أفتىٰ أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار فخر الدِّين الرَّازي أنَّ الصَّابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنىٰ أنَّ الله جعلها قبلةً للعبادة والدُّعاء، أو بمعنىٰ أنَّ الله فوَّض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلىٰ الكِشْرَانِيِّينَ الذين جاءهم إبراهيم الخليل عليه السلام رادًّا عليهم ومبطلًا لقولهم][3].

وأظهر الأقوال -والله أعلم- قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنَّهم قومٌ ليسوا علىٰ دِين

---

(١) زيادة من (ح). (٢) لوحة (٨٤ ب). (٣) زيادة من (ح).

اليهود ولا النَّصارىٰ ولا المَجوسِ ولا المُشركين، وإنَّما هم قوم باقون علىٰ فِطْرَتِهم ولا دِين مقرَّر لهم يَتَّبعونه ويَقْتَفُونه؛ ولهذا كان المشركون يَنْبُزُون مَن أسلم بالصَّابئيِّ؛ أي: أنَّه قد خرج عَن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

وقال بعض العلماء: الصَّابئون الَّذين لم تبلغهم دعوة نبيٍّ، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مذكِّرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العُهُود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتِّباع رسله، وأخبر تعالىٰ أنَّه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل علىٰ رُءوسِهم ليُقِرُّوا بما عوهدوا عليه، ويأخذوه بقوَّةٍ وحَزْمٍ وهمَّةٍ وامتثالٍ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل، كما فُسِّر بآية الأعراف، ونصَّ علىٰ ذلك ابن عبَّاس، ومجاهد، وعطاء وعكرمة والحسن والضَّحَّاك والربيع بن أنس، وغير واحد، وهذا ظاهر.

وفي روايةٍ عن ابن عبَّاس: الطور ما أَنْبَتَ من الجبال، وما لم يُنْبِت فليس بطُور.

وفي حديث الفُتُون: عن ابن عبَّاس: أنَّهم لما امتنعوا عن الطاعة رُفِع عليهم الجبل ليَسْمَعُوا [فسجدوا][(١)(٢)].

وقال السُّدِّي: فلما أَبَوْا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غَشِيَهم، فسقطوا سُجَّدًا [فسجدوا][(٣)] علىٰ شقٍّ، ونظروا بالشِّقِّ الآخر، فرحمهم الله فكشَفَه عنهم، فقالوا: والله ما سجدة أحب إلىٰ الله مِن سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾.

وقال[(٤)] الحسن في قوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ يعني: التوراة.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بطاعةٍ. وقال مجاهد: بقوَّة: بعمل بما فيه. وقال قتادة ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ القوة: الجِدُّ وإلا قَذَفْتُه عليكم.

[قال: فأقَرُّوا بذلك: أنَّهم يأخذون ما أُوتُوا بقوَّة. ومعنىٰ قوله: وإلَّا قَذَفْتُه عليكم؛ أي][(٥)] أسقطته عليكم؛ يعني: الجبل.

وقال أبو العالية والرَّبيع بن أنس: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما في التَّوراة واعملوا به.

---

(١) زيادة من (ح). (٢) سيأتي. انظر سورة طه الآية (٤٠).
(٣) زيادة من (ح). (٤) لوحة (٨٥ أ). (٥) زيادة من (ح).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يقول تعالىٰ: ثم بعد هذا الميثاق المؤكَّد العظيم تولَّيْتُم عنه وانثنيْتُم ونقَضْتُموه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: توبته عليكم وإرساله النَّبيِّين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدُّنيا والآخِرَة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليَهود، ما حلَّ من البأس بأهل القرية التي عَصَت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقَه فيما أخذه عليهم مِن تعظيمِ السَّبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعًا لهم، فتَحَيَّلُوا علىٰ اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها مِن الشُّصُوص والحبَائل والبِرَكِ قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت علىٰ عادتها في الكثرة نَشَبَتْ بتلك الحبائل والحِيَل، فلم تخلص منها يَوْمَهَا ذلك، فلما كان اللَّيل أخذوها بعد انقضاء السَّبت. فلما فعلوا ذلك مسَخَهُم الله إلىٰ صورة القِرَدة، وهي أشبه شيء بالأنَاسِيِّ في الشَّكل الظَّاهر وليست بإنسانٍ حقيقةً. فكذلك أعمال هؤلاء وحِيَلِهم لما كانت مشابهةً للحق في الظَّاهر ومخالفةً له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصَّة مبسوطةٌ في سورة الأعراف، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] القصة بكمالها.

وقال السُّدِّي: أهل هذه القرية هم أهل «أَيْلَةَ». وكذا قال قتادة، وسَنُورِد أقوال المفسرين هناك مبسوطة إن شاء الله وبه الثِّقَة.

وقوله: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو حذيفة، حدَّثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ قال: مُسِخَت قلوبهم، ولم يُمسَخُوا قردةً، وإنَّما هو مَثَلٌ ضربه الله ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ(١) يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

ورواه ابن جرير، عن المثنَّىٰ، عن أبي حذيفة -وعن محمَّد بن عمرو الباهلي، عن أبي عاصم، عن عيسىٰ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد به.

وهذا سندٌ جيِّدٌ عن مجاهد، وقولٌ غريبٌ خلاف الظَّاهر مِن السِّياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

وقال العوفي في «تفسيره» عن ابن عبَّاس: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فجعل الله منهم القردة

---

(١) لوحة (٨٥ ب).

والخنازير. فزعم أنَّ شباب القوم صاروا قردةً والمشيخة صاروا خنازيرَ.

وقال شيبان النَّحوي، عن قتادة: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فصار القومُ قُرودًا تعَاوَىٰ لها أذنابٌ بعد ما كانوا رجالًا ونساءً.

وقال عطاء الخُراساني: نُودُوا: يا أهل القَرْيَةِ، ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فجعل الَّذِين نَهَوْهُم يَدخُلُون عليهم فيقولون: يا فُلانُ، ألَم نَنْهَكُم؟ فيقولون برءوسهم؛ أي: بلىٰ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن ربيعة بالمِصِّيصَة، حدَّثنا محمَّد بن مسلم -يعني الطائفي- عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، قال: إنَّما كان الَّذِين اعتدَوْا في السَّبت فجعلوا قردةً فُوَاقًا(١) ثم هَلَكُوا. ما كان للمَسْخِ نَسْلٌ(٢).

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: فمسَخَهُم الله قردةً بمعصِيَتِهِم، يقول: إذ لا يَحْيَوْن في الأرض إلا ثلاثةَ أيَّام، قال: ولم يَعِشْ مسخٌ قطُّ فوق ثلاثة أيَّام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وقد خلق الله القِرَدَة والخنازير وسائر الخلق في السِّتَّة أيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ الله هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمَن يشاء كما يشاء. ويُحَوِّلُه كما يشاء.

وقال أبو جعفر الرَّازي عن الرَّبيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: يعني أذِلَّةً صَاغِرِين. وروي عن مجاهد، وقتادة والربيع، وأبي مالك نحوه.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، قال: قال ابن عبَّاس: إنَّ الله إنَّما افترض علىٰ بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم -يوم الجمعة- فخالفوا إلىٰ يوم السَّبت فعَظَّمُوه، وتركوا ما أُمِرُوا به. فلمَّا أَبَوْا إلا لزوم يوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحَرَّم عليهم ما أحلَّ لهم في غيره. وكانوا في قريةٍ بين أَيْلَة والطُّور، يقال لها: «مَدْيَن»؛ فحرَّم الله عليهم في يوم السَّبت الحيتَان؛ صيدها وأكلها. وكانوا إذا كان يومَ السَّبت أقبلت إليهم شُرَّعًا(٣)(٤) إلىٰ ساحل بَحْرِهِم، حتَّىٰ إذا ذَهَبَ السَّبت ذَهَبْنَ، فلم يَرَوْا حُوتًا صَغِيرًا ولا كَبِيرًا. حتَّىٰ إذا كان يَومَ السَّبت أَتَيْنَ شُرَّعًا، حتىٰ إذا ذهب السَّبت ذَهَبْنَ، فكانوا كذلك، حتَّىٰ إذا طال عليهم الأمَد وقَرِمُوا(٥) إلىٰ الحِيتَان، عَمد رجل منهم فأخذ حوتًا سِرًّا يوم السبت، فخزَمَه بخَيطٍ، ثم أرسله في الماء، وأوتدَ له وَتَدًا في السَّاحل فأوثقه، ثم تَرَكَه. حتَّىٰ إذا كان الغد جاء فأخذه؛ أي: إني لم آخذه في يَوْمِ السَّبت ثم انطلق به فأكله. حتىٰ إذا كان

---

(١) الفواق: الوقت ما بين الحَلْبَتَين.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦٧٥)، وفيه عبد الله بن محمَّد بن ربيعة ضعيف «الميزان» (٢/ ٤٨٨).

واعلم أن ما ورد في الأثر بعدم تناسل من مسخهم الله ثبت في حديث صحيح... انظر: «فتح الباري» (٦/ ٣٥٢).

(٣) لوحة (٨٦ أ). (٤) يعني: على وجه الماء.

(٥) قرموا إلى اللحم: اشتدت شهوتهم إليه.

يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد النَّاس رِيح الحِيتَان، فقال أهل القَرية: والله لقد وجدنا رِيح الحيتان، ثم عَثَرُوا علىٰ صنيع ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعل، وأكلوا سِرًّا زمانًا طويلًا لم يعجل الله عليهم بعقوبةٍ حتَّىٰ صادوها علانيةً وباعوها في الأسواق. فقالت طائفةٌ مِنهم مِن أهل البقيَّة: وَيْحَكُم! اتَّقوا الله. ونَهوهم عمَّا يَصْنَعُون. فقالت طائفةٌ أُخرَىٰ لم تأكل الحيتان، ولم تَنْهَ القوم عما صنعوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ لسُخْطِنَا أعمالَهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

قال ابن عبَّاس: فبينما هُم علىٰ ذلك أصبحت تلك البقيَّة في أنديتهم ومساجدهم وفقدوا النَّاس فلا يرونهم قال: فقال بعضُهُم لبعضٍ: إنَّ للنَّاس لشأنًا! فانظروا ما هو. فذهبوا ينظرون في دُورِهِم، فوجدوها مغلقةً عليهم، قد دخلوها ليلًا فغَلَّقُوها علىٰ أنفسهم، كما يغلق الناس علىٰ أنفسهم فأصبحوا فيها قِرَدةً، وإنَّهم ليعرفون الرَّجل بعينِهِ وإنَّه لقرد، والمرأة بِعَيْنِهَا وإنها لقردة، والصَّبيُّ بعينه وإنَّه لَقِرْد. قال: يقول ابن عبَّاس: فلولا ما ذَكَر الله أنَّه أنجىٰ الذين نَهَوْا عن السُّوء لقلنا أهلك الجميعَ مِنهُم، قال: وهي القرية التي قال الله جل ثناؤه لمحمَّد ﷺ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣]. وروىٰ الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس نحوًا من هذا[(١)].

قال السُّدِّي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ قال: فهم أهل «أَيْلَة»، وهي القرية التي كانت حاضِرَة البحر، فكانت الحيتانُ إذا كان يوم السبت -وقد حرَّم الله علىٰ اليهود أن يعملوا في السَّبت شيئًا- لم يبقَ في البحر حوتٌ إلا خرج، حتىٰ يُخْرِجْنَ خَرَاطِيمَهُنَّ مِن الماء، فإذا كان يوم الأحدِ لَزِمْنَ مُقَلَ[(٢)] البَحْر، فلم يُرَ مِنهُنَّ شيء[(٣)] حتىٰ يكون يوم السَّبت، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾. فاشتهىٰ بعضُهُم السَّمَك، فجعل الرَّجل يحفر الحُفَيرَةَ، ويجعل لها نهرًا إلىٰ البحر، فإذا كان يوم السبت فُتِحَ النَّهر فأقبل الموج بالحِيتان يضربها حتىٰ يلقيها في الحُفَيْرة، فيُريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق مِن أجل قلة مَاءِ النهر، فيمكث فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرَّجل يشوي السمك فيجد جاره ريحه فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره، حتىٰ فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: وَيْحَكُم! إنَّما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحلُّ لكم، فقالوا: إنَّما صِدْناه يوم الأحد حين أَخَذْنَاه. فقال العلماء لا ولكنَّكم صِدتُمُوه يوم فَتْحِكُم الماء فدخل، قال: وغَلَبُوا أن يَنْتَهُوا. فقال بعض الذين

---

(١) إسناده ضعيف: رواه الطبري (١/ ٣٣٠)، وفيه داود بن حصين: أحاديثه عن عكرمة مناكير، قال الحافظ: ثقة إلا في عكرمة، ورمي برأي الخوارج «التقريب» ترجمة (١٧٧٩)، وانظر: «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٧٩)، وفيه تدليس ابن إسحاق.

(٢) المقل: مغاص البحر.

(٣) لوحة (٨٦ ب).

نهوهم لبعض: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: لم تعظوهم، وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] فلما أَبَوْا قال المسلمون: والله لا نُساكِنُكم في قريةٍ واحدةٍ. فقسموا القرية بجدارٍ، ففتح المسلمون بابًا والمعتدون في السبت بابًا، ولعنهم داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجعل المسلمون يَخرجُون مِن بابهم، والكفَّار مِن بابهم، فخرج المسلمون ذات يومٍ، ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أَبطَأُوا عليهم تسوَّر المسلمون عليهم الحائط، فإذا هُم قردة يَثِبُ بعضهم علىٰ بعض، ففتحوا عنهم، فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف:١٦٦] وذلك حين يقول: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]. فهم القردة.

قلت: والغَرض مِن هذا السياق عن هؤلاء الأئمَّة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ من أنَّ مسخهم إنما كان معنويًّا لا صوريًّا، بل الصَّحيح أنَّه معنوي صوري، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال بعضهم: الضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائدٌ علىٰ القردة، وقيل: [علىٰ الحِيتَان، وقيل:][1] علىٰ العقوبة، وقيل: علىٰ القرية؛ حكاها ابن جرير.

والصَّحيح أنَّ الضمير عائد علىٰ القَريَةِ؛ أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد: أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿نَكَالًا﴾ أي: عَاقَبْنَاهم[2] عقوبةً، فجعلناها عبرةً، كما قال الله عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥].

وقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: مِن القُرىٰ. قال ابن عبَّاس: يعني جعلناها بما أَحْلَلْنَا بها مِن العقوبة عبرةً لما حولها مِن القرىٰ. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية [الرعد: ٤١]، علىٰ أحد الأقوال، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها في المكان، كما قال محمَّد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: لما بين يديها مِن القرىٰ وما خلفها من القرىٰ. وكذا قال سعيد بن جبير ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ قال: مَن بِحَضْرَتِها من النَّاس يومئذٍ.

وروي عن إسماعيل بن أبي خالد وقتادة وعطية العوفي ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ قال: ما كان قبلها مِن الماضين في شأن السَّبت.

وقال أبو العالية والرَّبيع وعطية: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما بقي بعدهم من النَّاس مِن بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم.

وكان هؤلاء يقولون: المُراد بما بين يَدَيْهَا وما خلفها في الزَّمان.

---

(١) زيادة من (ح). (٢) لوحة (٨٧ أ).

وهذا مستقيمٌ بالنِّسبة إلىٰ مَن يأتي بعدَهُم من النَّاس أن يكون أهل تلك القرية عبرةً لهم، وأمَّا بالنِّسبة إلىٰ مَن سلف قبلهم من النَّاس فكيف يصحُّ هذا الكلام أن تُفسَّر الآية به؛ وهو أن يكون عبرةً لمن سبقهم؟ هذا لعلَّ أحدًا مِن النَّاس لا يقوله بعد تصوُّره، فتعيَّن أن المراد بما بين يَدَيْها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها منَ القُرىٰ؛ كما قاله ابن عبَّاس وسعيد بن جبير، والله أعلم.

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع، عن أبي العالية: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: عقوبةً لما خلا من ذنوبهم.

وقال ابن أبي حاتم وروىٰ عن عكرمة، ومجاهد، والسُّدِّي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

[وحكىٰ القرطبي، عن ابن عبَّاس والسُّدِّي، والفراء، وابن عطية ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ بين ذنوب القوم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذُّنوب، وحكىٰ فخر الدِّين ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّ المراد بما بين يَدَيْهَا وما خلفها: من تقدَّمها من القرىٰ، بما عندهم من العلم بخبرها، بالكتب المتقدِّمة ومَن بعدها.

الثاني: المراد بذلك مَن بِحَضْرَتِها مِن القرىٰ والأُمَم.

والثالث: أنَّه جعلها تعالىٰ عقوبةً لجميع ما ارتكبوه مِن قبل هذا الفعل وما بعده، قال: وهذا قول الحسن.

قلت: وأرجح الأقوال أنَّ المراد بما بين يَدَيْها وما خلفها: مَن بحضرتها مِن القرىٰ التي يبلغهم خبرها، وما حَلَّ بها، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١]، وقال ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، فجعلهم عبرةً ونكالًا لمن في زمانهم، وعبرةً لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال محمَّد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين مِن بعدهم إلىٰ يوم القيامة.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بعدهم، فيتَّقون نقمة الله، ويَحْذَرُونها.

وقال السُّدِّي، وعطية العوفي: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: أمَّة محمَّد ﷺ.

قلت: المراد بالمَوعظة هاهنا الزَّاجر؛ أي: جعلنا ما أَحْلَلْنا بهؤُلاء مِن البأس والنَّكال في مقابلة ما ارتكبوه مِن محارم الله، وما تَحيَّلُوا به مِن الحيل، فليحذر المتقون صَنيعَهُم[2]؛ لئلَّا يُصيبَهم ما

---

(١) زيادة من (ح). (٢) لوحة (٨٧ ب).

أصابهم، كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطَّة: حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن مُسْلِم، حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصباح الزعفراني، حدَّثنا يَزيد بن هارون، حدَّثنا محمَّد بن عمرو عن [أبي سلمة عن](١) أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَ اليَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَىٰ الحِيَلِ»(٢).

وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمَّد بن مسلم هذا وثَّقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادِي، وباقي رجاله مشهورون علىٰ شرط الصَّحيح. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: واذكروا -يا بني إسرائيل- نعمتي عليكم في خَرْق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل مَن هو بسببها وإحياء الله المقتول، ونصِّه علىٰ مَن قَتَلَه منهم.

[مسألةٌ: الإبلُ تُنحَر والغنم تُذْبح، واختلفوا في البقر فقيل: تُذْبَح، وقيل: تُنْحر، والذَّبح أَوْلىٰ لنصِّ القرآن ولقُرْب مَنْحَرِها من مَذْبَحِهَا.

قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافًا صحيحًا بين ذبح ما يُنْحَر أو نَحْرِ مَا يُذْبَح، غَير أنَّ مالِكًا كَرِهَ ذلك. وقد يَكرَه الإنسان ما لا يُحرِّم، وقال أبو عبد الله: أعلم أن نزول قصة البقرة علىٰ موسىٰ عليه السلام في أمر القَتيل قبل نزولِ القسامة في التَّوراة](٣).

[بَسطُ القصَّة](٤)

كما قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصباح، حدَّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام ابن حسان، عن محمَّد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، قال: كان رجلٌ مِن بني إسرائيل عَقِيمًا لا يُولَد له، وكان له مالٌ كثيرٌ، وكان ابن أخيه وارِثُه فقتَلَه، ثم احْتَمَلَه ليلًا فوضعه علىٰ بابِ رجُلٍ منهُم، ثمَّ أصبح يَدَّعِيه عليهم حتىٰ تسلَّحوا، ورَكِب بعضُهم إلىٰ بعضٍ، فقال ذوو الرَّأي منهم والنُّهىٰ: علام يَقْتُل بعضكم بعضًا وهذا رسولُ الله فيكم؟ فأتوا موسىٰ عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قال: فلو لم يَعْتَرِضُوا البقرَ لأجزأت عنهم أدنىٰ بَقَرَة، ولكنَّهم شَدَّدُوا فشَدَّدَ عليهم، حتَّىٰ انتهوا إلىٰ البقرة التي أُمِرُوا بذَبْحِهَا فوجدوها عند

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) حسنه ابن تيمية: في «الفتاوىٰ» (٣/ ٢٤، ٢٨٧)، وابن القيم في «إغاثة اللهفان» وقال ابن كثير: إسناده جيد، (انظر: الأعراف/ الآية ١٦٣)، وضعفه الشيخ الألباني من قبل حفظ ابن بطة راوي الحديث، انظر: «غاية المرام» (١١).

(٣) زيادة من (ح). (٤) زيادة من (ز).

رجلٍ ليس له بقرةٌ غيرها، فقال: والله لا أَنْقُصُها من مِلءِ جِلْدِها ذهبًا، فأخذوها بملءِ جلدها ذهبًا فذبحوها، فضربوه ببعضها فقام فقالوا: مَن قَتَلَك؟ فقال: هذا، لابن أخيه. ثم مال مَيِّتًا، فلم يُعْطَ مِن مالِهِ شيء، فلم يُوَرَّث قاتل بعد[١].

ورواه ابن جرير مِن حديث أيُّوب، عن محمَّد بن سِيرين، عن عُبيدة بنحوٍ مِن ذلك، والله أعلم.

ورواه عبد بن حميد في «تفسيره»: أنبأنا يزيد بن هارون به.

ورواه آدمُ بن أبي إِيَاسٍ في «تفسيره»، عن أبي جعفر -هو الرازي- عن هشام بن حسَّان به. وقال آدم ابن أبي إياس في[٢] «تفسيره»: أنبأنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، في قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ قال: وكان رجلٌ مِن بني إسرائيل، وكان غنيًّا، ولم يكن له ولد، وكان له قريب وكان وارثه، فقتله لِيَرِثَه، ثم ألقاه علىٰ مجمع الطَّريق، وأتىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: إنَّ قريبي قتل وإني إلىٰ أمرٍ عظيمٍ، وإني لا أجد أحدًا يُبيِّن لي مَن قتله غيرك يا نبي الله. قال: فنادىٰ موسىٰ في الناس، فقال: أنشد الله مَن كان عنده مِن هذا علمٌ إلا بيَّنَه لنا، قال: فلم يَكُن عندهم علم، فأقبل القاتل علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: أنت نبيُّ الله فاسأل لنا ربك أن يُبيِّن لنا، فسأل ربَّه فأوحىٰ الله إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فعَجِبُوا مِن ذلك، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ يعني: لا هرمة ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ يعني: ولا صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نصف بين البِكْر والهرمة ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [أي: صافٍ لونها][٣] ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: تعجب الناظرين ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ أي: لم يذللها العمل ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: وليست بذَلُول تُثير الأرض ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ يقول: ولا تعمل في الحرث ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يعني: مُسَلَّمَةٌ مِن العيوب.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ يقول: لا بياض فيها ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ قال: ولو أن القوم حين أُمِرُوا أن يذبحوا بقرةً، استعرضوا[٤] بقرةً مِن البقر فذبحوها، لكانت إيَّاها، ولكنَّهم شَدَّدُوا علىٰ أنفسهم فشدَّد عليهم، ولولا أنَّ القوم اسْتَثْنُوا فقالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لما هدوا إليها أبدًا. فبلغنا أنَّهم لم يجدوا البقرة التي نُعِتَتْ لهم إلا عند عجوز عندها يتامىٰ، وهي القَيِّمة عليهم، فلما علمت أنَّه لا يزكو لهم غيرها، أَضْعَفَت عليهم الثمن. فأتوا موسىٰ فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النَّعت إلا عند فلانة، وأنَّها سألتهم أضعاف ثمنها. فقال لهم موسىٰ: إنَّ الله قد كان خَفَّفَ عليكم فشدَّدتُم علىٰ أنفسكم فأَعطوها

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٦٩٥)، والطبري (١/ ٣٣٧)، وإسناد صحيح إلىٰ عبيدة، لكنه لم يرفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فغايته أنه مرسل.
(٢) لوحة (٨٨ أ). (٣) زيادة من (ح). (٤) يعني: أخذوها من أية ناحية.

رضاها وحكمها. ففعلوا، واشتروها فذبحوها[١]، فأمرهم موسىٰ عليه السلام أن يأخذوا عَظْمًا منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسَمَّىٰ لهم قاتله، ثم عاد ميتًا كما كان، فأخذ قاتله -وهو الذي كان أتىٰ موسىٰ فشكا إليه مقتله- فقتله الله علىٰ أَسْوَإِ عمله.

وقال محمَّد بن جرير: حدَّثني محمَّد بن سعد، حدَّثني أبي، حدَّثني عَمِّي، حدَّثني أبي، عن أبيه عن جَدِّه عن ابن عبَّاس في قوله في شأن البقرة: وذلك أنَّ شيخًا مِن بني إسرائيل علىٰ عهد موسىٰ عليه السلام كان مُكْثِرًا من المال، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له وبنو أخيه ورثته، فقالوا: ليت عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم إلىٰ أن تَقْتُلوا عمكم، فتَرِثُوا ماله، وتُغْرِمُوا أهل المدينة التي لستم بها دِيَتَه، وذلك أنَّهما كانتا مَدِينَتَيْن، كانوا في إحداهما، وكان القتيل إذا قُتِل فطُرِح بين المدينتين قِيسَ ما بين القتيل والقريتين فأيُّهما كانت أقرب إليه غَرِمَت الدِّية، وأنهم لما سوَّل لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم ألا يموت عمهم عَمَدوا إليه فقتلوه، ثم عَمَدوا فطرحوه علىٰ باب المدينة التي ليسوا فيها. فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخي الشيخ، فقالوا: عمُّنا قُتِل علىٰ باب مَدِينَتِكم، فوالله لَتُغْرَمُنَّ لنا دية عمِّنا. قال أهل المدينة: نُقْسِم بالله ما قتلنا ولا عَلِمْنَا قاتلًا ولا فتحنا باب مَدِينَتِنَا منذ أغلق حتىٰ أصبحنا[٢]. وإنَّهم عَمَدُوا إلىٰ موسىٰ عليه السلام فلما أَتَوْه قال بنو أخي الشيخ: عمنا وجدناه مقتولًا علىٰ باب مدينتهم. وقال أهل المدينة: نُقْسِم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة مِن حين أغلقناه حتَّىٰ أصبحنا، وإنَّه جبريل جاء بأمر ربه السميع العليم إلىٰ موسىٰ عليه السلام فقال: قل لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ فتضربوه ببعضها.

وقال السُّدِّي: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ قال: كان رجلٌ مِن بني إسرائيل مُكْثِرًا مِن المال وكانت له ابنة، وكان له ابن أخٍ محتاجٍ، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبىٰ أن يُزَوِّجه، فغضب الفتىٰ، وقال: والله لأَقْتُلَنَّ عَمِّي، ولآخذن ماله، ولأَنْكِحَنَّ ابنته، ولآكُلَنَّ دِيَتَه. فأتاه الفتىٰ وقد قَدِم تُجَّار في بعض أسباط بني إسرائيل، فقال: يا عم انطلق معي فخذ لي مِن تجارة هؤلاء القوم[٣]، لعلِّي أن أُصِيبَ منها فإنهم إذا رَأَوْك معي أعطوني. فخرج العمُّ مع الفتىٰ ليلًا، فلما بلغ الشَّيخ ذلك السِّبْط قتله الفتىٰ، ثمَّ رجع إلىٰ أهله. فلمَّا أصبح جاء كأنَّه يطلب عمَّه، كأنَّه لا يدري أين هو، فلَم يَجِدْه. فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السِّبط مُجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قَتَلْتُم عَمِّي، فأدُّوا إليَّ دِيَتَه، فجعل يَبْكِي ويحثو التُّراب علىٰ رَأْسِه، ويُنادِي: واعمَّاه. فرفعهم إلىٰ موسىٰ، فقضىٰ عليهم بالدِّية، فقالوا له: يا

---

(١) لوحة (٨٨ ب).
(٢) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٣٤٥) وإسناده ضعيف. تقدم.
(٣) لوحة (٨٩ أ).

رسول الله، ادع الله لنا حتىٰ يُبَيِّن لنا مَن صاحبه، فيؤخذ صاحب الجريمة، فوالله إنَّ دِيَتَه علينا لَهَيِّنة، ولكنَّا نَسْتَحِيِي أَن نُعَيَّر به، فذلك حين يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقال لهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قالوا: نسألك عَن القتيل وعمَّن قتله، وتقول: اذبحوا بقرة. أتهزأُ بنا! ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

قال ابن عبَّاس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنَّهم شَدَّدُوا وتَعَنَّتُوا علىٰ موسىٰ فشدَّدَ الله عليهم.

فقالوا: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ والفارِضُ: الهَرِمَة التي لا تَلِد، والبِكْر التي لم تَلِد إلا وَلَدًا واحدًا. والعَوَان: النِّصف التي بَين ذَٰلِكَ، الَّتي قد وَلَدَت وَوَلَد وَلَدُها ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال: نَقِيٌّ لونها ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قال: تُعْجِب الناظرين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ من بياضٍ ولا سوادٍ ولا حمرةٍ ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فطَلَبُوها فلم يَقْدِرُوا عليها.

وكان رجل في بَنِي إسرائيل، مِن أَبَرِّ النَّاس بِأَبِيه، وإن رجلًا مَرَّ به معه لُؤْلُؤٌ يَبِيعُه، وكان أبوه نائمًا تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تَشْتَرِي مني هذا اللُّؤْلُؤ بسبعين ألفًا؟ فقال له الفتىٰ: كما أنت حتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ أبي فآخذه منك بثمانين ألفًا. فقال الآخر: أَيْقِظ أباك وهو لك بِستِّين ألفًا، فجعل التاجر يحطُّ له حتىٰ بلغ ثلاثين ألفًا، وزاد الآخر علىٰ أن ينتظر أباه حتىٰ يستيقظ حتىٰ [(١)] بلغ مِائَةَ ألف، فلمَّا أكثر عليه قال: واللهِ لا أَشْتَرِيه منك بشيءٍ أبدًا، وأبىٰ أن يُوقِظ أباه، فعوَّضه الله مِن ذلك اللُّؤلؤ أن جعل له تِلْكَ البقرَة، فمَرَّت به بنُو إسرائيل يطلُبُون البقرة وأَبْصَرُوا البقرة عنده، فسَأَلُوه أن يبيعهم إِيَّاها بقرةً ببقرةٍ، فأبىٰ، فأعطوه ثِنْتَيْن فأبىٰ، فزادوه حتىٰ بلغوا عَشْرًا، فأبىٰ، فقالوا: والله لا نَتْرُكُكَ حتىٰ نأخذها منك. فانطلقوا به إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالوا: يا نبيَّ الله، إنَّا وجدناها عند هذا فأبىٰ أن يُعْطِيناهَا وقد أعطيناه ثمنًا، فقال له موسىٰ: أَعْطِهِم بقرتك. فقال: يا رسول الله، أنا أحقُّ بمالي. فقال: صَدَقْت. وقال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهبًا، فأبىٰ، فأضعفوا له مثل ما أعطوه وزنها، حتىٰ أعطوه [وزنها] [(٢)] عشر مراتٍ ذهبًا، فباعهم إيَّاها وأخذ ثمنها، فذبحوها. قال: اضْرِبُوه ببعضها، فضربوه بالبَضْعَةِ التي بين الكتفين، فعاش، فسألوه: مَن قتلك؟ فقال لهم: ابن أخي، قال: أَقْتُلُهُ، فآخذُ ماله، وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتَلُوه.

وقال سنيد: حدَّثنا حجاج -هو ابن محمَّد- عن ابن جريج، عن مجاهد، وحجاج، عن أبي معشر،

---

(١) لوحة (٨٩ ب). (٢) زيادة من (ح).

عن محمَّد بن كعب القرظي ومحمَّد بن قيس -دخل حديث بعضهم في حديث بعض- قالوا: إنَّ سِبْطًا مِن بَنِي إسرائِيلَ لما رَأَوْا كَثْرَة شرور النَّاس، بنوا مدينة فاعتزلوا شرورَ النَّاس، فكانوا إذا أمسوا لم يَتْرُكُوا أحدًا منهم خارجًا إلا أَدْخلُوه، وإذا افتتحوا قام رئيسُهُم فنظر وأشرف، فإذا لم يَرَ شيئًا فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتَّىٰ يُمْسُوا. قال: وكان رجلٌ مِن بني إسرائيل له مالٌ كثيرٌ، ولم يكن له وارثٌ غير أَخِيه، فطال عليه حياته فقتله لِيَرِثه، ثم حمله فوضعه علىٰ باب المدينة، ثمَّ كَمَنَ في مكان هو وأصحَابه. قال: فأشرف رئيسُ المدينة علىٰ باب المدينة فنظر، فلم يَرَ شيئًا ففتح الباب، فلمَّا رأىٰ القتيل ردَّ الباب، فناداه أخو المقتول وأصحابه: هيهات! قتلتموه ثم تَرُدُّون الباب. وكان موسىٰ لما رأىٰ القتل كثيرًا في أصحابه بني إسرائيل، كان إذا رأىٰ القتيل بين ظَهْرَانَي القوم أخذهم، فكاد يكون بين أخي المقتول وبين أهل المدينة قتال، حتَّىٰ لبس الفريقان السلاح، ثم كَفَّ بعضهم عن بعض، فأتوا موسىٰ فذكروا له شأنهم. قالوا: يا رسول الله، إن هؤلاء قتلوا قتيلًا ثم رَدُّوا الباب[1]، وقال أهل المدينة: يا رسول الله قد عَرفْت اعتزالنا الشُّرور وبنينا مدينةً، كما رأيت، نعتزل شرور الناس، والله ما قتلنا ولا علمنا له قاتلاً. فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه أن يذبحوا بقرةً، فقال لهم موسىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾.

وهذه السياقات [كلُّها] عن عبيدة وأبي العالية والسُّدِّي وغيرهم، فيها اختلاف ما، والظَّاهر أنها مأخوذةٌ مِن كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها ولكن لا نُصدِّق ولا نُكذِّب، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحقَّ عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

أخبر تعالىٰ عن تَعَنُّتِ بني إسرائيل وكثرةُ سؤالهم لرسولهم، ولهذا لما ضَيَّقوا علىٰ أنفسهم ضُيِّق عليهم، ولو أنَّهم ذبحوا أيَّ بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عبَّاس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شدَّدُوا فشدِّدَ عليهم، فقالوا: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ ما هذه البقرة؟ وأيُّ شيءٍ صفتها؟

قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كريب، حدَّثنا عثام بن علي، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن

---

(١) لوحة (٩٠ أ).

سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: لو أخذوا أَدْنَىٰ بقرةً اكتفوا بها، ولكنَّهم شَدَّدُوا فشدَّدَ الله عليهم[1].

إسناد صحيح، وقد رواه غير واحدٍ عن ابن عبَّاس. وكذا قال عبيدة، والسُّدِّي، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد.

وقال ابن جريج: قال لي عطاء: لو أخذوا أَدْنَىٰ بقرةً كَفَتْهُم. قال ابن جريج: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أُمِرُوا بِأَدْنَىٰ بَقَرَةٍ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا شَدَّدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ شَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ؛ وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَثْنُوا مَا بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الأَبَدِ»[2].

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: لا كبيرةً هرمةً ولا صغيرةً لم يلقحها[3] الفَحْل، كما قاله أبو العالية، والسُّدِّي، ومجاهد، وعكرمة، وعطيَّة العوفي، وعطاء الخراساني ووهب بن مُنَبِّه، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، وقاله ابن عبَّاس أيضًا.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [يقول: نصف][4] بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوىٰ ما يكون من الدَّواب والبقر وأحسن ما تكون.

ورُوِيَ عن عكرمة، ومجاهد، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وعطاء الخراساني، والضَّحَّاك نحو ذلك. [في تفسير عبد بن حميد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد «العَوانُ» هي: العانس النِّصف، وعن خصيف عن مجاهد قال: وَلَدَتْ بطنًا أوبطْنين][5].

وقال السُّدِّي[6]: العوان: النِّصف التي بين ذلك التي وَلَدَت، ووَلَدَ وَلَدُها.

وقال هُشَيْم، عن جُوَيْبِر، عن كثير بن زياد، عن الحسن في البقرة: كانت بقرةً وحشيَّةً.

وقال ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: مَن لَبِسَ نعلًا صفراءَ لَمْ يَزَلْ في سُرُورٍ ما دام لابسها، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ وكذا قال مجاهد، ووهب بن منبه أنَّها كانت صفراء.

وعن ابن عمر: كانت صفراء الظِّلْف. وعن سعيد بن جبير: كانت صَفْرَاء القَرْن والظِّلْف.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا نصر بن علي، حدَّثنا نوح بن قيس، أنبأنا أبو رجاء، عن الحسن في قوله: ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال: سوداء شديدةُ السَّواد.

وهذا غريب، والصحيح الأول، ولهذا أكَّد صفرتها بأنَّه ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾.

---

(١) صحيح: رواه الطبري (١/ ٣٤٧).
(٢) إسناده ضعيف. رواه الطبري (٣٤٨) وإسناده معضل.
(٣) في (ز): (يلحقها).
(٤) زيادة من (ح).
(٥) زيادة من (ح).
(٦) لوحة (٩٠ ب).

وقال عطية العوفي: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ تكاد تَسْوَدُّ من صفرتها.

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قال: صافية اللون. وروىٰ عن أبي العالية، والربيع بن أنس، والسُّدِّي، والحسن، وقتادة نحوه.

وقال شريك، عن مَغْراء عن ابن عمر: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قال: صَافٍ.

وقال العوفي في «تفسيره»، عن ابن عبَّاس: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شديدة الصفرة، تكاد من صُفْرتها تبيض.

وقال السُّدِّي: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي: تُعْجِب النَّاظرين، وكذا قال أبو العالية، وقتادة، والربيع ابن أنس.

وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلىٰ جلدها يُخَيَّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

[وفي التوراة: أنها كانت حمراء، فلعلَّ هذا خطأ في التَّعريب أو كما قال الأول: إنَّها كانت شديدة الصفرة تضْرِب إلىٰ حمرةٍ وسوادٍ، والله أعلم](١).

وقوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: لكثرتها، فمَيِّز لنا هذه البقرة وَصِفْهَا وجَلِّها لنا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ إذا بَيَّنْتَهَا لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن يحيىٰ الأودي الصُّوفي، حدَّثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحدَّاد، حدَّثنا سرور بن المغيرة الواسطي، ابن أخي منصور بن زَاذَان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْلا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لمَا أُعْطُوا، وَلَكِنْ اسْتَثْنُوا**»(٢).

ورواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيه في «تفسيره» من وجهٍ آخر، عن سرور بن المغيرة، عن زَاذَان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن حديث أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْلا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما أُعْطُوا أَبَدًا، وَلَوْ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا بَقَرَةً مِنَ البَقَرِ فَذَبَحُوا لأَجْزَأَتْ(٣) عَنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا، فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ**»(٤).

وهذا حديثٌ غريب مِن هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون مِن كلام أبي هريرة، كما تقدَّم مثله عن السُّدِّي، والله أعلم.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي: إنها ليست مُذَلَّلَةً بالحراثة ولا مُعَدَّة

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٨٩) إلىٰ ابن أبي حاتم (١/ ١٤١/ ٧٢٢)، وابن مردويه، ورواه البزار في «مسنده» (٣/ ٤٠/ ٢١٨٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣١٤): فيه عباد بن منصور وهو صدوق، رمي بالقدر، وكان يدلِّس، وتغير بآخره، وبقية رجاله ثقات.

قلت: وفي إسناده أيضًا الحسن البصري وهو مدلس ولم يصرح بالسماع وله شاهد مرسل عن عكرمة.

رواه سعيد بن منصور (٢/ ٥٦٥/ ١٩٣) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ الفريابي وابن المنذر.

(٣) لوحة (٩١ أ).

(٤) ضعيف: انظر التعليق السابق.

للسقي في السَّانية[١][٢]، بل هي مُكْرَمَةٌ حَسَنَةٌ صَبِيحَةٌ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صحيحةٌ لا عَيْبَ فيها ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لَيْسَ فِيهَا لَونٌ غير لونها.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يقول: لا عَيْب فيها، وكذا قال أبو العالية والرَّبيع، وقال مجاهد ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ مِن الشِّية.

وقال عطاء الخراساني: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ القوائم والخَلق ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ قال مجاهد: لا بياض ولا سواد. وقال أبو العالية والربيع، والحسن وقتادة: ليس فيها بياض. وقال عطاء الخراساني: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ قال: لونها واحدٌ بَهِيمٌ. ورُوِي عن عطية العوفي، ووهب بن منبه، وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك. وقال السُّدِّي: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ مِن بياضٍ ولا سوادٍ ولا حمرةٍ، وكلُّ هذه الأقوال متقاربة في المعنىٰ، [وقد زعم بعضُهم أنَّ المعنىٰ في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ لَيْسَت بمُذَلَّلة بالعمل ثمَّ اسْتَأْنَفَ فقال: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: يعمل عليها بالحِرَاثَة لكنَّها لا تسقي الحرث، وهذا ضعيف؛ لأنَّه فسَّر الذَّلول التي لم تُذَلَّل بالعمل بأنَّها لا تُثِير الأرض ولا تَسْقِي الحرث كذا قرَّره القُرْطُبي وغيره][٣].

﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال قتادة: الآن بَيَّنْتَ لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وقبل ذلك والله أعلم قد جاءهم الحق.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ قال الضَّحَّاك: عن ابن عبَّاس: كادوا ألَّا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا؛ لأنَّهم أرادوا ألَّا يذبحوها.

يعني: أنَّهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذمٌّ لهم، وذلك أنَّه لم يكن غرضهم إلا التَّعَنُّت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

وقال محمَّد بن كعب، ومحمَّد بن قيس: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة ثَمَنِهَا.

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ كثرة ثمنها لم يَثْبُت إلَّا مِن نقل بني إسرائيل، كما تقدَّم مِن حكاية أبي العالية والسُّدِّي، ورواه العوفي عن ابن عبَّاس. وقال عبيدة، ومجاهد، ووهب بن منبه، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنَّهم اشْتَرَوْها بمالٍ كثيرٍ وفيه اختلاف، ثمَّ قد قيلَ في ثَمَنِها غير ذلك. وقال عبد الرَّزاق: أنبأنا ابن عُيَيْنة، أخبرني محمَّد بن سوقة، عن عكرمة، قال: ما كان ثَمَنُها إلا ثلاثة دَنَانِير وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظَّاهر أنَّه نقله[٤] عَن أهل الكتاب أيضًا.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يَفْعَلوا ذلك خَوف الفَضِيحَة، إن اطَّلع الله علىٰ قاتل القَتِيل الذي اخْتَصَمُوا فيه.

---

(١) قال أحمد شاكر رحمه الله: السانية ـ بالنون: الدلو العظيمة وأدواتها. وتطلق أيضًا علىٰ الدابة نفسها. وفي المطبوعة «الساقية» بالقاف، وفي المطبوعة أيضًا «حسنة» بدل «حسناء»، والتصويب فيهما من الأزهرية.

(٢) السانية :أداة السقي. (٣) زيادة من (ح). (٤) لوحة (٩١ ب).

ولم يُسْنِده عَن أحدٍ، ثم اختار أنَّ الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يَفْعَلون ذلك لغلاء ثَمَنِها، وللفضيحة. وفي هذا نظرٌ، بل الصواب -والله أعلم- ما تقدَّم من رواية الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، علىٰ ما وجهناه. وبالله التوفيق.

مسألة

اسْتُدِلَّ بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتىٰ تَعَيَّنَت أو تَمَّ تَقْيِيدها بعد الإطلاق علىٰ صحَّة السَّلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي واللَّيث والشَّافعي وأحمد بن حنبل وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا بدليل ما ثبت في «الصَّحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ: «**لا تَنْعَتُ المَرْأَةُ المَرْأَةَ لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا**»(١) . وكما وصف النَّبيّ ﷺ إبلَ الدِّية في قتل الخطأ وشبه العمد بالصِّفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون: لا يصحُّ السَّلم في الحيوان؛ لأنَّه لا تنضبط أحواله، وحكىٰ مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم](٢) .

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾

قال البخاري: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ اختلفتم. وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي حذيفة، عن شبْل عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد أنَّه قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ اختلفتم.

وقال عطاء الخراساني، والضَّحَّاك: اختصمتم فيها. وقال ابن جريج ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ قال: قال بعضهم: أنتم قَتَلْتُمُوه.

وقال آخرون: بل أنتم قَتَلْتُمُوه. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال مجاهد: ما تُغَيِّبُون. وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمرو بن مسلم البصري، حدَّثنا محمَّد بن الطفيل العبدي، حدَّثنا صدقة بن رستم، سمعت المسيب بن رافع يقول: ما عَمِل رجل حسنةً في سبعةِ أبيات إلَّا أظهرها الله، ومَا عَمِل رجل سيئةً في سبعة أبياتٍ إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كلام الله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هذا البعض أيُّ شيءٍ كان مِن أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلةٌ به، وخرق العادة به كائنٌ، وقد كان معينًا في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعُود علينا في أمر الدِّين أو الدُّنيا لبيَّنه الله تعالىٰ لنا، ولكن أَبْهَمَه، ولم يجئ مِن طريقٍ صحيحٍ عن معصوم بَيَانه فنحن نُبْهِمُهُ كما أبهمه الله.

---

(١) عزاه للصحيحين وصوابه أنه من أفراد البخاري (٥٢٤٠).
(٢) زيادة من (ح).

ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سنان، حدَّثنا عفَّان بن مسلم، حدَّثنا عبد الواحد ابن زياد، حدَّثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سَنَة حتىٰ وجدوها عند رجلٍ في بقرٍ له، وكانت بقرةً تُعْجِبُه، قال: فجعلوا يُعْطُونَه بها(١) فيأبَىٰ، حتىٰ أَعْطَوْه ملءَ مَسْكِها(٢) دنانير، فذَبحوها، فضربوه -يعني القتيل- بعضوٍ منها، فقام تَشْخُبُ أَوْدَاجُه(٣) دمًا [فسألوه](٤) فقالوا له: مَن قتلك؟ قال: قتلني فلان(٥).

وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنَّه ضُرِب بِبَعْضِها.

وفي رواية عن ابن عبَّاس: إنَّهم ضربوه بالعَظْم الذي يَلي الغُضْرُوف.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، قال: قال أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القتيل ببعض لحمها. وقال معمر: قال قتادة: فضربوه بلحمِ فَخِذِها فعَاش، فقال: قتلني فلان.

وقال أبو أسامة، عن النضر بن عربي، عن عكرمة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ قال: فضرب بفَخِذِهَا فقام، فقال: قتلني فلان.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وقتادة، نحو ذلك.

وقال السُّدِّي: فضربوه بالبَضْعة التي بين الكتفين فعاش، فسألوه، فقال: قتلني ابن أخي.

وقال أبو العالية: أمرهم موسىٰ ﷺ أن يأخذوا عَظمًا مِن عظامها، فيَضرِبوا به القتيل، ففعلوا، فرجع إليه رُوحه، فسَمَّىٰ لهم قاتله ثمَّ عاد مَيِّتًا كما كان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض آرَابِهَا(٦) [وقيل: بلسَانِها، وقيل: بعَجَبِ ذَنَبِها](٧).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: فضربوه فحييٰ. ونبَّه تعالىٰ علىٰ قُدْرَتِه وإحيائه الموتىٰ بما شَاهَدُوه مِن أمر القتيل: جعل تبارك وتعالىٰ ذلك الصُّنع حجةً لهم علىٰ المعادِ، وفاصلًا ما كان بينهم مِن الخصومة والفساد، والله تعالىٰ قد ذكر في هذه السورة ما خلقه في إحياءِ الموتىٰ، في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]. وهذه القصَّة، وقصة الذين خرجوا مِن دِيارهم وهُم أُلوفٌ حَذَر الموت، وقصة الذي مرَّ علىٰ قريةٍ وهي خاويةٌ علىٰ عُرُوشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة.

---

(١) لوحة (٩٢ أ). (٢) مسكها: جلدها.

(٣) يعني: تسيل عروقه. (٤) زيادة من (ح).

(٥) رجاله ثقات: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٢٩/ ٧٥٥)، ورجاله ثقات غير أن عبد الواحد بن زياد روايته عن الأعمش فيها مقال. وهذا منها، ثم إن هذا الأثر من مرويات ابن عبَّاس وهو ممن رووا من كتب أهل الكتاب.

(٦) الآراب: جمع إرْب، وهو العضو.

(٧) زيادة من (ح).

ونبَّه تعالىٰ بإحياء الأرض بعد موتها علىٰ إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميمًا، كما قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا شعبة، أخبرني يعلىٰ بن عطاء، قال: سمعت وَكِيع بن عُدُس، يحدث عن أبي رَزِين العُقَيلي، قال: قلت: يا رسول الله، كيف يُحْيِي الله الموتىٰ؟ قال: «أَمَا مَرَرْتَ بِوَادٍ مُمْحِلٍ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ خَضِرًا؟» قال: بلىٰ. قال: «كَذَلِكَ النُّشُورُ». أو قال: «كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَىٰ»(١).

وشاهد هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾(٢) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٣-٣٥].

[مسألةٌ: استُدِلَّ لمذهب مالك في كون قول الجريح: فلانٌ قتَلَنِي لوثًا بهذه القِصَّة؛ لأنَّ القتيل لما حَيِيَ سئل عمَّن قتله فقال: قتلني فلان، فكان ذلك مقبولًا منه؛ لأنَّه لا يُخْبِر حينئذٍ إلا بالحق، ولا يُتَّهم والحالة هذه، ورجَّحوا ذلك بحديث أنس: أنَّ يهوديًّا قتل جاريةً علىٰ أوضاحٍ لها، فرَضَخ رأسها بين حَجَرَين، فقيل: مَن فعل بكِ هذا؟ أفلان؟ أفلان؟ حتىٰ ذكر اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي، فلم يَزَلْ به حتىٰ اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرَضَّ رأسه بين حجرين(٣). وعند مالك: إذا كان لوثًا حلف أولياء القتيل قسامةً، وخالف الجمهور في ذلك ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثًا](٤).

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالىٰ توبيخًا لبني إسرائيل، وتقريعًا لهم علىٰ ما شاهدوه مِن آيات الله تعالىٰ، وإحيائه الموتىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ التي لا تَلِينُ أبدًا. ولهذا نهىٰ الله المؤمنين عَن مِثْل حالهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال العوفي، في «تفسيره»، عن ابن عبَّاس: لما ضُرب المقتول ببعضِ البقرة جلس أحيا ما كان

---

(١) ضعيف: رواه الطيالسي (١٠٨٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٩/ ٦٣٨)، وأحمد (٤/ ١١)، وفي إسناده وكيع ابن عدين: مجهول.

(٢) لوحة (٩٢ ب).

(٣) البخاري (٢٤١٣).

(٤) زيادة من (ح).

قطُّ، فقيل له: مَن قتلك؟ فقال: بنو أخي قتلوني. ثم قُبِضَ. فقال بنو أخيه حين قُبِضَ: والله ما قتلناه، فكَذَّبوا بالحق بعد إذا رأوا. فقال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني: بني أخي الشيخ ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسيةً بعيدةً عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قَسْوَتِها كالحجارة التي لا علاج لِلِينِهَا أو أشد قسوةً من الحجارة، فإنَّ مِن الحجارة ما تتفجَّر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يَشَّقَّق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جاريًا، ومِنها ما يَهْبِط مِن رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراكٌ لذلك بحسبه، كما قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد أنَّه كان يقول: كلُّ حجرٍ يَتَفَجَّر منه الماء، أو يَتَشَقَّق عن ماء، أو يَتَرَدَّىٰ من رأس جبل لَمِن خشية الله، نزل بذلك القرآن.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: وإنَّ مِن الحجارة لألْيَن مِن قلوبكم عمَّا تدعون إليه من الحقِّ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

[وقال أبو علي الجبائي في «تفسيره»: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ هو سقوط البَرَد مِن السَّحاب. قال القاضي الباقلاني: وهذا تأويلٌ بعيدٌ وتَبِعَه في استبعاده فخر الدِّين الرَّازي وهو كما قالا؛ فإنَّ هذا خروج عَن ظاهر اللَّفظ بلا دليل، والله أعلم][(١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا الحكم[(٢)] بن هشام الثقفي، حدَّثني يحيىٰ بن أبي طالب -يعني يحيىٰ بن يعقوب- في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قال: هو كثرة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ قال: قليل البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ قال: بكاء القلب، مِن غير دموع العين.

[﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ أي: كالعيون السَّارحة هذه تخرج الأحجار عيانًا ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ كحَجَرِ موسىٰ الذي كان ضمَّه نبع منه اثنتا عشرة بإذن الله في ذلك ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن رَوْنَقِ شواهق الجبال وهذا كقوله: «أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[(٣)].

قد زعم بعضُهم أنَّ هذا مِن باب المجاز، وهذا إسناد الخشوع إلىٰ الحجارة، كما أُسْنِدت الإدارة إلىٰ الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قال [فخر الدين][(٤)] الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمَّة: ولا

---

(١) زيادة من (ح). (٢) لوحة (٩٣ أ).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٦٧)، ومسلم (١٣٩٣).

(٤) ليست في (ز).

حاجة إلىٰ هذا، فإنَّ الله تعالىٰ يَخْلُق فيها هذه الصِّفة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ الآية، وقال: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ الآية: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الآية، وفي «الصحيح»: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»، وكحنين الجزع المتواتر خبره، وفي «صحيح مسلم»: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الآنَ**»(١) وفي صفة الحجر الأسود أنَّه يشهد لمن استلمه بحقٍّ يوم القيامة، وغير ذلك مما في معناه.

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله الفيحي أو الفتحي قال: سمعت أحمد بن عاصم الأنطاكي يقول: تَكَلَّمْتُ بشيءٍ مِن الحكمة بين يَدَيْ هذا العمود الحجر، فقَطَر العمودُ ماءً ثم قال: وخَرَجْنَا [أيام البصري نريد دير مران](٢) ومعنا جماعة منهم رجل في كُمِّه محبرة فتكلَّم رجلٌ منَّا بشيءٍ من الحكمة فصاحت المحبرة صياحًا عاليًا وانفلقت](٣).

تنبيهٌ:

اختلف علماء العربيَّة في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع علىٰ استحالة كونها للشَّك، فقال بعضهم: «أو» هاهنا بمعنىٰ الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوةً كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، وكما قال النابغة الذبياني:

قَالَتْ أَلا لَيْتَمَا هَذَا الحَمَامُ لَنَا ... إِلَىٰ حَمَامَتِنَا أَوْ نِصْفُهُ فَقَدِ

تريد: ونصفه، قاله ابن جرير. وقال جرير بن عطية:

نَالَ الخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا ... كَمَا أَتَىٰ رَبَّهُ مُوسَىٰ عَلَىٰ قَدَرِ

قال ابن جرير: يعني نال الخلافة، وكانت له قدرًا.

[وحكىٰ القرطبي قولًا أنَّها للتَّخيير في مفهومها بهذا أو بهذا، مثل: جَالِس الحسن أو ابن سيرين، وكذا حكاه فخرُ الدِّين في «تفسيره» وزاد قولًا آخر وهو: أنَّها للإبهام وبالنِّسبة إلىٰ المخاطب؛ كقول القائل: أَكَلْتُ خبزًا أو تمرًا وهو يعلم أيُّهما أكل، وقولًا آخر وهو أنَّها بمعنىٰ قول القائل: أَكْلِي حُلوٌ أو حامضٌ؛ أي: لا يخرج عن واحدٍ منهما؛ أي: وقلوبكم صارت في قَسْوَتِها كالحجارة أو أشد قسوةً

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

(٢) في (ز): (مع يزيد بن مرزان)، والمثبت موافق لما في «تاريخ دمشق».

(٣) زيادة من (ح).

منها لا يخرج عن واحدٍ مِن هذين الشَّيئين والله أعلم][1].

وقال آخرون: «أو» هاهنا بمعنىٰ «بَل»، تقديره: فهي كالحجارة بل أشدُّ قسوةً، وكقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] وقال آخرون: معنىٰ ذلك ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم. حكاه ابن جرير.

وقال آخرون: المراد بذلك الإبهام علىٰ المخاطب، كما قال أبو الأسود:

أُحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا ... وَعَبَّاسًا وَحَمْزَةَ وَالوَصِيَّا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رَشَدًا أُصِبْهُ ... وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيَّا

قال ابن جرير: قالوا: ولا شكَّ أنَّ أبا الأسود لم يكن شاكًّا في أن حُبَّ مَن سَمَّىٰ رَشَدٌ، ولكنَّه أبهَم علىٰ مَن خاطبه، قال: وقد ذُكِر عن أبي الأسود أنَّه لما قال هذه الأبيات قيل له: شككت؟ فقال: كلَّا والله. ثم انتزع بقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فقال: أوَ كان شاكًّا مَن أخبر بهذا في الهادي منهم مِن الضَّلال؟

وقال بعضهم: معنىٰ ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المَثَلَيْن، إمَّا أن تكون مثل الحجارة في القَسْوَة وإمَّا أن تكون أشدَّ منها قسوةً.

قال ابن جرير: ومعنىٰ ذلك علىٰ هذا التأويل: فبعضُها كالحجارة قسوةً، وبعضُها أشدُّ قسوةً مِن الحجارة. وقد رجَّحه ابن جرير مع توجيه غيره.

قلت[2]: وهذا القول الأخير يبقىٰ شبيهًا بقوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] مع قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] مع قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ الآية [النور: ٤٠]، أي: إنَّ منهم مَن هو هكذا، ومنهم مَن هو هكذا، والله أعلم.

قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيه: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا محمَّد بن أيوب، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدَّثنا علي بن حفص، حدَّثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تُكْثِرُوا الكَلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةُ القَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسِي**»[3]. رواه الترمذي في كتاب الزهد من «جامعه»، عن محمَّد بن عبد الله بن أبي الثلج، صاحب الإمام أحمد، به. ومن وجهٍ آخر عن

---

(١) زيادة من (ح). (٢) لوحة (٩٣ ب).

(٣) ضعيف: رواه ابن عدي (٣/ ١٠٩٩)، وأبو نعيم في «أخبار أصفهان» (١/ ٢٤٦) وفي «الحلية» (٦/ ١٧٥). وفيه هانئ ابن المتوكل: ضعيف، وقال ابن حبان: كانت تدخل عليه المناكير فكثرت، وعبد الله بن سليمان: ضعيف. قلت: وعلته في الطرق الأخرىٰ، صالح المري. قال الحافظ: ضعيف «التقريب» ترجمة (٢٨٤٥)، عن يزيد الرقاشي: ضعيف.

إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب، به، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم.

[وروى البزار عن أنس مرفوعًا: «أَرْبَعٌ مِنَ الشَّقَاءِ: جُمُودُ العَيْنِ، وَقِسِيُّ القَلْبِ، وَطُولُ الأَمَلِ، وَالحِرْصُ عَلَىٰ الدُّنْيَا»(١)](٢).

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: ينقاد لكم بالطَّاعة، هؤلاء الفرقة الضَّالَّة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثمَّ قسَت قلوبهم مِن بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: يتأوَّلونه علىٰ غير تأويله ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهموه علىٰ الجليَّة ومع هذا يخالفونه علىٰ بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم مُخْطِئُون فيما ذهبوا إليه مِن تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس أنَّه قال: ثمَّ قال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ، ولمن معه مِن المؤمنين يُؤَيِّسُهم منهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ وليس قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ يسمعون التَّوراة. كلُّهم قد سَمِعَهَا، ولكنَّهم الذين سألوا موسىٰ رؤية(٣) ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها.

قال محمَّد بن إسحاق: فيما حدَّثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسىٰ: يا موسىٰ، قد حِيل بَيْنَنَا وبين رؤية الله تعالىٰ، فأسمعنا كلامه حين يُكَلِّمك. فطلب ذلك موسىٰ إلىٰ ربه تعالىٰ فقال: نعم، مُرْهم فليتطهروا، وليطَهِّروا ثيابهم ويصوموا ففعَلوا، ثمَّ خرج بهم حتىٰ أتَوُا الطُّور، فلمَّا غَشِيَهُمُ الغمام أمرهم موسىٰ أن يَسجُدوا، [فوقعوا سجودًا](٤) وكلَّمه ربُّه تعالىٰ، فلمَّا سَمِعُوا كلامه يأمرهم وينهاهم، حتىٰ عقلوا عنه ما سَمِعُوا، ثمَّ انصرف بهم إلىٰ بني إسرائيل، فلمَّا جاءوهم حَرَّف فريقٌ منهم ما أمرهم به، [وقالوا حين قال موسىٰ لبني إسرائيل: إنَّ الله قد أمركم بكذا وكذا. قال ذلك الفريق الَّذين ذكرهم الله: إنَّما قال كذا وكذا خلافًا لما قال الله ﷻ لهم،](٥) فهم الَّذين عنىٰ الله لرسوله ﷺ.

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٢٤١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٥١)، وإسناده ضعيف من أجل إبراهيم ابن عبد الله بن حاطب، قال ابن القطان: لا يعرف حاله، قلت: وضعَّف الحديث الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٩٢٠).

(٢) زيادة من (ح). (٣) لوحة (٩٤ أ).

(٤) زيادة من (ح). (٥) زيادة من (ح).

وقال السُّدِّي: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ قال: هي التوراة حرَّفُوها.

وهذا الذي ذكره السُّدِّي أعمُّ مما ذكره ابن عبَّاس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السِّياق. فإنَّه ليس يلزم مِن سماع كلام اللهِ أن يكون منه كما سمعه الكَليم موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ [(١)]، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، أي: مبلَّغًا إليه؛ ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثمَّ يُحرِّفونه مِن بعد ما عقلوه ووعوه.

وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم.

وقال أبو العالية: عمدوا إلىٰ ما أنزل الله في نصِّ كتابهم، مِن نعتِ مُحمَّدٍ ﷺ، فحرَّفوه عن مواضعه.

وقال السُّدِّي: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: أنَّهم أَذْنبوا. وقال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ قال: التَّوراة التي أنزلها الله عليهم يُحرِّفونها يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا والحقُّ فيها باطلًا والباطلُ فيها حقًّا؛ إذا جاءهم المُحِقُّ برشوةٍ أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المُبطِلُ برشوةٍ أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه مُحقٌّ، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حقٌّ، ولا رشوةٌ، ولا شيءٌ، أمروه بالحقِّ، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾الآية.

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾أي: بصاحبكم رسول الله ﷺ، ولكنَّه إليكم خاصَّة [(٢)]. ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟﴾ لا تحدِّثوا العرب بهذا، فإنَّكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾أي: تُقِرُّون بأنَّه نبي، وقد علمتم أنَّه قد أخذ له الميثاق عليكم باتِّباعه، وهو يُخبرُهم أنَّه النَّبيُّ الذي كنا ننتظر، ونجد في كتابنا. اجحدوه ولا تُقِرُّوا به.

يقول الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

---

(١) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:ذكر المفسرون فيه قولين: القول الأول: أن المراد بذلك: التوراة . يسمعونها ثم يحرفونها .
والقول الثاني: أن المراد بذلك: الذين أسمعهم الله كلامه سبحانه وتعالىٰ لموسىٰ عليه السلام؛ وهم الذين اختارهم موسىٰ . وهم سبعون رجلًا فأسمعهم الله تعالىٰ كلامه لموسىٰ... وقد بحثت في كتب التفسير التي لدي فلم أجد احتمالًا ثالثًا. وهو أن المراد بـ (كلام الله): القرآن، وأنهم يسمعونه، ثم يحرفونه؛ لأن القرآن كلام الله؛ وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي: حتىٰ يسمع القرآن؛ فإن كان هذا الاحتمال صحيحًا فهو أقرب من القولين السابقين. والله أعلم بمراده.

(٢)لوحة (٩٤ ب).

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: يعني المنافقين من اليهود كانوا إذا لَقُوا أصحاب محمَّد ﷺ قالوا: آمَنَّا.

وقال السُّدِّي: هؤلاء ناس مِن اليهود آمنوا ثم نافقوا. وكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة وغير واحدٍ من السَّلف والخلف، حتىٰ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فيما رواه ابن وهب عنه: كان رسول الله ﷺ قد قال: «لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْنَا قَصَبَةَ المَدِينَةِ إِلَّا مُؤْمِنٌ» (١). فقال رؤساؤهم مِن أهل الكفر والنِّفاق: اذهبوا فقولوا: آمَنَّا، واكفروا إذا رَجَعْتُم إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبُكَر (٢)، ويرجعون إليهم بعد العَصْر. وقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢] وكانوا يقولون، إذا دخلوا المدينة: نحن مُسْلِمُون. ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمْرَه. فإذا رجعوا رجعوا إلىٰ الكفر. فلمَّا أخبر الله نَبِيَّه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون يَظُنُّون أنَّهم مؤمنون فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلىٰ. فإذا رجعوا إلىٰ قومهم [يعني الرؤساء] (٣) قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

وقال أبو العالية: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما أنزل الله عليكم في كتابكم مِن نعتِ محمَّد ﷺ.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ قال: كانوا يقولون: سيكون نبي. فخلا بعضهم إلىٰ بعض فقالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

قول آخر في المراد بالفتح: قال ابن جُرَيج: حدَّثني القاسم بن أبي بَزَّة، عن مجاهد، في قوله تعالىٰ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: قام النَّبيّ ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «يَا إِخْوَانَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، وَيَا عَبْدَةَ الطَّاغُوتِ»، فقالوا: مَن أخبر بهذا الأمر محمَّدًا؟ (٤) ما خرج هذا القول إلا مِنكُم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله للفتح؛ ليكون لهم حجةٌ عليكم. قال ابن جريج، عن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم عليًّا فآذوا محمَّدًا ﷺ (٥).

وقال السُّدِّي: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، وكانوا يُحدِّثون المؤمنين من العرب بما عُذِّبوا به. فقال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب؛ ليقولوا: نحن أحب إلىٰ الله منكم، وأكرم علىٰ الله منكم.

وقال عطاء الخراساني: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما قضىٰ الله لكم وعليكم.

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٢٦٧)، ونسبه إلىٰ أبي حيان بلا إسناد، وهو عند الطبري (٢/ ٢٥٣ برقم ١٣٤٩) من طريق ابن وهب، قال ابن زيد... فذكره مرسلًا، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: ضعيف.

(٢) البُكَر: جمع بكرة، وهي أول النهار. (٣) زيادة من (ح). (٤) لوحة (٩٥ أ).

(٥) ضعيف: وعلته الإرسال، عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٩٩) إلىٰ عبد بن حميد، وابن جرير (١/ ٣٧٠-٣٧١)، وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود، كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنَّا، وإذا خلا بعضهم إلىٰ بعض، قال بعضهم: لا تُحدِّثوا أصحاب محمَّد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم، فيُحَاجُّوكم به عند ربكم، فيَخْصِمُوكُم.

وقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قال أبو العالية: يعني: ما أَسَرُّوا مِن كفرهم بمحمَّدٍ ﷺ وتكذيبهم به، وهم يَجِدُونه مكتوبًا عندهم. وكذا قال قتادة.

وقال الحسن: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ قال: كان ما أَسَرُّوا أنَّهم كانوا إذا تَوَلَّوْا عن أصحاب محمَّد ﷺ وخلا بعضهم إلىٰ بعض، تَنَاهَوْا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمَّد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم، خشيةَ أن يُحاجُّهم أصحاب محمَّد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: حين قالوا لأصحاب محمَّد ﷺ: آمنَّا. وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقتادة.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي: ومِن أهل الكتاب، قاله مجاهد: والأُمِّيون جمع أُمِّي، وهو: الرجل الذي لا يُحسن الكتابة، قاله أبو العالية، والربيع، وقتادة، وإبراهيم النَّخَعي، وغير واحدٍ وهو ظاهر في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: لا يَدْرُون ما فيه. ولهذا في صفات النَّبيِّ ﷺ أنه أُمِّي؛ لأنَّه لم يكن يُحْسِن الكتابة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ (١) بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ وَلا نَحْسِبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**... الحديث» (٢). أي: لا نَفْتَقِرُ في عباداتنا ومواقيتها إلىٰ كتابٍ ولا حسابٍ، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال ابن جرير: نَسَبَت العربُ مَن لا يكتُب ولا يَخُطُّ من الرِّجال إلىٰ أُمِّه في جهله بالكِتَاب دون أبيه، قال: وقد رُوِي عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قول خلاف هذا، وهو ما حدَّثنا به أبو كُرَيب: حدَّثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عُمارة، عن أبي رَوْق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ قال: الأُمِّيُّون قوم لم يصدِّقوا رسولًا أرسله الله، ولا كتابًا أنزله الله، فكَتَبُوا كتابًا بأيديهم، ثم قالوا لقوم سَفلةٍ جُهَّالٍ: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سمَّاهم أُمِّيين؛ لجحودهم كتب الله

---

(١) لوحة (٩٥ ب).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٣٧٤)، و بشر بن عمارة: ضعيف كما تقدم، والضَّحَّاك لم يسمع ابن عبَّاس، فالإسناد منقطع.

ورسله[١] . ثم قال ابن جرير: وهذا التأويل تأويل علىٰ خلاف ما يُعرف مِن كلام العرب المستفيض بينهم. وذلك أنَّ الأمي عند العرب: الذي لا يَكْتُب.

قلت: ثمَّ في صحَّة هذا عن ابن عبَّاس بهذا الإسناد نظر. والله أعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ إلا أحاديث.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ يقول: إلا قولًا يقولونه بأفواههم كذبًا. وقال مجاهد: إلا كذبًا. وقال سنيد، عن حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال: أُناس مِن يهود لَم يكونوا يعلمون مِن الكتاب شيئًا، وكانوا يتكلَّمون بالظَّنِّ بغير ما في كتاب الله، ويقولون: هو مِن الكتاب، أمانيَّ يتَمنَّونها. وعن الحسن البصري نحوه.

وقال أبو العالية، والربيع وقتادة: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ يتمنَّون علىٰ الله ما ليس لهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال: تَمَنَّوا فقالوا: نَحن مِن أهل الكتاب وليسوا منهم.

قال ابن جرير: والأشبه بالصَّواب قول الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس، وقول مجاهد: إنَّ الأُمِّيين الذين وصفهم الله أنَّهم لا يَفْقَهُون من الكتاب -الذي أَنزل الله علىٰ موسىٰ- شيئًا، ولكنهم يَتخَرَّصُون الكذب ويَتخَرَّصون الأباطيل كذبًا وزورًا. والتَّمني في هذا الموضع هو تَخلقُ الكَذِب وتَخرُّصه. ومنه الخبر المروي عن عثمان[٢] بن عفان ﷺ: «مَا تَغَنَّيْتُ وَلَا تَمَنَّيْتُ». يعني: ما تَخَرَّصْت الباطل ولا اختلقت الكذب.

[وقيل: المراد بقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ بالتَّشديد والتَّخفيف أيضًا؛ أي: إلا تلاوةً فعلىٰ هذا يكون استثناءً مُنْقطِعًا، واستشهدوا علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية.

وقال كعب بن مالك الشاعر:

تَمَنَّىٰ كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لَاقَىٰ حِمَامَ المَقَادِرِ

وقال آخر:

تَمَنَّىٰ كِتَابَ اللهِ آخِرَ لَيْلِهِ ... تَمَنِّي دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَىٰ رُسْلِ][٣]

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس ﷺ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون نُبُوَّتَك بالظَّن.

وقال مجاهد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يُكذِّبون.

---

(١) البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠)، وأبو داود (٢٢١٩)، وابن ماجة (١٦٥٤)، والنسائي (٤/ ١٣٤).

(٢) لوحة (٩٦ أ). (٣) زيادة من (ح).

وقال قتادة: وأبو العالية، والربيع: يظنون الظنون بغير الحقِّ.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية: هؤلاء صِنف آخر من اليهود، وهم الدُّعاة إلىٰ الضلال بالزُّور والكذب علىٰ الله، وأكل أموال الناس بالباطل.

والويلُ: الهلاك والدَّمار، وهي كلمةٌ مشهورةٌ في اللُّغة. وقال سفيان الثوري، عن زياد بن فياض: سمعت أبا عياض يقول: ويلٌ: صَدِيدٌ في أصل جهنم.

وقال عطاء بن يسار. الويل: وادٍ في جهنَّم لو سُيِّرت فيه الجبال لمَاعَتْ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «**وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، يَهْوِي فِيهِ الكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ**»(١).

ورواه التِّرمذي عن عبد بن حُمَيد، عن الحسن بن موسىٰ، عن ابن لَهِيعَة، عن دراج به. وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا مِن حديث ابن لهيعة.

قلت: لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترىٰ، ولكن الآفة ممَّن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد – مرفوعًا – منكر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا المثنىٰ، حدَّثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح العشيري، حدَّثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ قال: «**الوَيْلُ جَبَلٌ فِي النَّارِ. وَهُوَ الَّذِي أُنْزِلَ فِي اليَهُودِ؛ لِأَنَّهُمْ حَرَّفُوا التَّوْرَاةَ، زَادُوا فِيهَا مَا أَحَبُّوا، وَمَحَوْا مِنْهَا مَا يَكْرَهُونَ، وَمَحَوْا اسْمَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ التَّوْرَاةِ. وَلِذَلِكَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَرَفَعَ بَعْضَ التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾**(٢)».

وهذا غريبٌ أيضًا جدًّا.

[وعن ابن عبَّاس: الويل: السَّعير مِن العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل: شِدَّة الشَّرِّ، وقال سيبويه: ويلٌ: لِمَن وَقَع في الهلكة، ووَيْحٌ: لِمَن أَشْرَف عليها، وقال الأصمعي: الوَيلُ: تَفَجُّع، والويل: تَرَحُّم، وقال غيره: الوَيل: الحُزْن. وقال الخليل: وفي معنىٰ ويل: وَيْح وَوَيْش ووَيْه ووَيْك ووَيْب، ومنهم مَن فرَّق بينها، وقال بعض النُّحاة: إنَّما جاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأنَّ فيها معنىٰ الدُّعاء،

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ١٥٣/ ٧٩٨)، والطبري (١/ ٣٧٨)، والترمذي (٣١٦٤)، والحاكم (٤/ ٥٩٦) وغيرهم. وعلته: دراج، قال الحافظ: صدوق، وفي رواية عن أبي الهيثم: ضعيف؛ ولذا قال ابن كثير بعد إيراده الحديث: وهذا الحديث بهذا الإسناد –مرفوعًا– منكر.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٣٧٩)، وقال ابن كثير: وهذا غريب أيضًا جدًّا.

ومنهم مَن جوَّز نصبها، بمعنىٰ: ألزمهم ويلًا. قلتُ: لكن لم يَقْرأ بذلك أحد](١).

وعن(٢) عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال: هم أحبار اليهودِ. وكذا قال سعيد، عن قتادة: هم اليهود.

وقال سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن علقمة: سألت ابن عبَّاس رضي الله عنه عن قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال: نزلت في المشركين وأهل الكتاب.

وقال السُّدِّي: كان ناسٌ مِن اليهود كتبوا كتابًا من عندهم، يَبِيعُونه مِن العرب، ويُحَدِّثونهم أنه مِن عند الله؛ ليأخذوا به ثمنًا قليلًا.

وقال الزُّهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاس أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهلَ الكتابِ عَن شيءٍ، وكتابكم الذي أَنْزَل الله علىٰ نَبِيِّه، أحدث أخبار الله تقرؤونه [غَضًا](٣) لَم يَشِب؟ وقد حَدَّثكم الله تعالىٰ: أنَّ أهل الكتاب قد بَدَّلوا كتاب الله وغَيَّروه، وكتبوا بأيديهم الكتابَ، وقالوا: هَو مِن عند الله لِيَشْتَرُوا به ثمنًا قليلًا؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عَن مُسَاءَلَتِهم؟ ولا والله ما رَأَيْنا منهم أحدًا قط سألكم عَن الذي أنزل إليكم. رواه البخاري من طرق عن الزُّهري(٤).

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثَّمن القليلُ: الدُّنْيَا بحذافيرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فويلٌ لهم ممَّا كتبوا بأيديهم مِن الكذب والبُهتان، والافتراء، وويلٌ لهم ممَّا أكلوا به مِن السُّحت، كما قال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ يقول: فالعذاب عليهم، مِن الَّذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما يأكلون به النَّاس السَّفلة وغيرهم.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، مِن أنَّهم لن تمسَّهُم النَّار إلا أيامًا معدودة، ثمَّ يَنْجُوْن منها، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلِف عهده.

ولكن هذا ما جرىٰ ولا كان. ولهذا أتىٰ بـ«أم» التي بمعنىٰ: بل؛ أي: بل تقولون علىٰ الله ما لا تعلمون مِن الكذب والافتراء عليه.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن سيف بن سليمان عن مجاهد، عن ابن عبَّاس: أنَّ اليهود كانوا يقولون:

---

(١)زيادة من (ح). (٢)لوحة (٩٦ ب).

(٣)المثبت موافق لما عند «ابن أبي حاتم»، وعند البخاري (٧٣٦٣، ٧٥٢٢، ٧٥٢٣): (محضًا)، وقد أثبتت فوق بخط دقيق في (ز).

(٤)البخاري (٢٦٨٥، ٧٣٦٣، ٧٥٢٣).

هذه الدُّنيا سبعة آلاف سَنَة، وإنما نُعَذَّب بكلِّ ألفِ سنةٍ يومًا في النَّار [(١)]، وإنَّما هي سبعة أيام معدودةٍ. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ إلىٰ قوله: ﴿خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢] [(٢)].

ثم رواه عن محمَّد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عبَّاس بنحوه.

وقال العَوْفي عن ابن عبَّاس: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ اليهود قالوا: لن تَمَسَّنا النَّار إلا أربعين ليلة، [زاد غيره: هي مدة عبادتهم العجل [(٣)].

وحكاه القرطبي عن ابن عبَّاس وقتادة] [(٤)].

وقال الضَّحَّاك: قال ابن عبَّاس [(٥)]: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوبًا: أنَّ ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلىٰ أن ينتهوا إلىٰ شجرة الزَّقوم، التي هي نابتةٌ في أصل الجحيم. وقال أعداء الله: إنَّما نُعذَّب حتىٰ ننتهي إلىٰ شجرة الزَّقوم فتَذْهَب جهنم وتهلك. فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ يعني: الأيام التي عبدنا فيها العجل.

وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: لن ندخل النَّار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا إليها قوم آخرون، يعنون محمَّدًا ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ بيده [(٦)] علىٰ رءوسهم: «بَلْ أَنْتُمْ خَالِدُونَ مُخَلَّدُونَ لا يَخْلُفُكُمْ إِلَيْهَا أَحَدٌ». فأنزل الله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ الآية [(٧)].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيْه: حدَّثنا عبد الرحمن بن جعفر، حدَّثنا محمَّد بن محمَّد بن صخر، حدَّثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدَّثنا ليث بن سعد، حدَّثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة ﵁، قال: لما فُتِحَت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سُم، فقال رسول الله ﷺ: «اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ مِنَ اليَهُودِ هَاهُنَا» فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟» قالوا: فلان. قال: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ». فقالوا: صدقت وبرِرْت، ثم قال لهم: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟». قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أَبِينا. فقال لهم

---

(١) لوحة (٩٧ أ).

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٨١٨)، ومحمَّد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، وهذا الخبر مما لا يقال بالرأي، ويشترط في قبوله إذا صح الإسناد أن يكون الصحابي لم يأخذ من كتب بني إسرائيل، وهذا لا يتوفر معنا في هذا الحديث.

(٣) ضعيف جدًّا: رواه الطبري، وإسناده مسلسل بالضعفاء.

(٤) زيادة من (ح).

(٥) إسناده ضعيف، فالضَّحَّاك لم يلقَ ابن عبَّاس.

(٦) أي: أشار بيده.

(٧) مرسل: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٠٧) إلىٰ عبد بن حميد وابن جرير (١/ ٣٨٢) وابن المنذر، وابن أبي حاتم (١/ ١٥٦/ ٨١٥).

رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخْسَأُوا، وَاللهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟». قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»[1]. فقالوا: نعم. قال: «فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ؟». فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك[2].

ورواه أحمد، والبخاري، والنَّسائي من حديث الليث بن سعد بنحوه.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالىٰ: ليس الأمر كما تَمَنَّيْتُم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنَّه مَن عَمِلَ سيئةً وأحاطت به خطيئته، وهو مَن وَافَىٰ يوم القيامة وليس له حسنةٌ، بل جميع عمله سيئات، فهذا مِن أهل النَّار، والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات - من العمل الموافق للشريعة- فهم مِن أهل الجنة. وهذا المقام شبيه بقوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن سعيد -أو عكرمة- عن ابن عبَّاس ﵄: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: عَمِلَ مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتىٰ يُحِيطَ به كُفْرُه فما له من حسنة.

وفي رواية عن ابن عبَّاس، قال: الشِّرك.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس نحوه.

وقال الحسن أيضًا والسُّدِّي: السَّيِّئة: الكبيرةُ من الكبائر.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: بِقَلْبِه.

وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قالوا: أحاط به شِرْكُه[3].

وقال الأعمش، عن أبي رزين، عن الربيع بن خُثَيم: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: الذي يموت

(١) اللوحة (٩٧ ب).

(٢) البخاري (٣١٦٩)، وأحمد (٢/ ٤٥١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٥٥).

(٣) قال السعدي ﵀: احتج بها الخوارج علىٰ كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترىٰ، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح علىٰ قوله الباطل، فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

علىٰ خطاياه مِن قبل أن يتوب. وعن السُّدِّي، وأبي رزين، نحوه.

وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، في رواية عنهم، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ الكَبِيرةُ المُوجِبةُ.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنىٰ، والله أعلم. ونذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدَّثنا سليمان بن داود، حدَّثنا عمران، عن [(١)] قتادة عن عبد ربه، عن أبي عياض، عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَىٰ الرَّجُلِ حَتَّىٰ يُهْلِكْنَهُ». وإنَّ رسول الله ﷺ [(٢)] ضرب لهُنَّ مثلًا كمثل قوم نَزَلُوا بأرضِ فلاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيع القوم، فجعل الرَّجل ينطلق فَيَجِيءُ بالعُود، والرجل يجيءُ بالعُود، حتىٰ جمعوا سوادًا، وأَجَّجُوا نارًا، فأَنْضَجُوا ما قَذَفُوا فيها [(٣)].

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد، عن سعيد -أو عكرمة- عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: مَن آمَن بما كَفَرْتُم به، وعَمِلَ بمَا تركتم مِن دينه، فلهم الجنَّة خالدين فيها. يخبرهم أنَّ الثَّواب بالخير والشَّرِّ مُقِيمٌ علىٰ أهله، لا انقطاع له أبدًا.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾

يُذَكِّر تبارك وتعالىٰ بني إسرائيل بما أَمَرَهُم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم علىٰ ذلك، وأنَّهم تولَّوْا عن ذلك كلِّه، وأعرضوا قصدًا وعمدًا، وهم يعرفونه ويَذْكُرُونَه، فأمرهم أن يعبدوه ولا يُشْرِكُوا به شيئًا. وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خَلَقَهُم، كما قال تعالىٰ: [﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]] [(٤)] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وهذا هو أعلىٰ الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالىٰ، أن يُعْبَد وحده لا شريك له، ثمَّ بعده حقُّ المخلوقين، وآكدُهُم وأَوْلَاهُم بذلك حقُّ الوالدين، ولهذا يَقْرِن الله تعالىٰ كثيرًا بين حقِّه وحقِّ الوَالِدَيْن، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] وقال

(١) في المطبوع: (عمرو بن قتادة)، وما أثبتناه من «المسند» (١/ ٤٠٢) وهو الصواب، وعمران هو: عمران بن دَوار القطان.

(٢) لوحة (٩٨ أ).

(٣) صحيح من حديث سهل بن سعد: أما حديث ابن مسعود فرواه أحمد (١/ ٤٠٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٥) وفي إسناده عبد ربه مجهول، وأما حديث سهل بن سعد فرواه أحمد (٥/ ٣٣١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٦٧) والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٦٥/ ٥٨٧٢) وإسناده صحيح وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٩).

(٤) زيادة من (ح).

تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية إلىٰ أن قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٦].

وفي «الصَّحيحين»، عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أيُّ العمل أفضل؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «بِرُّ الوَالِدَيْنِ». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١). ولهذا جاء في الحديث الصَّحيح: أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله، مَن أَبرُّ؟ قال: «أُمَّكَ». قال: ثمَّ مَن؟ قال: «أُمَّكَ». قال: ثم مَن؟ قال: «أَبَاكَ. ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»(٢).

[وقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الزمخشري: خبر بمعنىٰ الطلب، وهو آكد. وقيل: كان أصله: ألَّا تعبدوا كما قرأها بعض السَّلف فحُذِفت «أنْ» فارتفعَ، وحُكي عن أُبي وابن مسعود ﷺ أنَّهما قرآها: «لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ»(٣). وقيل: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ مرفوع علىٰ أنَّه قسمٌ؛ أي: والله لا تعبدون إلا الله، ونَقَل هذا التوجيه القرطبي في «تفسيره» عن سيبويه. وقال: اختاره المُبرِّد والكسائي والفرَّاء](٤).

قال: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم مِن الآباء. [وقال أهل اللُّغة: اليتيم في بني آدم من الآباء، وفي البهائم مِن الأُمِّ، وحكىٰ الماوَردي أنَّ اليَتِيمَ أُطلِق في بني آدم مِن الأُمِّ أيضًا](٥) ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الذين لا يجدون ما يُنْفِقُون علىٰ أنفسهم وأَهْلِيهم، وسيأتي الكلامُ علىٰ هذه الأصناف عند آية النِّساء، التي أَمَرَنا الله تعالىٰ بها صريحًا في قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [النساء: ٣٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ(٦) حُسْنًا﴾(٧) أي: كَلِّمُوهُم طيبًا، ولِينُوا لهم جانبًا، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فالحُسْن من القول: يأمُر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، ويحلُم، ويعفو، ويصفح، ويقول للنَّاس حُسْنًا كما قال الله، وهو كل خُلُق حَسَنٍ رَضِيَه الله.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا رَوْح، حدَّثنا أبو عامر الخزَّاز، عن أبي عمران الجَوْني، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذرٍّ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَالْقَ أَخَاكَ بِوَجْهٍ مُنْطَلِقٍ»(٨).

---

(١) البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥)، والترمذي (١٧٣)، والنسائي (١/ ٢٩٢).
(٢) حسن: أبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧)، وأحمد (٥/ ٣).
(٣) قراءة: قَرَأَ (تَعْبُدُوا) أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَفِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ قَرَأَ (يَعْبُدُونَ) ابْنُ كَثِيرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (تَعْبُدُونَ).
(٤) زيادة من (ح). (٥) زيادة من (ح). (٦) لوحة (٩٨ ب).
(٧) متواترة: قَرَأَ (حَسَنًا) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (حُسْنًا).
(٨) مسلم (٢٦٢٦)، والترمذي (١٨٣٣)، وابن ماجة (٣٣٦٢)، وأحمد (٥/ ١٧٣)، وله شاهد من حديث أبي جري

وأخرجه مسلم في «صحيحه»، والتِّرمذي، وصحَّحه مِن حديث أبي عامر الخزَّاز، واسمه صالح ابن رستم به.

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للنَّاس حُسْنًا، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعليِّ والقوليِّ. ثم أكَّد الأمر بعبادته والإحسان إلىٰ النَّاس بالمُعيَّن مِن ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وأخبر أنَّهم تولَّوا عن ذلك كلِّه؛ أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه علىٰ عَمْدٍ بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر الله تعالىٰ هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النِّساء، بقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] فقامت هذه الأمة مِن ذلك بما لم تَقُمْ بِهِ أُمَّةٌ مِن الأُمَمِ قبلها، ولله الحمد والمنة.

ومِن النُّقول الغريبة هاهنا ما ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره»:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن خلف العسقلاني، حدَّثنا عبد الله بن يوسف -يعني التِّنِّيسي- حدَّثنا خالد بن صَبِيح، عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وَدَاعة: أنَّه كان يخرج مِن منزله فلا يَلْقَىٰ يَهُوديًّا ولا نَصْرانيًّا إلا سلَّم عليه، فقيل له: ما شأنك؟ تُسلِّم علىٰ اليَهُودِيِّ والنَّصْرانِي. فقال: إن الله يقول: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾ وهو: السَّلام [(١)]. قال: وروي عن عطاء الخراساني، نحوه.

قلت: وقد ثبت في السُّنَّة [أنهم] لا يُبدؤون بالسَّلام، والله أعلم [(٢)].

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقًا [(٣)] مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

= الهجيمي، رواه أبو داود (٤٠٨٤)، وابن حبان (٥٢١).

(١) رواه ابن أبي حاتم (٨٥٢).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (٢١٦٧)، وأبو داود (٥٢٠٥)، والترمذي (٢٧٠١).

(٣) لوحة (٩٩ أ).

يقول تبارك وتعالىٰ، منكرًا علىٰ اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يُعانُونه من القتال مع الأَوْس والخَزْرَج، وذلك أنَّ الأوس والخَزْرَج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروبٌ كثيرةٌ، وكانت يهود المدينة ثلاثَ قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير -حلفاء الخزرج-، وبنو قُرَيْظَة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نَشَبَت بينهم قاتَل كلُّ فريقٍ مع حلفائه، فيقتلُ اليهوديُّ أعداءه، وقد يقتلُ اليهوديُّ الآخرُ مِن الفريق الآخر، وذلك حرامٌ عليهِم في دِينِهِ ونصِّ كتَابِهِ، ويُخرِجُونهم مِن بيوتهم ويَنْهَبُون ما فيها مِن الأثاث والأَمْتِعَة والأموال، ثم إذا وَضَعَتِ الحرب أوزارها اسْتَفَكُّوا الأسارىٰ مِن الفريق المغلوب، عملًا بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يخرجه مِن منزله، ولا يظاهر عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلةِ النَّفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الجَسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ**»[(١)].

[﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ تقديره: ثم أنتم يا هؤلاء، منع كثيرونَ مِن النُّحاة حذف حرف النِّداء مع اسم الإشارة، وسوغه بعضهم وهو ظاهر السياق، وقيل: هؤلاء؛ بمعنىٰ: الذين؛ معناه: ثم أَنتُم الذين تقتلون أنفسَكُم إلىٰ آخره، وقيل معناه: ثمَّ أَنتُم اليوم هؤلاء، مبتدأ وخبر؛ أي: ثمَّ صِرتُم بهذه العهود والمواثيق علىٰ ما أنتم عليه مِن الصِّفَة. قال الزَّمخشري: نَزَّل تَغيُّر الصِّفة مَنْزِلَة تَغيُّر الذات، كما يُقال: دخل بغيرِ الوجه الَّذي خرج به][(٢)].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: ثمَّ أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحَّتِه وأنتم تشهدون به.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ وقال محمَّد بن إسحاق بن يسار: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن سعيد بن جبير - أو عكرمة- عن ابن عبَّاس: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، قال: أنبأهم الله بذلك مِن فعلهم، وقد حرَّم عليهم في التوراة سَفْكَ دمائهم وافترض عليهم فيها فدَاءَ أسراهم، فكانوا فريقين: طائفةٌ مِنهُم بنو قينقاع وإنَّهم حلفاء الخزرج، والنَّضير وقريظة وإنَّهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت[(٣)] النضير وقريظة مع الأوس، يُظَاهِر كلُّ واحد مِن الفريقين حلفاءه

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.
(٢) زيادة من (ح).
(٣) لوحة (٩٩ ب).

علىٰ إخوانِهِ، حتىٰ يتسافكوا دماءَهُم بينهم، وبأيديهم التَّوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم. والأوس والخزرج أهل شِرْكٍ يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنَّةً ولا نارًا، ولا بعثًا ولا قيامةً، ولا كتابًا، ولا حلالًا ولا حرامًا، فإذا وضعت الحرب أوزارَها افتدوا أَسْرَاهم، تصديقًا لما في التَّوراة، وأخذًا به؛ بعضهم مِن بعضٍ، يفتدي بنو قَيْنُقَاع ما كان مِن أَسْرَاهُم في أيدي الأوس، ويَفْتَدِي النَّضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويُطِلُّون[١] ما أصابوا مِن دمائهم وقَتْلَىٰ مَنْ قُتِلُوا منهم فيما بينهم، مظاهرةً لأهل الشِّرك عليهم. يقول الله تعالىٰ ذِكْرُه حيث أنَّبهم بذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أي: يفاديه بحكم التوراة ويقتله، وفي حكم التَّوراة ألَّا يفعل، ويخرجه مِن داره ويُظَاهِر عليه مَن يُشْرك بالله، ويَعْبُد الأوثان مِن دونه، ابتغاء عَرَض الدُّنيا. ففي ذلك مِن فعلهم مع الأوس والخزرج -فيما بلغني- نزلت هذه القصة[٢].

وقال أسباط عن السُّدِّي: كانت بنو قريظة حلفاء الأوس، وكانت النَّضير حلفاء الخزرج، فكانوا يَقْتَتِلُون في حرب سُمَير، فيُقَاتِل بنو قريظة مع حُلَفَائِها النَّضير وحلفاءهم، وكانت النَّضير تقاتل قريظة وحلفاءها، ويَغْلِبُونهم، فيُخْرِبُون ديارهم، ويُخْرِجُونَهم منها، فإذا أُسِر رجلٌ مِن الفريقين كِلَيْهِما، جمعوا له حتىٰ يُفْدُوه فتُعَيِّرُهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تُقَاتِلُونهم وتُفْدُونَهم؟ قالوا: إنَّا أُمِرْنَا أَن نَفْدِيهم، وحرِّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تُقَاتِلُونهم؟ قالوا: إنَّا نستحيىٰ أن تُسْتَذَلَّ حلفاؤنا. فذلك حين عيَّرهم الله، فقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾[٣].

وقال شعبة، عن السُّدِّي: نزلت هذه الآية في قيس بن الخَطيم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

وقال أسباط، عن السُّدِّي، عن عبد خير، قال: غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بَلَنْجَر[٤] فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترىٰ عبد الله بن سلام يهوديَّةً بسبعمائة، فلما مرَّ برأس الجالوت نزل به، فقال له عبد الله: يا رَأْسَ الجالوت، هل لك[٥] في عجوزٍ هاهنا مِن أهل دِينِكَ، تشتريها مني؟ قال: نعم. قال: أخذتها بسبعمائة دِرْهَم. قال: فإني أُرْبِحُك سبعمائة أخرىٰ. قال: فإني قد حلفت ألَّا أنقصها مِن أربعة آلافٍ. قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله لَتَشْتَرِينَها منِّي، أو لَتَكْفُرَنَّ بدينك الذي أنت عليه. قال: ادْنُ مني، فدنا منه، فقرأ في أذنه التي في التوراة: إنَّك لا تجد مملوكًا مِن بني

---

(١) يطلون :يُهدرون.
(٢) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٣٩٧)، وفيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول.
(٣) مرسل: لأنها من رواية السُّدِّي لم يسندها إلىٰ الصحابة، وأسباط بن نصر: ضعيف.
(٤) بَلَنْجَر: مدينة في بلاد الروم شهد فتحها جماعة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وهي تقع علىٰ بحر الخزر في الطرف الأقصىٰ للقوقاز.
(٥) لوحة (١٠٠ أ).

إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم. قال: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله ألفين، وردَّ عليه ألفين[(١)].

وقال آدم بن أبي إياس في «تفسيره»: حدَّثنا أبو جعفر؛ يعني: الرَّازي، حدَّثنا الربيع بن أنس، أخبرنا أبو العالية: أنَّ عبد الله بن سلام مرَّ علىٰ رأس الجالوت بالكوفة، وهو يُفادِي مِن النِّساء من لم يقع عليها العرب، ولا يفادي مَن وقع عليها العرب، فقال له عبد الله بن سلام: أما إنَّه مكتوب عندك في كتابك أن تُفَادِيهن كلهن[(٢)].

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذمَّ اليهود في قِيامِهم بأمر التَّوراة التي يعتقدون صحَّتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصِّحَّة[(٣)]، فلهذا لا يُؤْتَمَنُون علىٰ ما فيها ولا علىٰ نقلها، ولا يصدَّقون فيما يكتمونه مِن صفةِ رسول الله ﷺ ونعتِهِ، ومبعثِهِ ومخرجِهِ، ومهَاجَرِه، وغير ذلك من شؤونه، التي قد أخبرت بها الأنبياء قبله. واليهود عليهم لعائن الله يَتَكَاتَمُونَهُ بينهم، ولهذا قال تعالىٰ ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاء علىٰ ما كتموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: استحبوها علىٰ الآخرة واختاروها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: لا يَفْتُرُ عنهم ساعةً واحدةً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: وليس لهم ناصر يُنقِذُهم مما هم فيه من العذاب الدائم السَّرْمَدِي، ولا يُجِيرُهم منه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى[(٤)] ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾[(٥)]﴾

(١) في الإسناد أسباط بن نصر وهو ضعيف.
(٢) رواه الطبري (١/ ٣٨٩) وفي إسناده أبو جعفر الرازي: ضعيف.
(٣) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: ومما يملأ النفس ألمًا وحزنًا أن صار أكثر الأمم التي تنتسب للإسلام إلىٰ هذا الوصف المكروه، ووقعوا في مثل هذا الذي ذم الله اليهود من أجله، وجعل جزاء من يفعله خزيًا في الحياة الدنيا وردًّا في الآخرة إلىٰ أشد العذاب. فترىٰ أكثر الأمم المنتسبة للإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعرفونه، ويزعمون القيام بأمره-ثم هم يخالفونه في التشريع في شئونهم المالية والجنائية والخلقية، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعه وتشريع رسول الله في سنته لا يوافق هذا العصر! ويجعلون من حقهم أن يشرعوا ما شاؤوا، وافق الكتاب والسنة أم خالفه! ويصطنعون قوانين أوربة الوثنية الملحدة، ويُشْرِبُونَهَا في قلوبهم. يزعمونها أهدىٰ وأنفع للناس مما أُنزِلَ إليهم من ربهم. ولا يتعظون بما أنذرهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم.
(٤) قال أبو بكر الجزائري: عيسىٰ مُعرَّب يسوع أو ي شوع؛ لأن عيسىٰ أخف منهما.
(٥) لوحة (١٠٠ ب).

ينعت تبارك وتعالىٰ بني إسرائيل بالعُتُوِّ والعناد والمخالفة، والاستكبار علىٰ الأنبياء، وأنَّهم إنَّما يَتَّبِعُون أهواءهم، فذكر تعالىٰ أنه آتىٰ موسىٰ الكتاب -وهو التوراة- فحَرَّفُوها وبدَّلُوها، وخالفوا أوامرها وأوَّلُوها. وأرسل الرسل والنَّبِيِّين مِن بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ قال السُّدِّي، عن أبي مالك: أَتْبَعْنَا. وقال غيره: أَرْدَفْنَا. والكلُّ قريب، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتىٰ ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسىٰ ابن مريم، فجاء بمخالفةِ التَّوراة في بَعْض الأحكام، ولهذا أعطاه اللهُ مِن البينات، وهي: المعجزات. قال ابن عبَّاس: مِن إحياء الموتىٰ، وخلقه مِن الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يدلُّهم به علىٰ صدقه فيما جاءهم به. فاشتدَّ تكذيب بني إسرائيل له وحَسَدُهم وعنادُهم لمخالفة التَّوراة في البعض، كما قال تعالىٰ إخبارًا عن عيسىٰ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء -عليهم السلام- أسوأ المعاملة، ففريقًا يُكذِّبونه. وفريقًا يُكذِّبونه ويَقْتُلُونه، وما ذاك إلا لأنَّهم كانوا يَأْتُونَهم بالأمور المخالفة لأهوائِهم وآرائِهم وبإلزامهم بأحكام التَّوراة التي قد تَصَرَّفوا في مخالفتها، فلهذا كان يشقُّ ذلك عليهم، فيُكَذِّبُونهم، ورُبَّما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

والدليل علىٰ أنَّ روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه علىٰ ذلك [ابن عبَّاس](١) ومحمَّد بن كعب القرظي، وإسماعيل بن أبي خالد، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، وقتادة مع قوله تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] ما قال البخاري: وقال ابن أبي الزناد(٢)، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ وضع لحسَّان بن ثابت منْبرًا في المسجد، فكان يُنَافِح عن رسول الله ﷺ، فقال: رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ كَمَا نَافَحَ عَنْ نَبِيِّكَ**». وهذا من البخاري تعليق(٣).

وقد رواه أبو داود في «سننه»، عن لُوَين، والترمذي، عن علي بن حجر، وإسماعيل بن موسىٰ الفزاري، ثلاثتهم عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة، عن

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) لوحة (١٠١ أ).
(٣) حسن: رواه أبو داود (٥٠١٥)، والترمذي (٢٨٤٩)، وفي إسناده عبد الرحمن بن أبي الزناد، قال الحافظ: صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد، والحديث حسنه الألباني، وقال الترمذي: حسن صحيح.
قلت: ويشهد له الروايات التي بعده.

عائشة به . وقال الترمذي: حسن صحيح، وهو حديث أبي الزناد (١).

وفي «الصحيحين» من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن عُمر مرَّ بحسَّان، وهو يُنْشِدُ الشِّعر في المسجد فلَحَظَ إليه، فقال: قد كُنتُ أُنشِد فيه، وفيه مَن هو خير مِنك. ثم التفت إلىٰ أبي هريرة، فقال: أُنشِدُكَ الله أَسَمِعْتَ رسول الله ﷺ يقول: «أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ»؟. فقال: اللَّهمَّ نعم (٢).

وفي بعض الرِّوايات: أنَّ رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهْجُهُمْ -أَوْ: هَاجِهِمْ- وَجِبْرِيلُ مَعَكَ».

[وفي شعر حسان قوله:

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ يُنَادِي ... وَرُوحُ القُدُسِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ] (٣)

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي، عن شهر بن حوشب الأشعري: أن نفرًا مِن اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن الرُّوح. فقال: «أُنْشِدُكُمْ بِاللهِ وَبِأَيَّامِهِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ جِبْرِيلُ؟ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِينِي؟» قالوا: نعم (٤).

[وفي «صحيح ابن حبان» أظنُّه عن ابن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَخَ فِي رُوعِي: إِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ» (٥).] (٦)

أقوالٌ أُخَر:

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا مِنْجاب بن الحارث، حدَّثنا بشر، عن أبي روق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال: هو الاسم [الأعظم] (٧) الذي كان عيسىٰ يُحْيِي به الموتىٰ (٨). وقال ابن جرير: حُدِّثْت عن المنجاب. فذكره. قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك. [ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير أيضًا قال: وهو الاسم الأعظم] (٩).

وقال ابن أبي نَجِيح: الرُّوح هو: حَفَظَةٌ علىٰ الملائكة.

---

(١) في (ز): (وهو حديث ابن أبي الزناد)، والمثبت موافق لما في «الترمذي».

(٢) البخاري (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥)، والنسائي (٢/ ٤٨)، وابن حبان (١٦٥٣)، (٧١٤٨).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) ضعيف وعلته الإرسال، رواه ابن جرير الطبري (١/ ٤٠٤).

(٥) صححه الألباني بشواهده في تخريج أحاديث «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» للقرضاوي، الفقرة رقم (١٥).

(٦) زيادة من (ح).

(٧) زيادة من (ح).

(٨) ضعيف رواه ابن أبي حاتم (٨٩٢)، والطبري (١/ ٤٠٤)، وفيه بشر بن عمارة: ضعيف، والضَّحَّاك لم يسمع من ابن عبَّاس، فالإسناد منقطع.

(٩) زيادة من (ح).

وقال أبو جعفر الرَّازِي، عن الرَّبيع بن أنس: القدُس هو الرَّبُّ تبارك وتعالىٰ. وهو قول كعب. وقال السُّدِّي: القُدُس: البركة. وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: القدس: الطُّهْر.

[وحكىٰ القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنَّهما قالا: القدس: هو الله تعالىٰ، ورُوحُه: جبريل، فعلىٰ هذا يكون القول الأول][1] .

وقال ابن جرير: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال: أيَّد الله عيسىٰ بالإنجيل روحًا كما جعل القرآن روحًا، كلاهما روح من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ[2] رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

ثم قال ابن جرير: وأَوْلَىٰ التَّأوِيلات في ذلك بالصَّواب قولُ مَن قال: الرُّوح في هذا الموضع جبريل؛ لأنَّ الله ﷻ أخبر أنَّه أيَّد عيسىٰ به، كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الآية [المائدة: ١١٠]. فذكر أنه أيَّده به، فلو كان الروح الذي أيَّده به هو الإنجيل لكان قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ تكريرُ قول لا مَعْنَىٰ له، والله أعزُّ أن يُخاطب عباده بما لا يُفيدُهم به.

قلتُ: ومِن الدَّليل علىٰ أنَّه جبريل ما تقدَّم في أوَّل السياق؛ ولله الحمد.

[وقال الزمخشري ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بالرُّوح المقدَّسة، كما يقول: حاتمُ الجُودِ، ورَجلُ صِدْقٍ، ووصفها بالقدس كما قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فوصفه بالاختصاص والتَّقْرِيب تكرِمَة، وقيل: لأنَّه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطَّوامِث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢] وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يُحْيِي الموتىٰ بذكره، وتضمَّن كلامه قولًا آخرَ وهو أنَّ المراد: روح عيسىٰ نفسه المقدَّسة المطهَّرة.

وقال الزَّمخشري في قوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ إنَّما لم يقل: وفريقًا قَتَلْتُم؛ لأنَّه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضًا؛ لأنَّهم حاولوا قتل النَّبيِّ محمَّد ﷺ بالسُّم والسحر، وقد قال ﵇ في مرض موته: «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي»[3] ، وهذا الحديث في «صحيح البخاري» وغيره][4] .

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) لوحة (١٠١ ب).

(٣) رواه البخاري تعليقًا (٤٤٢٨) نحوه، ووصله الحافظ في «تغليق التعليق» (٤/ ١٦٢)، قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ١٣١)، ووصله البزار، والحاكم (٣/ ٥٨)، والإسماعيلي، ثم قال: وله شاهدان مرسلان أيضًا (وذكرهما).

(٤) زيادة من (ح).

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: في أَكِنَّةٍ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: لا تَفْقَهُ.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: هي القُلُوبُ المطبوعُ عَلَيْهَا.

وقال مجاهد: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ عليها غشاوة.

وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أي لا تَفْقَه. وقال السُّدِّي: يقولون: عليها غلاف، وهو الغطاء.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ هو كقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فلا يَخْلُص لنا شيءٌ مما تقولون][1] [فصلت: ٥].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿غُلْفٌ﴾ قال: يقول: قلبي في غُلَافٍ فلا يَخْلُص إليه ما تقول، قرأ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾.

وهذا هو الذي رجَّحه ابن جرير، واستشهد مما رُوِيَ مِن حديث عمرو بن مُرَّة الجملي، عن أبي البختري، عن حذيفة، قال: «القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ». فذكر منها: «وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، وَذَاكَ قَلْبُ الكَافِرِ»[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحمن العَرْزَمي، أنبأنا أبي، عن جدي، عن قتادة، عن الحسن في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: لم تُخْتَنْ.

هذا القول يَرجع معناه إلىٰ ما تقدَّم مِن عدم طهارة قلوبهم، وأنَّها بعيدة من الخير.

قولٌ آخر:

قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال قالوا: قلوبنا مملوءةٌ عِلمًا لا تحتاج إلىٰ علم محمَّد ﷺ، ولا غيره.

وقال عطيَّة العوفي[3]: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: أوعية للعلم.

وعلىٰ هذا المعنىٰ جاءت قراءة بعض الأنصار فيما حكاه ابن جرير: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ» بضم اللام[4]؛ أي: جمع غلاف؛ أي: أوعية، بمعنىٰ أنَّهم ادَّعَوْا أنَّ قلوبهم مملوءةٌ بعلمٍ لا يحتاجون معه

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) ضعيف: تقدم، عند تفسير الآية (٢٠) من سورة البقرة.

(٣) لوحة (١٠٢ أ).

(٤) شاذة: قَرَأَ (غُلُفٌ) ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (غُلْفٌ).

إلىٰ عِلْمٍ آخر. كما كانوا يَمُنُّون بعلم التَّوراة.

[وقال القرطبي معناه: وقالوا فيها أوعية، والأوَّل أولىٰ وهو المنصوص عن ابن عبَّاس أنهم يقولون: عندنا مِن العِلْم مما جاء به محمَّد ﷺ، وهذا تنبيهٌ بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾](١).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ليس الأمر كما ادَّعَوْا بل قلوبهم ملعونةٌ مطبوعٌ عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد اختلفوا في معنىٰ قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فقال بعضهم: فقليلٌ مَن يُؤْمِن منهم [واختاره فخر الدين الرازي وحكاه عن قتادة والأصم وأبي مسلم الأصبهاني](٢) وقيل: فقليلٌ إيمانُهُم. بمعنىٰ أنَّهم يُؤْمِنُون بما جاءهم به موسىٰ من أَمْر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنَّه مغمورٌ بما كفروا به مِن الَّذي جاءهم به محمَّد ﷺ.

وقال بعضُهُم: إنَّهم كانوا غير مُؤْمِنين بشيءٍ(٣)، وإنَّما قال: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم بالجميع كافِرُون، كما تقول العرب: قلَّما رأيت مثل هذا قطُّ. تريد: ما رأيت مثل هذا قط. [وقال الكسائي: تقول العرب: مَن زَنَىٰ بأرضٍ قلَّما تُنْبِتُ؛ أي: لا تنبت شيئًا](٤).

حكاه ابن جرير، والله أعلم.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو: القرآن الذي أُنْزل علىٰ محمَّد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني: مِن التَّوراة، وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وقد كانوا مِن قبل مجيءِ هذا الرسول بهذا الكتاب يَسْتَنْصِرُون بمجيئه علىٰ أعدائهم مِنَ المُشْرِكين إذا قاتلوهم، يقولون: إنَّه سَيُبْعَث نبيٌّ في آخر الزَّمان نقتلكم معه قَتْل عادٍ وإِرَم، كما قال محمَّد بن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر عن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم، قال: قالوا: فينا والله وفيهم -يعني في الأنصار- وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم، نزلت هذه القصة؛ يعني: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ قالوا: كنَّا

---

(١) زيادة من (ح). (٢) زيادة من (ح).

(٣) قال ابن عثيمين رحمه الله: هل المراد بالقلة: العدم، أو هي علىٰ ظاهرها؟ المعنىٰ الأول أقرب؛ لأن الظاهر من حالهم عدم الإيمان بالكلية؛ ولا يمتنع أن يراد بالقلة العدم إذا دلت عليه القرائن الحالية، أو اللفظية.

(٤) زيادة من (ح).

قد عَلَوْنَاهُم دهرًا في الجاهليَّة، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إنَّ نبيًّا [من الأنبياء](١) يُبعث الآن نتبعه، قد أظلَّ زمانه، نقتلكم(٢) معه قَتْلَ عادٍ وإرَم. فلما بعث الله رسوله مِن قُرَيْشٍ [واتَّبَعْنَاه](٣) كفروا به. يقول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[النساء: ١٥٥](٤).

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: يَسْتَظْهِرُون، يقولون: نحن نُعِينُ محمَّدًا عليهم، وليسوا كذلك، يكذبون.

وقال محمَّد بن إسحاق: أخبرني محمَّد بن أبي محمَّد، أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: أنَّ يَهودَ كانُوا يَسْتَفْتِحُون علىٰ الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله مِن العرب كفرُوا بِهِ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم مُعاذ بن جبل، وبِشْرِ بن البراء بن مَعْرُور، [أخو بني سلمة](٥): يا معشر يهودٍ، اتَّقوا الله وأَسْلِمُوا، فقد كُنْتُم تَسْتَفْتِحُون علينا بمحمَّدٍ ﷺ ونحن أهل شِرْكٍ، وتُخبرونَنَا بأنَّه مبعوثٌ، وتصفُونه لنا بصفته. فقال سَلَّام بن مِشْكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيءٍ نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله في ذلك مِن قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٦).

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمَّد ﷺ علىٰ مشركي العرب -يعني بذلك أهل الكتاب- فلما بُعث محمَّد ﷺ ورأَوْهُ مِن غيرهم كفروا به وحَسَدُوه.

وقال أبو العالية: كانت اليهودُ تَسْتَنْصِرُ بمحمَّد ﷺ علىٰ مُشركِي العرب، يقولون: اللَّهُمَّ ابعث هذا النَّبيَّ الذي نَجِدُه مكتوبًا عندنا حتىٰ نُعَذِّب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمَّدًا ﷺ، ورَأَوْا أنَّه من غيرهم، كفروا به حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنَّه رسول الله ﷺ، فقال الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: كانوا يقولون: إنَّه سيأتي نَبِيٌّ. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: هم اليهود.

---

(١) زيادة من (ح). (٢) لوحة (١٠٢ ب). (٣) زيادة من (ح).

(٤) رجاله ثقات رواه ابن جرير (١/ ٤١٠)، ورجاله ثقات غير أن أبي إسحاق مدلس وقد عنعن: ويشهد له الرواية الأخرىٰ.

(٥) في الأصول: [وداود بن سلمة] والتصحيح من «تفسير الطبري».

(٦) رواه الطبري (١/ ٤١١)، وفيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول، ويشهد له الرواية السابقة.

[وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدَّثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لُبيد، أخي بني عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان مِنْ أَهْل بدر قال: كان لنا جارٌ يهوديٌّ في بني عبد الأشهل قال: فخرج علينا يومًا مِن بيته قبل مبعث رسول الله ﷺ بيسير، حتىٰ وقف علىٰ مجلس بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذٍ أحدثُ مَنْ فِيهِم سنًّا علىٰ بُرْدَةٍ مضطجعًا فيها بفناءٍ أصلي. فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنَّة والنَّار. قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يَرَوْن بعثًا كائنًا بعد الموت، فقالوا له: وَيْحَك يا فلان، ترىٰ هذا كائنًا أنَّ النَّاس يُبْعَثُون بعد موتهم إلىٰ دار فيها جنَّة ونار، يُجْزَوْن فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يُحْلَف به، لوَدَّ أنَّ له بحظِّه مِن تلك النَّار أعظم تَنُّورٍ في الدنيا يَحْمُونَه ثم يُدْخِلُونَه إيَّاه فيُطْبَق به عليه، وأن ينجو مِن تلك النَّار غدًا. قالوا له: وَيْحَك وما آيةُ ذلك؟ قال: نبيٌّ يُبْعَث مِن نحو هذه البِلَادِ، وأشار بيده نحو مَكَّة واليمن. قالوا: ومتىٰ نَرَاه؟ قال: فنظر إليَّ وأنا مِن أحدثهم سنًّا، فقال: إن يستنفد هذا الغُلَام عُمُرَهُ يُدْرِكْه. قال سلمةُ: فوالله ما ذهب اللَّيل والنَّهار حتىٰ بَعَثَ الله رسوله ﷺ وهو بين أظْهُرِنَا، فآمَنَّا به وكَفَرَ به بَغْيًا وحَسَدًا. فقلنا: ويلك يا فلان، ألست بالذي قُلْتَ لنا؟ قال: بلىٰ وليس به. تفرد به أحمد [١].

وحكىٰ القرطبي وغيره عن ابن عبَّاس، ﷺ: أنَّ يهود خيبرَ اقْتَتَلُوا في زمان الجاهليَّة مع غطفان فهزمتهم غطفان، فدعا اليهودُ عند ذلك، فقالوا: اللَّهُمَّ إنَّا نسألك بحقِّ النَّبيِّ الأميِّ الذي وعدتنا بإخراجه في آخر الزَّمان، إلا نصرتنا عليهم. قال: فنُصِرُوا عليهم. قال: وكذلك كانوا يَصْنَعُون يدعون الله فيُنْصَرُون علىٰ أعدائهم ومَن نَازَلَهم. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ أي: مِن الحقِّ وصفة محمَّد ﷺ ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [٢]] [٣].

﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ [٤] عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾

قال مجاهد: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ يهودُ شَرَوُا الحقَّ بالباطل، وكتمانَ مَا جاءَ به محمَّد ﷺ بأَنْ يُبَيِّنُوه. وقال السُّدِّي: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم؛ يعني: بِئْسَما اعتاضوا لأنفسهم ورَضُوا به [وعدلوا إليه مِن الكفر بما أَنْزَل الله علىٰ محمَّدٍ ﷺ إلىٰ تصديقه ومؤازرته ونصرته] [٥]. وإنَّما حملهم علىٰ ذلك البغي والحسد والكراهية: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٦٧)، وإسناده صحيح.
(٢) انظر: القرطبي (٢/ ٢٧) وقد أورد الأثر دون أن يذكر له إسنادًا، وقد رواه الحاكم (٢/ ٢٨٩)، وفيه عبد الملك بن هارون بن عنترة: متروك.
(٣) زيادة من (ح). (٤) لوحة (١٠٣ أ). (٥) زيادة من (ح).

﴿عِبَادِهِۦ﴾ ولا حسد أعظم من هذا.

قال ابن إسحاق عن محمَّد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عبَّاس: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: إنَّ الله جعله من غيرهم ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾[1] قال ابن عبَّاس: فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما كانوا ضيَّعُوا من التَّوراة وهي معهم، وغَضِبَ بكفرهم بهذا النَّبيِّ الذي أحدث الله إليهم.

قلت: ومعنىٰ: ﴿فَبَآءُو﴾ استوجبوا، واستحقوا، واستقرُّوا بغضب على غضب. وقال أبو العالية: غَضِبَ الله عليهم بكُفْرِهم بالإنجيل وعيسىٰ، ثمَّ غَضِبَ عليهم بكُفْرِهم بمحمَّد، وبالقرآن -عليهما السلام-، وعن عكرمة وقتادة مثله.

وقال السُّدِّي: أمَّا الغضب الأول فهو حين غَضِبَ عليهم في العِجْل، وأمَّا الغَضَبُ الثاني فغَضِبَ عليهم حين كَفَرُوا بمحمَّدٍ ﷺ [وعن ابن عبَّاس مثله][2].

وقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لما كان كفرهم سببُه البغي والحسد، ومنشأُ ذلك التَّكبُّر، قوبلوا بالإهانة والصَّغار في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، [أي: صاغِرِين حقِيرِين ذَلِيلِين رَاغِمِين][3].

وقد قال الإمام أحمد: [حدَّثنا يحيىٰ،][4] حدَّثنا ابن عَجْلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يُحْشَرُ المُتَكبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ[5] فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّىٰ يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَس، فَيَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ: عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ»[6].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

---

(١) قال ابن عثيمين رحمه الله: الغضب الذي باءوا به أنهم كفروا بما عرفوا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ والغضب السابق أنهم استكبروا عن الحق إذا كان لا تهواه أنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧]؛ والغضب الثالث: قتلهم الأنبياء، أو تكذيبهم؛ فهذه ثلاثة أنواع من أسباب الغضب؛ وقد يكون أيضًا هناك أنواع أخرىٰ.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «المسند».

(٥) الذر: النمل.

(٦) حسن: رواه الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩)، ورجاله ثقات عدا محمَّد بن عجلان: صدوق.

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لليهود وأمثالهم مِن أَهلِ الكتاب ﴿ءَامِنُوا(١) بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: علىٰ محمَّد ﷺ وصَدِّقُوه واتَّبِعُوه ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: يَكْفِينَا الإيمان بما أُنْزِل علينا مِن التوراة والإنجيل ولا نُقِرُّ إلا بذلك، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ يعنىٰ: بما بعده ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: وهم يعلمون أنَّ ما أُنْزِل علىٰ محمَّد ﷺ الحق ﴿مُصَدِّقًا﴾ منصوب علىٰ الحال؛ أي: في حال تصديقه لما معهم من التَّوراة والإنجيل، فالحُجَّةُ قائمةٌ عليهم بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دَعْوَاكم الإيمان بما أُنزل إليكم، فَلِمَ قتلتم الأنبياء الذين جاؤُوكم بتصديق التَّوراة التي بأَيْدِيكم والحكم بها وعَدَمُ نَسْخِهَا، وأنتم تعلمون صِدْقَهُم؟ قتلتموهم بَغْيًا وحسدًا وعِنَادًا واسْتِكْبارًا علىٰ رُسُل الله، فلَسْتُم تَتَّبِعون إلا مجرَّد الأهواء، والآراء والتَّشَهِّي كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال السُّدِّي: في هذه الآية يُعيِّرهم الله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمَّد ليهود بني إسرائيل -[الذين](٢) إذا قُلتَ لهم: آمنوا بما أَنْزَل الله قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ -: لم تقتلون أنبياء الله مِن قبل -إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أَنْزَل الله عليكم أنبياءَه- وقد حرَّم الله في الكتاب الذي أَنْزَل عليكم قتلهم، بل أَمَرَكُم فيه باتِّباعهم وطاعتهم وتَصْدِيقِهم، وذلك مِن الله تَكْذِيبٌ لهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وتَعْيِير لهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات الواضحة والدَّلائل القاطعة علىٰ أنَّه رسول الله، وأنَّه لا إله إلا الله. والبيِّنات هي: الطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضَّفَادِع، والدَّم، والعصا، واليَد، وفَلْق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمنِّ والسَّلْوىٰ، والحجر، وغير ذلك مِن الآيات التي شاهدوها ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: معبودًا مِن دون الله في زمان موسىٰ وآيَاتِهِ. وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد ما ذهب عنكم إلىٰ الطور لمناجاة الله كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: وأنتم ظالمون في هذا الصَّنيع الذي صنعتموه مِن عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنَّه لا إله إلا الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا(٣) سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

---

(١) لوحة (١٠٣ ب).
(٢) زيادة من «تفسير الطبري».
(٣) لوحة (١٠٤ أ).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

يُعَدِّد تبارك وتعالىٰ عليهم خطأَهُم ومخالفتهم للميثاق وعُتُوَّهم [وإعراضهم][(١)] عنه، حتىٰ رفع الطور عليهم حتىٰ قبلوه ثم خالفوه؛ ولهذا قال: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وقد تقدَّم تفسير ذلك.

﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال: أُشْرِبُوا في قلوبهم حُبَّه، حتىٰ خَلَصَ ذلك إلىٰ قلوبهم. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عصام بن خالد، حدَّثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن خالد بن محمَّد الثقفي، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبي الدرداء، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»[(٢)].

ورواه أبو داود عن حَيْوة بن شريح عن بَقِيَّة، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به.

وقال السُّدِّي: أخذ موسىٰ عليه السلام العجلَ فذَبَحه [ثم حَرقه][(٣)] بالمَبْرَد، ثم ذَرَّاه في البَحْر، فلم يَبْقَ بَحْرٌ يَجْرِي يومئذٍ إلَّا وقع فيه شيءٌ منه، ثم قال لهم موسىٰ: اشربوا منه. فشربوا، فمَن كان يُحِبُّه خرج علىٰ شَارِبَيْه الذَّهب. فذلك حين يقول الله تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن رجاء، حدَّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب، قال: عَمِدَ مُوسَىٰ إلىٰ العجل، فوضع عليه المَبَارِد، فبرده بها، وهو علىٰ شاطئِ نهرٍ، فمَا شَرِبَ أحدٌ مِن ذلك الماء ممَّن كان يعبد العجل إلا اصْفَرَّ وجهه مثل الذَّهب[(٤)].

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [قال: لمَّا أُحْرِقَ العجل][(٥)] بُرِدَ ثم نُسِفَ، فحَسَوُا الماء حتىٰ عادت وجوههم كالزعفران.

[وحكىٰ القرطبي عن كتاب القشيري: أنَّه ما شرب منه أحدٌ ممَّن عبد العجل إلا جُنَّ ثم قال

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود (٥١٣٠)، وأحمد (٥/ ١٩٤) وعلته: أبو بكر بن أبي مريم: ضعيف، اختلط، ووقع في الإسناد اختلاف واضطراب. انظر: «الضعيفة» للألباني رحمه الله (١٨٦٨).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٩٤١)، وثبت مرفوعًا وهو الحديث الآتي.

(٥) زيادة من (ح).

القرطبي: وهذا شيءٌ غير ما هاهنا؛ لأنَّ المقصود مِن هذا السياق، أنَّه ظهر النَّقِير علىٰ شفاههم ووجوههم، والمذكور هاهنا: أنَّهم أُشْرِبُوا في قلوبهم حُبَّ العجل؛ يعني: في حال عبادتهم له، ثمَّ أنشد قول النابغة في زوجته عَثْمَةَ:

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِي ... فَبَادِيهِ مَعَ الخَافِي يَسِيرُ
تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ ... وَلا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ
[أَكَادُ إِذَا ذَكَرْتُ العَهْدَ مِنْهَا ... أَطِيرُ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا يَطِيرُ][1]

وقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بئسما تعتمدونه في قَدِيم الدَّهر وحديثه، مِن كفركم بآيات الله ومُخالَفَتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كُفرِكم بمحمَّدٍ ﷺ -وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم- إذ كفرتم بخاتم الرُّسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلىٰ النَّاس أجمعين، فكيف تدَّعون[2] لأنْفُسِكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القَبِيحَة مِن نقضكم المَوَاثِيق، وكُفْرِكُم بآيات الله، وعبادتكم العجل؟!

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: يقول الله لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ادعُوا بالموت علىٰ أيِّ الفريقين أكذب. فأبَوْا ذلك علىٰ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بِعِلْمِهم بما عندهم مِن العِلْم بك، والكُفْر بذلك، ولو تَمَنَّوه يوم قال لهم ذلك ما بَقِيَ علىٰ الأرض يَهُودِيٌّ إلا مات[3].

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ فسَلُوا المَوْتَ.

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجزري، عن عكرمة قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قال: قال ابن عبَّاس: لو تَمنَّىٰ اليهودُ الموتَ لماتوا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن محمَّد الطَّنَافِسِي، حدَّثنا عثام، سمعت الأعمش

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) لوحة (١٠٤ ب).
(٣) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٤٢٤)، وابن أبي حاتم (٩٤٢)، وفيه محمَّد بن أبي محمَّد مجهول.

- قال: لا أَظُنُّه إلا عَن المِنْهال، عن سعيد بن جبير- عن ابن عبَّاس، قال: لو تَمَنَّوُا الموت لشَرِقَ أحدُهُم بريقِه[١].

وهذه أسانيد صحيحة إلىٰ ابن عبَّاس.

وقال ابن جرير في «تفسيره»: وبلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوُا المَوْتَ لمَاتُوا. وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ. وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ**[٢] **رَسُولَ اللهِ ﷺ لَرَجَعُوا لا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلا مَالًا**». حدَّثنا بذلك أبو كُرَيْب، حدَّثنا زكريا بن عدي، حدَّثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، عَن رسول الله ﷺ[٣].

ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقي [أبي يزيد][٤] حدَّثنا فرات، عن عبد الكريم به.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن أحمد قال: حدَّثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار، حدَّثنا سرور ابن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن[٥] قال: قولُ اللهِ ما كانوا ليتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم. قلتُ: أرأيتك لو أنَّهم أحبُّوا الموت حين قيل لهم: تَمَنَّوْا، أتراهم كانوا مَيِّتِين؟ قال: لا والله ما كانوا لِيَمُوتُوا [و] لو تَمَنَّوُا الموت، وما كانوا لِيَتَمَنَّوه، وقد قال الله ما سمعت: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وهذا غريب عن الحسن. ثم هذا الذي فَسَّر به ابن عبَّاس الآية هو المتعين، وهو الدعاء علىٰ أيِّ الفريقين أَكْذَبَ منهم أو مِن المسلمين علىٰ وجه المُبَاهَلَة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦-٨] فَهُم - عليهم لعائنُ الله- لمَّا زَعَمُوا أنَّهم أبناء الله وأَحِبَّاؤُه، وقالوا: لَن يدخل الجنَّة إلا مَن كان هُودًا أو نَصارَىٰ، دعوْا إلىٰ المباهلة والدُّعاء علىٰ أَكْذَبِ الطائفتين منهم، أو مِن المسلمين. فلما نَكَلُوا

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (٥١٣٠)، وأحمد (٥/ ١٩٤) وعلته أبو بكر بن أبي مريم اختلط مع سوء حفظه، ووقع في الإسناد اختلاف واضطراب انظر الضعيفة للألباني رَحِمَهُ اللهُ (١٨٦٨).

(٢) المُباهلة: المُلاعَنة، يقال: باهَلْتُ فلانًا؛ أي: لاعنته، ومعنى المباهلة: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لَعْنَةُ الله على الظالم مِنا، «اللسان»: بهل.

(٣) صحيح: رواه الطبري (١/ ٤٢٤)، وأحمد (١/ ٢٤٨)، وأبو يعلىٰ (٢٦٠٤) من طرق عن عبد الكريم بن مالك الجزري به.
- وهو عند البخاري (١٩٥٨) تعليقًا، والترمذي (٣٣٤٨).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) لوحة (١٠٥ أ).

عن ذلك عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أنَّهم ظالمون؛ لأنَّهم لو كانوا جَازِمين بما هم فيه لكانوا أقدموا علىٰ ذلك، فلمَّا تَأَخَّرُوا عُلِمَ كَذِبُهم. وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وَفْدَ نجران مِنَ النَّصارىٰ بعد قيام الحُجَّة عليهم في المناظرة، وعتوِّهم وعنادهم إلىٰ المباهلة، فقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوْا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لَئِنْ بَاهَلْتُم هذا النَّبيَّ لا يَبْقَىٰ منكم عينٌ تَطْرِف. فعند ذلك جَنَحُوا إلىٰ السَّلم وبذلوا الجِزْيَة عن يدٍ وهم صَاغِرُون، فضربها عليهم. وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أمينًا. ومثل هذا المعنىٰ أو قريب منه قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، أي: مَن كان في الضلالة مِنَّا أو مِنكُم، فزَادَه الله مما هو فيه ومَدَّ[1] له، واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله.

فأمَّا مَن فسَّر الآية علىٰ معنىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فتَمَنَّوُا الآن الموت. ولم يتعرَّض هؤلاء للمُباهَلَةِ كما قرَّره طائفةٌ مِن المتكلِّمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القولَ الأوَّل؛ فإنَّه قال: القولَ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهذه الآية مما احتجَّ اللهُ به لنبيِّه ﷺ علىٰ اليهود الَّذين كانوا بَيْن ظهراني مُهَاجَره، وفضح بها أحبارَهُم وعلماءهم؛ وذلك أنَّ الله تعالىٰ أَمَرَ نَبيَّه ﷺ إلىٰ قضيَّةٍ عادلةٍ بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم مِن الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر مِن النَّصارىٰ إذا خالفوه في عيسىٰ ابن مريم عليه السلام وجادلوه فيه، إلىٰ فَاصلةٍ بينَهُ وبينهم مِن المباهلة. فقال لفريقٍ من اليهود: إن كنتم مُحِقِّين فتمَنَّوُا الموت، فإن ذلك غير ضارٍّ بكم إن كنتم مُحِقِّين فيما تدعون من الإيمان وقُرْبِ المنزلَة مِن الله، بَل أُعْطِيكُم أُمْنِيتكم من الموت إذا تَمَنَّيْتُم، فإنَّما تَصِيرُون إلىٰ الرَّاحة مِن تعب الدُّنيا ونَصَبِهَا وكدر عَيْشِها، والفوز بجوارِ الله في جنَّاته إن كان الأمر كما تزعمون: من أنَّ الدَّار الآخرة لكم خاصةً دُوننا. وإن لم تُعطُوها عَلِم النَّاس أنَّكُم المبطلون ونحنُ المُحِقُّون في دَعْوَانا، وانكشف أمرنا وأمرُكُم لهم فامتنعت اليهود مِن الإجابَةِ إلىٰ ذلك لعِلْمِهَا أنَّها إن تَمَنَّت الموت هلكت، فذهبت دنياها وصارَت إلىٰ خِزْيِ الأبد في آخِرَتِها، كما امتنع فريقٌ من النَّصارىٰ.

فهذا الكلام منه أوَّله حَسَن، وأمَّا آخره ففيه نظر؛ وذلك أنَّه لا تظهر الحُجَّة عليهم علىٰ هذا التَّأويل، إذ يُقال: إنَّه لا يلزم مِن كَوْنِهِم يَعْتَقِدُون أنَّهم صادقون في دَعْوَاهُم أن يتمنوا الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصَّلاح وتَمنِّي الموت، وكم مِن صالح لا يتمنَّىٰ الموت، بل يَوَدُّ أن يُعَمَّر لِيَزْدَادَ خيرًا وترتفع درجته في

---

(١) لوحة (١٠٥ ب).

الجنَّة، كما جاء [في الحديث] (١): «خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ» (٢). [وجاء في «الصَّحيح» النَّهي عن تمنِّي الموت، وفي بعض ألفاظه: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ»] (٣). ولهم مع ذلك أن يقولوا علىٰ هذا: فها أنتُم تعتقدون -أيُّها المسلمون- أنَّكم أصحاب الجنَّة، وأنتم لا تتمنَّون في حال الصحة الموتَ؛ فكيف تُلْزِمُونا بما لا نُلزمكم؟

وهذا كلُّه (٤)إنَّما نشأ مِن تفسير الآيةِ علىٰ هذا المعنىٰ، فأمَّا علىٰ تفسير ابن عبَّاس فلا يلزم عليه شيءٌ من ذلك، بل قِيلَ لهم كلامٌ نَصَف: إن كنتم تعتقدون أنَّكم أولياءُ الله مِن دون النَّاس، وأنَّكم أبناءُ الله وأحبَّاؤه، وأنَّكم أهل الجنَّة ومَن عَداكُم أهلُ النَّار، فباهِلُوا علىٰ ذلك وادْعُوا علىٰ الكاذبين مِنْكُم أو من غَيْرِكُم، واعلموا أنَّ المباهلة تَسْتَأْصِل الكاذب لا محالةَ. فلمَّا تيقَّنوا ذلك وعَرَفُوا صِدْقَه نكلوا عن المباهلة لما يَعْلَمُون مِن كَذِبِهِم وافترائهم وكِتْمَانِهِم الحقَّ مِن صفة الرسول ﷺ ونَعْتِهِ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويَتَحَقَّقُونه. فعَلِم كلُّ أحدٍ باطلهم، وخِزْيَهُم، وضلالهم وعنادهم -عَليهِم لعائن الله المتتابعة إلىٰ يوم القيامة-.

[وسُمِّيت هذه المباهلة تَمَنِّيًا؛ لأنَّ كلَّ مُحقٍّ يَودُّ لو أهلك الله المبطلَ المناظِرَ له ولا سِيَّما إذا كان في ذلك حجَّة له فيها بيان حقِّه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأنَّ الحياة عندهم عزيزةٌ عظيمةٌ لما يعلمون من سوءِ مآلِهم بعد الموت] (٥).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ أي: [أحرص الخلقِ علىٰ حياةٍ أي:] (٦)علىٰ طولِ عُمْر، لما يَعلَمُون مِن مآلِهِم السَّيِئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأنَّ الدنيا سِجْن المؤمن وجنَّة الكافر، فهُم يَوَدُّون لو تأخَّروا عَن مقام الآخرة بكلِّ ما أمكنهم. وما يَحْذَرُون واقع بهم لا محالة، حتَّىٰ وهُم أحرص النَّاس من المشركين الذين لا كتَاب لهم. وهذا مِن باب عطف الخاصِّ علىٰ العامِّ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سنان، حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش،

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) صحيح لغيره: رواه الترمذي (٢٣٢٩) من حديث عبد الله بن بسر ومن حديث أبي بكرة (٢٣٣٠)، وقال عن الأول: حسن غريب من هذا الوجه، وعن الثاني: حسن صحيح، وحديث عبد الله بن بسر: «رجاله ثقات عدا معاوية بن صالح فقد قال الحافظ: «صدوق له أوهام»، لكنه توبع عند أحمد (٤/ ١٩٠) فالإسناد صحيح، وحديث أبي بكرة فيه علي بن زيد وهو ضعيف. لكنه شاهد للرواية السابقة، وللحديث شواهد أخرىٰ:
- رواه معاذ بن جبل: رواه ابن حبان (٢٣١٨) نحوه وإسناده حسن.
- وله شاهد من حديث أبي هريرة: رواه أحمد (٧٢١٢).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) لوحة (١٠٦أ)

(٥) زيادة من (ح).

(٦) زيادة من (ح).

عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ قال: الأعاجم [١].

ورواه الحاكم في «مستدركه» من حديث الثوري، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي. وقال الحسن البصري: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ قال: المنافق أحرصُ النَّاس على حياةٍ، وهو أحرص على الحياة مِن المشرك ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ أي: أحدُ اليهود كما يدلُّ عليه نظم السِّياق.

وقال أبو العالية: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ يعني: المجوس، وهو يرجع إلى الأوَّل.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو كقول الفارسي: «زه هزارسال» يقول: عشرة آلاف سَنَةٍ. وكذا روي عن سعيد بن جبير نفسه أيضًا.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن علي بن الحسن بن شقيق قال: سمعت أبي يقول: حدَّثنا أبو حمزة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول الأعاجم: «هزار سال [٢] نور وزر مهرجان» [٣].

وقال مجاهد: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: حُبِّبَت إليهم الخَطِيئَة طول العمر.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي: ما هو بِمُنَجِّيه مِن العذاب. وذلك أنَّ المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت، فهو يُحِبُّ طول الحياة وأنَّ اليهوديَّ قد عَرَفَ ما له في الآخرة مِن الخِزْيِ بما صنع بما عنده مِن العلم [٤].

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ قال: هم الذين عَادُوا جِبريلَ [٥].

وقال أبو العالية وابن عمر فما ذاك بِمُغِيثِه من العذاب ولا مُنَجِّيه منه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرصُ على هذه الحياة مِن هؤلاء، وقد وَدَّ هؤلاء أن يُعمَّر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمُزَحْزِحِه من العذاب لو عَمَّر، كما أن عُمرَ إبليس لم ينفعه إذ كان كافرًا.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: خبير بصير بما يعمل عبادُه مِن خيرٍ وشرٍّ، وسيُجَازِي كلَّ عاملٍ بعمله.

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٦٣) وصححه، وابن أبي حاتم (٥٤٥)، وإسناده صحيح.
(٢) لوحة (١٠٦ ب). (٣) رواه الطبري (١/ ٤٢٩).
(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٩٥٥). وانظر: «السيرة النبوية» (٢/ ٦٩١).
(٥) إسناده مسلسل بالضعفاء، رواه الطبري [٢/ ٣٧٦ برقم (١٦٠٣)].

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمعَ أهلُ العلم بالتَّأويل جميعًا علىٰ أنَّ هذه الآية نزلت جوابًا لليهود مِن بني إسرائيل، إذ زعموا أنَّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيل وليٌّ لهم، ثم اختلفوا في السَّبب الذي من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنَّما كان سبب قِيلِهِم ذلك مِن أجل مناظرةٍ جَرَت بينَهم وبين رسول الله ﷺ في أَمرِ نُبُوَّتِه.

ذكر مَن قال ذَلِكَ:

حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا يونس بن بُكَيْر، عن عبد الحميد بن بَهرام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: حَضَرَتْ عصابةٌ مِن اليهود رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثْنا عن خِلالٍ نَسألُك عنهُنَّ، لا يَعلَمُهُنَّ إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: «سَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللهِ وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَىٰ بَنِيهِ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّي عَلَىٰ الإِسْلَامِ». فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ». فقالوا: أخبرنا عن أربعِ خلالٍ نسألك عنهنَّ: أخبرنا أيُّ الطعام الَّذي حرَّم إسرائيل علىٰ نفسه مِن قبل أن تُنَزَّل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون[١] الذَّكر منه والأنثىٰ؟ وأخبرنا بهذا النَّبيِّ الأُمِّيِّ في النَّوم ووَلِيُّه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ عَهْدُ اللهِ لَئِنْ أَنَا أَنْبَأْتُكُمْ لَتُتَابِعُنِّي؟» فأعطوه ما شاء الله مِن عهد وميثاق. فقال: «نَشَدْتُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ مِنْهُ، فَنَذَرَ للهِ نَذْرًا لَئِنْ عَافَاهُ اللهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحُومُ الإِبِلِ وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟». فقالوا: اللَّهمَّ نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ. وَأُنْشِدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَض غَلِيظٌ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ الوَلَدُ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ الوَلَدُ أُنْثَىٰ بِإِذْنِ اللهِ؟». قالوا: اللَّهمَّ نعمْ. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قال: «وَأُنْشِدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟». قالوا: اللَّهمَّ نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قالوا: أنت الآن، فحدِّثنا

(١) لوحة (١٠٧ أ).

مَن وَلِيُّك من الملائكة، فعندها نُجَامِعُك أو نُفَارِقُك. قال: «فَإِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ». قالوا: فعندها نُفارِقُك، لو كان وليُّك سواه من الملائكة تَابَعْنَاك وصَدَّقْنَاك. قال: «فَمَا مَنَعَكُمْ أَنْ تُصَدِّقُوه؟» قالوا: إنَّه عدونا. فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] فعندها باؤوا بغضبٍ علىٰ غضبٍ(١).

وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده»، عن أبي النضر هاشم بن القاسم وعبد بن حميد في «تفسيره»، عن أحمد بن يونس، كلاهما عن عبد الحميد بن بَهرام به.

ورواه الإمام أحمد - أيضـًا - عن الحسين بن محمَّد المروزي، عن عبد الحميد به بنحوه.

وقد رواه محمَّد بن إسحاق بن يسار: حدَّثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر بن حَوْشب، فذكره مرسلًا وزاد فيه: قالوا: فأَخْبِرْنا عن الروح قال: «أُنْشِدُكُمْ بِاللهِ وَبِآيَاتِهِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ جِبْرِيلُ، وَهُوَ الَّذِي يَأْتِينِي؟» قالوا: نعم، ولكنَّه لنا عدو، وهو ملك إنَّما يأتي بالشِّدَّة وسَفْك الدِّماء، فلولا ذلك اتَّبعناك. فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ(٢) عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١](٣).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا عبد الله بن الوليد العجلي، عن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: أقبلت يهودُ إلىٰ رسولِ الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنَّا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أَنْبَأْتنا بهنَّ عرفنا أنَّك نبيٌّ واتَّبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل علىٰ بَنِيهِ إذ قال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف:٦٦] قال: «هَاتُوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النَّبيِّ. قال: «تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ». قالوا: أخبرنا كيف تُؤَنِّث المرأة وكيف يُذكِّر الرجل؟ قال: «يَلْتَقِي المَاءَانِ فَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ المَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ أَنَّثَتْ»، قالوا: أخبرنا ما حرَّم إسرائيل علىٰ نفسه. قال: «كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النِّسَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلَّا أَلْبَانَ كَذَا وَكَذَا» -قال أحمد: قال بعضهم: يَعْنِي الإبل، فحَرَّم لحومها- قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ ﷻ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدَيْهِ -أَوْ فِي يَدِهِ- مِخْرَاقٌ(٤) مِنْ نَارٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ ﷻ». قالوا: فما

---

(١) رواه الطبري (١/ ٤٣١)، وأحمد (١/ ٢٧٨)، وأبو نعيم (٤/ ٣٠٥) وفيه شهر بن حوشب كثير الإرسال والأوهام، لكنه توبع في الرواية الثانية بعده.

(٢) لوحة (١٠٧ ب).

(٣) ضعيف: انظر التعليق السابق، وأيضًا الإسناد مرسل.

(٤) المخراق في الأصل: ثوب يُلَف ويَضرِب به الصِّبيانُ بعضهم بعضًا، أراد: أنه آلة تَزْجُر بها الملائكة السَّحاب وتَسُوقه «النهاية».

هذا الصَّوت الذي نسمعه؟ قال: «صَوْتُهُ». قالوا: صدقت. إنَّما بَقِيَت واحدة وهي التي تُتابِعُك، إن أخبرتنا: إنَّه ليس مِن نبيٍّ إلا وله مَلَك يأتيه بالخبر، فأخبرنا مَن صاحبك؟ قال: «جِبْرِيلُ عليه السلام»، قالوا: جبريل ذاك الذي يَنْزِل بالحَرْب والقِتَال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائِيلَ الذي يَنْزِل بالرَّحمة والنَّبات والقَطْر لكان، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية[١] .

ورواه الترمذي، والنَّسائي مِن حديث عبد الله بن الوليد به. وقال التِّرمذي: حسنٌ غريبٌ.

وقال سُنَيْد في «تفسيره»، عن حجَّاج بن محمَّد، عن ابن جُرَيْج: أخبرني القاسم بن أبي بَزَّة أنَّ يهود سألُوا النَّبيَّ ﷺ عن صاحبه الذي يَنْزِل عليه بالوَحْي. قال: «جِبْرِيلُ». قالوا: فإنَّه لنا عدو، ولا يأتي إلا بالشِّدَّة والحرب والقتال. فنزل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية. قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمَّد، ما ينزل جبريل إلا بشدَّةٍ وحربٍ وقتالٍ، وإنَّه لنا عدوٌّ. فنزل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية[٢] .

وقال البخاري: قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قال عكرمة: جِبْر، ومِيكَ، وإِسْرَاف: عَبْد. وإِيل: الله. حدَّثنا عبد الله بن مُنير سَمِع عبد الله بن[٣] بكر حدَّثنا حُمَيد، عن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمَقْدَمِ رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ يَخْتَرِفُ[٤] . فأتى النَّبيَّ ﷺ فقال: إنِّي سائلك عَن ثلاثٍ لا يَعْلَمُهُن إلا نبيٌّ: ما أوَّل أشراط السَّاعة؟ وما أوَّل طعام أهل الجنَّة؟ وما يَنْزِع الولد إلىٰ أبيه أو إلىٰ أُمِّه؟ قال: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا». قال: جبريل؟ قال: «نَعَمْ». قال: ذاك عدوُّ اليهود مِن الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَىٰ الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ». قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّك رسول الله. يا رسول الله، إنَّ اليهود قوم بُهت، وإنَّهم إن يعلموا بإِسْلَامي قبل أن تَسألَهُم يبهتوني. فجاءت اليهودُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟» قالوا: خيرُنا وابنُ خَيْرِنا، وسَيِّدُنا وابن سَيِّدِنا. قال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنِ سَلَامٍ». فقالوا: أعاذه الله مِن ذلك. فخرج

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣١١٧)، وأحمد (١/ ٢٧٤)، والنسائي (٩٠٧٢) وقال الترمذي: حسن غريب.
(٢) رواه الطبري (١/ ٤٣٣) وإسناده مرسل.
(٣) لوحة (١٠٨ أ).
(٤) يعني: يجني الثمر.

عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله. فقالوا: شَرُّنا وابنُ شَرِّنا. فانتقصوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله (١).

انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد أخرجه من وجهٍ آخرَ، عن أنس بنحوِهِ، وفي «صحيح مسلم»، عن ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ قريبٌ مِن هذا السِّياق كما سيأتي في موضعه إن شاء الله.

وحكاية البخاري عن عكرمة ما تقدَّم هو المشهور أن «إِيل» هو الله. وقد رواه سفيان الثَّوري، عن خَصِيف، عن عكرمة.

ورواه عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيهِ، عَن عكرمة، ورواه ابن جرير، عن الحسين ابن يَزيد الطَّحَّان، عن إسحاق بن منصور، عن قيس، عن عاصم، عن عكرمة، أنَّه قال: إنَّ جِبريلَ اسمه: عبد الله، وميكائيل: عبيد الله. إيل: الله.

ورواه يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس مثله سواء. وكذا قال غير واحدٍ من السَّلف، كما سيأتي قريبًا.

[وقال الإمام أحمد في أثناء حديث سَمُرة بن جندب: حدَّثنا محمَّد بن سلمة، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق، حدَّثنا محمَّد بن عمرو بن عطاء، قال: قال لي علي بن الحسين: اسم جبريل: عبدُ الله، واسم ميكائيل: عبيد الله] (٢).

ومن النَّاس مَن يقول: «إِيل» عبارة عن عبد، والكلمة الأخرىٰ هي اسمُ الله؛ لأنَّ كلمة «إِيل» لا تتغير في الجميع، فوزانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السَّلام، عبد الكافي، عبد الجليل. فعَبْدُ موجودة في هذا كلِّه، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ونحو ذلك، وفي كلام (٣)غير العرب يقدِّمون المضاف إليه علىٰ المضاف، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: بل كان سبب قِيلهم ذلك مِن أجل مناظرةٍ جَرَتْ بين عُمر بن الخطَّاب وبينهم في أمر النَّبيِّ ﷺ.

ذِكْر مَن قال ذَلِكَ:

حدَّثني محمَّد بن المثنَّىٰ، حدَّثني رِبْعِيّ بن عُلَيَّة، عن داوُد بن أبِي هندٍ، عن الشَّعبي، قال: نزل عُمرُ الروحاءَ، فرأىٰ رجالًا يَبْتَدِرُون أحجارًا يُصَلُّون إليها، فقال: ما بال هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أنَّ رسول الله ﷺ صلَّىٰ هاهنا. قال: فكَرِه ذلك. وقال: إنَّما رسول الله ﷺ أدركته الصَّلاة بوادٍ فصلَّاها ثم

---

(١) البخاري (٤٤٨٠) من حديث ابن سلام، ورواه البخاري (٣٣٢٩) (٣٩٣٨) من حديث أنس، ورواه مسلم (٣١٥) نحوه كما أشار ابن كثير من حديث ثوبان.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) لوحة (١٠٨ ب).

ارتحل، فتركه. ثم أنشأ يُحَدِّثُهم، فقال: كنتُ أشهد اليهودَ يومَ مِدْرَاسهم[١] فأعجب من التوراة كيف تُصَدِّق الفرقان ومِن الفُرقان كيف يُصَدِّق التوراة؟ فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب، ما من أصحابك أحدٌ أحبَّ إلينا منك. قلت: ولِمَ ذلك؟ قالوا: إنَّك تَغْشَانا وتأتينا. فقلت: إني آتيكم فأعجب مِن الفرقان كيف يُصَدِّق التَّوراة، ومن التَّوراةِ كيف تُصَدِّق الفرقان. قال: ومرَّ رسولُ الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاكَ صاحبُكُم فَالْحَقْ به، قال: فقلت لهم عند ذلك: نَشَدتُكُم بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم مِن حقِّه واستودعكم مِن كتابه: أتعلمون أنَّه رسول الله؟ قال: فسَكَتُوا. فقال لهم عالمهم وكبيرهم: إنَّه قد غَلَّظ عليكم فأجيبوه. فقالوا: فأنت عالِمُنا وكبيرُنا فأجبه أنت. قال: أما إذْ نَشَدْتَنَا بما نَشَدْتَنَا به فإنَّا نعلم أنَّه رسول الله، قال: قلت: ويحكم فأنَّي هلكتم[٢]؟! قالوا: إنَّا لم نهلك، قال: قلت: كيف ذلك وأنتم تعلمون أنَّه رسول الله ثم لا تَتَّبِعُونه ولا تُصَدِّقونه؟ قالوا: إنَّ لنا عدوًّا من الملائكة وسِلْمًا من الملائكة، وإنَّه قَرَن بنبوته عَدُونا من الملائكة. قال: قلت: ومَن عدوكم ومَن سِلْمُكم؟ قالوا: عَدُونا جبريل، وسِلْمُنا ميكائيل. [قال: قلت: وفيم عَادَيْتُم جبريل، وفيم سَالَمتُم ميكائيل؟][٣] قالوا: إنَّ جبريل مَلَك الفظَاظَة والغِلْظَة والإعسار والتَّشديد والعذاب ونحو هذا، وإنَّ ميكائيل ملك الرَّأفة والرَّحمة والتَّخفيف ونحو هذا.

قال: قلتُ: وما منزلتهما مِن ربهما ﷻ؟ قالوا: أحدُهُما عَن يمينه والآخر عَن يسارِه. قال: قلت: فوَالله الذي لا إله إلا هو، إنَّهما والذي بينهما لعدوٌّ لمن عاداهما وسِلْمٌ لمن سالمهما وما ينبغي لجبريل أن يُسَالم عدو[٤] مِيكَائِيل، وما ينبغي لميكائيل أن يُسَالِم عدو جبريل.قال: ثم قُمتُ فاتَّبعتُ النَّبيَّ ﷺ فلحقته وهو خارج من خَوْخَةٍ[٥] لبني فلان، فقال: «**يَا ابْنَ الخَطَّابِ، أَلَا أُقْرِئُكَ آيَاتٍ نَزَلْنَ قَبْلُ؟**» فقرأ عليَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حتَّىٰ قرأ هذه الآيات. قال: قُلتُ: بأبي وأمِّي يا رسول الله، والَّذي بعثك بالحق لقد جِئْتُ وأنا [أريد أن][٦] أُخْبِرُك الخبر، فأسمع اللَّطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر[٧].

---

(١) المِدْرَاس: هو البيت الذي يدرس فيه كتابهم، أو المراد بالمدراس :العَالِم الذي يدرس كتابهم، والأول أرجح. «فتح الباري» (٦/ ٢٧١).

(٢) يعني: كيف هلكتم؟

(٣) زيادة من «تفسير الطبري».

(٤) لوحة (١٠٩ أ).

(٥) الخوخة: كوة في البيت تؤدي إليه الضوء، وباب صغير وسط باب كبير نصب حاجزًا بين دارين، ومخترق ما بين كل دارين. «المعجم الوسيط» (ص٢٦١).

(٦) زيادة من (ح).

(٧) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٤٣٥)، وفيه انقطاع بين عامر الشعبي وعمر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو أسامة، عن مُجالد، أنبأنا عامر، قال: انطلق عمر بن الخطاب إلىٰ اليهود، فقال: أَنشدكم بالَّذي أَنْزل التوراة علىٰ موسىٰ: هل تجدون محمَّدًا في كتبكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إنَّ الله لم يبعث نبيًّا رسولًا إلا جعل له من الملائكة كِفْلًا وإن جبريل كَفَل محمَّدًا، وهو الذي يَأْتِيه، وهو عَدُوُّنا من الملائكة، وميكائيل سِلْمُنا؛ لو كان ميكائيل هو الذي يأتيه أَسْلَمْنا. قال: فإنِّي أَنْشُدكم بالله الذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ: ما منزلتهما مِن رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يَمينه وميكائيل عن شماله. قال عمر: وإني أشهد ما يَنْزِلَان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليُسَالم عدو جبريل، وما كان جبريلُ ليُسَالم عدوَّ ميكائيل. فبينما هو عندهم إذ مرَّ النَّبيُّ ﷺ فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب: فقام إليه عُمر، فأتاه، وقد أنزل الله ﷻ عليه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وهذان الإسنادان يدلَّان علىٰ أنَّ الشعبي حدَّث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عُمر، فإنه لم يدرك وفاته، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة، قال: ذُكر لنا أنَّ عُمر بن الخطاب انطلق ذات يومٍ إلىٰ اليهود. فلما [أبصروه][2] رَحَّبُوا به، فقال لهم عُمر: أما والله ما جئت لحبكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه. فقالوا: مَن صاحبُ صَاحبك؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاك عدوُّنا مِن أهل السماء، يُطلع محمَّدًا علىٰ سِرِّنا، وإذا جاء جاء الحرب والسَّنَة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء الخصب والسِّلم. فقال لهم عُمر: هل تعرفون جبريل وتنكرون محمَّدًا ﷺ؟[3] ففارقهم عُمر عند ذلك وتوجَّه نحو النَّبيِّ ﷺ ليُحَدِّثه حديثهم، فوجده قد أُنزلت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

ثم قال: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا آدم، حدَّثنا أبو جعفر عن قتادة، قال: بلغنا أنَّ عمر أقبل إلىٰ اليهود يومًا، فذكر نحوه. وهذا أيضًا منقطع، وكذلك رواه أسباط، عن السُّدِّي، عن عمر مثل هذا أو نحوه، وهو منقطع أيضًا[4].

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٩٦٠) وإسناده منقطع، وفيه أيضًا مجالد: وهو ليس بالقوي وفيه انقطاع بين الشعبي وعمر.

(٢) في الأصول: [انصرف]، والتصحيح من «تفسير الطبري».

(٣) لوحة (١٠٩ ب).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٤٣٧) والإسنادان مرسلان.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عمار، حدَّثنا عبد الرحمن -[يعني][1] الدَّشْتكي- حدَّثنا أبو جعفر، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ أن يهوديًّا أتىٰ عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدوٌّ لنا. فقال عمر: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: فنزلت علىٰ لسان عمر، رضي الله عنه[2].

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا هشيم، أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلىٰ في قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أنَّ ميكائيل كان الذي ينزل عليكم اتَّبعْناكم، فإنَّه ينزل بالرَّحمة والغيث، وإن جبريل يَنْزِل بالعذاب والنِّقمة، فإنه لنا عدو قال: فنزلت هذه الآية.

[حدَّثني يعقوب قال][3]: حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا عبد الملك، عن عطاء، بنحوه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود: إن جبريل عدونا؛ لأنه ينزل بالشِّدة والسَّنَة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدونا. فقال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.

وأما تفسير الآية فقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية. أي: من عادىٰ جبريل فليعلم أنَّه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم علىٰ قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله مَلَكِي [عليه وعلىٰ سائر إخوانه من الملائكة السلام][4] ومَن عادىٰ رسولًا فقد عادىٰ جميع الرسل، كما أنَّ مَن آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أنَّ مَن كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا[5] لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] فحكم عليهم بالكفر المحقَّق، إذْ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم وكذلك مَن عادىٰ جبريل فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر مِن تِلْقَاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤] وقد روىٰ

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٩٦٣)، وفيه انقطاع بين ابن أبي ليلىٰ وعمر.
(٣) زيادة من (ح).
(٤) زيادة من (ح).
(٥) لوحة (١١٠ أ).

البخاري في «صحيحه»، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي[(١)] بِالحَرْبِ»[(٢)] . ولهذا غضب الله لجبريلَ علىٰ مَن عاداه، فقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِنَ الكتب المتقدمة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هدىً لقلوبهم وبشرىٰ لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ثم قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول تعالىٰ: مَن عاداني وملائكتي ورسلي – ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ وهذا من باب عطف الخاص علىٰ العام، فإنَّهما دخلا في الملائكة، ثم عموم الرسل، ثم خُصِّصا بالذِّكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أنَّ جبريل عدوهم وميكائيل وَلِيُّهم، فأعلمهم أنَّه مَن عادىٰ واحدًا منهما فقد عادىٰ الآخر وعادىٰ الله أيضًا؛ لأنَّه أيضًا ينزل علىٰ الأنبياء بعض الأحيان، كما قُرِن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكَّل بالقطر والنبات، وهذاك بالهدىٰ وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل مُوكَّل بالصور للنفخ للبعث يوم القيامة؛ ولهذا جاء في «الصحيح»: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول[(٣)] «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمِيكَائِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ،

---

(١) قال أحمد شاكر رحمه الله: هكذا ساق ابن كثير رحمه الله الحديث، والظاهر أنه كتبه من حفظه، فوهم فيه في موضعين: فالحديث حديث قدسي، كما هو ظاهر، وهو في البخاري (١١/ ٢٩٢، ٢٩٣ فتح)، ولفظه: «إن الله تعالىٰ قال: من عادىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب». فالمؤلف سها حين أثبت كلمة «بارزني» بدل «آذنته».

ومعنىٰ الحديث ثابت أيضًا من حديث عائشة، رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٢٥٦)، ومن حديث معاذ، رواه ابن ماجة (٣٩٨٩)، ومن أوجه أخر، أشار إليها الحافظ في «الفتح».

وليس المراد بـ«الولي» ما اصطلح الناس علىٰ فهمه خطأ أنهم طائفةٌ معينةٌ يسمون «الأولياء»، فإن هذا دخل عليهم من اصطلاحات الصوفية، ثم جرىٰ اللفظ علىٰ الألسنة بهذا المعنىٰ الذي لا أصل له. بل «ولي الله»: هو كل مؤمن يتقي الله ويخافه، ويعمل بما أمر، وينتهي عما نهىٰ عنه ـ فيما استطاع، ولعلنا نزيد هذا المعنىٰ بيانًا عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [الآيتان: ٦٢، ٦٣] من سورة يونس، إن شاء الله.

(٢) البخاري (٦٥٠٢)، وابن حبان (٣٤٧)، «السنن الكبرىٰ» للبيهقي (٣/ ٣٤٦) واللفظ له.

(٣) لوحة (١١٠ ب).

اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١). وقد تقدَّم ما حكاه البخاري، ورواه ابن جرير عن عكرمة أنَّه قال: جبر، وميك، وإسراف: عبد. وإيل: الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنان، حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولىٰ ابن عبَّاس، عن ابن عبَّاس، قال: إنما قوله: «جبريل» كقوله: «عبد الله» و «عبد الرحمن». وقيل جبر: عبد. وإيل: الله(٢).

وقال محمَّد بن إسحاق، عن الزهري، عن علي بن الحسين، قال: أتدرون ما اسم جبرائيل مِن أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل مِن أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبيد الله. وكل اسم مرجعه إلىٰ «إيل» فهو إلىٰ الله.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعكرمة والضَّحَّاك ويحيىٰ بن يعمر نحو ذلك. ثم قال: حدَّثني أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي الحَوَارِي، حدَّثني عبد العزيز بن عمير قال: اسم جبريل في الملائكة خادم الله. قال: فحَدَّثْتُ به أبا سليمان الدَّاراني، فانتفض وقال: لَهذا الحديث أحبُّ إليَّ مِن كل شيء [وكتبه](٣) في دفتر كان بين يديه.

وفي جبريل وميكائيل لغاتٌ وقراءاتٌ، تُذكر في كتب اللغة والقَراءات، ولم نطوِّل كتابنا هذا بسَرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنىٰ عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة، وهو المستعان.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إيقاع المُظْهَر مكان المُضْمَر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين بل قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ كما قال الشاعر:

لا أَرَىٰ المَـوْتَ يَـسْبِقُ المَـوْتَ شَـيْءٌ ... نَغَّـصَ المَـوْتُ ذَا الغِنَـىٰ وَالفَقِيـرَا

وقال الآخر:

لَيْـتَ الغُـرَابَ غَـدَاةَ يَنْعَـبُ دَائِبًـا ... كَـانَ الغُـرَابُ مُقَطَّـعَ الأَوْدَاجِ

وإنما أظهر الاسم هاهنا لتقرير هذا المعنىٰ وإظهاره، وإعلامهم أنَّ مَن عادىٰ أولياء الله فقد عادىٰ الله، ومَن عادىٰ الله فإنَّ الله عدو له، ومَن كان الله عدوَّه فقد خَسِر الدُّنيا والآخرة، كما تقدَّم الحديث: «مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالحَرْبِ»(٤). وفي الحديث الآخر: «إِنِّي لَأَثْأَرُ لِأَوْلِيَائِي كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ الحَرِبُ»(٥). وفي الحديث الصحيح: «وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ»(٦).

---

(١) البخاري (٥٦٧٨)، وابن ماجة (٣٤٣٩)، وثبت نحوه من حديث ابن مسعود، انظر: ابن حبان (٦٠٧٥).
(٢) رواه ابن أبي حاتم (٩٧١). (٣) زيادة من (ح). (٤) البخاري (٦٥٣)، وابن حبان (٣٤٧).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢٣٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٨)، وابن عساكر (٧/ ٩٥) وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٧٧٥).
(٦) رواه أحمد (٢/ ٣٥٨)، والبيهقي (٩/ ١٢١) وإسناده صحيح.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟[1] عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: أنزلنا إليك يا محمَّد علامات واضحات دلالات علىٰ نبوتك، وتلك الآيات هي ما [حواه][2] كتاب الله مِن خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائرِ أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارُهم وعلماؤهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة. فأطلع الله في كتابه الذي أنزله إلىٰ نبيه محمَّد ﷺ؛ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يَدْعُه إلىٰ هلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كلِ ذي فطرةٍ صحيحةٍ تصديقُ من أتىٰ بمثل ما جاء به محمَّد ﷺ من الآيات البينات التي وَصَفَ، من غير تعلُّم تعلَّمه من بَشَريٍّ ولا أخذ شيئًا منه عن آدمي. كما قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوةً وعشيةً، وبين ذلك، وأنت عندهم أُمِّي لا تقرأ كتابًا، وأنت تخبرهم بما في أيديهم علىٰ وجهه. يقول الله: في ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حُجَّة لو كانوا يعلمون.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: قال ابن صُوريا الفطْيُوني لرسول الله ﷺ: يا محمَّد، ما جئتنا بشيءٍ نعرفه، وما أنزل الله عليك مِن آيةٍ بيِّنةٍ فنتَّبِعُك. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3]. وقال مالك بن الصيف - حين بُعث رسولُ الله ﷺ وذكَّرهُم ما أخذ عليهم مِن

(١) لوحة (١١١ أ).

(٢) في (ز): «حكاه».

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٤٤١) وفيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول.

الميثاق، وما عهد إليهم في محمَّد ﷺ والله ما عَهِد إلينا في محمَّد ﷺ ولا أخذ له علينا ميثاقًا. فأنزل الله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: نَعَم، ليس في الأرض عَهْدٌ يعاهدون عليه إلا نَقَضُوه ونبذوه، يعاهدون اليوم، وينقضون غدًا.

وقال السُّدِّي: لا يؤمنون بما جاء به محمَّد ﷺ. وقال قتادة: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: نقضه فريق منهم.

وقال ابن جرير: أصل النَّبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سُمِّيَ اللقيط: منبوذًا، ومنه سُمِّي [1] النَّبِيذ، وهو التمر والزبيب إذا طُرِحَا في الماء. قال أبو الأسود الدؤلي:

نَظَـرْتُ إِلَـىٰ عُنْوَانِـهِ فَنَبَذْتُـهُ   كَنَبْـذِكَ نَعْـلًا أَخْلَقَـتْ مِـنْ نِعَالِكَـا

قلت: فالقوم ذمَّهم الله بنَبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التَّمسك بها والقيام بحَقِّها [2]. ولهذا أعقبهم ذلك التَّكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلىٰ الناس كافة، الذي في كتبهم نعتُه وصفتُه وأخبارُه، وقد أُمروا فيها باتباعه ومؤازرته ومناصرته، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال هاهنا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: اطَّرَحَ طائفة منهم كتابَ الله الذي بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمَّد ﷺ وراء ظهورهم؛ أي: تركوها، كأنهم لا يعلمون؛ أي: ما فيها، وأقبلوا علىٰ تَعلُّم السِّحر واتِّباعه. ولهذا أرادوا كيْدًا برسول الله ﷺ وسَحَروه في مُشْطٍ ومُشَاقة وجُفِّ طَلْعَة ذَكر [3] تحت رَاعُوثَةِ [4] بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ [5]. وكان الذي تولىٰ ذلك منهم رجل، يقال له: لبيد بن الأعصم - لعنه الله- فأَطْلَع الله علىٰ ذلك رسوله ﷺ، وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطًا في «الصحيحين» عن عائشة أم المؤمنين ؓ كما

---

(١) لوحة (١١١ ب).

(٢) قال السعدي ؒ: لما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل.

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتختلق من السحر علىٰ ملك سليمان.

(٣) المشاقة: هي المشاطة، وهي الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط، والجف :وعاء الطلع، وهو الغشاء الذي يكون فوقه.

(٤) قال ابنُ الأثير:رَاعُوفَة البئر :هي صخرةٌ تُتْرك في أسفل البئر إذا حُفِرَت تكون ناتئة هناك، فإذا أرادُوا تَنْقِية البئر جلس المُنَقِّي عليها، وقيل :هي حَجَرٌ يكونُ على رأس البِئر يقوم المُسْتَقي عليه، ويُروى بالثاء المثَلَّثة. «النهاية».

(٥) اسم بئر بالمدينة.

سيأتي بيانه [إن شاء الله وبه الثقة][1] قال السُّدِّي: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قال: لما جاءهم محمَّد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتَّفقت التَّوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصِفَ وسِحْرِ هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال قتادة في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكتموه وجحدوا به.

وقال العوفي في «تفسيره»، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ وكان حين ذهب مُلْكُ سليمان ارْتَدَّ فِئَامٌ من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما رجع الله إلىٰ سليمان ملكَه، وقام الناس علىٰ الدين كما كان أَوانُ سليمان، ظهر علىٰ كتبهم فدفنها تحت كرسيِّه، وتوفي سليمان ﷺ حَدَثَان ذلك، فظهر الإنس والجن علىٰ الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتابٌ مِن الله نزل علىٰ سليمان وأخفاه منَّا فأخذوا به فجعلوه دينًا. فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ واتبعوا ما تتلوا الشياطين؛ أي: الشهوات التي كانت [تتلو الشياطين][2] وهي المعازف واللعب وكل شيء يَصُدُّ عن ذكر الله[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: كان آصِفُ كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم [«الأعظم»،][4] وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيِّه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحرًا وكفرًا، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها[5]. قال: فأكفره جُهَّالُ الناس وسبُّوه، ووقف علماؤهم فلم يَزَل جهالهم يَسبُّونه، حتىٰ أنزل الله علىٰ محمَّد ﷺ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾[6].

وقال ابن جرير: حدَّثني أبو السائب سلم بن جنادة السوائي، حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: كان سليمان ﷺ إذا أراد أن يدخُل الخلاء، أو يأتي شيئًا مِن نسائه، أعطىٰ الجرادة -وهي امرأة- خاتمه. فلما أراد الله أن يبتلي سليمان ﷺ بالذي ابتلاه به، أعطىٰ الجرادة ذات يوم خاتَمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي. فأخذه فلبسه. فلما لبسه

---

(١)زيادة من (ح). (٢)زيادة من (ح).

(٣)لم يذكر إسناده، والغالب عليه أنه من الإسرائيليات التي نقلت من كتب بني إسرائيل.

(٤)زيادة من (ح).

(٥)رواه ابن أبي حاتم (٩٨٨) ورجاله ثقات، والغالب عليه أنه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب.

(٦)لوحة (١١٢ أ).

دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال: هاتي خاتمي فقالت: كذبت، لست سليمان. قال: فعرف سليمان أنَّه بلاء ابْتُلِيَ به. قال: فانْطَلَقَتِ الشياطين فكَتَبَتْ في تلك الأيام كتبًا فيها سحر وكفر. ثم دفنوها تحت كرسيِّ سليمان، ثم أخرجوها وقرؤوها على النَّاس، وقالوا: إنَّما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب. قال: فبرئ الناس من سليمان عليه السلام وأكفروه حتى بعث الله محمَّدًا ﷺ وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا جرير،عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمران، وهو ابن الحارث قال: بَيْنَا نحن عند ابن عبَّاس رضي الله عنهما إذ جاء رجلٌ فقال له: مِنْ أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أَيِّهْ؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدَّثون أنَّ عليًّا خارج إليهم. ففزع ثم قال: ما تقول؟ لا أبا لك! لو شعرنا ما نكحنا نساءه[2]، ولا قسمنا ميراثه، أما إنِّي سأُحَدِّثُكم عن ذلك: إنه كانت الشياطين يَسْتَرِقُون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حقٍّ قد سمعها، فإذا جُرِّبَ منه صدق كذب معها سبعين كذْبة، قال: فَتَشْرَبُها قلوب الناس. فأطلع الله عليها سليمان عليه السلام فدفنها تحت كرسيه. فلما توفي سليمان عليه السلام قام شيطانُ الطريق، فقال: أفلا أدلكم على كنزه الممنَّع الذي لا كنز له مثله؟ تحت الكرسي. فأخرجوه، فقالوا هذا سِحْره فتناسخا الأمم -حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق- وأنزل الله عز وجل ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾[3].

ورواه الحاكم في «مستدركه»، عن أبي زكريا العَنْبري، عن محمَّد بن عبد السلام، عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير به.

وقال السُّدِّي في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: على عهد سليمان. قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيَستمعون مِن كلام الملائكة مما يكون في الأرض من مَوتٍ أو غَيبٍ أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم. فتحدِّث الكهنةُ النَّاسَ فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم. وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمةٍ سبعين كلمةً، فاكتتب النَّاسُ ذلك الحديثَ في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تَعْلَم الغيب. فبُعث سليمانُ في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق. ثم دفنها تحت كرسيه. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق. وقال: لا أسمع أحدًا يذكر أن الشياطين

(١) رواه الطبري (١/ ٤٤٩) ورجاله ثقات ومثله لا يقال بالرأي، غير أنه من رواية ابن عبَّاس، وهو ممن أخذ من كتب بني إسرائيل، ويشبه هذا الكلام أنه من الإسرائيليات.

(٢) لوحة (١١٢ ب).

(٣) الطبري (١/ ٤٤٩- ٤٥٠)، والحاكم (٢/ ٢٦٥) وصححه الذهبي. قلت: ويقال فيه مثل الذي قبله.

يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه. فلما مات سليمان عليه السلام وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخَلَفَ مِن بعد ذلك خَلْف؛ تمثل شيطان في صورة إنسان، ثم أتىٰ نفرًا مِن بني إسرائيل، فقال لهم: هل أَدُلُّكم علىٰ كنز لا تأكلونه أبدًا؟[١] قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي. وذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فَادْنُ. قال: لا ولكنني هاهنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني. فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر. ثم طار وذهب. وفشا في النَّاس أنَّ سليمان كان ساحرًا. واتخذت بنو[٢] إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمَّد ﷺ خاصموه بها؛ فذلك حين يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾.

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألوا محمَّدًا ﷺ زمانًا عن أمور مِنَ التوراة، لا يسألونه عن شيءٍ من ذلك إلا أنزل الله تعالىٰ عليه ما سألوه عنه، فَيَخْصِمَهُم[٣]، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وإن الشياطين عَمَدوا إلىٰ كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان، وكان سليمان عليه السلام لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدُّنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه. فأخبرهم النَّبيُّ ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد خُزِيُوا، وأدحض الله حجتهم.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ قال: كانت الشياطين تسمع الوحي فما سمعوا من كلمةٍ إلا زادوا فيها مائتين مثلها. فأُرسِل سليمان عليه السلام إلىٰ ما كتبوا من ذلك. فلما توفي سليمان وجدته الشياطين فعلمته الناس وهو السحر.

وقال سعيد بن جبير: كان سليمان عليه السلام يَتَتَبَّع ما في أيدي الشياطين مِن السِّحر فيأخذه منهم، فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته، فلم يقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فدبَّت إلىٰ الإنس، فقالوا لهم: أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يُسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنَّه في بيت خزانته وتحت كرسيه. فاستثار به الإنسُ واستخرجوه فعملوا بها. فقال أهل الحِجَا: كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر. فأنزل الله تعالىٰ علىٰ لسان نَبِيِّه محمَّد ﷺ براءة سليمان عليه السلام فقال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾.

وقال محمَّد بن إسحاق بن يسار عَمَدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام فكتبوا

---

(١) يعني: لا ينفد أبدًا. (٢) لوحة (١١٣ أ). (٣) أي: يغلبهم وتكون له الحجة عليهم.

أصناف السحر: «مَن كان يُحِبُّ أن يَبْلغ كذا وكذا[1] فليقُل كذا وكذا». حتىٰ إذا صَنَّفُوا أصناف السحر جعلوه في كتاب. ثم ختموا بخاتم علىٰ نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عُنْوانه: «هذا ما كَتَب آصِفُ بن بَرْخِيَا الصِّديق للملك سليمان بن داود -عليهما السلام- مِن ذخَائر كنُوز العلم». ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حتىٰ أحدثوا ما أحدثوا. فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان سليمان بن داود إلا بهذا. فأفشوا السحر في النَّاس وتَعَلَّمُوه وعَلَّمُوه. وليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله. فلمَّا ذَكَر رسولُ الله ﷺ فيما نزل عليه مِن الله، سليمان بن داود، وعَدَّهُ فيمن عَدَّه من المرسلين، قال مَن كان بالمدينة مِن يهودٍ: ألَا تَعْجَبُون مِن محمَّد! يزعم أنَّ ابن داود كان نبيًّا، والله ما كان إلا ساحرًا. وأنزل الله [في] ذلك من قولهم: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا حسين، حدَّثنا الحجاج عن أبي بكر، عن شَهْر بن حَوشب، قال: لما سلب سليمان ﷺ ملكه، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان. فكتبت: «مَن أراد أن يأتي كذا وكذا فَلْيَسْتَقْبِلِ الشَّمس، وليقل كذا وكذا، ومَن أراد أَن يَفْعَل كذا وكذا فَلْيَسْتَدْبِرِ الشَّمس وليقل كذا وكذا. فكَتَبْتُه وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصِفُ بن بَرْخِيَا للملك سليمان بن داود مِن ذخائر كنوز العلم». ثم دفنته تحت كرسيِّه. فلمَّا مات سليمان ﷺ قام إبليس -لعنه الله- خطيبًا، ثم قال: يا أيها الناس، إنَّ سليمان لم يكن نَبيًّا، إنَّما كان ساحرًا، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته. ثم دَلَّهُم علىٰ المكان الذي دُفِن فيه. فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحرًا! هذا سحره، بهذا تَعَبَّدَنا، وبهذا قَهَرنا. وقال المؤمنون: بل كان نبيًّا مؤمنًا. فلما بعث الله النَّبيَّ ﷺ [جعل يذكر الأنبياء][2] حتىٰ ذكر داود وسليمان. فقالت اليهود [لعنهم الله]: انظروا إلىٰ محمَّد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، إنَّما كان ساحرًا يركب الريح، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية.

[وقال] ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الأعلىٰ الصنعاني، قال: حدَّثنا المعتمر بن سليمان[3]، قال: سمعتُ عِمْرَان بن حُدَير، عن أبي مِجْلَز، قال: أخذ سليمان ﷺ من كلِّ دابَّةٍ عهدًا، فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد، خَلَّىٰ عنه. فزاد الناس السجع والسحر، وقالوا: هذا يعمل به سليمان. فقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عصام بن رَوَّاد، حدَّثنا آدم، حدَّثنا المسعودي، عن زياد مولىٰ ابن مصعب، عن الحسن: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ قال: ثُلُثُ الشِّعر، وثُلُثُ السِّحر، وثُلُثُ الكِهَانة.

وقال: حدَّثنا الحسن بن أحمد، حدَّثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطي، حدَّثني سُرور بن

---

(١) لوحة (١١٣ ب). (٢) زيادة من «تفسير الطبري». (٣) لوحة (١١٤ أ).

المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ واتَّبَعَته اليهود علىٰ ملكه. وكان السِّحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها، ولكنَّه إنَّما اتَّبع علىٰ ملك سليمان.

فهذه نبذةٌ مِن أقوال أئمَّة السَّلف في هذا المقام، ولا يخفىٰ ملخَّص القصَّة والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياقات علىٰ اللَّبيب الفَهِم، والله الهادي. وقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: واتبعت اليهود - الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم الرسول محمَّدًا ﷺ ما تتلوه الشياطين؛ أي: ما ترويه وتُخْبِر به وتُحْدِثه الشياطين علىٰ ملك سليمان، وعدَّاه بـ«عَلَىٰ»؛ لأنَّه ضمَّن ﴿تَتْلُواْ﴾: تكذب. وقال ابن جرير: «عَلَىٰ» هاهنا بمعنىٰ «فِي»؛ أي: تتلو في ملك سليمان. ونقله عن ابن جُرَيج، وابن إسحاق.

قلت: والتَّضمين أحسَنُ وأَوْلىٰ، والله أعلم.

وقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «قَد كان السِّحر قبل زمان سُليمان بن داود» صحيحٌ لا شكَّ فيه؛ لأنَّ السَّحرة كانوا في زمان موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٦]، ثم [ذكر] القصة بعدها، وفيها: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال قوم صالح -وهم قبل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لنبيِّهم صالح: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي: من المسحورين علىٰ المشهور.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ اختلف النَّاس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلىٰ أنَّ «مَا» نافية؛ أعني[(١)] التي في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ [قال القرطبي: «مَا» نافية ومعطوفة علىٰ قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ﴾ أي: السحر ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ و ذلك أنَّ اليهود -لعنهم الله- كانوا يَزعمون أنَّه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله في ذلك وجعل قوله: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ بدلًا من: ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ قال: وصحَّ ذلك؛ إمَّا لأنَّ الجمع قد يُطلَق علىٰ الاثنين كما في قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١] أو يكون لهُمَا أتباع، أو ذِكرًا مِن بينهم لتمردهما، فتقدير الكلام عنده: تُعلِّمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. ثم قال: وهذا أولىٰ ما حملت عليه الآية وأصحُّ ولا يُلْتَفَت إلىٰ ما سواه][(٢)].

وروىٰ ابن جرير بإسناده من طريق العوفي، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ

(١) لوحة (١١٤ ب). (٢) زيادة من (ح).

﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ يقول: لم يُنْزِلِ اللهُ السِّحر[1]. وبإسناده، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ قال: ما أَنْزَل اللهُ عليهما السِّحر.

قال ابن جرير: فتأويل الآية علىٰ هذا: واتَّبعوا ما تتلو الشياطين علىٰ ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر علىٰ الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. فيكون قوله: ﴿بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم. قال: فإن قال لنا قائل: وكيف وَجْهُ تقديم ذلك؟ قيل: وَجْهُ تقديمه أن يقال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾ -من السحر- ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ ولا أنزل الله السحر علىٰ الملكين، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ ببابل وهاروت وماروت فيكون مَعْنِيًّا بالملكين: جبريل وميكائيل -عليهما السلام- لأنَّ سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أنَّ الله أنزل السحر علىٰ لسان جبريل وميكائيل إلىٰ سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمَّدًا ﷺ أنَّ جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحرٍ، وبرأ سليمان ﷺ ممَّا نحلوه من السحر، وأخبرهم أنَّ السحر مِن عمل الشياطين، وأنها تُعلِّم الناس ذلك ببابل، وأنَّ الذين يُعَلِّمُونهم ذلك رجلان، اسم أحدهما: هاروت، واسم الآخر: ماروت، فيكون هاروت وماروت علىٰ هذا التَّأويل ترجمةً عن النَّاس، وردًّا عليهم.

هذا لفظه بحروفه.

وقد قال ابن أبي حاتم: حُدِّثت عن عُبَيد الله بن موسىٰ، أخبرنا فضيل بن مرزوق، عن عطية ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ قال: ما أنزل الله علىٰ جبريل وميكائيل السحر.

و[قال ابن أبي حاتم][2] حدَّثنا الفضل بن شَاذَان، حدَّثنا محمَّد بن عيسىٰ، حدَّثنا يعلىٰ -يعني: ابن أسد- حدَّثنا بكر -يعني: ابن مصعب- حدَّثنا الحسن بن أبي جعفر: أن عبد الرحمن بن أَبْزَىٰ كان يقرؤها: «وما أُنزل علىٰ الملكين دَاوُد وسُليمان».

وقال أبو العالية: لم يَنْزِل عليهما السحر، يقول: عَلِمَا الإيمان والكفر، فالسِّحر مِن الكفر، فهما ينهيان عنه أشدَّ النَّهي. رواه ابن أبي حاتم.

ثم شرع ابن جرير في رَدِّ هذا القول، وأنَّ «مَا» بمعنَىٰ الَّذِي، وأطال القولَ في ذلك، وادَّعىٰ علي أنَّ هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلىٰ الأرض، وأذن لهما في تعليم السِّحر اختبارًا لعباده وامتحانًا، بعد أن بَيَّنَ لعباده أنَّ ذلك مما ينهىٰ عنه علىٰ ألسنة الرسل، وادَّعَىٰ أن هاروت وماروت مُطِيعَان في تعليم ذلك؛ لأنهما[3] امتثلا ما أُمِرَا به.

---

(١) رواه الطبري (١/ ٤٥٢) وإسناده ضعيف. تقدم.
(٢) زيادة من (ح).
(٣) لوحة (١١٥ أ).

وهذا الذي سلكه غريبٌ جدًّا! وأغرب منه قول مَن زعم أنَّ هاروت وماروت قَبِيلَان منَ الجنِّ [كما زعمه ابن حزم!](١).

وروىٰ ابن أبي حاتم بإسناده. عن الضَّحَّاك بن مزاحم: أنَّه كان يقرؤها: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ ويقول: هما علجان مِن أهل بابل.

وَوَجَّه أصحابُ هذا القول الإنزالَ بمعنىٰ: الخَلْق، لا بمعنىٰ الإيحاء، في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]. وفي الحديث: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً»(٢). وكما يقال: أنزل الله الخير والشر.

[وحكىٰ القرطبي عن ابن عبَّاس وابن أبزىٰ والضَّحَّاك والحسن البصري: أنهم قرؤوا: «وَمَا أُنزلَ عَلَىٰ الْمَلِكَيْنِ» بكسر اللام. قال ابن أبزىٰ: وهما داود وسليمان. قال القرطبي: فعلىٰ هذا تكون «مَا» نافيةً أيضًا](٣).

وذهب آخرون إلىٰ الوقف علىٰ قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ و «مَا» نافية قال ابن جرير: حدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا الليث، عن يحيىٰ بن سعيد، عن القاسم بن محمَّد، وسأله رجل عن قول الله تعالىٰ: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ قال الرجل: يُعَلِّمَان الناس السحر ما أُنْزِل عليهما، أو يُعَلِّمَان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت.

ثم روىٰ عن يونس، عن أنس بن عياض، عن بعض أصحابه: أنَّ القاسم قال في هذه القصة: لا أُبَالي أيَّ ذلك كان، إنِّي آمنت به.

وذهب كثيرٌ مِن السَّلف إلىٰ أنَّهما كانا ملكين من السماء، وأنَّهما أُنْزِلا إلىٰ الأرض، فكان مِن أمرهما ما كان. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في «مسنده» كما سنورده إن شاء الله تعالىٰ. وعلىٰ هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ثبت مِن الدَّلائل علىٰ عصمةِ الملائكة أنَّ هذين سَبَقَ في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصًا لهما، فلا تعارض حينئذٍ، كما سبق في علمِهِ مِن أمر إبليس ما سبق، وفي قولٍ: إنَّه كان مِن الملائكة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدَّالَّة علىٰ ذلك. مع أنَّ شأن هاروت وماروت -علىٰ ما ذكر- أخفُّ مما وقع من إبليس لعنه الله.

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) البخاري (٥٦٧٨)، وابن ماجة (٣٤٣٩).
(٣) زيادة من (ح).

[وقد حكاه القرطبي عن علي، وابن مسعود، وابن عبَّاس، وابن عمر، وكعب الأحبار، والسُّدِّي، والكلبي][(١)].

ذكر الحديث الوارد في ذلك -إن صحَّ سنده ورفعه- وبيان الكلام عليه:

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مسنده»: حدَّثنا يحيىٰ بن أبي بكير، حدَّثنا زهير بن محمَّد، عن موسىٰ بن جبير، عن نافع، عن عبد الله بن عمر: أنَّه سمع نبيَّ الله ﷺ يقول: «إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَمَّا أَهْبَطَهُ اللهُ إِلَىٰ الأَرْضِ قَالَتِ المَلَائِكَةُ: أَيْ رَبِّ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ [(٢)] وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قَالُوا: رَبَّنَا، نَحْنُ أَطْوَعُ لَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْمَلَائِكَةِ: هَلُمُّوا مَلَكَيْنِ مِنَ المَلَائِكَةِ حَتَّىٰ نُهْبِطَهُمَا إِلَىٰ الأَرْضِ، فَنَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلَانِ؟ قَالُوا: بِرَبِّنَا، هَارُوتَ وَمَارُوتَ. فَأُهْبِطَا إِلَىٰ الأَرْضِ وَمُثِّلَتْ لَهُمَا الزُّهَرَةُ امْرَأَةً مِنْ أَحْسَنِ البَشَرِ، فَجَاءَتْهُمَا، فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا. فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ حَتَّىٰ تَتَكَلَّمَا بِهَذِهِ الكَلِمَةِ مِنَ الإِشْرَاكِ. فَقَالَا: لَا وَاللهِ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا أَبَدًا. فَذَهَبَتْ عَنْهُمَا ثُمَّ رَجَعَتْ بِصَبِيٍّ تَحْمِلُهُ، فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا. فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ حَتَّىٰ تَقْتُلَا هَذَا الصَّبِيَّ. فَقَالَا: لَا وَاللهِ لَا نَقْتُلُهُ أَبَدًا. ثُمَّ ذَهَبَتْ فَرَجَعَتْ بِقَدَحِ خَمْرٍ تَحْمِلُهُ، فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا. فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ حَتَّىٰ تَشْرَبَا هَذَا الخَمْرَ. فَشَرِبَا فَسَكِرَا، فَوَقَعَا عَلَيْهَا، وَقَتَلَا الصَّبِيَّ. فَلَمَّا أَفَاقَا قَالَتِ المَرْأَةُ: وَاللهِ مَا تَرَكْتُمَا شَيْئًا أَبَيْتُمَاهُ عَلَيَّ إِلَّا قَدْ فَعَلْتُمَاهُ حِينَ سَكِرْتُمَا. فَخُيِّرَا بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ، فَاخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا».

وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان في «صحيحه»، عن الحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيىٰ بن أبي بكير به [(٣)].

وهذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات مِن رجال «الصحيحين»، إلا موسىٰ بن جبير هذا، وهو الأنصاري السلمي مولاهم المديني الحذاء، رَوَىٰ عن ابن عبَّاس وأبي أُمَامة بن سهل بن حنيف، ونافع، وعبد الله بن كعب بن مالك. وروىٰ عنه ابنه عبد السلام، وبكر بن مضر، وزهير بن محمَّد، وسعيد بن سلمة، وعبد الله بن لَهيعة، وعمرو بن الحارث، ويحيىٰ بن أيوب. وروىٰ له أبو داود، وابن ماجة، وذكره ابن أبي حاتم في كتاب «الجرح والتعديل»، ولم يَحْكِ فيه شيئًا مِن هذا ولا

---

(١)زيادة من (ح). (٢)لوحة (١١٥ ب).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ١٣٤)، وابن حبان (٦١٨٦)، والطبري (١٦٨٤، ١٦٨٥) بإسناد آخر، وفي الإسناد موسىٰ ابن جبير: مستور، وزهير بن حرب: في حفظه شيء وله أغاليط، وهذا الحديث قال عنه أبو حاتم في «العلل» (٢/ ٦٩): منكر، وضعفه ابن كثير وأشار إلىٰ أنه من كلام كعب الأحبار، وهو يروي الإسرائيليات كما سيأتي، وانظر: «البداية والنهاية» (١/ ٣٣، ٣٤).

هذا، فهو مَسْتُور الحال وقد تفرَّد به عن نافع مولىٰ ابن عمر، عن ابن عمر عن النَّبيِّ ﷺ. وروي له متابع مِن وَجْهٍ آخر عن نافع، كما قال ابن مَرْدَوَيْه: حدَّثنا دَعْلَجُ بن أحمد، حدَّثنا هشام بن علي بن هشام، حدَّثنا عبد الله بن رجاء، حدَّثنا سعيد بن سلمة، حدَّثنا موسىٰ بن سَرْجِس، عن نافع، عن ابن عمر: سمع النَّبيّ ﷺ يقول. فذكره بطوله(١).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين – وهو سنيد بن داود صاحب التفسير– حدَّثنا الفرج بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن نافع، قال: سَافَرْتُ مع ابن عمر، فلمَّا كان مِن آخر اللَّيل قال: يَا نافع، انظر، طَلَعَتِ الحَمْرَاءُ؟ قلت: لا -مَرَّتَين أو ثلاثًا- ثمَّ قُلْتُ: قد طَلَعَت. قال: لا مرحبًا بها ولا أهلًا. قلت: سبحان الله! نَجْمٌ مُسَخَّرٌ سَامِعٌ مُطِيعٌ. قال: ما قلتُ لك إلا ما سَمِعْت مِن رسول الله ﷺ -أو قال: قال لي رسول الله ﷺ- : «إِنَّ المَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَارَبِّ، كَيْفَ صَبْرُكَ عَلَىٰ بَنِي آدَمَ فِي الخَطَايَا وَالذُّنُوبِ؟ قَالَ: إِنِّي ابْتَلَيْتُهُمْ وَعَافَيْتُكُمْ. قَالُوا: لَوْ كُنَّا مَكَانَهَمُ مَا عَصَيْنَاكَ. قَالَ: فَاخْتَارُوا مَلَكَيْنِ مِنْكُمْ. قَالَ: فَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا أَنْ يَخْتَارُوا، فَاخْتَارُوا هَارُوتَ وَمَارُوتَ»(٢).

وهذان أيضًا غريبان جدًّا. وأقربُ ما في هذا أنَّه مِن رواية عبد الله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النَّبيِّ ﷺ، كما قال عبد الرزاق في «تفسيره»، عن الثوري، عن موسىٰ بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب قال: ذَكَرَتِ الملائكةُ أعمالَ بني آدم، وما يأتون من الذُّنوب، فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت. فقال لهما: إِنِّي أُرْسِلُ إلىٰ بني آدم رُسُلًا وليس بَيْنِي وبينكم رسولٌ، انزلا لا تُشْرِكَا بي شيئًا ولا تَزْنِيا ولا تَشْرَبَا الخمر. قال كعب: فوالله ما أَمْسَيَا مِن يومهما الذي أُهْبِطَا فيه حتَّىٰ استكملا جميع ما نُهِيَا عنه(٣).

ورواه ابن جرير مِن طريقين، عن عبد الرزَّاق به.

ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن عصام، عن مُؤَمَّل، عن سفيان الثوري به.

ورواه ابن جرير أيضًا: حدَّثني المُثَنَّىٰ، حدَّثنا المعلىٰ -وهو ابن أسد- حدَّثنا عبد العزيز بن المختار، عن موسىٰ بن عقبة، حدَّثني سالم أنَّه سَمِعَ عبد الله يُحَدِّثُ، عن كعب الأحبار فذكره.

فهذا أصحُّ وأَثْبَتُ إلىٰ عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالمٌ أَثْبَت في أَبِيهِ مِن مولاه نافع. فدَار الحديثُ ورجع إلىٰ نقل كعب الأحبار، عن كتب بني إسرائيل، والله أعلم(٤).

---

(١) موسىٰ بن سرجس: مستور أيضًا، وفي إسناده عبد الله بن رجاء متهم بوضع الحديث.

(٢) الطبري (١/ ٤٥٨)، وفيه الفرج بن فضالة: منكر.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (١٣/ ١٨٦)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٠٦)، ورواه الطبري (١/ ٤٥٧) من طريق عبد الرزاق به، من رواية كعب الأحبار وهو من يروي الإسرائيليات وهذا ما رجحه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: حديث ابن عمر ـ المرفوع ـ الذي ذكره ابن كثير من رواية أحمد ـ هو في المسند (٦١٧٨). وقد نقلنا كلام ابن كثير الذي هنا في تعليله. وفصلنا القول في ضعفه جدًّا. وأشرنا «إلى مخالفته الواضحة للعقل، لا من جهة عصمة =

ذِكْرُ الآثَار الوَاردة في ذلك عنِ الصَّحَابَة والتَّابعين ﷺ أجمعين:

قال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا الحجاج حدَّثنا حماد، عن خالد الحذَّاء، عن عُمَير بن سعيد، قال: سمعت عليًّا ﷺ يقول: كانت الزُّهَرةُ امرأةً جميلة من أهل فارس، وإنَّها خاصمت إلىٰ الملكين هاروت وماروت، فرَاوَدَاها عَن نفسها، فأبت عليهما إلَّا أن يُعَلِّمَاها الكلام الذي إذا تكلَّم المتكلم به يُعْرج به إلىٰ السَّماء. فعلَّماها فتكلَّمَتْ [به] فعُرِجَت إلىٰ السَّماء. فمُسِخَتْ كَوْكبًا![1].

وهذا الإسناد جيِّد و رجالُهُ ثقاتٌ، وهو غريبٌ جدًّا.

وقال ابن أبي حاتم[2]: حدَّثنا الفضل بن شَاذَان، حدَّثنا محمَّد بن عيسىٰ، حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ، حدَّثنا أبو معاوية، عن ابن أبي خالد، عن عمير بن سعيد، عن علي قال: هُما مَلَكَان مِن ملائكة السماء. يعني: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾[3].

ورواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيْه في «تفسيره» بسنده، عن مُغِيث، عن مولاه عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن جدِّه، عن علي مرفوعًا. وهذا لا يثبت من هذا الوجه.

ثم رواه مِن طَرِيقَيْن آخرين، عن جابر، عن أبي الطفيل، عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الزُّهَرَةَ، فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي فَتَنَتِ المَلَكَيْنِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ». وهذا أيضًا لا يَصِحُّ[4] وهو منكرٌ جدًّا. والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ بن إبراهيم، حدَّثنا الحجاج بن مِنْهال، حدَّثنا حماد، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان النَّهدي، عن ابن مسعود وابن عبَّاس أنَّهما قالاَ جَمِيعًا: لما كَثُر بنُو آدَم وعَصَوْا، دَعَتِ الملائكة عليهم والأرض والجبال: ربَّنَا لا تُهْلِكهم، فأَوْحَىٰ الله إلىٰ الملائكة: إِنِّي أَنزَلْتُ الشَّهْوة والشَّيطَان مِن قُلُوبكم، ولَو نَزَلْتُم لفعلتم أيضًا. قال: فحَدَّثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا، فأوحىٰ الله إليهم أنِ اختاروا ملكين مِن أَفْضَلِكُم. فاختاروا هاروت وماروت. فأُهْبِطَا إلىٰ الأرض،

= الملائكة القطعية، بل من ناحية أن الكوكب الذي نراه صغيرًا في عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف حجم الكرة الأرضية بالآلاف المؤلفة من الأضعاف. فأنى يكون جسم المرأة الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة!!». ونزيد هنا دليلًا على ضعف رواية المسند هذه: أن في أولها أن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾... إلخ - كان بعد إهباط آدم إلى الأرض. وهو مخالف صراحة لنص الكتاب العزيز، كما مضى في الآيات (٣٠-٣٨) أن قولهم هذا كان قبل خلق آدم، وقبل أمرهم بالسجود له. وأن إهباطه هو وحواء كان بعد أكلهما من الشجرة.

وقد بينا أيضًا وهِيَّ هذه الأخبار فيما علقنا به في تفسير الطبري على الحديث (١٦٨٨).

وكنت على أن أحذف هذا الحديث أيضًا من هذا الكتاب (عمدة التفسير) - على ما شرطت في المقدمة، (ص ١١).

ولكني رأيت أن معناه يدور على ألسنة الناس، وتجري به أقلامهم، وأنه يجب على البيان. فعملت الذي هو خير، ثم نفيت سائر الروايات التي أطال الحافظ ابن كثير بذكرها، وإن لم يقصر في الكشف عن عوارها. رحمه الله.

(١) رواه الطبري (١/ ٤٥٦)، والحاكم (٢/ ٢٦٥).

(٢) لوحة (١١٦ ب).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٠٠٨).

(٤) منكر: رواه ابن مردويه، وقال ابن كثير: منكر جدًّا.

وأُنْزِلَت الزُّهَرَةُ إليهما في [أحسن][١] صورة امرأةٍ مِن أهل فارس [يُسَمُّونها بِيذُخت][٢]. قال: فوقعا بالخطيَّة. فكانت الملائكة يَسْتَغْفِرُون للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فلما وقعَا بالخطيئة استغفروا لِمَنْ في الأرض ألَا إنَّ الله هو الغفور الرحيم. فخُيِّرَا بين عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة، فاختاروا عذاب الدنيا[٣].ممم

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن جعفر الرقي، أخبرنا عبيد الله -يعني ابن عمرو- عن زيد بن أبي أنيسة، عن المِنْهال بن عمرو ويونس بن خباب، عن مجاهد، قال: كنتُ نازلًا علىٰ عبد اللهِ بن عُمر في سَفَرٍ، فلما كان ذات ليلة قال لغلامه: انظر [هل] طلعتِ الحمراء، لا مرحبًا بها ولا أهلًا ولا حيَّاها الله هي صاحِبَةُ الملكين. قالتِ الملائكة: يارَبِّ، كيف تَدَعُ عُصاةَ بني آدم وهم يَسْفِكُون الدَّم الحرام ويَنْتَهِكُون محارمك ويُفْسِدون في الأرض! قال: إنِّي قد ابْتَلَيْتُهُم، فلعلَّ إن ابْتَلَيْتُكُم بمثل الذي ابْتَلَيْتُهُم به فَعَلْتُم كالَّذي يَفعلون. قالوا: لا. قال: فاختاروا مِن خياركم اثنين. فاختاروا هَاروت ومَارُوت. فقال لهما: إنِّي مُهْبِطُكُما إلىٰ الأرض، وعَاهِدٌ إِلَيْكُما ألا تُشْرِكا ولا تَزْنِيَا ولَا تَخُونَا. فأُهْبِطَا إلىٰ الأرض وأُلْقِيَ عليهما[٤] الشَّبَق، وأُهبِطَت لهما الزُّهَرة في أحسن صورةِ امرأةٍ، فتعَرَّضَت لهما، فَرَاوَدَاهَا عَن نفسها. فقالت: إنِّي علىٰ دِينٍ لا يصحُّ لأحدٍ أَن يَأْتِيَنِي إلَّا مَن كان علىٰ مثله. قالَا: ومَا دِينُك؟ قالت: المَجُوسِيَّة. قالا: الشِّرْك! هذا شيء لا نُقِرُّ به. فمكثت عنهما ما شاء الله. ثم تَعَرَّضَتْ لهما فأَرَادَاهَا عن نفسها. فقالت: ما شِئْتُما، غير أنَّ لي زَوْجًا، وأنا أَكْرَه أن يَطَّلِع علىٰ هذا مِنِّي فأفتضح، فإن أَقْرَرْتُما لي بدِيني، وشَرَطْتُمَا لي أن تَصْعَدا بي إلىٰ السَّماء فَعَلْتُ. فأَقَرَّا لها بدِينِها وأَتَيَاهَا فيما يَرَيَانِ، ثم صعدا بها إلىٰ السَّماء. فلما انْتَهَيَا بها إلىٰ السماء اخْتُطِفَت منهما، وقُطِعَتْ أَجْنِحَتُهُما فوقعا خَائِفَيْن نَادِمَيْن يَبْكِيَان، وفي الأرض نبيٌّ يدعو بين الجُمُعَتَيْن، فإذا كان يوم الجمعة أُجِيب. فقالا: لو أَتَيْنَا فلانًا فسألناه فطلب لنا التَّوبة فأتياه، فقال: رَحِمَكُمَا الله كيف يَطْلُب التَّوبة أهلُ الأرضِ لأهلِ السَّماء! قالا: إنَّا قد ابْتُلِينَا. قال: ائْتِيَانِي يوم الجمعة. فأَتَيَاهُ، فقال: ما أُجِبْتُ فيكما بشيءٍ، ائْتِيَانِي في الجمعة الثَّانية. فأتياه، فقال: اخْتَارا، فَقَد خُيِّرْتُمَا، إن أَحْبَبْتُما معافاة الدُّنيا وعَذَابَ الآخِرَة، وإن أَحْبَبْتُمَا فعذَاب الدُّنيا وأنتما يوم القيامة علىٰ حُكْم الله. فقال أحدهما: إنَّ الدنيا لم يَمْضِ منها إلَّا القَلِيل. وقال الآخر: وَيْحك؟ إني قَد أَطَعْتُكَ في الأمر الأوَّل فَأَطِعْنِي الآن، إنَّ عذابًا يَفْنَىٰ لَيْسَ كعَذَابٍ يَبْقَىٰ. وإنَّنا يوم القيامة علىٰ حُكْمِ الله، فأخاف أَن يُعَذِّبَنا. قال: لا إِنِّي أرجو إِن عَلِمَ اللهُ أنَّا قد

---

(١) زيادة من (ح). (٢) زيادة من (ح).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٤٥٦) وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

(٤) لوحة (١١٧ أ).

اخترنا عذابَ الدُّنيا مخافةَ عذابِ الآخِرَة أن لا يَجْمَعَهُمَا علينا. قال: فاختارَا عذاب الدُّنيا، فجُعِلَا في بَكَرَاتٍ مِن حَدِيدٍ في قَلِيبٍ مملوءةٍ مِن نارٍ، عَالِيهُمَا سافلَهما.

وهذا إسنادٌ جيِّد إلىٰ عبد الله بن عُمَر. وقد تقدَّم في رواية ابن جرير مِن حديث معاوية بن صالح، عن نافعٍ، عنه رفعه. وهذا أثبت وأصحُّ إسنادًا. ثم هو -والله أعلم- مِن رواية ابن عُمر عن كَعب، كما تقدَّم بَيَانُه عَن سالم عن أبيه. وقوله: إن الزُّهَرَةَ نَزَلَتْ علىٰ صورةِ امرأةٍ حَسْنَاء، وكذا في المروي عن علي، فيه غرابة جدًّا[1].

وأقرب ما وردَ في ذلك ما قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عصام بن روَّاد، حدَّثنا آدم، حدَّثنا أبو جعفر، حدَّثنا الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: لما وَقَع النَّاس[2] مِن بعد آدم عليه السلام فيما وقعوا فيهِ مِن المعاصي والكُفْر بالله، قالتِ الملائكة في السَّماء: يَارَبِّ، هذا العالم الذي إنَّما خلقتهم لعبادتك وطاعتك، قد وَقَعُوا فيما وَقَعُوا فيه ورَكِبُوا الكُفْرَ وقَتْلَ النَّفْس وأَكْلَ المال الحَرام، والزِّنَا والسَّرِقَة وشُرْب الخمر. فجعلوا يَدْعُون عليهم، ولا يَعْذُرُونَهم، فقيل: إنَّهم في غَيْب. فلم يَعْذُرُوهم. فقيل لهم: اختاروا منكم مِن أَفْضَلِكُم مَلَكين، آمُرْهُمَا وأَنْهَاهُمَا. فاختاروا هاروت وماروت. فأُهْبِطَا إلىٰ الأرض، وجُعِلَ لهما شَهَوات بني آدم، وأَمَرَهُمَا الله أن يَعْبُدَاه ولا يُشْرِكَا به شيئًا، ونُهِيَا عن قتل النَّفس الحرام وأكل المال الحرام، وعَن الزِّنا والسَّرقة وشرب الخمر. فَلَبِثَا في الأرض زَمَانًا يَحْكُمَان بين النَّاس بالحقِّ وذلك في زمان إدريس عليه السلام. وفي ذلك الزَّمان امرأةٌ حُسْنُها في النِّساء كحُسْن الزُّهَرَةِ في سائر الكواكب، وأنَّهما أَتَيَا عليها فخَضَعَا لها في القَول وأَرَادَاها علىٰ نَفْسِها فأَبَتْ إلا أن يكونا علىٰ أَمْرِها وعلىٰ دينها، فسَأَلَاها عَن دِينِها، فأَخْرَجَت لهما صنمًا فقالت: هذا أَعْبُدُه. فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا. فذَهَبا فغَبَرَا ما شاء الله. ثم أَتَيَا عليها فأَرَادَاهَا علىٰ نفسها، ففَعَلَت مثل ذلك. فذهبا، ثم أَتَيَا عليها فرَاوَدَاهَا علىٰ نفسها، فلما رَأَتْ أنَّهما قد أَبَيَا أن يَعْبُدَا الصَّنَم قالت لهما: اختارَا إحدىٰ الخِلَال الثَّلاث: إمَّا أن تَعْبُدَا هذا الصنم، وإما أن تَقْتُلَا هذه النَّفس، وإمَّا أن تَشْرَبَا هذا الخَمْر. فقالا: لا كُلُّ هذا لا ينبغي، وأَهْوَنُ هذا شُرْبُ الخمر. فشَرِبَا الخمر [فَأَخَذَتْ فيهما][3] فوَاقَعَا المَرْأَةَ، فَخَشِيَا أن يُخْبِرَ الإنسان عنهما فقتَلَاه فلمَّا ذهَب عنهما السُّكر وعَلِمَا ما وقعا فيه مِن الخَطِيئَة أرادا أن يَصْعَدَا إلىٰ السماء، فَلَم يستطيعا، وحِيلَ بَيْنَهُما وبين ذلك، وكُشِفَ الغِطَاء فيما بينهما وبَين أهلِ السَّماء، فنظرت الملائكة إلىٰ ما وقعا فيه، فعَجِبُوا كلَّ العجب، وعَرَفوا أنَّه مَن كان في غيبٍ فهو أقلُّ خشيةٍ، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمِنْ في الأرض، فنزل في ذلك: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) ابن أبي حاتم (١٠١٤) والأثر فيه غرابة كما ذكر ابن كثير.

(٢) لوحة (١١٧ ب). (٣) زيادة من (ح).

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فقيل لهما: اختارا عذاب الدُّنيا أو عذاب الآخرة، فقالا: أمَّا عذاب الدُّنيا فإنَّه يَنْقَطِع ويذهب، وأمَّا عذاب الآخرة فلا انقطاع له. فاختارا عذابَ الدُّنيا، فجعلا ببابل، فهما يعذَّبان(١).

وقد رواه الحاكم في «مُسْتَدْرَكِه» مُطَوَّلًا عن أبي زكريا العنبري، عن محمَّد بن عبد السلام، عن إسحاق بن راهويه، عن حكام بن سلم الرازي(٢)، وكان ثِقَةً، عن أبي جعفر الرَّازي به. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يَخرِّجاه. فهذا أقرب ما رُوِي في شأن الزُّهَرة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا مسلم، حدَّثنا القاسم بن الفضل الحُدَّاني، حدَّثنا يزيد -يعني الفارسي- عن ابن عبَّاس قال: إنَّ أهل سماء الدُّنيا أشرفوا علىٰ أهل الأرض فرَأَوْهُم يعملون المعاصي فقالوا: يَارَبِّ، أهل الأرض يَعْمَلُون بالمعاصي! فقال الله: أَنتُم معي، وهم غُيَّبٌ عَنِّي. فقيل لهم: اخْتَارُوا منكم ثلاثة، فاختاروا منهم ثلاثة علىٰ أَن يَهْبِطُوا إلىٰ الأرض، علىٰ أَن يحكموا بين أَهْل الأرض، وجَعَلَ فيهم شَهوةَ الآدميِّين، فأُمِرُوا أَلَّا يَشْرَبوا خمرًا ولا يَقْتُلوا نفسًا، ولا يَزْنُوا، ولا يَسْجُدوا لِوَثَنٍ. فاستقال منهم واحد، فأُقِيل. فأُهْبِط اثنان إلىٰ الأرض، فأَتَتْهُما امرأةٌ مِن أحسن النَّاس يقال لها: مَنَاهِيَة. فَهَوِيَاها جميعًا، ثم أَتَيا منزلها فاجتمعا عندها، فأَرَادَاهَا، فقالت لهما: لا حتَّىٰ تَشْرَبا خَمْرِي، وتقتلا ابن جَارِي، وتَسْجُدَا لِوَثَنِي. فقالا: لا نَسْجُدُ. ثم شَرِبَا مِن الخَمْرِ، ثمَّ قتَلا ثم سَجَدَا. فأشرف أهلُ السَّماء عليهما. فقالتْ لهما: أَخْبِرَانِي بالكلمةِ التي إذا قُلْتُمَاهَا طِرْتُمَا. فأخبراها فطَارت فمُسِخَت جَمْرَةً. وهي هذه الزُّهَرَةُ. وأمَّا هما فأرسل إليهما سليمان بن داود فخَيَّرَهُما بين عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذابَ الدُّنيا. فهُما مُنَاطَانِ بين السماء والأرض(٣).

وهذا السِّياق فيه زيادات كثيرة وإغراب ونَكَارة، والله أعلم بالصواب.

وقال عبد الرزاق: قال مَعْمَر: قال قتادة والزهري، عن عبيد الله بن عبد الله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ كانا مَلَكَين مِن الملائكة، فأُهْبِطَا لِيَحْكُمَا بين الناس. وذلك أَنَّ الملائكة سَخِرُوا مِن حُكَّام بني آدم، فحَاكَمَتْ إليهما امرأةٌ، فحَافَا لَهَا. ثم ذهَبَا يَصْعَدَان فحِيلَ بينهما وبين ذلك، ثم خُيِّرَا بين عذاب الدُّنيا وعذاب الآخِرَة، فاختارا عذابَ الدُّنيا. وقال مَعْمَر: قال قتادة: فكانا يُعَلِّمَان النَّاس السِّحْر، فأخذ عليهما أَلَّا يُعَلِّمَا أَحدًا حتَّىٰ يقُولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وقال أسباط عن السُّدِّي أنَّه قال: كان مِن أَمْرِ هاروت وماروت أنَّهما طَعَنَا علىٰ أهلِ الأرض في

(١) ابن أبي حاتم (١٠١٢) وفيه غرابة كذلك. والغالب أن هذه كلها الإسرائيليات. وانظر: كتاب «الفصل» لابن حزم (٣/ ٣٠٣-٣٠٨)، (٤/ ٦١-٦٥) وانظر إلىٰ ما قاله ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد سياق هذه الروايات كلها.

(٢) لوحة (١١٨ أ).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١/ ١٩١) وفيه يزيد الفارسي: مجهول.

أحكامهم، فقيل لهما: إنِّي أعطيت بني آدم عَشْرًا مِن الشَّهوات، فبِهَا يَعْصُونَنِي. قال هاروت وماروت: رَبَّنا، لو أَعْطَيْتَنَا تلك الشهوات ثمَّ نَزَلْنَا لَحَكَمْنَا بالعدل[1]. فقال لهما: انْزِلَا فقد أَعْطَيْتُكُما تلك الشهوات العشر، فاحكما بين النَّاس. فنزلا ببابل دَنْبَاوَنْد، فكانا يَحْكُمَان، حتَّىٰ إذا أَمْسَيَا عَرَجَا، فإذا أَصْبَحَا هبطا، فلم يزالا كذلك حتىٰ أَتَتْهُما امرأَةٌ تُخَاصِم زَوْجَها، فأَعجبهما من حُسْنِها -واسمها بالعربيَّة «الزُّهَرَة»، وبالنَّبَطِيَّة «بِيذُخت» وبالفارسية «أَنَاهِيد» -فقال أحدُهُما لصَاحِبِه: إنَّها لَتُعْجِبُنِي. قال الآخر: قَد أَرَدْتُ أَن أَذْكُرَ لكَ فَاسْتَحْيَيْتُ مِنك. فقال الآخر: هل لك أن أَذْكُرَهَا لنفسها؟ قال: نَعَم ولكن كيف لَنَا بعذابِ الله؟ قال الآخر: إنَّا لنَرْجُو رحمة الله. فلمَّا جاءتْ تُخَاصِم زَوْجَهَا ذكرَا إليها نَفْسَهَا، فقالت: لا حتَّىٰ تَقْضِيَا لي علىٰ زوجي. فقَضَيَا لهَا علَىٰ زَوْجِهَا، ثم وَاعَدَتْهُما خَرِبَةً من الخِرَبِ يَأْتِيَانِهَا فيها، فأَتَيَاها لِذَلِك. فلما أراد الذي يُوَاقِعُها قالت: ما أَنَا بالذي أفعل حتىٰ تُخْبِرَانِي بأيِّ كلام تَصْعَدَان إلىٰ السَّماء، وبأيِّ كلام تَنْزِلَان منها؟ فأخبراها، فتكلَّمَتْ فصَعِدت، فأنساها اللهُ مَا تَنْزِل به، فبَقِيَت مكانها، وجعلها اللهُ كوكَبًا. فكانَ عبد الله بن عُمر كلما رآها لَعَنَها، فقال: هذه التي فَتَنَتْ هاروت ومَارُوت، فلما كان اللَّيل أرادَا أَن يَصْعَدَا فلم يطيقا، فعرفا الهلكة فخُيِّرا بين عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة. فاخْتَارا عذاب الدُّنيا، فعَلِقَا ببابل، وجعلا يُكَلِّمان النَّاس كلامهما وهو السحر.

وقال ابن أبي نَجِيح عن مجاهد: أمَّا شأن هاروت وماروت، فإنَّ الملائكة عَجِبَتْ مِن ظُلْم بني آدم، وقَد جَاءَتْهُم الرُّسل والكُتُب والبيِّنَات، فقال لهم ربُّهم تعالىٰ: اختَارُوا مِنكُم مَلَكَيْن أُنْزِلُهما يَحْكُمَان في الأرض بين بَنِي آدَم فاختاروا، فلم يألوا إلا هَارُوتَ ومَارُوت، فقال لهما حين أنزلهما: أَعَجِبْتُما مِن بني آدمَ مِن ظُلْمِهم ومِن مَعْصِيَتِهم، وإنَّما تأتيهم الرسل والكتب والبيِّنات مِن وَرَاء وَرَاء، وأَنْتُما ليس بَيْنِي وبَيْنَكُما رسول، فافعلا كذا وكذا، ودَعَا كذا وكذا، فأمرهما بِأَمْرٍ ونَهَاهُمَا، ثمَّ نَزَلا علىٰ ذلك ليس أحدٌ أطوعَ لله منهما، فحكما فعدلا. فكانَا يَحْكُمَان في النَّهار بين بني آدم، فإِذَا أَمْسَيَا عَرَجَا فكانا مع الملائكة، ويَنْزِلَان حين يُصْبِحَان فيحكمان فيَعْدِلَان، حتىٰ أُنْزِلَت عليهما الزُّهَرة في أحسن صورة امرأةٍ تُخَاصِم، فقضيا عليها. فلما قامت وَجَدَ كُلُّ واحد منهما في نفسه، فقال أحدُهُما لصَاحِبِه: وَجَدْتَ مثل الَّذي وَجَدْتُ؟ قال: نَعَم. فبعَثَا إليها أَنِ ائْتِيَانَا نَقْضِ لك. فلمَّا رَجَعَت قالَا وقضيا لها، فأَتَتْهُما فتكَشَّفَا لها عَن عَوْرَتَيْهِمَا، وإنَّما كانت شَهْوَتهما في أنفسهما، ولم يكونا كبَنِي آدم في شهوة النِّساء ولَذَّتِها[2]. فلما بلغا ذلك واستحَلَّا افتُتِنا، فطارت الزُّهَرَة فرَجَعَت حيث كانت. فلما أَمْسَيَا عَرَجا فزُجِرَا فلم يُؤْذَن لهما، ولم تَحْمِلْهُما أَجْنِحَتَهُما. فاسْتَغَاثا برجلٍ مِن بني آدمَ فَأَتَيَاه، فقالا: ادعُ لنا ربَّك. فقال: كيف يشفعُ أَهلُ الأرضِ لأهل السَّماء؟ قالا: سَمِعْنَا ربَّك يَذْكُرُك بخَيرٍ في السَّماء. فوَعَدَهُما يومًا، وغدَا يَدْعُو لَهُما، فدعَا

---

(١) لوحة (١١٨ ب). (٢) لوحة (١١٩ أ).

لَهُمَا، فاسْتُجِيبَ له، فخُيِّرَا بين عذابِ الدُّنيا وعذاب الآخرة، فنَظَرَ أَحَدُهُما إِلَىٰ صَاحِبِه، فقال: أَلَا تَعْلَم أنَّ أفواجَ عذابِ اللهِ فِي الآخرة كذا وكذا في الخُلْد، وفي الدُّنيا تسع مَرَّاتٍ مثلها؟ فأُمِرَا أَن يَنْزِلَا بِبَابِل، فثَمَّ عذابهما. وزعم أنهما مُعَلَّقَان في الحديد مَطْوِيَّان، يُصَفِّقَان بِأَجْنِحَتِهِمَا.

وقد رَوَىٰ في قصَّة هاروتَ وماروت عَن جماعةٍ من التَّابعين، كمُجَاهد والسُّدِّي والحسن البصري وقتَادَة وأبِي العالية والزُّهري والرَّبيع بن أنس ومقاتل بن حيَّان وغيرهم، وقصَّهَا خلقٌ منَ المفسِّرين [من المتقدِّمين][1] والمتأخِّرين، وحاصَلُهَا راجعٌ في تفصيلها إلىٰ أخبار بني إسرائيل، إذْ ليس فيها حديث مرفوعٌ صحيحٌ مُتَّصِل الإسناد إلىٰ الصَّادق المصدوقِ المعصومِ الذي لا يَنْطِق عن الهوىٰ[2]، وظاهرُ سياقِ القرآن إجمالَ القصَّة مِن غير بَسْطٍ ولا إِطْنَابٍ فيها، فنحن نُؤْمِن بما وَرَد في القُرْآن علىٰ ما أَرَادَهُ الله تعالىٰ، والله أعلم بحقيقةِ الحال.

وقد وردَ أثرٌ غريبٌ وسياقٌ عجيبٌ في ذلك أَحببنا أن نُنَبِّه عليه، قال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا الرَّبيع بن سليمان، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني ابن أَبِي الزِّناد، حدَّثني هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ [رضي الله عنها وعن أبيها][3] أنَّها قالت: قَدِمَت امرأةٌ عليَّ مِن أَهْلِ دَوْمَةِ الجَنْدَل، جاءت تَبْتَغِي رسول الله ﷺ بعد موتِهِ حَدَاثَةَ[4] ذلك، تسأله عَن أشياء دخلت فيه مِن أَمْرِ السِّحر، ولم تعمل به. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لعُرْوَة: يا ابن أختي، فرَأَيْتُهَا تبكي حين لم تَجِدْ رسول الله ﷺ فيَشْفِيهَا، كانت تبكي حتىٰ إِنِّي لأرحمها، وتقولُ: إِنِّي أخافُ أَن أكون قد هَلَكْتُ. كان لي زوجٌ فغابَ عَنِّي، فدخلت علىٰ عجوزٍ فشَكَوْتُ ذلك إليها، فقالت: إِن فَعَلْتِ ما آمُرُكِ به فأجعله يَأْتِيكِ. فلما كان اللَّيل جاءتني بكَلْبَيْن أَسْوَدَيْن، فرَكِبْتُ أحدُهُما ورَكِبْتُ الآخر، فلم يكن كشيءٍ حتىٰ وقفنا ببابل، وإِذَا بِرَجُلَيْن معلَّقَيْن بأرجلهما. فقالا: ما جاء بكِ؟ فقلتُ: أَتَعَلَّم السِّحر. فقالا: إِنَّما نحن فتنةٌ فلا تَكْفُرِي، فارجعي. فأَبَيْتُ وقلت: لا. قالا: فَاذْهَبِي إِلىٰ ذلك التَّنُّور، فبُولِي فيه. فذهبت ففزعتُ ولم أفعل[5]، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم. فقالا: هل رَأَيْتِ شيئًا؟ فقلت: لم أَرَ شيئًا. فقالا: لم تَفْعَلِي، ارجعي إلىٰ بلادك ولا

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) ومن الوجوه المهمة في إبطال هذه القصص التي فيها أن الملكين كانا يعلمان السحر ما ذكره الرازي حيث عجب من قول من قال إن الملكين يعلمان السحر ويدعوان إليه في الوقت الذي يعاقبان فيه.

ومن الوجوه القوية أيضًا: ما نقله القاسمي عن الإمام أبي مسلم: أن السحر لو كان نازلًا عليهما لكان مُنْزِله هو الله، وذلك غير جائز؛ لأن السحر كفر وعبث لا يليق بالله إنزال ذلك.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) حِدْثان الأمر وحداثته: أوله وابتداؤه؛ تعني: عقب وفاة الرسول ﷺ.

(٥) لوحة (١١٩ ب).

تكفري [فإنَّك علىٰ رأس أمرك](١). فأرْبَبْت(٢) وأَبَيْت. فقالا: اذهبي إلىٰ ذلك التَّنُّور فبُولِي فيه. فذهبتُ [فاقشعررت وخفت ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيتِ؟ فقلت: لم أرَ شيئًا. فقالا: كذبتِ، لَمْ تفعلي، ارْجِعي إلىٰ بِلَادِكِ ولا تكْفُري؛ فإنَّك علىٰ رأس أمْرِكِ. فَأَرْبَبْتُ وأَبَيتُ. فقالا: اذهبي إلىٰ ذلك التَّنُّور، فبُولِي فيه. فذهبت](٣) إليه فبُلْتُ فيه، فرأيت فارسًا مقنعًا بحديد خَرَج مني، فذهب في السماء وغاب حتىٰ ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ قلتُ: رأيتُ فارسًا مقنَّعًا خرج مني فذَهَب في السَّماء، حتىٰ ما أراه. فقالا: صَدَقْتِ، ذلك إيمانك خرج مِنْكِ، اذهبي. فقلتُ للمرأة: والله ما أعلم شيئًا وما قالا لي شيئًا. فقالت: بلىٰ، لَمْ تُرِيدِي شيئًا إلا كان، خُذِي هذا القَمْحَ فَابْذُرِي، فبَذَرْتُ، وقلت: أَطْلِعِي فَأَطْلَعَتْ وقلت: أَحْقِلِي فَأَحْقَلَتْ ثم قلت: أَفْرِكِي فأفرَكَتْ. ثم قلت: أَيْبِسِي فَأَيْبَسَت. ثم قلت: أَطْحِنِي فَأَطْحَنَت. ثم قلت: أَخْبِزِي فَأَخْبَزَت. فلما رأيتُ أنِّي لا أُرِيد شيئًا إلا كان، سقط في يدي ونَدِمْت -والله- يا أمَّ المؤمنين، والله ما فَعَلْتُ شيئًا قطُّ ولا أفعله أبدًا(٤).

ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن سليمان به مطولًا كما تقدَّم. وزاد بعد قولها: ولا أفعله أبدًا: فَسَأَلَت أصحاب رسول الله ﷺ حداثةَ وفاة رسول الله ﷺ، وهم يومئذٍ مُتَوافِرُون، فما دَرَوْا ما يَقُولُون لها، وكُلُّهم هاب وخافَ أَن يُفْتِيهَا بما لا يعلمه، إلا أنَّه قد قال لها ابنُ عبَّاس - أو بعض مَن كان عنده-: لو كان أَبَوَاكِ حَيَّيْن أو أحدهما.

قال هشام: فلو جاءَتْنَا أُفْتِينَاهَا بالضَّمَان. قال ابن أبي الزناد: وكان هشام يقول: إنَّهم كانوا مِن أهل الورع وأهل خشيةٍ مِن الله. ثم يقول هشام: لو جاءَتْنَا مثلها اليوم لوَجَدَتْ نَوْكَىٰ أهلَ حُمْقٍ وتَكُلُّفٍ بغيرِ عِلْمٍ(٥).

فهذا إسنادٌ جَيِّدٌ إلىٰ عائشة ﵂.

وقد استدلَّ بهذا الأثر مَن ذهب إلىٰ أنَّ السَّاحر له تمكُّن في قلب الأعيان؛ لأنَّ هذه المرأةَ بَذَرَتْ واسْتَغَلَّت في الحال.

وقال آخرون: بل لَيسَ له قدرةٌ إلا علىٰ التَّخْيِيل، كما قال الله تعالىٰ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦] وقال تعالىٰ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]

(١) زيادة من (ح).
(٢) رب بالمكان وأرب :أقام به ولزمه فلم يبرحه.
(٣) زيادة من (ح).
(٤) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٤٦٠) وفيه ابن أبي الزناد: صدوق تغير حفظه، وبقية رجاله ثقات.
(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٠٣٩) وإسناده ضعيف كسابقه، فيه ابن أبي الزناد: صدوق تغير حفظه.

واستدلَّ به علىٰ أنَّ بابل المذكورة في القرآن هي بَابِل العراق، لا بَابِل دُنْيَاوَنْد كما قاله السُّدِّي وغيره.
ثمَّ الدَّليل علىٰ أنَّها بابل العِرَاق ما قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أحمد بن صالح، حدَّثني ابن وهب، حدَّثني ابن لَهِيعة ويحيىٰ بن أزهر، عن عمَّار بن سعد المرادي، عن أبي[1] صالح الغِفَاري أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه [مرَّ ببابِل وهو يَسيرُ، فجاء المؤذِّن يُؤْذِنُه بصلاة العصر، فلما برز منها أَمَرَ المؤذن فأقام الصلاة، فلما فَرَغَ][2] قال: إنَّ حبيبي ﷺ نهاني أن أُصَلِّي بأرضِ المَقْبَرةِ، ونَهَانِي أَن أُصَلِّي ببابل فإنَّها مَلْعُونَة[3].

وقال أبو داود: حدَّثنا سليمان بن داود، حدَّثنا ابن وهب، حدَّثني ابن لَهِيعة ويحيىٰ بن أزهر، عن عمار بن سعد المرادي، عن أبي صالح الغفاري: أنَّ عليًّا مرَّ ببابل، وهو يَسِير، فجاءه المؤذِّن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمرَ المؤذِّنَ فأقام الصلاة، فلما فَرَغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أُصَلِّي في المقبرة، ونَهَانِي أَن أُصَلِّي بأرضِ بَابِل، فإنَّها ملعونة[4].

حدَّثنا أحمد بن صالح: حدَّثنا ابن وهب، أخبرني يحيىٰ بن أزهر وابن لهيعة، عن الحجاج بن شداد، عن أبي صالح الغفاري، عن عليٍّ بمعنىٰ حديث سليمان بن داود، قال: فلما «خَرَجَ» مكان «بَرَزَ».

وهذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود؛ لأنَّه رواه وسكت عنه؛ ففيه مِن الفقهِ كَرَاهِيَة الصَّلاة بأرضِ بابل، كما تُكْرَه بديارِ ثمُود الذين نهىٰ رسولُ الله ﷺ عن الدُّخول إلىٰ منازلهم، إلَّا أن يكونوا باكين[5].

قال أصحاب الهيئة: وبُعْدُ ما بين بابل، وهي من إقليم العراق، عن البحر المحيط الغربي، [ويقال له: أوْقيانُوس][6][7] سبعون درجة، ويُسَمُّون هذا طولًا، وأما عرضها وهو بُعْدُ ما بينها وبين وسط الأرض من ناحيةِ الجنوب، وهو المسامت لخطِّ الاستواء، اثنان وثلاثون درجة، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ قال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عبَّاس، قال: فإذَا أتاهما الآتِي يُرِيدُ السِّحر نهياه أشدَّ النَّهْي، وقالا له: إنَّما نحن فتنةٌ فلا تَكْفُر، وذلك أنَّهما عَلِمَا الخير والشَّرَّ والكفر والإيمان، فعَرَفَا أنَّ السِّحر من الكُفْر. [قال][8] فإذا أبىٰ عَلَيْهِما أَمَرَاهُ أن يَأتِي مكان كذا وكذا، فإذا أَتَاه عَايَن الشَّيطَان فَعَلَّمَه، فإذَا

(١) لوحة (١٢٠ أ).
(٢) زيادة من «سنن أبي داود».
(٣) ضعيف: رواه أبو داود (٤٩٠- ٤٩١)، وأبو صالح الغفاري هو: سعيد بن عبد الرحمن: روايته عن علي مرسلة.
(٤) انظر ما قبله.
(٥) البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠)، وأحمد (٢/ ٣٤).
(٦) أَوْقِيَانُوس: اسم البحر المحيط الذي على طرفه جزيرة الأندلس، يخرج منه الخليج الذي يتصل بالروم والشام. «معجم البلدان» (١/ ٢٨٢).
(٧) في (ز): ويقابله أولياوس.
(٨) زيادة من (ح).

تَعَلَّم خرج منه النُّور، فنظر إليه ساطعًا في السَّماء، فيقول: يا حسرتاه! يا ويله! ماذا أصنع؟[1].

وعن الحسن البصري أنَّه قال في تفسير هذه الآية: نعم، أَنْزَل المَلَكَان بالسِّحر، ليُعَلِّمَا النَّاس البلاء الذي أراد الله أن يَبْتَلِي به النَّاس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يُعَلِّمَا أحدًا حتىٰ يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ رواه ابن أبي حاتم، وقال قتادة: كان أُخِذَ عليهما ألا يُعَلِّمَا أحدًا حتىٰ يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ أي: بلاء ابتلينا به ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وقال[2] قتادة و السُّدِّي: إذا أتاهُما إنسانٌ يُريدُ السِّحر، وَعَظَاه، وقالا له: لا تَكْفُر، إنَّما نحن فتنةٌ. فإذا أَبَىٰ قالا له: ائتِ هذا الرماد، فبُلْ عَلَيْه. فإذا بال عليه خرجَ منه نورٌ فَسَطَع حتَّىٰ يدخل السماء، وذلك الإيمان. وأقبل شيءٌ أسودُ كهيئة الدُّخان حتىٰ يدخل في مَسَامِعِهِ وكلِّ شيء منه. وذلك غضبُ الله. فإذا أخبرهما بذلك علَّماه السِّحر، فذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية.

وقال سُنَيد، عن حجاج، عن ابن جريج في هذه الآية: لا يجترئ علىٰ السِّحر إلا كافر.

وأما الفِتْنَة فهي المحنة والاخْتِبَار، ومنه قول الشاعر:

وَقَــدْ فُــتِنَ النَّــاسُ فِــي دِيــنِهِمْ ... وَخَلَّــىٰ ابْــنُ عَفَّــانَ شَــرًّا طَــوِيلَا

وكذلك قولُه تعالىٰ إخبارًا عن موسىٰ ﷺ حيث قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ الآية. [الأعراف: ١٥٥].

وقد استدلَّ بعضهُم بهذه الآية علىٰ تكْفِيرِ مَن تعلَّم السِّحر، ويُستَشْهَد له بالحديث الذي رَواه الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، عن عبد الله، قال: «مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ».

وهذا إسنادٌ جيِّدٌ وله شواهد أخر[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: فيتعلَّم الناس مِن هاروت وماروت مِن علم السحر ما يتصرَّفون به فيما يتصرَّفون فيه مِن الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرِّقُون به بين الزوجين المرء وزوجه مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف. وهذا مِن صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في «صحيحه»، من حديث الأعمش، عن أبي سفيان طلحة بن نافع، عن جابر بن

---

(١) ابن أبي حاتم (١/ ١٩٢) رقم (١٠١٠)، وتقدم أن ابن عبَّاس ممن أخذوا من كتب بني إسرائيل، فلا يعول على هذه الإسرائيليات.

(٢) لوحة (١٢٠ ب).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجة (٦٣٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» كما في «تحفة الأشراف» (١٠/ ١٢٤).

عبد الله رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَضَعُ عَرْشَهُ عَلَىٰ المَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ، فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا زِلْتُ بِفُلَانٍ حَتَّىٰ تَرَكْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ إِبْلِيسُ: لَا وَاللهِ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. وَيَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّىٰ فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ قَالَ: فَيُقَرِّبُهُ وَيُدْنِيهِ وَيَلْتَزِمُهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ»[(١)].

[رجَّح شيخُنا أبو الحجَّاج المزيِّ فَتْحَ النُّون وراجَعْتُهُ فثبَتَ علىٰ ذلك، والمشهورُ عند النُّحاة الكسْر، واحتجَّ به بعضهم علىٰ جَوازِ كون فاعل «نِعْمَ» مضمرًا وهو قليل][(٢)].

وسبب التَّفرق بين الزَّوجين بالسِّحر: ما يُخيَّل إلىٰ الرجل أو المرأة مِن الآخَر مِن سوء مَنْظَرٍ، أو خُلُقٍ أو نحو ذلك أو عَقْدٍ أو بَغْضَةٍ، أو نحو ذلك من الأسباب المُقْتَضِية للفُرقة[(٣)].

والمرءُ عبارة عن الرَّجل، وتأنيثُه امرأة، ويُثنَّىٰ كل منهما ولا يُجْمَعان، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله. وقال محمَّد بن إسحاق: إلا بتَخْلِيَة الله بيْنَه وبين ما أراد. وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال: نَعَم، مَن شاءَ الله سَلَّطَهُم عليه، ومَن لم يَشَأ الله لم يُسلَّط، ولا يستطيعون ضرَّ أحدٍ إلا بإذن الله، كما قال الله تعالىٰ، وفي روايةٍ عن الحسن أنَّه قال: لا يضر هذا السحر إلا مَن دخل فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: يضرهم في دِينِهم، وليس له نَفْعٌ يُوازِي ضَرَرَهُ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي: ولقد عَلِمَ اليهود الذين استبدلوا بالسِّحر عَن متابعة الرَّسول ﷺ لمن فَعَل فعلهم ذلك، أنَّه ما له في الآخرة مِن خَلَاق.

قال ابن عبَّاس ومجاهد والسُّدِّي: مِن نَصِيبٍ. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ما له في الآخرة مِن جِهَةٍ عند الله وقال: قال الحسن: ليس له دِين.

وقال سعد عن قتادة: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ قال: ولقد عَلِمَ أهلُ الكتابِ فيما عَهِدَ الله إليهم أنَّ السَّاحر لا خلاق له في الآخرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ[(٤)] لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالىٰ: ﴿وَلَبِئْسَ﴾ البديل ما اسْتَبْدَلوا به مِن

---

(١) مسلم (٢٨١٣).　(٢) زيادة من (ح).　(٣) لوحة (١٢١ أ).

(٤) قال ابن عثيمين رحمه الله: الأولىٰ أن نقول: هي خيرية مطلقة . خير من كل شيء .؛ واللام في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ واقعة في جواب ﴿لَوْ﴾؛ ويوقف عند قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ ولا توصل بما بعدها؛ لأنها لو وصلت به لاختل المعنىٰ، حيث تكون مع الوصل: المثوبة خير بشرط العلم؛ والأمر ليس كذلك؛ وعلىٰ هذا فجواب ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ محذوف تقديره: لآمنوا واتقوا.

السِّحر عوضًا عن الإيمان، ومتابعة الرسل لو كان لهم عِلْمٌ بما وُعِظُوا به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي: ولو أنَّهم آمنوا بالله ورُسُلِه واتَّقُوا المحارم، لكان مثوبةُ الله علىٰ ذلك خيرًا لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد يُستَدلُّ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ مَن ذهب إلىٰ تكفير السَّاحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفةٍ مِن السَّلف. وقيل: بل لا يَكْفُر، ولكن حَدُّهُ ضَرْبُ عُنُقِه، لما رواه الشافعي وأحمد ابن حنبل -رحمهما الله-: أخبرنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أنَّه سَمِع بجالة بن عَبَدَةَ يقول: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ أنِ اقتلوا كلَّ ساحرٍ وساحرةٍ. قال: فقَتَلْنا ثلاثَ سَوَاحِر. وقد أخرجه البخاري في «صحيحه» أيضًا(١). وهكذا صحَّ أنَّ حفصة(٢) أمَّ المؤمنين سَحَرَتْها جاريةٌ لها، فأَمَرَتْ بها فقُتِلَتْ. قال أحمد بن حنبل: صحَّ عَن ثَلَاثَةٍ مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ [أذِنُوا](٣) في قَتْلِ السَّاحِر.

وروىٰ التِّرمذي مِن حديث إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جندب الأزدي أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**»(٤).

ثم قال: لا نعرفه مرفوعًا إلا مِن هذا الوجه. وإسماعيل بن مسلم يُضعَّف في الحديث، والصحيح: عن الحسن عن جُنْدُب موقوفًا.

قلتُ: قد رواه الطبراني من وجه آخر، عن الحسن، عن جندب، مرفوعًا. والله أعلم.

وقد رُوِيَ مِن طرقٍ متعدِّدة أنَّ الوليد بن عقبة كان عندَهُ سَاحرٌ يَلْعَب بين يديه، فكان يَضْرِب رأس الرَّجل ثم يَصِيحُ به فيرد إليه رأسه، فقال النَّاس: سبحانَ الله! يُحْيِي المَوْتَىٰ! ورَآهُ رَجُلٌ مِن صَالِحِي المهاجرين، فلما كان الغدُ جَاءَ مُشْتَمِلًا علىٰ سيفه، وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجلُ سَيْفَهُ فضرب عُنُقَ السَّاحِر، وقال: إن كان [صادقًا](٥) فَلْيُحيِي نفسه. وتلا قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣] فغَضِبَ الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسَجَنَه ثمَّ أَطْلَقَهُ، والله أعلم(٦).

---

(١) البخاري (٣١٥٦). (٢) لوحة (١٢١ ب).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) ضعيف: رواه الترمذي (١٤٦٠)، والحاكم (٤/ ٣٦٠)، وفي إسناده إسماعيل بن مسلم. قال الذهبي في «الضعفاء»: متفق علىٰ ضعفه. والطريق الأخرىٰ التي ذكرها ابن كثير. ضعيفة أيضًا، ومدار الطريقين علىٰ الحسن البصري وهو مدلس. والحديث ضعفه الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٣٦)، والألباني في «الضعيفة» (١٤٤٦) لكن الموقوف صحيح. كما ذكر ابن كثير وسيأتي.

(٥) في الأصول: [ساحرًا]، والمثبت من مصادر التخريج.

(٦) صحيح: ورواه الحاكم (٤/ ٣٦١)، وانظر: «الضعيفة» للألباني (٣/ ٦٤١).

وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدَّثني أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثني أبو إسحاق، عن حارثة قال: كانَ عند بعض الأُمَرَاء رجلٌ يَلْعَب فجاء جُنْدُبٌ مُشْتَمِلًا علىٰ سَيفِه فقتَلَه، فقال: أَرَاهُ كان ساحرًا، وحمل الشافعي رحمه الله قصَّة عُمر، وحَفصة علىٰ سِحْرٍ يكون شركًا. والله تعالىٰ أعلم [وأحكم][(١)].

فصل

حكىٰ أبو عبد الله الرَّازي في «تفسيره» عن المعتزلة أنَّهم أنكرُوا وجود السِّحر، قال: ورُبَّما كفَّرُوا مَن اعتقد وجودَه. قال: وأما أهل السُّنَّة فقد جوَّزُوا أن يَقْدِر السَّاحر أن يَطِيرَ في الهواء، وأن يَقْلِب الإنسان حمارًا، والحمار إنسانًا، إلا أنَّهم قالوا: إنَّ الله يخلق الأشياءَ عندما يقول السَّاحر تلك الرُّقىٰ وتلك الكلمات المُعَيَّنة، فأمَّا أن يكون المؤثِّر في ذلك هو الفَلَكُ والنُّجوم فلا، خلافًا للفَلَاسفة والمنجمين الصابئة، ثم استدل علىٰ وُقوع السحر وأنَّه بخلق الله تعالىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ومن الأخبار بأنَّ رسول الله ﷺ سُحِر، وأنَّ السِّحْرَ عَمِل فيه، وبِقِصَّة تلك المرأة مع عائشة رضي الله عنها وما ذكرت تلك المرأة من إِتْيَانها بابل وتَعَلُّمِهَا السِّحر، قال: وبما يذكر في هذا الباب مِن الحكايات الكثيرة[(٢)]، ثم قال بعد هذا:

المسألة الخامسة: في أنَّ العلم بالسِّحر ليس بِقَبِيحٍ ولا محظور: اتَّفقَ المحقِّقون علىٰ ذلك؛ لأنَّ العلم لذاته شريفٌ، وأيضًا لعموم قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] ولأنَّ السِّحر لو لم يُعْلَم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلمُ بكون المعجِز مُعْجِزًا واجب، وما يَتوقَّف الواجب عليه فهو وَاجِبٌ؛ فهذا يقتضي أَن يكون تَحْصِيل العلم بالسِّحر واجبًا، وما يكون واجبًا فكيف يكون حرامًا وقَبِيحًا؟!.

هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظرٌ مِن وجوهٍ: أحدها: قولُهُ: «العِلْم بالسِّحر ليس بقبيحٍ». إن عَنَىٰ به ليس بقبيحٍ عقلًا فمُخَالِفُوه من المعتزلة يَمْنَعُون هذا، وإن عنىٰ أنَّه ليس بقبيحٍ شرعًا، ففي هذه الآية الكريمة تَبْشِيعٌ لِتَعَلُّم السِّحر، وفي «الصحيح»: «**مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ**»[(٣)]. وفي «السُّنن»: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً وَنَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ**»[(٤)]. وقوله: «ولا محظُور اتَّفق المحقِّقون علىٰ ذلك». كيف لا يكون محظُورًا مع ما ذكرناه مِن الآية والحديث؟!

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) لوحة (١٢٢ أ).
(٣) صحيح: رواه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجة (٦٣٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٩٦٨)، وقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «في الصحيح» إن أراد به أحد الصحيحين فهو وهم، وإن أراد به صحة الحديث فله ذلك.
(٤) ضعيف: رواه النسائي (٧/ ١١٢) من رواية الحسن عن أبي هريرة: وهو لم يسمعه فالإسناد منقطع، والحديث ضعفه الذهبي في «الميزان» (٢/ ٣٧٨)، وابن حجر في «التلخيص» (٤/ ٤١)، والألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧١٤).

واتِّفاق المحققين يَقْتَضِي أن يكون قد نَصَّ علىٰ هذه المسألة أئمَّة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم علىٰ ذلك؟ ثم إِدْخَالُه علمَ السِّحر في عمومِ قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه نظرٌ؛ لأنَّ هذه الآية إنَّما دلَّت علىٰ مَدْحِ العالمين بالعلم الشَّرْعِيِّ، ولِم قلتَ إنَّ هذا مِنهُ؟ ثم تَرَقِّيهِ إلىٰ وجوب تَعَلُّمِه بأنَّه لا يحصل العِلمُ بالمُعْجِزِ إلَّا به ضَعِيفٌ بل فاسدٌ؛ لأنَّ معظم معجزات رسولنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هي القرآن العظيم، الذي لا يأْتِيه البَاطل مِن بَينِ يَدَيْه ولا مِن خلفه تنزيلٌ مِن حكيم حميدٍ. ثمَّ إنَّ العلم بأنَّه مُعْجِز لا يتوقَّف علىٰ علمِ السِّحر أصلًا ثمَّ من المعلوم بالضَّرورة أنَّ الصَّحابة والتَّابعين وأئمَّة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرِّقُون بينه [وبين][1] غيره، ولم يكونوا يَعْلَمُون السِّحر ولا تعلَّمُوه ولا علَّمُوه، والله أعلم.

ثمَّ قد ذكر أبو عبد الله الرازي أن أنواع السحر ثمانية:

الأوَّل: سحرُ الكلدَانِيين والكُشْدانيين[2]، الذين كانوا يَعبدون الكواكب [السبعة][3] المتحيِّرة، وهي السَّيَّارة، وكانوا يَعْتَقِدون أنها مُدَبِّرة العالم وأنَّها تأتي بالخير والشَّرِّ، وهم الذين بُعِثَ إليهم إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبْطِلًا لمقالتهم ورادًّا لمذهبهم وقد استقصىٰ في «كتاب السِّرِّ المكتوم، في مخاطبة[4] الشَّمس والنُّجوم» المنسوب إليه فيما ذكره القاضي ابن خلِّكان وغيره ويقال: إنَّه تاب منه. وقيل: إنَّه صَنَّفه علىٰ وجهِ إظهار الفضيلة لا علىٰ سبيل الاعتقاد. وهذا هو المظنون به، إلا أنَّه ذكر فيه طَرَائِقَهُم في مخاطبة كلٍّ مِن هذه الكواكب السبعة، وكَيْفِيَّة ما يفعلون وما يَلْبَسُونه، وما يَتَنَسَّكون به.

قال: والنوع الثاني: سحر أصحَابِ الأَوْهَام والنُّفوس القَوِيَّة، ثم استدلَّ علىٰ أنَّ الوهم له تأثيرٌ، بأنَّ الإنسان يُمْكِنُه أَن يمشي علىٰ الجِسْر الموضوع علىٰ وجهِ الأرض، ولا يُمْكِنُه المشي عليه إذا كان ممدودًا علىٰ نَهْرٍ أو نحوه. قال: وكما أجمعت الأطباء علىٰ نهي المَرْعُوف عن النَّظر إلىٰ الأشياء الحُمْر، والمصروع إلىٰ الأشياء القويَّة اللَّمعان أو الدَّوَران، وما ذاك إلا لأنَّ النُّفوس خُلِقَت مُنْطَبِعة للأوهام.

قال: وقد اتَّفق العُقلَاء علىٰ أنَّ الإصابة بالعين حقٌّ.

وله أن يستدل علىٰ ذلك بما ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**العَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ القَدَرِ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ**»[5].

قال: فإذا عَرَفْت هذا، فنقول: النَّفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قويَّةً جدًّا، فتستغني في هذه الأفاعيل عنِ الاستعانة بالآلَات والأدوات، وقد تكون ضعيفةً فتحتاج إلىٰ الاستعانة بهذه الآلات.

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) طائفتان يعبدون الكواكب «تاج العروس» (٩/ ١١٠) و(١١٢).
(٣) زيادة من (ح). (٤) لوحة (١٢٢ ب). (٥) مسلم (٢١٨٨)، والترمذي (٢٠٦٢).

وتحقيقُه أنَّ النَّفس إذا كانت مُشْتَغِلَةً عَن البدن شديدةَ الانجذاب إلىٰ عالم السموات، صارت كأنَّها رُوح مِن الأرواح السَّماوية، فكانت قويَّةً علىٰ التَّأثير في موادِّ هذا العالم. وإذا كانت ضعيفةً شديدةَ التَّعَلُّق بهذه الذَّات البدنيَّة، فحينئذٍ لا يكون لها تصرُّفٌ البتَّة إلا في هذا البدن. ثمَّ أرشد إلىٰ مُداوَاة هذا الدَّاء بتقليلِ الغِذَاء، والانقطاع عن النَّاس والرِّياضة.

قلتُ: وهذا الَّذِي يُشِير إليه هو التَّصَرُّف بالحال، وهو علىٰ قسمين: تارةً تكون حالًا صحيحةً شرعيَّةً يتصرَّف بها فيما أمرَ الله ورسوله ﷺ، ويترك ما نهىٰ الله عنه ورسوله، وهذه الأحوال مواهبُ مِن الله تعالىٰ وكراماتٌ للصَّالحين مِن هذه الأُمَّة، ولا يُسمَّىٰ هذا سحرًا في الشَّرع. وتارةً تكون الحال فاسدةً لا يمتثل صاحبُها ما أمرَ الله ورسوله ﷺ ولا يَتَصَرَّف بها في ذلك. فهذه حال الأَشْقِياء المخالفين للشَّريعة، ولا يدل إعطاءُ الله إيَّاهم هذه الأحوال علىٰ محبَّتِه لهم، كما أنَّ[1] الدَّجَّال -لعنه الله- له مِن الخوارق والعادَات ما دَلَّت عليه الأحاديث الكثيرةُ، مع أنَّه مذمومٌ شرعًا لعنه الله. وكذلك مَن شَابَهَهُ مِن مخالفي الشَّريعة المحمَّدية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وبَسْطُ هذا يطولُ جدًّا، وليس هذا موضعه.

قال: النوع الثالث مِن السِّحر: الِاسْتِعَانَة [بالأَرْوَاح][2] الأرضيَّة، وهم الجنُّ، خلافًا للفلاسفة والمعتزلة: وهم علىٰ قسمين: مُؤْمِنُون، وكُفَّار، وهم الشَّياطينُ. قال: واتِّصال النُّفوس النَّاطقة بها أسهَل مِن اتِّصالها بالأرواح السَّماوِيَّة، لما بينهما من المناسبة والقُرب، ثم إنَّ أصحاب الصَّنْعَة وأرباب التَّجْرُبَة شاهدوا أنَّ الاتصال بهذه الأرواح الأرضيَّة يَحْصُل بأعمالٍ سهلةٍ قليلةٍ مِن الرُّقىٰ والدَّخَل والتَّجْرِيد. وهذا النَّوع هو المسمَّىٰ بالعزائم وعمل التَّسْخِير.

النَّوع الرَّابع من السحر: التَّخَيُّلَات، والأخذ بالعُيونِ والشَّعْبَذَةِ، ومبناه علىٰ أنَّ البَصَر قد يُخْطِئُ ويَشْتَغِل بالشيءِ المعيَّن دون غيره، ألا ترىٰ أن المُشَعْبِذَ الحاذِقَ يُظهِرُ عمل شيءٍ يُذهل أذهان النَّاظرين به، ويأخذ عُيُونَهُم إليه، حتىٰ إذا استفرغهم الشُّغل بذلك الشيءِ بالتَّحْدِيق ونحوه، عَمِل شيئًا آخر عَمَلًا بسرعةٍ شديدةٍ، وحينئذٍ يظهر لهم شيءٌ آخر غير ما انتظروه. فيتعجَّبون منه جدًّا، ولو أنَّه سكت ولم يتكلَّم بما يَصْرِف الخواطر إلىٰ ضدِّ ما يريد أن يعمله، ولم تتحرَّك النُّفوس والأوهام إلىٰ غير ما يُرِيد إخراجه، لفَطِنَ النَّاظرون لكلِّ ما يفعله.

قال: وكُلَّما كانت الأحوال التي تُفِيد حسن البصر نوعًا مِن أنواع الخَلَل أَشَد، كان العمل أحسنَ، مثل أن يَجْلِس المُشَعْبِذَ في موضعٍ مضيءٍ جدًّا، أو مُظلمٍ، فلا تقفُ القوَّة النَّاظرةُ علىٰ أحوالها بكلالها والحالة هذه.

قلتُ: وقد قال بعض المفسرين: إنَّ سِحْر السَّحَرَةِ بين يديْ فرعون إنَّما كان مِن باب الشَّعْبَذَةِ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] قالوا: ولم تكن تَسْعَىٰ في نفس الأمر. والله أعلم.

النَّوع الخامس من السِّحر: الأعمالُ العَجِيبة التي تَظْهَر مِن تركيب الآلات المركبة منَ النِّسب الهندسيَّة، كفارسٍ[1] علىٰ فرسٍ في يده بوق، كلما مضتْ ساعة من النَّهار ضرب مرةً بالبوق، مِن غيرِ أن يَمَسَّه أحدٌ. ومنها الصور التي تُصَوِّرها الرومُ والهند، حتىٰ لا يُفَرِّق النَّاظر بينها وبين الإنسان، حتىٰ يُصَوِّرُونها ضاحكةً وباكِيةً.

إلىٰ أن قال: فهذه الوجوه مِن لطيف أُمور المخَايِيل. قال: وكان سِحر سحَرَة فرعون مِن هذا القبيل.

قلت: يعني ما قاله بعضُ المفسِّرين: أنهم عمدوا إلىٰ تلك الحبال والعِصِيِّ، فحَشَوْها زِئْبَقًا فصارت تتلوَّىٰ بسبب ما فيها من ذلك الزِّئبق، فيخيَّل إلىٰ الرَّائِي أنَّها تسعىٰ باختيارها.

قال الرَّازي: ومِن هذا الباب تركيب صندوق السَّاعات، ويندرج في هذا الباب علم جَرِّ الأَثْقَال بالآلات الخفيفة.

قال: وهذا في الحقيقة لا يَنْبَغِي أن يُعَدَّ مِن باب السحر؛ لأنَّ لها أسبابًا معلومةً يقينيَّةً مَن اطَّلَع عليها قَدَرَ عليها.

قلتُ: ومِن هذا القبيل حِيَل النَّصارىٰ علىٰ عَامَّتِهم، بما يُرُونَهم إيَّاه من الأنوار، كقَضِيَّة قُمَامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس، وما يَحْتَالُون به مِن إدخال النَّار خُفْيَةً إلىٰ الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعَةٍ لطيفَةٍ تروج علىٰ العوامِّ منهم، وأمَّا الخواصُّ فهم يَعْتَرِفُون بذلك، ولكن يَتَأَوَّلون أنهم يَجْمَعُون شمل أصحابهم علىٰ دينهم، فيَرَوْن ذلك سائغًا لهم. وفيه شبهة للجهلة الأغبِياء مِن متعبدي الكَرَّاميَّة[2] الذين يَرَوْن جواز وضع الأحاديث في التَّرغيب والتَّرهيب، فيدخلون في عداد مَن قال رسول الله ﷺ فيهم: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[3]. وقوله: «حَدِّثُوا عَنِّي وَلَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ يَكْذِبْ عَلَيَّ يَلِجُ النَّارَ»[4].

ثم ذكر هاهنا حكاية عَن بعض الرُّهبان، وهو أنَّه سمع صوت طائرٍ حزين الصَّوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور تَرِقُّ له فتذهب فتُلْقِي في وَكْره مِن ثمر الزَّيتون، ليَتَبَلَّغ به، فعَمَد هذا

---

(١) لوحة (١٢٣ ب). (٢) تقدم التعريف بهم في تفسير الفاتحة.

(٣) البخاري (١٠٧، ١١٠)، ومقدمة مسلم (٢، ٣، ٤) والحديث له شواهد كثيرة، وهو من الأحاديث التي يذكرها العلماء مثالًا للأحاديث المتواترة، حتىٰ قالوا: رواها عن النَّبيِّ ﷺ أكثر من سبعين صحابيًّا.

(٤) البخاري (١٠٦)، ومقدمة مسلم (١).

الراهبُ إلىٰ صنعة طائر علىٰ شكله، وتوصَّل إلىٰ أن جعله أجوف، فإذا دَخَلَتْه الريح يُسْمَع له صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع في صَوْمَعَةٍ ابتناها، وزعم[١] أنَّها علىٰ قَبْرِ بعض صالحيهم، وعلَّق ذلك الطائر في مكانٍ منها، فإذا كان زمانُ الزَّيتون فتح بابًا مِن ناحيه، فتدخل الرِّيح إلىٰ داخل هذه الصورة، فَيُسْمَعُ صوتها كذلك الطائر في شكله أيضًا، فتأتي الطيور فتحمل مِن الزَّيتون شيئًا كثيرًا فلا ترىٰ النَّصارىٰ إلا ذلك الزيتون في هذه الصَّومعة، ولا يدرون ما سَبَبُه؟ ففَتَنَهُم بذلك، وأَوْهَم أنَّ هذا مِن كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتتابعة إلىٰ يوم القيامة.

قال الرَّازي: النَّوع السَّادس من السِّحر: الاستعانةُ بخواصِّ الأدوية؛ يَعني: في الأطعمة والدهانات. قال: واعلم أَن لا سَبيل إلىٰ إنكار الخواصِّ، فإنَّ أثر المغْنَاطِيس مُشَاهَدٌ.

قلتُ: يدخل في هذا القَبيل كثيرٌ ممن يَدَّعي الفقر ويَتَحَيَّل علىٰ جهلة الناس بهذه الخواص، مُدَّعِيًا أنها أحوال لَه من مخالطة النِّيران ومسك الحيَّات إلىٰ غير ذلك من المحالات.

قال: النَّوع السابع من السِّحر: تعليقُ القلب، وهو أن يَدَّعِي الساحرُ أنَّه عرف الاسم الأعظم، وأنَّ الجن يُطِيعونَه ويَنْقَادُون له في أكثر الأمور، فإذَا اتَّفَق أن يكون ذلك السَّامع لذلك ضعيفَ العقل قليلَ التَّمييز اعتقد أنَّه حق، وتعلَّق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوعٌ مِن الرَّهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوىٰ الحسَّاسة فحينئذٍ يتمكَّن الساحرُ أن يفعل ما يشاء.

قلتُ: هذا النَّمط يقال له: التَّنَبُّلَة، وإنَّما يروج علىٰ الضُّعفاء العُقُول مِن بني آدم. وفي علم الفَرَاسة ما يُرشد إلىٰ معرفةِ كامل العقلِ مِن ناقصه، فإذا كان المُتَنَبِّلُ حَاذِقًا في عِلْم الفراسة عَرَف مَن ينقاد له مِنَ الناس مِنْ غيره.

قال: النَّوع الثامن من السحر: السَّعي بالنَّمِيمة والتَّضريب[٢] مِن وُجوهٍ خفيَّةٍ لطيفةٍ، وذلك شائعٌ في النَّاس.

قلت: النَّمِيمَة علىٰ قِسْمَيْن: تارةً تكون علىٰ وَجه التَّحريش [بين الناس][٣] وتفريقِ قلوب المؤمنين، فهذا حرامٌ متَّفق عليه. فأما إذا كانت علىٰ وجه الإصلاح [بين الناس] وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث: «لَيْسَ بِالكَذَّابِ مَنْ يَنُمُّ خَيْرًا»[٤]، أو يكون علىٰ وجه التخذيل والتفريق[٥] بين جموع الكفرة فهذا أمرٌ مطلوبٌ، كما جاء في الحديث: «الحرب خدعة»[٦]. وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقِهِ بين كلمة الأحزاب وبين قريظة، وجاء إلىٰ هؤلاء فنَمَىٰ إليهم عَن هؤلاء كلامًا، ونقل من هؤلاء إلىٰ أولئك شيئًا آخر، ثم لأَمَ بين ذلك، فتَنَاكرت النفوس وافترقت.

---

(١) لوحة (١٢٤ أ). (٢) يعني: الإغراء. (٣) زيادة من (ح).

(٤) البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (١٦٠٥)، وأحمد (٦/ ٤٠٣)، وأبو داود (٤٩٢٠)، والترمذي (١٩٣٨).

(٥) لوحة (١٢٤ ب).

(٦) البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩)، وأبو داود (٢٦٣٦)، والترمذي (١٦٧٥).

وإنَّما يحذو علىٰ مثل هذا الذَّكاء والبَصيرة النَّافذة. والله المستعان.

ثم قال الرَّازي: فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه.

قلتُ: وإنَّما أدخل كثيرًا مِن هذه الأنواع المذكورة في فنِّ السحر، لِلَطَافة مداركها؛ لأنَّ السحر في اللغة: عبارة عما لَطُف وخَفِي سببه. ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[(١)]. وسُمِّي السُّحور لكونه يقع خفيًّا آخِرَ الليل، والسَّحْر: الرِّئة، وهي محل الغذاء[(٢)]، وسُمِّيت بذلك لخفائها ولُطْفِ مجاريها إلىٰ أجزاء البدن وغُضُونه، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انْتَفَخَ سِحْرُكَ؛ أي: انتفخت رئته مِن الخوف. وقالت عائشة ﵂: تُوُفِّي رسول ﷺ بين سَحْري ونَحْري[(٣)]. وقال تعالىٰ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ أي: أخفوا عنهم عملهم، والله أعلم.

وقال أبو عبد الله القرطبي: وعندنا أنَّ السِّحر حقٌّ، وله حقيقةٌ يخلق الله عنده ما يشاء خلافًا للمعتزلة، وأبي إسحاق الإسفراييني مِنَ الشَّافعيَّة، حيث قالوا: إنَّه تمويهٌ، وتخييلٌ. قال: ومِن السحر ما يكون بخفَّة اليد كالشَّعْوَذَة، والشعوذيُّ: البريد؛ لخفةِ سَيْرِه.

قال ابن فارس: وليست هذه الكلمة من كلام البادية.

قال القرطبي: ومِنه ما يكون كلامًا يُحْفَظ، ورقًىٰ مِن أسماء الله تعالىٰ، وقد يكون مِن عُهُودِ الشَّياطين، ويكون أَدْوِيَةً، وأَدْخِنَةً، وغير ذلك. قال: وقوله ﷺ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»، يحتمل أن يكون مدحًا كما تقوله طائفةٌ، ويحتمل أن يكون ذمًّا للبلاغة قال: وهذا أصحُّ. قال: لأنَّها تصوب الباطل حتىٰ تَوَهَّم السامع أنه حقٌّ، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَلَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ**»[(٤)] الحديث.

فصل

وقد ذكر الوزير أبو المظفَّر يحيىٰ بن محمَّد بن هبيرة في كتابه: «الإشراف علىٰ مذاهب الأشراف» بابًا في السِّحر، فقال: أجمعوا علىٰ أنَّ السحر له حقيقةٌ إلا أبا حنيفةَ، فإنَّه قال: لا حقيقة له عندَه. واختلفوا فيمن يتعلَّم السِّحر ويَسْتَعْمِلُه، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يَكْفُرُ بذلك. ومِن أصحاب أبي حنيفة من قال: إنْ تَعَلَّمه لِيَتَّقِيه أو لِيَجْتَنِبَه فلا يكفر، ومن تَعَلَّمَه مُعْتَقِدًا جوازه أو أنه ينفعه كَفَر. وكذا مَن اعتقد أنَّ الشياطين تفعل لَه مَا يشاء فهوَ كافرٌ. وقال الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا تعلَّم السِّحر قلنا له: صِفْ لنا سِحْرَك. فإن وصف ما يُوجِب الكُفْر مثل ما اعتقده أهل بابل مِن التَّقَرُّب إلىٰ الكواكب السبعة، وأنَّها

---

(١) البخاري (٥١٤٦)، وأبو داود (٥٠٠٧)، والترمذي (٢٠٢٩).

(٢) قال ابن الأثير: «وقيل: السَّحْر ما لَصِق بالحُلقوم من أعْلَى البَطْن». «النهاية».

(٣) البخاري (٤٤٥١)، ومسلم (٢٤٤٣).

(٤) البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣)، وأبو داود (٣٥٨٣)، والترمذي (١٣٣٩)، وابن ماجة (٢٣١٧).

تفعل ما يَلْتَمِسُ منها، فهو كافر. وإن كان لا يُوجِب الكفر فإنِ اعتقد إباحته فهو كافر.

قال ابن هُبَيْرة: وهل يُقْتَل بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نَعَم. وقال الشَّافعي وأبو حنيفة[١]: لا. فأمَّا إن قَتَل بِسْحِرِه إنسانًا فإنه يُقْتل عند مالك والشافعي وأحمد. وقال أبو حنيفة: لا يُقْتَل حتىٰ يتكَّرر منه ذلك أو يُقِرّ بذلك في حَقّ شخصٍ معيَّنٍ. وإذا قُتِل فإنَّه يُقتَل حدًّا عندهم إلا الشَّافعي، فإنه قال: يقتل -والحالة هذه- قَصَاصًا.

قال: وهل إذا تاب السَّاحر تُقْبَل تَوْبَتُه؟ فقال مالك، وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهما: لَا تُقْبَل. وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرىٰ: تُقْبَل. وأمَّا ساحرُ أهل الكتاب فعِند أبي حنيفة أنه يُقْتَل، كما يُقْتَل السَّاحر المسلم. وقال مالك والشافعي وأحمد: لا يُقْتَل. يعني لقصَّة لَبِيد بن الأَعْصَم[٢].

واختلفوا في المُسلِمَة السَّاحرة، فعند أبي حنيفة أنَّها لا تُقْتَل، ولكن تُحْبَس. وقال الثلاثة: حكمها حكم الرجل، والله أعلم.

وقال أبو بكر الخلَّال: أخبرنا أبو بكر المروزي، قال: قَرَأ علىٰ أبي عبد الله -يعني أحمد بن حنبل- عُمَرُ بن هارون، حدَّثنا يونس، عن الزهري، قال: يُقْتَل ساحرُ المسلمين ولا يُقْتَل ساحرُ المُشْرِكين؛ لأنَّ رَسولَ الله ﷺ سَحَرَته امرأةٌ من اليهود فلم يَقْتُلْها.

[وقد نقل القُرطبيُّ عن مالك: أنَّه قال في الذِّمِّيِّ إذا سَحَر يُقْتَل إن قَتَلَ سِحْرُه، وحكىٰ ابن خُوَيز منداد عن مالك رُِوَايتَيْن في الذِّمِّيِّ إذا سَحَر: إحداهما: أنَّه يُسْتَتَاب فإن أَسْلَم وإلا قُتِلَ، والثانية: أنَّه يُقْتَل وإن أَسْلَم، وأمَّا السَّاحر المسلم فإن تَضَمَّن سِحْرُهُ كُفْرًا كَفَرَ عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. لكن قال مالك: إذا ظهر عليه لم تُقْبَل توبتُهُ؛ لأنَّه كالزِّنديقِ، فإن تَابَ قبلَ أن يَظْهَر عليه وجاءَنا تَائِبًا قَبِلْنَاه ولم نَقْتُله، فإن قَتَل سِحْرُه قُتِلَ. قال الشَّافِعِيُّ: فإن قال: لم أتَعَمَّد القتل فهُو مخطئٌ تجب عليه الدِّيَة.

مسألة: وهل يُسْأَل السَّاحر حَلَّ سحره؟ فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري، وقال عامر الشعبي: لا بأس بالنُّشرة، وكَرِهَ ذلك الحسن البصري، وفي «الصحيح» عن عائشة: أنها قالت: يا رسول الله، هلا تنشرت، فقال: «أَمَّا اللهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أَفْتَحَ عَلَىٰ النَّاسِ شَرًّا»[٣]. وحكىٰ القرطبي عن وهب: أنه قال: يُؤخَذ سبع ورقاتٍ مِن سدرٍ فتُدَقُّ بين حَجَرَيْن ثم تُضْرَبُ بالماء ويُقْرَأُ عليها آيَةُ الكُرْسِي ويَشْرب منها المسحور ثلاث حَسَوَاتٍ ثم يَغْتَسِل بباقِيهِ فإنَّه يَذْهَب ما به، وهو جيِّدٌ للرجل الذي يُؤخَذُ عن امرأتِهِ.

قلت: أَنْفَع ما يُسْتَعْمَل لإذهاب السِّحر ما أنزل الله علىٰ رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان،

---

(١) لوحة (١٢٥ أ).

(٢) البخاري (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩)، وأحمد (٦/ ٥٧).

(٣) البخاري (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩)، وأحمد (٦/ ٥٧).

وفي الحديث: «لَمْ يَتَعَوَّذِ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِمَا»[(١)] وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان[(٢)].

وقال أبو عبد الله القرطبي: وعندنا أنَّ السِّحر حقٌّ وله حقيقةٌ يَخلُق الله عنده ما يشاء خلافًا للمعتزلة وأبي إسحاق الاسفرايني من الشَّافِعيَّة حيث قالوا: إنَّه تمويهٌ وتخيلٌ، قال: ومِن السحر ما يكون بخِفَّة اليد كالشَّعْوَذَةِ، والشَّعْوَذِيُّ: البريد بخفَّة سيره، قال ابن فارس: وليست هذه الكلمة مِن كلام أهل البادية، قال القرطبي: ومنه ما يكون كلامًا يُحْفَظُ ورقىً من اسم الله تعالىٰ، وقد يكون مِن عُهُودِ الشَّياطين ويكون أدويةً وأَدْخِنَةً وغيره، قال: وقوله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[(٣)] يُحْتَمل أن يكون مَدْحًا كما تقوله طائفةٌ، ويُحْتَمَل أن يكون ذمًّا للبلاغة، قال: وهذا الأصح. قال: لأنَّها تُصَوِّب الباطل حين يُوهِم السَّامع أنَّه حقٌّ كما قال: «فَلَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ لِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ» الحديث][(٤)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

نهىٰ الله تعالىٰ المؤمنين أن يَتَشَبَّهُوا بالكافرين في مَقَالِهم وفِعَالِهم، وذلك أنَّ اليهود كانوا يُعَانُون مِن الكلام ما فيه تَوْرِيَة لما يقصدونه مِن التَّنْقِيص - عليهم لعائن الله- فإذا أرادوا أن يقولوا: اسْمَع لَنَا يقولون: رَاعِنَا، ويُوَرُّونَ بالرُّعُونَة، كما قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنَّهم كانوا إذا سَلَّموا إنما يقولون: السَّامُ عليكم. والسَّامُ هو: الموت. ولهذا أمرنا أن نَرُدَّ عليهم بـ«وَعَلَيْكُمْ»[(٥)]. وإنه يُستجاب لنا فيهم، ولا يُستَجاب لهم فينا[(٦)].

والغرض: أنَّ الله تعالىٰ نهىٰ المؤمنين عَن مشابهة الكافرين قولًا وفعلًا. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو النضر، حدَّثنا عبد الرحمن بن ثابت، حدَّثنا حسان بن [عطية][(٧)]، عن أبي مُنيب الجُرَشي، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ،

(١) صحيح: رواه النسائي (٨/ ٢٥٣)، وأحمد (٤/ ١٤٤)، وثبت نحوه في «صحيح مسلم» (٨١٤).
(٢) انظر: تفسير آية الكرسي الآية (٢٥٥).
(٣) البخاري (٥١٤٦)، وأبو داود (٥٠٠٧)، والترمذي (١٦٧٥).
(٤) زيادة من (ح).
(٥) البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣) من حديث أنس، ورواه البخاري (٦٢٥٧)، ومسلم (٢١٦٤) من حديث ابن عمر.
(٦) لوحة (١٢٥ ب).
(٧) في (ز): ثابت، والمثبت من (ح) وهو الموافق لما في «المسند».

حَتَّىٰ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ. وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَتِ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(١).

وروىٰ أبو داود، عن عثمان بن أبي شيبة، عن أبي النضر هاشم بن القاسم به: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(٢).

ففيه دلالة علىٰ النَّهي الشَّديد والتَّهديد والوعيد، علىٰ التَّشَبُّه بالكفَّار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم وغير ذلك مِن أُمُورِهم التي لم تُشْرَع لنا ولم نُقَر عليها(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا نعيم بن حماد، حدَّثنا عبد الله بن المبارك، حدَّثنا مِسْعَر، عن مَعْن وعَوْن -أو أحدهما- أنَّ رجلًا أتىٰ عبد الله بن مسعود فقال: اعْهَدْ إِلَيَّ. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأَرْعِهَا سَمْعك، فإنَّه خيرٌ يَأْمُرُ به أو شَرٌّ يَنْهَىٰ عنه(٤).

وقال الأعمش، عن خيثمة، قال: ما تقرؤون في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنه في التوراة: «يَا أَيُّها المساكين».

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: أَرْعِنا سَمْعَكَ.

وقال الضَّحَّاك ، عن ابن عبَّاس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ أَرْعِنَا سمعك. وإنما ﴿رَٰعِنَا﴾ كقولك: عَاطِنَا.

وقال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي العالية، وأبي مالك، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، وقتادة نحو ذلك.

وقال مجاهد: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ لا تقولوا خلافًا. وفي رواية: لا تقولوا: اسْمَع منَّا ونَسْمَعُ منك.

وقال عطاء: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ كانت لُغة تقولها الأنصار فنَهَىٰ الله عنها.

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٧)، وأورده الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩) وذكر له شواهد ومتابعات. وللحافظ ابن رجب رسالة في شرح هذا الحديث قد قمت بتخريجها والتعليق عليها ضمن مجموعة رسائل للحافظ ابن رجب.

(٢) حسن: وهو جزء من الحديث السابق رواه أبو داود (٤٠٣١).

(٣) قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ: فانظر إلى ما يفعل المسلمون ـ بل المنتسبون للإسلام ـ في عصرنا، من التشبه بالكفار في كل شيء، حتى ليريد الوقحاء من الكُتَّابِ أن يدخلوا شعائرهم أو ما يشبهها في عباداتنا. وحتى ضربوا على أنفسهم الذلة والصغار، باصطناع تشريع أوربة الوثنية الملحدة في قوانينهم الوضعية المجرمة الكافرة. أعاذنا الله من الفتن، وأعاد للمسلمين عقولهم ودينهم.

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٠٣٧)، وأبو نعيم (١/ ١٣٠)، وأحمد في «الزهد» (١٥٨)، ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا، فعون لم يسمع من عبد الله بن مسعود، ومعن كذلك لم يسمع منه.

وقال الحسن: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قال: الرَّاعِن[1] مِن القَوْلِ السُّخْرِيّ منه. نهاهم الله أن يسخروا من قول محمَّدٍ ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روي عن ابن جُرَيج أنه قال مثله.

وقال أبو صخر: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ قال: كان رسول الله ﷺ[2]، إذا أَدْبَر ناداه مَن كانت له حاجة من المؤمنين، فيقول: أَرْعِنا سَمْعَك. فأعظم اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يُقال ذلك له[3].

وقال السُّدِّي: كان رجلٌ من اليهود مِن بني قينقاع، يُدْعَىٰ رفاعة بن زيد يأتي النَّبيَّ ﷺ، فإذا لَقِيَه فكلَّمه قال: أَرْعِني سَمْعَك واسمع غير مُسْمع. وكان المسلمون يَحْسِبُون أنَّ الأنبياء كانت تُفَخم بهذا، فكان ناسٌ منهم يقولون: اسْمَعْ غير مُسْمَع: غَيْرَ صاغر. وهي كالتي في سورة النِّساء. فتقدَّم الله إلىٰ المؤمنين أن لا يقولوا: رَاعِنَا[4].

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا.

قال ابن جرير: والصواب مِن القول في ذلك عندنا: أنَّ الله نهىٰ المؤمنين أن يقولوا لِنبيِّه ﷺ: رَاعِنَا؛ لأنها كلمة كرهها الله تعالىٰ أن يقولوها لِنبيِّه ﷺ نظير الذي ذكر عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا تَقُولُوا لِلْعِنَبِ الكَرْمَ، وَلَكِنْ قُولُوا: الحَبَلَةُ**[5]»[6]. «**وَلا تَقُولُوا: عَبْدِي، وَلَكِنْ قَولُوا: فَتَايَ**»[7]. وما أشبه ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يُبيِّن تعالىٰ بذلك شدة عداوةِ الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الَّذين حذَّر تعالىٰ مِن مُشَابَهَتِهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم. وينبِّه تعالىٰ علىٰ ما أنعم به علىٰ المؤمنين من الشَّرع التَّام الكامل، الَّذي شرَّعه لنبيِّهم محمَّدٍ ﷺ، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ما نُبَدِّل مِن آية. وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: ما نَمْحُ مِن آية.

---

(١) الأَرْعَنُ: الأَهْوَجُ في منطقه، والرُّعُونة: الحُمْقُ والاسْتِرْخاء، رجل أَرْعَنُ وامرأة رَعْناء. «اللسان»: رعن.
(٢) لوحة (١٢٦ أ). (٣) إسناده معضل. (٤) إسناده معضل.
(٥) الحَبَلَة- بفتح الحاء والباء، وربما سُكِّنت :-الأَصْل أو القَضِيب من شجر الأَعْناب. «النهاية».
(٦) مسلم (٢٢٤٧)، وأبو داود (٤٩٧٤)، وأحمد (٢/ ٣١٦، ٤٦٤) عن أبي هريرة ورواه البخاري (٦١٨٢)، وأحمد (٢/ ٢٥٩) نحوه وثبت مثله من حديث وائل بن حجر: رواه مسلم (٢٢٤٨)، والدارمي (٢/ ١١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٩٥).
(٧) البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

وقال ابن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ قال: نُثْبِتُ خَطَّها ونُبدِّل حكمها. حَدَّث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود.

وقال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي العالية، ومحمَّد بن كعب القرظي نحو ذلك.

وقال الضَّحَّاك: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ ما نُنْسِك. وقال عطاء: أمَّا ﴿مَا نَنسَخْ﴾ فما نترك مِن القرآن. وقال ابن أبي حاتم: يعني: تُرِكَ فلم يَنْزِل علىٰ محمَّد ﷺ.

وقال السُّدِّي: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ نسخها: قبضها. وقال ابن أبي حاتم: يعني قبضها: رفعها مثل قوله: «**الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ**»(١). وقوله: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ**(٢) **مِنْ مَالٍ لَابْتَغَىٰ لَهُمَا ثَالِثًا**»(٣).

وقال ابن جرير: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ ما ينقل من حكم آيةٍ إلىٰ غيره فنُبدِّله ونغيره، وذلك أن يُحوَّل الحلالُ حرامًا والحرامُ حلالًا والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا. ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنَّهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فأمَّا الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ.

وأصلُ النَّسخ مِن نسخ الكتاب، وهو نَقْلُه مِن نُسْخَةٍ إلىٰ أخرىٰ غيرها، فكذلك معنىٰ نسخ الحُكْم إلىٰ غيره، إنَّما هو تحويله ونَقْل عبَادَة إلىٰ غيرها. وسواء نسخ حكمها أو خطها، وهي في كلتا حالتيها منسوخة.

وأمَّا علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حدِّ النَّسخ، والأمر في ذلك قريبٌ؛ لأنَّ معنىٰ النسخ الشَّرعي معلوم عند العلماء ولخَّص بعضهم أنَّه: رَفْعُ الحكم بدليل شرعيٍّ متأخرٍ. فاندرج في ذلك نسخ الأخفِّ بالأثقل وعكسه، والنَّسخ لا إلىٰ بدل. وأمَّا تفاصيل أحكَام النَّسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوط في فَنِّ أصولَ الفقه.

وقال الطبراني: حدَّثنا أبو شبيل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدَّثنا أبي، حدَّثنا العبَّاس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، قال: قرأ رجلان سورةً أقرأهما رسول الله ﷺ فكانا يقْرآن بها، فقامَا ذات ليلةٍ يُصَلِّيان، فلم يَقْدِرَا منها علىٰ حرفٍ فأصبحا غَادِيَيْن علىٰ رسول الله ﷺ فذكَرَا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهَا مِمَّا نُسِخَ وَأُنْسِيَ، فَالْهُوا عَنْهَا**». فكان الزُّهري يقرؤها: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ بضم النون الخفيفة(٤). سليمان بن أرقم ضعيف.

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٧١٤٥)، ومالك (٢/ ٨٢٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٤٣- بتحقيقي) من طرق عن عمر وإسناده صحيح، وثبت نحوه من حديث ابن عبَّاس، رواه البخاري (٦٨٢٩)، ومسلم (١٦٩١)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٤٢).

(٢) لوحة (١٢٦ ب).

(٣) البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٨) من حديث أنس وأما الرواية التي قصدها ابن كثير وأنها كانت من القرآن ثم نسخ، فرواه أحمد (٥/ ١١٧)، والترمذي (٣٧٩٣) (٣٨٩٨)، والحاكم (٢/ ٢٢٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه ابن حبان (٣٢٣٧). وإسناده صحيح.

(٤) **إسناده ضعيف جدًّا**: رواه الطبراني (١٢/ ٢٨٨/ ١٣١٤١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣١٥): فيه سليمان ابن أرقم،

[وقد روىٰ أبو بكر بن الأنباري، عن أبيه، عن نصر بن داود، عن أبي عبيد، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس وعقيل، عن ابن شهاب، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعًا، ذكره القرطبي[١].][٢]

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فقرئ علىٰ وجهين: «نَنْسَأَهَا ونُنْسِهَا». فأمَّا مَن قرأها: «نَنْسَأَهَا» -بفتح النون والهمزة بعد السين- فمعناه: نُؤَخِّرها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ يقول: ما نُبَدِّل من آية، أو نتركها لا نُبَدِّلُها[٣].

وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: ﴿أَوْ نَنسَأْهَا﴾ نُثْبِتُ خطها ونُبَدِّل حكمها. وقال عبيد بن عمير، ومجاهد، وعطاء: ﴿أَوْ نَنسَأْهَا﴾ نُؤَخِّرُها ونُرْجِئُهَا. وقال عطية العوفي: ﴿أَوْ نَنسَأْهَا﴾ نُؤَخِّرُهَا فلا نَنْسَخُها. وقال السُّدِّي مثله أيضًا، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال الضَّحَّاك: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ يعني: الناسخ من المنسوخ. وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا﴾ أي: نؤخرها عندنا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادي، حدَّثنا خلف، حدَّثنا الخفاف، عن إسماعيل - يعني ابن مسلم- عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال[٤]: خطبنا عمر ﷺ فقال: يقول الله ﷻ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا﴾ أي: نُؤَخِّرها[٥].

وأمَّا علىٰ قراءة: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر عن قتادة في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: كان الله تعالىٰ يُنْسِي نَبِيَّه ما يشاء ويَنْسَخُ ما يشاء.

وقال ابن جرير: حدَّثنا سوار بن عبد الله، حدَّثنا خالد بن الحارث، حدَّثنا عوف، عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: إنَّ نَبِيَّكم ﷺ أُقْرِئَ قُرْآنًا ثم نَسِيَهُ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن نُفَيل، حدَّثنا محمَّد بن الزبير الحراني، عن الحجاج - يعني الجزري- عن عِكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: كان مما يَنْزِل علىٰ النَّبِيِّ ﷺ الوحيُّ بالليل ويَنْسَاه بالنَّهار، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[٦].

= قال الحافظ: ضعيف «التقريب» ترجمة (٢٥٣٢)، وهو متروك. قلت: لكنه صح من رواية أبي أمامة الآتية.

(١) صحيح: الطريق الذي ذكره المصنف فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث وهو صدوق يخطئ كثيرًا، لكنه توبع. فقد رواه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٤١٨)، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (ص١١٠) من طرق صحيحة عن الزهري به.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) ضعيف: إسناده منقطع؛ لأن علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عبَّاس.

(٤) لوحة (١٢٧ أ).

(٥) ضعيف: رواه أبو حاتم (١٠٦٣)، فيه إسماعيل بن مسلم. قال الذهبي: متفق عليه ضعفه.

(٦) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (٢/ ٢٠٠/ ١٠٥٨) وفيه محمَّد بن الزبير: منكر الحديث.

قال أبو حاتم: قال لي أبو جعفر بن نفيل: ليس هو الحجاج بن أرطاة، هو شيخ لنا جَزَري.

وقال عبيد بن عمير: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ نرفعها من عندكم.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا هُشَيْم، عن يعلىٰ بن عطاء، عن القاسم بن ربيعة قال: سمعت سعد بن [أبي] وقاص يقرأ: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَو تَنْسَهَا» قال: قلتُ له: فإن سعيد بن المسِّيب يقرأ: «أَو تُنْسَهَا». قال: فقال سعد: إنَّ القُرْآن لم يَنْزِل علىٰ ابن المسيِّب ولا علىٰ آل المسيِّب، قال الله جل ثناؤه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ٦] ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤][(١)].

وكذا رواه عبد الرزاق، عن هشيم، وأخرجه الحاكم في «مستدركه» من حديث أبي حاتم الرازي، عن آدم، عن شعبة، عن يعلىٰ بن عطاء، به. وقال: علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن محمَّد بن كعب، وقتادة وعكرمة، نحو قول سعيد.

وقال الإمام أحمد: [أخبرنا يحيىٰ][(٢)] حدَّثنا سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: قال عمر: عليٌّ أقضانا، وأُبيٌّ أقرؤنا، وإنَّا لَنَدَعُ بعضَ ما يقول أُبيٌّ، وأُبيٌّ يقول: سَمِعْت رسول الله ﷺ يقول، فَلَنْ أَدَعَهُ لِشَيْءٍ. والله يقول: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[(٣)].

وقال البخاري: [حدَّثنا عمرو بن علي][(٤)] حدَّثنا يحيىٰ، حدَّثنا سفيان، عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: قال عمر: أَقْرَؤُنا أُبيٌّ، وأَقْضَانا عليٌّ، وإنَّا لَنَدَعُ مِن قول أُبَيٍّ، وذلك أنَّ أُبيًّا يقول: لا أدَعُ شيئًا سمعته مِن رسول الله ﷺ. وقد قال الله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[(٥)].

وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[(٦)] أي: في الحكم بالنِّسبة إلىٰ مصلحة المكلَّفين، كما قال

---

(١) رواه ابن جرير (١/ ٤٧٦)، وعبد الرزاق (١/ ٥٥)، وفيه القاسم بن ربيعة، قال الحافظ: مقبول، ومعناه: إذا توبع، فالإسناد ضعيف؛ لأنه لم يتابع.

(٢) زيادة من «المسند».

(٣) البخاري (٤٤٨١)، وأحمد (٥/ ١١٣).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) انظر التعليق السابق.

(٦) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد يقول قائل: ما الفائدة إذًا من النسخ إذا كانت مثلها، والله تعالىٰ حكيم لا يفعل شيئًا إلا لحكمة؟

فالجواب: أن الفائدة اختبار المكلف بالامتثال؛ لأنه إذا امتثل الأمر أولًا وآخرًا، دل علىٰ كمال عبوديته؛ وإذا لم يمتثل دل علىٰ أنه يعبد هواه، ولا يعبد مولاه؛ مثال ذلك: تحويل القبلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة؛ هذا بالنسبة للمكلف ليس فيه فرق أن يتجه يمينًا، أو شمالًا؛ إنما الحكمة من ذلك اختبار المرء بامتثاله أن يتجه حيثما وجه؛ أما المتجه إليه، وكونه أولىٰ بالاتجاه إليه فلا ريب أن الاتجاه إلىٰ الكعبة أولىٰ من الاتجاه إلىٰ بيت المقدس؛ ولهذا ضلَّ

علي بن (1)أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ يقول: خَيْرٌ لَكُمْ في المنفعَةِ، وأَرْفَقُ بكم.

وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ فلا نعمل بها، ﴿أَوْ نُنسِأْهَا﴾ أي: نرجئها عندنا، نَأْتِ بها أو نظيرها.

وقال السُّدِّي: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ يقول: نَأْتِ بخيرٍ مِن الذي نَسَخْنَاه، أو مثل الَّذي تَرَكْنَاه.

وقال قتادة: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ يقول: آية فيها تخفيفٌ، فيها رخصةٌ، فيها أَمْرٌ، فيها نَهْيٌ.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يرشد تعالىٰ بهذا إلىٰ أنه المتَصَرِّف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتَصَرِّف، فكما خلقهم كما يشاء، ويُسْعِدُ مَن يشاء، ويُشْقِي مَن يشاء، ويُصِحُّ مَن يشاء، ويُمْرِضُ مَن يشاء، ويُوَفِّق مَن يشاء، ويَخْذُل مَن يشاء، كذلك يَحْكُم فِي عبادِهِ بما يَشَاء، فيُحِلُّ ما يشاء، ويُحَرِّم ما يشاء، ويُبِيح ما يشاء، ويَحْظُر ما يشاء، وهو الذي يَحْكُم ما يريد لا مُعَقِّب لحكمه. ولا يُسْئَل عما يَفْعَل وهم يسألون. ويَخْتَبِر عبادَه وطاعتَهُم لرسله بالنَّسْخ، فيأمر بالشَّيءِ لما فيه مِن المصلحة التي يَعْلَمُها تعالىٰ، ثم يَنْهَىٰ عنه لما يَعْلَمُه تعالىٰ.. فالطَّاعة كل الطَّاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أَخْبَرُوا. وامتثال ما أَمَرُوا. وتَرْكِ ما عنه زَجَرُوا.

وفي هذا المقام ردٌّ عظيمٌ وبيانٌ بليغٌ لكفر اليهود وتَزْييف شُبْهَتِهِم -لعنهم الله- في دَعْوَىٰ استحالة النَّسخ إمَّا عقلًا كما زعمه بعضُهُم جهلًا وكفرًا، وإمَّا نقلًا كما تَخَرَّصَه آخرُون منهم افتراءً وإفْكًا.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمَّد أنَّ لي مُلْكُ السَّموات والأرض وسلطانهما دُون غيري، أَحْكُم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمُرُ فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأَنْهَىٰ عما أشاء، وأنسخ وأُبَدِّل وأُغيِّرُ مِن أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأُقِرُّ فيهما ما أشاء.

ثمَّ قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالىٰ خطابًا لنبيِّه ﷺ علىٰ وجهِ الخبر عَن عظمته، فإنَّه منه جلَّ ثناؤه تَكْذِيبٌ لليهود الَّذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوَّة عيسىٰ ومحمَّد -عليهما الصلاة والسلام- لمجيئهما بما جاءا بِه مِن عند الله بِتَغَيُّر ما غَيَّر الله من حُكْم التوراة. فأخبرهم اللهُ أنَّ له ملك السَّموات والأرض وسلطانهما، وأنَّ الخلق أهلُ مملكته وطاعته وعليهم السَّمع والطَّاعة

= من ضلَّ، وارتد من ارتد بسبب تحويل القبلة: قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ فالإنسان يبتلىٰ بمثل هذا النسخ؛ إن كان مؤمنًا عابدًا لله قال: سمعت وأطعت؛ وإن كان سوىٰ ذلك عاند، وخالف: يقول: لماذا هذا التغيير! فيتبين بذلك العابد حقًّا، ومن ليس بعابدٍ.

(1) لوحة (١٢٧ ب).

لأَمْرِه ونهيه، وأنَّ له أمرهم بما يشاء، ونَهْيَهُم عما يشاء، ونَسْخُ ما يشاء، وإقرارُ ما يشاء، وإِنْشَاء ما يَشَاء مِن إقرارِهِ وأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

قلتُ[١]: الذي يحمل اليَهود علىٰ البحث في مسألة النَّسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنَّه ليس في العقل ما يدلُّ علىٰ امتناع النَّسخ في أحكام الله تعالىٰ؛ لأنَّه يحكم ما يشاء كما [أنَّه] يفعل ما يُريد، مع أنَّه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحلَّ لآدَم تزويج بناتِهِ مِن بَنِيه، ثم حَرَّم ذلك، وكما أباح لنُوحٍ بعد خروجه من السفينة أكلَ جميع الحيوانات، ثم نسخ حِلَّ بعضها، وكان نكاح الأُخْتَين مباحٌ لإسرائيل وبَنِيهِ، وقد حرَّم ذلك في شريعة التَّوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهورَ بني إسرائيل بقَتْل مَن عَبَدَ العِجْل منهم، ثم رفع عنهم القتل كَيْلا يَسْتَأْصِلَهُم القتل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويَصْدِفُون عنه.

وما يجاب به عن هذه الأدلَّة بأجوبةٍ لفظيَّةٍ، فلا تصرف الدلالة في المعنىٰ، إذ هو المقصود، وكما في كتبهم مشهورًا مِن البشارة بمحمَّدٍ ﷺ والأمر باتِّباعه، فإنَّه يُفِيدُ وجوب متابعته عليه السلام وأنَّه لا يُقبل عملٌ إلَّا علىٰ شَرِيعَتِه. وسواء قيل: إنَّ الشرائع المتقدِّمة مُغَيَّاة إلىٰ بعثته عليه السلام فلا يُسَمَّىٰ ذلك نسخًا كقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقيل: إنَّها مُطْلَقة، وإنَّ شريعة محمَّد ﷺ نَسَخَتْها، فعلىٰ كلِّ تقديرٍ فوجوب اتِّباعه معيَّن؛ لأنَّه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدًا بالله تبارك وتعالىٰ.

[ففي هذا المقام بَيَّن تعالىٰ جوازَ النَّسخ، ردًّا علىٰ اليهود، عليهم لعائن الله، حيث قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، فكما أنَّ له الملك بلا مُنَازِعٍ، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقُرِئَ في سورة آل عمران، التي نزل صدرها خطابًا مع أهل الكتاب، وقوع النَّسخ عند اليهود في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ الآية [آل عمران: ٩٣] كما سيأتي تفسيرها، والمسلمون كلُّهم مُتَّفِقُون علىٰ جواز النَّسخ في أحكام الله تعالىٰ، لما لَه في ذَلِكَ من الحِكَم البالغة، وكلُّهم قال بوقوعه. وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسِّر: لم يقع شيءٌ مِن ذلك في القرآن، وقولُه هذا ضعيف مردودٌ مرذولٌ. وقد تعسَّف في الأجوبة عما وقع مِن النَّسخ، فمِن ذلك قضيَّة العِدَّة بأربعة أشهر وعشر بعد الحولِ لم يُجِب علىٰ ذلك بكلامٍ مقبولٍ، وقضيَّة تحويل القبلة إلىٰ الكعبة عن بيت المقدس لم يُجِب بشيءٍ، ومن ذلك نسخ مصابرةِ المسلم لعشرةٍ من الكَفَرَةِ إلىٰ مصابرةِ الاثْنَين، ومِن ذلك نسخ وجوبِ الصَّدَقَة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم][٢].

---

(١) لوحة (١٢٨ أ).
(٢) زيادة من (ح).

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

نهىٰ الله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤالِ النَّبيِّ ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١] أي: وإن تسألوا عَن تفصيلها بعد نُزُولِهَا تُبَيَّنُ لكم، ولا تَسْأَلُوا عن الشَّيء قبل كونه؛ فلعلَّه أن يُحَرَّم من أجل تلك المسألة.

ولهذا جاء في «الصحيح»: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»[(١)]. ولمَّا سُئِل رسول الله ﷺ عن الرَّجل يجد مع امرأتِهِ رجلًا فإن تكلَّم تكلَّم بأمرٍ عظيمٍ، وإن سكتَ سكتَ عَن مثل ذلك؛ فكرِهَ رسول الله ﷺ المسائل وعابها. ثم أنزل الله حكم الملاعنة[(٢)].

ولهذا ثبت في «الصحيحين» من حديث المغيرة بن شعبة: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَنْهَىٰ عَنْ قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةِ المَالِ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ»[(٣)]، وفي «صحيح مسلم»: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ[(٤)] وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِنْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ»[(٥)].

وهذا إِنَّما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحجَّ. فقال رجل: أَكُلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثًا. ثم قال ﷺ: «لَا وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ». ثم قال: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ... الحديث»[(٦)]. وهكذا قال أنس بن مالك: نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيءٍ، فكان يُعْجِبُنا أن يأتي الرَّجل مِن أهل البادية فيسأله ونحن نسمع[(٧)].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي في «مسنده»: حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتي عليَّ السَّنَةُ أُرِيد أن أسأل رسولَ الله ﷺ عَن شيءٍ فَأَتَهَيَّب منه، وإن كنَّا لنَتَمَنَّىٰ الأعرابَ[(٨)].

---

(١) البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨)، وأحمد (١/ ١٧٩)، وابن حبان (١١٠)، وأبو داود (٤٦١٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٦٣١- بتحقيقي).

(٢) البخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢)، وابن ماجة (٢٠٦٦)، والنسائي (٦/ ١٧٠)، وأحمد (٥/ ٣٣٦- ٣٣٧)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٦١٩).

(٣) البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣)، وأحمد (٤/ ٢٤٩)، وابن حبان (١٠/ ٤٢٣).

(٤) لوحة (١٢٨ ب).

(٥) سيأتي تخريجه. انظر ما بعده.

(٦) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، والترمذي (٢٦٧٩)، وابن ماجة (١، ٢)، والنسائي (٥/ ١١٠- ١١١)، وأحمد (٢/ ٢٤٧)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٦١٨).

(٧) مسلم (١٢).

(٨) لم أقف عليه في «مسند أبي يعلىٰ»: وقد أورده الحافظ في «المطالب العالية» (٣٦٠٣): ورجاله ثقات غير أن أبا =

وقال البزَّار: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: ما رأيتُ قومًا خيرًا مِن أصحاب محمَّدٍ ﷺ، ما سألوه إلَّا عن ثنْتَيْ عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة:٢١٩]، و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠] يعني: هذا وأشباهه(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل تريدون. [وقيل:] أو هي علىٰ بابها في الاستفهام، وهو إنكاريٌّ، وهو يَعُمُّ المؤمنين والكافرين، فإنه ﷺ رَسُولُ الله إلىٰ الجميع، كما قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: قال رافع بن حُرَيْمَلة - أو وهب بن زيد-: يا محمَّد، ائْتِنَا بكتابٍ تُنْزِلُه علينا من السَّماء نَقْرَؤُهُ، وفَجِّر لنا أنهارًا نَتَّبِعْك ونصدقك. فأنزل اللهُ مِن قولهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢).

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: قال رجل: يا رسول الله، لو كانت كفَّاراتنا كفَّارات بني إسرائيل! فقال النَّبيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا نَبْغِيهَا - ثَلَاثًا- مَا أَعْطَاكُمْ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَىٰ(٣) بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا أَصَابَ أَحَدُهُمُ الخَطِيئَةَ وَجَدَهَا مَكْتُوبَةً عَلَىٰ بَابِهِ وَكَفَّارَتُهَا، فَإِنْ كَفَّرَهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ لَمْ يُكَفِّرْهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِي الآخِرَةِ. فَمَا أَعْطَاكُمُ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**». قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ مِنَ الجُمُعَةِ إِلَىٰ الجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ**». وقال: «**مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً وَاحِدَةً، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، وَلَا يَهْلَكُ عَلَىٰ اللهِ إِلَّا هَالِكٌ**». فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾(٤).

= إسحاق يرسل وقد عنعن، لكن يشهد لصمته رواية أنس السالفة.

(١) ضعيف: رواه الدارمي (١/ ٥١)، والطبراني (١١/ ٢٢٨٨/ ٤٥٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٠٥٢) وفيه عطاء بن السائب. اختلط، والرواة عنه محمَّد بن فضيل وجرير بن عبد الله وكلاهما ممن رووا عنه بعد الاختلاط.

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (١/ ٤٨٣)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٠٢/ ١٠٧٤) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٦٠) إلىٰ ابن إسحاق أيضًا. وفي الإسناد محمَّد بن أبي محمَّد وهو مجهول.

(٣) لوحة (١٢٩ أ).

(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (١/ ٢٦١)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٠٣/ ١٠٧٦) وفيه انقطاع.

وقال مجاهد: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أن يُريهم الله جهرةً، قال: سَأَلَتْ قريشٌ محمَّدًا ﷺ أن يجعل لهم الصَّفَا ذهبًا. قال: «نَعَمْ وَهُوَ لَكُمْ كَالمَائِدَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنْ كَفَرْتُمْ»، فأَبَوْا ورَجَعُوا. وعن السُّدِّي وقتادة نحو هذا، والله أعلم(١).

والمراد أنَّ الله ذمَّ مَن سأَلَ الرَّسولَ ﷺ عن شيءٍ، علىٰ وَجْهِ التَّعنُّت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسىٰ عليه السلام تعنُّتًا وتكذيبًا وعنادًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: مَن يَشْتَرِ الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فقد خرج عن الطَّريق المستقيم إلىٰ الجهل والضَّلال وهكذا حال الَّذين عدلُوا عن تصديق الأنبياء واتِّباعهم والانقيادِ لهم، إلىٰ مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يَحْتَاجُون إليها، علىٰ وجهِ التَّعنُّت والكفر، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

وقال أبو العالية: يَتبَدَّل الشِّدَّة بالرخاء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

يُحَذِّر تعالىٰ عبادَهُ المؤمنين عَن سلوك طَرَائق الكفَّار مِن أهل الكتاب، ويُعْلِمُهُم بِعَدَاوتِهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مُشْتَمِلُون عليه مِن الحسد للمؤمنين، مع عِلْمِهِم بفضلهم وفَضْل نَبِيِّهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصَّفح والعَفْو والاحتمال(٢)، حتىٰ يأتيَ أمر الله مِن النَّصر والفَتْح، ويأمُرُهُم بإقامة الصَّلاة وإيتاءِ الزَّكاة، ويحثُّهم علىٰ ذلك ويُرَغِّبُهم فيه، كما قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن سعيد بن جُبَير، أو عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: كان حُيَيُّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب مِن أَشَدِّ يهودٍ للعَرَب حسدًا، إذْ خَصَّهم اللهُ برسوله ﷺ وكانا جَاهدَين في ردِّ النَّاس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ الآية(٣).

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، في قوله تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: هو كعب بن الأشرف.

---

(١) وانظر نحوه عند تفسير الآية (١٦٠) من سورة البقرة.
(٢) لوحة (١٢٩ ب).
(٣) **ضعيف**: رواه ابن جرير (١/ ٤٨٨)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٠٤/ ١٠٨١)، وفيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو اليمان، حدَّثنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه: أنَّ كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرًا، وكان يهجُو النَّبيَّ ﷺ، وفيه أنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ (١).

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: أنَّ رسولًا أُمِّيًّا يُخبِرُهم بما في أَيْدِيهم مِن الكُتُب والرُّسل والآيات، ثم يُصَدِّق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفرًا وحسدًا وبغيًا (٢)؛ ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول: مِن بعد ما أضاء لهم الحقُّ لم يجهلوا منه شيئًا، ولكن الحسد حملهم علىٰ الجحود، فعيَّرهم ووبَّخهم ولامَهُم أشدَّ الملامة، وشرع لنَبيِّه ﷺ وللمؤمنين ما هُم عليه مِن التَّصْدِيق والإيمان والإقرار بما أَنْزَل الله عليهم وما أُنْزل مِن قبلهم، بكَرَامَتِه وثوابه الجزيل ومعونته لهم.

وقال الرَّبيع بن أنس: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ مِن قِبَلِ أَنْفُسِهِم. وقال أبو العالية: ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ مِن بَعْد ما تَبيَّن لهم أنَّ محمَّدًا رسول الله يجدونه مكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيل، فكفروا به حسدًا وبغيًا؛ إذ كان من غيرهم. وكذا قال قتادة والربيع والسُّدِّي.

وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ نَسَخ ذلك قولُه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (٣)، وقولُه (٤): ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فنَسَخَ هذا عفوَهُ عن المشركين. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدِّي: إنها منسوخةٌ بآيةِ السَّيْفِ، ويُرْشِدُ إلىٰ ذلك أيضًا قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عُرْوَة بن الزبير: أنَّ أسامة بن زيد أخبره، قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يَعْفُون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أَمَرَهُم الله، ويَصْبِرُون علىٰ الأذىٰ، قال الله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأوَّل مِن العفو ما أمره الله بِهِ، حتىٰ أَذِن الله فيهم بِقَتْلٍ، فقَتَلَ اللهُ بِهِ مَنْ قَتَلَ مِن صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ (٥).

---

(١) رجاله ثقات: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٠٤/ ١٠٨٣)، وعبد الله بن كعب. قال الحافظ في «التقريب»: ثقة. ويقال له: رُؤْية.

(٢) رواية الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس ضعيفة وعلتها الانقطاع.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٤٩٠)، وفيه انقطاع بين بني طلحة وابن عبَّاس.

(٤) لوحة (١٣٠ أ).

(٥) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٠٦/ ١٠٨٨)، وإسناده صحيح كما قال ابن كثير، وأصله في «الصحيحين»: البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

=

وهذا إسناده صحيحٌ، ولَمْ أَرَهُ في شيءٍ من الكُتُب السِّتَّة [ولكن له أصلٌ في الصَّحِيحَيْن عن أسامة ابن زيد ﷺ][(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يحُثُّ تعالىٰ علىٰ الاشتغال بما ينفعهم وتعُودُ عليهم عاقبتُه يوم القيامة، من إقَام الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، حتَّىٰ يُمَكِّن لهم الله النَّصرَ في الحياة الدُّنيا ويوم يقومُ الأشهادُ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: أنَّه تعالىٰ لا يَغْفَل عَن عَمَلِ عَامِلٍ، ولا يضيع لَدَيْه، سواء كان خيرًا أو شرًّا، فإنه سَيُجَازي كلَّ عامل بعمله.

وقالَ أبو جعفر بن جرير في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهذا الخبر منَ الله للَّذِين خاطبهم بهذه الآيات مِن المؤمِنِينَ، أنَّهم مهما فعلوا مِن خيرٍ أو شَرٍّ، سرًّا أو علانيةً، فهو به بصيرٌ لا يَخفَىٰ عليه منه شيءٌ، فيَجْزِيهم بالإحسان خيرًا، وبالإساءة مثلها. وهذا الكلام وإن كان خَرَجَ مَخْرَجَ الخبر، فإنَّ فيه وعدًا ووَعِيدًا وأمرًا وزَجرًا. وذلك أنَّه أعْلَم القَوم أنَّه بصير بجَمِيع أعمالهم ليَجِدُّوا في طَاعَتِه، إذ كان ذلك مُدَّخرًا لهم عِنْدَه، حتىٰ يُثِيبَهُم عليه، كما قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وليحذروا معصيته.

قال: وأمَّا قوله: ﴿بَصِيرٌ﴾ فإنَّه «مُبْصِر» صُرِّف إلىٰ «بَصِير» كما صُرِّف «مُبْدِع» إلىٰ «بَدِيع»، و«مُؤْلِم» إلىٰ «أَلِيم» والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا ابن بُكَير، حدَّثني ابن لَهيعة، عن يَزِيد بن أبي حَبِيب، عن أبي الخير، عن عقبة بن عامر، قال: رأيتُ رَسُول الله ﷺ[(٢)] يُفسِّر في هذه الآية ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يقول: بكلِّ شيءٍ بصيرٍ[(٣)].

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

= تنبيه مهم: أورد أبو الشيخ في «كتاب الأخلاق» هذا الحديث وزاد فيه سبب نزول هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ يعفو عن أهل الكتاب والمشركين فأنزل الله ﷻ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» للشيخ مقبل (ص١٢).

(١) زيادة من (ح). (٢) لوحة (١٣٠ ب).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٠٧/ ١٠٩٣) وفيه ابن لهيعة، وقد اختلط بعد احتراق كتبه.

يُبيِّن تعالىٰ اغترارَ اليهودِ والنَّصارَىٰ بما هم فيه، حيث ادَّعَت كلُّ طائفةٍ مِن اليهود والنَّصارىٰ أنَّه لن يدخل الجنَّة إلا مَن كان علىٰ مِلَّتِهَا[١]، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنَّهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. فأكذبهم الله تعالىٰ بما أَخْبَرَهُم أنَّه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادَّعَوْا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدَّم مِن دَعْوَاهُم أنَّه لن تَمَسَّهُم النَّار إلا أيامًا معدودةً، ثم يَنْتَقِلُون إلىٰ الجنَّة، وردَّ عليهم تعالىٰ في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدَّعْوىٰ التي ادَّعَوْهَا بلا دليلٍ ولا حجَّةٍ ولا بيِّنَةٍ، فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

وقال أبو العالية: أماني تَمَنَّوْها علىٰ الله بغير حقٍّ. وكذا قال قتادة والرَّبيعُ بن أنس.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمَّد ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

وقال أبو العالية ومجاهد والسُّدِّي والربيع بن أنس: حجتكم. وقال قتادة: بَيِّنَتكم علىٰ ذلك. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [أي] فيما تدعونه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٠].

وقال أبو العالية والربيع: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ يقول: مَن أَخْلَصَ لله.

وقال سعيد بن جبير: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أخلص، ﴿وَجْهَهُۥ﴾ قال: دِينَهُ، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع فيه الرسول ﷺ. فإنَّ للعمل المتقبل شرطَيْن، أحدهما: أن يكون خالصًا لله وحده، والآخر: أن يكون صوابًا موافقًا للشَّرِيعَة. فمتىٰ كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». رواه مسلم مِن حديث عائشة عنه ﷺ[٢].

فعَمَلُ الرُّهبان ومَن شَابَهَهُم -وإن فُرِض أنَّهم مُخْلِصُون فيه لله- فإنَّه لا يتقبَّل منهم، حتىٰ يكون

---

(١) قال القاسمي رحمه الله: قال الرازي : واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد ﷺ، فإن كل طائفة تكفر الأخرىٰ . مع اتفاقهم علىٰ تلاوة القرآن . انتهىٰ .

فها هنا تسكب العبرات بما جناه التعصب في الدين علىٰ غالب المسلمين من الترامي بالكفر ، لا بسنة ولا قرآن ، ولا لبيان من الله ولا لبرهان ، بل لمّا غلت مراحل العصبية في الدين ، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين .

يَأْبَىٰ الْفَتَىٰ إِلَّا اتِّبَاعَ الْهَوَىٰ ... وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ

مع أن الله تعالىٰ أمر بالجماعة والائتلاف ، ونهىٰ عن الفرقة والاختلاف . فقال تعالىٰ : ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقد امتاز أهل الحق ، من هذه الأمة بالسنة والجماعة ، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين.

(٢) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، وأبو داود (٤٦٠٦)، وابن ماجة (١٤).

ذلك مُتابعًا للرَّسول محمَّد ﷺ المبعوث إليهم وإلىٰ النَّاس كافَّةً، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا[(١)] جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] [وقال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾][(٢)].

ورُوِي عن أمير المؤمنين عُمر أنَّه تأوَّلها في الرُّهبان كما سيأتي.

وأمَّا إن كان العَمَلُ مُوافِقًا للشَّريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يُخْلِص عامله القصد لله تعالىٰ فهو أيضًا مردودٌ علىٰ فَاعِلِه وهذا حال المنافقين والمُرائين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ضَمِنَ لهم تعالىٰ علىٰ ذلك تحصيلَ الأجور، وآمَنَهُم مما يخافونه مِن المحذور فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما مَضَىٰ ممَّا يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يعني: لا يحزنون][(٣)] للموت.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يُبيِّن به تعالىٰ تَنَاقُضهم وتَبَاغُضهم وتَعَادِيَهم وتَعَانُدَهُم. كما قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: لمَّا قَدِم أهلُ نَجْرَان من النَّصارىٰ علىٰ رسول الله ﷺ، أَتَتْهُم أحبارُ يَهُودٍ، فتنازعوا عندَ رسول الله ﷺ، فقال رافعُ بن حُرَيْملة: ما أَنْتُم علىٰ شيءٍ، وكفر بعيسىٰ وبالإنجيل. وقال رجلٌ مِن أهل نَجْرَان من النَّصارىٰ لليَهُود: ما أنتم علىٰ شيءٍ. وجحد نبوَّة موسىٰ وكَفَر بالتَّوراة. فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال: إن كلًّا يتلو في كتابه تصديقَ مَن كَفَرَ به؛ أي: يكفر اليهود بعيسىٰ وعندهم التَّوراة، فيها ما أخذ الله عليهم علىٰ لسانِ موسىٰ بالتَّصْدِيق بعيسىٰ، وفي الإنجيل ما جاء به عيسىٰ بتصديقِ موسَىٰ، وما جاء به من التَّوْرَاة مِن عند الله، وكلٌّ يكفر بما في يَدِ صَاحِبِه.

---

(١) لوحة (١٣١ أ). (٢) زيادة من (ح). (٣) زيادة من (ح).

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليَهودِ والنَّصارىٰ علىٰ شيءٍ.

وقال قتادة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ قال: بلىٰ، قد[1] كانت أوائل النَّصارىٰ علىٰ شيءٍ، ولكنهم ابتدعوا وتفرَّقُوا. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ قال: بلىٰ قد كانت أوائل اليهودِ علىٰ شيءٍ، ولكنَّهم ابْتَدَعُوا وتَفرَّقُوا.

وعنه روايةٌ أخرىٰ كقول أبي العالية، والربيع بن أنس في تفسير هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا علىٰ عَهد رسول الله ﷺ.

وهذا القول يَقْتَضِي أنَّ كلًّا من الطَّائِفتَيْن صدَقَتْ فيما رَمَتْ به الطَّائفة الأخرىٰ. ولكنَّ ظاهر سياق الآية يَقْتَضِي ذَمَّهُم فيما قالوه، مع عِلْمِهِم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: وهم يَعْلَمُون شريعةَ التَّوْرَاة والإنجيل، كلٌّ منهما قد كانت مشروعةً في وقتٍ، ولكن تَجَاحَدُوا فيما بينهم عنادًا وكفرًا ومقابلةً للفاسد بالفاسد، كما تقدم عن ابن عبَّاس، ومجاهدٍ، وقتادة في الرِّواية الأُولَىٰ عنه في تفسيرها، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يُبيِّن بهذا جهل اليهود والنصارىٰ فيما تقابلوا به منَ القول، وهذا مِن باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عني بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فقال الربيع بن أنس وقتادة: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالا: قالت النَّصارَىٰ مثل قول اليهود وقِيلِهِم. وقال ابن جُرَيج: قلتُ لعطاء: مَن هؤلاء الَّذِين لا يعلمون؟ قال: أُمَمٌ كانت قبل اليهود والنَّصارَىٰ وقبل التَّورَاة والإنجيل. وقال السُّدِّي: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم: العَرَبُ، قالوا: ليس محمَّدٌ علىٰ شيءٍ.

واختار أبو جعفر بن جرير أنَّها عامَّةٌ تصلح للجميعِ، وليس ثمَّ دليلٌ قاطعٌ يُعَيِّنُ واحدًا من هذه الأقوال، فالحَمْلُ علىٰ الجميع أولىٰ، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: إنَّه تعالىٰ يَجْمَع بينهم يوم المعاد، ويَفْصِلُ بينهم بقضائِهِ العَدْلِ الذي لا يجورُ فيه ولا يظلم مثقال ذرةٍ. وهذا كقوله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٦].

---

(١) لوحة (١٣١ ب).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ[1] أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

اختلفَ المفسِّرون في المُرادِ مِن الذين منعوا مساجد[2] الله وسَعَوْا في خرابها علىٰ قولين:

أحدهما: ما رواه العوفي في «تفسيره»، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ قال: هم النَّصارىٰ. وقال مجاهد: هم النَّصاري، كانوا يَطْرَحُون في بيت المقدس الأَذىٰ، ويَمْنَعُون النَّاس أَن يُصَلُّوا فيه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ هو بُخْتَنَصَّر وأصحابه، خَرَّب بيت المقدس، وأعانَهُ علىٰ ذلك النَّصارىٰ.

وقال سعيد، عن قتادة: قال: أُولَئِكَ أعداء الله النَّصَارَىٰ، حملهم بُغْض اليهود علىٰ أن أَعَانُوا بُخْتَنَصَّر البابلي المجوسي علىٰ تخريب بيتِ المقدس.

وقال السُّدِّي: كانوا ظاهروا بُخْتَنَصَّر علىٰ خراب بيت المقدس حتىٰ خَرَّبَه، وأمر بِهِ أن تُطْرَح فيه الجِيَف، وإِنَّما أعانَهُ الرُّوم علىٰ خرابه مِن أجل أَنَّ بني إسرائيل قتلوا يحيىٰ بن زكريا. وروي نحوه عن الحسن البصري.

القول الثاني: ما رواه ابن جرير: حدَّثني يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحُدَيْبِيَة[3]، وبين أن يَدْخُل مكَّة حتىٰ نَحَرَ هَدْيَهُ بِذِي طُوَىٰ وهَادَنَهُم، وقال لهم: ما كان أحدٌ يَصُدُّ عن هذا البيت، وقد كان الرَّجُل يَلْقَىٰ قاتل أَبِيه وأَخِيهِ فلا يَصُدَّه. فقالوا: لا يَدْخُل علينا مَنْ قتل آباءَنا يوم بدرٍ وفينا باقٍ.

وفي قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ قال: إذ قطعوا من يَعْمُرُها بذكره ويأتيها للحج والعمرة.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سلمة قال: قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد،

---

(١) قال ابن عثيمين رحمه الله: ومن فوائد الآية: شرف المساجد؛ لإضافتها إلىٰ الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ والمضاف إلىٰ الله ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: إما أن يكون أوصافًا؛ أو أعيانًا؛ أو ما يتعلق بأعيان مخلوقة؛ فإذا كان المضاف إلىٰ الله وصفًا فهو من صفاته غير مخلوق، مثل كلام الله، وعلم الله؛ وإذا كان المضاف إلىٰ الله عينًا قائمةً بنفسها فهو مخلوق وليس من صفاته، مثل مساجد الله، وناقة الله، وبيت الله؛ فهذه أعيانٌ قائمةٌ بنفسها إضافتها إلىٰ الله من باب إضافة المخلوق لخالقه علىٰ وجه التشريف؛ ولا شيء من المخلوقات يضاف إلىٰ الله ﷻ إلا لسبب خاصٍّ به؛ ولو لا هذا السبب ما خص بالإضافة؛ وإذا كان المضاف إلىٰ الله ما يتعلق بأعيانٍ مخلوقةٍ فهو أيضًا مخلوقٌ؛ وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فإن الروح هنا مخلوقة؛ لأنها تتعلق بعين مخلوقة.

(٢) لوحة (١٣٢ أ).

(٣) ستأتي الأحاديث عند تفسير سورة الفتح.

عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: أنَّ قُرَيشًا منعوا النَّبيَّ ﷺ الصَّلاة عند الكَعْبَةِ في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ (١).

ثمَّ اختار ابن جرير القول الأول، واحتجَّ بأنَّ قريشًا لم تَسْعَ في خَراب الكَعْبَة. وأمَّا الرُّوم فسَعَوْا في تخريب بيت المقدس.

قلت: الذي يظهر -والله أعلم- القول الثاني، كما قاله ابن زيد، ورُوِيَ عن ابن عبَّاس؛ لأنَّ النَّصارىٰ إذ منعت اليهود الصلاةَ في البيت المقدس، كان دينهم أقومُ مِن دين اليهود، وكانوا أَقْرب منهم، ولم يكُن ذكر الله مِن اليهود مقبولًا إذ ذاكَ؛ لأنَّهم لُعِنُوا من قبلُ علىٰ لسانِ داودَ وعيسىٰ ابنِ مريم، ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُون. وأيضًا فإنَّه تعالىٰ (٢) لما وجَّه الذَّمَّ في حقِّ اليهود والنَّصارىٰ، شرع في ذمِّ المشركين الَّذِين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه مِن مكَّة، ومنعوهم من الصَّلاة في المسجد الحرام، وأمَّا اعتماده علىٰ أنَّ قريشًا لم تسعَ في خرابِ الكعبة، فأيُّ خرابٍ أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واسْتَحْوَذُوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشِرْكِهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٧، ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فإذا كان من هو كذلك مطرودًا مِنها مَصْدُودًا عنها، فأيُّ خرابٍ لها أعظمُ مِن ذلك؟ وليس المراد مِن عِمارَتِها: زَخْرَفَتَها وإقامةَ صورتها فقط، إنَّما عمارتها بذكر الله فيها وإقامَة شَرْعِهِ فيها، ورفعها عن الدَّنَس والشِّرك.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ هذا خبرٌ معناه الطَّلب؛ أي: لا تُمَكِّنوا هؤلاء -إذا قَدَرْتُم عَلَيْهِم- مِن دخولها إلا تحت الهُدْنَةِ والجِزْيَة. ولهذا لما فتح رسولُ الله ﷺ مكَّة أَمَرَ من العام القابل في سنة تسعٍ أن يُنادَىٰ برحاب منىٰ: «**أَلَا لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالبَيْتِ**

---

(١) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٦٣) إلىٰ ابن إسحاق وابن جرير (١/ ٤٩٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٠٨/ ١١٠٣)، وفيه محمَّد بن أبي محمَّد وهو مجهول كما تقدم.

(٢) لوحة (١٣٢ ب).

عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَجَلٌ فَأَجَلُهُ إِلَىٰ مُدَّتِهِ»(١). وهذا كان تصديقًا وعملًا بقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ الآية [التوبة: ٢٨].

وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مَسَاجِدَ الله إلَّا خائفين علىٰ حال التَّهَيُّب، وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يَبْطِشُوا بهم، فضلًا أن يستولوا عليها أو يمنعوا المؤمنين منها. والمعنىٰ: ما كان الحقُّ والواجبُ إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم.

وقيل: إنَّ هذا(٢) بشارةٌ من الله للمسلمين أنَّه سيُظْهرهم علىٰ المسجد الحرام وعلىٰ سائر المسَاجِدِ، وأنه يُذِلُّ المشركين لهم حتَّىٰ لا يدخل المسجد الحرام أحدٌ منهم إلا خائِفًا، يخاف أن يُؤْخَذَ فيُعَاقَب أو يُقْتَل إن لم يُسْلِم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدَّم من منع المشركين مِن دخول المسجد الحرام(٣)، وأوصىٰ رسول الله ﷺ أن لا يَبْقَىٰ بجزيرةِ العرب دِينَانِ، وأن يُجْلَىٰ اليهود والنصارىٰ منها، ولله الحمد والمنَّة. وما ذاك إلا لتشريفِ أكنافِ المسجد الحرام وتَطْهِيرِ البُقْعَةِ المباركة التي بعث الله فيها رَسولَهُ إلىٰ النَّاس كافَّةً بَشيرًا ونذيرًا صلوات الله وسلامه عليه. وهذا هو الخزي لهم في الدُّنيا؛ لأنَّ الجزاء مِن جنس العمل. فكما صَدُّوا المؤمنين عَن المسجد الحرام، صُدُّوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أُجْلُوا هُم منها: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ علىٰ ما انتهكوا مِن حرمة البيت، وامتهنوه مِن نَصْبِ الأصنام حوله، والدُّعاء إلىٰ غير الله عنده والطواف به عُرِيًّا، وغير ذلك مِن أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله.

وأما مَن فَسَّر بيت المقدس، فقال كعب الأحبار: إنَّ النَّصارىٰ لما ظهروا علىٰ بيت المقدس خَرَّبُوه فلمَّا بَعَثَ الله محمَّدًا ﷺ أنزل عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ الآية، فليس في الأرض نصرانيٌّ يدخل بيت المقدس إلا خَائِفًا. وقال السُّدِّي: فليس في الأرض رُومِيٌّ يدخله اليوم إلا وهو خائفٌ أن يُضْرَب عُنُقُه، أو قد أُخِيفَ بأداءِ الجزية فهو يُؤَدِّيها. وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مُسَارَقَةً.

قلتُ: وهذا لا يَنْفِي أن يكون داخلًا في معنىٰ عموم الآية فإنَّ النَّصَارَىٰ لما ظلموا بيت المقدس، بِامْتِهَان الصَّخرة التي كانت يُصَلِّي إليها اليهود، عُوقِبُوا شرعًا وقَدَرًا بالذِّلَّة فيه، إلَّا في أحيانٍ من الدَّهر امتحن بهم بيت المقدس، وكذلك اليهودُ لما عَصَوا الله فيه أيضًا أعظم مِن عصيان النَّصارىٰ كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم.

---

(١) صحيح: ثبت عن جماعة من الصحابة، فرواه البخاري (٤٦٥٥، ٣١٧٧) ومسلم(١٣٤٧) وأحمد (٢/ ٢٩٩) من حديث أبي هريرة، ورواه الترمذي (٣٠٩١) من حديث ابن عبَّاس، و(٣٠٩٢) من حديث علي بن أبي طالب، وانظر أول سورة التوبة.

(٢) لوحة (١٣٣ أ).

(٣) عن دخول الحرم.

وفسَّر هؤلاء الخزيَ مِن الدُّنيا، بخروج المهدي؛ عند السُّدِّي، وعكرمة، ووائل بن داود. وفسَّرَه قتادة بأداء الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون.

والصَّحيحُ أنَّ الخزي في الدُّنيا أعمُّ مِن ذلك كلِّه، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزيِ الدُّنيا وعَذَابِ الآخرة، كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا الهيثم بن خارجة، حدَّثنا محمَّد بن أيوب بن ميسرة بن حَلبس سمعت أبي يحدث، عن بُسْر بن أرطاة، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «**اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا**[١] **فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَمِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ**»[٢].

وهذا حديثٌ حسنٌ، وليس هو في شيءٍ من الكتب السِّتَّة، وليس لصحابيه، وهو بسر بن أرطاة - ويقال: ابن أبي أرطاة- حديث سواه، وسوىٰ حديث: «**لا تُقْطَعُ الأَيْدِي فِي الغَزْوِ**»[٣].

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾

وهذا -والله أعلم- فيه تسليةٌ للرَّسول ﷺ وأصحابه الذين أُخرِجُوا مِن مكَّة وفارقُوا مَسْجِدَهُم ومُصَلَّاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي بمكةَ إلىٰ بيتِ المقدس والكعبةُ بين يديه. فلما قدم المدينة وُجِّه إلىٰ بيت المقدس ستَّة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، ثم صَرَفَه الله إلىٰ الكعبة بعدُ، ولهذا يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب «الناسخ والمنسوخ»: أخبرنا حجاج بن محمَّد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عبَّاس، قال: أوَّل ما نُسِخَ مِن القُرْآنِ فيما ذُكِر لنا - والله أعلم- شأنُ القبلة: قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ فاستقبل رسولُ الله ﷺ فصلَّىٰ نحو بيت المَقْدِس، وترك البيت العتيق، ثم صَرَفَه الله إلىٰ بيته العتيق ونسخها، فقال: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾[٤].

---

(١) لوحة (١٣٣ ب).

(٢) **ضعفه الألباني**: رواه أحمد (٤/ ١٨١)، والحاكم (٣/ ٥٩١)، وابن حبان (٤٩)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٩٠٧).

(٣) **صحيح**: بلفظ: «**لا تقطع الأيدي في السفر**»، رواه الترمذي (١٤٥٠)، والدارمي (٢/ ٢٣١).
وقال الترمذي: حديث غريب.
ورواه أبو داود (٤٤٠٨)، والنسائي (٨/ ٩١) بلفظ: «**لا تقطع الأيدي في السفر**»، وإسناده صحيح.

(٤) **حسن لغيره**: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٢/ ١١٢٣)، والبيهقي في «سننه» (٢/ ١٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٤)، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (ص١٤٤) وفيه ابن جريج: مدلس، وعطاء الخراساني لم يسمع من ابن عبَّاس ولكنه توبع، فقد رواه الطبري (١/ ٥٠٢) من طريق علي بن أبي طلحة وفيه انقطاع أيضًا، وأشار ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» إلىٰ روايته من طريق عكرمة، عن ابن عبَّاس لكنه لم يسق سنده، وسيورد ابن كثير سنده (الآية: ١٤٤) وعزاها لابن مردويه ورجاله ثقات، لكن يرويه داود بن الحصين عن عكرمة، وروايته عنه فيها مقال، وبمجموع المتابعات فالحديث حسن.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: كان أول ما نُسِخَ من القرآن القبلةُ. وذلك أنَّ رسول ﷺ لما هاجر إلىٰ المدينة -وكان أهلُها اليهودَ- أَمَرَه الله أَن يَسْتَقْبِلَ بيت المقدس. ففرحت اليهودُ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعةَ عَشَر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ قبلة إبراهيم عليه السلام فكان يدعو وينظر إلىٰ السَّماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فارْتَاب مِن ذلك اليهود، وقالوا: ما وَلَّاهُم عَن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[(١)].

وقال عكرمة عن ابن عبَّاس: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ قال: قبلةُ الله أَيْنَما تَوَجَّهْتَ شَرقًا أو غَرْبًا.

وقال مجاهد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [قال: قبلة الله][(٢)] حيثما كنتم فلكم قِبْلَةٌ تَسْتَقْبِلُونَها: الكعبة.

وقال ابن أبي حاتمٍ بعد روايته[(٣)] الأثرَ المتقدِّم، عن ابن عبَّاس في نسخ القبلة، عن عطاء، عنه: وروي عن أبي العالية، والحسن، وعطاء الخراساني، وعكرمة، وقتادة، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أَنْزل الله هذه الآيةَ قبل أن يُفْرَضَ التَّوجُّه إلىٰ الكعبة، وإنما أنزلها الله تعالىٰ ليُعَلِّم نبيه ﷺ وأصحابه أنَّ لهم التَّوجُّه بوجوههم للصَّلاة حيث شاؤوا مِن نواحي المشرق والمغرب؛ لأنَّهم لا يُوَجِّهُون وُجُوهَهُم وجهًا مِن ذلك وناحيةً إلا كان -جلَّ ثناؤُه- في ذَلِكَ الوجه وتلك النَّاحية؛ لأنَّ له تعالىٰ المشارق والمغارب، وأنَّه لا يخلو منه مكان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] قالوا: ثم نُسِخَ ذلك بالفرض الَّذي فَرَضَ عليهم التوجُّهَ إلىٰ المسجد الحرام. هكذا قال.

وفي قوله: «وَإِنَّه تعَالىٰ لَا يخلو مِنه مَكانٌ»: إن أراد علمه تعالىٰ فَصَحِيحٌ؛ فإنَّ علمه تعالىٰ مُحِيطٌ بجميع المعلومات، وأمَّا ذاتُه تعالىٰ فلا تكون محصورةً في شيءٍ مِن خلقه، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا[(٤)].

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نَزَلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ إذْنًا من الله أَن يُصَلِّي المتطوع حيث توجَّه مِن شرقٍ أو غربٍ، في مسيرِهِ في سفرِهِ، وفي حال المسَايَفَةِ وشِدَّةِ الخَوْفِ.

حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا ابن إدريس، حدَّثنا عبد الملك -هو ابن أبي سليمان- عن سعيد بن

---

(١) رواه الطبري (١/ ٥٠٢) وفيه انقطاع، ولكن يشهد له ما تقدم في التعليق السابق.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) لوحة (١٣٤ أ).

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: لا يفهم من كلام الطبري إلا الوجه الأول الصحيح. وقد صرح بذلك في تفسير سورة المجادلة (٢٨/ ١٠ طبعة بولاق).
ولكن هذه الشبهة إنما جاءت بما غلب علىٰ الناس من اصطلاحات علماء المتأخرين، حتىٰ تكاد تخرج العربية عن دلالتها الصحيحة.

جبير، عن ابن عمر: أنَّه كان يُصَلِّي حيثُ تَوَجَّهت به رَاحِلَتُهُ. ويُذْكَر أنَّ رسول الله ﷺ كان يَفْعَل ذلك، ويَتَأَوَّل هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(١).

ورواه مسلم والتِّرمذي والنَّسائي وابن أبي حاتم وابن مَرْدَوَيْه، من طرق، عن عبد الملك بن أبي سليمان، به، وأصله في «الصحيحين» من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية.

وفي «صحيح البخاري» مِن حديث نافع، عن ابن عمر: أنَّه كان إذا سُئِلَ عَن صلاة الخوف وَصَفَها. ثم قال: فإن كان خوفٌ أشَدَّ من ذلك صلُّوا رجالًا قيامًا علىٰ أقدامهم، وركبانًا مستقبِلي القبلة وغير مُسْتَقْبِلِيها.

قال نافع: ولا أرىٰ ابن عمر ذَكَر ذلك إلَّا عن النَّبيِّ ﷺ(٢).

[مسألة: ولم يُفَرِّق الشافعي في المشهور عنه، بين سَفَر المسافة وسَفَر العَدْوَىٰ، فالجميع عنه يجوز التَّطَوُّع فيه علىٰ الراحلة، وهو قول أبي حنيفة خلافًا لمالك وجماعَتِهِ، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الإصطخري، التَّطَوَّع علىٰ الدَّابة في المصر، وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك رضي الله عنه، واختاره أبو جعفر الطبري، حتىٰ للماشي أيضًا](٣).

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قوم عُمِّيتْ عَلَيْهِم القبلة، فلم يَعْرِفُوا شَطْرَهَا، فصَلُّوا علىٰ أنحاء مختلفة، فقال الله: لِي المشارق والمغارب فأَين وَلَّيْتُم وجوهكم فهنالك وجهي، وهو قبلتكم، فيُعْلِمُكُم بذلك(٤) أن صلاتكم ماضيةٌ.

حدَّثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدَّثنا أبو أحمد الزبيري، حدَّثنا أبو الربيع السمان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في ليلةٍ سوداءَ مُظْلِمَةٍ، فنزلنا منزلًا، فجعل الرَّجل يأخذُ الأحجارَ فيعمل مَسْجِدًا يُصَلِّي فيه. فلمَّا أصبحنا إذَا نحن قَدْ صَلَّيْنا علىٰ غير القِبْلَة. فقلنا: يا رسول الله، لقد صَلَّيْنا لَيْلَتَنَا هذه لغير القِبْلَة؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الآية(٥).

---

(١) مسلم (٧٠٠)، والترمذي (٢٩٥٨)، والنسائي (١/ ٢٤٤) وأصله في «الصحيحين» من غير ذكر الآية: البخاري (١٠٩٣)، ومسلم (٧٠١).

(٢) البخاري (٤٥٣٥)، وانظر: كتابي «تمام المنة» الجزء الأول من الصلاة (ص٩٢).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) لوحة (١٣٤ ب).

(٥) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٣٤٥) (٢٩٦٠)، وابن ماجة (١٠٢٠)، والبيهقي (٥/ ١٠)، وابن جرير (١/ ٥٠٣)، والواحدي في «أسباب النزول» وإسناده ضعيف، لضعف عاصم بن عبيد الله، لكنَّ للحديث شاهدًا من حديث جابر أورده ابن كثير، رواه الدارقطني (١/ ٢٧١)، والبيهقي (٢/ ١٠)، والحاكم (١/ ٢٠٦)، وفي إسناده ضعف، محمَّد العَرْزَمي: متروك، وعطاء اختلط لكن له متابعات. وبها مع حديث عامر يرقىٰ الحديث للتحسين كما بيَّن ذلك الشيخ الألباني رحمه الله، انظر: «إرواء الغليل» (١/ ٤٢٣/ ٢٩١) وأما رواية ابن عبَّاس التي أوردها ابن كثير، فإنها لا تصح

ثم رَوَاه عن سفيان بن وَكِيع، عن أبيه، عن أبي الربيع السمان بنحوه.

ورواه التِّرمذي، عن محمود بن غيلان، عن وَكِيع. وابن ماجة، عن يحيىٰ بن حكيم، عن أبي داود، عن أبي الربيع السمان.

ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمَّد بن الصباح، عن سعيد بن سليمان، عن أبي الربيع السمان -واسمه أشْعَث بن سعيد البصري- وهو ضعيف الحديث.

وقال التِّرمذي: هذا حديث حسن. ليس إسناده بذاك، ولا نعرفه إلا مِن حديث أشعث السمان، وأشعثُ يُضَعَّفُ في الحديث.

قلتُ: وشيخه عاصم أيضًا ضعيف؛ قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن معين: ضعيف لا يحتج به. وقال ابن حبان: متروك، والله أعلم.

وقد روي من طرق أخرىٰ، عن جابر.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيْه في تفسير هذه الآية: حدَّثنا إسماعيل بن علي بن إِسْمَاعيل، حدَّثنا الحسن بن علي بن شَبِيب، حدَّثني أحمد بن عبد الله بن الحسن، قال: وجدتُ في كتابِ أبي: حدَّثنا عبد الملك العرزمي، عن عطاء، عن جابر، قال: بَعَث رسولُ الله ﷺ سَرِيَّةً كنت فيهَا، فأصابتنا ظُلْمَةٌ فلم نعرفِ القبلةَ، فقالت طائفةٌ منَّا: قد عَرَفْنا القبلةَ، هي هاهنا قبل السِّمَاك. فصلُّوا وخطُّوا خطوطًا، فلمَّا أَصْبَحُوا وطَلَعَتِ الشَّمس أَصْبَحَت تلك الخُطوط لِغَيْر القبلةِ. فلما قَفَلْنَا مِن سفرنا سألنا النَّبيَّ ﷺ فسَكَتَ، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾(١).

ثم رواه من حديث محمَّد بن عبيد الله العَرْزَمي، عن عطاء، عن جابر به.

وقال الدَّارقطني: قرئ علىٰ عبد الله بن عبد العزيز -وأنا أسمع- حدثكم داود بن عمرو، حدَّثنا محمَّد بن يزيد الواسطي، عن محمَّد بن سالم، عن عطاء، عن جابر، قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في مَسِيرٍ فَأَصَابَنَا غَيْمٌ، فتحَيَّرْنَا فاختلفنا في القِبْلَة، فصلَّىٰ كلُّ(٢) رَجُلٍ منَّا علىٰ حدةٍ، وجعل أَحَدُنا يَخُطُّ بَيْنَ يَدَيْه لنعلم أَمْكِنَتنا، فذكرنا ذلك للنَّبيِّ ﷺ فلم يَأْمُرْنا بالإعادة، وقال: «قَدْ أَجْزَأَتْ صَلَاتُكُمْ».

ثمَّ قال الدارقطني: كذا قال: عن محمَّد بن سالم، وقال غيره: عن محمَّد بن عبيد الله العرزمي، عن عطاء، وهما ضعيفان.

ثم رواه ابن مَرْدَوَيْه أيضًا من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس: أنَّ رسول الله ﷺ بعث سرِيَّةً فأخذتهم ضَبَابَةٌ، فلم يَهْتَدُوا إلىٰ القبلة، فصَلُّوا لغير القبلة. ثم اسْتَبَان لهم بعدَ مَا طلعت

= شاهدًا؛ لأنها من طريق الكلبي وهو متهمٌ بالوضع.

(١) حسن لغيره: انظر تخريجه في التعليق السابق.

(٢) لوحة (١٣٥ أ).

الشَّمس أنَّهم صلُّوا لغير القِبْلَة. فلما جاؤوا إلىٰ رسول الله ﷺ حدَّثوه، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(١).

وهذه الأسانيد فيها ضعفٌ، ولعلَّه يَشُدُّ بعضُها بعضًا. وأمَّا إعادةُ الصَّلاة لمن تَبيَّن له خطؤه فَفيها قولان للعلماء، وهذه دلائل علىٰ عَدَم القضاء، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نَزَلَت هذه الآية في سَبَب النَّجاشي، كما حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا معاذ بن هشام حدَّثني أبي، عن قتادة: أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ أَخًا لَكُمْ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ**». قالوا: نُصَلِّي علىٰ رجلٍ ليس بمسلم؟ قال: فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] قال قتادة: فقالوا: فإنَّه كان لا يُصَلِّي إلىٰ القِبْلَة. فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(٢).

وهذا غريب والله أعلم.

[وقد قيل: إنَّه كان يُصَلِّي إلىٰ بيت المقدس قبل أن يَبْلُغَه النَّاسخ إلىٰ الكعبة، كما حكاه القرطبي عن قتادة، وذكر القرطبي أنَّه لمَّا مات صلَّىٰ عليه رَسُولُ الله ﷺ فأخذ بذلك مَن ذَهَب إلَىٰ الصَّلَاةِ علىٰ الغَائِب، قال: وهذا خاصٌّ عند أصحابنا مِن ثلاثة أوجه: أحدُها: أنَّه عليه السلام شاهده حين صلَّىٰ عليه طُوِيَت له الأرض. **الثاني**: أنَّه لما لم يكن عِنْدَه مَن يُصَلِّي عليه صَلَّىٰ عليه، واختاره ابن العربي، قال القرطبي: ويَبْعُدُ أن يكون مَلِكٌ مُسْلِمٌ ليس عِندَه أحدٌ مِن قومه علىٰ دِينِه، وقد أجاب ابن العَرَبِيِّ عن هذا: لعلَّهم لم يكن عندهم شرعيَّة الصلاة علىٰ الميت. وهذا جوابٌ جيِّدٌ. **الثالث**: أنَّه عليه الصلاة والسلام إنَّما صلَّىٰ عليه ليكون ذلك كالتَّأليف لبقيَّة الملوك، والله أعلم](٣).

وقد أوردَ الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيْه في تفسير هذه الآيةِ مِن حديث أبي معشر، عن محمَّد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ المَدِينَةِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ العِرَاقِ**»(٤).

وله مناسبةٌ هاهنا، وقد أخرجه الترمذي وابن ماجة مِن حديث أبي معشر، واسمه نَجِيح بن عبد الرحمن السِّندي المدني به: «**مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ**».

وقال التِّرمذي: وقد رُوِيَ مِن غَيْرِ وَجْهٍ عن أبي هريرة. وتكلَّم بعضُ أهل العِلْم في أبي معشر مِن

---

(١) عزاه لابن مردويه، وفيه الكلبي وهو متهم بالوضع لكن يكفي لصحة الحديث ما تقدم.

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (١/ ٥٠٤)، ورواه الواحدي في «أسباب النزول» والأول: مرسل، والثاني: معضل.

تنبيه: اعلم أن صلاة النَّبيِّ ﷺ علىٰ النجاشي صحيحةٌ ثابتةٌ، ولكن نزول الآية بسبب ذلك لا يصح كما بينت بعده.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) ضعيف بهذا اللفظ: عزاه لابن مردويه، وفيه أبو معشر: نجيح بن عبد الرحمن ضعيف من قبل حفظه. ولكن الحديث صحيح بلفظ: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» كما سيأتي بعده.

قِبَل حفظه، ثم قال الترمذي: حدَّثني الحسن بن [أبي][(١)] بكر المروزي، حدَّثنا المعلىٰ بن منصور، حدَّثنا عبد الله بن جعفر المخرمي[(٢)]، عن عثمان بن محمَّد الأخنسي، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ»[(٣)].

ثم قال التِّرمذي: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ[(٤)].

وحكىٰ عن البخاري أنَّه قال: هذا أَقْوَىٰ مِن حديث أبي معشر وأَصَحُّ. قال الترمذي: وقد روي عن غير واحدٍ من الصحابة: مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ - منهم عمر بن الخطاب، وعلي، وابن عبَّاس.

وقال ابن عمر: إذا جَعَلْتَ المغرب عن يَمِينِك والمشرق عَن يَسَارِك، فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة.

ثم قال ابن مَرْدَوَيْه: حدَّثنا علي بن أحمد بن عبد الرحمن، حدَّثنا يعقوب بن يوسف مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا شعيب بن أيوب، حدَّثنا ابن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، عن النَّبيّ ﷺ، قال: «مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ»[(٥)].

وقد رواه الدَّارقطني والبَيْهَقِي وقال: المشهور عن ابن عمر، عن عمر قوله.

قال ابن جرير: ويُحْتَمَل: فأينَما تُولُّوا وجوهَكُم في دُعَائِكُم لي فهُنَالِكَ وجهي أَسْتَجِيبُ لكم دُعَاءَكُم، كما حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثني حجاج، قال: قال ابن جُرَيج: قال مجاهد: لما نزلت: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠] قالوا: إلىٰ أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾[(٦)].

قال ابن جرير: ويعني بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ يَسَعُ خَلْقَه كلَّهُم بالكفاية، والإفضال والجُودِ.

وأمَّا قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنَّه يعني: عليمٌ بأَعْمَالِهم، ما يَغِيبُ عنه منها شيءٌ، ولا يَعْزُب عَن عِلْمِهِ، بل هو بجميعها عليم.

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) في بعض النسخ: (المخزومي)، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «الترمذي».
(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٤٢)، وابن ماجة (١٠١١)، والنسائي (٤/ ١٧٢) وفيه أبو معشر: نجيح بن عبد الرحمن: ضعيف، لكن رواه الترمذي من طريق أخرىٰ وقال: حسن صحيح: قال محمَّد -أي: البخاري-: هو أقوىٰ من حديث أبي معشر.
وله شاهد من حديث ابن عمر ذكره أيضًا ابن كثير -ورواه الحاكم (١/ ٣٠٦) وعنه البيهقي (٢/ ٩) ولكن هذه الرواية يرجح الأئمة البيهقي وأبو زرعة وقفها (انظر: «العلل» لابن أبي حاتم: ١٨٤)، و«سنن البيهقي» (٢/ ٩).
وبمجموع هذه الطرق يقوىٰ الحديث. وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٩٢).
(٤) لوحة (١٣٥ ب).
(٥) **صحيح**: انظر التعليق السابق.
(٦) **مرسل**: رواه الطبري (١/ ٥٠٥).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تَلِيهَا علىٰ الرَّدِّ علىٰ النَّصارىٰ - عليهم لعائن الله- وكذا مَن أشبههم مِن اليَهُود ومِن مُشْرِكِي العرب، ممَّن جعل الملائكة بنات الله، فأَكْذَبَ الله جميعهم في دَعْوَاهُم وقَولِهم: إنَّ لله ولدًا. فقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تَعالَىٰ وتَقدَّس وتنَزَّهَ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليس الأمر كما افْتَرَوْا، وإنَّما له ملك السَّموات والأرض ومَن فِيهنَّ، وهو المتصرِّف فيهم، وهو خالقهم ورازِقُهم، ومُقدِّرهم ومُسَخِّرهم، ومُسَيِّرهم ومُصَرِّفُهم، كما يشاء، والجميع عَبيدٌ له ومِلْكٌ له، فكيف يكون له وَلَدٌ مِنْهُم، والولد إنَّما يكون مُتولِّدًا مِن شَيْئَين مُتَنَاسِبَيْن (١).

وهو تبارك وتعالىٰ لَيْسَ له نظيرٌ، ولا مُشَارِكٌ في عظمتِهِ وكِبْرِيَائِهِ ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد! كما قال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ (٢) هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ -٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾

---

(١) قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: قال الراغب في «تفسيره»: نبه علىٰ أقوىٰ حجة علىٰ نفي ذلك، وبيانها: هو أن لكل موجود في العالم، مخلوقًا طبيعيًّا، أو معمولًا صناعيًّا، غرضًا وكمالًا أوجد لأجله، وإن كان قد يصلح لغيره علىٰ سبيل العرض، كاليد للبطش، والرجل للمشي، والسكين لقطع مخصوص، والمنشار للنشر، وإن كانت اليد قد تصلح للمشي في حالٍ، والرجل للتناول، لكن ليس علىٰ التمام.

- والغرض في الولد للإنسان إنما هو لأن يبقىٰ به نوعه، وجزء منه، لَمّا لم يجعل الله له سبيلًا إلىٰ بقائه بشخصه، فجعل له بذرًا لحفظ نوعه. ويقوي ذلك، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذرًا واستخلافًا، لمّا لم يجعل لها فناء النبات والحيوان.

- ولما كان الله تعالىٰ هو الباقي الدائم، بلا ابتداء ولا انتهاء، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنًىٰ، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: هو منزه عن السبب المقتضي للولد. ثم لما كان اقتناء الولد لفقر ما، وذلك لما تقدم، أن الْإِنسَانَ افتقر إلىٰ نسل يخلفه لكونه غير كامل إلىٰ نفسه - بيّن تعالىٰ بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنه لا يتوهم له فقر، فيحتاج إلىٰ اتخاذ ما هو سد لفقره، فصار في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دلالة ثانية، ثم زاد حجة بقوله: ﴿قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب، ومظاهرته كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢] بيّن أن كل ما في السموات والأرض، مع كونه ملكًا له، قانتًا أيضًا، إما طائعًا، وإما كارهًا، وإما مسخرًا. كقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذا أبلغ حجةٍ لمن هو علىٰ المحجة.

(٢) لوحة (١٣٦ أ).

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص].

فقرَّر تعالىٰ في هذه الآيات الكريمة أنَّه السَّيِّد العظيم، الذي لا نَظِير له ولا شَبِيهَ له، وأنَّ جميع الأشياء غيرَهُ مخلوقةٌ له مربوبةٌ، فكيف يكون له منها ولد! ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من «البقرة»: حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعيب، عن عبد الله بن أبي حُسَين، حدَّثنا نافع ابن جبير -هو ابن مطعم- عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَيَزْعُمُ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ. فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»(١).

انفرد به البخاري مِن هذا الوجه.

وقال ابن مَرْدَوَيْه: حدَّثنا أحمد بن كامل، حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل الترمذي، حدَّثنا إسحاق ابن محمَّد الفَرْوي، حدَّثنا مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَنْبَغِ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَنْبَغِ لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. وَأَنَا اللهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»(٢).

وفي «الصَّحيحين» عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ سَمِعَهُ مِنَ اللهِ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أسباط، عن مُطَرِّف، عن عطيَّة، عن ابن عبَّاس، قال: ﴿قَانِتِينَ﴾ مُصَلِّين.

وقال عِكْرِمة وأبو مالك: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مُقرُّون له بالعبودية.

وقال سعيد بن جبير: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يقول: الإخلاص.

وقال الرَّبيع بن أنس: يقولُ: كلٌّ له قَائِمٌ يوم القيامة.

وقال السُّدِّي: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يقول: له مطيعون يوم القيامة.

وقال خَصيف، عن مجاهد: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ قال: مُطِيعُون، كُن إنسانًا فكان، وقال: كُن حمارًا فكان.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مُطِيعُون، يقول: طاعة الكافر في سجود ظِلِّهِ وهو كارهٌ.

---

(١) البخاري (٤٤٨٢) (٤٩٧٤)، وأحمد (٢/ ٣١٧)، والنسائي (٤/ ١١٢).

(٢) رواه البخاري (٤٩٧٤) في «صحيحه» نحوه.

(٣) البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤)، وأحمد (٤/ ٣٩٠).

وهذا القول عن مجاهد -وهو اختيار[١] ابن جرير- يجمع الأقوال كلَّها، وهو أنَّ القنوت: هو الطَّاعة والاستكانة إلىٰ الله، وذلك شرعيٌّ وقَدريٌّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقد وَرَد حديث فيه بيان القنوت في القرآن ما هو المراد به، كما قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونُس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أنَّ دَرَّاجًا أبا السَّمح حدَّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ حَرْفٍ مِنَ القُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ القُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ»[٢].

وكذا رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسىٰ، عن ابن لَهِيعة، عن دَرَّاجٍ بإسناده مثله.

ولكنَّ هذا الإسناد ضعيفٌ لا يُعتَمُد عليه. ورفع هذا الحديث مُنْكَر، وقد يكون مِن كلام الصَّحابي أو مَنْ دونه، والله أعلم. وكثيرًا ما يأتي بهذا الإسناد تفاسير فيها نكَارَة، فلا يُغتر بها، فإن السَّند ضعيف، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما علىٰ غير مثالٍ سَبَق، قال مجاهد والسُّدِّي: وهو مقتضَىٰ اللُّغة، ومنه يُقال للشَّيءِ المُحْدَث: بدعة. كما جاء في «الصحيح» لمسلم: «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ»[٣]. والبدعة علىٰ قِسْمَيْن: تارةً تكون بدعةً شرعيَّةً، كقوله: «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». وتارةً تكون بدعةً لُغويَّةً؛ كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ عَن جمعه إيَّاهم علىٰ صلاة التَّراويح واستمرارهم: نِعْمَت البدعةُ هذه[٤].

وقال ابن جرير: وبديع السموات والأرض: مبدعهما. وإنما هو مُفْعِل فصُرف إلىٰ فَعيل، كما صرف المؤلم إلىٰ الأليم، والمسمع إلىٰ السميع. ومعنىٰ البديع: المُنشِئ والمحدِث ما لم يسبقه إلىٰ إنشاءِ مثلِه وإحداثِه أحدٌ.

قال: ولذلك سُمِّي المبتدع في الدِّين مبتدعًا؛ لإحداثِه فيه ما لم يسبق إليه غيره، وكذلك كل محدَثٍ فعلًا أو قولًا لم يتقدمه فيه متقدِّم، فإنَّ العرب تُسَمِّيه مُبْتَدِعًا. ومِن ذلك قول أعشىٰ ثعلبة، في مدح هوذة ابن علي الحَنفِي:

---

(١) لوحة (١٣٦ ب).

(٢) ضعيف: كما ذكر ابن كثير: رواه أحمد (٣/ ٧٥)، وأبو نعيم (٨/ ٣٢٥)، وابن حبان (٣٠٩)، وابن أبي حاتم (١/ ٢١٣/ ١١٢٨) وفيه ضعف لضعف دراج في روايته عنه أبي الهيثم.

(٣) رواه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر ولفظه: «**وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»، وليس فيه «**وكل بدعة ضلالة**» وهي عند النسائي، وقد حسنها الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، وأما حديث العرباض فرواه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجة (٤٢).

(٤) البخاري (٢٠١٠).

يُرْعَىٰ(١) إِلَىٰ قَوْلِ سَادَاتِ الرِّجَالِ إِذَا ... أَبْدَوْا لَهُ الحَزْمَ أَوْ مَا شَاءَهُ ابْتَدَعَا

أي: يُحْدِث ما شاء.

قال ابن جرير: فمعنىٰ الكلام: فسبحان الله أنَّىٰ يكون لله ولدٌ، وهو مالك ما في السموات والأرض، تَشْهَد له جميعها بدلالتها عليه بالوَحْدانيَّة، وتُقِرُّ له بالطَّاعة، وهو بارئُها وخالقُها ومُوجِدُها من غير أصلٍ ولا مثال احْتَذَاها عليه. وهذا إعلامٌ(٢) مِن الله لعبادِهِ أَن ممن يَشْهَد له بذلك المسِيح، الَّذي أضافوا إلىٰ الله بُنُوَّته، وإخبار منه لهم أنَّ الَّذي ابتدع السَّموات والأرض مِن غير أصلٍ وعلىٰ غير مثالٍ، هو الَّذي ابتدع المسيح عيسىٰ مِن غير والدٍ بقُدْرَتِه.

وهذا من ابن جرير رحمه الله كلامٌ جيِّدٌ وعبارةٌ صحيحةٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يُبيِّن بذلك تعالىٰ كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنَّه إذا قدَّر أمرًا(٣) وأراد كونه، فإنَّما يقول له: كُن. أي: مرةً واحدةً، فيكون؛ أي: فيُوجَد علىٰ وَفْقِ ما أراد، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال الشاعر:

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ كُنْ قَوْلَةً فَيَكُونُ

---

(١) أي: يصغي. (٢) لوحة (١٣٧ أ).

(٣) قال القرطبي رحمه الله: قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡرٗا﴾ الأمر واحد الأمور، وليس بمصدر أمر يأمر. قال علماؤنا: والأمر في القرآن يتصرف علىٰ أربعة عشر وجهًا: الأول- الدين، قال الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: دين الله الإسلام. الثاني- القول، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ يعني: قولنا، وقوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ يعني: قولهم. الثالث- العذاب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ يعني: لما وجب العذاب بأهل النار. الرابع- عيسىٰ عليه السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ يعني: عيسىٰ، وكان في علمه أن يكون من غير أب. الخامس- القتل ببدر، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: القتل ببدر، وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ يعني: قتل كفار مكة. السادس- فتح مكة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ السابع- قتل قريظة وجلاء بني النضير، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾. الثامن- القيامة، قال الله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾. التاسع- القضاء، قال الله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ يعني: القضاء. العاشر- الوحي، قال الله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقول: ينزل الوحي من السماء إلىٰ الأرض، وقوله: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ يعني: الوحي. الحادي عشر- أمر الخلق، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ يعني: أمور الخلائق. الثاني عشر- النصر، قال الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾. يعنون: النصر، ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ يعني: النصر. الثالث عشر- الذنب، قال الله تعالىٰ: ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ يعني: جزاء ذنبها. الرابع عشر- الشأن والفعل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ أي: فعله وشأنه، وقال: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: فعله.

ونبَّه تعالىٰ بذلك أيضًا علىٰ أنَّ خلق عيسىٰ بكلمةِ: كُن، فكان كما أمره الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قال: قال رافع بن حُرَيملة لرسول الله ﷺ: يا محمَّد، إن كُنتَ رَسولًا مِن الله كما تقول، فقُل لله فَلْيُكلِّمْنا حتىٰ نسمع كلامَه. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾[(١)].

[وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾][(٢)] قال: النَّصارىٰ تقوله. وهو اختيار ابن جرير، قال: لأنَّ السِّيَاق فيهم. وفي ذلك نظر.

[وحكىٰ القرطبي ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: لو يخاطبنا بنبُوتِك يا محمَّد، قلتُ: وظاهر السياق أعم، والله أعلم][(٣)].

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدِّي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار[(٤)] العرب: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ قالوا: هم اليهود والنصارىٰ. ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ[(٥)] ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) ضعيف رواه ابن جرير (١/ ٥١٢)، وابن أبي حاتم (١/ ٢١٥) وفيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) قال السعدي رحمه الله: يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا علىٰ رسله ... فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل، قد جاءوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر.

(٥) لوحة (١٣٧ ب).

يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة﴾ [المدثر: ٥٢] إلىٰ غير ذلك مِن الآيات الدَّالة علىٰ كُفْر مشركي العَرَب وعُتُوِّهم وعِنَادِهم وسُؤَالِهم ما لا حاجة لهم به، إنَّما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم مِن الأُمَم الخالية مِن أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾ [النساء: ١٥٣] وقال تعالىٰ: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ [البقرة: ٥٥].

وقوله: ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي: أَشْبهَت قُلُوب مشركي العرب قلوبَ مَن تقدَّمهم في الكفر والعناد والعُتُوِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴿٥٢﴾ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ أي: قد وَضَّحْنا الدَّلالات علىٰ صِدقِ الرُّسل بما لا يحتاج معها إلىٰ سؤالٍ آخر وزيادةٍ أُخرَىٰ، لمن أَيْقَن وصَدَّق واتَّبع الرُّسل، وفَهِم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالىٰ. وأمَّا مَن ختم الله علىٰ قلبه وجعل علىٰ بصره غشاوةً فأُولَئِكَ الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ﴿٩٦﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس].

﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴿١١٩﴾﴾

قال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الرحمن بن صالح، حدَّثنا عبد الرحمن بن محمَّد ابن عبيد الله الفزاري عن شيبان النحوي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أُنزِلَتْ عَلَيَّ: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا﴾ قال: «بَشِيرًا بالجنَّةِ، ونَذيرًا مِنَ النَّارِ»[1].

وقوله: ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ قراءة أكثرهم: ﴿ولا تُسْأَلُ﴾ بضمِّ التَّاء علىٰ الخبر. وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿وما تُسْأَل﴾ وفي قراءة ابن مسعود: ﴿ولن تُسْأَل﴾[2] نقلها ابن جرير؛ أي: لا نسألُك عن كفر مَن كَفَر بك، ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد: ٤٠] وكقوله تعالىٰ: ﴿فذكر إنما أنت مذكر ﴿٢١﴾ لست عليهم بمصيطر﴾[3] الآية [الغاشية: ٢١، ٢٢] وكقوله تعالىٰ: ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٦/ ١١٤٨) إسناده ضعيف، فيه قتادة مدلس، وعبد الرحمن بن محمَّد الفزاري: قال ابن أبي حاتم (٥/ ٢٨٢): سألت أبي عنه فقال: ليس بقوي.

(٢) متواترة قَرَأَ (وَلا تَسْأَلْ) نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ، وَقَرَأَ البَاقُونَ (وَلا تُسْأَلُ)، وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ (وَمَا تُسْأَلُ)، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ (وَلَنْ تُسْأَلَ).

(٣) لوحة (١٣٨ أ).

بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥] وأشباه ذلك من الآيات.

وقرأ آخرون ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَٰبِ الْجَحِيمِ﴾ بفتْح التَّاء علىٰ النَّهي؛ أي: لا تَسْأَلْ عن حالهم، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا الثَّوري، عن موسىٰ بن عبيدة، عن محمَّد بن كعب القُرَظِي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ؟ لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ؟ لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ؟». فنزلت: ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَٰبِ الْجَحِيمِ﴾ فما ذكرهما حتىٰ توفاه الله ﷻ[(١)].

ورواه ابن جرير، عن أبي كُرَيب، عن وَكِيع، عن موسىٰ بن عبيدة، [وقد تكلَّموا فيه عَن محمَّد بن كعب][(٢)] بمثله.

[وقد حكاه القُرطِبي عن ابن عبَّاس ومحمَّد بن كعب قال القرطبي: وهذا كما يقال: لا تَسْأَل عن فلان؛ أي: قد بَلَغ فَوق ما تَحْسِب، وقد ذكرنا في «التَّذكرة»: أنَّ الله أحيا له أبَوَيْه حتىٰ آمَنَا[(٣)]، وأَجَبْنَا عن قوله: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»[(٤)].

(قلتُ): والحديث المرويُّ في حياةِ أبَوَيْه ﷺ ليس في شيءٍ مِن الكتب السِّتَّة ولا غيرها، وإسناده ضعيفٌ والله أعلم][(٥)].

ثم قال ابن جرير وحدَّثني القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثني حجاج، عن ابن جُرَيج، أخبرني داود بن أبي عاصم: أن النَّبيَّ ﷺ قال ذات يوم: «أَيْنَ أَبَوَايَ؟». فنزلت: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ الْجَحِيمِ﴾[(٦)].

وهذا مرسل كالذي قبله. وقد رد ابن جرير هذا القول المروي عن محمَّد بن كعب القرظي وغيره في ذلك، لاستحالة الشَّكِّ مِن الرَّسول ﷺ في أَمْر أبَوَيْه. واختار القراءة الأولىٰ. وهذا الذي سَلَكَهُ هَاهُنَا فيه نظر؛ لاحتمال أنَّ هذا كان في حال استغْفَارِه لأبويه قبل أن يعلم أَمْرَهُمَا، فلمَّا عَلِمَ ذلك تبرَّأ منهما، وأخبر عنهما أنَّهما مِن أهل النَّار كما ثبت ذلك في «الصحيح»[(٧)]؛ ولهذا أشباهٌ كثيرةٌ ونظائرُ، ولا يلزم ما ذكر ابن جرير. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا موسىٰ بن داود، حدَّثنا فُلَيح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عطاء

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن جرير (١/ ٥١٦)، والإسناد مرسل، وموسىٰ بن عبيدة: ضعيف.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) رواه ابن شاهين، والدارقطني، وابن عساكر، والخطيب، وابن سيد الناس، والحديث ضعيف كما أشار إلىٰ ذلك ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) سيأتي ذكرها في سورة التوبة الآية (١١٣ - ١١٤)، وحديث: «إن أبي وأباك في النار» أخرجه مسلم (٢٠٣).

(٥) زيادة من (ح).

(٦) **ضعيف**: رواه الطبري (١/ ٥١٦) وإسناده مرسل.

(٧) انظر: تفسير سورة التوبة الآية (١١٣ - ١١٤).

ابن يسار قال: لَقِيتُ عبدَ الله بن عَمْرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صِفَةِ رَسُول الله ﷺ في التَّوراة. قال: أجَل، والله إنَّه لموصوفٌ في التَّوراة بصفته في القرآن: «يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا، وحِرْزًا للأُمِّيِّين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُك المتوكل، لَسْتَ[1] بفظٍّ ولا غليظٍ ولا سَخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسَّيِّئة السَّيِّئة ولكن يَعفُو ويَغفِر، ولن يَقْبِضَه حتىٰ يُقِيمَ به الملَّة العوجاء، بأَن يقولوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». فيفتح به أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا»[2].

انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في البيوع عن محمَّد بن سنان، عن فُلَيح به.

وقال: تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال.

وقال سعيد: عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام. ورواه في التفسير عن عبد الله، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، به. فذكر نحوه، فعبد الله هذا هو ابن صالح، كما صرح به في كتاب الأدب[3]. وزعم أبو مسعود الدمشقي أنه عبد الله بن رجاء.

وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيْه في تفسير هذه الآية من البقرة، عن أحمد بن الحسن بن أيوب، عن محمَّد بن أحمد بن البراء، عن المعافَىٰ بن سليمان، عن فليح، به. وزاد: قال عطاء: ثم لَقِيتُ كعبَ الأحبار، فسَألْتُه فما اختلفا في حرفٍ، إلَّا أنَّ كعبًا قال بلُغَتِهِ: أعينًا عمومىٰ، وآذانًا صمومىٰ، وقلوبًا غلوفًا.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ[4] ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قال ابن جرير: يعني بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وليست اليهود - يا محمَّد - ولا النَّصارىٰ براضيةٍ عنك أبدًا، فدَعْ طلب مَا يُرْضِيهم ويُوافقهم، وأَقْبِل علىٰ طلب رضا الله في دُعَائِهِم إلىٰ ما بعثَك الله به من الحقِّ.

---

(١) في (ز): (لا)، والمثبت موافق لرواية «المسند».

(٢) البخاري (٢١٢٥) (٤٨٣٨)، وأحمد (٢/ ١٧٤).

(٣) لوحة (١٣٨ ب).

(٤) قال الشوكاني رحمه الله: وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب، وتتصدع منه الأفئدة، ما يوجب علىٰ أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدِّهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما؛ فإن غالب هؤلاء، وإن أظهر قبولًا، وأبان من أخلاقه لينًا لا يرضيه إلا اتباع بدعته، والدخول في مداخله، والوقوع في حبائله، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علَّمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدىٰ الله هو ما في كتابه، وسنَّة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة، وجهالة بينة، ورأي منهار، وتقليد علىٰ شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ما له من الله من وليّ، ولا نصير، ومن كان كذلك، فهو مخذول لا محالة، وهالك بلا شك، ولا شبهة.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: قل يا محمَّد: إنَّ هدىٰ الله الذي بعثني به هو الهُدَىٰ؛ يعني: هو الدِّين المستقيم الصَّحِيح الكامل الشَّامل.

قال قتادة في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ قال: خصومةٌ عَلَّمها الله محمَّدًا ﷺ وأصحابه، يُخَاصِمُون بها أهل الضَّلالة. قال قتادة: وبَلَغَنَا أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ الحَقِّ ظَاهِرِينَ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**»(١).

قلتُ: هذا الحديث مُخَرَّج في «الصحيح» عن عبد الله بن عمرو.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فيه تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ للأمَّة عن اتِّباع طرائقِ اليهود والنَّصارىٰ، بعد ما عَلِموا من القرآن والسُّنَّة، عياذًا بالله مِن ذلك، فإنَّ الخطاب مع الرَّسول، والأمر لأُمَّته(٢).

[وقد استدلَّ كثيرٌ مِن الفقهاء بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ حيث أفرد المِلَّة علىٰ أنَّ الكُفر كله ملةٌ واحدةٌ

---

(١) رواه مسلم (١٥٦)، وأحمد (٣/ ٣٨٤)، وأبو يعلىٰ (٢٠٧٨) من حديث جابر بن عبد الله.
ورواه مسلم (٢٨٨٩)، وابن ماجة (٣٩٥٢) من حديث ثوبان.
ورواه مسلم (١٩٢٤) من حديث عقبة بن عامر.
ورواه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة، ورواه الخطيب في «**الفقيه والمتفقه**» (١١٥ - بتحقيقي) من حديث أبي هريرة.
ورواه البخاري (٧٤٦٠) من حديث معاذ.

(٢) **قال أحمد شاكر** رحمه الله: عصم الله المسلمين، منذ أن هداهم الله للإسلام إلىٰ قريب من عصرنا هذا - من أن يتبعوا ملة اليهود والنصارىٰ، إلا ما يكون من حوادث فردية، أكثرها من المعاصي العملية، ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارىٰ، فزادوا في التشبه بهم قليلًا، ثم وجد من أهل العلم فيهم ومن أهل الرأي - من حاول أن يدافع عن الإسلام أسوأ دفاع، فصاروا يتقربون شيئًا فشيئًا لسادتهم، بتأويل القرآن والسنة، وتحريف معانيهما، ليقاربوا بين شريعتهم المطهرة، وشرائع تلك الأمم الضالة والمغضوب عليها، بل ليقاربوا شريعتنا ونصوصنا الصريحة إلىٰ عقائد الملحدين الوثنيين من أهل أوربة وأمريكا، فكان في علمائنا وكتابنا من ينكر الغيب أو أكثره، فيتأولون صفة الملائكة، ووصف الجن، وينكرون المعجزات النبوية عامة - لأنها لم ترد في القرآن، زعموا! ثم يحرفون المعنىٰ فيما ثبت منها في القرآن أو السنة المتواترة، ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا علىٰ المسلمين قوانين أوربة الوثنية المجرمة الملعونة، ثم استباحوا أكثر المحرمات، يصرحون بإباحتها من غير حياءٍ ولا غيرةٍ، ثم صاروا ينبزون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التي هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد وبالرجعية، لينفِّروا الناس منها. وقامت في عصرنا هذا دعوة سافرة وقحة إلىٰ تغيير الشريعة النقية في تعدد الزوجات والطلاق والمواريث، بل إن بعض من يحمل شهادة العالمية من الأزهر كتب في الصحف عن غير حياء: «**أن الإسلام يُحرِّم تعدد الزوجات**»! وضعف الأزهر كله عن أن يضرب علىٰ يديه، خشية أن يغضب من وراءه ومن ينصره في كفره وافترائه علىٰ الله، وحتىٰ إن بعض الصحف القومية الماجنة الداعرة لتدعو إلىٰ الزنا علنًا، دون أن يردعها أحدٌ، بل إن بعضهم ليصرح بمنع العلماء من الكتابة في هذه المسائل «**الاجتماعية**»، والصحف الأخرىٰ لا ترضىٰ أن تنشر لأحد من العلماء دفعًا لهذا الكفر البواح، بل إن نسوانًا ماجنات ينشرن في الصحف الدعوة السافرة إلىٰ الفجور، بعد انتشار السفور، فلئن لم يدفع المسلمون - أو المتنسبون للإسلام - هذه المنكرات عن دينهم وعلىٰ بلادهم، ليسلطن الله عليهم عدوهم، وليستأصلن شأفتهم، وليستبدلن بهم قومًا غيرهم، ثم لن يكونوا أمثالهم.

كقوله تعالىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، فعلىٰ هذا لا يَتَوَارَث المسلمون والكفَّار، وكل منهم يَرِثُ قرينَه سواء كان مِن أهل دينه أم لا؛ لأنَّهم كلهم مِلَّةٌ واحدةٌ، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في روايةٍ عنه. وقال في الرواية الأخرىٰ كقول مالك: إنَّه لا يَتَوَارَث أهل مِلَّتَين شَتَّىٰ، كما جاء في الحديث[١]، والله أعلم][٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: هم اليهود والنَّصارىٰ. وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ، وعبد الله بن عمران الأصبهاني، قالا: حدَّثنا [يحيىٰ بن يمان، حدَّثنا][٣] أسامة بن زيد، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: إذا مَرَّ بذِكْر الجنَّة سأَلَ الله الجنةَ، وإذا مَرَّ بِذِكْر النَّار تَعَوَّذ بالله من النَّار[٤].

وقال[٥] أبو العالية: قال ابن مسعود: والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إنَّ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَن يُحِلَّ حلالَهُ ويُحَرِّمَ حرامه ويقرأه كما أنزلَهُ الله، ولا يُحَرِّف الكلم عَن مواضعه، ولا يَتَأَوَّل مِنه شيئًا علىٰ غير تَأْوِيله[٦].

وكذا رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة ومنصور بن المعتمر، عن ابن مسعود.

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك، عن ابن عبَّاس في هذه الآية، قال: يُحِلُّون حلاله ويُحَرِّمُون حَرَامَه، ولا يُحَرِّفُونه عَن مواضعه[٧]. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن مسعود نحو ذلك.

وقال الحسن البصري: يَعمَلُون بمُحْكَمِهِ، ويُؤمِنُون بمُتَشَابِهِه، يَكِلُونَ ما أشكل عليهم إلىٰ عالمه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ، أخبرنا ابن أبي زائدة، أخبرنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: يَتَّبِعونه حقَّ اتِّباعِهِ، ثم قرأ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٢]، يقول: اتَّبَعَها[٨]. قال: ورُوِيَ عن عكرمة، وعطاء، ومجاهد، وأبي رزين، وإبراهيم النخَعي نحو ذلك.

---

(١) **حسن صحيح**:رواه بهذا اللفظ أبو داود (٢٩١١)، والترمذي (٢١٠٩)، وابن ماجة (٢٧٣١) من حديث عبد الله بن عمرو. وقد ثبت بلفظ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» من حديث أسامة بن زيد، رواه البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤).

(٢)زيادة من (ح).

(٣)زيادة من (ح).

(٤) **ضعيف**:رواه ابن أبي حاتم (١١٦٠)، وفيه أسامة بن زيد بن أسلم: ضعيف، قال الحافظ: صدوق يخطئ كثيرًا وقد تغير، وفيه أيضًا انقطاع، فزيد بن أسلم لم يسمع من عمر.

(٥)لوحة (١٣٩ أ).

(٦)عزاه لعبد الرزاق في «تفسيره» ورجاله ثقات.

(٧)رواه الطبري (١/ ٥١٩).

(٨)رواه ابن أبي حاتم (١/ ٧٥٩)، والطبري (١/ ٥١٩)، وإسناده صحيح.

وقال سفيان الثَّوري: حدَّثنا زُبَيد، عن مُرَّة، عن عبد الله بن مسعود، في قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: يَتَّبِعُونه حقَّ اتِّباعه[١].

[قال القُرطبي: وروىٰ نصر بن عيسىٰ، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: «يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ»[٢]، ثم قال: في إسناده غير واحدٍ من المجهولين فيما ذكره الخطيب إلَّا أنَّ معناه صحيح.

وقال أبو موسىٰ الأشعري: مَن يَتَّبع القرآن يَهْبِطْ به علىٰ رِياضِ الجنَّة.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ: همُ الَّذين إذا مَرُّوا بآيةِ رحمةٍ سألُوها مِن الله، وإذَا مَرُّوا بآيةِ عذابٍ استعَاذُوا منها[٣]، قال: وقد رُوِيَ هذا المعنىٰ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان إذَا مرَّ بآيةِ رحمةٍ سَأَلَ، وإذا مرَّ بآيةِ عذابٍ تعوَّذ[٤].][٥]

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ خبَر عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: مَن أقام كتابه مِن أهل الكتب المنزَّلة علىٰ الأنبياء المتقدمين حقَّ إقامته، آمَنَ بما أرسلتك به يا محمَّد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ الآية [المائدة: ٦٦].

وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، أي: إذا أقمتموها حقَّ الإقامة، وآمنْتُم بها حَقَّ الإيمان، وصَدَّقتم ما فيها مِن الأخبار بمَبْعَثِ محمَّدٍ ﷺ ونعْتِه وصفتِهِ والأمر باتِّباعه ونَصْرِه ومُؤَازرَتِه، قادكُم ذلك إلىٰ الحقِّ واتِّباع الخير في الدُّنيا والآخِرَة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا به مِن شأن محمَّد ﷺ لواقعًا. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم[٦] مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ -٥٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ

---

(١) رجاله ثقات، وهو موافق لتفسير ابن عبَّاس السابق.

(٢) **ضعيف**: لم أقف علىٰ تمام إسناده، لكن يكفي قول القرطبي: في إسناده غير واحدٍ من المجهولين إلا أن معناه صحيح، قلت: ثبت ذلك عن ابن عبَّاس، كما رواه ابن أبي حاتم (١/ ٧٥٩) بإسنادٍ صحيحٍ.

(٣) تقدم تخريجه قريبًا.

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود (٨٧١)، والترمذي (٢٦٢)، وابن ماجة (١٣٥١).

(٥) زيادة من (ح).

(٦) لوحة (١٣٩ ب).

﴿ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. وفي «الصحيح»: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»(١).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾

قد تقدَّم نظير هذه الآية في صَدرِ السُّورة، وكُرِّرت هاهنا للتَّأكيد والحثِّ علىٰ اتِّباع الرسول ﷺ النَّبيِّ الأُميِّ الذي يجدونَ صِفَتَهُ في كتبهم ونعتَه واسمَهُ وأمرَهُ وأمته. يُحذِّرهم مِن كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأَمَرَهُم أَن يَذْكُروا نعمة الله عليهم، مِن النِّعَم الدُّنيوية والدِّينيَّة، ولا يحسدوا بني عَمِّهم من العرب علىٰ ما رزَقَهُم الله مِن إرسال الرَّسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسدُ علىٰ مخالفتِهِ وتكْذيبِهِ، والحَيْدَةِ عَن مُوَافقتِهِ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلىٰ يوم الدين.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

يقول تعالىٰ مُنبِّهًا علىٰ شَرَف إبراهيم خليله ﵇ وأنَّ الله تعالىٰ جعله إمامًا للنَّاس يُقْتَدىٰ به في التَّوحيد، حتىٰ قام بما كلَّفه الله تعالىٰ به مِن الأوامر والنَّواهي؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ أي: واذكر - يا محمَّد- لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الَّذين يَنْتَحِلُون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاءَ الله إبراهيم(٢)؛ أي: اختباره له بما كلَّفه به من الأوامر والنَّواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهنَّ كلِّهنَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، أي: وفىٰ جميع ما شرع له، فعمل به صلوات الله وسلامه عليه، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَٰهُ

---

(١) رواه مسلم (١٥٣) نحوه.

(٢) قال القاسمي ﵀: وعندي أن الأقرب في معنىٰ الكلمات هو ابتلاؤه بالإسلام، فأسلم لرب العالمين وابتلاؤه بالهجرة. فخرج من بلاده وقومه حتىٰ لحق بالشام مهاجرًا إلىٰ الله، وابتلاؤه بالنار فصبر عليها، ثم ابتلاؤه بالختان فصبر عليه، ثم ابتلاؤه بذبح ابنه فسلَّم واحتسب.
كما يؤخذ ذلك من تتبع سيرته في التنزيل العزيز، وسفر التكوين من التوراة. ففيهما بيان ما ذكرناه في شأنه عليه الصلاة والسلام. من قيامه بتلك الكلمات حق القيام، وتوفيتهن أحسن الوفاء؛ وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم] والإتمام: التوفية.

وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [النحل]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ[(١)] وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران].

وقوله تعالىٰ: ﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾ أي: بشَرائع وأوامر ونوَاهٍ، فإنَّ الكلمات تُطْلَق، ويراد بها الكلمات القَدريَّة، كقوله تعالىٰ عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]. وتُطلَق ويُراد بها الشَّرعيَّة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: كلماته الشرعية. وهي إمَّا خبر صِدْق، وإمَّا طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومِن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ أي: قام بهنَّ. قال: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ أي: جزاء علىٰ ما فعَل، كما قام بالأوامر وترَكَ الزَّواجر، جعله الله للنَّاس قدوةً وإمامًا يُقْتَدَىٰ به، ويُحتذىٰ حذوه.

وقد اختلف العلماء في تفسير الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام. فرُوي عن ابن عبَّاس في ذلك روايات:

فقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتَادة، قال ابن عبَّاس: ابتلاه الله بالمناسك[(٢)]. وكذا رواه أبو إسحاق السَّبيعي، عن التَّميمي، عن ابن عبَّاس.

وقال عبد الرَّزاق أيضًا: أخبرنا معَمَر، عن ابن طاوس، عن أَبِيه، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ قال: ابتلاه الله بالطَّهارة: خمسٍ في الرَّأس، وخمسٍ في الجسد؛ في الرَّأس: قَصِّ الشَّارب، والمضمضة، والاسْتِنْشَاق، والسِّواك، وفَرْقِ الرَّأس. وفي الجسد: تَقليمِ الأَظْفَار، وحَلْق العَانَة، والخِتَان، ونَتْفِ الإبط، وغَسْل أثَر الغَائِط والبَولِ بالمَاء[(٣)].

قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشَّعبي، والنَّخعي، وأبي صالح، وأبي الجلد نحو ذلك.

قلتُ: وقريبٌ مِن هذا ما ثبت في «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، والسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ المَاءِ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ، وَغَسْلُ البَرَاجِمِ[(٤)]، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَحَلْقُ العَانَةِ، وَانْتِقَاصُ المَاءِ»** قال مصعب: ونَسِيتُ العاشرةَ إلَّا أن تكُون

---

(١) لوحة (١٤٠ أ).

(٢) رواه الطبري (١/ ١٩٢٦) وفيه انقطاع.

(٣) **صحيح**: رواه الحاكم (٢/ ٢٦٦) وصححه علىٰ شرطهما، والطبري (١/ ٥٢٤).

(٤) البراجم: العُقَد التي في ظهور الأصابع يَجْتمع فيها الوَسَخ، الواحدة: بُرْجُمة «النهاية».

المضمضة(١)(٢).

قال وَكِيع: انتقاصُ الماء؛ يعني: الاستنجاء.

وفي «الصَّحيحين»، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**الفِطْرَةُ خَمْسٌ: الخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ**(٣)، **وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ**». ولفظه لمسلم(٤).

وقال(٥) ابن أبي حاتم: أَنْبَأَنا يونس بن عبد الأعلىٰ قراءةً، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن ابن هُبيرة، عن حَنَش بن عبد الله الصنعاني، عن ابن عبَّاس: أنَّه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: عَشْرٌ، ستٌّ في الإنسان، وأربعٌ في المشاعر. فأمَّا التي في الإنسان: حلقُ العَانة، ونتفُ الإبط، والختان. وكان ابن هُبَيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة. وتقليمُ الأَظْفَار، وقصُّ الشَّارب، والسِّواك، وغُسلُ يوم الجمعة. والأربعة التي في المشاعر: الطَّواف، والسَّعي بين الصَّفا والمروة، ورَمْي الجمار، والإِفَاضَة(٦).

وقال داود بن أبي هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس أنَّه قال: ما ابتلي بهذا الدِّين أحدٌ فقام به كلِّه إلَّا إبراهيم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قلتُ له: وما الكلماتُ التي ابتلىٰ الله إبراهيم بهن فأتمَّهُنَّ؟ قال: الإسلام ثلاثون سهمًا، منها عشرُ آياتٍ في براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلىٰ آخر الآية وعشر آيات في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ و﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ وعشر آيات في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الآية: ٣٥] إلىٰ آخر الآية، فأتمَّهُنَّ كلهن، فكُتِبَتْ له بَراءَة. قال الله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧](٧).

هكذا رواه الحاكم، وأبو جعفر بن جرير، وأبو محمَّد بن أبي حاتم، بأسانيدهم إلىٰ داود بن أبي هند، به. وهذا لفظ ابن أبي حاتم.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عبَّاس قال:

---

(١) مسلم (٢٦١)، والترمذي (٢٧٥٨)، والنسائي (٨/ ١٢٨).

(٢) **قال النووي** رحمه الله: قوله :ونسيت العاشرة الا أن تكون المضمضة .فهذا شك منه فيها، قال القاضي عِيَاض: ولعلها الخِتَان المذكور مع الخمس، وهو أولىٰ، والله أعلم. «شرح مسلم» (١٥٠/ ٣) وانظر: «الفتح» (١٠/ ٣٣٧).

(٣) **الاستحداد:** حلق العَانة، سمي استحدادًا لاستعمال الحديدة وهي الموسىٰ، وهو سنة، والمراد به: نظافة ذلك الموضع، والأفضل فيه الحلق، ويجوز بالقص والنتف والنورة.

(٤) البخاري (٥٨٨٩)، ومسلم (٢٥٧)، وأبو داود (٤١٩٨)، والترمذي (٢٧٥٧)، وابن ماجة (٢٩٢)، والنسائي (٨/ ١٢٨).

(٥) لوحة (١٤٠ ب).

(٦) **حسن:** رواه ابن أبي حاتم (١١٦٨)، والطبري (١/ ٥٢٥) وفيه ابن لهيعة اختلط، لكن الراوي عنه عبد الله بن وهب يروي عنه قبل الاختلاط.

(٧) رواه الطبري (١/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم (١١٦٦) من طرق عن داود بن أبي هند به، و:إحدىٰ رواياته عند الطبري صحيحة، وبقيتها لا تخلو من ضعف.

الكلماتُ التي ابْتَلَىٰ الله بهنَّ إبراهيم فأتمهنَّ: فراق قومه[١] - في الله- حين أَمَر بمفارقتهم. ومحاجَّتِه نمروذ -في الله- حين[٢] وَقَفَه علىٰ ما وَقَفَه عليه مِن خطر الأمر الذي فيه خلافه. وصبره علىٰ قذفهم إياه في النار ليَحْرِقُوه -في الله- علىٰ هَولِ ذلك مِن أمرِهم. والهجرة بعد ذلك مِن وطنه وبِلَادِه -في الله- حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضِّيافة والصَّبر عليها [بنفسه][٣] وماله، وما ابتُلي به مِن ذَبْحِ ابنه حين أَمَرَه بذبحه، فلما مضىٰ علىٰ ذلك مِن الله كُلِّه وأخلصه للبلاء قال الله له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ علىٰ ما كان مِن خلاف النَّاس وفُرَاقِهِم[٤].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، عن أبي رجاء، عن الحسن -يعني البصري-: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب فرَضِيَ عنه، وابتلاه بالقَمَرِ فرَضِيَ عنه، وابتلاه بالشمس فرَضِيَ عنه[٥]، وابتلاه بالهجرة فرَضِيَ عنه، وابتلاه بالختان فرَضِيَ عنه، وابتلاه بابنه فرَضِيَ عنه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا بشر بن معاذ، حدَّثنا يزيد بن زُرَيع، حدَّثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: إِي واللهِ، ابتلاهُ بأمرٍ فصبر عليه: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك، وعَرَفَ أنَّ الله ربَّه دائم لا يزول، فوجَّه وجهه للذي فطَرَ السموات والأرض حنيفًا وما كان من المشركين. ثمَّ ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتىٰ لَحِقَ بالشَّام مهاجرًا إلىٰ الله، ثم ابتلاه بالنَّار قبل الهجرة فصبر علىٰ ذلك. وابتلاه الله بِذَبْحِ ابنه والختان فصبر علىٰ ذلك.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَر، عمن سمع الحسن يقول في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلاه الله بذبح وَلَدِهِ، وبالنَّار، والكوكب والشمس، والقمر.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا [سَلْم بن قتيبة][٦]، حدَّثنا أبو هلال، عن الحسن ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب، والشمس، والقمر، فوجده صابرًا.

وقال العوفي في «تفسيره»، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فمنهن: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ومنهن: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ ومنهن: الآيات في شأن المنسك والمقام الذي جُعل لإبراهيم، والرزق الذي رزق ساكنوا البيت، ومحمَّد بعث في دينهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصباح، حدَّثنا شبابة، عن ورقاء، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال الله لإبراهيم: إني مُبْتَلِيكَ بأمرٍ فما

---

(١) في (ز): [أمته]. (٢) في (ز): [حتىٰ]. (٣) زيادة من (ح).
(٤) ضعيف: في إسناده محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٧٣) إلىٰ ابن إسحاق وابن أبي حاتم.
(٥) لوحة (١٤١ أ). (٦) في (ز): [سالم حدَّثنا قتيبة].

هو؟ قال: تجعلني للناس إمامًا. قال: نعم. قال: ومن ذريتي؟ ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: تجعل البيت مثابةً للنَّاس؟ قال: نعم. قال: وأمنًا. قال: نعم. قال: وتجعلنا مُسْلِمَيْن لك ومِن ذُرِّيَتِنَا أُمَّةً مسلمةً لك؟ قال: نعم. قال: وتَرْزُق أهله مِن الثَّمرات مَن آمَن منهم بالله؟ قال: نعم.

قال ابن أبي نَجِيح: سمعته من عكرمة، فعرضته علىٰ مجاهد، فلم يُنْكِرْه.

وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلي بالآيات التي بعدها: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: الكلمات: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية، قال: فذلك كلُّه مِن الكلمات التي ابْتُلِي بهنَّ إبراهيم.

وقال السُّدِّي: الكلمات التي ابتلَىٰ بهن إبراهيمَ رَبُّه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾.

[وقال القرطبي: وفي «الموطَّأ» وغيره، عن يحيىٰ بن سعيد أنَّه سمع سعيد بن المسيب يقول: إنَّ إبراهيم عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوَّل مَن اختتَنَ، وأوَّل من ضاف الضَّيف، وأوَّل مَن اسْتَحَدَّ، وأول مَن قَلَّم أظفاره، وأوَّل مَن قصَّ الشَّارِب، وأوَّل مَن شابَ فلمَّا رأىٰ الشَّيب، قال: ما هذا؟ قال: وَقار، قال: ياربِّ، زِدْني وقارًا[٢]. وذكر ابن أبي شيبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، قال: أوَّل مَن خطَب علىٰ المنابر إبراهيم عَلَيهِ السَّلَامُ، قال غيره: وأوَّل من برَّد البريد، وأوَّل مَن ضرَب بالسَّيف، وأوَّل مَن اسْتاكَ، وأوَّل مَن اسْتَنْجَىٰ بالماء، وأوَّل مَن لَبِسَ السَّراوِيل[٣]، ورُوِيَ عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنْ أَتَّخِذُ المِنْبَرَ فَقَدِ اتَّخَذَهُ أَبِي إِبْرَاهِيمُ، وَإِنْ أَتَّخِذُ العَصَا فَقَدِ اتَّخَذَهَا أَبِي إِبْرَاهِيمُ**»[٤]، قلت: هذا حديثٌ لا يَثْبُت، والله أعلم. ثمَّ شرع القُرطِبي يتكلَّم علىٰ ما يتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعيَّة][٥].

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: أنَّه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميعَ ما ذُكِر، وجائزٌ أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيءٍ منها أنَّه المرادُ علىٰ التَّعيين إلا بحديثٍ أو إجماعٍ. قال: ولم يَصِحَّ في ذلك خبرٌ بنقل الواحد ولا بِنَقْل الجماعة الذي يَجِبُ التَّسْليمُ له.

---

(١) لوحة (١٤١ ب). (٢) إسناده ضعيف، وعلته الإرسال. (٣) إسناده ضعيف، وعلته الإرسال.

(٤) منكر: رواه البزار (٦٣٣- كشف الأستار)، والطبري (٢٠/ ١٦٧- ٣٥٤) وفيه موسىٰ بن محمَّد بن إبراهيم: منكر الحديث، والحديث أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٨١) وقال: فيه موسىٰ بن إبراهيم وهو ضعيف جدًّا.

(٥) زيادة من (ح).

قال: غَيْرَ أنه قد روي عن النَّبيِّ ﷺ في نظير معنىٰ ذلك خبران، أحدهما ما حدَّثنا به أبو كُرَيْب، حدَّثنا رشدين بن سعد، حدَّثني زبان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، قال: كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَّىٰ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ ﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾؟ [النجم: ٣٧] لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَصْبَحَ وَكُلَّمَا أَمْسَىٰ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] حَتَّىٰ يَخْتِمَ الآيَةَ»(١).

قال: والآخر منهما: حدَّثنا به أبو كريب، أخبرنا الحسن، عن عطيَّة، أخبرنا إسرائيل، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أَتَدْرُونَ مَا وَفَّىٰ؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «وَفَّىٰ عَمَلَ يَوْمِهِ، أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي النَّهَارِ»(٢).

ورواه آدمُ في «تفسيرِهِ»، عن حمَّاد بن سلمة. وعبد بن حميد، عن يونس بن محمَّد، عن حماد بن سلمة، عن جعفر بن الزبير به.

ثمَّ شرع ابن جرير يُضَعِّف هذين الحديثين، وهو كما قال؛ فإنَّه لا تُجوزُ رِوَايَتُهُما إلا ببيان ضَعْفِهِما، وضَعْفُهُما مِن وجوهٍ عديدةٍ، فإنَّ كلًّا من السَّنَدَين مشتملٌ علىٰ غير واحدٍ من الضعفاء، مع ما في مَتْن الحديث ممَّا يدلُّ علىٰ ضعفه والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إنَّ الذي قاله مجاهد وأبو صالح والرَّبيع بن أنس أولَىٰ بالصَّواب [من القول الَّذِي قاله غيرهم](٣) كان مذهبًا، فإن قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ وسائر الآيات(٤) التي هي نَظِيرُ ذلك، كالبيان عن الكلمات التي ذَكَرَ اللهُ أنَّه ابتلىٰ بهنَّ إبراهيم.

قلتُ: والذي قاله أَوَّلًا من أنَّ الكلمات تشمل جميعَ ما ذُكِر أقوىٰ مِن هذا الذي جوَّزه مِن قول مجاهد ومن قال مثله؛ لأنَّ السِّياق يُعْطِي غير ما قالوه، والله أعلم.

---

(١) موضوع: رواه أحمد (٣/ ٤٣٩)، والطبراني (٢٠/ ١٩٢/ ٤٢٧-٤٢٨)، وابن جرير (١/ ٥٢٨) وفيه أكثر من علة:
١- أبان بن فائد: قال ابن حبان: منكر الحديث، يتفرد عن سهل بن معاذ بنسخةٍ كأنها موضوعة.
٢- سهل بن معاذ: ضعفه بعضهم، وقال ابن حبان: لا يعتبر حديثه ما كان من رواية زبان ابن فائد.
٣- رشدين بن سعد: ضعيف.

(٢) موضوع: رواه ابن جرير (١/ ٥٢٨): فيه جعفر بن الزبير، قال ابن حبان: روىٰ جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة نسخة موضوعة، انظر: «المجروحين» (١/ ٢١٢) قال شعبة: وضع علىٰ النبي ﷺ أربع مئة حديث، وضعفه يحيىٰ بن معين، وقال أبو زرعة: ليس بشيء، وقال الجوزجاني: نبذوا حديثه، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال البخاري: ليس بذاك، وفي موضع آخر: متروك الحديث، تركوه، وقال النسائي والدارقطني: متروك الحديث، انظر: «تهذيب الكمال» (٥/ ٢٨)، وقال الحافظ: متروك الحديث «التقريب» ترجمة (٩٣٩).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) لوحة (١٤٢ أ).

وقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لما جعل اللهُ إبراهيمَ إمامًا، سأل الله أن تكون الأئمةُ مِن بعده مِن ذرِّيَّته، فأُجيب إلىٰ ذلك وأخبر أنَّه سيكون مِن ذُرِّيَّته ظالمون، وأنَّه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمَّةً فلا يُقْتَدىٰ بهم، والدَّليل علىٰ أنَّه أُجيب إلىٰ طَلِبَتِهِ قول الله تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فكلُّ نبيٍّ أَرْسَلَه الله وكلُّ كتابٍ أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذُرِّيَّتِهِ صلوات الله وسلامه عليه [وعليهم أجمعين][(١)].

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقد اختلفوا في ذلك، فقال خَصِيف، عَن مجاهد في قوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: إنَّه سيكون في ذُرِّيَّتك ظالمون.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون لي إمام ظالم [يُقْتَدىٰ به][(٢)]. وفي رواية: لا أَجْعَل إمامًا ظالمًا يُقْتَدىٰ به.

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون إمامٌ ظالمٌ يُقْتَدىٰ به.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثني أبي، حدَّثنا مالك بن إسماعيل، حدَّثنا شريك، عن منصور، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال: أمَّا مَن كان مِنهُم صالحًا فسأجعله إمامًا يُقْتَدىٰ به، وأمَّا مَن كان ظالمًا فلا ولا نُعْمَةَ عَيْنٍ[(٣)].

وقال سعيد بن جبير: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ المراد به: المشرك، لا يكون إمام ظالم. يقول: لا يكون إمام مشرك.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء، قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فأبىٰ أن يُجعَل مِن ذريَّته إمامًا ظالمًا. قلتُ لعطاء: ما عهده؟ قال: أَمْرُه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عمرو بن ثور القيساري فيما كتب إليَّ، حدَّثنا الفريابي، حدَّثنا إسرائيل، حدَّثنا سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: قال الله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فأَبَىٰ أَن يَفْعَل، ثم قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[(٤)].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿قَالَ[(٥)] وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يُخبِرُه أنَّه كائنٌ في ذريَّته ظالمٌ لا يَنال عهدُه -ولا ينبغي له أن يُولِيه شيئًا مِن أمرِهِ وإن كان مِن ذريَّة خليلِهِ- ومُحسن ستَنْفُذُ فيه دعوتُه، وتَبلغ له فيه ما أراد مِن مسألته[(٦)].

وقال العوفي: عن ابن عبَّاس: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: يعني لا عهدَ لظالمٍ عليكَ في ظُلمِهِ أَن

---

(١) زيادة من (ح). (٢) زيادة من (ح). (٣) نعمة عين: قرة عين.
(٤) رواه ابن أبي حاتم (١١٨٥)، وفيه سماك بن حرب، وروايته عن عكرمة مضطربة.
(٥) لوحة (١٤٢ ب). (٦) في إسناده محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول.

تُطِيعَه فيه.

وقال ابن جرير: [حدَّثنا المثنىٰ][1]، حدَّثنا إسحاق، حدَّثنا عبد الرحمن بن عبد الله، عن إسرائيل، عن مُسْلِم الأعور، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته فانتقضه.

ورُوِيَ عن مجاهد، وعطاء، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك.

وقال الثوري، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، قال: لَيس لِظَالِمٍ عَهْدٌ.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة، في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا ينال عهدُ الله في الآخِرَةِ الظَّالمين، فأمَّا في الدُّنيا فقد ناله الظَّالم فأَمِنَ به، وأَكَلَ وعَاشَ.

وكذا قال إبراهيم النخعي، وعطاء، والحسن، وعكرمة.

وقال الرَّبيع بن أنس: عهدُ الله الَّذي عَهِدَ إلىٰ عباده: دينُهُ، يقول: لا يَنال دِينَه الظَّالمين، ألا ترىٰ أنَّه قال: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ [الصافات: ١١٣]، يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم علىٰ الحقِّ.

وكذا رُوِي عَن أبي العالية، وعطاء، ومقاتل بن حيان.

وقال جويبر، عن الضَّحَّاك: لا يَنال طَاعَتِي عدو لي يَعْصِينِي، ولا أَنْحِلَها إلَّا وليًّا لي يُطِيعُني.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيْه: حدَّثنا عبد الرحمن بن محمَّد بن حامد، حدَّثنا أحمد بن عبد الله بن سعيد الأسدي، حدَّثنا سليم بن سعيد الدَّامغاني، حدَّثنا وَكِيع، عن الأعمش، عن سعد ابن عُبَيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب، عن النَّبيّ ﷺ قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: «**لا طَاعَةَ إلَّا فِي المَعْرُوفِ**»[2].

وقال السُّدِّي: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يقول: عهدي: نُبوَّتي.

فهذه أقوالُ مفسِّري السَّلف في هذه الآية علىٰ ما نقله ابن جرير، وابن أبي حاتم رحمهما الله تعالىٰ.

واختار ابن جرير أنَّ هذه الآية -وإن كانت ظاهرةً في الخبر- أنَّه لا ينال عهدُ الله بالإمامة ظالمًا. ففيها إعلام مِن الله لإبراهيم الخليل عليه السلام أنَّه سيوجد مِن ذريَّتك مَن هو ظَالم لِنَفْسِه، كما تقدَّم عَن مجاهد وغيره، والله أعلم.

[وقال ابن جويبر مقداد المالكي: الظَّالم لا يصلح أن يكون خليفةً ولا حاكمًا ولا مُفْتيًا ولا إمام صلاةٍ][3].

---

(١) زيادة من (ح)، وإثباتها موافق لما في «الطبري».

(٢) **صحيح**: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٨٨) إلىٰ وكيع وابن مردويه ورجاله ثقات، وهو ثابت بمعناه عند البخاري (٤٣٤٠) (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠).

(٣) زيادة من (ح).

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ[(١)] وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ...﴾

قال العوفي، عن ابن عبَّاس: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يقول: لا يَقْضُون منه وطرًا يأتونه، ثمَّ يرجعون إلىٰ أهليهم، ثمَّ يعودون إليه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يقول: يَثُوبُون إليه.

رواهما ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا عبد الله بن رجاء، أخبرنا إسرائيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: يثوبون إليه ثم يَرْجِعُون. قال: ورُوِيَ عن أبي العالية، وسعيد بن جبير-في رواية- وعطاء، ومجاهد، والحسن، وعطيَّة، والربيع بن أنس، والضَّحَّاك نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدَّثني عبد الكريم بن أبي عمير، حدَّثني الوليد بن مسلم قال: قال أبو عمرو - يعني الأوزاعي- حدَّثني عبدة بن أبي لبابة، في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: لا يَنْصَرِفُ عنه مُنْصَرِفٌ وهو يَرىٰ أنَّه قد قضىٰ منه وطرًا.

وحدَّثني يونس، عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: يَثُوبُون إليه مِن البُلْدَان كلها ويَأْتُونه.

[وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنىٰ، أورده القرطبي:

جُعِلَ البَيْتُ مَثَابًا لَهُمْ ... لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرُ يَقْضُونَ الوَطَرْ][(٢)]

وقال سعيد بن جبير -في الرواية الأخرىٰ- وعكرمة، وقتادة، وعطاء الخراساني ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مَجْمَعًا.

﴿وَأَمْنًا﴾ قال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: أي أمنًا للناس.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يقول: أمنًا مِن العدوِّ، وأن يُحْمَل فيه السِّلاح، وقد كانوا في الجاهلية يُتَخَطَّف النَّاس مِن حولهم، وهم آمِنُون لا يُسْبَون.

وروي عن مجاهد، وعطاء، والسُّدِّي، وقتادة، والربيع بن أنس، قالوا: مَن دَخَله كان آمِنًا.

ومضمون ما فَسَّر به هؤلاء الأئمَّة هذه الآية: أن الله تعالىٰ يَذْكُر شرف البَيتِ وما جعله موصوفًا به

---

(١) لوحة (١٤٣ أ). (٢) زيادة من (ح).

شرعًا وقدرًا مِن كونه مثابةً للنَّاس؛ أي: جعله مَحَلًّا تشتَاق إليه الأرواح وتَحِنُّ إليه، ولا تَقْضِي منه وطرًا، ولو ترددَت إليه كلَّ عام استجابةً مِن الله تعالىٰ لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٧ -٤٠] ويَصِفُه تعالىٰ بأنَّه جعله أَمْنًا، مَن دخله أَمِن(١)، ولو كان قَد فعل ما فعل ثمَّ دخله كان آمِنًا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرَّجُل يَلْقَىٰ قاتل أبيه وأخيه فيه فلا يَعْرِض له، كما وصفها في سورة المائدة بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] أي: يُرْفَع عنهم بسبب تعظيمها السوءُ، كما قال ابن عبَّاس: لو لم يحج الناسُ هذا البيت لأَطْبَقَ الله السماءَ علىٰ الأرضِ، وما هذا الشَّرف إلا لِشَرَفِ بانِيهِ أوَّلًا وهو خليل الرحمن عليه مِن الله أفضل الصَّلاة وأزكىٰ السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وفي هذه الآية الكريمة نَبَّه علىٰ مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده. فقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عمر بن شَبَّة النميري، حدَّثنا أبو خلف - يعني عبد الله بن عيسىٰ- حدَّثنا داود بن أبي هند، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: مقام إبراهيم: الحرم كله(٢). ورُوِيَ عن مجاهد وعطاء مثل ذلك.

وقال أيضًا: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصباح، حدَّثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فقال: سمعت ابن عبَّاس قال: أمَّا «مقام إبراهيم» الذي ذُكر هاهنا فمقام إبراهيم هذا الَّذِي في المسجد، ثم قال: و﴿مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعد كثير «مقام إبراهيم» الحج كله. ثم فسَّره لي عطاء فقال: التَّعريف، وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومنىٰ، ورمي الجمار، والطواف بين الصفا والمروة. فقلت: أَفَسَّرَه ابن عبَّاس؟ قال: لا ولكن قال: مقام إبراهيم: الحج كله. قلتُ: أسمعتَ ذلك لهذا أجمع؟ قال: نعم، سمعته منه(٣).

وقال سفيان الثوري: عن عبد الله بن مسلم، عن سعيد بن جبير: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال:

---

(١) لوحة (١٤٣ ب).

(٢) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١١٩٨)، وفيه عبد الله بن عيسىٰ: ضعيف، ينفرد عن الثقات.

(٣) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١١٩٧)، وهذا القول هو الموافق للحديث الآتي وفيه حجاج بن أرطأة: ضعيف وابن جريج: مدلس وقد عنعن.

الحَجر مقام إبراهيم [لينه الله](١)، قد جعله الله رحمةً، فكان يقوم عليه ويُنَاوِلُه إسماعيل الحجارة. ولو غَسل رأسَه كما يقولون لاختلف رجلاه.

[وقال السُّدِّي: المقام: الحجر الذي وضعتْهُ زوجة إسماعيل تحتَ قدم إبراهيم حتىٰ غسلت رأسه. حكاه القرطبي، وضعَّفه ورجَّحه غيره، وحكاه الرازي في «تفسيره» عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس](٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصباح، حدَّثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن ابن جُرَيج، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه سَمِعَ جابرًا يُحَدِّث عن حِجَّة(٣) النَّبيِّ ﷺ قال: لما طاف النَّبيُّ ﷺ قال له عُمر: هذا مقام أَبِينَا إبراهيم؟ قال: «نَعَمْ»، قال: أفلا نَتَّخِذه مصلًىٰ؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾(٤).

وقال عثمان بن أبي شيبة: أخبرنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة قال: قال عمر ﷺ: قلت: يا رسول الله، هذا مقام خليلِ رَبِّنا؟ قال: «نَعَمْ»، قال: أفلا نتخذه مصلىٰ؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾(٥).

وقال ابن مَرْدوَيْه: حدَّثنا دَعْلَج بن أحمد، حدَّثنا غيلان بن عبد الصمد، حدَّثنا مسروق بن المرزبان، حدَّثنا زكريا بن أبي زائدة، عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه مَرَّ بمَقَام إبراهيم فقال: يا رسول الله، أَلَيْسَ نقوم مقامَ خليل ربنا؟ قال: «بَلَىٰ». قال: أفلا نَتَّخِذُه مصلًىٰ؟ فلم يلبث إلا يَسِيرًا حتىٰ نزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾(٦).

وقال ابن مَرْدوَيْه: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن محمَّد القزويني، حدَّثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدَّثنا هشام بن خالد، حدَّثنا الوليد، عن مالك بن أنس، عن جعفر بن محمَّد عن أبيه، عن جابر قال: لما وقف رسول الله ﷺ يومَ فتحِ مكَّة عند مقامِ إبراهيم، قال له عمر: يا رسول الله، هذا مقام إبراهيم الذي

---

(١) في (ز): (نبي الله)، والمثبت موافق لما عند «ابن أبي حاتم».
(٢) زيادة من (ح).
(٣) لوحة (١٤٤ أ).
(٤) رواه ابن أبي حاتم (١١٩٦)، وفيه عبد الوهاب بن عطاء: صدوق ربما أخطأ، وابن جريج: مدلس.
واعلم أن سبب نزول الآية صحيح وسيأتي.
(٥) **إسناده ضعيف**: وأصل الحديث صحيح. وضعفه هنا؛ لأنه منقطع بين أبي ميسرة واسمه: عمرو بن شرحبيل، وبين عمر بن الخطاب، فحديثه عنه مرسل، والحديث أورده الحافظ في «المطالب العالية» (٣٦٣٥) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٣٠) إلىٰ ابن أبي شيبة والدارقطني في الأفراد.
(٦) رجاله ثقات غير أن أبا إسحاق يرسل وقد عنعن، وقد اضطرب فيه؛ فمرة يرويه عن أبي ميسرة كما في الرواية السابقة، ومرة يرويه عن عمرو بن ميمون كما في هذه الرواية.

قال الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾؟ قال: «نَعَمْ». قال الوليد: قلت لمالك: هكذا حدَّثك ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ قال: نعم[1]. هكذا وقع في هذه الرواية. وهو غريب.

وقد روىٰ النَّسائي مِن حديث الوليد بن مسلم نحوه.

وقال البخاري :باب قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ مثابةً يَثُوبُون يَرْجِعُون.

حدَّثنا مُسدَّد، حدَّثنا يحيىٰ، عن حميد، عن أنس بن مالك. قال: قال عمر بن الخطاب ﵁ وافقتُ رَبِّي في ثلاث، أو وَافَقَنِي ربِّي في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتَّخَذْت مِن مقام إبراهيم مصلًىٰ؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البرُّ والفاجر، فلو أَمَرْتَ أُمَّهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آيةَ الحجاب.

وقال: وبلغني مُعَاتبة النَّبيِّ ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهنَّ [بالحجاب][2] فقلت: إِن انْتَهَيْتُنَّ أو لَيُبَدِّلَنَّ الله رسولَهُ خيرًا منكنَّ، حتىٰ أَتَيْتُ إحدىٰ نسائه، فقالت: يا عمر، أَمَا في رسول الله ما يَعِظ نساءه حتىٰ تَعِظْهُنَّ أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ[3] أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية [التحريم: ٥][4].

وقال ابن أبي مريم: أخبرنا يحيىٰ بن أيوب، حدَّثني حميد، قال: سَمِعْتُ أَنَسًا عَن عُمَر ﵁.

هكذا ساقه البخاري هاهنا، وعلَّق الطريق الثَّانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبي مريم المصري. وقد تفرَّد بالرِّواية عنه البخاري مِن بين أصحاب الكُتُب السِّتَّة. وروىٰ عنه الباقون بواسطة، وغرضه مِن تعليق هذا الطريق لِيُبيِّن فيه اتصال إسناد الحديث[5]، وإنَّما لم يسنده؛ لأنَّ يحيىٰ بن أبي أيوب الغافقي فيه شيء، كما قال الإمام أحمد فيه: هو سيئ الحفظ، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيم، حدَّثنا حُمَيد، عن أنس، قال: قال عمر ﵁ وافقت رَبِّي ﷻ في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتَّخَذْنا مِن مقام إبراهيم مصلًىٰ؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقلت: يا رسول الله، إنَّ نساءكَ يدخلُ عليهن البرُّ والفاجر، فلو أَمَرْتَهُنَّ أن يَحْتَجِبْن؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع علىٰ رسول الله ﷺ نساؤُه في الغيرة فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ [التحريم:٥] فنزلت كذلك ثمَّ رواه أحمد، عن يحيىٰ وابن أبي عدي، كلاهما عن

---

(١) رواه النسائي (٥/ ٢٣٦)، وعزاه «المصنف» لابن مردويه وفيه الوليد بن مسلم مدلس وقد عنعن.

(٢) زيادة من (ح).

(٣) لوحة (١٤٤ ب).

(٤) البخاري (٤٤٨٣).

(٥) ومعنىٰ هذا أن الإمام البخاري ﵀ أورد الحديث بإسناد من طريق يحيىٰ بن أبي أيوب الغافقي لكنه قال: عن حميد -هكذا بالعنعنة- فأراد البخاري أن يؤكد السماع فجاء بالرواية الأخرىٰ المعلقة التي يثبت فيها السماع.

حميد، عن أنس، عن عمر ﷺ أنَّه قال: وَافَقْتُ رَبِّي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث فذكره[(١)].

وقد رواه البخاري[(٢)] عن عَمْرو بن عَوْن، والترمذي عن أحمد بن منيع، والنسائي عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي، وابن ماجة عن محمَّد بن الصباح، كلهم عن هُشَيم بن بشير به.

ورواه الترمذي أيضًا عن عبد بن حُميد، عن حجاج بن مِنهال، عن حماد بن سلمة، والنسائي عن هناد، عن يحيىٰ بن أبي زائدة، كلاهما عن حميد، وهو ابن تيرويه الطويل به. وقال الترمذي: حسن صحيح[(٣)].

ورواه الإمام علي بن المديني عن يزيد بن زُرَيع، عن حميد به. وقال: هذا من صحيح الحديث، وهو بصري.

رواه الإمام مسلم بن الحجاج في «صحيحه» بسندٍ آخر، ولفظٍ آخر، فقال: حدَّثنا عقبة بن مُكْرَم، أخبرنا سعيد بن عامر، عن جويرية بن أسماء، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر ﷺ قال: وَافَقْتُ رَبِّي في ثلاث: في الحِجَاب، وفي أُسَارىٰ بدرٍ، وفي مقام إبراهيم[(٤)(٥)].

وقال أبو حاتم الرازي: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الأنصاري، حدَّثنا حميد الطويل، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال عمرُ بن الخطاب ﷺ: وَافَقَنِي رَبِّي في ثلاثٍ -أو وافقتُ رَبِّي- قلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ مِن مِقام إبراهيم مصلىً؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقلتُ: يا رسول الله لو حَجَّبْتَ النِّساء؟ فنزلت آيةُ الحجاب. والثَّالثة: لمَّا ماتَ عبد الله بن أُبَيٍّ جاء رسولُ الله ﷺ ليُصَلِّي عليه. قلت: يا رسول الله، تُصَلِّي علىٰ هذا الكافر المنافق؟! فقال: «**إيهًا عَنْكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ**»، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤][(٦)].

وهذا إسنادٌ صحيحٌ أيضًا، ولا تَعارُضَ بين هذا ولا هذا، بل الكُلّ صحيحٌ، ومفهومُ العددِ إذا عارضه منطوقٌ قُدِّم عليه، والله أعلم.

وقال ابن جريج أخبرني جعفر بن محمَّد، عن أبيه عن جابر ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ رَمَل ثلاثة أَشْوَاطٍ، ومشىٰ أربعًا، حتَّىٰ إذا فَرَغ عَمَد إلىٰ مقام إبراهيم فصلَّىٰ خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٢٣).

(٢) البخاري (٤٩١٦)، والترمذي (٢٩٦٠)، وابن ماجة (١٠٠٩)، والنسائي في «**الكبرىٰ**» (١١٦١١).

(٣) **صحيح**: الترمذي (٢٩٥٩)، والنسائي (١٠٩٩٨).

(٤) لوحة (١٤٥ أ).

(٥) مسلم (٢٣٩٩).

(٦) **صحيح**: رواه البيهقي في «**السنن**» (٧/ ٨٨).

وقال ابن جرير: حدَّثنا يوسف بن سلمان، حدَّثنا حاتم بن إسماعيل، حدَّثنا جعفر بن محمَّد عن أبيه، عن جابر ﷺ قال: اسْتَلَم رسول الله ﷺ الرُّكْن، فرمل ثلاثًا، ومشىٰ أربعًا، ثم تقدَّم إلىٰ مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البَيْتِ، فصلَّىٰ ركعتين (١).

وهذا قطعةٌ مِن الحديث الطويل الذي رواه مسلم في «صحيحه»، من حديث حاتم بن إسماعيل.

وروىٰ البخاري بسنده، عن عمرو بن دينار، قال: سمعت ابن عمر ﷺ يقول: قَدِمَ رسُول الله ﷺ فطاف بالبَيْتِ سبعًا، وصلَّىٰ خلف المقام رَكْعَتَيْن (٢).

فهذا كلُّه مما يَدُلُّ علىٰ أنَّ المراد بالمقام إنَّما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم ﷺ يقوم عليه لبناء الكعبة (٣)، لما ارتفع الجِدَار أتاه إسماعيل ﷺ به ليقومَ فَوقَه ويُنَاوِلَه الحجارة فيَضَعُها بيده لرفع الجدار، كلَّما كَمَّل ناحيةً انتقل إلىٰ النَّاحية الأخرىٰ، يَطُوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلمَّا فرغ من جدار نقلَه إلىٰ النَّاحية التي تليها هكذا، حتىٰ تمَّ جِدارَات الكعبة، كما سيأتي بيانه في قصَّة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت مِن رواية ابن عبَّاس عند البخاري. وكانت (٤) آثار قَدَمَيْه ظاهرةً فيه، ولم يَزَلْ هذا معروفًا تَعْرِفُه العرب في جاهليَّتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

وَمَــوْطِئُ إِبْــرَاهِيمَ فِــي الــصَّخْرِ رَطْبَــةً عَلَــىٰ قَدَمَيْــهِ حَافِيًــا غَيْــرَ نَاعِــلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضًا.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب: أنَّ أنس بن مالك حدَّثهم، قال: رأيتُ المقام فيه أثر أصابعه ﷺ وإخْمَص قدميه، غير أنَّه أَذْهَبَه مسح النَّاس بأيديهم (٥).

---

(١) مسلم (١٢١٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٠).

(٢) البخاري (٣٩٥) (١٧٩٣).

(٣) **قال ابن عثيمين ﷺ**: اختلف المؤرخون: هل كان الحجر الذي كان يرفع عليه إبراهيم ﷺ بناءَ الكعبة لاصقًا بالكعبة، أو كان منفصلًا عنها في مكانه الآن؛ فأكثر المؤرخين علىٰ أنه كان ملصقًا بالكعبة، وأن الذي أخره إلىٰ هذا الموضع عمر بن الخطاب ﷺ؛ وبناءً علىٰ ذلك يكون للخليفة حق النظر في إزاحته عن مكانه إذا رأىٰ في ذلك المصلحة؛ أما إذا قلنا: إن هذا مكانه علىٰ عهد النبي ﷺ فالظاهر أنه لا يجوز أن يغير؛ لأن النبي ﷺ أقره؛ وإذا أقره النبي ﷺ فليس لنا أن نؤخره عنه؛ وقد كتب أحد طلبة العلم رسالة في هذا الموضوع، وقرَّظها الشيخ عبد العزيز بن باز، ورأىٰ أنه يجوز إزاحته عن مكانه من أجل المصلحة والتوسعة بناءً علىٰ المشهور عند المؤرخين أنه كان لاصقًا بالكعبة، ثم أُخِّر؛ وهذا لا شك أنه لو أُخِّر عن مكانه فيه دفع مفسدة، وهي مفسدة هؤلاء الذين يتجمعون عنده في المواسم؛ وفيه نوع مفسدة، وهي أنه يبعد عن الطائفين في غير أيام المواسم؛ فهذه المصالح متعارضة هنا: هل الأولىٰ بقاؤه في مكانه؟ أو الأولىٰ تأخيره عن مكانه؟ فإذا كانت المصالح متكافئةً، فالأولىٰ أن يبقىٰ ما كان علىٰ ما كان، وحذرًا من التشويش واختلاف الآراء في هذه المسألة؛ ومسألة تضييق المصلين علىٰ الطائفين هذا يمكن زواله بالتوعية إذا أفادت؛ أو بالمنع بالقهر إذا لم تفد؛ وفي ظني أنها قلّت في السنوات الأخيرة بعض الشيء؛ لأن الناس صار عندهم وعي.

(٤) لوحة (١٤٥ ب).

(٥) رواه الفاكهي في أخبار مكة (٩٣٢) ورجاله ثقات غير شيخ المؤلف لم أقف علىٰ ترجمته، لكنه توبع من طريق أخرىٰ نحوه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا بشر بن معاذ، حدَّثنا يزيد بن زُرَيع، حدَّثنا سعيد، عن قتادة: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ إنَّما أُمِرُوا أن يُصَلُّوا عنده ولم يُؤْمَرُوا بمسحه. ولَقَد تكَلَّفَتْ هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأُمَم قبلها، ولقد ذَكَرَ لنا مَن رأىٰ أثر عَقِبِه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يَمْسَحُونه حتىٰ اخْلَوْلَقَ وانْمَحَىٰ.

قلتُ: وقد كان المقامُ مُلْصَقًا بجدار الكَعْبَة قديمًا، ومكانُهُ معروفٌ اليوم إلىٰ جانبِ الباب ممَّا يَلِي الحِجْر يمنةَ الدَّاخل مِن الباب في البُقْعَة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ مِن بناء البَيت وضعه إلىٰ جدارِ الكعبة أو أنَّه انتهىٰ عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا -والله أعلم- أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطَّواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهىٰ بناء الكعبة فيه، وإنَّما أخَّره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عُمَرُ بن الخطاب رضي الله عنه [وهو] أحدُ الأئمَّة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أُمِرْنا باتِّباعهم، وهو أحد الرَّجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»(١). وهو الذي نزل القرآن بوِفَاقه في الصَّلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحدٌ من الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين.

قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيج، حدَّثني عطاء وغيره من أصحابنا قالوا: أوَّل مَن نَقَلَه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

[وقال عبد الرزَّاق أيضًا عَن معمر عن حَمِيد الأعرج، عن مجاهد قال: أوَّل مَن أَخَّر المقام إلىٰ موضعِهِ الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه](٢).

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن كامل، حدَّثنا أبو إسماعيل محمَّد بن إسماعيل السلمي، حدَّثنا أبو ثابت، حدَّثنا الدراوردي، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ المقام كان في زمَان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر(٣) مُلْتَصِقًا بالبيت، ثمَّ أخَّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٤)، وهذا إسنادٌ صحيحٌ مع ما تقدم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر العَدَني قال: قال سفيان – يعني: ابن عيينة وهو إمام المَكِّيِّين في زمانه- كان المقام في سُقْع البيت(٥) علىٰ عهد رسول الله ﷺ فحوَّله عمر رضي الله عنه إلىٰ مكانه بعد النَّبيِّ ﷺ وبعد قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قال: ذهب السَّيل به بعدَ تحويل عمر

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجة (٩٧)، وأحمد (٥/ ٣٢٨)، والحميدي (٤٤٩)، وانظر: «**السلسلة الصحيحة**» للألباني (١٢٣٣).

(٢) زيادة من (ح).

(٣) لوحة (١٤٦ أ).

(٤) صحيح إسناده ابن كثير بعد إيراده، وعزاه الحافظ ابن حجر في «**الفتح**» (١/ ٤٩٩) إلىٰ الأزرقي في «**أخبار مكة**» (٩٤٣) قال الحافظ: بأسانيد صحيحة، ورواه ابن أبي حاتم (١٢٠٠)، وابن أبي شيبة (٣/ ٨٤٦).

(٥) **سقع البيت وصقعه**: ناحيته.

ﷺ إيَّاه من موضعه هذا، فردَّه عمر إليه.

وقال سفيان: لا أَدْرِي كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله. قال سفيان: لا أدري أكانَ لاصقًا بها أم لا؟

فهذه الآثار متعاضدة علىٰ ما ذكرناه، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيْه: حدَّثنا أبو عَمْرو، حدَّثنا محمَّد بن عبد الوهاب، حدَّثنا آدم، حدَّثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، قال: قال عمر: يا رسولَ الله لو صَلَّيْنَا خلف المقام؟ فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فكان المقام عند البيت فحوَّله رسول الله ﷺ إلىٰ موضعه هذا[1]. قال مجاهد: قد كان عُمر يَرَىٰ الرَّأي فينزل به القرآن.

هذا مرسلٌ عن مجاهد، وهو مخالف لما تقدَّم من روايةِ عبد الرزاق، عن مَعمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد [أنَّ] أوَّل مَن أخَّر المقام إلىٰ موضعه الآن عمر بن الخطاب ﷺ وهذا أصحُّ مِن طريق ابن مَرْدوَيْه، مع اعتضَاد هذا بما تقدم، والله أعلم.

﴿... وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾

قال الحسن البصري: قوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قال: أَمَرهُما الله أن يُطَهِّراهُ مِن الأذىٰ والنَّجس ولا يُصِيبُه مِن ذلك شيء.

وقال ابن جُريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أَمَرْنَاه. كذا قال. والظَّاهر أنَّ هذا الحرف إنما عُدِّيَ بـ«إلىٰ» لأنَّه في معنىٰ: تقدمنا وأوحينا.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ قال: من الأوثان[2].

وقال مجاهد وسعيد بن جُبَير: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ إن ذلك مِن الأوثان والرفث[3] وقول الزور والرجس[4].

---

(١) ضعيف: وعلته الإرسال. والثابت أن الذي حوله عمر كما تقدم.

(٢) في (ح) زيادة: والريب.

(٣) في (ز): والريب.

(٤) لوحة (١٤٦ ب).

قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن عُبَيد بن عمير، وأبي العالية، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء وقتادة: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أي: بـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» من الشرك.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ فالطَّواف بالبيت معروف. وعن سعيد بن جبير أنَّه قال في قوله تعالىٰ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ يعني: مَن أتاه مِن غُرْبة، ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين فيه. وهكذا رُوِيَ عن قتادة، والرَّبيع بن أنس: أنهما فَسَّرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبير.

وقال يحيىٰ بن القطَّان، عن عبد الملك -هو ابن أبي سليمان- عن عطاء في قوله: ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ قال: من انْتَابه مِن الأمصار فأقام عنده وقال لنا -ونحن مجاورون- : أنتم من العاكفين.

وقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي عن عطاء عن ابن عبَّاس قال: إذا كان جالسًا فهو من العاكفين.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حماد بن سلمة، حدَّثنا ثابت قال: قلت لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أَرَانِي إلا مُكَلِّم الأمير أن أَمْنَع الذين يَنَامُون في المسجد الحَرامِ فإنَّهم يُجْنِبُون ويُحدثون. قال: لا تفعل، فإنَّ ابن عمر سُئِل عنهم، فقال: هم العاكفون.

[ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به][(١)].

قلت: وقد ثبت في «الصَّحيح» أنَّ ابن عمرَ كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عَزَب[(٢)].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فقال وكيع، عن أبي بكر الهُذلي، عن عطاء، عن ابن عبَّاس ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ قال: إذا كان مُصليًا فهو من الرُّكع السُّجود. وكذا قال عطاء وقتادة.

وقال ابن جَرير: فمعنىٰ الآية: وأَمَرْنا إبراهيم وإسماعيل بتطهيرِ بيتي للطَّائفين. والتَّطهير الذي أمرهما به في البَيتِ هو تطهيرُه مِن الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومِن الشرك. ثم أَوْرَدَ سؤالًا فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أَمَرَ بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين:

أحدهما: أنَّه أَمَرَهُما بتَطْهِيره مما كان يُعْبَد عنده زَمَان قوم نوح عليه السلام مِن الأصنام والأوثان ليكون ذلك سُنَّة لمن بعدهما إذْ كان الله تعالىٰ قد جعل إبراهيم إمامًا يُقْتَدىٰ به كما قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ قال: من الأصنام التي يعبدون التي كان المشركون يُعَظِّمُونها.

قلتُ: وهذا الجواب مُفَرَّعٌ علىٰ أنَّه كان يُعْبَدُ عنده أصنامٌ قبل إبراهيم عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلىٰ دليلٍ عن المعصوم محمَّد ﷺ.

الجواب الثَّاني: أنَّه أمرهما أَن يُخْلِصَا في بنائه لله[(٣)] وحده لا شريك له، فَيَبْنِيَاه مُطَهَّرًا من الشِّرك

(١) سقط من (ز).
(٢) البخاري (٤٤٠) (١١٥١)، (١١٥٦).
(٣) لوحة (١٤٧ أ).

والرِّيْب، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] قال: فكذلك قوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أي: ابنيا بيتي علىٰ طُهْرٍ من الشِّرك بي والرَّيب، كما قال السُّدِّي: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ ابنيا بيتي للطَّائفين.

وملخص هذا الجواب: أنَّ الله تعالىٰ أَمَرَ إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- أن يَبْنِيَا الكعبة علىٰ اسمه وحده لا شريك له للطَّائفين به والعاكفين عنده، والمصلِّين إليه مِن الرُّكَّع السُّجود، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ الآيات [الحج: ٢٦ -٣٧].

[وقد اختلف الفقهاء: أيُّما أفضل، الصَّلاة عند البيت أو الطَّواف؟ فقال مالك: الطَّواف به لأهل الأمصار أفضل مِن الصَّلاة عنده.

وقال الجمهور: الصَّلاة أفضلُ مطلقًا، وتوجيه كل منهما يُذْكَر في كتاب الأحكام](١).

والمراد مِن ذلك: الرَّدُّ علىٰ المشركين الذين كانوا يُشْرِكون بالله عند بَيْتِهِ، المؤسَّس علىٰ عبادته وحده لا شريك لَهُ، ثم مع ذلك يَصُدُّون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ثمَّ ذكر أنَّ البيت إنَّما أُسِّس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إمَّا بطوافٍ أو صلاةٍ، فذكر في سورة الحجِّ أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها، وسجودها، ولم يذكر العاكفين؛ لأنَّه تقدَّم ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذَكَر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنَّه قد علم أنَّه لا يكون ركوعٌ ولا سجودٌ إلا بعد قيام. وفي ذلك أيضًا رَدٌّ علىٰ من لا يَحُجُّه مِن أهل الكتابين: اليهود والنَّصارىٰ؛ لأنَّهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويَعْلَمُون أنَّه بنىٰ هذا البيت للطَّواف في الحجِّ والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده وهم لا يفعلون شيئًا مِن ذلك، فكيف يكونون(٢) مُقْتَدِين بالخليل، وهم لا يَفْعَلُون ما شرع الله له؟ وقد حَجَّ البيتَ موسىٰ بن عمران وغيره من الأنبياء -عليهم السلام- كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا يَنْطِق عن الهوىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

وتقدير الكلام إذًا: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾ أي: تقدمنا لوحينا إلىٰ إبراهيم وإسماعيل ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: طهراه من الشِّرك والرَّيب وابْنِيَاه خالصًا لله، مَعقِلًا للطَّائفين والعاكفين والركع السجود. وتَطْهير المساجد مأخوذٌ من هذه الآية، ومِن قوله تعالىٰ: ﴿ فِى

---

(١) سقط من (ز).

(٢) في (ز): «لا يكونون»، والمثبت هو الصحيح.

بُيُوتٍ[1] ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] ومِن السُّنَّة مِن أحاديث كثيرة، مِن الأمر بتَطْهيرها وتَطْيِيبها وغير ذلك مِن صيانتها منَ الأذىٰ والنَّجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال ﷺ: «إِنَّما بُنِيَتْ هَذِهِ المَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ»[2]. وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءًا علىٰ حِدَةٍ ولله الحمد والمنة.

وقد اختلف النَّاس في أوَّل مَن بنىٰ الكعبة، فقيل: الملائكةُ قبل آدم، ورُوِيَ هذا عن أبي جعفر الباقر محمَّد بن علي بن الحسين، ذكره القُرْطُبي وحكىٰ لفظه، وفيه غرابة، وقيل: آدم ش. رواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم: أنَّ آدم بناه مِن خمسة أَجْبُل: مِن حِرَاء وطورِ سَيْنَاء وطور زيتًا وجبل لبنان والجُودِي، وهذا غريبٌ أيضًا. وروي نحوه عن ابن عبَّاس وكعب الأحبار وقتادة وعن وهب بن مُنَبِّه: أنَّ أوَّل مَن بناه شيث ش، وغالب مَن يذكر هذا إنَّما يأخذه مِن كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب ولا يُعْتَمَد عليها بمُجَرَّدِها، وأمَّا إذا صَحَّ حديثٌ في ذلك فعلىٰ الرَّأس والعَين.

وقال فخر الدِّين الرازي: الأكثرون مِن أهل الأخبار علىٰ أنَّ البيت كان موجودًا قبل إبراهيم علىٰ ما روينا فيه من الأحاديث، واحتجُّوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ فدلَّ علىٰ وجود القواعد قبل ذلك وفيما قاله نَظَر، فإنَّه لم يرد شيءٌ مِن الأحاديث المرفوعة تدلُّ علىٰ ما ذكره وفي الاستدلال ممَّا ذكره من الآيات نَظَرٌ إذ لا يلزم وجود القَوَاعِد قبل ذلك. والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا ابن بشار قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدي، حدَّثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ بَيْتَ اللهِ وَأَمَّنَهُ وَإِنِّي حَرَّمْتُ المَدِينَةَ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا[3] فَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا وَلَا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا»[4][5].

وهكذا رواه النَّسائي، عن محمَّد بن بشَّار بُنْدار به.

وأخرجه مسلمٌ عَن أبي بكرِ بن أبي شَيْبَة، وعَمْرو النَّاقد، كلاهما عن أَبي أحمد الزُّبيري، عن

---

(١) لوحة (١٤٧ ب).

(٢) مسلم (٥٦٩)، والنسائي في «اليوم والليلة» (١٧٥)، وابن ماجة (٧٦٥)، وابن حبان (١٦٥٢)، من حديث بريدة وله شاهد نحوه من حديث أبي هريرة ﷺ، رواه مسلم (٥٦٨)، وأبو داود (٤٧٣)، وابن ماجة (٧٦٧).

(٣) **اللابة**: الحرة، وهي الأرض ذات الحجارة السود، والمدينة تقع بين حرتين عظيمتين.

(٤) مسلم (١٣٦٢) بلفظ: «**إن إبراهيم حرم مكة...**»، ورواه الطبري (١/ ٥٤٢)، والنسائي (٤٢٨٤) من حديث جابر، ورواه مسلم (١٣٦١)، وابن جرير (١/ ٥٤٣) من حديث رافع بن خديج.

(٥) **العضاة**: شجر له شوك.

سفيان الثوري.

وقال ابن جرير أيضًا : حدَّثنا أبو كُرَيْب وأبو السائب قالا: حدَّثنا ابن إدريس، وحدَّثنا أبو كريب، حدَّثنا عبد الرحيم الرازي، قالا جميعًا: سَمِعْنا أشعث عن نَافع عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَبْدَ اللهِ وَخَلِيلَهُ وَإِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي حَرَّمْتُ المَدِينَةَ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا، عِضَاهَهَا وَصَيْدَهَا، لا يُحْمَلُ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ، وَلا يُقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لِعَلَفِ بَعِيرٍ»(١).

وهذه الطريق غريبةٌ، ليست في شيءٍ من الكتب السِّتَّة، وأصل الحديث في «صحيح مسلم» مِن وجه آخَرَ، عن أبي هريرة ا قال: كان النَّاس إذا رَأَوْا أَوَّل الثَّمر، جاؤُوا به إلىٰ رسول الله ﷺ، فإذا أَخذَه رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ» ثم يدعو أصْغَرَ وَلِيدٍ له، فيُعْطِيهِ ذلك الثَّمر. وفي لفظٍ: «بَرَكَةٌ مَعَ بَرَكَةٍ» ثم يعطيه أَصْغَر مَن يحضره من الولدان. لفظ مسلم(٢).

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُريب، حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن أبي بكر بن محمَّد، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن رافع بن خَديج، قال: قال رسول الله(٣) ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا»(٤).

انفرد بإخراجه مُسلم، فرواه عن قتيبة، عن بكر بن مضر به. ولفظه كلفظه سواء. وفي «الصحيحين» عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «الْتَمِسْ لِي غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي» فخرج بي أبو طلحة يُرْدِفُنِي وراءه، فكُنْتُ أَخْدُم رسول الله ﷺ كلمَّا نزَلَ. وقال في الحديث: ثم أَقْبَلَ حتَّىٰ إذا بدا له أُحد قال: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ». فلمَّا أشرف علىٰ المدينة قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا، مِثْلَمَا حَرَّمَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ وَصَاعِهِمْ». وفي لفظ لهما: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مِكْيَالِهِمْ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ»(٥). زاد البخاري: يعني: أَهْلَ المَدِينَة.

ولهما أيضًا عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَهُ بِمَكَّةَ مِنَ البَرَكَةِ»(٦).

---

(١) رواه الطبري (١/ ٥٤٣)، وفي إسناده أشعث بن سوار: ضعيف، لكن الحديث صحيح من طرق أخرىٰ، انظر ما بعده.
(٢) مسلم (١٣٧٣)، والترمذي (٣٤٥٤)، وابن ماجة (٢٣٢٩)، وابن حبان (٣٧٤٧)، والدارمي (٢/ ١٠٦).
(٣) لوحة (١٤٨ أ).
(٤) رواه مسلم (١٣٦١)، والطبري (١/ ٥٤٣).
(٥) البخاري (٢٨٩٣)، ومسلم (١٣٦٥).
(٦) البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩)، وأحمد (٣/ ١٤٢).

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا، وَحَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مُدِّهَا وَصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ لِمَكَّةَ»(١).

رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم ولفظه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا. وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ لَهَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا بِمِثْلَيْ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ».

وعن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَجَعَلَهَا حَرَامًا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ حَرَامًا مَا بَيْنَ مَأْزِمَيْهَا(٢)، أَنْ لَا يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ، وَلَا يُحْمَلَ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ، وَلَا يُخْبَطَ فِيهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لِعَلَفٍ. اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ». الحديث رواه مسلم(٣).

والأحاديث في تحريم المدينة كثيرةٌ، وإنما أوردنا منها ما هو متعلِّق بتحريم إبراهيم ﷺ لمكَّة، لما في ذلك في مطابقة الآية الكريمة.

وتَمسَّك بها مَن ذَهَبَ إلىٰ أنَّ تحريم مكَّة إنَّما كان علىٰ لسان إبراهيم الخَليل، وقيل: إنَّها محرَّمة منذ خُلِقَت مع الأرض وهذا أَظْهَر وأَقْوَىٰ.

وقد وردت أحاديث أُخَرُ تدلُّ علىٰ أنَّ الله تعالىٰ حرَّم مكَّة قبل خلق السَّموات والأرض، كما جاء في «الصَّحيحين»، عن عبد الله بن عبَّاس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ(٤) يوم فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَىٰ خَلَاهَا(٥)» فقال العبَّاس: يا رسول الله، إلا الإِذْخَرَ(٦) فإنَّه لِقَينهم ولِبُيُوتِهم. فقال: «إِلَّا الإِذْخَرَ»(٧). وهذا لفظ مسلم.

ولهما عن أبي هريرة نحو من ذلك(٨).

---

(١)البخاري (٢١٢٩)، ومسلم (١٣٦٠) من حديث عبد الله بن زيد.

(٢)المأزم: كل طريق ضيق بين جبلين.

(٣)رواه مسلم (١٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤)لوحة (١٤٨ ب).

(٥)الخلا: النبات الرطب الرقيق ما دام رطبًا، واختلاؤه :قطعه.

(٦)الإذخر: حشيشة طيبة الرائحة، تسقف بها البيوت فوق الخشب، والقين :الحداد والصائغ.

(٧) البخاري (١٥٨٧)، (١٨٣٤)، (٢٧٨٣)، (٢٨٢٥) (٣١٨٩)، ومسلم (١٣٥٣)، وأبو داود (٢٠١٨) (٢٤٨٠)، والترمذي (١٥٩٠)، والنسائي (٥/ ٢٠٣) (٧/ ١٤٦).

(٨)البخاري (١١٢) (٢٤٣٤) (٦٨٨٠)، ومسلم (١٣٥٥).

ثمَّ قال البخاري بعد ذلك: قال أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة: سمعت النَّبيَّ ﷺ مثله.

وهذا الذي علَّقه البخاريُّ رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجه، عن محمَّد بن عبد الله بن نُمَير، عن يونس بن بُكَيْر، عن محمَّد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن الحسن[١] بن مسلم بن يَنَّاق، عن صفيَّة بنت شيبة قالت: سمعت النَّبيَّ ﷺ يخطُب عامَ الفَتْح، فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، لا يُعْضَدُ شَجَرُهَا وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلا يَأْخُذُ لُقَطَتَهَا إِلَّا مُنْشِدٌ**» فقال العبَّاس: إلا الإذْخر؛ فإنَّه للبيوت والقبور. فقال رسول الله ﷺ: «**إِلَّا الإِذْخَرَ**»[٢].

وعن أبي شُرَيح العدوي أنَّه قال لعَمْرو بن سعيد -وهو يبعث البعوث إلىٰ مكة-: ائْذَنْ لي -أيُّها الأمير- أن أُحدِّثك قولًا قام به رسولُ الله ﷺ الغَدَ مِن يوم الفتح، سَمِعَتْه أُذُنايَ ووعاه قلبي، وأَبْصَرَتْه عَيْنَايَ حين تكلَّم به، إنَّه حَمِدَ الله وأَثْنَىٰ عليه، ثمَّ قال: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلا يَعْضُدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ﷺ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ. وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**». فقيل لأبي شُرَيح: ما قال لك عمْرُو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبَا شريح، إنَّ الحرم لا يُعِيذُ عاصيًا، ولا فارًّا بدمٍ، ولا فارًّا بخَرِبَة[٣][٤].

رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه.

فإذا عُلِم هذا فلا مُنافَاة بين هذه الأحاديث الدَّالَّة علىٰ أنَّ الله حَرَّم مكَّة يوم خلق السَّموات والأرض، وبين الأحاديث الدالَّة علىٰ أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمها[٥]؛ لأنَّ إبراهيم بَلَّغ عَن الله حُكْمه فيها وتحريمه إيَّاها، وأنَّها لم تزَل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لها، كما أنَّه قد كان رسول الله ﷺ مكتوبًا عند الله خاتم النَّبيِّين، وإنَّ آدم لمنجَدِل في طِينَتِه[٦][٧]، ومع هذا قال إبراهيم ش: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ

---

(١) في (ز): «**إسحاق**»، وهو خطأ.

(٢) رواه ابن ماجة (٣١٠٩) لكن فيه أبان بن صالح، قال الحافظ: وثَّقه الأئمة، ووهم ابن حزم فجهله، وابن عبد البر ضعفه.
قلت: وضعفه البوصيري في «**الزوائد**»، وأيًّا كان الأمر فالحديث يشهد له ما تقدم.

(٣) البخاري (١٨٣٢)، ومسلم (١٣٥٤)، والترمذي (١٤٠٦) وقال: حسن صحيح.

(٤) **الخربة**: الجناية والبلية، قال الترمذي: وقد روي: بخزية، فيجوز أن يكون بكسر الخاء، وهو الشيء الذي يستحيا منه، أو من الهوان والفضيحة. «النهاية».

(٥) لوحة (١٤٩ أ).

(٦) ضعيف بهذا اللفظ: رواه أحمد (٤/ ١٢٧)، والبزار (٢٣٦٥ - كشف الأستار)، وأبو نعيم (٦/ ٨٩)، والحاكم (٢/ ٦٠٠) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: لكن فيه سعيد بن سويد الكلبي: كان يدلس ويكثر من ذلك.
قلت: لكن الحديث ثبت بلفظ آخر صحيح: «**كُتبت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد**». رواه أحمد (٥/ ٥٩).

(٧) **أي**: ملقىٰ علىٰ الجدالة، وهي الأرض.

﴿فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية، وقد أجاب الله دعاءَهُ بما سَبَقَ في عِلْمِه وقَدَره. ولهذا جاء في الحديث أنَّهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بَدْءِ أَمْرِك. فقال: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، وَرَأَتْ أُمِّي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»(١).

أي: أخْبِرْنا عن بَدءِ ظهور أَمْرِكَ. كما سيأتي قريبًا، إن شاء الله.

وأما مسألة تفضيل مَكَّة علىٰ المَدِينَة، كما هو قول الجمهور، أو المدينة علىٰ مكة، كما هو مذهب مالك وأتباعه، فتُذْكَر في موضعٍ آخرَ بأدلَّتِها، إن شاء الله، وبه الثِّقة.

وقوله تعالىٰ إخبارًا عَن الخليل أنَّه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي: مِن الخوف، لا يَرْعَبُ أهلُه، وقد فعل الله ذَٰلِكَ شرعًا وقَدَرًا. كقوله تعالىٰ ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] إلىٰ غير ذلك من الآيات. وقد تقدَّمت الأحاديث في تحريم القتال فيها. وفي «صحيح مسلم» عن جابر ﵁: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلاحَ»(٢).

وقال في هذه السورة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي: اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا، وناسب هذا؛ لأنَّه قبل بناء الكعبة.

وقال تعالىٰ في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وناسب هذا هناك؛ لأنَّه -والله أعلم- كأنَّه وقع دعاءً ثانيًا بعد بناء البَيت واستقرار أهلِهِ به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًّا مِن إسماعيل بثلاث عشرَةَ سنةً؛ ولهذا قال في آخر الدُّعاء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. قال: هو قول الله تعالىٰ. وهذا قول مجاهد(٣) وعكرمة، وهو الذي صوَّبه ابن جرير، قال: وقرأ آخرونَ: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأَمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٤) فجعَلوا

(١) **صحيح لغيره**: رواه أحمد (٥/ ٢٦٢) بإسناد حسن من حديث أبي أمامة، ورواه أحمد (٤/ ١٢٧) من حديث العرباض وفيه سعيد بن سويد، ورواه ابن هشام (١/ ١٠٧) وفيه خالد بن معدان يرسل كثيرًا لكن بهذه الشواهد يقوىٰ الحديث إلىٰ الصحة، وقال الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (٨/ ٢٢٢): إسناده حسن. وله شواهد تقويه، وصححه الألباني في «**السلسلة الصحيحة**».

(٢) مسلم (١٣٦٥)، والبيهقي (٥/ ١٥٥)، وابن حبان (٣٧١٤).

(٣) لوحة (١٤٩ ب).

(٤) يعني: بفتح الهمزة وسكون الميم في (فأمتعه)، ووصل الألف وفتح الراء مشددة في (اضطره)؛ فِعْلا أمرٍ، علىٰ أنه دعاء.

ذلك مِن تمام دُعاءِ إبراهيم، كما رواه أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية قال: كان ابن عبَّاس يقول: ذلك قول إبراهيم، يَسْأَل ربَّه أنَّ مَن كفر فَأَمْتِعْه قليلًا.

وقال أبو جعفر: عَن ليث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ يقول: ومَن كَفَر فَأَرْزُقه أيضًا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقال محمَّد بن إسحاق: لما عَزَل إبراهيم الخليل ﷺ الدَّعوة عمَّن أَبَىٰ الله أن يجعل له الولاية - انقطاعًا إلىٰ الله ومحبتِه، وفِرَاقًا لمن خالف أَمْرَه، وإن كانوا مِن ذُرِّيَتِه، حين عرف أنَّه كائن منهم أنَّه ظالم ألا يناله عهدُه، بِخَبَرِ الله له بذلك- قال الله: ومَن كَفَرَ فإنِّي أَرْزُق البَرَّ والفَاجر وأُمَتِّعه قليلًا.

وقال حاتم بن إسماعيل عن حُمَيد الخرَّاط، عن عَمَّار الدُّهْني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ قال ابن عبَّاس: كان إبراهيم يحجُرها علىٰ المؤمنين دون النَّاس، فأنزل الله: ومَن كفر أيضًا أَرْزُقُهم كما أَرْزُق المؤمنين أَأَخْلُق خلقًا لا أَرْزُقُهم؟! أُمَتِّعهم قَليلًا ثمَّ أَضطَرُّهُم إلىٰ عذاب النَّار وبِئْس المصير. ثم قرأ ابن عبَّاس: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. رواه ابن مَرْدوَيْه[(١)]. ورُوي عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضًا، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣، ٣٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[(٢)] أي: ثم أُلْجِئُهُ -بعد مَتَاعه في الدُّنيا وبَسْطِنا عَلَيهِ مِن ظِلِّهَا- إلىٰ عذاب النار وبئس المصير. ومعناه: أنَّ الله تعالىٰ يُنْظِرُهم ويُمْهِلهُم ثم يأخذهم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[الحج: ٤٨]، وفي «الصحيحين»: «**لا أَحَدُ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذًىٰ سَمِعَهُ مِنَ اللهِ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ**»[(٣)].

---

(١) إسناده حسن، وحميد الخراط، هو حميد بن زياد أبو صخر، وعمار الدهني هو عمار بن معاوية الدهني. رواه ابن أبي حاتم (١٢١٧) مختصرًا.

(٢) لوحة (١٥٠ أ).

(٣) البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤)، وأحمد (٤/ ٣٩٠).

وفي «الصحيح» أيضًا: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»(١). ثمَّ قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

[وقرأ بعضهم ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأَمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢). جعله مِن تمام دعاءِ إبراهيم، وهي قراءةٌ شاذَّةٌ مخالفةٌ للقُراء السبعة وتركيب السِّياق (يأبىٰ معناها)(٣)، والله أعلم. فإنَّ الضَّمير في ﴿قَالَ﴾ راجعٌ إلىٰ الله تعالىٰ في قراءة الجُمهُور، والسِّياق يَقْتَضِيه، وعلىٰ هذه القِراءَة الشَّاذَّة يكون الضَّمير في ﴿قَالَ﴾ عائد إلىٰ إبراهيم وهو خلاف نَظْم الكلام(٤) والله سبحانه هو العلَّام](٥).

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فالقواعدُ: جمع قاعدةٍ، وهي السَّارية والأساس، يقول تعالىٰ: واذكر -يا محمَّد- لقومك بناءَ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت، ورفْعِهما القواعدَ منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. [وحكىٰ القُرطِبيُّ وغيره عن أُبي وابن مسعود أنَّهما كانا يقرآن: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ويدلُّ علىٰ هذا قولهما بعده: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ الآية]. فهُما في عملٍ صالحٍ، وهما يسألان الله تعالىٰ أن يَتقبَّل منهما، كما روىٰ ابن أبي حاتمٍ من حديث محمَّد بن يزيد بن خنيس المكي، عن وهيب بن الورد: أنَّه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ ثم يبكي ويقول: يا خَلِيل الرحمن، تَرفَع قوائم بيتِ الرحمن وأنت مُشْفِق أن لا يُتقبَّل مِنك. وهذا كما حكىٰ الله تعالىٰ عن حالِ المؤمنين المخلصين في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ أي: يُعطُون ما أعطوا من الصَّدقات والنَّفقات والقُربات ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي: خائفةً ألا يُتقبَّل منهم. كما جاء به الحديث الصحيح، عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في موضعه.

وقال بعض المفسِّرين: الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم، والدَّاعي إسماعيل. والصَّحيح: أنَّهما

---

(١) البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذي (٣١٠٩)، والنسائي، وابن ماجة (٤٠١٨).

(٢) يعني: بفتح الهمزة وسكون الميم في (فأمتعه)، ووصل الألف وفتح الراء مشددة في (اضطره)؛ فِعْلَا أمرٍ، علىٰ أنه دعاء؛ كما تقدم.

(٣) كلمة غير واضحة في (ح).

(٤) قال أبو جعفر النحاس: «وهذه القراءة شاذة، ونسقُ الكلام والتفسيرُ جميعًا يدلان علىٰ غيرها؛ أما نسق الكلام فإن الله ﷻ أخبر عن إبراهيم ﷺ أنه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ثم جاء بقوله ولم يفصل بينه بـ(قال)، ثم قال بعدُ: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾، فكان هذا جوابًا من الله، ولم يقل بعد (قال): «إبراهيم». انظر: «إعراب القرآن» للنحاس، و«تفسير القرطبي».

(٥) زيادة من (ح).

كانا يرفعان ويقولان، كما سيأتي بيانه.

وقد روىٰ البخاري هاهنا حديثًا سنُورِدُه ثم نُتْبِعه بآثارٍ متعلِّقة بذلك.

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد، حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن أيوب السَّختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وَدَاعة -يزيد أحدُهما علىٰ[1] الآخر -عن سعيد ابن جُبَير، عن ابن عبَّاس ﷺ قال: أوَّل ما اتَّخذ النِّساء المِنْطَق[2] مِن قِبَل أم إسماعيل -عليهما السلام- اتَّخذت مَنْطِقًا لِيُعَفِّي أثرها علىٰ سارَّة. ثم جاء بها إبراهيم وبابْنِهَا إسماعيل -عليهما السلام- وهي تُرْضِعُه، حتىٰ وضعهما عند البيت عند دوحة[3] فوق زَمْزم في أَعْلَىٰ المسجد، وليس بمِكَّة يومئذٍ أَحَدٌ، وليس بها مَاء فوضعهما هنالك، ووَضَع عندهُما جِرابًا فيه تمرٌ وسِقَاءٌ فيه ماءٌ، ثم قَفَّىٰ إبراهيم -عليه السلام- مُنْطَلِقًا. فتبعته أُمُّ إسماعيل فقالت: يا إِبْرَاهِيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادِي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ؟ فقالت له ذلك مِرَارًا، وجعل لا يَلْتَفِتُ إليها. فقالت له: آللهُ أَمَرَك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذًا لا يُضَيِّعُنا. ثم رَجَعَت. فانطلق إبراهيم ش حتىٰ إذا كان عند الثَّنِيَّة حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدَّعوات، ورفع يديه، قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل -عليهما السلام- وتَشْرَب مِن ذلك الماء، حتَّىٰ إذا نفد ماءُ السِّقاء عَطِشَت وعَطِشَ ابنها، وجعلت تَنْظُر إليه يَتَلَوَّىٰ - أو قال: يَتَلَبَّط[4]- فانطلقت كراهيةَ أن تَنظُر إليه، فوَجَدَت الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأرض يَلِيهَا فقامت عليه، ثمَّ استقبلت الوادِي تنظر هل ترىٰ أحدًا؟ فلم تَرَ أحدًا. فهبطت من الصَّفا حتَّىٰ إذا بَلَغَتِ الوَادِي رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا، ثمَّ سعت سَعْيَ الإنسان المجهود حتىٰ جاوزت الوادي. ثم أتتِ المروة، فقامَت عليها ونظَرَت هل ترىٰ أَحَدًا؟ فلم تَرَ أحدًا. ففَعَلَت ذلك سبع مرات، قال ابن عبَّاس: قال النَّبيُّ ﷺ: «**فَلِذَلِكَ سَعَىٰ النَّاسُ بَيْنَهُمَا**».

فلمَّا أشرفت علىٰ المروة سَمِعَت صوتًا فقالت: صَهْ، تريد نَفْسَها، ثم تَسَمَّعت فسَمِعَت أيضًا. فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غُوَاث[5] فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبَحَث بعقبه -أو قال:

---

(١) لوحة (١٥٠ ب).

(٢) المِنْطَق: هو النطاق، والجمع مناطق، وهو أن تلبس الثوب ثم تشد الوسط بشيء وترفع وسط الثوب وترسله علىٰ الأسفل؛ لئلا تعثر في الذيل. هدي الساري (ص١٩٦).

(٣) **قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ**: الدوحة: الشجرة الكبيرة.

(٤) **قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ**: يتلبط: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض.

(٥) **قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ**: «**غواث**» ضبطت في اليونينية من البخاري (٤/ ١٤٣ من الطبعة السلطانية) بضم الغين وكسرها، وعليها كلمة «صح». وقال ابن الأثير في «النهاية»: «**الغواث بالفتح، كالغياث بالكسر**: من **الإغاثة**. **وقد** =

بجناحه- حتىٰ ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ[١]، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تَغْرِفُ من الماءِ في سِقائِها وهو يَفُور بَعْدَما تَغْرف. قال ابن عبَّاس: قال[٢] النَّبيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ -أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغرِفْ مِنَ المَاءِ- لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا[٣]».

قال: فَشَرِبَت وأرضعت ولدَهَا، فقال لها الملك: لا تَخَافي الضَّيعَةَ؛ فإنَّ هاهنا بيتًا لله ﷻ يَبْنِيهِ هذا الغلام وأبوه، وإن الله ﷻ لا يُضَيِّع أهله. وكان البيت مُرْتَفِعًا من الأرض كالرَّابِيَةِ تَأْتِيه السُّيول فتأخذ عن يَمِينه وعن شماله، فكانت كذلك حتىٰ مرَّت بهم رُفْقَةٌ مِن جُرْهُم أو أهل بيتٍ من جُرْهُم مُقْبِلِين مِن طريق كَدَاء[٤]. فنزلوا في أَسْفَل مكة، فرأوا طائرًا عائِفًا[٥]، فقالوا: إنَّ هذا الطَّائر لَيَدُور علىٰ الماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيًّا[٦] أو جَرِيَّين، فإذا هم بالماء. فرَجَعُوا فأخبروهم بالمَاءِ، فأقبلوا. قال: وأُمُّ إسماعيل عند الماء. فقالوا: أَتَأْذَنِين لنا أن نَنْزِل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حَقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عبَّاس فقال النَّبيُّ ﷺ: «فَأَلْفَىٰ ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الأُنْسَ. فَنَزَلُوا، وَأَرْسَلُوا إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ. حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ[٧] وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ. وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ لِيُطَالِعَ تَرِكَتَهُ[٨] [٩]. فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ. وَشَكَتْ إِلَيْهِ.

= أغاثه يغيثه. وقد روي بالضم والكسر، وهما أكثر ما يجيء من الأصوات، كالنباح والنداء. والفتح فيها شاذٌّ».

(١) أي: تجعل له حوضًا يجتمع فيه الماء.

(٢) لوحة (١٥١ أ).

(٣) أي: جاريًا.

(٤) اسم جبل بأعلىٰ مكة.

(٥) قال أحمد شاكر رحمه الله: بالعين المهملة والفاء، وهو الذي يحوم علىٰ الماء ويتردد ولا يمضي عنه. قاله الحافظ في «الفتح».

(٦) قال أحمد شاكر رحمه الله: «الجري» - بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد الياء: الرسول، وقد يطلق علىٰ الوكيل وعلىٰ الأجير. سمي بذلك؛ لأنه يجري مجرىٰ مرسله أو موكله، أو لأنه يجري مسرعًا في حوائجه.

(٧) قال أحمد شاكر رحمه الله: «وأنفسهم - قال الحافظ في «الفتح»: «بفتح الفاء بلفظ أفعل التفضيل، من النفاسة؛ أي كثرت رغبتهم فيه». وفي «النهاية»: «أي: أعجبهم وصار عندهم نفيسًا. يقال: أنفسني في كذا؛ أي: رغبني فيه».
وهذا الحديث صريحٌ في الدلالة التاريخية علىٰ أن العربية أقدم من إبراهيم وإسماعيل ولعلها أقدم من السريانية، والتي هي -يقينًا- أقدم من العبرية، التي هي لغة أبناء إسرائيل، الذي هو يعقوب حفيد إبراهيم. بل لعل العربية الأولىٰ هي أم هذه اللغات -التي تسمىٰ «السامية»- كلها خلافًا لمن جهل ذلك، فجعلوا كل لفظةٍ عربيةٍ توافق حرفًا من تلك اللغات معربًا عنها!!».

(٨) قال أحمد شاكر رحمه الله: بكسر الراء؛ أي: يتفقد حال تركه هناك.

(٩) التَّرِكة في الأصل: بَيْضُ النعام، وجمعها :تَرْك، يريد به ولدَه اسماعيل وأمّه هاجر لما تَرَكَهما بمكة، قيل :ولو رُوي بكسر الراء لكان وجهًا من التّركة وهو الشيء المتروك. «النهاية».

قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ. فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ ﷺ كَأَنَّهُ أَنِسَ شَيْئًا. فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَ عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي. وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، فَالْحَقِي بِأَهْلِكِ. فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ بِأُخْرَىٰ، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ. فَدَخَلَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ. وَأَثْنَتْ عَلَىٰ اللهِ ﷻ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ. قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ[١] بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ». قال النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ، لَدَعَا لَهُمْ فِيهِ. قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا[٢] أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ». قال: «فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثَبِّتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ ﷺ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ. ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ ﷻ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، وَالْوَالِدُ بِالْوَلَدِ. ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ ﷻ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِي هَاهُنَا بَيْتًا - وَأَشَارَ إِلَىٰ أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَىٰ مَا حَوْلَهَا -قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، قَالَ: فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّىٰ إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾» قال: «فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّىٰ يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»[٣]، [٤].

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي عبد الله محمَّد بن حمَّاد الظِّهراني. وابن جرير، عن أحمد بن ثابت الرَّازي، كلاهما عن عبد الرزَّاق به مختصرًا.

وقال أبو بكر بن مَرْدوَيْه: حدَّثنا إسماعيل بن علي بن إسماعِيل، حدَّثنا بشر بن موسىٰ، حدَّثنا أحمد بن محمَّد الأزرقي، حدَّثنا مسلم بن خالد الزِّنجي، عن عبد الملك بن جُرَيج، عن كثير بن كثير، قال: كنت أنا وعثمان بن أبي سليمان، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَين في ناسٍ مع سعيد بن جبير، في

---

(١) لوحة (١٥١ ب).

(٢) أي: يعتمد عليهما؛ يعني: اللحم والماء.

(٣) البخاري (٣٣٦٤) (٣٣٦٥) ورواه الطبري مختصرًا (١/ ٥٥٠)، وابن أبي حاتم كذلك مختصرًا (١/ ٢٣٢/ ١٢٣٣).

(٤) زادت بعض النسخ: «ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطوَّلًا».

أعلىٰ المسجد ليلًا فقال سعيد بن جبير: سَلُونِي قبل أَن لا تَرَوْنِي. فسَأَلُوه عن المقام. فأنشأَ يُحَدِّثهم عن ابن عبَّاسٍ، فذكر الحديث بطولِهِ(١).

ثمَّ قال البخاري: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد. حدَّثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدَّثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: لما كانَ بين إبراهيمَ وبين أهلِهِ ما كان، خرج بِإِسْمَاعِيل وأمِّ إسماعيل، ومعهم شَنَّةٌ(٢) فيها ماء، فجعَلَتْ(٣) أمُّ إسماعيل تَشْرَب مِن الشَّنَّة، فيَدِرُّ لَبَنُها علىٰ صَبِيِّها، حتىٰ قَدِم مكَّة فوضعها تحت دَوْحَةٍ، ثم رَجَع إبراهيم إلىٰ أَهْلِه، فاتَّبَعَتْه أم إسماعيل، حتىٰ لمَّا بلغوا كَدَاء نادتْه مِن وَرَائه: يا إبراهيمُ، إلىٰ مَن تَتْرُكُنا؟ قال: إلىٰ الله ﷻ. قالت: رَضِيتُ بالله. قال: فرجَعَتْ، فجعلت تَشْرَب مِن الشَّنَّة، ويَدر لبنها علىٰ صَبِيِّها حتىٰ لما فَنِي الماء قالت: لَو ذهبت فنظرت لَعَلِّي أُحِسُّ أحدًا. قال: فذهَبَتْ فصَعَدَت الصَّفا، فنظرت ونظرت هل تحسُّ أحدًا، فلم تحس أحدًا. فلما بلغت الوادي سَعَت حتىٰ أَتتِ المروة، ففعلت ذلك أشواطًا ثمَّ قالت: لو ذَهَبْت فنَظَرت ما فَعَل -تعني: الصبي- فَذَهَبْتُ فنظَرْتُ فإذا هو علىٰ حالِهِ كأنَّه يَنْشَغُ(٤) للموت، فلم تَقَرَّها نَفْسُها، فقالت: لو ذَهَبتُ فَنَظَرتُ لعلِّي أحس أحدًا. قال: فذَهَبْتُ فصَعَدْتُ الصَّفَا، فنَظَرتْ ونَظَرتْ فلم تُحِسَّ أَحدًا، حتَّىٰ أَتَّمت سبعًا، ثم قالت: لَو ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، فإذا هي بصَوتٍ، فقالت: أَغِثْ إن كان عندك خيرٌ. فإذا جبريل ﵇ قال: فقال بعقبه هكذا، وغَمَزَ عَقِبَه علىٰ الأرض. قال: فَانْبَثَق الماء، فَدَهَشَتْ(٥) أم إسماعيل، فجعلت تَحْفُر.

قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «**لَوْ تَرَكَتْهُ لَكَانَ المَاءُ ظَاهِرًا**».

قال: فجَعَلَتْ تشرب مِن الماء ويَدِرُّ لبنُها علىٰ صَبِيِّها.

قال: فمرَّ ناسٌ مِن جُرْهُم ببطن الوادي، فإذا هم بِطَيْرٍ -كأنَّهم أنكروا ذلك- وقالوا: ما يكون الطَّير إلا علىٰ ماءٍ فبعَثُوا رسولَهُم فَنظَرَ، فإذا هو بالماء. فأتاهم فأَخْبرَهم. فأَتَوْا إليها فقالوا: يا أُمَّ إسماعيل، أَتَأْذَنِين لنا أَن نكون معك -ونَسْكُن معك؟- فبلغ ابنها ونكح فيهم امرأة.

قال: ثم إنَّه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله: إني مُطَّلع تَرِكَتي. قال: فجاء فسَلَّم، فقال: أين إسماعيل؟ قالت امرأتُهُ: ذهب يَصِيد. قال: قولي له إذا جاء: غيِّر عتبةَ بَيْتِك. فلمَّا جاء أَخْبَرَتْهُ، قال: أنتِ ذَاكِ، فاذهبي إلىٰ أهلك.

قال: ثمَّ إنَّه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إني مُطَّلع تَرِكَتي. قال: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت

---

(١)عزاه لابن مردويه، وفيه مسلم بن خالد الزنجي: صدوق كثير الأوهام، ويكفي في صحة الحديث رواية البخاري له.
(٢)الشنة: القربة. (٣)لوحة (١٥٢ أ).
(٤)ينشغ: يشهق. (٥)في (ز): فذهبت.

امرأته: ذهب يَصِيد. فقالت: ألا تَنْزِل فَتَطْعَم وتَشْرَب؟ فقال: ما طعامُكم وما شرابُكم؟ قالت: طعامُنا اللَّحم، وشرابُنا الماء. قال: اللَّهمَّ باركْ لهم في طعامهم وشرابهم.

قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ».

قال: ثمَّ إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله: إني مُطَّلع تَرِكَتِي. فجاء فوافق إسماعيل مِن وراءِ زَمْزَم يُصْلِح نَبْلًا له فقال: يا إسماعيل، إنَّ ربَّك ﷻ أمَرَني أن أَبْنِي له بيتًا(١). فقال: أَطِعْ ربَّك ﷻ. قال: إنَّه قد أَمَرَني أن تُعِينَنِي عليه؟ فقال: إذَن أَفْعَلُ -أو كما قال- قال: فقاما قال: فجعل إبراهيم يَبْنِي، وإسماعيل يُنَاوِلُه الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال: حتَّىٰ ارتفع البناء وضَعُفَ الشَّيخ عن نقل الحجارة. فقام علىٰ حَجَر المقام، فجعل يُناوِلُه الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٢).

هكذا رواه مِن هذين الوَجْهَيْن في كتاب الأنبياء.

والعجب أنَّ الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في كتابه «المستدرك»، عن أبي العبَّاس الأصمِّ، عن محمَّد بن سِنان القَزَّاز، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن إبراهيم بن نافع به. وقال: صحيحٌ علىٰ شرط الشَّيخين، ولم يُخَرِّجَاه. كذا قال. وقد رواه البخاري كما ترىٰ، من حديث إبراهيم بن نافع، وكأنَّ فيه اقتصارًا، فإنَّه لم يذكر فيه شأن الذَّبح. وقد جاء في الصحيح: أنَّ قَرْنَي الكبش كانا مُعَلَّقَيْن بالكعبة(٣)، وقد جاء أنَّ إبراهيم ﷺ كان يَزورُ أهلَه بمكَّة علىٰ البُراق سريعًا ثمَّ يَعودُ إلىٰ أهله بالبلاد المقدسة، والله أعلم. والحديث -والله أعلم- إنَّما فيه -مرفوع- أماكن صَرَّح بها ابن عبَّاس عن النَّبيِّ ﷺ.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا السِّياق ما يُخَالِف بعض هذا، كما قال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن بشار، ومحمَّد بن المثنىٰ قالا: حدَّثنا مؤمل، حدَّثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرِّب، عن علي بن أبي طالب ت قال: لما أُمِر إبْرَاهِيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهَاجَر. قال: فلمَّا قَدِم مكَّة رأىٰ علىٰ رَأْسِهِ في موضع البَيت مثل الغمامة، فيه مثلُ الرَّأس. فكَلَّمَه، قال: يا إبراهيم، ابْنِ عَلَىٰ ظِلِّي -أو قال عَلَىٰ قَدْرِي- ولا تَزِد ولا تَنْقُص: فلمَّا بنىٰ خرج، وخلَّف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلىٰ مَن تَكِلُنَا؟ قال: إلىٰ الله. قالت: انطلق فإنَّه لا يُضَيِّعنا. قال: فعطش إسماعيلُ عطشًا شديدًا، قال: فصَعَدَتْ هاجرُ إلىٰ الصَّفا فنَظَرَت فلم تَرَ شيئًا، حتَّىٰ أتتِ المروة فلم تَرَ شيئًا، ثم رَجَعَت إلىٰ الصفا فنَظَرَت فلم تَرَ شيئًا، حتَّىٰ أَتَتِ المَرْوَة فلم تَرَ شيئًا، ثمَّ رَجَعَت إلىٰ الصَّفا فنَظَرَت فلم تَرَ شيئًا، حتىٰ فَعَلَتْ ذلك سبع مرات، فقالت: يا إسماعيل، مِتْ حَيثُ لا أَرَاك. فأَتَتْه وهو

---

(١) لوحة (١٥٢ ب). (٢) البخاري (٣٣٦٥). (٣) رواه أحمد (٥/ ٣٨٠).

يَفْحَصُ برجله مِن العَطَش. فناداها جبريل فقال لها: مَن أنتِ؟ قالت: أنا هَاجر أُمُّ ولدِ إبْرَاهِيم. قال: فإلىٰ مَن وَكَلَكُما؟ قالت: وَكَلَنَا إلىٰ الله. قال: فإنه وَكَلَكُمَا إلىٰ كَافٍ. قال: فَفَحَصَ [الغُلَام][(١)] الأرض بأصبعه، فنَبَعَتْ[(٢)] زمزم. فجعَلَتْ تَحْبِسُ الماء، فقال: دعيه فإنَّها رَوَاء[(٣)(٤)].

ففي هذا السِّياق أنَّه بنىٰ البيتَ قبل أن يُفَارِقَهُما، وقد يُحْتَمَل -إن كان محفوظًا- أن يكون أولًا وضع له حَوطًا وتَحْجِيرًا، لا أنَّه بَنَاه إلىٰ أعلاه، حتىٰ كَبُر إسماعيل فبَنَيَاه معًا، كما قال الله تعالىٰ.

ثم قال ابن جرير: أخبرنا هَنَّاد بن السَّري، حدَّثنا أبو الأحوص، عن سِماك، عن خالد بن عرعرة أنَّ رجلًا قام إلىٰ عليٍّ ﷺ فقال: ألا تخبرني عن البَيت، أهُو أوَّل بيتٍ وُضِعَ في الأرض؟ فقال: لا، ولَكِنَّه أول بيتٍ وُضِعَ فيه البَرَكة مقامُ إبْرَاهِيم، ومَن دخله كان آمِنًا، وإن شِئْتَ أنْبَأْتُك كيف بُنِيَ: إنَّ الله أَوْحَىٰ إلىٰ إبْرَاهِيم أن ابنِ لِي بَيْتًا في الأَرْض، قال: فَضَاق إبراهيمُ بذلك ذَرْعًا فأَرْسَل الله السَّكِينةَ -وهي رِيحٌ خَجُوجٌ[(٥)]، ولها رَأْسَان- فأَتْبَع أحدهما صاحبَهُ، حتَّىٰ انتهتْ إلىٰ مكَّة، فتَطَوَّت علىٰ مَوضِع البيت كطَيِّ الحَجَفَة[(٦)]، وأمر إبراهيم أَن يَبْنِي حيث تستقر السَّكِينَة. فبنىٰ إبراهيم وبَقِيَ حَجَرٌ، فذهب الغلام [يَبْغِي شيئًا][(٧)]. فقال إبراهيم: أَبْغِنِي حجرًا كما آمُرُكَ. قال: فانطلق الغُلَام يَلْتَمِس له حجرًا، فأَتَاه به، فوجَدَه قد ركَّب الحجر الأَسودَ في مكانه. فقال: يا أَبَهْ، مَن أتاك بهذا الحَجَر؟ فقال: أَتَانِي به مَن لن يَتَّكِلَ علىٰ بِنَائِكَ، جاء به جبريل ﷺ مِن السَّماء. فأَتَمَّاه[(٨)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن يزيد المُقْرِي، حدَّثنا سُفْيَان، عن بِشْر بن عَاصِم، عن سَعِيد بن المسيِّب، عن كَعْبِ الأَحْبَار قال: كان البيت غُثَاءَةً[(٩)] علىٰ الماء قبل أَن يخلق الله الأرض بأربعين عامًا، ومنه دُحِيَتِ الأرض[(١٠)].

---

(١) زيادة من «الطبري».

(٢) لوحة (١٥٣ أ).

(٣) **ضعيف بهذا السياق**: رواه ابن جرير (١/ ٥٥١) وفيه أبو إسحاق -مدلس- وقد عنعن، ومؤمل بن إسماعيل: صدوق سيئ الحفظ، والصحيح ما تقدم من رواية ابن عبَّاس.

(٤) **رواء**: كثيرة الماء.

(٥) **ريح خجوج**: شديدة المرور في غير استواء.

(٦) **الحجفة**: الترس.

(٧) زيادة من «الطبري».

(٨) رواه ابن جرير (١/ ٥٥١) وفيه خالد بن عرعرة، ذكره ابن أبي حاتم، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا «الجرح والتعديل» (٣/ ٣٤٣). وذكره ابن حبان في «الثقات» (٢٥١٠) وهو متساهل في توثيق المجاهيل.

(٩) **الغثاءة**: ما يحتمله السيل.

(١٠) رواه ابن أبي حاتم (١٢٣٥) ورجاله ثقات، لكن مثل هذه الأخبار لا تقال بالرأي، وكعب الأحبار ينقل من كتب أهل الكتاب. فمثل هذا مما لا يصدق ولا يكذب.

قال سعيد: وحدَّثنا علي بن أبي طالب ﷺ: أنَّ إبراهيم أَقْبَلَ مِن أَرْمِينِيَّة، ومعه السَّكِينَة تدُلُّه علىٰ تَبَوُّءِ البَيْتِ كما تَتَبَوَّأُ العنكبوتُ بيتًا، قال: فكَشَفَتْ عن أحجارٍ لا يُطِيقُ الحجرَ إلَّا ثلاثون رجلًا. قلتُ: يا أَبَا محمَّد، فإنَّ الله يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال: كانَ ذلكَ بَعْدُ[1].

وقال السُّدِّي: إن الله ﷻ أَمَرَ إبراهيم أن يَبْنِيَ البيت هو وإسماعيل: ابْنِيَا بيتيَ للطَّائِفين والعَاكِفِين والرُّكَّع السُّجود، فانطلق إبراهيم ﷺ حتىٰ أَتىٰ مكَّة، فقام هو وإسماعيل، وأخَذَا المَعَاوِلَ لا يَدْرِيَان أَيْن البيت؟ فبعث الله ريحًا، يُقَال لها: رِيحُ الخُجُوج، لها جناحان ورَأْس في صورة حيَّة، فكشفت لهما ما حَول الكعبةِ عَن أساس البَيْت الأَوَّل، واتَّبَعَاها بالمَعَاوِل يحفران حتىٰ وضعا الأساس. فذلك حين يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ[2] مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] فلمَّا بَنَيَا القواعد فبَلَغَا مكان الرُّكن. قال إبراهيم لإسماعيل: يا بُنَيَّ، اطلب لي حجرًا حسنًا أَضَعُه هاهنا. قال: يا أَبَتِ، إنِّي كَسْلَان لَغِب[3]. قال: عَلَيَّ بِذَلِك فانطلق.

[فطلب له حجرًا، فجاءه بحجرٍ فَلَم يَرْضَهْ، فقال: ائْتِنِي بحجرٍ أحسنَ مِن هذا، فانْطَلَق][4] يطلب له حجرًا، وجاءه جبريل بالحجرِ الأَسْوَدِ من الهند، وكانَ أبيضَ، يَاقُوتَةً بيضاءَ مثل الثَّغَامة[5]، وكان آدمُ هَبَطَ به من الجنَّة فاسْوَدَّ مِن خطايا النَّاس، فجاءه إسماعيل بحَجَرٍ فوجدَهُ عند الرُّكْنِ، فقال: يا أَبَهْ، مَن جاءك بهذَا؟ قال: جاء به مَن هو أَنْشَطُ مِنْكَ. فبَنَيَا وهما يَدْعُوَان الكلمات التي ابتلىٰ بهنَّ إبراهيمَ ربُّه فقال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وفي هذا السِّياق ما يدلُّ علىٰ أنَّ قواعد البيت كانت مَبْنِيَّةً قبل إبراهيم. وإنَّما هُدِي إبراهيمُ إليها وبُوِّئ لها. وقد ذهب إلىٰ ذلك ذاهبون، كما قال الإمام عبد الرزاق أخبرنا معمر، عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال: القواعد التي كانت قواعد البَيْتِ قبل ذلك[6].

وقال عبد الرزَّاق أيضًا: أخبرنا هشام بن حسَّان، عن سوار -خَتَن عطاء- عن عطاء بن أبي رباح، قال: لما أَهْبَط اللهُ آدمَ من الجنَّة، كانت رجلاه في الأرض ورأسُه في السَّماء يَسْمَع كلام أهل السَّماء ودعاءهم، يَأْنَس إليهم، فهابته الملائكة، حتىٰ شكت إلىٰ الله في دعائها وفي صلاتها. فخَفَضَه الله إلىٰ الأرض، فلمَّا فَقَدَ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٣٣٦)، ورجاله ثقات، لكنه لم يرفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وهو من الإسرائيليات.
(٢) لوحة (١٥٣ ب).
(٣) اللغب: التعب والإعياء.
(٤) زيادة من الطبري.
(٥) الثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر.
(٦) صحيح: رواه عبد الرزاق في «تفسيره» كما ذكر الحافظ.

ما كان يَسْمَع منهم اسْتَوْحَشَ حتىٰ شكا ذلك إلىٰ الله في دعائه وفي صلاته. فوُجِّهَ إلىٰ مكّة، فكان موضع قَدَمه قريةً، وخَطوُه مفازَةً، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ مكّة، وأنزل الله ياقوتةً من ياقوت الجنة، فكانت علىٰ موضع البيت الآن. فلم يَزَلْ يَطُوفُ به حتّىٰ أنزل الله الطُّوفان، فرُفِعَت تلك الياقوتة، حتىٰ بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه. وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦](١).

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، قال: قال آدمُ: إنِّي لا أسمع أصوات المَلائِكَة؟! قال: بِخَطِيئَتِك، ولكن اهبط إلىٰ الأرض، فابْنِ لي بيتًا ثم احْفُفْ بِهِ، كما رأيت الملائكة تحفُّ ببيتي الذي في السَّماء. فيَزْعُمُ النَّاس أنّه بناه مِن خمسة أَجْبُلٍ: من حِرَاء [ومن لبنان،](٢). وطُور زَيْتًا، وطُور سَيْناء، والجُودِيِّ. وكان رَبَضُه من حِرَاء. فكان هذا بناء آدم، حتىٰ بناه إبراهيم عليه السلام بعد(٣).

وهذا صحيح إلىٰ عطاء، ولكن في بعضه نكارَة، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق أيضًا: أخبرنا معمر، عن قتادة، قال(٤): وضع الله البيت مع آدم، [حين](٥) أَهْبَطَ الله آدمَ إلىٰ الأرض، وكان مَهْبِطُه بأرضِ الهِنْدِ. وكان رأسُهُ في السَّماء ورجلاه في الأَرْض، فكانت الملائكةُ تَهَابُه، فنُقِّص إلىٰ سِتِّين ذِرَاعًا؛ فحَزِنَ آدم إِذْ فَقَدَ أَصْوَات الملائكة وتَسْبِيحَهُم. فشكا ذلك إلىٰ الله عز وجل فقال الله: يا آدم، إنِّي قد أَهْبَطْتُ لك بيتًا تطوف به كما يُطَاف حولَ عَرْشِي، وتصلِّي عنده كما يُصَلَّىٰ عند عَرْشِي، فانطلق إليه آدمُ، فخرج ومُدَّ له في خَطْوِه، فكان بين كُلِّ خطوتين مفازَةٌ. فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك. فأتىٰ آدمُ البيتَ فطاف به، ومَن بعده مِن الأنبياء(٦).

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا يعقوب القُمِّي، عن حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: وضع اللهُ البيتَ علىٰ أركان المَاءِ، علىٰ أربعةِ أركانٍ، قبل أن تُخْلَق الدُّنيا بأَلْفَيْ عام، ثم دُحِيَت الأرضُ مِن تحت البَيْتِ(٧).

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد وغيره مِن أهل العِلْمِ: أنَّ الله لما بَوَّأ إبراهيمَ مكانَ البيت خرج إليه مِن الشَّام، وخرج معه بإسماعيل وبأُمِّهِ هاجر، وإسماعيل طِفْلٌ صغيرٌ يَرْضَع، وحُمِلُوا -فيما حدَّثني- علىٰ البُرَاق، ومعه جبريل يَدُلُّه علىٰ موضعِ البَيْتِ ومعالم الحَرَم.

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٥٤٧) وعلته الإرسال.

(٢) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المصنف» لعبد الرزاق.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٥٤٦) وعلته الإرسال.

(٤) لوحة (١٥٤ أ).

(٥) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في الطبري وعبد الرزاق في «تفسيره».

(٦) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٥٤٧) وعلته الإرسال.

(٧) ضعيف: رواه الطبري (١/ ٥٤٨)، وفيه ابن حميد ضعيف.

وخرج معه جِبْرِيل، فكان لا يَمُرُّ بقريةٍ إلا قال: أبهذِهِ أُمِرْتُ يا جبريل؟ فيقول جبريل: امْضِه. حتىٰ قَدِم به مكة، وهي إِذ ذاك عضَاة سَلَم وَسَمُر، وبها أُناس يُقال لهم: «العَمَالِيق» خارج مكة وما حولها. والبيتُ يومئذٍ ربوةٌ حمراء مَدِرَة، فقال إبراهيم لجبريل: أَهَاهُنا أُمِرْتُ أَن أَضَعَهما؟ قال: نعم. فعمد بهما إلىٰ موضعِ الحَجَر فأنزلهما فيه، وأمر هاجَرَ أمَّ إسماعيل أن تتَّخِذ فيه عَرِيشًا، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧][(١)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا هشام بن حَسَّان، أخبرني حُمَيد، عن مجاهد، قال: خلق الله موضعَ هذا البيت قبلَ أن يَخلُق شيئًا بألْفَيْ سنةٍ، وأركانه في الأرض السَّابعة.

وكذا قال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: القواعدُ في الأرض السَّابعة[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عَمْرو بن رافع، أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية، عن عبد المؤمن ابن خالد، عن علياء بن أحمر: أنَّ ذا القَرْنَيْن قَدِمَ مكَّة فوجد إبراهيمَ وإسماعيلَ يَبْنِيَان قواعدَ البَيت مِن خمسة أَجْبُل. فقال: ما لَكُما وَلِأَرْضِي؟ فقال: نَحْنُ عبدان مَأْمُورَان، أُمِرْنَا ببناء هذه الكعبة. قال: فهَاتا بالبَيِّنَةِ علىٰ ما تَدَّعِيَان. فقامت خمسة أكبش، فقلن: نحن نَشْهَدُ أنَّ إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران[(٣)]، أُمِرَا ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رَضِيتُ وسَلَّمْتُ. ثم مضىٰ[(٤)].

وذَكَرَ الأَزْرَقي في تاريخ مكة: أنَّ ذا القرنين طاف مع إبراهيم عليه السلام بالبَيْتِ[(٥)]، وهذا يدلُّ علىٰ تقدُّم زمانه، والله أعلم.

وقال البخاري رحمه الله: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ الآية: القواعد: أساسه واحدها: قاعدة. والقواعد من النِّساء: واحدتها قاعدٌ.

حدَّثنا إسماعيل، حدَّثني مالك، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله: أنَّ عبد الله بن محمَّد بن أبي بكر أَخبَرَ عبد الله بن عُمَر، عن عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوا البَيْتَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟»** فقلت: يا رسول الله، ألا تَرُدُّها علىٰ قواعد إبراهيم؟ قال: **«لَوْلَا**

---

(١) إسناده ضعيف: لأنه عن مجاهد وهو تابعي فالإسناد مرسل.

(٢) إسناده ضعيف: رواه الطبري (١/ ٤٤٩) وعلته الإرسال.

(٣) لوحة (١٥٤ ب).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٢٣٨)، وإسناده ضعيف مرسل.

(٥) ضعيف: أخبار مكة للأزرقي (١/ ٥٠) وإسناده معضل، ورواه الفاكهي في أخبار مكة (٨٣٦) من حديث ابن عبَّاس، وفيه الفضل بن عطية ضعفه الفلاس وابن عدي، وقال أبو زرعة: لا بأس به. (ميزان الاعتدال (٥/ ٤٣٠)، قلت: وهذا الأثر لا يؤخذ به؛ لأنه من رواية ابن عبَّاس وهو ممن قد أخذ من كتب بني إسرائيل.

حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ». فقال عبد الله بن عمر: لَئِن كانت عائشة سَمعت هذا مِن رسول الله ﷺ ما أرىٰ رسُولَ الله ﷺ تَرَك استلام الرُّكنين اللَّذين يَليان الحِجْرَ إلا أنَّ البيت لم يُتَمَّم علىٰ قواعد إبراهيم ش[1].

وقد رواه في الحجِّ عن القَعْنَبي، وفي أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن يوسف. ومسلم عن يحيىٰ بن يحيىٰ، ومن حديث ابن وهب. والنسائي من حديث عبد الرحمن بن القاسم، كلهم عن مالك به.

ورواه مسلم أيضًا من حديث نافع، قال: سمعت عبد الله بن محمَّد بن أبي بكر بن أبي قُحَافة يُحَدِّث عبدَ الله بن عُمَر، عن عائشة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ** -أَوْ قَالَ: **بِكُفْرٍ- لَأَنفَقْتُ كَنْزَ الكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا الحِجْرَ**»[2].

وقال البخاري: حدَّثنا عُبَيد الله بن موسىٰ، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود، قال: قال لي ابنُ الزبير: كانت عائشة تُسِرُّ إليك حديثًا كثيرًا، فما حدَّثَتْك في الكعبة؟ قال قلتُ: قالت لي: قال النَّبيّ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْلا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ** - فقال ابن الزبير: بِكُفْرٍ- **لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ، فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا يَدْخُلُ مِنْهُ النَّاسُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ**». ففعله ابن الزبير[3].

انفرد بإخراجه البخاري، فرواه هكذا في كتاب العلم مِن «صحيحه».

وقال مسلم في «صحيحه»: حدَّثنا يحيىٰ بن يحيىٰ، أخبرنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لَوْلا حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ وَلَجَعَلْتُهَا عَلَىٰ أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ قُرَيْشًا حِينَ**[4] **بَنَتِ البَيْتَ اسْتَقْصَرَتْ**[5]**، وَلَجَعَلْتُ لَهَا خَلْفًا**».

قال: وحدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كُرَيب، قالا: حدَّثنا ابن نُمَير، عن هشام بهذا الإسناد. انفرد به مسلم.

قال: وحدَّثني محمَّد بن حاتم، حدَّثني ابن مهدي، حدَّثنا سليم بن حَيَّان، عن سعيد -يعني ابن ميناء- قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثتني خالتي -يعني عائشة ﭬ- قالت: قال النَّبيُّ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْلا قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِشِرْكٍ، لَهَدَمْتُ الكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالأَرْضِ، وَلَجَعَلْتُ لَهَا [بَابَيْنِ]**[6]**: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الحِجْرِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ**

---

(١) البخاري (١٢٦) (١٥٨٣) (٣٣٦٨) (٤٤٨٤)، ومسلم (١٣٣٣)، والنسائي (٥/ ٢١٤)، وأحمد (٦/ ١١٣، ٢٥٣، ٢٦٢)، والترمذي (٨٧٥)، وابن ماجة (٢٩٥٥).

(٢) مسلم (١٣٣٣).

(٣) البخاري (١٢٦).

(٤) لوحة (١٥٥ أ).

(٥) يعني: اقتصرت علىٰ هذا القدر في البناء لقصور النفقة عن تمامه، ولجعلت لها خلفًا؛ أي: بابًا من خلفها.

(٦) زيادة من «مسلم».

الكَعْبَةَ» انفرد به أيضًا(١).

ذِكْرُ بناءِ قريش الكعبةَ بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمُدةٍ طويلةٍ وقبل مَبْعَث رسول الله ﷺ بخمسِ سِنِين، وقد نَقَل معهُم في الحِجَارة، وله مِن العُمُر خمسٌ وثَلَاثُون سنةً صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلىٰ يوم الدِّين:

قال محمَّد بن إسحاق بن يسار، في «السيرة»(٢): ولما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وثلاثين سنةً، اجتمعت(٣) قريش لبُنْيَانِ الكعبة، وكانوا يَهُمُّون بذلك ليُسَقِّفُوها، ويَهَابُون هَدْمها، وإنَّما كانت رَضْمًا(٤) فوق القَامَةِ، فأرادوا رفعها وتَسْقِيفَهَا، وذلك أنَّ نَفَرًا سَرَقُوا كنز الكعبة، وإنَّما كان يكون في بئرٍ في جَوْف الكعبة، وكان الذي وُجِد عنده الكَنز دُوَيْك -مولىٰ بني مُلَيح بن عمرو من خزاعة- فقَطَعَتْ قريشُ يدَهُ. ويزعمُ النَّاس أنَّ الذين سَرَقُوه وَضَعُوه عِند دُوَيْك. وكان البحر قد رَمَىٰ بسفينةٍ إلىٰ جُدَّة، لرَجُلٍ مِن تُجَّار الروم، فتحطَّمت، فأخذوا خَشَبَهَا فأعدُّوه لتَسْقِيفِها. وكان بمكَّة رجلٌ قِبْطِيٌّ نجَّارٌ، فهَيَّأَ لهم في أنْفُسِهم بعضَ ما يُصْلِحُهَا، وكانت حيَّةٌ تخرج مِن بئر الكعبة التي كانت تَطْرَحُ فيها ما يُهْدَىٰ لها كلَّ يوم، فتَتَشَرَّق(٥) علىٰ جدار الكعبة، وكانت ممَّا يَهَابُون. وذلك أنَّه كان لا يدنو منها أحدٌ إلا احْزَأَلَّت وكَشَّتْ(٦) وفتحَتْ فَاهَا، فكانوا يَهَابُونَها، فبَيْنَا هي يومًا تَتَشَرَّق علىٰ جدار الكعبة، كما كانت تصنعُ، بعث الله إليها طائرًا فاخْتَطَفَهَا، فذهب بها. فقالت قريش: إنَّا لنرجو أَن يكون الله قد رَضِي ما أَرَدْنَا، عندنا عامل رَفيق، وعندنا خَشَبٌ، وقد كفانا الله الحيَّة.

فلمَّا أجمعوا أمرهم في هَدْمِهَا وبُنْيَانِهَا، قام أبو وهب(٧) بن عَمْرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول(٨) من الكعبة حجرًا، فوثب من يده حتىٰ رجع إلىٰ موضعه. فقال: يا مَعْشَر قريش، لا تُدخِلُوا في بنيانها مِن كَسْبِكُم إلا طَيِّبًا، لا يدخل فيها مَهْرُ بَغِيٍّ ولا بَيْعُ ربًا، ولا مَظْلَمَة أحد من الناس.

قال ابن إسحاق: والناس يَنْحِلُون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مَخزُوم.

قال: ثمَّ إنَّ قريشًا تَجَزَّأت الكعبة، فكان شِقُّ الباب لبَنِي عبد منافٍ وزُهْرَة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائلَ مِن قريشٍ انضمُّوا إليهم، وكان ظَهْرُ الكعبة لِبَنِي جُمَح وسَهم، وكان شِقُّ الحجر لِبَنِي عبدِ الدَّار بن قُصي، ولِبَنِي أسد بن عبد العزىٰ بن قُصي، ولِبَنِي عدي بن

---

(١) مسلم (١٣٣٣).

(٢) رواه ابن هشام في «السيرة» (١/ ١٢٤) ولم يسنده.

(٣) في (ز): أجمعت.

(٤) الرضم: صخور بعضها علىٰ بعض.

(٥) أي: تبرز للشمس.

(٦) احزألت: ارتفعت واستوفرت للوثوب، وكشيش الأفعىٰ: صوت جلدها إذا تحركت، وليس صوت فمها، فإن ذلك فحيحها.

(٧) كتب بهامش الأصل: أبو وهب هذا خال والد النَّبيّ ﷺ، وكان شريفًا ممدحًا.

(٨) لوحة (١٥٥ ب).

كعب بن لؤي، وهو الحَطيم.

ثمَّ إنَّ النَّاس هابوا هَدْمها وفَرقُوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أَبْدَؤُكم في هَدْمها: فأخذ المعْولَ ثم قام عليها وهو يقول: اللَّهُمَّ لم تُرَعْ[(١)]، اللَّهمَّ إنَّا لا نريد إلا الخير. ثمَّ هدم مِن ناحية الرُّكنين، فتربَّص النَّاس تلك الليلة، وقالوا: نَنْظُر، فإن أُصِيب لم نَهْدِم منها شيئًا، ورَدَدْنَاها كما كانت، وإن لم يُصِبْه شيءٌ فقد رَضِيَ الله ما صنعنا. فأصبح الوليد مِن ليلته غاديًا علىٰ عَمَله، فهَدَمَ وهَدَمَ النَّاس معه، حتىٰ إذا انتهىٰ الهَدْمُ بهم إلىٰ الأساس، أساس إبراهيم ش أفضوا إلىٰ حجارةٍ خُضْرٍ كالأسنَّة[(٢)] آخِذٌ بعضها بعضًا.

قال محمَّد بن إسحاق: فحدَّثني بعض من يروي الحديث: أنَّ رجلًا من قريش، ممن كان يَهْدِمُها، أدخل عَتَلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرَّك الحجر تنقضت[(٣)] مكَّة بأَسْرِهَا، فانتهوا عن ذلك الأساس.

قال ابن إسحاق: ثمَّ إنَّ القبائل من قريشٍ جَمَعت الحجارة لِبنَائِهَا، كل قبيلةٍ تجمع علىٰ حِدَةٍ، ثم بَنَوْها، حتىٰ بلغ البنيان موضع الرُّكن -يعني الحجر الأسود- فاخْتَصَمُوا فيه، كل قبيلةٍ تُريد أن ترفعه إلىٰ موضعه دون الأخرىٰ، حتىٰ تحاوَزوا وتَحَالَفُوا[(٤)]، وأَعَدُّوا للقتال. فقَرَّبَتْ بنو عبد الدَّار جفنةً مملوءةً دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي علىٰ الموت، وأَدْخَلُوا أيديهم في ذلك الدَّمِ في تلك الجفنة، فسُمُّوا: لعَقَة الدم. فمكثت قريش علىٰ ذلك أربعَ ليالٍ أو خمسًا. ثم إنَّهم اجتمعوا في المسجد فتَشَاوَرُوا وتناصَفُوا.

فزعم بعض أهل الرِّواية: أن أبا أُمَيَّة بن المغيرة بن عبد الله[(٥)] بن عُمَر بن مخزوم -وكان عامئِذٍ أسنَّ قريش كلهم- قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أولُ مَن يدخل مِن باب هذا المسجد يَقضِي بينكم فيه. ففَعَلُوا، فكان أولُ داخلٍ رسول الله ﷺ. فلمَّا رَأَوْه قالوا: هذا الأمين رَضِينَا، هذا محمَّد، فلما انتهىٰ إليهم وأَخْبَرُوه الخبر، قال رسول الله ﷺ: «**هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا**» فأُتِيَ به، فأخذ الركن -يعني الحجر الأسود- فوضعه فيه بيده، ثم قال: «**لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ**»، ثم قال: «**ارْفَعُوهُ جَمِيعًا**». ففعلوا، حتَّىٰ إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ ثمَّ بَنَىٰ عليه.

---

(١) كلمة تقال لتسكين الروع؛ أي: لا روع في هذا الموطن، وورد في بعض الروايات: «اللهم لم نزغ» أي: لم نمل عن الحق والدِّين.

(٢) الأسنة: جمع سنان، شبهت بأسنة الرماح في الخضرة، ويروىٰ :كالأسنمة :جمع سنام، أعلىٰ ظهر الدابة، أراد أن الحجارة دخل بعضها في بعض كما تدخل عظام السنام بعضها في بعض.

(٣) أي: اهتزت.

(٤) كذا في (ح) و«ابن هشام»؛ أي: انحازت كل قبيلة إلىٰ جهةٍ وصاروا أحلافًا. وفي (ز): «**تحاربوا وتخالفوا**». وفي بعض المصادر: «**تحازبوا**» أو «**تحاوروا**».

(٥) لوحة (١٥٦ أ).

وكانت قريش تسمِّي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحيُ: الأمين. فلمَّا فرغوا من البُنْيان وبنوها علىٰ ما أَرَادُوا، قال الزُّبير بن عبد المطلب، فيما كان مِن أَمْرِ الحيَّة التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عَجِبْتُ لَمَا تَصَوَّبَتِ العُقَابُ ... إِلَىٰ الثُّعْبَانِ وَهْيَ لَهَا اضْطِرَابُ
وَقَدْ كَانَتْ يَكُونُ لَهَا كَشِيشٌ ... وَأَحْيَانًا يَكُونُ لَهَا وِثَابُ
إِذَا قُمْنَا إِلَىٰ التَّأْسِيسِ شَدَّتْ ... تُهَيِّبُنَا البِنَاءَ وَقَدْ تُهَابُ
فَلَمَّا أَنْ خَشِينَا الرِّجْزَ[١] جَاءَتْ ... عُقَابٌ تَتْلَئِبُّ[٢] لَهَا انْصِبَابُ
فَضَمَّتْهَا إِلَيْهَا ثُمَّ خَلَّتْ ... لَنَا البُنْيَانَ لَيْسَ لَهُ حِجَابُ
فَقُمْنَا حَاشِدِينَ إِلَىٰ بِنَاءٍ ... لَنَا مِنْهُ القَوَاعِدُ وَالتُّرَابُ
[غَدَاةَ نُرَفِّعُ التَّأْسِيسَ مِنْهُ ... وَلَيْسَ عَلَىٰ مُسَوِّينَا[٣] ثِيَابُ][٤]
أَعَزَّ بِهِ المَلِيكُ بَنِي لُؤَيٍّ ... فَلَيْسَ لِأَصْلِهِ مِنْهُمْ ذَهَابُ
وَقَدْ حَشَدَتْ هُنَاكَ بَنُو عَدِيٍّ ... وَمُرَّةُ قَدْ تَقَدَّمَهَا كِلَابُ
فَبَوَّأَنَا المَلِيكُ بِذَاكَ عِزًّا ... وَعِنْدَ اللهِ يُلْتَمَسُ الثَّوَابُ

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة علىٰ عهد النَّبِيِّ ﷺ ثمانيةَ عشر ذراعًا، وكانت تُكْسَىٰ القَبَاطِي، ثم كُسِيت بعدُ البُرود[٥]، وأوَّل مَن كساها الدِّيباج الحجَّاج بن يوسف.

قلت: ولم تَزَل علىٰ بناء قريشٍ حتىٰ أُحْرِقَتْ في أوَّل إمارة[٦] عبد الله بن الزُّبير بعد سنة ستين. وفي آخر ولاية يَزيدِ بن معاوية، لما حاصروا ابن الزُّبير، فحينئذٍ نقضَهَا ابن الزبير إلىٰ الأرض وبنَاهَا علىٰ قواعد إبراهيم عليه السلام وأدخل فيها الحِجْر وجعل لها بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا مُلْصَقَيْنِ بالأرض، كما سمع ذلك مِن خالته عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ. ولم تَزَلْ كذلك مُدَّة إمارتِهِ حتىٰ قتَلَه الحجَّاج، فردَّها إلىٰ ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوان له بذلك، كما قال مسلم بن الحجاج في «صحيحه»[٧]:

حدَّثنا هَنَّاد بن السَّري، حدَّثنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن أبي سليمان، عن عطاء، قال: لما احترق البيتُ زَمَنَ يَزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشَّام، وكان مِن أَمْرِهِ ما كان، تركه ابن الزبير حتَّىٰ قَدِم النَّاس

---

(١) يعني العذاب: ويُروىٰ: الزجر، وهو المنع.
(٢) أي: تتابع في انقضاضها.
(٣) قال ابن هشام: ويُروىٰ: وليس علىٰ مَسَاوينا ثيابُ.
(٤) سقط من (ح).
(٥) القباطي: ثياب بيض كانت تصنع في مصر، وهي جمع قبطية بضم القاف وكسرها-، والبرود :ثياب يمانية.
(٦) لوحة (١٥٦ ب).
(٧) رواه مسلم (١٣٣٣) كتاب الحج، والنسائي (٦/ ٢١٨).

الموسمَ يُرِيدُ أن يُجَرِّئَهم -أو يُحَزِّبهم- علىٰ أهل الشَّام، فلمَّا صدَرَ النَّاس قال: يا أيُّها الناس، أَشِيرُوا عليَّ في الكعبة، أَنْقُضُهَا ثم أبني بناءها أو أصلح ما وَهَىٰ منها؟ قال ابن عبَّاس: فإني قد فَرِقَ[1][2] لي رَأْيٌ فيها، أَرَىٰ أن تُصْلِحَ ما وَهَىٰ منها، وتَدَعَ بيتًا أَسْلَمَ النَّاس عليه وأحجارًا أَسْلَم النَّاس عليها، وبُعِثَ عليها النَّبيُّ ﷺ. فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رَضِيَ حتىٰ يُجَدِّدَه، فَكَيْفَ بَيْتُ رَبِّكم ﷻ إنِّي مُسْتَخِيرٌ ربِّي ثلاثًا ثم عَازِمٌ علىٰ أمري. فلما مضت ثلاث أجمع رَأْيَه علىٰ أن يَنْقُضَهَا. فتَحَامَاها النَّاسُ أن يَنْزِل بأوَّل النَّاس يَصْعَد فيه أمْرٌ مِن السَّماء، حتىٰ صعده رجلٌ، فألقىٰ منه حجارةً، فلمَّا لم يَره النَّاس أصابه شيءٌ تَتَابعُوا، فنقضوه حتىٰ بلغوا به الأرض. فجعل ابن الزبير أَعْمِدَةً يَسْتِرُ عليها السُّتُور، حتىٰ ارتفع بناؤه. وقال ابن الزُّبير: إني سمعت عائشة ﵂ تقول: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّينِي عَلَىٰ بِنَائِهِ، لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الحِجْرِ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ، وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ**». قال: فأنَا أجد ما أُنْفِق، ولست أخاف النَّاس. قال: فزاد فيه خمسة أذرعٍ من الحِجْر، حتىٰ أبدىٰ له أُسًّا[3] نَظَر الناس إليه فبنىٰ عليه البناء. وكان طول الكَعْبَة[4] ثمانية عشر ذراعًا، فلمَّا زاد فيه اسْتَقْصَرَه فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل له بَابَيْن: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتِل ابنُ الزبير كتب الحجَّاج إلىٰ عبد الملك يخبره بذلك، ويُخْبِرُه أنَّ ابن الزبير قد وضع البناء علىٰ أُسٍّ نظر إليه العدول مِن أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنَّا لسنا مِن تَلْطِيخِ ابن الزبير في شيءٍ، أمَّا مَا زاده في طوله فأَقِرَّه. وأما مَا زاد فيه مِن الحِجْر فرُدَّه إلىٰ بنائه، وسُدَّ الباب الذي فتحه. فنقضه وأعاده إلىٰ بنائه[5].

وقد رواه النَّسائي في «سننه» عن هنَّاد، عن يحيىٰ بن أبي زائدة، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، عن ابن الزبير، عن عائشة بالمرفوع منه. ولم يذكر القصَّة[6].

وقد كانَت السُّنَّة إِقرارُ ما فعله عبد الله بن الزبير ﵄؛ لأنَّه هو الَّذي وَدَّه رسول الله ﷺ. ولكن خَشِيَ أن تُنْكِرَهُ قلوب بعض الناس لحداثَةِ عهدهم بالإسلام وقربِ عهدهم من الكفر. ولكن خَفِيَت هذه السُّنةُ علىٰ عبد الملك؛ ولِهَذا لما تَحَقَّق ذلك عن عائشة أنَّها رَوَتْ ذلك عن رسول الله ﷺ قال: وَدِدْنَا أنَّا تركناه وما تولىٰ.

كما قال مسلم: حدَّثني محمَّد بن حاتم، حدَّثنا محمَّد بن بكر، أخبرنا ابن جُرَيج، سمعت عبد الله ابن عُبَيد بن عمير والوليد بن عطاء، يحدِّثان عن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، قال عبد الله بن عبيد:

---

(١) في الأصول: «خرق»، والمثبت من «مسلم». (٢) أي: كُشف وبين.

(٣) القاعدة أصل الأس، والأس هو أصل البناء، وأسس بنيانه جعل له أسًّا، وهو قاعدته التي يبتني عليها، وراجع «لسان العرب» (٦/ ٦).

(٤) لوحة (١٥٧ أ). (٥) مسلم (١٣٣٣). (٦) النسائي (٥/ ٢١٦).

وَفَدَ الحارث بن عبد الله علىٰ عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أَظُنُّ أبا خُبَيبٍ - يعني ابن الزبير- سمع مِن عائشة ﵂ ما كان يزعم أنَّه سمعه منها. قال الحارث: بلىٰ، أَنَا سمعته منها. قال: سَمِعْتُهَا تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ قَوْمَكِ اسْتَقْصَرُوا مِنَ بُنْيَانِ البَيْتِ، وَلَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِالشِّرْكِ أَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ، فَإِنْ بَدَا لِقَوْمِكِ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمِّي لِأُرِيَكِ مَا تَرَكُوا مِنْهُ**». فأراها قريبًا مِن سبعة أذرع.

هذا حديث عبد الله بن عُبيد. وزاد عليه الوليد بن عطاء: قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الأَرْضِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا، وَهَلْ تَدْرِينَ لِمَ كَانَ قَوْمُكِ رَفَعُوا بَابَهَا؟**» قالت: قلت: لا. قال: «**تَعَزُّزًا أَلَّا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا. فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا، يَدَعُونَهُ حِينَ يَرْتَقِي، حَتَّىٰ إِذَا كَادَ**[(١)] **أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ**» قال عبد الملك: فقلت للحارث: أَنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم. قال: فنكتَ ساعةً بعصاه، ثم قال: وَدِدْتُ أَنِّي تركت وما تَحَمَّلَ[(٢)].

قال مسلم: وحدَّثناه محمَّد بن عمرو بن جبلة، حدَّثنا أبو عاصم(ح) وحدَّثنا عَبْدُ بن حُمَيْد، أخبرنا عبد الرزاق، كلاهما عن ابن جُرَيج بهذا الإسناد، مثلَ حديث ابن بكر.

قال: وحدَّثني محمَّد بن حاتم، حدَّثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدَّثنا حاتم بن أبي صَغيرة، عن أبي قَزَعَة أَنَّ عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتَلَ الله ابن الزبير حيث يكذب علىٰ أمِّ المؤمنين، يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ لَنَقَضْتُ البَيْتَ حَتَّىٰ أَزِيدَ فِيهَا مِنَ الحِجْرِ، فَإِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرُوا فِي البِنَاءِ**». فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فأَنَا سمعتُ أمَّ المؤمنين تُحَدِّث هذا. قال: لو كنتُ سمعته قبل أَن أَهْدِمَه لتركته علىٰ ما بنىٰ ابن الزُّبير.

فهذا الحديثُ كالمقطوع به إلىٰ عائشةَ أم المؤمنين؛ لأنَّه قد رُوي عنها مِن طُرُقٍ صحيحةٍ متعدِّدةٍ عن الأسود بن يزيد، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن محمَّد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير. فدلَّ هذا علىٰ صوابِ ما فعله ابن الزبير. فلو تُرِكَ لكان جيِّدًا.

ولكن بعد ما رجع الأمر إلىٰ هذا الحال، فقد كَرِه [بعضُ][(٣)] العلماء أَن يُغَيَّر عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد -أو أبيه المهدي- أَنَّه سَأَلَ الإمامَ مالكًا عَن هَدْمِ الكعبة ورَدِّها إلىٰ ما فعله ابن الزبير. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبةَ الله مَلْعَبَةً للمُلُوك، لا يشاء أحدٌ أن يهدمها إلا هدمها. فتَرَكَ ذلك الرَّشيد.

---

(١) لوحة (١٥٧ ب). (٢) مسلم (١٣٣٣). (٣) زيادة من (ح).

نقله عياض والنَّووي، ولا تزال -والله أعلم- هكذا إلىٰ آخرِ الزَّمان، إلىٰ أن يُخرِّبَها ذو السُّوَيْقَتَيْن من الحبشة، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ**». أخرجاه[(١)].

وعن عبد الله بن عبَّاس ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ**[(٢)]**، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا**». رواه البخاري[(٣)].

وقال الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»: حدَّثنا أحمد بن عبد الملك الحَرَّاني، حدَّثنا محمَّد بن سلمة، عن ابن إسحاق[(٤)]، عن بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ، قَالَ: وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أُصَيْلِعَ أُفَيْدِعَ يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمِعْوَلِهِ**»[(٥)].

الفَدَع: زيغ بين القدم وعظم الساق.

وهذا -والله أعلم- إنَّما يكون بعدَ خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد الخدري ا قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيُحَجَّنَّ البَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ**»[(٦)].

وقوله تعالىٰ حكايةً لدعاءِ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قال ابن جرير: يَعْنِيَان بذلك، واجعلنا مُسْتَسْلِمَيْن لِأَمْرِكَ، خَاضِعَيْنِ لِطَاعَتِكَ، لا نشرك معك في الطَّاعة أحدًا سواكَ، ولا في العبادة غيرك.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا إسماعيل بن رجاء بن حيان الحِصْني القرشي، حدَّثنا معقل ابن عبيد الله، عن عبد الكريم: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قال: مُخْلِصَيْن لك، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ قال: مُخْلِصَةً.

وقال أيضًا: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا المقدمي، حدَّثنا سعيد بن عامر، عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قال: كَانَا مُسْلِمَيْن، ولكنهما سألاه الثَّبات.

وقال عكرمة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قال الله: قد فعلت. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ قال الله: قد فعلت.

---

(١) البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩)، والنسائي (٥/ ٢١٦)، وأحمد (٢/ ٣١٠، ٤١٧) من حديث أبي هريرة، ورواه أحمد (٢/ ٢٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو، وله شاهد أيضًا من حديث ابن عبَّاس: رواه البخاري (١٥٩٥).

(٢) الفحج: تباعد ما بين الفخذين.

(٣) البخاري (١٥٩٥).

(٤) لوحة (١٥٨ أ).

(٥) رواه أحمد (٢/ ٢٢٠) وانظر التعليقات السابقة.

(٦) البخاري (١٥٩٣)، وأبو يعلي (١٠٣٠)، وأحمد (٣/ ٢٧، ٤٨، ٦٤).

وقال السُّدِّي: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يعْنِيَان: العرب.

قال ابن جرير: والصَّواب: أنَّه يعمُّ العرب وغيرهم؛ لأنَّ مِن ذُرِّيَّة إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قلت: وهذا الذي قاله ابن جرير لا يَنْفِيه السُّدِّي؛ فإنَّ تَخْصِيصَهُم بذلك لا يَنْفِي مَن عَدَاهُم، والسِّياق إنَّما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية، والمراد بذلك: محمَّدٌ ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] ومع هذا لا يَنْفِي رسالتَه إلىٰ الأحمر والأسود؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا [(١)] ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلَّة القَاطِعَة.

وهذا الدُّعاء مِن إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- كما أخبر الله تعالىٰ عَن عباده المتَّقين المؤمنين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. وهذا القَدْر مرغوبٌ فيه شرعًا، فإن مِن تمام محبة عبادة الله تعالىٰ أَن يُحِبَّ أن يكون مِن صُلْبِه مَن يَعْبُدُ الله وحده لا شَرِيك له؛ ولهذا لما قال الله تعالىٰ لإبراهيم ﵇: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وهو قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقد ثبت في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة ا عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[(٢)].

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قال ابن جُريج، عن عطاء ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أخرجها لنا، عَلِّمْنَاها.

وقال مجاهد ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ مَذَابِحَنا. ورُوي عن عطاء أيضًا، وقتادة نحو ذلك.

وقال سعيد بن منصور: حدَّثنا عتاب بن بشير، عن خُصيف، عن مجاهد، قال: قال إبراهيم: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فأتاه جبرائيل، فأتىٰ به البيت، فقال: ارفع القواعد. فرَفَع القواعد وأَتمَّ البُنْيَان، ثمَّ أخذ بِيَدِهِ فأخرجه فانطلق به إلىٰ الصَّفا، قال: هذا مِن شعائر الله. ثمَّ انطَلَق بِهِ إلىٰ المَرْوَةِ، فقال: وهذا مِن شعائر الله؟ ثمَّ انطلق به نَحْوَ مِنًىٰ، فلمَّا كان مِن العقبة إذَا إبليس قائمٌ عِنْدَ الشَّجرة، فقال: كَبِّر وارْمِهِ. فكبَّر ورَمَاهُ. ثمَّ انطلق إبليسُ فقام عند الجمرة الوسطىٰ، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كَبِّر وارْمِهِ. فكبَّر ورَمَاه. فذهب إبليس وكان الخبيثُ أراد أن يُدْخِل في الحجِّ شيئًا فلَمْ يَسْتَطِع، فأَخَذَ بيدِ إبراهيم حتىٰ أتىٰ بِهِ المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام. فأخذ بِيَدِ إبراهيم حتَّىٰ أتىٰ به عرفات. قال: قَد عَرَفْتَ مَا أَرَيْتُكَ؟ قالها: ثلاث مرارٍ. قال: نعم[(٣)].

---

(١) لوحة (١٥٨ ب).

(٢) مسلم (١٦٣١)، وأحمد (٢/ ٣١٦)، وابن حبان (٣٠١٦).

(٣) ضعيف جدًّا: رواه سعيد بن منصور (٢٢٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٣٥) وفيه خصيف بن عبد الرحمن، قال =

ورُوِي عن أبي مِجْلز وقتادة نحو ذلك. وقال أبو داود الطَّيَالِسِيّ: حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، عن أبي العاصم الغنوي، عن أبي الطفيل، عن ابن عبَّاس، قال: إنَّ إبراهيم لما أُرِيَ أوامر المناسك، عرَضَ له الشَّيطَان[1] عند المسعىٰ، فسابقه إبراهيم، ثمَّ انطَلَقَ به جبريل حتَّىٰ أَتَىٰ به[2] منًىٰ، فقال: مُنَاخُ النَّاس هذا. فلمَّا انتهىٰ إلىٰ جمرة العقبة تعرَّض له الشيطان، فرَمَاه بسَبْعِ حَصَيَات حتىٰ ذهب، ثم أتىٰ به جمرة الوسطىٰ، فعَرَضَ له الشَّيطان فرماه بسَبْعِ حَصَيَات، حتىٰ ذهب، ثم أتىٰ به جمرة القصوىٰ، فعرض له الشيطان، فرَمَاه بسبع حصيات حتىٰ ذَهَب، فأتىٰ به جَمْعًا. فقال: هذا المشعر. ثم أتىٰ به عرفة. فقال: هذه عرفة. فقال له جبريل: أَعَرَفْتَ؟[3].

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عَن تمام دعوة إبراهيمَ لِأَهْلِ الحرم أن يبعث الله فيهم رسولًا مِنْهُم؛ أي: مِن ذُرِّيَّة إبراهيم. وقَد وافقت هذه الدَّعْوة المستجابة قَدَرَ الله السَّابق في تَعْيين محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- رسولًا في الأُمِّيِّين إليهم، وإلىٰ سائر الأَعْجَمِيِّن من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدَّثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سُوَيد الكلبي، عن عبد الأعلىٰ بن هلال السلمي، عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي عِنْدَ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ، دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَىٰ بِي، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ**»[4].

= أحمد: ليس بحجة ولا قوي في الحديث، وقال في موضع آخر: ضعيف الحديث، وقال ابن معين: صالح. وقال في موضع آخر: ليس به بأس وفي موضع ثالث: ثقة. وقال أبو زرعة والعجلي: ثقة. وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وقال ابن عدي: إذا حدث عن خصيف ثقة فلا بأس بحديثه ولا بروايته إلا أن يروي عنه عبد العزيز بن عبد الرحمن البالسي، فإن روايته عنه بواطل. انظر: «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٥٧)، وقال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ خلط بأخره، والراوي عنه عتاب بن بشير، لا بأس به إلا في روايته عن خصيف فإنها منكرةٌ، وهذا منها، وقال الحافظ: صدوق يخطئ، وأيضًا: فمثل هذا يحتاج إلىٰ رفعه إلىٰ النَّبيّ ﷺ، ولكنه هكذا يرويه مجاهد دون أن يرفعه.

(١) لوحة (١٥٩ أ).

(٢) كذا في (ز) و«الطيالسي» و«تفسير ابن أبي حاتم»، وفي (ح): «حتىٰ أَرَاهُ» وهو الموافق لما في «الدر المنثور».

(٣) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٣٤- ٢٣٥) من طريق أبي داود الطيالسي (٢٦٩٧)، وفيه أبو عاصم الغنوي، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول؛ أي: عند المتابعة، وقال أبو حاتم: ولا أعرفه، لكن قال ابن معين: ثقة. راجع «تهذيب الكمال» (٣٤/ ٨).

(٤) **ضعيف**: رواه أحمد (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، والبزار (٢٣٦٥) «كشف»، وأبو نعيم (٦/ ٨٩)، والحاكم (٢/ ٦٠٠) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: علته سعيد بن سويد الكلبي، قال أبو حاتم: صدوق وكان يدلس يكثر في ذلك. وأما الرواية الثانية التي ذكرها ابن كثير وهي رواية أحمد والبزار وأبي نعيم والحاكم: فهي من طريق سويد أيضًا.

=

وكذلك رواه ابن وهب، واللَّيث، وكاتبه عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، وتابعه أبو بكر بن أبي مريم، عن سعيد بن سُويَد به.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو النضر، حدَّثنا الفرج، حدَّثنا لقمان بن عامر: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أول بَدْء أمرك؟ قال: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ بِي، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»(١).

والمراد أنَّ أوَّل من نوَّه بذكره وشَهَرَه في النَّاس، إبراهيم الخليل ﷺ لَمْ يَزَلْ ذكره في النَّاس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتىٰ أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نَسَبًا، وهو عيسىٰ ابن مريم ﷺ حيثُ قام في بني إسرائيل خطيبًا، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦]؛ ولهذا قال في هذا الحديث: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ».

وقوله: «وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ» قيل: كان منامًا رَأَتْه حين حملت به، وقَصَّته علىٰ قومها فشاع فيهم واشتهر بَيْنَهم، وكان ذلك توطئةً(٢). وتخصيص الشَّام بظهور نوره إشارةٌ إلىٰ استقرار دِينِه وثبوتِهِ ببِلَادِ الشَّام، ولهذا تكون الشَّام في آخر الزَّمان معقلًا للإسلامِ وأَهْلِهِ، وبها يَنْزِلُ عيسىٰ ابن مريم إذا نَزَل بِدِمشْق بالمنارة الشَّرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في «الصحيحين»: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»(٣). وفي «صحيح البخاري»: «وَهُمْ بِالشَّامِ».

قال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يعني: أمة محمَّد ﷺ. فقيل له: قَدْ اسْتُجِيبَت لك، وهو كائن في آخر الزَّمان. وكذا قال السُّدِّي وقتادة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ يعني: السُّنَّة، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك وغيرهم. وقيل: الفَهْمُ في الدِّين. ولا منافاة.

﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ قال: يعلمهم الخير، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يعني طاعة الله، والإخلاص.

= تنبيه: ثبت الحديث صحيحًا بلفظ: «كتبت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد».
رواه أحمد (٥/ ٥٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤١٠) وإسناده صحيح، وله شواهد. انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٨٥٦).

(١) **صحيح لغيره**: رواه أحمد (٥/ ٢٦٢) بإسناد حسن، ورواه أحمد (٤/ ١٢٧) من حديث العرباض، وفي إسناده سعيد ابن سويد الكلبي: يدلس ويكثر من ذلك، ورواه ابن هشام (١/ ١٠٧) وفي إسناده انقطاع، لكن بمجموع الطرق يرقىٰ الحديث للصحة.

(٢) لوحة (١٥٩ ب).

(٣) البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة، ورواه البخاري (٧٤٦٠) من حديث معاذ، ورواه مسلم (١٥٦) من حديث جابر.

وقال محمَّد بن إسحاق ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ قال: يُعَلِّمُهم الخيرَ فيفعلُوه، والشّر فيتّقُوه، ويُخْبِرُهُم برضاه عنهم إذا أطاعوه واسْتكثَروا مِن طاعته، وتَجنَّبُوا ما سخط مِن مَعْصِيتِه.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: العزيز الذي لا يعجزه شيءٌ، وهو قادر علىٰ كلِّ شيءٍ، الحكيم في أفعالِهِ وأقْوالِهِ، فيَضَعُ الأشياء في محالها؛ لعلمِهِ وحكمتِهِ وعدلِهِ.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تبارك وتعالىٰ رَدًّا علىٰ الكفَّار فيما ابتدعوه وأحدثوه مِن الشِّرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنَّه جَرَّد توحيد ربِّه تبارك وتعالىٰ، فلم يَدْع معه غيره، ولا أَشْرَكَ به طرفة عين، وتبرأ مِن كلِّ معبودٍ سواه، وخالف في ذلك سائرَ قومه، حتىٰ تبرأ مِن أَبِيهِ، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ[(1)] مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ -١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن طَرِيقَتِهِ ومنهجه. فيخالفها ويَرْغَبُ عنها ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: ظَلَم نَفْسَهُ بِسَفَهِهِ وسوء تَدْبيرِهِ بتركه الحقَّ إلىٰ الضَّلال، حيث خالف طريق مَنِ اصْطُفِيَ في الدُّنيا للهِداية والرَّشاد، مِن حَداثة سنِّه إلىٰ أن اتَّخذه الله خليلًا وهو في الآخرة من الصَّالحين السُّعداء فترك طَرِيقَهُ هذا ومسلكه وملَّته واتَّبع طُرُقَ الضَّلالة والغي، فأيُّ سَفَهٍ أعظم مِن هذا؟ أم أيُّ ظُلْمٍ أكْبر مِن هذا؟ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود؛ أَحْدَثُوا طريقًا لَيْسَتْ مِن عند الله وخالفوا ملَّة إبراهيم فيما أخذوه، ويَشْهَدُ لصحَّة هذا القول قول الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أمرهُ الله بالإخلاص له

---

(١) لوحة (١٦٠ أ).

والاستسلام والانقياد له، فأجاب إلىٰ ذلك شرعًا وقدرًا.

وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ أي: وصىٰ بهذه الملّة وهي الإسلام لله أو يعود الضمير علىٰ الكلمة وهي قوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لحِرْصِهم عليها ومَحَبَّتِهم لها حافظوا عليها إلىٰ حين الوفاة ووَصُّوا أبناءهم بها مِن بعدهم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] وقد قرأ بعض السلف ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ بالنصب عطفًا علىٰ ﴿بَنِيهِ﴾، كأنَّ إبراهيم وصَّىٰ بَنِيهِ وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرًا ذلك، وقد ادَّعىٰ القشيري، فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنَّما وُلِدَ بعد وفاة إبراهيم، ويَحْتَاج مثل هذا إلىٰ دليلٍ صحيحٍ؛ والظَّاهر -والله أعلم- أنَّ إسحاق وُلِدَ له يعقوبُ في حياة الخليلِ وسارَّة؛ لأن البشارَة وقعت بهما في قوله: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقد قُرِئَ بنصب ﴿يَعۡقُوبَ﴾ هاهنا علىٰ نزع الخَافِضِ، فلو لَمْ يُوجَد يَعقوبُ في حيَاتِهِمَا لما كان لِذِكْرِهِ مِن بَيْنِ ذريَّة إسحاق كبير فائدة، وأيضًا فقد قال الله تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ٢٧] وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ﴾ [الأنبياء: ٧٢] وهذا يقتضي أنَّه وُجِدَ في حياته، وأيضًا فإنَّه بانِي بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكُتُب المتقدِّمة، وثبت في «الصحيحين» مِن حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، أيُّ مسجدٍ وُضِع أوَّل؟ قال: «**المَسْجِدُ الحَرَامُ**»، قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «**بَيْتُ المَقْدِسِ**». قلتُ: كَم بَيْنَهُما؟ قال: «**أَرْبَعُونَ سَنَةً**» الحديث[(١)]. فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنَّه باني بيت المقدس -وإنما كان جدَّده بعد خرابه وزَخْرَفَه- وبين إبراهيم أربعين سَنَةً، وهذا مما أنكر علىٰ ابن حبان، فإنَّ المدَّة بينهما تزيد علىٰ أُلُوفِ سِنِينَ، والله أعلم، وأيضًا فإنَّ ذكر وصيةِ يعقوب لِبَنِيهِ سيأتي ذكرها قريبًا، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّه هاهنا مِن جملةِ المُوصِينَ][(٢)].

وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: أَحْسِنُوا في حال الحياة والزموا هذا لِيَرْزُقَكُم اللهُ الوفاة عليه. فإنَّ المرء يمُوتُ غالبًا علىٰ ما كان عليه، ويُبْعَثُ علىٰ ما مات عليه. وقد أَجْرَىٰ الله الكريمُ عادتَهُ بأنَّ مَنْ قَصَدَ الخَيْرَ وُفِّقَ له ويُسِّر عليه. ومَن نَوَىٰ صالحًا ثَبَت عليه. وهذا لا يُعَارِضُ ما جاء، في الحديث [الصحيح][(٣)]: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**

---

(١) البخاري (٣٣٦٦) (٣٤٢٥)، ومسلم (٥٢٠)، وابن ماجة (٧٥٣)، والنسائي (٢/ ٣٢)، وأحمد (٥/ ١٥٠، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٦).

(٢) سقط من (ز).

(٣) زيادة من (ح).

حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»[١]؛ لأنَّه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ»[٢]. وقد قال الله تعالىٰ[٣]: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٤﴾

يقول تعالىٰ محتجًّا علىٰ المُشركِين مِن العَرب أبناء إسماعيل، وعلىٰ الكُفَّار مِن بني إسرائيل -وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام- بأنَّ يعقوب لما حَضَرَتْه الوفاة وصَّىٰ بَنِيهِ بعبادة الله وحده لا شَريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ وهذا مِن باب التَّغْلِيب؛ لأنَّ إسماعيل عمُّه.

[قال النَّحَّاس: والعرب تُسَمِّي العم أبًا، نقله القرطبي؛ وقد استدلَّ بهذه الآية مَن جعل الجَدَّ أبًا وحجب به الإِخْوَة، كما هو قول الصِّدِّيق -حكاه البخاري عنه مِن طَرِيق ابن عبَّاس وابن الزبير ﵃، ثمَّ قال البخاري: ولم يُخْتَلَف عليه، وإليه ذهبت عائشة أمُّ المؤمنين ﵂، وبه يقول الحسنُ البصري وطاوس وعطاء، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحدٍ مِن علماءِ السَّلف والخلف؛ وقال مالك والشَّافِعِيُّ وأحمدُ في المشهور عنه أنَّه يقاسم الإخوة؛ وحكىٰ مالك عن عُمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت ﵃ وجماعة مِن السَّلف والخلف، واختاره صاحبَا أبي حنيفة القاضي: أبو يوسف، ومحمَّد بن الحسن، ولتقريرها موضع آخر][٤].

وقوله: ﴿إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: نُوَحِّدُه بالأُلُوهِيَّة، ولا نُشْرِكُ به شيئًا غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبةً، وإن تنوَّعت شرائعهم واختلفت

---

(١) البخاري (٣٢٣٢) (٦٥٩٤) (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٠٨)، والترمذي (٢١٣٧)، وابن ماجة (٧٦) من حديث ابن مسعود.

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٨) (٦٤٩٣)، ومسلم (١١٢)، وأحمد (٥/ ٣٣١، ٣٣٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(٣) لوحة (١٦٠ ب).

(٤) سقط من (ز).

مناهجهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله ﷺ: «نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ[١] دِينُنَا وَاحِدٌ»[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: إنَّ السَّلف الماضين مِن آبائكم مِن الأنبياء والصَّالحين لا يَنفعُكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعهُ عليكم، فإنَّ لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقال أبو العالية، والرَّبيع، وقتادة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط [ولهذا جاء في الأثر: «مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[٣].][٤]

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، حدَّثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: قال عبد الله بن صُوريا الأعورُ لرسول الله ﷺ: مَا الهُدَىٰ إلا ما نحن عليه، فَاتَّبِعْنَا يا محمَّد تَهْتَدِ. وقالت النصارىٰ مثل ذلك. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾[٥].

وقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: لا نريد ما دعوتم إليه مِن اليهوديَّة والنصرانيَّة[٦]، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: مستقيمًا. قاله محمَّد بن كعب القرظي، وعيسىٰ بن جارية.

وقال خَصِيف عن مجاهد: مخلصًا. وروىٰ علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: حاجًا. وكذا روي عن الحسن والضَّحَّاك وعطية، والسُّدِّي.

وقال أبو العالية: الحنيفُ الَّذي يَسْتَقْبِل البيت بصلاتِهِ، ويَرَىٰ أنَّ حَجَّه عليه إن استطاع إليه سبيلًا.

وقال مجاهد، والربيع بن أنس: حنيفًا؛ أي: متبعًا. وقال أبو قلابة: الحَنِيفُ الذي يُؤْمِن بالرسل كلهم مِن أوَّلِهم إلىٰ آخرهم.

وقال قتادة: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تَحْرِيمُ الأمَّهات والبنات والخالات والعمَّات وما حرَّم الله ﷻ والختانُ.

---

(١) **أولاد العلات**: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد. أراد: عقائدهم واحدة وشرائعهم مختلفة.

(٢) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥)، وأحمد (٢/ ٣١٩).

(٣) مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي (٢٦٤٨).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) **ضعيف**: رواه ابن جرير الطبري (١/ ٥٦٤)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٤١/ ١٢٩٠)، وفيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول.

(٦) لوحة (١٦١ أ).

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ (١) لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

أرشد الله تعالىٰ عبادَه المُؤمنين إلىٰ الإيمان بما أُنْزل إليهم بواسطةِ رسوله محمَّد ﷺ مفصَّلًا وبما أنزل علىٰ الأنبياء المتقدِّمين مجملًا ونصَّ علىٰ أعيانٍ من الرُّسل، وأجمل ذكرَ بقيَّة الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحدٍ منهم، بل يُؤمنوا بهم كلِّهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وقال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا عثمان بن عُمَر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة ﷺ قال: كان أهل الكتاب يَقْرَؤُون التَّوراة بالعبْرانيَّة ويفسِّرونها بالعَرَبِيَّة لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ**»(٢).

وقد روىٰ مسلمٌ وأبو داود والنَّسائي من حديث عثمان بن حكيم، عن سعيد بن يَسار عن ابن عبَّاس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أكْثَرَ ما يصلِّي الرَّكعتين اللَّتين قبل الفجر بـ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية، والأخرىٰ بـ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢](٣). وقال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلًا؛ وَلَدَ كلُّ رجل(٤) منهم أُمَّةً مِن النَّاس، فسمُّوا الأسباط.

[وقال الخليلُ بن أحمد وغيره: الأَسبَاط في بني إسرائيل، كالقَبَائِل في بني إسماعيل؛ وقال الزَّمخشَرِي في «الكشَّاف»: الأسباط: حَفَدَة يعقوب ذَرَارِي أبنائه الاثنىٰ عشر، وقد نقله الرَّازي عنه،

---

(١) قال ابن عثيمين ﷺ: قد يسأل سائل: لِمَ عبر الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾، وفي موسىٰ وعيسىٰ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؛ فهل هناك حكمة في اختلاف التعبير؟

فالجواب: أن نقول بحسب ما يظهر لنا - والعلم عند الله: إن هناك حكمةً لفظيةً، وحكمةً معنويةً.

الحكمة اللفظية: لئلا تتكرر المعاني بلفظ واحد؛ لو قال: «ما أنزل إلينا وما أنزل إلىٰ إبراهيم وما أنزل إلىٰ موسىٰ... وما أنزل إلىٰ النبيين» تكررت أربع مرات؛ ومعلوم أن من أساليب البلاغة الاختصار في تكرار الألفاظ بقدر الإمكان.

أما الحكمة المعنوية: فلأن موسىٰ وعيسىٰ دينهما باقٍ إلىٰ زمن الوحي، وكان أتباعهما يفتخرون بما أوتوا من الآيات؛ فالنصارىٰ يقولون: عيسىٰ ابن مريم يُحيي الموتىٰ، ويفعل كذا، ويفعل كذا؛ وهؤلاء يقولون: إن موسىٰ فلق الله له البحر، وأنجاه، وأغرق عدوه، وما أشبه ذلك؛ فبين الله ﷻ في هذا أن هذه الأمة تؤمن بما أوتوا من وحي وآيات.

(٢) البخاري (٤٤٨٥)، والبيهقي (١٠/ ١٦٣).

(٣) مسلم (٧٢٧)، وأبو داود (١٢٥٩)، والنسائي (٢/ ١٥٥).

(٤) لوحة (١٦١ ب).

وقرَّره ولَمْ يُعَارِضْهُ. وقال البخاريُّ: الأسباط: قبائلُ بَنِي إسرَائِيل، وهذا يَقْتَضِي أنَّ المراد بالأَسْبَاط هاهُنَا شعوب بني إسرائيل، وما أَنْزَل الله تعالىٰ مِن الوحي علىٰ الأَنْبِيَاء الموجودين منهم، كما قال موسىٰ لهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وقال القرطبي: وسُمُّوا الأسباط مِن السِّبْطِ، وهو التَّتابع، فهم جماعة مُتَتَابِعُون. وقيل: أصله من السَّبَط، بالتَّحْرِيك، وهو الشَّجر؛ أي: هم في الكَثْرة بمنزلة الشَّجَر الوَاحِدَة سَبطَة. قال الزَّجَّاج: ويُبَيِّن لك هذا: ما حدَّثنا محمَّد بن جعفر الأنباري، حدَّثنا أبو نجيد الدَّقَّاق، حدَّثنا الأسود بن عَامِر، حدَّثنا إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنه، قال: كُلُّ الأنبياءِ مِن بني إسرائيل إلَّا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمَّد عليهم الصلاة والسلام[(١)]. قال القرطبي: والسَّبَط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلىٰ أصل واحدٍ][(٢)].

وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يُؤْمِنُوا به، ويُصَدِّقُوا بكُتُبِهِ كلِّها وبِرُسُلِهِ.

وقال سليمان بن حبيب: إنَّما أُمِرْنَا أن نُؤْمِنَ بالتَّوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما.

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا محمَّد بن محمَّد بن مُصْعب الصوري، حدَّثنا مُؤَمَّل، حدَّثنا عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن مَعْقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آمِنُوا بِالتَّوْرَاةِ وَالزَّبُورِ وَالإِنْجِيلِ وَلْيَسَعْكُمُ القُرْآنُ»[(٣)].

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ[(٤)] وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ أي: الكفار مِن أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أيُّها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورُسُلِهِ، ولم يُفَرِّقوا بين أحدٍ منهم ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾أي: فقد أصابوا الحقَّ، وأرشدوا إليه ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: عن الحق إلىٰ الباطل، بعد قيام الحُجَّة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾أي: فسَيَنْصُرُك عليهم ويُظْفِرُك بهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

---

(١) في إسناده: سماك عن عكرمة، وروايته عنه مضطربة، فالإسناد ضعيف، وإن كان ما ذكر في الأثر صحيحًا. والله أعلم.

(٢) ليست في (ز).

(٣) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٣/ ١٣٠١)، والبيهقي (١٠/ ٩)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٦٥)، وفيه عبيد الله بن أبي حميد، قال في «التقريب»: متروك الحديث.

(٤) قال البيضاوي رحمه الله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: أي صبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله تعالىٰ التي فطر الناس عليها، فإنها حِلية الإنسان كما أن الصبغة حلية المصبوغ، أو هدانا الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهَّر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسمَّاه صبغة لأنه ظهر أثرُهُ عليهم ظهور الصِّبْغ علىٰ المصبوغ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثواب، أو للمشاكلة، فإن النصارىٰ كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم.

ونصبها علىٰ أنه مصدر مؤكد لقوله: ﴿آمَنَّا﴾، وقيل: علىٰ الإغراء، وقيل: علىٰ البدل من ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾: لا صبغة أحسن من صبغته، ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾: تعريض بهم؛ أي: لا نشرك به كشركهم.

وقال ابن أبي حاتم: قرئ علىٰ يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وهب، حدَّثنا زياد بن يونس، حدَّثنا نافع بن أبي نُعَيم، قال: أَرْسَل إليَّ بعض الخلفاء مصحفَ عثمان بن عفان ليُصْلِحَه. قال زياد: فقلت له: إنَّ الناس يقولون: إنَّ مصحفه كان في حِجْرِهِ حين[1] قُتِل، فوقع الدَّم علىٰ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] فقال نافع: بَصُرت عَيْنِي بالدم علىٰ هذه الآية وقد قَدُم[3].

وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس ﷺ: دينَ الله، وكذا رُوِيَ عن مجاهد، وأبي العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، والسُّدِّي نحو ذلك.

[وانتصاب ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ إمَّا علىٰ الإغراء كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] أي: الزموا ذلك عَلَيْكُمُوه. وقال بعضهم: بَدَل من قوله: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ كقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦].][4].

وقد ورد في حديثٍ رواه ابن أبي حاتم وابن مَرْدوَيْه، مِن روايةِ أشعث بن إسحاق عن [جعفر بن أبي المغيرة عن][5] سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس ﷺ أنَّ نبيَّ الله قال: «**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: يَا مُوسَىٰ، هَلْ يَصْبُغُ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: اتَّقُوا اللهَ. فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا مُوسَىٰ، سَأَلُوكَ هَلْ يَصْبُغُ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: نَعَمْ، أَنَا أَصْبُغُ الْأَلْوَانَ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ، وَالْأَلْوَانُ كُلُّهَا مِنْ صَبْغِي**». وأنزل الله علىٰ نبيه ﷺ[6]: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[7].

كذا وقع في رواية ابن مَرْدوَيه مرفوعًا، وهو في روايةِ ابن أبي حاتم موقوف، وهو أشبه إن صحَّ إسناده، والله تبارك وتعالىٰ أعلم.

---

(١) في (ز): «حتىٰ».

(٢) **قال ابن عثيمين** رحمه الله: قد يقول قائل: يبدو لنا أن المناسب أن يقول: «**وهو القوي العزيز**» لأنه قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فما هو الجواب عن ختمها بالسمع، والعلم؟ فالظاهر لي - والله أعلم - أنه لما كان تدبير الكيد للرسول ﷺ من هؤلاء قد يكون بالأقوال، وقد يكون بالأفعال؛ والتدبير أمر خفي ليس هو حربًا يعلن حتىٰ نقول: ينبغي أن يقابل بقوة، وعزة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧﴾ أي: حتىٰ الأمور التي لا يُدرىٰ عنها، ولا يبرزونها، ولا يظهرون فيها الحرابة للرسول ﷺ فإن الله سميع عليم بها؛ هذا ما ظهر لي - والله أعلم -.

(٣) **صحيح**: رواه ابن أبي حاتم (١٣١٢)، ورجاله ثقات.

(٤) ليست في (ز).

(٥) ليست في الأصل، وزدناها من «**ابن أبي حاتم**» وغيره.

(٦) لوحة (١٦٢ أ).

(٧) عزاه السيوطي في «**الدر المنثور**» (١/ ٣٤٠) إلىٰ ابن مردويه، والضياء في «**المختارة**»، ولم أقف علىٰ إسناده، لكن رواه ابن أبي **حاتم** (١/ ٢٤٥/ ١٣١٤)، وأبو الشيخ في «**العظمة**» (١٣٨)، وأبو نعيم في «**الحلية**» (٤/ ٢٧٦)، وفي الإسناد جعفر بن أبي المغيرة، قال ابن منده: «**ليس بالقوي في سعيد بن جبير**». وبهذا يتبين ضعف الإسناد موقوفًا ومرفوعًا، فالله أعلم.

ولم يجزم ابن كثير بتصحيحه فقال: «**وهو أشبه -يعني: الموقوف- إنْ صحَّ إسناده**».

قلت: ويغلب علىٰ ظنِّي أنَّ هذا الخبر من الإسرائيليات.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

يقول الله تعالىٰ مُرْشِدًا نبيَّه -صلوات الله وسلامه عليه- إلىٰ دَرْءِ مُجادَلَةِ المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ أي: أَتُناظِرُونَنا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتِّباع أَوامِره وتَرْكِ زَواجِره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرِّف فِينا وفِيكُم، المستحقُّ لإخلاص الإلهيَّة له وحده لا شريك له! ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: نحن بُرَآءُ منكم، وأنتم بُرَآءُ منَّا، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠] وقال تعالىٰ إخبارًا عَن إبراهيم ﷺ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ الآية[البقرة: ٢٥٨].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي: نحن بُرَآءُ منكم كما أنتم بُرَآءُ منَّا، ونحن له مُخْلِصُون؛ أي: في العبادةِ والتَّوجُّه.

ثمَّ أنْكَر تعالىٰ عليهم، في دعواهم أنَّ إبراهِيمَ ومَن ذُكِرَ بعده منَ الأنبياء والأسباط كانوا علىٰ مِلَّتِهم، إمَّا اليهوديَّة وإمَّا النصرانيَّة فقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية والتي بعدها [آل عمران: ٦٨،٦٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إنَّ الدِّين عند الله الإسلامُ، وإن محمَّدًا رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا بُرَآءَ من اليهودية والنصرانيَّة، فشهِد الله بذلكَ(١)، وأقرُّوا به علىٰ أنفسِهِم لله، فكتمُوا شهادة الله عندهم من ذلك.

---

(١) لوحة (١٦٢ ب).

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فيه تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ؛ أي: أنَّ علمه مُحيطٌ بعملكم، وسَيَجْزِيكم عليه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡ﴾[(١)] أي: قد مَضتْ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وليس يُغْنِي عنكم انتسابكم إليهم، مِن غير متابعةٍ منكم لهم، ولا تَغترُّوا بمُجرَّد النِّسبة إليهم حتَّىٰ تكونوا مثلهم مُنْقَادِين لأوامر الله واتِّباع رسله، الذين بُعِثُوا مُبَشِّرين ومُنْذِرين، فإنَّه مَن كفر بنَبِيٍّ واحدٍ فقد كفر بسائر الرُّسل، ولا سيما مَن كفر بسيِّد الأنبياء، وخاتم المرسلين ورسول ربِّ العالمين ﷺ إلىٰ جميع الإنس والجن مِن سائر المكلَّفِين، صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ سائر أنبياء الله أجمعين.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾

[قيل: المراد بالسفهاء هاهنا: المشركون؛ مشركو العرب، قاله الزجاج. وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد. وقيل: المنافقون، قاله السُّدِّي. والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم][(٢)].

قال البخاري: حدَّثنا أبو نُعَيم، سمع زُهَيرًا، عن أبي إسحاق، عن البراء ﷺ: أن النَّبيَّ ﷺ صلَّىٰ إلىٰ بيت المقدس ستَّةَ عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يُعجِبُه أن تكون قبلتُهُ قِبَلَ البيت، وأنَّه صلَّىٰ أوَّل صلاةٍ صلَّاها، صلاة العصرِ، وصلَّىٰ معه قومٌ. فخرج رجلٌ ممن كان صلَّىٰ معه، فمرَّ علىٰ أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أَشْهَدُ بالله لقد صَلَّيتُ مع النَّبيِّ ﷺ قِبَلَ مكَّة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت. وكان الذي مات علىٰ القبلة قبل أن تُحوَّل قِبَلَ البيت رجالًا قُتِلُوا لم نَدرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[(٣)].

---

(١) قال السعدي رحمه الله: كررها؛ لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

(٢) ليست في (ز).

(٣) البخاري (٤٤٨٦)، ومسلم (٥٢٥) من وجه آخر، ورواه أبو داود (٤٦٨٢)، وابن ماجة (١٠١٠)، ورواية ابن أبي حاتم هي في «تفسيره» (١/ ٢٤٨/ ١٣٢٨)، ورواه ابن إسحاق كما في «الصحيح المسند لأسباب النزول» (ص١٤)، وإسناده صحيح، وانظر: «المصنَّف» لعبد الرزاق (١/ ٢٥٢/ ١٣٥٣).

انفرد به البخاري من هذا الوجه. ورواه مسلم من وجهٍ آخر.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء ﵁، قال: كان رسول الله ﷺ يصلِّي نحو بيت المقدس، ويُكثِرُ النَّظر إلىٰ السَّماء يَنْتَظِرُ أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فقال رجالٌ من المسلمين: وَدِدْنا لو[1] عَلِمْنا عِلْمَ مَن مات منَّا قبل أن نُصْرَفَ إلىٰ القبلة، وكيف بِصَلاتِنَا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، وقال السُّفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلىٰ آخر الآية[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زرعة، حدَّثنا الحسن بن عطية، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ قد صلَّىٰ نحو بيت المقدس ستةَ عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يُحِبُّ أن يُوجَّه نحو الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: فَوُجِّه نحو الكعبة. وقال السُّفهاء من النَّاس، وهم اليهود: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس ﵄: إن رسول الله ﷺ لمَّا هاجر إلىٰ المدينة، أمَره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعةَ عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلىٰ السماء، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي: نحوه. فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما وَلَّاهُم عَن قِبْلَتِهِم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

وقد جاءَ في هذا الباب أحاديثُ كثيرةٌ، وحاصلُ الأمرِ: أنَّه قد كان رسول الله ﷺ أُمِرَ باستقبال الصخرة مِن بيت المقدس، فكان بمكة يُصَلِّي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلىٰ المدينة تَعَذَّر الجمعُ بينهما، فأَمَرَهُ الله بالتَّوجُّه إلىٰ بيت المقدس، [قاله ابن عبَّاس والجمهور، ثم اختلف هؤلاء: هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره؛ علىٰ قولين، وحكىٰ القرطبي في «تفسيره» عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري: أنَّ التَّوجُّه إلىٰ بيت المقدس كان باجتهاده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. والمقصود أن التَّوجُّه إلىٰ بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة، استقرَّ علىٰ كل تقديرٍ][5]

---

(١) لوحة (١٦٣ أ).

(٢) صحيح: انظر التخريج السابق.

(٣) صحيح: انظر التعليقات السابق.

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٨/ ١٣٢٩)، وفي الإسناد انقطاع، لكن يشهد لهذه الرواية الروايات السابقة.

(٥) ليست في (ز).

فاستمرَّ الأمرُ علىٰ ذلك بضعة عَشَرَ شهرًا، وكان يُكْثِرُ ﷺ الدعاءَ والابتهالَ أنْ يُوَجَّه إلىٰ الكعبة، التي هي قِبْلَة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فأُجيب إلىٰ ذلك، وأُمِرَ بالتوجُّه إلىٰ البيت العتيق، فخطب رسولُ الله ﷺ الناس، وأعلمهم بذلك. وكان أوَّل صلاةٍ صلاها إليها[1] صلاة العصر، كما تقدم في «الصَّحِيحين» من رواية البراء ت. ووقع عند النسائي مِن رواية أبي سعيد بن المعلىٰ: أنها الظهر[2] . [وقال: كنت أنا وصاحبي أول مَن صلَّىٰ إلىٰ الكعبة.

وذكر غير واحدٍ مِن المفسِّرين، وغيرهم: أنَّ تحويل القبلة نَزَل علىٰ رسول الله، وقد صلَّىٰ ركعتين من الظُّهر، وذلكم في مسجد بني سلمة فسُمِّي مسجد القِبْلَتَيْن، وفي حديث نويلة بنت مسلم، أنَّهم جاءهم الخبر بذلكم في صلاة الظهر، قالت: فتحوَّل الرجالُ مكان النساءِ، والنساءُ مكانَ الرجالِ[3] . ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري][4] .

وأما أهل قُبَاء[5] ، فلم يَبْلُغْهُم الخبر إلىٰ صلاة الفجر مِن اليوم الثَّاني كما جاء في «الصحيحين» عن ابن عمر أنَّه قال: بينما الناس بقُبَاء في صلاة الصُّبح، إذ جاءهم آتٍ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أُنْزِل عليه الليلةَ قرآنٌ وقد أُمِرَ أن يَسْتَقْبِل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلىٰ الشام فاستداروا إلىٰ الكعبة[6] .

وفي هذا دليلٌ علىٰ أنَّ الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدَّم نزوله وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

ولما وقع هذا حصل لبعضِ النَّاس - مِن أهل النِّفاق والرِّيَب والكَفَرَة من اليهود- ارتياب[7] وزيغ عن الهُدَىٰ وتخبيطٌ وشكٌّ، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: الحكم والتَّصرُّف والأمر كلُّه لله، وحيثما تُوَلُّوا فثَمَّ وجه الله، و﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: الشَّأن كله في امتثال أوامرِ الله، فحيثما وُجِّهنا تَوَجَّهْنا، فالطَّاعة في امتثال أمره، ولو وُجِّهْنَا في كلِّ يوم مرَّات إلىٰ جهاتٍ متعددةٍ، فنحن عبيده وفي تصريفه وخُدَّامُه، حيثما وجَّهَنا تَوَجَّهْنَا، وهو تعالىٰ له بعبده ورسوله محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه-

---

(١) لوحة (١٦٣ ب).
(٢) ضعيف، وسيأتي روايته قريبًا.
(٣) **ضعيف جدًا**: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٥/ ٤٣)، وأبو نعيم في «**معرفة الصحابة**» (٤/ ٥٧)، وقال الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (٢/ ١٤): فيه إسحاق بن إدريس الأسواري، وهو ضعيف متروك الحديث.
(٤) ليست في (ز).
(٥) قُباء: قرية تبعد ميلين عن المدينة النبوية، أصل تسميتها اسم بئر، ومسجدها مشهور.
(٦) البخاري (٤٠٣) (٤٤٨٨)، ومسلم (٥٢٦)، ورواه الترمذي (٣٤١) من حديث ابن عبَّاس.
(٧) الارتياب: الشك.

وأُمَّتِه عنايةٌ عظيمةٌ؛ إذ هداهم إلىٰ قبلة إبراهيم، خليل الرحمن، وجعل توجههم إلىٰ الكعبة المبنيَّة علىٰ اسمه تعالىٰ وحده لا شريك له، أشرفُ بيوتِ الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل ش، ولهذا قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقد روىٰ الإمام أحمد، عن علي بن عاصم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عُمَر بن قيس، عن محمَّد بن الأشعث، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ - يعني في أهل الكتاب-: «إِنَّهُمْ لا يَحْسُدُونَنا عَلَىٰ شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنا عَلَىٰ يَوْمِ الجُمُعَةِ، الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَىٰ القِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا[1] وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَىٰ قَوْلِنَا خَلْفَ الإِمَامِ: آمِينَ»[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يقول تعالىٰ: إنما حوَّلناكم إلىٰ قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لِنَجْعلَكُم خيار الأمم، لِتَكُونُوا يوم القيامة شُهَداء علىٰ الأمم؛ لأنَّ الجميع مُعْتَرِفُون لكم بالفضل.

والوسط هاهنا: الخيارُ والأجودُ، كما يقال: قريش أوسطُ العَرَبِ نسبًا ودارًا؛ أي: خيرها. وكان رسول الله ﷺ وَسَطًا في قومه؛ أي: أشرفهم نسبًا، ومنه الصَّلاة الوسطىٰ، الَّتي هي أفضل الصَّلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصِّحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا خصَّها بأكمل الشَّرائع وأَقْوَم المناهج وأصحِّ[3] المذاهب، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدْعَىٰ نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُدْعَىٰ قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ، فَيُقَالُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ[4] قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: الوَسَطُ: العَدْلُ، فَتُدْعَوْنَ، فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالبَلَاغِ، ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ»[5].

رواه البُخَارِيُّ والتِّرمذي والنَّسائي وابن ماجة من طرق عن الأعمش به.

---

(١) لوحة (١٦٤ أ).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٦/ ١٣٥)، وابن ماجة (٨٥٦).

(٣) في ط. الشعب: «وأوضح».

(٤) **قال السعدي رحمه الله**: فإن قيل: كيف يقبل حكمهم علىٰ غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم علىٰ بعض؟
قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة، كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.
فإن شكَّ شاكٌّ في فضلها، وطلب مزكيًا لها، فهو أكمل الخلق، نبيهم ﷺ، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

(٥) البخاري (٣٣٣٩) (٤٤٨٧)، والترمذي (٢٩٦١)، وابن ماجة (٤٢٨٢).

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَيُدْعَىٰ قَوْمُهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُدْعَىٰ بِمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا ﷺ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: «عَدْلًا» ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»[(١)].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش[(٢)]، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: «عَدْلًا»[(٣)].

وروىٰ الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيْه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد، عن أبي مالك الأشجعي، عن المغيرة بن عتيبة بن نهاس: حدَّثني مُكْتِبٌ لَنَا عن جابر بن عبد الله ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «أَنَا وَأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ كَوْمٍ[(٤)] مُشْرِفِينَ عَلَىٰ الخَلَائِقِ، مَا مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا وَدَّ أَنَّهُ مِنَّا، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ إِلَّا وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ ﷻ»[(٥)].

وروىٰ الحاكم في «مستدركه» وابن مَرْدوَيْه أيضًا، واللفظ له مِن حديثِ مُصْعَب بن ثابت، عن محمَّد بن كعب القُرَظي، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: شَهِد رسولُ الله ﷺ جنازةً، في بني سلمة، وكنت إلىٰ جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: والله -يا رسولَ الله- لَنِعْمَ المرءُ كان، لقد كان عفيفًا مسلمًا وكان... وَأَثْنَوْا عليه خيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «أَنْتَ بِمَا تَقُولُ». فقال الرَّجل: الله أعلم بالسَّرائر، فأمَّا الذي بدا لَنا منه فذاك. فقال النَّبيُّ ﷺ: «وَجَبَتْ». ثم شَهِد جنازة في بني حَارِثة[(٦)]، وكنتُ إلىٰ جانبِ رسول الله ﷺ، فقال بَعْضُهُم: يا رسولَ الله، بِئْسَ المرءُ كان، إن كان لفظًّا غليظًا، فأَثْنَوا عليه شرًّا، فقال رسول الله ﷺ لبعضهم:

---

(١) صحيح: رواه الإمام أحمد (٣/ ٥٨).

(٢) لوحة (١٦٤ ب).

(٣) صحيح: وهو نفس الإسناد السابق. رواه أحمد (٣/ ٩)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٤٩)، وابن جرير (٢/ ٧).

(٤) أصل الكوم من الارتفاع والعلو.

(٥) صحيح: وسياقه بهذا اللفظ ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٤٩) إلىٰ ابن جرير (٢/ ٨)، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وفيه جهالة الراوي عن جابر. أما الفقرة الأولىٰ من الحديث، فله متابعات مرفوعًا وموقوفًا. فقد رواه أحمد (٣/ ٣٤٥) مرفوعًا، وفي إسناده ابن لهيعة. ورواه أحمد (٣/ ٣٨٣)، ومسلم (١٩١) موقوفًا ولفظه: نحن يوم القيامة علىٰ كذا وكذا. ويرىٰ بعض العلماء أنه وقع تصحيف في رواية مسلم وصوابه: «نجئ يوم القيامة علىٰ كوم». انظر «شرح الثوري» (٣/ ٤٧ ـ ٤٨).
قلت: ولا يضر كون الحديث موقوفًا فهو في حكم المرفوع فمثله لا يقال بالرأي.
وأما الفقرة الباقية من الحديث فيشهد لها الأحاديث الواردة بعده.

(٦) بنو حارثة: بطن من الأوس.

«أَنتَ بِالَّذِي تَقُولُ». فقال الرَّجل: اللهُ أَعْلَم بالسَّرائر، فأمَّا الذي بَدَا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: «وَجَبَتْ». قال مُصْعَب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمَّد بن كَعْب: صَدَقَ رسُول الله ﷺ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

ثمَّ قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد، ولم يُخرِّجاه(١).

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا يونس بن محمَّد، حدَّثنا داود بن أبي الفُرَات، عن عبد الله بن بُريدة، عن أبي الأسود أنه قال: أَتَيْتُ المدينة فوَافَقْتُهَا، وقد وَقَع بها مرض، فهُم يَمُوتُون مَوتًا ذَرِيعًا(٢). فجَلَسْت إلىٰ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه فمرَّت به جنازة، فَأُثنِيَ علىٰ صاحبها خَير. فقال: وَجَبَت وَجَبَت. ثم مُرَّ بأُخرَىٰ فَأُثنِيَ عليها شرٌّ، فقال عُمَرُ: وَجَبَت وَجَبَت. فقال أبو الأسود: مَا وَجَبَتْ يا أَمِيرَ المؤمنين؟ قال: قلت كما(٣) قال رسولُ الله ﷺ: «أَيُّمَا مُسْلِمٌ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ». قال: فَقُلْنَا: وثلاثة؟ قال: «وَثَلَاثَةٌ». قال، فقلنا: وَاثْنَان؟ قال: «وَاثْنَانِ» قال: ثمَّ لم نَسْأَله عن الوَاحِد(٤).

وكذا رواه البخاري، والترمذي، والنسائي من حديث داود بن أبي الفرات به.

قال ابن مَرْدوَيْه: حدَّثنا أحمد بن عثمان بن يحيىٰ، حدَّثنا أبو قِلَابة الرقاشي، حدَّثني أبو الوليد، حدَّثنا نافع بن عمر، حدَّثني أمية بن صفوان، عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ بالنَّبَاوَة(٥) يقول: «يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ» قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: «بِالثَّنَاءِ الحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ»(٦). ورواه ابن ماجة [عن أبي بكر بن أبي شَيْبَة، عن يزيد بن هارون. ورواه الإمام أحمد، عن يَزِيد بن هارون، وعبد الملك بن عمر وشريح، عن نافع عن ابن عمر به](٧).

---

(١) ضعيف: رواه الحاكم (٢/ ٢٦٩) وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: فيه مصعب بن ثابت ليس بالقوي، وقال الحافظ في «التقريب»: لين الحديث.

تنبيه: ثبت في معنىٰ حديث جابر -وأنهم شهداء الله من شهدوا له بخير وجبت له الجنة، ومن شهدوا عليه بشر وجبت له النار- ثبت في معنىٰ هذا عن أنس، رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)، والترمذي (١٠٥٨)، والنسائي (٤/ ٤٩)، وابن ماجة (١٤٩١).

(٢) الذريعُ: السريعُ.

(٣) لوحة (١٦٥ أ).

(٤) البخاري (١٣٦٨)، والترمذي (١٠٥٩)، والنسائي (٤/ ٥٠)، وأحمد (١/ ٢٢).

(٥) النباوة: موضع بالطائف؛ كما في «معجم البلدان».

(٦) حسن لغيره: رواه أحمد (٦/ ٤٦٦)، وابن ماجة (٤٢٢١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٤/ ٥١٠)، وفي «المسند» (٦٠٣- بتحقيقي)، وفي إسناده أمية بن صفوان وأبو بكر بن أبي زهير، كلاهما قال عنه الحافظ: مقبول. ويشهد للحديث ما تقدم من حديث أنس وأبي الأسود.

(٧) ليست في (ز).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ[(١)] مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ يقول تعالىٰ: إنَّما شَرَعْنَا لك -يا محمَّد- التَّوجُّه أَوَّلًا إلىٰ بيت المقدس، ثمَّ صرفناك عنها إلىٰ الكعبة، ليَظْهَر حالُ مَن يَتَّبِعك ويُطيعُك ويَسْتَقْبِل معك حيثما توجهتَ مِمَّن ينقلب علىٰ عَقِبَيْه؛ أي: مُرْتَدًّا عن دينه ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: هذه الفعلة، وهو صرف التَّوجه عن بيت المقدس إلىٰ الكعبة؛ أي: وإن كان هذا الأمر عظيمًا في النُّفُوس، إلَّا علىٰ الَّذين هدىٰ الله قلوبَهُم، وأَيْقَنُوا بتَصْدِيق الرَّسُول، وأنَّ كلَّ ما جاء به فهو الحقُّ الَّذي لا مِرْية فيه[(٢)]، وأنَّ الله يَفْعَل ما يشاء ويَحْكُم ما يُرِيدُ، فله أَن يكلِّف عبادَهُ بما شَاءَ، ويَنْسَخُ ما يشاء، وله الحِكْمَةُ التَّامَّة والحُجَّةُ البالغة في جميع ذلك، بخلاف الَّذِين في قلوبهم مَرَضٌ، فإنَّه كُلَّما حدَثَ أمرٌ أَحْدَثَ لهم شكًّا، كما يحصل للَّذين آمنوا إيقانٌ وتصديقٌ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. ولهذا كان مَن ثَبَتَ علىٰ تصديق الرَّسول ﷺ[(٣)] واتِّباعه في ذلك، وتَوَجَّه حيثُ أَمَرَهُ الله مِن غَيْرِ شَكٍّ ولا رَيْبٍ مِن سادات الصحابة. وقد ذهب بعضُهم إلىٰ أنَّ السَّابقين الأَوَّلين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلُّوا القِبْلَتَيْن.

وقال البخاري في تفسير هذه الآية:

حدَّثنا مُسَدَّد، حدَّثنا يحيىٰ، عن سُفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: بَيْنَا النَّاسُ يُصَلُّون الصُّبْح في مسجد قُباء[(٤)] إِذْ جاء جَاءٍ فقال: قَدْ أُنْزِل علىٰ النَّبيِّ ﷺ قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يَستقبلَ الكعبةَ فاستقبِلوها. فتوَجَّهُوا إلىٰ الكعبة[(٥)].

---

(١) قال الرازي في هذه الآية مجيبًا علىٰ من زعم أن هذه الآية تدل علىٰ أن الله تعالىٰ لا يعلم الجزئيات إلا عند وقوعها بأن معناه: (الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله، وأما قبل ذلك فقد كان الحاصل العلم بأنه سيقع أو سيحدث). اهـ.

وقال ابن عثيمين رحمه الله: المراد علم ظهور، أو علم يترتب عليه الجزاء؛ لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء حتىٰ يُمتحن العبد ويُنظر؛ أو علم ظهور؛ أي: علم بأن الشيء حصل، فيعلمه أنه حاصل؛ وأما العلم به قبل وقوعه فهو علم بأنه سيحصل؛ وفرق بين العلم بالشيء أنه سيحصل، والعلم بأنه قد حصل؛ وقد قال بعض أهل المعاني: إن ﴿لِنَعْلَمَ﴾ هنا بمعنىٰ الماضي أي إلا لعلمنا؛ والمعنىٰ: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لعلمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب علىٰ عقبيه؛ وهذا وإن كان له وجه من حيث اللفظ؛ وهو أن يعبر بالمضارع عن الماضي أحيانًا لكنه ضعيف هنا من حيث المعنىٰ؛ إذ لا حكمة من ذلك؛ لأنه يكون معنىٰ الآية: وما جعلنا هذا إلا لأننا قد علمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب علىٰ عقبيه؛ وحينئذ يقال: إذًا ما الفائدة؟! لأنه لا يناسب أن الله ما جعل هذه القبلة إلا لأنه قد علم من يبقىٰ علىٰ دينه، ومن لا يبقىٰ؛ فالصواب الوجهان الأولان؛ وأحسنهما أن يكون المراد بالعلم هنا الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأنه الواضح وليس فيه تكلف.

(٢) يعني: لا شك فيه. (٣) لوحة (١٦٥ ب). (٤) تقدم التعريف به.

(٥) البخاري (٤٠٣) (٤٤٨٨)، ومسلم (٥٢٦)، والترمذي (٣٤١).

وقد رواه مسلم مِن وجهٍ آخر، عن ابن عمر ت.

ورواه الترمذي من حديث سفيان الثوري وعنده: أَنَّهم كانوا رُكُوعًا، فاسْتَدَارُوا كما هُمْ إلىٰ الكعبة، وهم ركوع. وكذا رواه مسلم من حديث حَمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس مثله.

وهذا يدلُّ علىٰ كمال طاعَتِهِم لله ورسوله، وانقيادهم لأوامر الله ﷻ رَضِي اللهُ عنهم أَجْمَعِين.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلىٰ بيت المقدس قبل ذلك لا يَضِيع ثَوَابها عند الله، وفي «الصَّحيح» مِن حديث أبي إسحاق السَّبيعي، عن البراء ﷺ قال: مات قومٌ كانوا يُصَلُّون نحو بيت المقدس، فقال النَّاس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾(١).

[ورواه الترمذي عن ابن عبَّاس ﭬ وصححه(٢)](٣).

وقال ابن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: بالقِبْلَةِ الأُولَىٰ، وتَصْدِيقِكُم نبيكم، واتِّباعه إلىٰ القِبْلَة الأخرىٰ. أي: لَيُعْطِيكم أجرَهما جميعًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: ما كان الله لِيُضَيِّع محمَّدًا ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي «الصحيح» أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ امرأةً مِن السَّبْي(٥) قد فُرِّق بينها وبين ولدها، فجَعَلَتْ كُلَّما وَجَدَتْ صبيًّا من السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْه بصدرها، وهي تَدُور علىٰ وَلَدِها، فلمَّا وجدتْهُ ضَمَّتْهُ إليها وألقمتْهُ ثديها. فقال رسول الله ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَىٰ أَلَّا تَطْرَحَهُ؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فَوَاللهِ، للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»(٦).

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ(٧) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس ﭬ: كان أَوَّلُ ما نُسِخَ من القرآن القبلة، وذلك أنَّ رسول الله

(١) البخاري (٤٤٨٦)، ومسلم (٥٢٥).
(٢) «سنن الترمذي» (٣٤١).
(٣) ليست في (ز).
(٤) في إسناده محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول، ومعنىٰ الأثر صحيح لما تقدم من الأحاديث.
(٥) السبي: من وقعوا في الأَسْر.
(٦) البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).
(٧) لوحة (١٦٦ أ).

ﷺ لمَّا هاجرَ إلىٰ المدينة، وكان أكثر أهلِهَا اليهود، فأَمَرَه اللهُ أن يَسْتَقْبِل بيت المقدس، ففرِحَت اليهودُ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضْعَةَ عَشَرَ شهرًا، وكان يُحِبُّ قبلة إبراهيم فكان يدعو إلىٰ الله وينظر إلىٰ السَّماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[١] إلىٰ قوله: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[٢].

وروىٰ ابن مَرْدوَيْه من حديث القاسم العُمَري، عن عمه عُبيد الله بن عمر، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا سلَّم مِن صلَاتِه إلىٰ بيت المقدس رَفَعَ رَأْسَهُ إلىٰ السماء فأنزل الله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلىٰ الكعبة إلىٰ المِيزَابِ[٣]، يَؤُمُّ به جبرائيل عليه السلام[٤].

ورَوَىٰ الحاكم في «مستدركه» مِن حديث شُعْبَة عن يَعْلَىٰ بن عطاء، عن يحيىٰ بن قمطة قال: رأيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما جالسًا في المسجد الحرام، بإزَاءِ المِيزَاب، فتَلَا هذه الآية: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ قال: نحو مِيزَاب الكعبة.

ثمَّ قال: صحيح الإسناد، ولم يُخرِّجاه[٥].

ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن هُشَيْم، عن يعلىٰ بن عطاء به.

وهكذا قال غيره، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله: إنَّ الغرض إصابةُ عينِ القِبْلَةِ.

والقول الآخر وعليه الأكثرون: أَنَّ المراد الوِجْهَةَ. كما رواه الحاكم من حديث أبي إسحاق، عن عمير[٦] بن زياد الكندي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: شطره: قِبَلَه.

---

(١) قال القاسمي رحمه الله: قالوا: وفي ذلك تنبيه علىٰ حسن أدبه حيث انتظر ولم يسأل. وهذا ألطف مما قيل: إن تقلب وجهه كناية عن دعائه، ولا مانع أن يراد بتقلب وجهه ﷺ التحويل، ففيه إعلام بما جعله تعالىٰ من اختصاص السماء بوجه الداعي، وهذه الآية وإن كانت متأخرةً في التلاوة، فهي متقدمة في المعنىٰ، فإنها رأس القصة.

(٢) تقدم. انظر تفسير الآية (١١٥).

(٣) الميزاب: المِزراب، أنبوبة من الحديد ونحوه تركب في جانب البيت من أعلاه لينصرف منها ماء المطر المتجمع.

(٤) رواية داود بن الحصين عن عكرمة ضعيفة، ولكن يشهد لهذا الأثر الرواية السابقة، دون قوله: «إلىٰ الميزاب يؤم به جبرائيل عليه السلام».

(٥) رواه الحاكم (٢/ ٢٦٩)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٥٣/ ١٣٥٧) وفيه يحيىٰ بن قمطة لم يوثقه غير ابن حبان. انظر: «الثقات» (٥/ ٥٢٩).

(٦) في (ح): «عمارة»، وهو خطأ.

ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[١].

وهذا قول أبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم.
وكما تقدم في الحديث الآخر: «**مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ**»[٢].

وقال القرطبي: روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عبَّاس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ المَسْجِدِ، وَالمَسْجِدُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الحَرَمِ، وَالحَرَمُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ فِي مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا مِنْ أُمَّتِي**»[٣].

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين[٤]: حدَّثنا زهير، عن أبي إسحاق، عن البراء ﵁: أنَّ النَّبيَّ ﷺ صلَّىٰ قِبلَ بيت المقدس ستَّة عَشَرَ شَهْرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يُعْجِبُه قِبْلَتُهُ قِبَل البيت، وأنَّه صَلَّىٰ صلاة العصر، وصَلَّىٰ معه قومٌ، فخرج رجلٌ ممَّن كان يصلِّي معه، فمرَّ علىٰ أهل المَسْجِدِ وهم راكعون، فقال: أَشْهَد بالله لقد صَلَّيت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكَّة، فدَارُوا كما هُم قِبَل البَيْتِ[٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء ﵁ قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلَّىٰ نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يُحِب أن يحوَّل نحو الكعبة، فنزلت: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ فَصُرِفَ إلىٰ الكعبة[٦].

وروى النَّسائي عن أبي سعيد بن المعلىٰ قال: كنا نَغْدُو إلىٰ المسجد علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فنمرُّ علىٰ المسجد فنُصَلِّي فيه، فمَرَرْنَا يومًا -ورسول الله ﷺ قاعدٌ علىٰ المنبر- فقلت: لقد حَدَثَ أَمْرٌ، فجَلَسْتُ، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ حتىٰ فَرَغ من الآية. فقُلْتُ لِصَاحِبِي: تعال نركع ركعتين قبل أن يَنْزِلَ رسول الله ﷺ فنكُونَ أَوَّل مَن صلَّىٰ، فتَوَارَيْنَا فصَلَّيْنَاهُمَا. ثم نزل النَّبيُّ ﷺ فصلَّىٰ للنَّاس الظُّهْرَ يَوْمَئِذٍ[٧].

وكذا روىٰ ابن مَرْدوَيْه، عن ابن عمر ﵄: أنَّ أَوَّل صلاةٍ صلَّاها رسولُ الله ﷺ إلىٰ الكعبة صَلاةُ الظُّهر، وأنَّها الصَّلاة الوُسطىٰ[٨]. والمشهور أنَّ أوَّل صلاةٍ صلَّاها إلىٰ الكعبة صلاةُ العصر، ولهذا تأخَّر الخبر عَن أهلِ قُبَاء إلىٰ صلاة الفجر.

---

(١) الحاكم (٢/ ٢٦٩)، وفيه أبو إسحاق السبيعي مدلس وقد عنعن.

(٢) ضعيف: رواه البيهقي (٢/ ٩)، تفرد به عمر بن حفص المكي وهو ضعيف لا يحتج به، وابن جريج: مدلس وقد عنعن. والحديث ضعفه الحافظ في «التلخيص» (١/ ٢١٣).

(٣) تقدم. انظر تفسير الآية (١١٥).

(٤) لوحة (١٦٦ ب).

(٥) البخاري (٤٤٨٦)، ومسلم (٥٢٥).

(٦) انظر ما تقدم عند الآية (١١٥).

(٧) ضعيف: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٠٠٤)، وفيه مروان بن عثمان: ضعيف، وسعيد بن أبي هلال: صدوق لكن قال أحمد: اختلط.

(٨) لم يذكر إسناده.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيْه: حدَّثنا سليمان بن أحمد، حدَّثنا الحسين بن إسحاق التَّسْتري، حدَّثنا رجاء بن محمَّد السَّقَطِي، حدَّثنا إسحاق بن إِدْرِيس، حدَّثنا إبراهيم بن جعفر، حدَّثني أبي، عن جدته أم أبيه نُوَيلة بنت مسلم، قالت: صَلَّينا الظهر -أو العصر- في مسجد بني حارثة، فاسْتَقْبَلْنا مسجد إيلياء فصَلَّيْنا ركعتين، ثم جاء مَنْ يحدِّثنا أن رسول الله ﷺ قدِ اسْتَقْبَل البيت الحرام، فتَحَوَّل النِّساءُ مكان الرِّجال، والرجالُ مكان النِّساء، فصَلَّينا السَّجدتين البَاقِيَتَيْن، ونحن مُسْتَقْبِلون البيت الحرام. فحدَّثني رجلٌ من بني حارثة أنَّ النَّبيَّ ﷺ[1] قال: «أُولَئِكَ رِجَالٌ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ»[2].

وقال ابن مَرْدوَيْه أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن علي بن دُحَيْم، حدَّثنا أحمد بن حازم، حدَّثنا مالك بن إسماعيل النهدي، حدَّثنا قيس، عن زياد بن علاقة، عن عُمَارة بن أوس قال: بَيْنَما نحنُ في الصَّلاة نحو بَيتِ المقدس، ونحن رُكُوع، إِذْ أَتَىٰ منادٍ بالباب: أنَّ القِبْلَة قد حُوِّلت إلىٰ الكعبة. قال: فأَشْهَد علىٰ إِمَامِنَا أنَّه انحرف فتحوَّل هو والرِّجال والصِّبْيَان، وهم ركوع نحو الكعبة[3].

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أَمَرَ تعالىٰ باسْتِقْبَال الكعبةِ مِن جميع جهات الأرض، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، ولا يُسْتَثْنَىٰ مِن هذا شَيء، سوىٰ النَّافلة في حال السَّفر، فإنَّه يُصَلِّيهَا حيثما تَوَجَّه قالبُه، وقَلْبُه نحو الكعبة. وكذا في حال المُسَايَفَة في القِتَال يُصَلِّي علىٰ كلِّ حال، وكذا مَن جَهِلَ جِهَة القبلة يُصَلِّي باجتهاده، وإن كان مخطئًا في نفس الأمر؛ لأنَّ الله تعالىٰ لا يُكَلِّف نفسًا إلا وسعها.

[مسألة: وقد استدلَّ المالكيَّة بهذه الآية علىٰ أنَّ المصلِّي ينظر أَمَامَه لا إلىٰ مَوضِع سجوده كما ذهب إليه الشَّافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية؛ لقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فلو نظر إلىٰ موضع سجوده لاحتاج أن يَتَكَلَّف ذلك بنوعٍ من الانحناءِ وهو يُنَافِي كمال القيام. وقال بعضهم: ينظر المصلي في قيامه إلىٰ صَدْرِه. وقال شريك القاضي: يَنْظُر في حال قيامه إلىٰ موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة؛ لأنَّه أَبْلَغُ في الخضوع وآكَدُ في الخشوع، وقد ورد به الحَدِيثُ[4]، وأمَّا في حال ركوعه فإلىٰ موضع قَدَمَيْه، وفي حال سجوده إلىٰ موضع أَنْفِهِ وفي حال قعوده إلىٰ حِجْرِهِ][5].

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: واليهودُ -الَّذِين أَنْكَرُوا

---

(١) لوحة (١٦٧ أ).

(٢) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٥/ ٤٣)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٥٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٤): فيه أبو إسحاق الأسواري وهو ضعيف متروك.

(٣) ضعيف: رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤/ ٢٠٧٩/ ٥٢٢٩- بتحقيقي) وابن سعد (٤/ ٣٨١)، وفي إسناده قيس ابن الربيع، قال الحافظ: صدوق تغير لما كبر وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به.

(٤) ولفظه: «كان إذا صلىٰ طأطأ رأسه ورمىٰ ببصره إلىٰ الأرض» رواه الحاكم (٢/ ٣٩٣)، والبيهقي (٢/ ٣٨٣) والراجح أنه مرسل، لكن له ما يعضده. انظر: «الإرواء» للألباني (٣٥٤).

(٥) ليست في (ز).

استقبالكم الكعبةَ وانصرافكم عَن بيت المقدس -يعلمون أنَّ الله تعالىٰ سَيُوجِّهُكَ إِلَيْهَا، بما في كُتُبِهِم عن أَنْبِيَائِهِم، مِن النَّعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمَّته، وما خصَّه الله تعالىٰ به وشَرَّفه مِن الشَّريعة الكاملة العظيمة، ولكنَّ أهل الكتاب يتكاتَمُون ذلك بينهم حسدًا وكفرًا وعنادًا؛ ولهذا يُهَدِّدُهم تعالىٰ بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٥)﴾

يُخْبِر تعالىٰ عن كُفْر اليهود وعِنَادِهِم، ومخالفَتِهِم ما يعرفونه مِن شأن رسولِ الله ﷺ، وأنَّه لَو أَقَامَ عَلَيْهِم كلَّ دليل علىٰ صحَّة ما جاءهم به، لما اتَّبعُوه وتَرَكُوا أهواءهم كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ إخبارٌ عن شِدَّة متابعةِ الرَّسول ﷺ لما أمره الله تعالىٰ به، وأنَّه كما هم مُسْتَمْسكون بآرائِهم وأهوائهم[١]، فهو أيضًا مُسْتَمْسِكٌ بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع[٢] أهواءهم في جميع أحواله[٣]، وما كان متوجهًا إلىٰ بيت المقدس؛ لأنها قبلة اليهود، وإنما كان ذلك عن أمر الله تعالىٰ وطاعته. ثم حذر الله تعالىٰ عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلىٰ الهوىٰ؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره. ولهذا قال مخاطبًا للرسول ﷺ، والمراد الأمة: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾

يخبر تعالىٰ أنَّ علماء أهل الكتاب يعرفون صِحَّة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدُهم ولده، والعربُ كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير: «ابْنُـكَ هَذَا؟» قال: نعم يا رسول الله، أشهد به. قال: «أَمَا إِنَّهُ لا يَجْنِي عَلَيْـكَ

---

(١) في (ز): وأعوانهم.

(٢) لوحة (١٦٧ ب).

(٣) قال السعدي رحمه الله: وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أبلغ من قوله: «وَلا تَتَّبِعْ»؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه.

وَلا تَجْني عَلَيْه»(١)(٢).

[قال القُرطبيُّ: ويروىٰ أنَّ عمر ﷺ قال لعبد الله بن سلام ﷺ: أَتَعْرِف محمَّدًا ﷺ كما تعرف ولدك ابنك، قال: نعم وأكثر، نزل الأَمين من السماء علىٰ الأَمِين في الأرض بنعته فعرفته، وإنِّي لا أدري ما كان مِن أمْرِه. قلتُ: وقد يكون المراد: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ مِن بين أبناء النَّاس لا يَشُكُّ أحد ولا يتمارىٰ في معرفة ابنه إذا رآه مِن بَيْنِ أبناء الناس كلهم](٣).

ثم أخبر تعالىٰ أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمي: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ليكتمون الناس ما في كتبهم مِن صفة النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ثم ثبَّت تعالىٰ نَبِيَّه والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه ولا شكَّ، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ(٤) أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

قال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ يعني بذلك: أهل الأديان، يقول: لكلٍّ قبلةٌ يرضونها، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون.

وقال أبو العالية: لليَهُودِيِّ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيها، وللنَّصْرانِيِّ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيها، وهَداكم أنتم أيتها الأمة الموقنون للقِبْلَة التي هي القبلة. وروي عن مجاهد، وعطاء، والضَّحَّاك، والربيع بن أنس، والسُّدِّي نحو هذا.

وقال مجاهد في الرواية الأخرىٰ: ولكن أمَرَ كلَّ قوم أن يُصَلُّوا إلىٰ الكعبة.

وقرأ ابن عبَّاس، وأبو جعفر الباقر، وابن عامر: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلَّاهَا﴾(٥).

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٢٠٨)، وعبد الله ابن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (٢/ ٢٦٦)، وابن أبي شيبة في «المسند» (٨٠٠- بتحقيقي).

(٢) المعنىٰ: أنه لا يُطَالَبُ بجِنَايَة غيره من أقارِبه وأباعده، فإذا جَنَىٰ أحدُهما جِنَايَة لا يُعَاقَبُ بها الآخَرُ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ «النهاية» (١/ ٣٠٩) وانظر: «اللسان»: جنىٰ.

(٣) ليست في (ز).

(٤) قال السعدي ﷺ: ويستدل بهذه الآية الشريفة علىٰ الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلىٰ إبراء الذمة من الصيام والحج والعمرة وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فللَّه ما أجمعها وأنفعها من آية.

(٥) متواترة: قَرَأَ (مُوَلَّاهَا) ابْنُ عَامِرٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مُوَلِّيهَا).

وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال هاهنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو قادر علىٰ جمعكم [(١)] مِن الأرض، وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

هذا أمرٌ ثالثٌ مِن الله تعالىٰ باستقبال المسجد الحرام مِن جميع أقطار الأرض.

[وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرّات، فقيل: تأكيدٌ؛ لأنّه أوّل ناسخٍ وَقَعَ في الإسلام علىٰ ما نصَّ عليه ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره، وقيل: بل هو مُنَزَّلٌ علىٰ أحوالٍ: فالأمر الأوّل لمن هو مُشَاهِدٌ الكعبة، والثّاني لمن هو في مكّة غائبًا عنها، والثّالثُ لمن هو في بقيَّة البلدان، هكذا وَجَّهَه فخر الدِّين الرَّازي. وقال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، والثّاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار، ورجّح هذا الجواب القرطبي، وقيل: إنّما ذُكِرَ ذلك لتعلُّقِهِ بما قبله أو بعده من السياق، فقال: أولًا ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فذكر في هذا المقام إجابته إلىٰ طلبته وأمره بالقبلة التي كان يَوَدُّ التَّوجُّه إليها ويرضاها؛ وقال في الأمر الثاني: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فذكر أنّه الحقُّ من الله وارتقىٰ عن المقام الأوّل، حيث كان موافقًا لرضا الرسول ﷺ فبيَّن أنّه الحق أيضًا من الله يحبه ويَرْتَضِيه، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يَتَحَجَّجُون باستقبال الرسول إلىٰ قِبْلَتِهم، وقد كانوا يعلمون بما في كُتُبِهم أنّه سيُصْرَف إلىٰ قبلة إبراهيم عليه السلام إلىٰ الكعبة، وكذلك مُشْرِكو العرب انقطعت حجتهم لما صُرِفَ الرسول ﷺ عن قِبْلَة اليَهُودِ إلىٰ قبلة إبراهيم التي هي أَشْرَفُ، وقد كانوا يُعَظِّمُون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول ﷺ إليها، وقيل غير ذلك مِن الأجوبة عن حكمة التَّكرار، وقد بسطها فخر الدين وغيره، والله تعالى أعلم] [(٢)].

وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: أهل الكتاب؛ فإنّهم يَعْلَمُون مِن صفة هذه الأمّة التَّوجُّه إلىٰ الكعبة، فإذا فقدُوا ذلك مِن صِفتِها رُبَّما احتَجُّوا بها علىٰ المسلمين أو لِئَلَّا يَحْتَجُّوا بمُوَافَقَةِ

---

(١) لوحة (١٦٨ أ). (٢) زيادة من ط. «الشعب».

المسلمين إيَّاهم في التَّوجُّه إلىٰ بَيْتِ المَقْدِس. وهذا أظهر.

قال أبو العالية: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ يعني به: أَهْلَ الكِتَاب حين قالوا: صُرف محمَّد إلىٰ الكَعْبَةِ.

وقالوا: اشتاق الرَّجُل إلىٰ بيت أَبِيهِ ودِينِ قَوْمِهِ. وكان حجتهم علىٰ النَّبيِّ ﷺ انصرافه إلىٰ البيت الحرام أن قالوا: سيرجع إلىٰ ديننا كما رجع إلىٰ قبلتنا.

قال ابن أبي حاتم: وروىٰ عن مجاهد، وعطاء، والضَّحَّاك، والربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدِّي نحو هذا.

وقال هؤلاء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: مشركي قريش.

ووجَّه بعضهم حُجَّة الظلمة -وهي داحضة- أن قالوا: إنَّ هذا الرجل يزعمُ أنَّه علىٰ دين إبراهيم: فإن كان توجُّهه إلىٰ بيت المقدس علىٰ ملة إبراهيم، فَلِمَ رَجَعَ عنه؟ والجواب: أنَّ الله تعالىٰ اختار له التَّوجُّه إلىٰ بيت المقدس أوَّلًا لما له تعالىٰ في ذلك مِن الحكمة، فأطاع ربَّه تعالىٰ في ذلك، ثمَّ صرفه إلىٰ قبلة إبراهيم -وهي الكعبة- فامتثل أمر الله في ذلك أيضًا، فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيعٌ لله في جميع أحواله، لا يَخْرُج عَن أمر الله طرفة عين، وأُمَّتُهُ تَبَعٌ له.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي: لا تخشوا شُبَهَ الظَّلَمَة المُتَعَنِّتِين، وأَفْرِدُوا الخشية لي، فإنه تعالىٰ هو أهلٌ أَن يُخْشَىٰ مِنْهُ.

وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ عطف علىٰ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: ولأُتِمَّ نعمتي عليكم فيما شَرَّعْتُ لَكُم مِن استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشَّريعة مِن جميع وجوهها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلىٰ ما ضَلَّتْ عنه الأمم هديناكم إليه، وخَصصْناكم(١) به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرفَ الأُمَمِ وأفضلها.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾

يُذَكِّر تعالىٰ عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمَّد ﷺ إليهم، يَتْلُو عليهم آيات الله مُبَيِّنَات وَيُزَكِّيهم؛ أي: يُطَهِّرهم مِن رذائل الأخلاق ودَنَس النُّفوس وأفعال الجاهليَّة، ويُخْرِجُهُم مِن الظُّلمات إلىٰ النُّور، ويُعَلِّمُهُم الكتاب -وهو القرآن- والحكمة -وهي السُّنَّة(٢)- ويُعَلِّمُهُم ما لم يكونوا

(١) لوحة (١٦٨ ب).

(٢) قال أحمد شاكر رحمه الله: تفسير الحكمة بالسنة هو الحق الصحيح، وهو الذي اختاره الإمام الشافعي، ونصره بأقوىٰ الدلائل والحجج، انظر: كتاب «الرسالة» للشافعي بتحقيقنا، في الفقرات (٢٤٥ - ٢٥٤).

يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يُسَفهُون بالقَوْل الفرَىٰ[1]، فانتقَلُوا ببركة رسالته ويُمن سفارته إلىٰ حال الأولياء وسجايا العلماء فصاروا أعْمَقَ النَّاس علمًا، وأبرَّهُم قلوبًا، وأقلَّهُم تكلُّفًا، وأصْدَقهُم لَهْجَةً. وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]. وذمَّ مَن لم يَعْرِف قَدْرَ هذه النِّعمَة، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال ابن عبَّاس: يعني بنعمة الله: محمَّدًا ﷺ؛ ولهذا نَدَب الله المؤمنين إلىٰ الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني[2].

قال عبد الله بن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أنَّ موسىٰ عليه السلام قال: يَارَبِّ، كيف أشكُرُكَ؟ قال له ربه: «**تَذْكُرُني وَلا تَنْسَاني، فَإِذَا ذَكَرْتَني فَقَدْ شَكَرْتَني، وَإِذَا نَسِيتَني فَقَدْ كَفَرْتَني**»[3].

وقال الحسن البصريُّ، وأبو العالية، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس: إنَّ الله يَذْكُر مَن ذَكَرَهُ، ويَزِيدُ مَن شكره، ويُعَذِّب مَن كَفرَهُ.

وقال بعض السَّلف في قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: هو أن يُطاعَ فلا يُعصَىٰ، ويُذْكَرَ فلا يُنْسَىٰ، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَر.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصباح، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا عمارة الصيدلاني، حدَّثنا مكحول الأزدي[4] قال: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: أرَأيْتَ قَاتِل النَّفْس، وشَارِب الخمر والسَّارق والزَّاني يذكر الله، وقد قال الله تعالىٰ[5]: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذَكَرَهُ الله

---

(١) الفِرَىٰ: جمع فرية، وهي الكذبة.

(٢) **قال القاسمي رحمه الله**: قال النووي رحمه الله تعالىٰ: اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوهما، بل كل عامل لله تعالىٰ بطاعة، فهو ذاكر لله تعالىٰ. كذا قاله سعيد بن جبير رضي الله عنه، وغيره من العلماء. وقال عطاء رحمه الله: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع؟ وتصلي وتصوم؟ وتنكح وتطلّق؟ وأشباه هذا. وقال النووي أيضًا: إن الأذكار المشروعة في الصلاة وغيرها، واجبةً كانت أو مستحبةً، لا يحسب شيء منها ولا يعتد به حتىٰ يتلفظ به بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع.

(٣) إسناده مرسل. رواه ابن أبي حاتم (١٤٠٢).

(٤) **قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله**: إسناده صحيح ومكحول الأزدي - هذا: هو العتكي البصري. وهو تابعي ثقة. وهو غير «**مكحول الشامي**» التابعي الكبير. وهذا الذي قال ابن عمر حق، ينطبق تمامًا علىٰ ما يصنع أهل الفسق والمجون في عصرنا، من ذكر الله تعالى في مواطن فسقهم وفجورهم، وفي الأغاني الداعرة، والتمثيل الفاجر الذي يزعمونه تربيةً وتعليمًا، وفي قصصهم المفترىٰ، الذي يجعلونه أنه هو الأدب وحده أو يكادون، وفي تلاعبهم بالدين، بما يسمونه «**القصائد الدينية**» و«**الابتهالات**»، التي يتلاعب بها الجاهلون من القراء، يتغنون بها في مواطن الخشوع وأوقات التخلي للعبادة، حتىٰ لبَّسوا علىٰ عامة الناس شعائر الإسلام. فكل أولئك يذكرون الله فيذكرهم الله بلعنته حتىٰ يسكتوا.

(٥) لوحة (١٦٩ أ).

بِلَعْنَتِهِ، حتَّىٰ يَسْكُتَ(١).

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: اذكروني، فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أَوْجَبْتُ لكم علىٰ نَفْسِي.

وعن سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي رواية: برحمتي.

وعن ابن عبَّاس في قوله ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: ذكر الله إيَّاكم أَكْبَر مِن ذِكْرِكُم إيَّاه.

وفي الحديث الصحيح: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ»(٢).

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ -أَوْ قَالَ: فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ- وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شِبْرًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا(٣)، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتُكَ أُهَرْوِلُ»(٤).

صحيح الإسناد: أخرجه البخاريُّ مِن حديث قتادة. وعنده قال قتادة: اللهُ أَقْرَب بالرَّحْمَة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أمر الله تعالىٰ بِشُكْرِه، ووَعْدِهِ علىٰ شكره بمزيدِ الخير، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا روح، حدَّثنا شعبة، عن الفضيل بن فضالة -رجل من قيس- حدَّثنا أبو رجاء العطاردي، قال: خَرَجَ عَلَيْنَا عمران بن حصين ﷺ وعَلَيْهِ مِطْرَف مِن خَزٍّ(٥) لم نَرَهُ عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ». وقال روح مرة: «عَلَىٰ عَبْدِهِ»(٦).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٦٠) وفيه عمارة بن زاذان الصيدلاني، قال الحافظ: صدوق كثير الخطأ، وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه، وذكره العقيلي في الضعفاء، وقال ابن عدي: لا بأس به يكتب حديثه.

(٢) البخاري (٧٤٠٥) (٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥)، وأحمد (٣/ ١٢٢، ١٣٨).

(٣) البُوع والبَاعُ سواء، وهو قَدْر مَدّ اليَدَيْن وما بينهما من البَدَن.

(٤) انظر التخريج السابق.

(٥) المِطْرَف: بكَسر الميم وفتحها وضمها، الثوبُ الذي في طَرَفيه عَلَمان، والميم زائدةٌ.

(٦) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٤٣٨)، وإسناده حسن، وله شاهد من حديث مالك بن نضلة، رواه أحمد (٣/ ٤٧٣)، والطبراني (١٩/ ٦٢٣)، وابن حبان (٤٥١٧) وإسناده صحيح.

لمَّا فرغ تعالىٰ مِن بيان الأَمْر بالشُّكر شَرَعَ في بَيَانِ الصَّبر، والإرشاد إلىٰ الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة، فإنَّ العبد إمَّا أن يكُون في نعمةٍ فَيَشْكُر عليها، أو في نِقْمَةٍ فيَصْبِر عليها؛ كما جاء في الحديث: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لا يَقْضِي اللهُ**[1] **لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ، فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ؛ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ**»[2].

وبيَّن تعالىٰ أنَّ أجود ما يُستعان به علىٰ تَحمُّل المصائب الصَّبْرُ والصَّلَاةُ، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وفي الحديث: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّىٰ**»[3]. والصَّبْرُ صَبْرَان، فصَبرٌ علىٰ تركِ المَحَارِمِ والمآثم[4] وصَبْرٌ علىٰ فعل الطَّاعات والقُرُبَاتِ. والثاني أكثر ثوابًا؛ لأنَّه المقصود. كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصَّبر في بَابَيْنِ، الصَّبر لله بما أَحَبَّ، وإن ثَقُلَ علىٰ الأنفس والأبدان، والصَّبْرُ لله عمَّا كَرِهَ وإن نازعت إليه الأهواء. فمَنْ كان هكذا، فهو مِنَ الصَّابرين الَّذِين يُسَلِّم عليهم، إن شاء الله.

وقال علي بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأوَّلين والآخِرين يُنادِي مُنادٍ: أَيْنَ الصَّابرون لِيَدْخُلُوا الجنَّة قبل الحِسَابِ؟ قال: فيقوم عُنُقٌ[5] من الناس، فتَتَلَقَّاهم الملائكة، فيقولون: إلىٰ أين يا بَنِي آدم؟ فيقولون: إلىٰ الجنَّة. فيقولون: وقبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومَن أَنْتُم؟ قالوا: الصَّابِرُون، قالوا: وما كان صَبْرُكُم؟ قالوا: صَبَرْنا علىٰ طاعة الله، وصَبَرْنَا عن مَعْصِيَة الله، حتىٰ توفَّانا الله. قالوا: أنتم كما قلتم، ادْخُلُوا الجنَّة، فنِعْمَ أَجْرُ العاملين[6].

قلتُ: ويَشْهَد لهذا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال سعيد بن جبير: الصَّبْرُ: اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاءَ ثَوَابِهِ، وقد يَجْزَعُ[7] الرجل وهو مُتَجَلِّدٌ لا يُرَىٰ منه إلَّا الصبر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ يُخْبِر تعالىٰ أنَّ الشُّهداء في بَرْزَخِهم[8] أحياءٌ يُرْزَقُون، كما جاء في «صحيح مسلم»: «**إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلَ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ**

---

(١) لوحة (١٦٩ ب).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٤/ ٣٣٢) (٦/ ١٥، ١٦) من حديث صهيب ورواه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة.

(٣) حسن: رواه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨) والطبري (١/ ٢٦٠)، وقد تقدم. انظر الآية (٥٥) من هذه السورة.

(٤) جمع مأثم، وهو الأمر الذي يأثم به الإنسان.

(٥) يعني: جماعة أو طائفة من الناس.

(٦) رواه هكذا عن علي بن الحسين بن زيد العابدين، ولم يسنده، ومثل هذا يحتاج إلىٰ رفعه إلىٰ رسول الله ﷺ.

(٧) جَزِعَ: لم يصبر علىٰ ما نزل به.

(٨) البَرْزَخُ: ما بين كل شيئين، وفي «الصحاح»: الحاجز بين الشيئين، والبَرْزَخُ ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلىٰ البعث، فمن مات فقد دخل البَرْزَخَ. اللسان: برزخ.

حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمُ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا، وَأَيُّ شَيْءٍ نَبْغِي، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لا يُتْرَكُونَ مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا، قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، فَنُقَاتِلَ فِي سَبِيلِكَ، حَتَّىٰ نُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ؛ فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي كَتَبْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ»(١).

وفي الحديث(٢) الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ(٣) طَائِرٌ تَعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَىٰ جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»(٤).

ففيه دلالةٌ لعموم المؤمنين أيضًا، وإن كان الشُّهداء قد خصِّصُوا بالذِّكر في القرآن، تشريفًا لهم وتكريمًا وتعظيمًا.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

أخبر تعالىٰ أنه يَبْتلي عباده المؤمنين أي: يختبرهم ويَمْتَحِنَهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمَّد: ٣١] فتارةً بالسَّرَّاء، وتارةً بالضَّرَّاء مِن خوفٍ وجوعٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فإنَّ الجائع والخائف كلًّا منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف. وقال هاهنا: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي: بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي: ذهاب بعضها ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ كمَوْتِ الأَصْحَابِ والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: لا تُغِلّ الحدائق والمزارع كعادتها(٥). كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تُثْمِر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمَنْ صَبَرَ أثابه الله ومَن قَنَط أحلَّ الله به عقابه. ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

وقد حكىٰ بعضُ المفسِّرين أنَّ المراد من الخوف هاهنا: خوف الله، وبالجوع: صيام رمضان، ونقص الأموال: الزكاة، والأنفس: الأمراض، والثمرات: الأولاد.

---

(١) مسلم (١٨٨٧)، وأحمد (٦/ ٣٨٦٨).

(٢) لوحة (١٧٠ أ).

(٣) النسمة: النفس والروح.

(٤) **صحيح**: ابن ماجة (٤٢٧١)، والنسائي (٤/ ١٠٨)، وأحمد (٣/ ٤٥٥)، وابن حبان (٤٦٥٧)، ورواه الترمذي (١٦٤١).

(٥) أي: لاتخرج الثمر المرجو.

وفي هذا نظرٌ، والله أعلم.

ثم بيَّنَ تعالىٰ مَنِ الصابرون الذين شكرهم، قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: تسلَّوا بِقَوْلِهم هذا عمَّا أصابهم، وعَلِمُوا أنَّهم ملكٌ لله يَتَصَرَّف في عَبِيدِهِ بما يَشَاء، وعَلِمُوا أنَّه لا يَضِيعُ لَدَيْهِ مِثْقال ذرَّةٍ يوم القِيَامة، فأحْدثَ لهم ذلك اعترافهم بأنَّهم عبيده، وأنَّهم إليه راجعون في الدَّار الآخرَةِ. ولهذا أخبر تعالىٰ عما أعطاهم علىٰ ذلك[1] فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: ثناءٌ مِن الله عليهم ورحمة.

قال سعيد بن جبير: أي أَمَنَةٌ من العذاب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[2] قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نِعْمَ العِدْلَانِ وَنِعْمَتِ العِلَاوَةُ[3][4] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ فهذان العَدْلَان ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ فهذه العِلَاوَة، وهي ما تُوضَع بين العَدْلَين، وهي زيادةٌ في الحمل فكذلك[5] هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا.

وقد وَرَدَ في ثوابِ الاسترجاع، وهو قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة. فمِن ذلك ما رواه الإمام أحمد:

---

(١) **قال ابن عثيمين رحمه الله:** قد ذكر العلماء أن للإنسان عند المصيبة أربعة مقامات:
المقام الأول: الصبر وهو واجب.
المقام الثاني: الرضا وهو سنة علىٰ القول الراجح؛ والفرق بينه وبين الصبر، أن الصابر يتجرع مرارة الصبر، ويشق عليه ما وقع؛ ولكنه يحبس نفسه عن السخط؛ وأما الراضي: فإن المصيبة باردة علىٰ قلبه لم يتجرع مرارة الصبر عليه؛ فهو أكمل حالًا من الصابر.
المقام الثالث: الشكر: بأن يشكر الله علىٰ المصيبة.
فإن قيل: كيف يشكره علىٰ المصيبة؟
فالجواب: أن ذلك من وجوه:
منها: أن ينسبها إلىٰ ما هو أعظم منها؛ فينسب مصيبة الدنيا إلىٰ مصيبة الدين؛ فتكون أهون؛ فيشكر الله أن لم يجعل المصيبة في الأشد.
ومنها: احتساب الأجر علىٰ المصيبة بأنه كلما عظم المصاب كثر الثواب؛ ولهذا ذكروا عن بعض العابدات أنها أصيبت بمصيبة، ولم يظهر عليها أثر الجزع؛ فقيل لها في ذلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.
المقام الرابع: السخط - وهو محرم - بل من كبائر الذنوب؛ فقد قال النبي ﷺ: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية**».

(٢) لوحة (١٧٠ ب).

(٣) رواه البخاري تعليقًا (٣/ ١٧١)، ووصله الحاكم (٢/ ٢٧٠)، وعنه البيهقي (٤/ ١٥)، وصحح إسناده الحافظ في «تغليق التعليق» (٢/ ٤٧٠).

(٤) **العِدلان:** المِثلان، والعِلاوة :ما يعلق علىٰ البعير بعد تمام الحمل...وظهر بهذا مراد عُمر بالعِدلين وبالعِلاوة، وأن العدلين: الصلاة والرحمة، والعِلاوة: الاهتداء، ويؤيده وقوعهما بعد «علىٰ» المشعرة بالفوقية «فتح الباري» (٣/ ١٧٢)، وانظر: «اللسان»: عدل، و«النهاية» (٣/ ٢٩٥)، و«اللسان»: علا.

(٥) في (ز): «وكذلك».

حدَّثنا يونس، حدَّثنا ليث -يعني ابن سعد- عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن عمرو بن أبي عَمْرو، عن المطلب، عن أم سلمة ﵂ قالت: أتاني أبو سلمة ﵁ يومًا مِن عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعتُ من رسول الله ﷺ قولًا سُررْتُ به. قال: «لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ فَيَسْتَرْجِعُ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أْجُرْنِي (١) فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا فُعِلَ ذَلِكَ بِهِ». قالت أمُّ سلمة ﵂: فحفظت ذلك منه، فلما تُوفِّي أبو سلمة اسْتَرْجَعْتُ وقلتُ: اللَّهمَّ أْجُرْنِي في مصيبتي واخلف لي خيرًا منه، ثم رَجَعْتُ إلىٰ نَفْسِي. فقُلتُ: مِن أَيْنَ لِي خير مِن أَبِي سلَمَة؟ فلما انقضت عدَّتي اسْتَأْذَن عَلَيَّ رَسولُ الله ﷺ -وأَنَا أَدْبَغُ إِهَابًا (٢) لي- فغَسَلْتُ يَدِي من القَرَظ (٣) وأَذِنتُ له، فوَضَعْتُ له وسادةَ أَدَم (٤) حَشْوُها ليفٌ، فقعد عليها، فخَطَبَنِي إلىٰ نفسي، فلما فَرَغ مِن مقالته، قُلتُ: يا رسول الله، مَا بِي أَلَّا يكون بك الرَّغبة، ولكنِّي امرأة فِيَّ غَيْرةٌ شديدةٌ، فأَخافُ أَنْ تَرَىٰ مِنِّي شيئًا يُعَذِّبُنِي الله به، وأنا امرأةٌ قد دَخَلْتُ في السِّنِّ، وأَنَا ذاتُ عِيالٍ، فقال: «أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللهُ ﷻ عَنْكِ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ السِّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكِ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكِ عِيَالِي». قالت: فقد سلَّمْتُ لرسول الله ﷺ. فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه، رسولَ الله ﷺ (٥).

وفي «صحيح مسلم»، عنها أنَّها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا آجَرَهُ اللهُ مِنْ مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» قالت: فلما تُوُفِّيَ أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف اللهُ لي خيرًا منه: رسولَ الله ﷺ (٦)(٧).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، وعَبَّاد بن عباد قالا: حدَّثنا هشام بن أبي هشام، حدَّثنا عباد بن زياد، عن أُمِّه، عن فاطمة ابنة الحسين، عن أبيها الحسين بن علي، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ وَلَا مُسْلِمَةٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَذْكُرُهَا وَإِنْ طَالَ عَهْدُهَا -وَقَالَ عَبَّادٌ: قَدُمَ عَهْدُهَا- فَيُحْدِثُ لِذَلِكَ اسْتِرْجَاعًا، إِلَّا جَدَّدَ اللهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَأَعْطَاهُ مِثْلَ أَجْرِهَا يَوْمَ أُصِيبَ» (٨).

---

(١) أجره يأجره: أثابه وأعطاه الأجر والجزاء. ويقال أيضًا: آجره.

(٢) الإهَاب: الجلد .وقيل :إنما يقال للجلد: إهاب قبل الدبغ، فأما بعده فلا.

(٣) القَرَظُ: شجر يُدْبَغُ به، وقيل :هو ورَقُ السَّلَم يُدْبَغُ به الأَدَمُ، قال أبو حنيفة :القَرَظُ أَجودُ ما تُدبَغُ به الأُهُبُ في أَرض العرب، وهي تُدْبَغُ بورقه وثمره .اللسان : قرظ.

(٤) الأدم والأَدِيمُ: الجِلْد ما كان، وقيل: الأَحْمَر، وقيل: هو المَدْبوغُ.

(٥) صحيح رواه أحمد (٤/ ٢٧).

(٦) لوحة (١٧١ أ).

(٧) مسلم (٩١٨) من حديث أم سلمة.

(٨) ضعيف:رواه ابن ماجة (١٦٠٠)، وأحمد (١/ ٢٠١)، وفي إسناده هشام بن زياد: قال في «التقريب»: متروك، وقد =

ورواه ابن ماجة في «سُنَنه»، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وَكِيع، عن هشام بن زياد، عن أمه، عن فاطمة بنت الحسين، [عن أبيها][١].

وقد رواه إسماعيل بن عُلَيَّة، ويزيد بن هارون، عن هشام بن زياد عن أبيه، [كذا] عن فاطمة، عن أبيها.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن إسحاق السالحيني، أخبرنا حماد بن سلمة، عن أبي سنان قال: دفنتُ ابنًا لي، فإنِّي لَفِي القبر إذ أخذ بيدي أبُو طلحة -يعني الخولاني- فأخرجني، وقال لي: أَلَا أُبَشِّرُك؟ قلت: بلىٰ. قال: حدَّثني الضَّحَّاك بن عبد الرحمن بن عرْزَب، عن أبي موسىٰ، قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ: يَا مَلَكَ المَوْتِ، قَبَضْتَ وَلَدَ عَبْدِي؟ قَبَضْتَ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَثَمْرَةَ فُؤَادِهِ؟ [قَالَ: نَعَمْ.][٢] قَالَ: فَمَا قَالَ؟ قَالَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، قَالَ: ابْنُو لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»[٣].

ثُمَّ رَواه عن علي بن إسحاق، عن عبد الله بن المبارك فذكره. وهكذا رواه الترمذي عن سُوَيد بن نصر، عن ابن المبارك به. وقال: حسن غريب. واسم أبي سنان: عيسىٰ بن سنان.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

قال الإمام أحمد : حدَّثنا سليمان بن داود الهاشمي، أخبرنا إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قلتُ: أرأيت قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قلت: فوالله ما علىٰ أَحَدٍ جناح أن لا يطَّوَّف بهما؟ فقالت عائشة: بِئْسَما قلتَ يا ابن أختي [إنَّها لو كانت][٤] علىٰ ما أوَّلتَها عليه كانت: فلا جناح عليه أَلَّا يَطَّوَّفَ بهما، ولكنَّها إنما أُنزِلَت أنَّ الأنصار كانوا قبل أَن يُسْلِمُوا كانوا يُهِلُّون لمناة الطَّاغية، التي كانوا يَعْبُدُونَها عند المُشلَّل[٥]. وكان مَن أَهَلَّ لها يَتَحَرَّج أن يطوَّف بالصَّفَا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنَّا كنَّا نَتَحرَّج أن نطَّوَّف بالصَّفا والمروة في الجاهلية[٦]. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: ثم قد سنَّ رسولُ الله ﷺ

= اضطرب فرواه مرة عن أمه، ومرة عن عباد بن زياد عن أمه، ومرة عن أبيه.

(١) ليست في (ح).
(٢) زيادة من «المسند».

(٣) حسن لغيره: رواه الترمذي (١٠٢١) نحوه وحسنه، وأحمد (٤/ ٤١٥)، والطيالسي (٥٠٨)، وابن حبان (٢٩٤٨)، وفيه أبو سنان: عيسىٰ بن سنان القسملي. ضعفه أحمد وابن معين، وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي، وفيه أيضًا أبو طلحة الخولاني: قال الحافظ في «التقريب»: مقبول. وأورد له الألباني متابعًا، وحسَّن الحديث بشواهده «الصحيحة» (١٤٠٨).

(٤) ليست في (ز).

(٥) المُشَلَّل: جبل بين مكة والمدينة.

(٦) لوحة (١٧١ ب).

الطَّوَافَ بِهِمَا، فليس لأحدٍ أن يَدَعَ الطَّوَاف بِهِمَا. أخرجاه في «الصحيحين»[(١)].

وفي روايةٍ عن الزُّهْرِيِّ أنَّه قال: فحَدَّثْتُ بهذا الحديثِ أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال لي: إنَّ هذا العِلْم ما كنت سمعته، ولقد سمعتُ رجالًا مِن أهل العلم يقولون: إنَّ النَّاس -إلا مَن ذَكَرَتْ عائشة- كانوا يقولون: إنَّ طوافَنَا بين هذين الحجرين مِن أَمْرِ الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنَّما أُمِرْنَا بالطَّوَاف بالبَيْتِ، ولم نُؤْمَر بالطَّواف بين الصَّفَا والمَرْوَةِ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلَعَلَّهَا نزلت في هؤلاء وهؤلاء.

ورواه البخاري مِن حديث مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة بنحو ما تقدم[(٢)]. ثم قال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن يوسف، حدَّثنا سفيان، عن عاصم بن سُليمان قال: سألت أَنَسًا عن الصَّفا والمروة قال: كنَّا نَرَىٰ ذلك مِن أمر الجاهليَّة، فلما جاء الإسلام أَمْسَكْنَا عنهما، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

[وذكر القُرْطبِيُّ في «تفسيره» عن ابن عبَّاس قال: كانت الشياطين تَتَفَرَّقُ[(٤)(٥)] بين الصَّفَا والمَرْوَةِ اللَّيل كلَّه، وكانت بينهما آلِهَة، فلمَّا جاء الإسلام سألوا رسولَ الله ﷺ عن الطَّواف بينهما، فنزلت هذه الآية[(٦)].

وقال الشَّعبي: كان إِسَافُ علىٰ الصَّفا، وكانت نَائِلَةُ علىٰ المروة، وكانوا يستلمونهما فتحرَّجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية.

قلتُ: وذكر ابن إسحاق في كتاب «السِّيَر»: أنَّ إِسَافًا ونَائِلَةَ كانا بَشَرَيْنِ، فزَنَيَا داخلَ الكعبة [فمُسِخَا حَجَرَيْنِ][(٧)] فنصبتهما قُرَيش تجاه الكعبة ليُعْتَبَرَ بهما الناس، فلمَّا طال عهدهما عُبِدَا، ثمَّ حُوِّلَا إلىٰ الصَّفا والمروة، فنُصِبَا هنالك، فكان مَن طاف بالصَّفا والمروة يستلمهما، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة[(٨)]:

وَحَيْثُ يُنِيخُ الأَشْعَرُونَ رِكَابَهُمْ ... بِمَفْضَىٰ السُّيُولِ مِنْ إِسَافٍ وَنَائِلِ][(٩)]

وفي «صحيح مسلمٍ» من حديث جابر الطويل، وفيه: أنَّ رسول الله ﷺ لما فرغ مِن طوافه بالبيت

---

(١) البخاري (١٦٤٣) (٤٤٩٥) (٤٨٦١)، ومسلم (١٢٧٧)، وأبو داود (١٩٠١)، والترمذي (٢٩٦٥)، وابن ماجة (٢٩٨٦)، والنسائي (٥/ ٢٣٧)، وأحمد (٦/ ١٤٤) وهذا أصح ما نزل في سبب النزول، وأما الآثار الأخرىٰ التي أوردها ابن كثير؛ فإنها لا تصح.

(٢) انظر التعليق السابق. (٣) انظر التعليق السابق.

(٤) كذا بالأصل، وفي القرطبي -وهو كذلك مسندًا عند الطبري-: تعزف.

(٥) الفَرْقُ: خلاف الجمع، وقيل: فَرَقَ للصلاح فَرْقًا، وفَرَّقَ للإفساد تَفْرِيقًا، وانْفَرَقَ الشيء وتَفَرَّقَ وافْتَرَقَ.

(٦) لم يذكر له إسنادًا، والراجح في سبب النزول ما تقدم.

(٧) زيادة من سيرتي ابن إسحاق وابن هشام.

(٨) لم أقف علىٰ دليلٍ صحيحٍ لهذه الروايات، وإنما هي مجرد أخبار فقط، ويحتاج إلىٰ ثبوت ذلك بالخبر الصحيح.

(٩) ليست في الأصل.

عاد إلىٰ الرُّكن فاستلمه، ثمَّ خرج مِن باب الصَّفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ». وفي رواية النسائي: «ابْدَؤُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا شريح، حدَّثنا عبد الله بن المؤمل، عن عطاء بن أبي رباح، عن صفية بنت شيبة، عن حَبِيبة بنت أبي تجراة قالت: رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يطوف بين الصَّفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وَرَاءَهُم، وهو يَسْعَىٰ حتَّىٰ أَرَىٰ رُكْبَتَيْهِ مِن شدَّة السَّعْي يدور به إزارُه، وهو يقول: «اسْعَوْا، فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ»(٢).

ثم رواه الإمام أحمد، عن عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن واصل -مولىٰ أبي عُيَينة- عن موسىٰ بن عبيدة عن صفيَّة بنت شيبة: أنَّ امرأةً أخبرتها أنَّها سمعت النَّبيَّ ﷺ بين الصفا والمروة يقول: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ، فَاسْعَوْا»(٣).

وقد استُدلَّ بهذا الحديث علىٰ مذهب مَن يرىٰ أنَّ السعي بين الصَّفا والمروة ركنٌ في الحج، كما هو مذهب الشافعي ومَنْ وافقه [ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك](٤). وقيل: إنَّه واجبٌ، وليس برُكْنٍ [فإن تركه عمدًا أو سهوًا جبره بدمٍ وهو روايةٌ عن أحمد، وبه تقول طائفة. وقيل: بل مستحَبٌّ، وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين، وروي عن أنس وابن عمر وابن عبَّاس، وحكي عن مالك في العتبية، قال القرطبي: واحتجوا بقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾](٥). وقيل: بل مستحب. والقول الأوَّل(٦) أرجح؛ لأنَّه ﵇ طاف بينهما، وقال: «لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»(٧). فكلُّ ما فعله في حَجَّته تلك واجبٌ لا بدَّ مِن فعله في الحجِّ، إلا ما خرج بدليلٍ، والله أعلم، وقد تقدَّم قوله ﵇: «اسْعَوْا فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ»](٨).

فقد بيَّن الله -تعالىٰ- أنَّ الطَّواف بين الصَّفا والمروة مِن شعائر الله؛ أي: ممَّا شرع الله تعالىٰ لإبراهيم الخليل في مَنَاسِك الحجِّ، وقد تقدَّم في حديث ابن عبَّاس ﵄ أَنَّ أصل ذلك مأخوذٌ من تَطْوَافِ هاجر وتَرْدَادِها بين الصَّفا والمروة في طلب الماء لوَلَدِهَا، لما نَفِدَ ماؤها وزادُها، حين تركهما إبراهيم

---

(١) مسلم (١٢١٨)، وتقدم طرف منه عند قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

(٢) صحيح: والإسناد الذي أورده ابن كثير فيه ضعف، وعلته عبد الله بن المؤمل، رواه أحمد (٦/ ٤٢١)، وابن سعد (٨/ ١٨٠)، والحاكم (٤/ ٧٠) والطريق الأخرىٰ أيضًا فيها ضعف، رواه أحمد (٦/ ٤٣٧) وعلته موسىٰ بن عبيدة: ضعيف. لكنه ثبت من طريق ثالثة بإسناد جيد رواه البيهقي (٥/ ٩٧)، وللحديث طرق ذكرها أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٢٩٦/ ٧٥٧١) صححه المزي وابن عبد الهادي في «التنقيح» والزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٥٦)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٠٧٢).

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) ليست في (ز).

(٥) ليست في (ز).

(٦) لوحة (١٧٢ أ).

(٧) مسلم (١٢١٨).

(٨) ليست في (ز).

عليه السلام هنالك ليس عندهما أحدٌ من النَّاس، فلما خافت الضَّيْعَة علىٰ وَلَدِها هنالك، ونَفِدَ ما عِنْدَها قامَتْ تَطْلُبُ الغَوْثَ مِن الله عز وجل فلَم تزل تَرَدَّدُ في هذه البُقعة المشرَّفة بين الصَّفا والمروة مُتَذَلِّلَةً خائفةً وَجِلَةً مُضْطَرَّةً فقيرةً إلىٰ الله عز وجل حتىٰ كشف الله كُرْبَتَها، وآنس غُرْبَتَها، وفرَّج شِدَّتَها، وأَنْبَعَ لها زمزم التي ماؤها طعامُ طُعْمٍ(١)، وشِفاءُ سُقْمٍ، فالسَّاعي بينهما ينبغي له أن يَسْتَحْضِر فقرَهُ وذُلَّه وحاجَتَهُ إلىٰ الله في هدايةِ قَلْبِهِ وصلاح حاله وغُفْرَان ذَنْبِه، وأن يَلْتَجِئَ إلىٰ الله عز وجل لِيُزِيح ما هو به من النَّقائص والعيوب، وأن يهديه إلىٰ الصراط المستقيم، وأن يُثَبِّته عليه إلىٰ مماته، وأن يحوِّله مِن حاله الذي هو عليه من الذُّنوب والمعاصي، إلىٰ حال الكَمال والغُفران والسَّداد والاستقامة، كما فعل بهاجر -عليها السلام.

[وقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما علىٰ قَدْر الواجب ثامنةً وتاسعةً ونحو ذلك. وقيل: يطَّوَّف بينهما في حجَّة تَطَوُّع، أو عمرة تطوع. وقيل: المراد تطوع خيرًا في سائر العبادات. حكىٰ ذلك فخر الدِّين الرازي، وعزىٰ الثالث إلىٰ الحسن البصري، والله أعلم. وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يثيب علىٰ القليل بالكثير ﴿عَلِيمٌ﴾ بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه و﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].](٢)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

هذا وعيدٌ شَديدٌ لمن كَتَم ما جاءتْ به الرُّسُلُ مِن الدَّلالات البَيِّنَة علىٰ المقاصد الصَّحيحَةِ والهدىٰ النَّافع للقلوب مِن بعد ما بيَّنَه الله -تعالىٰ- لعباده في كُتُبِه، التي أنزلها علىٰ رسله.

قال أبو العالية: نَزَلَتْ في أهل الكتاب، كتمُوا صفةَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ثم أخبر أنهم يَلْعَنُهُم كلُّ شيءٍ علىٰ صنيعهم ذلك، فكما أنَّ العالم يستغفر له كلُّ شيءٍ، حتَّىٰ الحوت في الماء والطَّيْرَ في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء [-الذين يكتمون-](٣) فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

وقد ورد في الحديث المسند مِن طرق يَشُدُّ بعضها بعضًا، عن أبي هريرة رضي الله عنه وغيره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»(٤). والذي في

(١) أي: يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام.
(٢) ليست في (ز).
(٣) زيادة من (ح).
(٤) صحيح: رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجة (٢٦٦) من حديث أبي هريرة. وله شواهد أخرىٰ. انظر: تعليق الشيخ حسن أبي الأشبال علىٰ «جامع بيان العلم» (١/ ٢-١٨).

«الصَّحيح» عن أبي هريرة أنَّه قال[١]: لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحدًا شيئًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ الآية[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدَّثنا عمار بن محمَّد، عن ليث بن أبي سليم، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان أبي[٣] عُمَر، عن البراء بن عازب ت، قال: كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في جنازة، فقال: «**إِنَّ الكَافِرَ يُضْرَبُ ضَرْبَةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَيَسْمَعُ صَوْتَهُ كُلُّ دَابَّةٍ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ، فَتَلْعَنُهُ كُلُّ دَابَّةٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ يَعْنِي: دَوَابَّ الأَرْضِ**»[٤].

[ورواه ابن ماجة عن محمَّد بن الصباح عن عمار بن محمَّد به][٥].

وقال عطاء بن أبي رباح: كلُّ دابَّةٍ والجن والإنس. وقال مجاهد: إذَا أَجْدَبَتِ الأرض قالتِ البهائم: هذَا مِن أجل عُصاةِ بَنِي آدم، لَعَنَ اللهُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ يعني: تلعنهم ملائكة الله، والمؤمنون[٦].

[وقد جاء في الحديث: «**أَنَّ العَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّىٰ الحِيتَانَ فِي البَحْرِ**»[٧]، وجاء في هذه الآية: أنَّ كاتم العلم يَلْعَنُه الله والملائكة والنَّاس أجمعون، واللَّاعِنُون أيضًا، وهم كلُّ فصيحٍ وأعجمي إمَّا بلسان المقال، أو الحال، أو لو كان له عقل، أو يوم القيامة، والله أعلم][٨].

---

(١) لوحة (١٧٢ ب).

(٢) البخاري (١١٨).

(٣) في الأصول: «بن»، وهو خطأ؛ فهو زاذان أبو عمر الكندي، ويُكنىٰ أيضًا أبا عبد الله.

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٦٩)، ورواه ابن ماجة (٤٠٣١) نحوه، قال البوصيري: في إسناده ليث بن أبي سليم: ضعيف.

(٥) ليست في (ز).

(٦) قال ابن عثيمين رحمه الله: ولا يُلعن الشخص المعين؛ بل علىٰ سبيل التعميم؛ لأن الصحيح أن لعن المعين لا يجوز – ولو كان من المستحقين للعنة؛ لأنه لا يُدرىٰ ماذا يموت عليه؛ قد يهديه الله، كما قال تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]؛ وأما لعنه بعد موته أيجوز، أم لا يجوز؟ فقد يقال: إنه لا يجوز لقول النبي ﷺ: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلىٰ ما قدموا**»؛ وهذا عام؛ ثم إنه قد يثير ضغائن وأحقاد أقاربه، وأصحابه، وأصدقائه؛ فيكون في ذلك مفسدة؛ ثم إن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»؛ وأيّ خير في كونك تلعن واحدًا كافرًا قد مات؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها، والقدح فيها، وذمها؛ أما هو شخصيًّا فإنه لا يظهر لنا جواز لعنه – وإن كان المعروف عند جمهور أهل العلم أنه يجوز لعنه إذا مات علىٰ الكفر.

(٧) حسن: من حديث أبي ذر، وله طرق جمعها وبين عللها الشيخ/ حسن أبو الأشبال في تعليقه علىٰ كتاب «**جامع بيان العلم وفضله**» (١٦٩ – ١٨٣) فراجعه في هذا المصدر، فإنه جدير بذلك.

(٨) ليست في (ز).

ثم استثنىٰ الله تعالىٰ مِن هؤلاء مَن تاب إليه فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ أي: رجعُوا عما كانوا فيه وأَصْلَحُوا أعمالهم وأحوالهم وبيَّنُوا للنَّاس ما كانوا كَتَمُوهُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفي هذا دلالةٌ علىٰ أنَّ الدَّاعِيَة إلىٰ كُفرٍ، أو بِدْعَةٍ إذا تَابَ إلىٰ الله تَابَ الله عَلَيْهِ.

وقد وَرَدَ أنَّ الأُمَمَ السَّابقة لم تكن التَّوْبَةُ تُقبل مِن مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا مِن شريعة نبيِّ التَّوْبَة ونبيِّ الرَّحمة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر تعالىٰ عمَّن كفر به واستمرَّ به الحالُ إلىٰ مماته بأنَّ ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللَّعنة الباقية[1] لهم إلىٰ يوم القيامة، ثمَّ المصاحبة لهم في نار جهنَّم التي ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فيها؛ أي: لا ينقص عَمَّا هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُغَيَّر عنهم ساعة واحدة، ولا يفتَّر، بل هو مُتَواصِلٌ دائمٌ، فنَعُوذُ بالله مِن ذلك.

وقال أبو العالية وقتادة: إنَّ الكافر يُوقَفُ يوم القيامة فيَلْعَنُه الله، ثمَّ تَلْعَنُه الملائكة، ثم يَلْعَنُه النَّاس أجمعون.

فصل

[لا خلاف في جوازِ لَعْنِ الكُفَّار، وقد كان عُمرُ بن الخطاب ﷺ فَمَنْ بعدَهُ مِن الأئمَّة يَلْعَنُون الكَفَرَةَ في القُنُوت وغيره؛ فأمَّا الكافر المُعَيَّن، فقَدْ ذَهَبَ جماعةٌ مِن العلماء إلىٰ أنَّه لا يُلْعَنُ؛ لأنَّا لا نَدْرِي بِمَا يُخْتَمُ له، واستدلَّ بعضهم بهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. وقالت طائفةٌ أخرىٰ: بل يَجُوزُ لعن الكافرِ المعيَّن. واختار ذلك الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي، ولكنَّه احتجَّ بحديثٍ ضعيفٍ، واستدلَّ غيره بقوله ﷺ في «صحيح البخاري» في قصَّة الذي كان يُؤْتَىٰ به سكران فيَحُدُّه، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يُؤْتَىٰ به، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تَلْعَنْهُ فإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[2]، قالوا: فَعِلَّةُ المنعِ مِن لَعْنِهِ؛ بأنَّه يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه، فدلَّ علىٰ أنَّ مَن لا يُحِبُّ الله ورسوله يُلعن، والله أعلم][3].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

يُخبِرُ تعالىٰ عَن تَفَرُّدِهِ بالإِلَهِيَّة، وأنَّه لا شَرِيك له ولا عَدِيل له، بل هو الله الوَاحدُ الأَحَدَ الفَرْدُ الصَّمد، الَّذي لا إله إلا هو وأنَّه الرَّحمَن الرَّحيم. وقد تقدَّم تفسير هذين الاسمين في أوَّل السُّورة. وفي الحديث عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله[4] ﷺ أنَّه قال: «**اسْمُ اللهِ**

---

(١) في (ز): البالغة.
(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).
(٣) ليست في (ز).
(٤) لوحة (١٧٣ أ).

الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وَ ﴿الٓمٓ ① اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]»(١).

ثم ذكر الدَّليل علىٰ تَفَرُّدِهِ بالإِلَهيَّة بتفرُّدِهِ بِخَلْقِ السَّموات والأرض وما فيهما، وما بَين ذلك ممَّا ذَرأَ وبَرَأَ(٢) من المخلوقات الدَّالَّة علىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في [لَطَافَتِهَا و](٣) ارتفاعها واتِّسَاعِهَا وكواكبها السَّيَّارة والثَّوابِتِ ودَوَران فَلَكِهَا، وهذه الأرض في [كَثَافَتِهَا و](٤) انخفاضها وجِبَالها وبِحَارِهَا وقِفَارِها وَوِهَادِهَا وعُمْرَانِهَا ومَا فِيهَا مِن المَنَافِعِ ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ هذا يجيءُ ثم يذهب ويَخْلُفُهُ الآخر ويَعْقُبُه، لا يتأخَّر عنه لحظةً، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وتارةً يطُول هذا ويَقْصُر هذا، وتارةً يأخذ هذا من هذا ثم يَتَقَارَضَان، كما قال تعالىٰ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أي: يَزِيدُ مِن هذا في هذا، ومِن هذا فِي هذا ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ أي: في تَسْخِيرِ البحر لحَمْل السُّفن من جانبٍ إلىٰ جانبٍ لمعاش النَّاس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونَقْل هذا إلىٰ هؤلاء ومَا عِنْد أُولَئِكَ إلىٰ هؤلاء ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٦] ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: علىٰ اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها

---

(١) **حسن لغيره**: رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجة (٣٨٥٥)، وأحمد (٦/ ٤٦١) وفيه عبيد الله بن أبي زياد، قال الحافظ: ليس بالقوي، وشهر بن حوشب، قال الحافظ: صدوق كثير الإرسال والأوهام، ويشهد لهذا الحديث ما رواه ابن ماجة (٣٨٥٦)، والحاكم (١/ ٥٠٦) من حديث أبي أمامة: اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث: البقرة وآل عمران وطه. وإسناده حسن، والحديث حسَّنه الشيخ الألباني في «**تعليقه علىٰ سنن أبي داود**».

(٢) ذرأ: خلق. ينظر: «النهاية» (١٥٦/ ٢)، و«اللسان»: ذرأ. و برأ في أسماء الله تعالىٰ البارئ هو الذي خلَق الخلْق لا عَنْ مثال، ولهذه اللفظة من الاختصاص بخَلْق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلَّما تستَعمل في غير الحيوان، فيقال: برأ الله النسَمَة، وخلَق السموات والأرض. «النهاية» (١/ ١١١)، وانظر: «اللسان» برأ.

(٣) زيادة من (ح). (٤) زيادة من (ح).

وصغرها وكبرها، وهو يَعْلَم ذلك كلّه ويرزقه لا يَخفَىٰ عليه شيءٌ مِن ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: فتارةً[١] تأتي بالرَّحْمَة وتارةً تأتي بالعذاب، تارةً تأتي مبشِّرةً بين يدي السَّحاب، وتارةً تسُوقُه، وتارةً تجمَعُهُ، وتارةً تُفرِّقه، وتارةً تصرِّفه، ثم تارةً تأتي من الجنوب وهي الشَّاميَّة، وتارةً تأتي من ناحية اليَمَن، وتارةً صَبًا[٢] وهي الشرقيَّة التي تصدم وجهَ الكعبة، وتارةً دَبُورٌ وهي غربيَّة تَفِدُ مِن ناحية دُبُر الكعبة[٣] والرِّياح تُسَمَّىٰ كلها بحسب مرورها علىٰ الكعبة.

وقد صنَّف الناس في الرِّياح والمطر والأنواء كتبًا كثيرةً فيما يتعلق بلُغَاتِهَا وأحكامها، وبَسْطُ ذلك يطول هاهنا، والله أعلم. ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: سائر بين السماء والأرض يُسَخَّر إلىٰ ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالىٰ: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ في هذه الأشياء دلالات[٤] بَيِّنَةٌ علىٰ وحدانية الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيْه: أخبرنا محمَّد بن أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا أبو سعيد الدَّشْتكِيُّ، حدَّثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: أَتَتْ قريش محمَّدًا ﷺ فقالوا: يا محمَّد، إنَّما نُريد أن تدعو رَبَّك أَن يجعل لنا الصَّفا ذهبًا، فنشتَرِي به الخيل والسِّلاح، فنؤمن بك ونقاتل معك. قال: «**أَوْثِقُوا لِي لَئِنْ دَعَوْتُ رَبِّي فَجَعَلَ لَكُمُ الصَّفَا ذَهَبًا لَتُؤْمِنُنَّ بِي**» فأوثقوا له، فدعا ربَّه، فأتاه جبريل فقال: إنَّ ربَّك قد أعطاهم الصفا ذهبًا علىٰ أنَّهم إن لم يُؤمنوا بك عذَّبهم عذابًا لم يُعذِّبه أحدًا من العالمين. قال محمَّدٌ ﷺ: «**رَبِّ لَا، بَلْ دَعْنِي وَقَوْمِي فَلْأَدْعُهُمْ يَوْمًا بِيَوْمٍ**». فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ الآية[٥].

---

(١) في (ز): تارة.

(٢) الصبا: ريحٌ مهبها من مشرق الشمس إذ استوىٰ الليل والنهار.

(٣) الدَّبُور: الريح التي تقابل الصَّبَا والقَبُول، وهي ريح تَهُبُّ من نحو المغرب، والصبا تقابلها من ناحية المشرق. قال ابنُ الأثير: وقول من قال: سُميت به؛ لأنها تأتي من دُبُرِ الكعبة ليس بشيء.

(٤) لوحة (١٧٣ ب).

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٧٢/ ١٤٦٥)، وفيه جعفر بن أبي المغيرة يروي عن سعيد بن جبير، وروايته عنه ليست بالقوية، وانظر تفسير الآية (٢٧-٢٩) من سورة الرعد.

- وأخرج أحمد (١/ ٢٥٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٩٠) نحوه من حديث ابن عباس، وإسناده صحيح.

ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن جعفر بن أبي المغيرة به. وزاد في آخره: وكيف يَسْأَلُونَك عن الصَّفا وهُم يَرَوْن مِن الآيات ما هو أَعْظَمُ من الصَّفا.

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو حذيفة، حدَّثنا شبل، عن ابن أبي نَجيح، عن عطاء، قال: نزلت على النَّبيِّ ﷺ بالمدينة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ فقال كفار قريش بمكَّة: كيف يَسَع النَّاس إلهٌ واحدٌ؟ فأَنزَل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١].

فبِهَذا يعلمون أنَّه إلهٌ واحدٌ، وأنَّه إلهُ كلِّ شيءٍ وخالق كلِّ شيءٍ[٢].

وقال وكيع: حدَّثنا سفيان، عن أبيه، عن أبي الضُّحَىٰ قال: لما نزلت: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ إلى آخر الآية، قال المشركون: إن كان هكذا فَلْيأْتِنا بآيةٍ. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾[٣].

ورواه آدَمُ بن أبي إِيَاس، عن أبي جعفر -هو الرازي- عن سعيد بن مَسْرُوق -والد سفيان- عن أبي الضُّحَىٰ به[٤].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

يَذْكُر تعالىٰ حالَ المشركين بِهِ في الدُّنيا وما لهم في الدَّار الآخِرَة، حيث جعلوا له أَنْدَادًا؛ أي: أمثالاً

---

(١) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٩٥) إلىٰ ابن جرير (٢/ ٦١)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم (١/ ٢٧٢/ ١٤٦٢) عن عطاء ولا يصح لإرساله.

(٢) قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، علىٰ ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء علىٰ مدبرها ومصرفها.
فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

(٣) ضعيف: عزاه السيوطي لوكيع والفريابي وسعيد بن منصور (١/ ٦٤٠/ ٢٣٩)، وابن جرير (٢/ ٦١)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٧٢/ ١٤٦١) عن أبي الضحىٰ وهو مرسل كذلك.

(٤) لوحة (١٧٤ أ).

ونُظَرَاء يَعْبُدُونَهم معه ويُحِبُّونَهُم كحُبِّه[1]، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضِدَّ له ولا نِدَّ له، ولا شريكَ معه. وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذَّنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[2].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولِحُبِّهم لله وتَمام معرفتهم به، وتَوْقِيرِهم وتوحيدهم له، لا يُشْرِكُون به شيئًا، بل يَعْبُدُونَه وحده ويَتَوَكَّلُون عليه، ويَلْجَؤُون في جَمِيع أُمُورِهِمْ إليه. ثم تَوَعَّدَ تعالىٰ المشركين به، الظَّالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

[قال بعضهم: تقديرُ الكلَام: لو عَايَنُوا العذاب لعَلِمُوا حينئذٍ أنَّ القوَّةَ لله جميعًا][3]؛ أي: إن الحُكْم له وحدَهُ لا شَرِيكَ له، وأنَّ جميع الأَشْيَاءِ تحتَ قَهْرِهِ وغَلَبَتِهِ وسلطانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] يقول: لو عَلِمُوا ما يُعَايِنُونَه[4] هنالك، وما يحِلُّ بهم مِن الأمر الفَظِيعِ المُنْكَر الهَائِلَ عَلَىٰ شَرْكِهِم وكُفْرِهِم، لانتهوا عما هم فيه مِن الضَّلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتَبَرُّؤ المتبوعين من التَّابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ تبَرَّأَتْ منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنَّهم يعبدونهم في دار الدُّنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

والجن أيضًا تَتبرَّأ منهم، ويَتَنَصَّلُون مِن عبادتهم لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف].

---

(١) قال ابن عثيمين رحمه الله: أي كحبهم لله؛ أو كحب المؤمنين لله؛ والأول أظهر؛ ولهذا جعلوهم أندادًا - أي هؤلاء جعلوا هذه الأصنام مساويةً لله في المحبة فيحبونهم كحب الله -؛ فهم يحبون هذه الأصنام، ويعتقدون أنها تنفع وتضر؛ ولا فرق في ذلك بين من يتخذ محبوباً إلىٰ الله ﷻ، أو غير محبوب إليه؛ فمن اتخذ النبي ﷺ ندًّا لله في المحبة، والتعظيم، كمن اتخذ صنماً من شجر، أو حجر؛ لأن النبي ﷺ، وهذا الصنم كلاهما لا يستحق أن يكون ندًّا لله ﷻ؛ ولهذا لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ولما كان ظاهر الآية يشمل الأنبياء الذين عُبدوا من دون الله، استثناهم الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١] -أي: عن النار ولو عُبدوا من دون الله-؛ وقال النبي ﷺ لرجل، قال له: ما شاء الله وشئتَ: «أجعلتني لله ندًّا! بل ما شاء الله وحده»؛ فأنكر عليه أن يجعله ندًّا لله.

(٢) البخاري (٤٤٥٧) (٦٠٠١) (٦٨٦١) (٧٥٢١)، ومسلم (٨٦)، وأبو داود (٢٣٠١)، وابن أبي شيبة في «المسند» (٢٣٨) (٣٦٢)- بتحقيقي.

(٣) ليست في (ز).

(٤) في (ز): «يقتنونه»، وفي (ح): «يعانوه»، والمثبت هو الأصح.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ(١) الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي: عاينوا عذابَ الله، وتقطَّعت بهم الحيَلُ وأسبابُ الخلاص ولم يجدوا عن النار مَعْدلًا ولا مَصْرفًا.

قال عطاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: المودَّة. وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ أي: لو أن لنا عَوْدة إلىٰ الدَّار الدُّنْيا حتىٰ نَتبرَّأ مِن هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نُوحِّد الله وحده بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو رُدُّوا لعادُوا لما نُهُوا عنه. كما أخبر الله تعالىٰ عنهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أي: تذهب وتَضمَحِلُّ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الآية [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ الآية [النور: ٣٩]؛ ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

---

(١) لوحة (١٧٤ ب).

لمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّه لا إله إلا هو، وأنَّه المستقلُّ بالخلق، شرع يُبيِّن أنَّه الرزَّاق لجميع خَلْقِهِ، فذكر في[1] مقام الامْتِنَان أنَّه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من الله طيبًا؛ أي: مُسْتَطابًا في نفسه غير ضارٍّ للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتِّباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضلَّ أتباعه فيه مِن تحريم البَحَائر والسَّوائب والوصائل[2] ونحوها مما زَيَّنَه لهم في جاهليَّتِهِم، كما في حديث عياض بن حمَار الذي في «صحيح مسلم» عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنَّ كُلَّ مَا أَمْنَحُهُ عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ» وفيه: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي[3] حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ[4] عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِم مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ»[5].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيْه: حدَّثنا سليمان بن أحمد، حدَّثنا محمَّد بن عيسىٰ بن شيبة المصري، حدَّثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحْتِيَاطِي، حدَّثنا أبو عبد الله الجُوزجَانِي -رفيق إبراهيم بن أدهم- حدَّثنا ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: تُليت هذه الآية عند النَّبيِّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فقَام سعدُ بن أبي وقَّاص، فقال: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يَجْعَلَنِي مُسْتَجَاب الدَّعوة، فقال. «يَا سَعْدُ، أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ»[6].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تنفيرٌ عنه وتَحذيرٌ منه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال قتادة، والسُّدِّي في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ كلُّ معصيةٍ لله فهي مِن خطوات الشيطان.

وقال عكرمة: هي نَزَغَاتُ الشيطان، وقال مجاهد: خُطَاهُ، أو قال: خَطَايَاهُ.

وقال أبو مِجْلَز: هي النُّذور في المعاصي.

وقال الشعبي: نَذَرَ رجلٌ أَن ينحر ابنه فأَفْتَاهُ مسروق بذَبْحِ كَبْشٍ، وقال: هذا من خطوات الشيطان.

---

(١) في (ز): «فذكر ذلك في».

(٢) سيأتي بيانها في سورة المائدة.

(٣) لوحة (١٧٥ أ).

(٤) أي: اسْتَخَفَّتْهم، فجَالُوا مَعهم في الضَّلَال. يقال: جَال واجْتَال: إذا ذهب وجاء، ومنه الجَوَلَانُ في الحرْب، واجْتَالَ الشَّيءَ: إذا ذَهَب به وسَاقَه، والجَائِل: الزَّائلُ عن مكانه، ورُوي بالحاء المهملة.

(٥) مسلم (٢٨٦٥).

(٦) ضعيف: رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٩٥)، وضعفه المنذري في «الترغيب»، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٩١)، والألباني في «الضعيفة» (١٨١٢).

وقال أبو الضحىٰ، عن مسروق: أتىٰ عبد الله بن مسعود ﵁ بضَرْعٍ ومِلْحٍ، فجعل يأكل، فاعتزلَ رجلٌ مِن القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أُرِيدُه. فقالَ: أصائمٌ أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حَرَّمْتُ أَنْ آكُلَ ضَرْعًا أبدًا. فقال ابن مسعود: هذا مِن خُطُواتِ الشيطان، فاطْعَمْ وكَفِّر عَن يَمِينِكَ[1].

رواه ابن أبي حاتم، وقال أيضًا:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا حَسَّان بن عبد الله المصْري[2]، [ثنا السري بن يحيىٰ][3] عن سليمان التيمي، عن أبي رافع، قال: غَضِبْتُ علىٰ امْرَأَتِي، فقالت: هي يومًا يهوديَّةً ويومًا نصرانيَّةً، وكل مملوكٍ لها حُرٌّ، إن لم تُطَلِّق امرأَتَك. فأتيت عبد الله بن عمر ﵄ فقال: إنَّما هذه مِن خطوات الشيطان[4]. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذٍ أَفْقَه امرأةٍ في المدينة. وأَتَيْتُ عاصمًا وابن عمر فقالا مثل ذلك[5].

وقال عبد بن حميد: حدَّثنا أبو نعيم، عن شريك، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: ما كان مِن يَمِينٍ أو نذرٍ في غَضَب، فهو مِن خطوات الشيطان، وكفَّارتُهُ كفَّارَةُ يمينٍ[6].

[وقال سعيد بن داود في «تفسيره»: حدَّثنا عبادة بن عباد المهلبي عن عاصم الأحول، عن عكرمة في رجل قال لغلامه: إن لم أَجْلِدْكَ مائةَ سَوْطٍ فامرأَتُهُ طَالِقٌ، قال: لا يَجْلِد غلامَهُ، ولا تُطَلَّق امرأَتُهُ؛ هذا من خطوات الشيطان][7].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ[8] وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما يأمركم عدوُّكم الشيطان بالأفعال السَّيِّئة، وأَغْلَظُ مِنهَا الفاحشة كالزِّنا ونحوه، وأَغْلَظُ من ذلك وهو القول علىٰ الله بلا علمٍ، فيدخل في هذا كلُّ كافرٍ وكلُّ مبتدع أيضًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٨٠/ ١٥٠٣)، وإسناده حسن.
(٢) في (ز): البصري، والمثبت هو الصواب.
(٣) زيادة من «تفسير ابن أبي حاتم».
(٤) لوحة (١٧٥ ب).
(٥) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٨٠/ ١٥٠٢) وإسناده صحيح.
(٦) في إسناده شريك بن عبد الله القاضي: وهو سيء الحفظ، وعبد الكريم بن أبي المخارق: ضعيف، كما في «التقريب».
(٧) ليست في (ز).
(٨) قال أبو بكر الجزائري: لفظ «الفحشاء» لم يطلق في القرآن إلا علىٰ فاحشة الزنا واللواط اللهم إلا في آية واحدة، وهي: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ﴾ فإن الفحشاء هنا بمعنىٰ البخل بمنع الزكاة.

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء الكفرة من المشركين: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ علىٰ رسوله، واتْرُكُوا ما أنتم فيه منَ الضَّلَالِ والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: وجدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: من عبادة الأصنام والأنداد.

قال الله تعالىٰ مُنْكِرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم فهمٌ ولا هدايةٌ!!

وروىٰ ابن إسحاق عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس ﵄: أنها نزلت في طائفةٍ من اليَهُود، دعاهم رسول الله ﷺ إلىٰ الإسلام، فقالوا: بل نَتَّبع ما أَلْفَيْنَا عليه آباءنا . فأنزل الله هذه الآية(١).

ثمَّ ضَرَبَ لهم تعالىٰ مثلًا كما قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠] فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً﴾ أي: فيما هُم فيه من الغيِّ والضلال والجهل كالدَّواب السَّارحة التي لا تَفْقَهُ ما يُقَالُ لها، بل إذا نَعَقَ بها رَاعِيهَا؛ أي: دعاها إلىٰ ما يُرْشِدُهَا، لا تَفْقَهُ ما يقول ولا تَفْهَمُهُ، بل إنَّما تسمع صوته فقط.

هكذا رُوِيَ عن ابن عبَّاس، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني والربيع بن أنس، نحو هذا.

[وقيل: إنَّما هذا مثلٌ ضُرِبَ لهم في دعائهم الأصنَام التي لا تسمع ولا تُبْصِر ولا تَعْقِل شيئًا، اختاره ابن جرير، والأول أولىٰ؛ لأنَّ الأصنام لا تَسْمَع شيئًا ولا تَعْقِلُه ولا تُبْصِرُه، ولا بَطْشَ لها ولا حياة فيها](٢).

وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أي: صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا يَتَفَوَّهُون به، عُمْيٌ عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يعقلون شيئًا ولا يفهمونه، [كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾](٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)﴾

يقول تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين بالأكل من(٤) طيِّبات ما رزقهم تعالىٰ، وأن يشكروه علىٰ ذلك، إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبُّل الدعاء والعبادة، كما أنَّ الأكل مِن الحرام يَمْنَع قبولَ الدُّعاء

(١) ضعيف: في إسناده محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول.
(٢) ليست في (ز).
(٣) ليست في (ز).
(٤) لوحة (١٧٦ أ).

والعبادة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمد:

حدَّثنا أبو النضر، حدَّثنا الفُضَيل بن مرزوق، عن عديٍّ بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وَإنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ(١)، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ(٢)، فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»(٣).

ورواه مسلم في «صحيحه»، والترمذي من حديث فضيل بن مرزوق.

ولما امْتَنَّ تعالىٰ عليهم برزقه، وأرشدهم إلىٰ الأكل من طَيِّبِه، ذكر أنَّه لم يُحَرِّم عليهم مِن ذلك إلا الميتة، وهي التي تَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِهَا مِن غير تَذْكِيَةٍ، وسواء كانت مُنْخَنِقَةً أو مَوْقُوذَةً أو مُتَرَدِّيَةً أو نَطِيحَةً(٤) أو قد عدا عليها السبع.

[وقد خصَّص الجمهور مِن ذلك ميتة البحر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] علىٰ ما سيأتي في الحديث، [وحديث العنبر في](٥) «الصحيح»، وفي «المسند» و«الموطأ» و«السنن» قوله عليه السلام في البحر: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ»(٦).

وروىٰ الشَّافعي وأحمد وابن ماجة والدارقطني مِن حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ؛ السَّمَكُ وَالجَرَادُ، وَالكَبِدُ والطِّحَالُ»(٧)، وسيأتي تقرير ذلك في سورة المائدة.

ولبن الميتةِ وبَيضُها المتصل بها نَجِسٌ عند الشَّافعي وغيره؛ لأنَّه جزءٌ منها.

وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنَّه يَنْجُسُ بالمجاوَرَة، وكذلك أَنْفِحَةُ(٨) الميتةِ فيها الخلاف، والمشهور عندهم أنَّها نجسة.

وقد أَوْرَدُوا علىٰ أنفسهم أَكْلَ الصحابة مِن جُبْنِ المجوس، فقال القُرْطُبي في «تفسيره»(٩) هاهنا ما

---

(١) الشَّعِثُ: المُغْبَرُّ الرأسِ المُنْتَتِفُ الشَّعَرِ الحاف الذي لم يَدَّهِنْ «اللسان» شعث. واغبَرَّ الشيءُ: عَلاه الغُبار.

(٢) غُذِيَ بالحرام: رُبي بالحرام.

(٣) مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد (٣٢٨).

(٤) سيأتي بيانها في سورة المائدة.

(٥) زيادة من ط. الشعب.

(٦) صحيح: أبو داود (٨٣)، وابن ماجة (٣٨٦)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (١/ ٥٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٧- ٣٩٤).

(٧) رواه أحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجة (٣٣١٤)، وانظر: «الصحيحة» (١١١٨).

(٨) الإنفحة: كَرِشُ الحَمَلِ أو الجَدْي ما لم يأكل، فإذا أكَلَ فهو كرش، وكذلك المِنْفَحة.

(٩) «القرطبي» (٢/ ٢٢١)، وفيه: «قدر ما يقع من الأنفحة في اللبن المجبن يسير، واليسير من النجاسة معفو عنه إذا خالط

يُخَالِط اللبنَ يَسيرٌ، ويُعْفَىٰ عَن قليل النَّجاسة إذا خالطَ الكثيرَ مِن المائع.

وقد روىٰ ابن ماجة مِن حديث سيف بن هارون، عن سليمان التَّيمي، عن أبي عثمان النَّهدي، عن سلمان رضي الله عنه سُئِل رسول الله ﷺ عن السَّمن والجبن والفراء، فقال: «الحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَالحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عُفِيَ عَنْهُ»[(١)]][(٢)].

وكذلك حرَّم عليهم لحم الخنزير، سواء ذُكِّي أو مات حَتْفَ أَنْفِهِ، ويدخُلُ شَحْمُهُ في حكم لحمه إمَّا تغليبًا أو أنَّ اللَّحْمَ يَشْمَل ذلك، أو بطريق القياس علىٰ رأيٍ.

وكذلك حَرَّم عليهم ما أُهِلَّ به لِغَيْرِ الله، وهو ما ذُبِحَ علىٰ غير اسمه تَعَالىٰ من الأَنْصَاب والأَنْدَادِ والأَزْلَام[(٣)]، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية يَنْحَرُونَ لَهُ.

[وذكر القرطبي عن ابن عطية أنَّه نقل عن الحسن البصري: أنَّه سُئل عَن امْرَأَةٍ عملت عُرْسًا للعبها فنَحَرَتْ فيه جزورًا فقال: لا تؤكل؛ لأنها ذَبَحَتْ لصَنَم.

وأورد القُرْطُبي عن عائشة أنَّها سُئِلَت عما يَذْبَحُهُ العَجَم في أعيادهم فيُهْدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذُبِح لذلك اليوم فلا تأكلوه، وكلوا من أشجارهم[(٤)]][(٥)].

ثمَّ أباح تعالىٰ تناول ذلك عند الضَّرُورَة والاحتياج إليها، عند فَقْدِ غَيْرِهَا من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: في غير بَغْيٍ ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: في أكل ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال مجاهد: فمَن اضْطُرَّ غير باغٍ ولا عَادٍ، قاطعًا للسَّبيل، أو مفارقًا للأئمَّة، أو خارجًا في مَعْصِيَة الله، فله الرُّخصة، ومَن خرج باغيًا أو عَادِيًا أو في معصيةِ الله فلا رُخْصَةَ له، وإن اضطر إليه، وكذا روي عن سعيد بن جبير ت.

= الكثير من المائع».

(١) حسن لغيره: رواه الترمذي (١٧٢٦)، وابن ماجة (٣٣٦٧)، والحاكم (٤/ ١١٥)، وإسناده ضعيف وعلته سيف بن هارون. قال الحافظ: ضعيف أفحش ابن حبان القول فيه.
قلت: له شاهد من حديث أبي الدرداء. رواه الحاكم (٢/ ٣٧٥) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧١): رواه البزار والطبراني في «الكبير» وإسناده حسن.

(٢) ليست في (ز).

(٣) سيأتي بيانها في سورة المائدة.

(٤) رواه ابن راهويه في «مسنده» (٣/ ٩١٧)، وابن أبي شيبة (٨/ ٨٧) وفيه قابوس بن أبي ظبيان، قال الحافظ: فيه لين.

(٥) ليست في (ز).

وقال سعيد في رواية عنه ومقاتل بن حيان: غير بَاغٍ: يعني غير مُسْتَحِلِّه. وقال السُّدِّي: غير باغ يَبْتَغِي فيه شهوته [١]، وقال عطاء الخراساني في قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ قال: لا يَشْوِي من الميتة لِيَشْتَهِيهِ ولا يَطْبُخَه، ولا يأكل إلا العُلْقَة [٢]، ويَحْمِلُ معه ما يُبَلِّغُه الحلال، فإذا بَلَغَه أَلْقَاهُ.

وعن ابن عبَّاس: لا يَشْبَعُ مِنْهَا. وفسَّره السُّدِّي بالعُدْوَان. وعن ابن عبَّاس ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ في أكله. وقال قتادة: فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ في أَكْلِهِ: أنْ يتعدَّىٰ حلالًا إلىٰ حرامٍ، وهو يَجِدُ عَنْهُ مَنْدُوحَة [٣].

[وحكىٰ القرطبي عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: أُكْرِهَ علىٰ ذلك بغَيرِ اخْتِيَارِه.

مسألةٌ: ذكر القُرطبي إذا وَجَد المُضْطَرُّ ميتةً وطعام الغير بحيث لا قَطْعَ فيه ولا أذىً، فإنَّه لا يَحِلُّ له أكلُ الميتةِ بل يَأْكُل طعام الغير بلا خِلَافٍ -كذا قال- ثمَّ قال: وإذا أكله والحالة هذه، هل يَضْمَنُهُ أم لا؟ فيه قولان، هما روايتان عن مالك.

ثم أَوْرَدَ مِن «سنن ابن ماجة» من حديث شعبة عن أبي إياس جعفر بن أبي وحشية: سمعت عباد بن شرحبيل الغُبَرِي [٤]قال: أَصَابَنَا عامُ مَخْمَصَةٍ [٥]، فأتيت المدينة. فأَتَيْتُ حَائِطًا، فأخذت سُنْبُلًا ففركته وأَكَلْتُهُ، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحبُ الحائط فضَرَبَنِي وأخذ ثوبي، فَأَتَيْتُ رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «**مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا أَوْ سَاغِبًا [٦]، وَلَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا**». فأمره فرَدَّ إليه ثوبه، وأَمَرَ له بِوَسْقٍ [٧]من طعام أو نِصفِ وَسْق [٨]، إسناد صحيح قوي جيد. وله شواهد كثيرة، من ذلك

---

(١) لوحة (١٧٦ ب).

(٢) العُلْقَةِ: البُلْغةِ من الطعام، قال الأزهريُّ: والعُلْقةُ من الطعام والمركبِ ما يُتَبَلَّغُ به وإن لم يكن تامًّا. «اللسان».

(٣) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: كل المحرمات إذا اضطر إليها، وزالت بها الضرورة كانت مباحةً؛ قلنا: «وزالت بها الضرورة» احترازًا مما لا تزول به الضرورة، كما إذا ما اضطر الإنسان إلىٰ أكل سمٍّ - فلا يجوز أن يأكل -؛ لأنه لا تزول بها ضرورته؛ بل يموت به؛ ولو اضطر إلىٰ شرب خمر لعطش لم يحل له؛ لأنه لا تزول به ضرورته؛ ولذلك لو احتاج إلىٰ شربه لدفع لقمة غص بها حلّ له؛ لأنه تزول به ضرورته.

(٤) بالأصل: «عباد بن بشر...»، وهو خطأ. و«الغُبَرِي» نسبة لبني غُبَر؛ بطنٌ من (يَشْكر).

(٥) الخَمْصُ والخَمْصة والمَخْمَصة: الجُوع والمَجَاعة.

(٦) السَّغَب: الجوع، منه: المَسْغَبَة.

(٧) الوَسْق: سِتُّون صاعـًا، وهو ثلاثُمائة وعِشْرون رطلًا عند أهْل الحِجاز، وأربَعمائة وثمانون رطلًا عنْد أهْل العِراق، علىٰ اخْتِلافِهِم في مِقْدار الصَّاع والمُدِّ، والأصْل في الْوَسْق: الحِمْل، وكُلُّ شيءٍ وَسَقْتَه فقد حَمَلْتَه. والوَسْق أيضا: ضَمُّ الشَّيء إلىٰ الشَّيء.

(٨) صحيح: رواه أبو داود (٢٦٢١)، وابن ماجة (٢٢٩٨)، والنسائي (٨/ ٢٤٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٨٦)، وفي «المسند» (٥٦٥ - بتحقيقي).

حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثَّمر المعلَّق، فقال: «مَنْ أَصَابَ مِنْهُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ بِفِيهِ غَيْرَ مُتَّخِذٍ خُبْنَةً(١) فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ»(٢) الحديث](٣).

وقال مقاتل بن حيَّان في قوله: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فيما أكل مِن اضطرار، وبلغنا -والله أعلم- أنَّه لا يُزَاد علىٰ ثلاث لُقَمٍ.

وقال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام. رحيم إذ أحلَّ له الحرام في الاضطرار.

وقال وَكِيع: حدَّثنا الأعمش، عن أبي الضُّحىٰ، عن مسروق قال: مَنِ اضطُرَّ فلم يأكل ولم يَشرب، ثمَّ مات دخل النَّار.

وهذا يقتضِي أنَّ أكل الميتة للمضطر عزيمةٌ لا رخصة. قال أبو الحسن الطبري -المعروف بـ«الكيَا الهَرَّاسِي»- رفيق الغزالي في الاشتغال: وهذا هو الصَّحِيح عندنا؛ كالإفطار للمَرِيضِ في رمضان ونحو ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ ممَّا يشهد له بالرِّسَالَةِ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: اليهود(٤) الَّذين كَتَمُوا صفة محمَّد ﷺ في كُتُبِهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرِّسالة والنُّبُوَّة، فكَتَمُوا ذلك لئلَّا تذهب رِيَاسَتُهُم وما كانوا يَأْخُذونَه من العرب من الهدايا والتُّحَفِ علىٰ تعظيمهم إيَّاهم، فخَشَوْا -لعنهم الله- إِن أَظْهَرُوا ذلك أَن يَتَّبعه النَّاس ويَتْرُكُوهُم، فكَتَمُوا ذلك إبقـاءً علىٰ ما كان يحصل

(١) الخُبْنَة: مَعْطِفُ الإزارِ وطرَفُ الثَّوب؛ أي: لا يأخذ منه في ثوبه. يقال: أخْبن الرجل: إذا خَبأ شيئًا في خُبْنة ثوبه أو سَراويله.

(٢) حسن: أبو داود (٤٣٩٠) (١٧١٠)، والترمذي (١٢٨٩)، وابن ماجة (٢٥٩٦)، والنسائي (٤/ ٨٥)، وإسناده حسن، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٤١٣).

(٣) ليست في (ز).

(٤) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن قلنا: إن «أل» للجنس، شمل جميع الكتب: التوراة، والإنجيل، وغيرها؛ ويكون ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ يشمل اليهود، والنصارىٰ، وغيرهما؛ وهذا أرجح لعمومه... قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يعني: لا يكلمهم تكليم رضا؛ فالنفي هنا ليس نفيًا لمطلق الكلام؛ ولكنه للكلام المطلق الذي هو كلام الرضا؛ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: لا يثني عليهم بخير.

لهم مِن ذلك، وهو نَزْرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعْتَاضُوا عن الهدىٰ واتِّباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النَّزْرِ اليَسِير، فخابوا وخَسِروا في الدُّنيا والآخرة؛ أمَّا في الدُّنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله ﷺ، بما نَصَبَه وجعله معه مِن الآيات الظاهرات والدَّلائل القَاطِعَات، فصدقه الذين كانوا يَخَافُون أَن يَتَّبِعُوه، وصاروا عونًا له علىٰ قتالهم، وباءُوا بغضبٍ علىٰ غضب، وذمهم الله في كتابه في غير ما موضع. من ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو عَرَض الحياة الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: إنَّما يَأْكُلُون ما يأكلونه في مقابلة كِتْمان الحقِّ نارًا تأجج في بطونهم يوم القيامة.

كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ[(١)] نَارًاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرًا﴾، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ**»[(٢)].

وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك لأنَّه غضبانٌ عليهم؛ لأنَّهم كتمُوا وقد عَلِمُوا، فاسْتَحَقُّوا الغَضَب، فلَا يَنْظُر إليهم ولا يُزَكِّيهم -أي: يُثْنِي عليهم ويَمْدَحُهُم[(٣)]- بل يُعَذِّبُهُم عذابًا أليمًا.

وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مَرْدوَيْه هاهنا [الحديثَ الذي رواه مسلم أيضًا مِن][(٤)] حديث الأعمش، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ؛ شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ[(٥)] مُسْتَكْبِرٌ**»[(٦)].

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: اعتاضوا[(٧)] عن الهدىٰ، وهو نشر ما في كُتُبهم مِن صفة الرسول ﷺ وذِكْر مبعثه والبِشارة به مِن كتب الأنبياء واتِّباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضَّلَالَة، وهو تَكْذِيبُهُ والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم، ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: اعتاضوا عن المغفرة بالعذابِ وهو ما تعاطَوْه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يخبر تعالىٰ أنَّهم في عذابٍ شديدٍ عظيمٍ هائلٍ، يتعجَّبُ من

---

(١) لوحة (١٧٧ أ).

(٢) مسلم (٢٠٦٥)، وثبت بلفظ الفضة فقط عند البخاري (٥٦٣٤)، ومسلم (٢٠٦٥)، وابن ماجة (٣٤١٣).

(٣) أي: لا يثني عليهم ولا يمدحهم.

(٤) ليست في (ز).

(٥) يعني: فقير مستكبر.

(٦) مسلم (١٠٧)، والنسائي (٦/ ٨٦)، وأحمد (٢/ ٤٣٢)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٨٦/ ١٥٣٦).

(٧) العِوَضُ: البَدَلُ، وتَعَوَّضَ منه واعْتَاضَ: أخذ العِوَضَ، واعْتَاضَه منه واسْتَعاضَه وتَعَوَّضَه كلُّه: سأَلَه العِوَضَ. «اللسان» عوض.

رَآهُم فيها مِن صبرهم على ذلك، مِن شدَّة ما هم فيه من العذاب، والنَّكال، والأغلال عياذًا بالله من ذلك.

[وقيل معنى قوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: فما أَدْوَمَهُم لعمل المعاصي التي تُفْضِي بهم إلى النَّار [(١)]](٢).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: إنَّما استحقُّوا هذا العذاب الشديد؛ لأنَّ الله تعالى أنزل على رسوله محمَّد ﷺ وعلى الأنبياء قَبْلَه كتبه بتحقيقِ الحقِّ وإبطالِ الباطل، وهؤلاء اتَّخذُوا آيات الله هُزُوًا، فكِتَابُهُم يَأْمُرُهُم بإظهار العِلْم ونَشْرِه، فخالفوه وكذَّبوه. وهذا الرَّسول الخاتَم يَدْعُوهُم إلى الله تعالى، ويَأْمُرُهم بالمَعْرُوف ويَنْهَاهُم عَن المنكر، وهم يُكَذِّبُونه ويُخَالِفُونه ويَجْحَدُونَه، ويَكْتُمُون صِفَته، فاستهزءُوا بآيات الله المنزلة على رسله؛ فلهذا استحقوا العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾.

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾

اشتمَلت هذه الآية الكريمة، على جُمَلٍ عظيمةٍ، وقواعِدَ عميمَةٍ، وعقيدةٍ مستقيمةٍ(٣)، كما قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عُبيد بن هشام الحلبي، حدَّثنا عبيد الله بن عمرو، عن عامر بن شُفَي(٤)، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فتَلَا عليه:

---

(١) قال ابن عثيمين رحمه الله: قوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ﴾ يقتضي أنهم يصبرون ويتحملون مع أنهم لا يتحملون، ولا يطيقون؛ ولهذا يقولون لخزنة جهنم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩﴾ [غافر]؛ وينادون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف: ٧٧] أي: ليهلكنا؛ ومن قال هكذا فليس بصابر؟

الجواب: قال أهل العلم: إنهم لما صبروا على ما كان سببًا لها من كتمان العلم صاروا كأنهم صبروا عليها، مثلما يقال للرجل الذي يفعل أشياء ينتقد فيها: ما أصبرك على لوم الناس لك مع أنه ربما لم يلوموه أصلًا؛ لكن فعل ما يقتضي اللوم؛ يصير معنى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ [البقرة] أنهم لما كانوا يفعلون هذه الأفعال الموجبة للنار صاروا كأنهم يصبرون على النار؛ لأن الجزاء من جنس العمل، كما تفيده الآيات الكثيرة، فيعبر بالعمل عن الجزاء؛ لأنه سببه المترتب عليه.

(٢) ليست في (ز).

(٣) قال أبو بكر الجزائري رحمه الله: هذه الآية: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾... إلخ آيةٌ عظيمةٌ تضمنت قواعد الشرع وأمهات الأحكام، لم تتضمن آية غيرها ما تضمنته هي، إذ تضمنت أركان الإيمان وقاعدتي الإسلام والصلاة والزكاة، والجهاد والصبر، والوفاء، والتقوى والإنفاق العام والخاص.

(٤) لوحة (١٧٧ ب).

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ إلىٰ آخر الآية. قال: ثمَّ سأله أيضًا، فتلاها عليه ثمَّ سأله. فقال: «**إِذَا عَمِلْتَ حَسَنَةً أَحَبَّهَا قَلْبُكَ، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً أَبْغَضَهَا قَلْبُكَ**»[1].

وهذا منقطع؛ فإنَّ مجاهدًا لم يُدْرِك أبا ذرٍّ؛ فإنه مات قديمًا.

وقال المسعودي: حدَّثنا القاسم بن عبد الرحمن، قال: جاء رجل إلىٰ أبي ذرٍّ ﷺ فقال: ما الإيمان؟ فقرأ عليه هذه الآية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ حتىٰ فَرَغ منها. فقال الرجل: ليس عن البِرِّ سألتُكَ. فقال أبو ذرٍّ ﷺ: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فسأله عمَّا سألتني عنه، فقرَأَ عليه هذه الآية، فأبىٰ أن يَرْضىٰ كما أَبَيْتَ أنت أَنْ تَرْضَىٰ، فقال له رسول الله ﷺ -وأشار بيده-: «**الْمُؤْمِنُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً سَرَّتْهُ وَرَجَا ثَوَابَهَا، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً أَحْزَنَتْهُ وَخَافَ عِقَابَهَا**»[2].

رواه ابن مَرْدوَيْه، وهذا أيضًا منقطع، والله أعلم.

وأمَّا الكلام علىٰ تفسير هذه الآية، فإنَّ الله تعالىٰ لمَّا أَمَرَ المُؤْمِنِينَ أوَّلًا بالتَّوجُّه إلىٰ بيت المقدس، ثم حوَّلهم إلىٰ الكعبة، شقَّ ذلك علىٰ نفوس طائفة من أهلِ الكتاب وبعضِ المسلمين، فأنزل الله تعالىٰ بيان حكمته في ذلك، وهو أنَّ المراد: إنما هو طاعة الله ﷻ وامتثال أوامره، والتَّوجُّه حيثما وجَّه، واتِّباع ما شرع، فهذا هو البِرُّ والتَّقوىٰ والإيمان الكامل، وليس في لُزُومِ التَّوجُّه إلىٰ جهةٍ مِن المشرق إلىٰ المغرب بِرٌّ ولا طاعةٌ، إن لم يكن عن أمرِ الله وشَرْعِهِ؛ ولهذا قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال العوفي عن ابن عبَّاس ﷺ في هذه الآية: ليس البرَّ أن تُصَلُّوا ولا تَعْمَلُوا. فهذا حين تحول من مكَّة إلىٰ المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفَرَائِضِ والعمل بها. وروي عن الضَّحَّاك ومقاتل نحو ذلك.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تُقْبل قِبَلَ المغرب، وكَانَتِ النَّصارىٰ تُقْبل قِبَلَ المشرق، فقال الله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ يقول: هذا كلامُ الإيمان وحَقِيقَتُه العمل. وروي عن الحسن والرَّبيع بن أنس مثله.

وقال مجاهد: ولكنَّ البرَّ ما ثَبَتَ في القلوب من طاعة الله ﷻ.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٩٩)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
قلت: بل هو منقطع، ولكن يشهد له الحديث الآتي.

(٢) حسن لغيره: رواه محمَّد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٤٠٨)، وفيه المسعودي: قد اختلط، وإسناده أيضًا منقطع، وبمجموع الطريقين - أي هذا الطريق والطريق السابق- فالحديث حسن إن شاء الله.

وقال الضَّحَّاك: ولكنَّ البرَّ والتَّقوىٰ أن تُؤَدُّوا الفَرَائِض علىٰ وُجُوهِهَا[(١)].

وقال الثوري: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية، قال: هذه أنواع البِرِّ كُلِّها. وصَدَقَ؛ فإنَّ مَنِ اتَّصف بهذه الآية، فقد دخل في عُرَىٰ الإِسْلام كُلِّها، وأخذ بمَجَامِعِ الخير كُلِّه، وهو الإيمانُ بالله، وهو أنَّه لا إله إلا هو، وصَدَّق بوجود الملائكةِ الَّذِين هم سَفَرَةٌ بين الله ورُسُلِهِ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكُتُبَ المُنَزَّلة مِن السَّماء علىٰ الأَنْبِيَاء، حتىٰ ختمت بأَشْرَفِهَا، وهو القرآن المُهَيْمِن علىٰ ما قبله من الكُتُب، الذي انتهىٰ إليه كُلُّ خير، واشتمل علىٰ كُلِّ سعادةٍ في الدُّنيا والآخرة، ونَسَخَ الله به كل ما سواه مِن الكتب قَبْلَهُ، وآمَن بأنبياء الله كُلِّهِم من أَوَّلِهم إلىٰ خاتمهم محمَّد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: أخرجه، وهو مُحبٌّ له، راغبٌ فيه. نصَّ علىٰ ذلك ابن مسعود وسعيدُ بن جُبَيرٍ وغيرهما من السَّلف والخلف، كما ثبت في «الصَّحيحين» من حديث أبي هُرَيرة ﷺ مرفوعًا: «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الغِنَىٰ، وَتَخْشَىٰ الفَقْرَ**»[(٢)].

وقد روىٰ الحاكم في «مستدركه»، من حديث شعبة والثوري، عن منصور، عن زُبَيد، عن مُرَّة، عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أَنْ تُعْطِيَهُ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الغِنَىٰ وَتَخْشَىٰ الفَقْرَ**»[(٣)]. ثم قال: صحيح علىٰ شرط الشَّيخين، ولم يُخَرِّجاه.

قلتُ: وقد رواه وَكِيع عن الأعمش، وسفيان، عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود ﷺ، موقوفًا، وهو أصحُّ، والله أعلم. وقال تعالىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩]. وقال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] نمطٌ آخرُ أَرْفَعُ مِن هذا ومِن هذا، وهو أنَّهم آثَرُوا بما هم مُضْطَرُّون إليه، وهؤلاء أَعْطَوْا وأَطْعَمُوا ما هم مُحِبُّون له.

وقوله: ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم: قَرَابات الرَّجل، وهم أَوْلىٰ مَن أُعْطِي مِن الصدقة، كما ثبت في الحديث: «**الصَّدَقَةُ عَلَىٰ المَسَاكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَىٰ ذَوِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**»[(٤)]. فهُم أولىٰ النَّاس

---

(١) لوحة (١٧٨ أ).

(٢) البخاري (١٤١٩، ٢٧٤٨)، ومسلم (١٠٣٢)، وأبو داود (٢٨٦٥)، والنسائي (٣٦١١)، وأحمد (٢/ ٢٣١).

(٣) **صحيح موقوف**: رواه الحاكم (٢/ ٢٧٢)، والطبراني (٩/ ٩٣/ ٨٥٠٣)، وابن جرير (٢/ ٩٥).
وقد ذكر الحافظ ابن كثير إسنادًا للحاكم وجعله مرفوعًا، وليس في المطبوع من المستدرك ذكر للمرفوع. فلعله سقط في «المستدرك».

(٤) **الحديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف**: رواه ابن ماجة (١٨٤٤)، والنسائي (٥/ ٩٢)، والدارمي (١/ ٣٩٧)، وأحمد (٤/ ١٧/ ٢١٤)، والحاكم (١/ ٤٠١) وصححه ووافقه الذهبي من حديث سلمان بن عامر، وفي إسناده الرباب، قال الحافظ: مقبولة، وقال الذهبي في «الميزان»: لا تعرف إلا برواية حفصة بنت سيرين عنها
وعن أبي أمامة الباهلي، رواه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٠٦/ ٧٨٣٤)، وفيه عبد الله بن زهر: ضعيف، ولكن

بك وبِرِّك وإعطائك، وقد أمرَ الله تعالىٰ بالإحسان إليهم في غير ما موضعٍ مِن كتابه العزيز.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هم: الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤُهم وهم ضعفاءُ صغارٌ دون البلوغ والقدرة علىٰ التَّكسُّب، وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن جويبر، عن الضَّحَّاك، عن النزال بن سبرة، عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال[١]: «لا يُتْمَ بَعْدَ حُلُمٍ»[٢][٣].

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ وهم: الذين لا يَجِدُون ما يَكْفِيهم في قُوَّتِهم وكِسْوَتِهِم وسُكْنَاهُم، فيُعْطَوْن ما تُسَدُّ به حاجتهم وخلتهم. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ المِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافُ[٤] الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ المِسْكِينَ[٥] الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ**»[٦].

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو: المسافر المجتاز الذي قد فَرغَت نفقته فيُعطَىٰ ما يُوصِلُه إلىٰ بلده، وكذا الَّذي يُريد سفرًا في طاعةٍ، فيُعْطَىٰ ما يكفيه في ذهابه وإيَابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: ابنُ السَّبِيل هو الضَّيف الذي يَنْزِل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو جعفر الباقر، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك والزهري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ وهم: الَّذين يَتَعرَّضُون للطَّلب فيُعْطَوْن من الزَّكوات والصَّدقات، كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع وعبد الرحمن، قالا: حدَّثنا سفيان، عن مصعب بن محمَّد، عن يعلىٰ بن أبي يحيىٰ، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها -قال عبد الرحمن: حسين بن علي- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَىٰ فَرَسٍ**». رواه أبو داود[٧].

= الحديث ثبت صحيحًا بمعناه: رواه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠) من حديث زينب امرأة ابن مسعود، والحديث بمجموع طرقه وشواهده «صحيح».

(١) لوحة (١٧٨ ب). (٢) **الحُلُم**: البلوغ.

(٣) **حسن لشواهده**: وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٤٤)، وأورد له طريقين غير هذا الطريق، ولا يخلو كل منها من مقال وضعف، وأورد له شاهدًا من حديث جابر بأسانيد ضعيفة، وعن ابن عبَّاس موقوفًا.
قلت: وثم شواهد أخرىٰ أوردها الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٢٦) من حديث أنس ومن حديث حنظلة، وفي أسانيدهما ضعف أيضًا، ورواه الشهاب في «مسنده» (٨٣٩) مرسلًا.
وبمجموع هذه الطرق يقوىٰ الحديث إلىٰ درجة التحسين، والله أعلم.

(٤) في (ح): «بالطواف»! والمثبت من «صحيح مسلم»، وفي رواية للبخاري: «**ليس المسكين الذي يطوف...**».

(٥) لوحة (١٧٨ ب).

(٦) البخاري (١٤٧٦) (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩)، وأبو داود (١٦٣١)، والنسائي (٥/ ٨٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٥- ٢٦٠، ٤٦٩، ٤٩٣).

(٧) **ضعيف**: رواه أبو داود (١٦٦٥)، وفيه يعلىٰ بن أبي يحيىٰ: مجهول، وقد اختلف عليه فيه. واعلم أن للحديث شواهد أخرىٰ، لكن أسانيدها ضعيفة جدًّا لا تصلح للاعتبار، وقد أوردها شيخنا الألباني، وبيَّن عللها في «السلسلة الضعيفة» (١٣٧٨).

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وهم: المكاتَبُون[1] الَّذين لا يجدون ما يُؤَدُّونه في كِتَابَتِهم.

وسيأتي الكلام علىٰ كثيرٍ من هذه الأصناف في آيَة الصَّدَقات من ﴿بَرَآءَةٌ﴾ إن شاء الله تعالىٰ. وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الحميد، حدَّثنا شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي، حدثتني فاطمة بنت قيس: أنَّها سألت رسول الله ﷺ: أَفِي المال حقٌّ سوىٰ الزَّكاة؟ قالت: فتَلَا علي: ﴿وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[2].

ورواه ابن مَرْدوَيْه مِن حديث آدَم بن أبي إِيَاس، ويحيىٰ بن عبد الحميد كلاهما، عَن شريك، عن أبي حَمْزَة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فِي المَالِ حَقٌّ سِوَىٰ الزَّكَاةِ» ثم قرأ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾[3].

[وأخرجه ابن ماجة، والتِّرمذي، وضعَّف أبا حمزة ميمونًا الأعور، قال: وقد روَاه بيان وإسماعيل ابن سالم عن الشعبي][4].

وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأَتَمَّ أفعالَ الصَّلاة في أوقاتها بِرُكُوعِهَا، وسُجُودِهَا، وطُمَأْنِينَتِهَا، وخشوعها علىٰ الوجه الشرعي المرضي.

وقوله: ﴿وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ﴾ يُحتَمَلُ أن يكون المراد به: زَكَاة النَّفس، وتخليصها من الأخلاق الدَّنِيَّة الرَّذيلة، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠] وقول موسىٰ لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[5] [النازعات: ١٨، ١٩] وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

ويحتمل أن يكون المرادُ: زكاة المال كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيَّان، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التَّطوُّع والبرُّ والصِّلة؛ ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس: «أَنَّ فِي المَالِ حَقًّا سِوَىٰ الزَّكَاةِ»، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠]، وعكسُ هذه الصِّفة النِّفاق، كما صحَّ في الحديث: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا

---

(١) الكتابة: أن يُكاتب الرَّجُلُ عَبْدَه علىٰ مال يؤدِّيه إليه مُنَجَّمًا، فإذا أدَّاه صار حُرًّا.

(٢) ابن أبي حاتم (١/ ٢٨٨/ ١٥٤٨)، وفيه أبو حمزة ميمون الأعور: ضعيف، وانظر ما بعده.

(٣) ضعيف: رواه الترمذي (٦٥٩)، والدارمي (١/ ٣٨٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٢٨/ ١٥٤٨)، وفيه أبو حمزة ميمون الأعور: وهو ضعيف، وقد اختلف عليه فيه كما في رواية ابن ماجة (١٧٨٩): «ليس في المال حق سوىٰ الزكاة»، وهذا اضطراب في المتن مع ضعف السند.

(٤) ليست في (ز).

(٥) لوحة (١٧٩ أ).

وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[١]. وفي الحديث الآخر: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[٢].

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: في حالِ الفَقْر، وهو البَأْسَاءُ، وفي حال المرض والأَسْقَام، وهو الضراء. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: في حال القِتَال والْتِقَاءِ الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عبَّاس، وأبو العالية، ومُرَّة الهمداني، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسُّدِّي، ومقاتل بن حيَّان، وأبو مالك، والضَّحَّاك، وغيرهم.

وإنما نَصَبَ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ علىٰ المدح والحثِّ علىٰ الصَّبر في هذه الأحوال لشدَّتِه وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان.

وقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: هؤلاء الذين اتَّصَفُوا بهذه الصفات همُ الَّذين صَدَقوا في إيمانهم؛ لأنَّهم حقَّقُوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ لأنَّهم اتَّقَوُا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ العدلُ في القصاص - أيُّها المؤمنون- فَاقتلوا حُرَّكم بحُرِّكم، وعَبْدَكُم بعَبْدِكُم، وأُنْثَاكُم بِأُنْثَاكُم، ولا تَتَجَاوَزُوا وتَعْتَدُوا، كما اعتدىٰ مَن قبلكم، وغيَّروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة وبنو النَّضير، كانت بنو النَّضير قد غزت قُرَيْظَةَ في الجاهلية وقَهَرُوهُم، فكان إذا قتل النَّضيريُّ[٣] القُرَظِيَّ لا يُقْتَل به، بل يُفَادَىٰ بمائةِ وَسْقٍ من التَّمر، وإذا قَتَل القُرَظِيُّ النَّضِيرِيَّ قُتِلَ به، وإِن فادَوْه فَدَوْهُ بِمِائَتَيْ وَسقٍ من التَّمر ضِعْف دِيَةِ القُرَظِيِّ، فأَمَر الله تعالىٰ بالعَدْل في القَصاص، ولا يَتَّبع سبيلَ المفسدين المُحَرِّفين، المُخَالِفِين لأحكام[٤] الله فيهم، كُفرًا وبَغيًا[٥]؛ فقال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾.

---

(١) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، والترمذي (٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ١١٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، والترمذي (٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ١١٦) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) في نسخة: «النضري»، وكلاهما نسبةٌ صحيحةٌ إلىٰ بني النضير.

(٤) لوحة (١٧٩ ب).

(٥) في (ح): «لهوًا ولعبًا».

وذُكر في سبب نُزُولِها ما رواه الإمام أبو محمَّد بن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الله بن بُكَير حدَّثني عبد الله بن لَهيعة، حدَّثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، في قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ يعني: إذا كان عَمْدًا، الحرُّ بالحرِّ. وذلك أنَّ حَيَّيْنِ من العَرَبِ اقْتَتَلُوا في الجاهليَّة قبل الإسلام بقليل، فكان بَيْنَهُم قتلٌ وجِراحَاتٌ، حتَّىٰ[1] قتلوا العَبيدَ والنِّساء، فلَمْ يَأْخُذ بعضهم من بعض حتىٰ أسلموا، فكان أحدُ الحَيَّيْن يتطاول علىٰ الآخر في العِدَّة والأموال، فحلفوا ألا يَرْضُوا حتىٰ يُقْتَل بالعَبْدِ منَّا الحُرُّ منهم، وبالمَرأة منَّا الرَّجُلُ مِنْهُم، فنزلت فيهم: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ منها منسوخة، نَسَخَتْهَا ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥][2].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وذلك أنهم لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة فأنزل الله: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾، فجعل الأَحْرَار في القِصَاصِ سواء فيما بَيْنَهُم من العَمْدِ رجالهم ونساؤهم في النَّفس، وفيما دون النَّفس، وجَعَلَ العَبِيدَ مُسْتَوِينَ فيما بَيْنَهُم مِن العَمْدِ في النَّفْس وفيما دُون النَّفْس رجالهم ونساؤهم[3]، وكذلك رُوِي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾.

[**مسألةٌ**: مذهب أبي حنيفة أنَّ الحُرَّ يُقْتَل بالعبد؛ لعمومِ آية المائدة، وإليه ذهب الثَّوري وابن أبي ليلىٰ وداود، وهو مرويٌّ عن عَلِيٍّ وابن مسعود، وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وقتادة والحكم[4].

وقال البخاري، وعلي بن المديني وإبراهيم النخعي والثوري في رواية عنه بِقَتْلِ السَّيِّد بِعَبْدِهِ؛ لعموم حديث الحسن عن سمرة: «**مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَهُ جَدَعْنَاهُ**[5]، **وَمَنْ خَصَاهُ خَصَيْنَاهُ**[6]»[7].

وخالفهم الجمهور وقالوا: لا يُقْتَلُ الحُرُّ بِالعَبْدِ؛ لأنَّ العبد سلعةٌ لو قُتِلَ خطأً لَمْ تَجِبْ فِيهِ دِيَةٌ، وإنَّما تَجِبُ فيه قِيمَتُهُ، وأنَّه لا يُقاد بطَرْفِهِ، ففي النفس بطريقٍ أولىٰ. وقد حكىٰ أبو ثور الإجماع علىٰ أنَّه لا يُقادُ الحُرُّ بطَرْفِ العبد، وقد خرق هذا الإجماع داود الظاهري؛ لقوله ﷺ: «**المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ**»[8].

---

(١) في (ز): قد.

(٢) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٩٢/ ١٥٧٦)، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (ص١٥٦)، وإسناده مرسل؛ لأنه عن سعيد بن جبير، وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(٣) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٩٤/ ١٥٧٨)، وفيه انقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس، والرواية من طريق أبي صالح كاتب الليث، وهو سيئ الحفظ.

(٤) هو الحكم بن عُتَيْبَة الكندي الفقيه، أبو محمَّد أو أبو عبد الله، فقيه الكوفة، المتوفىٰ ١١٣هـ أو ١١٥هـ.

(٥) الجَدْع: قطْع الأنف والأُذن والشَّفة، وهو بالأنفِ أخصُّ، فإذا أُطْلق غَلَب عليه.

(٦) خَصَاه خَصْيًا وخِصاءً: سل خُصيتيه ونزعهما، فهو خاصٍ، وذاك مَخْصِيٌّ وخَصِيٌّ.

(٧) **ضعيف**: رواه أبو داود (٤٥١٥) (٤٥١٦)، والترمذي (١٤١٤)، وابن ماجة (٢٦٦٣)، والنسائي (٨/ ٢٠)، وفي سماع الحسن من سمرة خلاف بين العلماء، وقتادة بن دعامة السدوسي: مدلس وقد عنعن.

(٨) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي (٨/ ١٩) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، ورواه أبو داود (٤٥٣١)، وابن ماجة

مسألةٌ: وذهب الجمهور إلىٰ أنَّ المسلم لا يُقتَلُ بالكافر، كما ثبت في البخاريِّ عن عليٍّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»(١)، ولا يصحُّ حديثٌ ولا تأويلٌ يُخَالِفُ هذا، وأمَّا أبو حنيفة فذهب إلىٰ أنَّه يُقْتَل به لعموم آية المائدة.

مسألةٌ: قال الحسن وعطاء: لا يُقْتَلُ الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة؛ ولقوله عليه السلام: «المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ»(٢)، وقال اللَّيث: إذا قتَلَ الرجلُ امرأتَهُ لا يُقتل بها خاصة.

مسألةٌ: ومذهب الأئمَّة الأربعة والجمهور أنَّ الجماعة يُقْتَلُون بالواحد؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غلامٍ قتَلَه سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صَنْعَاءَ لقتلتهم(٣)، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصَّحابة، وذلك كالإجماع.

وحُكي عن الإمام أحمد رواية: أنَّ الجماعة لا يُقْتَلُون بالواحد، ولا تُقْتَلُ بالنَّفس إلا نفسٌ واحدة. وحكاه ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير، وعبد الملك بن مروان والزُّهري ومحمَّد بن سيرين وحبيب بن أبي ثابت؛ ثم قال ابن المنذر: وهذا أصحُّ، ولا حُجَّةَ لمن أباح قتلَ جماعةٍ بواحدٍ. وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه، وإذا اختلف الصحابة فسَبِيلُهُ النَّظَر](٤).

وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ قال مجاهد عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو: أن يَقبَلَ الدِّيَةَ في العَمْدِ(٥)، وكذا روي عن أبي العالية، وأبي الشعثاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان.

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يقول: فمن تُرِكَ له من أخيه شيء(٦) يعني: بعد أخذ الدِّية بعد استحقاق الدَّم، وذلك العفوُ ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يقول: فعلَىٰ الطَّالب اتِّباعٌ بالمعروف إذا قَبِل الدِّية ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ يعني: مِن القاتل مِن غيرِ ضررٍ ولا مَعْكٍ(٧)؛ يعني: المُدَافَعَةِ.

= (٢٦٨٥)، وأحمد (٢/ ١٨٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(١) البخاري (١١١).

(٢) انظر التعليق قبل السابق.

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٧١)، وابن أبي شيبة (٩/ ٤٧٦)، والبيهقي (٨/ ١٤٠)، ورواه البخاري من طريق أخرىٰ في كتاب الديات نحوه، قال الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٢٠٠): وهذا الأثر موصول بأصح إسناد، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٢٠١).

(٤) ليست في (ز).

(٥) الدية: المال الذي يعطىٰ ولي المقتول بدل نفسه.

(٦) قال ابن عثيمين رحمه الله: فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ فجعل الله المقتول أخًا للقاتل؛ ولو خرج من الإيمان لم يكن أخًا له.

(٧) المَعْكُ: المِطالُ واللَّيُّ بالدَّيْنِ، يقال: مَعَكه بِدَيْنه يَمْعَكه مَعْكًا: إذا مَطَله ودافعه.

وروى الحاكم من حديث سفيان، عن عمرو، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس ﵄: ويُؤَدِّي المطلوب بإحسانٍ. وكذا قال سعيد بن جُبَير، وأبو الشعثاء جابر بن زَيد، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، والسُّدِّي، ومقاتل[(١)] بن حيان.

[مسألةٌ: قال مالك ﵀ في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه والشَّافعي في أحد قوليه: ليس لوليِّ الدَّم أن يعفو على الدِّيَة إلا برضا القَاتِل، وقال الباقون: له أن يعفو عليها وإن لم يَرْض القَاتِل، وذهب طائفةٌ مِن السَّلف إلى أنَّه ليس للنِّساء عفوٌ، منهم الحسن، وقتادة، والزهري، وابن شبرمة، والليث، والأوزاعي، وخالفهم الباقون][(٢)].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنَّما شَرَّع لكم أخذَ الدِّية في العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمةً بكُم، ممَّا كان محتومًا على الأُمَمِ قبلكم مِن القتل أو العفو، كما قال سعيد بن منصور:

حدَّثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أخبرني مجاهد، عن ابن عبَّاس ﵄ قال: كُتب على بني إسرائيل القِصَاص في القتلى، ولم يكن فيهم العَفْوُ، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدِّية في العمد، ذلك تخفيفٌ مِن ربِّكم ورحمةٌ مما كُتِبَ على مَن كان قبلكم، فاتِّباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسانٍ[(٣)].

وقد رواه غير واحدٍ عَن عمرو بن دِينَارٍ، وأَخْرَجَهُ ابن حبَّان في «صحيحه»، عن عمرو بن دينار به. وقد رواه البخاريُّ والنَّسائيُّ عن ابن عبَّاس ﵄؛ ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عبَّاس ﵄ بنَحْوِهِ.

وقال قتادة: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ رَحِمَ الله هَذِهِ الأُمَّةَ وأَطْعَمَهُمُ الدِّيَةَ، ولَمْ تَحِلَّ لأحدٍ قبلهم، فكان أهلُ التَّوْرَاةِ إنَّما هو القِصَاصُ وعفوٌ لَيسَ بَيْنَهُم أَرْشٌ[(٤)]، وكان أهل الإنجيل إنَّما هو عفوٌ أُمِرُوا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأَرش.

وهكذا رُوِيَ عن سعيد بن جُبَيْر، ومقاتل بن حيَّان، والربيع بن أنس نحو هذا.

وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: فمَن قتَلَ بعد أخذ الدِّية أو قبولها، فله عذابٌ من الله أَليمٌ موجعٌ شديدٌ.

---

(١) لوحة (١٨٠ أ). (٢) ليست في (ز).

(٣) رواه البخاري (٤٢٢٨)، والنسائي (٨/ ٣٦)، ورواه سعيد بن منصور (٢٤٦)، ورواه النسائي (٨/ ٣٦) وفي تفسيره (١/ ٢١٣)، والحاكم (٢/ ٢٧٣)، والبيهقي (٨/ ٥١).

(٤) الأَرْش المشروع في الحكومات: هو الذي يأخذه المشتري من البائع إذا اطلع على عيب في المبيع، وأُروشُ الجنايات والجراحات من ذلك؛ لأنها جابرة لها عما حصل فيها من النقص، وسمي أرْشًا؛ لأنه من أسباب النزاع، يقال: أرّشت بين القوم: إذا أوقعت بينهم.

وكذا رُوي عن ابن عبَّاس ﷺ، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسُّدِّي، ومقاتل بن حيان: أنَّه هو الذي يَقْتُلُ بعد أخذ الدِّيَة، كما قال محمَّد بن إسحاق، عن الحارث ابن فضيل، عن سفيان بن أبي العوجاء، عن أبي شريح الخزاعي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أُصِيبَ بِقَتْلٍ أَوْ خَبْلٍ(١) فَإِنَّهُ يَخْتَارُ إِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ، وَإِمَّا أَنْ يَعْفُوَ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ؛ فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ فَخُذُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ، وَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا»(٢) رواه أحمد.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أُعَافِي رَجُلًا قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَةِ»(٣) -يعني: لا أقبل منه الدية- بل أَقْتُلُه.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ يقول تعالىٰ: وفي شَرْع القصاص لكم -وهو قتل القاتل- حكمةٌ عظيمةٌ لكم، وهي بقاء المُهَج(٤) وصَوْنها(٥)؛ لأنَّه إذا عَلِمَ القاتلُ أنَّه يُقْتَلُ انكفَّ عَن صَنِيعِهِ، فكان في ذلك حياة النُّفوس. وفي الكُتُب المُتَقَدِّمة: القَتْلُ أَنْفَىٰ للقَتْلِ. فجاءت هذه العبارة في القرآن أَفْصَحُ، وأبلغ، وأَوْجَزُ.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ قال أبو العالية: جعل الله القِصَاصَ حياةً، فكَم مِن رَجُلٍ يُرِيدُ أن يَقْتُلَ، فتمنعه مخافةَ أن يُقْتَلَ(٦)، وكذا رُوِيَ عن مجاهد وسعيدِ بنُ جُبَيْرٍ وأبي مالك والحَسَن وقَتادة والرَّبيع بن أنس ومقاتل بن حيان.

[مسألةٌ: ذهب مالك وأبو حنيفة والأوزاعي واللَّيث وحمَّاد بن أبي سليمان إلىٰ أنَّه إذا قُتِل الرَّجلُ أو المرأةُ وله أولادٌ كبارٌ وصغارٌ؛ أن للكبار أ ن يقتلوا القاتل، ولا ينتظر بلوغ الصغار؛ لأنَّ الحسنَ بن عليٍّ

---

(١) الخَبْل: فسادُ الأعضاء.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٣١)، وأبو داود (٤٤٩٦)، وابن ماجة (٢٦٢٣)، وفيه سفيان بن أبي العوجاء: ضعيف.

(٣) ضعيف: وفي سماع الحسن من سمرة خلاف بين العلماء، ورواه البيهقي في «السنن» (٨/ ٥٤)، ورواه أبو داود (٤٥٠٧) بإسناد منقطع.

(٤) المُهْجَةُ: دم القلب، ولا بقاء للنَّفسِ بعدما تُراقُ مُهْجَتُها، وقيل: المُهْجَةُ الدَّمُ.

(٥) لوحة (١٨٠ ب).

(٦) قال ابن تيمية رحمه الله: وقول من قال: إنّ قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ معناه: أنّ القاتل إذا عرف أنّه يقتل كفّ فكان في ذلك حياةٌ له وللمقتول، يقال له: هذا معنًى صحيحٌ؛ ولكنّ هذا ممّا يعرفه جميع النّاس وهو مغروزٌ في جبلّتهم، وليس في الآدميّين من يبيح قتل أحدٍ من غير أن يقتل قاتله؛ بل كلّهم مع التّساوي يجوّزون قتل القاتل ولا يتصوّر أنّ النّاس إذا كان كلّ من قدر علىٰ غيره قتله وهو لا يقتل يرضىٰ بمال وإذا كان هذا المعنىٰ من أوائل ما يعرفه الآدميّون ويعلمون أنّهم لا يعيشون بدونه صار هذا مثل حاجتهم إلىٰ الطّعام والشّراب والسّكنىٰ؛ فالقرآن أجلّ من أن يكون مقصوده التّعريف بهذه الأمور البديهيّة؛ بل هذا ممّا يدخل في معناه، وهو أنّه إذا كتب عليهم القصاص في المقتولين أنّه يسقط حرٌّ بحرّ وعبدٌ بعبد وأنثىٰ بأنثىٰ فجعل دية هذا كدية هذا ودم هذا كدم هذا متضمّنٌ لمساواتهم في الدّماء والدّيات وكان بهذه المقاصّة لهم حياةٌ من الفتن الّتي توجب هلاكهم كما هو معروفٌ.

قَتَلَ عبدَ الرحمن بنَ ملجمٍ ولم ينتظر بلوغ أولاد علي الصغار، وقال الشافعيُّ وأحمد في المشهور عنه وطائفةٌ من العلماء: بل ينتظر بلوغ الصغار؛ لأنَّ لهم حقًّا وربما عفىٰ بعضهم، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ الآية.

مسألةٌ: إذا عفا وَلِيُّ الدَّم من القصاص والدِّية أطلق القاتل في مذهب الشافعي وأحمد والجمهور، وقال مالك واللَّيث والأوزاعي: بل يُضربُ مائةً ويُحبس سنةً، وقال أبو ثور: إن كان مشهورًا بالشر أدبه الإمامُ بِحَبْسِه. وقد استحسن قولَ أبي ثور القرطبيُّ في «تفسيره»...][1].

﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولي العُقُول والأفهام والنُّهىٰ لعلكم تَنْزَجِرُون فتَتْرُكُون محارم الله ومآثِمَهُ، والتَّقوىٰ: اسم جامع لفعل الطَّاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

اشْتَمَلَت هذه الآية الكريمة علىٰ الأمر بالوصية للوالدين والأَقْربِين. وقد كان ذلك واجبًا -علىٰ أصحِّ القولين- قبل نزول آيةِ المواريث، فلمَّا نزلت آيةُ الفرائض نَسَخَتْ هذه[2]، وصارت المواريث المقدَّرة فريضة من الله، يَأْخُذُها أَهْلُوهَا حتمًا مِن غير وصيةٍ ولا تحمل مِنَّة الموصي، ولهذا جاء في الحديث في «السُّنن» وغيرها عن عَمْرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»[3].

---

(١) زيادة من (ح). ولم أقف علىٰ كلام القرطبي من التفسير.
وانظر في المسألة: «البحر الرائق» لابن نُجيم (٢٣/ ١٢٠)، و«حاشية الرملي علىٰ أسنىٰ المطالب» (٤/ ٣٥).

(٢) قال السعدي رحمه الله: واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث، وبعضهم يرىٰ أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل علىٰ التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالىٰ إلىٰ العرف الجاري.
ثم إن الله تعالىٰ قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات المواريث، بعد أن كان مجملًا وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين؛ لأن كلًّا من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظًا، واختلف المورد.
فبهذا الجمع، يحصل الاتفاق، والجمع بين الآيات؛ لأنه مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ، الذي لم يدل عليه دليلٌ صحيحٌ.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢١٢١)، والنسائي (٢/ ١٢٨)، وابن ماجة (٢٧١٢)، وأحمد (٤/ ١٨٦)، وفيه شهر بن حوشب: صدوق، لكنه كثير الإرسال والأوهام، لكن للحديث شواهد كثيرة منها حديث أبي أمامة، رواه أبو داود (٣٥٦٥)، والترمذي (٢١٢٢)، وأحمد (٥/ ٢٦٧) قال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عُلَية، عن يونس بن عبيد، عن محمَّد بن سيرين قال: جَلَس ابن عبَّاس فقرأ سورة البقرة حتىٰ أتىٰ هذه الآية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نُسِخَتْ هذه الآية[١].

وكذا رواه سعيد بن منصور، عن هشيم، عن يونس به. ورواه الحاكم في «مستدركه»، وقال: صحيح علىٰ شرطهما.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس ﵄ في قوله: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: كان لا يَرِثُ مع الوالدين غيرهما إلا وصيةٌ للأقربين، فأنزل الله آية الميراث فبيَّن ميراث الوالدين، وأقرَّ وصية الأقربين في ثُلُثِ مال الميت[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصباح، حدَّثنا حجاج بن محمَّد، أخبرنا ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ نَسَخَتْها هذه الآية: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ[٣] وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧][٤].

ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر ﵄ وأبي موسىٰ ﵄، وسعيد بن المسيَّب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، ومحمَّد بن سيرين، وعكرمة، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، وطاوس، وإبراهيم النَّخعي، وشُرَيح، والضَّحَّاك، والزهري: أن هذه الآية منسوخةٌ نسختها آية الميراث.

والعجب من أبي عبد الله محمَّد بن أبي عمر الرازي ﵀ كيف حكىٰ في «تفسيره الكبير» عن أبي مسلم الأصفهاني: أنَّ هذه الآية غير منسوخة، وإنما هي مُفَسَّرةٌ بآية المواريث، ومعناه: كُتِبَ عليكم ما أوصىٰ الله به مِن تَوْرِيث الوالدين والأقربين من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] قال: وهو قولُ أكثر المفسِّرين والمعتبَرين من الفقهاء. قال: ومنهم مَن قال: إنَّها منسوخةٌ فيمن يرث، ثابتةٌ فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عبَّاس ﵄، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضَّحَّاك، ومسلم بن

---

(١) صحيح: رواه سعيد بن منصور (٢٥٢)، والطبري (٢/ ١١٨)، والحاكم (٢/ ٢٧٣)، والبيهقي (٦/ ٢٦٥)، (٧/ ٤٢٧) وانظر التعليقين الآتيين.

(٢) رواه الطبري (٢/ ١١٨)، ولا يضر الانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس، فقد تابعه عكرمة عنه، ورواه أبو داود (٢٨٦٩)، والبيهقي (٦/ ٢٦٥).

(٣) لوحة (١٨١ أ).

(٤) البخاري (٢٧٤٧) (٤٥٧٨) (٦٧٣٩)، والدارمي، وابن أبي حاتم (١/ ٢٩٩/ ١٦٠٤)، والبيهقي (٦/ ٢٦٣).

يَسَار، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضًا سعيدُ بن جُبَير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان. ولكن علىٰ قول هذا لا يُسَمَّىٰ هذا نسخًا في اصطلاحنا المتأخِّر؛ لأنَّ آية الميراث إنَّما رَفَعَت حكم بعض أفراد ما دَلَّ عليه عموم آية الوصاية؛ لأنَّ «الأَقْرَبِين» أعمُّ لمن [(١)] يَرِث ومَن لا يَرِث، فرفع حكم من يرث بما عين له، وبَقِيَ الآخر علىٰ ما دَلَّت عليه الآية الأولىٰ. وهذا إنَّما يَتَأَتَّىٰ علىٰ قولِ بَعْضِهِم: إنَّ الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندبًا حتىٰ نُسِخَت. فأمَّا مَن يقول: إنَّها كانت واجبةً وهو الظاهر من سياق الآية؛ فيَتَعَيَّن أن تكون منسوخةً بآية الميراث، كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء؛ فإنَّ وجوب الوصية للوالدين والأقربين [الوارثين] [(٢)] منسوخٌ بالإجماع. بل منهيٌّ عنه للحديث المتقدم: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ» [(٣)]. فآيةُ الميراث حكمٌ مُسْتَقِلٌّ، ووجوب من عند الله لأهل الفروض وللعصبات [(٤)]، رفع بها حكم هذه بالكلية. بَقِيَ الأقارب الذين لا ميراث لهم، يُسْتَحَبُّ له أن يُوصِيَ لهم مِن الثلث، استئناسًا بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ [(٥)] لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ». قال ابن عُمر: ما مَرَّت عَلَيَّ ليلةٌ منذ سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ ذلك إلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي [(٦)].

والآيات والأحاديث بالأمر ببرِّ الأقارب والإحسان إليهم كثيرةٌ جدًّا.

وقال عبد بن حميد في «مسنده»: أخبرنا عبيد الله، عن مبارك بن حسان، عن نافع قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، ثِنْتَانِ لَمْ يَكُنْ لَكَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا: جَعَلْتُ لَكَ نَصِيبًا فِي مَالِكَ حِينَ أَخَذْتُ بِكَظْمِكَ [(٧)] لِأُطَهِّرَكَ بِهِ وَأُزَكِّيكَ، وَصَلَاةُ عِبَادِي عَلَيْكَ بَعْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ» [(٨)].

وقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [(٩)] أي: مالًا. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، وأبو

---

(١) في (ز): «ممن». (٢) ليست في (ز). (٣) تقدم. انظر رقم (٥٢٣).

(٤) العَصَبَةُ: العُصبة، واحدة العصب، وعَصبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه، أو قومه الذين يتعصبون له وينصرونه، و(في الفرائض): من ليست له فريضة مُسماة في الميراث، وإنما يَأخذ ما أبقىٰ ذوو الفُروض. «المعجم الوسيط»: (ص ٦٠٤)، وانظر: «اللسان»: عصب.

(٥) لوحة (١٨١ ب).

(٦) البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧)، وأبو داود (٢٨٦٢)، والترمذي (٩٧٤)، وابن ماجة (٢٦٩٩)، والنسائي (٢٣٩/٨).

(٧) الكظم: مجرىٰ النفس، وأخذ بكظمه: كناية عن الموت.

(٨) ضعيف: عزاه المصنف لعبد بن حميد في «مسنده» وساقه بسنده، وفيه مبارك بن حسان: لين الحديث.

(٩) قال أحمد شاكر رحمه الله: والظاهر من إطلاق كلمة «خير»، وإن لم يرد في الكتاب ولا السنة تحديد مقداره: أن تقديره يختلف باختلاف الأشخاص، واختلاف طبقاتهم وظروفهم، وباختلاف الأحوال المعيشية العامة، وباختلاف عدد الورثة قلةً وكثرةً. فرب قليلٍ في وقت، وبين قوم، كثير في وقتٍ آخرَ، وعند قوم آخرين.

العالية، وَعَطية العَوْفي، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وقتادة، وغيرهم.

ثمَّ منهم مَن قال: الوصية مشروعةٌ سواء قَلَّ المال أو كَثُر كالوراثة، ومنهم من قال: إنما يُوصِي إذا ترك مالًا جزيلًا ثمَّ اخْتَلَفُوا في مقداره، فقال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن يزيد المقري(١)، أخبرنا سفيان، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، قال: قيل لعلي ﷺ: إنَّ رجلًا مِن قريشٍ قد مات، وتركَ ثلاثمائة دينارٍ أو أربعمائة دينارٍ ولم يُوصِ. قال: ليس بشيءٍ، إنَّما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾(٢).

قال: وحدَّثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدَّثنا عَبْدة -يعني ابن سليمان- عن هشام بن عروة، عن أبيه: أنَّ عليًّا دخلَ علىٰ رجلٍ مِن قومه يعودُهُ، فقال له: أُوصِي؟ فقال له عليٌّ: إنما قال الله تعالىٰ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ إنَّما تركت شيئًا يسيرًا، فاتركه لوَلَدِكَ(٣).

وقال الحكم بن أبان(٤): حدَّثني عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن عبَّاس: من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرًا(٥)، قال الحكم(٦): قال طَاوس: لم يَتْرُكْ خيرًا مَن لم يترك ثمانين دينارًا. وقال قتادة: كان يُقال: ألفًا فما فوقها.

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالرِّفق والإحسان، كما قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن أحمد، حدَّثنا إبراهيم بن عبد الله بن يسار، حدَّثني سرور بن المغيرة، عن عَبَّاد بن منصور، عن الحسن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فقال: نَعَم، الوصيةُ حقٌّ علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يَوصِي إذا(٧) حضره الموت بالمعروف غير المُنكر.

والمراد بالمعروف: أن يُوصِي لأَقْرَبِيهِ وَصِيَّةً لا تُجْحِفُ(٨) بوَرَثَتِهِ مِن غير إسرافٍ ولا تقتيرٍ(٩)، كما ثبت في «الصَّحيحين» أنَّ سعدًا ﷺ قال: يا رسول الله، إن لي مالًا ولا يَرِثُنِي إلا ابنةٌ لي، أفَأُوصِي بثُلُثَيْ مالي؟ قال: «لا» قال: فبِالشَّطْرِ؟ قال: «لا» قال: فالثُّلث؟ قال: «**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ؛ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»(١٠).

وفي «صحيح البخاريِّ»: أنَّ ابن عبَّاس قال: لو أنَّ الناس غَضُّوا من الثلث إلىٰ الربع فإنَّ رسول الله

---

(١) في (ز): المقبري، وهو خطأ.
(٢) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٩٩/ ١٦٠٢).
(٣) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٩٨/ ١٥٩٩) وهو شاهد للطريق السابق.
(٤) في (ز): «الحاكم».
(٥) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٢٩٩/ ١٦٠١). وفيه حفص بن عمر العدني، قال الحافظ: ضعيف. وقال البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به بحال.
(٦) في (ز): «الحاكم».
(٧) لوحة (١٨٢ أ).
(٨) **أَجْحَفَ به**: ذَهَب واشتد في الإضرار به.
(٩) **قَتَرَ فلان قترًا**: ضاق عيشه، وعلىٰ عياله: ضيَّق عليهم في النفقة.
(١٠) البخاري (١٣٩٦) (٣٩٣٦)، ومسلم (١٦٢٨)، والترمذي (٢١١٦)، والنسائي (٦/ ٢٤١)، وابن ماجة (٢٧٠٨).

ﷺ قال: «الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»[١].

وروىٰ الإمام أحمد، عن أبي سعيد مولىٰ بني هاشم[٢]، عن ذِيال بن عبيد بن حنظلة، سمعت حنظلة بن حذيم بن حنيفة: أنَّ جدَّه حنيفة أَوْصَىٰ ليتيمٍ في حِجْرِهِ بمائةٍ من الإبل، فشقَّ ذلك علىٰ بَنِيهِ، فارْتَفَعُوا إلىٰ رسول الله ﷺ. فقال حنيفة: إنِّي أَوْصَيْتُ ليتيمٍ لي بمائةٍ من الإبل، كنَّا نُسَمِّيهَا المُطَيَّبَة[٣]. فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا لا لا. الصَّدَقَةُ: خَمْسٌ، وَإِلَّا فَعَشْرٌ، وَإِلَّا فَخَمْسَ عَشْرَةَ، وَإِلَّا فَعِشْرُونَ، وَإِلَّا فَخَمْسٌ وَعِشْرُونَ، وَإِلَّا فَثَلَاثُونَ، وَإِلَّا فَخَمْسٌ وَثَلَاثُونَ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَأَرْبَعُونَ»[٤].

وذكر الحديث بطوله.

وقوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ يقول تعالىٰ: فمَن بدَّل الوصية وحرَّفها، فغيَّر حكمها وزاد فيها أو نقص -ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولىٰ- ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما وغير واحد: وقد وقع أجرُ الميِّت علىٰ الله، وتعلَّق الإثم بالَّذين بدَّلوا ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: قد اطَّلَع علىٰ ما أَوْصَىٰ به الميِّت، وهو عليم بذلك، وبما بدَّله الموصىٰ إليهم.

وقوله: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا﴾ قال ابن عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد، والضَّحَّاك، والربيع بن أنس، والسُّدِّي: الجَنَف: الخطَإ[٥]. وهذا يشمل أنواع الخطأ كلِّها، بأن زَادَ وارثًا بواسطةٍ أو وسيلةٍ، كما إذا أوصىٰ ببيعه الشيءَ الفُلانيَّ محاباةً، أو أوصىٰ لابن ابنتِهِ ليَزيدَها، أو نحو ذلك مِن الوسائل، إما مُخْطِئًا غير عامدٍ، بل بِطَبْعِهِ وقوَّة شَفقَتِهِ مِن غير تَبَصُّرٍ، أو متعمدًا آثمًا في ذلك، فللوصيِّ -والحالة هذه- أن يُصْلِحَ القضيَّة ويَعْدِلَ في الوصيَّة علىٰ الوجه الشَّرعي. ويَعْدِلَ عَن الَّذي أوصىٰ به الميت إلىٰ ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به جمعًا بين مقصود المُوصِي[٦] والطَّريق الشرعي. وهذا الإصلاح والتَّوفيق ليس مِن التَّبديل في شيءٍ. ولهذا عطف هذا -فبيَّنَه- علىٰ النَّهي لذلك؛ ليعلم أنَّ هذا ليس مِن ذلك بسبيلٍ، والله تعالىٰ أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا العبَّاس بن الوليد بن مَزيد قراءة، أخبرني أبي، عن الأوزاعي، قال الزهري: حدَّثني عروة، عن عائشة، عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «يُرَدُّ مِنْ صَدَقَةِ الحَائِفِ[٧] فِي حَيَاتِهِ مَا يُرَدُّ

---

(١) البخاري (٢٧٤٣)، ومسلم (١٦٢٩). (٢) في (ز): أبي هاشم.

(٣) في (ح): «المطية»، والمثبت من (ز) وهو الموافق لما في «المسند».

(٤) حسن: رواه أحمد (٥/ ٦٧)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ٨٥٢/ ٢٢٣٧- بتحقيقي)، والبغوي في «معرفة الصحابة» (٢/ ١٨٦)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٣) (٩/ ٤٠٨): إسناده حسن.

(٥) ومن معانيه أيضًا: الميل والجور. (٦) لوحة (١٨٢ ب).

(٧) حاف عليه حيفًا: جار وظلم، وفي التنزيل العزيز ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾، والأب: فضل بعض أولاده علىٰ بعض في العطاء، فهو حائف.

مِنْ وَصِيَّةِ المُجْنِفِ(١) عِنْدَ مَوْتِهِ»(٢).

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدوَيْه، من حديث العبَّاس بن الوليد به.

قال ابن أبي حاتم: وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد. وهذا الكلام إنَّما هو عن عروة فقط. وقد رواه الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، فلم يجاوز به عروة.

وقال ابن مَرْدوَيْه أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا إبراهيم بن يوسف، حدَّثنا هشام ابن عمار، حدَّثنا عمر بن المغيرة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الحَيْفُ فِي الوَصِيَّةِ مِنَ الكَبَائِرِ»(٣).

وهذا في رفعه أيضًا نظر. وأحسنُ ما ورد في هذا الباب ما قال عبد الرزاق:

حدَّثنا مَعْمَر، عن أشعثَ بن عبد الله، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَىٰ حَافَ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ». قال أبو هريرة: اقْرَءُوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩](٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا للمؤمنين مِن هذه الأمَّة وآمرًا لهم بالصِّيام، وهو: الإمساك عن الطعام

---

(١) جَنَف وأَجْنَف: إذا مَال وجَار. وقيل: الجانِفُ يَخْتصُّ بالوَصِيَّة والمُجْنِف المَائِل عن الحقِّ. «النهاية»: (٣٠٧/ ١).

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٢/ ١٦١٨) لكنه عقب بعد ذلك عن أبيه قال: أخطأ الوليد بن مزيد في هذا الحديث وهذا الكلام عن عروة فقط. اهـ.

أي أنه موقوف علىٰ عروة، وكذا قال أبو داود في «المراسيل» (١٩٤): لا يصح هذا الحديث ولا يصح رفعه.

(٣) ضعيف: لكنه صحيح عن ابن عبَّاس موقوفًا؛ أما المرفوع فقد أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٨٩/ ٤٩٤٣)، وابن جرير (٤/ ٢٨٩)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ١٨٩)، والبيهقي (٦/ ٢٧١)، قال العقيلي: رواه الناس عن داود موقوفًا لا نعلم رفعه غير عمر بن المغيرة، وقال البيهقي: الصحيح موقوف، وكذا قال الطبري: وابن كثير.

قلت: الموقوف أسانيده صحيحة، رواه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٨٩)، وابن جرير (٤/ ٢٨٨- ٢٨٩)، والبيهقي (٦/ ٢٧١)، وسعيد بن منصور (٢٥٨- ٢٦٠).

(٤) رواه أبو داود (٢٨٦٧)، والترمذي (٢١١٧)، وابن ماجة (٢٧٠٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٦٤٥٥). وفيه شهر ابن حوشب: صدوق، وقال الحافظ: كثير الإرسال والأوهام، والحديث ضعفه الشيخ الألباني، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب فلعل الترمذي يرىٰ تصحيح حديثه.

والشراب والوِقَاع بنيَّةٍ خالصةٍ لله ﷻ، لما فيه مِن زكاة النَّفس وطهارتِها وتَنقِيَتِها مِن الأخلاط الرَّدِيئة والأخلاق الرَّذِيلة.. وذكر أنَّه كما أَوْجَبَه عليهم فقد أَوْجَبَه علىٰ مَن كان قَبْلَهُم، فلهم فيه أُسوة، وَلِيَجتهد هؤلاء في أداءِ هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً[1] وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأن الصوم فيه تزكيةٌ للبدن وتَضْيِيقٌ لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في «الصحيحين»: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ البَاءَةَ[2] فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[3]**»[4]، ثم بيَّن مقدار الصوم، وأنَّه ليس في كلِّ يوم؛ لئلَّا يشقَّ علىٰ النُّفوس فتَضْعُفَ عَن حمله وأدائه، بل في أيَّامٍ معدوداتٍ. وقد كان هذا في ابتداءِ الإسلام يصُومُون مِن كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيَّام، ثم نُسِخَ ذلك بصومِ شهرِ رمضان، كما سيأتي بيانه. وقد رُوِيَ أنَّ الصيام كان أوَّلًا كما كان عليه الأمم قبلنا، مِن كلِّ شهرٍ ثلاثة أيَّام -عن معاذ ﷺ، وابن مسعود ﷺ، وابن عبَّاس ﷺ، وعطاء، وقتادة، والضَّحَّاك بن مزاحم. وزاد: لم يزل هذا مشروعًا مِن زمان نوحٍ إلىٰ أن نَسَخ الله ذلك بصيام شهر رمضان.

وقال عباد بن منصور، عن الحسن البصري: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ فقال: نَعَمْ، والله لقد كُتب الصيام علىٰ كلِّ أمَّةٍ قد خَلَتْ كما كُتِبَ علينا شهرًا كاملًا وأيَّامًا معدوداتٍ: عددًا معلومًا. ورُوِيَ عن السُّدِّي نحوه.

ورَوَىٰ ابن أبي حاتم من حديث أبي عبد الرحمن المقري، حدَّثنا سعيد بن أبي أيوب، حدَّثني عبد الله بن الوليد، عن أبي الربيع -رجلٍ مِن أهل المدينة- عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صِيَامُ رَمَضَانَ كَتَبَهُ اللهُ عَلَىٰ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ...**»[5] في حديثٍ طويلٍ اختُصِر منه ذلك.

---

(١) لوحة (١٨٣ أ).

(٢) الباءة- ويقال أيضًا: الباهة -القدرة علىٰ مُؤن النكاح، وبالقصر: الوَطء.

(٣) الوِجَاء: أنْ تُرَضَّ أُنثيا الفَحْل رَضًّا شَديدًا يُذهِبُ شَهْوةَ الجِماع، ويَتَنزَّل في قَطعه مَنْزلةَ الخَصْي، وقيل: هو أن تُوجَأَ العُروق والخُصْيَتانِ بِحالِهما. أراد: أنَّ الصَّومَ يَقْطَعُ النِّكاح كما يَقْطَعه الوِجَاء، ورُوِيَ وَجًى بوزْن عَصًا: يريد التَّعَب والحَفَىٰ، وذلك بَعِيدٌ إلا أن يُراد فيه مَعْنىٰ الفُتُور؛ لأنَّ مَن وُجِيَ فَتَرَ عن المَشْي، فشَبَّه الصَّوم في باب النِّكاح بالتَّعَبِ في باب المَشْيِ. «النهاية»: (١٥٢/٥)، وانظر: «اللسان»: وجأ.

(٤) البخاري (١٩٠٥) (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)، وأبو داود (٢٠٤٦)، والترمذي (١٠٨١)، والنسائي (٤/ ١٧١) (٦/ ٥٦)، وابن ماجة (١٨٤٥)، وأحمد (١/ ٣٧٨، ٤٤٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ١٢٦)، وفي «المسند» (٢١٧، ٢٥٢).

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٤/ ١٦٢٥) وإسناده ضعيف. قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ١٧٨): في إسناده مجهول.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عمن حدثه، عن ابن عمر ﵄، قال أنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كُتِبَ عليهم إذا صلَّىٰ أحدهم العَتَمَةَ[١] ونَام حرَّم الله عليه الطَّعام والشَّراب والنِّساء إلىٰ مثلها[٢].

قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عبَّاس، وأبي العالية، وعبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، ومقاتل بن حَيَّان، والرَّبيع بن أنس، وعطاء الخراساني نحو ذلك.

وقال عطاء الخراساني، عن ابن عبَّاس ﵄: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني بذلك: أهل الكتاب. وروي عن الشعبي والسُّدِّي وعطاء الخراساني مثله.

ثمَّ بيَّن حكم الصيام علىٰ ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ[٣] سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: المريض والمسافر لا يصُومان في حال المرض والسفر؛ لما في ذلك من المشقَّة عليهما، بل يُفْطِرَانِ ويَقْضِيَان بعدةِ ذلك مِن أيام أخر. وأمَّا الصحيح المُقِيمُ الذي يُطِيق الصيام، فقد كان مخيَّرًا بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكينًا، فإن أطعم أكثر من مسكينٍ عن كلِّ يومٍ فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود ﵁، وابن عبَّاس ﵄، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم من السلف؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو النضر، حدَّثنا المسعودي، حدَّثنا عمرو بن مُرَّة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن معاذ بن جبل ﵁ قال: أُحِيلَت[٤] الصلاة ثلاثة أحوال، وأُحِيلَ الصيام ثلاثة أحوال؛ فأمَّا أحوال الصَّلاة فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قَدِمَ المدينة وهو يُصَلِّي سبعة عشر شهرًا إلىٰ بيت المقدس، ثمَّ إنَّ الله ﷻ أنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] فوَجَّهَهُ الله إلىٰ مكَّة. هذا حول.

قال: وكانوا يجتمعون للصَّلاة ويُؤْذِّنُ بها بعضهم بعضًا حتىٰ نَقَسُوا أو كادوا يَنْقُسُون[٥]. ثم إنَّ رجلًا من الأنصار، يقال له: عبد الله بن زَيد، أتىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي رأيت فيما يرىٰ النَّائم

---

(١) قيل: العَتَمَةُ وقتُ صلاةِ العشاء الأخيرة، سُميت بذلك لاسْتِعْتَام نَعَمِها، أي: احتلابها، وقيل: لِتَأَخُّر وقتِها.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٥/ ١٦٢٧) وفي إسناده مجهول.

(٣) لوحة (١٨٣ ب).

(٤) أحيلت: غيرت ثلاثة تغييرات، أو حولت ثلاث تحويلات.

(٥) النَّقْس: الضَّرْب بالنَّاقوس، وهي خَشَبةٌ طويلةٌ تُضْرب بخَشَبة أصغرَ منها، والنَّصارىٰ يُعْلِمون بها أوقاتَ صَلاتِهم.

-ولو قُلتُ: إنِّي لم أكن نائمًا لصدقتُ- أنِّي بَيْنَا أنا بَيْنَ النَّائم واليقظان إذْ رأيتُ شخصًا عليه ثوبان أخْضَرَان، فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله مَثْنىٰ حتَّىٰ فرغ من الأذان، ثم أَمْهَلَ ساعة، ثم قال مثل الذي قال، غير أنَّه يَزِيدُ في ذلك: قَدْ قَامَتِ الصَّلاة قَدْ قَامَتِ الصَّلَاة- قال رسول الله ﷺ: «عَلِّمْهَا بِلالًا فَلْيُؤَذِّنْ بِهَا». فكان بلال أوَّل مَن أذَّن بها. قال: وجاء عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنَّه قد طاف بي مثل الذي طاف به، غير أنَّه سبقني، فهذان حولان[١].

قال: وكانوا يأتون الصلاة -قد سبقهم النَّبيُّ ﷺ بِبَعْضِهَا، فكان الرجل يُشِير إلىٰ الرجل إذًا كم صلَّىٰ، فيقول: واحدة أو اثْنَتَيْن، فيُصَلِّيهِمَا، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم. قال: فجاء معاذ ﷺ فقال: لا أجده علىٰ حالٍ أبدًا إلا كنتُ عليها[٢]، ثم قَضَيْتُ ما سبقني. قال: فجاء وقد سَبَقَه النَّبيُّ ﷺ بِبَعْضِهَا، قال: فثَبَتَ معه، فلمَّا قضىٰ رسول الله ﷺ صلاته قام فقضىٰ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ سَنَّ لَكُمْ مُعَاذٌ، فَهَكَذَا فَاصْنَعُوا». فهذه ثلاثة أحوال.

وأمَّا أحوال الصيام فإنَّ رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة، فجعل يَصُومُ مِن كلِّ شهرٍ ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثمَّ إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ فكان مَنْ شاء صام، ومَن شاء أطعم مسكينًا، فأجْزَأَ ذلك عنه. ثم إن الله ﷻ أَنْزَل الآية الأخرىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ فأثبت اللهُ صيامَه علىٰ المقيم الصحيح، ورخَّصَ فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعامُ للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فهذان حولان.

قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويَأْتُون النساء ما لم يَنَامُوا، فإذا ناموا امْتَنَعُوا، ثمَّ إنَّ رجلًا من الأنصار يقال له: صِرْمَةُ، كان يعمل صائمًا حتىٰ أَمْسَىٰ، فجاء إلىٰ أَهْلِهِ فصَلَّىٰ العشاء، ثم نام فلم يَأْكُل ولَمْ يَشْرَب، حتىٰ أصبح فأصبح صائمًا، فرآه رسول الله ﷺ وقد جَهِد جَهْدًا شديدًا، فقال: ما لي أَرَاكَ قد جَهِدْت جهدًا شديدًا؟ قال: يا رسول الله، إنِّي عَمِلْتُ أمس فجئتُ حين جئتُ فألقيتُ نفسي فنِمْتُ فأصبحت حين أَصْبَحْتُ صائمًا. قال: وكان عمر ﷺ قد أصاب مِن النِّساء بعد ما نام، فأتىٰ النَّبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾[٣].

(١) الحول: بمعنىٰ الحال. (٢) لوحة (١٨٤ أ).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٥٠٧)، وأحمد (٥/ ٢٤٦) بإسناد صحيح، ولا يضر كون المسعودي قد اختلط، فرواية يزيد ابن هارون عنه قبل الاختلاط.

وأخرجه أبو داود في «سننه»، والحاكم في «مستدركه» من حديث المسعودي به.

وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان عاشوراء يُصَام، فلمَّا نزل فَرْضُ رَمَضَانَ كان مَن شاء صَام ومَن شاء أَفْطَر[١]. وروىٰ البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه وابن مسعود رضي الله عنه مثله[٢].

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كما قال معاذ: كان في ابتداءِ الأمر: مَن شاء صام ومَن شاء أفطر وأطعم عَن كلِّ يوم مسكينًا. وهكذا روىٰ البخاري عن سَلَمة بن الأكوع رضي الله عنه أنَّه قال: لما نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ[٣] فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان مَن أراد أن يُفْطِر يَفْتَدِي، حتىٰ نزلت الآية التي بعدها فنسختها[٤].

وروي أيضًا من حديث عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: هي منسوخةٌ[٥].

وقال السُّدِّي، عن مُرَّة، عن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عبَّاس ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ فصار إجماعٌ، وقرأه الباقون ﴿مِسْكِينٍ﴾ علىٰ وَاحِدِهَا[٦]. قال: يقول: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يَتَجَشَّمُونَه[٧]، قال عبد الله: فكان مَن شَاء صام ومَن شاء أفطر وأطعم مسكينًا ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ قال: يقول: أطعم مسكينًا آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فكانوا كذلك حتىٰ نسختها: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[٨].

وقال البخاري أيضًا: حدَّثنا إسحاق، أخبرنا روح، حدَّثنا زكريا بن إسحاق، حدَّثنا عَمْرو بن دينار، عن عطاء سمع ابن عبَّاس رضي الله عنه يقرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ[٩][١٠] [فَلَا يُطِيقُونَهُۥ][١١] فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾. قال ابن عبَّاس رضي الله عنه: لَيْسَتْ منسوخةً، هو للشَّيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يَسْتَطِيعَان أن يصوما، فيُطْعِمَان مكان كل يوم مسكينًا[١٢].

---

(١) البخاري (٤٥٠٢)، ومسلم (١١٢٥) عن عائشة.

(٢) رواه البخاري (٤٥٠١) من حديث ابن عمر، و(٤٥٠٣) من حديث ابن مسعود.

(٣) لوحة (١٨٤ ب).

(٤) البخاري (٤٥٠٢)، ومسلم (١١٢٥).

(٥) رواه البخاري (٤٥٠٦)، وحديث ابن مسعود (٤٥٠٣).

(٦) متواترة: قَرَأَ (مَسَاكِينَ) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ والْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مِسْكِينٍ).

(٧) جَشِمَ الأَمْرَ يَجْشَمُه جَشْمًا وجَشامةً وتَجَشَّمَه: تكَلَّفَه علىٰ مشقةٍ.

(٨) لم أقف علىٰ إسناده: ولكن يشهد لصحته الروايات السابقة عن سلمة بن الأكوع.

(٩) قراءة: قَرَأَ (يُطَوَّقُونَهُ) عَائِشَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدُ وَطَاوُوسُ وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (يُطِيقُونَهُ).

(١٠) في (ز): «يطيقونه»، والمثبت هو الصحيح الموافق لما في «صحيح البخاري».

(١١) زيادة من الصحيح.

(١٢) رواه البخاري (٤٥٠٥)، ورواه النسائي نحوه (٢/ ٢٠٧)، وانظر: «إرواء الغليل» للألباني (٢١٩).

وهكذا روىٰ غير واحد عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنه نحوه.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدَّثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يُطِيق الصوم ثم ضَعُفَ، فرخَّص له أن يُطْعِمَ مكان كلِّ يوم مسكينًا[١].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيْه: حدَّثنا محمَّد بن أحمد، حدَّثنا الحسين بن محمَّد بن بِهْرام المحرمي، حدَّثنا وهب بن بَقِيَّة، حدَّثنا خالد بن عبد الله، عن ابن أبي ليلىٰ، قال: دخلت علىٰ عطاء في رمضان، وهو يأكل، فقال: قال ابن عبَّاس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فكان مَن شاء صامَ، ومَن شاء أفطرَ وأطعم مسكينًا، ثمَّ نزلت هذه الآية فنسخت الأولىٰ، إلا الكبير الفاني إن شاء أطعم عن كلِّ يوم مسكينًا وأفطر[٢].

فحاصل الأمر: أنَّ النسخ ثابتٌ في حقِّ الصحيح المقيم بإيجابِ الصيام عليه بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وأما الشَّيخ الفاني الهَرِم الَّذِي لا يَستطيع الصيام فله أن يُفْطِر ولا قضاء عليه؛ لأنَّه ليست له حال يَصِير إليها يتمكَّن فيها مِن القضاء، ولكن هَل يجب عليه إذا أفطر أَن يُطْعِمَ عن كلِّ يوم مِسْكِينًا إذا كان ذا جِدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه إطعام؛ لأنَّه ضعيف عنه لسِنِّه، فلم يجب عليه فدية كالصَّبِيِّ؛ لأنَّ الله لا يُكَلِّف نفسًا إلا وسعها، وهو أحد قولي[٣] الشافعي. والثاني -وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء- : أنَّه يَجِب عليه فدية عَن كلِّ يوم، كما فسَّره ابن عبَّاس رضي الله عنهما وغيره من السَّلف علىٰ قراءة مَن قرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يَتَجَشَّمُونَه، كما قاله ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، وهو اختيار البخاري فإنَّه قال: وأمَّا الشَّيخ الكبير إذا لم يُطِقِ الصِّيام، فقد أطعم أنس رضي الله عنه -بعد ما كبر عامًا أو عامين- كلَّ يوم مسكينًا خبزًا ولحمًا، وأفطر[٤].

وهذا الذي علَّقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي في «مسنده»، فقال: حدَّثنا عُبَيد الله ابن مُعاذ، حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمران، عن أيوب بن أبي تميمة قال: ضعف أنس بن مالك عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد[٥]، فدعا ثلاثين مسكينًا فأطعمهم.

---

(١) ضعيف بهذا السياق، وفيه أشعث بن سوار وهو ضعيف، ويجزئ في الاستدلال رواية البخاري السابقة.

(٢) إسناده صحيح.

(٣) لوحة (١٨٥ أ).

(٤) صحيح لغيره: رواه البخاري تعليقًا (٨/ ١٧٩)، وأورد الحافظ له طرقًا من «مسند عبد بن حميد»، ورواه أبو يعلىٰ (٤١٩٤) بإسنادٍ فيه انقطاع، ورواه الطبراني في «الكبير» (١/ ٢١٤/ ٦٧٥) من طريق قتادة عن أنس، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٦٤): رجاله رجال الصحيح. ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١/ ١٥) وفيه مجهول وبالجملة، فالأثر بهذه الطرق يرقىٰ إلىٰ الصحة، والله أعلم.

(٥) الثَّرِيد: أن يثرد الخبز بمرق اللحم، وقد يكون معه اللحم، ومن أمثالهم: الثريد أحد اللحمين.

ورواه عبد بن حميد، عن روح بن عبادة، عن عمران -وهو ابن حُدَير- عن أيوب به.

ورواه عبد أيضًا، من حديث ستَّة مِن أصحاب أنس ﷺ، عن أنس ﷺ -بمعناه.

ومما يَلْتَحِقُ بهذا المعنىٰ: الحامل والمرضع، إذا خافتا علىٰ أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلافٌ كثيرٌ بين العلماء، فمنهم مَن قال: يُفْطِرَان ويَفْدِيَان ويَقْضِيَان. وقيل: يَفْدِيَان فقط، ولا قضاء. وقيل: يَجِبُ القضاء بلا فديةٍ. وقيل: يُفْطِرَان، ولا فدية ولا قضاء. وقد بَسطْنَا هذه المسألة مُسْتَقْصَاةً في كتاب الصيام الذي أفردناه. ولله الحمد والمنَّة.

[عن أنس بن مالك الكَعْبِيِّ[١] ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ المُسَافِرِ الصَّوْمَ وَشَطْرَ الصَّلَاةِ، وَعَنِ الحُبْلَىٰ وَالمُرْضِعِ الصَّوْمَ». رواه الخمسةُ، وحسَّنه التِّرمذي. وفي لفظٍ: «إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ شَطْرَ الصَّلَاةِ أَوْ نِصْفَ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمَ عَنِ المُسَافِرِ وَالمُرْضِعِ وَالحُبْلَىٰ»[٢]][٣].

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يَمدحُ تعالىٰ شهرَ الصيام مِن بَينِ سائر الشُّهور، بأَن اختاره مِن بَيْنِهِنَّ لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصَّه بذلك، قد ورد الحديثُ بأنَّه الشهر الذي كانت الكُتُبُ الإلهيَّةُ تنزل فيه علىٰ الأَنْبِياء.

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا عمْران أبو العوام، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة -يعني ابن الأسقع ﷺ- أن رسول الله ﷺ قال: «أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ. وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ [مَضَيْنَ][٤] مِنْ رَمَضَانَ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأَنْزَلَ اللهُ القُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ»[٥].

وقد رُوِيَ مِن حديث جابر بن عبد الله ﷺ وفيه: أنَّ الزَّبور أُنْزِل لِثِنْتَي عشرةَ ليلةً خَلَتْ مِن رمضان،

---

(١) هو أنس بن مالك الكعبي القشيري أبو أمية، منسوب لبني عبد الله بن كعب، غير أنس بن مالك بن النضر المشهور ﷺ.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٢٤٠٥)، والترمذي (٧١٥)، وابن ماجة (١٦٦٧)، والنسائي (٤/ ١٨٠).

(٣) زيادة من (ح). (٤) زيادة من «المسند».

(٥) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٠٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٠/ ١٦٤٩)، وابن جرير (٢/ ١٤٥) ورجاله ثقات عدا عمران القطان: صدوق بهم، ومنهم من حسن حديثه.

قال الشيخ الألباني: «وله شاهد من حديث ابن عبَّاس مرفوعًا بنحوه، أخرجه ابن عساكر من طريق علي بن طلحة عنه وهذا منقطع». انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٥).

والإنجيلَ لثَمَانِيَ عَشْرَةَ، والباقي كما تقدَّم. رواه ابن مَرْدوَيْه(١).

أمَّا الصُّحُفُ والتَّوراة والزَّبور والإنْجِيل -فنزل كلٌّ منها علىٰ النَّبيِّ الَّذِي أُنْزِلَ عليه جملةً واحدةً، وأمَّا القرآن فإنَّما نزل جملةً واحدةً إلىٰ بَيت العِزَّة مِن السَّماء الدُّنيا، وكان ذلك في شهر رمضان(٢)، في ليلةِ القَدْرِ منه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]. وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، ثمَّ نزل بعدُ مفرَّقًا بحسب الوقائع علىٰ رسول الله ﷺ. هكذا رُوِيَ مِن غَيْرِ وَجْهٍ، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، كما قال إسرائيل، عن السُّدِّي، عن محمَّد بن أبي المجالد، عن مِقْسَم، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه سألَهُ عطيَّة بن الأسود، فقال: وقع في قَلْبِي الشَّكُّ مِن قول الله تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾، وقد أُنْزِل فِي شَوَّال، وفي ذِي القَعْدَة، وفي ذي الحِجَّةِ، وفي المُحَرَّم، وصَفَر، وشهر رَبِيع. فقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: إنَّه أُنْزِل في رمضان، في ليلةِ القَدْر وفي ليلةٍ مباركةٍ جملةً واحدةً، ثمَّ أُنزِل علىٰ مواقع النُّجوم ترتيلًا في الشُّهور والأيَّام. رواه ابن أبي حاتم وابن مَرْدوَيْه، وهذا لفظه(٣).

وفي روايةِ سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: أُنْزِلَ القُرْآنِ في النِّصْفِ مِن شهر رمضان إلىٰ سماء الدُّنيا فجعل في بيت العِزَّة، ثم أنزل علىٰ رسول الله ﷺ في عشرين سنةٍ لجواب كلام الناس(٤).

وفي رواية عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلةِ القَدْرِ إلىٰ هذه السماء الدنيا جملةً واحدةً، وكان الله يُحْدِثُ لنبيِّه ما يشاء، ولا يَجِيءُ المشركون بمثَلٍ يُخَاصِمُونَ به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ

---

(١) لم أقف علىٰ إسناده، ويجزئ الرواية السابقة.

(٢) لوحة (١٨٥ ب).

(٣) رواه ابن جرير (٢/ ١٤٥- ١٤٦)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٠/ ١٦٥٠)، والسُّدِّي: قال يحيىٰ بن سعيد: لا بأس به، وقال أحمد: ثقة، وضعفه ابن معين، وأنكر الشعبي علىٰ السُّدي تفسيره للقرآن، وكذلك إبراهيم النخعي، وقال أبو زرعة: لين، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال ابن عدي: هو عندي مستقيم الحديث، صدوق لا بأس به. انظر: «تهذيب الكمال» (٣/ ١٢٤)، وقال الحافظ: صدوق يهم ورمي بالتشيع. «التقريب» ترجمة (٤٦٣).

وله طرق أخرىٰ من طريق عكرمة عن ابن عبَّاس رواه الطبراي (٢/ ١٤٥)، وفي إسناده داود بن الحصين. قال الحافظ: ثقة إلا في عكرمة. ورمي برأي الخوارج «تقريب» ترجمة (١٧٧٩)، وقال ابن المديني: ما روي عن عكرمة فمنكر الحديث، وقال أبو زرعة: لين، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال أبو داود: أحاديثه عن عكرمة مناكير، وأحاديثه عن شيوخه مستقيمة، وقال ابن عدي: صالح الحديث إذا روىٰ عنه ثقة فهو صالح الرواية إلا أن يروي عنه ضعيف «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٧٩).

له طريق ثالثة عن الطبري أيضًا (٢/ ١٤٥) من طريق سعيد بن جبير عنه، وفيه حكيم بن جبير: ضعيف.

(٤) انظر ما قبله، وهذا الإسناد فيه حكيم بن حبيبة: ضعيف.

تَرۡتِيلًا ۝٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣][1].

[قال فخر الدين: ويُحْتَمَلُ أنَّه كان يَنْزِل في كلِّ ليلةٍ قَدْرَ ما يحتاج النَّاس إلىٰ إنزاله إلىٰ مثله من اللَّوح إلىٰ سماء الدُّنْيا. وتَوَقَّفَ؛ هل هذا أَوْلَىٰ أو الأَوَّل؟ وهذا الذي جعله احتمالًا نقله القرطبي عن مُقاتل بن حيَّان، وحكىٰ الإجماعَ علىٰ أنَّ القُرآنَ نزلَ جملةً واحدةً مِن اللَّوح المحفوظِ إلىٰ بيت العزَّة في السَّماء الدُّنيا، وحكىٰ الرازي عن سفيان بن عيينة وغيره أن المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ أي: في فضله أو وُجُوبِ صَوْمِهِ، وهذا غريبٌ جدًّا][2].

وقوله: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ هذا مدحٌ للقرآن الَّذي أَنْزَلَهُ الله هدًىٰ لقُلوبِ العِبادِ ممَّن آمَنَ بِهِ وصَدَّقَه واتَّبَعَه ﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾ أي: ودلائل وحُجَجٍ بيِّنةٍ واضحةٍ جليَّةٍ لمن فهمها وتدبَّرها دالَّةً علىٰ صحَّة ما جاء به مِن الهدىٰ المنافي للضَّلال، والدَّال علىٰ الرُّشد المُخَالف للعَمَىٰ[3]، ومُفَرِّقًا بين الحقِّ والبَاطل، والحلال، والحَرَام.

وقد رُوِيَ عَن بعض السَّلف أنَّه كَرِهَ أن يُقَال إلا: «شَهْرَ رَمَضَان» ولا يقال: «رَمَضَان»؛ قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن بكار بن الريَّان، حدَّثنا أبو معشر، عن محمَّد بن كعب القُرَظي، وسعيد -هو المقْبُري- عن أبي هريرة ﷺ قال: لا تقولوا: رَمَضان، فإنَّ رَمَضَان اسمٌ مِن أسماء الله تعالىٰ، ولكن قولوا: شَهْر رَمَضَان[4].

قال ابن أبي حاتم: وقد رُوِيَ عن مجاهد[5]، ومحمَّد بن كعب نحو ذلك، ورَخَّص فيه ابن عبَّاس وزيد بن ثابت ﷺ.

قلتُ: أبو معشر هو نَجِيح بن عبد الرحمن المدني إمام في المغازي والسِّيَر، ولكن فيه ضعف، وقد رواه ابنه محمَّد عنه فجعله مرفوعًا، عن أبي هريرة ﷺ، وقد أنكره عليه الحافظ ابن عدي -وهو جدير بالإنكار- فإنَّه متروك، وقد وَهِمَ في رفع هذا الحديث، وقد انتصر البخاري ﷺ في كتابه لهذا

---

(١) انظر ما قبله، وهذا الإسناد من طريق داود بن الحصين، وروايته عن عكرمة ضعيفة.
(٢) ليست في (ز).
(٣) في ط.الشعب: «الغي».
(٤) ضعيف: رواه ابن عدي (٧/ ٢٥١٧) مرفوعًا، وقال: لا أعلم يروىٰ عن أبي معشر بهذا الإسناد.
قلت: وعلته أبو معشر هذا. ضعفه النسائي ويحيىٰ وغيرهم، وقد اضطرب في حديثه فرواه مرفوعًا كما تقدم، ورواه موقوفًا عن أبي هريرة، رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣١٠/ ١٦٤٨)، (وانظر: تعليق الحافظ ابن كثير بعد إيراده الحديث).
(٥) لوحة (١٨٦ أ).

فقال: (بَابٌ: يُقالُ: رمَضان)(١) وساق أحاديث في ذلك منها: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢) ونحو ذلك.

وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا إيجاب حَتْمٍ علىٰ مَن شَهِدَ استهلال الشَّهر - أي: كان مقيمًا في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه- أَن يصُوم لا مَحَالة. ونَسَخت هذه الآية الإباحة المتقدِّمة لمن كان صحيحًا مُقِيمًا أن يُفْطِر ويَفْدِي بإطعام مسكينٍ عن كلِّ يومٍ، كما تقدَّم بيانه. ولما حتَّم الصيام أعاد ذكر الرُّخْصَة للمريض وللمسافر في الإفطار، بشَرْطِ القضاء فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ معناه: ومَن كان به مَرَضٌ في بدنه يَشُقُّ عليه الصيام معه، أو يُؤْذِيهِ أو كان علىٰ سفرٍ؛ أي: في حال سفرٍ فله أن يُفْطِر، فإذا أفطر فعليه بِعَدَّةِ ما أفطره في السَّفر من الأيَّام؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: إنما رخَّصَ لكم في الفِطْر في حال المرض وفي السفر، مع تَحَتُّمِهِ في حقِّ المقيم الصحيح، تيسيرًا عليكم ورحمةً بكم.

وهاهنا مسائل تتعلق بهذه الآية:

إحداها: أنَّه قد ذهب طائفةٌ مِن السَّلف إلىٰ أنَّ مَن كان مقيمًا في أوَّل الشَّهر ثمَّ سافر في أثنائه، فليس له الإفْطَار بعذرِ السَّفر والحالة هذه؛ لقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وإنما يُباح الإفطار لمسافر استهَلَّ الشهر وهو مسافر، وهذا القول غريب نقله أبو محمَّد بن حزم في كتابه «المُحلىٰ» عن جماعة من الصَّحابة والتَّابعين. وفيما حكاه عنهم نظر، والله أعلم. فإنه قَد ثبتتِ السُّنَّة عن رسول الله ﷺ أنَّه خرَجَ في شهر رمضان لغزوة الفتح، فصَام(٣) حتَّىٰ بلغ الكَديد(٤)، ثمَّ أفطر، وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبا «الصحيح»(٥).

الثانية: ذهب آخرون من الصَّحابة والتَّابعين إلىٰ وجوب الإفطار في السَّفر لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ والصحيح قول الجمهور(٦)، أنَّ الأمر في ذلك علىٰ التَّخيير، وليس بحَتْمٍ؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان. قال: «فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا المُفْطِرُ، فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمُ عَلَىٰ المُفْطِرِ، وَلَا المُفْطِرُ عَلَىٰ الصَّائِمِ»(٧). فلو كان الإفطار هو الواجب لأَنْكَر عليهم الصِّيام، بل الذي ثبت من فعل

---

(١) كتاب الصيام، باب: هل يقال رمضان أو شهر رمضان، ومن رأىٰ كله واسعًا. انظر: «فتح الباري» (٤/ ١١٢).

(٢) البخاري (٣٨) (١٩٠٤) (١٩١٠)، ومسلم (٧٥٩)، والنسائي (٤/ ١٥٧)، وابن ماجة (١٦٤١).

(٣) في (ح): «فصار».

(٤) الكديد: موضع علىٰ بعد اثنين وأربعين ميلًا من مكة.

(٥) البخاري (١٩٤٤)، ومسلم (١١١٣).

(٦) لوحة (١٨٦ ب).

(٧) مسلم (١١١٦)، والترمذي (٧١٣)، وأبو داود (٢٤٠٦)، والنسائي (٤/ ١٨٨).

رسول الله ﷺ أنَّه كان في مثل هذه الحال صائمًا، لما ثبت في «الصحيحين» عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حَرٍّ شديدٍ، حتىٰ إن كان أَحدُنا لَيَضَعُ يده علىٰ رأسِهِ مِن شِدَّةِ الحرِّ وما فينا صائمٌ إلا رسولُ الله ﷺ وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه (١).

الثَّالثة: قالت طائفة منهم الشافعي: الصِّيام في السَّفر أفضل من الإفطار لفعل النَّبيِّ ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل، أخذًا بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ: أنَّه سُئِل عن الصوم في السفر، فقال: «**مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ، وَمَنْ صَامَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ**» (٢). وقال في حديث آخر: «**عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللهِ الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ**» (٣).

وقالت طائفة: هما سواء لحديثِ عائشة: أنَّ حمزة بن عمرو الأسلميَّ رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام، أَفَأَصُوم في السفر؟ فقال: «**إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ**» (٤). وهو في «الصحيحين».

وقيل: إن شقَّ الصِّيام فالإفطار أفضل لحديث جابر رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ رجلًا قد ظُلِّلَ عليه، فقال: «**مَا هَذَا؟**» قالوا: صائم، فقال: «**لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ**». أخرجاه (٥). فأمَّا إن رَغِبَ عن السُّنَّة، ورأىٰ أنَّ الفطر مكروه إليه، فهذا يَتَعَيَّن عليه الإفطار، ويَحْرُم عليه الصيام، والحالة هذه، لما جاء في «مسند الإمام أحمد» وغيره، عن ابن عمر وجابر رضي الله عنهم، وغيرهما: مَنْ لَمْ يقبل رُخْصَةَ الله كان عليه مِن الإثم مِثْل جِبَالِ عَرَفَةَ (٦).

الرابعة: القضاء، هل يجب متتابعًا أو يجوز فيه التفريق؟ فيه قولان: أحدهما: أنَّه يجب التَّتابع؛ لأنَّ القضاء يحكي الأداء. والثاني: لا يجب التَّتابع، بل إن شاء فرَّق، وإن شاء تَابَع. وهذا قول جُمهور السلف والخَلَف، وعليه ثبتت الدَّلائل؛ لأنَّ التَّتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائِهِ في الشَّهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدَّةَ ما أفطر. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ثم قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا (٧) يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

---

(١) البخاري (١٩٤٥)، ومسلم (١١٢٢).

(٢) مسلم (١١٢١)، والنسائي (٤/ ١٨٧)، والبيهقي (٤/ ٢٤٢)، والدارقطني (٢/ ٩٩٠)، ولفظه: «هي رخصة من الله من أَخَذَ بها فَحَسَنٌ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه».

(٣) مسلم (١١١٥)، والنسائي (٤/ ١٧٦).

(٤) رواه نحوه البخاري (١٩٤٢)، ومسلم (١١٢١)، وأبو داود (٢٤٠٢)، والترمذي (٧١١)، والنسائي (٤/ ١٨٧)، وابن ماجة (١٦٦٢).

(٥) البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥)، وأبو داود (٢٤٠٧)، والنسائي (٤/ ١٧٧).

(٦) أثر ابن عمر. رواه أحمد (٢/ ٧١) وفيه ابن لهيعة: اختلط، وشيخه أبو طُعْمة، قال الحافظ: مقبول، وأما أثر جابر فلم أقف عليه.

(٧) لوحة (١٨٧ أ).

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سلمة الخزاعي، حدَّثنا ابن هلال، عن حميد بن هلال العدوي، عن أبي قتادة، عن الأعرابي الذي سمع النَّبيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ»[١].

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم بن هلال، حدَّثنا غاضرة بن عُرْوة الفُقَيْمي، حدَّثني أبي عُرْوَةَ، قال: كنَّا ننتظر النَّبيَّ ﷺ فخرج رَجِلًا[٢] يَقْطُرُ رأسُهُ مِن وضوءٍ أو غُسْلٍ، فصلَّىٰ، فلمَّا قضىٰ الصلاة جعل النَّاس يسألونَهُ: علينا حرج في كذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ دِينَ اللهِ فِي يُسْرٍ» ثلاثًا يقولها[٣].

ورواه الإمام أبو بكر بن مَرْدوَيْه في تفسير هذه الآية مِن حديث مسلم بن إبراهيم[٤]، عن عاصم ابن هلال به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، قال: حدَّثنا أبو التيَّاح، سمعتُ أنس بن مالك يقول: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا».

أخرجاه في «الصحيحين»[٥].

وفي «الصحيحين» أيضًا: أنَّ رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسىٰ رضي الله عنهما حين بعثهما إلىٰ اليمن: «بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»[٦].

وفي «السُّنَن» و«المسانيد» أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[٧].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيْه في «تفسيره»: حدَّثنا عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي طالب، حدَّثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدَّثنا أبو مسعود الجُرَيري، عن عبد الله بن شقيق، عن مِحْجَن ابن الأدرع: أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ رجلًا يصلِّي فترَاءَاه ببصره ساعةً، فقال: «أَتُرَاهُ يُصَلِّي صَادِقًا؟» قال:

---

(١) **صحيح لشواهده**: رواه أحمد (٣/ ٤٧٩).

(٢) ليست في (ح)، وفي (ز): «رجل»، والمثبت من «مسند أحمد»، والمراد: خرج مترجلًا، ترجيل الشعر: إرساله بالمشط.

(٣) **صحيح لشواهده**: رواه أحمد (٦/ ٦٩)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٥٤٨٣ - بتحقيقي)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ٣٠)، وفيه عاصم بن هلال، قال الحافظ: فيه لين، وغاضرة: مجهول.
وللحديث شاهد آخر عن محجن بن الأدرع، وسيأتي.

(٤) في (ح): «مسلم أبي تميمة بن إبراهيم».

(٥) البخاري (٦٩)، (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤)، وأحمد (٣/ ٢٠٩).

(٦) البخاري (٤٣٤١)، ومسلم (١٧٣٣).

(٧) **حسن**: رواه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٥٧) وفيه علي بن يزيد الألهاني: وهو ضعيف، وضعفه الشيخ الألباني. انظر: «بلوغ المرام» (٨)، قلت: وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله، رواه الخطيب (٧/ ٢٠٩)، وابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» (١٠/ ١٤٥/ ٢)، وفي إسناده ضعف أيضًا.
وله شاهد مرسل عن حبيب بن أبي ثابت. رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢).
وبمجموع هذه الطرق فإن الحديث يرقىٰ إلىٰ التحسين إن شاء الله.

قلت: يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاةً، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُسْمِعْهُ فَتُهْلِكَهُ». وقال: «إِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَرَادَ بِهَذِهِ الأُمَّةِ اليُسْرَ، وَلَمْ يُرِدْ بِهِمُ العُسْرَ»(١).

ومعنىٰ قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: إنما أرْخَصَ لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليُسْر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدَّة شهركم.

وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة:٢٠٠] [وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ(٢) كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠]، وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق:٣٩، ٤٠]؛ ولهذا جاءت السُّنَّة باستحباب التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير بعد الصَّلوات المكتوبات. وقال ابن عبَّاس: ما كنَّا نَعْرِفُ انقضاء صلاةِ رسول الله ﷺ إلَّا بالتَّكْبِيرِ(٣)؛ ولهذا أخذ كثيرٌ مِن العلماء مشروعيةَ التَّكبير في عيد الفطر من هذه الآية: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ حتىٰ ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلىٰ وجوبه في عيد الفطر؛ لظاهر الأمر في قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ [عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ]﴾، وفي مقابلته مذهبَ أبي حنيفة رحمه الله: أنه لا يُشْرَع التكبير في عيد الفطر. والباقون علىٰ استحبابه، علىٰ اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: إذا قمتم بما أمركم الله مِن طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده، فلعلَّكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبدة بن أبي برزة السِّجستاني(٤) عن الصُّلْب(٥) بن حَكِيم بن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده، أن أعرابيًّا قال:

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٢) من طرق عن عبد الله بن شفيق به: وإسناده صحيح.

(٢) لوحة (١٨٧ ب).

(٣) البخاري (٨٤١، ٨٤٢)، ومسلم (٥/ ٨٣ شرح النووي).

(٤) بالأصول: «السختياني»، والمثبت هو الصواب.

(٥) بالأصول: «الصلت»، وهو خطأ؛ فهو الصُّلب؛ بضم الصاد وبالموحدة. كما في تفسير «ابن أبي حاتم»، وانظر:

يا رسول الله، أقريبٌ ربُّنا فنُناجِيهِ أم بعيد فنُناديه؟ فسكت النبيُّ ﷺ، فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ إذا أمرتُهم أن يدعوني فدعوني استجبْتُ لهم»[١].

ورواه ابن جرير، عن محمَّد بن حميد الرازي، عن جرير به، ورواه ابن مَرْدوَيْه، وأبو الشيخ الأصبهاني، من حديث محمَّد بن أبي حميد، عن جرير، به. وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن عوف، عن الحسن، قال: سأل أصحاب رسول الله ﷺ النبيَّ ﷺ: أين ربُّنا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية[٢].

وقال ابن جُرَيج عن عطاء: أنَّه بلغه لما نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قال الناس: لو نعلم أيَّ ساعةٍ ندعو؟[٣] فنزلت: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٤].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، حدَّثنا خالد الحذاء، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله[٥] ﷺ في غزاةٍ فجعلنا لا نَصْعَدُ شَرَفًا، ولا نعلو شَرَفًا، ولا نهبط وَادِيًا إلا رفعنا أَصْوَاتَنَا بالتَّكْبير. قال: فدَنَا منَّا فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا[٦] عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ، يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[٧].

أخرجاه في «الصحيحين»، وبقيَّة الجماعة من حديث أبي عثمان النهدي، واسمه عبد الرحمن بن مُل[٨]، عنه بنحوه.

= «المؤتلف والمختلف» (٣/ ١٤٣٥).

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٦٤، ١٦٦٧)، وابن جرير (٢/ ١٥٨)، وفيه الصُّلْب بن حكيم. قال الحافظ في «لسان الميزان»: (مجهول)، ولكنه ورد فيه: (الصلت بن حكيم).

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (٢/ ١٥٨)، وهو مرسل فالإسناد ضعيف.

(٣) في (ز): «قال الناس له: تعلم أي ساعة ندعو؟».

(٤) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٦٥)، وابن جرير (٢/ ١٥٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ وكيع وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) لوحة (١٨٨ أ).

(٦) اربَعوا: أرفقوا.

(٧) البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأحمد (٤/ ٤٠٢).

(٨) في (ح): «ابن بك»، وهو خطأ، وعبد الرحمن بن مَل: خطأ، وعبد الرحمن بن مُل: تابعيٌّ ثقةٌ، أسلم علىٰ عهد رسول الله ﷺ ولم يَلْقَهُ، وكان أدرك الجاهلية.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سليمان بن داود، حدَّثنا شعبة، حدَّثنا قتادة، عن أنس ﷺ: أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**يَقولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**»[١].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله، أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدَّثنا إسماعيل بن عبيد الله[٢]، عن كريمة بنت الخشخاش المزنية، قالت: حدَّثنا أبو هريرة ﷺ: أنَّه سَمِعَ رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»[٣].

قلت: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وكقوله لموسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. والمراد من هذا: أنه تعالىٰ لا يُخَيِّب دعاء داعٍ، ولا يَشْغَلُهُ عنه شيءٌ، بل هو سميع الدُّعاء. وفيه ترغيبٌ في الدُّعاء، وأنَّه لا يَضِيعُ لَدَيْهِ تعالىٰ، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا يزيد، حدَّثنا رجلٌ أنه سمع أبا عثمان -هو النهدي- يحدث عن سلمان -يعني الفارسي- ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَيَسْتَحْيِي أَنْ يَبْسُطَ العَبْدُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا فَيَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ**». قال يزيد: سمُّوا لي هذا الرجل، فقالوا: جعفر بن ميمون[٤].

وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة من حديث جعفر بن ميمون -صاحب الأنماط- به. وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم، ولم يرفعه.

وقال الشيخ الحافظ أبو الحجاج المِزِّي رَحِمَهُ اللهُ في أطرافه: وتابعه أبو همام محمَّد بن الزبرقان، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي به.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو عامر، حدَّثنا عَلِيٌّ أبو المتوكل[٥] الناجي، عن أبي سعيد ﷺ:

---

(١) صحيح رواه أحمد (٣/ ٢١٠).

(٢) في (ز): (إسماعيل بن عبد الله)، وهو خطأ.

(٣) صحيح رواه أحمد (٢/ ٥٤٠)، وابن حبان (٨١٥) من طريقهما عن الأوزاعي به.
ورواه ابن ماجة (٣٧٩٢)، وأحمد (٢/ ٥٤٠)، والحاكم (١/ ٦٩٦) من طرق عن الأوزاعي به لكنه قال: عن إسماعيل عن أم الدرداء عن أبي هريرة، وهذا إسناد صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «تعليقه علىٰ الترغيب والترهيب».

(٤) حسن رواه أحمد (٥/ ٤٣٨)، وفيه رجل مجهول، لكن له متابعات وشواهد.
فرواه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجة (٣٨٦٥) من طرق عن جعفر بن ميمون، عن أبي عثمان به، والذي يترجح لي أنه - أي: جعفر- هو المجهول في الرواية السابقة، وفيه خلاف لكنه يصلح للمتابعة، وتابعه سليمان التيمي: رواه أحمد (٥/ ٤٣٨)، والحاكم (١/ ٤٩٧) وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد عن أنس عند الحاكم (١/ ٦٩٧)، وفي سنده عامر بن يساف: يصلح للمتابعة، وبالجملة فالحديث بمجموع ما ذكر حسن.

(٥) في (ز): «علي عن أبي المتوكل»، وفي (ح): «علي بن أبي المتوكل»، والمثبت هو الصواب فهو علي بن دَاود -أو دُؤاد- أبو المتوكل الناجي الساجي البصري، روىٰ له أصحاب الستة.

أن النَّبيّ ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللهَ ﷻ[(١)] بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَىٰ ثَلاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا» قالوا: إِذًا نُكْثِر. قال: «اللهُ أَكْثَرُ»[(٢)].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق بن منصور الكوسج، أخبرنا محمَّد بن يوسف، حدَّثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جُبَير بن نفير، أن عُبَادة بن الصامت ﷺ حدَّثهم أن النَّبيّ ﷺ قال: «مَا عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللهَ ﷻ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ»[(٣)].

ورواه التِّرمِذي، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدَّارِمي، عن محمَّد بن يوسف الفِرْيابي، عن ابن ثوبان -وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان- به. وقال: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجه.

وقال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن أبي عبيد -مولىٰ ابن أزهر- عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[(٤)].

أخرجاه في «الصَّحيحين» من حديث مالك به. وهذا لفظ البخاري رحمه الله وأثابه الجنة.

وقال مسلم أيضًا: حدَّثني أبو الطاهر، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخَوْلاني، عن أبي هريرة ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يُسْتَجَابُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ[(٥)] عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَتْرُكُ الدُّعَاءَ»[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا ابن هلال، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَزَالُ العَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي»[(٧)].

---

(١) لوحة (١٨٨ ب).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ١٨)، والحاكم (١/ ٤٩٣) -وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالا- من حديث أبي سعيد.

(٣) رواه عبد الله في «زوائد المسند» (٥/ ٣٢٩)، والترمذي (٣٥٦٨) من حديث عبادة بن الصامت، وفيه ابن ثوبان: صدوق يخطئ، لكن لا يضر، فالإسناد السابق شاهد قوي للحديث.

(٤) البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)، وأبو داود (١٤٨٤)، والترمذي (٣٣٨٧)، وابن ماجة (٣٨٥٣)، وأحمد (٢/ ٤٨٧).

(٥) في الحديث: «ادعوا الله ﷻ ولا تَسْتَحسِرُوا»، أي: لا تَمَلُّوا. وهو اسْتِفْعال في حَسَر إذا أعْيا وتَعِب. «النهاية»: (١/ ٣٨٤)، وانظر: «اللسان»: حسر.

(٦) مسلم (٢٧٣٥).

(٧) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٢١٠)، وأبو يعلىٰ (٥/ ٢٨٦٥)، وإسناده صحيح ويشهد له ما تقدم في الحديث السابق.

وقال [الإمام] أبو جعفر الطبري في «تفسيره»: حدَّثني يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وهب، حدَّثني أبو صخر: أنَّ يزيد بن عبد الله بن قسَيط حدثه، عن عروة بن الزبير، عن عائشة ﵂ أنَّها قالت: مَا مِن عَبْدٍ مؤمنٍ يدعو الله بدعوةٍ فتذهب، حتىٰ تُعَجَّل له في الدُّنيا أو تُدَّخر له في الآخرة[(١)]، إذا هو لم يعجل أو يَقْنَط. قال عروة: قلت: يا أمَّاه كيف عَجَلَتُه وقنوطه؟ قالت: يقول: سَأَلْتُ فَلَمْ أُعْطَ، ودعوت فلم أُجَبْ[(٢)].

قال ابن قُسَيْط: وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا بكر بن عمرو، عن أبي عبد الرحمن الحُبُليّ، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: **«القُلُوبُ أَوْعِيَةٌ، وَبَعْضُهَا أَوْعَىٰ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، فَإِنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ»**[(٣)].

وقال ابن مَرْدَوَيْه: حدَّثنا محمَّد بن إسحاق بن أيوب، حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم بن أبيِّ بن نافع ابن معد يكرب ببغداد، حدَّثني أبيُّ بن نافع، حدَّثني أبي نافع بن معد يكرب، قال: كنت أنا وعائشة سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الآية: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ قال: **«يَا رَبِّ، مَسْأَلَةَ عَائِشَةَ»**. فهبط جبريل فقال: **«اللهُ يُقْرِؤُكَ السَّلامَ، هَذَا عَبْدِي الصَّالِحُ بِالنِّيَّةِ الصَّادِقَةِ، وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، فَأَقُولُ: لَبَّيْكَ. فَأَقْضِي حَاجَتَهُ»**[(٤)].

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه.

وروىٰ ابن مَرْدَوَيْه مِن حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس ﵄: حدَّثني جابر بن عبد الله ﵄ أن النَّبيَّ ﷺ قرأ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية. فقال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ أَمَرْتَ بِالدُّعَاءِ، وَتَوَكَّلْتَ بِالإِجَابَةِ، لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ، لَبَّيْكَ إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ، أَشْهَدُ أَنَّكَ فَرْدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ تَلِدْ وَلَمْ تُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ، وَلِقَاءَكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنْتَ تَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ»**[(٥)].

---

(١) لوحة (١٨٩ أ).

(٢) **إسناده صحيح.**

(٣) **ضعيف:** رواه أحمد (٢/ ١٧٧)، وفي إسناده ابن لهيعة، وله شاهد من حديث أبي هريرة، رواه الترمذي (٣٤٧٩)، وفيه صالح المري وهو ضعيف، كما قال الحافظ «التقريب» (٢٨٤٥)، والحديث بهذين الشاهدين حسنه الشيخ الألباني. انظر: «الصحيحة» (٥٩٤).

(٤) **ضعيف جدًّا:** فيه إسحاق بن إبراهيم، قال الدارقطني: دجال.

(٥) **ضعيف جدًّا:** عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٧٤) إلىٰ ابن أبي الدنيا في «الدعاء» وابن مردويه، والبيهقي في =

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا الحسن بن يحيىٰ الأرزي ومحمَّد بن يحيىٰ القُطَعي قالا: حدَّثنا الحجاج بن مِنْهال، حدَّثنا صالح المُرِّي، عن الحسن، عن أنس ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، وَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ لِي، وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ؛ فَأَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدُنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ فَمَا عَمِلْتَ مِنْ شَيْءٍ وَفَّيْتُكَهُ وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَمِنْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ** (١)**الإِجَابَةُ**» (٢).

وفي ذكره تعالىٰ هذه الآية الباعثة علىٰ الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلىٰ الاجتهاد في الدُّعاء عند إكمال العِدَّة، بل وعندَ كلِّ فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في «مسنده»:

حدَّثنا أبو محمَّد المليكي، عن عَمْرو -هو ابن شعيب بن محمَّد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ**». فكان عبد الله بن عمرو ﷺ إذ أفطر دعا أهله، وولده ودعا (٣).

وقال أبو عبد الله محمَّد بن يزيد بن ماجه في «سننه»: حدَّثنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، عن إسحاق بن عبيد الله (٤)المدني، عن عَبْد الله بن أبي مُلَيْكة، عن عبد الله بن عَمْرو ﷺ قال: قال النَّبيّ ﷺ: «**إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةً مَا تُرَدُّ**». قال عَبْد الله بن أبي مُليكة: سمعت عبد الله بن عَمْرو يقول إذا أفطر: اللَّهمَّ إني أسألُك برحمتك التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ أن تغفر لي (٥).

وفي «مسند الإمام أحمد»، و«سنن الترمذي»، و«النسائي»، و«ابن ماجة»، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّىٰ يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ دُونَ الغَمَامِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ: بِعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**» (٦).

= «الأسماء والصفات» والأصبهاني في «الترغيب» من طريق الكلبي، وهو متروك الحديث متهم بالكذب.

(١) لوحة (١٨٩ ب).

(٢) ضعيف: «زوائد البزار» (١٩ - كشف)، وفيه صالح المري، وهو ضعيف، واتهمه بعض الأئمة بقلب الأسانيد انظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (١٣/ ١٦- ٢٢).

(٣) حسن لغيره -أعني المرفوع دون الموقوف- الطريق الأولىٰ رواها الطيالسي في «مسنده» (٢٢٦٢)، وفيه أبو محمَّد المليكي لم أعرفه وبقية إسناده حسن، والطريق الثانية عن ابن ماجة (١٧٥٣)، والحاكم (١/ ٤٢٢)، وفيه إسحاق بن عبيد الله المدني، قال عنه الحافظ: مقبول، وهذا بعد ترجيحه أنه إسحاق بن عبيد الله بن أبي مليكة كما في «تهذيب التهذيب».

وبالجملة فالحديث بطريقيه يرتقي إلىٰ التحسين، ويشهد له أيضًا حديث أبي هريرة الآتي.

(٤) في الأصول: «عبد الله»، والمثبت من «سنن ابن ماجة» و«التهذيب».

(٥) انظر التعليق قبل السابق.

(٦) حسن لغيره: رواه الترمذي (٣٥٩٨)، وابن ماجة (١٧٥٢)، والنسائي، وأحمد (٢/ ٤٤٥)، وحسنه الترمذي، وحسنه الحافظ في «أمالي الأذكار» انظر: «شرح الأذكار» لابن علان (٤/ ٣٣٨)، ومقصودهم حسن لغيره؛ لأن في هذا الإسناد (أبو المدلة): مجهول، لكن للحديث شواهد كما سبق في الحديث السابق، وأما دعوة الإمام ودعوة المظلوم فلها شواهد أخرىٰ ليس هذا موضع بسطها.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾

هذه رُخْصَة من الله تعالىٰ للمسلمين، ورَفْعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداءِ الإسلام، فإنَّه كان إذا أفطر أحدُهُم إنَّما يَحِلُّ له الأكل والشرب والجِمَاع إلىٰ صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمَتَىٰ نام أو صلَّىٰ العشاء حُرِّم عليه الطعام والشَّراب والجِماع إلىٰ اللَّيلَةِ القابلة. فوجدُوا مِن ذلك مَشَقَّةً كبيرةً. والرَّفَثُ هنا هو: الجماع. قاله ابن عبَّاس ﵄، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، وسالم بن عبد الله، وعَمْرو بن دينار، والحسن، وقتادة، والزهري، والضَّحَّاك، وإبراهيم النَّخَعي، والسُّدِّي، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان.

وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ قال ابن عبَّاس ﵄، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، ومقاتل[(١)] بن حيان: يعني هن سَكَنٌ لكم، وأَنتم سَكَنٌ لَهُنَّ.

وقال الربيع بن أنس: هن لِحَافٌ لكم وأنتم لِحَافٌ لَهُن.

وحاصله: أنَّ الرجل والمرأة كلٌّ منهما يخالط الآخر ويُمَاسُّه ويضاجعه، فناسب أن يُرَخَّص لهم في المجامعة في ليل رمضانَ؛ لئلا يشقَّ ذلك عليهم، ويَتَحَرَّجُوا[(٢)]، قال الشاعر:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَىٰ جِيدَهَا ... تَدَاعَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ ﵁ الطويل[(٣)]، وقال أبو إسحاق عن البراء بن عازب ﵁ قال: كان أصحاب النَّبيِّ ﷺ إذا كان الرجل صائمًا فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلىٰ مثلها، وإن قَيْس بن صِرْمة الأنصاري ﵁ كان صائمًا، وكان يومه ذاك يعمل في أرضه، فلما حَضَر الإفطار أتىٰ امرأته فقال: هل عندك طعامٌ؟ قالت: لا، ولكن أَنْطَلِقُ فأطلب لك. فغلبته عينُه فنام، وجاءت امرأتُهُ، فلمَّا رأته نائما قالت: خيبةٌ لك! أنمت؟ فلما انتصف النهار غُشي عليه، فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

---

(١) لوحة (١٩٠ أ).

(٢) في (ز): «ويُحْرَجوا».

(٣) تقدم. انظر الآية (١٨٣، ١٨٤) من هذه السورة.

﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحًا شديدًا[(١)].

ولفظ البخاري هاهنا من طريق أبي إسحاق: سمعت البراء ﵁ قال: لما نزل صومُ رمضان كانوا لا يقربُون النساء رَمَضَانَ كُلَّه، وكان رجَال يخونون أنفسهم، فأنزل الله عليهم: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس ﵄ قال: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صَلُّوا العشاء حَرَّم الله عليهم النساء والطعام إلىٰ مثلها من القابلة، ثم إن أناسًا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ وكذا روىٰ العوفي عن ابن عبَّاس[(٢)].

وقال موسىٰ بن عقبة، عن كُرَيْب، عن ابن عبَّاس ﵄ قال: إن الناس كانوا قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون، ويحل لهم شأن النساء، فإذا نام أحدهُم لم يطعم ولم[(٣)] يشرَب ولا يأتي أهله حتىٰ يفطر من القابلة، فبلغنا أن عُمَر بن الخطاب ﵁ بعدما نام ووجب عليه الصوْمُ وَقَع علىٰ أهله، ثم جاء إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: أشكو إلىٰ الله وإليك الذي صنعت. قال: «وَمَاذَا صَنَعْتَ؟» قال: إني سَوَّلَتْ لي نفسي، فوقعت علىٰ أهلي بعد ما نمت وأنا أريد الصوم. فزعموا أن النَّبيَّ ﷺ قال: «مَا كُنْتَ خَلِيقًا أَنْ تَفْعَلَ». فنزل الكتاب: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[(٤)].

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قيس بن سعد، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة ﵁ في قول الله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال: كانَ المسلمون قبلَ أن تنزل هذه الآية إذا صلُّوا العشاء الآخرة حَرُمَ عليهم الطعام والشراب والنساء حتىٰ يفطروا، وإن عمر بن الخطاب ﵁ أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وأن صِرْمة بن قيس الأنصاري ﵁ غلبته عينه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتىٰ صلَّىٰ رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلمَّا أصبح أتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فأنزل الله عند ذلك: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ يعني بالرفث: مجامعة النساء: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: تجامعون النساء، وتأكلون وتشربون بعد العشاء

---

(١) رواها البخاري (١٩١٥) (٤٥٠٨)، وأبو داود (٢٣١٤)، والترمذي (٢٩٦٨)، والنسائي (٤/ ١٤٧) وهي أصح الروايات في سبب نزول الآية.

(٢) رواه ابن جرير (٢/ ١٦٤ - ١٦٥) من طريقين عنه.
الأولىٰ: فيها انقطاع؛ لأنها من طريق علي بن أبي طلحة.
والثانية: مسلسلة بالضعفاء.

(٣) لوحة (١٩٠ ب).

(٤) لم أقف علىٰ تخريجه.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْـَٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ يعني: جامعوهن ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني: الولد ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ فكان ذلك عفوًا من الله ورحمةً (١).

وقال هُشَيم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، قال: قام عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي أَرَدْتُ أهلي البارحة علىٰ ما يريد الرجلُ أهلهُ فقالت: إنها قد نامت، فظننتها تعْتَلُّ، فواقعتها، فنزل في عمر: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾(٢).

وهكذا رواه شعبة، عن عَمْرو بن مُرّة، عن ابن أبي ليلىٰ به.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا سويد، أخبرنا ابن المبارك(٣)، عن ابن لَهيعة، حدَّثني موسىٰ بن جبير - مولىٰ بني سلمة- أنَّه سمع عبد الله بن كعب بن مالك، يحدِّث عن أبيه قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسَىٰ فنام، حُرِّم عليه الطعام والشراب والنساء حتىٰ يُفْطِر من الغد. فرجع عمرُ بن الخطَّاب ﷺ من عند النَّبيِّ ﷺ ذات ليلةٍ وقد سَمَرَ عنده، فوجد امرأتَهُ قد نامت، فأرادها، فقالت: إني قد نِمْتُ! فقال: ما نِمْتِ! ثم وقع بها. وصنع كعب بن مالك مثل ذلك. فغدا عمر بن الخطاب إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْـَٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ الآية(٤).

وهكذا روي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والسُّدِّي، وقتادة، وغيرهم في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفي صِرْمة بن قيس؛ فأباح الجماعَ والطعامَ والشَّراب في جميع اللَّيل رحمةً ورخصةً ورِفقًا.

وقوله: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبو هريرة، وابن عبَّاس، وأنس، وشُريح القاضي، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والربيع بن أنس، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، والحكم بن عتبة، ومقاتل بن حيان، والحسن البصري، والضَّحَّاك، وقتادة، وغيرهم: يعني الولد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني: الجماع.

---

(١) عزاها السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ ابن جرير (٢/ ١٦٥) وسندها صحيح.

(٢) ابن جرير (٢/ ١٦٥)، وإسناده مرسل؛ لأن ابن أبي ليلىٰ لم يسمع من عمر.

(٣) لوحة (١٩١ أ).

(٤) عزاها السيوطي (١/ ٤٧٥) إلىٰ أحمد (٣/ ٤٦٠)، وابن جرير (٢/ ١٦٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٦/ ١٦٧٧).
قال السيوطي: «إسنادها حسن».
قلت: ولا يضر أنها من طريق ابن لهيعة فالراوي عنه ابن المبارك أحد العبادلة، لكن فيها موسىٰ بن جبير: مستور، ويشهد له الروايات الأخرىٰ المذكورة في الباب.

وقال عَمْرو بن مالك النُّكْري، عن أبي الجوزاء، عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ قال: ليلة القدر. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير [١].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر قال: قال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم. وقال سعيد عن قتادة: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ يقول: ما أحل الله لكم.

وقال عبد الرزاق أيضًا: أخبرنا ابن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، قال: قلت لابن عبَّاس: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿وَٱبۡتَغُواْ﴾ أو: «اتبعوا»؟ قال: أيتهما شئت: عليك بالقراءة الأولىٰ [٢].

واختار ابن جرير أنَّ الآية أعمُّ مِن هذا كله.

وقوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ أباح تعالىٰ الأكل والشرب، مع ما تقدَّم [٣] من إباحة الجماع في أيِّ الليل شاء الصائمُ إلىٰ أن يتبيَّن ضياءُ الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري؟: حدَّثنا ابن أبي مريم، حدَّثنا أبو غسَّان محمَّد بن مُطرِّف، حدَّثني أبو حازم، عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ ولم يُنزلْ ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم، رَبَطَ أحدُهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتىٰ يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ فعلموا أنما يعني: اللَّيل والنهار [٤].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيم، أخبرنا حُصَين، عن الشعبي، أخبرني عَديُّ بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ عَمَدت إلىٰ عِقَالَيْنِ [٥]، أحدُهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما فلا تَبَيَّن لي [٦][الأسود من الأبيض، ولا] [٧]الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت علىٰ رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت. فقال: «**إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ، إِنَّمَا ذَلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ وَسَوَادُ اللَّيْلِ**» [٨].

أخرجاه في «الصحيحين» من غير وجهٍ، عن عَديٍّ.

ومعنىٰ قوله: «**إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ**» أي: إن كان يَسعُ لوضع الخيط الأسود والخيط الأبيض

---

(١) رواه الطبري (٢/ ١٧٥)، وإسناده صحيح.
(٢) رواه الطبري (٢/ ١٧٠)، وإسناده صحيح.
(٣) لوحة (١٩١ ب).
(٤) البخاري (١٩١٧) (٤٥١١).
(٥) العِقال: الحبل أو الخيط.
(٦) في (ح): «فلَمَّا يبيِّنْ لي».
(٧) زيادة من «المسند».
(٨) البخاري (١٩١٦) (٤٥٠٩)، (٤٥١٠)، ومسلم (١٠٩٠)، وأبو داود (٢٣٤٩)، والترمذي (٢٩٧١)، وأحمد (٤/ ٣٧٧).

المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل. فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب.

وهكذا وقع في رواية البخاري مفسرًا بهذا: أخبرنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا أبو عوانة، عن حُصَين، عن الشعبي، عن عَدِيٍّ قال: أخذ عَدي عقالًا أبيض وعقالًا أسود، حتىٰ كان بعض الليل نظر فلم يَتبيَّنَا. فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادتي. قال: «**إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ، إِنْ كَانَ الخَيْطُ الأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ**».

وجاء في بعض الألفاظ: «**إِنَّكَ لَعَرِيضُ القَفَا**». ففسره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف. بل يرجع إلىٰ هذا؛ لأنه إذا كان وساده عريضًا فقفاه أيضًا عريض، والله أعلم. ويفسِّره رواية(١) البخاري أيضًا:

حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا جرير ، عن مُطَرِّف، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: «**إِنَّكَ لَعَرِيضُ القَفَا إِنْ أَبْصَرْتَ الخَيْطَيْنِ**». ثم قال: «**لَا بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ**»(٢).

وفي إباحته تعالىٰ جوازَ الأكل إلىٰ طلوع الفجر، دليل علىٰ استحباب السَّحُور؛ لأنه من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث علىٰ السَّحور؛ لأنه من باب الرخصة والأخذ بها ففي «الصحيحين» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**»(٣). وفي «صحيح مسلم»، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ فَصْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ**»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق بن عيسىٰ هو ابن الطباع، حدَّثنا عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ؛ فَلَا تَدَعُوهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَجْرَعُ جَرْعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ المُتَسَحِّرِينَ**»(٥).

وقد ورد في التَّرغيب في السَّحور أحاديث كثيرة حتىٰ ولو بجرعةٍ من ماء، تشبهًا بالآكلين. ويُسْتَحَبُّ تأخيره إلىٰ قريب انفجار الفجر، كما جاء في «الصحيحين»، عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت، قال: تسحَّرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قُمْنَا إلىٰ الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟

---

(١) لوحة (١٩٢ أ). (٢) انظر التعليق قبل السابق.

(٣) البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥)، والترمذي (٧٠)، والنسائي (٤/ ١٤١)، وابن ماجة (١٦٩٢).

(٤) مسلم (١٠٩٦)، وأبو داود (٢٣٤٣)، والترمذي (٧٠٩)، والنسائي (٤/ ١٤٦).

(٥) حسن لغيره: رواه أحمد (٣/ ١٢، ٤٤) من طريقين فيهما ضعف، لكن يتقوىٰ كل منهما بالآخر، وحسَّنه الشيخ الألباني لطرقه. انظر: «صحيح الترغيب» (١٠٦٢).

قال: قدر خمسين آية [١].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا موسىٰ بن داود، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن سالم بن غيلان، عن سليمان بن أبي عثمان، عن عَديّ بن حاتم الحمصي، عن أبي ذَرّ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الإِفْطَارَ وَأَخَّرُوا السَّحُورَ»** [٢].

وقد ورد في أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سمَّاه الغَدَاء المبارك [٣]، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجة من رواية حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زرِّ بن حُبَيْش، عن حذيفة بن اليمان قال: تسحَّرْنا مع رسول الله ﷺ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع [٤].

وهو حديث تفرّد به عاصم [٥] بن أبي النَّجُود، قاله النسائي، وحمله علىٰ أن المراد قربُ النهار، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] أي: قاربن انقضاء العدة، فإما إمساك بمعروف أو تَرْك للفراق. وهذا الذي قاله هو المتعيَّن حملُ الحديث عليه: أنهم تسحَّروا ولم يتيقَّنوا طلوع الفجر، حتىٰ أن بعضهم ظنَّ طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك.

وقد رُوي عن طائفةٍ كثيرةٍ من السلف أنَّهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر. روي مثل هذا عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وحذيفة، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عبَّاس، وزيد بن ثابت، وعن طائفةٍ كثيرةٍ من التَّابعين، منهم: محمَّد بن علي بن الحسين، وأبو مِجْلز، وإبراهيم النَّخَعي، وأبو الضُّحىٰ، وأبو وائل، وغيره من أصحاب ابن مسعود، وعطاء، والحسن، والحكم بن عيينة،

---

(١) البخاري (١٩٢١)، ومسلم (١٠٩٧)، والترمذي (٦٩٩)، والنسائي (٤/ ١٤٣)، وابن ماجة (١٦٩٤).

(٢) أما حديث أبي ذر الذي أورده ابن كثير فرواه أحمد (٥/ ١٤٧)، وفيه سليمان بن أبي عثمان، وعدي بن حاتم: كلاهما مجهول، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف بسبب اختلاطه.

قلت: لكن الحديث صحيح من رواية سهل بن سعد: رواه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨) بلفظ: **«لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»**، وليس فيه تأخير السحور. ويغني عن ذلك ما تقدم من حديث زيد بن ثابت، ويشهد له أيضًا حديث ابن عبَّاس ﷺ أن النَّبيّ ﷺ قال: **«أمرنا معاشر الأنبياء أن نعجل إفطارنا، ونؤخر سحورنا، ونضع أيماننا علىٰ شمائلنا في الصلاة»** رواه البيهقي (٤/ ٢٣٨)، والدارقطني (١/ ٢٨٤)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٧) (١١/ ١٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٨٦).

(٣) **صحيح**: من حديث العرباض بن سارية، رواه أبو داود (٢٣٤٤)، والنسائي (٤/ ١٤٥)، وأحمد (٤/ ١٢٧).

(٤) **صحيح**: رواه النسائي (٤/ ١٤٢)، وابن ماجة (١٦٩٥)، وأحمد (٥/ ٣٩٦).

قال ابن كثير: تفرد به عاصم بن أبي النجود قلت: هو صدوق، إلا أن بعض النقاد اتهمه في حفظه، قال الحافظ: صدوق له أوهام، ومع ذلكم فقد تابعه إبراهيم التيمي عن أبيه بإسناد صحيح رواه الطبري (٢/ ١٧٣)، وصححه الحافظ في «فتح الباري» (٤/ ١٣٦). وإذا صح الحديث فالمعنىٰ فيه حمله علىٰ قرب النهار، أو عدم التيقن بطلوعه كما قال النسائي تعليقًا علىٰ هذا، وهو كلام حسن.

(٥) لوحة (١٩٢ ب).

ومجاهد، وعروة بن الزبير، وأبو الشَّعثاء جابر بن زيد. وإليه ذهب الأعمش، ومعمر بن راشد. وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد، ولله الحمد.

وحكىٰ أبو جَعفر بن جرير في «تفسيره»، عن بعضهم: أنَّه إنما يَجِبُ الإمساك مِن طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها.

قلت: وهذا القول ما أظنُّ أحدًا مِن أهل العلم يستقر له قَدَم عليه، لمخالفته نصَّ القرآن في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ وقد وَرَدَ في «الصحيحين» من حديث القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَمْنَعُكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِكُمْ، فَإِنَّهُ يُنَادِي بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ لا يُؤَذِّنُ حَتَّىٰ يَطْلُعَ الفَجْرُ**». لفظ البخاري(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا موسىٰ بن داود، حدَّثنا محمَّد بن جابر، عن قيس بن طَلْق، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ الفَجْرُ المُسْتَطِيلُ فِي الأُفُقِ وَلَكِنَّهُ المُعْتَرِضُ الأَحْمَرُ**». ورواه أبو داود، والترمذي ولفظهما: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا يَهِيدَنَّكُمُ(٢) السَّاطِعُ المُصْعِدُ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَعْتَرِضَ لَكُمُ الأَحْمَرُ**»(٣).

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدَّثنا شعبة، عن شيخ(٤) من بني قشير: سمعت سَمُرة بن جُنْدَب يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَغُرَّنَّكُمْ نِدَاءُ بِلَالٍ وَهَذَا البَيَاضُ حَتَّىٰ يَنْفَجِرَ الفَجْرُ، أَوْ يَطْلُعَ الفَجْرُ**». ثم رواه من حديث شعبة وغيره، عن سوادة بن حنظلة، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَمْنَعُكُمْ مِنْ سَحُورِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلا الفَجْرُ المُسْتَطِيلُ، وَلَكِنَّ الفَجْرَ المُسْتَطِيرُ(٥) فِي الأُفُقِ**». قال: وحدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَية، عن عبد الله بن سَوادة القُشيري، عن أبيه، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَغُرَّنَّكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلا هَذَا البَيَاضُ، تَعَمَّدُوا الصُّبْحَ حِينَ يَسْتَطِيرُ**». ورواه مسلم في «صحيحه» عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن

---

(١) البخاري (١٩١٨)، ومسلم (١٠٩٢) نحوه، وأما اللفظ الذي أورده ابن كثير فطرفه الأول من حديث ابن مسعود، وسيأتي بعد حديثين.

(٢) لا يهيدنكم: أي لا تنزعجوا للفجر المستطيل.

(٣) حسن لغيره: رواه أبو داود (١٣٤٨)، والترمذي (٧٠٥)، وقال: حسن غريب.

قلت: فيه عبد الله بن النعمان: مقبول -أعني إذا توبع، والمتابعة حاصلة في رواية أحمد السابقة (٤/ ٢٣)، وفي إسناده ضعف، وبالجملة فالحديث حسن لغيره، ويشهد لصحته الأحاديث الآتية بعده من حديث سمرة وابن مسعود.

(٤) لوحة (١٩٣ أ).

(٥) الفَجْر المُسْتَطِير: هو الذي انتَشَر ضَوءُه واعْتَرض في الأُفُق، بخلاف المُسْتَطِيل. «النهاية»: (٣/ ١٥١).

إبراهيم -يعني ابن علية- مثله سواء[١].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حمَيد، حدَّثنا ابن المبارك، عن سُليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَمْنعَنَّ أَحَدَكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِهِ** -أو قال: **نِدَاءُ بِلَالٍ- فَإِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ -أَوْ قَالَ: يُنَادِي- لِيُنَبِّهَ نَائِمَكُمْ وَلِيَرْجِعَ قَائِمَكُمْ، وَلَيْسَ الفَجْرُ أَنْ يَقُولَ هَكَذَا أَوْ هَكَذَا، حَتَّىٰ يَقُولَ هَكَذَا**».

ورواه من وجه آخر عن التيمي به[٢].

وحدَّثني الحسن بن الزبرقان النخعي، حدَّثنا أبو أسامة، عن محمَّد بن أبي ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن محمَّد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**الفَجْرُ فَجْرَانِ، فَالَّذِي كَأَنَّهُ ذَنَبُ السَّرْحَانِ[٣] لا يُحَرِّمُ شَيْئًا، وَأَمَّا المُسْتَطِيرُ الَّذِي يَأْخُذُ الأُفُقَ، فَإِنَّهُ يُحِلُّ الصَّلَاةَ وَيُحَرِّمُ الطَّعَامَ**». وهذا مرسل جيد[٤].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء قال: سمعت ابن عبَّاس يقول: هما فجران، فأمَّا الذي يَسْطَع في السَّماء فليس يُحِلُّ ولا يحرِّم شيئًا، ولكنَّ الفجر الذي يَسْتَبِينُ علىٰ رؤوس الجبال، هو الذي يحرِّم الشَّراب. قال عطاء: فأمَّا إذا سطع سطوعًا في السَّماء، وسطوعُهُ أن يذهب في السَّماء طُولًا فإنَّه لا يَحْرُم به شرابٌ لصِيَام ولا صلاةٍ، ولا يَفوتُ به حَجٌّ، ولكن إذا انتشر علىٰ رءوس الجبال، حَرَّمَ الشَّراب للصِّيَام وفات الحجُّ[٥]. وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن عبَّاس وعطاء، وهكذا رُوي عن غير واحدٍ من السلف رحمهم الله.

مسألة[٦]: ومِن جَعْلِه تعالىٰ الفجرَ غايةً لإباحة الجماع والطعام والشَّراب لمن أراد الصيام، يُسْتَدَلُّ علىٰ أنَّه مَن أصبح جُنُبًا فلْيَغْتَسِل، ولْيُتِمَّ صومه، ولا حرج عليه.

وهذا مذهب الأئمَّة الأربعة وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا، لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة ﵄ أنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يُصْبِح جُنُبًا مِن جماع غير احتلام، ثم يَغْتَسِل ويصوم[٧]. وفي حديث أمِّ سلمة عندهما: ثم لا يُفْطِرُ ولا يَقْضِي. وفي «صحيح مسلم»، عن عائشة: أن

---

(١) مسلم (١٠٩٤)، وأحمد (٥/ ٧، ١١، ١٣)، ورواه الطبري (٢/ ١٧٣)، (١٧٤) من هذه الطرق، وتبين بذلك أن الشيخ من بني قشير المذكور في الرواية الأولىٰ هو سوادة القشيري كما بينته الروايات التي بعده.

(٢) البخاري (٦٢١) (٥٢٩٨)، ومسلم (١٠٩٣)، وأبو داود (٢٣٤٧)، والنسائي (٢/ ١١).

(٣) السِّرْحَانُ: الذئبُ، وذَنَبُ السِّرْحان: الفجر الكاذب.

(٤) صحيح: وهذا السند مرسل رواه ابن جرير الطبري، والبيهقي (١/ ٤٥٧)، وثبت موصولًا من حديث جابر: رواه الحاكم (١/ ١٩١)، وله شاهد آخر من حديث ابن عبَّاس: رواه الحاكم (١/ ١٩١)، وابن خزيمة (٣٥٦).

(٥) إسناده صحيح: رواه الطبري (٢/ ١٧٣).

(٦) لوحة (١٩٣ ب).

(٧) البخاري (١٩٢٥)، ومسلم (٩/ ١١٠)، ومالك (١/ ٢٩٠)، والترمذي (٧٧٩)، والنسائي كما في «التحفة» (١٣/ ٢٢).

رجلًا قال: يا رسول الله، تُدْرِكُنِي الصلاة وأنا جنب، فَأَصُومُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ، فَأَصُومُ**». فقال: لستَ مثلنا -يا رسول الله- قد غفرَ اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر. فقال: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي**»[(١)].

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ -صَلَاةِ الصُّبْحِ- وَأَحَدُكُمْ جُنُبٌ فَلَا يَصُمْ يَوْمَئِذٍ**»[(٢)]، فإنَّه حديثٌ جيِّد الإسناد علىٰ شرط الشيخين، كما ترىٰ وهو في «الصحيحين» عن أبي هريرة، عن الفضل بن عبَّاس [عن النَّبيِّ ﷺ، وفي «سنن النَّسائي» عنه، عن أسامة بن زيد، والفضل بن عبَّاس][(٣)] ولم يرفعه. فمِنَ العلماء مَنْ علَّل هذا الحديث بهذا، ومنهم مَن ذهب إليه، ويُحْكىٰ هذا عن أبي هريرة، وسالم، وعطاء، وهشام بن عروة، والحسن البصري. ومنهم من ذهب إلىٰ التفرقة بين أن يُصْبِح جنبًا نائمًا فلا عليه؛ لحديث عائشة وأم سلمة، أو مختارًا فلا صومَ له؛ لحديث أبي هريرة. يحكىٰ هذا عن عُروة، وطاوس، والحسن. ومنهم من فرق بين الفرض فيتمه ويقضيه، وأما النَّفْل فلا يضره. رواه الثوري، عن منصور، عن إبراهيم النخَعي. وهو رواية عن الحسن البصري أيضًا، ومنهم من ادَّعىٰ نسخ حديث أبي هريرة بحَدِيثَيْ عائشة وأم سلمة، ولكن لا تاريخ معه.

وادَّعىٰ ابن حزم أنَّه منسوخٌ بهذه الآية الكريمة، وهو بعيد أيضًا، وأبعد إذ لا تاريخ، بل الظاهر من التاريخ خلافه. ومنهم من حمل حديث أبي هريرة علىٰ نفي الكمال «**فَلَا صَوْمَ لَهُ**» لحديث عائشة[(٤)] وأم سلمة الدالَّين علىٰ الجواز. وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ يقتضي الإفطار عند غُروب الشمس حكمًا شرعيًّا، كما جاء في «الصحيحين»، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**»[(٥)].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ**» أخرجاه أيضًا[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا الأوزاعي، حدَّثنا قُرَّة بن عبد الرحمن، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا**»[(٧)].

---

(١) مسلم (١١١٠)، وأبو داود (٢٣٨٩)، ومالك (١/ ٢٨٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣١٤)، وقد عارضته عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما وهو الحديث المتقدم.

وكذلك رواية أبي هريرة عن الفضل فهو نفس الحديث، وفي آخره قال أبو هريرة، هكذا أخبرني به الفضل.

(٣) سقط من (ز).

(٤) لوحة (١٩٤ أ).

(٥) البخاري (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠).

(٦) البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).

(٧) ضعيف: رواه الترمذي (٧٠٠، ٧٠١) وحسنه، ورواه أحمد (٢/ ٢٣٨)، وفيه قرة بن عبد الرحمن: قال الحافظ: صدوق له مناكير.

ورواه الترِّمذي مِن غير وجهٍ، عن الأوزاعي به. وقال: هذا حديث حسن غريب.

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا عفان، حدَّثنا عبيد الله بن إياد، سَمِعْت إياد بن لقيط قال: سمعت ليلىٰ امرأة بَشِير بن الخَصَاصِيَّة، قالت: أردت أن أصومَ يَومَيْن مواصلةً، فمَنَعَنِي بشير وقال: إنَّ رسول الله ﷺ نهىٰ عنه. وقال: «يَفْعَلُ ذَلِكَ النَّصَارَىٰ، وَلَكِنْ صُومُوا كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ، وَأَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَأَفْطِرُوا»(١).

[وروىٰ الحافظ ابن عساكر، حدَّثنا بكر بن سهل، حدَّثنا عبد الله بن يوسف، حدَّثنا يحيىٰ بن حمزة، عن ثور بن يزيد، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الملك بن أبي ذرٍّ أنَّ رسول الله ﷺ واصل يومين وليلة؛ فأتاه جبريل فقال: «إِنَّ اللهَ قَدْ قَبِلَ وِصَالَكَ، وَلا يَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدَكَ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ﴾ فَلَا صِيَامَ بَعْدَ اللَّيْلِ، وَأَمَرَنِي بِالوَتْرِ قَبْلَ الفَجْرِ»(٢)، وهذا إسناد لا بأس به، أورده في ترجمة عبد الملك بن أبي ذر في تاريخه](٣).

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن يَصِلَ صومَ يومٍ بيومٍ آخر، ولا يأكل بينهما شيئًا.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُوَاصِلُوا». قالوا: يا رسول الله، إنك تواصل. قال: «فَإِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي». قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النَّبيُّ ﷺ يومين وليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال: «لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ» كالمُنكِّل(٤) بهم(٥).

وأخرجاه في «الصحيحين»، من حديث الزهري به. وكذلك أخرجا النهي عن الوصال من حديث أنس وابن عمر(٦).

وعن عائشة ﵂ قالت: نهىٰ رسول الله ﷺ عن الوصال رحمةً لهم، فقالوا: إنك تواصل. قال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»(٧)(٨).

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٤٤/ ١٢٣)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٥٨): ولم أجد من ذكر «ليلىٰ» وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال (٣/ ١٩٩) وقد قيل: إنها صحابية. قلت: وهو الراجح كما ذكر ابن حجر في «التقريب».

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٧٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٧٥): لم أعرف عبد الملك، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) ليست في (ز).

(٤) أي: كالمعاقب لهم.

(٥) البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٥)، وأحمد (٢/ ٢٨١) من حديث أبي هريرة.

(٦) البخاري (١٩٦١)، ومسلم (١١٠٤)، والترمذي (٧٧٨) من حديث أنس.
والبخاري (١٩٦٢)، ومسلم (١١٠٢) من حديث ابن عمر.

(٧) لوحة (١٩٤ ب).

(٨) البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥).

فقد ثبت النهيُ عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النَّبيِّ ﷺ، وأنَّه كان يقوىٰ علىٰ ذلك ويُعَان، والأظهر أنَّ ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنويًّا لا حسِّيًّا، وإلا فلا يكون مواصلًا مع الحسِّيِّ، ولكن كما قال الشاعر:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ

وأما من أحبَّ أن يُمْسِك بعد غروب الشمس إلىٰ وقت السَّحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَىٰ السَّحَرِ**». قالوا: فإنَّك تواصل يا رسول الله. قال: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٍ يَسْقِينِي**» . أخرجاه في «الصحيحين» أيضًا(١).

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا أبو إسرائيل العَبْسي عن أبي بكر بن حفص، عن أمِّ ولد حاطب بن أبي بَلْتعة: أنها مَرَّت برسول الله ﷺ وهو يتسحَّر، فدعاها إلىٰ الطعام. فقالت: إني صائمةٌ. قال: وكيف تصومين؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**أَيْنَ أَنْتِ مِنْ وِصَالِ آلِ مُحَمَّدٍ، مِنَ السَّحَرِ إِلَىٰ السَّحَرِ**»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا إسرائيل، عن عبد الأعلىٰ، عن محمَّد بن علي، عن علي: أن النَّبيَّ ﷺ كان يُواصل من السَّحَر إلىٰ السَّحَر(٣).

وقد روىٰ ابن جرير عن عبد الله بن الزّبير وغيره من السَّلف أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة، وحمله منهم علىٰ أنهم كانُوا يفعلون ذلك رياضةً لأنفسهم، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادةً(٤). والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرْشَاد؛ أي:(٥) من باب الشفقة، كما جاء في حديث عائشة: «**رَحْمَةً لَهُمْ**»، فكان ابن الزبير وابنُه عامر ومَن سلك سبيلَهُم يتَجَشَّمُون ذلك ويفعلونه؛ لأنهم كانوا يجدون قُوة عليه. وقد ذُكرَ عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون علىٰ السمن والصَّبِر؛ لئلا تتخرق الأمعاء بالطَّعام أولًا. وقد رُوي عن ابن الزبير أنَّه كان يُواصِل سبعة أيام، ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم. وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنَّهار فإذا جاء باللَّيل فمن شاء أكَلَ ومن شاء لم يَأكُل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا(٦) تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن

---

(١) البخاري (١٩٦٣) (١٩٦٧)، وأبو داود (٢٣٦١). وقد وهم المصنف في عزوه لمسلم.

(٢) رواه ابن جرير (٢/ ١٧٩)، وفيه أبو إسرائيل العبسي: إسماعيل بن خليفة: صدوق سيئ الحفظ.

(٣) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٩١، ١٤١)، وفيه عبد الأعلىٰ بن عامر الثعلبي، قال الحافظ: صدوق يهم. قلت: ضعفه أحمد وأبو زرعة، وعن يحيىٰ: ليس بذاك.

(٤) انظر: الطبري (٢/ ١٧٨) بأسانيد صحيحة.

(٥) في (ز): «أنه إرشاديٌّ...».

(٦) لوحة (١٩٥ أ).

عبَّاس: هذا في الرجل يَعْتَكِفُ في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرَّم الله عليه أَن ينكح النساء ليلًا ونهارًا حتىٰ يقضي اعتكافه.

وقال الضَّحَّاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد، جامع إن شاء، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي: لا تقربوهن ما دُمْتم عاكفين في المسجد ولا في غيره. وكذا قال مجاهد، وقتادة وغير واحدٍ إنهم كانوا يفعلون ذلك حتىٰ نزلت هذه الآية.

قال ابن أبي حاتم[١]: وروي عن ابن مسعود، ومحمَّد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف. وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يَحْرُمُ عليه النساءُ ما دامَ معتكفًا في مسجده، ولو ذهب إلىٰ منزله لحاجة لا بدَّ له منها فلا يحلُّ له أن يتلبَّث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يُقَبِّل امرأته، ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيءٍ سوىٰ اعتكافه، ولا يعود المريض، لكن يَسْأَلُ عنه وهو مارٌّ في طريقه.

وللاعتكاف أحكامٌ مفصَّلةٌ في بابه، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء، ومنها ما هو مختلف فيه. وقد ذكرنا قِطْعَةً صالحةً من ذلك في آخر كتاب الصيام، ولله الحمد والمنة.

ولهذا كان الفقهاء المصنِّفُون يُتْبِعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداءً بالقرآن العظيم، فإنه نَبَّه علىٰ ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفي ذكره تعالىٰ الاعتكاف بعد الصيام إرشادٌ وتنبيهٌ علىٰ الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت السُّنَّة عن رسول الله ﷺ: أنَّه كان يعتكف العشرَ الأواخر من شهر رمضان، حتىٰ توفَّاه الله ﷻ. ثم اعتكف أزواجُه من بعده. أخرجاه[٢] من حديث عائشة أم المؤمنين ﵂، وفي «الصحيحين» أنَّ صَفيَّة بنت حُيي كانت تزور النَّبيَّ ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتَحَدَّثَتْ عنده ساعةً، ثم قامت لترجع إلىٰ منزلها -وكان ذلك ليلًا- فقام النَّبيُّ ﷺ لِيَمْشِيَ معها حتىٰ تبلغ دَارَها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب[٣] المدينة، فلما كان ببعض الطريق لَقِيَه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النَّبيَّ ﷺ أسرعا -وفي روايةٍ: تواريا- أي: حياءً من النَّبيِّ ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما النَّبيُّ ﷺ: «عَلَىٰ رِسْلِكُمَا[٤] إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ» أي: لا تسرعا، واعلما أنَّها صفية بنت حيي؛ أي: زوجتي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﵊: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا» أو قال: «شَرًّا»[٥].

---

(١) ابن أبي حاتم (١/ ٣١٩).
(٢) البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (١١٧٢)، وأبو داود (٢٤٦٢).
(٣) لوحة (١٩٥ ب).
(٤) أي: اثبُتا ولا تعجلا.
(٥) البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يُعَلِّم أمَّته التَّبرِّي من التُّهْمَة في محلها؛ لئلَّا يقعا في محذورٍ، وهما كانا أتقىٰ لله أن يَظُنَّا بالنَّبيِّ ﷺ شيئًا. والله أعلم.

ثم المراد بالمباشرة: إنَّما هو الجماع ودواعيه من تقبيلٍ ومعانقةٍ ونحو ذلك، فأمَّا معاطاة الشيءِ ونحوه فلا بأس به؛ فقد ثبت في «الصَّحيحين» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُدْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ فَأُرَجِّلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ، وَكَانَ لا يَدْخُلُ البَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الإِنْسَانِ**». قالت عائشة: ولقد كان المريضُ يكون في البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارَّة(١).

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي بيَّنَّاه، وفرضناه، وحدَّدْناه من الصيام، وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرَّمنا، وذِكْر غاياتِهِ ورخصه وعزائمه، حدودُ الله؛ أي: شَرَعَهَا الله وبيَّنها بنفسه ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: لا تجاوزوها، وتعتدوها.

وكان الضَّحَّاك ومقاتل يقولان في قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: المباشرة في الاعتكاف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني هذه الحدود الأربعة، ويقرأ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قال: وكان أبي وغيره من مَشْيَختنا يقولون هذا ويتلونه علينا.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي: كما بيَّن الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبين الله سائر الأحكام علىٰ لسان عبده ورسوله محمَّد ﷺ: ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يَعْرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٢) [الحديد: ٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾

قال علي ابن أبي طلحة، وعن ابن عبَّاس: هذا في الرجل يكون عليه مالٌ، ولَيْسَ عليه فيه بَيِّنَةٌ، فيجحد المال ويُخاصِم إلىٰ الحكَّام، وهو يَعْرِف أنَّ الحقَّ عليه، وهو يَعْلَمُ أنه آثِمٌ آكِلُ حرامٍ.

وكذا رُوِيَ عن مجاهد، وسعيد بن جُبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنَّهم قالوا: لا تُخاصِمْ وأَنْتَ تعلمُ أنَّك ظالم. وقد ورد في «الصَّحيحين» عن أم سلمة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الخَصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ**

---

(١) البخاري (٢٠٢٩)، ومسلم (٢٩٧)، وأبو داود (٢٤٦٧).

(٢) لوحة (١٩٦ أ).

أَلْحَنَ[١] بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا [هِيَ] قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا، أَوْ لِيَذَرْهَا»[٢]. فدلَّت هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث علىٰ أنَّ حكم الحاكم لا يُغيِّر الشيء في نفس الأمر، فلا يُحِلُّ في نفس الأمر حرامًا هو حرامٌ، ولا يُحَرِّم حلالًا هو حلال، وإنَّما هو يلزم في الظاهر، فإن طابق ما في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجرُه وعلىٰ المحتال وزْره؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا﴾ أي: طائفةً ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجون في كلامكم.

قال قتادة: اعلم يَا ابن آدم أنَّ قضاء القاضي لا يُحِلُّ لك حرامًا، ولا يُحِقُّ لك باطلًا، وإنَّما يقضي القاضي بنَحْوِ ما يرىٰ ويشهد به الشهود، والقاضي بَشَر يخطئ ويصيب، واعلموا أنَّه مَن قُضي له بباطل أنَّ خصومته لم تَنْقَضِ حتىٰ يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي علىٰ المبطل للمحق بأجودَ مما قضي به للمبطل علىٰ المحقِّ في الدُّنيا.

[وقال أبو حنيفة: حَكَمَ الحاكم بطلاق الزَّوجة إذا شهد عنده شاهدَا زورٍ في نفس الأمر، ولكنهما عدلان عنده يحلها للأزواج حتىٰ للشاهدين، ويحرمها علىٰ زوجها الذي حكم بطلاقها منه، وقالوا: هذا كلِعَانِ المرأة، إنَّه يُبِينُها من زوجها ويُحَرِّمُهَا عليه، وإن كانت كاذبةً في نفس الأمر، ولو عَلِمَ الحاكم بكذبها لَحَدَّها ولما حرَّمها وهذا أولىٰ.

مسألةٌ: قال القرطبي: أجمعَ أهل السُّنَّة علىٰ أن مَن أكل مالًا حرامًا ولو ما يَصْدُق عليه اسم المال أنه يَفْسُق، وقال بشر بن المعتمر في طائفةٍ من المعتزلة: لا يَفْسُق إلا بأكل مائتيْ دِرْهَمٍ فما زاد، ولا يَفْسُق بما دون ذلك، وقال الجبائي: يَفْسُقُ بأكل دِرْهَم فما فوقه إلا بما دونه][٣].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

قال العوفي عن ابن عبَّاس: سأل الناسُ رسولَ الله ﷺ عن الأهلَّة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ يعلمون بها حَلَّ دَيْنهم، وعدَّة نسائهم، ووقتَ حَجِّهم[٤].

---

(١) اللَّحْنُ: المَيْل عن جِهة الاستِقامة. يقال: لَحَن فُلانٌ في كلامه إذا مال عن صَحيح المَنْطِق.

(٢) البخاري (٢٤٥٨) (٧١٨١) (٧١٨٥)، ومسلم (١٧١٣)، وأبو داود (٢٥٨٣)، والترمذي (١٣٣٩)، والنسائي (٨/ ٢٣٣)، وابن ماجة (١٣١٧).

(٣) زيادة من (ح).

(٤) إسناده ضعيف، رواه الطبري (٢/ ١٨٥ - ١٨٦).

وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: بلغنا أنَّهم قالوا: يا رسول الله، لِمَ خُلِقَتِ الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يقول: جعَلَهَا الله مواقيت(١) لصَوْم المسلمين وإفطارهم، وعدة نسائهم، ومَحَلِّ دَيْنهم(٢).

وكذا رُوي عن عَطَاء، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس، نحو ذلك.

وقال عبد الرزاق، عن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جَعَلَ اللهُ الأَهِلَّةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ فَصُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمَّ(٣) عَلَيْكُمْ فَعُدُّوا ثَلاثِينَ يَوْمًا»(٤).

ورواه الحاكم في «مستدركه»، من حديث ابن أبي رواد به. وقال: كان ثقةً عابدًا مجتهدًا شريفَ النَّسب، فهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال محمَّد بن جابر، عن قيس بن طلق؛ عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جَعَلَ اللهُ الأَهِلَّةَ [مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ](٥)، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الهِلالَ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا، فَإِنْ أُغْمِيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا العِدَّةَ ثَلاثِينَ»(٦). وكذا رُوِيَ مِن حديث أبي هريرة(٧)، ومن كلام عليِّ بن أبي طالب ﵁(٨).

وقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ قال البخاري: حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كانوا إذا أَحْرَمُوا في الجاهليَّة أَتَوْا البيت مِن ظهره، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾(٩).

وكذا رواهُ أبو داود الطَّيَالِسي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدموا مِن سَفَرٍ لم يدخل الرَّجل مِن قِبَلِ بابه، فنزلت هذه الآية.

وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر: كانت قريشٌ تُدْعَىٰ الحُمْس(١٠)، وكانوا يدخلون من

---

(١) لوحة (١٩٦ ب).
(٢) إسناده ضعيف: رواه الطبري (٢/ ١٨٥)، وإسناده منقطع.
(٣) يقال: غُمَّ علينا الهلالُ إذا حالَ دُون رُؤيته غَيْم أو نَحْوُه، من غَمَمْتُ الشيءَ: إذا غطَّيْتُه.
(٤) صحيح: رواه الحاكم (١/ ٤٢٣) وصححه، والبيهقي (٤/ ٢٠٥)، وعبد الرزاق (٤/ ١٥٦/ ٧٣٠٦)، وإسناده صحيح من حديث ابن عمر.
(٥) زيادة من (ح).
(٦) رواه أحمد (٤/ ٢٣)، والطبراني (٨/ ٣٩٧)، وفيه محمَّد بن جابر: فيه ضعف، لكنه يتقوىٰ برواية ابن عمر السابقة.
(٧) رواه البخاري (١٩٠٩)، ومسلم (١٠٨١).
(٨) رواه الطبري (٢/ ١٨٦).
(٩) البخاري (٤٥١٢)، والطيالسي (٧١٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٢٣/ ١٧٠٩)، وابن جرير (٢/ ١٨٦).
(١٠) في «النهاية»: الحُمْس: جَمْع الأحْمَسِ، وهم قريش ومن ولَدَتْ قريش، وكِنانة، وجَدِيلة قَيْس، سُمُّوا حُمْسًا؛ لأنهم تَحَمَّسُوا في دِينهم؛ أي: تَشَدَّدُوا.

الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينا رسول الله ﷺ في بستان إذْ خرج من بابه، وخرج معه قُطْبة بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله، إنَّ قطبة ابن عامر رجل تاجر وإنه خرج معك من الباب. فقال له: «مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟» قال: رأيتك فعلتَه ففعلتُ كما فعلتَ. فقال: «إِنِّي رَجُلٌ أَحْمُسُ». قال له: فإنَّ ديني دينك. فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[١].

رواه ابن أبي حاتم. ورواه العوفي عن ابن عبَّاس بنحوه[٢]. وكذا روي عن مجاهد، والزُّهري، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والسُّدِّي، والربيع بن أنس.

وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهليَّة إذا أراد أحدُهم سَفرًا وخرج مِن بيته يُريد سفره الذي خرج له، ثمَّ بدا له بَعْد خُروجه أن يُقيمَ ويدعَ سفره، لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوَّره مِن قِبَلِ ظَهْرِه، فقال الله تعالىٰ لذلك: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن[٣] تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾ الآية.

وقال محمَّد بن كعب: كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله مِن باب البيت، فأنزل الله هذه الآية.

وقال عطاء بن أبي رباح: كان أهل يثرب إذا رجعوا مِن عِيدِهم [دخلوا منازلهم][٤] من ظهورها ويَرَوْنَ أن ذلك أدنىٰ إلىٰ البرِّ، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: اتقوا الله فافعلوا ما أَمَرَكُمْ به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غدًا إذا وقفتم بين يديه، فيجزيكم بأعمالكم علىٰ التمام والكمال.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قال: هذه أوَّل آيةٍ نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يُقَاتِل مَن قاتله، ويكف عَمَّن كفَّ عنه حتىٰ نزلت سورة براءة[٥].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٧١٠)، وفيه عمار بن رزيق. قال الحافظ: لا بأس به، وبقية إسناده حسن.

(٢) لوحة (١٩٧ أ).

(٣) في (ز): (ليس ذلك بالبر أن) وليست بآية، والتصويب من (ح).

(٤) بياض في (ز)، والمثبت من (ح).

(٥) ضعيف: رواه الطبري (٢/ ١٨٩)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٢٥/ ١٧١٩)، وإسناده مرسل.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتىٰ قال: هذه منسوخةٌ بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، وفي هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ إنَّما هو تَهْييج وإغراء بالأعداء الذين هِمَّتُهم قتال الإسلام وأهله؛ أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾ أي: لِتَكن هِمَّتُكم مُنْبَعِثَةً علىٰ قتالهم، كما أن هِمَّتَهم [مُنْبَعِثَة](١) علىٰ قتالكم، وعلىٰ إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصًا.

[وقد حكي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنَّ أوَّل آية نَزَلَتْ في القتال بعد الهجرة، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ الآية [الحج: ٣٩] وهو الأشهر وبه ورد الحديث(٢).](٣)

وقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ(٤) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي: قاتِلُوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي -كما قاله الحسن البصري- من المُثْلَة، والغُلُول(٥)، وقتل النِّساء والصِّبْيان والشُّيوخ الذين لا رَأْيَ لهم ولا قتال فيهم، والرُّهبان وأصحاب الصَّوامع(٦)، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحةٍ، كما قال ذلك ابن عبَّاس، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل بن حيان، وغيرهم. ولهذا جاء في «صحيح مسلم»، عن بُرَيدة أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**»(٧).

وعن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بَعَث جيوشه قال: «**اخْرُجُوا بِاسْمِ اللهِ، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، لا تَغْدِرُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا الوِلْدَانَ وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ**». رواه الإمام أحمد(٨).

ولأبي داود، عن أنس مرفوعًا نحوه(٩). وفي «الصحيحين» عن ابن عمر قال: وُجدت امرأةٌ في بعض

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) صحيح: النسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٤٥) (١١٣٤٦)، ورواه أحمد (١/ ٢١٦)، وصححه الألباني.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) لوحة (١٩٧ ب).

(٥) مَثَلْتُ بالحيوان: إذا قَطَعْتَ أطرافه وشَوَّهْتَ به، ومَثَلْت بالقَتيل: إذا جَدَعْت أنفه أو أُذُنَه أو مَذاكِيرَه أو شيئًا من أطرافِه. والغُلول: الخيانة في المغْنَم والسَّرقَة من الغَنِيمة قبل القِسْمة.

(٦) الصومعة: منارة للرهبان ينفردون فيها [للعبادة] وينقطعون.

(٧) مسلم (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٢)، والترمذي (١٤٠٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» كما في «التحفة» (٢/ ٧١)، وابن ماجة (٢٨٥٨)، وأحمد (٥/ ٣٥٢، ٣٥٨).

(٨) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٠٠)، ورجاله ثقات، ويشهد له الحديث السابق.

(٩) رواه أبو داود (٢٦١٤)، وفي إسناده خالد بن القرز. قال الحافظ: مقبول. يعني: إذا توبع. ولكن يشهد للحديث ما تقدم من حديثي بريدة وابن عبَّاس.

مغازي النَّبيِّ ﷺ مقتولةً، فأنكر رسولُ الله ﷺ قتلَ النِّساء والصِّبيان[١].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا مُصعب بن سَلام، حدَّثنا الأجلح، عن قيس بن أبي مسلم، عن رِبْعي ابن حِرَاش، قال: سمعت حُذَيفة يقول: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالًا واحدًا، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحدَ عشَرَ، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلًا وترك سائرَها، قال: «**إنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ، وَمَسْكَنَةٍ قَاتَلَهُمْ أَهْلُ تَجَبُّرٍ وَعَدَاءٍ، فَأَظْهَرَ اللهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ، فَعَمَدُوا إِلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ فَأَسْخَطُوا اللهَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[٢].

هذا حديث حَسَنُ الإسناد. ومعناه: أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا علىٰ الأقوياء، فاعتَدوا عليهم واستعملوهم فيما لا يَلِيق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء. والأحاديث والآثار في هذا كثيرةٌ جدًّا.

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتلُ الرجال، نبَّه تعالىٰ علىٰ أنَّ ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشِّرك به والصَّدِّ عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطَمُّ من القتل؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[٣] قال أبو مالك: أي ما أنتم مُقِيمُون عليه أكبر من القتل.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك، والربيع ابن أنس في قوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ يقول: الشرك أشد من القتل.

وقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كما جاء في «الصحيحين»: «**إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِن نَهَارٍ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ، حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لا يُعْضَدُ[٤] شَجَرُهُ، وَلا يُخْتَلَىٰ[٥] خَلَاهُ. فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ**»[٦].

يعني بذلك -صلوات الله وسلامه عليه- قتالَه أهلها يومَ فتح مكة، فإنَّه فتحها عنوة، وقتلت رجال منهم عند الخَنْدَمَة[٧]، وقيل: صلحًا؛ لقوله: «**مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ**

---

(١) البخاري (٣٠١٤)، (٣٠١٥)، ومسلم (١٧٤٤).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٠٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٣٢): فيه الأجلح الكندي، وهو ثقة وقد ضعف، وبقية رجاله ثقات. وقال ابن عدي في «الكامل» (١/ ٤٢٦): ولم أجد له شيئًا منكرًا يجاوز الحد، لا إسنادًا ولا متنًا وهو أرجو أنه لا بأس به إلا أنه يعد من شيعة الكوفة.

(٣) لوحة (١٩٨ أ).

(٤) لا يُقْطع.

(٥) الخَلَا: النَّبات الرَّطب الرَّقيق ما دَام رَطْبًا، فإذا يبس فهو حشيش.

(٦) البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣)، وانظر الآية (١٢٥- ١٢٨).

(٧) الخَنْدَمَة: جَبَلٌ معروف بمكة.

دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»[(١)].

[وقد حكىٰ القرطبي: أنَّ النَّهي عن القتال عند المسجد الحرام منسوخ. قال قتادة: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. قال مقاتل بن حيان: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾. وفي هذا نظر][(٢)].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالىٰ: لا تُقَاتِلُوهم عند المسجد الحرام إلا أن يَبْدَءوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذٍ قتالهم وقتلهم دفعًا للصِّيال[(٣)]، كما بايع النَّبيُّ ﷺ أصحابه يوم الحُدَيْبِية تحت الشجرة علىٰ القتال، لَمَّا تألبت عليه بطونُ قُرَيْش ومَن مَالأَهُم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذٍ، ثمَّ كفَّ الله القتال بينهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإن تركُوا القتال في الحرم، وأنَابُوا إلىٰ الإسلام والتَّوبة، فإن الله غفورٌ رحيمٌ يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حَرَمِ الله، فإنَّه تعالىٰ لا يتعاظَمُه ذَنْب أنْ يغفره لمن تاب منْه إليه.

ثم أمر تعالىٰ بقتال الكفَّار: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك. قاله ابن عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم.

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: يكونَ دينُ الله هو الظاهر العَالِي علىٰ سَائِرِ الأَدْيَانِ، كما ثبت[(٤)] في «الصَّحيحين»: عن أبي موسىٰ الأشعري، قال: سُئِل النَّبيُّ ﷺ عن الرَّجل يُقاتل شجاعةً، ويُقاتل حَمِيَّةً، ويُقاتِل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِتكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[(٥)]. وفي «الصحيحين»: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ**»[(٦)].

وقوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يقول: فإنِ انتهوا عمَّا هم فيه مِن الشِّرك، وقتال

---

(١) رواه مسلم (١٧٨٠)، وابن حبان (٤٧٦٠).
(٢) زيادة من (ح).
(٣) صال عليه: سطا عليه ليقهره.
(٤) لوحة (١٩٨ ب).
(٥) البخاري (١٢٣)، (٢٨١٠)، (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٥١٧)، والترمذي (١٦٤٦)، والنسائي (٦/ ٢٣)، وابن ماجة (٢٧٨٣).
(٦) البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

المؤمنين، فكُفُّوا عنهم، فإنَّ مَنْ قاتلهم بعد ذلك فهو ظالمٌ، ولا عُدوانَ إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: لا يُقَاتَلُ إلا مَن قَاتَل. أو يكون تقديره؛ فإن انتهوا فقد تَخَلَّصُوا من الظلم، وهو الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك.

والمراد بالعُدْوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]. ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم: الذي أبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله.

وقال البخاري: قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ الآية: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا عبد الوهاب، حدَّثنا عُبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: أتاه رجلَان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس صنعوا وأنت ابن عمر وصاحب النَّبيِّ ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يَمْنَعُنِي أنَّ الله حرَّم دم أخي. قالا: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: قاتلنا حتىٰ لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتىٰ تكون فتنة ويكون الدين لغير الله[(١)]. زاد عثمان بن صالح عن ابن وهب قال: أخبرني فلان وحيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو المعافري أن بُكَير بن عبد الله حدثه، عن نافع: أنَّ رجلًا أتىٰ ابن عمر فقال له: يا أبا عبد الرحمن، ما حَمَلَكَ علىٰ أن تَحُجَّ عامًا وتعتمر عامًا، وتترك الجهاد في سبيل الله، وقد علمت ما رَغَّبَ الله فيه؟ فقال: يا ابن أخي، بُني الإسلام علىٰ خمس: الإيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ[(٢)] وكان الإسلام قليلًا وكان الرجل يُفْتَنُ في دينه: إما قتلوه أو عذَّبوه، حتىٰ كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أمَّا عثمان فكان [الله عفا عنه][(٣)]، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه[(٤)]، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون[(٥)].

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

قال عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، وقتادة، ومِقْسَم، والربيع بن أنس، وعطاء

---

(١)البخاري (٤٥١٣) (٤٥١٥). (٢)لوحة (١٩٩ أ).
(٣)بياض في (ز)، والمثبت من (ح). (٤)أي: زَوْج ابْنَته.
(٥)انظر التعليق السابق.

وغيرهم: لما سار رسولُ الله ﷺ مُعْتَمِرًا في سنة ستٍّ من الهجرة، وحَبَسَه المشركون عن الدخول والوصول إلىٰ البيت، وصدُّوه بمن معه من المسلمين في ذي القعْدة، وهو شهر حرام، حتىٰ قاضاهم علىٰ الدخول مِن قَابِل، فدخلها في السنة الآتية، هو ومن كان معه من المسلمين، وأَقَصَّهُ الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾[1].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق بن عيسىٰ، حدَّثنا ليث بن سعد، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغْزَىٰ ويُغْزَوا، فإذا حضره أقام حتىٰ ينسلخ[2].

هذا إسناد صحيح؛ ولهذا لما بلغ النَّبيَّ ﷺ -وهو مُخَيِّم بالحديبية -[3]أنَّ عثمان قد قُتِلَ -وكان قد بعثه في رسالة إلىٰ المشركين- بايع أصحابه، وكانوا ألفًا وأربعمائة تحتَ الشجرة علىٰ قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يُقْتَل كفَّ عن ذلك، وجنح إلىٰ المسالمة والمصالحة، فكان ما كان[4].

وكذلك لما فرغ مِن قتال هَوازِن يوم حنين[5] وتَحَصَّن فَلُّهم[6] بالطائف[7]، عَدَل إليها، فحاصَرَها ودخل ذو القَعْدة وهو محاصرها بالمنجنيق[8]، واستمر عليها إلىٰ كمال أربعين يومًا، كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس. فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تُفْتَحْ، ثم كرَّ راجعًا إلىٰ مكة واعتمر من الجعرانة[9]، حيث قسَّم غنائم حُنين. وكانت عُمْرته هذه في ذي القعدة أيضًا عام ثمانٍ، صلوات الله وسلامه عليه[10].

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[11] أمْرٌ بالعدل حتىٰ في المشركين: كما قال: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ[12] بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]. وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ

---

(١) رواه ابن جرير (٢/ ١٩٦)، وابن أبي حاتم نحوه (٢/ ٣٢٩) عن ابن عبَّاس، وإسناده صحيح.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٤٥)، وصححه ابن كثير بعد إيراده للحديث، وكذا صححه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٦٩).

(٣) تقدم التعريف بها في سورة الفاتحة.

(٤) سيأتي تفصيل ذلك في سورة الفتح.

(٥) هَوازِنُ: قبيلة من قيس. «لسان العرب»: هزن. وحُنين: موضع قريب من مكة، وقيل: هو وادٍ قبل الطائف، وقيل: واد بجنب ذي المجاز، وقال الواقديُّ: بينه وبين مكة ثلاث ليال، وقيل: بينه وبين مكة بضعة عشر ميلًا. «معجم البلدان»: (٢/ ٣١٣).

(٦) فلهم: المنهزمون منهم.

(٧) الطائف: هي وادي وَجّ، وهي بلاد ثقيف، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخا، وهي طيبة الهواء، ربما جمد فيها الماء في الشتاء، وفواكه أهل مكة منها، وبها قبر ابن عباس رضي الله عنهما. «معجم البلدان»: (٤/ ٨-١٢)، و٣/ ٢٣٤)، «البداية والنهاية»: (١٢/ ١٠٩).

(٨) المَنْجَنِيقُ والمِنْجَنِيقُ والمَنْجَنُوق: القَذَّاف، التي ترمىٰ بها الحجارة، فارسي معرب.

(٩) الجعرانة: موضع قريب من مكة- وهي في الحِلّ -ومِيقاتٌ للإِحْرام، وهي بِتَسْكِين العَين والتَّخْفِيف، وقد تُكْسَر العين وتُشدَّد الراء.

(١٠) انظر سورة التوبة الآية (٢٥).

(١١) قال أبو بكر الجزائري رحمه الله: قتال من قاتل المسلمين لا يسمىٰ عدوانًا إلا من باب المشاكلة نحو: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ إذ الأولىٰ حقًّا، أما الثانية فإنها قصاص عادل وسميت سيئة مشاكلة في اللفظ.

(١٢) لوحة (١٩٩ ب).

مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. ورَوىٰ علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس أن قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ نَزَلَتْ بمِكَّةَ حيث لا شوكة ولا جهَاد، ثم نسخ بآية الجهاد بالمدينة[١]. وقد رَدَّ هذا القول ابنُ جرير، وقال: بل هذه الآية مدنية بعد عُمْرة القَضيَّة، وعزا ذلك إلىٰ مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[وقد أطلق هاهنا الاعتداء علىٰ الاقتصاص، من باب المقابلة[٢]، كما قال عمرو بن أم كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلَـــنْ أَحَـــدٌ عَلَيْنَـــا ... فَنَجْهَـــلَ فَـــوْقَ جَهْـــلِ الجَاهِلِينَـــا

وقال ابن دريد:

لِــيَ اسْــتِوَاءٌ إِنْ مُــوَالِيَّ اسْــتَوَا ... لِــيَ الْتِــوَاءٌ إِنْ تَعَــادِيَّ الْتَــوَا

وقال غيره:

وَلِــي فَــرَسٌ لِلْحِلْــمِ بِــالحِلْمِ مُلْجَــمٌ ... وَلِــي فَــرَسٌ لِلْجَهْــلِ بِالجَهْــلِ مُــسْرَجُ

وَمَــنْ رَامَ تَقْــوِيمِي فَــإِنِّي مُقَــوَّمٌ ... وَمَــنْ رَامَ تَعْــوِيجِي فَــإِنِّي مُعَــوَّجُ][٣]

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أمْرٌ لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبارٌ بأنَّه تعالىٰ مع الذين اتَّقوا بالنَّصر والتَّأييد في الدُّنيا والآخرة.

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

قال البخاري: حدَّثنا إسحاق، أخبرنا النضر، أخبرنا شعبة، عن سليمان قال: سمعت أبا وائل، عن حذيفة: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت في النَّفقة[٤].

ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمَّد بن الصباح، عن أبي معاوية عن الأعمش به مثله. قال: وروي عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان نحو ذلك.

وقال الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية[٥] علىٰ صفِّ العدو حتىٰ خَرَقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقىٰ بيده إلىٰ التهلكة. فقال أبو أيوب: نَحْنُ أَعْلَمُ بهذه الآية إنَّما نَزَلَتْ فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشَهِدنا معه المشاهد

---

(١) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٩٨) إلىٰ أبي داود في «الناسخ والمنسوخ»، وابن جرير (٢/ ١٩٩)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٢٩/ ١٧٤٠)، وإسناده ضعيف للانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٢) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس أخذنا بالقصاص اعتداء؛ ولكنه سمي اعتداءً؛ لأنه مسبَّب عن الاعتداء؛ فكأنه يقول: أنتم إذا اعتدىٰ عليكم أحد فخذوا حقكم منه؛ ثم فيه نكتة أخرىٰ أن العادي يرىٰ نفسه في مقام أعز من المعتدىٰ عليه، وأرفع منه؛ ولو كان يرىٰ نفسه في مكان دونه لم يعتدِ؛ فكأنه يقول: إن قصاصكم يعتبر أيضًا عزًّا لكم؛ كما أنه هو طغىٰ واعتدىٰ، فأنتم الآن يعتبر قصاصكم بمنزلة المرتبة العليا بالنسبة إليهم؛ وإن شئت فقل: أطلق علىٰ المجازاة اعتداءً من باب المشاكلة اللفظية.

(٣) زيادة من (ح).

(٤) البخاري (٤٥١٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٣١/ ١٧٤٤).

(٥) قُسْطَنْطِينِيَّةُ، ويقال: قُسْطَنطينة، هي اصطنبول الآن بتركيا، كانت دار ملك الروم، عمَّرها ملك من ملوك الروم يقال له: قُسطنطين فسميت باسمه، والحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة. «معجم البلدان»: (٤/ ٣٤٧).

ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نَجِيًّا، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونَصْرِه، حتىٰ فشا الإسلام وكثر أهلُه، وكنا قد آثرناه علىٰ الأهلين والأَمْوَال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلىٰ أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما. فنزل فينا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وتَرْكِ الجِهَادِ(١).

رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وعَبْدُ بن حُمَيد في «تفسيره»، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مَرْدوَيْه، والحافظ أبو يعلىٰ في «مسنده»، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه»، كلهم من حديث يزيد بن أبي حبيب به.

وقال التِّرمذِيُّ: حسن صحيح(٢) غريب. وقال الحاكم: علىٰ شرط الشَّيخين، ولم يُخرِّجَاه. ولفظ أبي داود عن أسلم أبي عمران أَنَّا: كنَّا بالقسطنطينية -وعلىٰ أهل مصر عُقْبَة بن عامر؛ وعلىٰ أهل الشام رجل، يريد فَضَالة بن عُبَيد- فخَرَجَ مِن المدينة صَفٌّ عظيمٌ من الرُّوم، فصَفَفنا لهم فحَمَل رجل من المسلمين علىٰ الرُّوم حتىٰ دخل فيهم: ثم خرج إلينا فصَاح الناسُ إليه فقالوا: سبحان الله، ألقىٰ بيده إلىٰ التهلكة. فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتتأولون هذه الآية علىٰ غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، وإنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا علىٰ أموالنا فأصلحناها. فأنزل الله هذه الآية(٣).

وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق السَّبِيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب ﵁: إن حملتُ علىٰ العدوِّ وحدي فقتلوني أكنت ألقيتُ بيدي إلىٰ التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله ﷺ: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، إنما هذا في النفقة(٤). رواه ابن مَرْدوَيْه وأخرجه الحاكم في «مستدركه» مِن حديث إسرائيل، عن أبي إسحاق به. وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يُخرِّجاه. ورواه الثوري، وقيس بن الربيع، عن أبي إسحاق، عن البراء -فذكره. وقال بعد قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ولكن التَّهلكة أن يُذْنِبَ الرجلُ الذنبَ، فيلقي بيده إلىٰ التهلكة ولا يَتُوب(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو صالح -كاتب الليث(٦) [حدَّثني الليث،](٧) حدَّثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أخبره: أنهم حاصروا دمشق، فانطلق رجل من أزد شنوءة(٨)، فأسرع إلىٰ العدو وحده ليستقبل، فعاب ذلك عليه المسلمون ورفعوا حديثه إلىٰ عَمْرو ابن العاص، فأرسل إليه عمرو

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٩٦٢) وابن أبي حاتم (١/ ٣٣٠)، والطبري (٢/ ٢٠٤)، والحاكم (٢/ ٢٧٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين.

(٢) لوحة (٢٠٠ أ).

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٢/ ١٧٤٨)، الحاكم (٢/ ٢٧٥)، وصححه علىٰ شرطهما، ويشهد له حديث حذيفة السابق.

(٥) زيادة موقوفة في رواية الحاكم من قول البراء، والإسناد رجاله ثقات، ورواه البيهقي في «الكبرىٰ» (٩/ ٤٥).

(٦) في (ز): كاتب الكتب، والتصويب من (ح).

(٧) زيادة من (ح).

(٨) شَنُوءة: حي من اليمن، يُنسبون إلىٰ شَنوءة، وهو: عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، ولقب شنوءة لشنآن كان بينه وبين أهله، والنسبة إليه شنوئي.

فَردَّه، وقال عمرو: قال الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (١).

وقال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تُمْسكَ بيدك عن النَّفَقَةِ في سبيل الله. ولا تلق بيدك إلىٰ التَّهلكة (٢).

وقال حماد بن سلمة، عن داود، عن الشعبي، عن الضَّحَّاك بن أبي جُبَيْرة قال: كانت (٣) الأنصار يَتَصَدَّقُون ويُنْفِقُون مِن أَمْوَالِهم، فأصابتهم سَنَة (٤)، فأمسكوا عن النَّفقة في سبيل الله فنزلت: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

وقال الحسن البصري: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: هو البخل.

وقال سِمَاك بن حرب، عن النعمان بن بشير في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أن يُذْنِبَ الرَّجُل الذَّنب، فيقول: لا يُغْفَرُ لي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ رواه ابن مَرْدوَيْه (٥).

وقال ابن أبي حاتم: ورُوِيَ عن عبيدة السلماني، والحسن، وابن سيرين، وأبي قلابة -نحو ذلك. يعني: نحوُ قول النعمان بن بشير: إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يُغْفَر له، فيلقي بيده إلىٰ التهلكة؛ أي: يستكثر من الذنوب فيَهْلَك. ولهذا رَوَىٰ علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: التهلكة: عذاب الله (٦).

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعًا: حدَّثنا يونس، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن القُرَظي: أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: كان القوم في سبيل الله، فيتزَوَّدُ الرجلُ. فكان أفضل زادًا من الآخر، [أنفقَ البائسُ من زادِهِ] (٧)، حتىٰ لا يبقىٰ مِن زاده شيءٌ، أحب أن يواسي صاحبه، فأنزل الله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (٨).

وبه قال ابن وهب أيضًا: أخبرني عبد الله بن عياش عن زيد بن أسلم في قول الله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وذلك أنَّ رجالًا كانوا يَخرُجُون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ، بغير نفقة، فإما يُقْطَعُ بهم، وإما كانوا عيالًا فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله، ولا يلقوا بأيديهم إلىٰ التهلكة، والتهلكة أن يَهْلَكَ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٢/ ١٧٤٧)، وفيه أبو صالح كاتب الليث: صدوق سيئ الحفظ (٢/ ٢٠٠- ٢٠١)؛ فالإسناد ضعيف.

(٢) رواه الطبري من طرق (٢/ ٢٠٠) عن ابن عبَّاس نحوه.

(٣) لوحة (٢٠٠ ب).

(٤) السَّنة: القحط والجدب.

(٥) عزاه لابن مردويه، لم أقف علىٰ إسناده وهو موافق لقول البراء المتقدم دون ذكر سبب النزول.

(٦) رواه الطبري (٢/ ٢٠٤)، وإسناده منقطع.

(٧) في (ز): أنفقوا الباقين، وفي (ح): فكان أفضل زادًا في الآخرة أنفقوا الباقين، والتصويب من تفسير الطبري، وابن أبي حاتم.

(٨) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣١)، والطبري (٢/ ٢٠٥)، والإسناد مرسل.

رجال من الجوع أو العطش أو من المشي. وقال لمن بيده فضل: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(١).

ومضمون الآية: الأمرُ بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القُرُبات ووجوه الطاعات، وخاصَّة صرفَ الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يَقْوَىٰ به المسلمون علىٰ عدوِّهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنَّه هلاكٌ ودمارٌ إن لزمه واعتاده. ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلىٰ مقامات الطاعة، فقال: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ(٢) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾

لما ذكر تعالىٰ أحكام الصيام وعَطَفَ بذكر الجِهَاد، شرَعَ في بيان المناسك، فأمرَ بإتمام الحجِّ والعُمْرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ أي: صُدِدْتم عن الوصول إلىٰ البيت ومنعتم من إتمامهما. ولهذا اتَّفق العلماء علىٰ أنَّ الشروع في الحجِّ والعمرة مُلْزِمٌ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء. وقد ذكرناهما بدلائلهما في كتابنا «الأحكام» مستقصىٰ، ولله الحمد والمنة.

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، عن عبد الله بن سَلَمة، عن علي: أنه قال في هذه الآية: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ قال: أن تُحْرِم من دُوَيرة أهلك(٣).

وكذا قال ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، وطاوس. وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية: إتمامهما أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة، وتُهِلَّ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتىٰ إذا كنت قريبًا من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرت، وذلك يجزئ، ولكن التمام أن تخرج له، ولا تخرج لغيره.

وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعًا من الميقات.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر عن الزهري قال: بلغنا أنَّ عمر قال في قول الله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ قال: مِن تمامهما أن تُفْرِد كُلَّ واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج؛ إن الله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾(٤).

وقال هُشَيْم عن ابن عون قال: سمعت القاسم بن محمَّد يقول: إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة فقيل له: العمرة في المحرم؟(٥) قال: كانوا يرونها تامَّةً. وكذا روي عن قتادة بن دعامة، رحمهما الله.

---

(١) ابن أبي حاتم (١/ ٣٣١)، وإسناده مرسل كذلك. (٢) لوحة (٢٠١ أ).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣/ ١٧٥٦)، والطبري (٢/ ٢٠٧)، وفيه عبد الله بن سلمة، صدوق تغير حفظه.

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٤/ ١٧٥٨)، وإسناده ضعيف؛ لأنه بلاغ منقطع بين الزهري وعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) في (ز): العمرة في اليوم، وما أثبتناه من (ح) وهو الصواب.

وهذا القول فيه نظر؛ لأنَّه قد ثبت أنَّ رسول الله ﷺ اعتمر أربع عُمَرٍ كلها في ذي القعدة: [عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذي القعدة][(١)] سنة سبع، وعمرة الجعرَّانة في ذي القعدة سنة ثمان، وعمرتُه التي مع حجته أحرم بهما معًا في ذي القعدة سنة عشر، ولا اعتمر قطُّ في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هانئ: «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي»[(٢)(٣)]. وما ذاك إلا لأنها كانت قد عزمت على الحج معه ﷺ فاعتاقَتْ[(٤)] عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط في الحديث عند البخاري، ونَصَّ سعيد بن جبير على أنه من خصائصها، والله أعلم[(٥)].

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: أقيموا الحج والعمرة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ يقول: من أحرم بالحج أو بالعمرة فليس له أن يحل حتى يتمهما، تمام الحج يوم النحر، إذا رمى جمرة العقبة، وزار البيت، وبالصفا والمروة فقد حَلَّ[(٦)].

وقال قتادة، عن زُرَارة، عن ابن عبَّاس أنَّه قال: الحج عرفة، والعمرة الطواف[(٧)]. وكذا روى الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: هي في قراءة عبد الله: ﴿وَأَتِمُّوا[(٨)] الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ﴾[(٩)] لا تُجاوز بالعمرة البيت. قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير، فقال: كذلك قال ابن عبَّاس[(١٠)].

وقال سفيان عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قال: «وَأَقِيمُوا الحجَّ والعُمْرَةَ إلى البَيت» [وكذا روى الثوري أيضًا عن إبراهيم، عن منصور، عن إبراهيم أنه قرأ: «وَأَقِيمُوا الحجَّ والعمرةَ إلى البيت»][(١١)].

وقرأ الشعبي: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالعَمْرَةُ لِلَّهِ﴾ برفع والعمرة[(١٢)]، وقال: ليست بواجبة. وروي عنه خلاف ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة: أنَّ رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحجٍّ وعمرة، وثبت عنه في «الصحيح» أنه قال لأصحابه: «مَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيُهِلَّ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ»[(١٣)].

---

(١) زيادة من (ح). (٢) لوحة (٢٠١ ب).
(٣) البخاري (١٧٨٢)، (١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦)، والنسائي (٤/ ١٣٠)، وابن ماجة (٢٩٩٣)، ورواه مطولًا من طريق آخر أبو داود (١٩٩٠).
(٤) التَّعْويقُ: تَرْبيث الناس عن الخير، وعَوَّقه وتَعَوَّقه واعْتاقَه: صرفه وحبسه.
(٥) البخاري (١٨٦٢) (١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦).
(٦) ضعيف: رواه الطبري (٢/ ٢٠٧)، وفيه انقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.
(٧) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٤/ ١٧٦٠).
(٨) وقع في بعض النسخ: (وأقيموا)، وما أثبتناه من (ز)، و(ح)، وتفسير الطبري.
(٩) قراءة: قَرَأَ (وَأَقِيمُوا الْحَجَّ والْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ) ابْنُ مَسْعُودٍ وَإِبْرَاهِيمُ وَعَلْقَمَةُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ).
(١٠) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٤/ ١٧٥٩)، والطبري (٢/ ٢٠٦).
(١١) زيادة من بعض النسخ، وتفسير الطبري. (١٢) شاذة: قَرَأَ (وَالْعُمْرَةُ) الْحَسَنُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَالْعُمْرَةَ).
(١٣) البخاري (١٥٥٦)، ومسلم (١٢١١)، وأبو داود (١٧٨١) من حديث عائشة، ورواه مسلم (١٢٣٦) من حديث أسماء.

وقال في «الصحيح» أيضًا: «دَخَلَتِ العُمْرَةُ فِي الحَجِّ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»(١).

وقد روىٰ الإمام أبو محمَّد بن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية حديثًا غريبًا(٢) فقال: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أبو عبد الله الهروي، حدَّثنا غسان الهروي، حدَّثنا إبراهيم بن طَهْمَان، عن عطاء، عن صفوان بن أمية أنه قال: جاء رجل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ متضمِّخ بالزعفران(٣)، عليه جُبَّة(٤)، فقال: كيف تأمرني يا رسول الله في عمرتي؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فقال رسولُ الله ﷺ: «أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ العُمْرَةِ؟» فقال: ها أنا ذا. فقال له: «أَلْقِ عَنْكَ ثِيَابَكَ، ثُمَّ اغْتَسِلْ، وَاسْتَنْشِقْ مَا اسْتَطَعْتَ، ثُمَّ مَا كُنْتَ صَانِعًا فِي حَجِّكَ فَاصْنَعْهُ فِي عُمْرَتِكَ»(٥).

هذا حديث غريب وسياق(٦) عجيب، والذي ورد في «الصحيحين»، عن يعلىٰ بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النَّبيَّ ﷺ وهو بالجعرانة فقال: كيف ترىٰ في رجل أحرم بالعمرة وعليه جُبة وخَلُوق(٧)؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم جاءه الوحي، ثم رفع رأسه فقال: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» فقال: ها أنا ذا، فقال: «أَمَّا الجُبَّةُ فَانْزِعْهَا، وَأَمَّا الطِّيبُ الَّذِي بِكَ فَاغْسِلْهُ، ثُمَّ مَا كُنْتَ صَانِعًا فِي حَجِّكَ فَاصْنَعْهُ فِي عُمْرَتِكَ»(٨). ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق ولا ذكر نزول الآية، وهو عن يعلىٰ بن أمية، لا عن صفوان بن أمية، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ ذكروا أنَّ هذه الآية نَزَلَتْ في سنةِ ست؛ أيْ: عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسُول الله ﷺ وبين الوصول إلىٰ البيت، وأنزل الله في ذلك سورةَ الفتح بكمالها، وأنزل لهم رُخْصَةً: أن يذبحوا ما معهم من الهدي وكان سبعين بدنة(٩)، وأن يَتَحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأَن يَحْلِقُوا رءُوسهم ويتحلَّلوا. فلم يفعلوا انتظارًا للنَّسخ حتىٰ خرج فحلق رأسه، ففعل الناس وكان منهم من قَصَّر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين

(١) مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، والنسائي، والترمذي (٩٣٢)، وابن ماجة (٣٠٧٤).

(٢) قال الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللهُ: (وأما استغراب ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ له في تفسيره فلا وجه له، لأن قوله عند الطبراني: فنزل عليه: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ مبين لحديث الصحيحين الذي فيه: «فنزل عليه الوحي»، وأما كونه عند ابن أبي حاتم عن صفوان بن أمية، فالظاهر أنها سقطت منه عن أبيه، ويكون الحديث عن صفوان بن يعلىٰ بن أمية، عن أبيه، كما في الصحيحين، والأوسط للطبراني وغيرهما من كتب الحديث). انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص ٢٩).

(٣) الزَّعْفَرَانُ: الصَّبْغُ المعروف، وهو من الطِّيب، والنبي ﷺ نهىٰ أن يَتَزَعْفَرَ الرجلُ. وانظر: «فتح الباري»: (٣/ ٣٩٥)، و(١٠/ ٣٠٤).

(٤) تقدم تعريفها.

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٤/ ١٧٦١) فقد استغربه ابن كثير فقال: هذا حديث غريب وسياق عجيب. والراجح رواية يعلىٰ بن أمية الآتية.

(٦) لوحة (٢٠٢ أ).

(٧) الخَلُوق: طِيبٌ معروف مُركب، يُتَّخذ من الزَّعْفَرَان وغيره من أَنْواع الطِّيب، وتَغْلب عليه الْحُمرة والصُّفرة، وقد نهي عنه؛ لأنه من طِيب النِّساء.

(٨) حديث يعلىٰ بن أمية رواه البخاري (١٧٨٩) (١٨٤٧) (٤٩٨٥)، ومسلم (١١٨٠)، وأبو داود (١٨١٩)، والترمذي (٨٣٦)، والنسائي (٥/ ١٣٠- ١٣٢).

(٩) البَدَنَةُ: تقع علىٰ الجمل والناقة والبقرة، وهي بالإبل أشبه، وسميت بدَنة لِعِظَمِها وسِمَنِها.

يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: «وَالْمُقَصِّرِينَ»[(١)]. وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك، كُلُّ سبعة في بَدَنة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا علىٰ طَرَف الحرم، فالله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو، فلا يتحلَّل إلا من حصره عَدُو، لا مرض ولا غيره؟ علىٰ قولين:

فقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدَّثنا سفيان، عَنْ عمرو بن دينار، عن ابن عبَّاس، وابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عبَّاس، وابن أبي نَجِيح [عن مجاهد][(٢)] عن ابن عبَّاس، أنه قال: لا حَصْرَ إلا حصرُ العدو [ورواه الشافعي في «مسنده» عن ابن عبَّاس قال: لا حصر إلا حصر العدو،][(٣)] فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ فليس الأمن حصرًا[(٤)(٥)].

قال: وروي عن ابن عمر، وطاوس، والزهري، وزيد بن أسلم نحو ذلك.

والقول الثاني: أن الحصر أعمُّ من أن يكون بعدُوٍّ أو مرض أو ضلال -وهو التَّوَهان عن الطريق- أو نحو ذلك.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد[(٦)]، حدَّثنا حَجَّاج الصوَّافُ، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن عكرمة، عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كُسِرَ أَوْ عَرِجَ فَقَدْ حَلَّ، وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَىٰ». قال: فذكرت ذلك لابن عبَّاس وأبي هريرة ﷺ فقالا: صدق[(٧)].

وقد أخرجه أصحاب الكتب الأربعة من حديث يحيىٰ بن أبي كثير به. وفي رواية لأبي داود وابن ماجة: من عرج أو كُسر أو مَرض -فذكر معناه.

ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عُلَيَّة، عن الحجاج بن أبي عثمان الصواف به، وقد رواه عبد بن حميد في «تفسيره»، فقال: حدَّثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن يحيي بن أبي كثير، عن عكرمة، عن عبد الله بن رافع مولىٰ أم سلمة، عن الحجاج بن عمرو الأنصاري أن النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَصَابَهُ كَسْرٌ، أَوْ عَرِجَ وَهُوَ مُحْرِمٌ فَهُوَ حِلٌّ، ثُمَّ عَلَيْهِ الحَجُّ مِنْ قَابِلٍ». قال عكرمة: فحدثته ابن عبَّاس وأبا هريرة فقال: صدق الحجاج. ثم قال: وروي عن ابن مسعود، وابن الزبير، وعلقمة، وسعيد ابن المسيب، وعروة بن الزبير، ومجاهد، والنخعي، وعطاء، ومقاتل بن حيان، أنهم قالوا: الإحصار من عَدو،

---

(١) البخاري (١٧٢٧)، ومسلم (١٣٠١)، وأبو داود (١٩٧٩)، والترمذي (٩١٣)، وابن ماجة (٣٠٤٣).
(٢) زيادة من (ح)، ووقع في بعض النسخ المطبوعة: (وابن أبي نجيح ومجاهد عن ابن عبَّاس)، وهو خطأ والصواب ما أثبتناه، وابن أبي نجيح هو عبد الله يروي عن ابن عبَّاس بواسطة مجاهد وغيره.
(٣) زيادة من (ح).
(٤) في (ز): فليست إلا من حصر.
(٥) رواه الشافعي في «مسنده» (١/ ٣٦٧)، والبيهقي (٥/ ٢١٩)، وصححه ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢/ ٦٠٢).
(٦) لوحة (٢٠٢ ب).
(٧) صحيح: رواه أبو داود (١٨٦٢)، والترمذي (٩٤٠)، والنسائي (٥/ ١٩٩)، وأحمد (٣/ ٤٥٠)، وابن ماجة (٣٠٧٨).

أو مرض، أو كسر.

وقال الثوري: الإحصار من كلِّ شيءٍ آذاهُ. وثبت في «الصحيحين» عن عائشة ﵂: أن رسول الله ﷺ دَخَل علىٰ ضُبَاعة بنت الزُّبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله، إنِّي أريد الحج وأنا شاكية. فقال: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي: أَنَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي»(١). ورواه مسلم عن ابن عبَّاس بمثله.

فذهب مَن ذهب من العلماء إلىٰ صحَّة الاشتراط في الحجِّ لهذا الحديث. وقد علَّق الإمام محمَّد ابن إدريس الشافعي القولَ بصحَّة هذا المذهب علىٰ صحة هذا الحديث. قال البيهقي وغيره من الحفاظ: فقد صحَّ، ولله الحمد.

وقوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ قال الإمام مالك، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن علي ابن أبي طالب أنه كان يقول: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ شاة.

وقال ابن عبَّاس: الهَدْي من الأزواج الثمانية: من الإبل والبقر والمعز والضأن.

وقال الثوري: عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ قال: شاة. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وأبو العالية، ومحمَّد بن علي بن الحسين، وعبد الرحمن بن القاسم، والشعبي، والنَّخعي، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم مثلَ ذلك، وهو مذهب الأئمة الأربعة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو خالد الأحمر، عن يحيىٰ بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلا مِن الإبِل والبَقَر.

قال: ورُوِي عن سالم، والقاسم، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبير نحوُ ذلك.

قلت: والظاهر أنَّ مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قضية الحديبية، فإنَّه لم يُنْقَل(٢) عن أحدٍ منهم أنه ذبح في تحلله ذاك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر، [ففي «الصحيحين»(٣) عن جابر قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر](٤) كل سبعةٍ منا في بقرة(٥).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ قال: بقدر يَسَارته.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: إن كان موسرًا فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. وقال هشام ابن عروة، عن أبيه: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ قال: إنما ذلك فيما بين الرُّخص والغلاء.

والدَّليل علىٰ صحَّة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجْزَاء ذبح الشاة في الإحصار: أنَّ الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي؛ أي: مهما تيسر مما يسمىٰ هديًا، والهَدْي من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر

---

(١) البخاري (٥٠٨٩)، ومسلم (١٢٠٧) عن ضباعة. (٢) لوحة (٢٠٣ أ).
(٣) كذا، وهو من أفراد مسلم. (٤) زيادة من (ح). (٥) مسلم (١٣١٨).

والغنم، كما قاله الحَبْر البحر ترجمان القرآن وابن عم الرسول ﷺ.

وقد ثَبتَ في «الصحيحين» عن عائشة أمِّ المؤمنين ﵂ قالت: أَهْدَىٰ النَّبِيُّ ﷺ مرة غنمًا[(١)].

وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفًا علىٰ قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير؛ لأن النَّبيَّ ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفَّار قريش عن الدخول إلىٰ الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلىٰ الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة، إن كان قارنًا، أو من فعْل أحدهما إن كان مُفْردًا أو متمتعًا، كما ثبت في «الصحيحين» عن حَفْصَةَ أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حَلُّوا من العمرة، ولم تَحِلَّ أنت من عمرتك؟ فقال: «**إِنِّي لَبَّدْتُ رَأْسِي**[(٢)] **وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فَلَا أَحِلُّ حَتَّىٰ أَنْحَرَ**»[(٣)].

وقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. قال البخاري: حدَّثنا آدم، حدَّثنا شعبة، عن عبد الرحمن بن الأصبهاني: سمعت عبد الله بن مَعْقل، قال: فقعدتُ إلىٰ كعب بن عُجْرَةَ في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة- فسألتُهُ عن ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ فقال: حُملْتُ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ والقملُ يتناثر علىٰ وجهي. فقال: «**مَا كُنْتُ أَرَىٰ أَنَّ الجَهْدَ بَلَغَ بِكَ هَذَا! أَمَا تَجِدُ شَاةً؟**» قلت: لا. قال: «**صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ**». فنزلت فيَّ خاصةً، وهي لكم عامةٌ[(٤)].

وقال الإمام أحمدُ: حدَّثنا[(٥)] إسماعيلُ، حدَّثنا أيوب، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن كعب بن عُجْرَة قال: أتىٰ عَلَيَّ النَّبيُّ ﷺ وأنا أوقد تحت قِدْرٍ، والقَمْلُ يتناثرُ علىٰ وجهي -أو قال: حاجبي- فقال: «**يُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟**». قلت: نعم. قال: «**فَاحْلِقْهُ، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوِ انْسُكْ نَسِيكَةً**». قال أيوب: لا أدري بأيتهن بدأ[(٦)].

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ عن كعب ابن عجرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية، ونحن محرمون وقد حصره المشركون وكانت لي وَفْرة[(٧)]، فجعلت الهوام تَسَاقَطُ علىٰ وجهي، فمَرَّ بي رسول الله ﷺ فقال: «**أَيُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟**» فأمره

---

(١) البخاري (١٧٠١)، ومسلم (١٣٢١).

(٢) تلبيد الشعر: أن يجعل فيه شيء من صمغ عند الإحرام؛ لئلا يشعث ويقمل، إبقاءً علىٰ الشعر، وإنما يلبد من يطول مكثه في الإحرام.

(٣) البخاري (١٥٦٦) (١٧٢٥) (٥٩١٦)، ومسلم (١٢٢٩)، وأبو داود (١٨٠٦)، والنسائي (٥/ ١٣٦)، وابن ماجة (٣٠٤٦)، وأحمد (٦/ ٢٨٣/ ٢٨٥).

(٤) البخاري (١٨١٧)، (٤١٥٩)، (٤١٩١)، ومسلم (١٢٠١)، والترمذي (٢٩٧٤)، وأحمد (٤/ ٢٤١).

(٥) لوحة (٢٠٣ ب). (٦) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٤١).

(٧) الوَفْرَةُ: شَعر الرأس إذا وَصَل إلىٰ شَحْمَة الأذُن.

أن يحلق. قال: ونزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾(١).

وكذا رواه عفان، عن شعبة، عن أبي بشر، وهو جعفر بن إياس به. وعن شعبة، عن الحكم، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، به. وعن شعبة، عن داود، عن الشعبي، عن كعب بن عُجْرَة نحوه.

ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن كعب بن عجرة -فذكر نحوه(٢).

وقال سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبان بن صالح، عن الحسن البصري: أنه سمع كعب ابن عُجْرَة يقول: فذبحت شاةً. رواه ابن مَرْدوَيْه(٣).

وروي أيضًا من حديث عمر بن قيس سندل -وهو ضعيف- عن عطاء، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «النُّسُكُ شَاةٌ، وَالصِّيَامُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَالطَّعَامُ فَرَقٌ(٤)، بَيْنَ سِتَّةٍ»(٥).

وكذا رُوي عن علي، ومحمَّد بن كعب، [وعلقمة](٦)، وإبراهيم النخعي ومجاهد، وعطاء، والسُّدِّي، والربيع بن أنس.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا عبد الله بن وهب: أنَّ مالك بن أنس حدثه عن عبد الكريم بن مالك الجَزَري، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن كعب ابن عُجْرة: أنه كان مع رسول الله ﷺ، فآذاه القَمْل في رأسه، فأمره رسولُ الله ﷺ أن يحلق رأسه، وقال: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، مُدَّيْنِ(٧) مُدَّيْنِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، أَوِ انْسُكْ شَاةً، أَيَّ ذَلِكَ فَعَلْتَ أَجْزَأَ عَنْكَ»(٨). وهكذا روىٰ ليث بن أبي سليم عن مجاهد، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: إذا كان «أو» فأيه أخذتَ أجزأ عنك(٩).

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وطاوس، والحسن، وحُميد الأعرج، وإبراهيم النخعي، والضَّحَّاك، نحو ذلك.

قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يُخَيَّر في هذا المقام، إن شاء صام، وإن شاء تصدَّق بفَرق، وهو ثلاثة آصع، لكل مسكينٍ نصفُ صاعٍ، وهو مُدَّان، وإن شاء ذبح شاةً وتصدَّق بها علىٰ الفقراء،

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٦/ ٢٨٣). (٢) **صحيح**: رواه مالك في «الموطأ» (١/ ٤١٧).

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥١٥) لابن مردويه.

(٤) الفَرَق: مِكْيَال يسع سِتَّةَ عشر رِطْلًا، وهي: اثنا عشر مُدًّا، أو ثلاثة آصُع عند أهْل الحجاز.

(٥) **إسناده ضعيف**: كما ذكر ابن كثير؛ لأن فيه عمر بن قيس وهو ضعيف، وكذا عطاء الخراساني لم يسمع عن ابن عبَّاس، لكن أصل معناه صحيح من حديث كعب بن عجرة في إحدىٰ رواياته، راجع تخريج حديثه السابق.

(٦) في (ز): (وعكرمة). (٧) المُدّ في الأصل: ربُع الصاع.

(٨) **صحيح**: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٩/ ١٧٨٥).

(٩) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٩/ ١٧٨٦)، والطبري (٢/ ٢٣٧) من طريق ليث وهو ابن أبي سليم، صدوق، وأدخل في حديثه ما ليس منها فلم تتميز فترك، لكن تابعه مجاهد عنه الطبري (٢/ ٣٣٧) فصح الإسناد.

أيَّ ذلك فعل أجزأه. ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاءَ بالأسهل فالأسهل: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ولما أمَرَ النَّبيُّ ﷺ كعبَ بن عجرة بذلك، أرشده إلىٰ الأفضل، فالأفضل فقال: «انْسُكْ شَاةً، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مساكينَ أَوْ صُمْ ثلاثةَ أَيَّام». فكلّ حسن في مقامه. ولله الحمد والمنة.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا أبو بكر بن عياش قال: ذكر الأعمشُ قال: سأل إبراهيمُ سعيدَ ابن جبير عن هذه الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فأجابه يقول: يُحْكَم عليه طعام، فإن كان عنده اشترىٰ شاةً، وإن لم يكن قوِّمت الشاة دراهم، وجُعِلَ مكانها طعام فتصدق، وإلا صام لكل نصف صاع يومًا. قال إبراهيم: كذلك سمعت علقمة يذكر. قال: لما [قام][1] قال لي سعيد بن جبير: من هذا؟ ما أظرفه! قال: قلت: هذا إبراهيم. فقال: ما أظرفه! كان يجالسنا. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم، قال: فلما قلت: «يُجَالِسُنَا» انتفض منها[2].

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا ابن أبي عمران، حدَّثنا عُبَيد الله بن معاذ، عن أبيه، عن أشعث، عن الحسن في قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: إذا كان بالمُحْرِم أذَىٰ مِن رأسه، حَلَق وافتدىٰ بأيِّ هذه الثلاثة شاء، والصيام عشرة أيام، والصدقة علىٰ عشرة مساكين، كلُّ مسكينٍ مَكُّوكَيْنِ[3]: مكوكًا من تمر، ومكوكًا من بُر، والنُّسك شاة. وقال قتادة، عن الحسن وعكرمة في قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: إطعام عشرة مساكين.

وهذان القولان من سعيد بن جبير، وعلقمة، والحسن، وعكرمة قولان غريبان فيهما نظر؛ لأنه قد ثَبَتت السنةُ في حديث كعب بن عُجْرة بصيام ثلاثة أيام، [لا عشرة و][4] لا ستة، أو إطعام ستة مساكين أو نسك شاة، وأنَّ ذلك علىٰ التخيير كما دَلَّ عليه سياق القرآن. وأما هذا الترتيبُ فإنما هو معروفٌ في قَتْل الصيد، كما هو نصُّ القرآن. وعليه أجمع[5] الفقهاء هناك، بخلاف هذا، والله أعلم[6].

وقال هُشَيم: أخبرنا ليث، عن طاوس: أنه كان يقول: ما كان مِن دَم أو طعام فبِمَكَّةَ، وما كان من صيام فحيث شاء. وكذا قال عطاء، ومجاهد، والحسن. وقال هُشَيم: أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء: أنه كان يقول: ما كان مِن دَم فبِمَكَّةَ، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء.

وقال هشيم: أخبرنا يحيىٰ بن سعيد، عن يعقوب بن خالد، أخبرنا أبو أسماء مولىٰ ابن جعفر، قال: حج عثمان بن عفان، ومعه علي والحسين بن علي، فارتحل عثمان. قال أبو أسماء: وكنت مع ابن جعفر، فإذا نحن برجلٍ نائمٍ وناقته عند رَأْسِهِ، قال: فقلت: أيها [النَّائم][7]. فاستيقظ، فإذا الحسين بن علي. قال:

---

(١) سقط من (ز).

(٢) الطبري (٢/ ٢٣٦)، وفيه ضعف. فقول أبي بكر بن عياش ذكر الأعمش يوحي بالانقطاع، فإنه لم يذكر الاتصال، وهذا القول لا يصح فهو مخالف لظاهر النص، كما سيذكر المؤلف.

(٣) المكوك: مكيال قديم، يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد، قيل: يسع صاعًا ونصفًا.

(٤) زيادة من (ح).

(٥) في (ح): إجماع.

(٦) لوحة (٢٠٤ ب).

(٧) في (ز): (النوم).

فحمله ابنُ جعفر حتىٰ أتينا به السُّقْيا قال: فأرسل إلىٰ عليٍّ ومعه أسماء بنت عميس. قال: فمَرَّضْناه نحوًا من عشرين ليلةً. قال: قال علي للحسين: ما الذي تجد؟ قال: فأومأ بيده إلىٰ رأسه. قال: فأمر به عَليٌّ فَحَلَق رأسه، ثم دعا ببدنَةٍ فنحرها[1]. فإن كانت هذه النَّاقة عن الحلق ففيه أنه نحرها دون مكة. وإن كانت عن التحلل فواضح.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: إذا تمكنتم من أداء المناسك، فمن كان منكم مُتمتِّعًا بالعُمرة إلىٰ الحج[2]، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولًا فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء. والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلَّت عليه الأحاديثُ الصحاح، فإنَّ من الرُّواة من يقولُ: تمتع رسول الله ﷺ. وآخر يقول: قَرَن. ولا خلاف أنَّه ساق الهدي.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: فلْيَذْبح ما قَدَرَ عليه من الهدي، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر؛ لأنَّ رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر[3]. وقال الأوزاعي، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلمة[4] عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ ذبح بقرةً عن نسائه، وكُنَّ مُتمتِّعاتٍ[5]. رواه أبو بكر بن مَرْدوَيْه.

وفي هذا دليل علىٰ شرعية التمتع، كما جاء في «الصحيحين» عن عمْران بن حُصين قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله ﷺ. ثم لم يَنزل قرآن يُحَرِّمه، ولم يُنْهَ عنها حتىٰ مات. قال رجل برَأيه ما شاء[6]. قال البخاري [7]: يقال: إنه عُمَر.

وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحًا به أن عمر ﷺ كان ينهىٰ الناس عن التمتع، ويقول: إن نأخذ بكتاب الله فإنَّ الله يأمر بالتمام. يعني قوله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، وفي نفس الأمر لم يكن عمر ﷺ ينهىٰ عنها محرِّمًا لها[8]، إنما كان يَنْهَىٰ عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجِّين ومعتمرين، كما قد صرح به ﷺ.

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يقول تعالىٰ: فمن لم يجد هَدْيًا فَلْيصمْ ثلاثة أيام في الحج؛ أي: في أيام المناسك. قال العلماء: والأولىٰ أن يصومها قبل يوم عَرَفة في العشر، قاله عطاء. أو من حين يحـــرم، قاله ابن عبَّاس وغيره؛ لقوله: ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ ومنهم من

---

(١) رواه الطبري (٢/ ٢٣٩)، وإسناده ضعيف، فيه يعقوب بن خالد، قال ابن حبان: يروي المقاطع، وذكره ابن أبي حاتم، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا «الثقات» (٧/ ٦٤٢)، «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٠٧).

(٢) في (ز): وهو غير المتمتع الخاص.

(٣) صحيح: «صحيح البخاري» (١٧٠٩)، ومسلم (١٢٢٦) من حديث عائشة ﵂.

(٤) في (ز): (أبي مسلم)، والمثبت من (ح)، وهو الصواب.

(٥) أبو داود (١٧٥١)، وابن ماجة (٣١٣٣)، وابن خزيمة (٢٩٠٣) وله متابعة عند النسائي. راجع «فتح الباري» (٣/ ٥٥١).

(٦) البخاري (١٥٧١)، (٤٥١٨)، ومسلم (١٢٢٦).

(٧) لوحة (٢٠٥ أ).

(٨) «صحيح البخاري» (١٥٦٩).

يجوِّز صيامها من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد. وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبله يومين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، وعطاء، وطاوس، والحكم، والحسن، وحماد، وإبراهيم، وأبو جعفر الباقر، والربيع، ومقاتل بن حَيَّان.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: إذا لم يجد هَدْيًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يومُ عرفة الثالث فقد تمَّ صومه وسبعة إذا رجع إلىٰ أهله[١]. وكذا رَوَىٰ أبو إسحاق عن [وبرة،][٢] عن ابن عمر، قال: يصوم يومًا قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة[٣]. وكذا رَوَىٰ عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن علي أيضًا[٤].

فلو لم يَصُمْها أو بعضها قبل يوم العيد فهل يجوز له أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، وهما للإمام الشافعي أيضًا.

القديم منهما: أنَّه يجوزُ له صيامها لقول عائشة وابن عمر في «صحيح البخاري»: لم يرَخَّص في أيام التشريق أن يُصَمن إلا لمن لا يجد الهَدي[٥]. وكذا رواه مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. وعن سالم، عن ابن عمر وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾. وقد روي من غير وجه عنهما. ورواه سفيان، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن علي أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق[٦]. وبهذا يقول عُبَيد بن عُمَير الليثي، وعكرمة، والحسن البصري، وعروة بن الزبير.

والجديد[٧] من القولين: أنَّه لا يجوز صيامها أيام التشريق؛ لما رواه مسلم عن نبَيْشَة الهذلي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللهِ»[٨].

وقوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إذا رجعتم في الطريق. ولهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق. وكذا قال عطاء بن أبي رباح.

والقول الثاني: إذا رجعتم إلىٰ أوطانكم؛ قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن يحيىٰ بن سعيد، عن

---

(١) رواه الطبري (٢/ ٢٤٨)، وفيه عطية العوفي وهو شيعي مدلس، وثبت عنده أيضًا بلفظ: «**الصيام للمتمتع ما بين إحرامه إلى يوم عرفة**»، وإسناده ضعيف؛ لأنه من طريق داود بن حصين عن عكرمة، وقد سبق الكلام عليه عند الآية (١٨٥).

(٢) بياض في (ز)، والمثبت من (ح).

(٣) رواه الطبري (٢/ ٢٤٧) من طريق أخرى عن أبي إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، ورجاله ثقات إلا أن أبا إسحاق مدلس وقد عنعن.

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٤٢/ ١٨٠)، والطبري (٢/ ٢٤٧)، وإسناده صحيح.

(٥) البخاري (١٩٩٧).

(٦) رواه الطبري (٢/ ٢٤٩)، وإسناده صحيح.

(٧) لوحة (٢٠٥ ب).

(٨) مسلم (١١٤١)، وأبو داود (٢٨١٣)، والنسائي (٧/ ١٧٠)، وأحمد (٥/ ٧٥).

سالم، سمعت ابن عمر قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قال: إذا رَجع إلىٰ أهله[١]، وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَير، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والزهري، والربيع بن أنس. وحكىٰ علىٰ ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع[٢].

وقد قال البخاري: حدَّثنا يحيىٰ بن بُكَير، حدَّثنا الليث، عن عُقَيل، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حَجَّة الوداع بالعُمْرَةِ إلىٰ الحجِّ، وأَهْدَىٰ فسَاق [معه] الهَدْي من ذي الحُلَيفة[٣]، وبدأ رسول الله ﷺ فأهلَّ بالعمرة، ثم أهلَّ بالحج، فتمتَّع النَّاس مع النَّبيِّ ﷺ بالعمرة إلىٰ الحج. فكان مِنَ الناس مَنْ أهدىٰ فسَاقَ الهَدْي، ومنهم من لم يُهْد. فلما قدم النَّبيُّ ﷺ مكة قال للنَّاس: «مَنْ كَانَ مِنكُمْ أَهْدَىٰ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لِشَيْءٍ حَرُمَ مِنْهُ حَتَّىٰ يَقْضِيَ حَجَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنكُمْ أَهْدَىٰ فَلْيَطُفْ بِالبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَلْيُقَصِّرْ وَلْيَحْلِلْ ثُمَّ لِيُهِلَّ بِالحَجِّ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ». وذكر تمام الحديث[٤].

قال الزهري: وأخبرني عروة، عن عائشة بمثل ما أخبرني سالم عن أبيه، والحديث مُخرَّج في «الصحيحين» من حديث الزُّهري به.

وقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيتُ بِعَيْنِي، وسمعتُ بأُذُنِي، وكتبتُ بيَدِي. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقيل: معنىٰ ﴿كَامِلَةٌ﴾ الأمْرُ بإكمالها وإتمامها، اختاره ابنُ جرير. وقيل: معنىٰ ﴿كَامِلَةٌ﴾ أي: مُجْزئة عن الهَدْي. قال هُشَيْم، عن عباد بن راشد، عن الحسن البصري، في قوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قال: مِنَ الهَدْي[٥].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال ابن جرير[٦]: اختلفَ أهلُ التَّأويل فيمن عُني بقوله: ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بعد إجماع جميعهم علىٰ أنَّ أهل الحرم مَعْنِيُّون به، وأنه لا متعة لهم.

فقال بعضهم: عُنِيَ بذلك أهل الحرم خاصةً دون غيرهم:

حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان -هو الثوري- قال: قال ابن عبَّاس ومجاهد: هم

(١) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٤٣/ ١٨٠٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٩٣).
(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٢٥٤).
(٣) ذو الحُلَيْفَة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة. «معجم البلدان»: (٢/ ٢٩٥).
(٤) البخاري (١٦٩١، ١٦٩٢)، ومسلم (١٢٢٨).
(٥) لوحة (٢٠٦ أ).
(٦) انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٢٥٥).

أهل الحَرَم. وكذا روىٰ ابن المبارك، عن الثوري، وزاد: الجماعة عليه.

وقال قتادة: ذُكر لنا أن ابن عبَّاس كان يقول: يا أهل مكة، لا متعةَ لكم، أُحِلَّت لأهل الآفاق وحُرِّمت عليكم، إنما يقطع أحدكم واديًا -أو قال: يجعل بينه وبين الحرم واديًا ثم يُهِلُّ بعمرة.

وقال عبد الرزَّاق: حدَّثنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: المتعةُ للناس -لا لأهل مكة- مَنْ لم يكن أهله من الحرم. وذلك قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: وبلغني عن ابن عبَّاس مثلُ قول طاوس.

وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بَيْنه وبين المواقيت.

كما قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن رجل، عن عطاء، قال: مَن كان أهلُهُ دون المواقيت، فهو كأهل مكَّة، لا يَتَمَتَّع.

وقال عبد الله بن المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مكحول، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: مَن كان دون الميقات.

وقال ابن جُرَيْج عن عطاء: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: عرفةُ، ومَرٌّ، وعُرَنَةُ، وضَجْنانُ، والرجيع[(١)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، سمعت الزهري يقول: من كان أهله علىٰ يوم أو نَحْوه تَمتَّع. وفي رواية عنه: اليوم واليومين.

واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي: أنهم أهل الحرم، ومَن كان منه علىٰ مسافةٍ لا تُقْصَر منها الصلاة؛ لأنَّ مَن كان كذلك يُعَدُّ حاضرًا لا مسافرًا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم وما نهاكم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن خالف أمره، وارتكب ما عنه زجره.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧﴾

اختلف أهل العربية في قوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ فقال بعضهم: تقديره الحج حَجُّ أشهر معلومات[(٢)]، فعلىٰ هذا التقدير يكون الإحرام بالحجِّ فيها أكمل مِن الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذاك صحيحًا، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السَّنَةِ مذهبُ مالك، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن رَاهويه، وبه يقول إبراهيم النخَعي، والثوري، والليث بن سعد. واحْتَجَّ لهم بقوله تعالىٰ:

---

(١) عَرَفَات: موقِفُ الحاجِّ ذلكَ اليَوْم، علىٰ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا من مَكة. ومَرّ: موضع بينه وبين مكة خمسة أميال. وعُرَنة: وادٍ بحذاء عرفات. وضَجْنان: هو موضعٌ أو جبلٌ بين مكة والمدينة. والرَّجِيع: ماء لهذيل قرب الهدأة بين مكة والطائف.

(٢) لوحة (٢٠٦ ب).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وبأنَّه أحد النُّسكين. فصحَّ الإحرام به في جميع السَّنَةِ كالعمرة.

وذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أنَّه لا يصح الإحرام بالحجِّ إلا في أشهره فلو أَحْرَمَ به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وهل ينعقد عُمْرةً؟ فيه قولان عنه.

والقول بأنَّه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مَرْويٌّ عن ابن عبَّاس، وجابر، وبه يقول عطاء، وطاوس، ومجاهد، رحمهم الله.

والدليل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النُّحاة، وهو: أنَّ وقت الحج أشهرٌ مَعْلُومات](١) فخصَّصه بها من بين سائر شهور السَّنَة، فدلَّ علىٰ أنَّه لا يَصِحُّ قبلها، كميقات الصلاة.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أخبرنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرني عُمَر بن عَطَاء، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس أنَّه قال: لا يَنْبَغِي لأحدٍ أن يُحْرِم بالحج إلا في شهور الحج، مِن أجل قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن يحيىٰ بن مالك السوسي، عن حجاج بن محمَّد الأعور، عن ابن جريج به(٢). ورواه ابن مَرْدوَيْه في «تفسيره» من طريقين، عن حجاج بن أرطاة، عن الحكم ابن عُتَيبة عن مِقْسَم، عن ابن عبَّاس: أنه قال: من السُّنَّة ألا يُحْرِم بالحجِّ إلا في أشهر الحج(٣).

وقال ابن خزيمة في «صحيحه»: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا أبو خالد الأحمر، عن شعبة، عن الحكم، عن مقْسَم، عن ابن عبَّاس، قال: لا يُحْرِم بالحج إلا في أشهر الحج، [فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج(٤).](٥) وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: «مِنَ السُّنَّةِ كَذَا» في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عبَّاس تفسيرًا للقرآن، وهو ترجمانه.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، قال ابن مَرْدوَيْه: حدَّثنا عبد الباقي بن قانع حدَّثنا الحسن بن المُثَنىٰ، حدَّثنا أبو حذيفة، حدَّثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُحْرِمَ بِالحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الحَجِّ**»(٦).

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٤٥/ ١٨١٩)، والشافعي في «الأم» (٢/ ٥٥) وفي إسناده عمر بن عطاء، قال أبو زرعة: لين. وقال أحمد بن حنبل: ليس بقوي الحديث. وضعفه يحيى والنسائي. [انظر: «الضعفاء والمتروكين» (٢/ ١٢٣)، و«الجرح والتعديل» (٦/ ١٢٦)] قلت: لكن الأثر صحيح، وانظر ما بعده.

(٣) عزاه لابن مرديه وسيأتي في الرواية الآتية من صحيح ابن خزيمة بإسناد صحيح.

(٤) **صحيح**: رواه ابن خزيمة (٢٥٩٦)، وقد صححه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو في حكم المرفوع.

(٥) زيادة من (ح).

(٦) رواه مرفوعًا وموقوفًا، والمرفوع من طريق أبي الزبير، ولم يصرح بالسماع وهو مدلس فالإسناد ضعيف، والموقوف =

وإسناده لا بأس به. لكن رواه الشافعي، والبيهقي من طُرق، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله[١] يسأل: أَيُهَلُّ بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: لا.

وهذا الموقوف أصحُّ وأثبت من المرفوع، ويبقىٰ حينئذٍ مذهب صحابي، يتقوَّىٰ بقول ابن عبَّاس: منَ السُّنَّة أن لا يُحرَم بالحجِّ إلا في أَشْهُرِهِ». والله أعلم.

وقوله: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ قال البخاري: قال ابن عمر: هي شوال، وذو القَعْدة، وعشر مِن ذي الحجة. وهذا الذي علقه البخاري عنه بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولًا، حدَّثنا أحمد بن حازم بن أبي غَرْزة، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا ورقاء، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ قال: شوال، وذو القعدة وعشر من ذي الحجة[٢].

إسناد صحيح، وقد رواه الحاكم أيضًا في «مستدركه»، عن الأصم، عن الحسن بن علي بن عفان، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله[٣]، عن نافع، عن ابن عمر -فذكره وقال: علىٰ شرط الشيخين.

قلت: وهو مَرْويٌّ عن عُمَر، وعليٍّ، وابن مسعود، وعبد الله بن الزبير، وابن عبَّاس، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومكحول، وقتادة، والضَّحَّاك بن مزاحم، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان. وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وأبي يوسف، وأبي ثَوْر، رحمهم الله.

واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصحَّ إطلاق الجمع علىٰ شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: «زُرْتُه العَام، ورَأَيْتُهُ اليَوْمَ». وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما تعجل في يوم ونصف[٤].

وقال الإمام مالك بن أنس [والشافعي في القديم][٥]: هي شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله. وهو رواية عَن ابن عُمَر أيضًا.

قال ابن جرير: حدَّثنا أحمد بن إسحاق، حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: شوال وذو القعدة وذو الحجة[٦].

= أصح وقد صرح فيه أبو الزبير بالسماع، ويشهد لصحته حديث ابن عبَّاس السابق.
والموقوف صرح فيه ابن الزبير بالتحديث فهو أصح كما قال ابن كثير، ورواه الشافعي في «الأم» (٢/ ١٣٦)، والبيهقي (٤/ ٣٤٣).

(١) لوحة (٢٠٧ أ).

(٢) رواه البخاري (٣/ ٤١٩- فتح) تعليقًا، ووصله الطبري (٢/ ٢٥٨)، وإسناده صحيح. ورواه الحاكم (٢/ ٢٧٦)، وصححه على شرط الشيخين.

(٣) في (ز): (عبد الله)، والمثبت من (ح) وهو الصواب.

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٢٦٠).

(٥) بياض في (ز)، والمثبت من (ح).

(٦) صحيح: رواه الطبري (٢/ ٢٥٨)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٤٥/ ١٨١٦) من طرق عن ابن جريج به.

وقال ابن أبي حاتم في «تفسيره»: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني ابن جريج، قال: قلت لنافع: أسمعت عبد الله بن عُمَر يسمي شُهُور الحج؟ قال: نعم، كان عبد الله يسمي: «شوال وذو القعدة وذو الحجة». قال ابن جريج: وقال ذلك ابن شهاب، وعطاء، وجابر بن عبد الله صاحب النَّبيِّ ﷺ[1]، وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن جريج.

وقد حُكي هذا أيضًا[2] عن طاوس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، والربيع بن أنس، وقتادة. وجاء فيه حديث مرفوع، ولكنه موضوع، رواه الحافظ بن مَرْدوَيْه، من طريق حُصَين بن مخارق -وهو متهم بالوضع- عن يونس بن عبيد، عن شهر بن حَوْشَب، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ: شَوَّالٌ وَذُو القَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ»**[3]. وهذا كما رأيت لا يَصح رفعه، والله أعلم.

وفائدة مذهب مالك أنَّه إلىٰ آخر ذي الحجة، بمعنىٰ أنَّه مختصٌّ بالحجِّ، فيُكْرَه الاعتمار في بقية ذي الحجة، لا أنَّه يصحُّ الحج بعد ليلة النحر.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنان، حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن قيس بن مُسلم، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد الله: الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ، ليس فيها عمرة. وهذا إسناد صحيح[4].

قال ابن جرير: إنما أراد من ذَهَب إلىٰ أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أنَّ هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنَّما هي للحجِّ، وإن كان عمل الحج قد انقضىٰ بانقضاء أيام منىٰ، كما قال محمَّد بن سيرين: ما أحد مِن أهل العلم يَشُكُّ في أنَّ عمرةً في غير أشهر الحجِّ أفضل من عمرةٍ في أشهر الحج.

وقال ابن عون: سألت القاسم بن محمَّد، عن العمرة في أشهر الحج، فقال: كانوا لا يَرَوْنَها تامَّةً.

قلت: وقد ثبتَ عن عمر وعثمان ﷺ أنهما كانا يُحِبَّان الاعتمار في غير أشهرِ الحجِّ، وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: أوجب بإحرامه حَجًّا. فيه دلالة علىٰ لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه.

قال ابن جرير: أجمعوا علىٰ أن المراد من الفَرْض هاهنا: الإيجاب والإلزام.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ يقول: من أحرم بحَجٍّ أو عمرةٍ.

وقال عطاء: الفرضُ: الإحرامُ. وكذا قال إبراهيم، والضَّحَّاك، وغيرهم.

وقال ابن جُرَيج: أخبرني عمر بن عطاء[5]، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: أنه قال ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ فلا ينبغي أن يُلَبِّي بالحجِّ ثم يقيم بأرض[6]. قال ابن أبي حاتم: رُوِيَ عن ابن مسعود، وابن عبَّاس، وابن

---

(١) انظر ما قبله. (٢) لوحة (٢٠٧ ب).

(٣) موضوع: عزاه لابن مردويه، وفيه حصين بن مخارق: متهم بالوضع، وشهر بن حوشب: كثير الأوهام والإرسال.

(٤) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٤٥/ ١٨١٨).

(٥) في (ز): حدَّثنا خير بن عمر بن عطاء، والمثبت من (ح).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٤٦/ ١٨٢٠)، وفيه عمر بن عطاء: ضعيف كما تقدم.

الزبير، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي، وعكرمة، والضَّحَّاك، وقتادة، وسفيان الثوري، والزهري، ومقاتل بن حَيَّان نحو[١] ذلك.

وقال طاوس، والقاسمُ بن محمَّد: هو التَّلْبِيَة.

وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: مَن أَحْرَمَ بالحجِّ أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكذلك يَحْرُمُ تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التَّكلم به بحضرة النساء.

قال ابن جرير: حدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس أنَّ نافعًا أخبره أن عبد الله بن عمر كان يقول: الرفثُ إتيانُ النِّساء، والتَّكلُّم بذلك: الرجالُ والنِّساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم[٢].

قال ابن وهب: وأخبرني أبو صخر، عن محمَّد بن كَعْب مثله.

قال ابن جرير: وحدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن قتادة، عن رجل، عن أبي العالية الرِّياحي، عن ابن عبَّاس: أنَّه كان يحدو -وهو محرم- وهو يقول:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا إِنْ يَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنَلْ لَمِيسَا

ثمَّ قال أبو العالية فقلت: تكَلَّمُ بالرفث وأنت محرم؟! قال: إنَّما الرفث ما قيل عند النساء.

ورواه الأعمش، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية، عن ابن عبَّاس فذكره[٣].

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا ابن أبي عدي، عن عَون، حدَّثني زياد بن حصين، حدَّثني أبي حصين بن قيس، قال: أَصْعَدْتُ مع ابن عبَّاس في الحاجِّ، وكنت خليلًا له، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عبَّاس، فأخذ بذَنَب بعيره فجعل يلويه وهو يَرْتَجِزُ، ويقول:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا إِنْ يَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنَلْ لَمِيسَا

قال: فقلت: أَتَرْفُثُ وأَنْت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما قيل عند النساء[٤].

وقال عبد الله بن طاوس، عن أبيه: سألت ابن عبَّاس عن قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ قال: الرَّفَث: التعريض بذكر الجماع[٥]، وهي العَرَابَة في كلام العرب، وهو أدنىٰ الرفث.

وقال عطاء بن أبي رباح: الرفثُ: الجماع، وما دونه من قول الفُحْشِ، وكذا قال عمرو بن دينار.

وقال عطاء: كانوا يكرهون العَرَابَة، وهو التعريض بذكر الجماع وهو مُحْرِم.

---

(١) لوحة (٢٠٨ أ).

(٢) صحيح: رواه الطبري (٢/ ٢٦٣)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٤٦/ ١٨٢٢).

(٣) صحيح: رواه الطبري (٢/ ٢٦٣)، وفيه رجل لم يسمَّ، ولكن يشهد له الرواية الآتية.

(٤) صحيح: رواه الطبري (٢/ ٢٦٣- ٢٦٤)، وإسناده صحيح.

(٥) صحيح: رواه الطبري (٢/ ٢٦٤).

وقال طاوس: هو أن تقول للمرأة: إذا حَلَلْت أصبتُك. وكذا قال أبو العالية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: الرفث: غِشْيان النساء والقُبَل والغَمْز، وأن يُعَرِّض لهَا بالفحش من الكلام، ونحو ذلك.

وقال ابن عبَّاس أيضًا وابن عمر: الرفثُ: غشيانُ النساء. وكذا قال سعيدُ بن جُبَير، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم، وأبو العالية[١]، وعطاء، ومكحول، [وعطاء الخراساني][٢] وعطاء بن يسار، وعطية، وإبراهيم النَّخعي، والربيع، والزهري، والسُّدِّي، ومالك بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الكريم بن مالك، والحسن، وقتادة والضَّحَّاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قال مِقْسَم وغير واحد، عن ابن عبَّاس: هِيَ المعاصي. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومحمَّد بن كعب، والحسن، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والزهري، ومكحول، وابن أبان، والربيع بن أنس، وعطاء بن يسار، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال: الفسوق: ما أُصِيبَ مِن معاصي الله به صَيْد أو غيره.

وكذا روىٰ ابن وهب، عن يونس، عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: الفُسوقُ إتيانُ معاصي الله في الحرم.

وقال آخرون: الفسوقُ هاهنا السِّباب، قاله ابن عبَّاس، وابن عمر، وابن الزُّبير، ومجاهد، والسُّدِّي، وإبراهيم، والحسن. وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في «الصحيح»: «**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[٣].

[ولهذا رواه هاهنا الحبرُ أبو محمَّد بن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ مِن حديث سفيان الثوري، عن يزيد، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**سِبابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**». ورُوِيَ مِن حديث عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود عن أبيه، ومن حديث أبي إسحاق عن محمَّد بن سعد عن أبيه[٤].][٥]

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق هاهنا: الذَّبْحُ للأصنام. قال الله تعالىٰ: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال الضَّحَّاك: الفسوق: التَّنابُز بالألقاب.

والَّذين قالوا: الفُسُوق هاهنا هو جميع المعاصي، معهم الصواب، كما نهىٰ تعالىٰ عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السَّنَة منهيًّا عنه، إلَّا أنَّه في الأشهر الحرم آكَدُ؛ ولهذا قال: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال في الحرم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ

(١) لوحة (٢٠٨ ب).
(٢) زيادة من (ح)، وفي (ز): [. . . ابن أبان] وزاد في بعض النسخ الحكم بن أبان، والمثبت هو الصواب.
(٣) البخاري (٤٨)، (٦٠٤٤)، (٧٠٧٦)، ومسلم (٦٤)، والترمذي (١٩٨٤)، والنسائي (٧/ ١٢٢)، وابن ماجة (٦٩)، (٦٩٣٩)، وابن أبي شيبة في «المسند» (٢٠١- بتحقيقي).
(٤) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٤٧/ ١٨٢٥)، وسنده صحيح. وانظر التعليق السابق.
(٥) زيادة من (ح).

بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج: ٢٥].

واختار ابن جرير أنَّ الفُسُوقَ هاهنا: هو ارتكاب ما نُهِيَ عنه في الإحرام مِن قتل الصيد، وحَلْق الشعر، وقَلْم الأظفار، ونحو ذلك، كما تقدم عن ابن عمر. وما ذكرناه أولىٰ[1]، والله أعلم.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[2].

وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ولا مجادلة في وقت الحجِّ وفي مناسكه، وقد بيَّنه الله أتَمَّ بيان ووضحه أكمل إيضاح. كما قال وَكِيع، عن العلاء بن عبد الكريم: سمعت مجاهدًا يقول: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ قد بيَّن الله أشهر الحَج، فليس فيه جدال بين الناس.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ قال: لا شهر يُنْسَأ، ولا جدال في الحج، قد تَبَيَّن، ثم ذكر كيفية ما كان المشركون[3] يصنعون في النَّسيءِ الذي ذمهم الله به.

وقال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ قال: قد استقام الحج، فلا جدَال فيه. وكذا قال السُّدِّي.

وقال هُشَيم: أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ قال: المِرَاءُ في الحجِّ.

وقال عبد الله بن وهب: قال مالك: قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ فالجدال في الحج -والله أعلم- أنَّ قريشًا كانت تَقِفُ عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانت العرب، وغيرهم يقفون بعَرفَة، وكانوا يتجادلون، يقول هؤلاء: نحن أصوب. ويقول هؤلاء: نحن أصوب. فهذا فيما نرىٰ، والله أعلم.

وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفُون مَوَاقف مختلفة يتجادلون، كُلُّهم يَدَّعِي أنَّ موقفه موقف إبراهيم [فقطعه الله حين أعلم نَبِيَّه][4] بالمناسك.

وقال ابن وهب، عن أبي صخر، عن محمَّد بن كعب، قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمنىٰ قال هؤلاء: حجُّنا أتمُّ مِن حجِّكم. وقال هؤلاء: حجُّنا أتمُّ مِن حَجِّكُم.

وقال حمَّاد بن سلمة، عن جبر بن حبيب، عن القاسم بن محمَّد أنَّه قال: الجِدَالُ في الحجِّ أن يقول بعضهم: الحجُّ غدًا. ويقول بعضهم: الحج اليوم.

وقد اختار ابن جرير مضمونَ هذه الأقوال، وهو قطع التَّنازع في مناسك الحج.

والقول الثاني: أنَّ المراد بالجدال هاهنا: المخاصمة.

قال ابن جرير: حدَّثنا عبد الحميد بن بيان، حدَّثنا إسحاق، عن شَرِيك، عن أبي إسحاق، عن أبي

---

(١) في (ز): أدنى.

(٢) البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، والترمذي (٨١١)، والنسائي (٥/ ١١٤)، وابن ماجة (٢٨٨٩).

(٣) لوحة (٢٠٩ أ).

(٤) في (ز): [بقطعه أنه من أعلم بنيه]، والمثبت من (ح) و«تفسير الطبري».

الأحوص، عن عبد الله -هو ابن مسعود رضي الله عنه- في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: أنْ تُمَارِي صاحبك حتىٰ تُغْضِبَه[١].

وبهذا الإسناد إلىٰ أبي إسحاق، عن التميمي: سألت ابن عبَّاس عن «الجِدَالِ» قال: المراء، تماري صاحبك حتىٰ تُغْضِبَه. وكذا روىٰ مِقْسَم والضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس[٢]. وكذا قال أبو العالية، وعطاء ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراساني، ومكحول، وعمرو بن دينار، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، والرَّبيع بن أنس، وإبراهيم النَّخَعي، وعطاء بن يسار، والحسن، وقتادة، والزهري، ومقاتل بن حيَّان.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال الجِدَال: المراء والملاحاة، حتىٰ تُغْضِبَ أخَاكَ وصاحبك، فنهىٰ الله عن ذلك.

وقال إبراهيم النخعي: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: كانوا يكرهون الجدال. وقال محمَّد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، قال: الجدال: السباب[٣] والمنازعة. وكذا روىٰ ابن وهب، عن يونس، عن نافع: أن ابن عمر كان يقول: الجدال في الحج: السباب، والمراء، والخصومات[٤]، وقال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن الزبير، والحسن، وإبراهيم، وطاوس، ومحمَّد بن كعب، قالوا: الجدالُ: المِرَاءُ.

وقال عبد الله بن المبارك، عن يحيىٰ بن بشر، عن عكرمة: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ والجدال: الغَضَب، أَن تُغْضِب عليك مسلمًا، إلَّا أن تَسْتَعْتِبَ مملوكًا فتُغْضبه مِن غير أن تَضْرِبَهُ، فلا بأس عليك، إن شاء الله.

قلت: ولو ضَرَبَهُ لكان جائزًا سائغًا. والدليل علىٰ ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الله بن إدريس، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق، عن يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه: أنَّ أَسماءَ بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجًا، حتىٰ إذا كنَّا بالعَرْج[٥] نزل رسولُ الله ﷺ، فجلست عائشةُ إلىٰ جنب رسول الله، وجلستُ إلىٰ جَنْب أبي. وكانت زِمَالة[٦] أبي بكر وزِمَالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلىٰ أن يَطْلُع عليه، فأطْلَعَ وَلَيْسَ معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أَضْلَلْتُهُ البَارِحةَ. فقال أبو بكر: بعير واحد تُضلُّه؟ فطفق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول: «**انْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الْمُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ؟**»[٧].

وهكذا أخرجه أبو داود، وابن ماجة مِن حديث ابن إسحاق. ومِن هذا الحديث حكىٰ بعضُهم عن بعض السَّلف أنَّه قال: مِن تمام الحجِّ ضَرْبُ الجمال. ولكن يُستفاد من قول النَّبيِّ ﷺ عن أبي بكر: «**انْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الْمُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ؟**» -كهيئة الإنكار اللَّطيف- أنَّ الأَوْلَىٰ تركُ ذلك، والله أعلم.

---

(١) رواه ابن جرير (٢/ ٢٧١). (٢) رواه ابن جرير (٢/ ٢٧١)، وابن أبي حاتم (١/ ١٨٣٠)، وإسناده صحيح.

(٣) لوحة (٢٠٩ ب). (٤) رواه الطبري (٢/ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٤٨/ ١٨٣٠)، وإسناده صحيح.

(٥) العَرْج: قَرْيَةٌ بين مكة والمدينة.

(٦) أي: مَرْكوبُهُما وأداتُهما وما كان معهُما في السَّفَر.

(٧) أبو داود (١٨١٨)، وابن ماجة (٢٩٣٣)، وأحمد (٦/ ٣٤٤)، وحسنه الشيخ الألباني.

وقد قال الإمام عبد بن حميد في «مسنده»: حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، عن موسىٰ بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَضَىٰ نُسُكَهُ وَسَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**[(١)]»[(٢)].

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ لما نهاهم عن إتْيَان القبيح قولًا وفعْلًا حَثَّهم علىٰ فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزيهم عليه أوفرَ الجزاء يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ قال العوفي، عن ابن عبَّاس: كان أُناسٌ يَخْرُجُون من أهليهم ليست معهم أَزْوِدَةٌ، يقولون: نَحُجُّ[(٣)] بيت الله ولا يُطْعِمُنَا؟!. فقال الله: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس[(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدَّثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة: قال: إنَّ ناسًا كانوا يَحُجُّون بغير زادٍ، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ وكذا رواه ابن جرير عن عمرو - وهو الفَلاس - عن ابن عيينة.

قال ابن أبي حاتم: وقد روىٰ هذا الحديث وَرْقاء، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس. قال: وما يَرْوِيه ابن عُيَيْنَة أصحُّ[(٥)].

قلتُ: قد رواه النَّسائي، عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عُيَيْنَة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: كان نَاس يحجون بغير زاد، فأنْزَل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[(٦)]. وأمَّا حديث وَرْقَاء فأخرجه البخاري، عن يحيىٰ بن بشر، عن شَبَابة. وأخرجه أبو داود، عن أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي، ومحمَّد بن عبد الله المُخَرِّمي، عن شبابة، عن ورقاء، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: كان أهلُ اليَمَنِ يَحُجُّون ولا يَتَزَوَّدُون، ويقولون: نحن المتوكلون. فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[(٧)].

ورواه عبد بن حميد في «تفسيره»، عن شَبابة به. ورواه ابن حبان في «صحيحه» من حديث شبابة به.

وروىٰ ابن جرير وابن مَرْدَوَيْه من حديث عَمْرو بن عبد الغفار عن [محمَّد بن سوقة، عن][(٨)] نافع، عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا -ومعهم أزوادهم- رموا بها، واستأنفوا زادًا آخر؛ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ فنُهوا عن ذلك، وأمِرُوا أن يتزوَّدوا الكعك والدَّقيق والسَّويق[(٩)][(١٠)].

---

(١) وردت هنا زيادة في (ح): [وما تأخر]، وهي غير موجودة في «مسند عبد بن حميد» (١١٤٨)، لذا لم نثبتها في الأصل.

(٢) ضعيف: رواه ابن عدي (٤/ ١٤٥١)، (٦/ ٢٣٣٤)، وفيه موسى بن عبيدة: ضعيف، قال أحمد: لا تحل الرواية عنه، وهو منكر الحديث، وقال أبو زرعة: ليس بقوي، وقال ابن معين: ضعيف إلا أنه يكتب حديثه.

(٣) لوحة (٢١٠ أ).

(٤) رواه الطبري (٢/ ٣٠٥)، وابن أبي حاتم (١٨٣٨)، وفيه العوفي: شيعي مدلس، لكن يشهد له الروايات المذكورة في الباب.

(٥) هذه الرواية ستأتي من طريق البخاري.

(٦) صحيح: النسائي في «الكبرى» (١١٠٣٣).

(٧) البخاري (١٥٢٣)، وأبو داود (١٧٣٠).

(٨) زيادة من «تفسير الطبري».

(٩) رواه ابن جرير (٢/ ٢٧٨). . . ويشهد له حديث ابن عبَّاس السابق.

(١٠) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سُمي بذلك لانسياقه في الحلق.

وكذا قال ابن الزبير، وأبو العالية، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي، وسالم بن عبد الله، وعطاء الخراساني، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.

وقال سعيد بن جبير: فتَزَوَّدُوا الدَّقيق والسَّويق والكعك، وقال وكيع بن الجراح في «تفسيره»: حدَّثنا سفيان، عن محمَّد بن سوقة، عن سعيد بن جبير: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ قال: الخُشْكَنانج[١] والسَّوِيق. وقال وكيع أيضًا: حدَّثنا إبراهيم المكي، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: إنَّ مِن كَرَم الرجل طيب زادِهِ في السفر[٢]. وزاد فيه حماد بن سلمة، عن أبي ريحانة أنَّ ابن عُمَرَ كان يَشْتَرِطُ علىٰ مَن صَحِبَهُ الجَوْزَة[٣].

وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ لما أمرهم بالزاد للسَّفر في الدُّنيا أرشدهم[٤] إلىٰ زاد الآخرة، وهو استصحاب التَّقوىٰ إليها، كما قال: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. لما ذكر اللباس الحسي نبَّه مرشدًا إلىٰ اللِّباس المعنوي، وهو الخشوع، والطاعة والتَّقوىٰ، وذكر أنَّه خير مِن هذا وأنفع.

قال عطاء الخراساني في قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يعني: زاد الآخرة.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا عبدان، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا مروان بن معاوية، عن إسماعيل عن قيس، عن جرير بن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ يَتَزَوَّدْ فِي الدُّنْيَا يَنْفَعْهُ فِي الآخِرَةِ**»[٥].

وقال مقاتل بن حيان: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ قام رجلٌ مِن فُقَرَاء المسلمين فقال: يا رسول الله، ما نجد زادًا نَتَزَوَّدُه. فقال رسول الله ﷺ: «**تَزَوَّدْ مَا تكُفُّ بِهِ وَجْهَكَ عَنِ النَّاسِ، وَخَيْرُ مَا تَزَوَّدْتُمُ التَّقْوَىٰ**». رواه ابن أبي حاتم[٦].

وقوله: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري، يا ذوي العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

قال البخاري: حدَّثنا محمَّد، أخبرني ابن عيينة، عن عَمْرو، عن ابن عبَّاس، قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز أسواق الجاهلية[٧]، فتأثَّموا أن يَتَّجِرُوا في الموسم فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن

(١) الخُشْكَنانج: خُبزةٌ تصنع من خالص دقيق الحِنطة، وتملأ بالسكر واللوز، أو الفستق وتُقلىٰ.

(٢) إسناده صحيح، عزاه المصنف لوكيع في «تفسيره».

(٣) كذا في (ز)، وفي (ح) الجودة، والجوزة: السقية الواحدة من الماء، ولعل المقصود أن ابن عمر كان يتكفل بشرابه.

(٤) لوحة (٢١٠ ب).

(٥) ضعيف: الطبراني (٢/ ٣٠٥) وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨٨٧)، وفي «الضعيفة» (٤٦٦٦).

(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣٥١/ ١٨٤٤) وفيه إعضال.

(٧) عُكاظ: موضع بقُرب مكة، كانت تُقام به في الجاهلية سُوق يُقِيمون فيه أيَّامـًا. ومَجَنَّة كذلك، وكانت تقوم عشرة أيامٍ =

تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ في مواسم الحج[(١)].

وهكذا رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وغير واحد، عن سفيان بن عيينة به.

ولبعضهم: فلما جاء الإسلام تَأَثَّمُوا أن يَتَّجِرُوا، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية.

وكذلك رواه ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن ابن عبَّاس، قال: كان مَتْجَر النَّاس في الجاهلية عكاظُ ومَجَنَّةُ وذُو المجاز، فلما كان الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتىٰ نزلت هذه الآية.

وروىٰ أبو داود، وغيره، من حديث يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، قال: كانوا يَتَّقون البيوع والتِّجارة في الموسم والحجِّ، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾[(٢)].

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: أنه قال: «لَيْسَ عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من رَبِّكم في مواسم الحج»[(٣)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في[(٤)] هذه الآية: لا حرجَ عليكم في الشِّراء والبيع قبل الإحرام وبعده. وهكذا رَوَىٰ العوفي، عن ابن عبَّاس[(٥)].

وقال وَكِيع: حدَّثنا طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء، عن ابن عبَّاس أنه كان يقرأ: «لَيس عَليكُم جناح أَن تَبْتَغُوا فضلًا مِن ربكم في مواسم الحج»[(٦)].

[وقال عبد الرزاق: عن ابن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد: سمعت ابن الزبير يقول: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم في مواسم الحج»[(٧)].][(٨)]

= من آخر ذي القَعدة، والعشرون منه قبلها سوق عكاظ، وبعد مَجَنة سوق ذي المجاز ثمانية أيام من ذي الحجة، ثم يُعرفون في التاسع إلىٰ عرفة وهو يوم التروية.

(١) البخاري (٤٥١٩)، وابن جرير (٢/ ٢٨٤)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٥١/ ١٨٤٦)، وسعيد ابن منصور في «تفسيره» (٣٥٠)، والرواية الثانية عن ابن جريج عن عمرو: رواها البخاري (١٧٧٠) وابن جرير.

(٢) **صحيح لغيره**: رواه أبو داود (١٧٣١)، وابن جرير (٢/ ٢٨٤)، وسعيد بن منصور (٢٥١)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد، ضعيف: لكن يشهد لصحة حديثه الرواية السابقة، واللفظ الذي ذكره «المصنف» ليس لفظ أبي داود، وإنما هو عند الطبري، ولفظ أبي داود: «**كانوا لا يتجرون بمنى فأمروا بالتجارة إذا أفاضوا من عرفات**».

(٣) رواه الطبري (٢/ ٢٨٣)، وفيه حجاج بن أرطأة: صدوق كثير الخطإ والتدليس، وهو ضعيف.

(٤) لوحة (٢١١ أ).

(٥) رواه الطبري (٢/ ٢٨٢)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٥١/ ١٨٤٧).

(٦) **ضعيف جدًا**: رواه الطبري (٢/ ٢٨٣، ٢٨٤)، وفي إسناده طلحة بن عمرو الحضرمي: متروك الحديث.

(٧) **صحيح**: عزاه في «الدر المنثور» (١/ ٤٤٥) إلى عبد الرزاق (١/ ٣٢٥) وابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن جرير (٢/ ٢٨٤)، وابن المنذر. قال في «البحر المحيط»: (والأولى جعل هذا تفسيرًا؛ لأنه مخالف لسواد المصاحف الذي أجمعت عليه الأمة) [البحر المحيط (٢/ ٣٧٣)].

(٨) زيادة من (ح).

ورواه عبد بن حميد، عن محمَّد بن الفضل، عن حماد بن زيد، عن عبيد الله بن أبي يزيد، سمعت ابن الزبير يقرأ -فذكر مثله سواء. وهكذا فسرها مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومنصور بن المعتمر، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدَّثنا شبابة بن سَوّار، حدَّثنا شعبة، عن أبي أميمة قال: سمعت ابن عمر وسُئِل عن الرجل يحجُّ ومعه تجارة -فقرأ ابن عمر: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[(١)].

وهذا موقوف، وهو قوي جيد. وقد روي مرفوعًا قال أحمد: حدَّثنا أسباط، حدَّثنا الحسن بن عَمْرو الفُقَيمي[(٢)]، عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا نُكْرِي[(٣)]، فهل لنا مِن حجٍّ، قال: أليس تطوفون بالبيت، وتَأتونَ المُعَرَّفَ[(٤)]، وترمون الجمار، وتحلقون رءُوسكم؟ قال: قلنا: بلىٰ. فقال ابن عمر: جاء رجل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فسأله عن الذي سألتني فلم يُجِبْهُ، حتىٰ نزل عليه جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فدعاه النَّبيُّ ﷺ، فقال: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ»[(٥)].

وقد قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن العلاء بن المسيب، عن رجل مِن بني تيم الله قال: جاء رَجُل إلىٰ عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنا قوم نُكْرِي، ويزعمون أنَّه ليس لنا حج. قال: ألستم تحرمون كما يحرمون، وتطوفون كما يطوفون، وترمون كما يرمون؟ قال: بلىٰ. قال: فأنت حاجٌّ. ثم قال ابن عمر: جاء رجل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فسأله عما سألت عنه، فنزلت هذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[(٦)].

ورواه عَبْد [بن حميد في «تفسيره»][(٧)] عن عبد الرزاق به. وهكذا روىٰ هذا الحديث ابن حذيفة، عن الثوري، مرفوعًا. وهكذا روي من غير هذا الوجه مرفوعًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدَّثنا عباد بن العوام، عن العلاء بن المسيب، عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنَّا أناس نُكْرِي في هذا الوجه إلىٰ مكة، وإن أناسًا يزعمون أنَّه لا حجَّ لنا، فهل ترىٰ لنا حجًّا؟[(٨)] قال: أَلَسْتُم تُحْرِمُون، وتطوفون بالبيت، وتقفون المناسك؟ قال: قلت: بلىٰ.

---

(١) رواه الطبري (٢/ ٢٨٣)، وإسناده حسن.

(٢) في (ز): التميمي، وهو خطأ والتصويب من (ح) و«المسند».

(٣) أي: نستأجر، والكِراء: أَجر المستأجَر. «اللسان»: كرا.

(٤) يعني: تقفون بعرفة.

(٥) حسن: رواه أبو داود (١٧٣٣)، وأحمد (٢/ ١٥٥)، والدارقطني، وسعيد بن منصور (٣٥٢)، وابن جرير (٢/ ٢٨٢)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٥١/ ١٨٤٥)، وفي بعض الروايات سمّي الرجل المبهم: أبا أمامة التيمي، قال ابن معين: لا يعرف اسمه، وقال البخاري: ويقال: اسمه عمرو بن أسماء، وثَّقه ابن معين والبخاري، وقال أبو زرعة: لا بأس به، والحديث صححه الشيخ الألباني.

(٦) رواه الطبري (٢/ ٢٨٢)، وانظر التعليق السابق.

(٧) زيادة من (ح).

(٨) لوحة (٢١١ ب).

قال: فأنتم حجاج. ثم قال: جاء رجل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فسأله عن مثل الذي سألت، فلم يَدْرِ ما يعود عليه -أو قال: فلم يَرُدَّ عليه شيئًا- حتىٰ نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فدعا الرجل، فتلاها عليه، وقال: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ»(١).

وكذا رواه مسعود بن سعد، وعبد الواحد بن زياد، وشَريك القاضي، عن العلاء بن المسيب به مرفوعًا.

وقال ابن جرير: حدَّثني طليق بن محمَّد الواسطي، حدَّثنا أسباط -هو ابن محمَّد- أخبرنا الحسن بن عَمْرو -هو الفقَيْمِي- عن أبي أمامة التيمي. قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نُكْرِي، فهل لنا مِن حجٍّ؟ فقال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعَرَّف، وترمون الجمار، وتحلقون رءُوسكم؟ قلنا: بلىٰ. قال: جاء رجل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يدر ما يقول له، حتىٰ نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلىٰ آخر الآية، فقال النَّبيُّ ﷺ: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ»(٢).

وقال ابن جرير: حدَّثني أحمد بن إسحاق، حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا مَنْدل، عن عبد الرحمن بن المهاجر، عن أبي صالح مولىٰ عمر، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تَتَّجِرُون في الحج؟ قال: وهل كانت معايشهم إلا في الحج؟(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.

إنما صَرَفَ «عرفات» وإن كان علمًا علىٰ مؤنث؛ لأنه في الأصل جَمْع كمسلمات ومؤمنات، سُمِّيَ به بقعة معينة، فروعي فيه الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير.

وعرفة: موضع الموقف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روىٰ الإمام أحمدُ، وأهل السنن بإسناد صحيح، عن الثوري، عن بكير بن عطاء، عن عبد الرحمن بن يَعْمر الديلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحَجُّ عَرَفَاتٌ [-ثَلَاثًا-](٤) فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ، فَقَدْ أَدْرَكَ. وَأَيَّامُ مِنًىٰ ثَلَاثَةٌ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»(٥).

ووقت الوقوف من الزَّوال يومَ عرفة إلىٰ طُلُوع الفجر الثاني من يوم النحر؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ وقف في

---

(١) ابن أبي حاتم (١/ ٣٥١/ ١٨٤٥)، وانظر التعليق السابق.
(٢) رواه ابن جرير (٢/ ٢٨٢)، وانظر التعليق السابق.
(٣) رواه الطبري (٢/ ٢٨٥)، وفيه مندل وهو ضعيف كما في «التقريب».
(٤) زيادة من (ح).
(٥) صحيح: رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩، ٨٩٠)، والنسائي (٥/ ٢٦٤)، وابن ماجة (٣٠١٥)، وأحمد (٤/ ٣٠٩، ٣٣٥).

حجة الوداع، بعد أن صلَّىٰ الظهر إلىٰ أن غربت الشمس، وقال: «لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»[(١)].

وقال في هذا الحديث[(٢)]: «فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ» وهذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، والشافعي -رحمهم الله- وذهب الإمام أحمد إلىٰ أنَّ وقت الوقوف من أوَّل يوم عَرَفة. واحتجوا بحديث الشعبي، عن عروة بن مُضَرِّس بن حارثة بن لام الطائي قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة، حين خرج إلىٰ الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جَبَلَيْ طيئ[(٣)]، أَكْلَلْتُ راحلتي، وأَتْعَبْتُ نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفتُ عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ، فَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّىٰ نَدْفَعَ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ، وَقَضَىٰ تَفَثَهُ[(٤)]»[(٥)].

رواه الإمام أحمد، وأهل السُّنن، وصحَّحه الترمذي.

ثم قيل: إنما سُمِّيَت عَرَفات لما رواه عبد الرزاق: أخبرني ابن جريج قال: قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب: بعث الله جبريل عليه السلام إلىٰ إبراهيم عليه السلام فحَجَّ به، حتَّىٰ إذا أتىٰ عرفةَ قال: عرفت، وكان قد أتاهَا مرَّةً قبل ذلك، فلذلك سُمِّيَتْ عَرَفة[(٦)].

وقال ابن المبارك، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، قال: إنما سميت عرفة، أنَّ جبريل كان يُرِي إبراهيم المناسك، فيقول: عَرَفْتُ عَرَفْتُ. فسُمِّيَ «عرفات». وروي نحوه عن ابن عبَّاس، وابن عمر وأبي مِجلز، فالله أعلم.

وتُسَمَّىٰ عرفات: المشعر الحلال، والمشعر الأقصىٰ، وإِلَال[(٧)] -علىٰ وزن هلال- ويُقال للجبل الذي في وسطها: جَبَلُ الرحمة. قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وَبِالمَشْعَرِ الأَقْصَىٰ إِذَا قَصَدُوا لَهُ ... إِلَالٌ إِلَىٰ تِلْكَ الشِّرَاجِ القَوَابِلِ

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا حماد بن الحسن بن عَنْبَسَة، حدَّثنا أبو عامر، عن زمعة -هو ابن صالح- عن سلمة -هو ابن وَهْرَام- عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: كان أهل الجاهليَّة يَقِفُون بعرفة حتىٰ إذا كانت الشمس علىٰ رءوس الجبال، كأنَّها العمائم علىٰ رءوس الرجال، دَفَعُوا، فأخَّر رسول الله ﷺ الدَّفْعة

---

(١) مسلم (١٢٩٧)، وأحمد (٣/ ٣١٨). (٢) لوحة (٢١٢ أ).

(٣) طيئ: قبيلة معروفة في شبه الجزيرة العربية، أشهر من ينتسب إليها حاتم الطائي.

(٤) التَّفَث: هو ما يفعله المُحْرِم بالحج إذا حَلَّ، كقَصِّ الشارب والأظفار، ونَتْف الإبط، وحَلْق العانة، وقيل: هو إذهاب الشَّعَث والدَّرَن والوسَخ مطْلقاً «النهاية»: (١/ ١٩١)، و«اللسان»: تفث.

(٥) صحيح: رواه أبو داود (١٩٥٠)، والترمذي (٨٩١)، والنسائي (٥/ ٢٦٣)، وابن ماجة (٣٠١٦)، وأحمد (٤/ ١٥)، وابن أبي شيبة في «المسند» (٥٣٤- بتحقيقي).

(٦) رواه الطبري (٢/ ٢٨٦)، وفيه ابن جريج: مدلس، ولم يصرح بالسماع.

(٧) إلال: جبلٌ عن يمين الإمام بعرفَة.

مِن عرفة حتىٰ غربت الشمس[١].

ورواه ابن مَرْدوَيْه، من حديث زمعة بن صالح، وزاد: ثم وَقَفَ بالمُزْدَلِفَة، وصلَّىٰ الفجر بغَلَس، حتىٰ إذا أسفر[٢] كلُّ شيء وكان في الوقت الآخر دفع. وهذا حَسَنٌ[٣] الإسناد.

وقال ابن جُرَيْج، عن محمَّد بن قيس، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة قال: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ، وهو بعرفات، فحمد الله وأثنىٰ عليه. ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ - وَكَانَ إِذَا خَطَبَ خُطْبَةً قَالَ: أَمَّا بَعْدُ- فَإِنَّ هَذَا اليَوْمَ الحَجُّ الأَكْبَرُ، أَلَا وَإِنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالأَوْثَانِ كَانُوا يَدْفَعُونَ فِي هَذَا اليَوْمِ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ، إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي رُءُوسِ الجِبَالِ، كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وُجُوهِهَا، وَإِنَّا نَدْفَعُ [بَعْدَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ، وَكَانُوا يَدْفَعُونَ مِنَ المَشْعَرِ الحَرَامِ بَعْدَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي رُءُوسِ الجِبَالِ كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وُجُوهِهَا وَإِنَّا نَدْفَعُ][٤] قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، مُخَالِفًا هَدْيُنَا هَدْيَ أَهْلِ الشِّرْكِ»[٥].

هكذا رواه ابن مَرْدوَيْه وهذا لفظه، والحاكم في «مستدركه»، كلاهما مِن حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشي، عن عبد الوارث بن سعيد[٦]، عن ابن جريج به. وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرِّجاه. قال: وقد صحَّ وثَبَت بما ذكرناه سماع المِسْوَر مِن رسول الله ﷺ، لا كما يتوهمه رعاع أصحابنا أنَّه ممن له رُؤْيَةٌ بلا سماع.

وقال وَكِيع، عن شعبة، عن إسماعيل بن رجاء الزبيدي عن المعرور بن سويد، قال: رأيت عمر ﷺ حين دفع مِن عرفة، كأنِّي أنظر إليه رَجُلًا أصلع علىٰ بعير له، يُوضِع[٧] وهو يقول: إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع[٨].

وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل، الذي في «صحيح مسلم»، قال فيه: فلم يَزَل واقفًا -يعني بعرفة- حتىٰ غَرَبَتِ الشَّمس، وذهبت[٩] الصُّفْرَةُ قَليلًا حتىٰ غاب القُرْصُ، وأردَفَ أُسامَةَ خلفه، ودفعَ رسول الله ﷺ وقد شَنَقَ للقصواء[١٠] الزِّمام، حتىٰ إنَّ رأسها ليصيب مَوْرِك[١١] رحله، ويقول بيده اليمنىٰ: «أَيُّهَا

---

(١) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٢/ ١٨٤).

(٢) الغَلَسُ: ظُلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. وأَسْفَرَ الصبحُ: إذا انكَشَف وأضاء.

(٣) لوحة (٢١٢ ب).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٢٢٧)، والبيهقي. وعزاه لابن مردويه ورجاله ثقات لولا أن ابن جريج عنعن، وهو مدلس، لكن يشهد له الرواية السابقة، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٦) في (ز): عبد الرزاق بن سعيد.

(٧) يُوضِع: حمل الراكب بعيره على سرعة السير.

(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٨٨٦)، وإسناده صحيح.

(٩) في (ز)، و(ح): وبدت، والمثبت من «صحيح مسلم».

(١٠) شَنَقَت البعير: إذا كَفَفْته بزمامه وأنت رَاكِبُهُ. والقَصْواء: الناقة التي قُطِع طَرَف أُذنِها، ولم تكن ناقة النبي ﷺ (قَصْواء)، وإنما كان هذا لقبًا لها. وقيل: كانت مَقْطوعة الأذُن.

(١١) المَوْرِكُ والمَوْرِكَة: المِرْفَقة التي تكون عند قادمةِ الرَّحل، يَضَعُ الراكبُ رِجْلَه عليها ليَسْتريح من وَضْعِ رِجْلِه في

النَّاسُ، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ». كلمَّا أتىٰ جبلًا من الجبال أرْخَىٰ لها قليلًا حتىٰ تصعد، حتىٰ أتىٰ المُزْدَلِفة فصلَّىٰ بها المغرب والعشاء بأذانٍ واحدٍ وإقامتين، ولم يُسَبِّحْ[١] بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتىٰ طلع الفَجرُ فصلىٰ الفجر حين تَبَيَّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتىٰ أتىٰ المشعرَ الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهَلَّله ووحَّده، فلم يَزَل واقفًا حتىٰ أسفر جدًّا، فدفع قبل أن تطلُع الشمس[٢].

وفي «الصَّحيحين»[٣] عن أسامة بن زيد، أنه سُئِل كيف كان [يسير][٤] رسول الله ﷺ حين دَفَعَ؟ قال: «كان يسير العَنَق، فإذا وجد فَجْوَةً نَصَّ»[٥]. والعَنَق: هو انبساط السير، والنص[٦] فَوْقَه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو محمَّد ابن بنت الشافعي[٧] فيما كَتَب إليَّ عن أبيه أو عمه، عن سفيان ابن عيينة قوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وهي الصلاتين[٨] جميعًا.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عَمْرو عن المشعر الحرام، فسكت حتىٰ إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال: أين السائل عن المشعر الحرام؟ هذا المشعر الحرام[٩].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن سالم قال: قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها[١٠].

وقال هُشَيم، عن حجاج عن نافع، عن ابن عمر: أنه سئل عن قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ قال: فقال: هو الجبل وما حوله[١١].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن المغيرة، عن إبراهيم قال: رآهم ابن عُمَر يزدحمون علىٰ قُزَحَ[١٢]، فقال: عَلام يزدحم هؤلاء؟ كل ما هاهنا مشعر[١٣].

وروي عن ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبير، وعكرمة، ومجاهد، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، والحسن،

= الرِّكَاب، أرادَ أنَّه كان قد بَالَغ في جَذْب رَأسِها إليه ليكُفَّها عن السَّيْر.

(١) ولم يسبح بينهما؛ أي: لم يتنفل.

(٢) مسلم (١٢١٨).

(٣) في (ز): الصحيح، وما أثبتناه من (ح).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) البخاري (١٦٦٦) (٢٩٩٩) (٤٤٠٣)، ومسلم (١٢٨٦).

(٦) في (ز): العنق، وما أثبتناه من (ح).

(٧) لوحة (٢١٣ أ).

(٨) كذا في (ز)، و(ح).

(٩) رواه ابن جرير الطبري (٢/ ٢٨٨)، وابن أبي حاتم (١٨٥٥)، وإسناده صحيح ويشهد له الروايات الأخرى الآتية عن ابن عمر.

(١٠) **صحيح**: رواه الطبري (٢/ ٢٨٨)، وابن أبي حاتم (١٨٥٦).

(١١) صحيح كسابقه، رواه الطبري (٢/ ٢٨٨).

(١٢) قُزَح: جبل بالمزدلفة، وهو موقف قريش في الجاهلية.

(١٣) **صحيح**: رواه الطبري (٢/ ٢٨٨).

وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أين المزدلفة؟ قال: إذا أَفَضْت من مَأزمي[(١)] عرفة فذلك إلىٰ مُحَسِّر[(٢)]. قال: وليس المَأْزِمَانِ مَأْزِمَا عرفة من المزدلفة، ولكن مُفَاضَاهما. قال: فقِف بينهما إن شئت، قال: وأُحِبُّ أن تَقِفَ دون قُزَح، هَلُمَّ إلينا مِن أجل طريق الناس.

قلت: والمشاعر هي المعالم الظَّاهرة، وإنَّما سُمِّيَت المزدلفة: المشعر الحرام؛ لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يَصِحُّ إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف، وبعض أصحاب الشافعي، منهم: القَفَّال، وابن خُزَيمة؛ لحديث عُرْوة بن مُضَرِّس؟ أو واجب، كما هو أحد قولي الشافعي يجْبَر بدم؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء، لِبَسْطِهَا موضع آخر غير هذا، والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك، عن سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**عَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ عُرَنَةَ**[(٣)]**، وَجَمْعٌ**[(٤)] **كُلُّهَا مَوْقِفٌ إِلَّا مُحَسِّرًا**». هذا حديث مرسل[(٥)].

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا سعيد بن عبد العزيز، حدَّثني سليمان بن موسىٰ، عن جبير بن مطعم، عن النَّبيِّ ﷺ: قال: «**كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ عُرَنَةَ**[(٦)]**. وَكُلُّ مُزْدَلِفَةَ مَوْقِفٌ وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ، وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ، وَكُلُّ**[(٧)] **أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ**»[(٨)].

وهذا أيضًا منقطع، فإن سليمان بن موسىٰ هذا -وهو الأشدق- لم يُدْرِك جُبَير بن مطعم. ولكن رواه الوليد بن مسلم، وسويد بن عبد العزيز، عن سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان، فقال الوليد: عن ابن لجبير

---

(١) المأزمان: واحدهما مأزم، وهو المضيق.

(٢) مُحَسِّر: وادٍ بين عَرفات ومِنًىٰ.

(٣) عُرَنة: موضع عند المَوْقِف بعَرَفات.

(٤) جَمْع: هي المزدلفة.

(٥) إسناده مرسل: انظر تخريجه في التعليق الذي بعده.

(٦) في (ز): عرفات، وما أثبتناه من (ح)، وهو الصواب كما في «المسند».

(٧) لوحة (٢١٣ ب).

(٨) صحيح: من غير هذه الطرق، فالطريق الأول مرسل كما ذكر ابن كثير، والثاني: من طريق سليمان بن موسى، وهو منقطع. رواه أحمد (٤/ ٨٢)، والبيهقي (٥/ ٢٩٥).

ورواية سويد التي أشار إليها هي عند الطبراني في «الكبير» (١٥٨٣)، وقد وصلها كما ذكر ابن كثير لكن سويد بن عبد العزيز: لا يحتج به إذا انفرد، والوليد بن مسلم: مدلس تدليس تسوية.

قلت: لكن للحديث شواهد.

منها ما رواه الحاكم (١/ ٦٦٢)، عن ابن عبَّاس وصححه على شرط مسلم، ورواه عن ابن عبَّاس أيضًا البزار (١١٢٧)، والبيهقي (٥/ ١١٥)، ومنها ما رواه مالك (١/ ٣٨٨) بلاغًا عن محمَّد بن المنكدر، قال ابن عبد البر: وصله عبد الرزاق عن معمر عن محمَّد بن المنكدر عن أبي هريرة.

ومنها عن جابر نحوه: رواه أبو داود (١٩٣٧)، وابن ماجة (٣٠٤٨)، وإسناده حسن.

ابن مطعم، عن أبيه. وقال سويد: عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن النَّبيِّ ﷺ فذكره، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ تنبيهٌ لهم على ما أنْعَم به عليهم، من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج، على ما كان عليه إبراهيم الخليل عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ قيل: من قبل هذا الهَدْيِ، وقيل: القرآن، وقيل: الرسول ﷺ، والكلُّ متقاربٌ ومتلازمٌ وصحيحٌ.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)﴾

﴿ثُمَّ﴾ هاهنا لعطف خَبَرٍ على خَبَرٍ وترتيبه عليه، كأنَّه تعالى أَمَرَ الواقف بعرفات أن يَدْفَع إلى المزدلفة، ليذكُر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشًا، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيَقِفُون في طرف الحرم عند أدنى الحِل، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقُطَّانُ بَيْتِه.

وقال البخاري: حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا محمَّد بن حازم، حدَّثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: كانت قريش ومَن دَانَ دِينَهَا يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمَّوْن الحُمْسَ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات. فلما جاء الإسلام أَمَرَ الله نبيَّه ﷺ أن يَأْتِي عرفات، ثم يَقِفُ بها ثم يُفِيض منها، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وكذا قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم. واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع رحمهم الله.

وقال الإمام أحمد، حدَّثنا سُفْيان، عن(٢) عمرو، عن محمَّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: أضللتُ بعيرًا لي بعرفة، فذَهَبْتُ أَطْلُبُه، فإذا النَّبيُّ ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الحُمْسِ ما شأنه هاهنا؟(٣). أخرجاه في «الصحيحين».

ثم روى البخاريُّ مِن حديث موسى بن عقبة، عن كُرَيب، عن ابن عبَّاس مَا يَقْتَضِي أنَّ المراد بالإفاضة هاهنا هي(٤) الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار(٥). فالله أعلم. وحكاه ابنُ جرير، عن الضَّحَّاك بن مزاحم فقط. قال: والمراد بالناس: إبراهيم عليه السلام، وفي روايةٍ عنه: الإمام.

قال ابن جرير: ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثيرًا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا

---

(١) البخاري (٤٥٢٠). (٢) في (ز): سفيان بن عمرو، وما أثبتناه من (ح)، وهو الصواب.
(٣) البخاري (١٦٦٤)، ومسلم (١٢٢٠)، وأحمد (٤/ ٨٠).
(٤) لوحة (٢١٤ أ). (٥) البخاري (٤٥٢١).

ثبت في «صحيح مسلم» أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يَسْتَغْفِرُ ثلاثًا[(١)]. وفي «الصحيحين» أنَّه نُدِبَ إلىٰ التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير، ثلاثًا وثلاثين، ثلاثًا وثلاثين[(٢)].

وقد رویٰ ابن جرير هاهنا حديث ابن عبَّاس بن مِرْدَاس السلمي في استغفاره ﷺ لأُمَّتِهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ[(٣)]، وقد أوردناه في جُزْءٍ جمعناه في فضل يوم عرفة.

وأورد ابن مَرْدَوَيْه هاهنا الحديث الذي رواه البخاري، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. مَنْ قَالَهَا فِي لَيْلَةٍ فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا فِي يَوْمِهِ فَمَاتَ دَخَلَ الجَنَّةَ»[(٤)].

وفي «الصَّحِيحَيْن» عن عبد الله بن عَمْرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، عَلِّمْنِي دعاءً أدعو به في صَلاتِي؟ فقال: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»[(٥)].

والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

يأمُرُ تعالىٰ بذكرِهِ والإكثارِ منه بعد قضاء المناسك وفراغها.

وقوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ اختلفوا في معناه، فقال ابن جُرَيج، عن عطاء: هو كقول الصبي: «أَبَهْ أُمَّهْ»، يعني: كما يَلْهَج الصبيُّ بذِكرِ أَبِيهِ وأُمِّهِ، فكذلك أنتم، فالْهَجُوا بذِكْرِ الله بعد قضاء النُّسك. وكذا قال الضَّحَّاك والربيع بن أنس. وروىٰ ابنُ جرير من طريق العوفي، عن ابن عبَّاس نحوه[(٦)].

---

(١) مسلم (٥٩١)، وأبو داود (١٥١٣)، والترمذي (٣٠٠)، والنسائي (٣/ ٦٨)، وابن ماجة (٩٢٨).
(٢) البخاري (٨٤٣)، (٦٣٢٩)، ومسلم (٥٩٥)، وانظر رسالتي (تمام المنة في فقه الكتاب وصحيح السنة- جزء الصلاة ص١٨٤- ١٨٥).
(٣) ضعيف: ابن جرير (٤/ ٢٩٤)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤/ ٢١٢٣/ ٥٣٣٠- بتحقيقي)، والبغوي في «معجم الصحابة» (١٨٦١)، وفيه كنانة بن عبَّاس وعبد الله بن كنانة: كلاهما مجهول، وعبد القاهر بن السري: فيه ضعف.
(٤) البخاري (٦٣٠٦) (٦٣٢٣)، والنسائي (٨/ ٢٧٩).
(٥) البخاري (٨٣٤)، (٦٣٢٦) (٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥)، والترمذي (٣٥٣١)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وابن ماجة (٣٨٣٥).
(٦) لوحة (٢١٤ ب).

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس قال: كان أهل الجاهلية يَقِفُون في المَوْسِمِ فيقول الرَّجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحَمَالات[1] [ويحمل الدِّيَات][2]. ليس لهم ذكر غير فِعَالِ آبائِهِم. فأنزل الله علىٰ محمَّد ﷺ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[3].

قال ابن أبي حاتم: ورُوِيَ عن أنس بن مالك، وأبي وائل، وعطاء بن أبي رباح في أحد قوليه، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة في إحدىٰ روايتيه[4]، ومجاهد، والسُّدِّي، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمَّد بن كعب، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وهكذا حكاه ابن جرير أيضًا عن جماعة، والله أعلم.

والمقصود منه الحثُّ علىٰ كثرة الذكر لله ﷻ؛ ولهذا كان انتصاب قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ علىٰ التَّمييز، تقديره كذِكْرِكُم آباءكم أو أشدَّ منه ذِكْرًا. و﴿أَوْ﴾ هاهنا لتحقيق المماثلة في الخبر؛ كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]. فلَيْسَتْ هاهنا للشَّكِّ قطعًا، وإنَّما هي لتحقيق الخبر عنه بأنَّه كذلك أو أزْيَد منه. ثم إنه تعالىٰ أرشد إلىٰ دُعَائه بعد كَثْرَةِ ذِكْرِه، فإنَّه مظنَّة الإجابة، وذَمَّ مَن لا يسأله إلا في أَمْرِ دنياه، وهو معرض عن أخراه، فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي: مِنْ نَصِيب ولا حظ. وتضمَّن هذا الذمُّ التَّنْفِيرَ عن التَّشَبُّه بمَنْ هو كذلك.

قال سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلىٰ الموقف، فيقولون: اللَّهُمَّ اجعله عامَ غَيثٍ وعامَ خِصْب وعامَ وَلَّادٍ حَسَن. لا يذكرون مِن أمرِ الآخِرَةِ شيئًا، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ النَّاسِ[5] مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ وكان يَجِيءُ بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فأنزل الله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[6] ولهذا مدح مَن يَسألُه للدُّنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً[7] وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدُّنيا، وصرَفت كلَّ شرٍّ فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلَّ مطلوبٍ دنيويٍّ من عافيةٍ، ودارٍ رحبةٍ، وزوجةٍ حسنةٍ، ورزقٍ واسعٍ، وعلمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ، ومركبٍ هنيءٍ، وثناءٍ جميلٍ، إلىٰ غير

---

(١) الحمالات: جمع حمالة، وهي: ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة.
(٢) زيادة من (ح).
(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٥/ ١٨٧٠)، وفيه جعفر بن أبي المغيرة، وهو ضعيف في روايته عن سعيد بن جبير.
(٤) في (ح): رواياته.
(٥) في الأصل: (ومنهم) وليست بآية.
(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٧٤) وفيه جعفر بن أبي المغيرة وهو ضعيف في روايته عن سعيد بن جبير.
(٧) لوحة (٢١٥ أ).

ذلك مما اشتَمَلَتْ عليه عباراتُ المفسِّرين، ولا منافاة بينها، فإنَّها كلها مندرجةٌ في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأَعْلَىٰ ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفَزَع الأكبر في العَرَصات(١)، وتيسير الحساب وغير ذلك مِن أُمُور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يَقْتَضِي تَيْسِير أسبابه في الدُّنيا، من اجتناب المحارم والآثام وتَرْكِ الشُّبهات والحرام.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: من أُعْطِيَ قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا صابرًا، فقد أُوتِي في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، ووُقِيَ عذاب النار.

ولهذا وردت السُّنَّة بالتَّرغيب في هذا الدعاء. فقال البخاري: حدَّثنا أبو معمر، حدَّثنا عبد الوارث، عن عبد العزيز، عن أنس بن مالك قال: كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدَّثنا عبد العزيز بن صُهيب، [قال: سأل قتادة أنسًا: أيُّ دعوةٍ كان أكثر يدعو بها النَّبيُّ ﷺ؟](٣) قال: كان أَكْثَرُ دَعوةٍ يدعُو بها رسولُ الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» ورواه مسلم. [وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوةٍ دعا بها، وإذا أراد أن يَدْعُو بدُعاءٍ دَعَا بها فيه(٤).](٥)

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا عبد السلام بن شداد -يعني أبا طالوت- قال: كنتُ عند أنسِ بن مالكٍ، فقال له ثابت: إنَّ إخوانك يُحِبُّون أن تدعو لهم. فقال: اللَّهُمَّ ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النار. وتحدَّثوا ساعةً حتَّىٰ إذا أرادوا القِيَام، قال: يا أبا حمزة، إنَّ إخوانك يُرِيدُون القِيَام فادْعُ الله لهم فقال: تريدون أن أشَقق(٦) لكم الأمور، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله(٧).

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن أبي عدي، عن حميد، [وعبد الله بن بكر السهمي، حدَّثنا حميد](٨)، عن ثابت، عن أنس، أنَّ رسول الله ﷺ عاد رَجُلًا من المسلمين قد(٩) صَارَ مثل الفَرْخ. فقال له رسول الله ﷺ: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ**(١٠) **أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟**» قال: نعم، كنت أقول: اللَّهُمَّ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعَجِّله لي في الدُّنيا. فقال رسول الله ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ! لا تُطِيقُهُ -أَوْ لا تَسْتَطِيعُهُ- فَهَلَّا قُلْتَ:**

---

(١) أي: المواقف والأحوال.
(٢) البخاري (٤٥٢٢) (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠)، وأبو داود (١٥١٩).
(٣) زيادة من «المسند»، وبعض النسخ.
(٤) صحيح: رواه الإمام أحمد (٣/ ١٠١).
(٥) زيادة من «المسند»، وبعض النسخ.
(٦) شَقَّقَه: مبالغة شقه، والكلام: وسعه وبينه وولد بعضه من بعض.
(٧) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٩/ ١٨٨٦).
(٨) زيادة من «المسند».
(٩) لوحة (٢١٥ ب).
(١٠) في (ح): هل كنت تدعو الله بشيء، وما في «المسند» موافق لـ(ز).

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾». قال: فدعا الله، فشفاه[١].

انفرد بإخراجه مسلم، فرَوَاهُ مِن حديث ابن أبي عَدِي به.

وقال الإمامُ الشَّافِعِيُّ: أخبرنا سعيد بن سالم القداح، عن ابن جريج، عن يحيىٰ بن عبيد -مولىٰ السائب- عن أبيه، عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النَّبيَّ ﷺ يقول فيما بين الرُّكن اليَمانِيِّ والركن الأسود: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. ورواه الثَّوْرِيُّ عن ابن جريج كذلك[٢].

وروىٰ ابن ماجة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ، نحو ذلك. وفي سنده ضعفٌ. والله أعلم[٣].

وقال ابن مَرْدوَيْه: حدَّثنا عبد الباقي، أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدَّثنا سعيد بن سليمان، عن إبراهيم بن سليمان، عن عبد الله بن هرمز، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مَرَرْتُ عَلَىٰ الرُّكْنِ إِلَّا رَأَيْتُ عَلَيْهِ مَلَكًا يَقُولُ: آمِينَ. فَإِذَا مَرَرْتُمْ عَلَيْهِ فَقُولُوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[٤]».

وقال الحاكم في «مستدركه»: أخبرنا أبو زكريا العنبري، حدَّثنا محمَّد بن عبد السلام، حدَّثنا إسحاق ابن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن مُسْلم[٥] البطين، عن سعيد بن جبير قال: جاء رَجُل إلىٰ ابن عبَّاس فقال: إِنِّي أَجَّرْتُ نفسِي مِن قوم علىٰ أن يَحْمِلُوني، ووضعت لهم مِن أُجْرَتِي علىٰ أن يَدعُوني أَحُجُّ معهم، أَفَيُجْزِي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله فيهم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه[٦].

---

(١) مسلم (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٤٨٧)، وأحمد (٣/ ١٠٧).

(٢) صحيح: رواه الشافعي في «المسند» (١/ ٣٤٧)، وأبو داود (١٨٩٢)، وعبد الرزاق (٨٩٦٣)، وفيه تصريح ابن جريج بالسماع.

(٣) رواه ابن ماجة (٢٩٥٧)، وفي إسناده حميد بن أبي سويد قال عنه ابن عدي: منكر الحديث، لكن يكفي لصحة الحديث ما تقدم من حديث عبد الله بن السائب، ومراد ابن كثير بقوله: في سنده ضعف؛ أي: من رواية أبي هريرة.

(٤) ضعيف: عزاه في «الدر المنثور» (١/ ٥٥٩) إلى ابن مردويه، وإسناده ضعيف، فيه عبد الله بن هرمز، قال الحافظ: ضعيف، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند ابن ماجة (٢٩٥٧)، لكنه ضعيف جدًّا لا يقوى به.

(٥) في (ز): سالم البطين، وما أثبتناه من (ح)، وهو الصواب.

(٦) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٢٧٧)، وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

الفهرس

❁ **مقدمة قسم التحقيق** ٥

(١) ترجمة الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ والتعريف به ٩

(٢) التعريف بـ«تفسير القرآن العظيم» ومنهج ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه ١٤

(٣) المكانة العلمية للكتاب عند أهل العلم وعنايتهم به ٢٠

(٤) موقف الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الإسرائيليات ٢٤

(٥) صفاء عقيدته والرد علىٰ مَن رماه بالتأويل ٢٦

(٦) مذهبه الفقهي واتباعه للدليل ٣٠

(٧) شمولية تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٣٢

(٨) التعليق علىٰ جهود السابقين ومناهجهم في تحقيق الكتاب ٣٦

(٩) منهجنا وعملنا في تحقيق الكتاب وخدمته ٤٧

(١٠) مبحث في التعريف بأهم مصطلحات علوم القرآن ٥٨

(١١) تراجم موجزة لأعلام المفسرين من الصحابة والتابعين والأئمة ٦٣

- المفسرون في الصحابة ٦٤
- المفسرون في طبقة التابعين وأتباعهم ٧٠
- من اشتهر بالأخذ عن أهل الكتاب ٨٧
- المفسرون من الأئمة ٨٩
- المفسرون بعد عصر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٩٨

📖 **مقدمة تحقيق الأحاديث والآثار** ١٠٥

📖 **عملنا في القراءات** ١٠٧

📖 **وصف نسخ الكتاب المخطوطة** ١٠٨

❁ **مقدمة ابن كثير** ١٢٣

❁ **كتاب فضائل القرآن** ١٣٣

- جمع القرآن ١٤٢
- كتابة عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للمصاحف ١٤٦

• ذكر كُتَّاب النبي ﷺ ١٥٤
• أُنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف ١٥٥
• تأليف القرآن ١٦٨
• باب: كان جبريل يعرض القرآن علىٰ النبي ﷺ ١٧٢
• القُرَّاء من أصحاب النبي ﷺ ١٧٣
• نزول السكينة والملائكة عند القراءة ١٧٦
• من قال: لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين ١٧٩
• فضل القرآن علىٰ سائر الكلام ١٨٠
• الوصاة بكتاب الله ١٨١
• باب من لم يتغن بالقرآن ١٨١
• ذكر أحكام التلاوة بالأصوات ١٨٣
• باب: اغتباط صاحب القرآن ١٨٨
• باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه ١٩٠
• القراءة عن ظهر قلب ١٩٢
• باب: استذكار القرآن وتعاهده ١٩٤
• القراءة علىٰ الدابة ١٩٨
• تعليم الصبيان القرآن ١٩٨
• نسيان القرآن، وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا ١٩٩
• من لم ير بأسًا أن يقول: سورة البقرة ٢٠٠
• باب: الترتيل في القراءة ٢٠١
• مد القراءة ٢٠٢
• الترجيع ٢٠٣
• حسن الصوت بالقراءة ٢٠٣
• باب: من أحب أن يسمع القرآن من غيره ٢٠٤
• باب: قول المقرئ للقارئ: حسبُك ٢٠٤

- باب: في كم يقرأ القرآن ٢٠٥
- باب: البكاء عند القراءة ٢١٠
- من راءىٰ بقراءة القرآن أو تأكّل به أو فخر به ٢١٠
- اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ٢١٢
- كتاب: الجامع لأحاديث شتىٰ تتعلق بتلاوة القرآن وفضائله وفضل أهله ٢١٤
- باب: ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن وطرد النسيان ٢١٩

❁ مقدمة مفيدة [تُذكَر في أول التفسير قبل الفاتحة] ٢٢٦

❁ تفسير سورة الفاتحة ٢٢٩

- ذكر ما ورد في فضل الفاتحة ٢٣٤
- الكلام علىٰ تفسير الاستعاذة ٢٤١
- فصل في فضل (البسملة) ٢٥٢
- ذكر أقوال السلف في الحمد ٢٦٥

❁ تفسير سورة البقرة ٢٩١

- ذكر ما ورد في فضلها ٢٩١
- ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران ٢٩٥
- ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال ٢٩٨
- كلام المفسرين في الحروف المقطعة ٣٠٤
- تنبيه ينبغي الوقوف عليه في قوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ ٣٥٩
- بسط قصة البقرة والأمر بذبحها ٤٥٨
- ذكر السبب في عداوة اليهود لجبريل عليه السلام ٥٠٢
- ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام ٦١١
- فصل في حكم لعن الكافر المُعَين ٦٥٤

❁ الفهرس ٧٥٨